# فيض الخاطر

وهو

مجموع مقالات أدبية واجتماعية

كتبه

أحمد أمين

## الجزء الثالث

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٢

# فهرس الكتاب

# موسم الرجاء

حدثنى صديق قال :

« كانت الساعة السابعة صباحاً بالتوقيت الجديد ، أى ما يساوى السادسة بالتوقيت القديم .

وانتبهت من نومى فإذا الجرس يدق ، فظننته اللبان قد تقدم موعده ، أو بائع الخبز قد أعجله أمر .

ولكن الخادم قد جاء يخبرنى أن زائراً بالباب لم يشأ أن يذكر اسمه .

ليتفضل .

فلا بد أن يكون قريباً أتى بأمر مفاجئ أو بنبأ خطير . وجال فى ذهنى كل الاحتمالات لهذا الضيف — لعل فلاناً قريبنا المريض قد مات . لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ولكن بالأمس كانوا يقولون إن صحته تحسنت ، ومع ذلك فمن يدرى ؟ فالموت لا ضابط له ، قد يموت الصحيح ويصح السقيم ، وربما كان تحسنه صحوة الموت ، وإذا كان كذلك فماذا يصنع أهله وولده ؟ أمرى وأمرهم إلى الله.

ولكن لا . ربما كان الزائر فلاناً قريبنا الآخر ، وربما جاء يقص علىّ نزاعاً جديداً بينه وبين أسرته ، فما أكثر ما يتنازعون ، وما أكثر ما يتحاكمون ؛ ولكن لا بد أن ما دعاه إلى الحضور فى هذا الصباح المبكر معركة حامية ، أخشى أن تكون قد انتهت بالفراق ، أو بحادث فظيع . مسكينة هذه الأسرة ! الزوج طيب ، والزوجة طيبة ، ولكن الخطأ حدث فى المزج لا فى العناصر ، كالسكر الطيب يراد منه أن يذوب فى الليمون الطيب ، أو ككتاب الفقه أعطى لأديب ، أو ككتاب فى حساب المثلثات أعطى لفقيه .

وربما ، وربما . وجال فى ذهنى كل الفروض الممكنة لهذه الزيارة المبكرة ؛ وفتحت الباب ، فإذا الزائر ليس شيئاً من هذا كله ، وإذا هو إنسان لو ظللت طول النهار أحدس فيمن هو لم يقع حدسى عليه .

أهلا وسهلا .

بكُم .

لا مؤاخذة فربما أزعجتك .

لا إزعاج فقد اعتدت البكور .

إنما أردت أن أستوثق من وجودكم فى البيت قبل خروجكم ، وقد أعيتنى مقابلتكم أمس ، فقد حضرت فى الساعة التاسعة مساء والعاشرة والحادية عشرة ، فلم يكن لى شرف مقابلتكم .

أنا آسف على تعبكم .

إن شاء الله تكون صحة الأنجال جميعاً بخير .

الحمد لله .

أين صيفتم هذا العام ؟

فى رأس البر .

رأس البر جميلة ، ولى فيها ذكريات طيبة . وهى تفضل الإسكندرية بجفاف هوائها ورخص أسعارها .

نعم .

وإن شاء الله يكون ابنك فلان قد نجح هذا العام .

الحمد لله .

لقد درست له ، وكان شيطانا ، وكم حدثت له حوادث معى ... ولكنه ذكى جدا ، وأخلاقه قوية ؛ ولا عجب ، فالشىء من معدنه لا يستغرب .

أشكرك .

وبهذه المناسبة أهنئك على مقالك الأخير فى « مجلة ... » ، فقد كان مقالا ممتعاً حقا ، وقد سمعت الثناء عليه من كل من قابلته ، وأصدقك أنى حريص كل الحرص على تتبع كل ما تكتب وما تذيع ، وأشترى هذه المجلة فلا أقرأ فيها إلا مقالك ، وأحياناً أقرأ مقال « فلان » أيضاً .

أشكرك . . . تفضل القهوة .

أخشى أن أكون قد أقلقت راحتك وأضعت عليك زمنك ، ووقتك ثمين ، وأعمالك كثيرة ، وكل دقيقة من وقتك فيها نفع للناس .

أشكرك .

الأمر وما فيه أن لى مسألة بسيطة يكفى فيها كلمة منك لتتم على خير وجه . لقد مضى علىّ فى الدرجة عشر سنوات ، والآن قد خلت الدرجة التى فوقها ، وأنا أحق الناس بها لجدى فى عملى وشهادة رؤسائى بحسن كفايتى .

سأدرس المسألة — إن شاء الله — فمتى وجدت أحقيتك ساعدتك .

ثق كل الثقة بما أقول .

وأنت ثق كل الثقة بما أقول .

هل أعتبر المسألة منتهية ؟

منتهية عند الحد الذى ذكرت .

أنا متأكد من عطفك علىّ ومساعدتك لى ، وإن شاء الله تتم على يديك — السلام عليكم .

عليكم السلام — شرفتم !

وعدتُ أُقارن بين ما حدستُ وما وجدتُ ، فبسمت وعجبت !

وبعد أن انتهى التبسم والعجب دق جرس التليفون .

فلان ؟

نعم .

وأنا فلان .

أهلا وسهلا .

لى ولد نبيه جدا ، ولكن خانه الامتحان فتأخر فى الترتيب ، ولم يأخذ النصاب الذى يستحق به المجانية ، وأريده مجاناً .

وتليفون ثان وثالث ورابع وخامس ، حتى وضعت حدا للتليفون .

ثم ذهبت إلى محل عملى .

فهذا فلان يود أن يوظف ، وهذا يود أن ينتقل ، وهذا يود أن يتخطى ابنه القوانين الموضوعة فى السن أو المجانية أو فى نصاب الدرجات ؛ فأما العمل ، وكيف يرق ، وكيف يحسَّن فلم ينله من الزمن إلا قليل .

وعدت مصدوعاً واسترحت قليلا ، ونزلت لعمل آخر ، فإذا هو من جنس العمل الأول .

وزرت يوماً صديقاً فإذا حاله أسوأ من حالى : غرفة تملأ وتفرغ ثم تملأ ثم تفرغ ، وكلهم فى المطالب متشابه .

***

هذا موسم الرجاء « فى المعارف » ، ولكل وزارة وكل مصلحة موسم ؛ فوزارة العدل لها موسم كهذا فى كل حركة قضائية ، ووزارة الأشغال فى معرض الأعمال وهكذا .

رحماك اللهم ، أين نجد مع هذا كله أنفسنا ؟ وأين يجد الموظفون أنفسهم ؟ وأين يجدون أوقاتهم لأعمالهم ؟ .

ما معنى هذا كله ؟ .

معناه أن الناس يفهمون أن ليس فى البلد قانون محترم ، ولا قواعد مرعية ، ولا عدل ، ولا حق ، ولا جد فى تنفيذ عمل ، ولا همة فى تسيير الأمور ، وأن العصا السحرية التى تفعل كل ذلك هى الرجاء والرجاء وحده ؛ فهو الذى يستطيع أن يعطى من لا يستحق ، ويحرم المستحق ، وهو الذى يؤخر من حقه التقديم ، ويقدم من حقه التأخير ، وهو الذى ينهى العمل فى لحظة ، وبغيره ينام سنين .

معناه ضياع زمن المرجوّ فى مقابلات وزيارات وتحيات ، وضياع زمن الراجى فى « اللف » على أصحاب الأعمال ومن بيدهم زمام الأمور ، وإهمال ما عهد إليه من عمل .

معناه أن مقاييس العدالة والحق مقاييس ضائعة ، ومقاييس الخلق لا قيمة لها ، وأن المقاييس الصحيحة النفاذة هى مقاييس الجاه والرجاء والنفوذ والسلطان ؛ فهى التى تجعل غير الكفء كفؤاً ، وغير الصالح صالحاً ؛ ونتيجة هذا — لا محالة — إهمال الكفء وحرمان الصالح .

شىء من شيئين : إما أن يكون هذا صحيحاً فالراجون معذورون ، واللوم كله يقع على من بيدهم الأمور ، فقد أضاعوا المقاييس الصحيحة ، وأحلوا محلها المقاييس الزائفة ، وأهملوا العدل والحق ، وأحلوا محلهما الجاه والرجاء ، فعرف الناس الطريق الذى يؤدى للغرض فسلكوه ، والمقدمات التى توصل للنتيجة فاتبعوها ، ولا لوم عليهم فى ذلك ، فمن السخف أن تكافهم السير فى طريق غير مؤد إلى غرض .

وفى هذه الحالة كان يجب مصارحة الناس بالحقائق ، وتسمية الأشياء بأسمائها ، وعدم الخداع بوضع قوانين ولوائح وتعليمات وقيود وشروط ، والجهر بأن ليس سبيل للتنفيذ إلا سبيل الرجاء .

وإما ألا يكون الأمر كذلك ، وأنه يجرى حسب العدل والحق ، فيجب

أن يفهم الناس ذلك بالقول والعمل ، وألا يسمع منهم رجاء ، إلا شكوى من عدم تحقيق العدل وتنفيذ الحق .

لقد عرفنا من الناس المهارة فى هذا الباب ، والحس الدقيق فى شؤونه ؛ فهم يكثرون الرجاء حيث تسمع الآذان رجاءهم ،وحيث تتأثر بتوسلاتهم ، ويقلونه حيث تُصم الآذان وتغلق الأبواب وتجهم الوجوه عند طلبهم ما ليس بحق ومالا ينطبق على قانون أو عدل .

أؤكد أن أكثر من نصف أوقات رؤساء المصالح وسائر الموظفين ضائع فى مثل هذه التوافه من الأمور ، ولو سد هذا الباب لاستفدنا فائدة مزدوجة : تفرغ الموظف لعمله الأساسى حتى يجيده ويتقنه ، وشعور الناس والموظفين باحترام العدالة ، وأن الرجاء لا يقدم المسألة ولا يؤخرها ، واطمئنان ذى الجاه وعديم الجاه إلا أن حقه واصل إليه لا محالة .

وذلك لا يكون إلا بدروس قاسية من الموظفين ، يحترمون فيها العدل مهما كانت نتائجه ، ويلبون فيها صوت الضمير مهما أغضب ، ويشمئزون ممن يحاول أن يميلهم عن الحق مهما كان ذا جاه وسلطان .

لا شك أن العدل مر ، والحق صبر ، ولكنه أحلى عند الرجل النبيل من القول المعسول والتصرف المزيف .

إن ذيوع الترجي فى الأمة علامة الخراب فى أخلاقها ، فالرجاء يُشيع فى الراجي ذل السؤال ، ويُشيع فى المرجو صلف المتصدق ، وكبرياء المحسن لغير وجه الله ؛ وهو يبث فى الراجي والمرجو معاً الاستهزاء بالعدل والسخرية بالحق ، ويقلب المسألة من حق وواجب إلى علاقة شخصية ، هى علاقة المستجدَى منه ، أو علاقة المدل بجاهه على من لا جاه له ،

لا بد أن يفهم الناس أن كل رئيس مصلحة ، وكل من بيده أمر من أمور

الناس قاض ، له حرمة القضاء ، وله الحق أن يطلب من الناس أن يؤمنوا بنزاهته ؛ فكما لا يصح أن يرجى القاضى فى قضية معروضة عليه ، لا يصح أن يرجى أولو الأمر فيما بين أيديهم من أعمال .

وواجب أن نوجه الطلبين فى وقت واحد ، فنطلب من أصحاب الحاجات أن يكفوا عن رجائهم ونطلب من الموظف أن يعمل ما يفهم الناس أن الرجاء لايجدى وأن الحق بطبيعته نافذ والعدل محترم ، والعمل سائر إلى نهايته .

كان الناس ولا يزالون يعدون من المثل العليا للرجل الطيب أن يمضى أكثر أوقاته فى قضاء الحاجات ، فهو يتلق فى صباحه ومسائه الوافدين والمترددين ، هذا يطلب وظيفة ، وهذا يطلب نقله إلى مصر ، وهذا يطلب إلحاق ابنه بمدرسة الخ ، ثم يستقل عربته ويدور على المصالح ، وينتقل من وزارة العدل إلى وزارة المعارف إلى وزارة الأشغال وهلم جرًّا ، فإذا جاء إلى بيته استراح قليلا ، ثم استقبل فى بيته فى المساء من قابلوه فى الصباح ليخبرهم بنتيجة مساعيه ، وليستقبل غيرهم بمساعيهم الجديدة ؛ وكانوا يسمون مثل هذا « كعبة القصاد » و « محط الآمال » إلى غير ذلك من أوصاف .

وكان الناس يقيسون النائب فى البرلمان بمقدار قضائه هذه الأعمال ، فمن كان أكثر تقبلا للرجاء ، وأكثر مسعى فى تحقيقه ، وأعظم جاهاً عند من يرجوهم ، فهو خير نائب وإلا فلا .

ولكن الأمة إذا رقيت ينبغى أن تغير وجهة نظرها فى هذا وذاك ، يجب ألا تعد رجلا طيباً من يقبل كل رجاء ، ويعين على كل مطلب ؛ إنما هو رجل طيب إذا اقتصر فى قبول الرجاء على أحد أمرين : إما رجاء فى ماله الخاص ، وإما رجاء قد بنى على درس ، وتحقق من مظلمة يرى من الواجب رفعها وإحلال العدل محلها ؛ وأما غير هذين فتخريب للقانون ، وإهدار للأخلاق ، وتحطيم

للعدالة . ومما يؤسف له أن أكثر الرجاء من هذا النوع الأخير ! حتى لقد يبلغ ببعضهم أن يرجو فى إنجاح ساقط فى الامتحان ، أو عفو عن مجرم ، أو تعيين آخر شخص فى الامتحان وترك الأول ، أو إعطاء صدقة لغنى وتفضيله على فقير ، أو نحو ذلك من ضروب الإجرام ؛ وليس هذا يصح أن يسمى « كعبة القصاد » ، ولكنه « عون المجرمين » .

والمثل الأعلى للنائب ليس الذى يحقق مطالب الناخبين مهما ساءت ، ويسعى على أبواب المصالح للرجاء فى كل ما هب ودب ؛ إنما هو من خصص أكبر مجهوده لدراسة المصالح العامة للأمة ، والمصالح العامة لدائرته ، فإن بقى فى زمنه فضل أو فى مجهوده بقيـة ، فالرجاء فى رفع الظلم عمن ظُلم ، والإعانة على إيصال العدل لمن لم يصل إليه العدل .

بودى لو بطل الرجاء كله واقتصر الأمر على مطالبة الناس بحقوقهم ؛ ولو كان الأمر بيدى لأمرت أن يوضع على باب حجرة كل موظف لوحة كتب فيها « ممنوع الرجاء » كتلك التى يكتب فيها « ممنوع البصق » لو تنفع اللوحات ! .

# نداء الباعة

امتازت مصر — فيما امتازت به — بنداء الباعة ، فقد زرت مدناً شرقية ومدناً غربية ، فلم أرها تحفل بالنداء على المبيع كما حفلت القاهرة ، إذ جعلته فنا، وأدخلت فيه من أنواع المحسنات مالم يتهيأ لغيرها .

من ذلك أنها أدخلت فيه فن البلاغة ، فملأته بالاستعارات والكنايات والتشبيهات ، حتى أصبحت هذه فى كثير من الأحوال تحل محل الاسم الحقيق للأشياء ؛ فمثلا « بيض اليمام » هو العنب ، و « قلل الشربات » هى الكمثرى ، و « بير العسل » زنبيل البلح ، والبصل كالرمان ، والفجل كاللوبيا ، وكيزان العسل نوع من التين ، وهكذا .

وأحياناً يذكرون منافعه ويغنيهم هذا عن ذكر اسمه . «فالنافع الله» كناية عن الحلبة المنبتة ، و « الشفا من الله » للموز ، إلى آخره .

وأحياناً ينسبونه إلى ولى من أولياء الله ، كترمس الانبابى ، وحمص السيد، وخس المليجي و « مال الغريب » وهو ولى بالسويس يطلقونه على جوز الهند إلخ

وأحياناً ينسبونه إلى البلد الذى يجود فيه كالملوخية الحبشى ، والقلل القناوى ، والحرير المحلاوى .

وهكذا جعلوا النداء فنا ، فى حين أن ما رأيت فى البلاد الأخرى يكتفى باعتها بذكر اسم الشىء مجرداً أو مقروناً بوصف يدل على الجودة ؛ فأما كثرة التشبيهات والكنايات على النحو الذى أشرت إليه فلم أجدها لغيرها .

ثم هم يدخلون فى النداء فنا آخر ، هو فن الموسيقى والغناء ، فهم يوقعون النداء توقيعاً فنيا ؛ ومن رزق الصوت الحسن منهم غنّى على ما يبيع فأطرب ،

وتفنن فأجاد ؛ وكم فى شوارع القاهرة — ولا سيما فى الأحياء الوطنية — من باعة يصففون سلعهم ، ويجوّدون عرضها ، ثم يتأنقون فى النـداء عليها ، ويتفننون فى الغناء لها ، حتى كأنك تسمع مغنيا بارعاً وفناناً مجيداً ، وهذا بائع العرقسوس كثيراً ما يستعمل الطاسات التى يمسكها ، فيوقع عليها توقيعاً موسيقيا جميلا فى مهارة و إتقان .

ولا أنسى جماعة كانوا يشتركون فى بيع «حب العزيز» فى حارتنا ، فكانوا يخترعون الأغنيات الكثيرة له ، ويحمل أحدهم مزماراً والآخر دفًّا ، ويوقعون الغناء مصحوباً بالمزمار والدف ، فيؤلفون بذلك جوقة موسيقية ، أو « تختاً » غنائيا بديعاً ، فإذا بدءوا هرع إليهم أطفال الحارة وحلقوا بهم ، وأصغوا إلى موسيقاهم وغنائهم ، وحملهم الإعجاب بهم على الشراء منهم .

والمصريون مولعون جدا بالغناء ، تغنوا بالنداء على المبيع كما تغنوا بالقرآن وبالأذان ، وفى الأفراح والمآتم ، وفى حفلات الزار . وفى مجتمع الذِّكْر .

ومن عجيب الأمر أن هذه الطوابع للأشياء تقليدية متوارثة ، وكذا توقيعها الموسيقى ، يتلقنها جيل عن جيل ، رواها المحدَثون عن الأقدمين ؛ فأما المنتجات الحديثة فلا طابع لها ، بل يذكر اسمها مجرداً ، كالمانجو فتذكر مجردة أو مع اسم صنفها أو مضافة إلى مستنبتها من غير تشبيه ولا كناية ولا موسيقى ، وكالمثلجات وما إلى ذلك من أشياء حديثة ، فليس لها طابع قديم ، كقلل الشربات ، وكيزان العسل ، كأن الأقدمين كانوا أكثر فنا ، وأقدر على الإبداع فى التسمية ، ولو كان للقدماء صحف كالأهرام والمقطم و البلاغ لصاغوا لها قوالب فى النداء عليها ، ووضعوا لها توقيعاً يتناسب وقوالبها .

***

لقد رأيت كثيرا من المدن الأخرى شرقية وغربية تنادى على الأشياء نداء خالياً من الفن البلاغى والفن الموسيقى ، فينادون على الزهر باسم الزهر ، والفحم باسم الفحم ، والملح باسم الملح ، فإن زادوا شيئاً فوصف بسيط ، كأن يقولوا تفاح جميل أو خوخ جيد من غير نغم موسيقى ؛ فما تعليل هـذه الظاهرة فى مصر ، وخاصة القاهرة ؟ .

الواقع أنها ظاهرة بسيطة ولـكن تعليلها معقد محير .

هل سببه توالى البؤس على مصر عصوراً طويلة جعلت الطبيعة له متنفساً بكثرة الغناء ، وكثرة الموسيقى ؟ ولذلك كانت الطبقة البائسة فى الأمة أكثر الناس ميلا للموسيقى والغناء ، يغنون وهم يصنعون ، ويغنون وهم يسيرون ، ويتنادرون وهم يسمرون ، بأكثر من الطبقة الوسطى والراقية .

قد يكون هذا تعليلا يقال ، ولـكنه لا يثبت على الامتحان ؛ فهل مصر أبأس من غيرها من بلاد الشرق ؟ وهل القاهرة أبأس من غيرها من القرى ؟ .

وقد تكون العلة مزيجاً من أشياء مجتمعة ، منها ميل المصريين إلى المبالغة والاحتفال ؛ فمبالغتهم فى وصف الأشياء عند البيع واحتفالهم بهذا يشبه مبالغتهم واحتفالهم فى الاستقبال والوداع والمآتم والأفراح والولائم وتحية الزائر وما إلى ذلك؛ فهذه كلها لا تؤدّى فى بساطة وسهولة ويسر ، بل فى تعقيد وتركيب ومبالغة ؛ فكان من هذا الباب ميلهم إلى المبالغة فى وصف السلع ، هذا مع ميلهم إلى المرح وطرق الإغراء ولفت النظر ، فدعاهم هذا كله إلى الغناء فى النداء وإلى الموسيقى .

وفن ثالث يضاف إلى فن البلاغة وفن الغناء والموسيقى فى البيع والشراء وهو فن العرض ، فترى بائع العرقسوس قد وضع فى قِدْره لوحا طويلا من الثلج ليبرهن لك على برودته ، وبائع اللب قد وضعه على شكل مخروط أو هرم ، وبائع الترمس قد زينه بالورد والأزهار ، والفاكهى صفف فاكهته فى شكل يستحث

على الشراء وهكذا ، وهو فن كفن الغناء والموسيقى . يدعو إلى لفت النظر ، ويغرى بالشراء .

***

ولكن إن كانوا يحمدون على إدخالهم هذه الفنون الجميلة فى البيع ، فمن العدل أن يؤاخذوا على إدخال فنون غير جميلة فيه أيضاً .

فمن ذلك كثرة النداء كثرة مزعجة ، فالموسيقى إنما تعجب وتطرب بقدر ، فإذا زادت عن حدها انقلبت من مطربة إلى مصدّعة ، وهكذا كان الشأن فى النداء ، فقد زاد حتى صدّع ، فمن طلوع الشمس إلى منتصف الليل والنداء لا ينقطع ، ولا أعلم بلداً من بلاد الله كثر فيها الباعة المتجولون كثرتهم فى القاهرة ، ولا أعلم أشد منهم جلبة ومقدرة على الإزعاج ، وكلما حاولت الحكومات ضبطهم وتنظيمهم فشلت وأعلنت عجزها ، والبطالة عندنا اتخذت من مظاهرها بيع التجول ، وما أكثر العاطلين فما أكثر المتجولين . إنّ فتح الدكان يتطلب تأثيثاً وأجرة وإضاءة وما إلى ذلك ، فأما التجول فلا يكلف شيئاً إلا حمل السلع والسير بها ، ويكفى أن يكون مع الرجل خمسة قروش أو أقل أو أكثر ليشترى بها كيزان ذرة أو قليلا من اللب أو حزماً من الفجل ، ليقطع بها الشوارع رافعاً صوته مكرراً نداءه مغنياً مزعجاً مالئاً الدنيا صياحاً .

وهم يلاحقون الناس حيث كانوا : فى البيوت ، فى المقاهى ؛ فى السينما ، حتى لتجلس فى مقهى فلا تمر لحظة حتى يمر عليك الباعة يتجولون فى الداخل والخارج : أمواس حلاقة ، ومانجو ، وفوط و بشاكير ، وخيار مخلل ، وكل ماخطر على بالك وكل ما لم يخطر ، فكأنك فى معرض معكوس ، يمر عليك كل شىء بدل أن تمر على كل شىء ؛ فإن أنت طلبت الهدوء والحديث الحلو والسمر الممتع فمحال أن يكون ذلك من غير أن تنقطع كل كلمة من الحديث بنداء بائع .

فإذا أوقعك سوء الحظ بنظرة تدل على رغبتك ، أو باظهار ميلك إلى الشراء ، فقد دخلت فى قضية طويلة ، فيها مرافعة من الجانبين ، وفيها إقامة الحجج والبراهين على الغلاء والرخص ، وفيها الأيمان وفيها المماكسة والممارسة ، وأخيراً فيها عرض الصلح أو رفض الدعوى .

وأظنك تسلم معى أن هذه كلها ليست فنوناً جميلة .

ومنشأ هذه الفنون غير الجميلة شدة فقر البائع وشدة حرص المشترى على أن يشترى الشىء بأبخس ثمن ، ففقر البائع حمله على التجول فى الشارع لا استئجار دكان ، ورضاه بأتفه ربح ، والإلحاح فى العرض ، وبذل الخلق فى سبيل قرش يقتات به ، وتحمل مشاق السير الطويل الشاق ، والعرض المضنى ، والتحايل والمكر والخداع ، وما إلى ذلك ، وقاتل الله الفقر .

وحرص المشترى حمله على الإعراض عن الدكان إلى بائع متجول يستغل فقره وعوزه ، فيمارسه ويماكسه حتى يبيعه بالقليل التافه من الربح ، أو يشتط فى الإلحاح عليه حتى يضطره إلى البيع من غير ربح ، وقاتل الله الحرص .

ومن مواضع النقد فن العرض الذى ذكرت ، فهو فن بدائى ، من جنس عرض الماشية فى بعض القرى وفى بعض أحياء القاهرة قبل أن تذبح ، وعرض العريس قبل أن يزف ، فكان أولى فى العرض من لوح الثلج فى قدر العرقسوس ، وشكل الهرم فى بيع اللب ، ووضع الأزهار على الترمس ، أن يكون أساس العرض الترغيب بالنظافة ، فهى أهم شرط من شروط العرض الجيد ، فلأن يعرض الشىء بسيطاً فى نظافة خير ألف مرة من أن يعرض عرضاً مركباً قذراً ، وهـذا هو ما ينقص العرض المصرى ؛ فإذا روعى أنه بلد يكثر فيه الغبار والذباب ، كان هذا العرض القذر من أسوإ الأخطار ، ولم تتنبه مصلحة الصحة إلى هذا إلا أخيراً ، وهى اليوم فى بدء برنامج طويل عسير .

ويضاف إلى شرط النظافة شرط الجمال ، والجمال فى العرض خاضع لسنة النشوء والارتقاء ككل شىء ، فكما تعرض المرأة فى الأمة الساذجة جمالها بكثرة حليها ، والمبالغة فى أصباغها ، واختيار أزهى الألوان فى ملابسها ؛ ثم يرتقى ذوقها وذوق الناس إلى التجمل بالحلى البسيطة ، واختيار الألوان الباهتة ، فكذلك الشأن فى جمال العرض ، يبدأ ساذجاً بالترغيب بكبر الكمية ورخص السعر وبالصوت القوى ونحو ذلك ، وينتهى بحسن العرض فى وجه الدكاكين ، وبالذوق الجميل فى الترغيب بالجودة والجمال والإتقان ؛ والفرق بين العرضين كالفرق بين سائل يستثير رحمتك بثيابه المهلهلة وجسمه المشوه ، ومبالغته فى عرض العجز والعوز ، وسائل آخر يعرض فقره بتوقيع قطعة موسيقية ، أو رسم صور كاريكاتورية أو ألعاب بهلوانية ؛ فالأول يسترحم بفن القبح ، والآخر يسترحم بفن الجمال .

وأخيراً كل شىء عندنا يحتاج إلى مجهود جبار فى إصلاحه ، حتى نداء الباعة ، وعرض البضاعة .

# صور قضائية

أستسمح « القاضى الفاضل » الذى يكتب فى « الثقافة » تحت هذا العنوان أن أختلس عنوانه مرة ، ولكنى أسارع فأطمئنه ، فلست أريد أن أعتدى على اختصاصه ، وإنما سأتكلم فى قضايا من غير جنس قضاياه ، ومحاكم غير محاكمه ، وقضاة غير قضاته .

وحسبى فخراً أن محاكمى أكثر من محاكمه ، فهى بعدد رءوس البشر فى هذا العالم ، وهى فى مصر وحدها نحو سبعة عشر مليوناً ، على حين أن محاكمه لا تتجاوز المائتين ، ومحاكمى تحررت من قيود المكان والزمان ، فهى تعقد فى كل مكان وكل زمان ؛ وتحررت من قيود القضاة ، ومتاعب « الكادر » ، وشروط تعيينهم وانتقالهم وإحالتهم على المعاش ونحو ذلك ؛ فقضاة محاكمى لا يعرفون شيئاً من ذلك كله ، بل ويهزءون بذلك كله ؛ ومحاكمى تثيب المحسن وتعاقب المسيء ؛ أما محاكمه فلا تثيب محسناً ولكن تعاقب مسيئاً ؛ ومحاكمى تعمل فى هدوء وفى صمت ، ومحاكمه تعمل فى ضوضاء وجلبة ؛ ومحاكمى لا تعترف بشرطة ولا بحجّاب ، ولا بأوسمة ولا بمظاهر ، بينما محاكمه أثقلت بكل ذلك ، إلى آخر ما هنالك .

تسألنى بعد ذلك : ما محاكمك ؟ فأقول إنها « محاكم النفس » ، ففى باطن كل إنسان محكمة فيها قضايا لا عداد لها ، وفيها قضايا مألوفة وقضايا غير مألوفة ، وفيها مرافعة يتبارى فيها الخصوم ، وفيها أحكام . وكما أن صاحبنا القاضى الفاضل يعنى بتدوين القضايا الطريفة التى تلفت النظر وتستخرج العبر ، فلدينا فى محاكمنا

أشكال وأشكال من هذه الطرائف ؛ فلنعرض أولا لوصف المحكمة ، ولعلنا بعدُ نعرض لطرائف القضايا .

ماذا يحدث فى ساحة هذه المحكمة ؟ .

يظهر فى أفق النفس شأن من شؤون الحياة ، من مأكل أو ملبس ، أو مال أو جاه ، أو تحصيل لذة من اللذائذ ، فتتحرك الشهوة أو الرغبة ، أو ما شئت فسمها ؛ وتبدأ تترافع طالبة تحقيق هذا العمل وحصوله ، وهذا بدء المرافعة ، وصوتها له دوىّ وقوة ؛ وإذ كانت هى المعبرة عن الجسم ولسانه ، فإن البدن ينفعل لها ويشرئب ويتلمظ ، وتظهر عليه أعراض تختلف قوة وضعفاً ، فيجرى ريقه إذا كان المطلوب مأكلا ، ويجرى الدم فى عروقه ، ويتحفز للوثوب كما يتحفز القط لقطعة لحم يراها ، أو لفأر يشم رائحته ؛ وعلى كل حال فالجسم ينفعل ويتخذ أوضاعا مختلفة ، ومظاهر مختلفة باختلاف المشتهَى ، وفى كل ذلك يوكل الجسم الشهوة فى المرافعة عن مطلبه والإلحاح فى تحقيقه والمطالبة بتنفيذه .

وكثيراً ما تتحرك الروح فتمانع ، وتنيب عنها «محاميا» اسمه فى عرف محاكمنا «الضمير» ، فيتكلم ويتكلم ، ويفند حجج الشهوة ، ويعارض فى تنفيذ المطالب ، ويتكلم بلسان آخر ، وبوجهة نظر أخرى ؛ فبينا تبنى الشهوة مطالبها على أساس «إنى أرغب» و «إنى أحتاج» و «إنى أشتهى» ، إذ يتكلم الضمير على أساس ما ينبغى وما لا ينبغى ؛ وبينا لا تنظر الشهوة إلا إلى أفق ضيق هو حاجة الجسم فى حالته الحاضرة ، إذا بالضمير يوسع نظره إلى أبعد من ذلك ، فيرى الحاضر والمستقبل ، والعواقب القريبة والبعيدة ، ونتائج العمل لجسمه وغير جسمه ؛ ويشتد النزاع ، ويستحرّ القتال ، وقد يطول وقد يقصر ، ولكن مما لا شك فيه أن كلا المتنازعين مخلص فى تعبيره ، هذا يعبر أصدق تعبير عن مطالب روحه ، وذاك عن مطالب جسمه ، من غير مواربة ولا تحايل ولا مماراة ؛ وهذان المترافعان

يختلفان قوة وضعفاً عند الأفراد ؛ فهذا وكيله الجسمى قوىّ كل القوة ، بليغ كل البلاغة ، يغطى بدوىّ صوته على صوت الضمير حتى لا يُسمع ، شأنه فى ذلك شأن الحيوان الأعجم ؛ وهذا وكيله الروحى بلغ الغاية فى القوة حتى ضعف أمامه « المحامى » الجسمى كل الضعف ، وحتى بلغ من قوته أن صاحبه يزعم أنه يسمع صوته كما زَعم سقراط قديماً وچان دارك حديثاً .

***

ثم لا نلبث فى هذا النزاع أن نرى شيئاً دخل خصماً ثالثاً فى الدعوى ، وهو العقل ، وهو — من غير شك — أمهر الخصوم الثلاثة وأمكرها وأقدرها على الصلاح والفساد معاً . إن كانت الشهوة والضمير صادقين دائماً ، فالعقل ليس — دائماً — صادقاً ، فهو محام قابل للرشوة ، ترشوه الشهوة أحياناً فيخترع العلل والأسباب والبراهين يؤيد بها وجهة نظرها ، ويبلغ من المهارة حدًّا كبيراً حتى لا تتبين مواضع ضعفه ، ومن مهارته أنه استعمل علماً سماه «المنطق» يضلل به الناس فيزعم أنه مقياس التفكير الصحيح ، ووضع فيه شروطاً للقضايا وشروطاً للقياس وقال إننا إذا سرنا عليها أمنّا الخطأ ؛ ومن مهارته أنه عنى بأشكال القضايا أكثر مما عنى بالقضايا نفسها ، فاستطاع بذلك أن يبرهن برهاناً صحيحاً — فى الشكل — على الشىء ونقيضه ، فإذا استخدمته فى التدليل على أن هذا أسود أتى لك بما ينتج ذلك ، أو أبيض فكذلك ، وهو لهذا أفسد المجالس النيابية ، وأفسد المحاكم النفسية والمحاكم الخارجية ، وأظلم الحق وأضاع الزمن ، هو أطول الثلاثة لساناً ، وأقواها بياناً ، وأشدها إلحافاً ، وأقدرها طغياناً ، هو كوليده العلم ، يخدم الحق والباطل ، والسلم والحرب ، والموت والحياة ، إن استخدمته فى الرفاهية أتى لك بالعجب العجاب ، من راديو وتليفون وضوء وموسيقى وما شئت من ألوان النعيم ، وإن استخدمته فى الإفناء فما شئت من غواصات وطيارات ومدمرات وغازات .

على كل حال يدخل العقل فى القضية ، فقد يكون مرتشياً ، وقد يكون نزيهاً ، قد ترشوه الشهوة فينضم إليها ويترافع فى صفها على غير اعتقاد منه ، وقد يرشوه الضمير فينصره بحججه وقضاياه وأقيسته على غير اعتقاد منه أيضاً ، وقد ينزه فيخلص للحق ويقول فيه كلمته ، ويتخذ لذلك كله وسائله الخاصة من عرض المعاذير والاستشهاد بالنظائر وتهدئة الخواطر الثائرة أو إثارة الشؤون الهادئة .

* * *

ثم قد تتعقد القضايا وتشتبك المرافعة ، فنرى ضروباً من المترافعين المساعدين بجانب المترافعين الأصليين .

هذا هو « الخوف » يظهر وسط المرافعة بلونه الأسود المرعب يلوّح لهذا ولذاك ، يحمل فى يده لوحة كتب عليها بوضوح « الآلام المنتظرة من العمل » قد يخوف بها الجسم إذا استمر فى خضوعه لشهوته ، وقد يخوف بها الروح من إمعانها فى الجرى وراء مثلها الأعلى ، وله فى ذلك وسائل مختلفة ، ومستندات قوية ، يتخذ أسلحته من الرأى العام يحتقره ، ومن بيئته تزدريه ، ومن الفقر يلحق به ، ومن الموت يدركه ، ومن المرض يضنيه ، ومن العار يلحقه ، وهو ماهر فى كل ذلك ، يستعمل لكل موقف ما يناسبه من وسائل .

وهناك شبح آخر يقف بجانب الخوف غريب الأطوار حقا ، يلبس لباساً خاصا غير ما يلبسه الوكلاء ، يتخذ بعض أشكال الخوف وبعض أشكال الرجاء ، فيه مسحة من الملائكة ، ومسحة من الشياطين ؛ يبعث منظره الغريب اليأس من جانب ، والأمل من جانب ، واللذة من ناحية ، والألم من ناحية ، لا يشبه شيئاً من عالم الوقائع ولا عالم الحقيقة ؛ ذلك هو الخيال ، يلعب فى القضية ألعاباً سيمائية ، يرسم أحياناً صوراً جميلة جدا بها الشهوة ويشد أزرها ، ويرسم أحياناً صوراً مخيفة يسلمها للخوف الذى بجانبه يحذر بها من الإقدام على تحقيق الشهوة ، فيجعلها تنضمر أمام الضمير .

وهذا محام آخر أخذ موقفه بجانب الشهوة ، وتزيى بزى الفتاة اللعوب تبرجت وازَّينت ، اصطلح الناس على تسميتها العواطف ، اعتادت أن تتشكل أشكالاً مختلفة ، أحياناً تقف موقف حب فتلهب الرغبة وتحمسها ، وتطعن الضمير والعقل طعنات مميتة ، وأحياناً تقف موقف بطولة فتحيي الضمير وتلهبه وتمده بروح منها ، وهكذا دواليك ، تلعب فى المحكمة ألعاباً مدهشة قد تستفيد منها الشهوة ، وقد يستفيد منها الضمير ، وقد يستفيد منها العقل .

***

أمام كل هذه المناظر جلست على منصة القضاء « الإرادة » تصغى إلى هؤلاء جميعاً ، وتمعن فى النظر إلى هذه الصور جميعاً ، وتفهم كل المترافعين حسب لغاتهم ووسائل إغرائهم ، ويعرض لها ما يعرض للقضاة ؛ فتكون القضية مكيفة تكييفاً قانونيًا واضحاً ، فتصدر حكمها فى سهولة ويسر وسرعة ، وأحياناً تتعقد القضية وتتشعب ، وتقوى أدلة الخصوم وتتعادل ، فتؤجلها لتقديم المذكرات أحياناً وللنطق بالحكم أحياناً ، ثم تمعن النظر وتصدر الحكم ، وأحياناً لا تصدره أبداً ، ثم شأنها شأن القضاة تخطئ وتصيب ، ومنها نوع يكثر خطؤه ، ونوع يكثر صوابه ، وهناك قضايا جزئية ليس فيها استئناف ولا نقض ولا إبرام ، وهناك قضايا تستأنف ، وقضايا تنقض ثم تبرم ، وهكذا .

ألست معى — أيها القاضى الفاضل — أن محاكمنا أصل محاكمكم ، وأنكم قد قلدتمونا ، فأخطأتم التقليد أحياناً ، وأصبتم أحياناً ، ولا أظنك تستطيع أن تدعى أن محاكمنا هى التى قلدتكم ، فمحاكمنا قديمة قدم الإنسانية ، ومحاكمكم حادثة حدوث المدنية .

# سيرة الرسول فى كلمة

من نسل إسماعيل ، فى بيت عرف بالدين ، « وتقلُّبَك فى الساجدين » ، يلى آباؤه أمور مكة ، ويحجبون بيتها ، ويطعمون حجيجها ؛ ويبنى جده قُصَى « دار الندوة » ، فيجعل بابها إلى الكعبة ، ويجعل إليها أمور قريش كلها ، فلا يُقضَى زواج إلا بها ، ولا يعقد لواء حرب إلا فيها ، ولا ترحل رحلة إلا منها ؛ وهو سيد قومه يتبعون أمره ، ويعرفون فضله ، ويتيمنون برأيه ؛ وابتدع أشياء لقريش تحمسوا بها فى دينهم ، وتشددوا بها على أنفسهم ، فسموا من أجل ذلك « بالحُمْس » — وأورث بنيه مجده وشرفه ودينه وعصبيته للبيت وإشرافه على شؤون الحج — وجدّه هاشم صاحب إيلاف قريش — إيلافهم رحلة الشتاء والصيف — سن لهم رحلة اليمن والحبشة فى الصيف ، ورحلة الشام فى الشتاء ؛ ودعا قومه أن يجعلوا الحاج فى ضيافتهم ، يطعمونهم من مالهم ، ويسقونهم من مائهم ، ويقول : « إنهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه » .

ويرى الناظر فى وجوه أهل هذا البيت علائم الدين ، والسيادة عن طريق الدين ، هذا عراف اليمن يتفرس فى أنف عبد المطلب فيقول : « والله إنى أرى نبوة وأرى ملكا » ، وهذه قُتَيلة الخثعمية ترى فى جبهة عبد الله بن عبد المطلب غرة مثل غرة الفرس .

من هذا البيت ولد محمد بن عبد الله يرث الدين ، ويرث المجد والشرف عن طريق الدين ؛ ونشأ يتيما لا ترأمه أم ولا يحميه أب ؛ ونشأ فقيراً لم يترك له أبوه إلا خمسة أجمال وقطعة غنم ؛ فعرف طعم اليتم ، وعرف طعم الفقر ، وتولد فى نفسه الرحيمة العطف على الفقراء واليتامى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا

تنهر » . لقد « خدمه « أنَس » عشر سنين ، فما قال له أف ، ولا لِمَ صنعت ، ولا ألا صنعت » . ولقد قالت له خديجة عند بدء الوحى : « والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتكسبُ المعدوم ، وتَقْرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

ورعى الغنم — وهو غلام — مع أخيه من الرضاعة فى بنى سعد ، ثم رعاها فى مكة ، فعرف من رعايته الغنم كيف يرعى الأمم ؛ والنفوس المرهفة تتعلم من الأمر الصغير ، مالا يتعلمه أوساط الناس من الكبير .

وخرج إلى الشام مرتين ، مرة — وهو ناشئ — مع عمه أبى طالب ، ومرة وهو ابن خمس وعشرين فى تجارة ، فرأى الشام تحت حكم الرومانيين ، ورأى الحضارة كما رأى من قبلُ البداوة ، ورأى مالم يعجبه من الترف والنعيم ، وفساد الخلق ، وسقوط النفس ؛ واطلع على صفحة من المعاملات المالية سوداء ، فيها التهالك على المال ، وفيها الخداع والاستغلال ، وفيها أخلاق الناس كأخلاق السمك يأكل بعضه بعضاً ، وفيها يُعبد المال من دون الله ، فكره عبادة المال فى الحضارة ، وعبادة الوثن فى البداوة ، واجتمع له الوقوف على أخلاق هؤلاء وهؤلاء فما أعجبته هذه ولا أرضته تلك .

إنما كان يرضيه مواقف يُدْعى فيها للحق والعدل ، ويتحالف عندها على رفع الظلم ، كالذى حدث فى حِلْف الفضول ، إذ تداعت قبائل من قريش واجتمع ممثلوها فى دار عبد الله بن جُدْعَان ، وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغير أهلها ممن دخلها إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته .

لقد شهد محمد (ص) هذا الموقف ، وحضر هذا الاجتماع ، وكان فى نحو العشرين من عمره ، وأعجب به إذ وافق نفسه الطامحة إلى العدالة ، المتأهبة لخير

الإنسانية ، وظل يذكره بالخير قبل بعثته وبعد بعثته ويقول : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حِلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت » . ويرضيه أن يتعاون الناس على الخير ، ولا يثور بينهم الشر ، فلما اختلفت قبائل قريش فى وضع الركن فى بناء الكعبة ، وأرادت كل قبيلة أن تنال فخر وضعه ، واختصموا واستعدوا للقتال ، وتعاقدوا على الدم ، أشار محمد (ص) بمد ثوب وضع فيه الحجر ، وأخذت كل قبيلة منه بطرف ، ثم رفعه بيده ووضعه مكانه ، وحجز الشر بينهم ، وكان ذلك إرهاصا لما كان منه بعد من تأليف قلوبهم ، وتوحيد كلمتهم ، وهكذا هو فى تاريخه يرحب بالخير ويعين عليه ، ويكره الشر ويقف دونه .

ويتجلى فيه النبل والإخلاص فى كل مواقفه ، فاذا هوجم قومه من قريش فى حرب الفِجَار وقف بجانبهم يدافع عنهم ؛ ويتحدث عن ذلك بعدُ فيقول : « قد حضرت الفجار مع عمومتى ورميت فيه بِأسهُم وماأحب أنى لم أكن فعلت » . ويتزوج خديجة فيكون مثل الإنسان المخلص لزواجه ، المخلص لحبه ، المخلص لولده .

***

لقد بلغ الأربعين ، فالثمرة أشرفت على النضج ، والزهرة تهيأت للتفتح .

كل شىء حوله يدعو إلى الطمأنينة ، فهو محبب فى قومه ، سعيد فى أهله ، فى يُسْر فى ماله ؛ ولكن متى كان للنفوس العظيمة أن تقنع بأعراض الدنيا أو تركن إلى مظاهر الحياة ؟ .

لقد أصبح قلق النفس حائر اللب ، ما عليه الناس هو الباطل فأين الحق ، والبدو والحضر فى ضلال فأين الهدى ؟ واللات والعزى أوثان لا تنفع ولا تضر ، فأين من ينفع ويضر ؟ إلى غير ذلك من مشاعر نعجزِ عن وصفها .

إذ ذاك حببت إليه العزلة فكان يأنس بنفسه ، ويفر من بنى جنسه ، ويمكث فى ذلك الساعات أولاً ، ثم الأيام ، ثم الشهر ، وهو سابح فى تأمله ، غارق فى تفكيره ، تتكشف له الحقيقة رويداً رويداً ، حتى جاءه الوحى ، فلمعت نفسه وأضاء العالم حوله .

كان أول كلمة أوحيت إليه « اقرأ » ولكن ماذا يقرأ ؟ وكيف يكلَّف القراءة وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخط بيمين ؟ .

كلا إنه لم يكلف قراءة الحروف والكلمات ، فهى تقيد البصر وتحد الفكر ؛ إنما كلف قراءة أسمى من هذا وأرق ، إنها قراءة الكون دالاً على خالقه ، ووحدة العالم دالة على وحدة صانعه : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق » اقرأ « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سوّاها » اقرأ « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » ، اقرأ الله فى السماء ونجومها ، والأرض وجبالها ووهادها ، والطير فى الهواء ، والسمك فى الماء . اقرأه فى اختلاف الليل والنهار ، واختلاف الألسنة والألوان . اقرأه فى نبضات القلب وحركات الحس وخلجات النفس . اقرأه فى كل شىء تجده فى كل شىء .

نظرة غيرت كل شىء ، وسر أوحى إليه فتكشف له كل شىء ، وبدأ يقرأ العالم من جديد ، فإذا كل شىء جديد . لقد كان هذا العالم قبل هذه النظرة جامداً فدبت فيه الحياة ، وكان لا دلالة له على شىء فدل على خالق الحياة .

هذا ما نعلم فكيف بما لم نعلم ؟

لقد كانت لحظة رائعة كل الروعة ، جليلة كل الجلال ، رهيبة كل الرهبة ، فرأى ما لم يكن قبلُ رأى ، وسمع ما لا عهد له أن يسمع ، وتجلى له الحق فى كل

شىء . لقد كانت لحظة فارقة بين محمد بشراً ومحمد بشراً ورسولاً ، لحظة غابت فيها نفسه عن عالم الحس ، واستغرقت فى عالم الروح ، فبردت أطرافه ورجف جسمه وعاد وهو يقول : « زملونى ، زملونى ! » حتى ذهب عنه الروع .

لو كان الأمر أمر حق ينكشف ، ونفس تهتدى ، لكان فى ذلك لذة لا تقدر ، ومتعة لا تفنى ، أين منها لذة الفلاسفة وقد تجلى لهم بعض الحق ، ومتعة المتصوفة وقد نعموا ببعض اليقين ؟ ولكن تلا الوحى الأول الوحى الثانى : « يأيها المدّثّر قم فأنذر » فكانت تبعة عظمى وعبئاً ثقيلا . لقد كُلف أن يرد الناس عن ضلالهم ، وينتزعهم من دين آبائهم ، ويدعوهم أن يحكّموا فى دينهم عقولهم وقلوبهم ، وما أشقها تبعة ! فالناس مذ خلقوا عبيد ما ألفوا أعداء ما جهلوا ، كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ؛ هذا تاريخ كل نبى ، وكل مصلح ، وكل داع إلى الخير ، أدرك ذلك ورقة بن نوفل ، وقد قص عليه النبى (ص) قصته فلخصه تلخيصاً بديعاً إذ قال له : « والله لتكذَّبنَّه ولتؤذَينه ولتخرَجنه ولتقاتَلنَّه ، ولم يأت رجل بمثل ماجئت به إلا عودى » . وأدرك النبى ذلك كله فوجم ، وأدرك تأييد الله فسكن .

ومن ذلك الحين يبدأ حياته فى الجهاد ، جهاد فى الدعوة وتصويرها وتبليغها كما أوحيت إليه ، والسعى فى إيصالها إلى كل سمع ، والسير بها خطوة خطوة ، ورويداً رويداً ، كما أمر الله حتى تبلغ غايتها ويتم كمالها ، وجهاد فى حماية الدعوة بالرفق إن أغنى ، وبالسيف إن عجز الرفق .

أس الدعوة إله أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، تعالى عن الصورة وتنزه عن المادة ، خالق كل شىء ، بيده ملكوت السموات والأرض وهو على كل شىء قدير ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

فما أحقر الأصنام وما أحقر عبادتها ! إنها سقوط الإنسانية وفساد الفطرة ؛

إنها داعية الفرقة وموجبة الخلاف ، فلكل قبيلة صنم ولكل قوم وثن ؛ ولو أدركوا وحدة إلههم لتوحدت عبادتهم وتألفت قلوبهم .

ثم بجانب دعوته إلى العقيدة دعوة إلى نوع من الشعائر تعظيما لله ، وإقراراً بربوبيته .

دعا دعوته سرًّا فآمن به أقرب الناس إليه وأعرفهم به ، زوجه خديجة ، ومولاه زيد ، ومُربَّبُه علىّ ، وصديقه أبو بكر ، وظل على ذلك نحو ثلاث سنين استجاب له فيها أرسال من رجال ونساء ، وصناديد قريش لا يهمهم أمره ، ولا يعنيهم شأنه ؛ ثم دعا جهراً فبسط دعوته من غير أن يهاجم عقائدهم ، فسكتوا عنه ولم يردوا عليه ، ولكن بناء الجديد لا يكون إلا بعد هدم القديم ، فلتهاجَمْ الأصنام فى غير رحمة ، وليشهر بالشرك فى غير هوادة ، ولتسفه أحلامهم ليعودوا إلى الصواب ، وليعلن ضلالهم ليتبين لهم الهدى ؛ فكان ذلك بدء الخصومة وفاتحة العداوة ، وأجمعوا خلافه ، وأظهروا عداوته ، ثم رغّبوه وأرهبوه ، فما أبه لترغيبهم ولا ريع لإرهابهم ، وصبر على إيذائهم يمعن فى دعوته ، ويبشر المؤمنين وينذر المشركين ، ويؤمن أن العاقبة للمتقين . وازدادوا فى إيذائه ومن معه فأوعز إليهم بالهجرة فهاجر كثير إلى الحبشة ، فكان فيها بعض السعة ؛ وعلم أن القوة إنما تدفع بالقوة ، والسيف يقارع بالسيف ، واللهُ الذى أنزل الكتاب أنزل معه الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، ويئس من قريش فرنا إلى القبائل الأخرى ، وظل نحو سبع سنين بعدُ يتحين المواسم كل عام فى الحج ، ويتعرف القبائل ومنازلها ، ويدعوهم إلى أن يحموه حتى يبلغ رسالات ربه ، فلا ينصره أحد ولا يجيبه أحد ، ويردون عليه أقبح رد ، ويقولون له : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك ويؤمنوا بك ؛ حتى ساقه الله لنفر من الأوس والخزرج فدعاهم دعوته فأجابوا ، وأسرعوا فآمنوا ، وعادوا إلى قومهم فى المدينة

ففشا الإسلام فى دُورها ، ثم هاجر رسول الله إلى المدينة ليكون بين أنصاره وحماة دعوته .

صبغت المدينة صبغة إسلامية قوية فتآخى المهاجرون والأنصار ، وبنيت فيها المساجد وجلجل فيه الأذان يتردد صداه ، وأقيمت شعائر الدين فى طمأنينة وأمن ، وجاء الإسلام ينظم الحياة الاجتماعية كما نظم الحياة الروحية ، وأُلف فى المدينة الجيش يحمى الدعوة ممن يهاجمها أو يقف فى سبيل نشرها ، كجيش مكة الذى يعلن الوثنية ويحميها ؛ وينتشر الخبر فى الجزيرة فينضم إلى هذا اللواء قوم ، وإلى ذاك آخرون . وجاءت غزوة بدر فخرج المسلمون فى قلة من عددهم وقوة فى إيمانهم ، والمشركون بصناديدهم وأفلاذ أكبادهم ، فكان النصر للمؤمنين ، وكانت الحادثة فتحاً عظيما ملأت قلوب المسلمين بالأمل ، والمشركين بالهلع ؛ وتتابعت الغزوات ، فكانت — فى غالبها — فتحاً بعد فتح ونصراً يعقبه نصر ؛ والإسلام ينمو وينتشر ، والشرك ينهزم وينفدحر ، حتى غزا المشركين فى عُقْر دارهم — فى مكة — ورأى أبو سفيان الجموع الحاشدة فقال : من هؤلاء يا عباس ؟ قال : هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار . قال ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة . والله لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيما ! فقال العباس : كلا إنها النبوة . وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فما مسه زهو الفاتح ولا فخر الغالب ، و « لقد رُئى إذ ذاك على راحلة ، مُعْتجراً بشقة بُرْد ، وإنه ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عُثْنونه ليكاد يمس واسطة رحله » . وحج حجة الوداع فى مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً يريهم مناسك الحج ويرد تحريفات الشرك .

انتهى الآن شأن الجزيرة فتوجه إلى ما حوله من فارس والروم ، فكتب إلى ملوكهما يدعوهم دعوته ، ويبين حجته ، ويحملهم وزر قومهم ، وضلال شعوبهم ،

وأخذ يعد لغزو الروم فى الشام عدته و يخبُر قوته .

ثم أدركه المرض واشتدت به العلة ، وكان بين يديه إناء فيه ماء ، فكان يدخل فيه يده فيمسح بها وجهه ، ويقول : « لا إله إلا الله . إن للموت لسكرات » ثم جعل يقول : « اللهم فى الرفيق الأعلى » حتى قبض .

وخلف العبء لرجال اهتدوا هديه واستنوا سنته ، وأدوا الأمانة التى حُملوها ، ونهضوا بعظائم الأمور التى كلفوها . فما وهنوا فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا فإذا فارس مسلمة ، وإذا الروم مستسلمة ، وإذا الأرض تتجاوب أنحاؤها بلا إله إلا الله محمد رسول الله .

***

فاللهم يا من أعززت المسلمين بعد عناء ، وقويتهم بعد ضعف ، ووحدت كلمتهم بعد فرقة ، وألفت بين قلوبهم بعد شتات ، أدرك آخرهم بما أدركت به أولهم ، وأعزهم بما أعززت به سلفهم ، وبصّرهم بوجوه ضعفهم حتى يتخذوا العدة لنهوضهم ، وأرِ لهم سبيل القوة حتى يعودوا سيرتهم ، واجعل العام الجديد فاتحة عهد جديد ؛ يصلحون فيه أخطاءهم ، وينعمون بقوتهم ، ويعتزون بجاههم ، ويباهون العالم بأعمالهم .

# فى المدنية الحديثة

لعل أهم مظهر من مظاهر المدنية الحديثة أنها جعلت الحياة مؤسسة على العلم. حاولت أن تغزو كل مرفق من مرافق الحياة وتؤسسه على العلم؛ فالفلاحة مؤسسة على العلم فى رى الأراضى، وآلات الزرع والحصاد؛ والزراعة مؤسسة على العلم فى شأن النبات ووقايته، وآفاته وما إلى ذلك، وهكذا فى كل شأن من شؤون الحياة؛ تربية الأولاد مؤسسة على العلم، والحياة الاقتصادية مؤسسة على العلم، والحرب مؤسسة على العلم، ولا شىء يحدث اعتباطاً، إنما هناك درس علمى واستنتاج علمى وبناء العمل على ما وصل إليه العلم.

ولعلك إذا قارنت الشرق بالغرب فأول ما يفجؤك من وجوه الفروق أن الشرق — فى كثير من شؤونه — لا يسير على مقتضى العلم، والغرب يسير فى كل شؤونه على العلم.

الفلاح فى الشرق يفلح لا على مقتضى العلم، ولكن على مقتضى التقاليد، والعلم يتقدم ويبحث ويخترع، ولا تزال آلات الزراعة عندنا على ما كانت عليه فى عهد قدماء المصريين إلا فى القليل النادر، وحياة الفلاحين كما كانت فى عهد قدماء المصريين كذلك؛ وقد أحدث العلم ثورة فى تربية الأولاد، وسير الغربيون تربيتهم وفق العلم، وحافظنا على تربية أولادنا وفق التقاليد؛ والتجارة صارت علماً يدرس، وله نظريات ثابتة بنوا عليها تجارتهم، ونظموا بها دخلهم وخرجهم، وتجارتنا مؤسسة على البركة، إلى آخره.

وهذا الفرق بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية هو الذى مكن الغرب من استعمار الشرق، فقد أسس الغرب سفنه على علم الملاحة، وأعد أدوات قتاله

حسب علم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء ، ودرَسَ الجغرافيا ، وعرف الأرض وما حوت ، وحيي حياته كلها وفق العلم ؛ ودَرَسَ الشرق فرآه لا يطبق حياته على العلم ، فغزاه بالعلم ، واستعمره بالعلم ، وتمكن منه بالعلم .

وقد استغلت المدنية الحديثة العلم إلى أقصى حد ممكن ، فطبقته على كل مرفق من المرافق ؛ استعملته فى الترف والنعيم بما اخترعت من قطارات وسيارات وتلغراف ولا سلكى وكهرباء ، واستعملته فى شؤون الاقتصاد والتجارة ، وفى تأسيس البنايات الضخمة والآلات الفخمة ، واستخدمته أيام الحرب فى الغازات الخانقة والكمامات وأدوات القتال على اختلاف ألوانها وأنواعها .

وكلما كان العلم أمسّ بالحياة كانت المدنية أكثر به عناية ، ولهذا كانت العلوم الطبيعية أكثر العلوم أهمية فى نظر المدنية ، وقد بلغت هذه العلوم من الرقى حدًّا كبيراً نفذت به المدنية إلى مناحى الحياة المتشعبة فى المنزل وفى الشارع وفى المدينة وفى السلم والحرب .

وكان من نتيجة هذا أن ضعفت العناية بما لم يترتب عليه فى الحياة عمل ، حتى الفلسفة غلبت عليها الناحية العملية ، وعنى فيها بالنفس والاجتماع والمنطق أكثر مما عنى فيها بما وراء الطبيعة والإلهيات .

ودارت آلة العلم فى المدنية الحديثة دوراً عنيفاً وسريعاً ، وأحل العلماء فى المجتمع محلا رفيعاً ، وامتلأت أوربا بقاعات البحث ، وتخصص العلماء للدرس والاستكشاف ، وكلما وصلوا إلى نتيجة علمية أخذها التجار فحولوها إلى صناعة تملأ البيوت وتغزو الأسواق وتنفذ إلى صميم الحياة العملية .

أصبح هذا هو طابع المدنية الحديثة الذى يتجلى فى كل مظهر من مظاهرها ، كما أصبح هو مقياس رقى الأمم ؛ فالأمة أرقى من أمة لأنها أكثر تقدماً فى العلم وأكثر استخداماً له فى حياتها اليومية ؛ والغرب أسبق من الشرق لأن محصول

الغرب العلمى أكبر ولأن سيره على مقتضى العلم أتم .

وهذا هو أيضاً ما يحدد خطة السير التى يجب أن يسيرها الشرق إذا أراد أن يصل إلى ما وصل إليه الغرب ؛ وهذه الخطة تتلخص فى أن يجدّ فى العلم ويسير فى حياته وفق العلم ؛ وهذا يتطلب تعديلا فى قائمة العلوم كما فعل الغربيون ، فيوضع فى أولها العلوم الطبيعية من طبيعة وكيمياء وميكانيكا وهندسة وما إلى ذلك ، والعلوم الاقتصادية والاجتماعية وما إليها ، ثم ثورة على الحياة المؤسسة على التقاليد ، وابتداء صفحة من التاريخ مؤسسة على العلم ، فى الفلاحة والزراعة والتجارة والتربية والتعليم والسياسة وكل شأن من شؤون الحياة ؛ فإذا وجه الحياة يتغير ، وإذا الشرق سائر سير الغرب ، وإذا الركود يتحول إلى حركة ، وإذا أخطاء حياتنا تظهر فى أشنع صورها ، وإذا الخلَف يعجب كيف كان يسير السلَف .

« العلم وتأسيس الحياة على العلم » هو المبدأ الذى يجب أن يكون شعار الأمم التى تريد النهوض ، وهو المفتاح الذى تفتح به أبواب الحياة ، وهو المصباح الذى تبصر فى ضوئه كل عيوب الحاضر .

الفرق بين مدنية القرون الوسطى والمدنية الحديثة كالفرق بين « الأجزاخانة » ودكان العطار ، وكالفرق بين الطب الحديث وطب الرُّكة ، قد ينفع دكان العطار وقد ينفع طب الركة ، ولكن نفعهما مبنى على المصادفة والبخت ، على حين أن نفع النوع الأول مبنى على الدرس ومعرفة السبب والمسبب والعلة والمعلول ؛ إذا نفع النوع الثانى فنفعه تقليد وعقيدة ، وإذا نفع الأول فعلم ومنطق .

والفرق بينهما أيضاً كالفرق بين عربات النقل والسيارة : أولاهما كانت تساير الزمن البطىء والحياة البطيئة التى كان الناس يحيونها ، والثانية تساير الزمن السريع والحياة السريعة التى يحياها الناس الآن .

ومحال إذا أردت مجاراة الزمان ومواجهة الواقع أن تحارب الأجزاخانة بالعطار

والعربة بالقطار، إلا إذا عشت فى أتم عزلة عما حولك من العالم، ومحال أن يكون ذلك، فالعلم أيضاً كسر الحدود، وصير العالم وحدة لا وحدات.

لقد آمنت المدنية الحديثة كل الإيمان بقانون السببية، فكل ظاهرة فى الوجود إذا حدثت فهناك سبب فى حدوثها، وإذا أريد علاجها فلا بد من علم بها ووضع العلاج على أساس العلم بها، تستوى فى ذلك الظواهر الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية. على هذا الأساس نظموا حياتهم فى الصحة والمرض، فى شؤون المال، فى شؤون التربية، فى الإقدام على المشروعات، فى علاج المشكلات. الدرس أولاً ومعرفة العلل والأسباب والنتائج. ثم بناء العمل على هذا الدرس لا شيء يعمل سبهللاً، ولا شيء يعمل اعتباطا؛ فى المدرسة يبنون حياتهم المدرسية على دراسة النفس وعلم التربية، وفى البيت يبنون حياتهم المالية على قوانين الاقتصاد، وفى حياتهم السياسية على قوانين علم الاجتماع، وفى حياتهم الحربية على علوم الحرب وفنونها وإحصاءاتها وتجاربها الميكانيكية والنفسية، حتى لهوهم ولعبهم مبنى على قوانين النفس وقوانين الرياضة.

وبقدر ما توسع القدماء فى دائرة القضاء والقدر ضيقت المدنية الحديثة من هذه الدائرة؛ فالغنى والفقر والصحة والمرض والفساد والصلاح والنصر والهزيمة والنجاح والفشل كانت كلها عند الأقدمين داخلة فى دائرة القضاء والقدر، وأكبر جزء منها فى المدنية الحديثة داخل فى دائرة قانون السببية، وهكذا.

قد صيرت المدنية الحديثة العالم جامعة كبيرة وطبقت عليه نظام الجامعة، جمع للظواهر ودراسة دقيقة لها وإجراء التجارب عليها، وعمل ما يستلزمها من إحصاءات وما إليها، وإبعاد ما ليس للظاهرة المعروضة علاقة بها، واستنتاج الحل لهذه الظواهر بعد الدرس.

والفرق بين جامعة العالم والجامعة الخاصة أنهم فى جامعتهم الواسعة يريدون

أن يطبقوا ما وصلوا إليه من نتائج على الحياة العملية ، ويعدون البحوث المجردة بحوثاً ميتة لا حياة فيها ولا روح ، ويرون أن العلم ليس للعلم ، وإنما هو ليستخدم فى الحياة وليُسعد الحياة ؛ وليس العلم للذة العقلية فقط ، ولكنه لتشكيل مرافق الحياة حسب قوانينه ؛ فالطبيعة والكيمياء والميكانيكا والرياضة ليست للزخرف العقلى ، ولكن لبناء الجسور وشق الترع واختراع الآلات لخدمة البشر وكل ضروب المدنية ، وما لم ينبن عليه عمل فهراء باطل وشعوذة ممقوتة .

***

هذا أهم فرق — فى نظرى — بين المدنية الحديثة والقديمة ، وبين الأمم المتحضرة وغير المتحضرة ، وبين الأمم الحاكمة والأمم المحكومة .

وهذا أيضاً هو الجانب الحسن فى المدنية الحديثة وجانب القوة فيها ؛ ولكنّ هناك من ناحية أخرى وجهاً ضعيفاً ، وجهاً ينقص المدنية الحديثة لتكمل ؛ ذلك أن للإنسان بجانب قوته العاقلة التى نتاجها العلم والتى يرمز إليها عادة بالرأس قوة أخرى روحية يرمز إليها بالقلب ، ومن مظاهرها الدين والمثل العليا للخير والسلوك وما إلى ذلك ، ولا بد لخير الإنسانية وسموها من تعادل القوتين ونمائهما معاً .

وقد رأينا المدنية الحديثة تعلى شأن العقل والعلم علوا كبيراً ، ولا تعلى شأن القلب كذلك ، حتى لرأيناها تحكّم العقل فى القلب ، والعلم فى الدين ، والمنطق الجاف فى السلوك .

لقد أدى إعلاء شأن العقل والعلم وحده إلى هذه الحروب الطاحنة الدامية ، ولو تدخل القلب فأعلى شأن الإنسانية لوقف العلم عند خدمة الحياة ، ولم يتعدها إلى إعدام الحياة ، كما أدى إعلاء شأن العلم إلى أن وجهوه إلى الدين يشرّحه كما يشرح الطبيب الجسم ، ويحلله كما يحلل الكيمياوى الأشياء ، ففقد روحه وفقد قيمته ، وفقد الناس احترامه ، وَأَنَّى للعلم أن يحكِّم فيما ليس من اختصاصه ؟ إذ

كيف تخضع الحب للمنطق ، والشعور للعقل ، والعاطفة للبرهان ؟ إن تحكيم العلم فى هذا كتحكيم العين فى المسموع والأذن فى المرئى والأنف فى الملموس «لا الشمسُ ينبغى لها أن تُدْرِكَ القمرَ ، ولا الليلُ سابقُ النهارِ ، وكلٌّ فى فلك يَسْبَحون» .

فلما حلل العلم الدين حوّله من عاطفة إنسانية وطموح إلى المثل العليا إلى خدمة اجتماعية . لقد أنشأ الدين مملكة سماوية تشرئب إليها النفوس ، وتسمو إليها الأرواح ، فجاء العلم يحطم هذه المملكة و يرد الدين إلى حظيرة الواقع ودنيا الجماد .

لقد جاء الدين فدعا إلى إحياء القلب و إحياء البصيرة ، وجاء العلم ينكر كل شىء إلا العقل و إلا المنطق ، ولا أمل لسعادة الإنسان إلا بحياة عقله وقلبه معاً ، واعتراف كل بحدود دائرته من غير أن يتعدى اختصاصه . لقد حول العلم الدين إلى رياضة ، وجعل البرهنة عليه من جنس البرهنة على نظرية هندسية ، وجهل الفرق بين شىء خارجي يبرهن عليه ، وشىء فى النفس ينكشف بالشعور ، إن الدين شعور و إلهام مركزهما القلب ، والعلم يشرّح و يوضح و يبرهن و يستمد ذلك من الرأس ، إن العلم ليعجز عن إدراك جمال الدين كما يعجز عن الشعور بجمال ازدهار الزهرة وابتسامة الطفل . لقد ملأ العلم الحياة مالا واختراعاً ، ولكن كان شأن الإنسان معه شأن الرجل كثر ماله فأنفق عمره فيه يديره و يدبره حتى لم يجد وقتاً ما يفكر فيه لنفسه ؛ كذلك كان شأن الناس فى المدنية الحديثة ، تنوعت حياتهم وكثرت تكاليفهم ، وازدحمت أوقاتهم ، وامتلأت جيوبهم ، ولكن فرغت قلوبهم ، وعاشوا عيشة صاخبة لايجدون فيها أنفسهم حتى كأنهم فى حلم ثقيل .

كانت نتيجة هذه الحياة التى يعنى فيها بالعلم وحده و يستخدم العلم فيها للحياة المادية وحدها أن أصبح مقياس الحياة القوة وحدها ، القوة فى المال وفى الجسم ، ثم توجت هذه القوة بالتسلح ؛ وكلما كانت الأمة أمضى سلاحاً وأشد فتكا وأمعن فى التنكيل كان ذلك دليل عظمتها وأدعى إلى احترامها ؛ وهذا بعينه هو المقياس

الوحشى القديم الذى كانت تقاس به الأمم أيام بداوتها ، وكانت تقاس به الأفراد أيام سذاجتهم ، ثم تغير هـذا المقياس فى حق الأفراد ولم يتغير فى حق الأمم ؛ أصبح الفرد يقوَّم بسلوكه وحبه للعدل والحق ونحو ذلك ، ولـكن لا يزال تقويم الأمم كما كان فى نشأتها الأولى ، بالقوة .

إن طغيان العلم على الروح والعقل على القلب هو وجه الضعف فى المدنية الحديثة ، ولا أمل فى صلاحها إلا بتعديل عناصرها وحياة قلبها ، إذ ذاك تنظر إلى الإنسانية لا إلى القومية ، وإلى العدل والحق لا إلى الجنس ، وإلى خير العالم كله لا إلى خير جزء منه ، وهذا اللون هو لون المدنية المنتظر .

ولعل هذه الحرب بويلاتها تسلم إلى هذه النتيجة ، فيعدل الأساس ، ويعرف العلم حدوده والقلب حدوده ، ويحيى الدين كما حيى العلم ، وتزدهر الروح كما ازدهر العقل ، ويتسلم زمام الأمم أقواها قلباً وأحياها ضميراً ، لا أشـدها دعاية وأكثرها تهويشاً .

# هل يكون معلما ؟

سألني أبٌ : هل أُدخل ابني كلية الآداب ليكون معلماً ، أو كلية الحقوق ليكون محامياً أو قاضياً ؟ وأضاف إلى ذلك : إن ابني يرغب أن يكون معلماً ، وأنا أكره له ذلك ، لأن التدريس عمل مضن لا يدر مالا ولا يفيد جاهاً .

نعم — أيها الأب — إذا أردت وأراد ابنك المال والجاه فإياه وإيا التعليم وإيا الأدب والفن وما إلى ذلك ، فإنها ليست طريق المال ولا الجاه ، ومن قصدها للمال والجاه خاب ظنه وضل سعيه .

إنما يصلح للتعليم قوم قنعوا من دنياهم بأن يعيشوا على ضروريات الحياة ، وفى حدود ضيقة من الرزق .

ليس يصلح للتعليم من طلب بتعليمه الغنى والجاه ؛ وليس يصلح كذلك من سدت فى وجوهه طرق الكسب الأخرى ، ثم رأى أن باب التعليم وحده هو المفتوح أمامه فدخله مرغماً ؛ إنما يصلح للتعليم من كان يرى — بحكم طبيعته ومزاجه — أن لذة التعليم تفوق كل لذة ، وأنه سعيد باحترافه التعليم ، وأن ما يجده من لذة فى حرفته يعوض ما يجده من ضيق فى رزقه وضآلة فى جاهه ، وإلا كانت حرفة التعليم عذاباً ، وكل درس يؤديه ألماً يمتد بامتداد الدرس ، وكل فترة من الزمن بين درسين أنيناً من الدرس الماضى وإشفاقاً من الدرس القادم ، وكل ساعات فراغه شكوى من الزمان أن رماه بحرفة التعليم ، وسبًّا للقدر أن بلاه بهذا البلاء المبين .

إن الحرفة الحقة الناجحة — أيها الأب — هى التى خلق لها صاحبها ، لا التى

كره عليها صاحبها؛ ففى الأولى هى لذة وشوق، ونمو شخصية، وتفتح ملكات؛ والنجاح فى الحرفة و بلوغ الذروة فيها هو القصد الأول؛ والمال والجاه إذا أتيا أتيا عرضاً لا قصداً. و إذا لم يأتيا فلا بأس، فقد سعد فى أثناء عمله وسعد فى نجاحه ببلوغ غايته أو القرب منها. وفى الثانية ألم، وهى سخط، وهى فشل، وهى طلب للمال والجاه من غير وسائله الطبيعية وطرقه المشروعة. فسائل ابنك قبل أن تسائلنى، واختبره قبل أن تختبرنى: هل يجد لذة فى تفتح الزهرة و إثمار الشجرة أكثر مما يجد من حفنة من المال فى يده يعددها و يقلبها و يلعب بها؟ إن كانت الأولى فشجع ابنك على أن يكون معلماً، و إن كانت الأخرى فوجهه إلى أى عمل غير التعليم، ولا تقع فيما يقع فيه الناس، إذ يستفتون شهوتهم فى المنصب والجاه، ولا يستفتون ملكات أبنائهم وطبيعتهم واستعدادهم، و يختارون لأبنائهم من العمل ما يتفق والمنصب والجاه، ولا يتفق والطبائع والاستعداد، فيبوءون بالفشل الذى يبوء به من حاول أن يجعل من النحاس ذهباً، ومن الحديد نحاساً، فلا المنصب نالوه، ولا ما هم أهل له أدركوه، ووقفوا وسط السلّم، لا فوق ولا تحت، أو علقوا فى الهواء، لا فى السماء ولا فى الأرض.

***

كل ذى صناعة منتج أو مبدع أو خالق، فالنجار والحداد والمَثَّال ونحوهم يبدعون من المواد الخام صوراً لم تكن، وقد يبلغون فى الإنتاج حداً يستخرج الإعجاب والعجب؛ ولكنهم مهما بلغوا لا يصلوا إلى إبداع المعلم، وسمو صناعته، وسحر فنه.

ماذا يصنع المعلم؟

إنه يجلو أفكار الناشئين والشباب، و يوقظ مشاعرهم، ويحيى عقولهم، ويرقى إدراكهم. إنه يسلحهم بالحق أمام الباطل، وبالفضيلة ليقتلوا الرذيلة،

وبالعلم ليفتكوا بالجهل . إنه يملأ النفوس الخامدة حياة ، والعقول النائمة يقظة ، والمشاعر الضعيفة قوة . إنه يشعل المصباح المنطفئ ، ويضىء الطريق المظلم ، وينبت الأرض الموات ، ويثمر الشجر العقيم . إن المعلمين عدة الأمة فى سرائها وضرائها ، وشدتها ورخائها ، لا تنتصر فى حرب إلا بقوتهم ، ولا تنهزم إلا لضعفهم ، ولا يزهر العلم فيها إلا بهم ، ولا ترقى مصانعها ومتاجرها إلا برقيهم . هم منشئو الجيل ، وباعثو الحياة ، ودعاة الانتباه ، وقادة الزمن . هم عنوان الأمة ، ومظهر ضعفها أو قوتها ، فى عقلها وقلبها وخلقها ، لأنهم يصنعون القوالب التى تصب فيها أبناؤها وبناتها ، ويشكلونها بالأشكال التى يتصورونها ويضعونها .

المعلم يملك نفوساً وعقولا ومشاعر بعدد من يعلمهم ، ومن يصل نفعه إليهم ؛ وغيره يملك مالا وضياعاً وعقاراً ، فإن كان ابنك — أيها الأب — ممن يفضل ملك النفوس والعقول على ملك المال والعقار فاجعله معلماً ، وإلا فليكن تاجراً أو محامياً أو مهندساً أو ما شئت غير أن يكون معلماً ، المعلم يتاجر ، ولكنه يتاجر فى الأرواح والعقول والمشاعر ، ويكسب ويخسر ، ولكنه يكسب نفوساً تتعلق به وقلوباً تتجمع حوله ، أو يخسر عقولا أتلفها ونفوساً أفسدها ؛ فإن كان ابنك ممن له غرام بالنفوس والقلوب يكسبها فليكن معلماً ، وإلا فخير له أن يتاجر فى الذهب والفضة أو ما يدر الذهب والفضة . أما إن هو تاجر بالنفوس وأراد الذهب فبشره بالخسارة التى يمنى بها رجل الدين إذا أراد الدنيا ، ورجل العلم إذا خدم بعلمه السياسة .

التعليم — أيها الأب — نوع من الرهبنة ، انقطع صاحبه لخدمة العلم كما انقطع الراهب لخدمة الدين ، أو إن شئت فقل إن الراهب يعبد ربه من طريق تبتله واعتكافه ، والمعلم يعبده من طريق علمه وتعليمه ؛ كلاهما زهد فى الدنيا إلا بقدر ، وانقطع عن الناس إلا ما يمس عمله ، وكلاهما ركز لذته وسعادته فيما نصب له نفسه ؛

فإن رأيت راهباً ينحرف ببصره إلى زخرف الدنيا وزينتها فهو راهب فسد ، وإن رأيت معلماً يجعل غرضه الأول المال والجاه وعرض الدنيا فهو — كذلك — معلم فسد .

* * *

كم فى الدنيا من أناس أشقياء أكبر شقائهم ناشئ من أنهم يعملون فيما لم يخلقوا له ؛ هذا مهارته فى يده يعمل بعقله ، وهذا مهارته فى عقله يعمل بيده ، وهذا مهارته فى قلبه يعمل بيده أو عقله ، وهذا مالىّ يعمل عالماً ، وهذا عالم يعمل ماليا وهكذا ، ومن هذا القبيل صنف من المعلمين لم يخلقوا للتعليم وإنما خلقوا للمال ، فأجسامهم فى التعليم ، وطموحهم للمال ، فلما لم يصلوا إلى المال — وذلك طبيعى — عذبوا عذاباً شديداً ، وضاقت نفوسهم ، واضطربت عقولهم ، وفشلوا فى التعليم والمال معاً ؛ نسوا أن التعليم عمل روحى لا يصلح له إلا من تجرد للروح وشؤونها ، وقلبوه إلى عمل آلى فحرموا لذة الروح ، ولم ينجحوا فى العمل الآلى ، وكانت حجرة التعليم سجناً ، وعلاقتهم بالمتعلمين علاقة السجان بالمسجونين ؛ فلم ينجحوا فى التعليم الذى قيدوا أنفسهم به ، ولا فى المال الذى طمحوا إليه ؛ وكان من الخير أن يريحوا أنفسهم من التعليم ، ويريحوا التعليم من أنفسهم ؛ لقد فهموا كما يفهم الماليون أن مقياس النجاح فى الحياة سعة الرزق ، وعظم المرتب ، وتدفق المال ، فلما لم يجدوا شيئاً فى أيديهم عدوا أنفسهم خاسرين ، فنقموا على أنفسهم وعلى الزمان ، وعلى حرفة التعليم ، وعلى القدر الذى ألجأهم إليها ، وفاتهم أنهم غالطوا مقياس النجاح ، فوزنوا بالمتر ، وقاسوا الطول بالقنطار ؛ فمقياس النجاح فى اة العلمية غيره فى الحياة المالية والمناصب الحكومية .

* * *

ومع هذا فلهم بعض العذر فى الشكوى من الضيق والضنك ، فنظم الحياة يسرت العيش للراهب ولم تيسره للعلم ، جعلت الراهب يعيش لنفسه وربه ،

وقطعت صلته بالأسرة فتخفف من أعبائها ، ولكنها أباحت للمعلم أن يتزوج وأن يكون رب أسرة ، ثم طالبته أن يترهب ، فإن ترهب هو لم تترهب زوجه وولده ؛ فهو يحلق بنفسه وعمله فى السماء ، وأسرته تجذبه فى عنف إلى الأرض ، يرضى بكسب القلوب ، ويسر بفتح الزهور ، ويعد نفسه غنيا بملك النفوس ؛ ولكن ذلك كله لا يغنى فتيلا عند أسرته ، فهى تريد المال الصامت ، ولا يرضيها ملك النفوس الناطقة ، فهو بائس مسكين ، مضطرب بين مثله السماوى ومثل أسرته الأرضى ، وغناه النفسى وفقرهم المادى ، وقناعته بلذته الروحية وإلحافهم فى طلب لذائذهم المادية ؛ وقد كان يكون مثل المعلم صحيحاً وسليما لو عاش وحده وطمح وحده وتغنى وحده كما هو شأن الراهب ؛ أما وهو معلم فى معهده ومثقل بالأسرة فى بيته ، فتلك مشكلة المشكلات فى العالم كله .

* * *

لو عقل الناس لأغنوا المعلم وأمكنوه من التفرغ لعمله ولإنتاجه ولخَلْقه ؛ ولو قاسوا الأشياء بفوائدها لقوّموا المعلم أكبر قيمة ؛ ولكن أنَّى هذا وتقويم الأشياء فى الدنيا من أول عهدها إلى اليوم تقويم أخرق ، بنى على نظر أحمق ؟ هذا كل مهارته أن يثير الضحك بمنظره أو بمنطقه أو بحركاته فينهال عليه المال انهيالا ؛ وهذا يثير الشهوة بألفاظه وخدعه فيتدفق عليه المال بالهيل والهيلمان ؛ وهذا شاب سخيف غرّ كل ميزته أنه ابن غنى مات والده فانتقلت إليه ثروته التى لا تحصى ولا خير للمجتمع منه ، وهذا وذاك من الأمثلة الوافرة ؛ وبجانب هؤلاء جميعاً نابغة لا يجد قوته ومعلم لا يجد الكفاف — كل ما فى الدنيا من أمثلة يدل على فساد التقويم ؛ كتاب ملئ حكمة بدرهم ، وحبة من لؤلؤ — ليست لها قيمة ذاتية — بآلاف ، ومجهود الآلاف من الناس يحرثون ويزرعون لا يساوى خاتماً من ماس تتزين به المرأة ساعة فى العمر ، ولاعب تقوّم لعبته بالمئات ، ومكتشف لا يقوم اكتشافه بشىء ؛ وعلى الجملة فقد عجز العقل أن يدرك « أساس التقويم » عند

الناس ، فلا هو مقدار ما فى الشىء من منفعة ، ولا ما فيه من عدم منفعة ، ولا هو الجمال ولا القبح ، ولا الخداع ولا الصراحة ، ولا الصدق ولا الكذب ، ولا الحق ولا الباطل ، لا شىء من ذلك كله ، ولا شىء غير ذلك كله صالح لأن يفسر أساس التقويم عند الناس .

***

ومن مصائب المعلمين أنهم كثيرون ، وأنهم يجب لصالح الدولة أن يكونوا كثيرين ، فلابد لكل طفل وطفلة أن يكون له معلم ، فكان لابد من معلمين يتناسبون فى الكثرة مع المتعلمين ؛ ومن مقتضيات كثرتهم أن مدى زمن التعلم يبلغ عند كثير من أفراد الأمة ثلث عمرهم أو أطول ، وكثرة العدد فى مهنة من المهن حليف الفقر ؛ فلو قوّمتهم الدولة قيمتهم الذاتية التى يستحقونها لم تكفهم خزائنها ، ولم تسد مطالبهم ميزانيتها ؛ فكان الفقر من مقتضيات الحال وصروف الزمان .

وعلى كل حال فلا منفذ لهم من ضيق اليد إلا سعة النفس ، ومن الفقر فى المادة إلا غنى الروح ، ومن الحياة اللاصقة بالأرض إلا السمو إلى السماء ، ومن الشكوى من سوء تقويم الناس للأشياء إلا إنشاؤهم مملكة روحية فى أنفسهم تقوم فيها الأشياء تقويماً صحيحاً عادلا .

***

قُصَّ — أيها الأب — هذه القصة على ابنك ، واشرح له ما غمض ، وفصّل له ما أجمل ؛ ثم اسأله بعد : هل هو راض عن التضحية كما يضحّى الجندى ؟ وهل هو قابل أن يحدّ من لذته كما يحد الراهب ؟ وهل هو مستعد أن يتعزى بالمعنويات عن الماديات ، وأن يخلق فى نفسه عالماً فيه كل ضروب القناعة ، وتحل فيه اللذائذ العقلية والروحية محل اللذائذ الجسمية ؟

إن كان كذلك فدعه يكن معلماً ، وإلا فجنبه الشقاء .

# صورة قضائية تاريخية

هذا قصر عبد الرحمن الناصر بقرطبة ، يعمل فى بنائه آلاف العمال ، ويستجلب له من كل مدينة أحسن ما فيها ؛ فالرخام الأبيض من المَرِيّة ، والرخام المجزع من رَيّة ، والوردى والأخضر من تونس ، والحوض المنقوش المذهب من القسطنطينية ؛ وهذه نقوش تنقش . وتماثيل وصور على صور الإنسان تنصب فى أماكنها ؛ وهذه هى الأبواب تصنع من العاج والآبنوس المرصع بالذهب ؛ وهذه هى الأعمدة تقام من الرخام الملون والبلور الصافى ؛ وهذا هو مجلس الخليفة يحلى بقرامد الذهب والفضة ملونة ألواناً بديعة ، وينشأ فى وسطه حوض عظيم يملأ بالزئبق ، فإذا دخلت الشمس سطعت على تلك الأبواب وهذا الحوض وهذه الأعمدة ، فيكون من ذلك أشعة تخطف الأبصار وتأخذ القلوب ؛ وهذه الحدائق تنسق ، ويؤتى لها بأغرب الأشجار وأجمل الأزهار .

وهذه القناة الغريبة الصنعة يُجْرَى فيها الماء من جبل قرطبة إلى القصر فيلعب فيه لعبه البديعة ؛ فهذه بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة مطلى بالذهب ، وعيناه جوهرتان براقتان ، يجوز الماء فى مؤخرته فيمجه فى البركة من فيه ، ثم تسقى من مجاجه جنان هذا القصر ، وما فضل عنه صب فى النهر .

وامتلأ القصر بالطيور تغرد ، والأزهار تتفتح ، والفتيات تمرح ، وصبيان الصقالبة يروحون ويجيئون ، وتم فيه كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

ويأتى أمير المؤمنين الناصر فيزور القصر ويعجب به ، ويمتلئ فرحاً وسروراً ويلهج لسانه بالشكر لله على ما أولى وأنعم ، ويصعد إلى السطح الممرد فيشرف

منه على الرياض الزاهية والمياه المتدفقة ، والمجالس وقبابها المذهبة ، وعجيب ما تضمنته من إتقان الصنعة وحسن المنظر ، بين مرمر مسنون ، وذهب مصفّى ، وعمد كأنها أفرغت فى القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة ، وحياض وتماثيل عجيبة ؛ ويعجب من قدرة الإنسان الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة ، ومادتها المهلهلة ؛ وهو أشد عجباً من صنع الله للمادة ، وصنع الله للانسان .

ولكن [ ودائماً تأتى « لكن » ، فهى نذير الشؤم والنقص ، ولم يخل شىء فى الدنيا من نقص فلم يخل شىء من « لكن » ] .

ولكن أبعد « الناصر » النظر فرأى على مداه مستشفى للمرضى يزدحم فيه أصحاب العاهات : هذا قد عصبت عينه ، وهذا قد ربطت ذراعه ، وهذا قد كسرت رجله ، وهذه محفة تحمل طريحاً ، وهذا طبيب يداوى والعليل يتلوى ، إلى آخر هذا المنظر .

ألِمَ « الناصر » من هذا القبح وسط هذا الجمال ، ومن مظهر الضعف بجانب مظهر القوة ؛ وعد هذا نشازاً فى الأغنية الجميلة ، وبيتاً مرذولا فى القصيدة الرائعة ، وشجرة يابسة فى الحديقة الناضرة ، وعموداً مرضوضاً فى البناء الفخم ، وعوداً ذابلا فى طاقة من الزهور .

لا . لا . لا يكون ذلك . إنى أحب الانسجام فى كل شىء ، والمواءمة فى كل نغمة ؛ والانسجام فى جلائل الأمور وصغائرها . إن هذا المنظر يذكرنى بالضعف وأنا أحب القوة ، ويشعرنى بالفناء وأنا أحب البقاء ، ويصور الحياة فى أبشع صورها وأنا أحبها فى أزهى صورها .

ولكن المرضى عضو من أعضائنا يجب العناية بهم ، والحنو عليهم ، والإحسان إليهم ؛ والتوفيق ممكن بين ما أطلبه من الانسجام فى المنظر والمواءمة فى النغم ،

و بين ما أشعر به من واجب للمرضى وحسن رعايتهم ؛ فلينقلوا إلى مكان آخر بعيد عن قصرنا ، حيث يجدون فيه راحتهم ، وحيث نجد فى بعدهم راحتنا .

يبدو الأمر بسيطا سهلا ، ولـكن [ تظهر « لـكن » مرة ثانية ] .

فهذا المستشفى وقف ، ولا بد أن يؤخذ فى استبدال الأوقاف رأى رجال الشرع .

وكانت الأندلس قد شعرت بنقص نظام القضاء فى الشرق ، إذ لم يكن هناك قانون رسمى يعمل على وفقه القضاة ، و يعرفه المتخاصمون والقضاة قبل الحكم ، بل كان القاضى يقضى حسب اجتهاده فى حدود مذهبه ؛ وقد أدى هذا إلى إصدار أحكام مختلفة فى قضايا متشابهة ؛ فتداركاً لهذا ألفوا جماعة سموها « جماعة الشورى » ، يعين أعضاؤها بمرسوم من أمير المؤمنين ، ومن اختصاصها النظر فى مشكلات المسائل ، ومسائل الأوقاف ، والإشراف على أعمال القضاة وتوليتهم وعزلهم ، والإشراف على أعمال رجال الدولة فيما يتصل بالشؤون الدينية .

إذاً ، كان لا بد فى أمر المستشفى أن يعرض على جماعة الشورى ؛ فبعث الناصر بأحد وزرائه إلى رئيسها ، وهو قاضى قرطبة « ابن بَقِيّ » ، وشكا إليه أمر المستشفى ، وأنه يؤذى أمير المؤمنين الناصر ، برؤية المرضى إذا أطل من علالى القصر ، وأنه على أتم استعداد أن يعوضهم عنه ما يساوى أضعاف ثمنه أرضاً فسيحة غالية من أملاكه فى ضاحية قرطبة هى « مُنْيَة عَجَب » .

قال « ابن بقى » : الرأى عندى أن هذا لا يجوز ، وأن ليس لى فيه حيلة ؛ فالوقف يجب أن تكون له حرمته ، وأولى من يحترمه السلطان .

الوزير : يحسن إذاً أن تعقد مجلس الشورى وتعرض عليهم الأمر ورغبة السلطان ، فلعلهم أن يجدوا فى ذلك رخصة .

هذا المجلس مجتمع ، وها هم العلماء يقلبون الأمر على وجوهه ، فلا يرون فى فقه الإمام مالك الذى يتقلدونه مخرجا ، فيقررون رفض الطلب ، وها هو ابن بقىّ يعرض على القصر رأى المجلس بالرفض .

يغضب السلطان أشد غضب وأعنفه ، ويأمر بإحضار مجلس الشورى فى القصر ، ومواجهة الوزراء لهم بالتعنيف والزجر ؛ فينطلق أحد الوزراء معنفاً قائلا : إنكم تستحلون أموال الناس ، وتأخذون الرشا ، وتلتمسون الروايات الضعيفة تبعاً لشهواتكم ؛ وقد أمرنى أمير المؤمنين أن أطلعكم على عيوبكم ، وأُسفه أحلامكم فى موقفكم ؛ فهو مطلع على شروركم وخيانتكم ، قد احتاج إليكم مرة فى دهره فى أمر من أموره ، فلم يتسع تظركم لإجابته ، فليكشفن ستركم ، وليناصحن الإسلام فيكم . وأطال فى مثل هذا .

قال أحد الأعضاء : عفواً عفواً — أيها الوزير — لقد أخطأنا فى رأينا ، وتُبنا عما جنينا .

فانبرى له شيخ شديد المنة قوى العارضة ، يسمى « ابن حيونه » ، وقال : عمَّ تتوب يا شيخ السوء ؟ نحن بُرآء إلى الله من مقامك ؛ والتفت إلى الوزير وقال : بئس ما بلَّغت ، وليس فينا وصف مما ذكرت . إنَّا أعلام الهدى وسرُج الظلام ، وبنا تقام الفرائض وتثبت الحقوق ، وتنفذ الأحكام ؛ فإن كان من يتصف بما وصفت فأنتم . إن كان قد نطق أمير المؤمنين حقًّا بما نطقت فكان أولى أن تنصحه فى قوله وألا تفشى سره ؛ فإن كنت ولا بد مبلغاً فجاملنا ، ولا تقابلنا بما استقبلتنا . نحن على يقين أن أمير المؤمنين سيراجع بصيرته ويعاود رأيه . ولو كان الأمر ما قال فينا لبطل كل ما صنعه ؛ فهو لم يثبت له كتاب حرب ولا سلم ، ولا بيع ولا شراء ، ولا صدقة ولا حبس ( وقف ) ولا هبة ولا عتق إلا بنا وبشهادتنا ؛ هذا ما عندنا والسلام .

ووقف وتبعه الأعضاء ، وخرجوا جميعاً من القصر غاضبين . وشاع الخبر فى الناس ، فغضبوا لهم وأسفوا لإهانتهم ، وأصبحت الحادثة حديث الناس ومجال التعليق .

وعاود الناصر فكره ، ورأى فيما حدث خطورته ، فاعتذر إليهم وترضاهم وأكرمهم ، واعتذر عما فعل الوزير معهم .

ولكن بقى « المستشفى » غصة له . وزاد الأمر سوءاً أن لم تصبح المسألة مسألة مستشفى فحسب ، بل أكبر من ذلك هزيمته وعِلْم الناس بها، وهو المحارب الذى لم يعتد الهزيمة فى الحروب .

ظهر فى الميدان « أبو لبابة » رجل واسع العلم واسع الذمة ، قوى العقل ضعيف الخلق ، ماهر فى التأليف ، ماهر فى التأويل ، يؤلف كتاب « المنتخبة » فى الفقه فيقول المالكية إنه قل أن يكون له نظير ؛ وهو مع هذا شره فى المال ، ضعيف الإيمان بالعدل ، ولى قضاء « ألبيرة » فأساء السيرة حتى ضج الناس منه فعزل ؛ وكان عضواً فى مجلس الشورى فأخذ عليه أنه يفتى للمال ، ويتأول للطمع ، فعزله الناصر منه وألزمه بيته ، ومنعه أن يفتى أحداً .

وجد « أبو لبابة » الفرصة سانحة ، فكتب إلى الناصر يذكر له أنه محق فى وجهة نظره ، وأن مجلس الشورى متزمت متعنت ، ولو كان هو عضواً من أعضائه لاستطاع إقناعهم واستخراج الرأى الموافق منهم .

أعاده « الناصر » لمجلس الشورى ، وجمع المجلس ثانية منه ومنهم . فأما الأعضاء فأصروا ، وأما هو فعارضهم ، وكان مما قال : إنى أعلم أن قول مالك كما تقولون ، ولكن ما الذى يمنعنا أن نأخذ فى هذا الأمر بقول أبى حنيفة ، وهو يرى عدم لزوم الوقف ، وحاجة أمير المؤمنين إلى ذلك ماسة ؟ ناشدتكم الله : ألم تنزل بأحدكم ملمة تركتم فيها قول مالك وأخذتم بقول غيره ؟ فلم تترخصون

لأنفسكم ولا تترخصون لأمير المؤمنين ، ولا ضرر فى هذا إذ يعرض مكاناً أنفع وأرضاً أغلى ؟ فسكتوا .

ثم طلب من رئيس المجلس أن يرفع الأمر إلى أمير المؤمنين ، ويذكر له رأيه ورأيهم ، وحجته وحجتهم ؛ فجاء الأمر بالأخذ برأى أبى لبابة ، وأزيل المستشفى وكان بعد قليل فى « منية عجب » وكان أبو لبابة موضع الحظوة إلى أن مات

ثم ذهب القصر بزينته وزخرفه ونعيمه ، وذهب المستشفى ومرضاه ، وبقى حديث أبى لبابة فى أفواه العلماء : هـذا يصب عليه سخطه لأنه قضى بالغرض ، ورأى رأيه لشخصه ، وهذا يرى أنه واسع الأفق من الرأى ، وهـذا يؤرخ بحادثته القضاء ، وكيف كان ، والى أين صار .

# الشيخ الدسوقى

## ومستر « لين » Lane

## (١)

إبراهيم الدسوقى الشهير بعبد الغفار من نسل سيدى موسى الدسوقى ، أخى سيدى إبراهيم الدسوقى ، صاحب المقام بدسوق ، من أسرة تنتمى إلى الحسين ابن على بن أبى طالب ؛ ولذلك كان يعد هو وأسرته من الأشراف ؛ ولد ببلدته دسوق سنة ١٢٢٦ هـ — ١٨١١ م .

ونشأ يتيما ، فقد مات أبوه وهو صغير فأرسل إلى الكُتّاب وحفظ القرآن ؛ وكان بدسوق معهد صغير ، هو صورة مصغرة جدا للأزهر مع طائفة من قومه .

وكان بالأزهر علماء كبار أصلهم من دسوق ، أمثال الشيخ محمد عرفة الدسوقى والشيخ مصطفى البولاقى ، كما كان فيه — ولا يزال — عصبية بلدية وعصبية منطقية . وساعد على هذه العصبيات وجود الأروقة ، فرواق الصعايدة ، ورواق الفشنية ، ورواق البحاروة ؛ وهكذا كانت العصبية ، فعصبية أهل كل بلدة بعضهم لبعض ، وعصبية لأهل المنطقة جميعها ؛ وكثيراً ما أدت هذه العصبية — حتى فى أيامنا بالأزهر — إلى منازعات ؛ فإذا كانت بين صعيدى وبحيرى انتظم معسكران : معسكر للصعايدة ومعسكر للبحاروة ، ودار الضرب بجميع الأسلحة الممكنة ، إلا الحديد والنار ؛ والحق يقال أن الصعايدة كانوا أشد بأساً وأكثر انتصاراً ، فكانوا أعز جانباً وأعظم هيبة ، وكثيراً ما يُتقى قتالهم بإجابة مطالبهم .

على كل حال اتصل إبراهيم الدسوقى بعلماء بلده وغيرهم من علماء عصره ، كالشيخ محمد عليش شيخ المالكية ، والشيخ محمد الشبينى ، والشيخ عبد الرحمن الدمياطى .

وحضر — على حد تعبيرهم — علوم المعقول والمنقول ، فنحو وصرف ، و بلاغة وتفسير ، وحديث وفقه ، ومنطق وتوحيد ، كما يحضر كل طلبة الأزهر . ولـكن يظهر أنه تأثر تأثراً خاصا برجلين من شيوخه كانت لهما نزعتان خاصتان نادرتان فى علوم الأزهر فى ذلك العصر .

أولهما شيخه وقريبه و بلديه الشيخ مصطفى البولاقى ، فقد كان هذا الشيخ مع تبحره فى العلوم الأزهرية ميالاً إلى العلوم الرياضية ، كالحساب والهندسة والفلك ، وأدّاه شغفه بهذه العلوم إلى مصادقة مشهورى الرياضيين ، مثل محمود باشا الفلكى ، وأساتذة مدرسة المهندسخانة ؛ ومهر فى هذه العلوم حتى ألف رسائل كثيرة فى الجبر والمقابلة وحساب المثلثات .

والثانى الشيخ أحمد المرصفى — والد الشيخ حسين المرصفى صاحب الوسيلة الأدبية — فقد كانت له نزعة أدبية إلى نزعته الفقهية ، واسع الاطلاع ، وكان سميراً لطيفاً ، ومحدثاً ممتعاً ، صحب أحد مماليك محمد على باشا وسافر معه إلى الصعيد ، وأقام معه سنتين ، فكان خبيرا بالدنيا وشؤونها ، وكان مهيباً فى درسه ، إذا عرض لطالب سعال ابتعد حتى لا يؤذى الشيخ بصوته .

اقتبس شيخنا الدسوقى قبسة رياضية من شيخه الأول ، وقبسة أدبية من شيخه الثانى أفادتاه فى عمله بعدُ كما اقتبس العلوم الشرعية واللسانية والنحو والصرف والبلاغة من شيوخه الآخرين .

***

عاش الدسوقى فى الأزهر مجاوراً فقيراً ، يأتيه الزاد من بلده من حين إلى

حين ، خبز جاف وقليـــل من السمن وشيء من الفريك ، ونحو ذلك مما يرسله الأهل الفقراء إلى أبنائهم في الأزهر ، وسكن مع رفقة من أهل بلده في حجرة قريبة من الأزهر ، إذا دخلتها رأيت حصيراً بالياً ، ومسامير كبيرة سمرت في الحائط يعلق فيها الطلبة ملابسهم ، وفي الركن صندوق يحتفظ فيه الشيخ بكتبه وملابسه ، وفَرْشة يفرشها إذا نام ويطويها إذا قام ، وهذا كل ما في الغرفة — أستغفر الله — ففي الغرفة أيضاً « حَلّة » وصحن ، قد يشتهي هو وصحبه اللحم فيشتركون في شراء رطل ، ويتعاونون جميعاً على شرائه وطبخه ، وتقوم في الغرفة حركات عنيفة ، ونداآت وأوامر ونواه ، وتمتلئ الغرفة بالدخان ، وقد يعوزهم الخشب فيتممون الطبخ بالورق ، ثم يتحلقون لأكله في لذة ونهم ، وتكون هذه الأكلة الفخمة حديث الأسبوع أو حديث الشهر .

وتنفرج الأزمة بعض الشيء بالجراية ترتب له ، ثلاثة أرغفة كل يوم فيكون فيها سداد من عوز ، ويدخر منها أحياناً ، ويبيع ما يدخره ليشتري بثمنه إداماً لبعضه الباقي .

ويجاهد في الحياة ، وينسى البؤس بلذة العلم والتحصيل ، حتى يتم دراسته في الأزهر ويبدأ في التدريس ، وليس للمدرس مرتب يتقاضاه ، فهو في فقره مدرساً — كما كان في فقره طالباً .

ثم يسعده الحظ ، فيعين « مساعد مصحح » للكتب الطبية في مدرسة أبي زعبل سنة ١٢٤٨ هـ — ١٨٣٢ م فكان أطباء هذه المدرسة يؤلفون ويترجمون ويطبعون ، ويساعد هو في تصحيح اللغة وتصحيح الطبع .

ثم ينقل إلى مدرسة المهندسخانة ويترقى إلى وظيفة مصحح . وكان يدرس بهذه المدرسة علوم شتى ، فميكانيكا وديناميكا ، وتركيب الآلات ، والجبر ، وحساب التفاضل ، والطبوغرافيا ، والكيمياء والطبيعة ، والمعادن ، والجيولوجيا ،

والهندسة الوصفية ، وقطع الأحجار والأخشاب ، والظل والنظر ، ولم تكن هناك كتب فى هـذه المواد ، فكان التلاميذ يكتبون عن المدرسين ما يسمعون فى كراريسهم ، ويفوتهم منها أشياء كثيرة ، ثم تقدمت المدرسة فأنشأت مطبعة حجر يطبع عليها الأساتذة بعض كتبهم بأشكالها ورسومها ؛ ثم أنشئت فى المدرسة مطبعة حروف بجانب مطبعة الحجر ، وتعين الشيخ الدسوقى لتصحيح هذه الكتب.

وانتقلت هذه المدرسة بعدُ إلى بولاق ، فعهد إليه أمران : أن يعلم فرقتين من طلبة المهندسخانة اللغة العربية ليحسنوا الترجمة من الفرنسية إلى العربية ، وأن يصحح ما تطبعه هذه المدرسة من كتب الرياضة .

وظل الشيخ يسكن فى حى الأزهر ولكنه اشترى حماراً يذهب به كل يوم إلى المدرسة ببولاق .

ثم أغلقت مدرسة المهندسخانة فى عهد سعيد باشا ، فحوّل الشيخ الدسوقى إلى المطبعة الأميرية ببولاق أيضاً ليصحح فيها الكتب ويشارك فى تحرير الوقائع المصرية .

خرجت كتب كثيرة من المطبعة الأميرية تحمل اسمه ، فهو فى آخر كل كتاب يصححه يضع له خاتمة بأسلوبه المسجوع حسب مألوف عصره ؛ ولما كان لقبه « الدسوقى » — وهى كلمة صعبة فى المزاوجة — كان يجهد نفسه فى البحث عن سجعة تناسب هـذا اللقب ، وأحياناً يفر منها إلى سجعة أسهل منها تناسب عبد الغفار ؛ فيقول — مثلا — فى آخر تاريخ ابن الأثير : « يقول المتوسل إلى مولاه بالنبى المختار ، إبراهيم الدسوقى الملقب بعبد الغفار ، خادم تصحيح كتب العلوم والفنون ، بدار الطباعة ذات الطبع السليم المصون » .

وفى آخر كتاب « تزيين الأسواق » : يقول المتوسل إلى مولاه بالقطب الحقيق ، إبراهيم عبد الغفار الدسوقى .

وفى آخر كتاب « الإنسان الكامل » : « يقول المتوسل إلى الله بالجاه الصدّيق ، إبراهيم عبد الغفار الدسوقى » ، وفى آخر شرح العكبرى : « يقول المتوسل إلى الله بالجاه الفاروقى ، إبراهيم عبد الغفار الدسوقى » .

وفى كل ذلك يدعو للخديو إسماعيل وأنجاله الكرام ، كما يدعو لذوى المهارة والفطانة ، مدير المطبعة والكاغدخانة ، وملاحظ المطبعة ذى القدر الممجد ، أبى العينين أفندى أحمد .

وقد خرجت كتب كثيرة مختتمة بكلمته الدالة على تصحيحه غير ما ذكرنا ككتاب « منار الهدى فى الوقف والابتدا » ، وصحيح مسلم ، وصحيح الترمذى ، وقانون ابن سينا فى الطب ، والتنوير على سقط الزند ، إلى غير ذلك .

وقد وضع خاتمة لكتاب الكشاف المطبوع فى بولاق ذكر فيها ترجمة الزمخشرى وقيمة تفسيره .

ثم رقى فى عهد الخديو إسماعيل إلى وظيفة باشمصحح المطبعة ، ولم أعرف مرتبه بالضبط إلا أن أمثاله فى ذلك الوقت كانوا يتقاضون خمسمائة قرش ، وقد ظل فيها إلى أن أحيل إلى المعاش ؛ ثم توفى سنة ١٣٠٠ هـ — ١٨٨٢ م عن نيف وسبعين سنة .

والحق أن طائفة من العلماء غبنوا حقهم ، ولم يؤرخوا التاريخ الواجب لهم ، وهم المصححون ، فقد كانوا يمتازون فى عصرهم بثقافة أوسع من أمثالهم . واقتضاهم عملهم أن يطلعوا على كثير من الكتب فى التاريخ والأدب واللغة والفلسفة وغير ذلك ؛ فاتسعت مداركهم وآفاقهم ، واضطرهم عملهم أن يكتبوا خاتمة الكتب ، أو شرحا لغامض ، أو أن ينشئوا تقريظا لكتاب ، أو تعليقاً عليه ، أو قصيدة فى مثل هذه الأغراض ؛ فجرت أقلامهم ، ومرنوا على الإنشاء والكتابة فى زمن عز فيه الأديب ، وندر فيه الكاتب ، وإن كان إنشاؤهم

وكتابتهم مقيدة بنمط العصر من التزام السجع المتكلف ، والاستعارة المشدودة ، وما إلى ذلك .

اشتهر من هذه الطبقة الشيخ نصر الهوريني ، ثم الشيخ محمد قطة العدوى ، ثم الشيخ إبراهيم الدسوقي ؛ ويظهر أنهم كانوا فى درجة علمهم وأدبهم كما كانوا حسب ترتيب زمانهم .

نشروا كثيراً من الكتب القيمة ، ولقوا فى تصحيحها العناء ، وأذهبوا فى مسوداتها سواد عيونهم ، وهم وإن لم تبلغ كتبهم منتهى الجودة من حيث الإخراج والضبط ، فقد بذلوا غاية جهدهم ، وجعلوها صالحة للاستفادة منها ، واستخرجوها من أصول سقيمة ، وخطوط عليلة .

***

حدث للشيخ الدسوقي حادث كان له فى حياته أثر ، وفى قصصه متعة : فى سنة ١٢٥٨ هـ — ١٨٤٢ م ، كتب المستشرق « لين » من لندن إلى صديق له فرنسى مستشرق أيضاً فى القاهرة يسمى « فِرِسْنِلْ » (Fresnel) ( كان يتملح باسمه أمام العلماء ويقول إن اسمى فرسنل على وزن فرزدق ) يخبره بعزمه على المجىء لعمل هام ، ويطلب إليه أن يبحث له عن شيخ مصرى له ذوق فى الأدب ومعرفة به ، وأن يكون لطيف الحديث حسن العشرة دمث الأخلاق ؛ فاختار له « فِرِسْنِلْ » جملة أشخاص وصفهم له ، منهم الدسوقي ، وكان « فرسنل » يعرفه ويتصل به ، ويعمل معه فى شرح شواهد كتاب « الصحاح » فى اللغة ، وكتب إلى « لين » بوصفهم ، فوقع اختياره على الدسوقي وبعث يطلب إلى « فرسنل » أن يبلغه سلامه ويخبره بمقدمه .

ففى يوم من تلك السنة اعتزم الشيخ الدسوقي الذهاب صباحا إلى حمّام السوق ، وكانت عادة أوساط الناس وفقرائهم أن يترددوا على الحمام ، إذ لم تكن

بيوتهم صالحة للاستحمام فيها ، فكان لكل حيّ حمامه ، كما أن لكل حي مسجده ومرافقه ، وكان الشيخ الدسوقى إذا أراد الحمام يخرج من بيته فيخترق خان الخليلى ثم ينحرف إلى حمامه .

مرّة كعادته بخان الخليلى حتى وصل إلى دكان يتاجر فى العاديات القديمة والسبح وما إلى ذلك ، كان صاحبه صالح أفندى كامل صديقاً له . فوجد الشيخ فى الدكان جمعاً سلم عليهم ، وسمع صاحب الدكان يقول : هذا هو الشيخ الدسوقى كفانا مؤنة البحث عنه ؛ فسلم الشيخ عليهم ، وسلم على رجل غريب معهم يلبس زى الأتراك ، ويتكلم العربية الفصحى كأهلها . عجب الشيخ من حسن استقبال هذا التركى ، واستغرب إذ يقبل عليه بالسلام كأنه يعرفه ، والشيخ لا يعرفه . ثم عرفه بنفسه وأنه « لين » الإنجليزى ، فذهبت حيرته ، وجلسا جنباً إلى جنب ، وتعارفا وتآلفا ، ودعاه « لين » إلى زيارته فى بيته فى هذا المساء ، فلبى دعوته ، وكانت عشرة لطيفة عجيبة دامت سبع سنوات .

## (٢)

أما صاحبنا إدورد وليم « لين » فكان أكبر من صديقه الدسوقى بنحو عشر سنوات ، إذ ولد فى « هير فورد » بإنجلترا سنة ١٨٠١ ؛ وكانت أمه متينة الخلق لطيفة الطبع ، فورث منها — كما كان يقول — كثيراً من حسن استعداده واستقامة تفكيره . تعلم فى مدرسة بلده ، ثم أريد أن يكون رجل دين ، فأبى ذلك وتخصص للاستشراق ، فجد فى التعلم والبحث حتى ساءت صحته ؛ فنُصح أن يذهب إلى مصر ، فجاءها لأول مرة شابا سنة ١٨٢٥ ، وجعل همه أن يدْرُس اللغة العربية فى أهم أماكنها ، وأن يدرس حالة الشعب المصرى وأخلاقه وعاداته وثقافته وكل ما يتصل به ، فمكث فى ذلك ثلاث سنين ، متزيياً بزى الأتراك ،

متسمياً « منصور أفندى زاده » ، ساكناً فى الأحياء الوطنية ، متنقلا بين القاهرة والنوبة ؛ فكتب فى ذلك ما شاء من التعليقات واليوميات والملاحظات وعرضها على جمعية فى إنجلترا بعد عودته ، فاستحسنتها وأشارت بطبعها ؛ ولكنه رأى أنها ناقصة تحتاج إلى إكمال ، فعاد ثانية إلى مصر سنة ١٨٣٣ ومكث فيها نحو سنتين قضى أكثرها فى القاهرة وأقلها فى الصعيد ، باحثاً منقباً عن العادات والأخلاق ، مصححاً ما دوّن من قبل .

وضع للوصول إلى هذا الغرض برنامجاً دقيقاً ، فقد تعلم العربية حتى استطاع أن يتفاهم مع الشعب ويفهم منه ، والتزم أن يعيش كما يعيش المسلمون ، ويتعود عاداتهم ؛ وحتى لا يثير شكوكهم كان يصوّب آراءهم ويمدح عاداتهم ما طاوعته نفسه ، ويتجنب مخالفتهم وما يستوجب كراهيتهم ، ويمتنع عن أكل ما لا يأكلون أو شرب ما يحرّمون ، فلا يأكل خنزيراً ولا يشرب نبيذاً ، بل تجنب حتى ما لا يعتادون ولو أباحه الدين ، فلا يستعمل فى أكله أمامهم شوكة ولا سكيناً ؛ ومكنه ملبسه وكلامه وعاداته ومظهره بمظهر الإسلام أن يدخل المساجد ، ويشهد الموالد ، ويرى الشعائر ، ويشترك فى شهود الأعياد والمحافل ، وكان يشعر بتحفظ المصريين عن الكلام فى الجن وكرامات الأولياء والسحر وما إلى ذلك أمام من لا يعتقدها ، فكان يتسقط من بعضهم كلامهم فى هذا الموضوع ، ويتظاهر بالاعتقاد فيه والإيمان به ، ويحدث مستمعيه ببعض ما سمع ، زائداً عليها من خياله ، حتى يأمن محدثه جانبه فيفيض عليه من أحاديث الجن والكرامات ، والسحر والمغيبات ، ما يملأ رغبته ويحقق مطلبه ، ويقفه على ما يدور برءوس عامة المصريين من هذا الباب . فكان يحدّث عن أحداث رأى فيها الجن ، وكان يقول إنه يعتقد فى الشيخ « أحمد الليثى » الذى كان يمشى حافياً فى ركاب « الشيخ العروسى » أنه من أهل الكرامات ، لأنه يحدثه بأخبار

لندره فى مواعيدها قبل أن يأتيه البريد بها ؛ يستجاب بذلك كله أحاديث الناس فى مثل هـذه الموضوعات وتوسعهم فيها . كما كان يحدث خاصته من المسلمين بأنه يعتقد فى عيسى عليه السلام أنه رسول لا إله ، وفى محمد أنه رسول الله سيد ولد عدنان . واختار شيخين مسلمين يأجرهما ليزيدا فى تعليمه العربية ، وليستقصى منهما الأخبار والآراء ، وليستفسر منهما عما يتوقف فيه ، وليعرض عليهما ما وصل إليه ليصححا خطأه إن كان ؛ وصادق بعض الكبراء والعظماء والأغنياء ، وكثيراً ما كان يتردد على الشيخ العروسى والشيخ العطار ، ويفتح بيته للزائرين والمترددين ، ويغدق عليهم من كرمه ، ويقدم لهم القهوة والدخان ، ويدعوهم للغداء والعشاء ، وتتردد أخته على قصور الأمراء فتتعرف عاداتها ودخائلها . وهكذا عمل كل ما يستطيع للوقوف على كل شىء فى مصر .

وقد كان ماهراً فى فن التصوير ، فصور بيـده كل ما يعنيه من الصور : الرجل فى صلاته ، والمرأة فى بيتها ، والسقّاء بقربته ، وحفلات الذكر ، وأدوات الزينـة ، وآلات الغناء ، وأنواع الحلى ، إلى أن أتم ١٣١ صورة أودعها كلها فى كتابه الذى نشره سنة ١٨٣٦ .

كما عكف على ترجمة « ألف ليلة وليلة » ، ولعل ذلك لأنها تتم حلقة عمله فى العادات والأخلاق ؛ فألف ليلة تمثل الحياة الاجتماعية الإسلامية فى القرون الوسطى ، وكتابه الذى أسلفنا يمثـل الحياة الاجتماعية فى مصر الحديثة ، نشره سنة ١٨٣٨ هـ — ١٨٤٠ .

هذا هو « لين » قبل أن يتعرف بصديقه « الدسوقى » . ثم عمل « لين » تصميماً لعمل خطير ؛ هو أن يضع معجماً للغة العربية باللغة الإنجليزية ، أساسه ترجمة القاموس مع شرحه تاج العروس ، وهذا يتطلب أن يفهم القاموس المحيط فهماً جيداً ، وهو صعب الفهم حتى على أهل العربية ، وهو أيضاً يقتضى

نسخة صحيحة ما أمكن من القاموس ، ثم تراجع على سائر النسخ ليتثبت من صحتها ، ثم إذا وصل إلى نبات أو حيوان — وما أكثرها فى القاموس — وجب أن يعرف مقابلها بالإنجليزية ، وإذا اعترضته عبارة غامضة حل غموضها ، وهكذا ، عمل شاق لا يستطيعه إلا رجل جبار ، وليس يمكن ذلك إلا فى مصر بلد العلم العربى ، وهى — أيضاً — حارة الجو جافته تناسب المصدورين أمثال « لين » .

وضع خطته للسفر وبعث إلى صديقه « فرسنل » ليتخير له معيناً ، فكان هو الشيخ الدسوقى — كما أسلفنا .

حضر إلى مصر لثالث مرة سنة ١٨٤٢ ، وكان عمره إذ ذاك ٤١ سنة ؛ ولكن الشيخ الدسوقى قال : « وفد علينا فى عقد الخمسين من البلاد الشاسعة ، ذات المعارف الواسعة ، والصنائع البارعة ، والتحف الرائعة . . . . إنسان قد وخطه الشيب ، وليس فى لسانه لكنة ولا عيب ، طويل القامة ، كبير الهامة ، تلوح عليه الأمارة ، فصيح العبارة ، كأنه عدنانى أو قحطانى ، إلا أنه ذو زى عثمانى ، لا يتكلم إلا بفصيح الكلام ، وله بفنون الأدب إلمام » .

اعتاد « لين » أن يسكن فى الأحياء « البلدية » فكان يسكن فى « حارة السقايين ثم فى حارة قواديس » ودعا الشيخ الدسوقى أن يزوره فى بيته ، وعند أول لقاء عرّفه بغرضه ، وعرض عليه منهج العمل فى القاموس ، وطلب إليه أن يحضر إليه كل يوم عصراً ، ورتب له كل شهر مبلغاً من المال فوق ما كان يؤمل الشيخ الدسوقى ، وشرعا — على بركة الله — فى العمل .

أعدّ « لين » مكتبة يستعين بها على عمله ، فعنده نسختان خطيتان من القاموس ، ونسختان من الصحاح ، ونسخة من تاج العروس شرح القاموس ، وبعض نسخ أخرى ، ونسخة من لسان العرب ، يظن الدسوقى أنها بخط المؤلف ، وأجزاء من المُحْكَم لابن سِيدَه ، وكثير من دواوين الشعراء ، والمزهر للسيوطى .

واقترح « لين » أن يبدأ بمطالعة المزهر حتى يتذوق اللغة وحدودها ، ثم يقرأ كل يوم نصف كراسة من تاج العروس شرح القاموس يفهمها ويستفسر عما صعب منها ويراجعها على ما عنده من كتب اللغة حتى يستوثق من صحتها ، وعلى هذا تم الاتفاق .

فى حجرة فى بيت « لين » فى القاهرة كان يجتمع شيخان تباينا فى المنشأ والتربية والعقلية ، والنظر إلى الحياة : هـذا إنجليزى تربى على آخر طراز ، وعرف الدنيا وشؤونها ودقائقها ، وجاب البلاد شرقها وغربها ، وبرها وبحرها ، وخالط ساستها وعلماءها ، ووصل من ذلك كله إلى غاية ما يستطيع مثقف أوربى فى القرن التاسع عشر أن يصل إليه ، وهـذا شيخ مصرى قضت طبيعة تعلمه ومنشئه وظروفه أن يعيش فى دنيا محدودة الأفق ؛ وكان الشعب المصرى لا يزال محتفظاً فى عيشته وتقاليده وعاداته بما ورثه من القرون الوسطى ، لم تغزه المدنية الغربية كما غزته بعد ، ولم تتكسر الحدود والفواصل بينه وبين الغرب كما تكسرت بعد ؛ وكانت مصر تتخذ قبلتها بغداد الرشيد ، وقاهرة المُعِزّ قبل أن تتحول فتتخذ قبلتها باريس أو لندن ؛ فكان الشرقى يدهشه الغربى بتصرفاته وأفانينه ؛ وكان الغربى يعجبه منظر الشرق كما تعجبه العاديات القديمة ، وكما يعجبه متحف الآثار .

على هذا التقى « الدسوقى » و « لين » ، ولـكن ألف بينهما الغرض العلمى واللسان العربى ، ورغبة « لين » أن يتعرف كل ما عند الدسوقى من أفكار وعادات وعقائد ليدرسها لا ليحياها ، وليشرحها لا ليعتقدها ، وأن يعرف ما عنده من علم ليستعين به على أداء غرضه ، والوصول إلى غايته . ومهما كان من فوارق فالماء الحار والبارد إذا تلامسا وامتزجا تعادلا ، ونزل الحار عن شىء من حرارته ، والبارد عن شىء من برودته ؛ فهـذا « لين » يعتاد أن يقول : « باسم الله » فى

مبدإ عمله ، ويلتزم ذلك فى حياته حتى بعد عودته إلى إنجلترا ، وهذا الدسوقى يدخن « البيبة » فى شكل « شُبُك » .

كان يذهب الدسوقى عصر كل يوم إلى بيت « لين » فإذا جلس قليلاً حضرت صينية الشاى ، عليها أربعة فناجين كبار مملوءة شاياً وقهوة محلاة بالسكر، لكل منهما اثنان ، ومعلقتان لكل منهما ملعقة ، ورغيفان مستطيلان لكل منهما رغيف ، فيشربان ويأكلان ويتحدثان ، فإذا تم ذلك أُحضر شُبُكان مكسوان بالحرير المقصَّب لكل منهما شُبك ، فيدخنان ويقرآن ، فإذا بدأا القراءة فلكل منهما نسخة من الكتاب ، وضعت على سطح مائل ، يقرآن ويراجعان ويتفهمان، إلى أن يتم نصف الكراسة فينصرف الشيخ ، ثم يأخذ « لين » فى ترجمة مافهم إلى الإنجليزية ، فتسير الترجمة مع القراءة . ويستمران على هذا سبعة أعوام لا يكلان ولا يملان ، والشيخ « لين » جاد فى عمله ، قد يمكث فى بيته الشهر أو الشهرين أو الثلاثة لا يخرج فيها مرة ، يعمل من الصباح بعد الفطور إلى نحو نحو نصف الليل ، لا يستريح فيها إلا أوقات الأكل،ونحو نصف ساعة يتروض فيه بين مشى وصعود الدرج وهبوطه ، حتى أتم تسعة أعشار الكتاب .

ولندع الآن حديث مابينهما من عمل علمى رسمى ، لنتحدث حديث مابينهما من عواطف ، لقد تأكدت بينهما الصداقة وتوثق بينهما التآلف .

هذا الشيخ الدسوقى يظل طول عمره كادًّا يحصّل قوته وقوت عياله ، ويدخر القليل حتى يبلغ ما يدخره أربعة عشر كيساً (١) ، فيعتزم أن يشترى بها بُيَيْتاً يؤويه وذريته ، وهو يحتفظ بها فى صندوق البيت ، ويوصى السمسار أن يبحث له عن منزل مناسب ، فيريه هذا فيراه قديماً ، وهذا فيراه كبيراً .وسرعان مايشيع الحديث أن الشيخ اغتنى ، وأنه يبحث عن بيت يشتريه، وتصعد الرائحة إلى أنف

(١) الكيس خمسة جنيهات .

اللص ، فيتربص خروج الشيخ وغفلة أهل البيت ، ويتسلل إلى الصندوق ويختلس المال ، فيعود الشيخ وقد ضاع المال ، فيضرب كفا على كف ، ثم ينفعه إيمانه فيردد : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم « الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » ويذهب إلى صديقه ، فيراه « لين » مرتبكاً ؛ فيقص عليه قصته ، فتدمع عين « لين » ويبكى رحمة بالشيخ ، ويحلف أن لو كان له مال لعوضه عما فقده فى الحال .

كذلك يصاب الشيخ « لين » بمثل هذه المصيبة ، فيكون له مال مودع فى بنك فى إنجلترا يسحب منه فى كل شهر ما يلزمه ، فيفلس البنك ويقع « لين » فى الضنك ؛ وكان أخشى ما يخشاه أن يصد عنه الدسوقى ، ويتخلى عنه إذا لم يأجره ، فما كان من صديقه الدسوقى — وقد علم بهذا الأمر — إلا أن يصرف عنه هذا الخاطر — وأن يعاهده أن يستمر فى تدريسه بل يزيد فى اجتهاده : قال الشيخ : « ومازلت أوافيه على العادة ، التى كانت بيننا معتادة ، بل زدت على ما كان ، فشكرنى على هذا الإحسان ، حتى قيض الله له ناساً من أهل لوندره ، ذوى ثروة معتبرة ، فوضعوا له فى البنك ما يَرِدُ منه ما يكفيه ، فأجرى إلىّ ثانياً ما كان يجريه » ، وهكذا كان الشيخان يتبادلان العطف والوفاء طوال السبعة الأعوام .

كان الشيخ « لين » يعيش فى أسرته وهى مكونة من زوجة له رومية وأخته وابنى أخته ، وكانت زوجته وأختــه تلبسان لباس المصريات ، فلا تخرجان إلا مؤتزرتين مبرقعتين ، فلم ير الشيخ الدسوقى لهما وجهاً مع كثرة تردده وتودده ، ومع هذا كان إذا مرضت زوجه أو أحد أولاده ، ذهبت أخت « لين » إلى بيت الدسوقى فعالجت ومرّضت ، وأعطت من الدواء ما عرفت حتى يتم الشفاء ، ويشكره الشيخ .

ويعجب الدسوقى من هذه الأسرة ، فبيتها مدرسة عجيبة : هذا الشيخ عاكف على ترجمة القاموس ، وهذان الابنان تعلمهما أمهما اللغتين التليانية والفرنسية ، ويقرأ لهما خالهما النبيل ، شرح ألفية النحو لابن عقيل ، وأصغرهما وسنه ١٥ سنة يجيد معرفة الهير وغليفية .

ويعجبنى قول الشيخ : « فانظر ياذا الكسل ، الذى هو أحلى مذاقاً من العسل ، إلى هذا الاستعداد العجيب ، والجد الغريب » .

وانطلت الحيلة على الشيخ الدسوقى ، فكان يعتقد أن « لين » يؤمن بالجن وكرامة الأولياء ، ونبوة محمد ، ونبوة عيسى ؛ ويعجب أنه بعد ذلك كله لا يُسلم ، ولم يدر بخلده أن ذلك منه كان سياسة وتقية .

فان أردت أن تعرف رأى أحدهما فى الآخر ، فرأىُ الدسوقى فى « لين » أنه « لبيب ماهر » ، « ذو غيرة إنسانية » ، « كريم مُواس » ، « رقيق القلب ، خالص الود » ، « لا يؤثر فى حسن معاملته للناس اختلاف الدين » .

ورأى « لين » فى الدسوقى أنه يُرضى كل الرضا من ناحيته العلمية فى العمل الذى يعمله معه ، ولكنه يأخذ عليه من الناحية الخلقية أنه « حاد المزاج ، ضيق الصدر ، طماع بخيل » . وهو رأى قاس ونقد لاذع ، ولا شك أنه عبر عن عقيدته فيه ؛ ولكن أخشى أنه لم يرحمه فى الحكم عليه فلم يقدر ظروفه وأحواله ، ونشأته الفقيرة وأسرته الكبيرة ، وموارده الصغيرة .

***

بعد مضى سبع سنين تدخّل الزمن الذى لم يُبق شيئاً على حال ، فدعت الدواعى الملحة أن يعود « لين » إلى بلاده ولما يتم العمل قال الشيخ : « وقضينا معاً حقبة من الدهر ناضرة ، فى عيشة زاهية زاهرة :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحـــــلام

وقبل الرحيل أهدى « لين » الشيخ الدسوقى سجادة عظيمة ونسخة من القاموس وساعة جيب ، وقاس نظره و بعث فأحضر له من لندن « نظارة » لائقة بعينيه ، وأهداه ابنا أخته « خرجاً مجميا شغل الإبرة » .

وكلفه أن يتم العُشْر الباقى من تاج العروس ، يقابله على النسخ الأخرى ، ويصحح خطأه ، ويفسر غامضه ، فكان يفعل ذلك و يسلمه إلى مستر ليدر[1] ، ليرسله إليه فى انجلترا حتى تم الكتاب .

عاد « لين » إلى إنجلترا سنة ١٨٤٩ فعكف على العمل بمثل الجد الذى كان منه فى مصر ، حتى أنفق فيه عشرين عاماً أخرى ، ثم بدأ فى طبعه سنة ١٨٦٣ ، وظل يعمل فى تصحيح التجارب إلى أن وصل إلى نصف الجزء السادس سنة ١٨٧٦ .

يعمل ليل نهار فى حياة راتبة بين ملزمة تحضّر ، وملزمة تصحح ، وجزء يتم ثم ينشر ، لا ينقطع عن عمله إلا يوم الأحد إذ يصرفه فى الدين ، فيصلى مع المصلين ، ثم يعكف على قراءة الكتاب المقدس لا ناقدا علميا ، ولا ناقداً لغويا ، ولكن مستخرجاً معنى خلقيا ، أو مبدأ روحيا . لقد كان يصلى فى مصر فى المسجد مع المسلمين ، وكان يصلى فى إنجلترا فى الكنائس مع المسيحيين ، والدين كله لله .

وفى يوم من أيام أغسطس سنة ١٨٧٦ أصيب ببرد لم يعبأ به ، ثم اشتد شدة لم تكن تتوقع ، ثم انطفأت شعلته على غير انتظار .

مات عن خمسة وسبعين عاماً قبل أن يموت صديقه الدسوقى بستة أعوام .

ولعل هذه العلاقة بين الدسوقى الأزهرى و «لين» الإنجليزى كانت السبب فى أن يضع «على باشا مبارك» بمعونة صديقه «عبد الله باشا فكرى» قصة طويلة ممتعة نسيها الأدباء — من غير حق — فى تأريخهم القصة المصرية الحديثة ، أتحدث عنها بعدُ .

---

(١) ليدر كان قسيسا إنجليزيا فى مصر وصديقا للين .

# قصة علَم الدين

يظهر لى أن علاقة الشيخ الدسوقى بالأستاذ « لين » أوحت إلى على باشا مبارك أن يضع قصة طويلة ممتعة ظلمها مؤرخو الأدب العربى عند تأريخ القصة ، فأهملوها أو جهلوها ، مع أنى أعتقد أنها أول قصة مصرية قيمة أُلفت فى العهد الحديث ، قصة قيمة من حيث موضوعها ومن حيث لغتها ؛ وهى طويلة تقع فى نحو ألف وخمسمائة صفحة فى أربعة أجزاء ، ولم تتم .

كان على باشا مبارك وقت تأليفها « ناظر المعارف » ، أو على حد تعبيرنا اليوم « وزير المعارف » ، فحشد جمعاً كبيراً من المدرسين ورجال العلم فى مصر ليعمل فى هذه القصة ، ووضع لها خطة محكمة ، هى أن يحصروا أهم مظاهر المدنية الحديثة ، كالسكك الحديدية والبريد والملاحة والتياترو والبورصة والبنوك وأوراق المعاملات ووسائل الإضاءة ، إلى غير ذلك ، ثم أن يحصروا أهم المعلومات التى يجب أن يعلمها الإنسان المثقف ، وآخر ما وصل إليه العلم فيها كالبحر وعجائبه ، والبراكين ، وعجائب الحيوان ، كدود الخشب ودود القز وكلب البحر ، والذهب والأحجار الكريمة ، والفلاحة والزراعة ، وطبقات الأرض ، وأشهر النباتات وما يستخرج منها كالقطن والبن والعنب والأشربة والكؤول ، والموضوعات الاجتماعية كعادات الأوربيين فى مأكلهم وملبسهم ومجتمعاتهم ، وعادات المصريين فى ذلك ، ثم موضوعات أدبية كالسلف والخلف فى الإسلام ، والميسر والأنصاب والأزلام ، ومعنى المعلقات ، وتاريخ القهوة والحشيش ، والموالد والأعياد والمواسم ، إلى غير ذلك ؛ وكلف كل إخصائى فى موضوع أن يكتب له فيه .

ووضع فكرة القصة ، وأدخل فيها هذه الموضوعات كلها . وعهد إلى عبد الله باشا فكرى ، وكيله فى المعارف ، أن يشرف على لغتها ، « ويهذب معانيها ويشذب مبانيها » ، ففعل ذلك فى أكثر الكتاب ، « فجاء كتاباً جامعاً ، اشتمل على جمل شتى من غرر الفوائد المتفرقة فى كثير من الكتب العربية والفرنجية فى العلوم الشرعية ، والفنون الصناعية ، وأسرار الخليقة ، وغرائب المخلوقات ، وعجائب البر والبحر ، وما تقلب نوع الإنسان فيه من الأطوار والأدوار فى الزمن الغابر ، وما هو عليه فى الوقت الحاضر ، وما طرأ عليه من تقدم وتقهقر ، وصفاء وتكدر ، وراحة وهناء ، وبؤس وعناء . . . . مع الاستكثار من المقابلة والمقارنة بين أحواله وعاداته فى الأوقات المتفاوتة ، والأنحاء المتباينة » .

رأى أن مصر واقفة فى مدنيتها عند ما ورثت من القرون الوسطى إلا قليلا ، وأن أوربا سبقتها بمراحل فى جميع مرافق الحياة ، وأن الخير لمصر أن يقف أهلها على كل ما وصلت إليه المدنية فى أوربا ليتخيروا منها ما يصلح لهم ، ويدخلوا منها على نظامهم ما يرقى شؤونهم . ورأى أن النقد فى مصر لا يستساغ ولا يباح ، والناقد معرّض لأنواع من الاضطهاد والعذاب . ورأى أن التعليم بالقصص ألذ وأمتع ، وأدعى إلى النشاط ، وأبعد من الملال ؛ وأن الناقد للشؤون الاجتماعية فى القصة أوسع حرية من الناقد الصريح ، فالنقد فيها ملفوف يجرى على لسان غيره ، ولا يتعرض صاحبه لما يتعرض له الناقد الصريح . لهذا كله وضع هذه القصة .

بطل القصة شيخ من الأزهر اسمه الشيخ عَلَم الدين ، كان أبوه معلم كُتّاب فى قرية من قرى الريف ، علّم ابنه ما يعلّم فى الكتاب ، من حفظ للقرآن ومبادئ القراءة والكتابة ؛ ثم رأى فيه من النجابة ما جعله يستخير الله ويرسله إلى

الأزهر الشريف ، فيزوده بالنصائح وبالزاد . ويسافر علم الدين فى مركب مع قوم من أهل بلده يقضون فيه الأيام حتى يصلوا إلى القاهرة ؛ ويذهب بخطاب من والده إلى صديق له فى مصر يوصيه فيه بابنه ، ويطلب منه أن يعرفه بمشايخ الأزهر ليعنوا بأمره . ويجدّ فى طلب العلم ، ويعيش على الجراية وعلى السهر فى الختمات عيشة ضنكا ، ولكنه يرضى بما قسم الله ، ويخطر له الخاطر فى الاعتراض على توزيع الغنى والفقر ، وكيف يغتنى الجهلاء ويفتقر العلماء ؛ فيطرد هذا الخاطر سريعاً ، لأنها مشيئة الله الذى لا يُسأل عما يفعل ، والذى يُجرى الأمور بحكمة قد تدق عن الأفهام .

ويتم الشيخ علم الدين دراسته ، ويجلس للتدريس ويريد أن يتزوج ، فيستخير الله فى أن يتزوج غنية أو فقيرة ، فتخرج الاستخارة على الفقيرة ، ولو طلب الغنية ما أجابت ؛ فيتزوج فتاة عاقلة دينة فقيرة جاهلة ، فيعلّمها ويجدّ فى تعليمها حتى تصل قريباً من درجته فى علمه ، ويرزق منها بأولاد ، ويلح الفقر عليهم فيألم الزوج وتألم الزوجة ، ولكن كليهما يكتم ألمه ؛ ثم يدخل الشيخ فيجد زوجته تبكى ، فيسألها عن سبب بكائها فتدارى ، فيلح عليها ، فتفصح أنه فقر وسوء الحال ؛ ويتدرج الحديث فى سبب الفقر ، فيذهب هو إلى أنه القضاء والقدر ، وتذهب هى إلى أنه القانون الطبيعى ، وأنه لم يسلك السبل الطبيعية لتحصيل المال ليكون غنيا ، فلا بد أن يعمل عملا ما يكسبه مالا ، ولو أدى إلى أن يذهب إلى بلده ليحل محل أبيه فى تعليم أولاد القرية ، أو نحو ذلك من الأعمال .

ويخرج الشيخ من بيته ضيق الصدر من هذا الجدال مفكراً فى السفر إلى الريف كما نصحت زوجته ، ثم تنفرج الأزمة إذ يحضر رجل إنجليزى إلى القاهرة من المشتغلين باللغة العربية ، ويلقى شيخ الجامع الأزهر ومعه رسائل من الأمراء والكبراء يوصون فيها شيخ الجامع بالرعاية له والعناية به ، ويقص

الإنجليزى على الشيخ أن عنده نسخة من لسان العرب لابن منظور يريد نشرها وطبعها ، لعظم فائدة الكتاب ، وأنه حضر إلى مصر لتصحيحها ، وأنه يريد أن يدله الشيخ على أستاذ من أفاضل العلماء المتبحرين فى تصحيح الكتب ليعينه على عمله ، وليقرأ عليه بعض العلوم العربية ، وأنه مستعد أن يعطيه فى نظير ذلك مرتباً يرضيه ، وإذا اقتضى الحال أن يسافر معه إلى بلاد الإنجليز استصحبه معه ، وضاعف له مرتبه ، فسمى له شيخ الجامع جماعة من العلماء ؛ فاجتمع بهم وحادثهم ، وعرف ما عندهم ، وعرض عليهم أمره ؛ فمنهم من اعتذر لكبر سنه ، ومنهم من رأى أن ذلك لا يجوز فى الدين ، ولكن الذى قبل وأعجبته الفكرة وأعجب به الإنجليزى كان هو الشيخ علم الدين ، وعاد إلى بيته وشاور امرأته فشجعته على القبول وطلبت إليه أن يصحب معه أكبر أولاده « برهان الدين » ، وتم الاتفاق وتأهب الشيخ للسفر .

صورت القصة الشيخ علم الدين صورة طريفة ، فهو شيخ طيب مسلم متمسك بدينه ، مؤمن أتم الإيمان بالقضاء والقدر ، لا يصدر عن عمل إلا بحكم الدين ، وهو واسع العلم بما فى الكتب ، ولكن دنياه هى كتبه وبيته ، والطريق بين الأزهر وبيته ، ولا شىء غير ذلك ؛ لم يركب القطار مرة واحدة فى حياته ، وعلى بيته لوحة تحدد رقمه فى الحارة لم يعن مرة بأن يلتفت إليها ويعرفها ، ولكن إن سألته عن الحكم فى حادثة أفاض فى الآيات والأحاديث التى تدل على حكمها ، وإن سألته عن معنى بيت من الشعر تدفق فى شرح مفرداته ومعناه وما يتصل به ، والأقوال التى قيلت فيه ؛ ومع هذا فللشيخ مزية كبيرة ، هو أنه ذكى وأنه محب للاستفادة ، وأنه سؤول لما يجهل ، مدرك لما يُشرَح .

هذا الشيخ على هذا الوضع سيسافر إلى إنجلترا مع إنجليزى خبير بالدنيا وشؤونها كل الخبرة ، واسع الاطلاع إلى أقصى حد ، عرف الشرق والغرب ،

ودرس شؤونهما والفوارق بينهما ، وهو لطيف العشرة ، ميال إلى الإفادة والاستفادة ، يرى ديناً عليه أن يريح الشيخ ويفيده ، ويوسع مداركه إلى أبعد غاية تستطاع .

هذا الشيخ علم الدين يسافر هو وابنه برهان الدين والإنجليزى ، ويدق جرس القطار فيسأل الشيخ : ما هذا ؟ ويتحرك القطار فيتحرك قلب الشيخ خوفاً ، ثم يرى الناس هادئين فيهدأ ويسلم أمره لله . ثم يعجب كيف تطوى الأرض طى السجل للكتب ، وتسير العربات وما عليها كما قال الله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » ويسأل الشيخ الإنجليزى عن القطار وكيف يسير ، فيشرحه له شرحاً مفصلاً من ضغط وحرارة وبخار ، وتاريخ السكك الحديدية ، وكيف أنشئت ، وكيف تمت ، وماذا أنفق عليها ، ومتوسط عدد المسافرين فيها ، والأرباح التى تأتى بها ، وكيف أثرت فى الزراعة والتجارة . فيعجب الشيخ من هذا الشرح ، ويعجب مما كان يقوله بعض العامة فى مصر أنها إنما تسير بقوة جماعة من الجن والشياطين مسخرين لها بواسطة العزائم والسحر والطلاسم .

وما أتم الإنجليزى كلامه حتى كان القطار قد وصل طنطا ؛ فسأل الإنجليزى الشيخ عن السيد أحمد البدوى وتاريخه ، فأفاض الشيخ فى ذلك وفى مولده ، فقال الإنجليزى إن هذه الموالد ترجع إلى قدماء المصريين ، وقد تكلم فى ذلك هيرودت فى تاريخه ، ويؤخذ من وصفها أنها كانت مواسم دينية وسياسية ، وكان يحضر فيها الملك أو من ينوب عنه من عائلته ، وأنها كانت أشبه بالأسواق لرومانية أخذها الرومان عن اليونان ، واليونان عن المصريين ؛ وجميع هذه المواسم كانت مرتبطة بأوقات الزراعة ؛ فلعل هذه الموالد التى عندكم أثر من تلك .

ويعود الحديث إلى السكك الحديدية ، فيذكر تاريخها فى مصر من أول

عهدها إلى يوم الحديث ، وينتهى الحديث بأن الإنجليزى يسأل الشيخ عن كلمات وردت فى أثناء كلامه عن السكك الحديدية ، كالدست والقدر والعربة ، هل هى عربية ؟ فيفيض الشيخ فى الإيضاح ، ويأتى بالشواهد من كلام العرب ، ويستطرد ما شاء له الاستطراد ، ويتجادلان فى أن القِدْر مذكرة أو مؤنثة.

ووصلوا إلى الإسكندرية فى أربع ساعات ونصف ساعة ، فعجب الشيخ من هذه السرعة ، فقد كانت هذه المسافة تقطع فى أكثر من أربعة أيام . وفيما كان الشيخ يبدى هذا العجب سلم ساع ورقة إلى الإنجليزى ، ففتحها وضحك ؛ وقال : أتدرى لم أضحك ؟ إن هـذه الورقة تلغراف من والدى بلندن ، و بيننا وبينها ثلاثة آلاف ميل ، وقد أرسله والدى منذ ساعتين — فأنسته سرعة التلغراف سرعة الوابور .

توجهوا إلى « اللوكاندة » فظنها الشـيخ أنها بيت كبير للإنجليزى أو أحد أحبابه ، لأنه لم ير مثل هذا قط ، وعجب من نظافته وكثرة فرشه وسرره ، وقال ابنه لا بد أن يكون صاحبنا ذا مال كثير وثروة عظيمة ، حتى يكون له منزل بهذه الحال . وعجب الشيخ من كل ما رأى : خيط نازل من سقف الغرفة يضغط عليه فيرنّ فيحضر رجل يسأله عما يريد ! وقوم خارجون وداخلون ! فلم يفهم سر ذلك كله حتى أفهمه الانكليزى ما معنى « اللوكاندة » ففهم الشـيخ أنها صورة مكبرة لما كان يعرفه عن الخان أو « الوكالة » . والإنكليزى يصف « اللوكاندات » وما وصلت إليه ، والشيخ يصف « الوكالة » وترابها وقذارتها ، و بقها و براغيثها ، وما قيل فيها من أشعار .

ويجلس الشيخ وابنه والانجليزى على مائدة الطعام ، وحولهم النساء والفتيات وبجانب الشيخ شابة طليانية بديعة الجمال نادرة المثال تعرف اللغة العربية . و بعد الفراغ يدور الحديث بين الإنجليزى والشيخ عن المرأة الغربية والمرأة الشرقية ،

والعادات والتقاليد وأيها أحسن ، فيصر الشيخ على استحسان عادات الشرق ، وينشد قول الشاعر :

لا تأمنَنَّ على النساء ولو أخاً ما فى الرجال على النساء أمينُ
إن الأمين ولو تحفَّظَ جهدَه لا بد أنَّ بنظرة سيخون

ويصر الإنكليزى على استحسان عادات الغرب ، وأن الحجاب لم يمنع المرأة فى الشرق من العبث إن شاءت . ويدور بينهما حوار لطيف يمثل العقليتين المختلفتين ، كالذى كان بين قاسم أمين وخصومه بعد .

ويحن الشيخ إلى زوجته فيطلب إليه الإنكليزى أن يكتب لها خطابا يرسل بالبريد ؛ فيدور الحديث حول البريد قديماً وحديثاً ، ويصف الإنكليزى ماوصل إليه الآن ، ويصف الشيخ ما كان يفعله إذ ينتظر يوما أو يومين ليجد من يسافر إلى بلده فى المركب فيرسل معه الخطاب ، وربما توجه إلى ساحل البحر ( النيل ) ليعثر على من يسافر فلا يجد فيرجع بخطابه ؛ وإذا سهل المولى ووصل الخطاب فلا يأتى رده إلا بعد شهر ، إن أتى . ويفتتح الشيخ خطابه اللطيف لزوجته بقوله : « إلى السيدة المصونة والدرة المكنونة ، من لا أصرح باسمها ، ولا يغرب عن خيالى لطف طبعها ورسمها ، قرة العينين ، وزوجتنا إن شاء الله فى الدارين » .

ويركبون البحر فيصف الإنكليزى للشيخ البحر وعجائبه ، وأنواع مخلوقاته ، وفعل الهواء بالماء . ويمرون بالقرب من جزيرة صقلية ، فيجدون الركاب وهم يلغطون وينظرون بالنظارات ، فيسأل الشيخ ، فيجيب الإنكليزى إنه البركان ، ويصف له البراكين وأسبابها وأفعالها .

وعلى المركب يتعلم الشيخ علم الدين وابنه برهان الدين اللغة الإنكليزية ، ويجدّان ، والصغير يسبق أباه الكبير فى التعلم لكثرة حركته ومخالطته للركاب والجهد فى أن يكلمهم بما تعلم .

***

هاهم ينزلون فى مارسيليا ويستريحون ، ويعرض الإنكليزى على الشيخ أن يذهبوا الليلة إلى التياترو ، فيعتذر الشيخ ويسمح لابنه أن يذهب ؛ ولكنه يسأل : ما هو التياترو؟ فيشرحه له الإنكليزى شرحا وافياً من تاريخه وغرضه وأنواعه ؛ فيقول الشيخ : إن هذا إلا نوع راق مما يسمى فى بلادنا « أولاد رابية » فهم يقلدون أحوالا حاضرة أو أموراً ماضية ، فهم يقبحون حادثة سيئة حصلت فى الزمن الحاضر أو الغابر ، فيبرزونها فى قوالب الهزل والسخرية ، وكثيراً ما يخرجون فى ذلك إلى السخف والعيب والألفاظ البذيئة التى يأباها الذوق . فيقارن الإنكليزى بين « أولاد رابية » والتياترو ، وأن الأول من خَلْق العوام الجهلاء ، أما التياترو فمن نتاج الأدباء ورجال الفن .

واحتفظ الشيخ وابنه بزيهما الشرقى ، فبرهان الدين يذهب إلى التياترو بعمامته وجبته وقفطانه ، وكان جميلا فيسترعى الأنظار ، ويعطيه الإنكليزى نظارة ينظر بها ويوجهها إلى من يستجمل ، ويقع فى حب لم يلبث طويلا بفضل نصائح والده .

واستعرضوا مرسيليا : مناظرها وقهواتها النظيفة الواسعة وكل شىء فيها . وحدث أن كان على المركب رجل إنجليزى اسمه يعقوب اتصل به برهان الدين وأحبه وأحب حديثه . وكان يعقوب هذا ممن غامر فى حياته ، وركب البحار وجاب الأقطار ، ورأى من عجائب الدنيا الشىء الكثير ؛ فاستهوى برهان الدين بأحاديثه وسأل أباه أن يرجو الإنكليزى ليتخذه خادما له حتى يكون على مقربة منه يشبع حبه للاستطلاع ، فتم ذلك وأصبح يعقوب أحد أفراد الأسرة ، يمتعهم بحديثه عن كلب البحر والنوء والغرق والذهب واستخراجه والسباع والنمور والقردة الخ .

وهكذا دخل يعقوب فى القصة ليؤدى مهمة التحدث بعجائب العالم وغرائبه وما شاهده فى رحلاته .

ولقى الشيخ فى مرسيليا رجلا هرما يتكلم العربية ، فاستخبره حاله ، فعرف أنه مصرى وأنه كان من المصريين الذين التحقوا بجيش نابليون فى مصر ، وكان كثير منهم من القبط ونصارى الشام وبعض المماليك ، فلما خرج الفرنسيون من مصر خرج بعض المصريين معهم ، لأن أهل مصر كانوا يتوعدون كل من دخل فى زمرة الفرنسيين بالقتل ، فلما وصلوا إلى مرسيليا بقى بعضهم وذهب بعضهم يحارب فى جيش نابليون . قال : وكنت ممن بقى فى مرسيليا أزاول الأعمال ، ولكن لما انقضت حكومة نابوليون الأخيرة المعروفة بحكومة مائة يوم قام أهل مرسيليا على المصريين من مماليك وغيرهم — وكانوا نحو أربعمائة — فقتلوهم فى وسط حارات مرسيليا وشوارعها قتلا شنيعاً ، ولولا أنى كنت غائباً فى ذلك الوقت لقتلت فيمن قتل ، ولما عدت وجدت عيالى جميعاً قتلوا مع والدتهم .

وقد دعا هذا الشيخ المصرى شيخنا علم الدين إلى منزله وأكرمه ، وفسر له هذه الأحداث وأسبابها تفصيلا .

***

بعد أيام قضوها فى مرسيليا ركبوا إلى باريس ، وهاهو الإنجليزى يحدثه حديثاً طويلا ممتعاً عن باريس وتاريخها وتطورها وموقعها ، وما أدخله عليها ملوكها على التوالى من تحسين إلى غير ذلك .

ويذهب برهان الدين مع يعقوب إلى « البالو » ، ويعود إلى والده فيخبره بما رأى من الرقص ، وكيف يرقص الرجال مع النساء أنواعا من الرقص كالبولكا والكانكان والولس ، فيحوقل الشيخ ويغضب على ابنه ويقول له : أما علمت أن « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ؟ » أما سمعت قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ؟ » فيعتذر إليه ، ويعتذر يعقوب بأنه إنما أراد أن يعرّفه كل شىء فى البلد .

وكان الشيخ يمشى فى شوارع باريس ، فيلاحظ نظافة الأطفال وسلامة أبدانهم ، وحسن صورهم وامتثالهم لأمهاتهم ، فيتحسر على أطفال القاهرة وأحوالهم الوخيمة وطباعهم الذميمة ، ودناسة ملابسهم ، وكثرة بكائهم وعنادهم . ويزور متاحف باريس وحدائقها ، ويقف على أهم ما فيها ، وعند كل حسن فى باريس يذكر نظيره فى مصر ، ويتمنى أن لو رقيت القاهرة رقى باريس . وينصحه الإنكليزى أن يبنى رأيه فى الإصلاح على الإحصاء والتعداد ، ويضرب له فى استخدام هذا الأصل مثلا بالفلاحة والزراعة فى مصر وفرنسا وإنجلترا مستشهداً بالأرقام ، ويهيئ الإنكليزى للشيخ جماعة يصورون نزعات مختلفة من الفرنسيين ، من ملحد يعرض إلحاده على الشيخ فى شناعة ، فيستعيذ الشيخ بالله من سماع مثل هذه الأقوال ، ومن مستشرق يعرف الكثير من اللغة العربية وآدابها ، فيهش له الشيخ ويبش ، إلى أمثال ذلك .

ويحضر برهان الدين حفلة لطيفة من رجال وسيدات ، ويقضون سهرة ممتعة فى أنواع من الفكاهات العقلية والأحاجى والمعميات ، والمهارة فى استخراج المجهول من أوراق « الكتشينه » إلى غير ذلك ، ويحدث والده بكل ذلك ، فيقول الشيخ : لا بأس بذلك ، إنها إعانة على توسيع العقل والمدارك ، وعندنا فى مصر بعض الشىء كالفوازير والأحاجى ، ونحو ذلك .

ويعلم الدارسون للغة العربية فى باريس بحضور الشيخ فيدعونه لإلقاء محاضرة فى جمعية الدراسات الشرقية ، فيلقى محاضرة فى ديوان امرئ القيس ، ويذكر من شعره بعض أبيات يفيض فى شرح مفرداتها ، ويستطرد عند كل مفرد فيما ورد فيه من معان واستعمالات ، ويتحلق السامعون بعد المحاضرة حوله ، هذا يسأله عن المعلقات ، وهذا يسأله عن لهجات العرب ، وهكذا .

وأخيراً دعى الشيخ إلى تياترو ، فلبى الدعوة ، ورأى الشيخ الرواية ، وكان

الإنجليزى يشرح له ما يدور من ألعاب ومغزاها وموضوع الرواية ، وما إلى ذلك .

وذهب يوماً إلى المكتبة الأهلية وأعجب بما فيها من الكتب ، ويوماً إلى « البورصة » وشرح له كيفية المعاملات فيها ، والبنوك والأوراق المالية والفوائد وتاريخ الأمم فى هذا الباب ، كما شرحت له أصول المعاملات المالية ؛ فعجب الشيخ من ذلك أشد العجب ، وقارن بين هذا وما يحدث فى حارة اليهود بمصر ، إذ يكثر الصيارفة والمرابون ، ويتوارد عليهم الناس من الأرياف فينتهزون فرصة الاحتياج ، فيثقلون الربا ، ولا يقرضون إلا برهن أو ضمانة ؛ فيؤول أمر الناس غالباً إلى بيع ما رهنوه وتلحقهم الفاقة ، والحكومة لا تتدخل فى الأمر ولا تجعل للفوائد حدا . ويعجب الشيخ وابنه من كثرة ما سمعا فى البورصة من الآلاف المؤلفة من الجنيهات ، كأن أوربا قد فتحت لها خزائن قارون وخزائن كسرى .

ويقضى الشيخ أياماً فى باريس يتعرف فيها مظاهرها وحدائقها ومتاحفها وأهم ما فيها ؛ فيمتلئ عقله خبرة وتجربة ، ويصبح شيخاً عصريا فى نظراته إلى الأشياء مع الاحتفاظ بدينه وقوميته . وإذا الشيخ الذى كان يسكن فى كفر الزغارى أو كفر الطماعين ، يخطر فى حدائق لكسمبرج وفى فرساى ، وقد عرف الدنيا ، وخبر أحوال الناس ، وجمع إلى علمه الأثرى تجارب واسعة ، وعلماً لعالم صادقاً .

وهنا — مع الأسف — تنقطع القصة فجأة ، وتقف الأحداث عند باريس ، فلا يتمون رحلتهم إلى إنجلترا ، ولا يعودون إلى مصر ، مما يدل على أن القصة لم تتم . وقد كنت سمعت أن المرحوم إسماعيل بك رأفت همّ مرة أن يتم هذه المرحلة ، ويرجع بالشيخ علم الدين وابنه برهان الدين إلى مصر من طريق آخر ، ولكنه

لم ينفذ ذلك فبقى الشيخ وابنه ينتظران العودة إلى الآن .

هذا وصف موجز جدا لقصة علم الدين ، وقد ألفت حول سنة ١٢٩٦ هجرية ، وطبعت فى مطبعة جريدة المحروسة سنة ١٢٩٩ ﻫ — ١٨٨٢ م فيكون لها الآن نحو أربعة وستين عاماً .

وفيها نظرات صائبة إلى الحياة الاجتماعية المصرية ، ونقد خفى لاذع لأولى الأمر فى مصر ، وإهمالهم شؤون الرعية ، وفيها ضوء قوى يُلقى على المدنية الغربية وأصولها وأهم مظاهرها ، وفيها دعوة غير مباشرة للاقتباس منها ، وفيها بث معلومات كثيرة عن العالم فى جماده ونباته وحيوانه وإنسانه ، فى أسلوب شائق وفكاهة حلوة .

ولولا أنه أكثر من المعلومات وكدس فيها من العلوم والمعارف ما قلل من روابط القصة ، وتكلف أحياناً خلق الحوادث ليدلى بعلمه، ولينقل بحثاً كاملاً فى الموضوع يقلل من لذة القارئ فى تتبعه للقصص ، ولولا أنه لم يحبك شخصياته حبكا محكماً كأن ينسى شخصية الشيخ علم الدين ، ويصوره لا يعرف شيئاً من شؤون الدنيا إلا فى حدود منزله ومسجده ، ثم ينسى ذلك وهو فى فرنسا فينسب إليه معرفته بابن رابية وخلاعته ومجونه ، ومعرفته بحارة اليهود ومعاملتها المالية بالتفصيل ونحو ذلك من هنات ، لولا ذلك لعدت من خير القصص المصرى موضوعا وفنا ، ومع هذا فهى لا تزال حافظة لقيمتها الكبيرة ناطقة بما بذل فيها من مجهود ضخم .

ألست معى — أيها القارئ الكريم — بعدما رأيت أن الباعث على تأليف هذه القصة هى قصة الدسوقى و « لين » ، وأن مؤرخى الأدب لم يكونوا على حق فى إهمالها وعدم التنويه بها ؟ .

# غاية العالم

هل للعالم غاية يجدّ للوصول إليها؟ وهل له خطة مرسومة يسعى إلى نهايتها، ويتجه نحوها دائماً مهما عاقته العوائق؟

أسئلة دارت وتدور فى ذهن المفكرين قديماً وحديثاً.

أما ابن الشِّبل البغدادى فحار فى الأمر، ولم يستطع الجواب، وقال فى حيرته قصيدته الرائعة:

بربك أيها الفلك المُدار          أقصدٌ ذا المسير أم اضطرار
مدارُك قل لنا فى أى شىء؟          ففى أفهامنا منكَ انبهارُ

إلى آخر هذه القصيدة المفعمة حيرة وارتباكاً، وشكّاً وامتعاضاً.

وحار حيرته كذلك أبو العلاء المعرى، فقال:

نفارق العيش لم نظفر بمعرفةٍ          أىُّ المعانى بأهل الأرض مقصودُ؟
لم تُعْطنا العلمَ أخبار يجىء بها          نقلٌ ولا كوكب فى الأرض مرصود

وقال:

أما اليقينُ فلا يقينَ وإنما          أقصى اجتهادى أن أظُنَّ وأحدِسَا

إلى آخر ما قال فى الحيرة، وما أكثر ما قال!

ولندع الشعراء المتفلسفين ولننظر فى آراء الفلاسفة المتعمقين؛ فنرى أنهم تساءلوا من قديم هذه الأسئلة، وأجابوا عنها إجابات متناقضة؛ فأما أرسطو فآمن بأن العالم يسير إلى غاية، وأن الغاية هى تحقيق العقل، هذا العقل ظهر ضعيفاً أو كالعدم فى النبات، وظهر أرقى من ذلك فى الحيوان، وظهر أرقى من الحيوان فى الإنسان؛ وهذا العقل لم يكن شأنه كبيراً فى الإنسان البدائى، ثم

تما شيئاً فشيئاً . وكلما تقدم الزمان ظهر سلطان العقل ، واحتكم الإنسان إلى العقل ، وسيظل يرقى ويرقى متجهاً إلى العقل الكامل ، ولن يبلغ هذه الغاية ، ولكنه سيسير دائماً إليها ، ويتجه دائماً نحوها . وإنما عد الإنسان أرقى من الحيوان لأنه أعقل ، وعدت أمة أرقى من أمة لأنها أعقل ؛ والعالم يسير دائماً إلى تحقيق العقل رغم ما يعوقه من عوائق .

وكفر آخرون برأى أرسطو ، فرأوا أن العالم ليس إلا مخلوقاً أخرق ، وأنه يسير تارة إلى الأمام وتارة إلى الخلف ، وتارة إلى اليمين ، وتارة إلى اليسار ، وليس له هدف يرمى إليه ، بل هو يسير كما شاءت المصادفة ، وكما شاء له الهوى ، وهو مجنون لا تعلل أعماله . انظر إلى الإنسان سيد العالم — كما يزعمون — فى حروبه ، وانظره فى ملاجئ عجزته ، وانظره فى فقر فقرائه ، وبؤس بؤسائه ، ومستشفى مرضاه ، وسجون مجرميه . وانظر ما يحدث فى العالم كل لحظة من الكوارث ، وفظائع الحوادث ؛ وحتى السعادة التى فيه قد ربطت بالجهل ، وهربت بالعقل . وحياة الناس مهازل تنتهى بالموت كما تنتهى الرواية بإسدال الستار . فليس صحيحاً أن « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » ، وإنما الصحيح أن ليس فى الإمكان أسوأ مما كان . ولو أطلقت ثوراً فى مستودع خزف ، أو مجنوناً يحمل مشعلاً فى مخزن نسيج ، ما صنعا ما يصنع العالم .

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منـ ... ـه وإن سر بعضهم أحيانا

وليست مظاهر التقدم إلا خداعاً ، وليس الفرق بين ما نسميه أمة متمدنة وغير متمدنة إلا كالفرق بين المرأة فى طبيعتها والمرأة فى زينتها ، وسيترك كل جيل من الناس الدنيا كما دخلوها بشرورها وبؤسها وشقائها ، وليست الحضارة والبداوة إلا طلاء ظاهراً لغرائز متشابهة .

ولـكن هؤلاء المتشائمين قد أصيبوا بعمى اللون ، فلم يروا فى العالم إلا لوناً واحداً هو لون السواد ، ولم يروا مادة لأدبهم إلا نعيق البوم ، وسواد الغراب ، وحلـكة الظلام ؛ ولم يقوّموا فى الحياة إلا المآسى ، ولم يسمعوا من النغمات إلا المحزن ، ولم ينظروا فى الحياة إلا إلى سطحها ، لا إلى عمقها ، وشغفوا بالأحداث الجزئية ، لا النظريات الـكلية .

إن نظرة شاملة لحركات العالم واتجاهاته تدل على أنه سائر لغاية ، وأن له روحاً وإرادة وعقلا لا يقاس بها ما للفرد ، وأنه يعمل فى دأب وجد واستمرار لبلوغ غايته ، وأنه كالفرد له أعمال لا شعورية يدعو إليها العقل الباطن ، وأعمال شعورية يدعو إليها الفكر ؛ وله أعمال تدعو إليها الفطرة والغريزة ؛ وأعمال تأملية ؛ وله أعمال ظاهرة وأعمال خفية ، وكلها تقرب إلى الغرض . والعالم يسير إلى الأمام فى ثبات واستمرار ، قد تتخلف بعض أجزائه ، وقد تتعطل بعض خلاياه ، ولـكنه فى جملته يسير قُدُماً ، لا يعبأ بما تخلف من جزئياته ، كالجيش الظافر لا يعوقه موت بعض جنوده ، ولا عطل فى بعض آلاته ، ولا تخلف من يصيبه الإعياء ، بل هو بالغ غايته على الرغم من كل ذلك ، هكذا كان تاريخ الإنسانية فقد ترقى أمة ثم تتخلف ثم تموت ، ولـكن لا تموت حتى يتسلم منها مجدها قوم آخرون يخطون بالعالم خطوة جديدة ، ويحققون روح العالم العامة التى تدفع إلى الأمام ولا تريد إلا الأمام ، والتى تُعد الوسائل لذلك دائما من أخلاق قوية ، وأبطال أقوياء ، ونوابغ أفذاذ . وتاريخ الإنسانية من مبدئها إلى الآن ليس إلا مراحل للتقدم إلى الأمام فى نواحى الحياة المختلفة من شعور وحرية وتفكير ؛ ولا يمنع الناس من إدراك هذا إلا قَصر نظرهم على جزئيات العالم كأمة بعينها أو قطر بعينه . أما إن نظروا إلى العالم من حيث هو وحدة ، فهناك تتجلى علائم التقدم بأجلى مظاهرها ؛ فالعالم بناء شامخ شيدت طبقاته فى أجيال ، أو قصيدة

واحدة نظمت أبياتها على تعاقب الأزمان ، أو رواية محكمة يؤلف كل جيل منها فصلا ، ثم لم تتم فصولها ، ولم توضع خاتمتها . هو سائر إلى الأمام فى كل مظهر من مظاهره ، فى فنه الدال على شعوره ، وفى دينه الدال على روحه ، وفى علمه الدال على عقله .

بُنى العالم على ثلاث قواعد : حفظ الذات وحفظ النوع وتحسين النوع ، هذه هى الأوراق الثلاث التى يلعب بها العالم لعباته المختلفة فى كل تصرفاته التى لا نهاية لها . وكل شىء فى العالم من الحشرة الدنيئة إلى أرقى أنواع الإنسان يسعى إلى تحقيق وجوده الذاتى ووجوده النوعى ، والعالم كله فى جملته يتسامى لتحقيق غايته ؛ وقد اتخذت الطبيعة لتحقيق ذلك كل الوسائل الممكنة من تحريك الغرائز المختلفة ، والانفعالات المتباينة ، والعواطف المتناقضة . ونحن لو بحثناها على شدة ما بينها من اختلاف لوجدناها كلها ترجع إلى هذه العناصر الثلاثة : تلعب الغرائز والانفعالات والعواطف كل ألاعيبها فى النبات والحيوان والإنسان لحفظ الذات وحفظ النوع ، وتلعب فى الإنسان ألاعيبها كذلك للسمو به ، فسعى النبات وراء قوته وتجهيزه بالآلات العجيبة للحصول على غذائه ، وتكثير بذوره ، وسلوك الحيوان فى شهواته وعواطفه ، والإنسان فى كل تصرفاته وعواطف حبه وغزله ، وعواطف أبوته وأمومته وأفانينه — كل ذلك يفسر فى النهاية حفظ الذات وحفظ النوع . فقانون الطبيعة فى ذلك قانون ثابت لا يتخلف ، ولا يمكن أن يصدر ذلك إذا لم يكن للعالم غاية . ولا تتورع الطبيعة أن تخدع المخلوقات بكل صور الخداع لتعمل وفق ما ترسم ؛ فهذا الإنسان — وهو أرقى أنواع المخلوقات — يخدع بكل أنواع الخداع لتحقيق غرض الطبيعة . إن شئت مثلا واحداً فطالع فصول غرامه وغزله وهيامه ، وكل فصول حياته الزوجية ، وكل أدب وفن نسائى ، لترى كيف تلعب الطبيعة بالإنسان لحفظ النوع . وكل

ما وضع من مبادئ أخلاقية ، وقواعد قانونية ، إنما دفعت إليه الطبيعة لخدمة هذه العناصر الثلاثة والمحافظة عليها .

وشأن العالم شأن شجرة الورد . فكما أن آلاف الأعمال تعملها بذرة الورد من تغذ ونمو واستنشاق وتعرض للضوء ونحو ذلك لغرض واحد هو إنتاج زهرة الورد ، فكذلك العالم يعمل كله — كوحدة — ملايين الأعمال من محافظة على الأفراد والنوع للوصول إلى غاية ، وهي السمو وتحسين النوع

والطبيعة لا تعبأ بالتضحيات الكثيرة للوصول إلى هذا الغرض ، فكم من بذور النبات يهلك ليحيا أحسنه ، وكم من ملايين الحيوان والإنسان تصادفه العقبات في سبيل حياته وبقائه ، ولا يبقى إلا أصلحه ؛ وهذه الأحياء كلها تتمخض عن عدد قليل من النوابغ الأفذاذ ، هم قادة العالم في مرافقه المختلفة يقودونه إلى الأمام دائما .

قد يحدث في العالم كوارث في منتهى الفظاعة ، كما تثور البراكين ، وكما تزلزل الأرض ، وكما تقوم الحروب الهائلة بين بني الإنسان ، فيفنى في ذلك العدد الكثير ، ولكن سرعان ما يسترد العالم كيانه ، ويبدأ سيره وتقدمه ، ويتجلى له أن هذه الكوارث ليست إلا إرهاصا ببناء جديد على أنقاضٍ قديم ، وأن هذه الكوارث الإنسانية ليست إلا نتيجة لتعفّن النظم الحاضرة ، وبناء نظم أرقى لإنتاج إنسان أسمى . وما العلم والنظم والحكومات إلا أدوات لرقى الإنسان ومظاهر لحالته الاجتماعية ؛ يرقى فيرقيها ، وترقى فترقيه . ومذهب الطبيعة أن لا بأس بهلاك الكثير لتحسين القليل ، شأنها في ذلك شأنها في تدفق ماء الرجل يحمل ملايين من الأحياء لا يعيش إلا واحد منها هو أصلحها للبقاء . وكل يوم يكتشف الإنسان وسائل للسمو به ، ولكن قد يجرّبها فتفنى العدد العديد منه ، حتى يضبط نفعها ، ويستطيع التغلب على ضررها . وكما يحدث في

تاريخ الإنسانية عوائق تعوق سيره ، يحدث كذلك ما يعوّضها من وثبات وقفزات يطفر بها إلى الأمام . كم ألوف من الناس قد ذهبوا ضحية العلم والمخترعات الحديثة ، ولكن ما كسبته الإنسانية — ككل — وما أفاده العالم — كوحدة — أعظم جدا مما خسره . قد يتخلف الجنود الضعفاء فى سير الجيش ، وقد يموت كثير من أفراد الجيش الزاحف ، وقد يموت بعض الوحدات القوية الصالحة ، ولكن إذا فتح الجيش المدينة المنشودة فلا بأس بمن فُقد . كم فقد العالم من مستكشفين ! وكم فقد العالم من رواد البر والبحر ! وكم فقد من طائرين وطيارات ! وكم فقد من المجربين فى الكهرباء ؛ ولكن ما كانت نتيجة ذلك كله ؟ كانت نتيجته أن العالم تقارب نوعاما وأصبح وحدة ما ، وسيسير فى سبيله للتغلب على العقبات غير عابئ بالضحايا حتى يقرب من الغرض ؛ بل هو كذلك يضحى بالعدد الكثير من عامة الأفراد ليصل إلى إنتاج العددالقليل من النوابغ الأفذاذ.

ربما صعب على المفكر أن يرى تقدم العالم إذا نظر إلى أمة واحدة ، أو قارن بين العالم اليوم والعالم منذ سنة أو سنتين أو عشر . ولكن ليطُل الزمن قليلا ، ولينظر إليه نظرة شاملة ، وليقارن بين العالم فى قرن والعالم فى قرن قبله والعالم فى قرون سابقة ، ير أنه يسير إلى الأمام دائما وأنه على حد تعبير أرسطو يسير نحو تحقيق العقل ، فللعلم الآن مكانته العظمى ، وسيطرته القوية ، والعلم هو مظهر العقل ؛ وأعنى بالعلم معناه الواسع ، وهو العلم بقوانين العالم والإيمان بها ، والسير على مقتضاها . ونحن إذا نظرنا إلى الماضى البعيد السحيق فى البعد اغتبطنا لتقدم العالم هذا التقدم ، ولكن إذا نظرنا إلى المستقبل البعيد السحيق فى البعد أدركنا أن العالم لا يزال فى طفولته ، ولكنه سائر حتما إلى شبابه .

إن العالم له قلب ينبض ، وله عقل مفكر ، وله شعور بذاتيته ، وله شعور بوحدته ، وليست أجزاؤه إلا خلايا كخلايا الشجرة الضخمة ، ولخلاياه وظائف

متنوعة تعمل لغاية هى الثمرة ، وكل ضروب أفعاله منسجمة متعاونة متوائمة ؛ كان كذلك فى القديم ، وهو كذلك فى الحديث ، وسيكون كذلك فى المستقبل. لم يسر يوماً وفقاً لغرائز حفظ الذات وحفظ النوع ويوماً على عكس ذلك ؛ ولم يتقهقر الإنسان يوماً فيرجع إلى حالته الأولى بعدما خطا خطوات فى تقدمه ، ولم يكن فى أمسه أعقل منه فى غده .

أفبعد هذا ينكر منكر أن له غاية ، ويدعى مدع أنه يخبط خبط عشواء ؟

قد علمنا التاريخ أن العالم حين يقدم على خطوة جديدة ، وحين يتمخض لولادة جديدة ، تقوم زوابع كثيرة تقلب الأوضاع وتكسر ما يعترضها ، ثم ينزل الغيث وتهدأ الزوابع ويلطف الجو . وأظن أن الحرب الحاضرة شأنها شأن الزوابع الماضية ، ليست إلا علامة على أن العالم يتمخض للولادة ، وأنه يريد أن يتخلص من بعض شرور الماضى ليضع أسساً جديدة لمستقبل أسمى . ومما يؤسف له أن العالم فى الحاضر والماضى ليس لديه إلا هذه الوسيلة للإصلاح ، لا يستطيع أن يبنى بناء جديداً إلا بعد هدم القديم ، وإلا كان العمل ترميما لا تجديداً .

# أوقات الفراغ

حُدثت أن جنديا أجنبيا ظريفاً رأى فى مقهى بحلوان رجلين يلعبان النرد ، وكانت الساعة السابعة مساء ، فتقدم إليهما بكل أدب واحترام ، وحياهما ثم سألهما :

— من أى وقت بدأتما اللعب ؟

— من الساعة الرابعة .

وإلى متى ؟

— إلى الثامنة أو التاسعة .

— وما عملكما ؟

— مدرسان .

فانهال عليهما ضرباً ولكماً ، وقال : أما لكما عمل تعملانه ، أو رياضة تقومان بها ، أو خدمة اجتماعية تؤديانها ؟

* * *

ليت لنا مشرفين من هذا القبيل يعزّرون من أضاع وقته على هذا النمط ، إذاً ما نجا من الضرب واللكم إلا القليل .

فالمقاهى والأندية مزدحمة بالناس فى الصباح والمساء ، والوقت فيها ضائع بين لاعب نرد ، ولاعب شطرنج ، وشارب « شيشة » ، ومتحدث حديثاً فارغاً .

فى مصر آلاف الموظفين يفرغون من عملهم فى الساعة الثانية بعد الظهر ، ويعودون فى الثامنة صباحاً فسائلهم : كيف قضوا ثمانى عشرة ساعة فى كل يوم ؟ وهل استفادوا من زمنهم فى عقلهم أو جسمهم ، أو عملوا عملا نافعا لأنفسهم أو أمتهم ؟

وفى البيوت نصف عدد الأمة من النساء ، فكيف يقضين أوقات فراغهن؟

وفى المنازل آلاف الآلاف من طلبة المدارس ، يقضون أربعة أشهر أو خمسة إجازة صيفية ، فهل تساءل الآباء كيف يُقضَى هـذا الوقت الطويل فيما يعود بالنفع على جسمهم وعقلهم ؟

إذا كان الزمن هو المادة « الخام » لاستغلال المال وتحصيل العلم وكسب الصحة ، فكم أضعنا من كل ذلك ؟ وكم أعمار تضيع فى عبث ، لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة .

من نتيجة ضياع الزمن ضياع كثير من منابع الثروة ، كان يمكن أن تستغل ، لولا إهمال الزمان وجهل باستعماله ؛ فكم من الأراضى البور كان يمكن أن تصلح ، ومن الشركات يمكن أن تؤسس ، ومن المؤسسات المختلفة يمكن أن تنشأ وتدار بجزء من الزمان الفارغ .

ومن نتيجة ضياع الزمن كساد الكتب والمجلات الجدية فى مصر والشرق، فهى لا تطبع إلا نسبة غريبة لعدد المتعلمين ، وما يطبع لا ينفق إلا أقله ، هذا على قلة ما تصدره المطابع من الكتب والمجلات ، إذ ليس هناك عقل يطلب الغذاء ولكن معدات تضج بالتخمة ؛ وليس هناك نفوس تألم من الجهل ، ولكن أجسام تخلد إلى الراحة . إن شئت أن تدهش حقا فاجمع مايطبع من المجلات الجدية فى مصر ، وهى أربع أو خمس ، وانسبها لعدد المتعلمين ، واستبعد منها ما يرسل إلى العالم العربى ، تدرك مقدار الخمول الذهنى ، والفقر العقلى ، والجمود النفسى .

والشأن فى عالم المال كالشأن فى عالم الكتب ، فهناك القناعة بالقليل والرضا بما قسم الله والنوم على الوظيفة ، والعمل الراتب الذى لايدعو إلى جهد ، ولا يبعث على تفكير ؛ ثم هناك الفقر المضنى ، وإفساح الطريق للأجنبى النشيط الذى يعرف كيف يستغل زمنه .

* * *

لست أريد من المحافظة على الزمن أن يملأ كله بالعمل وأن تكون الحياة كلها جدا لا هزل فيها ، وأن تكون عابسة لا ضحك فيها ؛ فقد كان هذا هو المثل الأعلى فى القرون الوسطى ، وكان خير الناس من جد ولم يهزل ، وعبس ولم يضحك ، وواصل العمل ، وواصل العبادة ، واستحضر الموت فى كل لحظة ، فلم يدخل السرور قلبه ، ورؤى مهموماً دائما كأنما هو راجع من جنازة ؛ ثم كان من خير ما اتجه إليه دعاة العصر الحديث أن السرور والضحك واللعب فى جزء معقول من الزمن ينفع الخُلُق أكثر من الجد الدائم والوقار المتواصل ، واستكشف علماء النفس أن مثل هؤلاء المتزمتين المدمنين على الجد ، كانوا أقرب إلى القسوة على الناس ، وأقلهم بهم رحمة ، وأبعدهم عن التسامح ؛ وعلى يد أمثال هؤلاء قامت محاكم التفتيش فى أوربا ، وعذب الناس على يد زياد والحجاج وأبى مسلم الخراسانى وأمثالهم من المسرفين فى الجد ؛ وعلى العكس من ذلك كان الإحسان والتسامح والعفو والرحمة ممن كانوا يجدون ويلعبون ، ويعملون ويمرحون .

إنما أريد ألا تكون أوقات الفراغ طاغية على أوقات العمل ، وألا تكون أوقات الفراغ هى صميم الحياة ، وأوقات العمل على هامشها ؛ بل أريد — أكثر من ذلك — أن تكون أوقات الفراغ خاضعة لحكم العقل كأوقات العمل ؛ فإننا فى العمل نعمل لغاية ، فيجب أن نصرف أوقات الفراغ لغاية كذلك ، إما لفائدة صحية كالألعاب الرياضية ، وإما للذة نفسية كالمطالعات العلمية أو الأدبية . .

أما أن تكون الغاية هى قتل الوقت ، فليست غاية مشروعة ، لأن الوقت هو الحياة فقتل الوقت قتل الحياة ؛ فالذين يصرفون أوقاتهم الطويلة فى نرد أو شطرنج لا يعملون لغاية يرتضيها العقل ، وكذلك الذين يتسكعون فى المقاهى والأندية والطرقات لا يطلبون إلا قتل الوقت كأن الوقت عدو من أعدائهم .

مفتاح العلاج لهذه المشكلة الاعتقاد بأن الإنسان يستطيع أن يغير موضوعات

حبه وكرهه كما يشاء ، ويستطيع أن يغير ذوقه كما يشاء ؛ فيستطيع أن يمرن ذوقه على أشياء لم يكن يتذوقها من قبل ، وعلى كراهية أشياء كان يحبها من قبل؛ ففى استطاعة أغلب الناس — إذا قويت إرادتهم — أن يقسموا أوقات فراغهم إلى ما ينفعهم صحيا ، وإلى ما ينفعهم عقليا .

ومن الأسف أن عامة الناس يعتقدون أن قراءة القصص الخفيفة والمجلات الرخيصة كافية لغذاء عقولهم ، فهم يلتهمونها التهاماً ، ويكتفون بها فى لذتهم العقلية ؛ وهى ليست إلا مخدراً للعقل ، أو منبهاً للغرائز الجنسية . وقليل من الصبر وقوة الإرادة يجعل المتعلم صالحاً للدراسة الجدية والقراءة المفيدة ؛ وكل مثقف يستطيع أن يخلق فى نفسه هوى لشئ جدى فى نوع من أنواع المعارف يدرسه ويتوسع فيه ويتعمقه ، سواء كان أدباً أو حيواناً أو أزهاراً أو ميكانيكا أو نفساً أو تاريخ عصر من العصور أو أى ضرب من ضروب المعارف الإنسانية ، ثم يثير رغبته فيه ، ثم يخصص جزءاً من يومه لدراسته والاهتمام به ؛ فإذا هو إنسان آخر له ناحية من نواحى القوة ، وله شخصيته المحترمة ؛ وإذا الأمة غنية بأبنائها فى شتى فروع العلم والمعارف والفنون ، تعتمد على كل فيما تخصص فيه من نواحى الحياة ؛ وإذا الناس فى مجالسهم يرقى حديثهم ، ويستفيد كل من كل فى نوع معارفه وضروب تخصصه ؛ وإذا الثقافة ارتقت والعقول اتسعت والحياة سمت .

إذ ذاك يشعر الناس أن عليهم واجباً أن يغذوا عقولهم كما يغذون معداتهم، وأن لا حياة لهم بدون غذاء ؛ وإذ ذاك تنشط حركة التأليف والترجمة والنشر ؛ بل وإذ ذاك يرتقى اللهو فى دور السينما والغناء ، لأن العقول المثقفة لا يلذها إلا عرض مثقف يلائم الذوق المثقف .

اجعل شعارك دائما أن تسائل نفسك : « ماذا عملت فى وقت فراغك ؟ » هل كسبت صحة أو مالا أو علماً ؟ وهل خضع وقت فراغك لحكم عقلك ، فكان

اك غاية محدودة صرفت فيها زمنك ؟ إن كان كذلك فقد نجحت ، وإلا فحاول حتى تنجح ؛ فقليل من الزمن يخصص كل يوم لشيء معين قد يغير مجرى الحياة ويجعلها أقوم مما تتصور وأرقى مما تتخيل .

إن الأمة الآن تعيش عُشر ما ينبغي أن تعيش ، أو أقل من ذلك سواء في إنتاجها المالي ، أو ثقافتها العقلية ، أو حالتها الصحية ، وباقي حياتها هدر ، في كسل أو خمول ، أو بين نرد وشطرنج ، أو في لا شيء ؛ ولا ينقصها لتعيش كما ينبغي إلا أن تكتشف طريقة ملء الزمن وخضوعه لحكم العقل .

---

# التخريف(١)

كنت أقرأ فى كتاب « لين » ( مصر الحديثة — عاداتها وتقاليدها ) ، فراعنى منه قوله : « إن العرب شعب ملئ ذهنه بالخرافات ، وليس فى أمم العرب من يبارى المصريين فى هذا الباب »

ثم عدّدَ مناحى تخريفهم ؛ فالعفاريت تحتل جزءاً كبيراً من تفكيرهم ، وهى تسكن الأنهار والمنازل والكهوف والآبار والمقابر ، والموتى عفاريت ، وللقتلى عفاريت ، وفى كل جُحْرٍ عِفريت .

والعقيدة فى المغفلين والمجانين الهادئين أنهم أولياء مقربون فاشية بينهم ، حتى ليتبركون بهم ، ويتقربون إلى الله بالإحسان إليهم ، وطلب الدعاء منهم .

ومشايخ الطرق وكراماتهم ، والصوفية وأعاجيبهم ، والأقطاب وسلطانهم ، وقصص الأولياء وغرائبهم ، ولعبهم بقوانين الطبيعة وتفننهم ، كل أولئك تملأ حياتهم ، وتستولى على عقولهم ، وتلون سلوكهم .

والأضرحة وزياراتها ، والتوسل بها وبساكنيها ، والتذلل فى طلب قضاء حوائجهم منها ، والموالد وما يجرى فيها .

والبكرية والعِنانية والسادات ونقابة الأشراف ومشايخ السجادة ، وما إلى ذلك من طرق وشعائر ومراسم وأعمال وأذكار .

وثم ضروب أخر من هذا الباب ، كالأحجبة وأنواعها ، والأحراز لدفع العين على اختلاف أشكالها ، والتعاويذ لشفاء الأمراض وجلب الأزواج وبث

---

(١) التخريف مصدر خرّف ، أى اعتقد بالخرافات ، والشخص مخرف أى مملوء ذهنه بها . وهو تعبير محدث آثرنا استعماله وإن لم يرد فى اللغة هذا التصريف لأنا لم نجد خيراً منه .

العداء واسترضاء النافر وتحنين القلوب ، ثم طب الركة وأفانينه وأعاجيبه ، والاعتقاد فى ساعات النحس وساعات الوفق ، ثم السحر والطوالع والتنجيم .

لقد وصف « لين » هذا الوصف منذ مائة عام . ومن غير شك قد قلّ التخريف فى زماننا عما كان عليه فى أيام « لين » بفضل انتشار الثقافة ورقى العقل ؛ فالاعتقاد فى العفاريت لم يبق إلا فى أوساط العوام وأشباههم ، وكذلك الشأن فى كثير مما ذكر من ضروب التخريف ؛ ومع هذا فلا يزال التخريف أكثر مما يلزم ، ولا يزال وصف « لين » حافظاً لشىء من جدته . نعم لم تخل الشعوب المدنة كلها من ضروب من التخريف ، ولكنه فى مصر كثير كثرة تستحق بذل الجهد فى محاربته والقضاء عليه .

من الكثير على أمة أن تتحمل هذه الأنواع كلها بأعبائها وتكاليفها ؛ ولكل نوع ضحاياه وآثامه ، فكم نفوس ضاعت بطب الركة ! وكم بيوت خربت بالعفاريت التى ليست إلا فى أذهاننا ! وكم أموال ذهبت هدراً ، فخرجت من مستحقيها إلى غير مستحقيها بصندوق النذور ، ودجل مدعى الصوفية ، وحيل فاتحى الكنوز والمتظاهرين بالورع ! وكم أسر تهدمت بقارئى الكف وفاتحى البخت وشيخات الزار وصانعى التعاويذ ! وفوق هذا كله خراب العقل بهذه العقائد .

أساس التخريف « الخوف من القوى الغيبية ورجاء النفع منها » والاعتقاد بأنها قادرة على النفع والضرر ؛ فهو يتملقها بالتوسل والقرابين والعزائم ، ويدفع شرها بالنذور والتعاويذ ويستجلب خيرها بالزيارة وتقبيل الأيدى والأحجار والخضوع التام وطلب البركة وما إلى ذلك ؛ وعجيب أن يفشو هذا كله فى قوم أساس دينهم « لا إله إلا الله » وأن الله وحده القادر ، وأنه النافع الضار ، وأن لا واسطة بين العبد وربه . وأن الخير والشر كله بيد الله ، وأنه خلق الكون ووضع له قوانين لا تتخلف ، فلا مبدل لكلمات الله ، ونحو ذلك من المبادئ !

كيف يلتئم مع هـذه العقائد عفاريت تتصرف ، ومشايخ طرق تتحكم ، وأولياء تنفع وتضر على هواها ، يرضيها الملق ويغضبها الهجران ، ونجوم تسعد وتشقى ، ومغفلون ومجانين بيدهم الخير والشر ، ومعتوهون تنازل الله تعالى لهم عن سلطانه ، وكون لا نظام له ولا قانون ؛ فالولى يلعب به كما يشاء ، ويجعل الماء جمداً ، والهواء ماء ، والزجاج غذاء ؛ وبركة الشيخ تقتل دودة القطن فى الحقل إذا رضى ، وتحييها إذا غضب .

ليس من الممكن أن تجتمع عقائد الدين الصحيح وهذه العقائد الخرافية ، فإذا دخل أحدهما من باب خرج الآخر من باب . والحق أن الإسلام يوم كان يعتقد اعتقاداً صحيحاً لم نكن نرى شيئاً من هذا ، وحين رأينا هـذا لم نر الدين الصحيح .

التخريف يشل العقل ويجعله غير صالح لمواجهة الحياة الواقعية ، ويجعل حياة من يستولى عليه خيالاً مضطرباً كخيال الحشاشين ، ليس له ضابط ولا يخضع لقانون ، وكخيال السكير يحسب الديك حماراً ، والقرد غزالا ، وإذا كان « متعاطى » الحشيش ومدمن الخمر يصلح للحياة صلح لها المخرف .

التخريف يلازم الجهل ، ويلازم ضعف العقل ؛ فالعقل القوى يرفض أى تخريف ؛ والعلم بالكون وأسبابه ومسبباته وقوانينه ومسلكه يبدد التخريف كما يبدد النور الظلام . اعتبر ذلك فى الطفل والرجل ، فالطفل لضعف عقله قابل للتصديق بالخرافات ، يعتقد حكايات العفاريت صحيحة ، ويعتقد قصص الحيوانات صادقة ، فإذا نما شيئاً فشيئاً زال هذا الاعتقاد شيئاً فشيئاً ، وحل محله إدراك الواقع ، وفرقَ بين القصص الخيالية والسير التاريخية ؛ فكذلك الشأن فى الأمم ؛ إذا كان عقلها عقل طفل آمنت بكل ما عددنا ، وكانت حياتها مستغرقة بالمشايخ والأولياء والعفاريت والنذور والنجوم وما إليها ؛ فإذا رقيت تبخر كل ذلك وحل

محلها الإيمان بالكون المعقول يدبره إله معقول .

لقد كانت أمم أوربا منذ أقل من ثلاثة قرون غارقة فى مثل هذا التخريف وكانت تعتقد فى السحر والسحرة إلى حد بعيد ؛ وكم سبّب هذا من مصائب وضحايا ومظالم لا عداد لها ؛ ثم أخذ يقل شيئاً فشيئاً بانتشار التعليم وترقية العقل ، حتى قلت دائرته وجُعل زمام الحياة لسلطان العقل ، وانكمش سلطان التخريف .

أخطر ما فى التخريف أنه يزلزل الإيمان بقوانين الطبيعة وقوانين السببية ؟ فتكفى دعوة شيخ لقلب كل قوانين الاقتصاد وقوانين النبات ، وتكفى تعزيمة رجل لتزيل أسباب الفقر الطبيعية ، ويكفى وجود الأضرحة لتتقى بها الأعداء فى الحروب ، ويكفى عقد الزواج فى ساعة من ساعات السعد لتصبح الحياة الزوجية سعيدة رغم كل عوامل الشقاء الطبيعية ، وهكذا .

ولا تشقى أمة شقاءها بهذا التخريف ، ولا يضعفها فى حياتها ما تضعفها هذه المعتقدات .

لقد قطع العالم هذا الشوط ، وتحرر مما سببه هذا التخريف من تعاسة وشقاء ، وأحل المصلحين المعقولين محل الأولياء والقديسين ، وأحل قوانين الصحة والمرض محل طب الركة ، وأحل علم الزراعة مكان الزراعة بالبركة ، وأحل قوانين الاجتماع محل الاعتماد على القدَر وحده . وليس فى كل هذا ما يمنع من إيمان صحيح يعتقد فيه بأن للعالم إلهاً قادراً عادلا لم يتنازل عن سلطانه لمخلوق يعبث به ، قد خلق خلقه ، وأحاطه بقوانين لم يسمح لأحد أن يتلاعب بها ، ويستخدمها فى أغراضه مهما كانت هذه الأغراض .

نعود إلى صدر الإسلام ، فنرى عمر بن الخطاب يرى ناساً يأتون الشجرة التى بايع رسول الله (ص) تحتها بيعة الرضوان ، فيصلون عندها ، فيأمر بقطعها حتى تكون العبادة لله وحده ، وننظر اليوم فنرى باب زويلة — وهو ليس إلا باباً من

أبواب سور القاهرة القديمة — قد اتخذ معبداً يزعمون أنه مسكن لقطب من الأقطاب الأربعة ، ومن أجل هذا سمى « باب المتولى » ؛ والناس يتمسحون به ، ويربطون فى مساميره قصة من شعورهم أو خيطاً من ملابسهم ، ويشتفون به من وجع أسنانهم أو صداع رءوسهم .

ونعود إلى صدر الإسلام فنرى فى سيرة عمر أنه خرج فى حجة فمر بمسجد فبادره الناس بالصلاة فيه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : مسجد صلى فيه رسول الله . فقال : « هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم ، اتخذوا آثار أنبيائهم بِيَعاً ، من عرضت له فيه صلاة فليصل ، ومن لم تعرض له صلاة فليمض » . ثم نرى الناس اليوم وقد تهافتوا على أمكنة وقف عندها ولى مزعوم ، أو لمستها يد صالحة مباركة كما يقولون ، أو رأى مدله رؤيا شاهد فيها قديساً من القديسين .

ونعود إلى صدر الإسلام فنرى عمر ينظر إلى شاب قد نكس رأسه فيقول له : « يا هذا ارفع رأسك ، فان الخشوع لا يزيد على ما فى القلب ، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما فى قلبه فانما أظهر للناس نفاقاً على نفاق » ، ونرى اليوم تصنعاً فى التدين والصلاح ، بعمة حمراء وعمة خضراء وسبحة طويلة ، وانكسار وتقشف ، وغفلة وغيبوبة عقل ، فيخدع الناس بمظاهرهم ، وينسبون الولاية إليهم ، ويستمدون البركة منهم .

ونعود إلى صدر الإسلام فنرى على بن أبى طالب يعين عاملا من عماله ويقول له : « ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ، ألا أدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبراً إلا سويته » .

ونرى اليوم الأضرحة والمزارات منتشرة فى كل مكان للصالحين وأشباه الصالحين ، بل لمن لو رجعت إلى تاريخه لوجدت أن لا منقبة له إلا مظالم ارتكبها ، وظن أن بناء المسجد والضريح يكفر عنها .

لا لا أيها الناس ، ليس فى الإسلام وثنية ، وليس فى الإسلام الصحيح تخريف ، ولكن دخل فيه أقوام وفى رءوسهم خرافات الوثنيات الأولى ؛ فوثنية العرب الجاهليين ، ووثنية مصر القديمة ، ووثنية المجوس ، ووثنية الرومان ، كل هذه اندست بين المسلمين ، واصطبغت بصبغة الإسلام والإسلام برىء منها ، وذهب الماء الصافى ولم يبق إلا عكره ، وامتلأ الإناء بالدُّرْدىّ .

# المثقفون والسعادة

قرأت قول المتنبي :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

وقرأت قول الآخر :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأفهام حائرة وصيّر العالم النحرير زنديقا

وقول ابن المعتز :

وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا

وقول ابن نباتة :

من لى بعيش الأغبياء فإنه لا عيش إلا عيش من لم يعلم

وقرأت كثيراً مثل هذا فى الشعر العربى يدور حول لعنة العالَم ، لأنه يعذّب العالِم ويسعد الجاهل .

فتساءلت : هل هذا صحيح ؟ هل العلماء فى جملتهم أشقى من الجهلاء ؟ وهل العلم يسبب الشقاء والجهل يسبب السعادة ؟

إن كان هـذا صحيحاً ؛ وكان العالَم إنما يسعى وراء السعادة ، فالنتيجة المنطقية لهذا أنه يجب علينا محاربة العلم ونشر الجهـل ، وإغلاق المدارس ، وعدّ تأليف الكتب جريمة وطبعها جريمة ، والجامعة جريمة ، وكل حركة علمية جريمة ، لأنها تبعد من السعادة التى هى غاية الإنسان بطبعه ، أو على الأقل يجب أن تكون غايته .

إذاً فلا بد أن يكون أحد الرأيين خطأ ، أما والناس يكادون يجمعون على

فضل العلم وأنه وسيلة من وسائل السعادة ، فوجب أن يكون الرأى الأول باطلا ، ولكن أين وجه البطلان ؟

وجه البطلان من نواح عدة :

أولها — سوء تصور الناس للسعادة ، فالرأى السائد فيها أنها حياة كسل لا يكدرها عمل ، وحياة حقوق لا واجب فيها ، وحياة لذة مشتعلة لا خمود لها ، وأكل شهى من غير عناء ، وتنوّع ملاذ من غير انقطاع ، وارتواء باللذات من غير جهد ، وبُعد للآلام من غير أن يتعب فى إبعادها ، وحضور لكل ما يخطر بباله من مسرة من غير نصَب فى جلبها ، ونحو ذلك .

وهو تصور فاش بين الناس حتى عقلائهم ، ومن لم يقله جهاراً اعتنقه سرًّا ، ومن لم ينله طمع فيه ، وتحرق شوقاً إليه ، ومن حُرِمه فى الدنيا أمله فى الجنة ، وجعل عبادته وسيلة لإدراكه .

وهو تصور لمعنى السعادة باطل ، وفهم خاطئ ؛ وإنى لأتخيل حياة من هذا النوع أشبعت فيها كل الرغبات من غير جهد ؛ وأتصور رجلا أجرى عليه كل أنواع النعيم : من قصور فخمة وحور وولدان وكل ما تشتهى الأعين وتلذ الأنفس ، فأجده بعد قليل قد صرخ من السعادة واشتاق إلى الشقاء ، وإن شئت فقل إنه يبحث عن سعادته فى شقائه ، ويستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، ويطلب الفوم والعدس والبصل بدلا من المن والسلوى ، ويفضل المرأة الشوهاء على المرأة الحسناء ، ويشتهى جلسة على التراب بدل الأرائك والحرائر ، ويتمنى ساعة عذاب يتقى بها شر هذا النعيم المقيم .

هذا هو الإنسان ، وهذه طبيعته ، ليست سعادته فى هدوء متطامن ، ولا فى ركود مستمر ، إنما هى كما قال القائل :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا ... وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

والسعادة إنما هي فى السعى للغرض أكثر منها فى الغرض ، والطريق إلى الغاية هو السعادة لا الغاية ، وإنما يسعد الإنسان باستخدام قواه وملكاته لبلوغ غايتـه ؛ فإذا بلغها تفتحت له غايات جديدة ، وبذل فيها جهوداً جديدة ، وظهر فى أثناء الطريق صعوبات استخرجت أقصى الجهد فى التغلب عليها ، فشعر بلذة الجهد ولذة الغلبة ولذة اعتداده بشخصيته واستخدامه ملكاته واستكماله نفسـه أكثر من لذته بالغاية نفسها .

فلما تصور الناس السـعادة بمعناها الخامل الذى ذكرنا ، نظروا فوجدوا كثيراً من العقلاء والعلماء محرومين منها ، فأفاض المحرومون فى الشكوى ، وصبوا على العالم سخطهم ؛ ولو حسبوا حساب لذاتهم فى السعى ، ولذاتهم العقلية فى فهم الـكون ، ولذاتهم فى الـكد فى الطريق وإن لم يبلغوا الغاية ، ولو وزنوا بالميزان الحقيق سـعادة الجهلاء ، ولم يبالغوا فى تقديرها ؛ لو فعلوا كل ذلك لصححوا حكمهم ، وأدركوا خطأهم ، ولقللوا من سـخطهم على الزمان ، ولعنتهم للدهر ، وعتبهم على القدر .

وهب أن العلماء أشق من الجهلاء ، وأن العالم لم يسـعد بعلمه ، بل ساءت معيشته بعلمه ، وأن علمه كان نقمة عليـه ، وأن العلم وسّع نظره فأدرك واجباته وتبعاته ، وأرهف حسه فجعله يألم مما لا يألم منه الجاهل ، وأبعد طموحه فصار لا يرضى بمـا يرضى به العامى ، ووسّـع حوض لذته ( كما يعبر الفرنج ) فأصبح لا يملؤه إلا الـكثير ، وقد كان — وهو جاهل — كالطفل ، حوض لذته ضيق يملؤه القليل ، وكبرت نفسه وبعدت غايته ، فأصبح يدرك أن ما ناله من اللذائذ ناقص مهما كان .

هب كل ذلك كذلك ، فهناك الخطأ الثانى الخطير ، وهو مقياس الأشـياء بمقياس الفردية ؛ فعلى مر آلاف السنين وصل العقلاء والعلماء والنوابغ إلى نتيجة

باهرة تلو نتيجة باهرة ، وإلى مخترع لنفع الإنسانية تلو مخترع ، حتى وصل العالَم بفضل هذه المجهودات والمخترعات إلى حضارته الحاضرة ومدنيته الحديثة ؛ وكان سعى العلماء فى طريقهم شاقًا عسيراً ، وقامت فى وجوههم صعوبات يعجز القلم عن وصفها ، وذهب كثير منهم ضحايا فى سبيل غايتهم ؛ ولم يكونوا يتحملون هذه المشقات والتضحيات فى سبيل فرديتهم وذاتيتهم ، إنما يتحملونها فى سبيل الجمعية القومية أو الإنسانية ، وكانوا يتلذذون من تضحيتهم أكثر من تلذذ المادى بشهواته ؛ فهب أن العلماء شقوا أكثر مما شقى الجهلاء ، وسعدوا أقل مما سعد الجهلاء ؛ فماذا يضيرنا ما دام العالم كان أسعد وكان أرقى وكان فى جملته أصلح ؟

فلا يصح للعلماء أن يبكوا لشقائهم أفراداً ما دامت الجمعية الإنسانية تستفيد من جدهم وشقائهم ، كما لا يصح أن نسمع لشكوى فرد نزعت ملكيته لفتح شارع عام ، أو جنود قتلوا فى سبيل انتصار أمتهم ، أو أطباء ماتوا فى سبيل مكافحة وباء ؛ بل لا يصح أن يتقدم أحد من هؤلاء بالشكوى ، لأن العالم علّمنا بطريق سيره أن العبرة بتقدم المجموع ولو فنى الأفراد فى أثناء سيره ؛ والفرق بين أمة منحطة وأمة راقية نظرة الأولى إلى صالح بعض الأفراد أو بعض الأحزاب ، ونظرة الثانية إلى الصالح العام .

فغلط العلماء والعقلاء والمخترعين الذين يشْكون نشأ من أنهم نظروا إلى أنفسهم كأنهم آلات مستقلة ، ولم ينظروا إليها كأنهم تروس فى الآلة الضخمة ، آلة الأمة أو آلة الإنسانية ، وخطؤهم أيضاً نشأ من اعتقادهم أن علمهم وثقافتهم وقوة عقلهم — إنما ركبت فيهم لنفع أفرادهم ، وأن غايتهم استفادتُهم منها لنفع أشخاصهم ، وليس ذلك بصحيح . فكل الملكات الممتازة فى الأفراد ، وكل قدرة على الاختراع والتثقيف وبث المبادئ : إنما منحت للأفراد لخدمة الجماعة

وترقيتها ، فمتى أدت هذا الغرض فلا يهمنا بعدُ عاش أفرادها فى بؤس أو رخاء ، فى نعيم أو شقاء .

***

ولكن : من طبيعة الثقافة أنها ترقى العقل وترقى المشاعر ، ومتى رقى العقل والمشاعر كان صاحبهما أقدر على اللذة ، كما يكون أكثر تعرضاً للألم ؛ فمتى وجد فى ظروف مناسبة كان أسعد من الجاهل ، ومتى وجد فى ظروف غير مناسبة كان أشقى من الجاهل . والمثقف بعقله الراقى كثير التساؤل : ما الحياة ؟ وما الغرض منها ؟ وما قيمتى فيها ؟ ثم هو واسع الطموح كثير التطلع لحالة خير من حالته ؛ وكلما أدرك حالة تطلع لما هو خير منها ، ثم هو جيد التقدير ، يقدر نفسه ويقدر من حوله ؛ فيرى من حقه ومن حق ثقافته ومن حق سعة عقله ، أن ينعم فى الحياة المادية بأكثر مما ينعم الجاهل ؛ ويرى واجباً على المجتمع الذى يعيش فيه أن يكرمه نظير علمه الذى يخدمهم به ، فتوفَّر له وسائل العيش ووسائل السعادة حسب نظره ؛ فلماذا تُطْلَب منه التضحية فقط ، ولا يُطلَب من الأمة أن تضحى بجزء من مادتها ليضحى هو بأغلى من ذلك ، بعقله وصحته ونفسه أحياناً ؟

هذه هى وجهة نظره ، وهذا هو سبب شقائه ، وهى وإن كانت وجهة نظر صحيحة معقولة ، إلا أنها معقدة ، وتعقيدها آت من قلة الثقافة فى العالم ، لا من كثرة الثقافة ؛ فغير المثقفين — وهم السواد الأعظم — لا يقدرون عظم ما يبذله المثقف ، وهم يقدرون الأشياء على مقدار عقلهم القاصر ؛ وهم الذين فى يدهم السلطة والمال ، فهم معذورون إذا لم يوفروا للعالم والنابغة وسائل العيش حسب نظره وتقديره هو ؛ ومن أجل هذا كلما انتشرت الثقافة فى أمة وتولى زمامها مثقفوها ، كان علماؤها ونوابغها أسعد حالا ؛ وكذلك من أسباب شقائهم عدم تنظيم قُوَى المجتمع على قواعد معقولة ، والفوضى فى تقويم الأشياء والمعانى ، وتمسك من

بيدهم السلطة بالتسعيرة القديمة . ولكن العالم يسير إلى تنظيم كيانه ، وإلى إصلاح عيوبه ، وإلى ضبط فوضاه ؛ وإذ ذاك — ونرجو أن يكون قريباً — تكون ثقافة العالم ، ونبوغ النابغ ، وأدب الأديب ، وعقل العاقل ، موضع التقدير .

ولكن إلى أن يتم هذا لا بد أن ننظر لصالح المجتمع أكثر من صالح الأفراد ، وأن ندعو إلى انتشار الثقافة لا انكماشها ، وكثرة العلماء لا قلتهم ، وألا نعبأ بمن يشقى من العلماء إذا كان فى شقائهم سعادة المجموع ، وأن نطالبهم أن يصوغوا أنفسهم حتى يجدوا سعادتهم فى علمهم وشعورهم برقيهم ، وكما قالوا : «لأن تكون سقراط ساخطاً خير من أن تكون أبله راضياً» .

# الزعماء الثلاثة

## (أغسطس سنة ١٩٤١)

فى هذا الشهر من هذا العام مات زعيمان جليلان : زعيم هندى روحانى هو تاغور ، وزعيم مصرى مالى هو طلعت حرب . وفى هـذا الشهر منذ أربعة عشر عاماً مات زعيم مصرى سياسى هو سعد زغلول . فكان لأغسطس حق الفخر فى احتوائه هؤلاء العظماء إن حق لشهر أن يفخر باعتدائه واحتوائه ، أو له حق الخجل من عمـله ، إذ حرم أممهم وعالمهم الفخر بقيادتهم ، والانتفاع بمواهبهم ، أو هو لا يفخر ولا يخجل ، لأن الدهر له مقاييس غير مقاييسـنا ، ونظرات غير نظراتنا ؛ وله عذره فى أن الموت لا يعدو أشخاص الزعماء وأجسادهم ، أما أفكارهم ومبادئهم فحية أبداً ، خالدة أبداً ؛ إن عدا الدهر عليهم يوماً فلا يضن يوماً آخر أن يبعث من يأخذ رايتهم ، ويسير قدُماً إلى غايتهم ، وينقل التقدم من ميدان إلى ميدان ؛ فإن أساء فقد كفّر ، وإن أمات فقد أحيا .

كان كل زعيم من هؤلاء عظيما ، وكان كل ينظر إلى الحياة من زاوية آمن بها ، وضحى لها ، وفنى فيها ، ووصـل إلى أعماقها ، فاستخرج مكنونها ، وأضاء ظلامها ، وشـوّق إليها ، واستحث أتباعه أن يؤمنوا إيمانه ، وينظروا نظرته ، ويسيروا سيرته ؛ وقد أوتوا جميعاً من حرارة العقيدة وجميل البيان وصفاء الإيمان ما أنجح دعوتهم ، ونصر مبادئهم ، فماتوا وقد لوّنوا عالمهم بلونهم ، ورفعوا أتباعهم إلى قريب من منزلتهم ، ونشروا الإيمان بالفكرة والـكفر بالعقبات ، وبثوا

الاعتزاز بالمبدإ والاستهزاء بالصعوبات ؛ فكان لهم بعض ما أرادوا ، والزمن كفيل أن يحقق كل ما أرادوا .

* * *

فأما « تاغور » فرجل روحانى ، هو خلاصة أفكار الهند ، وعصارة نزعاتها الروحية والحلولية ، عبر عنها بأساليب العصر الحديث ولغته وروحه ، لا فرق عنده بين الحق والخلق ، ولا بين الله والعالم ، فالعالم مظهر الله ، والطبيعة شعاره ، وهو — تعالى — حالّ فى كل ذرة من ذرات العالم ، تراه فى رمال الصحراء ، وفى صفاء الماء ، وفى أوراق الأشجار ، وفى تفتح الأزهار ، وفى البعوضة فما فوقها ، وفى النجوم فما دونها ، يتجلى فى كل شىء حسب استعداده ، ولا شىء سوى الله ؛ والكائنات أجزاء منه وأبعاض له ، وكلها كله ، فهى وهو كأمواج البحر فى البحر :

فما البحر إلا الموج لا شىء غيره وإن فرّقتْهُ كثرةُ المتعدّد

فمن مزامير تاغور : « هو الله فى كل شىء : فى الماء وفى النار ، وفى العشب والشجر ، هذا إلهنا ، الذى تعنو له وجوهنا » .

أدّاه هذا النظر إلى أن يألف الطبيعة ويهيم بها ، ويتذوقها بحواسه كلها وبروحه كلها ، وينفق الساعات ذوات العدد فى الاستمتاع بجمالها والإصغاء إليها وعبادة الله فيها .

كما أداه ذلك إلى أن يكره من المدنية الحديثة عنفها فى محاربة الطبيعة ، ومحاولتها إخضاعها وإذلالها ، كأن نزعة الحرب فيها عمت كل شىء ؛ فالإنسان يحارب الطبيعة ، والإنسان يحارب الإنسان ، والطبقات تحارب الطبقات ؛ وروحانية تاغور تدعو إلى الحب لا الحرب ، فحب الطبيعة ، وحب الإنسان ، وحب العالم ، لأنه يحب الله فيحب مظهره ، ويرى الله فى كل شىء فيحبه فيه .

وهو روحانى ، يرى أن المادة ليست كل شىء ، وأن لنا روحاً غير مادتنا ، وأن ليست علاقة فكرنا بمخنا علاقة معلول بعلة ، وأن لنا صلة بالأرض وصلة بالسماء ؛ ومن أجل هـذا نعى على المدنية الغربية أنها تعنى بالمادة ولا تعنى بالروح ؛ فهى تعبد المادة وتفكر فى المادة ، وينقصها التأمل الشرقى ، كما ينقص الشرق العمل الغربى وقوة الإرادة الغربية ، حتى تتعادل الكفتان ، ويكمل العنصران .

كانت هـذه عناصر دينه ، ثم هو منح قوة فنية رائعة ، وثقافة عصرية واسعة ، واطلاعاً على العالم برحلاته العديدة إلى أوربا وأمريكا واليابان ، ونظراً نافذاً إلى بواطن الأمور ، وملكاً لناصية اللغة الإنجليزية كملكه لناصية لغته الأصلية ؛ فصب فيهما آراءه وفنونه ، ونشر تعاليمه بشعره ونثره وقصصه وموسيقاه ، فسمعها العالم ، ووجد فيها نوعاً من الغذاء الصالح الجديد يخالف فى عناصره عناصر الغذاء الغربى القديم . لقد جلجل صوته بكل النغمات : فى جمال الطبيعة ، وحب الأطفال ، وحب البساطة ، وحب الله ، وترك من كل ذلك ثروة للعالم سوف تنقضى السنون ولما يهضموها .

وكان ينظر إلى السياسة كما ينظر إلى الفلسفة ، إنما يهمه من النظم السياسية آثارها فى الحياة الاجتماعية ، ويُقوِّم أنواع الاستقلال بقدر ما تستتبع من إصلاح .

***

ولئن كان تاغور رجلا « مثاليًا » يغوص تارة إلى أعماق الماء ، ويجوز مرة أجواز الفضاء ، ويرى فى كل شىء من نبات وحيوان وجماد شيئاً وراء ظاهره ، وروحاً وراء مادته ، وإلهاً وراء شكله — « فسعد » رجل واقعى يفهم الحياة كما تبدو للعين ، وكما يدل عليها الحس والعقل ، لا الشعر ولا الخيال .

فإن كان كل إنسان كما يقولون إما أفلاطونيًّا أو أرسطاليسيًّا ، فتاغور أفلاطوني ، وسعد أرسطاليسي .

نشأ محامياً يرى دنيا الوقائع ، ويدرس قانون الحوادث ، و يوكل عن الخصم فيدرس قضيته ، ويكيف موقفه ؛ فما زال يكبر فى حرفته بتقدمه فى سنه ونضجه فى عقله ، حتى صار وكيل الأمة ، يدرس قضيتها ، ويكيف موقفها ؛ ولكن قضية الفرد مهما عظمت سهلٌ أمرها يسير حلها ، وخصمه مهما عظم فى مثل منزلته أو قريب منها أما قضية الأمة فمعقدة أشد تعقيد ، والخصم فيها قوى عنيد ، يلجأ فى المحاربة إلى كل الوسائل : إلى الإغراء والتهديد ، وإلى المال والحديد . وما ظنك بخصم فى يده كل قوى الاستعمار ، من علم ومال ، وقوة ودهاء ، وحيل وأفانين ، وجنة ونار ، وإغداق من نعيم ، وإلقاء فى جحيم ، وموكله أعزل ، قريب عهد بحيل الاستعمار ودهائه ، وألاعيب السياسة وتلونها ؛ لا بد لمن يقف للدفاع فى مثل هذه القضية من مواهب نادرة ، وقدرة قادرة ؛ فهو — من ناحية — عليه أن يقدم السلاح لقومه ، ومن ناحية — عليه أن يجرد السلاح من خصمه ؛ وعليه أن يكوّن فيهم رأياً عاما يعقل ويشعر ، ويتحمس ويطيع ، ويضحى ويصبر ؛ وعليه أن يكوّن من الأمة كتلة متجمعة ترهب المنافقين فلا تسمع لهم رِكْزا ، وتحير المستعمرين فلا يجد دهاؤهم منفذاً ، وعليه أن يتقدم الصفوف فيحدد السير يميناً ويساراً ، وهجوماً وانتظاراً . ثم هو — إذ يحمل اللواء — يتعرض لكثرة السهام ، فلا يزيده ذلك إلا قوة ، وينفى ويحبس ويشرد ، فيكسبه ذلك صفاء فى نفسه وقوة فى يقينه ، ويزيد الأمة إيماناً به والتفافا حوله فتضحى من تضحيته ، وتقتبس من شعلته ، وتلتهب من حرارته ، وتأخذها حالة أشبه بنوبة عصبية ، أو غيبوبة صوفية . تؤمن به إيمان العجائز ، وتطيعه طاعة المريد للشيخ ، وتصم أذنها عن دسيسة الدساسين ومؤامرات المنافقين ، ولا يزالون

هو وهم فى جهادهم حتى يصلوا إلى الغاية أو يقربوا منها .

كذلك كان سعيه ، وكذلك كانت أمته ؛ بصر من قومه فعرف مواضع ضعفهم وقوتهم ، وعرف كيف يعالج الضعف ويزيد القوة ؛ وبصر بأساليب الاستعمار فعرف كيف يصابرها ويجابهها ، وأوتى من فن الخطابة معجزته ، ومن اللَّسَن سحره ، فما خطب إلا ألهب ، ولا جادل إلا غلب . ولو كانت قضية الاستقلال يقضى فيها بالمنطق والحق لكسبها فى يومه ؛ ولكن الاستعمار لا يسمع للمنطق ، وإنما يسمع للقوة ، فلتكن قوة الأمة فى وحدتها وفى إجماعها وفى حماستها ، وفى شل حركة خصمها ، وفى التشهير به ، وفى الاحتجاج عليه ، وفى تغذية هذه الحركات فى كل حين ، وفى كل مناسبة ، وفى خلق المناسبة . فكان كذلك ، يغذى الصحف بآرائه ، ويغذى الأسماع بخطبه ، ويلهب النفوس ببيانه ، وينقض تدبير الخصم بإحكام تدبيره ، ويطلع كل حين بجديد . ولولا منافذ ضيقة خفية دخل منها الخصم فأفسد بعض الحركة ، وشوه منظر الإجماع ، لكان له فى حياته ما أراد لقومه . ولو استعرضت حال الأمة حين تسلمها وحين سلمها لرأيت كيف كان عظيما فى نفسه ، عظيما فى أثره .

لقد غنَّى تاغور وغنى سعد ، فكان لكلٍّ صوته ولكل نغمته ، فأما صوت تاغور فهادئ وديع ، يسمعه الرحيم فيذرف من العين دمعة ، ويسمعه العاشق فيقبّل الطفل فى مهده . ويتبسم للبستان لزهره ، ويقبل الجمال حيث كان ، ويسمعه المتدين فيسجد للطبيعة وبهائها وسحرها وفتنتها ، ويسمعه الظلمة فيسخرون ، والقساة فيستهزئون . وأما صوت سعد ، فيدوّى كالرعد ، يسمعه المظلوم فيثور ، والظالم فيغضب ، ويهيج وينقم ، فإذا صراع عنيف بين المظلوم والظالم ، ومعركة حامية بين المسلوب والسالب . صوت تاغور يؤثر ولكن كالماء

فى الصخر ، وصوت سعد يؤثر ولكن كالريح العاتية فى الأشجار الخاوية ، ولكلٍّ فضل .

***

وأما طلعت حرب فغضّ نظره عن السماء ونجومها ، والبحار وأمواجها ، والأزهار وجمالها ، كما لوى وجهه عن السياسة ونارها . وحدّق فى الذهب والفضة والأوراق المالية ، وسال لعابه لها حتى كاد يلتهمها ، ولكن لم ينظر إليها لنفسه كما فعل غيره ، وإلا ما كان عظيما ولا زعيما ، إنما أدرك قيمتها لقومه ، فسعى لها سعيه ، وأنفق فى ذلك عمره ؛ رأى المال عصب الحياة ، فأيقن أنه إذا قويت الأعصاب قويت الحياة .

قد كان سعد يرى الاستقلال كل شىء ، فإذا كان كانت الحرية وكان العلم وكان الخلق وكان المال . وكان « طلعت » يرى المال كل شىء ، فإذا كان كانت الحرية وكان العلم وكان الخلق وكان الاستقلال ، فكان لكلٍّ سيرته ، ولكل وجهة هو موليها . رأى « طلعت » أن كل مرض اجتماعى علاجه المال ؛ فعلاج الفقر المال ، وعلاج الجريمة المال ، وعلاج البطالة المال ، وعلاج الجهل المال ، وعلاج الاستعباد المال ، فكأن المال هو السحر الحلال ، ما يمس من مرض إلا كان فيه الشفاء . إن الفلاح بائس لفقره ومريض لفقره وجاهل لفقره ومجرم لفقره ، والعاطل عاطل لفقره أو فقر بلده . فلا مشروعات ولا جمعيات ولا نقابات ولا شركات ؛ ومن كان فى يده المال ولم يعرف كيف يستخدمه كان ماله والفقر سواء ؛ والأجانب يحتلوننا بالمال والعمل أكثر مما يحتلوننا بالسيف والسياسة ؛ وأمة واحدة تحتلنا سياسيا ، وكل الأمم تحتلنا ماليا ؛ ولا ينفع استقلال من غير مال ، كما لا ينفع السيف ولا قتّال . فلتستقلّ مصر أول كل شىء بمالها ، بإنشاء بنكها ؛ وليعمل المصريون فى كل أنواع النتاج المصرية حتى السمك والأصداف ؛

ولتمتد اليد المصرية حتى تقلب الأرض وتستخرج خيرها من بطونها ، ولتنقب فى الصحراء حتى تستخرج كنوزها من أحضانها ؛ فاذا كان ذلك فلا عاطل ولا فقير ؛ بل إن كان كذلك فلا استعمار ، فانما أساس الاستعمار الاستغلال ؛ ثم لنعبرْ ماءنا بسفننا ، وهواءنا بطياراتنا ، ونلهو فى مسارحنا ، ونلبس من مزارعنا ، ولا بأس أن نستجلب اليوم بعض الشيء من الخارج فسيكون لنا كل شيء غداً من الداخل ، ولنتوسع فى كل جهة ، ولنمتد فى كل اتجاه ، وليكن ذلك كله عرضة للخطأ ، ولا بأس ، فالإقدام مع احتمال الخطأ خير من الإحجام مع الصواب . وسنتعلم من خطئنا أكثر مما نتعلم من صوابنا .

هكذا فكر وقدر ، ثم فكر وقدر ، ثم أراد وعمل ، فكان له بعض ما أراد . ولولا أنه سمح لمخلوقة أن تدخل باب أعماله اسمها « المجاملة » ، ولولا أنه لم يُحكم التجريد بين نفسه وعمله ، ولولا أن بعضهم استباح لنفسه من الأموال المصرية مالم يستبحه من الأموال الأجنبية ، لكان له أكثر ما أراد — ومع هذا فأى عظيم لم تكن له هنات ؟ !

لقد ترك مصر ولها مؤسسات مصرية تعتز بها ، ولها آمال اقتصادية مرسومة محدودة تسعى لاستكمالها ، وترك الشرق العربى كله له أمل كأمل مصر ، وسعى فى سبيل الاستقلال الاقتصادى كسعى مصر ، وخلق عند هؤلاء وهؤلاء شعوراً حساسا بالوطنية المالية ، وفكراً مفتوحاً للحالة الاقتصادية ، وإدراكاً صحيحاً للأهمية التجارية والصناعية .

***

رحمهم الله جميعاً ، فقد كان كل عظيما فى ناحيته ، نافذ النظر إلى زاويته ، وأكثر الله من أمثالهم ، فالزمان شحيح فى السماح بهم ، وصدق الشاعر :

بُغاث الطيرِ أكثرُها فراخاً وأمُّ الصَّقر مِقلاتٌ نَزُورُ

# العـــدالة

ينقص الشرقَ الآن فى «العدالة» شيئان : الأول عقلى ، وهو الفهم الصحيح لمعناها ، والثانى شعورى وهو إجلالها وتقديسها .

ولست أقصد هنا العدل الفردى ، كأن يكون عليك دين فالعدل يقضى أن تؤديه والظلم أن تنكره ، ونحو ذلك ؛ فهذا شىء ساذج وصل الناس إلى فهمه من قديم ، وقدسوه من الأزل ، وإن غمض منه شىء فتقدم القانون حل أكثر غموضه ، وأوضح أكثر تعقيده .

وإنما أريد العدل الاجتماعى والتصرفات التى لها أثر مباشر فى حياتنا الاجتماعية . وأهم خطأ نرتكبه فى هذا الباب أننا لا ننظر إلى أثر العمل فى الأمة ، حيث يجب أن ننظر إليها ، وننظر إلى الأفراد حيث يجب ألا ننظر إليهم ؛ ولأضرب لذلك أمثلة قليلة بما يحدث كل يوم :

١ — هذا شخص يعين فى عمل لأنه قريب لعظيم ، ويترك من هو أكفأ منه لأنه لا قريب له ، أو لأنه من حزب الحكومة والأكفأ من الحزب المعارض .

٢ — وهذا شخص يستبقَى فى عمله مع عدم صلاحيته ، لمرضه ، ولا يستغنى عنه ويحل محله الصالح للعمل ، لأن هذا المريض خدم المصلحة مدة طويلة ، أو لأن له أسرة كبيرة ولا عائل لها غيره .

والأمثلة فى هذا الباب كثيرة ، والخطأ فيها ناشئ من النظر للأفراد والواجبُ أن ينظر للأمة ؛ فهذا الذى عين لقرابته أو لحزبيته أساء إلى الأمة أكثر مما أفادها ؛ فقد حرمها عمل من هو أكفأ منه من جهة ، ومن جهة أخرى كان فى

تعيينه إفساد لمعنى العدالة فى عقول الناس ، و إشعار للأكفاء بأن كفاياتهم ونبوغهم وتفوقهم كل هذا لا يساوى شيئاً بجانب القرابة أو النسب أو الحزبية ؛ وضرر هذا على الأمة كبير ، إذ يجعلها تقوّم ما لا يستحق التقويم ، وتهدر ما يستحق الإعزاز ، تهدر الكفاية وتعزز المحسوبية ، وفى ذلك قلب للعدالة و إفساد لصحة التقويم ، وحمل الأكفاء على العدول عن إثبات كفاياتهم بعملهم — وهو الطريق المشروع — إلى البحث عن وجيه أو قريب أو حزب ، يتقربون إليه من طريق الملق لا من طريق العمل ؛ وحسبك هذا من إفساد للخلق .

وهذا الذى استُبقِى مع مرضه لخدمته السابقة أو لأسرته الكبيرة ، لو نظر فيه إلى الأمة لم يستبق ؛ إذ كيف يعهد إليه بالتدريس — مثلا — وهو مريض ، أو بالقضاء بين الناس وهو غير قادر ، أو نحو ذلك من الأعمال ؟ وكيف ينظر إلى شخصه أو أسرته ، ولا ينظر إلى من يتعدى إليهم عمله من التلاميذ أو المتقاضين وكيف يخلط بين أجر يتقاضاه فى مقابل عمل ، و بين صدقة يراد أن تجرى عليه فى معهد عمل لا فى مكان إحسان ؟

إن الأمة إذا عقلت أنشأت معاهد الإحسان بجانب معاهد العمل ولم تخلط بينهما ، فلم تبق فى العمل إلا من صلح للعمل ، فاذا لم يصلح فمكانه معاهد الإحسان ؛ وبذلك نوفق مصالح الناس ومصالح المرضى والمستضعفين ؛ فإذا لم نستطع فلنضح الأفراد لمصلحة المجموع .

فالتفرقة يجب أن تكون تامة بين إحسان يعطى لنوع من أنواع الضعف كالفقر والمرض ، وبين أجرة تعطى فى مقابل نوع من أنواع القوة كعمل أو تفكير أو إدارة ؛ أما الخلط بينهما فى السلوك فخلط فى التفكير .

* * *

وخطأ آخر غريب فى فهم معنى العدالة يكثر الوقوع فيه ، وله أمثلة أخرى :

(١) تكون رئيس مصلحة أو مشرفاً على عمل ، فيقدم إليك أحد الموظفين فى « مصلحتك » خدمة شخصية لك فى إصلاح أرضك أو الإشراف على بناء بيتك أو نحو ذلك ، فتكون مكافأته منك الترقية فى « المصلحة » قبل أقرانه ، أو علاوة استثنائية قبل أوانها .

(٢) لك صلة شخصية برجل يجالسك ويلاعبك أو يضحكك أو يتولى لك بعض شؤونك ، أو يهاديك أو يقرظك ويشيد بذكرك ، فتبذل جاهك فى تعيينه أو ترقيته من غير نظر إلى كفايته أو أحقيته .

هذا الخطأ فى فهم العدالة منشؤه الخلط بين النظر الشخصى والنظر للأمة ، وملك الشخص وملك الأمة .

معروف يسدى إلى شخصك فتبخل أن تكافئه مما تملك ، ثم تكافئه بما تملك الأمة ، فيكون الغُنم لك والغرم على الأمة ، هو ضرب مستور من الرشوة ، إذ لا فرق بين هذا وبين قاض يأخذ الرشوة ويحكم حكماً ظالماً على حساب الأمة ، فينتفع هو ويتضرر الناس ، بل هذا فى نظرى أخطر من رشوة القاضى ، لأن الرأى العام فى الشرق تكوّن على احتقار القاضى المرتشى ، وعد الرشوة جريمة منكرة — ولما يتكونْ بعدُ لاحتقار الرشوة من هذا الضرب الذى ذكرت ، وكل يوم يرى منه صنوفاً وألواناً من غير أن يظهر استياؤه ظهوراً كافياً .

إذاً — نحن فى حاجة قصوى إلى التفرقة أيضاً تفرقة تامة بين ما يعمل لشخصك وما يعمل للأمة ؛ فما يعمل لشخصك يجب أن تكون المكافأة عليه من مالك ، وما يعمل للأمة يكافأ عليه من الأمة من غير خلط ولا اشتباك .

وهذا الضرب يحتاج من ذى الضمير الحى إلى عناية شديدة ومراقبة للنفس دقيقة ، فإنه يلبَّس فيه على النفس ، ويدخل فيه الوهم ، فيخيل للشخص أن فلاناً أكفأ وأحق وذو صفات ممتازة ؛ ولو حاسب نفسه حساباً شديداً لرأى أن حكمه

هذا راجع إلى منفعة شخصية كسبها منه أو ملق تملقه به ، أو نحو ذلك من مسارب النفس الخفية التى لا ينجو من شباكها إلا الراسخون فى العلم ، وقليل ما هم .

قرأت مرة أن وزير مالية فى دولة أوروبية عرف بالنزاهة التامة وتحرى العدالة ، عرض عليه أمر يتصل بشركة ولها من ورائه ربح ، فتردد فى إمضائه ، إذ لم يتبين فيه النفع لأمته ؛ ولكنه كان مغرماً بلعب الورق فدست إليه الشركة من يلاعبه ، فلاعبه وخسر له مبلغاً كبيراً ، ثم بعثت إليه الشركة هذا اللاعب الخاسر يوضح له مسألة الشركة ويبين له فيها وجه النفع للأمة ، فدعا بالورق وأمضاه وهو يكذب نفسه ويظن أنه اقتنع بعدالة المطلب ، وإنما الذى أقنعه فى الحقيقة مكسبه فى الملعب .

***

وخطأ ثالث يتجلى أكثر ما يكون فى وظائف الحكومة وأمثالها ، وهو إهدار الكفاية وحسن الإنتاج لمراعاة الأقدمية أو نحوها .

ويتجلى هذا الخطأ إذا راعيت أن الآلة الحكومية ليست إلا صورة مكبرة لمصنع أو شركة ؛ فواضح أن المصنع أو الشركة إنما تضع أجور عمالها أو موظفيها على حسب مقدرة كل على الإنتاج وقيمة العمل الذى يقوم به المصنع أو الشركة ؛ وبعبارة أخرى غُرْم الشركة أو المصنع يتناسب تمام المناسبة مع غُنْمها من العامل ؛ فمن لم يعمل لا يأكل ، ومن عمل أكل بمقدار ما عمل ، سواء كان هذا الموظف جديداً أو قديماً ، وشابا أو مسنا ؛ فلا بأس أن يكون الجديد والشاب رئيس القديم المسن ، لأن الأجرة غير الصدقة ، قد يراعى فى الصدقة السن والقدم وكبر الأسرة والعجز ونحو ذلك . أما الأجرة فهى نظير عمل ونظير كفاية ؛ مثلها مثل أجرة البيت وأجرة كل شىء ، تتناسب مع الشىء المؤجر فى جودته أو رداءته ، وصلاحيته

وعدم صلاحيته ، وجماله وقبحه ، ثم لا يراعى بعد ذلك أى اعتبار آخر خارج من الانتفاع بالشىء المؤجر .

فأى نظام لحكومة أو بنك أو شركة يراعى فيه أى اعتبار غير الكفاية والمقدرة وخدمة المصلحة المكلف بها نظام فاسد ، ونظام ظالم ، ونظام خالط فيه بين الرحمة والعدل ، وبين الصدقة والأجر ، وبين معهد الإنتاج ومأوى المساكين .

وهذا النظام الذى أدعو إليه وحده هو الذى يفسح الطريق أمام القادرين على العمل ، ويخلق التنافس فى الإجادة ، ويبعث على التسابق إلى المجد ؛ أما نظام الأقدمية وأشباهها فمدعاة للكسل ، وانتظار الزمن فى جمود لإثبات الأحقية بالأقدمية ، وانتشار الخمول الذى نشاهده ونشعر به ونلمسه فى كل تصرف ، ثم قتل الكفايات ، والقضاء على الزهرة الجميلة قبل أن تتفتح ، والمكافأة على الضعف وعدم الاكتراث ، بحكم الأقدمية .

هناك نظام عادل ونظام ظالم فى كلمة ؛ أما النظام العادل فالمكافأة بمقدار الصلاحية والإنتاج ؛ وأما النظام الظالم فالمكافأة بالأقدمية أو المحسوبية أو القرابة أو الحزبية ؛ أما النظام العادل فتقدير الشىء من حيث هو ومن غير خلط بين الرحمة والاستحقاق ؛ وأما النظام الظالم فتقدير الشىء لاعتبارات لا ترجع إلى العمل ، والخلط الفاسد بين الرحمة والاستحقاق . أما النظام العادل فكتربية الأولاد على أساس المصلحة فقط ؛ وأما النظام الظالم فكإضاعة المصلحة لداعى الشفقة .

وجه الحق فى هذا الكلام واضح جلى ، ولكن تنفيذه فى منتهى الصعوبة ؛ وكثير من الناس يؤمن بهذا المبدإ ، ولكن يحمله على العدول عنه فساد الميزان فى يد أولى الأمر وعدم قدرتهم على الحكم الصحيح ؛ فإذا قرر مبدأ المكافأة للكفاية وحدها فكم يرتكب من الجرائم للمحسوبية والحزبية تحت ستار اسم الكفاية .

فهذا الميزان الذى أدعو إليه إنما يصلح فى يد القدير الحازم النزيه ، وإلا انقلب إلى ضده وساد الفساد وعمت الفوضى . فهيئ الرجال القادرين على استعمال الميزان الصحيح ، ثم ضعه فى أيديهم ، وإلا كان أسوأ من الميزان الفاسد .

***

هذه هى بعض النواحى العقلية فى فهم ، « العدالة » ؛ أما الناحية الشعورية فهى تعليم الشعب إرهاف الشعور نحوها ، والغيرة عليها غيرة البدو على أعراضهم ، والصرخة تخرج من أعماق القلب لظلم يحدث وعدالة تنتهك ، والثورة على الظالمين حتى لا يعودوا إلى مثل ظلمهم ، وتكوّنُ رأى عام يحمى العدالة ويقدسها تقديس عبادة فى كل مكان : فى القرية ، فلا يستطيع عمدة أن يظلم ، لأن الرأى العام للفلاحين يحتقره لظلمه ويهينه لجوره ، ويصرخ فى وجهه لانحرافه عن العدالة ؛ وفى المركز ، فلا يستطيع مأمور أن يظلم لأنه لا يستطيع بعد ظلمه أن يبقى فى مركزه لقوة الرأى العام فى دائرته ؛ وفى الأمة كلها ، فالحكومة تحسب ألف حساب للرأى العام ، فيسقطها إذا ظلمت ، ويؤيدها إذا عدلت ، ويقوّم الأحزاب فيها بمقدار حبهم للعدالة .

إذ ذاك — وإذ ذاك فقط — تسير الآلة الحكومية فى إدارتها وفى قضاتها وفى كل مرفق من مرافقها نحو العدل ، والعدل دائماً ، لخوفها من الرأى العام ، وشعورها التام بأن كل عضو من أعضائها وأنها فى جملتها مرتكزة فى بقائها على « العدالة » ، والعدالة وحدها .

# مصدر تاريخى مهمل

هناك مصدر هام من مصادر التاريخ الإسلامى لم أر إلى الآن من اتجه إليه واستفاد منه مع ما فيه من غنى وثروة ، وتظهر أهميته إذا عرفنا أنه يلقى ضوءاً قويا على الحياة الاجتماعية فى العصر الذى يعرض له ، وهذا هو الجانب الضعيف فى كتب التاريخ عندنا ؛ فأهم نقطة ترتكز عليها هذه الكتب هى الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء ؛ أما الشعب نفسه فلسنا نعرف حالته إلا من ثنايا الكلام ومما يذكر عرضاً لا قصداً ؛ فإذا كان هذا المصدر الذى أشير إليه يُعْنَى بشرح الحالة الاجتماعية للعصر ، فلا شك أنه يكون مصدراً لا يصح إغفاله ، وتجب العناية به .

تلك هى « كتب الفتاوى فى الفقه » ، وما أكثرها ؛ ووجه أهميتها أن مؤلفها — عادة — يكون من أكبر رجال عصره علماً وفقهاً ومركزاً ، حتى تتجه إليه الأنظار بحكم مركزه العلمى أو منصبه الرسمى ؛ فإذا حدثت أحداث تنازع فيها الناس — وخاصة الأحداث العظام — هرع الناس إليه يستفتونه ؛ وليسوا يقتصرون فى مسائل الاستفتاء على المسائل الفقهية بأضيق معانيها ، بل على المسائل الاجتماعية بأوسع معانيها ، فيكون لنا من هذه الأحداث وشرحها وبيان أسبابها ورأى العلماء فيها صورة بديعة لعقلية الناس فى ذلك العصر . ولأسق لذلك مثلا يوضح الفكرة :

فمثلا بين يدى الآن « الفتاوى الحديثيّة » لابن حجر الهيتمى ، وهو إمام مشهور مصرى الأصل والمنشأ ، وعاش بعض زمنه الأخير فى مكة ، وكان فى القرن العاشر الهجرى ، فقد ولد فى محلة أبى الهيتم من أعمال الغربية سنة ٩٠٩ ﻫ ،

ودرس فى الأزهر ، ورجع الناس إليه فى الفتوى ، ومنذ سنة ٩٤٠ استقر فى مكة وأقام بها إلى أن توفى سنة ٩٧٤ ، واشتهر اسمه فى العالم الإسلامى ، واستفتى من جميع الأقطار .

تقرأ هذه الفتاوى فتجد فيها صوراً مختلفة تتبين منها جانباً من الحياة العقلية للمسلمين فى هذا القرن .

فهذه صورة ترينا أن العالم الإسلامى إذ ذاك كان مضطرباً بين حركتين متناقضتين فى شأن التصوف وما إليه : إحداهما الحركة التى قام بها ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ يطعن فيها على ابن عربى وابن الفارض وابن سبعين والغزالى وغيرهم من المتصوفة ، ويدعو إلى الرجوع للكتاب والسنة ، وترك البدع كالتوسل بالأولياء وزيارة القبور وغير ذلك . والأخرى حركة تؤمن بالصوفية وكراماتهم وشطحاتهم إلى أقصى حد .

وقد كانت هاتان الحركتان عنيفتين فى عهد ابن تيمية ، وكان من جرائهما اضطهاده وسجنه إلى أن مات ، فالتف حوله علماء يؤيدونه وعلماء يكفرونه ويناهضونه ؛ وانتقلت هاتان الحركتان إلى القرن العاشر الذى تصوره هذه الفتاوى .

وإذ كان ابن حجر هذا فقيهاً شافعيا محدثاً متصوفاً ، فقد أيد الصوفية وآمن بكل شىء يدعون إليه ، وهاجم ابن تيمية فى عنف ، وادعى أنه لا يقام لكلامه وزن ، وأنه مبتدع ضال مضل جاهل غال ؛ وأفاض فى مدح الصوفية الذين هاجمهم ابن تيمية ، كابن عربى وابن الفارض والغزالى .

وليس يدل هذا القول على رأى ابن حجر وحده ، بل يدل على اتجاه العقلية نحو الحركة التى تؤيد الصوفية وخفوت صوت المعارضين ، لأن كثيراً من أهل هذا العصر ناصر ابن حجر كما حكى هو ، وانضموا إلى الشعب فى الانتصار للصوفية

بجميع مظاهرها . وقد قص علينا ابن حجر نفسه فى هـذه الفتاوى أن العالم — فى زمنه — إذا اعتقد فى التصوف والمتصوفة أقبل الناس عليه وعلى كتبه وتبركوا به ، كالشيخ زكريا الأنصارى ؛ أما إن أنكر على الصوفية شيئاً من أقوالهم صد الناس عنه ولم ينتفعوا بعلمه ، كالشيخ البِقَاعى ؛ فقد كان عالماً جليلا ، وكان نابغة فى حسن العبارة وقوة الذكاء وسعة العلم ، وخاصة التفسير والحديث ، وألف فى تفسير القرآن وفى مناسباته كتباً — قال ابن حجر عنها إنها لو كانت للشيخ زكريا لكتبت بماء الذهب — ولكن البقاعى كان يعترض على ابن عربى ويفند بعض أقواله ، ويؤلف الكتب فى نقده ، ويرى فى ابن الفارض أنه شاعر جيد ، ولكنه متصوف غير جيد ، وأنكر على الغزالى قوله : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » فهاج عليه العامة ، ثم حكم بتكفيره وإهدار دمه ، وكاد يتم ذلك لولا تدخل بعض الأمراء فى أمره ، فاستتيب وجدد إسلامه ؛ ودخل عليه بعض أهل العلم فوجده وحده ، فما زال يضرب به بنعله على رأسه حتى أشرف على التلف ، وقام العلماء يؤلفون الكتب فى الرد عليه والذب عن الغزالى ، وأصيب بضيق التنفس فاعتقدوا أن هذا سر ابن الفارض .

ويرسم الكتاب صورة الاندفاع وراء الاعتقاد بالمغيبات والكرامات والشطحات والجن ، وهى صورة تبعث على الشفقة والأسى على ما وصلت إليه العقلية فى هذا العصر .

* * *

ويصور لنا ابن حجر الجدال حول تعليم البنت الكتابة والقراءة ، فيستفتَى فى ذلك ، فيفتى بأنها تعلّم العلم ، ولكن لا تعلم الكتابة . ويروى حديثاً أن لقمان مر على جارية تُعلَّم فقال : « لمن يُصقَل هذا السيف ؟ » أى أنها تُعلم الكتابة لتَذبح بها . ويقول إن المرأة إذا تعلمتها توصلت بها إلى أغراض فاسدة ، لأنها تبلغ

بها فى أغراضها ما لم تبلغه برسولها ؛ فلأجل ذلك صارت المرأة بعد الكتابة كالسيف الصقيل الذى لا يمر على شىء إلا قطعه ، ثم قال . واعلم أن النهى عن تعليم النساء الكتابة لا ينافى طلب تعليمهن القرآن والعلوم والآداب ، لأن فى هذه مصالح عامة من غير خشية مفاسد تتولد منها ، بخلاف الكتابة .

ويستفتى فى كلمة « الأشراف » : من هم ؟ وما تاريخ عمامتهم الخضراء ؟ فيذكر أن اسم الشريف كان يطلق فى الصدر الأول على من كان من أهل البيت ولو كان عباسيا أو عَقِيليا[1] ، ومنه قول المؤرخين الشريف العباسى والشريف الزينبى[2] فلما ولى الفاطميون مصر قصروا الشرف على ذرية الحسن والحسين فقط ، واستمر هذا إلى الآن ؛ وأما العلامة الخضراء فلا أصل لها ، وإنما حدثت سنة ٧٧٣ هجرية بأمر الملك شعبان بن حسن ، وفى ذلك يقول ابن جابر :

نور النبوة فى وسيم وجوههم ... يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

فإذا كانت هذه العلامة الخضراء حادثة ، فلا يؤمر بها الشريف ولا ينهى عنها غيره .

***

والفتاوى تدل على انتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة بين الشعب ، وكثرتها كثرة مفرطة ، وتناولها أدق الأشياء فى المأكل والملبس والزواج والطب وما إلى ذلك ، وسيطرتها على عقول الناس وسلوكهم ، والخاصة يهرعون إلى المفتين يستفتونهم فى شأنها ؛ فبدلا من أن ينكروها ويبددوها ، يجتهدون فى الكثير منها أن يجدوا له مخرجاً ، فيقولون رواها فلان فى كتابه وفلان فى مسنده ولا يقرون بضعف الضعيف ووضع الموضوع إلا فى القليل النادر ، ويتركونها تأكل عقول الناس وتشعوذ سلوكهم .

***

(١) نسبة إلى عقيل بن أبى طالب .

(٢) نسبة إلى زينب بنت فاطمة ، وقد تزوجت بابن عمها عبد الله بن جعفر ، ولها منه أولاد كثيرون .

ثم من غريب أمر هؤلاء المفتين من الفقهاء والمحدّثين فى ذلك العصر أنهم لا يؤمنون بأن هناك علوماً وراء علومهم ، ولا تخصصاً وراء تخصصهم ، ويؤمنون بأن الفقه والحديث كافيان وحدهما للإجابة عن كل سؤال ، سواء اتصل بالتاريخ القديم أو بالطب أو بالفلك أو طبقات الأرض أو ما شئت من العلوم ؛ فإذا سئل المفتى عن شئ من ذلك فما عليه إلا أن يقلب كتبه ليعثر على حديث ضعيف أو قول شيخ قديم ، فيكون هو الجواب ، وهو الصواب ، وهو كل الحق ، فالشيخ ابن حجر يُسأل عن السواد الذى فى القمر ، فيجيب بأن عليا كرم الله وجهه سئل عن ذلك فقال : هو أثر مسح جناح جبريل ، لأن الله خلق نور القمر سبعين جزءاً كنور الشمس ، فمسحه جبريل بجناحه فمحا منه تسعة وستين جزءاً حوّلها إلى الشمس ، فأذهب منه الضوء وأبقى فيه النور ، فذلك قوله تعالى: « فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مُبْصِرة » .

ويفتى بأن القمر يقطع الفلك فى شهر ، والشمس لا تقطعه إلا فى اثنى عشر شهراً . ويفتى فى المطعومات وما يناسب منها وما لا يناسب . ويفتى فى مقدار المدة بين الأنبياء ، وفى عدد زوجات سليمان وسرّياته الخ ، مما يدل على أن هؤلاء المفتين لا يحترمون للعلم اختصاصه .

***

ثم كان الناس فارغين يبحثون فى أوهام ويتساءلون عما لا يمكن العلم أن يصل إليه ، ويتجادلون فى فروض ، ويضيعون أوقاتهم فيما لا ينبنى عليه فى الحياة عمل ؛ هم يتساءلون : هل يجوز زواج الجن ؟ وهل يروى عنهم الحديث ، وهل خلقت الملائكة دفعة واحدة أو على دفعات ؟ وهل الجن تتشكل كالملائكة ؟ وهل الجن يموتون ؟ وهل كان إبليس عارفاً بالله ثم سلب منه ذلك ؟ وهل يدخل مؤمنو الجن الجنة ؟ وهل الأفضل المشرق أو المغرب ؟ وهل تصح الصلاة خلف

الجن ؟ وهل أذن للأنبياء أن يخرجوا من قبورهم ويتصرفوا فى الملكوت ؟ الخ .

تلك تصورات فاشية بين المسلمين فى القرن العاشر ؛ لم يجدوا فى الحياة جدا فهزلوا ، ولم يجدوا من ينير عقولهم فسخفوا ، وما زلنا إلى الآن نرث تركتهم المثقلة بالديون ، ويعانى المصلحون أشد العناء فى محو هذه الأوزار وإزالة هذه الآثار .

***

هذه بعض صور لما عثرت عليه فى هذه الفتاوى ؛ وقبل ذلك قرأت فى « فتاوى ابن تيمية » فوجدت فيها من الفوائد التاريخية ما لم أجده فى كتب التاريخ نفسها .

أفلست ترى — بعد ذلك — أن هذه الفتاوى مصدر تاريخى هام لتأريخ الحياة الاجتماعية فى العصور المختلفة ، وأن المؤرخين لم ينصفوا فى إهمالها ؟

# الديمقراطية الأرستقراطية

أليس عجيباً هذا الوصف ؟

إنه كما تصف الحلو بالمر ، والأبيض بالأسود ، والطويل بالقصير ، والكبير بالصغير — وإن هذا لا يجوز إلا فى عرف المجانين .

ولكن دنيا الواقع غير دنيا النظريات ، فمثل هذا يحدث تحت سمعنا وبصرنا وذوقنا كل يوم .

أفليس الليل الواحد طويلا قصيراً ؟ طويلا فى الهجر ، قصيراً فى الوصل ، طويلا فى الشقاء ، قصيراً فى الرخاء ؟

أوليس ألف دينار عند الغنى الواسع الثراء شيئاً تافهاً حقيراً صغيراً ، وفى نظر الفقير البائس شيئاً عظيما كبيراً .

أو لم يقل الله تعالى : « إنهم يَرَونه بعيداً ونراه قريباً » ؟

أو لم يقل الشاعر :

حجبتْ تحيتها فقلتُ لصاحبى ما كان أكثرَها لنا وأقلّها

إن أمثال ذلك كثير ، فلا عجب — إذاً — أن نرى أرستقراطية ديمقراطية ، وديمقراطية أرستقراطية .

فأما الأولى فتشاهدها كل يوم ، فى الفتاة من « بنات الذوات » ، تُصوَّر فى زى فلاحة ؟ تلبس لباسها ، وتحمل ماعونها ، وتتحلى بحَليها ، وتتظاهر بوشمها .

وتراها فى السيارة الفخمة الضخمة تعطب فى الطريق فيجرها إلى « مقرها » حمار هزيل . وتراها فى السيد العظيم والغنى الكبير يتواضع فيؤاكل الفلاحين جبنهم وبصلهم وعدسهم ، وتراها فى الأسر العريقة فى المجد ، أو ورثة بيت

الخلافة والمُلْك ، يعدو عليهم الزمن الغادر فيضيع ملكهم ، ويبدد مالهم وثروتهم، فيعيشون فى بيت صغير وبإحسان قليل ، ويحتفظون بحسن مظاهرهم ولامع طلائهم ، وتراها وتراها ، فى كثير من أمثال ذلك .

وأما النوع الثانى ، وهو « موضوع العنوان » ، فمثله قوم يتغنون بالديمقراطية ومزاياها وخيراتها ، فيقول الناس آمنَّا ، فإذا جاء دور التطبيق رأيت الساسة الجامدين ينزعون إلى أن مبادئ الديمقراطية إنما تطبق على أمم خاصة وأجناس خاصة ، وليست هى لكل شعب ولا كل جنس ؛ فأما فى أوربا وأمريكا فديمقراطية حقة ، وأما فى غيرهم من الشعوب فشىء يصعب وصفه ويدق بيانه ؛ ولعل أصدق وصف له أنه ديمقراطيــة أرستقراطية ، لأنها ذات لونين متباينين فى مظهرها ومخبرها ، واسمها ومسماها .

أذكرنى ذلك قوله تعالى : « ومن أهل الكتاب مَنْ إن تأمنْه بقنطار يؤدِّهِ إليك ؛ ومنهم مَنْ إن تأمنْه بدينار لا يؤدِّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأمّيّين سبيل » ، فهو يحدثنا أن من أهل الكتاب من إن تأمنه على عظيم من المال يؤده إليك ولا يخنك فيه ، ولا يفرق بين من له المال من أى جنس ومن أى دين ، لأن الأمانة واجبة لأىّ كان ، والفضيلة واجبة فى أى زمان ومكان ، ومع أى إنسان . فليس أكل مال الغير حراماً إن كان من دينه وجنسه ، وحلالاً إن كان من غير دينه وجنسه . ويحدثنا عن قوم آخرين نزعوا غير هذا المنزع الحق ، فكان « من اليهود من قالوا : لا حرج علينا فيما أصبنا من أموال العرب ولا إثم ، لأنهم على غير الحق وإنهم مشركون[1] » . ولقد نزع قوم من المسلمين أن يعاملوا أهل الكتاب هذه المعاملة ، فقال رسول الله : « ما من شىء كان فى الجاهلية إلا هو تحت قدمى ، إلا الأمانة ، فإنها مؤداة إلى البر

١) هذه العبارة للطبرى .

والفاجر » . وجاء رجل إلى ابن عباس ، فقال له : إنا نصيب فى العِذْق من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ، فقال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول ليس علينا بذلك بأس . قال : هـذا كما قال أهل الكتاب ، ليس علينا فى الأميين سبيل . لا تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم .

إن المعاملة على أساس الديمقراطية كالصدق والعدل ، والوفاء بالعهد ، حق لكل إنسان على كل إنسان ، وواجب على كل إنسان لكل إنسان . وليست كالعملة ، إنما تروج فى بلدها ، ولا كالعرف والمواضعات لكل أمة عرفها ومواضعاتها .

ما معنى الديمقراطية ؟ إنها حكم الشعب بالشعب لخير الشعب ، إنها القضاء على تحكم طبقة ممتازة — فى الشعب بأجمعه ، إنها نشر التعليم ونشر المساواة والحرية والإخاء بين أفراد الشعب ، إنها هدم العوائق فى سبيل رقى الشعب ، إنها حد للغنى الواسع وقضاء على الفقر المدقع ، إنها حرب على الامتيازات السياسية والاقتصادية ، إنها إفساح للفرد أن ينمى ملكاته وقواه حسب استعداده ، إنها تربية للرأى العام وتعويده الرقابة على الحكومة وعلى توجيه الحكام للخير العام ، إنها روح عامة تسيطر على الشعب فتوجهه لخير الجميع ، إنها قضاء على رق الأفراد ورق الأمم ، وما يستعبد الأفراد من جهل وشهوات ، وما يستعبد الأمم من استغلال واستعمار ، إنها ثورة على استعباد الأقليات للأكثريات ، والأفراد للأمم ، والأمم للأمم .

إن كانت كذلك وهى خير للغرب ، فهى خير للشرق . فأى معنى من هذه المعانى محلِّى لا يصلح إلا فى مكان خاص وزمان خاص ؟ هى نظام يمتحن كما يمتحن الذهب . فإن كان ذهباً حقا فهو ذهب فى مصر والشام وأمريكا واليابان والسند والهند وفرنسا وإنجلترا ، وإن كان ذهباً مزيفاً لم يصلح فى أى

مكان ، ولم تكن له قيمة فى أى قطر ، قد تختلف أعراضه فى الأقاليم بحسب اختلاف بيئتها ، ولكن الجوهر فى كل البيئات واحد .

إن كان هذا معنى الديمقراطية فهو يتنافى مع الانتداب والاحتلال ومع سائر هذه المترادفات . ولماذا يظهر ظهوراً بيناً أن الديمقراطية لا توافق أن تحكم فرنسا إنجلترا أو إنجلترا فرنسا ، ولا يكون مثل هذا الظهور فى حكم الغرب للشرق ؟ إن الديمقراطية عدو للاستبداد فى كل شكل من أشكاله ، وتحت أى اسم من أسمائه .

لقد وصلت الديمقراطية فى الأيام الأخيرة من الأجيال المتعاقبة إلى مبادئ قوية ظهرت على لسانى زعيميها روزفلت وتشرشل ، فقررا مبدأ احترام رغبة الشعوب فى اختيار نظام حكومتها وحكمها كما تشاء ، ومبدأ حرية الحصول على المواد الأولية اللازمة لها وتصريف محصولها كما تشاء ، ومبدأ التعاون الاقتصادى بين جميع الأمم ، ومبدأ حرية البحار وحرية التجارة ، وهى مبادئ فى غاية الأهمية لخير الإنسانية .

ولكن هل يحق للشرقيين أن يفهموا أن هذه المبادئ تنطبق على الشرق كما تنطبق على الغرب ، وأن سيكون لبلاد المغرب وفلسطين وسوريا والعراق ومصر والسودان رأيها فى حكوماتها ونظام حكمها وحرياتها السياسية والاقتصادية ؟.

إنى ألمح شبه تناقض بين هذه المبادئ السامية و بين الخطابات المتبادلة بين القائدين « ليتلتون » و « ديجول » فى امتيازات الدول الأوربية وحقوق الدول الأوربية فى سوريا ، كما ألمح شبه تناقض بين هذه المبادئ السامية والاعتراف القريب فى البرلمان البريطانى بأن موقف الحكومة البريطانية نحو اليهود فى فلسطين لم يتغير .

وإنى آمل و يأمل الشرق معى أن تكون هناك التزامات صريحة من قادة

الديمقراطية أمثال روزفلت وتشرشل بأن هذه المبادئ إنسانية عامة لا محلية خاصة، وأنها وضعت لخير الشرق كما وضعت لخير الغرب .

إن الديمقراطية فى نظام الحكم كالعلم فى نظام العقل ، كلاهما صالح كل الصلاحية ، بل واجب كل الوجوب ، للإنسان من حيث هو إنسان ، لا فرق بين بدوى وحضرى . وشرقى وغربى ؛ وليس هناك قواعد من العلم صحيحة بالنسبة للحضرى غير صحيحة بالنسبة للبدوى ، وصحيحة بالنسبة للشرقى غير صحيحة بالنسبة للغربى ؛ فقاعدة العلم إما أن تكون صحيحة للشرق والغرب أو فاسدة للشرق والغرب . قد يحدث الاختلاف فى مناهج التعليم ، وفى طرق البيداجوجيا بين أمة وأمة . أما العلم ذاته فلا خلاف فيه ؛ كذلك الشأن فى الديمقراطية ، أنْ تحكم أمة نفسها بنفسها ، وأن تكون الأمة مصدر حكمها بمنزلة قواعد العلم ، فإن كان خلاف بين أمة وأمة ففى الشكل دون الجوهر .

بل إن الشرق عرف الديمقراطية قبل أن تعرفها أوربا ، وحاربت دياناته الشرقية الاستبداد ، ودعت إلى أن الناس سواسية لا تفاضل بينهم إلا بالأعمال ، وحاربت الجهل ودعت للعلم ، وألزمت الخضوع للقانون العادل ، وطالبت بالثورة على الظالم ، قبل أن تدعو إلى ذلك كله الثورة الفرنسية . نعم إنها لم تسمّ ذلك كله ديمقراطية ، بل سمته أسماء مختلفة ؛ ولكن ما قيمة الألفاظ بجانب المعانى ؟ ولولا عوادٍ عدت على الشرق فأفسدت عليه سيره وحرمته نظمه العادلة لكان هو القائد وهو المشرّع ، وهو رافع لواء الحضارة ؛ فمن الظلم أن يقال له إنك لا تصلح للديمقراطية ، وإن تاريخك سلسلة استعباد .

إنى أربأ بدعاة الديمقراطية أن يكونوا يدعون باسمها ومعناها ومبادئها السامية فى الغرب ، وباسمها فقط فى الشرق ؛ كما أربأ بالشرق أن يتلهى بالألفاظ

ويتعلل بالمظاهر ؛ فمن الحق أن الديمقراطية خير للشرق كما هى خير للغرب ، ولكنها الديمقراطية التى فى ذهن الإنجليزى أو الأمريكى لبلاده ، وعلى أساس وحدة المعنى ووحدة التطبيق ، وإلا كانت ديمقراطية أرستقراطية .

كما أرجو أن تسفر هذه الحرب عن انتصار الديمقراطية الصادقة ؛ ويكون من نتائجها أن يتعمق الشرق فى معناها ، وأن يوسع الغربى مداها ، وأن يطبق الجميع ما تدعو إليه من إخاء .

بل أن يتخذ كل من اليوم عدته ، ويرسم للغد خطته ، وأن نتصارح ، فالصراحة خير للجميع .

# دُمْيَةٌ فى دِمْنَةٍ

الشيخ يوسف الشربينى أديب مغمور ، لم أر من ترجم له ، احتقاراً لشأنه ، وازدراء بتآليفه ، لأنها تآليف شعبية ، وليست تآليف أرستقراطية — وقديماً غبن الأدباء الأدب الشعبي — ولأنه كذلك ماجن إلى أقصى حدود المجانة ، لا يتحرج من استعمال كلمات الفحش عارية صريحة فى غير كناية ولا إيماء ، ولا يخضع لمواضعات الناس فى الوقار والاحتشام ، وإذا تزاحم فى فكره كلمتان إحداهما مؤدبة والأخرى داعرة ، اختار الثانية وهجر الأولى عن قصد وتعمد ؛ فالقارئ المهذب يشمئز من قراءتها ويكره عُرْى كلماتها وفحش تعبيراتها ، ولكنها مع ذلك تحوى صوراً جميلة ، وترسم أشكالا بديعة قد تعجز الكتب الأرستقراطية عن رسمها وتصويرها .

بين أيدينا من كتبه كتاب اسمه « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » ، وتذكر فى أثناء الكتاب أنه ألف كتباً أخرى ، ولكنى لم أرها .

ويدل هذا الكتاب على أن المؤلف من بلدة « شربين » وأنه طلب العلم بالأزهر ، وحضر على أستاذه الشيخ القليوبى الذى كان عالماً جليلا كثير التأليف ، ومات سنة ١٠٦٩ هـ ، وأنه ألف هذا الكتاب بإشارة من الشيخ السندوبى ، وكان من أكابر علماء الأزهر وأدبائه ومؤلفيه ، ومات سنة ١٠٩٧ هـ .

فصاحبنا إذاً عاش فى القرن الحادى عشر الهجرى ، وقد حدثنا أنه حج سنة

---

(١) الدمنة : مستودع الأقذار فى البيت ، وفى الحديث : « إياكم وخضراء الدمن ، وهى المرأة الحسناء فى المنبت السوء » .

١٠٧٤ هـ — ولم يتحرج من أن يذكر عن نفسه أنه كان متهتكا يحب الغلمان ويتتبعهم ؛ ولست أدرى أكان ذلك حقيقة يذكرها أم مزاحاً يمزحه .

أما الصورة الحسناء التى يستطيع القارئ أن يخرج بها من هذه الدِّمَن ، فهى وصف الفلاحين وبؤسهم فى القرن الحادى عشر .

قصيدة أبى شادوف هذه قصيدة عامية ، لست أدرى من نظمها ، ولعله هو ناظمها ؛ وموضوعها فقر الفلاح وتعاسته ، فجاء الشربينى هذا وشرحها فى جزء كبير يقع فى نحو ٢٣٠ صفحة كبيرة شرحاً هزليا استطراديا ، فلا تأتى كلمة حتى يتلاعب بها ويهزئ نحوها وصرفها واشتقاقها ، وفى أثناء ذلك يذكر معلومات تاريخية طريفة تصور فى جملتها الصورة التى أشرنا إليها .

يصف الفلاح وبؤسه ، وطول معاشرته للبهائم ، وحمله للطين والسماد ، وملازمته للمحراث والجُرّافة ، ودورانه حول الزرع والجُرْن ، وجهله إلا بما يتصل بزراعته ، كالساقية والليف والحزام والنَّبُّوت ، وقد نشأ عن هذا كله غلظ فى ذوقه ، فأفراحه وأعراسه ليست إلا صراخاً وصياحاً ، وورده عند الأسحار ليس إلا التفكر فى الغنم والأبقار ، و « حُط العلف وهات الكلف » ، وأسماؤهم دالة على ذوقهم ، فجنيجل وجليجل ، وزعيط ومعيط ، وأسماء نسائهم شباره وشراره ، وعليوه وحليوه ، وخطيطه وعويطه ، وأولادهم مكشوفو الرأس ، غارقون فى الأدناس ، وفقهاؤهم جهل مركب وخلط فى الدين ، وقلة عقل ، وأدبهم وأشعارهم وقصصهم من نوع سخيف ، ونظم خسيس ، وتشابيه باردة ، وخرافات باطلة .

وقد أطال فى كل باب من هذه الأبواب ، وذكر الشواهد والقصص والأمثال بإسهاب . والكتاب خِصب جدا من الناحية الاجتماعية فى هذا العصر ، فهو يصور لنا الفلاحين السذج ، وكيف يُستغفلون إذا دخلوا القاهرة ، وكيف ينظرون إلى مشاهدها ومرافقها نظرة بَلْهاء ، وكيف يفسرونها تفسيراً مضحكا ، ويقارن

بين حياة المدن وحياة الريف ، وعلم المدن وجهل الريف ، وذوق المدن وذوق الريف ، فى المأكل والمشرب والملبس وما إلى ذلك .

ويصور لنا تصويراً رائعاً بؤس الفلاح عند تحصيل الأموال الأميرية ، فهذه مشكلة المشاكل ومصيبة المصائب ؛ فيقول إنه — دائماً — معرض للهلاك من ضرب وحبس وفقدان لذة الأكل والشرب ، وهو دائم التفكير فى المال الذى عليه آناء الليل وأطراف النهار . والمؤلف يحمد الله على أنه ليس له أرض ، ولا يشتغل بالفلاحة ، ويتمثل بقول البهلول :

إذا ركب الملوك على الجياد ... وقد شدوا البنود على القِصاد
ركبت قُصيْبَتى ولبست مِسْحى ... وسرت كسَيْرِهم فى كل واد
فلا الأجناد تطلبنى بمال ... ولا الديوان يغلط فى عدادى

ويقص علينا أن النصرانى (وهو الصراف) إذا حضر القرية أو الكَفْر لأخذ المال ، كثر الخوف والحبس والضرب لمن لم يقدر على الدفع ؛ فمن الفلاحين من يقترض الدراهم بالربا ، أو يبيع زرعه أوان طلوعه بما ينقص عن بيعه فى ذلك الزمن ، أو يبيع بهيمته التى يحلبها لعياله ، أو يرهن مصاغ زوجته أو يبيعه كرهاً ، وإن لم يجد شيئاً أعطى ابنه رهينة حتى يدفع ، وقد يُحبس ويعذب حتى يدفع ، وقد يهرُب ليلا فلا يعود إلى بلده قط ، ويترك أهله ووطنه وعياله من هم المال وضيق المعيشة . وروى لنا فى ذلك أمثالا مشهورة عندهم وهو : « مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم » و « يوم السداد عيد » الخ ، ويصف لنا « السُّخْرة والعونة » وصفاً دقيقاً ؛ فالملتزم يأخذ القرية أو الكفر يزرعه على حسابه ويسمى هذا « زرع الوِسية » فإذا احتاج الأمر لتطهير الترع ، أو حفر القنوات ، أو نقل الطين ، أو ضم الزرع . نادى الغفير : « يا فلاحين العونة يا بطالين » فيخرجون فى صبيحة اليوم جميعهم ويعملون ما يؤمرون به من غير أجر . وثم نظام آخر ؛

وهو أن يفرض على كل بيت عدد معين للعمل فى العونة . فيقولون : يخرج من بيت فلان شخص ، و بيت فلان شخصان ، وهكذا ؛ وفى كلتا الحالتين من تأخر أو تكاسل أخذه « المشد » وعاقبه وضربه وغرمه دراهم معلومة ؛ ومن الناس من يختبئ فى الفرن إذا نودى على العونة أو نحو ذلك .

وإذا نزل النصرانى والمشد والملتزم بلدة فأكلهم وشربهم على الفلاحين يقسمونه عليهم ، ويسمى « وجبة » ، كل على حسب أرضه وقراريطه وأفدنته ، وربما رهنت المرأة شيئاً من « مصاغها » أو ملبوسها على دراهم ، واشترت بها الدجاج لطعامهم ، وربما حرمت أولادها الدجاج والسمن والدقيق وقدمته إلى هؤلاء . و « النصرانى إذا نزل قرية لقبض مالها يحضر إليه الفلاحون ، ويكرمونه ويرسلون له الوجبة ، ويتذللون بين يديه ، ويطيعون أمره ونهيه ، بل يكون غالبهم فى خدمته ؛ و بعض الملتزمين يولى النصرانى أمر القرية فيحكم فيها بالضرب والحبس وغير ذلك ، فلا يأتيه الفلاح إلا وهو يرتعد من شدة الخوف » .

وأما « الكاشف » فهو رئيس الإقليم ، وإذا أقبل على بلدة يقرع له الطبل ، فيخاف منه أهل البدع وأرباب المفاسد ، ويأتى إليه مشايخها ، ويقفون بين يديه فى أشد ما يكون من الرعب والخوف ، ويستخبرهم عن أحوالهم . ثم بعد ذلك يسرعون له فى الأكل والشرب والتقاديم على ما جرت به العادة ، وإذا وقع فى قرية فتنة أو خرج أهلها عن طاعة « أستاذهم » أو « قائم مقام القرية » هجم الكاشف عليهم بعساكره وأخرب القرية ، وقتل منهم من قتل ، وقد يحصل منه ومن أتباعه نهب القرية ، وتكليفهم فى المأكل والمشرب فوق طاقتهم ؛ وفى ذلك يقول أبو شادوف من قصيدته :

« ومِنْ نَزلة الكُشّاف شابت عوارضى    وصـار لقلبى لوعةٌ ورجيفُ »

ويصور لنا أن أهل إقليمه ينقسمون قسمين : منهم من يتعصب لقبيلة سعد

ومنهم من يتعصب لقبيلة حَرَام(١) فإذا ثار الشر تنادى قوم : « يا لسعد » وآخرون : « يا لحرام » فتهجم سعد وحرام على البلد ، ويقع بينهم الحرب والعناد ، وتخرب بسببهم البلاد ، وتقطع الطريق على العدو والصديق : وفى ذلك يقول المؤلف فى أرجوزته التى لخص فيها كتابه :

| | |
|---|---|
| فذا يصيح يا لسعد أسعِدُوا | وآخرٌ يا لحرام أنجدوا |
| فذانك اللفظان دون لَبْس | عندهمُ أمرٌ بقتل النفس |
| فيُخْربون الأرض بالغارات | ويرصدون القتل فى الطرْقات |
| وإن أتتهم للقتال عسكر | فروا إلى جبالهم واستتروا |

وفى الكتاب صورة لنظر الفلاحين والمصريين للمماليك والأمراء الأتراك وأتباعهم ، فهى نظرة تعظيم وتبجيل وإعظام يبلغ حد التقديس ، فهم يتطلعون إلى معيشتهم ، وقصارى أملهم أن يقلدوهم فى شىء من تصرفاتهم ؛ فهذا فلاح ذهب يؤدى المال إلى الملتزم التركى ، فرأى كيف يعيش وكيف يعامل زوجته ، فلما عاد إلى بلده أراد أن يسلك مع زوجته « أم معيكة » سلوك الأمير مع زوجته الأميرة ، فانتهت بكارثة ؛ وهؤلاء ثلاثة من الفلاحين يريدون أن يزوروا مصر فقالوا : « إن مدينة مصر كلها جنادى وعسكر يقطعون الرءوس ، ونحن فلاحون إن لم نعمل عملهم ونرطن معهم بالتركى وإلا قطعوا رءوسنا » وتعاقدوا فيما تعاقدوا عليه أن يتعلموا بعض الألفاظ التركية ، ثم يدخلوا الحمام ، فإذا طالبهم صاحبه بالأجر صاحوا فى وجهه بالكلمات التركية فأخلى سبيلهم ، وإذا رجعوا إلى بلدهم رطنوا بالتركى فخافهم مشايخ الكفر وأجلوهم وأعظموهم — إلى كثير من أمثال ذلك من الصور البديعة .

والكتاب بعد ذلك معجم غير مرتب فى بيان مصطلحات الفلاحين فى

(١) من هؤلاء استعملت كلمة حرامى بمعنى لص .

ملبسهم وأنواع مأكولاتهم ، ومرافقهم ومواويلهم ، وكل ما يتصل بهم .

* * *

إن أخذ عليه شيء فهو هذا الفحش المنتشر فيه ، والبذاءة فى كل نواحيه ، وأنه عرض لأمر الفلاح وبؤسه ، عرض الزارى الناقم ، لا عرض العاطف الراحم ، وكان أولى — وقد رأى هذا البؤس الذى هو فيه ، والظلم الواقع عليه — أن يصرخ فى وجه من ظلمه وأن يستغيث لإنقاذه مما هو فيه ، وألا يزيد تعاسته بالزراية به ، وألا يعيبه على ما وصل إليه اضطراراً ، بل يعيب من أنزله هـذه المنزلة الوضيعة اختياراً . فإن لم يستطع أن يفعل ذلك لقسوة الزمان وظلم الحـكام ، فلا أقل من أن يلوّن صوره بالعطف الجميل على حاله ، والرثاء الباكى لبؤسه وشقائه .

وأخشى أن تكون الخطوط التى رسمها « الشربينى » ليبين الفواصل بين حياة المدن فى نعيمها ورخائها ، وحياة الريف فى بؤسه وشقائه ، لا تزال حافظة لنسبتها إلى اليوم ، وقد مضى منذ تصويرها ثلاثة قرون ، بل أخشى أن تكون الفروق قد زادت ، والفواصل قد تباعدت ؛ فالمدنية الحديثة غزت المدن كثيراً ولم تغز الريف إلا قليلاً ؛ هذه الـكهرباء تفتن أفانينها فى المدن ، والريف لمّا ينعم بماء نظيف ؛ وهذه القصور الشامخة فى المدن ، والحدائق الغناء ، والشوارع النظيفة ، والنساء السافرات ، الـكاسيات العاريات ، ودور التعليم المختلفة الألوان ، ودور الملاهى المتعددة الأشكال ، إلى ما لا يحصى من ضروب الترف والنعيم ، والفلاح فى مأكله ومشربه ومسكنه ونظام حياته ونوع أحاديثه ومجال علمه وعلاقته بأرضه وأدوات زرعه ، لم تختلف كثيراً عما كانت أيام الشربينى ، بل أيام عمرو بن العاص ، بل أيام رمسيس ، بل أيام منا أومنيس ، والأجيال المتعاقبة ، وميزانيات الدول المتعاقبة ، والحـكومات المتعاقبة ، أعجبتها المدن فزادت فى

الإنفاق عليها ، ولم يعجبها الريف فضيقت عليه ؛ وعيب « الشربينى » أنه رأى بؤس الفلاح تقع تبعته عليه ، ولم يدرك أن بؤسه نتيجة عوامل اجتماعية كثيرة ليس هو مسئولا عن أكثرها ؛ لقد رأى المصب ولم ير المنبع ، ورأى النار تشتعل فى البيت ولم ير من أشعلها ، ورأى النتيجة ولم ير مقدماتها .

فأما ناحيته الفنية فالشربينى إذا جد فهو أديب واسع الاطلاع فى الأدب ، حافظ للشعر الكثير مستحضر له فى مناسباته المختلفة ، قارئ للكثير من الكتب الأدبية والتاريخية المجهولة كانت فى زمانه ، عارف بكتب المحاضرات والمسامرات ، مقتبس منها ، محكم لوضعها فى مواضعها ، دارس لحالة الناس فى عصره دراسة تفصيلية ، ولا يستحيي أن يضرب مثلا بنفسه وبما حدث له ، كما لا يستحيي أن يروى عن أمه لغزاً فى البرغوث ، ولا عن الحشاشين أحاديثهم فى مجالسهم ، على الطريقة التى سلكها الجاحظ فى كتبه ؛ وإذا هزل ففنه فى الهزل غريب حقا ، قيم حقا ، لولا فحشه وعريه ؛ له خيال واسع فى المجون ، وقد هزأ النحو والصرف والاشتقاق بأسلوب جديد ، ولأسق لك مثلا فى هذا عند تصريفه لكلمة « أبُو » ، فهو يقول إنه « مشتق من آب إذا رجع ، قال ابن زريق :

ما آب من سفر إلا وأزعجه    رأى إلى سفر بالعزم يمنعه

وكذلك الأب لأنه كل ساعة يرجع إلى ولده ويفتقده وينظر إليه ... وقيل إن « أبو » فعل ماض ناقص ، وأصله « أبوس » ويدل على ذلك قول الشاعر :

قالوا حبيبُك وارى ثغره صَلَفاً    ماذا تحاول إن أبْداهُ قال أبو

أى أبوس ، وإنما حذفت السين لقصد حصول اللبس على السامع ، إذ هو اللائق بهذا عند الأدباء ، والأقرب إلى السلامة من الواشين والرقباء ، وقيل لأن السين فى الجمّل بستين ، والستون فى البوس إسراف عند البعض » الخ .

ويقول فى « مَتْرَد » : وهو إناء من فخار أحمر ، وهو غالب أوانى الريف ، وأصله مركب من فعلين مات ورد ، لأنه لما عمل أولاً وكسر عملوا بدله فقالوا مات ثم رد ، ثم حذفوا الألف وجعلوها علماً ، وقيل إنه فى الأصل عمل بمدينة تسمى ماتريد التى ينسب إليها الشيخ الماتريدى نفعنا الله به وهكذا .

فهو فى هزله ، ولعبه بالنحو والاشتقاق ، واستطراده الغريب وخياله الماجن البعيد ، من أوائل الكتاب الهزليين فى الأدب المصرى الحديث . ثم تُفْقَدُ بعض الحلقات ، ويظهر بعدُ « أبو نضارة » فى صحيفته ، والشيخ حسن الآلاتى فى كتابه « ترويح النفوس ومضحك العبوس » . ثم عبد الله النديم فى صحيفة « الأستاذ » ثم « حمارة منيتى » ، ثم الكشكول ، ثم آخر ساعة . فهى مدرسة كلها واحدة فكاهية متتابعة ، خليقة بالدرس اللطيف ، والبحث الطريف .

# الإنسانية والقومية

فكرة القومية أو الوطنية كانت أثراً من آثار الثورة الفرنسية ، فقبلها لم تكن الدول معروفة على النحو الذى نعرفه الآن . ثم ثار العالم هذه الثورة ، وكان من نتائج ثورته انقسامه إلى ممالك على النمط الحالى . وبثت فى كل مملكة تعاليم الوطنية تدعو إلى الاحتفاظ بالوطن والتعلق به ، وتوجيه كل النظم الاجتماعية والاقتصادية ونظم التربية لخدمته .

حتى أصبح من مميزات القرن التاسع عشر انتشار روح القومية واشتدادها وتجمعها حول المملكة ، وتوجيه كل نظم الدولة نحو خدمة هذه النزعة الوطنية . وحل التعصب الوطنى محل التعصب الدينى الذى كان سائداً فى القرن السابع عشر ؛ فبعد أن كان أكبر الحماسة وأكثر مظاهر التعصب دينيا ، وأشد النزاع دينيا ، بين نصارى ومسلمين ويهود ، وبين الفرق المختلفة من كل دين بعضها وبعض ، أصبح أشد النزاع بين الأمم المختلفة ولو اتحدت ديناً ، كما هو المشاهد اليوم ، فأكبر النزاع بين أمم متحدة ديناً تقريباً ، وأصبح النزاع بين الوطنية الإنجليزية والوطنية الألمانية ، والوطنية الإيطالية والوطنية اليونانية الخ .

وكان من أثر هذا أن أسست الأخلاق على نفس الأساس السياسى ؛ فكما أن سياسة كل دولة ينبغى أن تخدم مصالح دولتها — أولا — كذلك أسست الأخلاق على مبدإ القومية ، ينظر ساسة كل أمة إلى مصالح أفرادها ، وفى مصالح مجموع الأفراد الذين يعيشون داخل حدود الدولة الجغرافية فقط ؛ وكذلك الأخلاق لونت هذا اللون أيضا ، فكانت أخلاقاً قومية دعا إليها مكيافيلى وهوبز وأتباعهما ، فعد السلوك فضيلة إذا أطاع الرجل فيه دولته وخدم أمته ، بقطع النظر

عن أثر هذا السلوك للأمم الأخرى .

والأخلاق القومية تساير السياسة القومية فى جميع مراحلها ، كلتاهما لا تنظر إلا إلى مصالح قومها ، فقد تتنافى السياسة القومية مع العدل العام ، فتدعو السياسة إلى اتباع السياسة القومية ، وكذلك تدعو الأخلاق القومية ؛ يتجلى هذا فى معاملة الأمم بعضها لبعض ، وفى معاملة الأمم المستعمِرة للأمم المستعمَرة ؛ وعلى هذا الأساس وضعت النظم الاقتصادية لكل أمة ، من حماية متاجرها ومصنوعاتها ، وفرض الضرائب « الجمركية » وهكذا ؛ وعلى هذا الأساس وضعت سياسة الإغارة من دولة على دولة إذا شعرت بقوتها وشعرت بمصالحها الخاصة من غير نظر إلى شعور الآخرين ومصالحهم ؛ وكذلك أخلاق الأفراد فى كل أمة لونت هذا اللون ؛ فالعمل خير إذا مكن أمته من مصلحة عاجلة أو آجلة ، وشر إذا أضاع على أمته مصلحة عاجلة أو آجلة .

وقد توجت هذه النزعة القومية بالحرب العظمى الماضية ، وبالحرب الأشد عظمة الحاضرة ، فقد تجلت النزعة القومية على أتمها فى السياسة والخلق على السواء ؛ فسياسة كل أمة محاربة موجهة إلى مصلحتها و إضعاف عدوها بكل الأساليب الممكنة ، وسلوك الأفراد موجه طوعاً أو كرهاً لخدمة السياسة القومية .

* * *

وهناك نزعة أخرى مخالفة لهذه كل المخالفة ، وهى النزعة الإنسانية لا القومية ، فى السياسة وفى الخلق .

تدعو هذه النزعة إلى النظر إلى الأشياء نظرة واسعة ، لا محدودة بحدود الأمة ، ولكن بحدود العالم ؛ فالعمل خير إذا زاد خيره عن شره للعالم ، وشر إذا زاد شره عن خيره للعالم .

وجدت هذه النزعة قديماً فقالوا : « الإنسان أخو الإنسان » الخ ، وأيدها

بعض الفلاسفة أمثال « كانت » القائل : « لا تعامل إنساناً ما على أنه وسيلة ، ولـكن عامل كل إنسان على أنه غاية » ، وبنتام القائل : « قدم أكبر خير لأكبر عدد » .

يتطلب هذا المبدأ عدم اعتبار أى جنسية أو لون أو أى قومية فى حسبان العمل خيراً أو شرا ؛ فالظلم ظلم من غير نظر إلى من وقع منه أو من وقع عليه ، والعدل عدل سواء صـدر من أسود أو أبيض ، وعومل به أسود أو أبيض ؛ ويتطلب هذا النظر كسر الحدود الجغرافية والسياسية والاقتصادية ، وتقويم المسائل بالنظر الواسع .

وكانت النصرانية والإســلام أقرب إلى النظر الثانى ، فقد أهدرا الجنسية واللونية والقومية واللسان والدم ، واعتبر الأساس وحدة العقيدة ، فلا فرق أمامها بين أسود وأصفر وأبيض و « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، وكسرا الحدود الجغرافية ، فالمسلم — مثـلا — يعد المملـكة الإسلامية كلها وطنه ، لا فرق بين حجازى وخراسانى ومغربى وهندى « إنما المؤمنون إخوة » . والإسلام كسر الحدود بين الرجل والمرأة ، وبين المولى وسـيده ؛ وفى الحروب الصليبية وقفت الـكتلة المسلمة أمام الـكتلة النصرانية مهدرتين الجنسية إلا ما كان من اعتبارات شخصية أو تنازع على الرياسة .

وكان اليونان والرومان أميل إلى النظر الأول ؛ فاليونانى سيد ، وغيره — مهما كان — عبد ، حتى فلاسفتهم كأفلاطون وأرسطو نظروا هذا النظر ، ورأوا أن الدم اليونانى سيد الدماء ؛ والرومان رأوا جنسهم فوق الأجناس ، فلما فتحوا فتوحهم نظروا إلى الشعوب المفتوحة نظرة ازدراء ، فلم يدم ملـكهم ، وكان من أسباب انهياره اصطدام نظرة النصرانيـة الواسعة بنظرة الرومان الضيقة ؛ ولـكن أثرت نظرة اليونان والرومان القديمة أثراً كبيراً فى نظرة أوربا الحديثة ،

لأنها وارثتهما ، فحييت القومية ، وتغلبت النزعة الوطنية ، و بعثت نظرة اليونان والرومان أكثر مما بعثت النظرة المسيحية ، وقلد الشرق الغرب من اليابان والصين إلى العالم الإسلامى ، فأصبحت قومية عراقية وأخرى مصرية وثالثة شامية ، وهكذا ، طبقاً لفرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا .

***

ولكن النزعة الإنسانية لم تمت ، فظلت تعيش فى عقول الفلاسفة وفى رءوس بعض الدعاة ، وتتحرك فى بعض الضمائر الحية ، وتصطدم بالنزعة القومية ، فيكون لهذا الاصطدام مظاهر ، كالاختلاف فى أمريكا : هل تنغمس فى سياسة العالم وتصلح منه ما تستطيع وفقاً للنظرة العالمية ، أو تنفض يدها من سياسة العالم إلا بما يمس مصالحها الخاصة وفقاً للنظرة القومية ، وكالخلاف الناشب فى أمريكا أيضا بين أنصار السود الذين يرون إهدار اللون وتحقيق العدل المطلق وفقاً لمبدإ الإنسانية ، وأنصار البيض الذين يرون القضاء على السود وفقاً لمبدإ الجنسية ، وكالخلاف بين كبار الساسة ممن يعطفون على الأمم المستعمَرة ويرون حقها فى البقاء وحقها فى الاستقلال ، وخصومهم الذين يرون عكس ذلك ، وهكذا .

ولم تعدم كلتا النظرتين فلاسفة يتحمسون لها ويبدون محاسنها وعيوب الأخرى ، فلم تعدم النظرة القومية من يقول إن القومية هى التى أحيت الشعور وأظهرت التنافس بين الشعوب على أتم وجه ، فكان من أثره التقدم العلمى والفنى ؛ والحب إذا تشعع وشمل العالم لم يكن له من القوة كما إذا تركز ، كما لم تعدم النظرة الإنسانية من يؤيدها بما يحدث من الويلات الحاضرة التى جرتها القومية .

***

لقد كسر العلم الحدود بين الأمم ، وألغى المسافات بين أجزاء العالم ، وتبين كل جزء من العالم حاجته إلى كل أجزاء العالم ، وأصبح من المستحيل أن تعيش

أمة بنفسها ولنفسها ؛ فوسائل النقل هى وسائل العالم ، والراديو صوت العالم ، وخيرات العالم للعالم ، وشرور العالم مصيبة العالم ، والمخترعات ملك العالم ونعمته أو شقاؤه ، ومحصول الشرق لا يستغنى عنه الغرب ، وصناعة الغرب لا يستغنى عنها الشرق ؛ أفيمكن مع هذا كله أن تكون السياسة قومية فقط والأخلاق قومية فقط ، أو يكون شأننا إذاً شأن من يُلبس ثوب طفل لرجل أو يقطع المسافة البعيدة بجمل ، أو ينير القصر البديع بزيت أو يواجه المدفع الرشاش بقوس؟ .

إن مهمة السياسة والأخلاق إنما هى تحديد العلاقات ، فإذا تعقدت العلاقات فلحلها نظم ، وإذا سذجت فلحلها نظم ، وهذه النظم ليست جسما صلباً ولا حجراً صلداً ، وإنما هى تابعة لنمو الإنسان وتطوره ؛ فسياسة الطفل غير سياسة الرجل ، وسياسة البدوى غير سياسة الحضرى ، وقانون سكان الوبر غير قانون سكان الحضر ؛ فمحال أن تتصور نمو العالم ونمو العلاقة بين أجزائه ثم تريد أن تحتفظ بنوع السياسة أو نوع الأخلاق الذى يحدد هذه العلاقة .

لست أفهم هذه الحرب إلا على أنها ثورة عنيفة على النظم التى تحدد هذه العلاقة ، وإعلان دموى بعدم صلاحيتها ومطالبة صاخبة بتغييرها وفق تقدم الإنسان وتقدم فهمه وعلمه وعلاقاته ، ودعوة صريحة بأن علاقات العالم الواسعة تتطلب حتما سياسة واسعة وخلقاً واسعاً ، وإلا عدت جنوناً

وأدهش كل الدهش من دعوة إلى جنسية لتحل محل القومية والوطنية ! فهذا أيضاً نظر قاصر ، ولا فرق فى الضيق بين نظرة جنسية ونظرة قومية ، والانتقال من هذه إلى تلك ليس إلا انتقالا من مرض إلى مرض وانتقالا من فن من الجنون إلى فن آخر .

***

ليس من الممكن ولا من المصلحة القضاء على الوطنية والقومية ، فحب الوطن

طبيعى فى الإنسان بل والحيوان ، والعمل على إسعاده طبيعى أيضاً فيهما ؛ فالطير يحمى وكره ، والأسد يحمى عرينه ، والبدوى يموت دون قبيلته ، والحضرى لا يحيا إلا بأمته ، ثم هذه الوطنية قد أثرت فى الأفراد تأثيراً سحريا ، فاستخرجت منهم أقصى ما يمكن من المجهود العقلى والفنى والنشاط الفكرى والجسمى ، ودفعت المدنية خطوات واسعة إلى الأمام ، وعرضت مناظر من التضحية هى غاية فى الروعة والجمال ؛ وما كان يكون ذلك كله لو طلب من الأفراد أن يعملوا للإنسانية كلها لا لأمتهم ؛ فالقنطار من السكر يحلى حوضاً ، ولكن لا يحلى نهراً ، والمصباح الكهربائى قد يضىء غرفة وقد يضىء داراً ، ولكن لا يضىء سماء ، فخير لنا أن ننتفع بالسكر على قدر إحلائه والمصباح على قدر إضاءته .

ولكن لم لا تكون علاقة الوطنية بالإنسانية كعلاقة الفرد بأسرته وعلاقة الأسرة بأمتها ؟

لقد كان الإنسان قديماً لا يستطيع التوفيق بين شخصه وأسرته ولا بين أسرته وأمته ، وكان يضطرب سلوكه إذا تعارضت هذه المصالح ؛ ولا يزال الإنسان المنحط لا ينظر إلا إلى نفسه أو لا ينظر إلا إلى أسرته ، ويفضل أن يتخم هو ولو كان كل من حوله جائعين ، وتؤمَّن أسرته ولو كان كل الأسر حوله خائفين ، ويسعد هو وأسرته فى وسط الشقاء ، ولا يرى بأساً من بؤس عام إذا كان هو وبيته فى رخاء — ثم تطور الإنسان ورق وأصبح ينشد مع أبى العلاء قوله :

فلا هطلت علىّ ولا بأرضى ... سحائب ليس تنتظم البلادا

ومع البارودى قوله :

أدعو إلى الدار بالسقيا وبى ظمأٌ ... أحقُّ بالرى لكننى أخو كرم

لقد رق شعوره ورق عقله حتى وفق بين مصلحته الشخصية ومصلحة أسرته ، ثم رق شعوره ورق عقله حتى وفق بين مصلحة أسرته ومصلحة أمته ، ورأى أن ليس من الخير فى شىء أن يعيش لنفسه دون أسرته أو لأسرته دون أمته

وبلغ

من رقى بعض الأفراد أن يدرك أن خير أسرته وخير أمته يتحدان ، فقبل تجنيد أبنائه عن طيب خاطر ، ورأى أن مصلحة أسرته ومصلحة أمته فى ذلك شىء واحد ، ودفع الضرائب راضياً كذلك ، والتزم كل ما توجبه القوانين ولو ضحى ذلك بجزء من ماليته وجزء من حريته ، لسمو نظره فوق الاعتبارات الشخصية والاعتبارات العائلية ؛ كل هذا تم مع الاحتفاظ بالأسرة والاحتفاظ بالأمة معاً ، فلماذا لا يخطو العالم الإنسانى خطوة أخرى فى الرقى ، فيوحد بين خير الأمة وخير الإنسانية ، ويرى خير الأمة من خلال خير الإنسانية ، ولا يرى الخير لأمته إذا تعارض مع خير الإنسانية .

لقد حدث هذا فعلا فى بعض المسائل الجزئية كاتحاد البريد بين الأمم ، فاحتفظت كل أمة بشخصيتها فى نظام البريد وطوابعه واستغلاله ، ومع ذلك تقيدت بما هو خير عام للنظام العالمى للبريد ؛ فلو خطونا خطوة أخرى سياسية من هذا القبيل لتحقق هذا الأمل .

لقد لمع هذا الرجاء على أثر الحرب الماضية بتعاليم الرئيس ولسن ووضعه سماً لعصبة الأمم ، ولكن فشل هذا النظام لأنه كان كالرقعة الجديدة فى الثوب البالى ، ولم يغير نظام الدول بما يتفق ونظام العصبة ، ولا يمكن تحقيق هذا النظام إلا إذا تغير « الطقم » كله من نظام سياسى واقتصادى واجتماعى وتوج بالعصبة التى تنسجم وهذا النظام .

ومما لا شك فيه أن العالم مستعد الآن جدا لهذه الخطوة ، وأن المصائب المرة التى يشهدها ، والفجيعة الفظيعة التى يئن منها فى الأنفس والأموال والثمرات ستقرب به جدا من هذه الغاية ، وسيتم هذا الأمل لو وفق قادة السياسة فنظروا إلى العالم من عل ، ومزجوا نظرتهم المادية بنظرة روحية ، وشعورهم القومى بالشعور الإنسانى ، وفكرتهم العلمية بفكرة أرقى فلسفية .

وهذا ما لا بد — عاجلا أو آجلا — أن سيكون .

# الأغانى المصرية

بالأمس وقع فى يدى كتاب من طريق المصادفة البحتة عنوانه « مجموعة الأغانى الشرقية » ، وهى الأغانى التى سجلت على « الأسطوانات » من شركة « بيضافون » و « جرامفون » و « أوديون » و « بوليفون » ؛ وكنت فى ذلك اليوم ضيق الصدر ، لا تتفتح نفسى لتفكير ، ولا قراءة ولا كتابة ؛ فحمدت الأقدار التى رمت بهذا الكتاب إلىّ ، أو التى رمتنى على هذا الكتاب ؛ فلدىّ ساعات فراغ لا أعرف كيف أقضيها ؛ فلا أنا صالح لجد ولا لعب .

أخذت أقلب فيه ، وأقرأ وأقرأ ، ثم قلت : اجتهد أن تسلط عليه البحث الجامعى ، أو ليست الدراسة الجامعية تجعل من الحبة قبة ، ومن الهزل جدا ، وإن شاءت فمن الجد هزلا ؟ وقد وصفتها مرة بأنها تميت الحى وتحيي الميت ، فهى تحيي اللاتينية واليونانية والحبشية والأكادية وقد ماتت ، وتنبش الأحجار وقد دفنت ، وتبعث ما فى القبور وقد طويت ، وهى تميت الحى فتدرس اللغات الحية دراسة تميتها وتفقدها روحها ، وتبعد عن تذوقها ؛ ولذلك قلّ أن تخرج الجامعة أديباً شاعراً أو كاتباً ، وإنما تخرج أديباً ناقداً أو أديباً عالما ؛ ومن كان أديباً من رجال الجامعة فمن طبعه ومن نفسه ، لا من الدراسات الجامعية ، وإن شئت فقل إنه أديب على الرغم من الدراسات الجامعية ، لا أديب بفضل الدراسات الجامعية .

مالنا ولهذا ، فقد أنفقت أمس فى كتاب « الأغانى » هذا ، فقلت — أولا — أحصر عدد ما فيه من أغان ، وأعرف موضوعاتها ؛ فرأيت أن الكتاب ينقسم إلى قسمين : قسم رصد للأدوار والمواويل والمذاهب والتواشيح والطقاطيق ؛ والقسم الثانى « للقصائد » ؛ ووجدت أن فى الكتاب بقسميه ١١٩٩ أغنية ، بين

دور وموال وتوشيح وطقطوقة وقصيدة ، ووجدت أنها كلها فى الحب ، ما عدا خمس عشرة أغنية فى موضوعات غير الحب ، أى أن نسبة ما قيل فى غير الحب للحب كنسبة واحد إلى مائة تقريباً .

ثم موضوعات غير الحب بعضها أيضاً يتعلق بالحب ؛ فامرأة تشكو من أن زوجها تزوج عليها أربعاً فى أغنية « جوزى اتجوز علىّ أربعه » ؛ وامرأة تشكو حماتها فى أغنية « حماتى علىّ قويه وأنا ما أقدرش على العيشه ديه » ، ورجل يشكو العزوبة فى أغنية « العزوبيه طالت علىّ ، قومى اخطبى لى حلوه وغنيه » ثم ماذا ؟

أغنية للسيد درويش فى غلاء « الجاز » فى حرب سنة ١٩١٤ ، مطلعها :

استعجبوا يا أفنـــديه لتر الجـــاز بروبيه

وطقطوقة فى شكوى الحشاشين من عدم الإنصاف ، إذ تصادر الحكومة الحشيش وتترك الخمر ، مطلعها :

انصفنا يابا — دحنا غلابه حنشدّ فين ونحشش فين
دى بقت بميتـــين الوقيـــه

ورجل يتحسر على حرمانه من « الجنيه » ، فيقول :

غاب الجنيه قلبى عليـه جرى له إيه هو فى سفر
رمز الحيـاه — باب النجاه يشفى العليل — يجلى النظر

وشكوى من دودة القطن ، مطلعها :

يا شيخ العرب يا شـنوده والقطنـــه كلتها الدوده
والبنـــات عاوزه تجوز والجدعان نفسها مصدوده

وطقطوقة فى زيادة النيل :

البحر أهو زاد — عوف اللّيه غرق البلاد — عوف اللّيه

ثم بعض قصائد وطنية ، كمارش البرلمان :

وطنى أنا بالروح أفديه حب الوطن دا من الإيمان

تعيش مصر حره

ويلاحظ أن الأغانى الوطنية فى لغتها ونغمتها وعباراتها جارية على نمط الحب :

مصر الجميـــله ما أحلاك يا بخت اللى يكون فى حماك

واللى يعيش تحت سماك ويملا قلبـــــه بهواك

يبقى ســـــعيد

***

يا بلادى يا بلادى يا ضيا البـــلدان

لك حب فى فؤادى موقـــــد نيران

وأغنيتان دينيتان تدعوان إلى التوكل على الله وترك الأمور تجرى فى مجاريها :

ســـلم الأمور للرب لا تخف ولا ترهب

---

إلزم باب ربك واترك كل دون

ثم لنرجع بعد إلى الأغلبية الساحقة وهى أغانى الحب ، فنجد أنها تتنوع أنواعاً مختلفة : شكوى الغرام وما سببه الحب من سقام ، فالهجر طال ، والدمع سال ، والجسم ذاب ، والعقل راح ، ونحو ذلك مما تمثله هذه الأغنية :

يا ما شفت مرار وقضيت أيام وأنا ليل ونهار إزاى أنام

والعشــق ده نار وعذاب وهيام وضنى وغِـــيره وبكا وحـــيره

ثم شكوى العذال والدعاء عليهم وعدم الاكتراث بهم :

روح يا عـذولى — مالك ومالى     لو ذبت وجدا — ما أفوت غزالى

ثم التفنن من الرجل فى وصف من يحب ، ومن المرأة فى وصف من تحب . فقوامه غصن البان ، وورد خده على الزهور سلطان ، والخد أسيل والجفن دابل ، وحبيبه فريد عصره وأمير زمانه ، كحيل العين خفيف الذات ، جالس على عرش الجمال ، إلى نحو ذلك من معان طال الزمان عليها وهى كأوراق اللعب وحجارة النرد أو الشطرنج ، يلعب الأدباء بها فيختلف تصفيفها ويتحد عددها وجوهرها .

رأيتها مجموعة مختلفة العصر من عهد « عبده الحمولى » و « محمد عثمان » إلى الآن ، ورأيت إنشاءها مختلف القوة ، مما يدل على أن مؤلفيها بعضهم من أرقى الأدباء نزلوا إلى الميدان فألفوا بالعامية وسلموها للمغنين يلحنونها ويغنونها مثل دور :

أدلك أمير الأغصـان     من غير مكابر
وورد خـدك سلطان     على الأزاهر
والحب كله أشجان     يا قلـبى حاذر
دا الصـد ويا الهجران     جزا المخـاطر

ودور :

الله يصون دولة حسنك     على الدوام من غير زوال     الخ

وبعضها مهلهل من وضع العوام وأبناء الشوارع وبنات الحارات كطقطوقة « دندرمه يا دندرمه » ، وطقطوقة « اسم النبى حارسك » الخ .

ثم منه حب عفيف مؤدب ، وحب غير مؤدب وهو الأغلب ، ومنه ما لا يمكن أن يقال إلا فى حانة أو بيت دعارة ، وبعضها استخدمت فيه مخترعات العصر وأساليب المدنية فى الخلاعة والحرية ، مثل طقطوقة « التاكسى على الباب مستنى » ، وطقطوقة « قل لى على نمرة تلفونك » ، وطقطوقة « بنجور

يا هانم » ، وطقطوقة « قابلنى حبى ونا رايحـه الموسكى وسقانى كونياك على وسكى » الخ .

ثم هذه الأغانى على كثرتها لا ترى فيها ظلا — إلا قليلا جدا — لوصف المرأة المحبوبة بنبل الخلق وحسن المعانى وجمال الفـكر وسمو النفس ؛ إنما هى كلها حول خدها الوردى وعيونها العسلية ، وأن نهودها رمان ، وقدها غصن البان — والمرأة لا تتطلب من الرجل رجولته وحسن صفاته ، إنما تطلب أن يكون جميلا و « جدع قيافه » و « صـغير فى العمر » و « دمه خفيف » و « عاوج طربوشه » .

ثم ما هذا الحزن الشائع فى الأغانى ؟ فالحب عذاب ، والهجر عذاب ، والعذال عذاب ، والقلب مجروح و « دمى بدمعى امتزج » ، و « ما حياتى غير دموع العين » ، و « ما حد زيى على خِله انضنى حاله » ، و « ناعس جفونك حرمنى النوم » ، و « يا كتر نوحك على الأحباب » ، و « آسيت كتير لما حبيت » ، و « يا ما بآسى وبشكى » الخ الخ . وكثيراً ما تبدأ الأغنية بالسرور والفرح ، ولـكن سرعان ما تنقلب إلى غم وكمد ، ثم التذلل المفرط ، والاسترحام المفجع ، والاستغاثة بالناس ، وبالأحباب وبالأعداء ، وبالمسلمين وبالنصارى ، حتى يتدخلوا فى الحب ويتوسطوا فى الوصل .

* * *

أما بعد فهذه صورة مصـغرة لما قرأت ، ثم تساءلت : ما وظيفة الغناء فى الشعب ؟ وهل تؤدى هذه الصورة التى عرضتها تلك الوظيفة ؟

إن الغناء فن من الفنون الجميلة كالتصوير والموسيقى والأدب . وهذه كلها وظيفتها نقل عواطفنا إلى غيرنا فى ثوب جميل ، وهى تقابل فى ذلك الكلامَ غير الفنى فى نقله أفكارنا إلى غيرنا ؛ فالفنون الجميلة لغة العواطف ، والكلام

لغة العقل ؛ وإذا كانت اللغة قاصرة كل القصور فى التعبير عن العواطف استعنا على تكميل نقصها بمحسنات من إشارة وتمثيل فى الخطابة ، واستعارات وكنايات، وتشبيهات ومحسنات بديعية وخيال فى الأدب ، وألوان مختلفة فى التصوير ، وصوت جميل فى الغناء ؛ وآلات مختلفة فى الموسيقى . والغناء غَنِىّ بهذه المحسنات ، فهو يعبر عن هذه العواطف ، مستعيناً بالأدب وجماله ، والصوت وجماله ، وكثيراً ما يقرن بالموسيقى وجمالها ؛ فهو فى هذا كله احتفال جمال ليس له نظير فى هذا الباب .

إن الفنون كلها تنبع من عواطف ، وتؤدّى بشكل جميل إلى العواطف ، فتثيرها وتخلق المشاركة فيها ؛ إنها — على اختلاف أنواعها — غذاء العواطف ، كما أن العلم — على اختلاف أنواعه — غذاء العقل . وظلت المدارس جاهلة أن الإنسان عقل وعواطف ، سائرة على أنه عقل فقط ، فملأت برامجها بالعلم لغذاء العقل . وأهملت العواطف حتى آمنت أخيراً بأنه عقل وعواطف ، فعدلت برامجها وأدخلت فيها الموسيقى والرسم والتصوير والغناء ، فآمنت — بعد كفر طويل — أن الفنون تربية يستكمل بها الإنسان بعض نواحى النقص فيه .

إن كان كذلك ، أفليس عجيباً أن يكون موضوع الحب فى أغانينا يستغرق منها تسعة وتسعين فى المائة ؟ كأن ليس لنا عاطفة إلا عاطفة الحب ! ثم أى حب ؟ إنه الحب المادى الوضيع ، والحب المائع ، والحب الذائب .

إن مثلنا — إذ ذاك — مثل أمة كل شعرها ونثرها الفنى غزل ، وكل تصويرها امرأة عارية ، وكل أكلها نوع من الغذاء واحد ، وكل حياتها لون واحد .

أين غذاء العواطف الأخرى فى الغناء ؟ أين غذاء عواطفنا فى مشاهد الطبيعة الجميلة ؟ وأين عواطفنا فى الإعجاب بالبطولة المجيدة ؟ وأين عواطفنا فى

مواقفنا التاريخية الجليلة ؟ وأين عواطفنا فى كرهنا للنذل والجبان ؟ وأين إعجابنا بالمرأة تنتج النتاج القوى الباهر ؟ والرجل يضحى لأسرته ، والرجل يضحى لقومه ، إلى مالا يحصى من عواطف ؟ أعدمنا كل هذا ولم يبق إلا الحب ؟

ألجأنا إلى هذا كله أننا نظرنا إلى الغناء على أنه مسلاة فقط ، ولما يصل رقينا إلى أن نشعر أنه تربية للأمة .

إننا من أكثر الأمم حبا فى الغناء ، وحسناً فى الصوت ، وقدرة على تكييفه ؛ فالغناء فى الإذاعة ، وفى القرآن ، وفى الأذان ، وفى النداء على المبيعات ، وفى الذّكر ، وفى الزار ، وفى الأفراح ، وفى المآتم ، وفى كل مظهر ؛ ولكن كل هذا ضائع ، لأننا لم نعرف استغلاله ؛ ويحمل وزر هذا الأدباء والمغنون : فالأدباء تأخذهم عزة الأرستقراطية فلا ينزلون إلى ميادين الشعب يضعون له غناءه ، وإذا نزلوا لا يحسنون ، لأنهم لا يدركون روحه ؛ والمغنون مائعون ، تضع فى حناجرهم أناشيد الحماسة والقوة فسرعان ما يقلبونها إلى تخنث وضعة ، وتذلل وبكاء . ومما يؤسف له ظاهرة شائعة ، وهى تأنث المغنين وترجل المغنيات ، كما كان من دواعى الأسف أننا ننحدر من سيئ إلى أسوأ ؛ فقد استعرضت أغانى عبده الحمولى ومحمد عثمان ، فرأيتها أقوى وأسمى وأعف من كل ما وصلنا إليه فى أغانينا الحديثة فى الكثير الأغلب . والأمة لاهية ، تترك السم يفعل فى عقولها وعواطفها ، ولا تبحث عن دواء .

لا أحب أن تنعدم أغانى الحب ، فما دامت عاطفة الحب موجودة ، وهى — بحق — يجب أن تكون موجودة ، فلا بد لها من غذاء ، ولكنى أحب لها غذاء قويا نقيا ؛ وأحب أن يكون بجانب أغانيه أغان تعادله من حب للبطولة والنجدة والشجاعة والرحمة ولغيرها من العواطف .

إن العود لم يخلق عبثاً له أوتار متعددة ، والحنجرة لم تخلق عبثاً لها قوى

متعددة ، وموسيقى الغرب وغناؤه أدرك هـذا كله ، فعدّد مناحى موسيقاه ، وعدد مناحى غنائه . فهل نحن فاعلون ؟

ثم تساءلت عن السبب الاجتماعى الذى أدى إلى هذا التدهور ! ثم إذا طُبق ما يقولون من أن الفنون عامة — والأغانى خاصة — أدل على حالة المجتمع ، فماذا يمكن أن نستنتج من هذه الأغانى المصرية ؟ فرأيت أن المقال يطول ، فلنعد له فى مقال تال إن شاء الله .

---

# التقليم والتطعيم

## فى الأدب

جرنى التفكير فى « الأغانى المصرية » إلى توسيع النظر فى الفنون والآداب المصرية والعربية ، فوجدتها كلها تحتاج إلى عمليتين هامتين خطيرتين : أولاهما عملية التقليم ، والثانية عملية التطعيم . ولأقتصر فى حديثى اليوم على التمثيل بالأدب العربى ، فهو أخطر الفنون وأكثرها أثراً فى حياة الشعوب .

***

واضح أن آداب الأمم تختلف باختلاف شخصياتها ومميزاتها وميولها ، كما تختلف باختلاف أمزجة أدبائها ، وكما تختلف باختلاف بيئتها ، سواء كانت بيئته طبيعية من جو ووضع جغرافى ، أو بيئة اجتماعية من سياسة ودين وأوضاع وتقاليد ونحو ذلك .

والأدب عامة يتطور بتطور الأمة ، ويتفاعل معها ، فيؤثر فيها ويتأثر بها . وإنك لتستطيع — بالنظر العميق — إذا درست أدب أى أمة فى أى عصر أن تستنتج منه حالة الأمة الاجتماعية ، وظروفها السياسية ، ونظم حكمها ، وحالة شعبها .

إن كان كذلك فمن المحال أن تعيش أمة على الأدب القديم وحده ، أو على أدب العصور الوسطى فقط . وإلا كانت كالتاجر يعيش على تصفح دفاتره القديمة فحسب ، وهذا علامة الإفلاس .

إن أدب كل أمة يرسم المثل الأعلى لها . والمثل الأعلى ليس صورة ثابتة متحجرة ، بل هو مرن ، ويجب أن يكون مرناً ، يختلف بتقدم الإنسان وتغير

ظروفه وملابساته ، ويتقدم كلما خطا الإنسان خطوة إلى الأمام .

وهذا هو الشأن فى الأدب العربى ، فهو ليس أدب أمة واحدة ، بل هو أدب أمم مختلفة فى عناصرها ، ونوع ثقافتها ، ودرجة عقليتها ، وموقع إقليمها ، كما هو أدب أمم مختلفة العصور والأزمنة ، والوضع السياسى ، والحالة الاقتصادية ، والمعيشة الاجتماعية — وهو فى عصوره المختلفة قد صور المثل الأعلى أشكالا وألوانا ؛ فالمثل الأعلى الجاهلى غيره فى العصر الأموى ، وهما غيره فى العصر العباسى ، وهو فى العراق غيره فى مصر .

وأمم الشرق فى العصر الحاضر من حيث موقفها من المدنية الغربية ، ومن حيث آمالها السياسية ، ومن حيث عواطفها القومية ، ومن حيث نظمها الاجتماعية ، لا بد لها من مثل عليا جديدة تحض الجيل الجديد على الطموح إليه والسعى وراءه وإلهاب العواطف لنيله ؛ وهذه وظيفة الأدب فى كل أمة ، ومنها الأدب العربى .

فى الأدب العربى القديم لا نجد كل غذائنا ، وفى الأغانى القديمة لا نجد ما يغذى كل عواطفنا ، وفى كل فنوننا القديمة لا نجد ما يرسم كل مثلنا الأعلى الذى ننشده .

لقد قامت مناظرة مرة فى أن الأدب العربى القديم يصلح غذاء للجيل الحاضر أو لا يصلح ، فاخترت الشق الثانى . ولست أعنى أنه قليل القيمة أو عديم المنفعة ، ولكن أعنى أنه وحده لا يكفى فى الغذاء ، وأنه ينقصه كثير من أنواع « الفيتامين » ليصلح به العقل وترقى به العواطف .

وللوصول إلى هذا الغرض لا بد من العمليتين اللتين أشرت إليهما ، وهما التقليم والتطعيم .

أما « التقليم » فأعنى به أن الأدب العربى مثله مثل تل كبير من قمح ، بعضه

طين اختلط بالقمح فيجب أن ينقى منه ، و بعضه حب مسوس يجب أن يستبعد ، و بعضه صالح يجب أن يفرز وحده لنستعين به على الغذاء الصالح . لقد كان كله صالحاً أو على الأقل نتاجاً طبيعيا لعصره ، ولكن ما كان صالحاً لعصر قد لا يصلح لعصر آخر .

إن الأوضاع السياسية للأمم — مثلا — غيرت نظرة العصور الماضية إلى الحكام ، فيجب أن نغربل الأدب القديم ، فلا نقر منه ما يضع من شأن الأمة كأمة ويقدس الحاكم كحاكم . والعلم بالأحوال الاقتصادية غيّر من نظرنا إلى الفقر ، فلم يجعله قضاء وقدراً فقط ، بل جعله نتيجة طبيعيـة لحالة الأمة ووجوه دخلها وخرجها ، ونظام ميزانيتها ومواردها ومصادرها . فالأدب العـربى الذى يبعث على الرضا بالفقر كنتيجة محتومة لا دخل للأمة ونظامها فيـه يجب أن يستبعد ، وأحوال الأمم كلها الآن تستدعى نفوساً قوية فى إيمانهـا ، قوية فى عقيدتها ، قوية فى عواطفها . فلنقس الأدب العربى بهذا المقياس ؛ فما كان منه يبعث على الميوعة ، وعلى الانهماك فى الشهوات ، وعلى الخذلان وضعف الثقة بالنفس والثقة بالأمة والثقة بالله يجب أن يعدم .

إن الأمم الآن تتطلب التضحية ، وتتطلب مثـلا أعلى أساسه خير المجتمع لا خير الفرد وحده ، وتتطلب إعداد الفرد للكفاح ؛ فما كان من الأدب العربى يدعو الفرد أن يبحث عن لذته مهما كانت نتائجها على المجتمع يجب أن ينحى ؛ والأدب الذى عماده أن فلاناً أعطاه من مال الأمة لقصيدة أشاد فيها بذكره فجعله مَلَكا فوق البشر ، ليس صالحاً لجيلنا بحال من الأحوال . بل إن مدح الملوك والأمراء والحكام يجب أن يكون أساسه العدل وخدمة الرعية ، وأداء ما عهد إليهم بذمة وصدق ، سواء أعطوا من مالهم الخاص أو منعوا ، كرموا أو بخلوا ، و إن الأدب الذى يخيف من الموت ، و يجعل الحياة كلها توقعاً للموت ،

وخوفاً من الموت ، يجب أن يموت ، ويحل محله تقديس الحياة والعمل للحياة ، حياة الأمة وحياة الفرد ، ولا بأس بالموت إذا الموت نزل .

***

امتحنتُ هذه النظرية فقرأت كتاباً من كتب الأدب العربية ، فوجدتنى فى كل صفحة من صفحات الكتاب قد علقت — فى ذهنى — على بعض الجمل بأنها غير صالحة لأنها تبعث الضعف ، وبعضها غير صالح لأن العلم الحديث أثبت كذبه ، وبعضها غير صالح لأنه كان مثلا أعلى قديماً وليس مثلا أعلى حديثاً ، وبعضها صالح كل الصلاحية لأنه يناسب زمننا كما كان مناسباً لزمنه ، فهو مستحق للبقاء .

قرأت مثلا قول المغيرة بن شعبة : « أحب الإمارة لثلاث وأكرهها لثلاث : أحبها لرفع الأولياء ، ووضع الأعداء ، واسترخاص الأشياء ، وأكرهها لروعة البريد ، وفوت العزل ، وشماتة العدو » . فقلت إن هذا نظر غير صائب ، وشعور غير نبيل ؛ إنما تحب الإمارة للعدالة ، وإيصال الحقوق لأصحابها ، وتحقيق ما أمكن من إصلاح ؛ أما حبها لنفع الصديق وضر العدو ونحو ذلك فنظر سطحى سخيف ، لا يصح أن يعرض على النشء .

وقرأت قول القائل :

« كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، فصاروا شوكاً لا ورق فيه » .

فقلت هذا غير صحيح وإن حسن لفظه لأنه فى كل أمة ، وفى كل عصر ، وفى كل جماعة ، ورق وشوك ، فلا يخدعنك حسن التعبير عن فساد المعنى .

وقرأت خطبة لسعيد بن سويد : « لا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف ، ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق ،

وأخذاً بالعدل » . فقلت هـذا قول حق ، يصلح لـكل زمان ومكان ، ويصح أن يعلّم لـكل ناشئ ، ويردده كل متأدب .

وقرأت قول الشاعر :

أشرقتَ حتى تركْتَ الشمس ساجيةً كأنما أُلبِسَتْ دُكْناً من الحلل
وراح نقعك فى أجفانها كحـلا وما عهدنا بجفن الشمس من كحَل
لقـد حقنْتَ دم العليـا بجود يد مخضوبة بدماء المَحْل والبخَلِ
أظما إلى رشفها يوماً فيصـدفنى عنها تعرض سيل العارض الهطل

فقلت إن هذا الضرب لايعجبنى ، رجل أعطى الشاعر قبضة من مال ، فجعله أكثر إشراقاً من الشمس ، وجعل يده مخضوبة بالدم من قتل البخل الخ . وهى معان مبتذلة ، وموقف استجداء وضيع ، وعاطفة شخصية جزئية حقيرة ؛ فهـذا الضرب لا أشجع عليه ، ولا أقدمه مثالا يحتذى ؛ وخير منه قول المتنبى فى المديح :

إذا الدولة استـكفَت به فى ملمـــــة
كفاها ، فـكان السيفَ والـكفَّ والقلبا . الخ

وقرأت من الأمثال قولهم : « الوقت كالسيف ، إن لم تقطعه قطعك » . فقلت قول مبهرج ، ولا معنى له ، فليس بصحيح أن السيف إن لم تقطعه قطعك .

وقرأت قول الشاعر :

تطامَنْ للزَّمان يَجُزْكَ عفواً وإن قالوا ذليل قل ذليل

فقلت هذا شعر يجب أن يضرب به وجه ناظمه الحقير .

وقرأت نصيحة عمرو بن عتبة لمعلم ولده : « روّهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه » . فقلت قول شريف صحيح ؛ ثم قرأت قوله : « ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يُحكموه ، فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم » فقلت هذا غير صحيح فيما أثبت علم التربية الحديث .

وبجانب ذلك قرأت أدباً جيداً كل الجودة ، حقا كل الحق ، نافعاً لأن يكون جزءاً من مثلنا الذى ننشده لا أطيل بذكره لكثرته .

وهكذا وجدت فيما استعرضت خيراً كثيراً ، وشرا كثيراً ، فلا بد من التقليم والتطهير واستبقاء الأصلح .

خرجت من فكرة « التقليم » هذه بأن أولى الرأى فى الأمة يجب أن يكون لهم غرض واضح معين فى تربية النشء ، ووضع أسس ثابتة فى التربية ، ورسم مثل أعلى واضح جلى ؛ فإذا تم ذلك وجب على كل طائفة أن تسعى لتحقيق هذا الغرض ؛ والأدباء والفنانون فى طليعة هذه الطوائف ، يجب أن يعيدوا النظر فى الأدب والفن ، فلا يضعوا فى يد النشء من الأدب العربى والغناء والأناشيد والتصوير ، إلا ما ينسجم مع هذا المثل ؛ وإلا كنا كطائفة تغزل غزلا ، وتأتى طائفة أخرى فتنقض غزلها .

إن عملية التقليم هذه تكسبنا عيناً ناقدة نفرز بها الجيد من الردىء ، ونميز بها الصالح من الطالح ، فى الشعر والخطب والأمثال والحكم والقصص والأغانى والروايات ، وكل ضرب من ضروب الأدب ، وكل نوع من أنواع الفن .

إن الأدب العربى فى جملته نوعان : نوع غير صالح لحياتنا الواقعية التى نحياها الآن ، ولا يتفق مع مثلنا الأعلى الذى ننشده فى هذا الزمان ؛ وهذا يجب أن يوضع فى متحف ، كالآثار القديمة يعنى به الخاصة وحدهم ومؤرخو الأدب فقط . ونوع صالح لزماننا ومثلنا ، وهذا وحده هو الذى نسلمه لنشئنا ، ونصوغ منه أمانينا ، ويستشهد به أبناؤنا ، ويحفظ منه جيلنا .

إنا بعرضنا كل الأدب العربى على الناشئين بغثّه وسمينه وصحيحه وفاسده — من غير « تقليم » — نضع فى أذهانهم صوراً مختلفة متناقضة لمثل مختلفة يضرب بعضها وجه بعض ، ولا نكوّن لهم مثلا أعلى منسجما ، فتكون النتيجة

بلبلة الأفكار ، وحيرة الأذهان ، واضطراب الناشئ يميناً ويساراً ، وأماماً وخلفاً ؛ وفى هذا ضرر بيّن على عقله وعواطفه .

ما بالنا فى فروع العلم المختلفة نعلمه ما أثبت العلم صحته فى الطبيعة والكيمياء والرياضة والجغرافية وعلم الأحياء ، ولا نعلمه بجانبه ما أثبت العلم فساده من سطحية الأرض ، ودوران الشمس حولها ، وخلق الحى من غير الحى ونحوها ، ثم لا نفعل ذلك فى الأدب ، فنعلمه ما صح وما فسد ، وما يبعث عواطف مريضة بجانب ما يبعث عواطف صحيحة .

لا بد أن يكون لنا منهج واحد وأسلوب واحد فى هذا وذاك ، وإلا كنا نزن بميزانين ونكيل بكيلين .

***

هذه العملية الأولى . وأما العملية الثانية وهى « التطعيم » فأعنى بها أننا ندرس وجوه النقص فى أدبنا وفننا ، فيعكف أدباؤنا على ملافاته ، وندرس مثلنا الأعلى فنرى ما يدعمه ويقويه مما ليس فى أدبنا فنخلقه ، ونجعل هذا النوع وما استصفيناه من الأدب القديم غذاءنا .

لشدما نحتاج فى أدبنا إلى الإكثار من تحليل الشخصيات العظيمة لتخلق فينا عظماء جداً ، ولشد ما نحتاج إلى الكتب الجذابة لنشئنا لتغذيتهم بالمبادئ القويمة . ولشد مانحتاج إلى شعر فى الطبيعة وجمالها ، وإلى شعر جادّ قوىّ أخلاقى روحى نابع من خيال رفيع . ولشد ما نحتاج إلى القصص تشرح العيوب الاجتماعية ، وتستغفل القارئ فتضع له الدواء القوى المر أثناء تلذذه بحادثة أو منظر ! إلى نحو ذلك .

عملية « التقليم والتطعيم » هى قانون الحياة . نشذب الشجر لينبت العود الصالح ، ونقطع العضو الفاسد فى الجسم حتى لايسرى فساده إلى السليم ، ونطعم

الشجرة لتنتج خير الثمار وأحسن الأزهار ، ونضحى فى كل شىء بالقليل لنغنم الكثير وندفن الميت لنستقبل الحى . فما لنا لا نفعل ذلك فى الأدب والفن ؟

لقد مر على العالم الإسلامى عصور حية زاهرة أنتجت أدباً حيا زاهراً . ومر عليه عصور ميتة جامدة أنبتت أدباً ميتاً جامداً ، ولا بد لنا من التنقية والاختيار .

وعلى الجملة لا يمكن أن يصلح أدبنا وفننا إلا بعمليتى التقليم والتطعيم ، ولو كره الكافرون .

# التقليم والتطعيم

## فى اللغة

ما قلناه من إجراء العمليتين فى الأدب يصدق تمام الصدق على اللغة ، فمادة اللغة العربية تحتاج إلى تقليم وتطعيم .

ذلك أن اللغة عَرَض من أعراض الأمة تتقدم بتقدمها وتنحط بانحطاطها ؛ فلغة العرب فى الجاهلية كانت تكفى لحاجاتهم القليلة ومنازع نفوسهم المحدودة وشؤونهم الاجتماعية الأولية . فلما جاء الإسلام لم ير اللغة الجاهلية كافيـة له ، فنماها من ناحيتين : من ناحية استعمال الكلمات الجاهلية فى معان جديدة لم تكن تستعمل فيها من قبل ، ومن ناحية تعريب كلمات من لغات أخرى ، وهكذا كان الشأن فى العصر الأموى والعصر العباسى ؛ ولو أحصينا مفردات اللغة فى هذه العصور المختلفة لوجدناها قليلة نسبيا فى الجاهلية ، كثيرة فى صدر الإسلام . كثيرة جدا فى العصر العباسى ؛ وليس الأمر فى ذلك مقصوراً على مفردات اللغة وعدد كلماتها ، بل نجد كلمات ماتت بموت مدلولهـا فى الجاهلية وكلمات ظلت حية فى العصور المختلفة لحاجة الأمة إليها .

كانت إذاً عملية التقليم والتطعيم مستمرة فى هـذه العصور ، تحكم بالإعدام على الألفاظ التى لا تحتاج إليها أو التى تستثقلها ، وتقتبس من العبرانية والسريانية والهيروغليفية والحبشية والفارسية واليونانية واللاتينية وغيرها ألفاظاً جديدة حسبما تدعو إليه الحياة اليومية الواقعية .

متى تعد اللغة راقية وافية ؟

عندى أن مقياس ذلك شيئان أساسيان :

(١) أن تكون فى طبيعة اللغـة مرونة من اشتقاق وارتجال ووضع ومجاز ونقل عن لغـة أخرى وهكذا يمكّن أصحابها من أن يقلّبوا الكلمات ويصوغوها حسب تعدد المعانى وتغيراتها الدقيقة .

(٢) أن تسد حاجة المتكلمين بها ، وتوفر ما وصلت إليه أمتها من عـلوم وفنون ، وتعبر عما يشعرون به ويفكرون فيه فى شمول ودقة وإحكام ، ولـكن بشرط أن تكون الأمة بلغت مبلغاً كبيراً فى الحضارة ؛ أما إذا كانت الأمة أولية ولغتها مثلها أولية فلا يكفى لعدها راقية أن تسد حاجتها .

ويخيَّل إلىَّ أن الشرط الأول يجعل اللغة راقيـة ، والشرط الثانى يجعلها وافية ، وهما معاً يجعلانها راقية وافية .

واللغة العربية — فى ضوء هذا الذى ذكرنا — راقية بمرونتها التامة ، غير وافية الآن ، لأنها لا تطابقَ بينها وبين حاجاتنا ، ولا تسد كل ماوصل إليه العلم والفن والفكر من إنتاج ؛ فالعلماء والفنانون لا يجدون فيها كفايتهم ، والصـناع والعمال لا يعبرون بها عما فى أيديهـم ؛ والمفـكرون يتعثرون فى التعبير بها عن بعض أفكارهم .

وإذ كانت اللغة العربية بطبيعتها راقية كان العيب ليس عيباً ذاتيا فيها ، وإنما عيبها عيب القائمين عليها المصرفين لزمامها المالـكين لقيادتها .

ولابد — لمعالجتها — من هاتين العمليتين : « التقليم والتطعيم » .

فأما التقليم فان معاجمنا مملوءة بكلمات لا حاجـة لنا بها ومترادفات كثيرة للشىء الواحد يكفينا بعضها ، والزمن قد فعل فعله المعقول فأهمل كلمات كثيرة لم يستعملها الـكتاب ولا الشعراء ولا المؤلفون ولا المتحدثون فيما ينتجون ، ولم

يشعروا يوما ما بحاجتهم إليها لغَناء غيرها عنها ، أو لانعدام مدلولها فى حياتهم اليومية .

والسبب فى هذه الكثرة البالغة المتجاوزة الحد فى متن اللغة أن اللغة العربية كانت لغة قبائل متعددة ، لكل قبيلة ألفاظها وتراكيبها فى حدودها المعقولة وحاجاتها المتداولة ؛ فجاء العلماء فى آخر العصر الأموى وصدر العصر العباسى ، فجمعوا ما وصلوا إليه من كل هذه اللغات من غير تفريق ولا تمييز ، ومن غير أن يفردوا كل قبيلة بألفاظها ، فكان لنا من ذلك كله ثروة كبيرة لا حاجة لنا بها إلا فى شرح ما ورد عن هذه القبائل من أدب ؛ أما حياتنا اليومية وتفكيرنا وأدواتنا فليست تحتاج إلى شىء كثير من هذا المترادف .

ومما يؤسف له أن هؤلاء العلماء عنوا فى عملهم بالجمع ، ولم يعنوا بجانب ذلك بالاختيار ، مع أن الاختيار عمل لا يقل شأناً عن عملية الجمع .

وأكثر من هذا داعياً للأسف أنهم قصروا جمعهم على اللغات الممعنة فى جزيرة العرب البعيدة عن الحضارة كتميم وقيس وأسد وهُذَيل ، ولم يرضوا أن يأخذوا شيئاً من المتاخمين لأهل الحضر لفساد لغتهم فى زعمهم ، مع أنهم لو أخذوا عنهم لأمدونا بألفاظ كثيرة نحن أحوج إليها فى حضارتنا ؛ فقالوا لا نأخذ من لخم وجذام لمجاورتهم أهل مصر ، ولا من قضاعة وغسان لمجاورتهم أهل الشام ، ولا من تغلب لمجاورتهم سكان الجزيرة ، ولا من اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ؛ وتفرغوا فقط لجمع لغة العرب الصرفة المنزهة عن الاختلاط ؛ وهى وجهة نظر قد تكون صحيحة لو أنهم لم يقتصروا عليها ، وجمعوا معها اللغات المتاخمة ، لأنها أغنى وأوفر وأقرب لسد حاجة المدنية والحضارة .

أرادوا — لقصر نظرهم — أن يقتصر الناس على استعمال الألفاظ العربية الصحيحة المستعملة فى جزيرة العرب ، وفاتهم أن هذا مستحيل ، وأن الناس

بعد مدنيتهم لا تكفيهم لغة بداوتهم ، كما لا يكفى ثوب الطفل لجسم الرجل .

ولذلك اضطر المؤلفون والأدباء والكتاب والمتحدثون ألا يخضعوا لحكمهم وأن يستعملوا الكلمات غير العربية سدا لحاجتهم ، وطبقاً لمقتضيات أحوالهم ؛ واضطر أصحاب المعاجم أن يدخلوا فى معاجمهم الكلمات الأعجمية المعربة والمصطلحات العلمية المستحدثة ، كما فعل صاحب القاموس المحيط ، فقد تضخم معجمه بهذا كله ، وكما فعل أكثر منه صاحب تاج العروس فى شرح القاموس .

***

عملية التقليم هذه تتطلب أن نستبعد الألفاظ التى لسنا فى حاجة إليها ، وأن نخلى مكانها لما نحتاج إليه ؛ فليس فخر اللغة أن يكون فيها ثمانون اسما للعسل ، وخمسون للأسد ، وأربعمائة للداهية الخ . بل يكفى من كل ذلك أربعة ألفاظ أو خمسة ، ثم نفسح المجال لأسماء المخترعات الحديثة والمصطلحات الجديدة . نعم يجب أن تكون هناك معاجم تحوى كل ما أثر عن العرب ، ولكنها تكون معاجم تاريخية يرجع إليها الخاصة ، أما المعاجم التعليمية التى تكون بأيدى جمهور الناس فيقتصر فيها على الكلمات الحية .

لقد قالوا إن كتاب الصحاح اشتمل على أربعين ألف مادة ، والقاموس على ستين ألفاً ، ولسان العرب على ثمانين ألفاً ، فما أحوجنا إلى إماتة نصف هذا العدد على الأقل ، لنحيى مكانه ما نحن فى حاجة إلى إحيائه .

ثم هذه المعاجم اللغوية محتاجة أيضا إلى تقليم من نوع آخر ، وهو كثرة ماورد فيها من تخريف يفسد العقل ، ففيها — مثلا — أن : « القاف جبل محيط بالأرض أو من زمرد ، وما من بلد إلا وفيه عرق منه » ، وفيها : « أن الهرمين بناءان أزليان بمصر بناهما إدريس عليه السلام أو بناهما سنان بن المشلشل ، أو بناهما الأوائل لما علموا بالطوفان من جهة النجوم ، وفيهما كل طب وسحر وطلسم » وفيها

« أن أبا عروة رجل كان يصيح بالأسد فيموت فيشق بطنه فيوجد قلبه قد زال عن موضعه » ، إلى كثير من أمثال هذا الهذيان .

كل هذا يجب أن يقلم ، ويقلم أيضا التفسير الذى كان جاريا على ما كان معروفا أيام المعاجم القديمة ثم تغير بتقدم العلوم ، فتفسير الكسوف والخسوف والظواهر الطبيعية والنبات والحيوان وما إلى ذلك كله يجب أن يكون حسبما وصل إليه العلم الحديث ، لا حسب ما كان معروفاً فى العهد القديم .

لسنا فى حاجة إلى أن يكون للأسد خمسون اسما وللعسل ثمانون وللسيف أكثر من ذلك ، إنما نحن فى أشد الحاجة إلى أن يكون لكل شىء تقع عليه حواسنا وكل معنى تصل إليه عقولنا اسم نصطلح عليه ونتبادل به التعبير عنه ، ولا يكون ذلك إلا باغفال كثير مما ورد فى المعاجم مما لا نحسه ولا نحتاج إليه ، ولا يمس شيئاً من حياتنا الواقعية .

فإذا أعدمنا هذا الذى لا نحتاج إليه فتلك عملية التقليم ، ثم تأتى بعد ذلك عملية التطعيم بأن نملأ المكان الذى فرغ من إزالة الألفاظ الميتة باستعمال كلمات للدلالة على كل شىء نحسه أو نشعر به أو نفكر فيه ، إما بالتعريب والوضع أو توسيع معانى الكلمات القديمة .

وهذا ما فعلته الأمم الحية كلها ، وفعله العرب أنفسهم والمستعربون الأولون . لقد كانوا يأكلون الثريد والمضيرة ثم صاروا يأكلون الفالوذج والسكباج والكباب ، فلما أكلوها عربوا أسماءها وأدخلوها فى لغتهم ؛ وكانوا يسمعون الصَّنْج والمزمار ، فصاروا يسمعون الناى والقانون والبربط ، فلما سمعوها عربوها ؛ وكانوا يسكنون فى الخيام ، فصاروا يسكنون الدور مزينة بالفسيفساء والقاشانى ، فلما استعملوها عربوها ؛ وما كانوا يعرفون علماً ، ثم عرفوه ، فواجهوا مصطلحات العلوم من جبر وهندسة ومنطق وطب وفلسفة ، فمرنوا لها وتغلبوا على صعوبتها ، وجعلوا

لكل شيء لفظاً منقولاً أو مرتجلاً أو مشتقا ، فكانت لغتهم تطابق معيشتهم .

أفليس غريباً بعد ذلك أن نجمد على ماوصلوا إليه مع أن المدنية والحضارة والعلم والصناعة ووسائل المعيشة لم تقف حيث وقفوا ، ونمت أضعاف ما كانت ؟

أخطر خطأ في هذا الباب اعتقادنا أن اللغة مقدسة ، فنعبدها ونجلها ، ولا ندخل عليها تغييراً ولا تعديلا ، مع أن اللغة خادمتنا وليست سيدتنا ولا إلهنا ، هي التي تخضع لنا ، لا نحن الذين نخضع لها ، هي عرض من أعراض حياتنا كالثوب نلبسه والمتاع نستخدمه والبيت نسكنه ، وكل شيء من ذلك يجب أن يخضع لظروفنا ومقتضيات أحوالنا ؛ يغير الثوب حسب تغير الجسم ، ويبدل بناء البيت حسبما تتطلبه راحتنا ، ويصلح المتاع حسب موقفه منا ؛ وهكذا اللغة هي آلة خادمة ذليلة للتعبير عما في نفوسنا ، نملكها ولا تملكنا ، وتقدسنا ولا نقدسها ، ويجب أن تموت أجزاؤها وتحيي أجزاؤها وتخلق أجزاؤها حسب حاجتنا ، وأن تتشكل لنا لا أن نتشكل لها ، وإلا كانت لغة أثرية لا لغة حية .

إن كانت اللغة غير مقدسة فمعاجمها غير مقدسة ، يجب أن تخضع لكل تقدم علمي نصل إليه ؛ فتعريف الألفاظ يجب أن يكون حسبما أقره العلم الحديث ، واللفظ إذا استعمله جيلنا ولم يكن في المعاجم وجارياً على النمط العربي يجب أن يدوّن فيها ، ولا يحتج بأنه غير موجود في المعاجم القديمة ، ولا نصغي إلى هؤلاء المتزمتين الذين يصرخون دائما في وجهنا : « إن هذا ليس في القاموس » كأن القاموس كتاب منزل يتعبد به — إن هذا النمط من القول شل للفكر وعقدة في اللسان وتعويق للأقلام ، وحرام ما نحن فيه من ضياع أوقات المدرسين والمفتشين في الجدال في أن هذه الكلمة في المعجم أو ليست فيه ، وفي سبيل ذلك تضيع قيمة المعاني والأفكار والأساليب .

كم أعمار ضاعت في هذا الباب على غير جدوى ، وكم صحائف سودت في هذا

الموضوع من غير طائل ، وكل هذا مبنى على هذا الخطأ فى تقديس اللغة .

ما يضرنا أن نستعمل تعبير «من جديد» إذا استسغناه ولو لم يرد فى المعاجم ؟ وما يضرنا استعمال كلمة « هناء » إذا أقرها أدباؤنا ولو لم توجد فى المعاجم ؟ ولماذا نفحم فى الإجابة إذا قال قائل إنها وردت فى كتاب « العمدة » أو فى مقدمة ابن خلدون ، ولا يكون لنا الحق الذى كان لابن رشيق وابن خلدون ؟

لقد ظنوا أن « القاموس » نصّ على كل لفظ عربى ، فما لم يوجد فيه فليس بعربى ، وهذا غير صحيح مطلقاً ، فهو لم يذكر « الرحمن الرحيم » فى رحم ، وقال : « الشنار أقبح العيب والعار » ولم يذكر العار فى مادته ، وقال فى أول كتابه : « الحمد لله منطق البلغاء باللُّغَى فى البوادى » . ولم يذكر فى مادة لغة أنها تجمع على لُغَى ، وقال فى الخطبة أيضاً : «فصرفت صَوْبَ هذا القصد عنانى» ولم يذكر فى ماة صوب أن معانيها الجهة ، إلى كثير من أمثال ذلك .

وهبْ أن العرب لم ينطقوا بها ، فلماذا لا ننطق بها نحن إذا جرت على أساليب العرب وأوزانها وأصولها .

كل ما فى الأمر أن المسألة لا يصح أن تكون فوضى ينطق كل من شاء بما شاء . وإلا انقلبت الحرية إلى عكس المراد منها ، فاللغة مواضعات ووسيلة للتفاهم فى حدود معقولة ؛ إنما الواجب أن يكون فى الأمة متخصصون مرنون أحرار عالمون بالعربيـــة وأسرارها مطلعون على حاجة الأمة ومطالبها اللغوية ، يوسعون على الناس فى كلامهم وفق أسس اللغة ويضعون لها ما هى فى حاجة إليه وهذا هو عمل المجامع اللغوية لو أنها قامت بواجبها .

# لغة الأزهار والثمار

مما التفتت إليه الحضارة الإسلامية وتفننت فيه لغة الأزهار والثمار والتخاطب بها ، وخاصة فى مجال الحب والغرام .

لقد عنوا بالأزهار والثمار ، فجلبوا أنواع الأشجار من أطراف الدنيا ، وتفننوا فى المغارس وطعموها ، وولدوا منها أنواعاً جديدة ، وبحثوا وجربوا والفوا ، ووضعوا التقاويم لما يعمل فى كل شهر من شهور السنة لأنواع النبات المختلفة ، ثم أنشأوا البساتين حول البيوت وعلى شواطئ الأنهار وفى ضواحى المدن ؛ وبلغت بغداد فى ذلك مبلغاً عظيما ، فخصصوا بعض البساتين لبعض الأزهار أو الثمار ، فنرى — فيما يرد من الأخبار — « بستان النارنج » و « بستان التفاح » و « حديقة النرجس » و « حديقة الورد » و « حديقة البنفسج » . وقال ابن وحشية : « إنهم لشدة غرامهم بالنرجس أكثروا من زرعه ، وأقاموا له حدائق بذاتها » . وقال المقدسى : « إنهم اعتنوا شدة الاعتناء بالبنفسج ، فكان من أحسن ما يمكن ، جيد الرائحة ، لا يشبهه بنفسج ، وغرسوه فى حدائق خاصة » ، وأحاطوا البساتين بشجر السرو ، قال أحمد بن سليمان بن وهب :

حُفَّت بسَرْوٍ كالقيان تلحَّفَتْ خُضْرَ الحريرِ على قوامٍ معتدِلْ
فكأنها والريح حين تُميلُها تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل

كما أحاطوها بشجر الخِطْمِىّ ، لأنه يتشابك ويعلو نحو القامة وله شوك ، ومن أجل ذلك صلح سياجا ، وحرسوها بالكلاب الكبيرة القوية الجارحة . جاء فى الأغانى أنه قيل لعثمان بن دراج الطفيلى (وكان فى أيام المأمون) : أتعرف بستان فلان ؟ قال : إى والله ، إنه للجنة الحاضرة فى الدنيا . قيل : فلم لا تدخل إليه

فتأكل من ثماره ، وتجلس تحت أشجاره ، وتسبح فى أنهاره ؟ قال : « لأن فيه كلباً لايتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال » .

وتردد عليها الناس ينعمون بمناظرها وهوائها ، ويأكلون من ثمارها ، ويشربون تحت ظلالها ؛ وكانت نعمة على الأدب بما أوحت وما ألهمت ، ومصداق ذلك شعر أبى نواس وغيره من الشعراء .

وأكثروا من زراعة الأزهار ، وأبدعوا فى تلوينها وتوليدها ؛ فهذا الخِيرِىّ (المنثور) كانوا يعرفون منه سبعة ألوان . قالوا : « وقد يركب بعضه على بعض ، فيقبل التركيب ، ويخرج زهره مركباً فى اللون والطبع والريح ، ولكن فى تركيبه صعوبة ، لأنه يحتاج إلى لطافة فى العمل وصبر وحذق » .

وهذا البنفسج يحتفلون به كل الاحتفال ، وباكورته لاتهدى إلا لخليفة أو وزير أو أمير ، وتجعل منه طاقات تدور بها فتيات جميلات فى الشوارع والأسواق ، فيأخذ المشترى من الفتاة زهرة ، ويمنحها ما شاء من دراهم ، وعنوا به عناية فائقة فى غرسه وسقيه واختيار منبته ، لرقة طبعه ولطف مزاجه .

وهذا الورد أصنافه لاتعد ولا تحصى : منها الأبيض الخالص البياض ، والأبيض المنقط بصفرة ، والأصفر الذهبى ، والأحمر القانى ، والأحمر الفاتح ، والأحمر القريب من السواد ، والورد الألفى سمى بذلك لكثرة ورقه ، حتى ظنوا أنها تبلغ الألف مبالغة ، ومنه نوع نصفه أحمر ونصفه أبيض ، أو نصفه أحمر ونصفه أصفر ، وورد خارجه أحمر وداخله أصفر ، وسموه الورد المُوَجَّه ، وفيه يقول بعضهم :

وورْدة جمعت لونين خِلتهما ... خدَّى حبيب وخدَّى هائم عشقا
تعانقا فبدا واش فَراعَهما ... فاحمرّ ذا خجلا واصفرّ ذا فرَقا

وكان بعض باعة الورد يدخنون الورد الأحمر بالكبريت على أشكال مهندسة

فيبيضُّ مكان دخان الكبريت ، ويكون له نقش عجيب ، ويدّعون أن ذلك طبيعى ، فيبيعونه للمغرمين بالورد بأثمان عالية .

وهذا النرجس أحبوه وفتنوا به ، وحسنوا نوعه ، وقالوا إن خير أنواعه النرجس المضاعف والنرجس الدمشقى .

وتأمل فيما ذكره المسعودى فى وصف « بستان النارنج » قال : « وكان للخليفة القاهر بستان من ريحان وغَرْس من نارنج قد حمل إليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند ، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره ، من أحمر وأصفر وأزرق وغيرها ، وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر ، وقد جعل مع ذلك فى الصحن أنواع الأطيار من القمارى والشحارير والببغاء ، مما قد جاب إليه من الممالك والأمصار ، وكان « القاهر » أكثر جلوسه فيه ، وكل شربه عليه » .

***

ثم بلغ من ولوعهم بالأزهار والثمار أن كان لها بين الظرفاء والمحبين والمتيمين لغة متعارفة تدل على الهجر والوصل ، والدعوة والتحذير ، والتفاؤل والتشاؤم ، وما إلى ذلك .

فأحياناً يتخذون هذه المعانى مما يرمز إليه اسم الزهرة أو الثمرة ، فكرهوا التهادى بالسفرجل لأن أوله سفر ، قال الشاعر :

أهدت إليه سفرجلا فتطيرا　　منه وظل متيما مستعبرا
خاف الفراق لأن أول إسمه　　سفر فحق له بأن يتطيرا

وكرهوا كذلك التهادى بشقائق النعمان ، لأن أوله شقاء ، وفى ذلك يقول الشاعر :

لا يحب الشقائقا　　كل من كان عاشقا
إن نصف اسمه شقا　　إذا فُهْتَ ناطقا

ويكرهون التهادى بالذهب حتى لا يعترى العشق ذهاب ، ومن ذلك كراهتهم للتهادى بالسوسن ، لأن أول اسمه سَوْء ، والياسمين لأن أوله يأس ، والخِلَاف لدلالته على الخلاف ، والبان لدلالته على البين وهكذا ، وقد وردت فى ذلك أشعار كثيرة .

وكثيراً ما كانت تخرج الجارية ومعها حارس فتصطحب طاقة من أزهار ورياحين ، ثم تشير لصديقها خلسة بما تريد مما يدل عليه نوع هذا الزهر أو هذا الريحان ، فتشير — مثلا — بالنَّمام إلى أن حارسها نمام ، وهكذا .

ويتفاءلون بالتهادى بالعود لأن فى اسمه معنى العودة ، وبالنبق لإيمائه إلى البقاء كما قال الشاعر :

أيا أحسننا خلقا ومن فات الورى سبقا
تفاءلت بأن تَبْقى فأهديت لنا النبقا
فأبقاك إله النا س ما سرك أن تبقى

وأحياناً يرمزون بالزهر أو الثمر ، لا من حيث ما يدل عليه لفظه ، ولكن من حيث ما يدل عليه معناه أو ترمز إليه صفاته ، فكرهوا التهادى بالأُتْرُجّ لأن ظاهره غير باطنه ، فهو حسن الظاهر حامض الباطن ، طيب الرائحة مختلف الطعم ، قال الشاعر :

أهدى له أحبابُه أُتْرُجَّةً فبكى وأشفق من عِيافة زاجر
خافَ التلوُّنَ إذ أتته لأنها لونان باطنها خلاف الظاهر

ورمزوا بالبنفسج للوفاء والمحافظة على العهد ، قال الشاعر :

أهدت إليه بنفسجاً يسليه تُنبيه أن بنفسها تفديه

وإلى قريب من هذا المعنى يرمز بعض الإفرنج ، فنى إهدائه معنى اذكرنى ولا تنسنى ؛ ولا أدرى من أى صفات البنفسج اشتقوا هذا المعنى ، إلا أن يكون مجرد مواضعة .

وأما الورد فاستعملوه كثيراً أداة للتحية ، قال الشاعر :

عشـية حيَّانى بورد كأنه  خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وتطيَّر منه بعضهم لأنه قليل اللبث سريع الفناء ؛ وفى ذلك يقول القائل :

أنت ورد وبقاء الـ  ـورد شهر لا شهور

يذهب الورد ويفنى  وإلى الآس نصير

ورمزوا بالورد الموجّه للتهتك والحب للمال ، فيشير به المحب للقينة المغنية بأنها لا تفى بحب ، إنما تحب المـال .

ويرمزون بالطرفاء إلى أن صاحبها عشق فذبل فاصفرّ ، فهو يحملها استعطافاً يشكو الألم ويستجدى الرحمة .

* * *

ومما يتصل بهذا الباب ما شاع عندهم من صنع تماثيل من العنبر يمثلون فيها أشخاصاً أو طيوراً أو أزهاراً أو حيوانات ، ويكسون بعضها بالذهب ، ويضعون فيها فصوص الأحجار الـكريمة ، يبتاعها الناس للتهادى ، ويرمزون بها لغرض يرمون إليه .

وقريب من هذا — وإن لم يكن رمزاً — ما حكى بعضهم أنه رأى بين يدى بعض الـكُتَّاب طبق ورد أحمر قد كتب فيه بورد أبيض ، وما حكى آخر أنه رأى طبق ريحان كتب فيه بياسمين ونسرين .

أما التفاح فقد تفننوا فيه أكبر تفنن ، وحمَّلوه أنواع الرسائل ، وجعلوه يمثل أعظم دور فى الحب والغرام ، وساعدت حمرته وصفرته أن يتلاعبوا به ، حتى بلغ من حب بعض الظرفاء له أن حرّم على نفسه أكله لأنه تمثَّلَ فيه حبه ، وحتى بلغ من تفنن الهو ن كان بعضهم يبتـدر التفاح وهو على شجره ، فيشير فيه

إشارة ، أو يكتب عليه شعراً ، حتى إذا نضجت التفاحة كانت صفراء والإشارة أو الكتابة عليها حمراء أو العكس ، فيتهادون بها أو يبيعها البستانى بالثمن الكبير ، وقد قال الشاعر فى تفاحة صفراء كتب عليها بالأحمر :

تفاحة صيغت كذا بدعة    صفراء فى لون المحبينا
زينها ذو كمد مدنف    بدمعه إذ ظل محزونا

وتصوف فيها بعض العشاق ، فقرأ فيها رمز الجمال ، واتخذها أنيساً فى خلوته ، جليساً فى وحدته ، نديماً على الشراب إذا عدم الندمان ، وأهداها المحب رسولَ الغرام ، وشفيع الهوى ، وأهدتها الحبيبة دليل الرضا وانتهاء الجفا :

لما نأى عن مجلسى وجهه    ودارت الكأس بمجراها
صيرتهُ تفاحة بيننا    إذا ذكرناه شممناها
واهاً لها تفاحة أشبهت    خديه فى بهجتِهِ واها

---

ذكرتك بالتفاح لما شممته    وبالراح لما قابلت أوجه الشَّرب
تذكرت بالتفاح منك سوالفاً    وبالراح طعما من مُقبَّلك العذب

هذا قليل من كثير مما ورد فى الأدب العربى فى هذا الباب .

# حديث الخميس

كانت جلسة طريفة ، جلسة الخميس الماضى فى « لجنة التأليف » ضمت طائفة من خير رجالنا ، ومن بعض إخواننا السوريين ، وتشقق الحديث وتنوع وذهب فنوناً ، إلى أن انتهى المطاف بنا إلى الشرق وشؤونه .

قال أحدنا : إن أشد ما يؤسفنى من حالة الشرق الآن أن أمامه فرصاً نادرة ، ثم هو لا يعرف كيف ينتهزها . كل أمم الأرض تدرس موقفها واحتمالات نتائج الحرب الحاضرة وترسم خطتها لمستقبلها ، وتكلف علماءها وقادتها أن يدرسوا شؤونها ، وما كشفته الحرب الحاضرة من عيوب نظامها ، وما تقترح فى المستقبل من معالجتها هذه العيوب ، وما تؤمل من نظم جديدة لإصلاح هذه الأمراض ، فهم يجمعون الإحصاءات ، ويتقصون المشكلات ، ثم يضعون الخطط ويرسمون طرق التنفيذ . أما الشرق فلم يعبأ بكل ذلك ، وترك الأمور للقدر يسيرها كيف شاء ، كأن الحرب لا تعنيهم ، وكأنها لا تقرر مصيرهم ، وكأن الأمم لا تتقاتل عليهم ؛ فلو سألت قادتهم : ما خطتكم المستقبلة ، وماذا تؤملون ، وماذا تفعلون لتبلغوا ما تريدون ، لم يحيروا جواباً ، كأن السؤال لم يخطر لهم على بال .

— هل هناك حاجة لمثل هذه الأسئلة ؟ إن الغاية واضحة وهى الاستقلال ، وكفى به مطلباً .

— الاستقلال — يا أخى — كلمة عامة لا يصح أن يكتفى بطلبها والمناداة بها من غير بحث وتفصيل ، هى كخطيب الجمعة يقول : اتقوا الله واعملوا صالحاً ، من غير بيان لما هو العمل الصالح المحدود المبين الذى يدعو إليه . خذ لذلك

— مثلا — استقلال سوريا ؛ فهم حين بدءوا يخرجونه إلى حيز العمل ظهرت مشاكل عدة : ما هى حدود سوريا ؟ وكيف تحكم ؟ وما موقف أجزائها المختلفة ؟ ونحو ذلك ؛ فإذا فصلت الأمور ظهرت عيوبها ومشاكلها ، وتطلبت هذه المشاكل وهذه العيوب حلولا .

— وماذا تطلب من الشرقيين أن يفعلوا ؟

— أطلب أن يتناسى قادة كل أمة الخلافات الشخصية بينهم ، ويجتمعوا ويتشاوروا فى مستقبلهم ، ويضعوا الخطط التى يكسبون بها من ظروفهم الحاضرة ؛ فليس يكفى تدبير الغذاء وضبط الأسعار ، إنما لا بد من حصر ما نشكو منه وما أبانت الحرب الحاضرة من سوء موقفنا ، ثم الإجابة عن هذه الأسئلة : كيف نتقيها ؟ وكيف نسلك السبيل لملافاتها ؟ وما واجبنا الآن نحوها ؟ وما واجبنا بعد أن تضع الحرب أوزارها ؟ فإذا فرغ قادة كل أمة من ذلك التقوا بقادة الأمم الأخرى الشرقية ، فتفاهم الجميع على الخطط المشتركة الممكنة ، ورسموا مدى التعاون فيما بينهم ، وأعلنوا ما يصح إعلانه من ذلك لأممهم ، فإن فى كل أمة شباناً ملئوا وطنية وحماسة وإخلاصاً ، ولكنها حماسة غامضة ، حماسة حائرة لا تعرف أين تتجه ، وهم يتطلعون يميناً ويساراً إلى قادتهم فلا يجدون منهم مرشداً .

— إنى أفهم قولك فيما يتعلق بكل أمة ، ولكن أصارحك القول أنى لم أفهم هذا الكلام فيما يتصل بالأمم الشرقية أو العربية ، فلكل أمة مشاكلها الخاصة . هذه فلسطين مشكلتها اليهود ، وهذه سوريا مشاكلها طريقة اتحادها ، وكيف يكون موقفها من لبنان ، وموقفها إزاء فرنسا الحرة وغير الحرة ، ومشكلة العراق الخلافات بينها وبين إيران ، وتنوع عناصرها بين عرب وكرد ، وسنية وشيعة ، وبدو وحضر الخ . فكيف تربط هذه الأمم برباط واحد ، وتحملها كل هذه المشاكل ؟ إنك إن فعلت هذا كنت كمن يكلف عشرة رجال من أرباب الأسر

ألا يعنى كل بأسرته ، بل يعنى العشرة بالأسر العشر على السواء ؛ وفى هذا من الضرر ما لا يخفى ، ومن ضياع المصالح ما هو واضح جلى ؛ لهذا لم أفهم الحلف العربى على الصورة التى شرحها الكتّاب ؛ خير لكل أمة أن تعنى بشؤون نفسها وتجاهد فى سبيل نيلها حقوقها ، وتتخذ الوسائل التى تراها لترقية أحوالها .

— إن اختلاف المشاكل لايحيل التعاون ، فهذه الأمم الأوربية والأمريكية مع اختلاف مواقفها ومشاكلها لم يمنع كل دولة أن تتحالف مع من ترى المصلحة فى محالفتها . ولست أقصد أن مشاكل كل أمة تحلها الأمم جميعاً بواسطة ممثليها ، فهناك مشاكل داخلية تستقل بحلها كل أمة كما يتراءى لها ، وهناك مشاكل خارجية يمكن التعاون بين الأمم الشرقية فى حلها ، وقادة الرأى فى الأمم المختلفة مجتمعين أقدر على حلها متفرقين ، وصوتهم أشد قبولا وأدعى استماعا . وهب أن التعاون السياسى والحربى عسير ، فما قولك فى التعاون الثقافى والاقتصادى ؟ أليس إذا بدأنا هذه الخطوة وثبت نجاحها كان ذلك أدعى إلى التعاون السياسى ، وعلى الأقل التشاور السياسى ؟

— إنى أسلم بالتعاون الثقافى والاقتصادى ، ولكنى أستصعب التعاون السياسى ؛ وهب أنه جائز نظريا ، فهل ترى أن الدول الأوربية تمكّن الشرق من ذلك ؟

— أعتقد كل الاعتقاد أن نظرة الغرب إلى الشرق ستتبدل بعد هذه الحرب . لقد كانت النظرة السائدة عند الغرب إلى أيام الحرب الحاضرة أن الشرق يجب أن يكون ضعيفاً حتى يسهل استغلاله ، وجاهلا حتى لايعرف حقوقه ، ومنهمكا فى شهواته حتى لايفيق إلى نفسه ؛ ولكنى أعتقد أنه وجد من الساسة الغربيين من أصبح يرى من مصلحته أن يكون الشرق قويا مسلحاً عاقلا متيقظاً ، ثم يصادقه مصادقة القوى للقوى ، ويوجهه لخير الإنسانية ولبناء العالم ؟ وأظن أن

هذه النظرة البعيدة العميقة هى التى ستسود بعد الحرب ، وهب أنها لم تسد أفيحق للغرب أن يتعاون على عدم تمكيننا من التعاون ، ثم لا نجدّ فى تذليل الصعوبات التى تحول بيننا و بين التعاون ؟

— يظهر — يا أخى — أن الفرق بينى و بينك هو الفرق بين مزاجين : مزاجك المتفائل ، ومزاجى المتشائم ، فقد بلوتُ من تفكك الشرقيين ونومهم وخصوماتهم و بحثهم عن لذاتهم الشخصية ما جعلنى أيأس كل اليأس ، وأقلب الأمور على وجوهها المختلفة واحتمالاتها المتعددة ، فأنتهى فى كل احتمال إلى اليأس اللاذع .

— إنك مخطئٌ فى يأسك ، محتاج إلى منعش لمزاجك ، وعليك أن تنظر إلى الماضى لتمتلئ أملا فى المستقبل ، فانظر إلى الشرق منذ عشرين عاما أو خمسين عاما وانظره اليوم ، ألا تراه يخطو نحو النجاح بخطى واسعة ، وإن لم تنظر إليه وحده فانظر إلى أساليب الاستعمار فى الأمم المختلفة كيف تحسنت وتقدمت ، وكيف اتجهت نحو اكتساب قلوب الأمم المحكومة بعد أن كانت تحكمها بالعنف ؛ وسيؤدى هذا السير حتما إلى إلغاء الاستعمار فعلا كما ألغى — تقريباً — اسما ؛ وكلا الأمرين يبشر بمستقبل للشرق زاهر ، سواء من ناحية تنبه شعوبه ، أو من ناحية تنبه الغرب و إدراكه التام للحقائق و بعد النظر .

* * *

ودعيت للحديث فى التليفون ، فغبت عن المجلس دقائق ، فلما عدت وجدت مجرى الكلام تغير ، فلم أدر كيف تسلسل الحديث حتى وصل إلى الكلام فى الاقتصاد ، سمعت قائلا يقول :

— لا أمل لنهوض الشرق إلا بعنايته بمسائله الاقتصادية . سيظل الفلاح بائساً والعامل بائساً وأوساط الناس تعساء ما لم تصلح الحالة المالية ، فهى عصب

الحياة . وقد خبرت حالة سوريا والعراق ومصر فوجدتها كلها فى سوء الحال سواء .

— كيف يمكن أن تصلح الحال الاقتصادية ومال البلاد فى يد الشركات الأجنبية ، وخير المال وزبدته لغير أهله ، وليس لأهله إلا الفضلات ؟ إن جمهور الأغنياء من المصريين لايعرفون لاستغلال المال وسيلة إلا شراء الأراضى ، ولا يؤمنون بشركات ولا مشروعات ، وإذا آمنوا بها نظريا فضعف ثقة الناس بعضهم ببعض يحول بينهم وبين الإقدام على التعاون وتأسيس الشركات المالية .

— وحتى إذا أسسوا لم يعرفوا كيف يزاحمون الأجانب فيها ؛ وقد أعجبنى ما روى أن كبيراً زار مؤسسة وطنية ، فلما درس حالتها قال : « لابأس بها لولا أنه ينقصها يهودى » ، وهو بالطبع لايعنى اليهودى بمعنى الكلمة ، ولكنه يعنى الخلق اليهودى فى معرفته وجوه تدبير المال .

— إن مشاكل الشرق المالية لا تقل خطراً عن مشاكله السياسية ، فأمامه شركات وهيئات أجنبية قد وضعت يدها على موارد الثروة الهامة ، وهى مسلحة بجميع أنواع الأسلحة القوية ؛ فهى مسلحة برأس المال الكبير ، وبالإدارة الناجحة ، وبالأخلاق التجارية الرابحة ، وبغير ذلك من أنواع السلاح الظاهرة والخفية . فكيف يستطيع الشرق أن يتخلص من هذا كله ؟ وماذا فى يد المواطنين إلا الصنائع التافهة ، والزراعة التى لا تدر القوت الضرورى ، وأعمال الخدم الحقيرة ، والتجارة التى ترشح من خرم إبرة ؟

— ومن الغريب أننا إلى الآن لم نكتشف كيف نعد أبناءنا للخلق التجارى والصناعى ، ولايزال التعليم كما كان منذ قرن أكثر غايته إعداد الموظف الحكومى .

— مصداقاً لقولك أعرف آباء كانت لهم تجارة رابحة ، أو زراعة ناجحة ، فرزقوا أبناء علموهم ليحلوا محلهم ، فعلموهم التجارة الحديثة والزراعة الحديثة ، ومع

هذا لم ينجحوا نجاح آبائهم الجهلاء ، بل فى حالات كثيرة أضاعوا ثروة آبائهم ، ولم ينفعهم علمهم الحديث بشىء .

— وما تظن سبب ذلك ؟

— سببه نقص الخلق التجارى أو الزراعى العملى الواقعى الذى يسترشد بالحياة لا بالكتب وحدها ، ويدعو إلى ضبط النفس لا الجرى وراء الشهوات ، وإلى معرفة الرجل دخله وخرجه ، وما يسمح له دخله بانفاقه ، وما لا يسمح .

* * *

واستحر الحديث ، وحميت الرءوس ، وتحفز الكثيرون للكلام فى الموضوع وتأييده والرد عليه ، وما نشعر إلا والنور قد انطفأ ، وأتى من يخبرنا أن الأسلاك تماست ولا أمل فى إصلاحها الآن . وكثيراً ما حدث مثل هـذا ، فمشكلة النور فى « اللجنة » مشكلة مزمنة ، وكل يوم تفسد الأسلاك وتصلح ، وحتى هى الأخرى محتاجة إلى خبير أجنبى يصلحها صلاحاً لا فساد معه .

فالى اللقاء !

# عذاب المصلحين

قرأتُ قوله تعالى : « أوَ كلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » .

وقرأتُ حديث ورقة بن نوفل مع رسول الله ، إذ حدثه الرسول بما نزل عليه من وحى ، فقال له ورقة : « ليتنى حيا إذ يخرجك قومك » . قال رسول الله : « أوَمُخرِجِيَّ هم ؟» . قال : « نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى » .

وقرأتُ كثيراً من سِيَر المصلحين المجددين ، فرأيت أكثرهم — فى اضطهاد الناس لهم — سواء ، ورأيت تاريخهم يكاد يتشابه . دعوة حارة إلى الإصلاح ، يتبعها تألب العامة عليهم ، واضطهاد الرأى العام لهم ، والتنكيل بالمصلح ، ثم انتصار الأفكار الجديدة التى أتى بها هذا المصلح ، بعد أن يكون قد انهدت قواه ، او انتقل إلى رحمة الله .

لماذا كل هذا ؟ ولماذا يتشابه التاريخ حتى كأنه قانون طبيعى ؟ ولماذا يتكرر هذا المنظر فى الشرق والغرب وكل مكان حل به الإنسان ؟

السبب فى هذا أن الفكرة الجديدة تأتى وقد التأمت أفكار الناس على نمط خاص ، وتجمعت وشد بعضها بعضاً وتماسكت حلقاتها .

تأتى الفكرة الجديدة غريبة عن هذه الأفكار المألوفة فلا تجد لها مكاناً بينها، ولا تجد نفسها منسجمة مع الأفكار الموجودة ، ويشعر الناس أن هذه الفكرة نابية عن أفكارهم ، غير منسجمة مع النظام العقلى الذى استقر فى أذهانهم ، فيكرهونها ، ويقفون فى سبيلها ، وكلما كانت الفكرة الجديدة أبعد عن المألوف كانوا لها أكثر كراهية ومقتاً ، وأشد تحمساً لمناهضتها وطردها أو القضاء عليها .

إن أفكار كل إنسان تبنى بنياناً بطيئاً مما رآه وسمعه وقرأه وصادفه فى حياته ، وهى مع تكونها فى أزمان مختلفة تكوّن وحدة منسجمة ، ولا تقبل أن يزيد عليها إلا ما لاءمها وانسجم معها . فإذا رأت فكرة جديدةً لا تلتئم مع هذا النظام المحبوك ، ولا تستطيع أن تكون حلقة فى الشبكة العقلية المنسوجة طوردت وأقصيت ، ثم إن هذا النسيج من الأفكار يشعر أنه إذا أتت الفكرة الجديدة الغريبة عنه ودخلت فيه أفسدت نظامه وأقلقت راحته ، فهو يصدها ويقف فى سبيلها ولا يسمح لها بالدخول ؛ كطائفة من الدجاج مؤتلفة منسجمة نشأت فى بيت واحد ثم دخلت عليها دجاجة جديدة لم تنشأ فى بيئتها ولم تعتد عاداتها ، فهى تطارد وتبعد عن الحب وتنقر وتعذب .

ثم إن المخ يشعر أنه إن قبل هذه الفكرة اقتضته تعديلا فى نظامه ، وتجديداً فى أوضاعه ، وتغييراً فى نسيجه ، ومجهوداً كبيراً فى إعادة ترتيب القديم والمألوف ، وهذه عملية شاقة لا يرتضيها العقل فى سهولة ويسر ، ولا سيما أنه يشعر أن الفكرة الجديدة ستكلفه إعادة تقويم الأشياء ووزنها وزناً جديداً ، وهو قد استنام إلى ما حدث وألف ما كان .

ومخ الإنسان — وهو مركز عقله — أحدث الأعضاء وجوداً فى الإنسان ، ومادته التى يتكون منها رخوة هينة لينة ، لم تتصلب تصلب الأعضاء القديمة فى أسلافنا من الحيوان كاليد والرجل ونحوهما ، ومن أجل هذا كان المخ أشد الأعضاء حساسية بالتعب وكراهية لمداومة العمل ؛ وليس من الناس إلا القليل القادر على إعمال العقل وتحريك المخ زمناً طويلا ؛ والفكرة الجديدة تكلف المخ عناء شديداً فى قبولها ، لما يترتب عليها من أعمال كثيرة ؛ ولذلك هو يرفض كل هذا العناء فيرفض الفكرة ويستريح ؛ ولذلك كان أكثر الناس يخافون التفكير لأنه مؤلم لهم ، فما يبدأ فيه حتى يشعر بانقباض فى صدره ، وصداع فى رأسه ، وما أقل من يجد فى التفكير لذته .

من أجل هـذا كان دعاة التجديد والإصلاح فى كل أمة وفى كل عصر نادرين جدا ، وندرتهم لم تأت من ندرة الذكاء ، وإنما أتت — فى الأغلب — من ندرة احتمال العقل الصبر على البحث وراء الحق ، وندرة الشجاعة فى اعتقاد الحق والجهر به ؛ فالناس — إلا فى القليـل النادر — يألفون الحياة كما هى لا كما ينبغى أن تكون ، وهم بين من لا يجد زمناً إلا لتحصيل قوته ، ومن يجد الفراغ ولـكن لا يستطيع عقله الصـبر على البحث الحر ، أو يجد كل ذلك ويستطيعه ، ولـكن لا يستطيع الجهر به لما يتوقع من متاعب وآلام : من مساس بسمعته ، وقدح فى ذمته ، وتهكم على عقله ، وتجريح لخلقه ، ونيل من دينه .

والتاريخ يجرى على نمط واحد منذ تكونت الجمعية البشرية إلى اليوم ، يلمع فيها أفراد قلائل فى كل عصر ، يخرجون على إلف الناس وما اعتادوه فى أفكارهم وعقائدهم وعواطفهم ؛ فيتألب عليهم جمهور الناس ، لـكسلهم العقلى ، ولأن الدعوة الجديدة تقلق راحتهم وتدعوهم إلى قلب نظامهم العقلى والعاطفى ، كالذى يدعو كسلان أن يغير نظام بيته أو نظام معيشته ؛ وبدلا من أن يوجه غضبه إلى نفسه لـكسلها أو جمودها ، يحول غضبه على من سبب له هذا القلق ؛ ثم لا يقتصر على محاربته بالأساليب الشريفة ، بل يحاربه بكل سلاح ، ولا يتورع عن أن يختلق عليه ويتهمه بما يستطيع من تهم ، ويرى أن كل وسيلة تفضى إلى قتل هذه الفكرة الجديدة جائزة ومشروعة ؛ فإذا وصل إلى هذا الغرض بإعدام الفكرة أو إعدام قائلها ، اطمأن واستراح ، لأنها تتفق مع طبيعته فى الـكسل ، واستنامته إلى ما ألف .

وقد اعتدنا أن نجد مسألتين تتصلان بهذه الظاهرة التاريخية :

(الأولى) أن أكثر من يناصر الفكرة الجديدة يكونون عادة من الشباب ،

أو من ينتفع بها من الطبقات والأفراد ؛ وتعليل ذلك واضح ، فالشباب لم تتجمد بعدُ شبكة أفكارهم ، ولا يزال فيها مرونة تصلح لأن تتقبل شيئاً جديداً ، كما تصلح للتشكيل الجديد ، ولأن عواطفهم الحارة ترحب بالشىء الجديد الذى يتطلب منهم عملا وقوة ونزالا . وأما من ينتفعون بالفكرة فأمرهم واضح ، فقد ارتبطت الفكرة بمصالحهم ، فهم يؤيدونها لما وراءها من مغنم .

(والثانية) أننا نرى — فى الغالب — تأييد السلطات للفكرة القديمة ومناهضتهم للفكرة الجديدة ، سواء كانت الفكرة الجديدة تمسهم مباشرة أو لا تمسهم ؛ وسبب ذلك أن السلطات فى الغالب تتطلب السلامة أكثر مما تتطلب التقدم ، والرأى العام والسواد الأعظم من الناس يناصر الأفكار القديمة لما أسلفنا . فالسلطات يهمها — محافظة على السلامة والطمأنينة والهدوء — أن تغضب على من يغضب الرأى العام ويقلق راحته ، لأن فى راحة الجمهور راحة السلطات ، ولأن السلطات كالأفراد أحب شىء إليها راحتها من التفكير ومن وجع الدماغ ، والفكرة الجديدة تحمل فى ثناياها حرباً وحركة واضطراباً وانقساماً إلى معسكرات ، وذلك يتطلب مجهوداً من السلطات كانت فى غنى عنه ، فهى أيضاً تغضب على من سبب لها هذا القلق والاضطراب ودعاها إلى التفكير ورسم الخطط .

لهذا كانت عظمة المصلحين فى تحملهم هذه الصعاب كلها أكثر من عظمتهم فى العثور على الحق ، لأن عثورهم على الحق تم فى هدوء بينهم وبين أنفسهم ؛ أما تحقيق هذا الحق فلا يتم إلا بكل هذه المصاعب التى ألممنا بها .

ومع هذا فإنا نرى أن الأفكار الجديدة الصالحة تبقى على الرغم مما لاقت من صعاب ، وعلى الرغم من موت دعاتها ، بل إن موت دعاتها يخفف من غضب المعاندين للفكرة ، لأن السواد الأعظم من الناس لا يستطيع الغضب على المعانى ما لم تجسم فى شخص ؛ فإذا مات هذا الشخص الحسى فترت قوة المعارضة

للمعانى. ويأتى جيل الشباب الذى اعتنق الفكرة الجديدة ، فيكتسح الجيل القديم المعارض ، ويتبوأ مراكزه فى الحكم وفى العمل ، فتسود أفكاره ؛ حتى تبلى أفكاره هو أيضاً ، ويمثل الدور من جديد .

هذا هو قانون الطبيعة منذ خلق الإنسان ، يجرى الناس شوطا ، فيلهم القادة فكرة أو أفكاراً يستلزمها الرقى ، فيعارضها أعداء الرقى ، ثم يموت الدعاة والمدعوون ، ويموت النزاع وتسود الفكرة ، ثم يتجدد تمثيل الرواية .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان طبيعيا ، ولكن الناس بجهلهم يخلقون معسكرات غير طبيعية تدعو إلى النزاع غير الطبيعى ، فيفتحون مدارس تعلم على أنماط مختلفة ، فتخلق عقليات مختلفة ، ويعددون النظم التى تخلق مطامع مختلفة ، ويشرعون نظما اقتصادية تكوّن طبقات متعادية ، إلى أمثال ذلك ، فيكثر العداء بين الأفكار ويضيع جهد المصلحين فى التقريب بين العقليات ، مع أن عوامل التبعيد الأساسية لا تزال تعمل عملها .

والأمة العاقلة التى يدرك قادتها هذه الحقائق تقضى على عوامل هذه الاختلافات ، ولا يبقى لديها حرب فى الآراء إلا ما تقضى به الطبيعة مما يتفق وتقدم الزمان .

# رحـــلة . . . !

— إلى أين — يا قائد الرحلات — رحلتك هذا العيد ؟

— إلى الطور .

— فليكن .

« وشددنا رحالنا » ، ولـكن هذا تعبير لا يعجبنى ، فقد كان تعبيراً صحيحاً أيام الجمال والرحال ، أما الآن فلم نركب جمالا ولم نشد رحالا ، وإنما أعددنا السيارات ، واختبرنا الآلات ، وزودناها بما يكفى من ماء وبنزين ؛ فلنعبر عن ذلك كله تعبيراً واقعيا لا تقليديا . وسرنا على بركة الله نضرب فى الصحراء ، ونقطع فى عشر ساعات ما كانت تقطعه الإبل فى عشرة أيام . ولـكن ما أعجب العرب ! كانوا يركبون الإبل فبلغوا الغاية فى التعبير عنها ، وعرفوا أجزاءها ، وسموا أعضاءها ، ووصفوا كل شىء فيها ، وأنشأوا حولها أدباً استوفوا فيه كل معنى رائع وقول جميل ، حتى لم يتركوا من بعدهم فيها قولا لقائل ؛ وأتينا بعدهم فلم نستطع — مع حضارتنا وتقدمنا وزعمنا إرث العرب — أن نضع أسماء عربية لأجزاء السيارة ، ولا أن ننشئ حولها أدباً ، لا رائعاً ولا غير رائع ؛ واكتفى خبراؤنا أن ينقلوا أسماءها الأفرنجية ، كما نقلوا مسماها الأفرنجى ، وأخذنا نصوغ عبارات الإبل للدلالة على سير السيارات ، وهكذا نحن عالة على الأوربيين فى المسمى ، وعالة على قدامى العرب فى التعبير عنها ؛ فمتى نشعر بالاستقلال ؟ .

ما لنا ولهذا ؟ فقد قطعنا الطريق البديع يجمع بين السهول الفسيحة ، والوديان تـكتنفها الجبال الجليلة ذات الألوان البديعة ، نقرب من البحر فنؤخذ بزرقته وتموجه وحركته ، ونبعد عنه فنؤخذ بألوان الأرض المختلفة وجمال وشيها

وسكونها ؛ وينظر جميعنا إلى ذلك كله نظرات متفاوتة حسب تفاوتنا فى ثقافتنا ؛ هذا عالم جيولوجى يقرأ فى كل لون دلالة على نوع من المعدن ، وفى كل طبقة دلالة على الأعمار ، وهذا أديب لا يعنيه من كل ذلك إلا جمال المنظر وجلاله ، وروعته وبهاؤه ، وموسيقاه ونغماته ؛ وهذا اقتصادى يقرأ فى كل صفحة تطالعه منجما مجهولا وثروة ضائعة ، يعلم ويندم ، ويدرك ويتحسر ، وكلنا يلقى خطرات من فيض علمه أو فيض أدبه ، وكلنا يأنس بالطبيعة ويستوحيها ويستوعبها ؛ ومن حين إلى حين ندع الطبيعة وحقائقها وجمالها ، ونستمع إلى حديث يسرنا بأفانينه ، ويؤلمنا باعادتنا إلى ما هربنا منه .

وكان جميلا منظر الغروب فى الصحراء والماء ، وحَنَت علينا الشمس فأخذت تلعب أمامنا ألعاباً مدهشة ! وآخر ما فعلت أن رسمت لنا فى السماء لوحة عجيبة فى ألوانها ورسومها وتخطيطها ، فلم تدع لونا إلا عرضته فى دقة وإحكام ، وجمال وانسجام ، ورسمت لنا أشكالا فوق الهندسية ، تسحر النفس ، وتأخذ بالألباب ؛ ثم أشفقت علينا أن نجن بابداعها فأسرعت فى الاحتجاب ، وأرسلت إلينا ابنها البار القمر ، فلم يلعب بالألوان لعبها ، ولم يتفنن فى الأشكال أفانينها ، ولكن لونه الفضى الواحد جميل فى الماء ، جميل فى الصحراء ، وادع فى غير عنف ، هادئ هدوء الليل ، ملهم إلهام الحب .

***

هذه هى « الطور » ، أرخى عليها الليل سدوله ، وكساها من غموضه فلا ترى إلا أشباحاً : شبح أحجار ، وشبح أبنية ، وشبح شجر ، فلندعها فى غموضها وسدولها حتى تأتى إلينا الشمس القوية ثانية فتمزق حجبها ، وتكشف أستارها ، ولننم الآن نحلم بجمال ما رأينا ، ونذوق ما ادخرنا .

وأصبحنا فارتدنا البلد ، أبنية حديثة جميلة نظيفة متفرقة ، بنيت كلها على

أساس فكرة «المحجر الصحى» حيث يعود الحجاج يقيمون فيه أياماً للتحقق من صحتهم ؛ فهذه حجر الحجاج ، وهذه بيوت الأطباء ، وهذه المباخر للتعقيم ، وهذه أبنيه الموظفين لخدمة هذه الفكرة . ودعانا الشوق إلى ارتياد مكان نزلنا فيه حين عدنا من الحج منذ ثلاث سنين ، فاستعدنا ذكريات الحج ومن صحبنا وما لقينا ، وكيف كنا فى سجن لطيف لا نقدر على ما نقدر عليه اليوم من الطواف فى البلد ورؤيته .

وعلى مدى الطرف رأينا مكاناً يعج بالناس ، عليه حراس أقوياء ، شاكو السلاح .

ما هذا أيها الدليل ؟

— إنه مجمع المجرمين الخطرين ، خيف منهم أثناء الحرب ، فتُحُرى عنهم فى أنحاء القطر بشهادة العمد والمشايخ وأمثالهم ، وجُمّعوا جوعاً وأرسلوا إلى هذا المحجر تباعاً ، ألف وراء ألف يقدمهم ألف حتى زادوا على الثلاثة الآلاف ، وهم متخصصون فى نواح من الإجرام مختلفة : منهم المتخصص فى القتل ، ومنهم فى تسميم المواشى ، ومنهم فى المكيفات ، ومنهم فى السرقة ، إلى ما شئت من أنواع الإجرام ، قد بلغ من مهارتهم أنهم يجرمون ويختفون ولا تثبت عليهم التهمة فيعاقبون ، فلم يكونوا فى السجون ، أو حكم عليهم بمدد انتهوا منها ، ويُخشى أن يعودوا إلى ما ارتكبوا ، وليست الحكومة فارغة لهم حتى تفكر فى شؤونهم مع تحملها أعباء الحرب بل خشية الحرب ، فحشدتهم إلى الطور حتى تأمن شرهم وتوفر على الناس ويلهم .

— ولكن لماذا اختاروا لهم هذه البقعة ؟

— اختاروها لبعدها وانقطاعها ، حتى تسهل مراقبتهم ، ويصعب فرارهم ؛ ولعلهم اختاروها لأنهم سيكونون على بعد أمتار من الحجاج ، فيكون فى البقعة

أطهر قوم وأخبث قوم ، فلعل بركة الحجاج تنضح على خبث المجرمين فتزيل إجرامهم وتمحو الشر من نفوسهم ، كما يذهب الماء الطهور بالخبث .

وأحسست بما يجذبني نحوهم ، فقربت من سورهم بقدر ما يسمح النظام بالقرب منهم ، ومشى أمامى « تابور » منهم عند عودتهم من عمل كلفوه ، فتفرست فى وجوههم وقرأت فى سحنهم ، ورثيت لحالهم ، ووددت لو سمحت الظروف بأن أعاشرهم ، وأدرس نفسيتهم ، وأقف على خواطرهم ، وكيف يأكلون ويشربون ، وكيف يتحدثون — إذاً لكان كل هذا مادة خصبة للأديب والنفسى والاجتماعى ، يشرفون منها على مجال فسيح فى الأدب والنفس والاجتماع .

ورأيت بعض شبابيكهم عريت منها أخشابها ، فسألت عن سبب ذلك ، فعلمت أنهم أحياناً يعوزهم الدفء فيقلعون أخشاب الشبابيك يستدفئون بنارها ، وأحياناً يعوزهم التدخين على نمط خاص فيأخذون عوامات السيفونات يتخذون منها « جوزة » للتدخين إلى كثير من أمثال ذلك . ولولا أصحابى لوقفت بجانبهم طويلا أعيش فى لذة الدرس لأحوالهم ومعيشتهم وبؤسهم والبؤس منهم .

أيتها النفس ، لقد جئنا للرياضة وخلفنا الدرس فى القاهرة فارأفى بنفسك وتروضى ولا تدرسى .

وهذا دير كبير من سلسلة أديار فى الصحراء ، يدل حسن موقعها على دقة ذوق منشئيها ، فقد عرفوا خير الأمكنة ينعمون فيها بالهدوء ، ويقربون فيها من الله ، أرهف حسهم فلم يحتملوا أباطيل الدنيا ، وفشلوا فى الدنيا فأدركوا أنهم خلقوا للآخرة ، وخافوا أن تغويهم زخارف الحياة ، فهربوا إلى حيث تنقطع عنهم أسباب الغواية ، وقاسوا أبعاد الدنيا وأبعاد الآخرة ، ووزنوا لذائذ الدنيا ولذائذ الآخرة ، وحاولوا أن يجمعوا بين الأبعاد المختلفة واللذائذ المختلفة ، فرأوا من اختلاف طبائعها ما يحيل الجمع بينها ، ففضلوا ما يطول على ما يقصر ، وما يبقى

على ما يفنى ، وصدمتهم الدنيا صدمة عنيفة ففروا منها حتى لا تتكرر ؛ ولفظوا الحياة أو لفظتهم الحياة فعاشوا على هامشها ؛ وثاروا على الطبيعة الإنسانية فهربوا من العمار إلى الخراب ، ولكن سرعان ما خضعوا للطبيعة ، فأخذوا يعمرون الخراب وينشئون من الصحراء جناناً تزهر بالنخيل والأعناب .

ومشينا ومشينا ، ووصلنا إلى عين ماء بنى عليها حوض يخرج الماء من جانب عذباً دافئاً ، ويخرج من جانب آخر فيسيل فى الوادى ، فتنبت منه الأعشاب والأشجار والنخيل ، وتزيّن الصحراء بجمال الخضرة .

ونتسلق الجبال فنحس بما خلفته الحضارة فى نفوسنا من أثقال وأوباء ، حتى نعيا من السير اليسير وتنقطع أنفاسنا من الصعود القليل ، ونفقد مزايا العيشة البسيطة الطبيعية الملائمة للصحة ، ولكنا نكدّ ونجد حتى نبلغ القمة ، وقد بلغ منا الإعياء مبلغه ، وإذا بمنظر رائع تنسينا لذته ما نالنا من الضنى ؛ ننظر يمنة فهذا واد فسيح ، وصحراء جرداء نثرت فيها أشجار تكافح للحياة ، وننظر يسرة فهذا بحر يعج بالموج وبالحياة ، وأمامك جبال متسلسلة تبعث فيك الروعة والجلال ، وتتناغم كل هذه المناظر فتؤلف موسيقى يعجز عن وصفها البيان .

ونعود إلى مأوانا فنسمر سمراً لذيذاً فيه الفكاهة الحلوة ، والقصص الممتع ، والحديث يجرى عذباً فى غير كلفة ولا تصنع ولا منطق ، ويملأ وقتنا شاعر يطربنا من إنشائه ومن إنشاده ، وتضيق بنا الحجرة فنخرج إلى الجو الطلق والسماء الصافية ، والبحر يلاعبه القمر .

ثم إذا خلوت إلى نفسى لا يبرح خيالى حال المعتقلين من المجرمين ؛ أمن الحق أن يحشر المجرمون المتنوعون فى مكان واحد ، فيكون كل مجرم أستاذاً فى نوع إجرامه يلقنه تلاميذه ، فاذا هم جميعاً مجرمون فى كل أنواع الإجرام ؟ أمن الحق أن نضعهم فى هذا المحجر الصحى الذى صرف فى أبنيته نحو مليون من

الجنيهات ، فنعيده إلى مكان غير صحى بفضل ما تسببه معيشة هؤلاء المعتقلين من الأوبئة والأمراض ؟ أمن الحق أن نقيد هؤلاء فى حريتهم ثم نضيق عليهم فى معيشتهم من حيث الأكل والدفء ووسائل الحياة ، فيفشو فيهم المرض وتكثر الوفيات ؟ قد يصح أن نذهب إلى هذا ونقول إنهم مجرمون خطرون ؛ فليتهم يموتون فتستريح الأمة منهم ، ويستريحوا هم من أنفسهم ، ولكنهم لم يحاكموا ، ولم يحكم عليهم بالإعدام . فالى أن يصلح القانون إن كان فيه نقص يجب أن يتمتعوا ولو بأقل ما يتمتع به الإنسان من ضرورة الحياة .

ولكنى أعود فأكرر على مسامعى أنى أتيت للرياضة ولم آت للدرس ، فويح نفسى من نفسى ، ولا سبيل للرياضة الحقة إلا إذا خلعت نفسى إن عزمت على الرياضة ، وحبذا هذا لو كان فى الإمكان .

***

وقضينا فى الطور ثلاثة أيام كثلاثة الحَجْر الصحى ، ننعم فيها بالعيشة البسيطة ، ونهرب من تكاليف الحياة ، ونمعن مرة فى الصحراء ، ونمشى مرة على هامش البحر ، ونرقى جبلا ونهبط واديا ، حتى مرت كأنها حلم لذيذ .

واعتزمنا العودة فأخذنا على أنفسنا أن ننعم بمنظر لم نره فى المجىء .

قمنا قبل الفجر والطبيعة كلها نائمة والقمر قد أضناه السير فعلا وجهه الشحوب ، وأدى رسالته فاعتزم الراحة ، وعلم بقدوم أمه الشمس فأخلى لها الطريق ، وسارت سيارتنا تقلق السكون بأزيزها ، وبدت تباشير الصباح ، ومحت آية النهار آية الليل ، وطلعت الشمس فأضفت على الكون من شعاعها الذهبي الجميل ؛ وعادت مناظر الصحراء والماء تعرض علينا من جديد ، من غير أن تفقد شيئا من روعتها الأولى وجمالها ؛ وكانت فصول الرواية طويلة غير مملولة ؛ وصحبنا الشمس فى كل حالاتها ، واستقبلنا القمر فى طلعته كما ودعناه فى غيبته ،

وتزودنا من محاسن الطبيعة ما تزودنا ، وقربنا من خالقها ما استطعنا .

ثم ها هى أضواء القاهرة وضوضاؤها تردنا إلى حياتها المعقدة وتكاليفها الشاقة ؛ وها هم باعة الجرائد يتصايحون يذكروننا بما نسينا من شؤون الحرب وويلاتها ؛ وها هى أماكننا المحدودة وأبنيتنا المتلاصقة تحجبنا عن الطبيعة وجمالها ؛ وهاهى حياتنا الأولى تعود سيرتها وتتكرر نغمتها ، حتى تسنح لنا الفرصة فنفر منها فى رحلة أخرى إن شاء الله .

# صورة قضائية تاريخية

حادثة ارتجت لها مصر أشهراً ، وتأثر بها القضاء أثراً بالغاً ، واضطرب لها الرأى العام اضطراباً هائلا ، وارتبكت فيها السلطات الثلاث ارتباكا بيناً ، ودلت وقائعها على الفرق البعيد بين حياة الناس فى ذلك الزمان وحياتهم الآن .

أما مكانها فالقاهرة ، وأما زمانها فليلة السبت ثانى عشر شوال سنة ٩١٩ هجرية ؛ والعهد عهد السلطان قانصوه الغورى ، وأما بطلتها فامرأة جميلة لعوب متزوجة بنائب قاض اسمه غرس الدين ، وقد عشقها نائب آخر اسمه نور الدين ؛ وتوثقت الصلة بينهما ، وتحدث بذلك الجيران وجيران الجيران ، و بلغ مسامعهم كلهم ما كان يجرى إلا الزوج الكريم .

فيوم السبت هذا دُعى غرس الدين ليقضى ليلة عند صديق له فى حى الإمام الليث ، فانتهزت زوجته الفرصة وراسلت صديقها نور الدين ليبيت عندها هذه الليلة ، فقد خلا الجو لهما ، فأجاب الدعوة ، وأرسل ما لذ وطاب ، وذهب فى أثره ممنياً نفسه بليلة سعيدة حتى الصباح . ولكن مصيبة المحبين دائماً فى العذال ؛ فهذا عذول اسمه شمس الدين ، كان أحد النواب أيضاً وكان يسكن بجوار غرس الدين ، وقد حنق على الزوجة أن هويها ولم تهوه ، وهام بها ولم تلتفت إليه .

فعلم بما كان هذه الليلة ، وعلم بحضور العشيق فى البيت ، فركب من فوره إلى الإمام الليث ، وأخبر الزوج بما كان وعادا معاً إلى القاهرة ، وأوصله إلى بيته وانصرف .

وجد الزوج الباب مغلقاً ، والدنيا كلها ساكنة هادئة ، وليس من شىء يدل على قول العذول ؛ وكان للباب مفتاحان ، مفتاح عند الزوجة ومفتاح عند الزوج ؛ فلما وصل الزوج إلى الباب فتحه فى هدوء وسكون ، وتسلل إلى حجرة

النوم ، فوجد الكَلّة مرخاة ، فتقدم ورفعها فى رفق ، فرأى الجريمة — ووقف الثلاثة موقفاً دونه الموت رهبة ، فرهبة الموت رهبة جلال ، ورهبة هذا الموقف رهبة خزى وعار .

فأما العشيق فبكى واستعطف وهوى على رجل الزوج يقبلها ، ويقول : اغفر لى ذنبى أكتب لك صكاً الآن بألف دينار ولا تفضحنى ؛ وأما الزوجة فتلطم وجهها وصدرها ؛ وتقول أنا المذنبة ، خذ جميع مافى البيت من أمتعة واستر علىّ فالستر مطلوب ؛ والزوج يسب ويلعن ويثور ويهدر ويأبى إلا أن يبلغ الأمر إلى الحكومة ، ثم تقدم فى حزم وأغلق عليهما باب الغرفة وباب البيت ، وخرج إلى « حاجب الباب » وهو إذ ذاك يقوم مقام « الحاكمدار » وقص عليه القصة .

أما العشيقان فكانا كالفأر فى المصيدة يدور ويدور ولا يجد مخرجا ؛ فالباب محكم ؛ حاولا فتحه فلم يستطيعا ، والشباك مرتفع ، إن سقطا منه دك عنقاهما ، والانتحار لم يدر بخاطرهما إذ لم يكن بِدْع ذلك العصر ؛ فاستسلما للقضاء ، وظل الرجل يحوقل ويلعن النفس الأمارة بالسوء ؛ ثم انقلب يعنفها على ما جنت ، فهى التى راسلته وهى التى دعته لقضاء هذه الليلة المشئومة ؛ وهى تذكر الفضيحة والعار ، وتضرب نفسها ، وتبكى وتنتحب ؛ وتود لو أن الأرض انشقت وبلعتها .

وفيما هما كذلك فتح الباب ودخل الحجاب ؛ وقادوهما إلى حاجب الحجاب ، فسألهما وداورهما ، فاعترفا بكل ما كان ، وأحضر حاجب الحجاب — طبقاً للإجراءات المتبعة — أحد النواب ، وكان هو العذول رسول الشر ، ليحدث الإقرار أمامه ، وكتب المحضر ووقع عليه الجميع ، وحبسا إلى الصباح .

حتى إذا طلع النهار عُرِّى الجانى من ثيابه أمام حاجب الحجاب ، وتوالى

عليه الضرب حتى كاد يهلك ثم حملت المرأة على أكتاف « المشاعلية »(١) وضربت كذلك . ثم أصدر حاجب الحجاب أمره بأن يشهرا فى القاهرة .

ألبس نور الدين عمامته وأركب حمارا ، وجعل وجهه لذيل الحمار ؛ وأركبت المرأة حماراً آخر على هذا الوضع ، وطافوا بهما فى الصليبة والقاهرة وقنطرة السباع ، والناس والأطفال يجرون وراءهما ، ويتصايحون بهما ، ويتنادرون عليهما ؛ وتحدث بهما كل السكان ، وانتقل الخبر من القاهرة إلى كل مكان ، فكان يوماً قليل النظير ؛ ثم رجعوا بهما إلى بيت حاجب الحجاب ، حيث انتهى بهما هذا الطواف الشنيع.

لم يكتف بذلك حاجب الحجاب ، فطلب من الزوجة مائة دينار نظير أتعاب ، ولست أدرى لم قررها على المرأة دون الرجل ، فسر ذلك عنده !

امتنعت المرأة من الدفع وقالت : أعار وخراب ديار ! ؟ إن زوجى وضع يده على جميع مالى ، فأصبحت لا أملك من الدنيا شيئا .

قال حاجب الحجاب : إذاً فليدفعها زوجها .

وقال الزوج : وكيف أدفع وقد خسرت الزوجة ، وخسرت الشرف ، فهل كذلك أخسر المال ؟

فلما توقف عن الدفع حجزوا عليه .

كان لهذا الزوج ابن يتصل بالمقرئين المقربين من السلطان الغورى ، فتمكن بهم من الوصول إلى السلطان فوقف بين يديه وقص عليه القصة من أولها إلى آخر الحجز على أبيه .

طلب السلطان محضر القضية ، واستحضر النائب شمس الدين — الذى ثبت أمامه الإقرار — والقضاة الأربعة ، وانتهز شمس الدين الفرصة وزاد النار اشتعالا ، وحبب إلى السلطان أن يعيد إلى الشريعة الإسلامية سيرتها الأولى ، فيعلى شأن

(١) المشاعلية هى الطائفة التى تتولى الشنق والتعذيب .

الإسلام ويعمل بسيرة سيد المرسلين ، فيرجم الزانى والزانية ، وقال إن فى هذا مجد الإسلام ، وتخليد ذكر السلطان .

قال له السلطان : فافعل ذلك ، قال : لا أستطيع حتى يأمر بذلك قاضى الشافعية ، فقال القاضى : قد أمرت ، وانفض المجلس على هذا — أمر من القاضى الشافعى بالرجم وموافقة السلطان ، ولم يبق إلا حفر الحفرة وإحضارهما ليرجما .

ولكن صادف ذلك موسم الحج والاحتفال بالمحمل وخروج الحجاج ، فشغل السلطان ورجال الدولة بذلك ، وأجل تنفيذ الرجم .

* * *

حدث فى هذه الأيام أمر لم يكن فى الحسبان ، إذ ظهر فى الميدان نائب شافعى اسمه «الزنكلونى» كان ماهراً ماكراً ، وكان له ضلع مع المتهم ؛ أوعز إليه أن ينكر جريمة الزنا فأنكر — ثم كتب فتوى ودار بها على كثير من العلماء وهى : « ما قولكم دام فضلكم فى رجل أقر بالزنا ثم رجع عن إقراره هل يسقط عنه الحد أم لا ؟ » فأجابوا عنها بالحكم الفقهى ، وهو أنه إذا رجع عن الإقرار يسقط الحد — ومن مهارته أنه مر بها على أكبر عدد ممكن من العلماء ، فوقعوا عليها هذا التوقيع .

بلغ ذلك السلطان فجن جنونه واشتد غضبه ، وقال هذا غير معقول ، هذا عجيب ! رجل يدخل بيت رجل وينام مع زوجته ويقبض عليه تحت اللحاف معها ويعترف بالزنا ويكتب خطه بيده بما وقع منه ، ثم يقولون بعد ذلك له الرجوع ، وإذا رجع فلا حد عليه ؟ هذا مالا يكون .

وكانت أزمة شديدة جدا بين السلطان والقضاة ، كلاهما يرى أن وجهة نظره بديهية صحيحة لا تحتمل الجدل .

أما السلطان فيحتكم إلى الفطرة وإلى المنطق الساذج وإلى البديهة الطبيعية ،

رجل دلت كل الدلائل على جريمته ، فهو فى بيت غير بيته ، نائم مع امرأة غير زوجته ، يضبطهما الزوج ، ويعترف المجرم بالجريمة أمام هيئة رسمية ؛ فماذا يطلب من الدلائل بعد ذلك ؟ وكيف يسمع ممن يدحض هذه الأدلة ؟ إن هذا منتهى ما يصل إليه الإثبات ، فإذا شككنا فى مثله فما الذى يصح بعدُ أن يكون سنداً للحكم ؛ ووراء ذلك كانت تدور فى نفسه فكرة أنه بتنفيذ الرجم فى هذه القضية سيكون بطل الإسلام ، ومحقق العدالة التى كانت فى عهد الرسول ، وهؤلاء العلماء يريدون أن يفوّتوا عليه هذا الموقف والفخر .

وأما العلماء فكانوا يستندون إلى نصوص الفقه وأقوال الأئمة ، قد رجعوا إلى كتب الفقة وأطالوا النظر فيها حتى بليت منها صفحات هذا الموضوع من كثرة البحث والتنقيب . هؤلاء جمهور الأئمة — إلا ابن ليلى وعثمان البتى — يرون أن من رجع بعد الإقرار فى الزنا قُبلَ رجوعه ولم يُحَد ، وحد الرجم حد شنيع جدا درأه الإسلام بأى شبهة ؛ فهذا «ماعز» الذى أمر رسول الله برجمه لم يأمر برجمه إلا بعد أن غمره بالأسئلة لعله يرجع ، وحتى روى بعضهم أنه قرره على ذلك أربع مرات ، وحتى رووا أنه لما رجم ومسته الحجارة هرب فاتبعوه فقال لهم : ردونى إلى رسول الله ، فقتلوه رجماً وذكروا ذلك للنبى (ص) فقال لهم : «هلا تركتموه» ولأن الله يحب الستر على عباده ، فلا يلجأ إلى الرجم إلا عند الضرورة القصوى بانعدام أى شبهة وباصرار المجرم — فكيف يجرؤ القضاة بعد ذلك أن يخالفوا هذه النصوص ؟

تعقدت المسألة وتمسك كل بوجهة نظره . فما الحل ؟

خطر للسلطان أن يجمع مؤتمراً يشهده كل القضاة وكل مشهورى العلماء ، ثم يسمع منهم ويسمعون منه لعلهم يصلون إلى حل . وأرسلت الدعوة وحدد لذلك يوم الخميس الرابع والعشرون من شوال بالقلعة وانعقد المجلس : هذا هو السلطان

يتصدر المجلس ، وهؤلاء القضاة الأربعة عن يمينه ، وهؤلاء كبار العلماء عن يساره يرأسهم شيخ الإسلام زكريا ، وكان مجلساً رهيباً حقا ، خطيراً حقا .

أغضى السلطان النظر عن القضاة والتفت إلى شيخ الإسلام زكريا وقال : كيف يحدث ما حدث ، ويضبط الرجل مع زوجة آخر ويقر ، ثم تقولون له الرجوع ؟

رد أحد الحاضرين : هذا هو الشرع ، وأخرج كتاباً من كمه وأراه النص .

فقال السلطان : إنى لا ألتفت إلى النقول فى ذلك . ألستُ ولى الأمر . أو ليس لى الحق فى الحكم ؟ أو ليس لى أن أصدر أمرى كما يتبين لى ؟

أحد العلماء : نعم ، ولكن بشرط أن يكون على مقتضى الشرع ، فإذا أنت قتلتهما مخالفاً النص تلزمك ديتهما .

فغضب السلطان أشد الغضب من هذا الجواب ، وكاد يبطش به ، ثم التفت إلى الشيخ زكريا وقال : ما تقول أنت فى هذه المسألة ؟

— أقول إن الرجوع بعد الاعتراف يسقط الحد .

السلطان — هل هذا ما ترتضيه ذمتك ؟

الشيخ زكريا — هذا ما ارتضته ذمة الإمام الشافعى صاحب المذهب .

السلطان — أنت شيخ قد كبرت وضعف عقلك . أما أنتم أيها القضاة فلا تُرُونى وجوهكم بعد الآن .

وقام وانفض المجلس على أسوإ حال .

وبدأ السلطان ينتقم ؛ فهذا الزنكلونى الذى صنع الفتوى ضرب هو وأولاده بالعصا حتى كادوا يتلفون ، ثم أمر بنفيه إلى الواحات .

وهؤلاء القضاة عزلوا ، وظلت مصر بلا قضاء خمسة أيام مما لم يسبق له نظير ،

ثم عين غيرهم ، وهذان المتهمان — الرجل والمرأة — نصبت لهم المشنقة على باب « حارة أولاد الجيعان » ثم أحضرا وجعل وجه كل إلى وجه الآخر ، وشنقا بحبل واحد .

وظلا يعرضان يومين ، والناس يأتون من كل فج لمشاهدتهما كما يشاهدون المعارض فى هذه الأيام ، وظل حديثهما على كل لسان ، ثم نسج عليهما ثوب النسيان كما هو شأن الزمان .

# التوازن

يظهر أن الأرض التى نعيش عليها لما كانت مدينة فى بقائها للتوازن — فهى سابحة فى الفضاء بقوة التجاذب المتعادل — كان كل شىء فيها إنما ينتظم شأنه وتنسجم أموره بالتوازن أيضاً ، فإذا اختـل توازنه ساءت حاله ، وأدركه الفناء ، ولعل مقياس رقى كل شىء توازنه ، ومقياس انحطاطه عدم توازنه .

سواء فى ذلك الأفراد والأمم ، وسواء فى ذلك الماديات والمعنويات .

هذا الجسم إنما صحته توازنه ، ومرضه عدم توازنه ؛ فليست الصحة إلا أن كل عضو متوازن مع الأعضاء الأخرى فى إنتاجه واستهلاكه ، ومقدار هذا الإنتاج وهـذا الاستهلاك ؛ فإذا ضعفت المعدة ولم تحسن الهضم اختل التوازن ، فأصبحت لا تستهلك كما تستهلك الأعضاء الأخرى ، ولا تفرز كما تفرز الأعضاء الأخرى ، فكان المرض ؛ كما لا يكون الجسم صحيحاً إلا بتوازنه مع غذائه ،فإذا قل الغذاء كانت المخمصة ، وإذا كثر كانت التخمة ، وكلاهما شر نشأ من عدم التوازن ، ولا يزال الجسم بخير ما توازن ، بين طعامه وقدرته على الاستهلاك ، وبين طبيعته والبيئة التى حوله ، وبين كل عضو فيه وسائر الأعضاء .

وهذه العـين لا تبصر إلا بالتوازن من حيث المسافة بينها وبين المرئى ، ومن حيث مقدار الضوء الذى يشع على الشىء ، فإذا زادت المسافة أو قصرت ، أو زاد الضوء أو قل ، اختل التوازن فاختل الإبصار ، وكذلك الشأن فى كل حاسة .

والبناء على الأرض إنما يقوم بالتوازن ، وينهدم بعدم التوازن بين المواد التى يتكون منها البناء ، والتوازن بين أجزاء البناء بعضها وبعض من حيث الثقل ونحوه .

إن رقيتَ بعض الشىء ونظرت إلى الحياة المالية — مثلا — وجدت الشأن فيها هو الشأن فى الأجسام ؛ فانتظام مالية الفرد والأسرة إنما هو بالتوازن بين الدخل والخرج ، والتعادل بين الكسب والإنفاق ؛ وإلا فالخلل والاضطراب ؛ فإن زاد الدخل كثيراً عن الإنفاق فثَمّ الشح والتضييق على النفس والأهل والناس ، وانقلاب الرجل إلى خازن ليس له من المال إلا ما للحارس ؛ وإن زاد الإنفاق فهناك متاعب الدّين ، وهمّ الحاجة ، وفوضى المعيشة .

وكذلك الشأن فى مالية الأمة ، إنما تسعد بالتوازن بين دخلها وخرجها ، وإيرادها ومصروفها ؛ وليس هذا فقط ، بل بالتوازن بين وجوه الدخل ، وأيها يجب أن يكون ، وأيها يجب ألا يكون ؛ والتوازن بين وجوه الصرف ، ما الذى ينبغى وما الذى لا ينبغى .

وكلما ترقيت فى شؤون الحياة ، وأمعنت فى المعنويات ، وجدت مبدأ «التوازن» صحيحاً وإن كان إدراكه عسيراً .

هذه النفس الإنسانية مثلها مثل الجسم الإنسانى ، كلاهما ينتظم بالتوازن ، ولكن مناحى النفس أكثر تعدداً وأشد تعقداً ، وإدراك التوازن فيها أدق وأغمض — فالجسم محدود ، والنفس لا حدود لها ، وأعضاء الجسم معدودة ، ومناحى النفس لا عدّ لها ، فحفظ التوازن فيها لا يتم إلا فى القليل النادر وبتوفيق من الله عجيب .

هذه الغرائز الموروثة تختلف وتتباين ، وهذه العواطف المنبعثة منها تتكاثر وتتنوع ، وهذا هو العقل الذى لونته العلوم والمعارف والمدنية ألواناً لا تحصى — كل هـذه فى نفس الإنسان الواحد ،حتى كأنها جبل تنوعت كهوفه ومغاراته ، أو بحر كثرت موجاته وتعددت مخلوقاته ، فكأن بين جنبى الإنسان آلاف النفوس لا نفساً واحدة ؛ ومن أجل هذا كان لكل إنسان آلاف المظاهر

لا مظهر واحد ، فهو فى ساعة صاف كأنه المرآة المصقولة ، وهو فى أخرى مغبرّ كاليوم العاصف ، شجاع جبان ، كريم بخيل ، عادل ظالم ، وهو بين ذلك فى أوضاع لا عداد لها ، وفى ألوان لا يضبطها ضابط ؛ وليست هذه المظاهر المختلفة إلا نتائج لآلاف العوامل عملت فى الخفاء ، وكان لها تاريخ طويل أطول من عمر الإنسان .

وليست تصح النفس إلا إذا توازنت كل هذه القوى ، وقلما تتوازن ، فليست تخلو نفس إنسان من مرض بل أمراض ؛ ومن غريب الإنسان أنه عنى أشد العناية بأمراض جسمه ، وحاول أن يرد له توازنه إذا اختل ؛ ولم يعن مثل هذه العناية بأمراض نفسه واختلال توازنها ، ولعله استصعب الداء فيئس من العلاج.

ما المجرم ؟

فى المجرم كل الغرائز والعواطف والإدراكات التى فى سائر الناس ، ولكن قد اختل توازنها ، فغلبه الطمع وضعف عنده ضبط النفس فكان سارقاً ، أو غلبه حب الانتقام وضعف عنده تقدير إزهاق النفس فكان قاتلاً ، أو غلبته الشهوة وضعفت عنده الإرادة فكان سكيراً أو عربيداً ، وليس يفقد المجرم صفات يتحلى بها الفاضل إلا عدم الاتزان .

ولقد أدرك أرسطو هذا التوازن فى الأخلاق فقال بنظرية الأوساط ، بمعنى أن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، أى فى نقطة التعادل ، فالشجاعة بين الجبن والتهور ، والعفة بين الزهد والتهتك ، والكرم بين البخل والإسراف . والأثر المشهور « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » إنما يطالب بالتعادل بين حب النفس وحب الغير ، والتوازن بين الأثرة والإيثار ، وقديما قالوا :

حب التناهى غلط     خير الأمور الوسط

والتوازن ذو حظ عظيم فى باب الجمال ، وقد سموه « السيمترية » ؛ فإن

نظرت إلى جسم الإنسان — مثلا — رأيت التوازن ملحوظا فيه على أتم وجه ، فالأعضاء الثنائية متناسقة على أبعاد متساوية ، فالعينان والأذنان متوازنان وبينهما العضو المفرد كالأنف والفم والذقن ؛ وإنما يتم جمالها إذا كانت الأبعاد بينها متساوية ، فإذا انحرف الأنف ، أو انحرفت الشفتان ، أو ضاقت عين واتسعت عين اختل التوازن فكان القبح ؛ وهذا هو بعينه ما لوحظ فى هندسة المبانى ، فالباب يقابله باب والشباك شباك ، والباب القصير يقابله باب قصير ، والشباك الكبير يقابله شباك كبير ، وهو بعينه أيضا ما لوحظ فى هندسة الحدائق ، فشجرة فى زاوية يقابلها شجرة مثلها فى زاوية أخرى ، وحوض مستطيل يقابله فى الناحية المقابلة حوض مثله ، وهكذا ، حتى كأن الجمال هو التوازن .

وشاع التوازن فى البلاغة إذ كانت فنا من الفنون الجميلة ، وسموه بأسماء مختلفة ، فالسجع توازن ، والطباق توازن ، والمساواة فى « باب المعانى » توازن ، وأساس البلاغة كلها حسب قولهم « مطابقة المقال لمقتضى الحال » ؛ وهذا ليس إلا توازناً بين معانى القول وصياغته ، وبين حال السامع أو القارئ ؛ وهكذا الشأن فى كل فن من الفنون الجميلة ، لأن الجمال — كما أسلفنا — يعتمد — إلى حد كبير — على التوازن .

فإذا نحن وصلنا إلى المجتمع فمجال القول فى التوازن ذو سعة ، ففى المجتمع قوى كثيرة تتعاون وتتعاند ، ولا يرقى مجتمع ولا يسعد إلا بتوازنها ، وإذا حل الشقاء بمجتمع فذلك لاختلال توازنه ، وإذا قامت فيه الثورات فلاختلال توازنه ، وإذا انحط أو فنى فلاختلال توازنه أيضا .

فأول كل شىء لابد أن يوازن المجتمع بينه وبين بيئته الطبيعية ؛ فمنذ خلق الإنسان وهو فى حرب مع الطبيعة ، كان يحارب الحيوانات المستوحشة ، وكان يحارب شدة الحر وشدة البرد ، وكان يحارب طغيان الماء وصلابة الأرض ، وكان

ضعيفا فقهرته الطبيعة ، ثم رقى فاستخدم عقله لمحاربة الطبيعة ، واستخدم قوانين الطبيعة لمحاربة بعضها بعضا ، حتى توازنت قوته وقوة الطبيعة فسعد . لقد اختلف الفلاسفة فى أن الطبيعة قاسية بخيلة فظيعة ، أو أنها سخية كريمة تمد الإنسان بما يحتاجه . والحق أنها لا هذا ولا ذاك فى حد ذاتها ؛ إنما هى فى كفة ، وقوة الناس واستعدادهم فى كفة ، وسعادة الإنسان فى توازن قواه وقوى عقله وقوى تسخيره مع قوى الطبيعة وأفاعيلها ؛ وكل حياة الإنسان مهاجمة من الطبيعة ودفاع منه ؛ فإذا توازنت قوة الدفاع والهجوم فالخير والسعادة للانسان ، وإلا فالفناء .

كان الإنسان الأول مستعبداً للطبيعة يعيش على هامشها ، ثم انغمس فيها وأدرك قوانينها فتحرر ، كانت الحرارة والبرودة تؤذيه فاستخدمها ، وقوة الماء تهلكه فضبطها ، والكهرباء يجهلها فعرفها واستخدمها . ثم كان أن قسم الطبيعة على نفسها فضرب بعضها ببعض ، وعادل بين قواها ، وتسلح ببعضها ليحارب بعضها الآخر ؛ فلما تم التوازن أو كاد كانت المدنية ، ولا يزال المجال أمامه فسيحاً .

وأخلاق كل أمة وفلسفتها وأساطيرها وعقليتها وأدبها تتعادل مع بيئتها الطبيعية ؛ فكما أن أبا الهول والأهرام لا يمكن أن تكون إلا فى مصر ، وما كان يمكن أن تعيش هذه العصور فى فرنسا أو إنجلترا أو سويسرا ، وإنما تعيش فى طبيعة مصر ، فكذلك أخلاق كل أمة وعاداتها تتعادل مع طبيعتها .

وكذلك الشأن فى قوى المجتمع الانسانى نفسه لا بد فيها من التوازن وإلا ضعف وانحل . انظر مثلا إلى القوة الاقتصادية فى الأمة ، فإذا كان فيها جماعة المنتجين فلا بد أن يوازنهم جماعة المستهلكين ، وإذا كان عرض فلا بد أن يوازنه طلب ، وإلا ساءت الحالة الاقتصادية باختلال التوازن ؛ وكثيراً ما كانت الثورات فى الأمم من سوء الحالة الاقتصادية ، كالإفراط فى الغنى بجانب الإفراط

فى الفقر ، أو كثرة المعروض ولا طلب ، أو كثرة المطلوب ولا عرض ، وهكذا .

ثم يجب التوازن بين الحياة الاقتصادية فى الأمة وطرق التربية ؛ فالتعليم فى كل أمة يجب أن يشكل حسب حالة الأمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ويتوازن معها ، وإلا فالخراب ؛ فإن أنت علّمت للوظائف الحكومية التى لا تتسع لجميع المتعلمين ، واجهت مشكلة المتعلمين العاطلين ، وكلما زدت فى ذلك زاد الخطر وإذا علّمت لغير وظائف الحكومة وجب أن تفتح فى أبواب الحياة الاقتصادية بقدر ما تعلم ، وإلا واجهت نفس المشكلة .

وهكذا فى كل مجتمع قوًى متعددة مشتبكة ، كالآلة الضخمة ذات القطع المتنوعة المعقدة ، لا يمكن أن تسير إلا بتوازن الأجزاء ، هذه قوة الأسرة وقوة الدين وقوة الحكومة بما لها من سلطة تشريعية وتنفيذية وقضائية ، وقوة اللغة والعلم والأدب وغير ذلك من القوى ، لا بد أن تكون كلها فى حالة توازن .

ولما اتسعت القوى وتعددت فى المجتمع كان لا بد لها من ضابط أو ضوابط تعادل بين القوى إذا طغت إحداها على الأخرى ، فقام بهذه المهمة الرأى العام أحياناً ، يثور ويطالب بالإصلاح وينادى بالتعادل ، والقانون أحياناً باستناده إلى العدل ورد الحق إلى ذى الحق ، وتفصيل الحقوق والواجبات حتى يتم التعادل .

وعلى الجملة فالتوازن هو حجر الفلاسفة ، وهو كيمياء السعادة ، يدخل الجسم فيصح ، ويفارقه فيختل ويمرض ويفنى ، ويحل فى الشىء فيكون جميلا ، وفى الكلام فيكون بليغاً ، وبقدر ما يكون منه فى الأمة يكون رقيها وصحتها ، وعلى قدر خلوها منه يكون فشلها وانحطاطها .

صدق الله العظيم « الشمس والقمر بحُسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألاَّ تطغَوْا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

# قصة !

زعموا أن رجلا عرف بصحة الرأى وصدق النظر ، فكان مقصد أمته فى الأزمات ، ورجاءها فى حل المشكلات . يقول الرأى فكأنما ينطق بلسان الغيب ، ويظن الظن فكأنما يرى ويسمع ، ويتنبأ فكأنما يتلو المستقبل من كتاب .

كان أعجوبة الأعاجيب فى أمته ، وأحدوثة قومه فى زمنه ؛ وما لبث أن طارت شهرته فعمت العالم ، وطبقت الآفاق . وشاء القدر أن يرحل عن بلده إلى بلد سحيق ، فسبقته شهرته ، وعرف بمقدمه أهله ، فاحتفوا به ، وأنزلوه منزلاً كريماً ، وأزمع أكابر رجاله أن يستفتوه فى مشاكلهم ، ويستنصحوه فيما صعب من أمورهم .

فأوفدت وزارة الشؤون الاجتماعية وفداً من رجالها يسأله : ماذا تعمل لتقضى على الفقر ، وتمحو الإجرام ، وتضع حدا لكل الشرور ، وتنهض بالفلاح فيرقى عقله ، وترقى معيشته ؟ وكيف تتغلب على مشكلة البطالة ، وكيف تحل مشكلة الزواج والطلاق ، وتبرج النساء ، واستهتار الرجال إلى غير ذلك من مشكلات تدخل فى اختصاصها .

وأوفدت الوزارات كلها تسأله عن حل لمشكلاتها ؛ فوفد وزارة المال يشكون من قلة الدخل وكثرة المطلوب ، وإسراف المصالح الحكومية ، وأن كل وزارة تطلب كأن مال الدولة قد رصد لها وحدها ؛ ويشكون من الموظفين وكثرتهم ومطالبهم وإلحاحهم ، ومن الجمهور ونظره إلى مال الدولة كأنه غنيمة يحل نهبها . والوزارات كلها تشكو من وزارة المالية ، إذ تسيطر عليها ، وتقدر كل المسائل بالأوراق المالية ، ولا تقدر المسائل الأدبية ولا المنافع العلمية ولا الاعتبارات

المعنوية ؛ وأنها تعامل المصالح على أساس تجارى لا على أساس مصلحى . والكل يشكو من سوء ظن بعضه ببعض ، ومن عدم التعاون . ووزارة العدل تشكو من ضياع العدل فى الأمة ؛ فالمحسوبية ، والوساطة ، والوجاه ، كل هذا وأمثاله أضاع معنى العدل ، وأن هناك وسائل تعمل فى الخفاء فتخنق العدالة ؛ فلا يزال هناك نظام الطبقات يفسد العدل ؛ فالفقير لا يصل إلى حقه من الغنى ؛ وإذا اتهم غنىّ بالرشوة فليس كما يتهم الفقير ؛ وإذا ضرب أحد « الذوات » جنديا أو نحوه حفظت القضية ؛ أما إذا ضرب به أحد السوقة فالعدل يجرى مجراه ، وشكت وزارة العدل — أكثر من ذلك — من حال العدل الاجتماعى ، فليس مال الدولة يوزع بالعدل ، ولا مناصب الدولة توزع بالعدل ، ولا معاملة الحكومة للناس توزع بالعدل .

وهكذا لم تبق وزارة من وزارات الدولة إلا رفعت صوتها بالشكوى ، وأسرفت فى وصف سوء الحال ، وطلبت رأيه فى العلاج .

وليت الأمر اقتصر على الوزارات ، فكل طائفة شكت : فلاحون يشكون الفقر والبؤس ، ويشكون الحكومة وملاك الأراضى ، ويسألون السبيل إلى الإنصاف ، وموظفون يشكون الكادر الجديد ؛ وتجار يشكون مزاحمة الأجنبى ، وكل حزب يتهم الأحزاب الأخرى بالتقصير ، والكل يتهمون الحكومة ، والحكومة تشكو الأحزاب وتشكو الأمة ، لأنها تلقى كل أعبائها عليها .

وجاء رجل فقال : لست أمثل وزارة ولا أمثل حزبا ، ولا أمثل نقابة ولا أى جماعة ، ولكنى أشكو من شكوى الناس ، فكلما جلست إلى قوم فى أى مجلس ، فى فرح أو حزن ، فى طبقة المتعلمين أو الجاهلين ، ملأوا مجلسهم بالشكوى من فساد الأخلاق وسوء الأحوال ؛ ثم لم يزد الأمر بعد على أن ينفض المجلس والمتكلم معجب بفصاحته وبلاغته فى حسن الوصف ، والسامعون مسرورون

بقضاء الوقت فى حديث لطيف ، وكلهم يختم الجلسة بغسل يده من الموضوع والاكتفاء بالدعاء إلى الله أن يصلح الحال .

وهكذا تتابعت الوفود على هذا الرجل تعج بالشكوى حتى خيل إليه أن ليس فى هذه الأمة إلا شاكون ، وأن ليس لهم وظيفة إلا الشكوى .

ومع هذا طيّب خاطرهم ، ووعد أن يجد حلا لهذه المشكلات كلها فى أسبوع ، وحدد لهم موعداً فى مثل هذا الوقت من الأسبوع الآتى ، ثم أتبع ذلك بقوله : ولكن لا بأس أن يزورنى مصلحوكم فيُدْلوا إلىّ بآرائهم حتى أستعين بها على إبداء رأيى ؛ فتتابعت عليه طوائف المصلحين والزعماء كل ينظر إلى المسألة بعينه.

فجاء رجال الدين يقولون : إن سبب الفساد كله عدم التمسك بالدين ، فلو نصحت بأن يتبع الناس الدين لذهب كل ما سمعت من شكوى ، ولاستقامت الأمور ، وصلحت الأحوال ؛ ففساد الحال لا سبب له إلا غضب الله على الناس من عصيان أوامره ، وارتكاب نواهيه .

وقال رجال المال : إن العلة كلها فى المال ، فلو أصلحت موارد البلاد ، واستثمرت منابع الثروة خير استثمار ، ووزعت الغلة خير توزيع لكان فى هذا العلاجُ من كل داء ، لو تم هذا لانعدم الفقر ، وانعدمت الجرائم ، وقلّ الطمع ، وارتقت الأخلاق ؛ فأكثر فساد الأخلاق منشؤه الفقر ، فالفقر داع إلى الإجرام ، وداع إلى الجهل ، وداع إلى الذل والعبودية ؛ فإذا زال زالت معه شروره ؛ وليس من فرق بين أسرة مهذبة راقية سعيدة ، وأسرة بائسة شقية إلا المال . فالمال يعلّم ، والمال يهذب الذوق ، والمال يبصر بطرق المعيشة ، والمال يسعد .

وقال رجال السياسة : ادع إلى إصلاح سياسة البلد يصلح فيه كل شىء . فصلاح السياسة معناه صلاح الحكم ، فإذا عدلت الحكومة فى رعيتها ، وساست الناس كما يقود القائد المحنك جنده ، لا كما يصيد الصائد صيده ،

ونشرت العدل بين الناس ، فهناك الطمأنينة ، والرخاء والأمن ، والسعادة والتقدم ، وإلا فلا إصلاح .

وهكذا ظل طول الأسبوع يسمع من القادة آراءهم فى الإصلاح ، ولم يفته أن يسمع من رجال الأحزاب ، ولا من رجال الصحف ، ولا من الديمقراطيين والدكتاتوريين ، ولا من الفلاسفة والشعراء ، والنساء والفنانين ، فقد قضى الأسبوع فى معرض متنوع بديع .

وحان وقت إبدائه الرأى ، وحضرت الوفود ممثلة لكل الطوائف ، واشرأبت الأعناق ، وأرهفت الأسماع ، فقام بينهم خطيباً وقال :

سيداتى ! سادتى !

لقد سمعت كل وجوه الإصلاح التى اقترحها قادتكم ، ورأيت أن فى كل منها خيراً كثيراً ، ولكن فيها عيباً كبيراً .

إن كل ضروب الإصلاح التى سمعتها موجهة إلى الجيل الحاضر ، وليس فيه كبير أمل ، إنه جيل فسد ، قد أفسدته السياسة بألاعيبها ، وأفسده الجو الذى عاش فيه ، والخلاف الذى دب فيه ، والعقلية التى حلت فيه ، والمُثُل التى قدمت له . كل خطأ الآراء التى سمعتها أنها علقت الأمل على شىء مهدم ، وعلى قصبة مرضوضة ، وعلى بناء متداع .

لقد فقد كل منكم الثقة بأخيه ، ولا حياة إلا بالثقة ، ولا عودة للثقة إذا زالت . لقد شممت من اقتراح كل منكم أنانية بغيضة ، وتعصباً للرأى ذميماً ، واحتقاراً لرأى الغير معيباً ، فتفرقت بكم السبل ، وزال بينكم الحب ، وساد فيكم ضيق النظر ، وهذا عنوان الانحلال .

سيداتى وسادتى :

نصيحتى لكم ألا ألتفت إليكم ، وألا تلتفتوا إلى أنفسكم ، ولا أعلق الرجاء

عليكم ، ولا تعلقوا الرجاء على أشخاصكم ، وأن تساعدونى على إهمالكم أنفسكم ، وأن تلتفتوا معى إلى صغاركم ، ولا شأن لى بكم إلا شأن الوزير الذى عين فدخل مكتبه فوجد الدفاتر مكدسة ، والملفات مبعثرة ، والأوراق مغبرة ، وحاول أن يدرس مسألة فلم يفهم ، وأن يتبع تاريخ أثر فلم يستطع ؛ فأمر باحراقها جميعاً ، وأنشأ دفاتر جديدة على نمط جديد .

ثم ماذا تعملون لصغاركم ؟

أنشئوا لهم المدارس التى تتسع لهم جميعاً ، واحملوا الحكومة أن تخصص أكبر ما تستطيع من ميزانية لهذه المدارس ، واجعلوا لغنى الغنىّ حدا إذا تجاوزه ذهب إلى هذه المدارس .

ثم لا أمل فى هذه المدارس أيضاً إذا علمتم تلاميذها ليكونوا مثلكم فى عقلكم وأخلاقكم . فعلموهم أول ما تعلمونهم فن الحياة الذى فشلتم فيه ، واستطعِموا مرارة الفشل ليحلو لكم أن تعلموهم وسائل النجاح ، وحددوا غرض الأمة الذى تنشده ووجهوا التعليم والتهذيب نحوه ، وارسموا فى وضوح حاجات الأمة ومرافقها المختلفة وشكلوا التعليم كمية وكيفية حسب هذه المرافق . علموا أطفالكم جميعاً الأمانة والرجولة ، ونظافة اليد ، ونظافة الخلق ، وقيمة الحق ، والشجاعة فى قول الحق ، والحياة للحق .

ولا تقولوا إن فاقد الشىء لا يعطيه ، فإن هذا قول سخيف من آثار القرون البالية ؛ فإنا نرى كل يوم المصايب تعلّم اتقاءها ، والرذيلة تعلم الفضيلة ، وسخافة السخيف توحى حكمة الحكيم . علموهم ضد ما تعلمتم فى السياسة ، علموهم من صغرهم أن يحكموا أنفسهم ليصلحوا إذا أسند الحكم إليهم ، وعلموهم الحرية التى لم تعرفوا أنتم أن تنتفعوا بها ليعرفوا هم كيف ينتفعون بها ، وعلموهم الإيثار والتضحية فى ضوء ما ألِفتم من الأَثَرة والأنانية .

وجهوا كل همكم إلى الصغار ، إلى الجيل القادم ، إلى قادة المستقبل ، واجتهدوا أن تحموهم من تقليد جيلكم ، فضعوا أمامهم أمثلة نبيلة غير أمثلتكم ، واخفوا عن أعينهم شروركم ، فانكم إن تعبتم فى إنشاء جيل واحد على هذا النمط ضمنتم الخير لأجيال متعاقبة . أما أنتم فيغفر الله لكم .

***

قال الراوى : فهاج السامعون وماجوا ، وسخط عليه قوم لسماجته وقلة حيائه ، ووقاحته وسبابه ، وازدراه آخرون لسخفه وسوء منطقه ، إذ لم يحل مشكلا ، ولم يصلح فاسداً ، واحتقر الكبير ، واستعظم الصغير ، وهزأ بالرجال ، وعنى بالأطفال ، ولأن مآل نصحه ترك الفساد ينخر فى عظامهم حتى يأتى على آخرهم ، فأتمر به هؤلاء وهؤلاء ، وأجمعوا رأيهم على أن يودعوه مستشفى المجاذيب . . .

# القانون الطبيعي

كل ما عرفنا من قوانين الطبيعة والكيمياء وقوانين الفلك ، وما اكتشفنا من قوانين العلوم على اختلاف أنواعها قوانين طبيعية ، أو هى سنة الله فى خلقه لا تقبل تبديلا ولا تحويلا .

لقد تمت الطبيعة وتمت قوانينها ، فكل ما فى الطبيعة خاضع لقوانينها لا يستطيع الخروج عنها مهما حاول .

وليست قوانين الطبيعة كقوانيننا الوضعية تَعْذُر بالجهل ولا تعاقِب إلا بعد إعلانها ، بل هى توقع عقوبتها علم الناس أو جهلوا ، قصدوا أو لم يقصدوا ، فمن تعاطى سمًّا على أنه سكر عوقب بالموت ، ولو جهل ، ولو حسنت نيته .

والطبيعة قاسية كل القسوة فى تطبيق قوانينها ، لا ترحم من خالفها ، ولا تغفر — مرة — ذنب من يتجرأ على نظامها ، سواء عندها الصغير والكبير ، والطفل الرضيع ، والشيخ الهرم ، لا ترحم طفلا لأنه وحيد أمه ، ولا كبيراً لأنه عائل أسرته . من تعرض للنار احترق مهما كان شأنه ، ومن سقط من أعلى خضع لقانون الجاذبية من غير نظر إلى أى ظرف من ظروف السقوط .

وهى فى قسوتها ديمقراطية كل الديمقراطية سواء عندها الغنى والفقير ، والملك والسوقة ، وصاحب الحول والطول ، ومن لا حول له ولا طول ، كلهم يخضع لقوانينها كما يخضع الجماد ، وتجرى عليه أحكامها كما تجرى على الريشة فى الهواء .

وقوانينها أشكال وألوان منها ما ينفذ سريعاً كسرعة البرق ، حاسماً كحد السيف ، ومنها ما ينفذ بطيئاً بطء السلحفاة ، هذا يكسر قوانين الطبيعة بسقوطه

من نافذة ، أو احتراقه بنار ، أو اصطدامه بقطار ، فينفذ عليه القضاء العاجل ؛ وهذا يكسر قوانين الطبيعة بالاتخام أو بكثرة التدخين أو بإدمان السكر أو بتعاطى المخدرات ، فتنفذ فيه الطبيعة قوانينها بهدوء حتى لا يشعر بها ، وتهدمه فى بطء كأنها لا تهدمه . هى تغضب حيناً فتضرب الضربة القاضية فى سرعة وعجلة ، وتهدأ حيناً فتطحن طحناً بطيئاً ولكن ناعماً ، وهى فى الحالين بالمرصاد لا تنسى ولا ترحم ، ولا تصدر حكماً مع وقف التنفيذ ، إنما تجعل بعض أحكامها مشمولا بالنفاذ العاجل ، و بعض أحكامها مشمولا بصيغة التنفيذ الهادئ ، ولكنه تنفيذ على كل حال، وتنفيذ من غير إخلال .

وهذه القوانين الطبيعية تختلف وضوحاً وخفاء ، و بساطة وتعقداً ؛ فقد تبلغ من الوضوح والبساطة ما يدركه كل الناس كقوانين الطبيعة والكيمياء وظواهر الطبيعة، وقد تغمض وتتعقد حتى لا يدركها إلا الخاصة ، وحتى لا يدركها الخاصة. وتاريخ الإنسان ليس إلا سلسلة لمحاولة فهم القوانين الطبيعية ، وتضييق دائرة المجهول منها وتوسيع دائرة المعلوم ؛ ولا يزال المدى أمامه فسيحاً لمعرفة ما جهل وتوضيح ما غمض ، وسواء من قوانينها ما عرفنا وما لم نعرف، فهى تجرى علينا حكمها وتنفذ فينا إرادتها .

وكلما كان المخلوق ساذجاً منحطا كانت قوانينه الطبيعية سهلة يسيرة واضحة ؛ وكلما رقى تعقدت قوانينه وكثرت واشتبكت ، ومن سوء حظ الإنسان ، أو حسن حظه ، كما تشاء ، أنه أرقى المخلوقات الأرضية ، فقوانينه الطبيعية أعقد القوانين وأغمضها ، وأكثرها تركباً واشتباكاً .

هذا جسمه يخضع لقوانين طبيعية كالتى يخضع لها الجماد والنبات والحيوان؛ وهذه نفسه تخضع لقوانين أشد غموضاً وتعقداً لم يبلغ اكتشافها مبلغ اكتشاف قوانين الجماد ؛ وهذه علاقته بالبيئة الجغرافية جعلته خاضعاً لقوانينها ، فشكلت

شكلا خاصا جسمه وعقله ، وحددت نشاطه ، وحكمت حكمها فى طبيعة عمله ومنهجه فى العمل ، ورسمت خطاه فى مدنيته ؛ وهذه أخلاقه خاضعة فى تكونها لقوانين الوراثة وقوانين الكسب ، فما كان وراثيا منها فله قوانينه ؛ وكان من أثر هذه القوانين للوراثة والاكتساب اختلاف الأفراد فيما بينهم قوة وضعفاً ، وذكاء وغباء ، وصلاحاً وفساداً .

فإذا نحن نظرنا إلى مجموعة من الناس — كأمة — وجدنا هذه الجمعية خاضعة لقوانين طبيعية من حيث شؤونها الاقتصادية ونظمها الاجتماعية والسياسية، وهى خاضعة فى كل خطوة من خطوات تقدمها أو تدهورها إلى هذه القوانين الطبيعية ؛ ومن أجل الاختلاف فى هذه القوانين الطبيعية اختلفت الأمم كما اختلفت الأفراد قوة وضعفاً وتماسكاً وانحلالا ، وصلاحية للبقاء وعدم صلاحية .

وشأن قوانين الجماعات كشأن قوانين الأفراد فى قوتها ومضائها وعدم تخلفها ، وإن اختلفت عنها فى أن الأولى أصعب إدراكاً وأشد اشتباكاً .

أما بعد . فما السعادة والشقاء ، وما النجاح والفشل ؟ ليست هذه الألفاظ إلا تعبيراً آخر مرادفا للسير على قوانين الطبيعة أو الخروج عليها .

إن للطبيعة إرادة لا تقهر ؛ فمعاكسة قوانينها سبب الشقاء وسبب الفشل ، وإطاعتها سبب السعادة وسبب النجاح .

قد يغتر ضيق النظر فيرى أمثلة من مخالفة قوانين الطبيعة ومعها سعادة ، قد يرى قوانين الصحة تخالَف ومع ذلك يبقى الجسم صحيحاً ، ويرى قوانين الأخلاق — وهى فرع من فروع القوانين الطبيعية — تخالف ثم يصحبها نجاح ، وقوانين الاقتصاد تخالف ومع هذا يكون الغنى ، ثم تطاع ويكون مع الطاعة الفقر ، وهكذا . قد يكون هذا منظراً شائعاً فى الحياة اليومية ، ولكن استتبع كل مثال تجد هذا الحكم نتيجة قصر فى النظر وخطأ فى التقدير .

هذا الذى استغفل قوانين الصحة فأفرط فى الأكل أو فى السكر أو نحو ذلك ينفذ فيه القانون الطبيعى أمره ولكن فى هوادة على النحو الذى وصفت ، حتى ينتهى أمره بالتنفيذ التام ، فإذا هو صريع المخالفة ، وهذا الخائن أو الكاذب قد ينجح ، ولكن نجاحه إلى حين ، وحتى لو نجح طويلا فقد عاقبته الطبيعة بأن استلبت منه احترامه لنفسه وضميره وحبه للحقيقة ، ومنحته شعوره بالضعة وبالدناءة ، فكانت النتيجة أن ذبحه نجاحه . إن الطبيعة لا تهتم كثيراً أن يغتنى الخائن أو الكاذب أو يفتقر ، ولكنها تهتم كثيراً أن تنزل العقوبة بنفسه وأن تسلبها أحسن صفاتها ، ولا تقصر فى ذلك أبداً .

* * *

أهم ما تفضل به أمة أمة إيمانها بالقوانين الطبيعية ، وإيمانها بأنها لا تتخلف ، وجدّها فى أن تعرفها وتكتشفها وأن تبنى حياتها على وفقها ؛ فالفرق بين أمة راقية وأمة منحطة أن الأولى تسير فى كل شأن من شؤونها على الكثير مما عرفته من قوانين الطبيعة ؛ فهى تربى أطفالها حسب قوانين الطبيعة ، وتزرع أرضها حسب قوانين الزراعة ، وتنظم ماليتها حسبما وصل إليه علم المال ، وتقيم حكومتها حسب قوانين العدالة ، وهكذا هى فى حياتها مقدمات ونتائج ، وقياسُ أحد أركانه دائما قوانين الطبيعة . وأما الثانية فتسير حيثما اتفق ، تزرع حسب التقاليد ، والتقاليد ليست قانوناً طبيعيا ، إنما القانون الطبيعى علم الزراعة ، وتربى أطفالها كما اتفق ، وتنفق ميزانيتها حسب الشهوة ، وتمشى يمنة أو يسرة اعتباطا ، فتكون النتيجة دائما فشلا ، لأن السير الغامض غير المؤسس على علم عرضة دائما لمعارضة القوانين الطبيعية .

الأمة المنحطة تتسع عندها جدا دائرة الأوهام ، وتضيق فيها جدا دائرة الإيمان بالعلم والقوانين الطبيعية ؛ فالزرع ينمو أو يهلك لغير سبب ، والطفل يصح

أو بمرض للجن ، والتاجر ينجح أو يفشل للحظ ، والزوجان يسعدان أو يشقيان للقسمة ، والسماء تمطر أو لا تمطر للغضب ، والعمل يعمل أو لا يعمل بالاستخارة ، والإنسان يرزق أو لا يرزق بمجرد التوكل ؛ ونتيجة هذا من غير شك أن الأمة التى تسير على هذا المنهج تنهار أمام الأمة تسير حسب قوانين الطبيعة ، وأن الأمتين إذا تزاحمتا كان الفوز لمن يسير على قوانين الطبيعة .

إن مزرعة تزرع بالعلم خير لا محالة من مزرعة تزرع بالتقاليد ، وإلا كان علم الزراعة غير صحيح . وإن تاجراً يسير على قوانين الاقتصاد ينجح لا محالة أكثر من تاجر يسير بالبركة وإلا كان علم الاقتصاد خطأ ؛ وهذا هو وحده السر فى نجاح الأجنبى حيث يفشل المواطن ؛ إنه يسير فى تجارته ومعيشته وجده ولهوه حسب قوانين الطبيعة فينجح ، ويسير المواطن حيثما اتفق فيفشل . لو تكشف قوانين الطبيعة لإنسان لقرأ المستقبل قراءة لا تخطئ ، لأن خالق العالم خلقه على قاعدة السبب والمسبب والمقدمات والنتائج ؛ فلو أدركنا كل المقدمات والأسباب لجزمنا جزماً قاطعاً بالنتائج والمسببات .

وأهم عمل المصلحين — فى كل أمة — على اختلاف أنواعهم ليس إلا اكتشاف قوانين الطبيعة وحمل الناس على السير على وفقها ؛ فالعالم ليس إلا مكتشفاً لهذه القوانين مسجلا لها راصداً لنتائجها ؛ والمصلح الاجتماعى ليس إلا رجلا عرف بعض هذه القوانين ، ورأى أمته تسير على عكسها فدعاها للسير على وفقها . وماذا يفعل المصلح الدينى ؟ إنه يرى أن قومه غلبت عليهم الأوهام ، وأضلتهم عقائد فاسدة أعمت أبصارهم وأصمت آذانهم ، فأخذ يفتحها لتدرك الكون وقوانينه . خير ما يعمله رجال الدين لأمتهم أن يؤسسوا حياة الناس على قوانين الطبيعة ، ويدعوا الناس للسير على قوانينها المعقولة ، وفى الحق أن قوانين الطبيعة

هى فى لغة الدين سنن الله ، وإرادة الطبيعة هى إرادة الله ، وأن السير على وفقها تقديس لأوامر الله .

ولقد بلغ من تقديس الدين لها أن عدَّ خرقها معجزة الأنبياء . أما وقد ختم الأنبياء . فقد ختمت المعجزات ، واطردت قوانين الطبيعة فلا تتخلف ، وقد قال تعالى : « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته » ومن كلماته تعالى قوانينه التى بثها فى كونه . ويعجبنى ماروى عن عمر بن الخطاب أنه ذُكر عنده الغيلان وأنها تتحول من خلق إلى خَلْق فقال عمر : « ليس أحد يتحول عن خلقه الذى خلق له » .

وعمل السحر ونحوه ليس قلباً للقوانين الطبيعية وكسراً لها ، وإنما هو تخييل كما عبر الله عن ذلك أصدق تعبير إذ قال : « فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » .

ومما يؤسف له أن مرت على الناس عصور مظلمة دعا فيها بعض عامة المتدينين إلى زلزلة العقائد فى هذه القوانين الطبيعية ؛ فالماء يسار عليه ، والأرض تطوى للمشى عليها من أقصاها إلى أقصاها فى لحظة ، والفاكهة تحضر بتحريك يد فى الهواء ، ونحو ذلك — مع أن خاصة الصوفية كانوا يتبرءون من ذلك وينهون عنه ؛ فكان « سهل التُّستَرى » يقول : « أكبر الكرامات أن تبدّل خلقاً مذموماً من أخلاقك » وجاء رجل فقال له : إن الناس يقولون إنك تمشى على الماء ! فقال : سل مؤذن المحلة فإنه رجل صالح لا يكذب . قال فسألته ، فقال المؤذن : « لا أدرى هذا ، ولكنى أعلم أنه نزل الحوض فى بعض الأيام فوقع فيه فلو لم أخرجه لبقى فيه أبداً » .

فلما اعتقد العامة فى تخلف القوانين الطبيعية بنوا حياتهم اليومية حيثما اتفق ، فليزرع الزارع كما شاء ، فقد تنقلب القوانين الطبيعية فينجح المهمل ويفشل

المدقق؛ وليسرف التاجر كما يهوى وليسر سبهللا؛ فقد يرزق الأخرق ويحرم الحذر؛ ومثل ذلك الصانع فى صناعته، والعامل فى عمله، والموظف فى وظيفته، والأم فى تربية الولد، والأب فى الإنفاق على الأسرة. ليست هناك غاية محددة يسعى إليها بخطوات محددة، إذ ليس هناك إيمان بقانون السببية ولا بالقوانين الطبيعية.

وهكذا أصبح هذا الشأن مرضاً من أمراض المجتمع الخطيرة، لا بد أن يتكاتف رجال الدين والمصلحون الاجتماعيون على القضاء عليه، حتى يؤمن الناس أن لا تبديل لكلمات الله، ولا تبديل لقانون الطبيعة، ولا نجاح لأمة أو فرد إلا بإطاعة هذه القوانين وتعديل الحياة على وفقها.

يجب أن يفهم الناس أن الموت والحياة قانون طبيعى، وأن الغنى والفقر قانون طبيعى، وأن الصحة والمرض قانون طبيعى، وأن صلاح الناشئين وفسادهم بالوراثة والتربية قانون طبيعى، وأن الهزيمة والنصر قانون طبيعى، وأن موقف الأمم فى سلم العالم قانون طبيعى، وأن من أراد من الأمم أن يرقى لابد أن يعمل مقدمات الرقى الطبيعية ليصل إلى النتيجة الطبيعية، وأن الله ربط الأسباب بالمسببات ربطاً محكما، وجعل بين المقدمات والنتائج عروة وثقى لا انفصام لها، وأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن من زرع الحنظل جنى الحنظل.

# الاسلام والاصلاح الاجتماعى

بعض الأديان اقتصرت على تنظيم العلاقات بين العبد وربه ، فشرعت شعائر العبادة واكتفت بذلك ، ولم تمس شؤون الدنيا فى قليل ولا كثير ، بل منها ما دعا إلى الابتعاد عنها والتجرد منها .

ولم يكن الإسلام من هذا الطراز ، بل نحا منحى آخر ، فقد نظم العلاقة بين العبد وربه بما شرع من أنواع العبادات ؛ ومن ناحية أخرى واجه الحياة الدنيوية ، ووقف منها موقف المصلح الاجتماعى والشارع القانونى ؛ فقد نظم الأسرة ؛ ووضع نظاماً للزواج والطلاق والميراث وما إلى ذلك ؛ ونظم المعاملات المالية بما وضع من أحكام للبيع والشراء والإجارة وتحريم الربا ؛ ووضع أسس القوانين الجنائية من بيان للجرائم والعقوبات ، وبيّن العلاقات فى السلم والحرب ، وقرّر أصول نظام الحكم من وظائف الخلافة ونظام الشورى وما إلى ذلك . وعلى الجملة واجه كل مرافق الحياة الدنيوية أيضاً ، وتعرض لأسسها ، وأصلح ما كان عليه الناس فى جاهليتهم ، ووضع القواعد التى تنير للناس السبيل فى الحياة .

ولكن كل دين يسير على هذا النهج من تنظيم لشؤون المجتمع ، يجب لنجاحه أن يشتمل على عنصر هامّ من عناصر الحياة ، وهو ( عنصر المرونة ) ، وإلا تخلف وأصبح فى عداد التاريخ ، ولم يصلح لكل زمان ومكان ، إنما يصلح لقوم معينين فى زمان معين .

ذلك أن الشؤون الاجتماعية فى تغير دائم ورقى مستمر ، تتغير بتغير المدنية

وبرقى العقل ، وبما يستكشف من مخترعات ، وبأحداث الزمان التى تغير الأوضاع تغييراً كبيراً .

اعتبر فى ذلك بما حدث فى العصور الحديثة فى قرن واحد ؛ فالمخترعات الحديثة غيرت أوضاع الحياة وقلبتها رأساً على عقب ، والثورة الصناعية غيرت نظام العالم الاقتصادى والاجتماعى ، وأخلاق الناس ومعاملاتهم بعد الحرب الكبرى تغيرت كل التغير عما كانت قبلها ؛ وستغير هذه الحرب أخلاق الناس ومعاملاتهم ونظم الحكم ونظم الاقتصاد إلى حد كبير ؛ فان حدث هذا فى قرن واحد ، فما بالكم بقرون عديدة ، وما بالكم بعمر العالم ؟

من أجل هذا كله كان لا بد لكل دين يواجه الشؤون الاجتماعية أن يحمل فى ثناياه روح المرونة يواجه بها هذه التغيرات ، وأن يفصل فصلا تاما بين قواعد أساسية لا تتغير بتغير الزمان ، كقواعد العدالة ، ولا ضرر ولا ضرار ، ولكم فى القصاص حياة ، وأن تعدلوا أقرب للتقوى ، وإن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وبين مسائل جزئية تفصيلية هى وليدة البيئة والظروف ، إذا تغيرت تغيرت .

والإسلام جاء ليكون ديناً عاما ، لا لأمة خاصة ، ولا لزمن خاص ؛ فلا بد له أن يقرر عنصر المرونة ، وكذلك فعل ؛ وعنصر المرونة فيه هو « الاجتهاد » . وأصل هذا ما جاء فى الحديث المشهور أن رسول الله بعث معاذ بن جبل ليقضى بين الناس فى اليمن ، فسأله : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى .

هذا الأصل — وهو الاجتهاد — يتضمن أن يكون المجتهد عالماً بمقاصد الشريعة وأغراضها ومراميها ، دقيق النظر فى معرفة أسرارها وأصولها ، ثم يواجه المسائل الجديدة والأحداث العارضة ، فيقضى فيها برأيه مستنداً إلى كليات الشريعة

وأغراضها ، مقدراً ظروف الأحداث وما يترتب عليها من منافع ومضار .

هذا الأصل المرن يمكّن الشريعة من أن تساير الزمان والمكان ، فلكل ظرف تقديره ، ولكل حادثة حكمها .

وكان من نعم الله على الإسلام أن حدثت الفتوح الأولى فى أيام عمر بن الخطاب وهو من أكثر الناس مرونة ، وأشدهم اجتهاداً فى حدود مقاصد الشريعة الكلية.

لقد واجه المسلمون فى الفتوح الأولى آلاف المسائل التى لم تكن معروفة فى جزيرة العرب ؛ فهذه نظم الرى فى مصر والعراق المعقدة المشتبكة ؛ وهذه ضروب المعاملات المختلفة التى لم تكن معروفة من قبل ؛ وهذه نظم الحرب الجديدة ، وقواعد الحرب والسلم ، ونظام الأراضى والمحاربين ؛ وهذه أشكال المدنية الفارسية والرومانية المتعددة الألوان ؛ وهذه الجرائم التى تخلقها المدنيات ولم تكن معروفة للعرب ؛ ونحو ذلك من مسائل لا عداد لها ، كل هذه أمور واجهت الدولة الإسلامية وعلى رأسها عمر بن الخطاب ؛ فبم حلها هو وصحبه ؟ — بالاجتهاد ، بمرونة الاجتهاد ، بعينين تفتح إحداهما على مقاصد الشريعة وأغراضها ومراميها ، وتفتح الثانية على الظروف الجديدة ، والعوامل الجديدة ؛ ويستخرج من بين هذين النظرين أحكام اجتهادية عدت نبراساً لمن جاء بعد من الفقهاء والشارعين ؛ ولو لم يحصل هذا الظرف السعيد لوقف المسلمون حيارى أمام الحوادث الغريبة والتصرفات العجيبة ؛ ولكن الإسلام رباهم هذه التربية المرنة ، فسلحهم بالأصول وأسلس لهم فى تطبيقها على الفروع ، فحلوا المشكلات ، واتقوا الأزمات ، وضربوا بأعمالهم خير مثال يحتذى .

ومثل هذا ما حدث فعلا طوال العصر الأموى ، والعصر العباسى الأول ، نقرأ التاريخ فتأخذنا الروعة من كثرة المجتهدين ومرونة الشارعين ، حتى أربوا على خمسمائة ، يواجهون الأحداث ، ويضعون لها الأحكام ، كل حسب اجتهاده ،

وحسبا فهم من كليات الدين وأصول القواعد ؛ فلم تحدث حادثة إلا لها حكمها ، بل أحكامها ، مقدرين الظروف ، والمنافع والمضار ، دارسين عادات البلاد وعرفها وتقاليدها ، عالمين الحدود التي يتسامحون فيها لأنها لاتتعارض مع كليات الدين ، وعارفين الحدود التي لا يتسامحون فيها لمعارضتها لهذه الكليات .

ولم يَشْكُ الناس قط فى تلك الأزمنة من عدم الاجتهاد وقلته ، ومواجهة الأحداث الجديدة ؛ فلئن كانت شكوى فقد كانت من كثرة الاجتهاد وكثرة الأحكام ، حتى اضطرت الممالك الإسلاميـة أن تعالج هذه الحرية فى الاجتهاد بأشكال مختلفة ؛ ففى المشرق حوول معالجتها باختيار مجموعة للأحكام يعرفها الناس قبل التقاضى ، كما رُوى من حديث أبى جعفر المنصور مع مالك فى شأن الموطأ ؛ وفى الأندلس ألفت رسميا جماعة تسمى جماعة الشورَى ، جعلت هى المرجع فى الاجتهاد .

ثم كان — مع الأسف الشديد — أن جهل الناس هذا العنصر الأساسى فى الإسلام ، وهو الاجتهاد ، فأغلقوا بابه فأغلقوا عليهم باب الرحمة ، وإذا عدم الناسُ الاجتهاد أصابهـم الركود ، وتصلب العود . والزمان لا يقف أبداً ، والحوادث تتجدد دائما ؛ فإذا لم تواجه بالاجتهاد المرن ، ولم ينتفع بتجددها ، تخلف الناس عن زمانهم ، وجمدت عقولهم ، وسكنت حركتهم ، وأصيبوا بالفقر العقلى ، وهذا ما حدث المسلمين فعلا .

وقد تدرج هذا التصلب من اجتهاد مطلق إلى اجتهاد فى المذهب ، إلى اجتهاد فى الفتيا ، إلى لا شىء .

وكان لهذا الركود أسباب تاريخية عدة ، لا مجال لتفصيلها ، أهمها القضاء على حرية الفكر التى كان يقوم بها المعتزلة ، وغلبة بعض المحدِّثين فى عهد المتوكل ، ثم غلبة نوع من التصوف ينشر القول بالجبر ، لا بالمعنى الفلسفى الذى هو ربط

الأسباب بالمسببات ، ولكن بمعنى التسليم المطلق لحوادث الدهر ، من غير تدخل في شؤونها ، مطالبين أن يكون العبد كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير .

وقد أحس بعض كبار المسلمين بهذا الخطر الناشئ من ضياع الاجتهاد ، فحاولوا محاولات عنيفة فى هذا الباب ، كما فعل عبد المؤمن بن على فى المغرب حول سنة ٥٥٠ هـ ، إذ وجد العلماء انهمكوا فى الفروع ، ورضوا بالتقليد ، فأحرق كتب الفروع ، وألزم العلماء بالاجتهاد وترك التقليد .

وكما فعل ابن تيمية عقب سقوط بغداد ، إذ نادى بالاجتهاد ودعا إليه ، ولقى فى ذلك من العناء مالا يوصف ، ولكن مع الأسف ذهبت دعوتهم هباء .

إن وقوف الاجتهاد معناه الركود ، معناه الحكم بالإعدام على العقل ، معناه وقوف الناس حيث هم ، وكذلك كان تاريخ المسلمين منذ القرن الخامس ، حياتهم متكررة ، ولا جديد ولا قائد ولا مجتهد يبعث على حركة ، أو يحول الحركة إلى جهة صالحة .

ولم يكن إغلاق باب الاجتهاد مؤثراً على التشريع وحده ، ولا على الإصلاح الاجتماعى وحده ، بل شمل كل مرافق الحياة ؛ فاللغة واقفة حيث وقف المتقدمون ، والمعاجم كما كتب الأولون ، والصناعات كما صنع السابقون ، وهكذا . وظللنا كذلك حتى صفعتنا المدنية الحديثة فانتبهنا مذعورين .

كانت المدنية الحديثة مشكلة كبرى أمامنا ، كيف نحدد موقفنا إزاءها ؟ وقد عرضت هذه المشكلة لكل أمة مسلمة ، فى الهند ، فى الشام ، فى فارس ، فى العراق ، فى تركيا ، فى مصر . وقد رأينا أنه فى كل قطر تقريباً ، وجد مذهبان مختلفان لحل هذه المشكلة ، وطريقة الإصلاح التى يدخلونها على الأمة . فأما طائفة فرأت حصر الدين فى دائرة ضيقة جدا لأنه فقد مرونته ، وفقد أهله مرونتهم ؛

ولتكن هذه الدائرة دائرة العبادات والأحوال الشخصية ؛ وأما ما عدا ذلك من نظم الحكم وقوانين البلاد وما إلى ذلك من مرافق الحياة ، فيجب أن يتجه فيها إلى أوربا ونظمها وقوانينها ، فهذه باب الإجتهاد فيها مفتوح والمرونة فيها على أتمها ؛ فلندرس ما وصلت إليه أوربا فى السياسة ، وفى الإصلاح الاجتماعى ، ولنجتهد فيه ولنأخذ منه ما يصلح للأمم الشرقية ؛ وليبق باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه ، كلما جد فى أوربا جديد اقتبسنا منه ، وكلما تغير الزمن عندنا غيّرنا ما يتفق والعقل والمصلحة . قالوا : لقد فصلت أوربا بين الدين والدولة فلنفصل نحن أيضاً ، ولنجعل حدود الدين فى العبادات ومايتصل بها ، ولنجعل حدود الدولة واسعة كل السعة ؛ وليكن شارعونا فى الدولة ممن عُلّموا على النمط الغربى ، وممن يحكّمون العقل المطلق ويجتهدون الاجتهاد المطلق . وبدل أن كان يشترط فى المجتهد المطلق العلم بكليات الشريعة ومقاصدهاومراميها نشترط نحن أن يكون عالماً بمقاصد المدنية الغربية وكلياتها ومراميها ؛ ذلك لأنّا أمام مدنية تشبه التى واجهتها جزيرة العرب أيام عمر ابن الخطاب ، بل هى أشد تعقداً وتركباً : معاملات جديدة أشكال وألوان ، ومخترعات جديدة ، ونظم سياسية جديدة ، وكل شىء جديد ؛ فما لم نواجهها باجتهاد مطلق قوى واسع المدارك وقفنا مشلولين ، ولا أمل — فى مرونة كالمرونة الأولى أيام عمر — فى العصور الحاضرة على الأقل ، فوجب أن نجتهد اجتهاداً آخر ، أساسه العقل المطلق ، وقياس المنفعة والمضرة من غير قيد ؛ ولنؤسس القومية والوطنية كما أسستها أوربا ، ولينظر كل وطن وكل قوم فى مصالحهم حسبما ترشدهم إلى ذلك عقول مجتهديهم .

وبجانب هؤلاء دعاة آخرون يرون أن الإسلام فى أساسه عنصر صالح كل الصلاحية ، يحمل فى ثناياه المرونة الكافية كما أسلفنا ، وجمود أهله عارض ، وقشرة ظاهرية إذا أزلناها بقى على صلاحيته ؛ والأمم الإسلامية قد تأقلمت

بالإسلام أجيالاً طوالا حتى صار فى لحمها ودمها ، فإذا جئتها بمبادئ جديدة بعيدة عنها اضطربت أمزجتها وحياتها بين الموروث والمكتسب ؛ وهذه المدنية الغربية إنما تنفع بحذافيرها فى البيئة الغربيـة . وأساس تعاليم الإسلام عدم التفرقة بين شؤون الدين وشؤون الدنيا ، فالعمل شيء واحد له وجهان دائماً : وجه دنيوى ظاهرى ، ووجه دينى يتعلق بالنية ؛ والمدنية الغربية قد فصلت بين الدين والدولة لأن الدين المسيحى لم يتعرض لشؤون الدنيا ، فأمكن وضع الدين فى دائرته ، وتأسيس دائرة أخرى للدولة وشؤونها ؛ وقال هؤلاء للطائفة الأولى : ربما كان يكون قولكم صحيحاً وحجتكم قوية لو أن المدنية الغربية برهنت على صلاحيتها للحياة ؛ أما وكل يوم دليل جديد على فسادها ، من حرب تهلك الحرث والنسل ، ونحو ذلك من شرور ، فأولى ألا نندمج هذا الاندماج ، وألا ندعو إلى وطنيات وقوميات ، وإنما إلى عالم إسلامى يطمح أن تعم مبادئه الإنسانية كلها ، ثم أن نؤسس إصلاحاتنا الاجتماعية على أساس نظريات الإسلام ؛ فذلك أقرب إلى قلب الأمة وأدعى إلى الإصغاء للدعوة وتلبيتها . نعم إن ذلك لا يكون إلا بإزالة القشرة الظاهرية التى غلفت الإسلام ، والرجوع إلى عناصره الأولى ، ومنها الاجتهاد المطلق ، والمرونة الكافية ، وهذا مطلب عسير ، ولكنه ممكن .

إذاً فكل فرقة من الفرقتين تدعو إلى الاجتهاد المطلق ، وإن اختلف منبع كل .

والعالم الإسلامى الآن حائر بين النزعتين والدعوتين ، ويخيل إلىّ أن الدعوة الأولى غالبة والعمل يجرى عليها والاتجاه إليها أقوى فى صمت وسكون ، والأمم الإسلامية تختلف فى مدى تطبيقها والعمل بها ، وربما عدت تركيا فى طليعة الآخذين بها .

وعلى قادة العالم الإسلامى واجب قوى الآن ، وهو إنقاذه من هذه الحيرة ،

ورسم الخطة المحكمة الحازمة التي يجب السير عليها ، وتنظيم الإصلاح الاجتماعي حسب الفصل في هذا الأساس ، ويجب ألا يكون هذا الإصلاح ارتجالاً فليست تقبل إحدى هاتين الطائفتين هذا الإصلاح المرتجل ، لأن الارتجال سير على غير هدى ، وبناء من غير تصميم . وحبذا لو أمكن السير على الرأي الثاني ، ولكنه — كما أسلفت — لا يمكن حتى يُثبت أهله صلاحيتهم للمرونة ، وللاجتهاد المطلق ، والله الموفق .

# حديث الخميس

وعدت القراء أن أوافيهم من حين إلى حين بما يدور ليلة الخميس فى « لجنة التأليف » .

لقد كان حديث الليلة حديثاً طريفاً ؛ فبعد أن التأم الجمع بدأ أحدنا يقص علينا عملا عمله فى يومه ، وأعقبه بقوله . « لقد كانت قِرْفَته ثقيلة » .

وهنا تعلق أحد الحاضرين بهذه الكلمة وسأل :

— من أين جاء هذا التعبير ، فيقولون للعمل إذا سار فى يسر وسهولة : « إن قرفته خفيفة » ، وإذا تعقد وارتبك « إن قرفته ثقيلة » ؟ وكلنا يعرف القرفة ، وأنها نوع من الأفاويه يستعمله المصريون مشروباً ساخناً كالشاى ، فكيف استعمل هذا الاستعمال الغريب ؟

رد أحد الحاضرين بأن مصدر هذا الاستعمال حلقات الذِّكْر ؛ وقد جرت العادة أن يوزع فيها مشروب القرفة ، ولكن توزيعها فى هذه الحفلات فوضى فى غير نظام ولا إتقان ؛ فالقرفة تصنع على عجل وتوزع حيثما اتفق ، فهذا يناله فنجان سكره خفيف ، وهذا سكره كثير ، وهذا قرفته خفيفة ، وهذا قرفته ثقيلة — هذا أصل الاستعمال ، ثم تطور المعنى ، فصاروا يعبرون عن كل شىء خفيف الظل بأن قرفته خفيفة ، وكل شىء ثقيل الظل بأن قرفته ثقيلة .

— ولكن هناك ما هو أصعب من السؤال عن اللفظ وأعقد : ما معنى أن الشىء قرفته خفيفة أو ثقيلة ؟ هل هو أمر يعود إلى أسباب طبيعية يمكن تفسيرها وشرحها ، أو أن وراء هذه الأشياء الطبيعية التى نعلمها أشياء روحية نجهلها ؟

تبلبل الحاضرون واختلفت الآراء .

— أما أنا فإنى أرى أن الأمر يمكن تفسيره بالقوانين الطبيعية ؛ فالإنسان إذا كان معتدل المزاج ، قوى النشاط ، معدته صحيحة ، ودورته الدموية نشيطة ، وكبده فى حالة جيدة ، والعمل يناسبه ، كانت قرفته خفيفة ؛ وأما إذا ساء مزاجه ، أو اضطربت معدته ، أو ساءت حالة كبده ، أو كان العمل ليس فى مقدوره ، كانت قرفته ثقيلة ؛ وكل ذلك طبيعى ولا شىء غير الطبيعة .

— وأما أنا فإنى أرى أن الأمر ليس بهذه البساطة ، وأنه أعقد من أن يحل بهذه السرعة ، لقد أكون معتدل المزاج ، متوفرة فىّ كل الشروط التى ذكرتها ، وأحيانا أعرض لعمل فيسهل ، وأعرض لمثله أحيانا فيصعب .

لقد سكنت بيتاً وكانت كل الدلائل تدل على حسنه ؛ مبناه جميل ، وهندسته جميلة ، وحائز لكل الشروط الصحية ، ومع ذلك كانت قرفته ثقيلة ؛ بليت فيه بالمرض ، وابتلى أولادى بالمرض ، وأصبت فيه بالنكد ، وكانت حياتى فيه سلسلة مصايب ، حتى إذا انتقلت منه إلى بيت آخر زالت كل هذه الشرور .

— وتصديقاً لقولك ، هذا رجل يتزوج زوجة قد لا تكون حسناء ، ومع ذلك فهو سعيد موفق فى تجارته ، يأتيه الرزق من كل مكان ، وتنهال عليه الخيرات ، وينعم بضروب السعادة ، ثم تموت هـذه الزوجة ، ويتزوج غيرها قد تكون أجمل منها ، ومع هذا يبتدئ يضيق رزقه ويقل مورده ، وتكثر متاعبه ، ولا يزال يتدهور حتى يصل إلى الحضيض ، فكيف تفسر ذلك تفسيراً طبيعيا ؟

— وهذا رجل يلعب نرداً أو شطرنجاً أو ورقا ، فهو فى أسبوع حسن الحظ جدا ، يلعب فيكسب ، ثم يلعب فيكسب ، ويلى هـذا الأسبوع أسبوع آخر يلعب فيه فيخسر ، ثم يلعب فيخسر ، واللاعبون معه هم هم ، وهو هو ، فكيف تفسر ذلك طبيعيا ؟

— وهذا يوم اصطبحت فيه بشخص . فكان يوماً أسود : ركبت سيارتى

فتعطلت فى الطريق ، فاستأجرت أخرى فاصطدمت ، وذهبت إلى عملى فكان غير موفق ، واشتريت شيئاً فكان سيئاً ، وعدت إلى بيتى فوجدت ابنى قد رجع من المدرسة مكسور الذراع ، ودعوت الطبيب فلم أجده ؛ واصطبحت بشخص آخر يوماً آخر ، فكان كله توفيقاً ؛ فكيف تفسر ذلك تفسيراً طبيعيا ؟ لم تجمّع كل الخذلان فى يوم ؟ ولِمَ تجمّع كل هذا التوفيق فى يوم ؟

إذ ذاك انقسم الحاضرون إلى معسكرين : معسكر يرى أنه لا شىء فى هذا كله مما يصعب تفسيره تفسيراً طبيعيا ، فلا شأن للبيت المشئوم فى شؤمه ؛ ولو كان من حدثت له هذه الأحداث فى أى بيت لجرى له ما جرى ، إلا أن يكون فى البيت نفسه شىء طبيعى يخل بالصحة ؛ ودليل ذلك أن البيت الواحد قد يسعد فيه قوم ويشقى آخرون : ولو كانت المسألة مسألة البيت لا تحدت نتائجه من سعادة أو شقاء دائماً ، بل إن البيت الواحد للأسرة الواحدة قد يكون مكان سعادة لها حيناً وشقاء حيناً لأسباب خارجة عن البيت نفسه . وكذلك الشأن فى حديث الزوجة ، ليس لها دخل فى فقر الزوج وشقائه بعد غناه وسعادته ، إلا أن يكون لها من الأخلاق ما يسبب ذلك ، كإسرافها أو تبديدها أو إهمالها ؛ فإذا لم يكن شىء من ذلك فلابد أن تكون هناك عوامل اقتصادية أخرى غير المرأة سببت تدهور تجارته ، لو حدثت أيام الزوجة الأولى لحدث الفقر نفسه . ولسنا ننكر المصادفات ، وأن حوادث الشر قد تتجمع فى يوم ، وحوادث الخير تتجمع فى يوم ، ولكن كل مصادفة ترجع إلى قانون السببية .

ووقف المعسكر الآخر يحمل على هذا التفسير ، ويرى أنه لا يحل الأشكال ، وأنه لو كان الأمر دائماً يرجع إلى علل معقولة فما بالنا نرى من تجمعت فيه كل شروط النجاح ثم فشل ، ومن تجمعت فيه كل أسباب الفشل فنجح ؟ وما بالنا نرى الشخص يضع يده فى التراب فيكون ذهباً ، ونرى الآخر يضع يده فى الذهب

فيصير تراباً ، ولو حاولنا أن نبين لذلك أسباباً معقولة لعجزنا كل العجز .

ثم تشعب الجدل وطال ، ورأينا أنفسنا قد انتقلنا فى خفة ورشاقة إلى شىء يتصل بذلك أتم الاتصال . قد كان مدار الحديث حول « القرفة الخفيفة والقرفة الثقيلة » فإذا بنا نتحدث عن الدم الخفيف والروح الخفيف ، والدم الثقيل والروح الثقيل .

— ما هذا أيضاً ؟ إنا لنرى من استوفى كل شروط الجمال فى لونه وتقاطيعه ، ولو طبقت عليه كل القواعد التى وصل إليها علماء الجمال لانطبقت عليه ، ومع هذا نقول إن دمه ثقيل ، وآخر قد اجتمعت عليه كل ضروب القبح فى لونه وكبر أنفه وجحوظ عينيه وانحناء متنه ، وهو مع ذلك خفيف الروح تأنس النفس به وتنجذب إليه ؛ هذا من جنس ذاك ، فما تفسيره ؟ أهو أيضاً خاضع لقوانين طبيعية أو تدخل فيه قوانين روحانية ؟

— تفسير ذلك أن الجمال أنواع : فمنه جمال الأعضاء والتقاطيع والألوان ، ومنه جمال الحركة ، وجمال الحديث ، وجمال العقل والتفكير وجمال الروح ، وخفة الدم ترجع إلى جمال الروح . وليس هذا فقط ، بل إن الجمال سواء كان حسياً أو معنوياً لابد فيه من الانسجام بين الرائى والمرئى والشاعر والمشعور به ، ومن هذا ترى الإنسان جميلاً فى عين إنسان وليس جميلاً فى عين آخر ، وخفيف الروح فى عين وثقيلها فى عين . ثم قد يكون الشخص جميلاً جمالاً حسياً ، وليس جميلاً جمالا معنوياً ؛ فإذا رأيته أعجبك شكله ، فإذا تكلم أو عرض عقله تبينت ثقله ، لأن قبح عقله غطى على جمال شكله ؛ فالمسألة كلها ترجع إلى قوانين طبيعية سواء فى ذلك جمال الحس وجمال المعنى .

— أما أنا فالأمر عندى أدق من ذلك ، فأعتقد أن هناك إشعاعا روحيا أدق وألطف من إشعاع الضوء ، وأن كل إنسان له نوع إشعاع ، فإذا توافق

إشعاع الناظر والمنظور على نوع من أنواع الاتفاق أحس بالجمال وعبر بخفة الروح، وإذا لم يتوافق الشعاعان عبر عن ذلك بثقل الروح، و « الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف »، وكيف ننكر هذا الإشعاع وقد قربنا من إدراكه اكتشاف اللاسلكى، وأمواج الروح أدق من أمواج السلكى واللاسلكى.

— ولكن إذا كان هذا صحيحاً فلم نستثقل شخصاً ثم نستلطفه أو نستلطفه ثم نستثقله؟ ولو كان الأمر أمر إشعاع وتوافق لاستمر ذلك أبداً ولم يحدث فيه هذا التغير؟.

— الأمر يمكن تفسيره بأن هناك طاقات ينفذ منها الإشعاع، تفتح فيخرج إشعاعها وتغلق فينعدم؛ فهذه طاقة إشعاع تنفتح عند الحديث، وأخرى عند الخطابة، وثالثة عند تلاقى العيون، ورابعة عند الحركات، وهكذا؛ وقد تكون أشعة طاقة من الطاقات لطيفة جميلة، وإشعاعات طاقة أخرى ليست لطيفة ولا جميلة، وقد تكون جميلة بامتزاجها مع إشعاعات شخص، وليست جميلة إذا امتزجت مع إشعاعات آخر، ومن أجل ذلك ننظر إلى شكل إنسان فنستجمله فإذا تحدث نستقبحه، وإشعاعات الأفراد تختلف كمية وكيفية، فتختلف كمية كقوة مصابيح الكهرباء، وتختلف كيفية كالأمواج القصيرة والطويلة والمتوسطة، ولهذا يختلف الأفراد فى قوة التأثير حسب قوة الإشعاع وضعفه وكثرته وقلّته.

— هذا كلام شعرى لا كلام علمى، هو كلام يستسيغه الأديب الذى يروعه التشبيه والاستعارة وسائر ضروب الخيال، ولكن لا يأبه له العالم الذى يحلل ويعلل ولا يقنع إلا بالسبب والمسبب.

— وما ضرر هذا وليست حقائق الدنيا كلها علماً، بل فيها العلم والأدب؟

وطبيعة العالم فيها الصنفان جميعاً ، هذا النهر يتكون من عناصر الماء العلمية ومن جمال مناظره الأدبية ، من أوكسيجينه وهيدروجينه ، ومن بريقه وخريره ؛ وهذه الأشجار تتكون من عناصرها الأولية ومن زهرتها الجميلة وحفيف أوراقها الجميل ولعب النسيم بأغصانها الجميلة ، فلماذا تريدنا على العلم الجاف ، ولا تريدنا على الأدب الجميل ، إذا كانت حقائق الدنيا فيها النوعان معاً ؟ ثم ما هذا الغرور العلمى الذى يريد ألا يؤمن إلا بما يقع تحت حسه ولا يقر إلا بما يحلله فى معمله ؟ فكم فى الدنيا من عوالم : عالم يخضع لقوانين السببية وعالم لا يخضع ، عالم اكتشف وعالم سيكتشف ، وعالم لا كشف ولا سيكتشف ؛ وكلَّ يوم يطلع على العلم بقوانين جديدة ، وكل يوم تتسع فيه دائرة المعلوم وتضيق دائرة المجهول .

— أما إن وصلنا إلى هذا فالأمر يسير ، فأنا — كعالم — أقف عند حدود العلم ، ولا أومن بالفروض حتى تدخل فى باب الحقائق ، ومع هـذا لا أدعى أن العلم وصل إلى كل شىء ، وحل كل شىء ؛ وإنما الذى أنكره عليك أن تعرض جمال الروح وقضايا الإشعاع على أنها علم لا فرض ، أما إن عرضتها كفرض فلنبحثها بحث الفروض .

ودقت الساعة مؤذنة بالانصراف فتفرقنا ، وكانت جلسة روحها خفيفة ، وفرقتها خفيفة ، أليس كذلك ؟

# أبو ذر الغِفَارِى

لم يكن أبو ذر بطلا من أبطال الحروب تؤثر عنه المغامرات الحربية وتؤثر عنه الانتصارات والفتوح ، ولكنه بطل من نوع آخر هو الإصرار على الحق والمجاهرة به والتضحية فى سبيل قوله والدعوة اليه بنفسه وماله ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا تفزعه سطوة حاكم .

هو من قبيلة تسمى غفار ، قبيلة مضرية كانت تسكن الحجاز على الطريق بين مكة والمدينة ، ولم يكن عظيما فى قومه يستند — كعادة الجاهلية — فى عظمته على الحسب والنسب ، والمال والثروة . وإنما كان عظيما فى عقله ، يحكّمه فى دينه وفى عقيدته ، ويستطيع إدراك ما هو خير وما هو شر ، لذلك يؤثر عنه أنه قبل الإسلام أدرك سخافة عبادة الأصنام وتحرر منها ، ومال إلى عبادة الله وحده ، على نحو غامض لم ينكشف له تمام الانكشاف إلا بالإسلام .

وأدرك قومه الجدب فرحل مع بعض أهل بيته إلى بعض أقاربه فى أعلى نجد ، ولكنه لم يسترح هناك فهاجر إلى مكة ، وصادف عند هجرته أول دعوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وسمع الناس فى مكة يتحدثون بمحمد هل هو نبى أو ساحر أو شاعر أو مجنون ، فأحب أن يَخبُر الخبر بنفسه ويعرف كنه دعوته ، ويحكّم فى ذلك عقله هو لا كلام الناس ، وساعده على ذلك أنه نفسه كان ثائراً على الأصنام ، فلما سمع بثائر آخر أحب أن يعرف دعوته فتلمس لقاء محمد حتى وجده وأصغى إليه ، وإلى أساس تعاليمه ، فعرف فيها الخير ، فسرعان ما آمن قبل أن يؤمن الناس ، وكان خامس مؤمن .

ولكنه لما آمن تحرّك طبعه من حب مجاهرته للحق فلم يشأ أن يسكت

وقد نُصح بالسكوت ، فتعرض لصناديد قريش وجهر فيهم بالإسلام ، فأوذى وضرب ضربا شديداً حتى كاد يقضى عليه لولا أن تدخل العباس وقال لقريش : يا معشر قريش أنتم تجار ، وطريقكم على غِفار ، أتريدون أن يقطع الطريق عليكم ، فكفّوا عنه ، وعاود ذلك فعادوا ، فأدرك النبى (ص) أنه لن يسكت ، وأنه معرض للقتل ، فأمره أن يَلْحَق بقومه حتى إذا ظهرت الدعوة فليأته . فرجع إلى بلده يدعو بعقيدته ، ثم ظهر بعد أن هاجر النبى (ص) إلى المدينة وبعد غزوة بدر وأُحد ، فإن أبا ذر لم يشهدهما .

وكان أبو ذر من أهل الصُّفَّة ، والصفة موضع مظلل فى مسجد المدينة كان يأوى إليه فقراء الصحابة ممن لم يكن له منزل يسكنه ، كانوا فقراء فكان يمدهم الأغنياء بمالهم ، ويقدمون إليهم طعامهم ويستضيفونهم فى منازلهم ، وإذا أتى النبى صدقة بعثها إليهم ، يلبسون رقيق الثياب ويأكلون تافه الطعام ، وكانوا يختلفون فى العدد من حين إلى الآخر فكانوا أحيانا سبعين وأحيانا دون ذلك أو أكثر من ذلك ، وكان النبى يزورهم فى مكانهم الفينة بعد الفينة ويحدثهم ويصغى إليهم ، ولأنه كان يقوّم الأشياء والناس غير التقويم الجاهلى من الاعتزاز بالمال والنسب ، وإنما يقوّمهم بالأخلاق والعمل ، كان يكرم هؤلاء ويقدرهم ولا يرى غضاضة فى الجلوس إليهم ، وكان صناديد العرب يأنفون من ذلك ويعدونهم عبيداً أذلاء لا يصح أن يجالسوهم ، فلما جاء الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وأمثالهما إلى المسجد طلبوا من النبى أن يفردهم بالجلوس وقالوا إنا نستحى أن ترانا العرب قعوداً مع هذه الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا . فنزل قوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » وقوله « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه

وكان أمره فرطاً » . وكان من أهل الصفة هؤلاء أمثال أبى ذر وسلمان الفارسى وبلال وأبى سعيد الخدرى وغيرهم .

كانت ميزتهم المشتركة بينهم الفقر ، وكثرة الاتصال برسول الله ، ثم هم يختلفون بعد ذلك فى مزاياهم الشخصية .

وكان لرسول الله (ص) نظر صائب فى الأشخاص ومواضع قوتهم وضعفهم ، وكان يوجه كلاً حسب استعداده وما يصلح له ، ويلق بالنصيحة لكلٍّ فتُذهب خبثه ، وتصهر نفسه .

ولقد كانت نصيحته الكبرى لأبى ذر التى تتفق ونفسه ، وما عرف عنه من قول الحق والدفاع عنه ما حدث به أبو ذر أنه قال : «أوصانى رسول الله أن أحب المساكين وأدنو منهم ، وأنظر إلى من هو دونى ، ولا أنظر لمن هو فوق ، وألا أسأل أحداً شيئاً ، وأن أصل الرحم ، وأن أقول الحق وإن كان مُرًّا ، وألا أخاف فى الله لومة لائم » .

وقد نفذ أبو ذر هذه النصيحة فى دقة ، فلم يحد عنها .

جاءت الدنيا بخيرها ونعيمها ، فعمت العرب ، واغتنى بعض أهل الصفة ، وظل أبو ذر متلذذاً من فقره ، متخففاً من حاجاته ، متعففاً عن الغنى حتى لقى ربه .

يعطَى العطاء فينفقه على الفقراء ، ويتصدق به على المحتاجين ، ولا يدخر لنفسه إلا القليل ، يرى من النعم الكبرى عليه أن له ثوبين ثوباً لبيته وثوباً للمسجد ، وله أعنزا يحلبها ، وله أحمرة يحمل عليها الميرة ، وعنده من يخدمه ويكفيه مهنة طعامه ، ويقول فأى نعمة أفضل مما أنا فيه ، ويحلب غنيماته فيبدأ بجيرانه وأضيافه ، ويبقى القليل لنفسه ، ويرفق بزوجته السحماء السوداء ، ولا يقبل نصيحة أصحابه فى أن يتزوج غيرها .

ميزة أبى ذر الكبرى هى ما نصحه به رسول الله أن يقول الحق ولو كان

مرًّا ، فقد تجلت فيه هذه الصفة على أتمها ، حتى اعترف له بها كل الناس ، وحتى روى عن علىّ أنه قال « لم يبق اليوم أحد لا يبالى فى الله لومة لائم غير أبى ذر ، ولا نفسى ؛ وأشار بيده إلى صدره » . وكان أبو ذر نفسه يقول « ما زلت آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر حتى ما ترك الحق لى صديقاً » .

تجلت فيه هذه الموهبة على أتمها — فيما تجلت — فى آخر أيامه ، وقد ذهب إلى دمشق ، وواليها معاوية من قِبَل عثمان ، والبلد تزخر بالنعيم ، وتتدفق بالذهب والفضة ، والناس ينعمون بأطايب العيش ومتع الحياة ، وكان قد ذاق وذاق معه كثيرون ألم الفقر فى الحجاز ، وجرّب بنفسه آلام البؤس ، فحزّ فى نفسه ترف هؤلاء ، وبؤس هؤلاء ، وتلا قوله تعالى « إن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فتملكته عقيدة أنه لا يصح الإفراط فى الترف بجانب الإفراط فى البؤس .

اصطدم أبو ذر بمعاوية ، وطبيعى أن يصطدما ، فمعاوية رجل سياسى ، محاور مداور ، فيه الاعتزاز بالأرستقراطية العربية ، من اعتداد بالحسب والنسب ، فأبوه أبو سفيان سيد بنى أمية ، والخليفة عثمان من بيته ، وأبو ذر رجل من سواد الناس لا يعتز إلا بدينه وخلقه ، ومعاوية هو الوارث فى إمارته بالشام ملك الرومان وزهوهم وفخامتهم وجبروتهم وأبهتهم ، يسكن القصور الفخمة ويعيش العيشة المترفة الناعمة ويتلو قوله تعالى « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وأبو ذر بدوى لا يملك إلا أعنزاً وثوبين وقليلا من الميرة ويعيش حتى فى دمشق فى خيمة من الشعر ، ويرى الذهب والفضة ناراً لا يصح أن تلمسها يده فتحترق ، ويتلو قوله تعالى « إن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ومعاوية سياسى ينظر للمال على أنه يخدم السياسة ويدَعِّم الملك والإمارة ، فهو يتألف به قلوب

النافرين ، ويقرّب به نفوس الثائرين ، ويهبه للشعراء ، يشيدون بذكره ويعلون من شأن بيته ، ويمكنون له فى سلطانه ، ويهجون المنحرفين عنه ، والناقين عليه وما إلى ذلك من أفانين السياسة ، وأبو ذر رجل صريح لا شأن له بالإمارة ، وقد عرف فيه رسول الله ذلك ، فقال له « لا تأمّرن على اثنين » ، فهو ينظر إلى الأمور نظرة صريحة مجردة من اعتبارات السياسة وملابساتها ، ويرى أن المال إنما جعل وسيلة لإسعاد الناس ، وسد حاجات البائسين ، وإعانة المعوزين ، لا لترف المترفين ، ولا لإعطاء الشعراء والمادحين والثائرين ، ولا لكنز الكانزين ، وأن المال خلق لسد الضرورات أولا ، ولترف المترفين أخيراً .

فلا عجب وهذا هو الشأن أن يصطدم أبو ذر بمعاوية اصطداماً عنيفاً ، وأبو ذر على بساطته وبداوته وفقره لم يكن رجلا هيناً يستطيع معاوية — على عظمته وسلطانه وسعة حيلته — أن يتغلب عليه فى سهولة ويسر ، فقد كان أبو ذر حارا فى عقيدته ، والعقيدة الحارة تزلزل الجبال ، وكان لَسِناً يجيد التعبير عما فى نفسه ، فيبلغ ببيانه من نفوس سامعيه مبلغاً كبيراً يخيف معاوية ، ولكن ماذا حدث ؟ حدث أن معاوية فى الشام كان إذا جاءه مال من ضرائب أو خراج أو نحو ذلك احتجز بعضه للصرف على المصالح العامة التى منها مصارف السياسة التى أشرنا إليها ، وكان معاوية يسمى هذا الجزء المحتجز « مال الله » تمشياً مع قوله تعالى : « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن لله خمسه » ، ومعنى مال الله أن الإمام يصرفه حيث يشاء فى المصالح العامة ، فلم يُرض أبا ذر هذا الرأى ، ولا هذه التسمية ، ورأى أن المال يجب أن يصرف أولا فى سد حاجة الفقراء ، وأنه يجب أن يسمى مال المسلمين . وذهب إلى معاوية ، وقال له ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ، قال معاوية يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، والمالُ مالَه ، والخلقُ خلقَه ، والأمر أمْرَه ، قال أبو ذر فإنى لا أقول إنه ليس لله

ولـكن سأقول مال المسلمين . اختلفت نظرية أبى ذر ومن تبعه ، ونظرية معاوية ومن على رأيه ومنهم الخليفـة عثمان . فعثمان ومعاوية ومن على رأيهما يرون أن وسائل الـكسب حرة مفتحة أمام الجميع ، فمن استطاع منها أن يغتنى من طرقها المشروعة فليغـتن ، فإذا اغتنى وجب عليه أن يؤدى الزكاة للفقراء على حسب الشريعة ثم هو بعد ذلك حر فى أن ينعم بالحياة أو يزهد فيها ، فإذا هو شاء النعيم فى حدود ما أحل الله ، فلا حرج عليه فى ذلك ، وقد عبر عن ذلك كله عثمان بن عفان بقوله لأبى ذر « يا أبا ذر علىّ أن اقضى ما علىّ وآخذ ما على الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد » .

وأما نظرية أبى ذر فهى أن الناس مطالبون أن يعينوا بمالهم الفقراء ، وأن الزكاة ليست هى كل ما يجب ، وإنما هى الواجب القانونى ، ووراء هذا الواجب القانونى واجب أخلاقى ودينى وهو معاونة البائسين والمحتاجين حتى يذهب بؤسهم واحتياجهم ، وليس لأحد أن ينعم كل النعيم وجاره بائس كل البؤس ، وقد عبر عن ذلك بقوله لعثمان « لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف ، وقد ينبغى للمؤدى الزكاة ألا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجـيران والإخوان ويصل القرابات » .

على كل حال اصطدمت النظريتان ، وأحس معاوية بخطر أبى ذر فى الشام ، وأن دعوته خطرة من جهتين ، من جهة خطرها على حرية الغنى ، وحرية العمل ، وحرية الـكسب ، وحرية الاستمتاع بالحياة ، ومن جهة أخرى أن بعض رءوس الفساد يستغل هذه الدعوة ، ويستغل طهارة أبى ذر فيشعل الفتنـة فى التأليب عليه وعلى دولته .

فـكتب معاوية إلى عثمان يشكو أبا ذر ودعوته ، فـكتب إليـه عثمان « إن الفتنة قد أخرجت خُطُمها وعَيْنَيْها ، فلم يبق إلا أن تثبت ، فلا تنكأ القرح

وجهز أبا ذر ، وابعث معه دليلا وزوده وارفق به » .

فبعث إليه أبا ذر فحاجه عثمان فلم يقنعه ، وطلب إليه أن يسمح له بالخروج إلى بلدة بعيـدة عن الناس ، فسمح له نخرج إلى الرّبذة ( وهى قرية على ثلاثة أميال من المدينة فى طريق مكة ) ، وما زال بها حتى مات رحمه الله .

لقد كانت أكبر ميزة فيه حبه للحق ، وصراحته فيه ، وعمله وَفق عقيدته ، لقد اعتقد هذه العقيدة فى المال ، فألزم نفسه اتباعها . ولقد كان — على فقره — يحلب غنيمة له فيبدأ بجيرانه وأضيافه ، ويقدم لهم ماعنده من تمر ، ثم يعتذر إليهم ويقول : لو كان عندنا ما هو أفضـل من هذا لجئنا به ، ويبيت أحيانا على الطوى ، وعرف منه رسول الله هذا الخلق ، فقال : «ماأظلت الخضراء ولاأقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر» .

ولطيفة أخرى له ، وهو أنه خالف معاوية واشتد فى مخالفته ، وخالف عثمان واشتد فى مخالفته ، ولـكنه رأى أن الأمور لا تصلح إلا بطاعة من بيده الأمر بعد أن يبـين له وجه الحق فى صراحة ، وأنه إذا عمل كل حسب رأيه من غير طاعة لرئيس أصبح الناس فوضى ، فكان هذا من أجمل المواقف لأبى ذر . حدث المؤرخون « أن أبا ذر وعثمان تناجيا حتى ارتفعت أصواتهما ، ثم خرج أبو ذر مبتسما ، فأتاه نفر من أهل العراق فقالوا يا أبا ذر ، فعل بك هذا الرجل وفعل ، فهل أنت ناصب لنا راية ( ؟ ) ( يريدون راية الثورة ) . قال : يا أهل الإسلام لا تعرضوا علىّ ذاك ، ولا تذلوا السلطان ، والله لو أن عثمان صلبنى على أطول خشبة لسمعت وأطعت ، وصبرت واحتسبت ، ورأيت أن ذلك خير لى ، ولوسيرنى ما بين المشرق والمغرب لسمعت وأطعت ، وصبرت واحتسبت ، ورأيت أن ذلك خير لى » . رحم الله أبا ذر ، فقدكان محبا للحق ، مخلصاً له ، جاهراً به ، ملتزماً له .

# العلماء فى حضرة تيمورلنك

كان تيمورلنك من هؤلاء الأفذاذ الذين يظهرون من حين لآخر فى التاريخ ، فيصبغون أديم الأرض بالدماء ، أمثال الإسكندر وهولاكو ونابليون . ويتجلى عليهم الله باسم المنتقم الجبار ، كما يتجلى على الأنبياء باسم الرحمن الرحيم أو الهادى الأمين .

تواتيهم الظروف وتسعفهم الأقدار ، فيقطعون الأرض طولا وعرضا ، وشرقا وغرباً ، كما يقطع اللاعب رقعة الشطرنج ، فيخربون ويدمرون ، وينكلون بمن يقف فى سبيلهم ، أو تحدثه نفسه بصدهم ، قد جُردوا من ضمير مؤنّب ، أو وجدان مشفق ، تلذهم الدماء كما يلذ الأكل الشهى النهم الأكول ، أو كما يلذ الماء الزلال الظامئ الصادى ، كأن بينهم وبين الإنسانية ثأراً ، فلا يهدأون حتى يقضوا عليها ، ويطووا صحيفتها . وهم مع هذا كله يعتقدون أن العناية الإلهية أرسلتهم ليدفعوا الظلم ؛ وينشروا فى الأرض راية العدل ، وويل للإنسان من العقل ، فهو قدير أن يسمى أقسى الظلم غاية العدل ، وأن يسمى التخريب تعميرا ، وأن يسمى الوحشية إنسانية ، وهو فى كل ذلك يجد المنطق الذى يخدمه ، والبرهان الذى يؤيده :

***

كان لتيمورلنك قلب أقسى من الحديد ، وأصلب من الجلمود ، لا تأخذه رأفة ، ولا تلجئه رحمة ؛ سلّط على ممالك آسيا فدوّخها ، وصاد سلاطينها ، وأباد البلاد ، وأهلك الحرث والنسل ، وأزهق النفوس ، وبنى القلاع من الرءوس.
وكان كما حدث عن نفسه « فى قدمه ثلاثة أشياء : الخراب والقحط والوباء » .

ولـكن كان له بجانب قسـوته وغلظته جوانب غريبة ، كان له فراسة فى الأشخاص ولا فراسـة إياس ، تستخرج من أعماق الصدور ما لا يستخرجه القياس . وكان إلى هذا يألف الأولياء والعلمـاء ، وتلذه مجالسهم ورؤيتهم ، وأحاديثهم ومناقشتهم ، يستمد البركة من الأولياء ويزورهم ويطلب دعاءهم ، وإذا فتح بلدة دعا علماءها للمجادلة معهم .

سمع — وهو بخراسان — عن ولى من أولياء الله ذى كرامات ظاهرة ومكاشفات صادقة ، اسمه زين الدين أبو بكر الخوافى ، فقصده تيمورلنك ونزل عن فرسه ودخل عليه ، فقام الشيخ له فانحنى تيمورلنك على رجله يقبلها ، فوضع الشيخ يده على ظهره ثم رفعها ، فقال تيمور : «لولم يرفع الشيخ يده لقضى علىّ ، فقد تصورت أن السماء تقع على الأرض وأنا بينهما» . ثم جلس فى أدب بين يدى الشيخ وقال له : لم لا تأمرون ملوككم بالعدل بين الرعيـة ؟ فقال له الشيخ : أمرناهم فلم يأتمروا فسلطناك عليهم . ففرح تيمور بهذا وقال : « ملـكت الدنيـا ورب الـكعبة » .

هذا موقفه من الأولياء يحترمهم ويطلب الدعاء منهم ويعتقد فيهم ، ولـكن موقفه من العلماء كان غير ذلك . يتفرس فيهم ومن زل منهم لا يرحمه ، يلعب بهم كما يلعب الذئب بالحمل أو القط بالفار ، ويلذه فيهم أن يوجه إليهم الأسئلة المحرجة وينتظر كيف يجيبون وكيف يخرجون من المأزق الذى وضعهم فيه ، ثم هو بعد ذلك حسب أحواله ، فتارة يسر من الإجابة ويبسم ، وأحيانا يعبس ، وأحيانا يعفو ، وأحيانا يقتل .

وكان لتيمورلنك إمام يصلى به وهو عالم جليـل يتولى أمام تيمور مناقشة العلماء وجدالهم ، وهو عبد الجبار المعتزلى الحنفى الخوارزمى ، برع فى فنون العـلم ومهر فى الفقه والأصول واللغة والبلاغة والأدب ، وكان فصيحا فى اللغات الثلاث:

العربية والفارسية والتركية ، له جاه عند تيمور ، يلطف من حدته وقسوته أحيانا ، وقد صحبه فى فتح الشام وتولى أمامه مناقشة علمائه وإحراجهم بالأسئلة العويصة .

من ذلك أنه لما فتح حلب ، واستولى على قلعتها ، دعا علماءها وقضاتها ، فانتخبوا من بينهم من يجيب عنهم ، وهو ابن الشِّحنة أحد العلماء المشهورين ، كان من أصل تركى وتولى القضاء بحلب ، وله كتابه التاريخ المعروف ، واشتغل بالحركات السياسية فى مصر والشام .

انعقد المجلس وفيه تيمور وعبد الجبار والعلماء ، فقال عبد الجبار :

— سلطاننا يقول إنه بالأمس قُتل منا ، وقُتل منكم ، فمَن الشهيد ؟ قتيلنا أم قتيلكم ؟

فوجم الجميع ، وقال العلماء فى أنفسهم : هذا والله ما بلغنا عنه من التعنت .

وأحرج ابن الشحنة حقا ، أيقول قتيلكم فيكذب نفسه ويغضب ربه ، أو يقول قتيلنا فسيف تيمور على رأسه .

ولكنه كان داهية ملهماً ، فقال :

— هذا سؤال سئل عنه رسول الله (ص) وأجاب عنه :

فبهت الحاضرون وظنوا أن الشيخ أدركه الخبل ، وغضب تيمور وقال : أيسخر من كلامى ، كيف سئل رسول الله ، وكيف أجاب ؟ قال :

— جاء أعرابى إلى رسول الله وقال : يا رسول الله ، إن الرجل يقاتِل حَمِيّة ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل لِيُرى مكانُه ، فأينا فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو الشهيد » .

فسر تيمور لهذا الجواب ، وأعجب بدهاء الشيخ ولطف بديهته ، وأخذ يؤانس العلماء .

ثم أخذ يسألهم أسئلة أخرى ، فلما شعروا بلطفه نفضوا توكيلهم للشيخ ابن الشحنة ، وأخذوا يتسابقون للإجابة ، ولم يكونوا فى مهارته ولا خبرته .

كان تيمور شيعياً يفضل علياً على أبى بكر وعمر ، وكان يكره من أهل الشام نصرتهم لمعاوية وقتالهم علياً ، ولكن العلماء لايدرون ذلك ، إنما يدريه الشيخ ابن الشحنة الداهية المؤرخ .

سأل تيمورُ ابنَ الشحنة : ما تقول فى على ومعاوية ويزيد ؟ فقبل أن يجيب ابنُ الشحنة أجاب القاضى علم الدين فقال : الكل مجتهدون ، والكل على صواب . فغضب تيمور غضباً شديداً ، وسب العلماء ، وسب أهل حلب وقال : أنتم حلبيون وتابعون لأهل دمشق ، وهم يزيديون ، قتلوا الحسين وأعانوا يزيد .

فكانت ربكة ، وكانت حيرة ، وكان وجوم .

ولكن ابنَ الشحنة أنقذ الموقف أيضاً ، فقال : إن الشيخ علم الدين أجاب بشىء وجده فى كتاب لايعرف معناه ، فسرى عن تيمور وعاد إليه بشره .

وانتقل بعد ذلك تيمور إلى دمشق وفتحها ، ووقف من علمائها موقفه فى حلب .

فذهب إليه جماعة من العلماء ، وعلى رأسهم الداهية المؤرخ الآخر ابن خلدون ، ذهب إليه بلباسه المغربى ، وزيه الأنيق الرقيق ، وقد أنابه العلماء أيضاً فى الكلام عنهم ، ورضوا بأقواله لهم أو عليهم ، فعرف تيمور من شكله وزيه أنه ليس من أهل هذه البلاد ؛ ثم دعاهم تيمور إلى الطعام ، ومدّ لهم سماطا كوّم عليه اللحم تلالا ، فمنهم من أكل ، ومنهم من جبن ، وجعل تيمور يلحظهم ويتفرس فيهم ، وابن خلدون يسترق النظر إليه ، فإذا وقعت عينه على عين تيمور أطرق ، وإذا ولى عنه رمق ، ثم جاءت فرصة الكلام ، فقال ابن خلدون كلام اللبق الحاذق الماكر ، قال : رأيت الملوك ، وشهدت مشارق الأرض ومغاربها ، وخالطت ملوكها وأمراءها ، ولكن الله مَنّ علىّ بأن أحيانى حتى رأيت الملك على الحقيقة، وطعام الملوك إن كان يؤكل لدفع التلف ، فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك

وللفخر والشرف . فسر تيمور بذلك، وسأله عما يعرف من أحوال البلادوأخبارها.

واجتمع يوماً علماء دمشق بين يدى تيمور ،فأثار ثانية مسألة على ومعاوية ، إذ هى أنسب المسائل التى يتذرع بها للتنكيل بأهل الشام ، وذكَرَ يزيد ومقتل الحسين، وقال: إن هذه الأعمال كانت بمظاهرة أهل الشام ، فإن كانوا مستحليها فهم كفار، وإن كانوا غير مستحليها فهم عصاة أشرار . وقد هدأ من ثائرته أحد العلماء محمد بن عمر المعروف بأبى الطيب ، فقال : إن نسبي يتصل بعمر وعثمان ، وكان جدى الأعلى ممن حضر تلك الوقائع ، وقد توصل إلى رأس الحسين ونظفه وغسله ودفنه ؛ ولذلك سموه أبا الطيب ، وتلك أيها الأمير أمة قد خلت ؛ وفتن أزاحها الله عنا ، ودماء طهر الله سيوفنا منها ،فلا خير فى إعادة الماضى ونبش مادفن.

وقد أرضاه هذا الكلام على علاته ، وصادف حالة الرضا من حالاته .

ولكن لعل ألطف ما حدث فى هذا الباب مجلسٌ مثلُ هذا أثار فيه تيمور سؤالاً من أسئلته المحرجة ، وهو : أيهما أعلى ، درجة العلم أم درجة النسب ؟

وموضع الإحراج فيه أن تيمور يعتز بنسبه لا بعلمه ، والعلماء يعتزون بعلمهم لا بأنسابهم ، ويقررون أن شرف العلم فوق شرف النسب .

سمع العلماء هذا السؤال فوجموا وأحجموا عن الجواب ، ولكن أحدهم تردد بين أن يسكت سكوتهم أو يجهر برأيه ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى أخذته الحميّة الدينية والعصبية للحق . كان هذا العالم هو شمس الدين النابلسى الحنبلى ، اشتهر بالعلم الواسع ، حتى لقب بالجنة ، لأن لديه من العلم ما تشتهيه الأنفس .

لم تطاوعه نفسه أن يكون لبقاً كابن الشحنة وابن خلدون ، ولا أن يوارى ويدارى كما فعل غيره ، ولـكنه أراد أن يكون صريحاً كل الصراحة صادقاً كل الصدق ، وأراد أن يقول الحقيقة كلها عارية . صرخ فى وجه تيمور وقال : « العلم أعلى من النسب » ولم يكتف بذلك بل استدل بأدلة فى الصميم مما يكره

تيمور ، فقال : الدليل على ذلك أن الصحابة أجمعت على تقديم أبى بكر على على ، لأن أبا بكر أعلم ، وإن كان نسب علىّ أشرف .

وما أتم هذا حتى أدرك نتيجة ما فعل ، فلم يتراجع ولم يجمجم وصمم على أن يتم فصول الرواية فأتمها بفصل ظريف حقا .

نظر الحاضرون فرأوه يفك أزراره ويخلع إزاره ، فدهشوا ودهش تيمور ، وسأل : ماذا تصنع ؟ فقال : إنى قلت ما قلت وأنا أعلم بنتيجته ، فأنا أستعد للسعادة ، وأختم حياتى بالشهادة .

وعلا الجميع رهبة رهيبة ، وشُدت أعينهم بلسان تيمور ، ينظرون بماذا يأمر وبأى نوع من القتل يشير ، وهم يعلمون أنه يقتل بالظّنة ، ويخسف بالناس الأرض للكلمة الخفيفة ، وللقول يحتمل التأويل . فكيف بهذا وقد بلغ الغاية فى الإساءة ، وتجاوز الحد فى الصراحة ؟ ولكن الله مقلب القلوب أجرى على لسان تيمور هذا القول ولم يزد عليه :

« لا يدخلن علىّ هذا بعد اليوم » .

# ضبط العواطف

تختلف الأمم فى ضبط العواطف اختلافا كبيراً كاختلاف الأفراد ؛ فبعضهم حاد المزاج سريع الانفعال ، و بعضهم هادئ المزاج بطىء الانفعال . وكذلك الشأن فى الأمم فهى تختلف فى حدة عواطفها و برودتها ومقدار انفعالاتها أمام الحوادث ، ودرجة حزنها وسرورها وخوفها وطمأنينتها إلى غير ذلك .

ولعلنا إذا قارنا الأمة المصرية بغيرها من الأمم الأوروبية وجدناها من أكثر الأمم حدة عواطف وشدة انفعال ، وذلك يظهر فى مظاهر شتى .

من ذلك أنها تبالغ فى مظاهر فرحها وحزنها ؛ فالميت إذا مات فانفعالات شديدة جداً يتبعها مظاهر قوية من عويل وصراخ ، ومغالاة فى إقامة المآتم وما إلى ذلك ، وكذلك الشأن فى الأفراح ؛ مظاهر زائطة وطبل وزمر عنيفان ومبالغة فى الحفلات وما إلى ذلك .

نقارن بين ذلك و بين مثل هذه المظاهر فى بعض الأمم الأخرى فنجد الهدوء والاقتصاد فى العواطف والاقتصاد فى مظاهرها ، وأسوق مثلا من هذا القبيل ، فقد كان لدينا فى الجامعة المصرية أستاذ أجنبى فى الثامنة والأربعين من عمره ، عاد إلى بلاده فى الصيف فخرج يتروض فتسلق جبلا فزلت قدمه وما زال ينحدر ويتخبط فى الصخور حتى فارق الحياة — بلغنى أن الخبر وصل إلى زوجته وصادف أن أباها يزورها ويقضى ليلة عندها ، فكتمت الخبر عنه وكتمت عواطفها وإذا احتاجت إلى البكاء انفردت فى حجرتها وبكت ، فإذا ظهرت أمام أبيها تجلدت ، حتى أمضى أبوها ليلته هادئا لم يعكر صفوه شىء ثم رحل فى الصباح ، ثم أعلنت هى وفاة زوجها العزيز عليها فى هدوء ،

ومن مظاهر حدة العواطف الخوف من الأمور الصغيرة ، والفزع الشديد من الحوادث التى قد تكون تافهة ، والغضب الشديد للكلمة النابية ، والوصول إلى أقصى حد فى الانفعال للحوادث اليومية ، التى يكفى لمرورها غض الطرف عنها ، إلى كثير من أمثال ذلك .

ومن مظاهرها عندنا الفنون ، فالموسيقى لا تعجبنا إلا إذا كانت عالية جداً وزائطة جداً فى السرور ، ومائعة جداً وباكية جداً فى الحزن ؛ أما الهادئة المعتدلة فى السرور والحزن فلا . وكذلك الشأن فى الأدب ؛ لابد من مبالغات قوية جداً واستعارات ومجازات ممعنة فى الخيال حتى تعجب ، فإذا كان يحب فلابد أن يذوب ، ولابد أن يصيبه الهزال حتى لايكاد يرى ، ولابد أن تسيل دموعه أنهاراً ، ولابد أن يبكى دما ، وقلبه لابد أن ينفطر ، وكبده لابد أن تتصدع ؛ وهكذا فأما حب فى اعتدال وأدب فى اعتدال فلا . وإذا فرح فلابد أن تضحك الشمس لضحكه ، وتترنح الأغصان لترنحه ، وتبتسم الأزهار لتبسمه وهكذا .

ويظهر ذلك أيضاً فى النكت والنوادر ؛ فهى لا تعجبه إلا إذا كانت ظاهرة مكشوفة تستخرج الضحك العالى لا التبسم الخفيف ، وإذا كانت نكتة ناقدة فلابد أن تكون لاذعة وأن تكون مميتة ، فأما نكتة خفيفة مستوردة تمس ولا تجرح أو تسر ولا تضحك فلا . وهذا هو الشأن فى التمثيل ؛ فالرواية الجيدة هى التى تهز العواطف هزاً عنيفا ؛ إن أضحكت فلابد أن يمسك قلبه من كثرة ضحكه وإن أحزنت فلابد أن يبل منديله من كثرة دموعه ؛ والإخراج لابد أن يكون فيه صراخ كثير وانفعال قوى ؛ فأما أن يتكلم الممثل كما يتكلم الناس فى مجالسهم العادية ، وأما أن يقتصد فى حركاته وإشاراته ونحو ذلك ، فكل هذا يخرجه عن أن يكون ممثلا قديراً ومخرجا نابغة .

فالذوق لتمشيه مع العاطفة لايعجبه إلا ما فيه حدة ، حتى المأكولات لابد أن

تكون دسمة أو حريفة أو زاعقة ، والملبوسات لابد أن تكون زاهية أو صارخة ، والمشمومات لابد أن تكون ذا رائحة نفاذة قوية و إلا لايستسيغها الذوق .

هذه الحدة فى العواطف ، والمبالغة فى الانفعال تتخذ فى الأمة مظاهر واضحة ، فجانب كبير من الجرائم سببه حدة العواطف ، فكل يوم نرى فى الجرائد أخباراً عن قتل أو كسر أو جراح لأسباب تافهة يعجب العقل الهادئ كيف وصلت إلى هذه النتائج ؛ فقتل لنزاع على ماء للرى وضرب أفضى إلى الموت لكلمة صدرت اعتبرها السامع سباً فاضحاً ، وهكذا مما نطالعه كل يوم ، حتى فى الطبقة المثقفة يثور الجدل بينهم ويبدأ هادئا ولكن سرعان ما يحتد المزاج وتعلو نغمة الجدال فتنقلب إلى سباب ، ولا يقتصر الأمر على حجة أمام حجة ولا برهان أمام برهان بل يتعداه إلى سباب أمام سباب ونقد لاذع أمام نقد لاذع وتنسى المسائل الأصلية وتبقى الحزازات النفسية ، هذا هو المظهر العام فى الشارع ، وفى البيت وفى المحاكم وفى الصحف ، كأن كل الناس يحمل مستودعا من البنزين ينتظر أقل اشتباك أو احتكاك .

ومما يؤسف له أن هذه الحدة فى العواطف ، والحرارة فى الانفعال تظهر فى كل الأشياء التى ذكرنا وتكون فيها أكثر مما ينبغى ، مع أنها تبرد أمام أشياء أخرى وتكون أقل مما ينبغى ؛ فلا نرى حرارة فى الانفعال أمام جمال الطبيعة ولا جمال المعانى ولا حسن النظام ، ولا نرى غيرة شديدة على الحرية الفردية ولا الحرية الاجتماعية ؛ وهذا الذى يغضب غضباً شديداً لكلمة جرحت احساسه لايغضب لمنظر أوذيت فيه العدالة ، وهذا الذى ينفعل انفعالا شديداً على شىء من ماله لاينفعل للتعدى على سمعة قومه أو حرية قومه ، وهذا الذى يذوب حباً ويفنى عشقاً فيمن يحب لايتحرك قلبه لجمال طبيعة أو جمال معنى أو جمال مبدأ سام ؛ فأوتار أعصابه لا تنفعل هذا الانفعال العنيف إلا للنواحى الشخصية

والأشياء المادية ، ولو أنها انفعلت لهذا وذاك لاحتمل ذاك القبح فى سبيل هذا الجمال .

حدة العواطف وشدة الانفعال فى الأمة تسبب لها متاعب كثيرة فى الحياة ، وتفقدها سعادتها ، فالبيت جحيم من غضب الآباء والأبناء ، فكلمة صغيرة من أب لابنه أو ابن لأبيه أو من أم لبنتها أو من بنت لأمها تشعل النار فى البيت وتجعله جحيما زمناً طويلا ، والعلاقات بين الأصدقاء عرضة للخطر لتوافه الأمور ، والعلاقة بين العاملين فى مصلحة أو جمعية معرضة للفساد ولأقل حادث ، والعلاقة بين الأحزاب علاقة عداء حاد غالباً ، والمحاكم مكدسة بالقضايا من أثر النزاع الحاد ، وهكذا ، حتى بين الذين لا علاقة بينهم ، كالناس فى السينما وفى الترام وفى القطار ، لا يخلو مجتمعهم من أحداث كثيرة بسبب الانفعال السريع ، ولو تعودنا ضبط العواطف فى كثير من الأحوال لمرت الحوادث بسلام ، ولكن هل هذا العيب قابل للإصلاح ، وهل هذه الانفعالات قابلة للانضباط ؟

قد يرى قوم أنها حركات نفسية اضطرارية كنبض القلب وإفراز المعدة ، وأنها نتيجة طبيعية لحرارة الجو وطبيعة الإقليم ، ولكنى لست أرى هذا الرأى ، وأنها حركات نفسية إرادية يمكن إصلاحها وتهذيبها والتغلب عليها ، بدليل أننا نعيش جميعاً فى بيئة واحدة خاضعة لدرجة واحدة من الحرارة ، ومع ذلك فينا من يضبط عواطفه ويحكم انفعالاته ، ولو كان الأمر خاضعاً لفعل الطبيعة وحدها لم يشذ عن الخضوع لها أحد ، وكما يقول الفلاسفة « ما بالطبع لا يتخلف » والمثقفون — فى جملتهم — أضبط لعواطفهم من غير المثقفين فى جملتهم .

ونحن لو نظرنا إلى سلَّم الرقى من الحيوان إلى أرقى نوع من الإنسان وجدنا أن الحيوان تسيّره غرائزه وانفعالاته الوقتية فقط ، وكذلك الشأن فى الإنسان البدائى ، فإذا ارتقى وجدنا عاملا جديداً يظهر فى تسيير تصرفاته وهو الفكر والعقل ، ونراه

محكوما بهما معاً ، وكلما رقى الإنسان كان الفكر أظهر فى تصرفه ، ووجدنا الحدود الفاصلة بين العواطف والفكر تتكسر ، فعواطفه تلطفها الفكرة وتهذبها الحكمة ، وعقله تحمسه العاطفة ويزيد حرارته الشعور والانفعالات ، ووجدنا العلاقة بين عواطفه وفكره علاقة متينة ؛ ذلك لأنه إن عاش بعواطفه وانفعالاته فقط لم يكن هناك تفاهم بينه و بين غيره إلا من شعر مثل شعوره ، لأن أساس التفاهم هو العقل ؛ فمن قال إنى أحب هذا الشىء أو أكرهه ولم يزد على ذلك لم يكن هناك سبيل إلى مناقشته وإقناعه بخطئه ، ولأن الخضوع للعواطف وحدها عرضة للاندفاع السريع ثم التراجع السريع ، كما نشاهد فى الحب الذى لم يؤسس على التفكير ، ولا على النظر فى العواقب ، فهو انفعال مؤقت كثيراً ما يعقبه فشل أليم وعلى العكس من ذلك العواطف بعد التفكير ، والاندفاع بعد العلم والتأمل ، ولو تتبعت أكثر الناس الذين يسيرون وراء عواطفهم فقط لوجدت عاقبتهم الفشل دائماً ، فمن يغضب لأقل سبب ويحب لأول نظرة ، ويندفع لداعى الغريزة لم يستطع السير فى الحياة طويلا ، ولا بد للنجاح من عواطف يحكمها الفكر ؛ وأفكار تحمسها العواطف .

يتطلب ضبط العواطف كظم الغيظ عند دواعى الغضب ، والاعتدال فى الانفعال عند بواعث السرور والحزن ، والتؤدة والتفكير عند إصدار الحكم ، والتفكير عند نزوات الهوى ، فلا إفراط فى السرور ولا الحزن ولا الغضب ، ولا نحو ذلك من أنواع الانفعال .

وهو فضيلة فى الأمم كما هو فضيلة فى الأفراد ، فقد تكون حدة العواطف فى الأمة سبباً فى شقائها ؛ فكثيراً ما تعرض للأمة أزمات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية فيمكنها أن تجتازها بضبط عواطفها ، وتلطيف انفعالاتها ، والحكمة فى

تصرفاتها ، ووزن عواقبها ، على حين أنها تعرض نفسها للخطر إذا انقادت لعواطفها من غير تفكير .

ضبط العواطف فى الفرد يكتسب بالمران والتعود ، فلا يزال المرء يغضب فيكظم ثم يغضب فيكظم حتى يكون حليما ، ولا يزال يقاوم نفسه فلا يندفع فى سروره وحزنه حتى يكون حكيما ، وكثيراً ما تكون حدة العواطف نتيجة قصر النظر وضيق العقل ، فإذا هو وسع أفقه وجرب الحياة ودرس الأشياء ونتائجها علم كيف يضبط نفسه .

أما تربية هذا الخلق فى الأمة ، فهو — أولا — فى يد الرأى العام ، فإذا احتقر الناس الغضوب لغضبه ، والجبان لخوفه ، والمرح لاستهتاره ، والحزين لجزعه ، تصلب عود الأمة وانضبطت عواطفها واعتدلت فى انفعالاتها .

وهو — ثانياً — فى يد قادتها ، فالأمة تحتاج فى طور تكوّنها إلى مُثُل عليا من قادتهم يقتدون بها ، فإذا رأتهم قد ضبطوا عواطفهم إذا اختلفوا ، وحفظوا ألسنتهم إذا غضبوا ، وضحّوا بشهواتهم إذا أُزموا ، كانت كل هذه دروساً للشعب يحتذى حذوهم ويسير على منهجهم ، ثم قادة الفنون فى الأمة يجب أن يتخلوا عن هذه الميوعة فى العواطف ، فالغناء يجب ألا يكون كله ذوبانا فى العشق وهياما فى الغرام ، والأدب لابد أن يكون مما يبعث القوة فى النفس ويسبب الصحة فى العاطفة ، والتمثيل يجب أن يكون معتدلا فى العاطفة طبيعياً فى الإخراج ، ويعلّم الناس أن ليست أحسن الروايات ما أسالت الدموع ، ولا بعثت على القهقهة العالية ، إنما أحسنها ما أثار عاطفة صحيحة لا مريضة ، وبعث على التبسم اللطيف أو الحزن الهادى .

هذه كلها تصبح دروساً يتعلم منها الشعب فيعتدل مزاجه ، وتصح عواطفه ويحسن تصرفه .

# كنوز فى بيت جائع

كنت أعتقد — كما علمونا فى المدارس — أن قيمة مصر فى واديها الضيق الواقع بين جبلين ، وأن هذا الوادى المزروع نفحة من نفحات النيل فيه كل ما فى مصر من خير ، وأنها بلاد زراعية فحسب ، غناها فى زراعتها ولا شىء غير ذلك ؛ وكانوا يلقنوننا أن «ماعدا الوادى برارى وصحارى قليلة النبات والسكان» ، فاذا زادوا شيئاً قالوا : « وفيها بعض المعادن كالرخام والنطرون والشب والملح والجير» .

هكذا كانوا يعلموننا أيام التلمذة ، فخرجنا من ذلك على أن مصر خط طويل منزرع ، أودع فيه كل ثروتها وإنتاجها ، وحوله صحراء جرداء « فيها كثير من الأرانب والغزلان و بعض الحيوانات المتوحشة » ؛ ووقع من ذلك فى نفوسنا أن هذه الصحراء ليس فيها من خير إلا أنها تلفحنا بسمومها وزمهريرها ، وتحمينا بجدبها وفقرها وقلة مائها من إغارة عدونا علينا ؛ وأحياناً تجود شمسها فى الشتاء ، ويجود قمرها فى الصيف ، فيخرج إليها الهواة يستمتعون بدفئها ونسيمها ، والغزلون والشعراء يستلهمونها فى غزلهم وشعرهم .

حتى أتيحت لى قراآت خاطفة ورحلات متعاقبة ، أيقنت معها أن الصحراء كنوز متفرقة وثروة ضخمة ، لا تقل شأناً عن النيل ومزارعه ، والخصب ونتاجه ، وأنها كفيلة أن تحول مصر إلى بلد صناعى كما حولها النيل إلى بلد زراعى ، فتكون بلداً زراعياً وصناعياً معاً ، وينعم أهلها بالخصب الزراعى و بالنتاج الصناعى ، ويتدفق المال عن أيمانهم وعن شمائلهم فاذا هم أغنياء ناعمون ، وليس ينقصهم للوصول إلى ذلك إلا شىء اسمه العلم ، وشىء اسمه الخلُق .

أدرك هذه الثروة فى بلادنا الأجانب قبل أن ندركها ، وعلموا من قيمتها ما لم نعلم ، فجابوا الصحراء ، وتسلقوا الجبال ، وهبطوا الوديان ، ودرسوا وامتحنوا واختبروا واكتشفوا ، ورسموا الخرائط ، ووضعوا الخطط للاستغلال ، وألفوا الشركات ؛ وما لم تواتهم الظروف لاستغلاله كتموه سراً دفيناً فى نفوسهم حتى يجىء زمنه وتنضج ثمرته ويحين قطفه ؛ وأبناء البلد لاهون غافلون يتجرع أكثرهم الفقر ويتلوى من الجوع ، ولا يرون فى الصحراء إلا تراباً متجمعاً أو صخراً متجمداً ، والأجنبى يراها كتاباً مقروءاً وكنزاً مفتوحا .

طف — إن شئت — بالصحراء تر الشركات على اختلاف أجناسها : هذه تستخرج زيوتاً ، وهذه تستخرج معادن لا حصر لها ، وما كل ذلك إلا قليل من كثير تضمه الصحراء بين جوانحها سراً مكتوماً ، تبوح به لمن أوتى « عزائم الكنوز » ، وهى العلم والخلُق .

أما العلم فأعنى به طائفة تتخصص فى معرفة المعادن والتعدين معرفة واسعة عميقة تصل فيها إلى ما وصل إليه علماء الغرب ، من معرفة بطبائع الأرض وطبائع طبقاتها وطبائع معادنها وكيفية استخراجها وكيفية استغلالها ، وما إلى ذلك .

وأما الخلق فمطلبه أعسر ، إذ أعنى به حرصاً شديداً على مصالح الأمة ، ورغبة قوية فى العمل ، وإرادة جبارة فى التنفيذ ، وتعاوناً وثيقاً بين الجهات المختصة وأرباب الأموال ، وإهدار الحزبية للصالح العام ، والشجاعة فى التجارب أمام احتمال الفشل ، وما إلى ذلك .

ألم تبلغك مأساة كهربة خزان أسوان وما جر تأجيلها من كوارث وما أضاع على البلاد من فوائد كانت تجنيها منها ، وبخاصة أيام هذه الحرب ؟ لقد أضاعها تخلخل الإرادة ، وضعف الإيمان ، ودسائس الحزبية ، والرغبة القوية فى الجدل دون العمل .

* * *

كل الناس فى مصر يرغبون فى استثمار أموالهم من طريق ملكية الأراضى وزراعتها ، وكل الأمل معقود باستصلاح الأراضى « البور » واستغلالها ؛ خُلُق موروث من القرون الأولى ؛ وقفوا عنده وتمسكوا به ولم يتزحزحوا عنه ؛ وكان ذلك طبيعياً لو لم يكن لهم موارد غير الأرض ، وحتى هذا الاستغلال الزراعى لم يؤمنوا بمنهج له إلا مناهج قدماء المصريين فى نوع زراعتهم وآلاتها وتصريفها ؛ وفاتهم أن العلم فى العصر الحديث تفنن فى الوسائل الزراعية وأبدع فيها ، كما فاتهم أن العلم قد اكتشف فى مصر كنوزاً لا عدّ لها يمكن أن تستغل بخير مما تستغل به الأراضى الزراعية ، وأن رءوس الأموال يوم تودع فيها تُربح مالا يُربح القطن والغلال ، ولكن عيبها أنها تحتاج إلى علم أوفى وخلق أرجح وإقدام أقوى وإرادة أنفذ وتعاون أوثق .

* * *

وليس الاستغلال الصناعى يعود على الأمة بالخير من ناحيتها المادية فحسب ، بل من ناحيتها الخلقية والاجتماعية أيضاً ، فالأمة الصناعية أرقى — عادة — من الأمم الزراعيـة فى عقلها وخلقها وإدراكها لحقوقها الاجتماعية وواجباتها القومية ؛ فإذا أضفنا إلى طبقتنا الزراعية طبقة أخرى صناعية ، كان لنا من ذلك طبقة أخرى جديدة أشد نشاطاً وأصلح حياة وأرقى إدراكا ، تكوّن مع الطبقة الزراعية مزاجا منسجما ، ومزيجا متجانساً .

* * *

دعانى إلى الكتابة فى هـذا الموضوع رحلة فى الصحراء مع صفوة من الأصدقاء فى عطلة هذا العيد ، فاخترقناها من أسيوط إلى الواحات الخارجة فالداخلة ؛ وعهدى بالواحة الخارجة قديم ، فقد عينت فيها أول ما عينت قاضياً ، وجبت بلادها ، وزرت أكواخها ، وعاشرت أهلها ؛ وقضيت بين خصومها ؛

فلما زرتها هذه المرة بعد أكثر من عشرين عاماً ، حننت اليها حنينى إلى الشباب ، ووقفت على دورها القديمة ، وقلت هنا كنت أسكن ، وهنا كنت أقضى ، ورأيت أكثر من عرفت فيها قد اخترمتهم المنية ، وعدا عليهم الزمن . ورأيت مظاهرها الخارجية قد حسنت ، وأصبحت تعجب الناظرين ؛ فقد تحولت من مركز يديره معاون إدارة إلى محافظة يسكنها محافظ ؛ فشوارعها قد اتسعت ، ومدخلها نسق بالأشجار ؛ وهذا ناد للموظفين ، وهذه استراحات للحكومة ؛ ومع هذا فالشعب بائس كما تركته ، فقير كما تركته ، مريض كما تركته ، وموارده النخيل كما تركتها ، والأرض الخفيفة القليلة كعهدى بها ، والحيوانات الهزيلة كما خلفتها .

ورحلنا إلى الواحات الداخـــلة ، فوجدنا منجما جديداً يكتشف ، وكنوزاً وافرة يهتدى إليها .

كانت هناك منذ القدم مياه على بعد قريب من الأرض يُعثر عليها ، فإذا مدت الأنابيب إليها خرج ماؤها يسيح على وجه الأرض يستقون منه ، ويزرعون به أرضهم القليلة الضعيفة ، ثم تقل المياه ، وتطمر عين وتفتح عين ، والماء محدود ، والعيون يؤثر بعضها فى بعض ، تتأثر العليا منها بالسفلى .

فمن عهد قريب أرادوا تجربة النزول بالأنابيب إلى عمق أبعد ، واختراق طبقة أسفل ، فما إن دقوا أنابيبهم ووصلوا إلى ثمانمائة قدم حتى تدفقت المياه على سطح الأرض فى غزارة عجيبة ؛ وإذا بالعين الواحدة تقذف خمسة عشر ألف طن فى اليوم من غير آلات رافعة ، ومن غير أى عناء ؛ ثم تجرب التجربة نفسها فى أربعة مواضع فتخرج عيون أربع كالتى وصفنا ، ويدل البحث على أن هناك مساحات فسيحة فى أعماق الأرض تدخر هذه المياه فى وفرة عظيمة وغزارة عجيبة . فماذا كان ؟

هل حللت هذه المياه لمعرفة عناصرها ، وما تحتويه من مواد ومالا تحتويه؟ وما هو نوع الزرع الذى يناسبها والذى لا يناسبها ؟ هل اختبرت المياه وعرف ما تفيد من الأمراض وما لا تفيد ؟ هل رسمت خطة منظمة للانتفاع بهذه المياه الدافقة ؟ هل تعاونت وزارة الزراعة ووزارة الأشغال و وزارة الصحة فى استغلال هذه المياه ؟ فالأولى تنظم الزراعة ، وتشير بطرقها وما يصلح لها ، والثانية تنظم الرى ؛ وتستخرج كمية المياه المطلوبة ، والثالثة تنتفع بها من الوجهة الصحية ، وتمنع ما ينجم عن ركودها من أضرار ؟ لا شىء من ذلك كله ، وكأن العيون قد نبعت فى المريخ ، وقد رأيت المستنقعات حولها تتكون ، والأيدى العاملة لا تتناسب وغزارتها ، وكأن العيون عز عليها سوء استقبالها ، فتسربت إلى الرمال لتعود إلى أعماقها فى خجل وخزى ؛ وسمعت بعض أولى الأمر هناك يشيرون بسدها إلى أن يستيقظ النائم ، ويجدّ الخامل .

رحماك اللهم ! لو نبعت مثل هذه العيون فى أمة يقظة ، لحولت ما حولها جناناً ناضرة ، وبساتين مزهرة ، وحدائق غُلبا ؛ وفاكهة وأبّا ، ولأزالت البؤس وأجرت النعيم ، ولأفنت العطالة ، والتهمت البطالة ، ولرأيت المستشفيات تبنى حولها ، والمشاتى تقام فى نواحيها والمواصلات تمد إليها ؟ ولرأيت ثَم نعيما ومُلكا كبيراً ؛ ولكن واأسفاه ! عز العقل المدبر ، وضعفت الهمة النافذة ، فلننتظر حتى يأتى إليها من غير أهلها من يعرف كيف يستغلها . ويالله للشعب البائس ! ويالله ممن بيدهم تصريف الأمور ! أليست هذه كنوزاً فى يد مساكين !

# يوسف الكيمياوى

العهد عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون ، الجالس على عرش مصر والشام ، والمستبد الذى ترتجف منه قلوب الولاة والأمراء ، والقوى بجيشه ومؤامراته فتخطب وده الدول المجاورة ، والقابض بيده على زمام الأمور كلها ، فترفع إليه كل يوم التقارير عن العمال والولاة ، والحركات والتدبيرات ، والدخل والخرج ، فلا يفوته منها شىء .

والسنة سنة ٧٣١ هجرية وقد أصبح المال معبود هذا السلطان ، لأنه محتاج إليه فى أبهته وعظمته ، وبذخه وترفه ، وجواسيسه وأتباعه ، وزوجاته الكثيرات ، وجواريه العديدات ، وبيوته الكثيرة ، ونفقاته الضخمة وعماراته ، وشروره وخيراته ؛ فإن لم يحصل على المال حلالاً فليحصل عليه حراماً ، وليتعرف أحوال رجاله ومقدار ثروتهم ومخبأ كنوزهم ، وليتلمس لهم العثرات بالحق وبالباطل حتى يستبيح مصادرتهم واستحواذ أملاكهم ، ووضع يده على ثرواتهم .

وهؤلاء الأمراء على دين ملوكهم يفعلون بالشعب ما يفعله السلطان الناصر بهم ، فيغتنون من الفقراء ، ويسرقون من البؤساء ، ويجمعون ما يصل إلى أيديهم ؛ ثم يصادر السلطان ما تعبوا فى جمعه ، وتحيلوا فى الاستيلاء عليه ، جزاء وفاقاً .

هذا « سلّار » يتولى نيابة السلطنة إحدى عشرة سنة ، ثم يموت ، فيتعب الحسّاب فى إحصاء تركته ، هذه صناديق مصفحة مملوءة بفصوص الياقوت والماس وعين الهر . وهذه صناديق تظهر فى اليوم الأول فيها مائتا ألف دينار وأربعمائة ألف درهم ، وهذه ضياع لا حصر لها ، وهذه الخيول والجمال والماركب والعبيد

والجوارى والأغنام والأبقار مما لا يحصيه عد ، وكل يوم تظهر له مخابئ جديدة فيها كنوز جديدة ، من أين أتى بهذا كله ؟ من الشعب ، من الظلم .

ويأتى السلطان فيسمع بثروته فيجرى لها لعابه ، ويقبض عليه ويسجنه ويجيعه حتى يأكل نعاله ، ثم يموت جائعاً فيستولى السلطان على ثروته ، وتنتهى الرواية ؛ وهذه صور تتكرر كل يوم ، ورواية تمثل فى كل إقليم .

المال — المال — كلمة سحرية تصدر عنها الأعمال ، وتتكيف بها السياسة ، ويحلم بها كل وال وأمير وسلطان .

فى هذا الجو يظهر « يوسف النصرانى الشامى » ، الفقير المسكين ، فيضع خطته المحكمة فى هدوء . إن الناس يعبدون المال فليستعبدهم هو بشبح المال ، يظهره ويخفيه ، ويطمعهم ويؤيسهم ، ويلعب بعقولهم لعب المال بهم ، إن لمعان الذهب يخلب لبهم فالعب بلمعانه ، وإن أملهم فى الغنى يفسد منطقهم وحكمتهم فالعب بأملهم .

ولكن قد تقف نصرانيتك حائلا بينك وبينهم ، فيرتابون فى أمرك ولا يطمئنون إليك اطمئنانهم إلى أهل دينهم ، فالعب بدينك لعبك بالذهب ، وتظاهر بالإسلام وبالصلاح وبالتقوى ، فالغاية تبرر الوسيلة .

تنقَّلَ فى بلاد الشام متفرساً فى أمرائها ، باحثاً عن فريسة يصيدها ، حتى وصل إلى « صَفَد » وأميرها يومئذ الأمير « بهادر » فوجده الغنيمة .

قال : إنى أرى السعد فى طلعتك ، والغنى مكتوبا على جبينك ؛ وقد جئت إليك لأملأ خزائنك ذهباً وفضة ، وقد أنفقت عمرى فى طلب الإكسير حتى وجدته ، إن الفِلِزّات واحدة فى نوعها ، والاختلاف الذى بينها ليس فى ماهيتها وإنما هو فى أعراضها ، وكل شيئين تحت نوع واحد اختلفا بعرض فإنه يمكن انتقال كل واحد منهما إلى الآخر ، فالذهب والفضة والحديد والرصاص متحدة

النوع مختلفة العرض ، فلو أخذنا حديداً أو رصاصاً ونقصنا بعض عناصره وزدنا بعض عناصره تكوّن من ذلك الذهب لا محالة ؛ وقد وصلت إلى الإكسير الذى يفعل ذلك بعد عناء ، فإنى أطبخ الرصاص أو النحاس بطريقة خاصة أرشدنى إليها العلم والتجارب الطويلة ، ثم أضيف إليه من هذا الإكسير الذى يمتاز به الذهب عن النحاس أو الرصاص ، فإذا الذائب ذهب ، وما يوجد بالطبيعة يوجد مثله بالصناعة ، فالطبيعة تخرج الذهب من العناصر الأخرى بحرارتها ومزجها ، وهذا هو ما أعمل بصناعتى :

وقد ظفرتُ بما لم يؤتَهُ مَلكٌ ... لا المنذران ولا كسرى بن ساسان

ولا ابن هند ولا النعمان صاحبه ... ولا ابن ذى يزن فى رأس غُمْدان

وستكون إن شاء الله بهذا أغنى الأغنياء وأعظم العظماء ، تقتنى من المال ما أردت ، وتسود على الأنام بما شئت وكيف شئت .

ومع هـذا كله فإن لم تقتنع بالمنطق فاقتنع بالتجربة . فأتى له « بهادر » بقليل من الرصاص ، وأفرد له غرفة يجرى عليها تجاربه ، فأشعل النار وطبخ ثم أشعل وطبخ ، وأخرج حُقا فيه إكسير وأضافه ، فاذا المزيج ذهب .

جُن جنون الأمير « بهادر » وتمنى الأمانى وسبح فى الأحلام وجمع ليوسف الكيمياوى كثيراً من النحاس والرصاص ، وأعطاه كثيراً من الأموال لينفق منها على إحالة هذه المعادن ذهباً خالصاً ؛ ولـكنه تعلل مرة بفساد الإكسير ومرة بخطأ التجارب ، وأخيراً غافل صاحبه وفر إلى دمشق ، وأراد أن يمثل مع واليها الرواية التى مثلها أمام « بهادر » ، ولـكن ساء حظه فعلم بأمره فأراد قتله .

وهنا أدته حيلته أن يملأ دمشق ضوضاء وجلبة ، وأنه يريد السلطان حتى يملأ خزائنه ذهباً وفضة ، وتحدث الناس به بين مصدق ومكذب ، ولم يجرؤ نائب دمشق على قتله بعد أن ذكر اسم السلطان ورسالته إليه ، وانتقل خبره

من دمشق إلى مصر ، وإذا بالبريد يأتى من السلطان إلى دمشق فى طلب يوسف الكيمياوى .

دخل يوسف إلى مصر فى السابع عشر من رمضان ، فأنزله السلطان فى بيتِ أمير ، وأجرى عليه الرزق الوفير ، ورتب له عدة من الخدم يتولون أمره حتى يختبر صدقه ، فطلب يوسف أنواعا من الآلات ورسمها وبالغ فى تركيبها وتعقيدها ، فصنعت له ، وحدد يوم للتجربة ، فاحتفل به السلطان وشكل مجلساً فخماً لامتحانه هذا ناظر الجيش ، وهؤلاء عدة من الأمراء ، وهذا نقيب الصاغة ومعه جمع من الصياغ . وأوقدت النار وأحضرت الآلات ، وطلب يوسف نحاساً وقصديراً وفضة ، فوضعها فى بوتقة ووضعها على نار حامية حتى ذاب الجميع ، وأخرج من جرابه إكسيراً وضعه على الخليط المذاب ، وصبر عليه برهة ثم أنزل البوتقة من على النار ، فأفرغوا ما فيها فإذا سبيكة من ذهب كأجود ما يكون ، زنتها ألف مثقال ، وامتحنها شيوخ الصاغة ، فأفتوا بأنها ذهب خالص لا شبهة فيه .

سر السلطان بذلك سروراً عظيما ودهش الحاضرون ؛ وأنعم السلطان عليه بهذه الألف من الذهب ، وبالغ فى إكرامه وأركبه فرساً سلطانيا مسرجاً ملجما بحرير ، ومَنَّى نفسه أن هذا الكيمياوى سيجعل له كل حديد مصر ونحاسها وقصديرها ذهباً .

وما هى إلا ساعة حتى انتشر الخبر فى المدينة أن قد ظهر رجل عجيب يحيل كل شىء ذهباً بإذن الله ، فما هو إلا أن تقدم له قطعة من حديد ، أو إناء من نحاس ، أو كتلة من رصاص حتى يعزِّم عليها ويجعلها ذهباً خالصاً . وها قد قتل الفقر وذهب البؤس ، وسيسيل الذهب فى مصر سيلا ويتدفق أنهاراً ، وسوف لا يكون بعد اليوم فقير ولا مسكين . وكان أحرص الناس — أول الأمر — على أن يفتتنوا الحاشية ، فقد قدموا المال الكثير ليوسف ، وقدموا له

النحاس الكثير والحديد الكثير ليقلبه لهم ذهباً ، وهو يلعب بهم ويستخف عقولهم ، ويضحك على هذا بجزء من الذهب مما سلبه من ذاك ، وهكذا .

وأراد السلطان أن يستوثق من الأمر مرة أخرى ، فأجرى يوسف أمامه التجربة ثانية ، فأخرج له سبيكة ذهبية كالأولى كاد يطير بها فرحاً .

وتدفق على يوسف المال من كل جانب ، وعاش عيشة البذخ والترف ، وأفرط فى اللهو ، ومرت عليه أيام سرور ومتعة لا ينعم بمثلها إلا القليل .

والسلطان يستحضره بالليل ويناجيه ، ويعرض عليه المشروعات الضخمة التى ينوى القيام بها من وراء الذهب المصنوع ، ويوسف يسايره ويحبك له خياله .

والناس يأتون إلى يوسف يعرضون عليه الأموال والحديد والقصدير ، وهو يعدهم ويمنّيهم .

وأخيراً قابل السلطان وقال له : إن الإكسير قد فرغ .

السلطان — إذاً فاصنع غيره .

يوسف — إنه مركب من نبات وأعشاب لا تنبت فى مصر ، وإنما تنبت فى الكرك .

— سمها لى وصفها أبعث بالبريد من يحضرها .

— إنها سر أخذت على الله عهداً ألا أذيعه ، وإذا أذعته فسد الأمر علىّ وعليك ؛ إذ يستطيع كل إنسان بعدُ أن يحصل على الإكسير فيحصل على الذهب ، وهو أمر حرصت أن يكون لك وحدك ، وسر اخترت أن أخصك به ، فأنت ولى الأمر ، وهو فى يدك مصلحة ، وفى يد غيرك مفسدة .

— فما العمل ؟

— تأذن لى أن أسافر إلى الكرك وأستحضر منه قدراً كثيراً صالحاً لتنفيذ مشروعاتك الضخمة .

أذن له السلطان إذ لم ير بدًا من ذلك ، وأركبه البريد وأوصى به خيراً حيثما حل ، وأمر الولاة أن يمدوه بالمال الذى يريد .

ها هو ذا يوسف يتنقل من بلد إلى بلد ، والكرم يتدفق عليه ، إذ هو ضيف السلطان ونجيه ومأمله ، حتى إذا وصل إلى غزة وأقام بها أياماً ، غافل من معه وشَمَّ الفَتْلة[1] واختفى ، ثم يبحثون عنه ويبحثون ، فلا يقفون له على أثر .

وتتبخر الآمال وتنهار القصور التى شيدت فى الخيال .

وفى يوم من أيام ذى الحجة من هذا العام يعثر عليه مختفياً فى إخميم ؛ وإذا كل أعماله نصب واحتيال ، وإذا بالناس كبيرهم وصغيرهم يستكشفون أنهم مغفلون ، وإذا بالسلطان يحكم عليه أن يُسَمَّر ثم يشهَّر على جمل .

وإذا بالستار يسدل .

---

(١) هذا تعبير عامى طريف ليس أدق منه فى التعبير عن هذا المعنى فى مثل هذا الموقف لأن معناه « هرب فى نصب واحتيال » وأصله — كما يروون — أن سلطاناً سمع بمهارة نصاب محتال ، فاستدعاه وقال له : إنى أجزل لك العطاء إن أمكنك أن تنصب علىّ . فقال له : أعطنى أنا أشترى بها « عدة النصب » . فأعطاه وأمر من يلازمه حتى لا يهرب ، ثم حضر بعد مدة بمدته وأدواته ، ونصب السلطان سرادقاً دعا إليه من يشاهد نصب النصاب . وكان مما أحضره النصاب بكرة خيط كبيرة . فتقدم إلى السلطان وقال له : أمسك هذا الطرف وأنا أشمم الفتلة لألعب بها لعبتى . فأمسك السلطان طرفها ، وأخذ النصاب يشمم الفتلة ويتراجع رويداً رويداً حتى اختفى عن الأنظار . وبحثوا عنه فلم يجدوه . وبذلك تمت لعبته . ومن هنا اخترعوا هذا التعبير ( شمم الفتلة ) .

# الحِلف العربى

كتب إلىّ صديق سورى يقول : « أليس عجيباً أن يقف رجال الفكر فى العالم العربى موقفاً سلبياً ، فيكتفوا بقراءة الأخبار والأحداث من غير أن يكوّنوا لأنفسهم رأياً فى مستقبلهم ؟ أو ليس من العجيب أن يقرأ العالم العربى أن إنجلترا تؤلف هيئة رسمية لبحث تنظيم العالم بعد الحرب ، ويخطب الخطباء من الإنجليز والأمريكيين فى مستقبل العالم بعد الصلح ، ولا نسمع أن أولى الرأى فى العالم العربى فكروا أو اجتمعوا لبحث موقفهم وما يؤول إليه مصيرهم ، كأنهم عبيد تركوا تدبير شؤونهم لسادتهم ؟ أو ليس عجيباً حقاً أن تمتلئ أعمدة « الثقافة » بالكلام فى اليابان وروسيا ، والقانون الدولى ، وما إلى ذلك ، ثم لا يمتلئ عمود واحد فيها فى موقف العرب ، ومصير العرب ، وآمال العرب ، كأن الأمر لا يعنيكم ، فكنتم فى ذلك كالحاضنة بيض غيرها وهى تترك بيضها فى العراء ؟ ولست أظن أن السياسة تحول بينكم وبين ما تبدونه من آراء ، لأن عرض هذه المسائل فيه مصلحة مزدوجة للأمم العربية ، فتحدد مصيرها وتحرك أفكارها وتفتح آمالها ، وللأمم الصديقة ، فتعرفها ما يجول بخاطر العرب وما تتطلبه وما تأمله » إلى آخر ما قال .

وهو كتاب ممتع طويل ، أجتزئ منه بهذا القدر لأنه هو الذى يهمنا فى موضوعنا اليوم . وكلام الصديق كلام حق . ولكنى آسف أشد الأسف ، لأن الموضوع شاق عسير متشعب النواحى ، يحتاج الكاتب فيه أن يدرسه دراسة واسعة عميقة ، وأن يطيل التفكير فى كل رأى يبديه . وقد علمنا التعليم الجامعى

ألا نكتب إلا بعد درس ، ولا نخط كلمة إلا بعد تفكير ؛ فان قصدت — أيها الصديق — من كتابك أن أكتب فى هــذا الموضوع كتابة جدية مستوفاة ، فانى أعتذر إليك ، لأن الأسباب كلها لم تهيأ لى . أما إن أردت أن أقول بعض كلمات فطيرة لا يكون الغرض منها إلا توجيه النظر ، وإثارة ذوى الرأى ، وفتح الكلام فى الموضوع ، واستعراض بعض المسائل الهامة ، فذلك فى إمكانى .

فى ذهنى صورة لحلف عربى هى مجال للأخذ والرد ، والتعديل والتبديل ، وهى أن يتكون الحلف العربى الآن من دول أربع ؛ مصر والسودان وحدة ، والشام وفلسطين ولبنان وشرق الأردن وحدة ، والعراق وحدة ، وبلاد العرب وحدة ، وأن تكون كل وحدة مستقلة فى شؤونها الداخلية ، وأن تربطها مع سائر الوحدات روابط ثقافية واقتصادية وسياسية ؛ فأما الروابط الثقافية فأن تكون لكل وحدة جامعة تكون منارة للحركة العقلية ، تتكون حسب ظروف كل وحدة وبيئتها ومقدار ثقافتها ، وأن تعنى كل جامعة العناية الكبرى بتاريخ أمتها وطبيعة إقليمها وتراثها القديم بجانب الثقافة العامة المشتركة ، وأن يكون لكل جامعة مجلسها وإدارتها ، وبجانب ذلك يكون مجلس أعلى تمثل فيه كل الجامعات ، وهو الذى يقرب بين نظمها ويوحد — بقدر الإمكان — اتجاهاتها ، ولا يتدخل إلا فى المسائل العامة التعليمية ؛ وأن تتبادل هــذه الجامعات المنتجات العلمية ، فتتبادل المؤلفات والمجلات ، وتتبادل الأساتذة ، وتتبادل رحلات الطلبة والأساتذة ، وتسهل وسائل التحاق الطلبة فى كل إقليم بأى جامعة حسب شهرة أساتذتها ونبوغ كل فى فرع من فروع التعليم .

ثم يكون هناك مؤتمر يتكون من عدد محدود من رجال التعليم فى كل أمة ، يجتمع كل سنة فى الأقطار المختلفة على التعاقب ، وفى هذا المؤتمر يتلو ممثلو كل أمة تقريراً عن حالة التعليم فى أمتهم ، ويعرضون المشاكل التعليمية التى اعترضتهم

فى عامهم ، و يسمعون الآراء المختلفة فى حلها ، و يرسمون السياسة العامة للتعليم ، والسياسة الخاصة لكل قطر حسب بيئته ودرجة ثقافته ومطالبه الاجتماعية .

وأما الروابط الاقتصادية فتنظيم الجمارك بين هذه الدول على أساس أفضليتها على غيرها من الدول الأخرى، وتنظيم إنتاج كل أمة حسب طبيعة إقليمها وشهرتها الصناعية وما إلى ذلك ، على أساس التعاون المشترك كما يرسمه الإخصائيون الاقتصاديون .

وأما الروابط السياسية فهى أصعب الروابط وأعقدها ، وهى نوعان : روابط بين هذه الوحدات الأربع ، وروابط بينها و بين الأمة الأور بية الحليفة .

فأما الروابط بين هذه الوحدات الأربع فإنى أتصورها كعصبة أمم عربية ، يوضع لها نظام خاص تتقى فيه العيوب التى تكشفت فى عصبة الأمم الغربية ؛ فقد كان أهم عيوبها تسخيرها لمصلحة أمة أو أمتين ، وعدم اشتراك أمريكا فيها، وعدم القوة الكافية التى تسندها حتى تستطيع أن تنفذ قراراتها ، ونحو ذلك ؛ فلنتق هذه العيوب فى عصبة الأمم العربية ، وليكن أساسها ما قال الله تعالى : « وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تَفِىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقْسِطين » .

وهذا يتطلب أن يكون للعصبة قوة مشتركة أقوى من قوة كل أمة منفردة ، وأن يكون لها جيش مشترك ، وأن يكون ممثلو العصبة من أحكم رجال الوحدات وأعقلهم وأصلبهم وأحبهم للخير ، وأن يكون نظرهم أوسع من أن ينظروا إلى أمتهم وحدها ، ومصلحتها الخاصة وحدها .

ثم هـذه العصبة لا تتدخل فى المسائل الداخلية البحتة فلكل أمة حريتها فى داخليتها ، لا يحدها من ذلك إلا النظر فى المصالح المشتركة .

و إذا نجحت هذه العصبة العربية كانت نواة فى المستقبل لعصبة أمم شرقية ،

تضم تركيا وإيران وأفغانستان ، وتونس والجزائر ومراكش .

وتكوين عصبة على هذا النحو أنفع للعالم وللإنسانية . فهى تخلق من الشرق قوة تعمل فى خدمة العالم ، وإلا فما مصلحته فى أجزاء صغيرة مفرقة لا تتعاون ولا تتسامى ؟ ليس فى مصلحة أى جسم أن يكون بعض أعضائه مشلولا ؛ والنظر القصير فقط هو الذى يُؤْثِر ضعف جزء منه ليستغله فى مصلحة الجزء الآخر . يجب أن يكون كل عضو صحيحاً ، وكل عضو قويا ، وكل عضو منتجاً ومستهلكا؛ وهذا ما لا بد أن يسود العالم اليوم أو غداً .

فى كل وحدة من هذا العالم العربى قوة كامنة وصلاحية للعمل والنهوض ، وفى كل منها مزايا كأفراد الأسرة الصالحة ، ولا ينقصها إلا أن تستكشف مزاياها ويفسح الطريق لها ، فيعمل كل حسب ملكاته واستعداده ومزاياه ، ويكمل نقص الآخرين ، ويستكمل نقصه من مزايا الآخرين .

أما علاقة هذه العصبة أو هذه الوحدات بالأمة الأوربية الحليفة فقد عُقدت معاهدات بين أكثر الأمم الشرقية وبين الدول الحليفة ؛ فما الذى يمنع من النظر فى هذه المعاهدات من جديد على ضوء الظروف الحاضرة ، والدروس الماضية ، والآمال المستقبلة ؛ فتعقد معاهدة سمحة مع كل وحدة من هذه الوحدات تضمن فيها مصالح الطرفين ، وفيما عدا ذلك تكون كل وحدة حرة طليقة ؛ ثم يتكون الحلف العربى الجديد وعصبة الأمم العربية ، وتكون العصبة مطلقة التصرف ، لا يقيدها إلا المصلحة العامة والمعاهدات التى تعهدت بها كل أمة ؛ وبذلك يفسح الطريق للنهوض الشرقى واستعادته قوته ليخدم بها العالم مع العاملين ؟

هذه هى الصورة الصغيرة التى فى ذهنى ، ليست وافية ولا كاملة ؛ وكل خط من خطوطها يحتاج إلى وقفة طويلة وتفصيل واف ، أعرضها ليتولاها من هو أقدر منى بالنقد والبحث والتفصيل .

# بجوار شجرة الورد

أخذت قلمى وورق ، وجلست بجوار شجرة الورد فى حديقتى الصغيرة المتواضعة ، أستمليها ما أكتب ، فأوحت إلىّ بهذه الخطرات

هذه شجرة الورد تمتد وتشرئب وتتفرع وترتشف — فى نهم — ما تقدمه لها الشمس من ضوء وحرارة . وتشرب كأس الحياة إلى الثمالة .

فليت الناس يعملون عملها ، فيفتحون قلوبهم للضوء والحرارة ، و يمدون فروعهم ما استطاعوا ليمتصوا غذاءهم وينموا قواهم وملكاتهم . ويشربوا كأس الحياة مترعة .

***

وهذه شجرة الورد تمد جذورها ، وتفرز ما يعرض لها ، فتختار ما يصلحها وينفعها ، وتتقى ما يضرها ويسمها .

فليت الناس يسيرون سيرها ، و يعلمون أن حولهم غذاء صالحاً يجب أن ينالوا منه ما وسعهم ، وأن حولهم سموماً يجب أن يتجنبوها ما أمكنهم ، وأن أمامهم كؤوساً مختلفة الألوان ، مختلفة الطعوم ، مختلفة الصلاحية ، بعضها شراب صالح وقد يكون مرا ، و بعضها شراب سام وقد يكون حلواً . غذاء شجرة الورد سهل يسير ، فما عليها إلا أن تحول ماحولها إلى عناصر أولية ، فتمتص ماناسبها وترفض ما خالف طبعها . ولكن غذاء الإنسان فى عواطفه وميوله وغرائزه ومشاعره مركب معقد ، حتى قد يكون الغذاء داء ودواء معاً؛هذا الطموح الحالم يبعث على الجد ، وهذا التواضع النبيل يدعو إلى الخمول .

***

ها أنتِ قد تقيدت بطينتك ، ونزلت على حكم تربتك ، فلا تستطيعين الخلاص منها والخروج عنها ، جيدة كانت أو رديئة ، صالحة أو فاسدة ؛ فوطنت نفسك على الرضا بما كان والانتفاع بالكائن حسب الإمكان ؛ ولم يمنعك ذلك أن تثورى على ما قُدِّر لك ، وتحاولى التخلص منه والتحايل عليه ، فخرجت من ظلام الأرض إلى نور السماء ، ومن مقبرة الباطن إلى مسرح الظاهر ، ومن سكون الجذور إلى لعب الغصون ، ومن عبوس المنبت إلى ضحك الثمرة — وهكذا كان أخوك الإنسان ، خضع للقدر كما تخضعين ، وثار كما تثورين ، فاجتمع له جبر البيئة واختيار الإرادة ، وعمل على أن يخرج من الظلمات إلى النور ، وخلق من الطين ، وتطلع إلى السماء ؟ وبلغ من تطوره أن كاد يكون ملكاً كريماً أو شيطاناً رجيما ، وكلٌّ ميسّر لما خلق له .

***

يعجبنى منك أنك دُفنت فسكنت ، وتكونت فى الخفاء ، ولم تجزعى من الظلام ، ولم تظهرى إلا بعد أن تم نضجك ، واكتمل وجودك ، واستطعت أن تغالبى الأحداث ، وتقفى أمام العواصف — فليت أخاك الإنسان يعمل عملك فيدفن نفسه حتى تكتمل قواه ، ولا يظهر إلا بعد أن تنضج ملكاته ، ويحسن استعداده ، ويقوى على مصارعة الزمان ومغالبة الصعاب ؛ فمن ظهر قبل أن يتم نضجه لم يرج خيره ، والقيمة الحقة ولو قليلة ، خير من الشهرة الزائفة ولو واسعة .

***

أعجب ما فيك صبرك وعملك المتواصل حتى تأتى بالمعجزة ، ومعجزتك أنك رسمت خطتك فى صمت وسكون ، ومازلت تكدين وتجدين ، وتختفين ثم تظهرين ، وإذا بك قد استخرجت من الحمأ المسنون والطين اللازب ألواناً زاهية تستخرج العجب ، ورائحة عطرة تنعش النفس ، وجمالاً فتاناً يأخذ باللب ؛ فما أبعد مرماك !

وما أقدرك على تحويل القبح إلى جمال ، والظلمة إلى نور ، وكراهة الرائحة إلى عطر ؟ فمن استطاع من الناس أن يأتى بمثل ما أتيت به فيفيض على الناس جمالاً ونوراً وشذى كان — ولا شك -- عظيما أى عظيم .

***

يحدثنى علماء النبات عنك أن أخطر الأوقات عليك وعلى أمثالك يوم يجرى الماء فى جذعك وعيدانك ، فإذا صادفك إذ ذاك جو شاذ من سموم أو صقيع كنت أشد تعرضاً للهلاك . كذلك عصر الشباب أشد العصور على الإنسان خطراً ، إذ يجرى فيه ماء الحياة فيشعر بحرارة الشوق ، وحرارة العواطف ؛ وتتعرض حياته يومذاك إلى أشد الأخطار ، ويستولى عليه نوع من القلق خوفاً من أن تتثلج عواطفه أو تقوده إلى المهالك

***

هذا أنت زهرة وشوك كلا كما من بذرة واحدة تسق بماء واحد ، ثم يجرى الماء فى الجذوع والأغصان ، فيكون مرة زهرة وادعة ضاحكة ، وتارة شوكة حادة قاسية عابسة ؛ فعلمتِنا أن الجمال محفوف دائما بالأشواك ، وأن الخير دائما ممزوج بالشر ، والذى أنزل الكتاب فيه هدى ورحمة أنزل الحديد فيه بأس شديد ، ولا بد أن يقلّم شوكك ليكثر زهرك . هكذا نفس الإنسان ، زهرة جميلة محاطة بالأشواك ، ويجب أن تقلم أشواكها لية:تح زهرها ؛ فإذا أهملت وتكاثر شوكها كانت كلها شوكاً لا زهر فيه . ما أكثر نفوس الناس التى يجدّ الإنسان فى الهرب منها حتى لايتعلق بأشواكها ، أولئك كل مظاهرهم ومخبرهم شوك لاخير فيه ، وشر لا نفع فيه . إن كل نفس تحيط بها أشواك من رغبات وشهوات وميول وإرادات وأعمال . وما التهذيب والتربية والديانات ونظم الحكومات الصالحة إلا عمليات تتحد فى الغرض ، وهو تقليم هذه الأشواك لتتفتح الزهرة

جميلة نقية ، تشع الخير والسرور والرحمة على من حولها ؛ وبعض النفوس لم تقلم أو ساءت تربتها ، أو ساء محيطها ، فكثر شوكها ، وقل أو انعدم زهرها ؛ وبعض النفوس قلمت وصلحت تربتها فأنبتت الزهرة الجميلة يعجب لونها ، وينفح عطرها ، فهي جذابة لمن رآها أو سمعها أو قرب منها ، وهي بلسم لجراحات الزمان ، وطعنات السنان .

***

ها أنت يمر عليك دور تتكونين فيه لنفسك ، وتبحثين عن غذائك لنفسك ، وتمدين جذورك لنفسك ، وتتفرعين فروعاً لنفسك ، وعلى الجملة تعيشين لنفسك ؛ فإذا أزهرت فقد وصلت إلى الغاية ، فتجاهلت نفسك لنفع غيرك ، ووزعت خيرك وجمالك على من حولك ، فملأت محيطك بعبيرك ، وأشعت جمالك على كل من له عين تنظر وقلب ينبض ؛ وهكذا أخوك الإنسان يبدأ حياته لنفسه ، ولا تشغله من الحياة إلا نفسه ، فهو أناني مستأثر ، وقد يقطع حياته كلها في هذا الدور ، فيكون مثلكِ إذا شوَّكتِ[1] ولم تزهري ؛ أما إن هو قطع دور أنانيته وتوجه قلبه لخير الناس وحب الناس ، وأخذ يفكر ويعمل لنفع الناس أولا ونفسه ثانيا ، فقد بدأ يزهر ، وقد يصل به الخير أن يرى سعادته في سعادة الناس ، أو أن يدخل السرور على الله بإدخال السرور على الناس ، فتكون وردته قد بلغت الغاية في نفح الطيب وإشعاع الجمال .

***

غمرتني الشمس وغمرتها ، ورأيت من الذوق أن أتركها تنعم بحرارتها وضوئها فاستأذنتُ فأذنَتْ . ورجوتها أن تسمح بنشر الحديث فسمحت ، غير أنها أومأت إليّ أن عندها أحاديث أخرى لا تسمح بها لكل الناس ، وأن معانيها تنوء بالألفاظ مهما سلست ورقت ، وإنما تنتقل باللاسلكي من زهرتها المتفتحة إلى القلوب المتفتحة .

---

(١) شوكت الشجرة أخرجت شوكها .

# النظام الاجتماعى فى تركيا

ترجم أخى الأستاذ « محمد بدران » مقالاً عن تركيا الجديدة من الوجهة السياسية ، وأشار إشارة خفيفة إلى حركتها الاجتماعية ، فأحببت أن أعرض لهذه الناحية بشىء من التفصيل ، على أن أقف منها موقف العارض ، لا المقرظ ولا الناقد .

إن احتكاك الشرق بالغرب فتح أعين العالم الإسلامى وجعله يتطلع إلى حياة خير من حياته ، وعملت على ذلك عوامل كثيرة ، أهمها معرفة الشرق بأحوال الغرب ؛ وكانت مجهولة لديه كل الجهل ، وتدفق كثير من أبناء الشرق إلى أوربا يتعلمون فيها ويدرسون أحوالها ونظمها السياسية ، ويعودون إلى بلادهم يبثون فيها ما شاهدوا وما تعلموا ؛ فلما قامت الحرب العظمى اكتووا بنارها ، وتسمعوا بشغف إلى أخبارها ، وسمعوا الدعايات المختلفة ، وكونوا رأيهم فيها ، وجاءت تعاليم « ولسن » فزادت فى آمالهم ، وتشوقوا إلى معرفة مصيرهم ، حتى إذا سكتت المدافع وتكلم القادة فى الصلح ، أرهفوا أسماعهم ليسمعوا ما تقوله أوربا فيهم ؛ ولم يكفهم ذلك ، بل ذهب كثير من أولى الرأى إلى باريس يتجادلون ويطالبون ويحتجون ؛ ولم تكن باريس عاصمة فرنسا فقط ، بل أصبحت مركز عظماء القارات الأربع ؛ وكنت تسمع فى شوارعها لغات العالم عالية ، وأشكاله المختلفة ظاهرة ، ومن بينهم ممثلو العالم الإسلامى على اختلاف أجناسهم وألسنتهم وألوانهم ؛ وتحولَ المسلمون بشكل ظاهر من مطالبة بجامعة إسلامية إلى مطالبة باستقلال قومى ، تقليداً للنزعات الأوربية ، وتمشياً مع روح العصر ؛ وساعد على ذلك انفصال جزء كبير من العالم الإسلامى عن تركيا — بعد أن خسرت الحرب — كالشام وفلسطين وجزيرة العرب والعراق .

فلما تم الصلح أحس العالم الإسلامى بخيبة أمل ، إذ لم يحقق مطالبهم ، ولم يُنلهم حقوقهم ، فوضعت فرنسا يدها على سوريا ، وبريطانيا على فلسطين والعراق ، فاضطربت النفوس وثارت الثورات .

وكانت حالة تركيا أسوأ الحالات ، إذ فقدت أرضها ، وفقدت استقلالها ؛ فكان من حروبها للدفاع عن كيانها ما عرفت تفصيله .

فلما انتصر مصطفى كمال سياسيا وحربيا ، وحفظ لتركيا استقلالها اتجه إلى الإصلاح الاجتماعى ، فكان من أول ما فكر فيه إلغاء الخلافة ؛ وكان الباعث على إلغائها أموراً ، منها : خوفه هو وحزبه من أن الخليفة وأسرته لا يرضون عن نظام الحكم الجديد ، فيدبرون المكائد ، ويدسون الدسائس ، لإعادة سلطانهم القديم ، لأن الخليفة فى النظام الجديد فقد سلطته الدنيوية والروحية جميعاً ، وأصبح مظهراً فقط ، ولا عمل له إلا استقبال الزائرين ، وصلاة الجمعة فى ملأ من الناس ، ومع هذا لم تطمئن أنقرة إلى هذا الوضع . وكان السلطان يسكن استانبول والحكومة الجديدة تقيم فى أنقرة ، وتعتقد أن الخلافة دائماً عش الدسائس الأجنبية ؛ ومهما كان السلطان « عبد المجيد » مخلصاً وصادقا ومحبا لرقى شعبه ، فانه قابل للانقلاب والتغير بنفسه أو بخلفه . واستحضر حزب « مصطفى كمال » فى أذهانهم كل سيئات الخلفاء العثمانيين فى العصور المتأخرة ، وما جروه على البلاد من وبال .

ثم هذه الميزانية الضخمة التى تصرف على الخليفة وبيته من غير مبرر ومن غير عمل ، والبلاد أحوج ما تكون فى نهضتها إلى المال .

وأخيراً أنهم يريدون أن يكوّنوا دولة مدنية ينظمونها تنظيما أوربيا ، ويقفوا بين حكومات العالم موقف المساواة ، والخلافة تقف عثرة فى سبيل هذا التنظيم .

كل هـذا جعل القابضين على زمام الأمور يفضلون إلغاء الخلافة ففعلوا .

نعم كان للمسألة وجه آخر ، وهو أن الخلافة كانت تربطهم بالعالم الإسلامى ، وتمكنهم من حق الزعامة الروحية على الممالك الإسلامية ، وهذه الناحية العاطفية لها قيمتها ؛ ولكن لم تأبه تركيا لهذه الاعتبارات ، ورأت أن العالم يسير نحو تكوين القوميات ، فأولى أن تعنى أكبر عناية بأمتها ، وحدودها وقوميتها .

لهذا كله قرر الزعماء الوطنيون أن يصلوا إلى هذه النتيجة على خطوات كان آخر خطوة فيها إلغاء الخلافة ، فى مارس سنة ١٩٢٤ ، وإخراج السلطان عبد المجيد هو وأسرته من تركيا .

كان فى العالم الإسلامى نزعتان ظاهرتان ، وإن شئت فقل ثلاث نزعات : نزعة محافظة ترى التمسك بالتراث الإسلامى من غير تغيير ، ونزعة ترى الاحتفاظ بخير ما فى التراث الإسلامى مما يتفق وروح العصر ، ثم تطعّمه بالمبادئ الجديدة مما اخترعته المدنية الحديثة ، ولكن فى تريث وحذر ، ونزعة ترى التجديد المطلق ، واحتذاء المدنية الحديثة فى أكثر ما يمكن ، وبأسرع ما يمكن .

وربما صح أن يمثل النزعة الأولى الحجاز ، والثانية مصر ، والثالثة تركيا .

وقد أدى إلغاء الخلافة فى تركيا ، وإحلال الجمهورية محلها ، إلى تغيير كبير فى النظام القديم الذى يجعل الخلافة مصدر السلطات ، من قضاء وجيش وتشريع ؛ فلما زالت الخلافة اضطرهم ذلك إلى التغيير فى الأسس .

لم يهملوا الدين جانباً كما يتصور البعض ، ولكن — على وجه الإجمال — ضيقوا من دائرته . فأما التشريع العام ووضع نظم الحكومة وما إلى ذلك ، فجعلوا أساسه ومنبعه المدنية الحديثة ، وتحكيم العقل ، والنظر إلى الشعب ؛ فهم يدرسون المدنية الحديثة ، ويقارنون فى الشىء الواحد بين ما فعلته أمم أوربا المختلفة ؛ ومن ناحية أخرى ينظرون إلى شعبهم وحالته الاجتماعية ، وما يناسبه ، وما لا يناسبه ،

ويختارون له بعقولهم من النظم الحديثة ما هو أليق بالشعب . وأما الدين فينظم العلاقة بين الإنسان وربه .

على هذا الأساس قامت كل إصلاحاتهم الاجتماعية ؛ فمثلا فى سنة ١٩٢٦ قدم وزير العدل مشروعا بقانون للدولة مكون من ١٨٠٠ مادة مقتبس فى الأغلب من القانون السويسرى ، ووافق عليه البرلمان فى ٤ أكتوبر من هذه السنة ؛ وهو فى بعض مسائله ثائر على النظم المعمول بها فى الممالك الإسلامية جميعا ؛ فقد كان تعدد الزوجات — مثلا — جائزاً ، فجاء هذا القانون وحرمه بتاتا ؛ وكذلك الشأن فى المهر ، فقد ألغى فى القانون الجديد ، ولم يفرض على الزوج ، وطلب من الزوجة أن تبذل جزءاً من مالها فى تأثيث المنزل إن كان لها مال ؛ وسلب الزوج الحق فى الطلاق ، وجعل للمحكمة وحدها حق الفصل لسبب من أسباب ستة محصورة ؛ وأكثر من هذا خطورة أن المرأة التركية أصبح لها الحق بهذا القانون أن تتزوج من تشاء من أى دين كان ؛ فللتركية المسلمة أن تتزوج نصرانيا أو يهوديا أو بوذيا .

وعدلت قواعد الميراث تعديلا كبيراً ، فسوت بين الذكر والأنثى ، فللبنت كما للابن ، وللأم كما للأب ، وللزوجة كما للزوج ؛ وألغت نظام الإرث بالتعصيب ، والإرث بالقرابة البعيدة ، فى نظام طويل لا محل لتفصيله ، وغيروا نظام الولاية والوصية على أساس الحرية .

ثم نظروا فرأوا جزءا كبيراً من أموال الدولة قد شله الوقف ، فمنعت إرادة الواقفين أن يتصرف فيه الجيل الحاضر حسبما يرى من صالح عام ؛ وكانت الأحكام التى وضعت له مقيدة لحرية الدولة فى الإصلاح ؛ والأوقاف الأهلية مزرعة رديئة للاستغلال ، ومفسدة للمستحقين بترك العمل المنتج اعتمادا عليها ، ومفسدة لنظار الأوقاف بانتهابها ؛ ومفسدة لكل هؤلاء بخصوماتهم ومنازعاتهم ، وقضاياهم التى

لا نهاية لها ؛ فهى — فى نظرهم — سيئة من سيئات الماضى ، سواء من ناحيتها الاقتصادية أم الاجتماعية أم الأخلاقية .

لهذا عمدوا — بجرة قلم — إلى إلغائها و إلغاء وزارتها .

ثم إن الجمهورية التركية أعطت المرأة التركية حريتها وأصغت إلى صوتها ، وسمحت لها بأن توسع حركتها التى بدأتها من سنة ١٩٠٨ ، حين ظهر أول وجه سافر فى الآستانة ، وألفت نالدة هانم جمعية مؤلفة من نحو خمسمائة من الأعضاء المثقفات ، وطالبن بضروب من الإصلاح : أهمها وضع حد لسن الزواج لا تتزوج من لم تبلغه ، و إصلاح أوضاع الزواج ، وتأسيس الطلاق على قاعدة المساواة بين الرجل والمرأة ، وتحريم تعدد الزوجات .

وتسابقت البنات إلى الجامعات ، وزاحمن الأبناء فى الحصول على الدرجات .

وخرجن إلى دور السينما و إلى المساجد ، وألغين نظام الحريم ، وحجز أمكنة خاصة لهن فى الترام أو القطار ، وطالبن بحقهن فى الانتخاب وعضوية البرلمان ، وصحب الشبان أخواتهم فى القيام بهذه الحركات ، إلى غير ذلك .

ثم جدت تركيا فى نشر التعليم بين أفراد الشعب ذكوراً و إناثا ، وكانت أسرع من مصر فى تنفيذ قانون التعليم الإجبارى ، فقد استصدرته مصر سنة ١٩٢٣ ، ثم عاق تنفيذه قلة المعلمين ، وقلة المال ، وقلة الهمة ، إلى غير ذلك ؛ ولكنه نفذ فى تركيا بأسرع وأقوى ؛ واعترض نشر التعليم فى تركيا صعوبة الحروف العربية والشكل ، فوقفت بين اختراع ما يسهلها و بين السير مع الأوربيين فى استخدام الحروف اللاتينية ؛ ففضلت الطريقة الثانية متأثرة بإغراقها فى حب المدنية الحديثة ، وقلبت كل أدبها وصحافتها وتعليمها إلى الحروف اللاتينية ، حتى القرآن نفسه كتبته بهذه الحروف ، وقد ساعد هذا فى سرعة نشر التعليم ، ولكنه من جهة أخرى قطع صلتها — إلى حد ما — بأدبها القديم وتراثها القديم .

وأسست التربية عندها على أسس وطنية ، ووضعت كتبها ونظمها على هذا الأساس ، واعترضها فى هذه السبيل ما رأت من مدارس أجنبية ، فتخوفت من صبغتها التى تصبغ بها تلاميذها ، ورأت أن كثيراً من مشاكلها السياسية القديمة كانت ترجع إلى هذه المدارس ، وما تبثه من مبادئها التى تبعث الإعجاب بالدول الأوربية والاحتقار للأمم الشرقية ؛ فوقفت تركيا إزاء هذه المدارس وقفة حازمة اضطرتها أن تتركها .

ودعتهم الحماسة الوطنية أن يسيروا بخطى واسعة نحو نشر الثقافة ، والاطلاع على كل عناصر التقدم الأوربى ليسيروا سيره ، ويحتذوا حذوه ، سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية أو الحربية .

ثم حافظوا على المظهر محافظتهم على الجوهر ، فالجوهر الائتمام بأوربا ، والاقتباس من نظمها وقوانينها ، والتحرر من سلطة رجال الدين ؛ والمظهر لبس القبعة وسفور المرأة ، فحموا الجمهورية من كل عبث بنظامها ومن كل مايهدد كيانها ؛ كما فرضوا لبس القبعة فرضاً ، وجعلوها قانوناً ؛ وحرّموا لبس العمامة تحريماً ، ولم يجيزوها إلا لمن له عمل رسمى دينى ؛ ونهوا عن الحجاب ، وعاقبوا عليه ؛ وهكذا ربطوا المظهر بالجوهر ، وتمسكوا بالشعائر التى تدل على المعنى .

وكان بعض الناس يعتقد أن حياة هذا النظام مرتبطة بحياة « مصطفى كمال » ، فإذا مات مات ، لأنه نما من خارج الأمة لا من داخلها ، ولا من أعماق نفوسها ؛ فمات مصطفى كمال ، وبقى النظام سائراً فى طريقه حتى قامت قيامة العالم بهذه الحرب الطاحنة ، التى لا يعرف مداها وعقباها إلا علام الغيوب .

# ضحية

حدثنى صديق قال :

اعتدتُ يوم الجمعة فى الشتاء أن أخرج من بيتى قبـل طلوع الشمس إلى جبل المقطم ، أنفض عن نفسى ضوضاء الأسبوع ، وملل العمل الراتب ، وسآمة الحديث المعاد ، وأهرب من جو القاهرة المسمم ، وأريح أعصابى من مطالب البيت وتكاليف المهنة ، وأفر من الإنسان الموحش لأستأنس بالطبيعة الطاهرة ، وأكرم نفسى بالعزلة عن الناس ، وأهين جسمى بالحركة العنيفـة ، فقد خلق من طينة لا تصح إلا بالإهانة .

واعتدت أن أنوّع الطرق ، وأخالف بين الجبال ، فمرة أختار الجبال والوديان مما يلى حلوان ، وأحياناً جبال المعادى ووديانها ، وأحياناً العباسية وما إليها .

ففى ذات يوم اخترت العباسـية وتغلغلت فى جبالها ووهادها ، أعلو أكمة وأهبط وادياً ، وأتخذ مسيرى صوب الأزهر ، حتى حان الظهر ، ونال منى التعب ؛ فبحثت عن مكان أتفيأ ظلاله ، وأنعم بنسـيمه ، وأطل منه على الدنيا الفانية وما فيها حتى وجدته .

واستمتعت بيوم دافئ جميل ؛ وعزلة مريحة ، فلم أصادف منذ خرجت من القاهرة إنساناً ، وخلعت قبعتى وحططت مخلاتى وألقيت عصاى وجلست ، وكان الجوع قد بلغ منى مبلغـه ، فأخذت أخرج ما حملت ، هذه « زمزمية » ماء ، وهذه شطائر بعضها باللحم وبعضها بالجبن ،وهذا عدد من الليمون الحلو لا بأس به ، وهذه عُقَل صغيرة من القصب ، وهذا كل ما معى ، فصففتها أمامى وتغزلت فيها ، وجرى لها لعابى ، وأعددت نفسى لأكلة شهية بعد سير طويل .

فلم أشعر إلا وشبح يبدو من بعيد ، لم أتبينه أول الأمر ، ثم ظهر أنه إنسان ، ثم ظهر أنه يقصدنى ، وأخذت مظاهره وملامحه تبدو شيئاً فشيئا .

جفّ اللعاب من فمى ، ونسيت منظر الأكل لمنظره ، وحلّ الخوف محل لذة النهم ، وذكرت قول القائل :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوّت إنسـان فكدتُ أطيرُ

ويلاه من الإنسان ! هو كالموت لا بد منـه ، وكظلام الليل لا بد أن يلفك ، ولا مهرب منه إلا إليه .

لكنه إنسان عجيب حقا ، ليس ككل الناس الذين رأيتهم ، أبيض البشرة بياض الأجنبى ، ويلبس جلباباً أزرق كلبس البلدى ، ملامح وجهه وزرقة عينيه وشكل رأسـه واصفرار شعره دلالة على أنه أوربى صميم ، وطاقية رأسه المشبكة وحفاء قدمه المتيبسة دلالة على أنه مصرى بائس فقير .

هذا لغز معقد ! وقد كنت تركت عقلى الذى يحاول حل الألغاز فى القاهرة ، وأتيت هنا بشعورى وعواطفى وروحانيتى الفطرية ، فلأسرع الآن فى اسـترداد عقلى القاهرى لأحاول به حلّ هذا الإشكال .

— سلام عليكم .

— عليكم السلام ورحمة الله . هل تتفضل وتأكل معى ؟

— لا بأس .

وأخذ يلتهم الأكل بنهم أشد من نهمى ، فأسفت لقلة زادى ، ونزلت له عن أكثر ما معى .

واعتذر عن نهمه فى أكله بأنه قضى يوماً كاملاً لم يذق فيه طعاماً .

— لماذا ؟

— لأنى لم أجد عملا ، ولم أجد مالا .

— ماذا كنت تعمل قبل اليوم ؟

— خادماً فى قهوة بلدية ، وما عملك أنت ؟

— مدرس فى مدرسة عالية

— إذاً اتفقنا .

— كيف اتفقنا ؟

— هى كلمة خرجت من فمى ولا معنى لها .

— ما بلدك ؟

— خرجت اليوم من القاهرة لأستريح من عناء التفكير .

— هل أنت مصرى ؟

— أقمت فى القاهرة زمناً طويلا .

— وما وطنك الأصلى ، ولم قدمت ؟

وبدأ يتكلم ، ولكن أصابته حبسة :

— أنا . أنا . أنا أتيت اليوم من القاهرة وكفى .

وعلت وجهه الأبيض — المشرب بحمرة ، فى الأصل والمشرب بصفرة الآن من الجوع — حمرة الخجل ، وظهر لى أنه يحمل بين جنبيه سرا دفيناً يجرح عزته ؛ فحبست نفسى عن الاستقصاء ، وكلمته فى الجو والجبل والمسافة بيننا وبين القاهرة ؛ وأتى موعد الرحيل فسلمت ، وأخذتنى الشفقة عليه فتركت له عنوانى إذا احتاجنى ، ومشيت .

لم يفارقنى التفكير فى هذا المنظر الغريب ، ولا هذا اللغز العجيب الذى لازمنى من وقت أن وقع بصرى عليه ؛ وكل ما حدث بعدُ لم يكشف سرا ولم يلهمنى حلاً ، بل زاد اللغز تعقيداً ؛ فهو يمسك الشطيرة كالأوربى المثقف

فى ظرف ولباقة ، ويأكلها أكل المصرى البائس الفقير فى نهم وشراهة ، عقليته عقلية مثقف ، ومنظره منظر جاهل ؛ وهو يتكلم كمصرى ، وإذا سألته : أمصرى هو ؟ عرّض ولم يصرّح ، وجمجم ولم يبن ، واكتفى بأنه أتى من القاهرة. لو كان جاسوساً فلِمَ يجوع ولم يخجل ؟ ولو كان غير جاسوس وكان أوربيًا فلم يجمجم .

لعن الله الإنسان ومناظره ؛ لقد أردت الهرب منه فلحقنى ، وأردت البعد عن مشاكله فوقعت فيها ، وأردت الأنس بالطبيعة على طهارتها فأصبت بالطبيعة مدنسة .

جال هذا وأكثر منه فى نفسى حتى وصلت إلى بيتى ، وشغلتنى دنياى عن التفكير فى هذا المخلوق العجيب ، فأنا بين مطالب أسرة وتحضير درس وإلقائه وغير ذلك من الشؤون .

***

وفيما أنا عصر يوم فى بيتى ، منصرفاً لبعض أمرى ، إذا بالجرس يدق ، فتحت الباب فإذا به صاحبنا .

— السلام عليكم .

— عليكم السلام .

وفرحت بمجيئه ، ولكن لنفسى لا له ، فقد خطر لى أنى سأكشف السر الذى حيرنى ، وأقف على حقيقة نفسه وجلية أمره .

ولم آنف أن أجلسه على كرسى مُجنّح فى غرفة استقبالى ، ولو كان حافياً وفى جلباب أزرق ، وقد تعلمت من حديثه السابق ألا أجرحه بسؤاله المباشر عن موضع سره ؛ فحدثته فى كل شىء يخطر ببالى إلا ما يتصل به ، وأمرت أثناء الحديث أن يهيأ له أكل شهى دسم ، لا من جنس الشطائر الجافة التى التقمناها

فى الجبل ، فأكل بنفس النهم الذى أعهده ، واستزدته حتى لم يبق عنده مكان للمزيد . وأهل بيتى وأولادى وخدمى يعجبون من هـذا المنظر الغريب ، ومن تفاهة ملبس الضيف وشدة عنايتى به . و بعد الفراغ من القهوة استأذن لينصرف فأذنت له ومنحته ما استطعت ؛ وقبل أن ينصرف وضع يده فى جيبه ، وأخرج كراسة طلب منى أن أقرأها وأدبر علاجاً لما فيها .

ولا أكتمك أنى فرحت بها فرح الطفل بفتح صندوق البخت ، أو فرح الفتاة بهدية مغلقة أتت إليها ممن تحب ؛ فأخذتها وتسللت إلى غرفة مكتبى ، وأغلقتها علىّ ، وأضأت المصباح ، وجعلت ألتهم ما فيها التهام صاحبنا للأكل ، وما زلت بها حتى أتممتها ، فأخذنى منها كل العجب . فماذا هى ؟

هى يوميات لهذا الشاب منظمة مرتبة ، ذكر فيها أهم ما استرعى نظره فى دقة وإحكام .

إنه شاب هولاندى ، تخرج من جامعة هولاندية ، وتخصص لدراسة اللغات الشرقية والدراسات الإسلامية ، ورأت جامعته نبوغه وجِدّه ، فمنحته مكافأة دراسية ، وإجازة طويلة يقضيها فى بلد عربى إسلامى ، ليتقن العربية والإسلاميات ، فلم يجد لذلك خيراً من القاهرة .

فحضر إليها ، وسكن فى حى مصرى فى المنشية ، ولبس جبة وقفطاناً وعمامة ومركوبا أحمر ، ليتسنى له فى يسر حضور دروس الأزهر ، وجدّ فى الدراسة ، واختلف إلى المشايخ يحضر دروسهم ويتفهم كتبهم ، وانتهز كل فرصة يتقن فيها الكلام العربى الفصيح واللغة العامية الدارجة ، فجلس مع العامة ، وتحدث إلى الناس ، وإلى الباعة ، وغشى الأسواق .

وفى كل شهر كان يكتب تقريراً مفصلا بما حصّله وما عمله وما أتقنه ، والجامعة من جانبها تمده كل شهر بما ينفقه عن سعة .

ثم خطرت له فكرة نبيلة جميلة ، هى أن يدرس الحالة الاجتماعية بمصر بجانب دراسته اللغوية والعلمية ، فوضع لذلك برنامجه الدقيق ، فغشى مجالس الذكر ، وحضر الصلوات فى المسجد ، وشاهد أسواق البيع والشراء ، وحضر الولائم والجنائز وما إلى ذلك .

وأخيراً رأى أن يشاهد مجالس اللهو ، ولكن هذه كان لا بد له فيها من مرشد خبير ؛ وكان من بدء دراسته قد عرف « كُتْبياً » يتاجر فى الكتب القديمة ، فيشترى منه الكتب بثمن رخيص ، ويلتهمها قراءة ودرساً ، فتوثقت الصلة بينهما ؛ وكان هذا الكتبى داعراً عربيداً ، عليما بأماكن اللهو ، خبيراً بمجالس الحظ ، فأفضى إليه بمكنونه ، فهش له وبش ، وقال له : « على الخبير سقطت » .

فما زال يتنقل به من ملهى إلى ملهى ، حتى كان آخر المطاف « غرزة الحشيش » دخلها مع صاحبه الكتبى ، وأداه حب استكشافه ألا يكتفى بمنظر الحشاشين و « جوزتهم » وطريقة تعاطيهم ، بل أراد أن يجرب تجربتهم ويختبر فعل الحشيش فى نفوسهم ، فدخن معهم ، وسمع لفكاهاتهم وتنادرهم ، ولكنه شرق وسعل ، ولم يجد فى نفسه أثراً بالغاً كما كان يسمع عن الحشيش ، فشكا ذلك لصاحبه ، فقال له — فى خبث ودهاء — إن ذلك لا يتم إلا بالتعود والتكرار . فاستمع لنصيحته وعاد وكرر ، فرأى — كما يقول — أن أعصابه تخدرت ، وتتابعت الصور على ذهنه ، وغاب عن الزمان والمكان ؛ وأحياناً كانت تتراءى له صور مرعبة مفزعة ، كأن يرمَى من جبل ، أو تتخلخل الأرض تحت قدميه ؛ وأحياناً صور مفرحة منعشة سارة كأنه فى جنة النعيم . وبعد أن أفاق أحس بشهوة شديدة للطعام ، فأكل كل ما قدم إليه فى شراهة ، ونام نوما حالماً لذيذا .

ولزمته العادة ، وخضع لحكم « الكيف » ، فإذا هو حشاش لا يطيق صبراً عن الحشيش ، ولا يستطيع أن يعيش ليلة من غير أن يحشش .

قال : وقد شعرت بضعف حيويتى وسقوط نفسى ، وميلى إلى الكسل والخمول ، وفتور فى قوى عقلى وسوء تقديرى للأمور .

قال صاحبى : : وإلى هنا انتهت يوميات صاحبنا ؛ وبقى الفصل الأخير من الرواية لم أتبينه مما كتبه : كيف وصل إلى ما شاهدت من حالته ، فتشوقت إلى أن أراه ليتم لى روايته .

فأتانى بعد أيام ، فاستقبلته ونفسى مغمورة أسفاً وعطفاً وإشفاقاً ، وسألته عما حدث له بعدُ .

فقال : لم أجد بعدُ لنفسى ميلا إلى قراءة أو درس ، ولا إلى أى عمل ، ولم أكتب لجامعتى حرفاً ، وانقطعت أخبارى عنها ، فقطعت ما كانت تمدنى به من مال ؛ وضاقت بى السبل ، ولم أجد مورداً أقتات منه ، ولم يرشدنى صاحبى الكتبى إلى أى عمل أعمله ، ولم أعد أعبأ بنظافة ملبس ولا حسن مظهر . وتخاذلت قواى وفقدت كرامتى ؛ فعرضت نفسى على من يستخدمنى ، وأخيراً لم أجد إلا عملا فى قهوة ، وبعد مدة وجدتنى لا أصلح حتى لهذا العمل ؛ وخرجت هائماً على وجهى فى الجبل يوم قابلتك !

ثم بكى ، وما أشد وقع بكاء الرجال على نفسى !

فكرت طويلا فيما أستطيع أن أعمله لإنقاذ إنسانية ضالة معذبة ، وزهرة كانت يانعة فذبلت وجفت وسقطت .

فهدانى التفكير إلى أن أذهب به إلى من يعنى بأمر الهولنديين ، وكان يستطيع أن يهتدى بنفسه إلى ذلك لو لا أنه سلب قدرة التفكير وقوة الإرادة ؛ فشرحت لهم حاله ، وتفاهمت معهم أن يسفروه إلى بلده فرحبوا بالفكرة ونفذوها . ثم انقطعت عنى أخباره ، ولم أدر — بعدُ — من أمره شيئاً

# أول مجلة مصرية

كانت ساعات ممتعة تلك التى قضيتها وأمامى ثمانيـة مجلدات من أول مجلة عربية علمية أدبية مصرية[1] ، أتصفحها وأقرأ بعض مقالاتها ، وأقارن بين أعدادها . فمنذ إحدى وسبعين سنة ، فى عهد الخديو إسماعيل كان على باشا مبارك « مدير ديوان عموم المدارس » ، وهذا كان اللقب الذى حل محله فيما بعد ناظر المدارس فناظر المعارف فوزير المعارف .

وكان « رفاعة بك الطهطاوى » « ناظر قلم الترجمـة بديوان المدارس » ، وقبل ذلك بسنوات كانت قد نشطت حركة المدارس والمكاتب وفتحها ، وأقبل عليها المتعلمون ، فرأى القائمون بالأمر أن تصدر إدارة المدارس « مجلة » تشد أزر هذه الحركة ، وتعمل على نشر التعليم ؛ فأنشأوا مجلة أسموها «روضة المدارس المصرية » وقد صدر أول عدد منها يوم السبت ١٥ محرم سـنة ١٢٨٧ هجرية ، الموافقة سنة ١٨٧٠ ميلادية ، واختاروا لهـا رمزاً جملة كتب عليها دواة غمست فيها ريشة تستملى منها ، وحولها قوسان من غصون الشجر ، وطبع تحت الإسم هذان البيتان فى كل عدد :

تعلّم العـلم واقرأ　　تحزْ فخار النبوّه
فالله قال ليحيى　　خذ الـكتاب بقوّه

وتحتهما أنها « تحت نظارة رفاعة بك » ، أى كما نعبر نحن اليوم « مدير المجلة » ، وأن «مباشر تحريرها» على فهمى بك ابن رفاعة بك ، أى أنه رئيس تحريرها ؛ وكان على فهمى هذا مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن ، وجعلوها

---

(١) ظهر قبلها مجلات خاصة كاليعسوب فى الطب .

تظهر كل أسبوعين ، وكانت تخرج فى ١٦ صفحة من حجم الكتاب المتوسط — وجعلوا اشتراكها ٦ ـــ ٧٧ ص قرشاً ، ولعلهم اختاروا هذا الرقم لأنه يساوى « البنتو » وهى عملة مشهورة كانت فى ذلك العصر ؛ ولم يسموا هذا « اشتراكا » كما نسميه نحن ، بل قالوا « ثمن ترتيبها » كذا ، وطبعوها بمطبعة « جرنال وادى النيل » بباب الشعرية .

وافتتحوها بمقال يبين الغرض منها ، فقالوا : « إن جل مرغوب ديوان المدارس المصرية ، اعتماداً على مساعدة العناية الخديوية ، تعميم العلوم وتتميم المعارف ، وانتشار الفنون وإكثار اللطائف ، ومداولتها بين جميع أبناء الوطن ، وتسويتهم فى الورود على مستعذب هذا المشْرَع الحسن . . . بحيث تكون فيها الفوائد متنوعة ، والمسائل المتأصلة والمتفرعة ، أقرب تناولا للمطلع المستفيد ، وأسهل مأخذا لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد ، بقلم سهل العبارة ، واضح الإشارة ، وألفاظ فصيحة غير حوشية ولا متجشمة لصعب التراكيب ، ومعان رجيحة تنخرط فى سلك مستحسن الأساليب » .

وقد ذكَرَت أنها لا تتعرض للسياسة ولا للإدارة ، وأنه مما سيعينها على أداء غرضها ما أنشىء من دار الكتب بجانبها « تقتطف الأزاهر عن مكامنها ، وتلتقط الجواهر من معادنها » — وأن سعادة مدير المدارس ( وهو على باشا مبارك ) « جعلها ملحوظة بنظر نظارته ، لا يندرج فيها شىء إلا بإشارته ، ومنحها الرئاسة التشريفية والإدارة العملية » .

ثم قدر القائمون عليها أن ستكون لها أبواب مختلفة ، فجعلوا على كل باب مشرفا يحرر فيه ويراقب ما يأتى منه .

فعلى باشا مبارك عليه وصف البحار العمومية ، وذكر متعلقاتها وأحوالها الكلية والجزئية .

وعبد الله بك فكرى العلوم العربية والفنون الأدبية ، وذكر أساليب العرب فى النظم والنثر .

ومسيو «بروكش» ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم ، عليه مسائل التاريخ القديم والحديث .

وإسماعيل بك الفلكى الفلكيات .

ومحمد أفندى قدرى ( وهو الذى صار بعدُ محمد باشا قدرى مؤلف كتب الفقه المشهورة ) عليه الجغرافية والأخلاق والعوائد والمعاملات والاعتقادات .

ومحمد أفندى بدر علم الأبدان .

ومحمد أفندى ندا النبات .

والشيخ عثمان مُدُوخ ( وكان سورى الأصل ) عليه غرائب النوادر والفكاهات والمضحكات والألغاز .

وعلى فهمى رفاعة رئيس التحرير عليه الكلام فى تخطيط مصر القاهرة ومقارنة جديدها بقديمها .

وعلى خوجات المدارس جميعها المشاركة فى تحرير باب العلوم الرياضية .

وخرج العدد الأول كنموذج ، ففيه مقال لعلى باشا مبارك فى إنشاء دار الكتب الخديوية ، نخبر عن إيفاد بعثة من عشرة من نجباء التلامذة إلى إيطاليا «لتعلم الإدارة الملكية» وذكر أسمائهم ، ثم فائدة جليلة عن سكان أقسام الدنيا ، فقصيدتان فى تهنئة الخديو إسماعيل بالعام الجديد ، إحداهما لصالح مجدى بك ، والأخرى للتلميذ اللبيب أحمد أفندى نظمى ، ثم ملحتان إحداهما فى السريرة الحسنة والسريرة السيئة ، والأخرى فى صاحب هرة ، وبذلك انتهى العدد .

وصدرت تباعا تجرى فيها أقلام الكتاب والعلماء من مصريين ، وأجانب تترجم مقالاتهم إلى اللغة العربية .

وفى العدد الثالث تنبهوا إلى ضرورة فهرس فى أول العدد يبين المقالات وأصحابها ، وابتكروا طريقة نشر كتب تنشر بالمجلة تباعا ، فيلحق بها ملزمة أو أكثر من كتاب أو أكثر . وكان من المساهمين فى تحريرها بعض علماء الأزهر كالشيخ حسونة النواوى ، والشيخ سليم القلعاوى ، والشيخ حسين المرصفى ؛ ومشهورو الأدباء كصالح بك مجدى وعبد الله بك فكرى وبعض التلاميذ . وتنشر فيها الخطب التى تقال فى حفلات الامتحانات العمومية ، وتقارير إصلاح التعليم ، ومقالات خوجات المدارس فى العلوم الرياضية والطبيعية والكيمياوية الخ

ومن العدد الثالث زادت صفحاتها إلى ٢٠ ثم ٢٢ ثم ٢٤ .

وحدث فى العام الثانى من حياة المجلة أن قررت وزارة المعارف إعطاء دروس للثقافة العامة تلقى من مشهورى العلماء فى دار العلوم ، يحضرها كل من أراد ، وكانت دار العلوم إذ ذاك فى درب الجماميز .

فالشيخ حسين المرصفى يلقى محاضرتين كل أسبوع فى علوم الأدب ، وإسماعيل بك الفلكى فى علم الفلك ، ومسيو ويدال فن السكك الحديدية باللغة الفرنسية ، وفرانس بك فن الأبنية ، ومسيو بروكش للتاريخ العام ، الخ .

فكان هذا المشروع الجليل مادة صالحة جليلة لتغذية المجلة ، فكان ينشر فيها خلاصة بعض هذه الدروس .

وفى السنة الرابعة من المجلة يخرج العدد السابع فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ لا يحمل اسم رفاعة بك ، إذ كان قد توفاه الله ، فنشرت المجلة ما رثته به الوقائع المصرية ، ويكتفى بذكر « مباشر التحرير » على فهمى رفاعة ، ثم يتحول النص إلى أنها « تحت إدارة ناظر الروضة ومطبوعات المعارف على بك فهمى نجل رفاعة بك » وتضعف بعض الشىء فى عهد الابن ، إذ لم يكن له من الشخصية العلمية ما للأب ، فيقل ما يرد من الأقلام المشهورة ، ولكن تستمر

وتستمر إلى السنة الثامنة ، فيخرج العدد السادس عشر فى آخر شعبان سنة ١٢٩٤ وليس فيه إلا خطب افتتاحية وختاميـة قيلت فى المدارس والمـكاتب الأهلية ؛ ولما بلغت من الضعف إلى هذا الحد أسلمت روحها لخالقها .

لقد كانت هذه المجلدات الثمانية معرضاً جميلا يمثل للناظر كيف كانت الأقلام تجرى فى هذا العصر ، وبأى أسلوب تكتب ، وبأى عقلية تفكر ، وإلى أى حد بلغ مجهود القوم ونشاطهم العـلمى والأدبى ، وما الموضوعات التى كانوا يحبونها ويتذوقونها ، وكيف كان عقلاء مصر أمثال على مبارك وعبدالله فـكرى وصالح مجدى ومحمد قدرى وأمثالهم حركة دائبة لا تعرف الكلل فى تنظيم المدارس والمـكاتب وتغذيتها بالـكتب تؤلف وتترجم ، وبالحفلات تقام وبالمجدين النابغين يشجعون ويكافَـون ، وبالمحاضرات العامة تلقى على الجمهور ، وبهذه المجلة يسجل النشاط ويبعث الشوق .

وهى من ناحية أخرى صورة لحالة النظم والنـثر فى ذلك العصر يبعث من مرقده ، فيتعلم السير ويتعثر بالسجع وبالاستعارة المتكلفة ، ثم يحاول أن يتحرر من قيوده ، فيقطع فى ذلك شوطا لا بأس به .

والقوم يواجهون المصطلحات العلمية فى العلوم على اختلافها ، ويكلفون ترجمة الـكتب الأجنبيـة والمحاضرات التى يلقيها الأساتذة الأوربيون ، فيجدّون فى وضع الـكلمات العربية التى تقابلها ، أو يستعملون الـكلمات الأجنبية مصوغة صوغاً يستسيغه اللسان العربى .

ثم هى تقوم بنشر ما يهم المدارس من الأخبار ، فتنشر أسماء النابغـين ، وتنشر التقارير الواردة عن طلبة البعثة ، فتنشر أن « عثمان غالب » مثـلا من تلاميذ مونبليه « أخذ فى أول السنة الأخيرة درجة المسرورية » ، ومحمد علوى « تحصل فى أول امتحان آخر السنة على درجة مسرورية جيدة زائدة وهو نبيه » .

وتنشر أسماء من تفوقوا واستحقوا مكافآت ونوعها ، وتقتبس من تقارير التعليم والمكتبات فى الممالك الأجنبية ، الخ

ثم نرى ألفاظاً كثيرة فى طور التكوّن ، كما رأينا فى «درجة المسرورية» ، و «ثمن ترتيبها» بدل « قيمة اشتراكها » ؛ ومثل ذلك فى مصطلحات العلوم ، و بعض هذه الألفاظ أقر و بعضها عدل .

ونرى المجلة تكثر فيها الألغاز حسب ذوق العصر ، حتى يضج المشرف على المجلة منها ، ويطلب من الكتاب الإقلال من إرسالها .

ونرى فن « المقالة » لم يتكون بعد ، و إنما هى محاولات فى كتابة المقال .

ونرى الجمهور لم يعرف الكتب القديمة ، ولم يطلع على ما فيها ، فيستغفله بعض العلماء ، وينقلون من هذه الكتب بعض فصول وقصائد يدّعونها لأنفسهم ، ويمضونها بإمضائهم .

وعلى الجملة فهذا وأكثر منه موضع لدراسات قيمة فى نواح متعددة .

# التضحية

لعل من أهم الفروق بين أمة راقية وأمة غير راقية ، أن أفراد الأولى يشيع بينهم العمل لأنفسهم ولغيرهم ، وأن أفراد الثانية لا يعملون إلا لأنفسهم .

ها هو الجو حولنا مشبع بالأنانية إلى أقصى حد ؛ هذا موظف كل همه أن يرضى رؤساءه فى الحدود الضيقة لينال « درجة » ، ولا يهمه بعد ذلك قضيت مصالح الناس أو لم تقض . وهذا موظف آخر لم يمنح من المرتب ما يشتهى ، فهو يضن بمقدرته وكفايته على الناس ، وكل ما يعمل أن يؤدى الأعمال الآلية التى تنجيه من العقوبة ومن التبعية القانونية ، فهو يحضر فى الميعاد وينصرف فى الميعاد ، ثم لا روح فى عمله ، ولا شعور بواجبه . وهذا غنى لا ينظر فى تصرفاته إلا إلى شخصه مهما شقى الناس من حوله . وهذا مزارع من كبار المزارعين لا ينظر فى مشروع القطن والقمح إلا بمقدار ما يحتمل أن يدخل جيوبه من مال ، مهما جاعت الأمة وعدمت القوت . وهـذا ترى ذو جاه يستعمل جاهه ونفوذه فى الهرب من ضريبة واجبة عليه ، أو يتحايل فى تخفيفها إلى أقصى حد ممكن ، فتكون النتيجة أن يدفع الضريبة كاملةً غير القادر ، ويهرب منها أو ينقص منها القادر — وهذه هى الروح الشائعة التى نراها فى البيت وفى الشارع وفى المصلحة ، وفى البيع والشراء ، والأخذ والعطاء : أنانية مسرفة ، فى حدود ضيقة ، لا ينظر معها الإنسان إلا إلى نفسه ، وإلى نفسه فقط ، يدور فى خلده أن ينهب من اللذائذ ما استطاع قبل فوات الوقت ، ويهرب من الواجبات ما استطاع مع المحافظة على الشكل ، حتى لا يقع فى يد القانون . يردد قول أبى فراس : « إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطر » ، ويهزأ ببيت أبى العلاء :

فلا هطلت علىّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البــلادا

وبقول البــارودى :

أدعو إلى الدار بالسقيا وبى ظمأ أحق بالرى لــكننى أخو كرم

* * *

ليس مظهر التضحية مقصوراً على الجنود فى مواقف القتال ، فليس هــذا إلا مثلا عالياً من أمثلة التضحية ، ولــكن هناك أمثلتها العديدة فى الحياة اليومية لــكل فرد ؛ فالذى يتنازل عن لذته الفردية الضيقة للمصلحة العامة الواسعة يكون مضحياً على قدر ما بذل ؛ والموظف ينال شيئاً من العناء لراحة الجمهور مضح ، والمدرس يبذل أقصى جهده فى إعداد درسه وإيصاله إلى طلبته مضح ، والغنى يتنازل عن بعض لذائذه لخير الناس مضح ، والمزارع يرعى حال فلاحيه مضح ، وهكذا . وعلى قدر انتشار هذه الروح فى الأمة يكون مقدار رقيها ونجاحها — ولا تفلح أمة ببحث أفرادها عن لذائذهم الشخصية فقط ، مهما حسن تشريعها وصلح قادتها ؛ فشرّعْ ما شئت لتنظيم التموين فلن ينجح ، ما دام كل فرد لا ينظر إلا إلى شخصه ، وشرع ماشئت من تنظيم الضرائب فلن ينجح مع محاولة الأفراد الهرب منها ، وشرع ماشئت لإصلاح الفلاحين فسيظلون كما هم ، ما دام التشريع لا يلقى مجاوبة من نفوس القادرين .

* * *

لقد أضاع علماء النفس المحدثون جمال التضحية بما أفرطوا من تحليل ، وما أرجعوا من أعمال نبيلة إلى غرائز وضيعة ، وما وصلوا إليه من أن مظاهر إنكار الذات تعود فى آخر أمرها إلى حب الذات ؛ فقالوا — مثلا — إن السياسى الكبير الذى يدل مظهره على أنه يؤدى واجبه ، ويخدم أمته ، ويتحمل

أشق الأعباء فى سبيل مجدها ورقيها ونهوضها ، لو حللت البواعث التى دفعته إلى عمله وسلوكه هذه السبيل ، لوجدتها ترجع فى النهاية إلى غريزة حب الذات ، وشعوره الـكمين بأهمية ذاته وعظم شخصه . والواعظ الذى يعظ الناس ويذكرهم بالدين ، ويخلص فى سبيله ، ويتحمل أشد العـذاب فى سبيل تحقيق دعوته وانتشار عقيدته ، إنما نصل فى النهاية عند تحليل نفسه إلى حبه إظهار شخصه ، وتمجيد ذاته ، والتفات الناس إليه ، واتجاههم نحوه . والزاهد الذى فر من الحياة ولذاتها ، واعتكف فى الأديار أو التكايا أو نحوها ، وتجرد من الدنيا وشؤونها ، لم يكن فى الحقيقة عند التأمل العميق فى بواعثه إلا ناظراً لنفسه ، هارباً من تبعات الحياة وتكاليفها . والطبيب الذى يعنى بمرضاه ولا يعنى بنفسه ، ويتعرض للأخطار أيام الوباء إنقاذاً للناس ، ولو كان فى ذلك حتفه — قالوا — إنما يبحث وراء حسن سمعته وذيوع شهرته . والعالم الذى يقضى أوقاته فى معمله أو فى مكتبه باحثاً منقباً وراء حقيقة يكتشفها ، أو نظرية يعثر عليها ، أو اكتشاف يخدم به الإنسانية دواء لمرض ، أو إمتاعاً للناس فى ناحية من نواحى حياتهم ، ليس — فى نظرهم — إلا مجيباً لما ركب فى طبيعته من حب الاستطلاع . والمصلح الذى يكدح ليله ونهاره فى سبيل خدمة قومه وإصلاح عيوبهم ، ومعالجة ما أصيبوا به من مرض اجتماعى ، ليس يرجع ذلك — فى رأيهم — إلا إلى حب الظهور ، وإشباع رغبته فى إعظام نفسه ، والدوىّ حول شخصه . بل قالوا أكثر من ذلك وأعنف ؛ قالوا إن الممرضة التى تهب نفسها لخدمة المرضى ، وتعمل جهدها فى الرحمة بهم ، وتلطيف عذابهم ، وتضميد جراحهم ، وتجد من نفسها السعادة فى تفريج كربهم وتخفيف آلامهم ، ليست فى الحقيقة مدفوعة إلى ذلك إلا لداعى ما ركب فى غريزتها من الاستطلاع الجنسى . قالوا : وإنما اختارت هذا الضرب من الإحسان لأنه محفوف بما يغذى نفسها من مظاهر الإعجاب

والمدح والثناء ، والظهور بمظهر من يفنى ذاته فى نفع الناس ، ويضحى بخيره لخير الناس .

وهكذا رجعوا كل البواعث النبيلة ، ومظاهر التضحية الجميلة للغرائز الوضيعة المتأصلة فى النفس ، وللبواعث الذاتية المتمكنة فى الإنسان منذ ظهوره على وجه الأرض .

وقالوا : وما ذنبنا أن وجدنا الإنسان هكذا خلق ، وعلى هذا طبع ، وهو هو من بدايته إلى نهايته ؟

ولكن أحقٌّ كل هذا ؟ أيستطيعون أن يستمروا فى تفسيرهم لكل أنواع التضحية من شخص لا يؤمن بدين ، وهو — مع هذا — يرمى نفسه فى ميدان القتال دفاعاً عن أمته ، وأم تضحى براحتها ولذتها لابنها من غير أن تنتظر مثوبة أو جزاء ، ونحو ذلك من أمثلة لا تعدّ ؟

وهب ذلك كله صحيحاً ، فهل ذهب جمال التضحية ، وقيمة التضحية ؟

لتكن كل هذه الأعمال النبيلة ناشئة عن غرائز شخصية وبواعث ذاتية ؛ فهذه الغرائز فى الحقيقة والواقع قد تتجه إلى أعمال خسيسة فنكرهها ونشمئز منها ، وهى هى قد تتجه إلى أعمال تنفع الناس فنعجب بها ونمجدها . إن حب الذات قد يدفع الشخص إلى أن يقتل استيلاء على مال القتيل ، وقد يدفعه إلى أن يقتل دفاعاً عن أمته أو دفاعا عن عرض فتاة ، ومحب الظهور قد يغذى غريزته بتضليل الناس ، وخلق المؤامرات ، وتدبير الدسائس حتى يعترف له بالمقدرة ؛ وقد يغذى غريزته بالإحسان الكثير والإصلاح الكبير . والمرأة قد تدفعها غريزتها الجنسية إلى الاستهتار ، وقد تدفعها الغريزة نفسها إلى التمريض ؛ فالغريزة فى كل هذه الحالات واحدة ، ثم قد يصدر عنها الخير ، وقد يصدر عنها الشر ، فالعبرة بالنتائج لا بالتحليل إلى العناصر الأولية . وخطأ علماء النفس

هؤلاء — إن كان ما يقولونه صحيحاً — أنهم أفرطوا فى التحليل ، ولم ينظروا فى التركيب ، بالغوا فى المقدمات وأعرضوا عن النتائج .

لتكن كل الأعمال ناتجة عن حب الذات ، فلا تزال هناك أعمال نبيلة وأعمال خسيسة ، ولا يزال هناك من الأعمال مايصح أن يسمى «أثرة» وأنانية وما يصح أن يسمى إيثاراً وتضحية ، وكل الفرق فرق فى التعريف لا فى المعرّف ، وفى العرض لافى الجوهر ؛ فعلى قولهم تكون التضحية أن يجدالمرء لذته الشخصية فيما يعود على الناس بالنفع ، وعلى قول الآخرين هى أن يبعثه على عمله نفع الناس وخيرهم ، ولا عبرة بالمقدمات إذا تساوت النتائج ، وليس يهمنا أن يكون الباعث له على إتيان الخير لذته الشخصية أو رغبته فى الصالح العام ما دام العمل ينتج هذا الخير .

ولا يزال الناس بعد هذا البحث السيكولوجى منقسمين إلى قسمين : قسم لا ينظر إلا إلى شخصه فى حدوده الضيقة ، وقسم ينظر إلى شخصه فى حدوده الواسعة . قسم ينظر إلى ذاته كالحيوان ، وقسم ينظر إلى ذاته كفرد فى أمة وعضو فى جسم وفرع فى شجرة ، يوفق بين نفعه ونفع أمته ونفعه ونفع شجرته . قسم بلغ به ضيق النظر أن يجد لذته فى حرمان الناس وسعادته فى شقاء الناس ، أو هو على الأقل لا يهتم بالناس ، وقسم قد بلغ من سعة نظره أن يجد لذته فى لذة الناس ، وسعادته فى سعادتهم ، وخيره فى خيرهم ، وهذا غاية الرقى . وخير الناس من استطاع أن يوفق بين غرائزه وخير الناس ، فإذا كان محبا للظهور فليظهر بما ينفع أمته ، وإذا كان محبا للاستطلاع فلا يستطلع أخبار الناس وعيوبهم وخفاياهم ، وإنما يستطلع حقيقة مجهولة فى العلم أو قانوناً مجهولا فى الطبيعة ؛ ومن كان فى طبعه الخوف فليخف من شر يلحق الناس ، وأذى ينالهم ، ولا يخف من أوهام من خلقه ، وعفاريت من خياله . وهكذا .

مهما قيل فالتضحية أنبل ما وصل إليه الإنسان . منظرها أجمل منظر وأروعه ، ولا شيء يكسب الأمة قوة كما تكسبها التضحية ؛ فالأمة المضحية تأكل غير المضحية فى سهولة ويسر ، لأن الأمة المضحية كتلة متماسكة ووحدة واحدة ، والأمة غير المضحية أفراد متفككة ، وشهوات متعددة ، تتحارب أجزاؤها ، ويأكل النزاع والشهوات والأنانية قواها . فالأسرة التى يعمل فيها كل فرد لشخصه أسرة ميتة ، والمصنع الذى يعمل كل فرد لمصلحته الخاصة لا يبقى شهراً ، والحزب الذى ينظر فيه كل عضو إلى نفسه فقط حزب مصطنع لا حول له ولا قوة ، والأمة التى يحسب فيها كل فرد حساب لذته الخاصة هى أفراد لا أمة .

فى الأمة التى تسودها التضحية كل أفرادها أقرباء ، وفى الأمة التى تسودها الأنانية كل أفرادها غرباء .

التضحية عشق وهيام ، ومحال أن يصدق عشق على أساس الأنانية ، إنما يصدق يوم يقول ويؤمن بما يقول : « إنى أضحى أنانيتى وسعادتى وشخصى وكل ما يقف فى سبيل الحب لحبى » .

لا تكون التضحية حتى يتعود القلب لذة العطاء كما يتعود لذة الأخذ ، ولذة أن الناس يَجِدُون ويسعدون ، كما يتعود أن يتلذذ من أن يجد ويسعد .

التضحية إرادة القوى ليقوى ، وإرادة الضعيف ليتخلى عن ضعفه — هى حجر المسن تُشْحد عليه الإرادة لتقطع الصعاب وتجتاز العقاب ، وهى النار المقدسة التى تطهر النفوس وتأكل الأعشاب الطفيلية .

التضحية أشرف الطرق تسير فيه الأمة لتحقيق ذاتيتها ، وأنبل السبل تسير فيه الإنسانية لتبلغ غايتها ، وبدونها يصبح الإنسان حجراً لا روح فيه ، أو بهيما يعيش ليأكل .

التضحية أفق واسع تنعم فيه النفس بجمال السعة و بعد المدى وجلال اللانهاية، والأنانية أفق ضيق تألم فيه النفس بضيق المكان ، وتنقبض فيه من كثرة السدود والحدود .

فى التضحية حرارة و إيمان يُسعد ، وفى الأنانية جمود بارد و إلحاد مقبض .

فى التضحية حياة كلية شاملة وفناء النفس فيما حولها ومن حولها ، وفى الأنانية حياة جزئية محصورة ، ودوران النفس حول ذاتها فى خمود وركود .

فى التضحية كرم وسماحة ، وفى الأنانية شح وكزازة ، « ومن يُوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

# النـــار

كان الجو بارداً قارساً ، وكان الهواء عاصفاً قاصفاً ، وكان الليل مظلماً حالكا ؛ فأويت إلى بيتى وكأنى لا أجد جسمى ، وخلعت ملابس التكلف ولبست ملابس البساطة ؛ وفرحت بالنار الموقدة فى حجرتى ، والجو الهادئ حولى ؛ فكل شىء يحيط بى نائم ، وأنا والنار وحدنا يَقِظان .

جلست بجوارها أتأمل صنيعها ، وأستمليها معانيها .

* * *

يعجبنى فيك — أيتها النار — ميلك إلى السمو دائماً ، يلعب بك الهواء فى نواحيك ، فتقاومين وتعارضين ، وقد يتغلب عليك الحين بعد الحين ، ولكن لا تملّين ولا تخضعين ، حتى يمل هوَ فيسكن ، وتستمرين فى تساميك أبداً ، وفى تعاليك دائما ؛ فتباً لمن يخضع لأول عاصفة ، ويطأطئ رأسه لأول صدمة .

قوية قوة لا نهاية لها ، لا تلمسين شيئاً حتى تأكليه وتخضعيه لأمرك ، وتحليه إلى شىء واحد مهما اختلفت أنواعه — جماداً كان أو حيواناً أو نباتاً ، عظيما أو حقيراً ، جميلا أو قبيحاً — إلى رماد ، إلى هباء ، إلى فناء . تحللينه بحرارتك ، وتهضمينه بقوتك ، ثم تتركينه بارداً برود الموتى . أين منك مخالب الأسد ؟ وأين منك أنياب الأفاعى السامة ؟ وأين منك الريح العاتية ترمى ولا تفنى ، وتقتلع ولا تبتلع ؟ لولا أنْ رأينا أفاعيلك قبل أن نعقل لجن جنوننا لرؤيتك ، وأخذنا العجب كل العجب لقدرتك .

* * *

عجب المجوس لقدرتك فعبدوك وألَّهوك ، واستدل الموحدون بعظمتك على

عظمة خالقك ، وامتن الله بك على عباده ، فقال : « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » .

* * *

اشتق العرب أقوى فترة من العمر من صفاتك ، فسموا الشباب من شبوبك ، ووصفوا التهاب الشعور من التهابك ، وقالوا ضرام الحب من ضرامك . واندلع لهيب الثورة من لهيبك . وكما استعاروا صفات القوة من قوتك ، استعاروا صفات الضعف لغيابك ، فقالوا : انطفأت شعلته إذا مات ، تشبيهاً بانطفائك ، وهمدت قوته وخمدت ، من همودك وخمودك .

وكما عبدك المجوس جعلك العرب أعظم مفاخرهم وأشهر مآثرهم ، فرفعوك للسَّفْر ولمن يلتمس القِرَى ، وكلما كان موضعك أرفع كانوا بك أفخر ، فقال شاعرهم :

له نارٌ تُشَبُّ بكل ريعٍ   إذا الظلماء جلّلت القِنَاعا
وما إن كان أكثرهم سَوَاما   ولكن كان أرحبهم ذراعا

ومثل ذلك كثير لا يحصيه عد .

* * *

لقد أبت الشمس أن تنزل من سمائها ، وتتنازل عن عليائها ، فأنابتك فى الأرض عنها ، ومنحتك أعظم صفاتها ، وهى الضوء والحرارة والقوة ، فضوءك من ضوئها ، وحرارتك من جنس حرارتها ، وقوتك بعض قوتها ؛ وكأنك تبرهنين على ولائك لها ، فتميلين دائما للصعود إليها ! تستطيعين أن تمزقى الظلام ، فتكونين آية الليل كما كانت أمك آية النهار ، وتستطيعين أن تقهرى البرودة ، وتبعثى الدفء إذا غابت أمك ، وتستطيعين أن تبعثى الحياة بحرارتك . وهل الحياة إلا حرارة ؛ وهل الموت إلا برودة ؟

* * *

ثم أنت بقوتك نفاعة إلى أشد حدود النفع، ضرارة إلى أشد حدود الضرر. فيك الحياة وفيك الموت . هأنذا أستدفئ بك وأحذر القرب منك ، وهـذا الأكل تنضجينه وتحرقينه ، وهذا القطار تسيّرينه وتمزقينه .

عدَّ الإنسان اكتشافه لك أجلَّ شيء في حياته وأعظم حادثة في تاريخه ، لايستغني عنك بدوى في بداوته ، ولا حضرى في حضارته . عرفَتْ المدنية الحديثة طرق استغلالك فقفزت في تقدمها ، واتخذتك أكبر وسائلها في بنائها وهدمها ، وبؤسها ونعيمها ، ورفاهيتها وعذابها ، وسلمها وحربها . وهل بنيت المدنية إلا على الحديد والنار ؟ ومهما اختلفت الأسماء التى وضعوها لك من فحم وبنزين وغيرها فأنت أنت التى صيغت من ضوء وحرارة .

* * *

لقد كنا نحن وأرضنا وما حولنا جذوة منك ، فلما بردت قشرتها دبت الحياة فيها وظل باطنها شعلة منك ، تنبئ بأصلها وتدل على تاريخها ، ومن أجل ذلك كان كل شيء حولنا إما ناراً ظاهرة ، أو ناراً كامنة .

* * *

لك فوق جلالك وقدرتك جمال عجيب ! وقلّ أن يجتمع الجلال والجمال والقوة فى شيء كما اجتمعت فيك . أدرك الرضيع جمالك فناغاك ، وشُـدت عيناه إلى مرآك ، وارتبط جمال الليل بجمال ثرياك ، واجتمع فيك سر جمال النور وجمال اللون وجمال الحركة وجمال القوة وجمال الوداعة . تهدئين فتكونين شمعة ، وتثورين فتكونين بركاناً ، وقد أنصف العرب إذ سموك « النار » قريباً من « النور » لقرب حقيقتك من حقيقته ، وجمالك من جماله .

* * *

ثم ها هى النار من أكثر ما فى الوجود إيحاء وإلهاماً . فلأمر ما ارتبطت

النار فى حياة موسى بنور الوحى « إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً . لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى » ! ولأمر ما كانت النار معجزة إبراهيم « يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » ! ولأمر ما عظمها اليهود وقالوا : إنها تأكل قربان المخلص ولا تأكل قربان النغِل . ثم هى والجنة عِدْلان تلعب عليهما عواطف الإنسان من خوف ورجاء ورغبة ورهبة ؛ وبفضلها لم نجد تعبيراً خيراً من حرارة الإيمان وحرارة العواطف وحرارة القلب ، ولو انعدمت حرارة الإيمان لكان إيماناً جافا ، ولو انعدمت حرارة العواطف لتجمدت وماتت ، ولو انعدمت حرارة القلب لكان حجراً . إنما يقوّم الشاعر بحرارة شعره ، والخطيب بحرارة قوله ، والأمة بالتهاب وطنيتها ، ولا فرق بين الموت والحياة إلا الحرارة . وإذا أظلمت النفس فما أحوجها إلى لمعة كلمعة البرق تضىء جوانبها ، وإذا برد القلب فلا يحييه إلا قبس من نار يلهب شعوره ، وإذا جمدت عواطف أمة فليس إلا النار والعذاب يحيي مشاعرها ، ويبعث وجدانها .

لم يجد العاشق — أيتها النار — تعبيراً صادقاً عما يجد إلا النار ترعى فؤاده ، والنار تحرق كبده ، والنار تكوى قلبه .

ولم يجد الصوفى خيراً منك ومن النور ولد منهما معانى عجباً .

***

وهنا أحسست أن جسمى أخذ حظه من الدفء ، ورأسى كأنه شعلة نار من التفكير فى النار ، فأطفأت نارها وأطفأت رأسى وقلت : إلى مخدعى .

# العام الهجرى الجديد

باسم الله نستقبل هذا العام الهجرى الجديد ، وباسم الله نرجو أن يكون خيرا من أخيه الراحل ، وأن يكون يمناً وبركة وسعادة للإنسانية عامة ، وللعالم الإسلامى خاصة ، وأن ينظر فيه المسلمون إلى أنفسهم فيعرفوا مواضع الضعف فيها فيُقَوُّوها ، وإلى مواضع القوة فيزيدوها ، وأن ينظر العالم الأوربى إليهم نظرة عادلة ، فيعلم أن المسلمين قد شعروا بإنسانيتهم فلم يعد فى الإمكان أن يُستعبدوا ، وبصروا بأنفسهم فأصبح من العسير أن يُستغلوا ، وتجاوزوا طور الصِّبا فلا بد لكسبهم من إخائهم لا سيادتهم ، ومن مساواتهم لا السيطرة عليهم ، ومن معاملتهم معاملة الإنسان للإنسان ، لا معاملة الإنسان للسلع . وفوق ذلك فتكاليف المدنية كثيرة ، والقيام بأعبائها شاق عسير ، وتسيير آلاتها يحتاج إلى أيد لا عداد لها ، وعقول لا تحصى ، فلماذا نضعف المدنية بتسليط قوة على قوة بدل أن تتعاون القوتان ؟ ولماذا نضيع الوقت فى إذلال نصف السكان لنصفهم الآخر ، ولا نضع أيدينا بعضها فى بعض للتعاون والتساند ؟ ولماذا يخيل لقوم ألا ينجحوا إلا بهدم أممهم للأمم الأخرى ، مع أنها صالحة كل الصلاحية لتبنى كما بنوا ، وتشيد كما شيدوا ؟ والله قد قسم الخيرات على الناس ، فكما جعل أرضاً صناعية وأرضاً زراعية ، جعل لعقول الأمم مميزات ولنفوسهم مميزات ، ولاشك أن للعالم الإسلامى مميزات تغل الخير الكثير لو استغلت ، وتساعد فى بناء المجتمع لو استخدمت .

***

جرى العالم الأوربى — إلى عهد قريب — على تنحية المسلمين وإبعادهم عن أن يشتركوا فى البناء ، ورسم خطة محدودة نحوهم هى خطة الملاك للعمال فى

مزرعته ، وخطة صاحب رأس المال للمنتجين فى مصنعه ، لا خطة تعاون أصحاب رءوس الأموال ، ولا خطة الشركاء فى الإنتاج .

لقد غزا العالم الأوربى فى القرن الماضى العالم الإسلامى بكل قواه . و بعبارة أخرى غزت قارة أوربا الممالك الإسلامية فى آسيا وأفريقا واستعملت فى إخضاعها كل أسلحتها ؛ فالمبشرون ينظمون قواهم لنشر دعوتهم فى البلاد الإسلامية ، ويتخذون لذلك المستشفيات والمدارس والملاجئ ستاراً لنشر دعوتهم ، والملحدون يدعون إلى الإلحاد ، وينشرون آراءهم فى لباقة ومهارة ، عارية صريحة ، أو تحت ستار من ألوان براقة خداعة ، ويأملون أن يتحرر المسلمون من دينهم ، فان ظفروا بذلك فقد ظفروا بنصف المكسب ، ورجال السياسة يضعون الخطط لإذلال المسلمين وتحكيم دولهم فيهم ، وتسيير الآلات الحكومية فى الدول المستعمرة لخدمة الاستعمار ، حتى لا يخرجوا قيد شعرة عما رسموا ، ولا يفكروا فى غير ما خطوا ، ورجال الحرب ينفذون ما تشير به السياسة ، فمن حدثته نفسه أن يفتح فاه فى غير مصلحة الحاكم المستعمِر فالويل له . ورجال الاقتصاد من وراء رجال السياسة يدرسون الحالة الاقتصادية للمسلمين دراسة عميقة ، ويضعون الوسائل لاستغلالها فى مصلحة أممهم ، لا مصلحة من يستعمرونهم ، فان عجزوا عن تنفيذها اقتصاديا نفذوها سياسيا أو حربيا ، وهكذا .

كان هذا كله ، وأكثر من هذا كله ، والمسلمون — كانوا — فى شغل عن أمورهم ، ترضيهم لعب كلعب الأطفال ، ويسر كبارهم أن يطعموا أرفه الطعام ، ويلبسوا أنم الثياب ، ولا يعنيهم من أمتهم إلا أنفسهم وأولادهم ، ثم كانوا — كذلك — كالأطفال فى عدم استطاعتهم إدراك المعانى المجردة ، فالطفل لا يدرك أبوة ولا أمومة ، وإنما يدرك أبا أو أما . فكذلك هؤلاء ، كانوا لا يدركون المعانى وإنما يدركون الأشخاص ، فالفكرة لا تقدر فى ذاتها ، وإنما تقدر بقائلها ،

ويكفيهم فى هذا المجال التنازع على فتات السلطة التى خلفها لهم المستعمر من موائده ، والتنازع على الجاه ، والتنازع على العرَض . وكلمات الصالح العام ، ومصلحة الأمة ، وخير البلاد ، ونحو ذلك كلمات جوفاء تقال على أفواههم ، ولم تسكن قلوبهم ، وتقال للتنكيل بخصم سياسى أو للقفز بها إلى الحكم ، فاذا حكموا كانوا كسابقيهم ، جعجعة ولا طحن ، وقول ولا عمل !

***

مضى على هذه الحال أعوام وأعوام ، حتى بدأ النائم يستيقظ ، وعمل على هذه اليقظة عوامل ، من أخطاء ارتكبها الساسة فى الحكم ، ومن تعاليم أتت مع المدنية الحديثة ، ومع الفاتحين فى نظم الدولة وحقوق الإنسان ، فتسربت إلى القادة ، وتقطرت منهم إلى العامة ، ومن مبادئ إنسانية عامة أعلنها قادة السياسة فى الحرب العظمى ، تبين حقوق الإنسان ، أو تستعطف الأمم للدخول فى صفها ، أو تدعو إلى السلم ، إلى غير ذلك من أسباب لا أطيل بذكرها .

غير أنى لا أنسى هنا أن أذكر بالفضل قوماً من المنصفين الأوربيين ، وقفوا للدفاع عن الإسلام وعن المسلمين ، واستطاعوا بأقوالهم وخطبهم وكتبهم أن يعدلوا كثيراً من الرأى العام الأوروبى ، فلم يعد الإسلام فى نظر كثير منهم — كما كان — ذلك الدين الذى ينفث العصبية والحقد ، ولا ذلك الدين الذى لا يصلح للعالم الحاضر ويجب أن يسرع فى القضاء عليه قبل أن يموت تدريجاً ، ولا ذلك الدين الذى ليس له أسس أخلاقية شريفة ، ولا ذلك الدين الذى ليس له تأثير فى الضمير الخ . بل تحول كثير من الرأى العام إلى الاعتراف بصلاحية الإسلام للحياة ، وابتنائه على أسس أخلاقية قويمة ، كما تحول كثير إلى الوقوف على الحياد ، بعد أن كان موقفهم موقف عداء ، ثم كان من موضع الإعجاب ما ظهر به المسلمون أنفسهم من

مناعة نحو تمسكهم بدينهم و بقوميتهم ، فلم يلق التبشير الدينى ولا السياسى من النجاح ما كان ينتظر !

***

تحرك المسلمون يطالبون بحقوقهم ، وسببوا بحركاتهم مشاكل للدول التى تحكمهم ، ورأى الساسة أن حكمهم لم يصبح من السهولة كما كان ، ورأى الاقتصاديون أن الاستغلال فى أراضى المملكة الإسلامية أصبح عسيراً ، وأن غفلة المسلمين التى كانت تمكنهم من الاستغلال على أحسن وجه وأيسره قد زالت أو زال أكثرها ، فعسر عليهم الإنتاج .

كما صادف أن العالم الأوربى تمزق بالخصومات والعداء ولم يعد الأوربيون كلهم على اتفاق فيما بينهم ، حتى يستطيعوا أن يرسموا خطة واحدة نحو الممالك الإسلامية .

كان من نتيجة ذلك كله أن تحول موقف الدول نحو البلاد الإسلامية تحولا ظاهراً ، ورأوا أن يصانعوا المسلمين ويحاسنوهم ولا يخاشنوهم ، فكانت المعاهدات المختلفة ، للأقطار الإسلامية المختلفة ، وإلغاء الامتيازات فى الدول التى بقيت فيها ، إلى كثير من أمثال ذلك .

***

هذا عرض سينمائى سريع لتاريخ المسلمين الحديث وموقفهم الحديث ، ولكن هذا الموقف الجديد يتطلب واجبات جديدة ، ويحملهم أعباء ثقالا ، فإحداث الثورة أيسر من استغلالها إذا هدأت ، وإشعال النار أسهل من استخدامها فى تسيير القطارات وإدارة الآلات ، وقد ظل العالم يشعل النار طوال عهده ، ولكنه لم يعرف أن يستخدم البخار إلا فى عهده الحديث ، وواجبات العبد أيسر من واجبات السيد ، ومسئولية الرجل أعظم من مسئولية الطفل :

فالعالم الإسلامى الآن يقف — لأول مرة — بعد العصور المظلمة — على رجليه ، ويحاول أن يدير حكومته بنفسه ، ويتحمل غلطاته ، ويفخر بحسناته . وقد أصبح لأول مرة فى العصور الحديثة عقلا يدبر بعد أن كان يداً تدار ، وأمسك بيده المصباح فإما أن يضىء به منزله إذا أحسن استعماله وإما أن يحرقه إذا أساء استعماله . ووقف الآن يحمل أوزاره وأوزار آبائه ، وديونه الثقيلة وديون آبائه ، فكان الأمر جدا لا لعب فيه ، وميدان جهاد لا مسرح مهزلة .

وإن أبواب الجهاد عديدة ليس شىء منها أولى من شىء . وقد علمنا الإسلام فى تعاليمه الأساسية الأولى أن نعد أنفسنا ما استطعنا من قوة ، نتسلح بالعلم كما تسلح القوم بالعلم ، ونتسلح بالأداة الصالحة للحكومة كما تسلحوا ، ونتدرع بتنفيذ العدل الدقيق كما تدرعوا ، وبوحدة الأحزاب عند الخطر كما توحدوا ، وبالاستعداد للطوارئ كما استعدوا ، وفوق ذلك نتقوى بالخلق كما تقووا .

فأما أن يترك العالم الإسلامى بيوته نوضى ، ويتنازع على الرياسة أو على من يمثله فى المجتمعات والمؤتمرات ، وأما أن تتحارب أحزابه لا للمصلحة القومية ولكن لتولى الحكم ، وأما أن يبذر أمواله على أنواع الترف والكماليات . وهو فى أشد الحاجة إلى الضروريات ، وأما أن يسير فى آلاته الحكومية على أساس المحسوبيات والشهوات لا على أساس العدل الدقيق ، وأما ، وأما . . فضرب من العبث إن اغتفر فى الماضى فهو أكبر أنواع الإجرام فى الحاضر .

إن موقفنا اليوم موقف التاجر يمارس التجارة لأول عهده ، وموقف الشاب أونس منه الرشد فرد إليه ماله وروقب كيف يتصرف . ولسنا فى عزلة عن العالم نفعل كما نشاء ، وإنما نقف على مسرح نظارته كل العالم ، وليس لدينا من القوة العلمية والأدبية والحربية ما يحمل العالم على أن يغفر لنا خطايانا ويغمض طرفه

عن زللنا ، ويقف العالم منا موقف الرقيب ماذا نصنع والراصد ماذا نعمل ، وفى أعناقنا تبعاتنا وتبعات أبنائنا من بعدنا .

فلنجعل العالم يهابنا فى إجلال ، ويحترمنا كصديق ، ويعاملنا كشريك ، ولا يمس حقوقنا لقوتنا ، ويفسح لنا فى بناء المدنية لقدرتنا ، ويؤمن — بأعمالنا لا بأقوالنا — بأن لنا مجداً قديماً أتبعناه بمجد حديث ، ولنُسمع من لم يسمع أن المسلمين لم تمتهم الأحداث الثقال ، وإنما أنامتهم ثم انتبهوا ، وخدرتهم ثم انتعشوا ، وأنهم منذ انتبهوا عملوا مع العاملين وجدُّوا مع الجادين .

هذا أيها العام الجديد ، رجاؤنا فيك وأملنا منك ، فكن صفحة مجيدة يسجل فيها العالم الإسلامى نبل فعاله وخير أعماله ، وكن لهم مناراً حتى يهتدوا بضوئك ويأنسوا بنورك ويبددوا ما يحيط بهم من ظلام ، ويضطلعوا فيك بأعبائهم الجسام ، حقق الله الآمال .

# الخصومة فى الأدب

كانت الخصومة بين الأدباء دائماً نعمة على الأدب وإن كانت نقمة أحياناً على الأدباء أنفسهم .

فالخصومة – أول الأمر – فى كثير من الأحيان هى التى تنتج الأديب وتهيج مشاعره ، وتطلق لسانه ، ، وفى تاريخ الأدباء الشىء الكثير من ذلك ، فقديماً كان الشاعر العربى يهجو القبيلة ويعيّرها ويجسم مثالبها ويقلب حسناتها سيئات ، فتتلفت يمنة ويسرة تنتظر من يدافع عنها ، ويصد كيد عدوها ، فتفعل هذه اللفتة فى المستعد المتهيئ فعل السحر ، فإذا للقبيلة من يروض نفسه على القول ، ويعدها للنضال ويطلق لسانه بالقول وإذا هو شاعر . ولولا هذا الهجاء وهذه الخصومة لكان إنساناً كسائر الناس لا شاعراً كسائر الشعراء . وحديثاً سمعنا أن « عبد الله نديم » أطلق لسانه بالقول رجل دعاه ليعلم أولاده ثم أكل عليه أجره ، فأخذ يعمل لسانه فى هجوه فإذا هو هجاء ، وإذا هو أديب ، وإذا هو كاتب وشاعر .

ثم الخصومة هى التى أورثتنا باباً كبيراً من أبواب الأدب هو باب الهجاء ، فلولا الخصومة ما كانت لنا نقائض جرير والفرزدق ونقائض جرير والأخطل ، ولا كانت أهاجى بشار وأبى نواس وابن الرومى وغيرهم من الهجائين ، وكثير ما هم ، ولحرمنا ما أبدعوا فى هجائهم من صور فنية هى غاية فى الروعة والإتقان ، تثير فى النفس الهزء والسخرية حيناً ، والضحك حيناً ، والإعجاب من مصورها حيناً ، ولو فقدت هذه الصور لكانت كارثة على الأدب ولفقد ركناً كبيراً من مقوماته .

ثم هذه الروايات الكثيرة فى الأدب الغربى التى وضعت لنقد كاتب والهزؤ به وبآرائه؛ والتى وضعت لنقد فكرة والسخرية بها وبواضعيها ومؤيديها — كل هذه ما كانت تكون لولا الخصومة الأدبية، وكلها ثروة كبيرة من ثروة الأدب لا غنى عنها، ولا حياة له بدونها.

وبعد هذا كله فما النقد؟ أليس هو خصومة؟ شريفة أحياناً وغير شريفة أحياناً؟ إن كان النقد فى قليل من أوقاته مدحا وتقريظا فهو فى كثير من أحيانه عيب وتجريح.

وليس يشك شاك فى نعمة النقد على الأدب، فهو الذى بخصومته يهاجم الأدباء فى شدة وعنف فيبين أغاليطهم، ويوضح ضعفهم، ويظهر عيوبهم، فإذاهم حذرون يجيدون خوف النقد، ويحاولون أن يتبرءوا من العيوب خوف النقد، وينشدون الكمال خوف النقد، فإذا خرج نتاجهم كاملا أو قريبا من الكمال فالفضل فى ذلك للنقد.

وفى كل عصر تنشأ خصومة حادة عنيفة بين رجال الأدب من أنصار القديم وأنصار الجديد يتجادلون ويتسابون، وجدالهم وسبابهم أدب، وينقسم الناس إلى معسكرين: أنصار المجددين وأنصار المحافظين، ويحمل كل فريق أقلامهم فيجيدون ويمتعون، فيكسب الأدب من هذه المعارك مكسباً مزدوجا، مكسبا من ناحية ما يقال فى هذه المعارك من هجاء وتعنيف وسب وخصام، ومكسبا من ناحية ما يكسبه المجددون — غالبا — من توجيه الأدب وجهة جديدة، وإدخال عناصر فيه جديدة — ولولا ذلك لظل هيكل الأدب كهيكل الأهرام تمر عليها الدهور والأعوام وهى هى فى شكلها ومادتها، ولكان أدبنا اليوم هو الأدب الجاهلى، ولكان أدب الغرب اليوم هو أدب القرون الوسطى، فلولا ثورة المجددين والخصومة بين الأدباء لما تقدم الأدب خطوة، ولظل على حالته

كما تركه الأولون . . هذا فى إجمال نعمة الخصومة على الأدب .

***

ثم إن الخصومات بين الأدباء هى من جنس الخصومات بين ذوى المركز الواحد أو أهل الصنعة الواحدة .

هى من جنس الخصام بين الضرائر ، فالضرة تخاصم الضرة لأن كلتيهما تتنازع قلب الزوج ، وتريد أن يكون لها السلطان عليه كاملا ، وهى من جنس الخصام بين الزوجة والحماة ، لأن الحماة تُدِل بأمومتها وكبر سنها ، والزوجة تدل بجمالها وشبابها وغير ذلك .

وهى من جنس الخصومة بين ذوى الصنعة الواحدة . فالنجار قل أن يحب النجار ، والحداد قل أن يحب الحداد ، والتاجر فى نوع من السلع قل أن يحب التاجر فى هذا النوع ، وكلما قرب الشبه اشتد النزاع ، فالنجار فى حى من الأحياء أشد كراهية للنجار فى حيه من النجار فى غير حيه ، وتاجر الغلال أشد كراهية لتاجر الغلال منه لتاجر القطن ، والسبب فى ذلك تسابقهم إلى اكتساب «الزبائن» فكل يريد أن يستولى على السوق ، وينفرد بالمكاسب ، ويستبد بحسن السمعة والجاه ، فإذا شعر بأن هناك من يزاحمه فى هذا انتقصه وكرهه وعمل على إخماد أنفاسه ، ولذلك كانت كراهية التاجر العظيم للتاجر العظيم أشد من كراهيته للتاجر الصغير ، لأنه كالآمن من ناحيته المطمئن إلى أنه لا يبلغ شأوه .

فالخصومة بين الأدباء من هذا الصنف ، ولذلك قل أن تجد خصومة بين أديب وعالم أو أديب وموسيقى ، لأن ميدان السباق بينهما مختلف ، إنما يخاصم الأديب الأديب لأنهما من واد واحد ، ويريد كل أن يكون له السوق وحده ، فإذا شعر من أحد أنه يزاحمه فى ميدانه خاصمه وهجاه ، وقلل من شأنه ، وشأن دبه ، وفعل الآخر مثله ، فكانت النقائض والمهاجاة ونحو ذلك . وعلى قياس

ما سبق كلما كانت درجة الأدباء متقاربة كانت الخصومة بينهم أشد ، والمهاجاة أعنف . وقد يتصافى الأديبان ظاهراً و يتخاصمان باطناً ، فتكون الخصومة دفينة تنتظر عود الثقاب ليشعلها ، وقد يمر زمن طويل قبل أن يشتعل هذا العود — وكلما زاد أحد الأدباء حظوة عند القراء أو أخرج كتابا أقبل عليه الناس ، ازداد خصومه غيرة فراحوا يقللون من شأن نتاجه : ويتمحلون الأسباب فى انتقاصه ، وقد تتكون حول كلٍّ أنصار وحول كلٍّ خصوم فيكون النزاع بين جماعات لا بين أفراد .

ولكن من الحق أن نقول إن الغيرة ليست كل شىء فى الموضوع ، فقد تكون تربية الأدباء وثقافتهم سببا فى الخصومة بينهم . هذا أديب نشأ نشأة عربية خالصة ، ولم يقرأ إلا لشعراء العرب ، ولم يطلع إلا على الكتب العربية ، فعنده أن الأدب الغربى تافه ثقيل الظل ، وخير مثال يحتذى هو أسلوب الجاحظ أو أسلوب البديع أو شعر المتنبى أو أبى تمام — وهذا أديب أخذ حظه من أدب الغرب ، ومزج بين الثقافتين وفضل الأدب الغربى على الأدب العربى ، وصار المثل الأعلى له أن يحاكى شكسبير أو لامارتين أو جوته ، فهو يريد أن يطعّم الأدب العربى بخير مافى الغربى ، ويريد أن يجدد فى بحور الشعر وفى موضوعاته وفى ميادينه — فتنشأ الخصومة العنيفة ، وهى فى الواقع خصومة بين مدرستين ونزاع بين مذهبين ، هذا يتعصب للقديم ولا يريد أن يتحول عنه أنملة ، ويريد أن يتبع عمود الشعر كما كانوا يعبرون ، وهذا ثائر لا يرضى عن القديم إلا أن يمزجه بجديد . وقد كانت هذه الخصومة فى كل عصر تقريباً — عاب الناس على أبى تمام تجديده ونصره قوم . وهاجم العقاد والمازنى شوقى وحافظا لهذه النزعة بعينها ونصرهما آخرون — وسيصبح الحديث قديما ويعيبه جيل المستقبل ويريدون جديداً ، وهكذا سنة الله فى كل شىء حتى فى الأدب .

وسبب آخر فى الخصومة كثيراً ما يحدث — وهو الخصومة بين شيوخ

الأدب وشباب الأدب — وهى خصومة — لا شك — واقعة ، غاية الأمر أن المسألة ليست بالسن فقد يكون شيخاً وهو من أدباء الشباب . وقد يكون شابا وهو من أدباء الشيوخ ، لأن المسألة ليست تقدير عمر إنما هى نزعة ، والنزعة إلى التجديد قد يشترك فيها شيوخ وشبان ، والنزعة إلى المحافظة قد يشترك فيها شيوخ وشبان .

والخصومة بين الشيوخ والشبان ترجع إلى عوامل مختلفة : منها هذا الذى ذكرنا من اختلاف النزعات . ومنها أن الشبان قد يكرهون من الشيوخ استيلاءهم على السوق وكثرة الزبائن فينفسون عليهم ذلك ويريدون أن يهدموهم ليحلوا محلهم ، ويدافع الشيوخ عن مراكزهم فتكون معركة مروعة تختلف فيها الأسلحة وآلات القتال ، وقد يكون السبب أن الشاب إن كان ناشئا فى الأدب رأى من وسائل شهرته أن ينازل شيخا ، فإن ظفر به فقد فاز فوزاً عظيما إذ غلب عظيما ، وإن لم يظفر به فليست هزيمة منكرة ويكفيه فخراً أنه ناوشه ، فهو كاسب على كل حال .

وبعد ، فكل الناس يتخاصمون ، تاجر يخاصم تاجراً ، وصانع يخاصم صانعاً ، ورب أسرة يخاصم رب أسرة ، وأمة تخاصم أمة وتقاتلها ، ولكن الأدب هو الذى يظفر بتخليد خصومته . فقد ذهبت كل الخصومات فى العهد الأموى وبقيت خصومة جرير والفرزدق ، وذهبت خصومات الناس فى العصر العباسى وبقيت خصومة الخوارزمى والبديع ، وخصومة المتنبى وأعدائه وهكذا .

وكم تساب الناس وذهب سبابهم . أما سباب الأدباء فباق خالد ، وهو طُرفة ، وهو إبداع ، وهو يثير التبسم ويستخرج الضحك أو الإعجاب . وسبب ذلك أن الأديب طويل اللسان وقلمه أطول من لسانه ، وهو ماهر فنان يستطيع أن يصيغ سبابه فى قالب فنى يكسبه الخلود ، أما سائر الناس فمساكين ، إما قصار اللسان ، وإما طواله ولكن ليست لهم القدرة الفنية .

# الرمز في الأدب الصوفي

تدور العقيدة الصوفية على فكرة « وحدة الوجود » ، فليس العالم والله شيئين منفصلين ، وليس الله فى السماء وحدها ولا فى الأرض وحدها ، بل هو فى كل شىء ، بل هو كل شىء ؛ وليس هناك محب ومحبوب ، وعاشق ومعشوق ، بل المحب والمحبوب واحد يختلفان فى المظاهر والأحوال و يتحدان فى الحقيقة ؛ وكل شىء فى العالم له مظهر فانٍ متغير متقلب ، وله مخبر دائم باق لا يتغير ؛ ونفس الإنسان كذلك : نفس ناقصة فانية ظاهرة ، ونفس كاملة باقية باطنة ؛ والنفس الأولى تشق الطريق لتحقق نفسها الثانية فتتحد بالحقيقة وتتشربها وتفنى فيها . وسمى الصوفى هذا المسلك « طريقا » أو « طريقة » ، وسمى نفسه « سالكا » ، وسمى المسافات التى يقطعها فيقف عندها للاستجمام « مقامات » ، وسمى الغرض الذى يقصده من سلوكه وهو اتحاد نفسه بالحقيقة ، و بعبارة أخرى اتحاد ذاته بالله « الفناء فى الحق » . وقد رسموا « خرطا » لهذا الطريق ، وتعددت « خرطهم » بتعدد أنظارهم ، وسموا كل مرحلة وكل مقام باسم ، فهى عند بعضهم مقام التوبة ، ثم مقام الورع ، ثم مقام الزهد ، ثم مقام الفقر ، ثم مقام الصبر ، ثم مقام التوكل ثم مقام الرضا ؛ وفى كل مقام من هذه المقامات يقف السالك فيشعر بمشاعر نفسية خاصة سموها « الأحوال » ، فحال الخوف ، وحال الرجاء ، وحال الشوق ، وحال الأنس ، وحال الطمأنينة ، وحال المشاهدة ، وحال اليقين الخ ؛ ولا بد للسالك أن يستوعب كل مرحلة من هذه المراحل ويؤقلم نفسه بها ليستعد للمرحلة التى تليها ، حتى يصل فى النهاية إلى حالة اتحاد بالعالم و بالله فيستحق

بذلك أن يسمى « عارفاً » . ولا بد للسالك أن يقوده « شيخ » فى هذه الطريقة الوعرة حتى لا يضل المسلك .

وليس المقام مقام تفصيل لتعاليمهم وعقائدهم ؛ وإنما نريد أن نقول إنهم بتعمقهم فى هذا المبدإ الذى ألممنا به إلماماً بسيطاً قد أقاموا أنفسهم فى عالم غير العالم المادى الذى يعيش فيه غيرهم ، فلهم لغة خاصة بهم ومسميات لا يعرفها إلا هم — ولكنهم فعلوا فى اللغة كما فعل كل العلماء فى اللغة العربية ، فأخذوا الألفاظ العربية وأطلقوها على مدلولات خاصة كما فعل النحاة بالفاعل والمفعول والمبتدإ والخبر والجار والمجرور ونحو ذلك من ألفاظ كان يستعملها العرب فى مدلولات عامة فأخذها النحاة ووضعوها لمصطلحات خاصة ، حتى أن العربى القح لم يكن يفهمها فى معانى النحاة . وهكذا الشأن فى البلاغة والعروض والفلسفة ، غير أن هناك فرقاً كبيراً بين المتصوفة وغيرهم ، فالأوضاع النحوية والصرفية والبلاغية لها مدلولات ترجع إلى العقل فى تفهمها ، أما المصطلحات الصوفية فلا ترجع إلى العقل ، وإنما ترجع إلى الذوق ، ولهذا لا يفهمها أحد بعقله فهماً صحيحاً ؛ إنما يفهمها من تذوقها ووقف فى المقام الذى يقف فيه المتصوف ؛ والفرق بين العاقل والمتذوق كالفرق بين شخصين أحدهما لم يذق الكمثرى قط فوصفت له وصفاً لفظيا علميا ، وشخص ذاقها وعرف الفروق الدقيقة بين مذاقها ومذاق الموز والتفاح ؛ فاستعمل شعراء الصوفية ألفاظ الشعراء الغزلين من « ليلى » و « الخمر » والوصل والعناق والهجر والعذال ، واتخذوها رموزاً لأحوالهم ومقاماتهم ، وكان لهم من ذلك كله أدب رمزى بديع غريب يمتاز عن غيره من الأدب بروحانيته وصفائه ، كما يمتاز بغموضه وخفائه . والسبب فى الغموض والخفاء أن الشاعر المادى إذا وصف خمراً أو لوعة حب أو هجراً أو وصالا ، فإنما يصف عواطف يدركها الناس وهى فى متناولهم ، أو بعبارة أخرى هى قدر مشترك بينهم ، فكل الناس أحب ، وكل ذاق لذة الوصل وألم الهجر ؛ أما الصوفى

فيعبر عن مقام يقفه وحال غلبت عليه . فوصف مقامه وحاله بحيث لا يفهمه إلا من كان فى موقفه وحاله ، أو كان قد قطع هذه المرحلة إلى مرحلة أبعد منها مدى . ومن أجل هذا لا يفهم الصوفى إلا الصوفى ، بل قد لا يفهم الصوفى الصوفى إذا سلك كل منهما مسلكا خاصا ، أو كان الصوفى الشاعر فى مقام بعيد عن مقام الأول ؛ ومن أجل هذا شرح بعضهم قصائد بعض المتصوفة ، فكان الشرح غامضاً كالأصل . وصاحب القصيدة معذور كل العذر ، لأنه فى حال لا يجد فيها ألفاظاً تعبر عما فى نفسه فى وضوح وجلاء ؛ وهناك سبب آخر قد يدعو إلى الغموض ، وهو أنه فى حال لو أوضح ما فى نفسه لرماه من يفهمه بالكفر والإلحاد .

على كل حال يمتاز الأدب الصوفى بأنه أدب رموز من ناحيتيه القابلة والفاعلة ، فهو يفهم مظاهر العالم على أنها رمز ؛ والعالم عنده لا يختلف عن أحلام النائم ؛ فكما أن الحلم يعرض حوادثه عرضاً رمزيا فكذلك العالم كل ما فيه رمز ، فكل ما يقع تحت عينه وما يسمع بأذنه ، وما يتصل بجميع حواسه رموز يستفتح منها ما يغذى عواطفه ومشاعره ، وبذلك انفتح أمامه عالم غريب الأطوار مملوء بالجمال ، مفعم بالتخيلات ، حتى كأن كل شىء — ولو كان صغيراً — كتاب ملىء علماً ، أو لسان ينطق دائما بالحكمة ، هو فى العالم دائما يقرأ ولا مقروء ، ويسمع ولا مسموع ، ويستخرج من الحبة قبة ، ومن القطرة بحراً خضما . يقرأ فى كل حادثة نفسه وعالمه وربه ، ويفسرها تفسيراً يتفق ومزاجه وحاله .

وهذا الأدب الرمزى والدين الرمزى والحكمة الرمزية نزعة كانت فى الإنسان منذ القدم ، فالديانة المصرية القديمة مملوءة بالرموز الدينية ، وكذلك ديانة الهنود والفرس الأقدمين ، ترمز إلى الحقيقة فى بعد وخفاء ؛ والميثولوجيا اليونانية ليست إلا رموزاً لما كانوا يرون من حقائق ؛ وكثير من شعائر الأديان إنما

وضعها فلاسفة متصوفون رمزوا بها إلى بعض الحقائق . فأتى العامة الجهلة ، وظنوا الرموز حقائق ؛ فما الأصنام ولا النجوم ولا نقوش المصريين فى عباداتهم ولا كثير غيرها إلا رموز أتى عليها الزمن فنسى أصلها وعبدت ذواتها ، وجرى كثير من الفلاسفة على هذا النحو فيحكى عن فيثاغورس اليونانى أنه كان يكثر من الكلام الرمزى ليدل به على الحقيقة ، وكذلك كان من بعده أفلوطن .

ولهذا الأدب الرمزى جماله . فهو يمتاز بأنه جمال مقنع تدركه ولا تلمسه ، وتتخيله ولا يسمح لك أن تحدق فيه ، فهو جمال تنظره وكأنك لا تنظره ، وتسمعه وكأنك لا تسمعه ، وتعرفه وكأنك لا تعرفه ، قد خلع عليه الخفاء جلالا فكان جميلا جليلا معاً — تسمعه فتلتذ له وتترنم به ، فإذا أردت أن تقبض عليه قبضت على هواء ؛ ليس لكلماته مدلول محدود ، ولا لمعانيه حدود ، وإنما هو إمعان فى اللانهاية ، وسبح ولا غاية .

يرى الصوفى أن لكل ظاهر باطناً ، وفى كل شىء إشارة ، وفوق السطح عمقاً ، ووراء القناع جمالاً فاتناً ؛ ويتيه عجباً على الناس إذ فهم ولم يفهموا ، وغنى لهم ولم يطربوا ، ويرى أن العقل حجاب يحجب النفس عن إدراك الجمال ، وأن كشف هذا القناع إنما هو بالذوق والإلهام ، لا بالمنطق والقضايا والأحكام .

وبهذا النظر نظر الصوفى إلى العالم ، فسمى الحقيقة ليلى وسعدى ، وأعجب بالخمر وتغنى بها ، ورأى فى الخمر معانى ليست فى غيرها . فهى رمز إلى رقى النفس وتساميها ، فالنفس ترقى بالفناء فى الحقيقة كما تنشأ الخمر بفناء العنب ، فيكون شىء من شىء ، ويختلف الشيئان والأصل واحد ؛ وإذا خرجت الخمر من العنب بقيت إلى الأبد وصلحت بمرور الزمان ، على حين أن العنب نفسه لا يصلح للبقاء ، فكذلك النفس إذا تجردت من مادتها الفاسدة ونزعت إلى الكمال

صلحت للبقاء ، ولم يعتورها فناء ، وكلما مرت عليها السنون والأعوام زادت نقاء ، ورقت صفاء .

وهكذا ولّد الصوفية من كل شيء أشياء ، ورأوا فى كل مادة رمزاً لمعان لا عداد لها وبنى آخرهم على ما أتى به أولهم .

ونظروا إلى الدين نظرهم إلى كل ما فى العالم ، فكل آية فى القرآن رمز ، وكل حديث له تأويل . فليسوا يفهمون من الآيات ما يفهم الناس ، ولا من الأحاديث ما يفهم الناس .

إن شئت مثلا لذلك فخذ ما فهموا من حادثة شق صدر النبى صلى الله عليه وسلم ، فعلماء السيرة يرون أنه (ص) شُق قلبه وهو مع رابّته ومرضعته فى بنى سعد وأنه جيء بطست من ذهب فيه ثلج فغسل به قلبه إلى آخر ما رووا ؛ والصوفية لا يفهمون هذا إلا على أنه رمز ، فقلب الإنسان قد ران عليه الخوف والشهوة والطمع وغير ذلك من السيئات ، فأراد الله أن يذهب عنه الرجس ويطهره تطهيراً ، فأبعد عنه ما غشى قلوب الناس ، وفتح قلبه ونقاه من كل سوء حتى يستعد للنبوة . فرويت هذه القصة وفهمها العامة حقيقة ، وفهمها الخاصة رمزاً .

وهكذا كان شأنهم فيما عرض عليهم من العالم ومن الدين ومن الأدب ؛ وهكذا كان شأنهم فيما أنتجوا من دين وأدب — عاشوا فى حلم لذيذ من حب وتضحية ، ونعموا بما قرءوا فى العالم من رموز ، وأخذوا أدب الأدباء وشعر الشعراء فنقلوه إلى أحوالهم ومقاماتهم ، فطربوا لشعر مجنون ليلى وأبى نواس وفسروه بليلاهم وخمرهم ، فلما شعروا هم أسبغوا على شعرهم من معانيهم ورموزهم ، فكان لنا من ذلك كله نوع من الأدب طريف . أرجو أن أعرض لتفصيله فيما بعد .

# خداع النفس

هل علمت أن العين تخدع فتريك الشمس فى حجم الرغيف ، والقمر فى مقدار الكرة ، والنجم كجذوة نار ، وتريك المتساويين غير متساويين ، وغير المتساويين متساويين وهكذا الشأن فى الحواس كلها ، يخيل إليك أنك تسمع ما ليس له وجود ، ولا تسمع ماله وجود ، وتغمس إحدى يديك فى ماء بارد والأخرى فى ماء حار ، ثم تغمسهما فى ماء دافئ ، فتريك الأولى أن الماء حار ، وتريك الأخرى أنه بارد ، وهكذا من أمثلة لا تعد ولا تحصى ؟

وهل علمت أن الناس يخدعون الناس ، فيحتال محتال ويهرج مهرج ، ويظهر الرجل بمظهر السياسى الكبير ، وليس فى حقيقته سياسيا ولا كبيراً ، ويظهر الآخر بمظهر العالم المحقق ، وليس عالماً ولا محققاً ، وتمر أمام أعيننا مناظر من الخداع لا عد لها ، تشبه الحاوى فى لعبه ، والممثل فى روايته ؛ غنى يتصعلك ، وفقير يتغنى ، وعيي يتفاصح ، وماجن يتواقر ، وفاسق يتصالح ؟

ليس هذا ولا ذاك شيئاً بجانب خداع النفس للنفس ، وكذب النفس على النفس .

هذا كل إنسان تقريباً يستصحب نفسه منذ صباه وشبابه ، فلا يقر بشيخوخته وهرمه ، فيرى نفسه شابا مهما تجعدت أسارير وجهه ، ومهما دب الضعف فى جسمه .

وهذه المرأة — دائماً — تخدع نفسها بالجمال وبالصغر ، مهما حسبت عمرها ، ومهما رأت كبر أبنائها وبناتها ، ومهما نظرت فى مرآتها ؛ فترى آية القبح آية جمال ، وتقرأ علامات الكبر علامات الصغر ، وتغالط نفسها فى عمرها ، لا خداعاً

للناس فحسب ، بل خداعاً لنفسها أيضاً ، حتى لتؤمن بما كذبت ، وتصدق بما ادعت ، وتجعلها حقيقة ما توهمت .

وهؤلاء المؤلفون والمصورون والموسيقيون والأدباء والشعراء ، يرون أجمل مافى الوجود ما ألفوا ، وخاصة آخر ما أبدعوا . والفنانون بما منحوا من خيال واسع وتصور عريض يستعملون خيالهم فى نتاجهم . فيتخيلون أنه بعيد المنال ، قد بلغ حد الكمال ، إن نقص أسلوبه فهو بديع المعانى ، وإن أعوزته الحقيقة فهو بديع الخيال ، وعلى كل حال فهو وليد النبوغ ، تتجلى فيه العبقرية ويمتاز بالسمو ، إن عابه الناس فالعيب فى ذوقهم ، وإن نقدوه فالفساد فى ميزانهم ، يأكل قلوبهم الحقد ، وتفسد حكمهم الغيرة .

سبحان الله ! حتى مشترى السلعة — ومثلها عند البائع كثير — لا خير مما اشترى ولا أجود مما اقتنى : سجائره أحسن السجائر ولو رخصت ، وثيابه خير الثياب ولو عيبت ، والتاجر إنما اصطفاه بها لأنه صديقه ، وأكرمه فى ثمنها لأنه يحرص عليه ؛ وفستانها خير الفساتين لأنه اختير بذوقها ، وخيط بإرشادها ؛ إن عيب الشىء بنسجه اطمأن الشارى لحسن منظره ورخص سعره ، وإن عيب بمنظره اعتذر بحسن نسجه وقوة متانته ، كالمرأة لم يعجب منظرها فتعزت بخفة دمها ، وطعن فى خفة دمها فاحتكمت إلى منظرها .

ما أظلم النفس تنقد الصغير فى غيرها ولا تنقد الكبير فى نفسها ، وتزن بميزانين ، فتبالغ فى تحرى العيوب إذا وزنت لغيرها ، وتبالغ فى تحرى المحاسن إذا نظرت إلى ذاتها ! فـ«ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون» .

***

فى السنين الأولى من حياة الطفل — وخاصة الثالثة والرابعة — يبدأ يشعر

بذاته ، وتبتدئ في الظهور شخصيته ، ويأخذ رويداً رويداً يحدد موقفه من العالم ، وتظهر عليه الأعراض الأولى منبئة بما سيصير إليه شأنه مع الدنيا من تشاؤم وتفاؤل ، وأمن أو خوف ، وأنس أو وحشة ، وأهم من ذلك التفاته إلى نفسه وشعوره بها ، وإعظامه لها ، واهتمامه بشأنها ؛ وهذه النظرات الأولى لنفسه ولعالمه تكاد تلازمه طول حياته ، وتحدد نوع أخلاقه مع ما يدخل عليها من تعديل بعوامل التأثير .

بهذه النفس — المتكونة تحت ظروف خاصة من وراثة وبيئة — ينظر الإنسان إلى العالم ، فليس ينظره كما هو ، بل ينظره من خلال نفسه ، كمن يضع على عينيه منظاراً أسود أو أصفر أو أزرق ، فهو ينظر الدنيا من خلاله بلون نفسه ، ويفسر الأحداث تبعاً لمنظاره ، ويقوم الأشياء بميزان شخصيته ، وينظر إلى الأعيان لا حسبما هي في الخارج ، ولكن حسبما لونتها نفسه ، كالثوب تغمسه في لون من الصبغ فيظهر بلون ما صبغته ، وكزجاجة المصباح تظهر نوره أحمر أو أزرق ، حسب لونها لا حسب لونه . والفيلسوف والأبله تقع عيناهما على شيء واحد ، فيرى الفيلسوف فيه معاني جمة ، ولا يرى فيه الأبله شيئاً ، وليس عيبه في عينه ولكن في نفسه . والعالِم وكلبه ينظران إلى صفحة في كتاب ، هذا ينظر فيفهم ، وهذا ينظر ولا يفهم .

من أجل هذا اختلف الناس في حكمهم على الأشياء وفي تذوقهم لها ، وفي سلوكهم نحوها ، ومن أجل هذا آمن المؤمن وكفر الكافر ، ومن أجل هذا نبل النبيل ، وسخف السخيف ، وصلح الصالح ، وفسد الفاسد .

فالمنظور واحد ولكن الناظر متعدد ، والحق واحد والآراء مختلفة .

قد يبالغ الإنسان في تقويم نفسه — وهو الأغلب — فيمنحها من الأهمية في العالم ما ليس لها في الحقيقة ؛ ويرى كأن الدنيا لا تنتظم إلا به ، ولا تسير

إلا بنفَسه ، وأنه — فى حقيقة أمره — ليس إلا ملكا متخفياً . ويبالغ الصوفى فى احتقار نفسه ، فهى ليست شيئاً ، ولا قيمة لها فى حياتها أو مماتها — ثم ينظر كل من هذا وذاك إلى العالم على أساس هذا الاعتقاد ؛ ويختلفان اختلافاً تاما فى تقويم الأشياء ، وقلّ من يعرف نفسه على حقيقتها ، ويقومها حق قيمتها .

ثم خداع النفس هذا قد يكون عاما ، وقد يكون خاصا كالجنون ، بعضه كلىّ وبعضه فرعى ؛ فيحدثنا الأطباء أن من المجانين من هو مجنون فى كل شىء ، ومنهم من هو مجنون فى شىء خاص ، فهو عاقل فى كل شىء ، ولـكنه يعتقد أن له إصبعاً من زجاج ، أو هو إنسان مألوف فى كل شىء إلا فى عقيدته أنه ملك سلب ملـكه ونحو ذلك ؛ وهذا هو الشأن فى النفوس ، قد تخدع النفس نفسها فى كل شىء ، فى العلم والمال والخلق ؛ وقد تكون عاقلة حكيمة ، إلا فيما يتصل بعظمتها ، فهى لم تتبوأ مركزها فى الوجود ، ولم يقدر الناس ما لها من قيمة . وقد يكون خداع النفس منصبا على الشؤون المالية وحدها ، فهو حريص كل الحرص ، يخدع نفسه بالخوف من الفقر ؛ والخوف من الاغتصاب ؛ وهكذا الخداع فنون ، كما أن الجنون فنون ، وكل الناس خادع لنفسه ، ومخدوع بنفسه ، إلا من رحم ربك . وقليل ما هم .

vol I

# فيض الخاطر

وهو

مجموع مقالات أدبية واجتماعية

كتبه

## أحمد أمين

## الجزء الرابع

الناشر : مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٣

# فهرس الكتاب

# من صور الحياة

وسطٌ فى ثقافته وعقله ، وسطٌ فى خلقه ، ولكن آتاه الله بسطة فى المال ، وقوة فى الجاه ، وحظا فى مباهج الحياة . له المزارع الواسعة بحيواناتها وآلاتها ، تغل عليه خيراتها ، وله القصر الفخم على البحر يتخذه مصيفاً ، وعلى حافة الصحراء يتخذه مشتى ؛ ما اشتهى شيئاً إلا كان لديه حاضراً ، فالمال لايعز عليه شىء . كل الناس مسخَّرة له ، تنفذ إشارته وتمجد إرادته ، سواء منهم من انتفع بغناه ومن لم ينتفع . طلبه نافذ بين رجال الحكومة لجاهه ، وفى بلده لماله ، وعند من لم يعرفه لمنظره الفخم ورنة صوته التى توحى بالعظمة والسلطان . استطاع المال أن يجعل منه « باشا » ، وأن يتخذ منه عضواً فى البرلمان ، على اختلاف الحكومات فى ألوانها ومذاهبها . تخالَف قوانين الرى لسقى أرضه ، وتعطل اللوائح لتحقيق غرضه ، ويقف تنفيذ الأحكام عليه خوفاً من بطشه .

لم تستطع رغباته الكثيرة ، ولا مطالبه الوفيرة ، ولا نفقاته الواسعة أن تنقص شيئاً من ماله ، بل كل سنة يشترى أرضاً جديدة وأسهماً فى الشركات جديدة .

ولم يذق يوما طعم الحاجة ولا ألم الدَّين ، ولا تمنى شيئاً ثم لم يجد من المال ما يسعفه ، بل إنْ حق له أن يشكو شيئاً فهو أنه يأكل فى الحياة من مائدة نخمة دائماً ليس فيها توابل ، وينعم دائماً نعمة لم يلوّنها الشقاء .

ثم تزوج فسعد فى زواجه سعادته فى ماله ، ضم بزواجه مالاً إلى مال ، وجاهاً إلى جاه ، ونعيما إلى نعيم ، ورأى فى زوجته ما يتمنى من جمال ومن خلق ومن ذوق .

تكشفت له الدنيا عن صورتها الجميلة ، وحجبت عنه كل نواحيها السيئة ، فكان يعجب من شكوى الناس ومن ذم الدنيا ، ويقيس كل شيء بمقياسه ، فيرى أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان ؛ ويعلل شكوى الناس بسوء طباعهم ، وفترهم بقلة عقلهم ، وألمهم بضيق نظرهم .

***

لم يرزق من الدنيا إلا ابناً واحداً وضع فيه كل أمله ، ومنحه كل عنايته ورعايته ، حتى شب كأحسن ما يكون الشباب صحة وثقافة وخلقاً .

أخذته الحمى فارتفعت حرارته ، وذبل جسمه ، واصفر وجهه ، وغاب عقله ، وبذل الأب كل ما يستطيع لنجاته ؛ هؤلاء أشهر الأطباء ، وهذا أعز الدواء ، وهؤلاء الممرضات ينفذن التعاليم فى دقة وإحكام ، وهذا كل ما يستطاع وما لا يستطاع لإنقاذه .

وينظر الأب إلى مزارعه الفسيحة ودنياه العريضة فيراها أضيق من سم الخياط .

يتمنى أن لو جرد من كل ثروته ، ومن كل صحته ، ومن عينيه يبصر بهما ، وأذنيه يسمع بهما ، ليبرأ ابنه من المرض ، وينجو من الموت . ويرجو أن يكون سائلا يتكفف الناس ، ومعدماً لا يجد قوت يومه ، ومسكيناً لا يملك من الدنيا إلا ثوبه المهلهل يستر جسمه ، ثم يشفى ابنه .

ويود أن لو كانت الصحة توهب فيهبها له ، والحياة تمنح فيخلعها عليه ، ويتشهى أن يفقد كل نعيم الدنيا لينعم — فقط — بابنه صحيحاً بجانبه .

كان يؤمن بالطب فدعا الأطباء ، وكان يكفر بالرقى والتعاويذ ودعوة الصالحين فآمن بها وتشفع بأهلها ، وكان لا يذكر الله فى سرائه فذكره فى ضرائه ، وحشد لشفاء ابنه كل ما يستطيع من قوى مادية وقوى روحانية .

ولكن غلب القدر فمات الولد .

***

لقد انقلب برنامج حياته رأساً على عقب ، شكا الدنيا كما كان يشكو الناس ، ولم يستطع لذائذ الحياة كما كان يستطعمها من قبل . ماقيمة المزارع الواسعة والقصور المشيدة والمال الكثير إذا لم تكن نفس تتذوقها ورغبة تنتشر بها ؟ وما جمال الدنيا إذا لم تكن عين تبصرها ؟ وما الموسيقى الرائعة إذا لم تكن أذن تسمعها ؟ إن النفس المرحة التى لم تصب بكارثة تجتاحها تستطيع أن تخلق من العدم وجوداً ، ومن الألم لذة . أما النفس التى براها الحزن فلا تستطيع أن تجد فى الجنة متاعاً ، والروح التى أظلمتها الكوارث لا تضيئها الشمس .

لقد وجد فى الدّين عزاءه الوحيد فتدين . أدرك فشل المال والجاه فى دفع المرض فآمن بسلطان القدر ، ورأى عجز الطب والعلم والدواء فلجأ إلى من لايعجز ، وفهم أن الإلحاد يدعو إلى اليأس و يقرر فناء الميت فكفر بذلك كله ، ورأى الإيمان يقول بحياة بعد هذه الحياة ، وتلاق بعد الفراق ، وفناء الجسم وحياة الروح ، فطبق ذلك على ابنه وعلى نفسه ، فبعث عنده الأمل وأحيا فيه الرجاء ، وقرأ أن العمل الصالح يقربه إلى بغيته و يجعل الحياة الأخرى أسعد وأهنأ فأكثر من الصلاة والزكاة ، وشارك فى أعمال البر ، وكان يقرأ القرآن ويقف كثيراً عند آيات الجنة ونعيمها ، فيتلهف شوقاً إلى أن يجمعه الله وابنه فيها . كان يناجي ربه « أن قد مات قلبي بموت ابنى فأحيه بك ، وقد انطفأت شعلتى فأمدها بنورك ، إنى فقير إليك فألهمنى الصبر . لقد كنت فى حلم فتبدد ، وفى سعادة فزالت ، وكنت معتمداً على مالى وجاهى فإذا هما هباء ، فلا ألجأ الآن إلا إليك ، ولا أسألك الآن سعادة فقد مللتها ، ولا شيئاً من متع الدنيا فقد زهدتها ؛ وإنما أسألك أن ألمس قوتك لأستعين بها على حمل عبئى ، وأن أمسّ

رحمتك لألطف بها حرارة الحمى فى كبدى ، وأن أسبح فى بحرك الواسع أطهر فيه نفسى من يأسى ، وأن تنيلنى قبساً من حكمتك أدرك به الدنيا على حقيقتها ، فلا أجزع لمصايبها ، ولا أخدع بزخارفها .

أى ربى — اغفر لى جهلى بك ، وغرورى بمالى ، واعتزازى بجاهى ، فلا عز إلا بك ، ولا أمل إلا فيك ، ولا اعتماد إلا عليك .

أى ربى — اسكنْ قلبى فقد صار هواء ، وآنس وحشتى فقد فزعت من كل شىء حولى ، واطو الحياة طيا حتى ألقى وجهك ووجه ابنى » .

***

كان يقرأ الجرائد فأهم ما يلفت نظره أخبار الوفَيات ، ومصادمة السيارات ، وحوادث الحريق ، وخروج القطار والترام عن الطريق ، ثم يعقد مقارنة دقيقة سريعة بين مصاب الناس ومصيبته ، ثم يقرأ أخبار الحرب فيسليه إحصاء القتلى والجرحى وغرق السفن بمن فيها ، وشن الغارات ، وكثرة ضحايا الطائرات ، ويقف عند ذلك طويلا يفكر ويوازن ، فإذا وقع نظره على حفلة عرس أو خبر خِطبة مر بها سريعاً ، وعلق عليها بأن السرور ظل زائل ، والسعادة حلم نائم .

وأخذ يتذوق الأدب ، ولكن لم يعجب فيه بشىء إعجابه بقصائد الرثاء ولزوميات أبى العلاء . سمع الثناء على قصيدتى ابن الرومى فى الرثاء فما زال يرددها حتى حفظهما ، وتخير من اللزوميات أنكاها فى شكوى الزمان وحقارة الدنيا وفساد العالم .

ولم يعجبه من المجتمعات إلا عزاء فى ميت أو حديث وعظ فى مسجد — ودلوه على كتاب مخطوط فى دار الكتب للسيوطى اسمه « فضل الجَلَد عند فقد الولد » ، فذهب ونسخه بيده .

***

ما الدنيا إذا كانت تذهب فى لحظة ؟ وما النعيم يضيع فى لمحة ؟ وما كل شىء فى الدنيا بجانب الحياة ؟

الحياة عرض ، ونعيمها وشقاؤها عرض العرض .

موجة سارت إلى الشاطئ ثم اختفت ، ولفافة تحللت إلى دخان ، ثم تحلل الدخان فى اللانهاية .

كلمة لفظ بها ثم انتهت .

لم يسلم أحد من لطمة القدر لعلل لم ندرك أسرارها ولا الغرض منها ، والحياة طريق مملوء بالأشواك لا يسلم مار من أن يُشَاك بها ، ومهما اختلفت المسالك فستنتهى بالنتيجة المحتومة ، بالموت ، إليه ينتهى كل سالك من ملك وصعلوك ، و به تتحلل كل كمية من اللذة والألم إلى صفر .

ثم إن هذا الطريق — طريق الحياة — امتحان شاق للسالكين ؛ فمنهم من يجتازه فى خوف وضعف ، كلما مسته شوكة صرخ وتحطمت نفسه وسقط من الإعياء ؛ ومنهم من يجتازه فى شجاعة وقوة واحتمال ، فمهما أصابه فإنه يركن إلى ركن ركين من قوة نفسه وحكمته وروحانيته .

لا شىء يضئ هذا الطريق الشائك المظلم إلا طهارة النفس ونور القلب وسمو الروح ؛ إن أضاء القلب بدد ضوؤه ضباب الطريق ، و إن طهرت النفس انسجمت مع العالم ، و إن سمت الروح لم تعد المادة إلا جسم الشمعة لا نورها ، وغمد السيف لا نصله ، وجذع الشجرة لا ثمرتها ولا زهرتها ، فلا يأبه كثيراً بالحوادث ، ولا تحطمه الكوارث ، إن مسه الخير فليس منوعا ، و إن أصابه الشر فليس جزوعا .

# مع الطير

من نعم الله علىّ أن غَنِيَتْ حديقتى الصغيرة هذه الأيام بالطيور ، فهذه شجرة — لا أدرى السر فيها — جذبت العصافير الكثيرة إليها ، فهى فى حركة دائمة حولها وفيها ؛ وهذه بعض زوايا البيت عشَّش فيها اليمام يغرد من حين إلى حين بصوته الشجى الجميل . ولوددت أن أتخير من الطيور أجملها وأظرفها وأضعها فى أقفاص تحت سمعى وبصرى ، أستمتع بجمال شكلها وجمال صوتها ، لولا ما يؤلمنى من حبسها .

هى أحب الحيوان إلىّ وأقربه إلى قلبى ، وهى تقوم فى عالم الحيوان مقام الأديب والفنان فى عالم الإنسان ؛ جمال فى شكلها ، جمال فى هندامها ، جمال فى غنائها ، مرح فى حياتها ، ظرافة فى بناء عشها ، حنان فى حبها لأولادها .

* * *

أبرز شىء فيها عواطفها ، فهى تغنّى استجابة لعاطفة ، وتمرح لعاطفة ، وتتحبب لجنسها وأولادها لعاطفة . وبحق علّمت الإنسان الأول أن يوارى سوأة أخيه بعد موته ، فقال : « ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارىَ سوأة أخى ، فأصبح من النادمين » — كما علمته درس الحرية ، ولقد كان حرا مثلها ثم أباح لنفسه أن يُغَل غُلا بعد غل ، فلما استثقل حمل الأغلال أخذ يجاهد فى فكها قيداً بعد قيد ولما ينجح . وغار من الطير فأخذ يحبسه حبس نفسه ، ويتحين الفرص لصيده وتكبيله ، فما يجد الطائر فرصة للفرار حتى يهرب ، ولو كان قفصه من ذهب ، وحَبه أغلى حب ، وشرابه ماء الورد ، ضنًا بحريته أن تباع بأى ثمن ، وأن تُسترقّ بأى جزاء . وحافظ على حريته من مبدئه إلى

منتهاه ، لا كالإنسان الأبله يرضى بالقيود ، ثم يبذل فى فكها الجهود ، وما كان أحراه ألا يقيد ولا يفك . وقديماً حكوا أن رجلا كان يدعو : « ربنا أدخِلنا بيوت الظالمين وأخرجنا منها سالمين » . فأجابه آخر : « وما أدخلك وما أخرجك ! » .

***

حلوة الغناء ، تغنّى حبًا ، وتغنى سروراً ومرحاً ؛ تغنى سروراً فى موسم الوصال ، وتغنى أسى وضنى وحزناً يوم الفراق — وكم وددت أن يسجل صوت الطيور وأغانيها على أسطوانات أو على شريط الراديو حتى أكررها على سمعى كلما شئت ، فهى أفعل فى نفسى من كثير من أغانى الإنسان ؛ ولكن — لا — لست أريد حبسها ولا حبس أصواتها ، فلتكن حرة فى كل شىء لها ، ولو حرمتُ الاستمتاع بها وبأصواتها .

إن موسيقاها متنوعة تنوع نغمات البيان ، علوًا وانخفاضاً ، ورقة وغلظاً ، وقوة وضعفاً ، تغنى إذا هاجت عواطفها ليلا أو نهاراً . وما أحلاها وهى تغنى فتقفز من شجرة إلى شجرة ، ومن سطح إلى سطح ، مندفعة فى طيرانها بشكل كله خفة ورشاقة ! لقد حرمنا دقة الملاحظة فحسبنا أن كل أصواتها سواء ، وأن غناء كل نوع منها متشابه ؛ ولكن ما أبعد هذا عن الحق ، فهى تغنى مناغاة للحب ، وتغنى محذرة من خطر ، وتغنى سروراً بحياة الربيع ، وتغنى دعوة إلى الرحيل ، وتغنى حزناً على فقد حبيب ؟ فما أكثر أغانيها وما أغبانا فى فهمها ! لَغايةُ مغنينا أن يكون « بلبل الشرق » ، وغاية أديبنا أن يكتب « هدية الكروان » و « دعاء الكروان » .

***

أمامى الآن يمامتان ظريفتان حقا ، سكنتا بالقرب من غرفة نومى ، ما أجمل غناءها ، وخاصة فى الفجر إذا شعشع النور ، وما أرشق حركتهما ، لا عيب فيهما

إلا أنى آنس بهما ولا تأنسان بى ، وأحن إليهما وتفرقان منى — ما ألطفهما وألطف نوعهما وألطف الحمام كله ! لقد كان ذوق رسول الله (ص) ظريفاً حقا إذ روى أنه كان يعجبه النظر إلى الخضرة وإلى الأترُجّ وإلى الحمام الأحمر ؛ وشكا إليه « علىّ » الوحشة فقال له : « اتخذ زوجا من حمام تؤنسك وتوقظك للصلاة » .

ظريف هذا الحمام كل الظرف ! غزله علّم الإنسان الغزل ، يدعو فتتمنع ، ثم تجيب وتلوى عنه عنقها ، « ثم يتعاشقان و يتطاوعان » ، ثم ما شئت منه من رشف وتقبيل ، ثم ما شئت منها من تيه ودلال ، ثم ما شئت منهما من فرح ومرح بالوصال .

ثم هو لطيف فى حنانه على ولده ، أرأيت كيف يقلب بيضه حتى تنال جوانب كل بيضة حظها من حرارته وحَضْنه ؟ أو رأيت تعاقبه ذكراً وأنثى على رعاية بيضه وفرخه فى الحضن والتغذية ؟ أو هل رأيت عنايته بعشه كيف يتخير مكانه ، وكيف يتخير عيدانه ثم ينسجها نسجاً متداخلا ؟ وكيف يهندسه ليحفظ البيض من التدحرج ، ثم يتعاون الذكر والأنثى على العش : « يسخنانه ويطيبانه وينفيان عنه طبعه الأول ، ويحدثان له طبيعة أخرى مشتقة من طبائعهما ، ومستخرجة من رائحة أبدانهما . . . لكى تقع البيضة إذا وقعت فى موضع أشبه المواضع بأرحام الحمام[1] » ؟

ليت كل أسرة تربى فى بيتها حماماً وترقب عيشته ، فيتعلم منه الآباء كيف تكون العناية وكيف يكون الحنان ، ويتعلم منه الأبناء كيف يجازون جهد الآباء وتضحيتهم .

* * *

(١) الحيوان للجاحظ .

لتمنيت أن تكون الطيور كالأزهار، آنس بها وتأنس بى ، وأكون بجوارها وتألف جوارى ، ولكنها سيئة الظن بالإنسان جدا ؛ ولعلها وحدها التى عرفت حقيقة الإنسان فهربت منه ، وأبت أن يكون بينها و بينه رابطة ، تحوم حوله فى حذر ، وتمس أرضه فى وجل ، وتفضل حياتها القليلة — تتعب فى البحث عنها — على القرب منه ، وإن كان معه شبعها وريها ، أنفة منه ، وكراهية له ، وضنا بحريتها وطلاقتها .

هل عرفت بغريزتها طبيعته ففرت منه ابتداء ، أو سالمته وأنست به ، فلما جربته ورأت أنانيته وسوء سلوكه رسمت خطتها فى البعد عنه ؟ أقرب ظنى أنه الوجه الثانى ، فإنها تأنس ببعض الحيوان الذى لا يؤذيها . ويذكر بعض الرحالين أنهم نزلوا فى جزيرة لم ينزلها قبلهم إنسان ، فرأوا طيورها تألفهم وتطير عليهم وتأكل من الحب فى أيديهم — وهذا حمام الحرم أمن شر الإنسان فاستأمن ، وأنس به الإنسان فاستأنس . فلولا ما رآه قديماً — من مطاردة الإنسان ومحاولاته نصب الشباك له والإيقاع به بكل الأشكال ، واستلذاذه قتله ، وتعلمه الرماية فيه ، وتصويب أسلحته عليه — ما ذعر من الإنسان هذا الذعر ثم هو قد رآه خائناً غادراً ، غفر له أولاً أن كان جائعاً فصاده ليأكله ، فكيف يغفر له أن رآه شبعان ثم يصيده لمجرد اللذة فى قتله ؟ وعجب كيف يكون مجرد القتل لذة ، فعدّ الإنسان — بحق — أعدى أعدائه ، ولم يقرب منه للضرورة إلا وترتعد فرائصه ، وأسرّ الآباء للأبناء هذا السر الرهيب — فما رأى طائر إنساناً إلا واستحضر هذا السر وأدركه الفزع منه .

***

من عظمة الطير أن الإنسان سهل عليه أن يدرك مزايا الحيوان فيقلدها وينتفع بتقليدها ، تعلم من الأسد شجاعته ، ومن القرد كياسته ، ومن الحرباء

تلونها ، ومن الذئاب خداعها ، ومن الثعالب روغانها ، ومن النحل مهارتها فى صناعتها ، ومن النمل جده وادخاره الخ . ولكن مرت آلاف السنين ، وهو يعجب من الطير كيف يطير ، وحاول تقليده فلم ينجح ؛ وأخيراً جدًا بعد أن شاب الزمن اهتدى إلى سر طيرانه فطار ، وليته لم يطر ؛ فقد عاش الطير منذ خلق وهو يطير من ظلم الإنسان ، ولا يظلم الإنسان ، ويطير جمالاً ولا يطير قبحاً ، ويطير سروراً إلى عشه ، وحنيناً إلى إلفه ، وطلباً فى رزقه ، فلما طار الإنسان لوّن طيرانه بشره نخرب ودمر ، وسفك وأهلك ، وكرّه إلينا السماء والقمر ، وطأطأ رءوسنا مما لزمنا من عار وخجل ! فيالله للإنسان !

ومع هذا التقليد من الإنسان لايزال أمر الطير عجباً أى عجب ! فهو يقطع المسافات الشاسعة باحثاً عن غذائه ودفئه ، فما كان منه فى شمالى آسيا يأتى فى الربيع إلى مصر ، وما كان فى شمالى أوربا يرحل إلى جزائر فى البحر الأبيض ، أو يعبره إلى أفريقيا ، ويرحل أكثر مايكون ليلا يتقى الأخطار ، ويهتدى بالريح وبالشواطئ وسير الأنهار ، ويعلو فى طيره عن الأرض ميلا إلى ثلاثة أميال ، ثم هو يقطع آلاف الأميال عابراً البر والبحر من غير دليل إلا طبيعته ، فإذا لم يقتله الإنسان عاد كما جاء إلى عشه مهتدياً بذاكرته . فسبحان خالقه .

***

تحسن الطيور إلى الإنسان كثيراً ويؤذيها الإنسان كثيراً . فهل كان الإنسان يستطيع أن يحصل على قوته وزرعه لو لم يعنه الطير على الفتك بدوده وحشراته ؟ فمئاتها طعام كل يوم لكل طير من أكلتها ، فكيف لو سلطت على مزارع الإنسان ولم تسعفه الطيور فتقضى عليها ؟ إذاً لرأيت الأرض غطيت بالدود ، واكتسحت الزرع وأعقبه فناء الإنسان . لقد أحصى ظريف ما تأكله الطيور من الدود فى مقاطعة فى أمريكا فكان مليونين ونصفا كل يوم ، فقدّر حالتها

لو تركت وتناسلت — ومع هذا كله جهل الإنسان فضل الطير ، واتخذه ملهاة لصيده ، ومجالاً لقماره ، وملعباً لرمايته ؛ كان المتوحش يصيدُ طالباً لغذائه ، فأصبح المتمدن يصيد مَلَاً لفراغه .

* * *

لقد عجب أور بى أن الطيور فى مصر لا تغنّى كثيراً ، فلك الله أيها العاجب . فلِمَ تغنى وكيف تغنى ولمن تغنى ؟ لو رأت ما يسرها لغنت ، فالأسى يبعث الأسى ، والسرور يبعث السرور ، وسعادة الجار تنضح على الجار ، ولو ضحك مَن فى الأرض لضحك من فى السماء ، ولو غنت الطير فى مصر كثيراً لغنت حزيناً كما غنى الناس حزيناً ، ولكن تأبى طباعها إذا غنت إلا أن يكون غناؤها مرحاً وطيرها فرحاً ، ففضلت السكوت إلا أن تلح بها الحاجة . وهل سمع الناس — يا أخى — غناءها القليل لتفيض عليهم بالكثير ؟ إنهم فى شغل عن جمال الطبيعة بتزييف الصناعة ، وعن غناء السرور بغناء الحزن ، وعن النداء العالى بالنداء السافل ، وعن التسامى بالتدلى ؛ فيوم يبتهج أهل الأرض يبتهج أهل السماء ، ويوم يسعد السكان يغنى الطير ، ويوم يتسامى الناس تعلو أغراضهم وتطير نفوسهم ، فتحاذى الطير ويحدو لها فيمرح كثيراً ويغنى كثيراً .

* * *

ولَفخر للطير عظيم أن تُخلَق الملائكة خلقته ، وتعار أجنحته « الحمد لله فاطر السموٰات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء . إن الله على كل شىء قدير » .

# حوار في أسرة

كانت أسرة وسطا ، لم يفسدها الفقر ، ولم يبطرها الغنى ؛ تتمثل فيها الإنسانية بصنوفها ، فأبٌ وأم وابن وبنت ؛ كان الأبوان من الجيل الماضى بأخلاقه وميوله ، وتقاليده وعقائده ، يكرهان البهرجة والرياء ، ويغاران على سمعتهما كل الغيرة ، ويحرّمان على أنفسهما اللذائذ إلا ما أحلّ الله ، ويدبران مالهما على قدر مطالب الحياة ، ولا يسمحان لأنفسهما أن يقترضا لأى سبب وفى أى ظرف .

حتى شبّ الابن وشبّت البنت فى ظروف غير ظروفهما ، وحياة غير حياتهما وجيل غير جيلهما — نشأ بين أغانى الراديو ومناظر السينما ومشاهد التمثيل ، وفى بحبوحة الحرية وبهرجة السفور والاعتداد بالشخصية ، ونظرا إلى أبويهما نظرهما إلى التاريخ القديم وآثار القرون الوسطى ، تحترم لقدمها لا لصلاحيتها ، وتبجل لدلالتها على زمنها لا لرقيها . ونظر الأبوان إليهما نظر الآمل ضاع أمله ، والسلطان خرج الأمر من يده ، والمربى فشل فى تربيته ؛ فهم إن جمعتهم أسرة فأهواؤهم متفرقة وقلوبهم موزعة وآراؤهم متباينة ، وإن ضمهم بيت واحد فلضرورة الحياة لا وحدة المشرب .

***

كانت ليلة سعيدة تلك التى اجتمعوا فيها على مائدة المنزل يتصالحون بعد خصام ، ويتعاتبون بعد نفار ، ويتصارحون بعد الكتمان ، وحضر وليمة الصلح قريب الأسرة يحترمه الجميع لسعة عقله وصدق نظره وحسن حديثه ، قد منحته الطبيعة ما منحت البلسم لمداواة الجروح وما منحت الدواء لشفاء الداء ، متقدم فى السن ولكن عقله من عقول المستقبل لا الماضى ولا الحاضر ، خبير بالماضى

بما قرأ ، وبالحاضر بما شاهد ، وبالمستقبل بما استنتج ، له جاهه فى المنصب وجاهه فى المال وجاهه فى العلم وجاهه فى الخلق ، فاذا تكلم أنصت الجميع وأطاع الجميع ، رأيه الحق وقوله الفصل .

قال الأب لابنه : كم تعبتُ فى تربيتك ، وعانيت الأمرّين فى العناية بك ، وسهرت الليالى لمرضك ، وهجرت راحتى لراحتك ، وضيقت على نفسى فى الإنفاق لأوسع عليك ، وحرمت نفسى من اللذائذ لأوفرها لك ، فاذا جاء زمن تعليمك فى المدرسة فكم بذلت جهدى لتنجح ، وأنفقت مالى لتكون رجلا ، وترقبت النتيجة كل عام فى وجل من رسوبك ؛ وعلى الجملة إن تعدَّ نعمى عليك لا تحصيها ، فقد ضحيت كل شىء لى فى سبيلك ، وأغمضت عينى عن كل شىء وراء هذه الدار لأجلك ؛ أفحين شاب رأسى وضعفت قوتى ، وحين صرتَ رجلاً تهدر كل هذه التضحيات ، وتكافئ الجميل بالقبيح ، والإحسان بالجحود ؟

قال الابن : لقد أكثرت يا أبى من ذكر التضحية والإحسان ، والجميل والمعروف ، فهل فعلت شيئاً أكثر مما يجب عليك وعلى كل أب أن يفعله ؟ إنك تفسد ما أديت من واجب بالمن به ، وتذهب جمال التضحية بذكر اسمها — إنك تريدنى أن أكون ذيلا لك أتبعك فى حركاتك وسكونك وميولك ، فهل هـذا يتفق والطبيعة ؟ إن زمنى غير زمنك ، وآمالى غير آمالك ، ونظرتى إلى الحياة غير نظرتك ، إن الثمرة إذا نضجت فارقت شجرتها ، إننى شاب أخضع لقوانين الشباب ويجرى فىّ دم الحياة ، وتملؤنى الآمال وتستهوينى المغامرات ، فمحال أن تخضع إرادتى لإرادتك ، وليس لك منى إلا احترامك وإجلالك . لا بد لى أن أعيش حسب طبيعتى وشخصيتى وزمنى وأملى ، حتى أحقق غرضى أنا فى الحياة لا غرضك لى . ولأن أشكرك على أن أبحت لى حرية العمل خير من أن أشكرك على أن تعاملنى معاملة طفل كبير يحتاج إلى الرعاية دائماً ، بل

إن تركت لى الحرية فأنا أشكرك وعملى الحر الطليق يشكرك ، ويعترف لك بفضل أنك نزلت عن استبدادك وسلطانك ، وسايرت الزمن فى تغيره الطبيعى وتقدمه المستمر ، ثم لا تخش من خطئى إن أخطأت ، فسأتعلم من خطئى أكثر مما أتعلم من تحذيرك ، وأستفيد من فشلى أكثر مما أستفيد من نصائحك ، ولأن أكون رجلا يخطئ خير من أن أكون حجراً لا يخطئ . وليس أضيع من ابن سُلبت إرادته ، ولو كان السالب لها أباه ، ولا أفشل من إنسان أحيط بالرعاية التامة فمنعته الرعاية من أن يجرب بنفسه الحياة . دعنى أتعلم السباحة فى بحر الحياة ، ولا بأس إن غرقت ، فسأغرق حتماً إن لم أتعلم العوم ، وسأغرق احتمالا إن تعلمته .

دهش الأب من هذا الحديث الصريح الجرىء ، وأطال التفكير .

فانتهزت الأم فرصة هذا السكوت وخاطبت ابنتها :

— إن موقفى معك موقف أبيك من أخيك . . . لقد وقفت حياتى على العناية بك ، وكم خفق قلبى حزناً لألمك وسروراً لسرورك ، وعددتك صورة منى ، واتخذتك فى الحياة أملى ، وأنست بكِ أكثر من أنسى بأخيك ، لأنك من جنسى ، أعرف شعورك كما أعرف شعورى ، وتدور برأسك الأفكار التى كانت تدور برأسى ، وتتحركين بالعواطف التى كانت تحركنى ، وقد اختصصتك بأسرارى وآمالى وآلامى ، وحرمت نفسى من الخير لخيرك ، وتحملت الآلام لراحتك ونعيمك ، والآن وقد صرت شابة لم أر قلبك يتناغم مع دقات قلبى ، ولا عطفك يساير عطفى ، وأرى شخصك فى البيت وأحلامك وآمالك خارج البيت ، وأرى حبا منى لا يقابل بحب منك ، وحنانى لا يجازَى بحنانك .

قالت البنت : أصارحك يا أمى أنى أحترمك أما ، ولكن لا تنتظرى أن تكونى معقد أملى ومجال حبى ، إنك إن تطلبى ذلك تطلبى محالا فى الطبيعة ، إن

كان الحب أنواعاً فنوع منه أساسه الاحترام والاعتراف بالجميل ، وهذا لك منى ، ولكن هناك نوع آخر من الحب أسمى وأرق وأصفى ، وهذا أمنحه لمن يكون زوجي ، إن الرابطة بيني وبينك رابطة الدم ، والرابطة بيني وبينه رابطة الروح ، إني ألجأ إليك حتى ينضج هذا الحب ، كما تبقى الثمرة على شجرتها حتى تنضج ، وألجأ إليك — لا قدر الله — إذا فشل هذا الحب ، ففيك العزاء — سأحافظ على شرفي من أجلي وأجلك وأجل أبي ، وسأحافظ على الوفاء لك لمعروفك عندي ، ولكن ليس من حقك أن تطالبي مني الحب الروحي الخالص الذي لم تعده الطبيعة إلا للأليف . إذا طلبتِ إجلالا واحتراماً فهذا حق لك جزاء تضحيتك ، وإذا طلبت حبا سامياً خالصاً روحيا فليس ذلك لك ولا تجابين إليه ؛ لأنك إذ ذاك لا تتكلمين باسم التضحية ولكن باسم الأنانية .

دهشت الأم كما دهش الأب من قبل ، وساد الجميع سكون عميق .

ثم بدأت الزوجة تقول لزوجها : ما دمنا وصلنا إلى هذه الدرجة من الصراحة ومن العتاب ، فلأصارحك بما في نفسي . لقد أصبحت حياتي معك عناء في عناء ، حرمت متاع الدنيا لإدارة البيت ومطالبك ومطالب أولادك ، وأصبت بالأمراض ، وأنا طول النهار موزعة بين نظافة البيت وإعداد الأكل إلى ما لا يحصى من مطالب ، فلا يجيء وقت النوم إلا وقد دار رأسي ، وفتر جسمي وكلّ عقلي ؛ وقد أصبح البيت سجناً أبديا مظلماً ، ليس له نافذة إلى العالم — ومع هذا كله لا أرى منك اعترافاً بحسن صنيع ولا إقراراً بجميل ، ولا مظهراً لحب ، ولا تقديراً لقديم ؛ وأصبحت المعيشة كآلة تدور بلا زيت ، وزيت الحياة هو العطف والحب ، وقد فقدا ، فلست أسمع إلا أوامر جافة ، ونواهي حازمة قاسية ، متى يأتي الموت ففيه راحتي ؟

قال الزوج : وهل أنا أقل منك في حمل الأعباء واحتمال الرزايا ؟ فلا أزال

أسعى وأكد سداداً لمطالبكم ، وحرصاً على راحتكم ، وليس لى نصيب مما أجمع إلا أقل من نصيب أحدكم ؛ ولو كنت وحدى لكنت سعيداً ، أنعم بملذات الحياة ولا أحمل عبء الواجب ، وأعيش كالفراشة تنتقل من زهرة إلى زهرة — ثم تتطلبين أن أظهر لك بمظهر الحب كأيامنا الأولى ، ونسيت أن الزمن له حكمه ، فالحب إن لم ينطفئ هدأ ، والنار تشتعل ثم تكون رماداً ، وطول العشرة يُذهب الكلفة ويَذهب بالتصنع ، وأنت تغارين أن أضحك مع الضيوف ولا أضحك معك ، وأمزح مع الأصدقاء ولا أمزح معك ، وتحاسبيننى على أنى أتكلم فى التليفون برقة لا تبدو فى خطابى معك ؛ وفاتك أن التصنع عبء ثقيل يتكلفه المرء مع الغريب ، وثوب مصطنع مع الناس ؛ فكيف تكلفيننى أن أتصنع دائماً وأرائى دائماً ؟ ألا تريننى أتجمل فى ملبسى إذا خرجت وأتبذل إذا رجعت ؟ أتريديننى مرائياً حتى فى البيت ، ومتصنعاً حتى معك ؛ فأين إذاً تكون سعادة المعيشة على الفطرة — ثم لا تكثرى من ذكر التضحية ، فتضحيتك لا تساوى شيئاً بجانب تضحيتى ، ومتاعبك تافهة بجانب متاعبى — أين عمل اليد من عمل العقل ، وأين مطالب الأولاد من مطالب الرؤساء ، وأين تعب الإنفاق من تعب الكسب ؟

***

ساد الجميع سكون رهيب ، وانتهى الأكل ولم يشعروا أنهم أكلوا ، وانتهت الأصناف ولو سألتهم ما دروا ماذا طعموا ، لأن الحديث التهم عقولهم وأفكارهم ، وتسلط على كل حواسهم ، ثم انتقلوا إلى حجرة أخرى وانتظروا كلام الشيخ الحكيم .

بدأ الشيخ يقول :

— لعل أسرتكم هذه من خير الأسر شعوراً بالتبعة وأداء للواجب ، وإن

متاعبكم التى سمعت الليلة بعضها ليست شيئاً بجانب ما أعلم من أسر تحطمت ، وبيوت خربت ، وأمراض فتكت ، وكانت أمراضها أشكالاً وألواناً : هذه مرضها فى ربها ، سَكِرَ وقامر حتى خرَّ البيت على رأسه ، وهذه مرضها فى ربتها ، أسرفت فى ملذاتها وملاهيها حتى انهار البنيان عليها ، وهذه مرضها فى أبنائها وبناتها ، أسرفوا على أنفسهم وجرفهم تيار المدنية حتى أصبح البيت شعلة من نار ، لا يستقر لأهله قرار .

أما أنتم فمرضكم على هامش الأسرة لافى صميمها ، والأعراض قريبة العلاج سهلة الدواء ، ويخيل إلىّ أنها ترجع إلى سببين : أولهما — أن الأبوين لم يُدخلا فى حسابهما عامل الزمان ، فلكل زمن تقاليده ، ولكل جيل مطالبه ؛ ومحال أن تتجاهلوا فعل الزمن وتغيير الأحداث وتطور الناشئة ، فمنشأ كثير من النزاع تحجر عقول الآباء وقلة مرونتها ، ومحاولتها إخضاع الحاضر للماضى ، وهو ما تأباه الطبيعة ، إن أبناءكم مخلوقون لزمن غير زمانكم ، فإما أن تحسبوا فى سلوككم حساب زمانهم ، وإما أن يثوروا عليكم — ألا ترون أن أثاث البيت من عشرين عاماً لايصلح أن يكون أثاث بيت اليوم ، وأن البِدْع فى ملابس أمس غير البدع فى ملابس اليوم ، وأن طراز البيوت منذ أعوام غير طرازها الآن ، وأن التربية والتعليم ومناهجهما ونظمهما منذ عهد قريب غيرهما فى عهدنا ؟ فلماذا تؤمنون بهذا كله ولا تؤمنون بتغير طباع الأولاد وعاداتهم وتقاليدهم ، وتودون أن تسلكوا معهم سلوك آبائكم معكم ، على أن الفرق كبير بينكم وبين آبائكم وبينكم وبين أبنائكم ! فقد حدثت فى العالم ثورة قلبت الأوضاع وكسرت الحدود ، ولا أمل فى المسالمة وحسن العلاقة بينكم وبين أبنائكم إلا أن تفهموا الواقع وتسايروا الزمان ؛ نعم إن الأبناء يجب أن يعذروكم فى نظرتكم ويقدروا حسن نيتكم ، ولكن من العسير أن يفهموا ذلك ولما تنضج عقولهم وتكتمل مشاعرهم .

وثانى الأمرين أنى لمست فى حديث كل منكم طغيان الشعور بـ « أنا » وضعف الشعور بـ « نحن » ؛ إنّ « أنا » مبعث الاحتكاك والنزاع والخصام. فمتى برزت « أنا » فى الميدان قابلتها « أنوات » أخرى تعاكسها وتحاربها. أما « نحن » فليس لها محارب ، لأنها تعبير عن الجميع . إذا قلت : أنا ضحيت ؛ قال الآخر : أنا ضحيت . وإذا قلت : أنا فعلت ، قال الآخر : أنا فعلت . ولكن إن قلتم جميعاً « نحن » لم تكونوا فى حاجة إلى « نحن » أخرى تعارضها .

إنكم فى أسرتكم كالهواء فى منزلكم ، وأشعة الشمس تغمر حجركم ، والروحانية ترفرف عليكم . إنها تسعكم جميعاً من غير نزاع ، فكونوا كالهواء سعة ، وأشعة الشمس امتداداً ، والروحانية شمولاً ، تَضْمُر « أنا » فيضمر النزاع ، ويضمر المن بالتضحية ، إن « أنا » مظلمة ظلمة السجن ، ضيقة ضيق القبر ، و « نحن » شاملة شمول الشمس ، منعشة إنعاش النسيم ، سمحة سماح الكريم .

***

نزل كلام الشيخ برداً وسلاماً على الجميع ، كما استقبلوه بالتبجيل والتعظيم ، وعاد كل إلى مأواه يفسر كلام الشيخ بما يهواه . وكل يُغَنِّى على ليلاه .

# سلطان العلماء

## ( ١ )

هذا لقب لقبه به تلاميذه لما رأوا من سعة علمه ، وعظمة خُلُقه ، فسار اللقب في الناس ، وأصبح في البلاد سلطانان : سلطان الدولة ، وسلطان العلماء . وكان السلطانان أحياناً ينسجمان ويتصالحان ، وأحياناً يتصارعان ويتصادمان ؛ فيكون اصراعهما منظر رهيب كمنظر الجيوش إذا تقاتلت ، والسباع إذا تصاولت ، والديكة إذا تهارشت . وأكثر ما يدعو المنظر إلى الإعجاب إذا رأيت المحارب غير المسلح يغلب المحارب المسلح . وسلطان الدنيا بجنوده وبنوده يخضع لسلطان الدين وليس له جنود ولا بنود ، إلا قوة الخلق ، وقوة الحق ، وقوة اليقين .

عُمِّرَ « سلطان العلماء » هذا عمراً طويلاً عريضاً ، فقد عاش ثلاثة وثمانين عاماً ، والأعوام وإن اتحدت في الطول فهي تختلف في العرض . فهناك أعوام طويلة لا عرض لها ، وهناك أعوام طويلة عريضة ، وهناك أعوام عقيم ، وأعوام ولود . وأعوام « عالمنا » هذه أعوام خِصبة طالما ولدت الأحداث العظام ، والخطوب الجُلّى — فقد شاهدت دولة الأيوبيين في هرمها وآخر أيامها ، وشاهدت دولة المماليك البحرية في نشأتها وعزها ، وشاهدت بعض الحملات الصليبية على الشرق ومقاومته لها ، وشاهدت حملة التتار على الممالك الإسلامية واكتساحهم لها ، ووقوف مصر أمامهم تصد هجماتهم وتكسر شوكتهم ، وشاهدت سقوط الخلافة العباسية في بغداد وانتقالها إلى القاهرة .

ذلك كله شاهدته حياة « عالمنا » الدمشقي . فقد ولد سنة ٥٧٧ ، وتوفي سنة ٦٦٠ هـ . لقد نشأ في دمشق فقيراً يعمل بيديه ليكسب عيشه ويحصل قوته ،

يبيت فى مسجد دمشق إذ لم يجد له مأوى . وظل على هذا حتى صار شابا ، ثم حبّب إليه أن يتعلم وهو كبير فقير ، فمارس العلم وسُرعان ما نبغ فيه ، ولفت النظر إليه ، وجمع إلى العلم التصوف ، فيأخذ العلم عن شيوخه ، والتصوف عن رجاله ، ويكسبه العلم سعة فى عقله وصقلا لذهنه ، ويفيده التصوف صفاء فى قلبه ، ونوراً فى روحه ، وقناعة وطمأنينة فى نفسه ، وزهداً فى نعيم الدنيا ، وحبا لله وطلباً لرضاه ؛ فهو إذا تكلم رأيت علماً غزيراً من دراسته ، ورأيت إخلاصاً من تصوفه ، ورأيت هيبة وجلالا ، ونفوذاً لكلامه إلى قلوب سامعيه من قوة يقينه وصفاء روحه . وإذا بعالمنا « عبد العزيز بن عبـد السلام ، أو عز الدين بن عبد السلام » الذى كان يعمل بيديه نهاراً ، ويفترش أرض المسجد ليلا ، خطيب الجامع الأموى وإمامه ، وقبلة الناس ومنارهم ، ومعقد رجائهم .

لقد رمى بنظره بعد أن نضج عقله ، فرأى حال الدولة تدعو إلى الأسى ، هذه الأسرة الأيوبية تقسّمَ أبناؤها المملـكة . ففرع فى مصر ، وفرع فى دمشق ، وفرع فى حلب ، وفرع فيما بين النهرين ، وفرع فى حماة ، وفرع فى حمص ، وفرع فى جزيرة العرب ، وبين بعضهم وبعض إحن وعداء ، وحزازة ودماء . والصليبيون على الأبواب ، والتتار يتحفزون للوثوب ، ولا قبل لهم بذلك كله إلا أن تذهب حزازاتهم ، وتتوحد كلمتهم ، وتصفو قلوبهم ، ويُعدّوا ما استطاعوا من قوة — فاتخذ عالمنا هذا منهجه فى الخطب على المنبر ، وفى الوعظ ، وفى نصح الأمراء . فهاهو يدخل على الملك الأشرف موسى بن العادل بدمشق وهو يتأهب لغزو أخيه السلطان الكامل فى مصر ، فيقول له : هذا أخوك الـكبير ورَحِمُك ، وأنت مشهور بالفتوح والنصر على الأعداء ، والتتر قد خاضوا بلاد المسلمين ، نخير لك ألا تقطع رحمك ، وأن تتوجه إلى نصر دين الله وإعزاز كلمته ، وأن تحوّل وجهتك فى مقاتلة أخيك إلى مقاتلة أعداء الله وأعداء المسلمين ، وأن

تتقرب إلى الله قبل ذلك بإصلاح داخل مملكتك ، فتُبطل المكوس ، وترفع المظالم ، وتمنع الخمور والفجور . فيصغى السلطان إلى نصيحته ويعمل بها . ويقول له : جزاك الله خيراً عن إرشادك ونصيحتك . ثم أصلحَ ما فى الداخل وحوّل وجهته إلى الخارج ، وقدّم السلطان للشيخ ألف دينار يستعين بها على شؤون الدنيا ، فردها الشيخ فى لطف وقال : إن هذه نصيحة لله وللدين ، فلا أكدرها بشيء من الدنيا ، وذاعت نصيحة الشيخ وزهده فى المال ، فزاد مقامه علوا ومكانته رفعة .

* * *

لكن فى كل عصر سخافات تستوجب الضحك ، لولا أنها تحدث فى مأتم ، فهؤلاء ضيقو العقول من الحنابلة — والدولة كلها معرضة لخطر الغزو من عدوين لدودين قويين : وهما التتار والصليبيون — يعيدون فتنة خلق القرآن والكلام فيها كما كانت أيام المأمون والمعتصم والواثق ؛ فهم يزعمون أن كلام الله القديم هو ما نقرؤه بألسنتنا ، ونكتبه بمدادنا ، ونخطه فى أوراقنا ، وترمقه عيوننا . والأشعرية من أهل السنة يرون أن كلام الله الأزلى القديم ليس بحرف ولا صوت ، وإنما ألفاظنا وكتابتنا ومصاحفنا دلالة عليه ، فيجب احترامها لدلالتها على كلامه ، كما يجب احترام أسمائه لدلالتها على ذاته .

وتقوم الثورة فى هذا بين الحنابلة والأشعرية ، ويتبادلون السب والضرب ، فهنا فى دمشق مجادلات حارة ومناقشات حامية : هل الحروف والأصوات كلام الله ؟ وهناك على مقربة منهم فى صفوف الصليبيين دعوة حارة أخرى لتنظيم الآلات ، وإعداد المعدات ، وتوحيد الصفوف : هنا كلام وخصام فى الكلام ودعوة إلى الانقسام ، وهناك عمل وإعداد وسيوف وقنابل ودعوة إلى الوئام .

ويشتد النزاع بين الحنابلة والأشعرية : المكتوب والمقروء كلام الله — ليس

المكتوب والمقروء كلام الله . كلمات يعلو بها صوت الناس فى المساجد والشوارع والبيوت ، ويتزعم فريقَ الأشعرية عالِمُنا . وأعوان السلطان منقسمون كذلك إلى قسمين ، والسلطان يسمع من هؤلاء اتهاما ومن هؤلاء اتهاما : هؤلاء يتهمون الأشعرية بأنهم يستهينون بالمصحف ، وهؤلاء يتهمون الحنابلة بأنهم مُجسِّدة . ويعكف العلماء من هؤلاء وهؤلاء على تأليف الرسائل واستنباط الأدلة . وأخيراً يحار السلطان بينهم فيأمر بقطع الكلام فى هذا الموضوع بتاتا ، ويأمر الشيخ عز الدين بأمور ثلاثة : ألا يفتى ، وألا يجتمع بأحد ، وأن يلزم بيته . فلما جاء الملك الكامل من مصر وسمع ما جرى قال للملك الأشرف : ما فعلت أكثر من أنك سويت بين أهل الحق والباطل ، وحرضه على القول برأى الأشعرية ونصرة الشيخ عز الدين . ففعل وشدد على الحنابلة فسكنوا ، وانتهت المشكلة بعد أن أخذت من قوتهم وأكلت من تفكيرهم ، وعاد عز الدين إلى مجده وسلطانه .

* * *

أخذ الشيخ يدعو دعوته الأولى إلى أن يتحد سلاطين الأيوبيين وتتحد كلمة المسلمين ، ويخطب فى ذلك على منبر دمشق ويختم خطبته — فى العادة — بقوله : « اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً ، تُعز فيه وليّك ، وتُذِل فيه عدوك ، ويُعمَل فيه بطاعتك ، ويُنهَى فيه عن معصيتك » والناس وراءه يبتهلون ابتهاله ويدعون بدعائه حتى ترتفع أصواتهم إلى عنان السماء .

وكان يقول : « كل جندى لا يخاطر بنفسه فليس بجندى » و « المخاطرة بالنفوس مشروعة لإعزاز الدين » و « ينبغى لكل عالم إذا أُذِل الحق وأهمل الصواب أن يبذل جهده فى نصرهما ، ومن آثر الله على نفسه آثره الله ، ومن طلب رضا الله بما يسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن طلب

رضا الناس بما يسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس . وفى رضا الله كفاية عن رضا كل أحد .

« فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غِضاب »

هذا بعض ما كان يقوله الشيخ . ولكن من كان يظن أن هذا القول الصريح الذى لا مجمجة فيه ولا إبهام يُؤوَّل بأنه يريد به نصرة بعض الأيوبيين على بعض ، ومن كان يظن أن هذه الدعوة التى يبذلها الشيخ إلى الاتحاد تنتكس ولا يستجاب لها ، وتنتهى بأن الملك الصالح إسماعيل يصالح الصليبيين على أن يسلم لهم صَفَدا والشقيف وغير ذلك من حصون المسلمين لينجدوه على الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ومن كان يظن أن الشيخ لا تُسمع دعوته ، فيرى المسلمين فى دمشق يبيعون السلاح للصليبيين ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين ؟

لقد صرخ الشيخ من أعماق قلبه مستنكراً هذه الأحوال ، مستغيثاً بالله من هذه المخازى والأهوال ؛ فاعتُقل وعذِّب ، فما بالى باعتقال ولا بعذاب . وجاءه رسول من قبل الصالح إسماعيل يحتال عليه كما يحتال الشيطان ويوسوس له ويخوفه ويمنيه ؛ وأخيراً يقول له : « ليس بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وأكثر منها إلا أن تطأطئ رأسك للسلطان وتقبل يده » .

هاج الشيخ وغضب واحمر وجهه ، وصاح فى الرسول : « يا مسكين ، والله ما أرضاه أن يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده . يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد ، والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به » .

هؤلاء ملوك المسلمين فى الشام يعبثون بحقوق المسلمين ، ويسلمون الصليبيين الحصون والقلاع ، ويسمحون لهم بشراء السلاح من بلادهم اليوم ليحاربوهم به غداً ، والشيخ فى اعتقاله فى خيمته ، يحز فى قلبه الألم مما صار إليه حال المسلمين ، فيعكف على القرآن يتلوه وعلى العلم يَدْرسه . ويمر الملك الصالح إسماعيل الذى

فعل تلك الأفاعيل مع ملك الفرنج من الصليبيين على الشيخ فى خيمته ، فيفتخر الملك و يزهى بعمله و يقول :

« هذا أكبر قسوس المسلمين ، اعتقلته لأنه أنكر علىّ تسليمى لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن الخطابة وعن مناصبه ، ثم أخرجته من دمشق ، وأبعدته هنا فى بيت المقدس ، كل هذا لأجلكم وحبا فى رضاكم » .

قال ملك الفرنج : لو كان هذا قسيسنا لتشفعنا به وتبركنا بماء طهوره .

وانتصرت العساكر المصرية فأطلق سراح الشيخ ، فأبى أن يكون فى دمشق ، حيث رأى ما رأى .

وفى سنة ٦٣٩ رؤيت قافلة فيها شيخ أبيض اللحية مهيب وقور ، يتجاوز الستين قليلا ، ومعه صديق له يبدو عليه أنه مصرى اسمه ابن الحاجب [١] وفيها أسرتهما وأمتعتهما وأتباعهما ، تجتاز بلاد الشام قاصدة مصر .

— ٢ —

دخل عز الدين بن عبد السلام مصر ، وقد سبقته شهرته بالعلم الواسع فى مذهب الشافعية ، و بغيرته الدينية و بعظمته الخلقية ، وكان يعرفه بذلك كله ملك مصر « نجم الدين أيوب » . فولاه الخطابة فى جامع عمرو بن العاص ، وقلده القضاء فى مصر ( الفسطاط ) والوجه القبلى ( أما القاهرة فأفرد لها قاضياً خاصا ) وعهد إليه بعمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة .

وزاره المحدث الكبير وعالم مصر العظيم « عبد العظيم المُنذِرِى » فرأى من عز الدين فقهاً غزيراً وعلماً كثيراً ، ورأى عز الدين من عبد العظيم بحراً فى الحديث وعلمه ، فامتنع « عبد العظيم » من الفتوى وقال : لا أفتى وعز الدين

(١) ابن الحاجب : هو العالم الكبير والمؤلف المشهور فى النحو والصرف والأصول .

بها ، وامتنع عز الدين من « الحديث » وقال : لا أُحُدِّث وعبد العظيم بها .

وسرعان ما شاهد الناس من « عز الدين » فصاحته فى الخطابة ، وعلمه بأسرار الفقة و إخلاصه فى عمارة المساجد ، ونزاهته فى القضاء ، وصلابته فى الحق ، فكانت مكانته فى مصر كمكانته فى الشام .

ولكن هذه المناصب مع هذه الأخلاق لابد أن تصطدم بذوى الرغائب وأولى الجاه والسلطان ، فالحق مر لايحلو فى ذوقهم ، والعدل ثقيل لا تهضمه نفوسهم ، فما لقيه فى الشام بدأ يلقاه فى مصر .

هذا السلطان أيوب تُقبَّلُ الأرض بين يديه ، فيستفظع « عز الدين » هذا العمل أيما استفظاع ، ويستنكره فى صراحة أمام السلطان وأمام الحاشية وأمام الجمهور ، ويخشى أخصاؤه عليه من هذه الجرأة فيقول : « لقد استحضرت هيبة الله فرأيت السلطان أمامى قِطًا » . ويطيع السلطان أمره وتنتهى المسألة بسلام .

ولكن كل يوم أحداث تؤلم الشيخ وتثير غضبه .

كان فى منصب « أستاذ الدار » فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ ، وقد كان عظيماً فى منصبه ، فهو القيم على الدواوين ؛ والواسطة بين الرعية والسلطان ، والمشرف على تحصيل الأموال من الملاك والمزارعين ، والمتسلط على كثير من شؤون الدولة ، كما كان عظيماً فى جاهه فأولاد شيخ الشيوخ الأربعة متقلدون أهم المناصب ؛ مقربون إلى السلطان لأنهم إخوته من الرضاع .

هذا فخر الدين[١] — وهو ما قد رأيت — يعمد إلى مسجد من مساجد مصر ، فيبنى فوقه بناء يتخذه « طبلخاناه » تضرب فيه الطبول ، وتنفخ فيه الأبواق ، وتزمر المزامير لاستدعاء الجند والأعلام بالنوبة ، وكان

---

(١) ينسب المقريزى فى السلوك هذه الحادثة لمعين الدين أخى فخر الدين ، وينسبها غيره لفخر الدين .

لـكل أمير « طبلخاناه » لجنده ، تضرب فيها الصنج من النحاس بإيقاعات خاصة يدل كل إيقاع على معنى ، فاذا خرج الجند للقتال صحبت كل فرقة « طبلخاناتها » تحمسهم للقتال ، وتفهمهم حركات الحرب من تقدم أو تأخر ، أو تجمع ، أو نحو ذلك — ففخر الدين يبنى هذه الطبلخاناه لأخيه عماد الدين ، فالناس تحت فى صلاة ، والجنود فوق رءوسهم يطبلون ويزمرون ، ويفسدون عليهم عباداتهم .

هذه قلة ذوق لا ترضى أحداً . أفيليق أن تستخدم بيوت الله بيوتاً للجند ؟ وأن يؤذن المؤذن للصلاة والجنود تنفخ فى بوقها ، وتزمر بمزمارها ، وتضرب بكاساتها ؟ إن فى هذا إفساداً لسكون العابد ، وانتهاكا لحرمة الصلاة . وكان فى الأرض ذات الطول والعرض ما يسع الطبل والزمر بعيدا عن بيوت الله ، ولـكنه الغرور بالجاه الذى لا يعبأ بشىء .

وآذان المغرورين لا تسمع لنصح ناصح ، ولا عظة واعظ ، فما هو إلا أن يأخذ « عز الدين » أولاده وتلاميذه وأتباعه وبيـدهم الفؤوس والمعاول . وإذا بحركة هدم عنيفة تقضى على الطبلخاناه فى لحة ، وإذا الشيخ عائد إلى منزله بعد أن أبعد عن المسجد الطبل والزمر . ويصبح الصـباح فيذهب إلى مكان القضاء فيحكم على « فخر الدين » باسقاط عدالته وعدم قبول شهادته ، ثم يسجل ذلك ويكتب استقالته ويرفعها إلى السلطان فيقبلها ، ويجلس فى بيته راضياً عن عمله مخلصاً لربه .

وتذيع الحادثة ، وتَرِد على كل لسان فى مصر ، ويُعجَب المصريون بالشيخ وصلابته فى الحق ، وتضحيته بمناصبه حسبة لله ؛ ويتنقل الخبر من مصر إلى الشام ، ومن الشام إلى بغداد ، حتى يصل إلى أذن الخليفة ، فيُكبر الشيخَ ويجله . وتشاء الأقدار أن يبعث السلطان برسالة إلى الخليفة ؛ فيسأل الرسـول : هل

سمعتها من الرسول مشافهة ؟ فيقول الرسول : لا — ولكن سمعتها من أستاذ الدار فخر الدين عثمان . فيقول الخليفة : لا أقبلها ، لأن عز الدين أسقط فخر الدين فلا تقبل روايته .

***

استراح الشيخ من عناء المناصب الحكومية ، وتفرغ للدرس ، والتف حوله نوابغ الطلبة الذين تصدروا للعلم فى الجيل التالى ، كابن دقيق العيد ، وعلاء الدين الباجى ، وهبة الله القفطى ؛ فهو يدرس فقه الشافعية ، وتتحلق حوله الطلبة يناظرون ويتفقهون ويستفتون ، والشيخ فى بيته يحضّر دروسه ، وفى المسجد يلقى دروسه ، وكلهم معجب بصفاء ذهنه ، وصدق نظره فى الاستنتاج الفقهى ، وسعة اطلاعه . وفى لحظة إعجاب قال تلميذه « ابن دقيق العيد » : إنه « سلطان العلماء » ، فصادفت هوى من نفوس السامعين ، وشاعت على الألسنة ولبست الشيخ ، كما قرر صديقه ابن الحاجب أنه أفقه من الغزالى . وأصبح الشيخ مصدر حركة علمية واسعة فى مصر ، فى الفقه والتوحيد والتصوف . وتأتيه الأسئلة الدينية من الأقطار الإسلامية فيفتى فيها . ويخطئ مرة فى فتواه ، فيرسل من ينادى فى مجتمعات الناس : إن الشيخ أفتى بكذا ، فلا يؤخذ به لأنه قد أخطأ فى الفتوى .

***

ولكن اضطربت البلاد بغزو الصليبيين لمصر ، فجمع لويس التاسع ( ملك فرنسا) الجنود ، وأعد الأسطول ، وقاد ذلك كله بنفسه ، وإذا بسبعمائة سفينة حربية صليبية محملة بالجنود وآلات القتال تظهر أمام دمياط ، فيهرع أهلها إلى المنصورة . وتأتى الأخبار إلى مصر بأن الصليبيين أخذوا برج السلسلة [ وهو برج

عال مبنى فى وسط النيل ، ومن ناحيتيه سلسلتان عظيمتان إحداهما تمتد منه إلى دمياط ، والأخرى منه إلى البحيرة ، تمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها ، وكانوا يسمون — بحق — هـذا البرج بسلاسله « قُفْل الديار المصرية » ] ، ونزل الصليبيون دمياط وتوجهوا إلى المنصورة .

***

تحول الشيخ عز الدين من عالم مدرس فى المسجد إلى خطيب فى المجتمعات يحرض على القتال ، ويؤلب المسلمين على الصليبيين ، ويستحث الأمراء على السرعة فى الإعداد ، والشعب على الإمداد ، ويقوم بما تقوم به الآن الدعاية ، مع فارق واحد ، وهو تأسيس الدعاية إذ ذاك على العزة الدينية والغيرة الإسلامية .

وها هى الدعوة تستجاب ، والعدة تعد ، وينضم إلى جيوش الأمراء والمماليك وجنودهم طائفة كبيرة من العربان ومن عامة الشعب المصرى . وإذا الشيخ عز الدين — الرجل الأشيب المسن — يسافر مع العسكر إلى المنصورة ، وينضم فى صفوفهم ، ويخطب فيهم ، والجنود إذا رأوه ازدادوا حماسة وقوة ، وامتلأوا أملا فى الله ، وعقيدة فى النصر .

حارب المسلمون فى البر والنيل ، وانكسر الصليبيون ، وأسر لويس التاسع واعتقل فى دار ابن لقمان القائمة بالمنصورة إلى اليوم ، وبعثت الكتب إلى الأمصار تبشر المسلمين بالظفر بالعدو وتقول فى وصفه : « وكان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والأهل والأولاد ، فنودوا : لا تيأسوا من روح الله ... فانتصرنا عليهم ، فتركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم ... ومازال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزى والويل ، فلما أصبحنا قتلنا منهم ثلاثين ألفا ، غير من ألقى نفسه فى اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ،

وطلب الفرنسيس (لويس التاسع) الأمان فأمّنّاه ، وأخذناه وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته » .

ورجع الجيش ظافراً منصوراً ، وعاد الشيخ عز الدين فرحا مسروراً .

— ٣ —

التاريخ يعيد نفسه ، فقد نبتت فكرة استعانة الخلفاء بالموالى من الأتراك وغيرهم فى العصر العباسى ، يجندونهم أيام الحرب ، ويتخذونهم زينة لهم وأبهة لملكهم أيام السلم . يُخضعون بهم الخارجين عليهم لما عرف من بأسهم ، ويتخذونهم عُدة لهم فى أيام شدتهم . وبدأ يفعل ذلك المهدى والرشيد ، واستكثر منهم المعتصم ، حتى ضاقت بهم بغداد ، فاتخذ لهم مدينة سامرّا ، وما زالوا يقوون ويستولون على شؤون الدولة شيئاً فشيئا حتى صاروا كل شىء ، ولم يبق للخلافة شىء .

كذلك فعلت الدولة الأيوبية ، فاستكثر منهم صلاح الدين الأيوبى وأخوه العادل ، ثم من أتى بعدهم ، حتى بالغ الصالح نجم الدين أيوب فى ذلك ، وحتى كان كل عسكره من هؤلاء الموالى ؛ ثم ضاقت بهم القاهرة كما ضاقت بغداد باخوانهم من قبلُ ؛ فاتخذ الصالح أيوب لهم مكانا فى الروضة إزاء المقياس ، ثم استفحل أمرهم أيضاً ، فكان لهم الملك والسلطان ، وزالت على أيديهم دولة الأيوبيين .

كان هؤلاء الموالى من ترك وتركمان وأرمن وروم وجركس وغيرهم . وكانوا يصلون إلى أيدى الأيوبيين إما عن طريق الأسر فى الحروب ، وإما عن طريق تجارة الرقيق . وكانت تجارة رابحة واسعة منظمة ، تستخدم فى ذلك البر والبحر ، ويوردّ النخاسون من الرقيق أشكالا وألوانا ؛ فهؤلاء جنود ضخام شداد يصلحون

للقتال فى البر والبحر ، وهؤلاء غلمان حسان يملكهم الأمراء ويلازمونهم ، وهم يتجملون بالملابس ويتزينون تزين النساء ، ويفتنون الناس بجمالهم وزينتهم ، وهؤلاء جوار كاللآلى ، عيون نجل وشعور شقراء وبياض مشرب بحمرة وقدود حسان . والبريد كل حين يحمل ما يتمنى الأمير من مماليك وجوار ، والمراكب تحمل المئات من هؤلاء وهؤلاء .

وقد كثرت فى تلك الأيام هذه التجارة ، لأن غزو التتار قد هيج هذه البلدان ، وأوقع بالترك والجفجاق والروس والأرمن ، فشرد السكان ، وخرجوا هائمين على وجوههم ، فمنهم من قتل ومنهم من سبى ، وكثير ممن سبى شحن إلى مصر بلاد الغنى والترف والرخاء ، وهى التى تقوّم الجندية وتقوم الجمال .

يأتون كلهم إلى مصر ولا يَعْلَمُون شيئاً من العربية ولا من الإسلام ولا من تقاليد الأمة ، فيأخذ الأيوبيون فى تعليمهم كل ذلك ، والجند يمرنون على المناضلة بالسهام والمسالحة بالسيوف والرمى فى البر والبحر . والغلمان والجوارى يمرنون فى القصور حتى ترق حاشيتهم وتتهذب طباعهم وتصقل عاداتهم ؛ فما هو إلا قليل حتى يملكوا زمام الأمور فى الحكومة ، وزمام الأسر فى البيوت ، ويَرْقى المملوك حتى يكون السلطان أو نائب السلطان ، وترقى المرأة حتى تكون شجرة الدر . ثم هؤلاء المماليك ينقسمون أقساما ويتشعبون شعباً ، ويختلفون نسبا ؛ فهؤلاء العزيزية مماليك العزيز عثمان بن صلاح الدين ، وهؤلاء الصالحية نسبة إلى الصالح نجم الدين الخ ، وكل فرقة تتعصب لسيدها وتتحزب ضد خصمها .

***

أصبح الناس فى مصر فى ذلك العهد — عهد آخر الدولة الأيوبية وعهد المماليك — ينقسمون قسمين متميزين : عنصر المماليك من أتراك وأرمن وما

إليها ، وفى يدهم أغلب المناصب الحكومية وأمر الجيش ، ومنهم أغلب الجنود . وعنصر الشعب المصرى ، وهؤلاء هم الفلاحون والتجار والصناع ، وعلى الجملة هم القائمون بالحركة الاقتصادية فى البلاد ، وأحياناً يجند منهم جنود إذا اشتد الأمر ، جدّ الجدّ . وهناك طبقة العلماء ، وهؤلاء يكادون يكونون حلقة الاتصال بين الطبقتين الأوليين ؛ فطبقة الشعب تحتاجهم فى أخذ الدين والعلم عنهم والاستشفاع بهم عند الولاة والأمراء ، وإيصال شكاياتهم وتبليغ رغباتهم وما إلى ذلك . وطبقة الأمراء تحتاجهم فى بعض المناصب الحكومية كالقضاء والخطابة والإمامة ، وتحتاجهم فى تنفيذ رغباتها ، لأنهم مسموعو الكلمة عند الشعب ، فالشعب يطيعهم من قلبه و يطيع الأمراء من خوفه ، والأمر إذا جاء من قِبَل الدين فالناس له أطوع ، وقيادهم له أسلس . من أجل هذا كانت تلتقى فى العلماء رغبات الشعب ورغبات السلاطين والأمراء ؛ فإذا ضج الشعب من شيء وسطوا العلماء ، وإذا احتاج الأمراء إلى مال من الشعب وسطوا العلماء . وكان كثير من العلماء يخضعون للولاة والأمراء أكثر مما يخضعون لله ، فهم يتحسسون رغباتهم ليجاروهم فى أهوائهم ، ويؤولون أوامر الدين ونواهيه حسب مطالبهم ، ويقلبون صفحات كتب المذاهب ليعثروا على قول لأحد الفقهاء يجارى رغبة الأمراء . وقليل منهم قد باع دنياه لآخرته ، ورضا الأمراء لرضا ربه ، فلا يهمه ماله بقى أم صودر ، ولا تهمه حريته أطلق أم سجن ، بل لا تهمه نفسه حيي أم قتل .

وكان صاحبنا عبد العزيز بن عبد السلام من هذا القليل الذى فنى فى الحق وأخلص لدينه ، فلا يقدر عاقبة نفسه ، وإنما يقدر عاقبة أمته وموقفه بين يدى ربه .

* * *

لقد اشتد التتار فى الغزو واجتاحوا البلاد ، ووصلوا إلى « عين جالوت » ، ولا بد لمصر أن تقف أمامهم وترد كيدهم ؛ ولكن العدو شديد وعدده وفير ، والقوة لا تدفع إلا بالقوة ؛ والعدد بالعدد والعدة بالعدة ، وهذا يتطلب أن تبذل الأمة أقصى ما تستطيع من المال فى سبيل المكافحة ، والعلماء هم الذين يستطيعون أن يقنعوها بالإنفاق من طريق الدعوة الإسلامية والغيرة الدينية .

فهذا الملك المظفر سيف الدين قطز يجمع العلماء بحضرته ، وعلى رأسهم عبد العزيز بن عبد السلام ، ليتدبروا فى المال كيف يجمعونه ، والعاطفة الدينية كيف يستفزونها ؛ فيقف الشيخ ويقول : « يجب أولاً أن تخرجوا ما فى بيوتكم من حلىّ لا حصر لها ، وما فى بيوت أمرائكم وجنودكم من الثياب المزركشة والمناطق المذهبة والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة فى أيديكم وأيدى أتباعكم ومماليككم ، ثم تذيبوها وتضربوها نقوداً وتنفقوا منها على إعداد الجيش وتموينه ؛ فإذا تم ذلك واحتجتم إلى مال بعدُ فكانا على استعداد — إذاً — أن نطلب من الناس أن ينفقوا ، ومن العامة أن يخرجوا عما فى أيديهم . أما أن تبقوا على ما فى أيديكم من أنواع الترف والسرف ، ونطالب من الناس أن يتبرعوا بما فى أيديهم من ضرورات الحياة فلا . يجب أن يسوّى الأمراء بالرعية فيما يملكون ، فإذا تساووا وجب الإنفاق من الجميع » . وإذا قال الشيخ لا فلا ، ولا رجعة فيها ، والأمة وراءه .

فاضطر الملك أن ينفذ ما قال ، فخرجت الأكداس المكدسة من الحلى والثياب المزركشة . وانتزع الذهب والفضة من السيوف والأوانى ، وصيغا سكة فكفت وأغنت ، ولم يحتج إلى أن يُمس الناس فى شىء من أموالهم .

***

ثم كانت الحادثة العجيبة الجريئة التى أقامت الدنيا وأقعدتها ، هؤلاء جماعة

من المماليك دُفعت أثمانهم عند الشراء من بيت المال ثم لم يعتقوا ، والشيخ فى منصب القضاء ، والمشرف على بيت المال ، والمسئول عن مال المسلمين وصحة الأحكام الشرعية ، وهؤلاء المماليك أصبحوا أمراء بارزين و بيدهم الحل والعقد ، ومنهم من بلغ أن يكون نائب السلطنة ، وجاههم عريض وأمرهم نافذ ؛ ولكن الشيخ لا يأبه بذلك كله ، ويُحدث أزمة حادة قلّ أن يكون لها مثيل . أعلن الشيخ أنهم أرِقاء لا يصحّح لهم بيعاً ولا شراء ولا زواجاً ، فتعطلت مصالحهم ؛ فهم إن ملكوا لا يسجّل لهم ملكا ، و إن تزوجوا لا يعقد لهم زواجاً ، ثم هم أُهينوا فى أنفسهم وشرفهم وجاههم بدعوى رقهم ؛ ولكن الشيخ واقف وقفة الأسد لا يلين ولا يتزحزح .

— وما الحل أيها الشيخ ؟

— الحلّ أن يباعوا فى الأسواق و يتزايد الناس فى شرائهم ، ومن ملكهم إن شاء أعتقهم وإن شاء استرقهم ، وثمنهم يدخل فى بيت مال المسلمين كما خرج منه .

— هذا غير معقول . نائب السلطنة يباع ؟ ومن هم أسياد البلد يصبحون عبيداً كالسلع يباعون و يُشْتَرون . هذا ما لا يكون ولا يدخل فى عقل !

الشيخ — هـذا حكم الله وكلنا عبيده وعبيد أحكامه ، وأنا القيم على تنفيذها .

والمسألة كل يوم تتسع وتتحرج ، وينقسم الناس حزبين : طبقة الأرستقراطية والحكام والسلطان فى جانب ، والشعب وعلى رأسه الشيخ فى جانب ، والمجالس تعقد والأزمة تستحكم ، والحلول تعرض ، والشيخ يأبى إلّا بيع الأمراء .

***

غضب السلطان واحتد على الشيخ ، وأعلن أنه لا يعمل برأيه .

ها هى الحمير تعد ، ومتاع الشيخ يُزَمّ ، والشيخ يعتزم الخروج من مصر كما خرج قبل من الشام . ويطير الخبر ، فيعتزم كثير من الأعيان والعلماء والتلاميذ الخروج مع الشيخ والرحيل معه متى رحل ، والإقامة معه حيث يقيم ؛ وإذا البلد فى حركة عجيبة وفوران شديد ؛ وإذا طائفة كبيرة من العلماء والصلحاء والتجار بنسائهم وأولادهم وأمتعتهم يستعدون للرحيل ، وإذا العزم يصبح تنفيذاً ، فها هى قافلة كقافلة الحج تخرج من مصر .

وينظر السلطان فيرى أن خير من فى البلد راحل من مصر ، وأن مصر لا تصلح بعد خروجهم ، وأن من بقى بعدهم باق على مضض ، فكيف يستقيم ملك مع هذا كله ؟ فإما أن يرجع الشيخ وإما أن يضيع الملك .

لا بد مما ليس منه بد — هذا السلطان يخرج مسرعاً ويلقى الشيخ فى طريقه فيستسمحه ويرجوه فى العودة ، فيأبى الشيخ إلا أن ينفذ البيع فى الأمراء ، فيقبل السلطان ويعود الشيخ .

***

علم نائب السلطنة أنه سيباع فيمن يباع ؛ فهاج وغلى الدم فى عروقه ، واعتزم ألا يتم ذلك بأى وسيلة ، فركب فرسه وجرد سيفه ، وقصد إلى الشيخ يحتز رأسه وقرع الباب ، وأبلغ الشيخ أن نائب السلطنة حضر وسيفه مسلول يريد قتله ؛ فنزل الشيخ فى هدوء واطمئنان وثبات ، وهو يقول : « أنا أقل من أن أقتل فى سبيل الله » . فما رآه نائب السلطنة حتى تمازجت فى نفسه مشاعر مختلفة : هيبة الشيخ ووقاره ، والخوف من نقمة الناس وهياجهم عليه حتى لقد يفقد نفسه ، والرحمة على شيخ مسن لم يقل ما يقول شهوة لنفسه ، ولكن إرضاء لدينه ؛

فيبست يده على سيفه ، وتحاذات عزيمته وعاد كما أتى .

* * *

هذا هو مجلس البيع يعقد ، وهؤلاء هم الأمراء ينادى عليهم ، وهذا هو الشيخ يقبل ثمناً و يرفض ثمناً ، حتى يبلغ ثمن المثل ، وهذا هو يقبض المال ، وهذا هو يُودِعه فى بيت مال المسلمين ، وهذا هو يبلغ ذروته فى المجد والعظمة ، و يحتل فى نفوس الناس مكاناً لا يحتله أحد من بعده .

لقد مات الشيخ فخرجت مصر تشيعه ، وتشيع الصلابة فى الحق ، والعظمة فى الدين والإخلاص للعقيدة .

و يطل الظاهر بيبرس ، فيرى مصر وراء جنازة الشيخ وقلبها يتفجع لفقده ، فيلتفت إلى بعض خواصه و يقول : « اليوم فقط طاب ملكى » . .

# نظرة فى الـكون

ما أجمل الطبيعة ، وما أجلها ، وما أحكمها ، وما أغناها !

هذه حبّة واحدة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سُنبلة مائة حبة ، « وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه — من بين فَرث ودم — لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » . وهذه الأرض يصيبها الماء فتخرج من الأزهار ومن بدائع الألوان ، فى الجبال وفى الوديان وفى الغابات ، ما يسحر العين ويأخذ باللب ؛ وهذا المحار فى البحار ينشق عن نصفين منسجمين متساويين فى النقوش والألوان والتعاريج يعجز عن تقليدها أمهر فنان ؛ وهذا الفم الذى يأكل ويقضم يُخرج الدر من الحـكم ، والطيّب من الكلم ؛ وهذه الشجرة العظيمة الضخمة خرجت من بذرة ؛ وهذا الإنسان العجيب نشأ من ماء مَهين !

« هو الذى أنزل من السماء ماء لـكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسيمون ، يُنبت لـكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفـكرون . وسخَّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجومُ مسخراتٌ بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لـكم فى الأرض مختلفاً ألوانُه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذَّكَّرون . وهو الذى سخَّر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفُلك مواخرَ فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلـكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسىَ أن تميد بكم وأنهاراً وسُبلا لعلـكم تهتدون » .

وهكذا من ملايين وملايين من العجائب ، قلل عجبَنا منها إلفُنا لها وأُنسنا بها .

ومن أعجب هذا الباب ما يأتى من باب الغرائز ! فهذا ضرب من الأسماك يسافر آلاف الأميال إلى حيث يجد المكان الملائم لنسله ، فإذا ماتت الكبار عادت الصغار إلى مكان آبائها بهاد من غريزتها ؛ وهذه الطيور تحشد فى الربيع والخريف جماعات ، وتقطع الجبال الشامخة والبحار الشاسعة لتصل إلى الأقاليم الملائمة ؛ ما الذى دلها على الطريق فى ذهابها وإيابها ، ولا علامات ولا دلالات ؟ إنها الغريزة العجيبة التى تدل حمام الزاجل على مأواه والقط على مسكنه ، إنها الغريزة التى تحمل كل حى من نبات وحيوان وإنسان على أن يأتى بمختلف الوسائل والأعاجيب ليحفظ نفسه ويحفظ نوعه .

إن أعمال الطبيعة وأعاجيبها ونظامها ودقتها فوق أفهامنا ، وفوق منطقنا وتفكيرنا وتعليلنا . كل صغير مما لا يرى إلا بالمكرسكوب ، أو كبير يرى بالتليسكوب ، يحيي حياة عجيبة يدق سرها عن الفهم ، ويقصر عن إدراكها العقل ، الحبة فى الأرض ، والذرّة فى الهواء ، والسمكة فى الماء ، والنجم فى السماء .

وصدق الجاحظ إذ يقول : « ولو وقَفْتَ على جناح بعوضة وقوف معتبر ، وتأملته تأمل متفكر ، بعد أن تكون ثاقب النظر ، سليم الآلة ، غواصاً على المعانى . . . لملأت — مما توجد العبرة من غرائب — الطواميرَ [1] الطوال ، والجلود الواسعة الكبار . . . ولتبجست عليك كوامن المعانى ودفائنها ، وخفيات الحِكَم وينابيع العلم . . . وقد قال تعالى : (ولو أن ما فى الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفِدت كلمات الله) ؛ والكلمات فى هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف ، وإنما يريد بها النعم والأعاجيب ، وما أشبه ذلك ، فإن كلا من هذه الفنون لو وقف عليها رجل

(١) الطوامير جمع طومار وهى الصحيفة .

رقيق اللسان صافى الذهن صحيح الفكر تام الأداة ، لما برح أن تحسره المعانى ، وتغمره الحِكَم » .

* * *

ولكن بجانب هذه المعانى اللطاف والعجائب التى لا تنتهى ، نرى الطبيعة كذلك تقسو ولا ترحم ، لا تعبأ بالألم يعذب الأحياء ، كأنها آلة عمياء ، سلحت القوىّ ومكنته من الضعيف والضعيف من الأضعف . « هذا الأسد يصيد الذئب فيأكله ، والذئب يصيد الثعلب فيأكله ، والثعلب يصيد القنفذ فيأكله ، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها ، والأفعى تصيد العصفور فتأكله ، والعصفور يصيد الجراد فيأكله ، والجراد يصيد فراخ الزنابير فيأكلها ، والزنابير تصيد النحل فتأكلها ، والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها ، والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها » . والإنسان سلط على الجميع ، وسلط بعضه على بعض . إنها لا تندم على إيلام ، ولا تحزن لموت ، ولا تعبأ أن تكون كلها ساحة قتال ، تسلح الغالب والمغلوب ، والقوى والضعيف ؛ ثم تقف متفرجة على القتال والالتهام ، والتنكيل والآلام ؛ كأن الأمر لا يعنيها فى قليل ولا كثير . وضعت الشهوة فى كل حى ، وأخضعت لها القوة والمكر والحيلة ، وأطلقت لكل أولئك العنان فى المنافسة والمحاربة ، واتخذت ذلك قانونها وديدنها فى كل شىء ، من أصغر حيوان إلى أعظم إنسان ؛ ثم نفضت يدها من كل ذلك ، ووقفت تسجل ولا تتدخل ، بل تمد هؤلاء وهؤلاء ، حتى لا يفتر النزاع ويبطل الخصام .

هذه أمة آمنة مطمئنة تلهو وتلعب ، وتعمل وتسعد ، تثور عليها الطبيعة ببركانها وتجعلها فى لحظة حمما ؛ وهذه مدينة جميلة بسكانها وما عليها زلزلت بها الأرض فخسفت وأصبحت كأن لم تَغْنَ بالأمس ؛ وهذا مركب يعد خير إعداد ، ويوسع أكبر سعة ، ويجهز أحسن جهاز ، فيبتلعه البحر بمن عليه فى لمحة ؛ وهذه

الأمراض تنتاب الإنسان فلا ترحم طفلا صغيراً ولا شيخاً هرماً ، ولا ترأف بالأم في وحيدها ، ولا بالأسرة في عائلها ؛ وهـذا الموت سلط على كل حى ، فذهب بلذته ، وطاح بأمله . وهذا الإنسان لعبت به غرائزه ، فأشعل نيران الحروب ، وأقام كل حين مجزرة هائلة مفزعة . وهكذا حتى أصبحت لذائذ الـكائن الحى — وسط هذه الأمواج من الآلام — لحظات خاطفة ، ولمعات كوميض البرق .

***

نقرأ الصفحات الأولى من الطبيعة ، فنرى الجمال والجلال ، والحسن والانسجام ، والعظمة ودقة الصنع ، وعجائب الغريزة ؛ ونقرأ الصفحات الثانية فنرى القسوة والفظاعة والتعذيب والإيلام .

من قديم حار العقل في تفسير هـذه الظواهر المتناقضة . كيف يكون من الطبيعة بجانب هذه الحـكمة هذا السفه ؟ وكيف يكون بجوار هذه الرحمة هـذه القسوة ، وكيف يكون مصدر هذه اللذائذ مصدر هذه الآلام .

لقد ذهب بعض علماء الدين إلى أن نقمة الطبيعة من غضب الله على الإنسان إذا خالف أمره وارتـكب ما نهاه عنه ؛ ولـكن — مع الأسف — لم نر هذا مطرداً ، فقد ينعم في هـذه الدنيا الماكر المخادع ، والغادر المنافق ، ويألم المؤمن الورع والتقى الصالح ؛ وكما قال الأول :

قد يُقـتر الحُوَّل التقـ ـىّ ويُـكْثِر الحَمِقُ الأثيم

ومن أجل هذا جرى على ألسنة الناس المثل المعروف : « المؤمن مصاب » .

وذهب بعض الطبيعيين المحدَثين إلى أن الألم يصيب الإنسان إنما هو تحذير من الأخطار المستقبلة ؛ فصداع الرأس عـلامة مرض تنبّهُ الإنسان إلى وجوب ملافاته ، والمغص كذلك ، والرمد كذلك ؛ وهذا التعليل أيضاً ليس صادقاً دائماً ، وإن صدق في آلام الإنسان فما تفسير إيلام الطبيعة بأحداثها ؟

وأذكر أنى قرأت مرة قولا طريفاً لبعض المفكرين فى هـذا الموضوع ، خلاصته أن موضع الخطأ فى هذا السؤال هو أن الإنسان يريد أن يطبق أخلاقيته على أخلاقية العالم ، فهو يسمى بعض الأعمال رحمة و بعضها قسوة ، و بعضها نعمة و بعضها نقمة ، و بعضها لذة و بعضها ألما ؛ ولـكن هذه التسمية صحيحة بالنسبة له فقط و بمقياسه هو فقط ، ولـكن وراء عالمه الإنسانى عوالم أخرى فى الأرض ، ووراء عوالم الأرض عوالم لا عداد لها فى غير الأرض . أليس من غرور الإنسان أنه يريد أن يطبق العدل والظـلم فى العالم حسبما يدرك بنظره القاصر وفـكره المحدود ، ويريد أن يخضع العوالم الواسعة لعالمه الضيق ، ويريد أن يطبق قوانين العالم الـكلية على قوانينه هو الجزئية ؟

وهو جواب ماهر لم أستطع أن أقف أمامه موقف تأييد أو تفنيد ، ومشايعة أو معارضة .

يظهر لى أن موضع الخطأ فى فهم هذه المسألة أنهم يعرضون مشكلة الآلام وحدها و يريدون حلها ، وهى لا يمكن أن تفهم إلا إذا عرضت الدنيا كلها على أنها وحدة . كيف نفهم الأبيض من غير أسود ، والحرارة من غير برودة ، والطول من غير قصر ، والعمى من غير بصر ؟

كذلك الآلام لا يمكن أن تفهم إلا على أنها جزء لا يستغنى عنه من نظام هذا العالم ، ولو انعدمت الآلام لانهار نظام هذا العالم من أساسه .

إن الفضيلة لا يمكن أن توجد فى هـذا العالم إلا إذا وجدت الرذيلة ؛ فلا نفهم الإيثار حتى نفهم الأَثَرة ، ولا توجد البطولة حتى توجد النذالة ، ولا العدل حتى يوجد الظلم ، ولا الشجاعة حتى يكون الجبن ؛ كذلك لا يوجد الحب من غير عذاب . ولا اللذة من غير ألم ، ولا التوبة من غير إثم .

ولو انعدمت الآلام والرذائل والآثام ما كانت الفضائل العاليـة ، ولا

الأعمال النبيلة ، ولا أعمال البطولة التي يتغنى بها الشعراء . ولو انعدم القبح لانعدم الجمال . ولولا الأشقياء ما كان السعداء .

لا معنى لأني أحب من أحب إلا إذا اشتمل ذلك على الألم ، فمعنى أني أحبه أني أشاركه أحزانه ، وأخاف عليه الأذى يناله ، وأخاف انقطاع الصـلة بيني و بينه ، وهل هذه كلها إلا آلام إذا ذهبت ذهب الحب .

إن احتمال الآلام في هذه الدنيا كان لنا منه أكبر الفضائل ، من حزم وصبر وثقة بالنفس وتضحية للخير وعذاب للإصلاح ، ولولاه ما كانت .

لولا عواطف الألم ما كان شعر ولا فن ، ولا نحت ولا موسيقى ولا تصوير ، ولا معان إنسانية ، ولا وطنية ولا قومية .

ولو كان العالم كما يتطلبه العامة خالياً من الآلام لـكان بالطبيعة أيضاً خالياً من اللذائذ ، ولو كان خالياً من الرذائل كما يبغون لخلا أيضاً من الفضائل ، إذ لا يمكن أن تتصور لذة بدون ألم ، ولا فضيلة بدون رذيلة .

إن عالمنا هذا بنى على الخير والشر ، واللذة والألم ، والفضيلة والرذيلة ، والسعادة والشقاء ، وكل منهما كأحد جانبي الوجه لا يكمل إلا بجانبه الآخر ، ولا يفهم إلا بالآخر . فمن أراد عالما لا ألم فيه فليطلبه في غير هـذا العالم ، وعلى غير هذا النظام كله .

وتبارك الله رب العالمين .

# أول ثورة على التربية

## فى مصر

قلت للمكتبى الذى اعتدت أن أمر عليه حيناً بعد حين :

— هل عندك من جديد ؟

— نعم . عندى تاريخ اليمن لعمارة اليمنى طبع أوربا ، وثمنه مائة وخمسون قرشاً

— وماذا غيره ؟

— وعندى رحلة ابن جبير طبع أوربا أيضاً ، وثمنها مائة وعشرون قرشاً .

— ثم ماذا ؟

— وعندى كتاب قيم جدا لم يقع فى يدى إلا مرة واحدة منذ احترفت بيع الكتب ، وسيعجبك جدا .

— هو مما طبع فى أوربا أيضاً ؟

— لا لا ، هو أثمن من ذلك ، قد طبع فى مصر ، ولكنه نادر جدا ، وأثمن من كل ما طبع فى أوربا .

— وما اسمه وما موضوعه ؟

— لا أخبرك باسمه ولا بموضوعه حتى تراه . ولا أريكه حتى تنتهى فى هذين الكتابين وتشرب القهوة .

وشربت القهوة ، وشريت الكتابين ، واستنجزته وعده ، فأحضر الكتاب وهو يضحك ، وفتح صفحة من الكتاب ، فإذا فيها « ألف وباء » إلى آخر حروف الهجاء ، بالثلث !

شاركته فى الضحك ، واستظرفت مزحته ، وآليت أن أنقل مزحه جِدًّا ، فأجعل من الكتاب موضوعاً .

فقلت : ما ثمنه ؟

قال : هو أتفه من أن يكون له ثمن .

وأخذت الكتب وانصرفت .

لم يجذبنى إلى القراءة تاريخ اليمن ولا رحلة ابن جبير كما استرعى نظرى كتاب « ألف باء » .

رأيت فى الصفحة الأولى منه : ( « كتاب طريق الهجاء والتمرين على القراءة فى اللغة العربية » بالعناية الخديوية الإسماعيلية أعزها الله ، وبهمة سعادة على مبارك باشا مدير المدارس الملكية ، والأشغال العمومية ، وسكك الحديد المصرية والقناطر الخيرية — للتعليم على مقتضاه فى المكاتب الأولية المصرية) . ثم قريباً من الذيل حديث شريف : « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » وفى آخر الصفحة « الطبعة الأولى بمطبعة وادى النيل فى القاهرة سنة ١٢٨٥ » .

* * *

رأيت فى أول الكتاب مقدمة بديعة حقا ، مفيدة حقا ، تعد ثورة على طرق التربية القديمة ، ورسماً لخطة جديدة ، كتب فى أولها إنها « مقدمة تشتمل على بعض تعريفات تتعلق بأصول طريقة التعليم التى يقتضى أن يجرى عليها العمل » ، وإنها « خطاب من إدارة عموم المدارس المصرية الملكية إلى حضرات الخواجات (ولعله يريد الخوجات) ، والمؤدبين بالمكاتب الأهلية وسائر المندوبين للتربية الأولية » . وكتب فى آخرها « حررها على مبارك باشا » .

هى ثورة تعليمية حدثت من نحو ثمانين عاماً ، فقد كتبت كما أسلفت سنة ١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ م .

كانت نظم التعليم قبل ذلك فى المكاتب تجرى على أنماط القرون الوسطى ، فالطفل يذهب إلى الكُتّاب ، فيسلم له « سيّدنا » أو « العريف » لوحاً من الصفيح كُتِب فيه بالحبر : ا ب ت ث الخ ، ويحفظه : « ا » لا شيء عليها ، ب واحدة من تحتها ، ت اثنان من فوقها ، ث ثلاثة من فوقها الخ ؛ فيكررها الطفل كما يقول « سيدنا » أو « العريف » وهو كاره لذلك كل الكره ، غير فاهم لما يقول ، فإذا لم يحفظ فالعصا على ظهره ، فإذا لم ينجح فرجلاه فى « الفَلَقَة » ؛ فإذا انتهى من ذلك بعد عناء ، انتقل به « سيدنا » إلى خطوة أخرى ، فكتب له فى اللوح : « ا ألف » ، ونطقها ألف ألف لام فاء ، « با » با ألف ، « بو » با واو الخ .

وهى ألغاز لم أفهمها إلا وأنا فى سن العشرين ، وتفسيرها أن كلمة ألف تتركب من ألف ولام وفاء ، وكلمة « با » تتكون من باء وألف ، و « بُو » تتكون من باء وواو الخ . وهو نمط عجيب فى التعليم ، فإذا انتهى من ذلك كتبت الحروف مشكولة ، و « سيدنا » ينطق والطفل ينطق وراءه كالببغاء .

فإذا تم ذلك كله بعد مشقة وعناء تدوم أشهراً ؛ كتب له سيدنا فى اللوح سورة الفاتحة فسورة الناس الخ . والطفل يقرأ اللوح ويحفظه ويُسَمّعه ؛ وهكذا يسير فى حفظ القرآن إلى أن يتم حفظه أو ينقطع . ومن حين إلى حين يعلمه « سيدنا » أن يكتب اللوح بنفسه ، ثم لا التفات إلى شيء من العلوم ، ولا إلى شيء من السلوك ، ولا مراعاة لعقلية الطفل .

جاء « على مبارك » فأراد فى هذه المقدمة أن يغير هذا كله ويقرر مبادئ فى التربية جديدة يأخذ بها المعلمين ، أجملها فى خمس عشرة فقرة .

فقرر أن خير مناهج التربية ما أوصل إلى الغاية من أقرب طريق ، من غير أن يُمل الطفل أو يتعبه مع مراعاة قواه العقلية .

وأن تكون التربية مؤسسة على استخدام الطفل جميع حواسه ما أمكن ، ولذلك يجب أن تقترن كتابته بقراءته .

ويجب تأخير استعمال الحبر والورق فى التعليم ، والبدء باستعمال الطباشير والألواح السوداء ، فذلك أوفر وأنظف .

وأن تكتب أولًا الحروف المفردة بالخط الثلث الثخين فى لوحات سوداء بالطباشير ويكررها المعلم على التلاميذ ؛ فمن تقدم منهم فى معرفة ذلك جُعلوا عرفاء ثم يوزع المعلم التلاميذ الضعفاء على العرفاء ليعلموهم على الالواح المختلفة نطق الحروف ثم كتابتها تحت إشراف المعلم ، ولا ينتقل من درس إلى درس حتى يتصوروا الدرس القديم ويتقنوه ويعرفوا نطقه وكتابته .

وبعد ذلك يعلمهم الحروف متصلة بحروف العلة ، فيكتب الباء مع الألف هكذا « با » وينطق بها « بَا » ممدودة وكفى من غير الفلسفة القديمة فى التهجية ، ثم يعلمهم الحروف بالعلامات كذلك .

فإذا عرفوا الحروف الهجائية انتقلوا إلى الكلمات الصغيرة من حرفين فثلاثة الخ ، ثم الجمل ، ولا يعطى المعلم لهم جملة من غير أن يفهمها لهم .

وقد وضع منهجاً لمدة الدراسة وهى ثلاث سنوات ، ففى السنة الأولى يتعلم القراءة والكتابة باللغة العربية واللغة التركية ( وهذا عجيب ) ويحفظ بعض نوادر ونصائح وأمثال وحكم وأعداد الحساب .

وفى الثانية والثالثة يتعلمون قواعد النحو والصرف مع الاستمرار على المطالعة فى الكتب ، وحفظ بعض نوادر تركية ، ومواد تاريخية وجغرافية ، وتكميل العمليات الحسابية ، ورسم جميع الأشكال الهندسية ، وفهم بعض خواصها وتعريفاتها .

هذا من حيث التعليم . أما من حيث التربية ، فوضع لها خططاً محكمة ،

وجّه المعلمين إلى العناية بحسن سلوك التلاميذ ، ومراعاة صحتهم ، فالمعلمون يجب أن يلاحظوا سلوك التلاميذ ونظافتهم ، ويضعوا لذلك « نمراً » كل يوم ، تجمع مع « نمر » العلوم ، ويرتب التلاميذ بحسبها جميعاً ، ويوضع على كل فصل لوحة كل ستة شهور بأسماء التلاميذ مرتبة حسب متوسط درجاتهم العلمية والخلقية والنظافة .

ويجب أن يكون المأمور (ناظر المدرسة) أباً رحيما مثالا لحسن السلوك والفضائل والشرف ، للتلاميذ والمعلمين ، وأن يفهم « أنه القائم فى وظيفته مقام الحكومة فى تأدية ما يلزم من الواجبات ، والنائب من طرف الأهالى فى الرأفة بأولادهم ، ومزاولة أحكامهم ، والتحفظ على صحتهم ، فهو مسئول عن هؤلاء الأطفال بين يدى الخالق والخلق » .

ثم ذكر أن من أهم ما يجب على المعلمين ، تربية حواس التلاميذ ، فيجب أن يمرنوا حاسة البصر ، بأن يؤتى بالطفل ويؤمر بالوقوف عند شباك مفتوح وينظر ما أمامه ، ثم يؤمر بالتحول ، ويكلف وصف ما رأى بالتفصيل ، ومقدار بعده وارتفاعه الخ ، وأن تمرن أذنه ، فيعوّد الطفل — وعيناه مربوطتان — أن يعرف الناس بمجرد سماع أصواتهم ولو غيروها ، وعلى معرفة الأشياء بما ينشأ عنها من رنين وحركات ، وهكذا وضع خطة لتمرين كل حاسة .

ونصح بعدم التضييق على الأطفال ، لميلهم الطبيعى إلى اللعب والحركة ، فينبغى انتهاز فرصة ميلهم الطبيعى وتوجيهه إلى توسيع دائرة معلوماتهم وتحسين سلوكهم .

* * *

هذا مجمل الخطة التى اختطها فى تقريره ، وسميتها ثورة لبعد الفرق بين ما كان وما أراد « على مبارك » أن يكون .

ثم أراد أن يخرج الفكرة إلى العمل ، فوضع أول كتاب — فيما أعلم — لتعليم القراءة والكتابة والمطالعة على النمط الحديث ؛ فالجزءَ الأول هو الحروف الهجائية فى الخطوط المختلفة ، ثلث وفارسى ونسخ وتوقيع ورقعة ، ثم الحروف متصلة بحروف العلة ، ثم الحروف مضبوطة بالحركات ، ثم كلمات مركبة من حرفين فثلاثة الخ ، ثم كلمات فى جسم الإنسان ومراحل عمره ، ثم جمل صغيرة ، ثم أمثال ومواعظ ونوادر تاريخية ، ثم أشكال الحرف الكوفى ، وبذلك تم هذا الجزء .

ولم يشأ أن يجعله حروف مطبعة لصعوبتها على التلاميذ ، فعهد إلى أكبر خطاط فى مصر ، وهو « مؤنس أفندى » فكتب هذا كله ونوّعه بخطه الجميل ، وطبعه على مطبعة الحجر ، وتدرج بذلك من كلمات مشكولة إلى كلمات مشكولة بعض الشكل إلى كلمات غير مشكولة ؛ وإذا جئنا إلى الجزء الثانى رأيناه مجموعاً من الحروف ومطبوعاً كذلك ، وقد قسمه إلى جملة مجموعات ، سمى كل فصل مسامرة ؛ فالمجموعة الأولى تاريخية اجتماعية ، والثانية فى الكون وأجزائه من إنسان وحيوان ونبات ومعادن وهواء ونور ونار وزلازل وماء وبخار وندى وسحاب ومطر وشمس وقمر وكسوف وخسوف . والثالثة فى الدين وقواعده وأركانه ، والرابعة فى قوانين الصحة . والخامسة فى النصائح والمواعظ والأخلاق الإسلامية ، وبذا يتم الكتاب .

ويذكر فى أول الجزء الثانى أنه استعان فى أداء هذه الخدمة بقلم السيد صالح مجدى أفندى . والكتاب بجزئيه يصور عقلية القائمين بأمر التعليم فى هذا العصر ، ويصور أسلوب الكتّاب ومنهج تعبيرهم وتفكيرهم ، والمثل الذى ينشدونه لأبنائهم ، ومقدار ذوقهم فى تخير ما يعرضونه على أطفالهم ، وفيه موضع لدراسة دقيقة وافية لمدى تقدمنا الآن ومراحل سيرنا ، وهل هى تساوى ثمانين عاماً أو

لا تساوى ، وفيه موضع عبرة كيف يتوفر وزير المعارف بجلالة قدره — مع ما عهد إليه من إدارة الأشغال والسكك الحديدية والقناطر الخيرية ، يعاونه أشهر الكتاب فى ذلك العصر السيد صالح مجدى — لوضع كتاب فى ألف باء للأطفال بعداً فى النظر وشعوراً بعظم الواجب .

فهل ترى يا صديق « الكتبى » أن هذا كله لا يساوى شيئاً غير الاستهزاء به والضحك منه .

# فى الهواء الطلق

## — ١ —

كانت جلسة ظريفة على شاطئ النيل ، والنسيم عليل ، بعد نهار يخنقنا بحرّه ويلفحنا بسمومه .

فى رفقة منسجمة تتسامر وتتحاور ، وكل شيء حولها هادئ ، نور هادئ ، ونسيم هادئ ، ونيل هادئ ، وحوار هادئ .

وكانوا يختلفون فى ثقافتهم ويتحدون فى قوة عقلهم وسعة نظرهم ونبل عواطفهم : من مؤرخ صرف عمره فى تحقيق الأحداث ، والبحث فى تعليلها وأسبابها ونتائجها ، واقتصادى يرى كل شيء ورقة مالية ، أو نقوداً ذهبية وفضية ، حتى ما نسميه نحن بواعث روحية ، وأديب يتفلسف ، أو فيلسوف يتأدب ، له نزعة شعرية وطبيعة صوفية .

أخذ الحديث يجرى على هواه من غير ضابط ، فمرة يسير فى اتجاه السلم والحرب ، وتارة فى الشرق والغرب ، وأخيراً تركز فى أسباب نهضة الأمم وكيف يجرى الزمان فى سهولة ويسر ونظام وإذا بحادث فجائى أو أحداث فجائية تغير مجرى الأمة تغيراً خطيراً ، حتى كأنها بعثت بعثاً جديداً ، وحتى يخيل للناظر أن ليس من صلة بين قديمها وحديثها ، ونومها ويقظتها .

قال صاحبنا المؤرخ : تعليل ذلك عندى ما تلده الأمة من عظماء ونوابغ ، والزمان شحيح فى ولادتهم ، فقد يمر العصر الطويل وهو عقيم ، ثم يلد عظيما فيغير وجه التاريخ ، وكأن فى يده عصا سحرية يحوّل بها الحديد ذهباً ، والخمول

نشاطاً، والضعف قوّة؛ والتاريخ نفسه أكبر شاهد على ذلك، فما الأمة العربية لولا «محمد»؟ وما الفتوح الإسلامية وتنظيمها لولا «عمر»؟ وهكذا تقول فى سائر الأمم أمثال الإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون وغيرهم. إنهم يأتون فيفرضون قوتهم وروحهم على الأمم فيسيّرونها حسبما رسموا، ويُملون إرادتهم على أحداث الزمان، فيتشكل التاريخ وَفق أغراضهم، وتسير الفتوح أو الثقافة أو أشكال الحكومة تبعاً لإرادتهم، ويتحدد مستقبل أممهم بما نفخوا من روحهم، ونشروا من تعاليمهم، وأوضحوا من غايتهم. وهؤلاء العظماء النوابغ — عادة — يخلفهم من يؤمن إيماناً تاما بمبادئهم، فيسيرون على طريقهم، ويكملون ما بدءوا به، وإن كانوا أقل منهم قوة وأضعف أثراً.

هذا هو قانون التاريخ قديماً، وهو قانونه حديثاً، فلو أتاح الله لأمم الشرق اليوم نوابغ أقوياء، لتغير مجرى حياتهم، وارتفع شأنهم، وتلفّتَ العالم إليهم يسبّح بحمدهم.

* * *

وفجأة كسر هذا الهدوء رجل ضخم الصوت ينادى «العظيمة يا منجه»، فالتفت الصحب إليه وأعجبتهم فاكهته، ونادوا فتى القهوة فغسلها وثلجها، وجرى ريق القوم، وأخذوا ينعمون بأكل شهى إلى الحديث الشهى.

* * *

قال صاحبنا الاقتصادى وهو يتلمظ:

— أظن يا أستاذ أن هذا غير صحيح. أتظن أن هذا العظيم ينزل — على الأمة — بمظلة من السماء، أو يخرج فجأة من الأرض؟ إن لخروج العظماء والنابغين قانوناً طبيعيا لا يتخلف. كقانون الحرارة والبرودة والجاذبية، وإن كان أكثر تركباً وتعقداً؛ فالنوابغ نتيجة لا سبب، هم تعبير الحياة الاجتماعية.

العوامل المختلفة تعمل ، والأحداث تتفاعل ، والنفوس تتهيأ ؛ فإذا الأمة تتمخض عن نابغة ؛ فالأحوال الاجتماعية أولا والنوابغ ثانياً ، وليس العكس . إن الحالة الاجتماعية إذا تهيأت واستعدت بحثت عمن يقود الحركة وخلعت عليه الزعامة ، فإذا اتجهتْ إلى « س » فعاقته عوائق عن النبوغ اتجهت إلى « ص » ، وعلى كل حال فلا بد من نابغة ، فإذا لم تتهيأ الظروف فلا نابغة ؛ وهذا هو تعليل عدم الانتظام فى ظهور النوابغ ، فيظهر كثيرون فى زمن ، ولا يظهر أحد فى أزمان .

لست أنكر التأثير الكبير للنابغة ، ولكنه لا يكون إلا بعد أن تتهيأ الأمة أولاً ، ولو فرضنا أن النابغة خلق وجاء لأمة على غير استعداد لتعاليمه لم يفد أية فائدة ، وذهب كما جاء ، إنما يفيد النابغة يوم يجد عقولا خصبة كانت تنتظر الزعيم فتدخل فى دينه وتتجمع حوله ، وتكون جنده ، يفتح بهم أمته ، ثم أمماً مع أمته

وفرغوا من أكل « المانجو » و « لحمته » ، وتفرغوا للجو والحديث .

المؤرخ : إن نوابغ الأفراد لا المجتمعات هم الذين يأتون بالأفكار الجديدة الثورية — فى الأخلاق ، فى السياسة ، فى الفنون ، فى العلوم ؛ ووظيفة المجتمع أنه يعرقل سيرهم أولا ، ويضع العقبات فى سبيل تعاليمهم ، ويتهمهم بالمروق والزندقة والإفساد ، ويصب عليهم العذاب ألواناً ؛ ومع ذلك تبقى آراؤهم ، ويزيدها العذاب قوة ، ثم تكتسح الأفكار القديمة وتحل محلها ، ثم ما كان من الأفكار جديداً ثائراً يصبح قديماً محافظاً . حتى يأتى النابغة فيعيد السيرة ، وهكذا دواليك إلى اليوم ، وإلى غد ، وبعد غد .

فترى — يا أخى — من هذا أن المجتمع ليس سبب النهوض والتغيير ، إنما هو عامل القرار والثبات ؛ فاذا كان لا بد للمجتمع من قوتين : قوة الدفع وقوة

التعويق ، فالنوابغ هم الدافعون والمجتمع هو المعوّق ، النابغة يحمل المشعل والمجتمع يحاول إطفاءه ، وكما كان النابغة أكثر رقيا وأشد إمعاناً فى النظر ، كان أكثر بعداً عن قومه ، وكانوا له أكثر اضطهاداً ، حتى ليرمى بالجنون ؛ وبعد اضطراب وعنف وتخريب وضحايا يستقر رأى النابغة ، وكثيراً ما يحدث أن يكون ذلك بعد موته أو قتله ، ثم تسفر النتيجة عن أن النابغة هو المقترح ، ومشخّص المرض ، وواصف العلاج ، والمجتمع أخيراً جدا هو منفّذ العلاج .

***

وهنا أدار أحدهم عينه فى الأفق ، فلمح نجماً يلمع لمعانا براقاً ، فقال : انظروا هذا النجم الصافى اللامع المضىء القوى ، ما اسمه ؟

— والله لا أدرى ، فأنا أجهل الناس بشيئين : أسماء النجوم وأسماء النبات ، فلست أعرف من النجوم إلا الشمس والقمر ، ولا من النبات إلا النخل والذرة ، حتى القطن لا أعرفه إلا إذا « لوّز » .

ضحكٌ من الجميع .

***

الاقتصادى : إنك لم تردّ على شىء مما قلت ، غاية الفرق بينى وبينك أنك عمدت إلى النتائج فأوضحتها ، وأنا أعمد إلى الأسباب فأشرحها ؛ إنك تبين عمل النابغة ، وأنا أبين الأسباب التى تحمل على خلق النابغة ؛ وخير إذا شرحنا الأمور أن نتعمق إلى جذورها ، فاذا نحن عمدنا إلى ذلك رأينا أسباب نهوض الأمم وتغيرها أسباباً اقتصادية بحتة .

كل شىء فى هذه الحياة يرجع إلى المادة ، فهى التى تعكس صورها وأثرها على العقل ، فيجب أن تتغير المادة — أولا — ثم يتبعها العقل فى التغير فيكون الرقى أو الانحطاط ؛ ولو رجعنا إلى التاريخ — كما تقول — لوجدنا كل الآراء

وكل النظم ترجع فى أساسها إلى البيئة التى نشأت فيها والتغيرات التى وضعت لها .
لقد كان الإنسان الأول يعيش على صيد الحيوان فى البر والسمك فى البحر ، فكانت آراؤه وأفكاره ومعيشته مشتقة من بيئته ، ثم تغيرت البيئة ، فأصبح يعيش على رعى القطعان أو الزراعة ، فتغيرت آراؤه وأنواع معيشته وحاجاته تبعا لذلك ، ثم تغيرت إلى نظام إقطاعى ، ثم إلى نظام رأسمالى ، فتغيرت كل نظمه وكل آرائه حتى الأخلاقية والسياسية ؛ ويمكن أن نرجع أدق التفاصيل وأعمق الأفكار إلى هذا النوع من البيئة كما درسنا فى الاقتصاد ؛ ولكن مما لا شك فيه كذلك أن أنواع الحياة وتفاصيلها وعواملها أصبحت الآن أكثر تعقداً ، لأن كل النظم القديمة النابعة من البيئات القديمة لم تفقد أثرها وورّثتنا كثيراً من تعاليمها ووحيها . لم يكن فى المجموعة من الناس طبقات يوم كانوا يصيدون ويرعون ، ثم لما أصبحت زراعية تمت الملكية الخاصة ، فكان غنى وفقير ، وبدأت الطبقات ، ونشأ عن ذلك مالك وأجير ، أو مالك وعبد ، فوجد نوعان من العلاقة : علاقة الملاك بالبيئة الطبيعية ، وعلاقة الملاك بالعبيد ، فنشأ عن هذا تغير فى الأفكار لا عدّ لمظاهره ، وثورات واضطراب ، ومصلحون ونوابغ يحلون هذه المشاكل ، وتعقدت هذه العلاقات فى النظام الإقطاعى ، ثم زادت تعقداً فى النظام الرأسمالى ، وما نشاهد من عادات ومن رق ومن اختراع ومن أسواق ، ومن نظريات فى الاقتصاد ، ومن نظم فى التجارة ، ومن مذاهب اشتراكية وفاشية وشيوعية ، ومن نزاع طبقات ، ومن حروب أمم ؛ كله نتيجة هذه العوامل الاقتصادية ، وإن شئت فقل البيئة الطبيعية .

ثم استمر يقول : وإنى أومن بالجبر على هذا المعنى ، بمعنى أن نوع الحالة الاقتصادية منتج لا محالة نوع المعيشة الاجتماعية التى يعيشها الشعب ، واختيار الإنسان وبواعثه وحرية إرادته كلها تلعب فى دائرة ضيقة ضمن الدائرة الواسعة

وهى دائرة الجبر ، كحرية الإنسان فى بيت مغلق ؛ والنوابغ الذين ينبغون فى كل عصر مع الاعتراف بقوة أثرهم إنما هم نتيجة هذه الظروف الاقتصادية ؛ وحتى رقىّ الآداب والعلوم والفنون أو ضعفها ناتج أولا من الحالة الاقتصادية ، فهى التى تخلق نوابغها ، ثم هؤلاء النوابغ يسيّرون حركتها .

وأحداث التاريخ التى أشرت إليها يمكن أن تفسر هذا التفسير الاقتصادى ؛ فحالة العرب الاقتصادية قبيل البعثة كانت مهيئة لنبى ، ولأمر ما كانت بعثة النبى فى مكة ، لا فى غيرها من بقاع جزيرة العرب ، لما كان فيها من الحركة التجارية العظيمة ، فهى مورد التجارة من الخارج ، وهى مصدر الإصدار لسكان الجزيرة فى أيام الحج ، بما كانوا يقيمون من أسواق ، وما كان من أدب فى سوق عكاظ فتابع للسوق التجارى ؛ ولأمر ما كذلك كان أكثر من دخل فى الإسلام أول الأمر من رقيق الحال الذين سماهم صناديد قريش «الفقراء والمستضعفين والأذلة» وأكثر الذين عصوا وعاندوا هم الأثرياء الأغنياء ، كأبى لهب ، وأبى سفيان من الذين خشوا على مركزهم المالى وما يتبعه من جاه ؛ وفى القرآن كثير من النصوص التى عنى فيها بالشؤون التجارية ، كمنّ الله على قريش بتيسير أسباب التجارة « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » ، وتأنيبه الذين « إذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً » ، وتحريم الربا وحِل البيع ، إلى كثير من ذلك ، ثم المطالبة بنزول الأغنياء عن بعض مالهم للفقراء بالزكاة والصدقة ونحوها ؛ كل هذه أمور اقتصادية هيأت الظروف وأنتجت النتائج . ويمكن على هذا الأساس — وبهذه النظرية الاقتصادية — أن تفسر أحداث التاريخ الإسلامى والثورات ورقى العصور وانحطاطها .

والآن يمكن تطبيق هذا على الشرق والغرب والمستعمِر والمستعمَر ؛ فالاستعمار ليس إلّا ظاهرة اقتصادية ، إذ أدى الانقلاب الاقتصادى الذى حدث فى أوربا

فى القرن الثامن عشر إلى التوسع فى الإنتاج الصناعى ، فاحتاجت أوربا إلى امتلاك مستعمرات تحصل منها على المواد الأولية للصناعة ثم لتصرّف فيها سلعها ؛ فكانت خيرات الشرق للغرب ، وأصبح الأول ضعيفاً غير ناهض لفقره ولسوء حالته الاقتصادية ، والعكس .

فإن شئت للشرق رقيا فأعنه ، وابحث عن الطرق التى تمكنه من استغلال بيئته الطبيعيــة لنفسه ، فإذا هو غنىّ و إذا هو عالم ، و إذا هو أديب ، و إذا هو مخترع و إذا هو ما شئت .

* * *

ساد الجميع سكون لم أتبينه ، أهو سكون رضىً واقتنـاع ، أم هو سكون تفكير واستعداد للدفاع !

والتفت أحدهم إلى الأديب المتفلسف أو الفيلسوف المتأدب ، فقال : ما رأيك ؟ لقد أطلت السكوت وسممتَ وجهتى النظر . وكان طولَ الجلسة ساهماً حالماً يسمع بنصف نفسه ، ونصفها الآخر فى الجو والهواء والنيل والسماء .

فقـال : أما أنا فانى أردد قول الله تعالى : « إن الله لا يغيِّرُ ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم » ، رأيى أن كليكما حكى بعض الحقيقة ؛ فليس عامل التغير النابغة وحده ، ولا الفرد وحده ، ولا البيئة وحدها ؛ و إنما هو « الإنسـان فى البيئة » والنابغة فى الظروف ؛ وكلا كما أهمل جدا جانب الروح ، مع أن التاريخ كله ليس تاريخ النوابغ ولا تاريخ المال ، و إنما هو تاريخ الروح أيضاً . إن الروح الإنسانية تسعى دائماً لغايتها المرسومة لها ، وغايتها الحرية العاقلة ، والظروف الخارجية تضغط عليها ، وهى تحـاول دائماً دفع هذا الضغط وكسر الأغلال حتى تصل إلى غايتها .

وأحداث التاريخ سلسلة من الضغط على اختلاف الأشكال ومحاولة النفس

تحررها من الضغط والأغلال غير العاقلة ، وهى دائماً فى خطوات إلى الأمام نحو تحقيق هذه الغاية .

ومن الخطأ فى نظرى تفسير كل شىء بالمادة وإهمال الروح ، والقول بأن الإنسان مُسيرٌ بجيبه لا بروحه . إن النظر إلى المادة وحدها جعل الغرض المنشود هو القوة المادية بالمال و بالقوة الحربية ، فماذا كانت نتيجة ذلك ؟ نتيجته صراخ الأرض حتى ضجت من صراخها السماء ، وتلوين الخرائط بممالك ومستعمر ، واستعباد أكثر الإنسانية لأقلها ، ولذة الأقلين بألم الأكثرين . إن الأمم ظلت تتسابق فى القوة المادية حتى ضاعت حكمة حكيمها ، وفلسفة فيلسوفها ، وعميت عن الغاية من القوة ، واتخذتها غاية لا وسيلة ، حتى ذهب عن الأرض سلامها وجمالها ؛ وفى التاريخ ما يرشدنا إلى أن القوة المادية كالقوة العسكرية تنتهى دائماً بتحطيم نفسها . كان كذلك اليونان والرومان ، والقرطاجينيون ، ومن أتى بعدهم إلى اليوم .

إن العالم قوّى جسمه وقوّى عقله وقوى يده ، و بقى عليه أن يقوى قلبه ؛ ولعل الكوارث الحاضرة تنتهى إلى الالتفات إلى القلب كما التفت إلى إخوته .

وقوة الروح هى التى تغير الأمة وتخلق المادة .

الاقتصادى : ألست ترى أن دعوتك إلى الروحيـة كدعوة المتصوف إلى الصوفية ؟ وما ظنك بصوفى ينازل جنديا مسلحاً ؟ إن شئت أن تدعو إلى الروح فعمم الدعوة ، ولا تدعُ إلى وضع السلاح حتى يضعه خصمك ، وإلا أكلت .

الأديب — إن السلاح سيأكل نفسه .

الاقتصادى — إنى أشك .

ونظر أحدهم إلى الساعة فوثب قائلا : هذا آخر موعد لآخر ترام .

## — ٢ —

أما جلستنا هذه المرة فكانت فى سفينة شراعيّة عند روض الفرج ، وقد بلغ النيل أوجه فى علوّه وفخامته وشدة جريانه واحمرار لونه ، وبلغ القمر أوجه فى جماله ونوره ، وامتزج جمال القمر بجمال النيل بجمال الجو بجمال الحديث ، فكان لنا من ذلك متعة فنية ، ومتعة عقلية ، أحببت أن أشرك القراء فيها .

كان ثلاثتنا فى الليلة السابقة هم بعينهم فى هذه الجلسة ، وزاد عليهم صديق رابع عاد من إنجلترا حديثاً بعد أن درس الاجتماع والاقتصاد والسياسة ؛ وعاد إلى مصر فتولاه نوع من الكآبة وانقباض الصدر وطول اللسان ، والنقمة على كل شىء يراه ، فلا يعجبه حياة الأسرة ، ولا نظام المجتمعات ، ولا نظام الاقتصاد ، ولا منظر الناس فى الشارع ، ولا حجاب المرأة ولا سفورها ، ولا شىء يقع تحت سمعه وبصره ؛ وهو بجانب ذلك شديد اللوم لاذع النقد .

ذكرنا ونحن فى الطريق المجلات العربية ، فأخذ يشنّع عليها ، ويقذفها بكل نقيصة ، ويتهمها بأن أمثلها يتكلم فى السماء ولا يتكلم فى الأرض ، ولا ينير الشعب بما ينبغى أن يعلمه ، ولا يُفهمه موقفه ، ولا يحلّ له مشاكله ، ولا يرسم له خطة سيره ، وتمر الأحداث بجانبها وكأنها حدثت فى المريخ . فإن اعتذرنا له بالحرب وملابساتها قال : وهل كانت مجلاتكم قبل الحرب خيراً منها الآن ، وأحسن تقديراً للظروف ، وأصدق معالجة للأمراض الواقعية ؟ وهكذا كلما عرضنا لشىء أوسعه نقداً ، حتى سارت بنا السفينة وحلّت شراعها .

كان هذا المنظر يفتح الشهيّة للحديث كما فتحه للأكل ، ولكن لا أدرى السبب فى أن جميع الأصدقاء القدماء تفتحت شهيتهم للصمت دون الكلام ، إلاّ صاحبنا الجديد ، فقد كان ثرثاراً لا يسمح لغيره أن يبدى رأياً أو يتحدث حديثاً ؛ وبذلك انقلب الوضع من سمر نشترك فيه ، إلى محاضرة يلقيها علينا

صاحبنا . لا أدرى من حسن الحظ أو من سوئه أن أحدنا سأله رأيه فى مصير العالم بعد هذه الحرب ، فقال : إن هـذا سؤال لا تمكن الإجابة عنه بكلمة ولا بنوع من التنبؤ ، ولا بالحدس والتخمين ؛ إنه لا يمكن شرح الغاية إلا إذا عرفنا الاتجاه ، فإذا شئتم حدثتكم بشرط ألا تقاطعونى ، فأكره ما أكره فى مصر أن المتحدث لا يستطيع أن يتم حديثه ، ففى كل كلمة ينطق بها يقاطَع ، وقبل أن يتم فكرته يعترض عليه ، وقد يكون الآنى شرحاً للماضى ولكن لا يمكّن من ذلك ؛ وقد يطول الجدل فى القشور قبل أن يصل المتحدث إلى اللباب . والحق أن المصريين يحتاجون إلى من يُعَلِّمُهم فن الصمت كما يعلمون فن الكلام ؛ والحق أن الصمت فن له رسوم ومناهج يطول الحديث عنها ، فهل أحدثكم فى فن الصمت أو تلتزمون الإصغاء فأحدثكم فيما سألتم ؟

وعدناه أن نلتزم الصمت ، لأنه يوافق مزاجنا فى هـذه الآونة ، ولأننا صائرون إلى هذه النتيجة شئنا أو أبينا ، فإن تدفقه لا يسمح بالكلام لغيره .

قال : —

لست أريد أن أرجع بكم فى الحديث إلى الماضى البعيد فإن شأنه يطول ، ولكنى أحدثكم فى الحاضر مشوبا بشىء من الماضى ، وأبنى عليه المستقبل .

فى عصر فكتوريا كان العالم المتمدن يتجه إلى السير على مبدأين هامين : المبدأ الأول الحرية بأوسع معانيها ، ولست أعنى الحرية السياسية وحدها ، بل أعنى أن الحرية أصبحت مزاجاً عقليا يحاول تطبيقها على كل شىء ؛ حرية فى الشؤون السياسية ، وأن ينال كل فرد نصيبه فى سياسة أمته بطريق التصويت ؛ وحرية اقتصادية بالسير على مذهب Laissez faire — ولا أدرى ماذا تسمونه باللغة العربية — وأعنى به حرية الفرد أن يشترى من أرخص سوق ويبيع فى أغلى سوق ، وحرية الضمير ، وحرية العقل فى أن ينميه كما يشاء ، ويغذيه بما شاء ،

ويفك قيوده من الخرافات . والمبدأ الثانى الروح العلمى وعدم تقيده بأى قيد ، والبحث الحر الخالص ، والإيمان التام بأن العلم هو الذى يجب أن يحكم الحياة ويسيّرها .

وفى ظلال هذين المبدأين نمت الفردية ، أعنى احترام الفرد وحرية الفرد ، وكان كل شىء ينبئ بأن السير فى هذا الطريق سيوصل حتما إلى سعادة الأمم ورفاهيتها ، وإلى السلام العام وحسن التفاهم بين الشعوب ؛ ولكن — مع الأسف — خاب الأمل ، وأنتجت الحرية الاقتصادية غنى مفرطاً لقليل من الأفراد ، وفقراً مدقعاً للأغلبية ، وحرية واسعة للأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال ، وعطالة ورقًا لكثير من العمال ، كما أنتجت صراعاً حادا على الأسواق ؛ وذلك أنتج الحواجز الجمركية ، وآل هذا كله حتما إلى الحروب الطاحنة التى شاهدناها فى حرب سنة ١٩١٤ ، والتى امتدت عواملها وبواعثها إلى الحرب الحاضرة .

وانقسمت الأمم إلى معسكرين ، معسكر ظل على مبدإ الحرية الفردية ومظهرُها الديمقراطية ، مع تعديل ذلك بما تستوجبه الظروف ، وحامل علَمه إنجلترا وأمريكا ؛ ومعسكر كفر بالفردية وآمن بالجماعة ولم يسمح للفرد بالحرية إلا فى حدود مصلحة الجماعة ، وحامل هذا العَلم روسيا الشيوعية وإيطاليا الفاشية وألمانيا النازية .

وهذا المعسكر الثانى قد وضع نظامه الاقتصادى والسياسى على هذا الأساس ، أساس الجماعة لا الفرد ، وإن اختلفت مناهج أممه ووسائلهم ؛ ففى السياسة أعطيت الهيئة التنفيذية سلطة واسعة جدا ، وحُدّت قوة السلطات الأخرى وضيقت المعارضة الخ ؛ ومن الناحية الاقتصادية حلت النقابات فى النظام الفاشيستى محل حرية الأفراد ، وتدخلت الحكومات فى الأمور الاقتصادية ، ورسمت المناهج ، ووضعت يدها على كثير من موارد الدولة الخ . وكانت الشيوعية

أكثر إمعانا فى اضطهاد الفردية ونصرة الجماعية ، ووضعت التربية فى هذا المعسكر جميعه على أساس استمالة الفرد ليعد نفسه جزءاً من جسم المجموع لا شخصية مستقلة ؛ وتبع هذا تضييق حرية الفكر وحرية النقد ، بل وأحيانا حرية العلم إذا كانت النتائج العلمية لا تتفق ونظام الدولة .

ومن ناحية أخرى رأينا المعسكر الأول نفسه قد شعر قادته بأن النظام الديمقراطى أيضاً فى حاجة إلى تعديل ، وخطب عظماؤه فى وجوب إصلاحه لمواجهة العالم الجديد ، فنظام رأس المال يسبب دائماً أزمات حادة وعطالة محزنة ؛ فنادوا بأنه يجب أن تتدخل الحكومات الديمقراطية ولو بعض الشىء لوضع حد لهذه المآسى ، وتقييد الحرية نوعا ما لمصلحة المجموع ؛ وقالوا إن النظام البرلمانى بطىء فى تسيير الأمور بطئاً يحتاج إلى علاج ، والمطابع والتمثيل والسينما والراديو قد جاوزت حدودها فى الحرية ، ولا بد من تدخّل فى وضع حدٍ لها مسترشدين بالمصلحة العامة .

***

وإلى هنا توسطنا النيل ، وهبّت ريح فضربت الشِراع فمالت السفينة ميلا شديدا ، ففزعنا وكان أفزعنا صاحبنا المحاضر فصاح ، وسكت عن الكلام المباح .

ثم جاوزنا الوسط ، وهدأت الريح ، فاعتدلت السفينة فعادت شهوته للكلام وشهوتنا للاستماع .

وسألناه : فماذا تنتظر بعد ؟

لعلكم ترون من هذا كله الصراع العنيف بين الفردية والجماعية ، واضطراب العالم بين النزعتين ، وشكواه من كبت الحرية العقلية فى ظل « الجماعية » ، وقلقه من البطء والعطالة فى ظل الفردية .

إن العالم — فيما أرى — سيتحرر من خضوعه المطلق للعوامل الاقتصادية ،

وستكون المسائل المالية عاملا من جملة عوامل ، لا العامل الوحيد ؛ وسيتعلم من هذه الكوارث إيمانه بنوع من الأخلاقية الأخوية ؛ وسيتبيّن أن النظرة الاقتصادية وحدها أدّت إلى حياة جافة بائسة ، وسيعود إلى التعاليم التى أهملت من أن الإنسان أخو الإنسان ، وسيتجلى له أن التضييق على الحرية العقلية وإخضاع العلم للسياسة تُدهور العقل ، وأن دعوى المصلحة العامة لا تغنى ما لم يقصد إلى المصلحة العامة فى صدق وإخلاص .

أما من ناحية الصراع بين الفردية والجماعية التى حدثتكم عنها ، فإنى أرجح أن العالم سيهتدى إلى نوع جديد هو « الفردية فى الجماعية » ، وأعنى بذلك أن العقول ستبتكر نوعا من النظام يحفظ فيه للفرد شخصيته فى حدود مصلحة الجماعة ، وستؤسس التربية والتعاليم والنظم السياسية على تغذية العاطفتين من غير أن تتضاربا وتتعارضا ، وسيكون هذا علاجا لكل مشاكل العصر الحاضر .

وهذا النظام المرجو لا يتحقق إلا إذا قبله العالم المتمدن كله ، ونفّذه فى صدق وإخلاص وقوة عقيدة ، وقامت على رعايته قادة الأمم ورجال السياسة ورجال العلم ورجال الدين ، وتلاشت عصبية الأمم ، وعصبية الأجناس ، وعصبية الأحزاب ، وعصبية أصحاب رؤوس الأموال ، وعصبية الطبقات ، وتولّى الزعامة رجال واسعو النظر شديدو الإخلاص ، محبو الإنسانية ، جمعوا بين قوة العقل وقوة الشعور ، تسيّرهم العقيدة الحقة المخلصة ، لا الرأى العام المحلّى المتحزّب .

* * *

وتعب الصديق من الحديث الطويل ووفائنا بشرطه ، وتركنا إياه يحاضر من غير مقاطعة ؛ وطلب ماء فشرب ثم سكت .

فسأله أحدنا : وهل تظن — يا دكتور — أن العالم سيصل إلى هذه الغاية بعد هذه الحرب ؟

فقال : إن هذا هو الأمل الوحيد لخلاص العالم ، فإن لم يبلغها فى هذه الحرب ، فسيظل فى كوارث تتبعها كوارث ، وستزيد الويلات زيادة المتواليات الهندسية تبعاً لتقدم العلم وازدياد الحزازات ، حتى يمل الإنسان فيؤمن بالغاية التى شرحتها .

أما أنها الغاية فلا أشك فى ذلك ، وأما أنها الغاية من الحرب الحاضرة فلست أجزم به .

***

ومرت بجانبنا سفينة ملئت فرحاً وسروراً ، وبها « جوقة » موسيقية تعزف وتغنّى ، ويأخذ أهلها الطرب فيتصايحون ويتنادرون ويضحكون .

فأخذ صديقنا يلقى محاضرة أخرى فى الموسيقى الشرقية وعيوبها ، وبدأ يقارن بين الموسيقى الشرقية والغربية ، وكاد يتدفق فى هذا تدفقه فى ذاك .

قال أحدنا : على رِسْلك — يا دكتور — !! فإن لقدرتنا على الاستماع حدًّا ، والمتحدث ينبغى أن يوائم بين أحاديثه ، فأين ما كنت فيه من مصير العالم من الموسيقى العربية والغربية ؟ فإن كنت خبيراً بالموسيقى فتجنب « النشاز » .

وضحك الجميع ، ورست السفينة ، وإلى اللقاء .

# قصتان طريفتان

قرأتُ فى هذا الأسبوع كتابين بالإنجليزية ، أحدهما فى «التصوف» لمؤلف هندى ، والثانى فى « المنطق العملى » ، أو كما يسميه صاحبه « فن التفكير » لمؤلف إنجليزى .

وتسألنى : ما الذى جمع الشامى على المغربى ، وألّف بين التصوف والمنطق على بعد ما بينهما من منهج ، فهذا يعتمد على مقدمات ونتائج وقياس و براهين ، وذلك يعتمد على ذوق و إلهام ورياضة وكشف ، هـذا لا يؤمن إلا بالعقل ، وذلك لا يؤمن إلا بالنفس ، وكلاهما يكفر بصاحبه ؟

فأقول : إنه قد جمعت بينهما المصادفة البحتة ، فقد كنت أبحث عن كتاب فى مكتبتى ، فعثرت على هذين الـكتابين ، فأغرانى موضوعهما بقراءتهما ، ولم أكره هـذا الجمع « فالضد يظهر حسنه الضد » ، ولست تتبين فى جلاء سواد الأسود إلا إذا نظرت بجانبه إلى بياض الأبيض ، وخير ما تتذوق حلاوة الحلو إذا تذوقت ملوحة الملح ، وكثيراً ما تعمد الغانية الجميلة إلى أن تظهر جمالها بجانب الوصيفة القبيحة .

على أن هذا الاختيار لم يكن عبثاً ، ولم يكن اعتباطاً ، و إن كان مظهره كذلك ، فالإنسان إذا سئم الأرض طار إلى السماء ، و إذا مج اللذائذ مال إلى الزهد ، و إذا سئم من دنيا النـاس عاش فى عالم المثال — ثم إذا هو عجب من تفكير الناس هرع إلى البحث فى أسباب خطئهم ، و إذا لم تعجبه عقليتهم نشد المثل الأعلى للعقلية ، و إذا رآهم يُجَنّون فى التفكير والتصرف لذه أن يبحث فى

نوع جنونهم ، ونقطة الانحراف فى تفكيرهم .

***

مالى ولهذا ، فقد كاد ينسينى القصتين .

كان من كل كتاب قصة لفتت نظرى ، واستخرجت إعجابى .

كلا الكتابين قص قصته من وجهة نظره ، ومن زاوية نفسه ، ولعلهما ترميان إلى غرض واحد ، ونمط فى التربية واحد ، وإن اختلف العَرْض .

فأما القصة الصوفية فهى أن « بُلّاشاه » ، أحد أولياء « بنجاب » أرسله أبوه — وهو طفل — إلى الكتّاب ، فكتب له المعلم « ا » و « ب » ، وأمره أن يحفظهما ويكتبهما ، فوقف « بلاشاه » عند الألف ، لا يحسن تعلمها ولا كتابتها ، والأطفال الذين دخلوا معه الكتّاب ساروا شوطاً بعيداً ، فأتموا حروف الهجاء إلى « الياء » ، وانتقلوا إلى ما بعدها ، وصاحبنا واقف عند الألف لا يتعداها ؛ ومرت أسابيع على هذه الحال ، والموقف لم يتغير ، وأخيراً ضاق به المعلم ذرعا ، وأخذه وذهب به إلى أبيه وقال : « إن ابنك ناقص العقل ، غير قابل للتعلم ، ولست بمستطيع تعليمه » .

فحاول أبوه أن يعالج هذا النقص ، وعرضه على معلمين آخرين ليتحرك من الألف إلى الباء فما أمكن ، وحز هذا فى نفس الطفل ، وأحس أنه حمل ثقيل على والديه ، وأنهما يئسا من نجاحه ، ففر إلى غابة وأقام فيها وذهنه مشغول بتظاهر الألف ونكبته بها ؛ فأدرك أن الألف تظهر له فى الحشيشة النابتة فى الغابة ، فى جذع الشجرة ، فى كل فرع من فروعها ، فى كل ورقة من أوراقها ، فى الجدول الذى يشق الأرض ، فى جسمه منتصباً ، فى الجبل الضخم يشرف على الوادى ، فى جسم الحيوان ممدوداً ، فى كل شىء ، فليس إلا الألف ، والعالم كله وحدة ، هو ألِف أو جملة ألفات ، هو متشابه التركيب ، أو هو واحد التركيب . أليست

الألف فى أصلها نقطة ثم بنيت عليها نقط فكانت الألف ؟ فالعالم كله نقط تكونت منها ألفات ، وهو إذا كتبها فانه عند ما يلمس القلم الورقة ترسم نقطة ، ثم بامتداد القلم يكرر النقطة فتكون ألفاً ، ثم تتعدد الأشكال ، وتختلف الأوضاع والأصل واحد ، والجوهر واحد ، وقد يطغى الشكل على الأصل فلا تلتفت إليه النفس البلهاء ؛ ولكن إذا دقق نظره وطهر فكره عرف وحدة الأصل ووحدة الخالق ؛ ثم هذا العالم مكون من ألفات ، والألف مجموعة نقط ، والنقطة صفر ، والصفر لا شىء . وليست الألفات إلا مظاهر تساوى أصفاراً ، وتخفى وراءها خالقها ، كما يختفى وراء الألف كاتبها ، فلا شىء إلا الخالق ولا شىء إلا الله .

فرح الطفل بفهم درس الألف ، وتذكر فضل المعلم عليه لأنه هو الذى علمه ولم يكن يفهم ، فطرده من الكتّاب لجهله ، فنزل من الغابة إلى المدينة ، وذهب إلى المعلم وقبّل يده ، وقال له : « لقد تعلمت درس الألف وفهمته ، فهل تتفضل وتعلمنى الدرس الذى يليه ؟ » . ضحك المعلم من سخافته ، وأراد أن يمتحنه فسأله أن يقرأ الألف ويكتبها ، فقرأها وكتبها ، وشرح للمعلم ما فهم منها ، فدهش المعلم وحار عقله مما سمع ، وقال للطفل : « يا بنى أولى بك أن تكون أنت معلمى ، وقد تعلمتَ من حرف الألف ما لم أتعلمه أنا من كل دروسى ، وقد استفدتَ من الألف ما لم يستفده كل أطفال الكتّاب ومعلميهم من الألف ولا من الباء ولا من كل الحروف متفرقة أو مجموعة » .

وأخذ « بلاشاه » يغنّى :

[ أيها المعلم ! جنّبْنى علمك فلست فى حاجة إلا إلى الألف . لقد أثقلتَ عقلك بعلمك ، وأثقلت بيتك بكتبك ، وضاعت المعرفة الحقة بين كثرة العلم وكثرة الكتب فجنبنى طريقتك .

أى معلمى قد يكون الفرق بين الحق والباطل شعرة ، وقد يخفى الحقُّ عن الأنظار نسيج مهلهل ، وربما كانت الألف مفتاح الكنز .

قالت لى روحى : إنى راغبة فى المعرفة الحقة فعلمنيها إن استطعت .

قلت : ألف .

قالت : ذاك يكفينى ، فالإنسان إذا تفتحت نفسه ، وصدق نظره كفاه حرف واحد ] .

* * *

هذه هى القصة الصوفية ، وأما القصة المنطقية فهى أن شابا قص على سيدة برنامجه فى يومه ، فقال :

« إنى إذا استيقظت صباحاً أذاكر « أجرومية » اللغة البرتغالية فى أثناء حلق ذقنى ، ثم أقرأ ساعة فى اللغة الأسبانية قبل إفطارى ، فإذا أفطرت ترددت بين القراءة والكتابة إلى الغَداء » .

واستمر يقص عليها كيف يقضى نهاره وجزءاً من ليله بين قراءة وكتابة وأكل وحديث وألعاب رياضية إلى أن ينام ، وهكذا دواليك .

أنصتت السيدة إلى حديث الشاب حتى أتمه ، وصمتت برهة ثم قالت :

« هذا كله حسن يا صديق ، ولكن قل لى : متى تفكر ؟

وكان صمت ، وكانت حيرة فى الجواب !

* * *

كلتا القصتين ترمى إلى غرض واحد ، وهو التقليل من قيمة القراءة الكثيرة من غير تفكير ، ورفع قيمة التفكير ولو فى الدرس القليل .

ما أكثر ما نقرأ ، وما أقل ما نفكر ! وقد رأينا أن التفكير فى الألف أنتج أكثر ألف مرة مما ينتج من حفظ حروف الهجاء كلها ومركباتها من غير تفكير .

لقد حدثونا عن « ديمقريطس » الفيلسوف اليونانى أنه قلع عينيه لئلا يشغله النظر عن التفكير ، والقراءة عن التأمل . وحدثونا حديثاً أخف فظاعة من هذا عن « فيثاغورس » أنه كان يقضى ليله فى التفكير العميق فى أحداث يومه . ولسنا نتطلب هـذا ولا ذاك ، ولـكنا نتطلب تفكيراً يعادل القراءة ، وتأملا يوازن النظر .

القراءة جمع أزهار ، والتفـكير تأليف طاقة .

القراءة جمع خرزات ، والتفـكير نظمها فى عقد .

بل القراءة جمع أزهار وحشائش ، وضم حجر كريم إلى حجر غير كريم . والتفكير اختيار الصالح واختيار المناسب ، واستبعاد الفاسد واستبعاد غير المناسب .

القراء ضم عقيم إلى عقيم ، والتفـكير قدرة على الاستيلاد حتى من العقيم .

قراءة الـكتاب وحفظه زيادة نسخة مطبوعة منه ، والتفكير نفخ الروح فى الصورة ، ورد الحياة إلى الميت .

كثرة القارئين فى الأمة زيادة مكتبة جامعة فيها ، وعقل مفكر واحد باعث الروح ، ونور الظلام ، وحافز الهمم ، وهادى الطريق .

كما أن فى الـكُتاب كاتباً مقلداً وكاتباً خالقاً ، كاتباً ناقلا وكاتباً مبتكراً ، كذلك فى القراء قارئ ناقل وقارئ ناقد ، قارئ مستقبِل لاقط ، وقارئ مبتكر خالق .

القارئ الخالق هو الذى يقرأ الصفحة أو الجملة فيولدها ، ويشعر أنه تفتحت له منها آفاق للتفكير كأنه يطل منها على العالم ، يدرك وجوه الشبه بين الأفـكار ووجوه الخلاف ، يدرك وجوه الفروق الدقيقة بين ما يظنه النـاس متشابهاً ، ووجوه الشبه الدقيقة فيما يظنه الناس متخالفاً .

القارئ الصادق يأبى أن يجعل عقله مستودعا للأشياء المتناقضة ، ثم يتركها كما هي متناقضة ؛ إنما يعمل فكره ليكوّن مما في عقله وحدة متجانسة ، بعد أن يطرد منه مالا ينسجم مع هذه الوحدة ، يصفف أفكاره في نظام كما يصفف التاجر اللبق سلعته ، ويستبعد منها الزيف كما يستبعده التاجر الأمين .

القارئ الناقد هو الذى إذا قرأ فهم ، فإذا فهم قوّم ، فإذا قوّم احتفظ بالصحيح واستبعد الزائف ، فإذا احتفظ بالصحيح فكر في العلاقة بينه وبين ما سبق له ادّخاره في ذهنه ، ثم كوّن من ذلك كله وحدة متجانسة ينظر من خلالها إلى العالَم ، ويصدر بها حكمه على الأشياء .

***

ما أشقه من عمل ! ولذلك لم يستطعه في كل أمة إلا الأبطال .

أدرك هذا « بُلّاشاه » ، وأدرك تبعة المعلومات يحصّلها ، وعظم الواجبات للفكرة تحل في عقله ، فلم يرض أن يحمل عبئاً غير عبء الألف .

وأدركت هذا السيدة فارتاعت من كثرة ما يلتهم صديقها من غير هضم ، وأرشدته في لطف إلى أن خير ما أكل ما هضم .

ألست معى في أن القصتين طريفتان ؟

# الربيع

لعن الله السياسة وألاعيبها ، فقد أفسدت علينا كل شيء ، حتى الطبيعة وجمالها . كنا ننتظر القمر ننعم بجماله ، وتمرح نفوسنا فى ضيائه ، فإذا الغارات تنتهزه كما كنا ننتهزه ، وترقبه كما كنا نرقبه ، فاقترنت هالته بالقتل والدمار ، وتلوّن بياضه بحمرة الدماء ، وأصبح ضياؤه وخير منه الظلام ، و بياضه وخير منه السواد ، وفقد شعريته وفضيته وجماله وبهاءه ، إلى حين .

وعَدَتْ أيضاً على الربيع الذى لم يمسس جماله أحد ، ولم ينتقص جلاله أحد ؛ فأخرجت لنا « لعبة » شيطانية سمتها « هجوم الربيع » أفقدته جماله وجلاله ، وأحلت بها الخوف محل الأمن ، وكراهة الاستقبال مكان بهجة الاحتفال .

ومع هذا فسنتناسى ألاعيبها و إفسادها ، ولنخلص للربيع نستقبله ونحييه ، فألاعيب السياسة موجات لا تعلو حتى تفنى ، ولا تُخلَق حتى تنعدم . ولا تكون حتى تفسد ؛ والزمان باق ، والقمر باق ، والربيع باق ، وقلوب الناس لاستقبال الجمال والاحتفاء به باقية .

***

هذا أنت — أيها الربيع — أقبلتَ فأقبلتْ معك الحياة بجميع صنوفها وألوانها ؛ فالنبات يَنبت ، والأشجار تورق وتزهر ، والهرة تموء ، والقُمْرى يسجَع ، والحمام يهدر ، والغنم تثغو ، والبقر يخور ، وكل أليف يدعو أليفه ، و « يا حسنها حين تدعوه فينتسب » ؛ حتى الأغصان فى الأشجار تغار فتتمايل وتتعانق ، ولا تهدأ حتى تُمثّل دور الأحباب . فكل شيء — بك — يشعر بالحياة ، ويمتلىء بالحياة ، ويستولد الحياة ، ويستجمل الحياة ، وينسى هموم

الحياة ، ولا يذكر إلا سعادة الحياة ؛ فان كان الزمان جسداً فأنت روحه ، وإن كان مظهراً فأنت سره ، وإن كان عمراً فأنت شبابه .

***

هذا أنت تغارِ على النهار المضيء ، وقد اعتدى عليه الليل وظلمته ، فسلبه قطعة منه ، صبغها بأديمه ، وأمده الشتاء القاسي فأعانه على ظلمه ، حتى اعتدَلْتَ في منصبك ، واستويتَ على عرشك ، فرددتَ ظلامته في رفق وأناة ، بالثانية والدقيقة ، حتى اعتدل الليل والنهار ؛ ثم أبيتَ إلاّ أن يَظْلِم النهارُ كما ظلم الليل ، فالجروح قصاص ، فكنتَ في ظلمك عادلاً ، وفي محاباتك منصفاً ، وكان لكَ المجد إذ وقفتَ بجانب النور والبياض ، على حين وقفَ غيرك بجانب الظُّلمة والسواد .

***

وهذا أنت — بسحرك العجيب — استطعت أن تجعل من الشمس حائكا وشاء نساجا ، يحوك أجمل الروض ويوشِّيه ، ويبدع في النقش والألوان والتصوير ، فاذا الدنيا كلها جمال ألوان وجمال تصوير ، يقلده أكبر فنان فيفشل ، ويحاكيه أكبر مصور فيعجز ، فأين المادة من الروح ؟ وأين التقليد من الإبداع ؟ لقد حولت فعل الشمس في السماء إلى الأرض فجَمَّلْتَ الثرى بنجوم الثريا ، ونسقتْ فيه ألوانا تزري بقوس قزح ، وألفت من أزهاره أشكالا وألوانا وهندسة أين منها نهر المجرة ، حتى خِلتُ أن أهل السماء يرحلون منها ليروا ما أبدعت الشمس في الأرض .

أبدى لنا فصلُ الربيع منظراً   بمثله تُفْتَن ألباب البشر
وشْياً ولكن حاكه صانعه   لا لابتذال اللابس لكن للنظر
عَاينَهُ طَرْف السماء فانثنَتْ   عشقاً له تبكي بأجفان المطر
فالأرض في زِيّ عروس فوقها   من أدمعِ القطر نِثارٌ من دُرَر

جعلت الدنيا ملء العيون بما أبدعت من ألوان ، وما مايلت من أغصان ، وما حكت من وشي ، وما صنعت من جمال ؛ فأبيض ناصع في أخضر ناضر ، وتعاريج سوداء في زهرة صفراء أو بيضاء ، وأشكال مهندسة تستخرج العجب وتأخذ باللب .

من زهرةٍ جميلةِ المنظور ضاحكةٍ كالوافد المحبور
باكيةٍ كالعاشق المهجور شذّرها الغيثُ بلا شذور
شقائقٌ كناظر المخمور وأقحوانٌ كثغورِ الحور
ونرجس كأنجم الديجور والطلُّ منثورٌ على المنثور
يرصّع الياقوتَ بالبلّور

تذكرنا قدود الأشجار بقدود الحسان ، وحمرة الورد بحمرة الخد ، وبياض الزهر ببياض الثغر ، وتعانق الأغصان بتعانق الخلان ! فأنت تعرض الجمال وتوحى بمعاني الجمال .

أرتكَ يدُ الغيث آثارَها وأعلنت الأرض أسرارها
فما تقع العينُ إلا على رياضٍ تُصنّف أنوارها
يفتّح فيها نسيمُ الصَّبا خباها ويَهتك أستارها
ويدنى إلى بعضها بعضها كضم الأحبة زُوّارها
كأنّ تفتّحها بالضحى عذارى تحلّل أزرارها
تغض لنرجسها أعينا وطورا تحدّق أبصارها
إذا مُزْنةٌ سكبت ماءها على بقعة أشعلت نارها

وعلى الجملة فقد كانت الدنيا — كما قال أبو تمام — بغيره معاشا ، فأصبحت به منظراً .

* * *

وكما جعلتَ الدنيا ملء العين جعلتها ملء السمع ، فرأت الأطيار ما وشَّيْته فى أرضك ، فحرك أشجانها ، وأطلق أصواتها ، وجعلتَ منها موسيقى مختلفة النغمات ، متعددة الأصوات . هذا البلبل يغنى ضاحكا ، وهذا الحمام يغنى باكيا .

كانت عَجْماء فأفصحَتْ فى أيامك ، وكانت خرساء فأنطقها جمالك ، وكانت بكماء فراعها منظرك ؛ فوقفَتْ على السَّرْو والدَّوح من خطبائك ، فلما غنت حركت أشجان الانسان ، وأوحت إليه بالمعانى الحسان ؛ فأفاض الشعراء فى وصفها ، وبكوا لبكائها ، وتغنوا من غنائها .

***

ثم هذا أنت ملأت الجو عطراً بأزهارك الطيبة ، وثمارك العطرة ، فأنعشت النفوس ، وبعثت الأمل . فلما خاف الناس من غيبتك ، وانقطاع شذاك ، أمعنوا الفكر فى الاحتفاظ برائحتك ، فاستخرجوا الروائح من أزهارك ، وتحايلوا للانتفاع بها فى غيابك ، فاخترعوا الغوالى والندود ، وعُنوا بالاستقطار والتصعيد ، يتعطرون بها ذكرى لعطرك ، ويتفننون فيها تقليداً لعبيرك .

***

لقد اعتدلْت فى حرارتك فلم تغل فى بردك غلو الشتاء ، ولا فى حرك غلو الصيف ، فكنت جميلا فى جوك ، كما كنت جميلا فى كل شىء من آثارك .

***

ليت الزمان كان ربيعاً كله ، إذاً لتذوّق الناس الجمال كما ينبغى ، فكان كل ما يصدر عنهم جميلا لا قبح فيه ، خيراً لا شر فيه . فهل الرذيلة والشر إلا قبح كقبح الشتاء والصيف ؟ وهل الفضيلة والحق إلا جمال كجمال الربيع ؟

# المتنبي وسيف الدولة

— ١ —

كان لسيف الدولة ناحية فنية قوية ، لا تقل شأناً عن ناحيته السياسية والحربية ، فهو يحب الفن ويولع به ، ويتذوقه ويساهم فيه .

وقد وردت فى ذلك أخبار متفرقة تدل عليه .

فهو مولع بالتصوير ، رغم النزعة الشائعة إذ ذاك فى كراهيته ، فيروى صاحب اليتيمة أن سيف الدولة أمر بضرب دنانير للصِّلات فى كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته ، فأمر يوماً لأبى الفرج الببّغاء بعشرة منها ، فقال :

نحن بجود الأمير فى حَرَمِ ... نرتعُ بين السُّعود والنِّعَمِ

أبدعُ من هــذه الدَّنانيرِ لَمْ ... يجْرِ قديماً فى خاطرِ الـكَرَمِ

فقد غَــدَتْ باسمِهِ وصُورَتِه ... فى دهرِنا عُوذَةً من العَدَمِ

ولعله استوحى ذلك من صورة دنانير الروم .

وأدل على ذلك ما ذكره المتنبى فى صفة خَيْمة لسيف الدولة ، تدلنا على ذوقه وحبه للفن حقا ، فقد ذكر المتنبى أن هــذه الخيمة أو القبة التى كانت تضرب على سيف الدولة ، كانت قطعة فنية رائعة .

ففيها صورة روضة بديعة لم يحُـكْها السحاب وإنما حاكها النَّسَّاج ، وأغصان الأشجار ترفرف عليها طيور لا تنقص عن الطيور الطبيعية إلاّ بالغناء .

وفيها صُوَر وحوش يحارب كل جنس عدوه ، ولـكنها سُلبت الروح فتسالمت .

وإذا ضربتها الريحُ ماج بعضها فى بعض فكأن صُوَرَ الخيل تجول ، وكأن صُوَرَ الأسود تَخْتِلُ صُوَرَ الظباء لتصيدها وتدركها .

وفى ناحية من الخيمة صورة ملك الروم ، وصورة سيف الدولة ، وملك الروم يسجد لسيف الدولة ، ويخضع له ويتذلل ، ويُقبّل بساطه ، إذْ لا يقدر على تقبيل كمه ويده لارتفاع مكانه .

وبين يدى سيف الدولة الملوك متكئين على مقابض سيوفهم من هيبته .

وفى حواشى الخيمة لآلئ من النسيج تكاد لا تختلف عن اللآلئ الحقة إلا أنها لم تنظم ولم تثقب . ففى ذلك يقول المتنبى :

عليها رياضٌ لم تَحُكْها سَحابةٌ ... وأغصانُ دَوْحٍ لم تُغَنِّ حمائمُهْ
وفوق حواشِى كل ثوبٍ موجَّهٍ ... من الدُّرِّ سِمْطٌ لم يُثَقِّبْهُ ناظِمُهْ
تَرى حيوان البرِّ مُصْطَلِحاً بها ... يحارب ضدٌّ ضِدَّهُ ويُسالِمُهْ
إذا ضرَبَتْهُ الريحُ ماجَ كأنَّهُ ... تَجُولُ مَذاكيه وتَدْأَى ضَراغِمُهْ
وفى صورةِ الرُّومىِّ ذِى التاج ذِلَّةٌ ... لِأَبْلَجَ لا تيجانَ إلاَّ عَمائِمُهْ
تُقبِّلُ أفواهُ الملوكِ بِساطَهُ ... ويَكْبُرُ عنها كُمُّهُ وبَراجِمُهْ
قياماً لمن يَشفى من الداء كَيُّه ... ومن بَيْنِ أُذْنَىْ كلِّ قَرْمٍ مَواسِمُهْ
قَبائعُها تحتَ المَرافِقِ هَيْبَةً ... وأنفذُ مِمَّا فى الجُفُونِ عَزائِمُهْ

وهى صُورة بديعة ، تشهد بحب سيف الدولة للتصوير والفن .

ثم أولع بالموسيقى ، فكان فى قصوره الجوارى المغنيات ، ويروون أن الفارابى لما زاره عرض عليه سيف الدولة قيانه فأسمعنه ، فأسمعه الفارابى من قانونه خيراً مما سمع .

وأنمى من هذا وأظهر ناحية سيف الدولة الأدبية ، ولم يذكر المؤرخون لنا

كيف ثقف وكيف عُلِّم ، إلا أنهم ذكروا أنه كان من شيوخه أبو ذر الشاعر وابن خالويه اللغوى النحوى ، وأنه درس دواوين الشعر القديم ، وكانت تغذى عواطفه العربية ، من تمدح بالشجاعة والكرم ، كما كان يعرف أيام قبيلته (تغلب) ومفاخرها .

وتدل الدلائل كلها على دقة حسه الأدبى وذوقه الفنى . يقول فيه المتنبى :

عليمٌ بأسرار الديانات واللُّغَى      له خطراتٌ تفضحُ الناس والكُتُبا

فهل نستدل بهذا على أنه كان يعرف غير اللغة العربية أيضاً ؟ أظن ذلك ؛ فابن خلكان يروى فى ترجمة الفارابى أنه كان لسيف الدولة مماليك ، وله معهم لسان خاص يحدثهم به .

ومن مظاهر حبه للأدب وسعة اطلاعه وحسن ذوقه أنه كان كثيراً ما يتمثل بأبيات قديمة ، وتعجبه أبيات يرددها ، أو قافية يستملحها ، أو معنى يستجيده ؛ فيطلب من الشعراء أن يجيزوها أو يقولوا على قافيتها . فمرة — مثلا — ورد على خاطره بيتان للعباس بن الأحنف :

أمِنِّى تخاف انتشار الحديث      وحظِّىَ فى سَتْره أوفر
ولو لم أصُنه لِبُقْيَا عليـ      ـك نظرتُ لنفسى كما تنظر

واستحسن المعنى ، فأرسل رسولا مستعجلا لأبى الطيب ومعه رقعة فيها البيتان يسأله إجازتهما ، فقال المتنبى أبياته المشهورة :

رضاكَ رِضاى الذى أوثِرُ      وسِرُّكَ سِرِّى فما أُظْهِر الخ

وديوان المتنبى وغيره من الشعراء مملوء بهذه الأمثال .

ثم مجلسه الأدبى الحافل فى حلب ، والذى قلّ أن يكون له نظير ؛ فالشعراء والأدباء فى مجلسه يثيرون الموضوعات المتنوعة ، ويساهم فيها سيف الدولة ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، ويجزل العطاء لمن أجاد ؛ فأحياناً يستذكرون الشعر

القديم ، وأحياناً يسألهم إجازة شعر ، وأحياناً مسألة نحوية ، وأخرى مسألة لغوية ، حسبما اتفق ؛ فمثلا مرة ينشئ سيف الدولة هذا البيت :

لَكَ جِسْمِى تُعِلُّه فدَمِى لِمْ تُحِلُّهُ

ويطلب من أبى فراس أن يجيزه ، فيقول :

أنا إن كنت مالكا فَلِىَ الأمر كله

ومرة يسأل المتنبى أن يعيد إنشاد قصيدته :

على قدرِ أهل العزم تأتى العَزَائم وتأتى على قَدْرِ الكرام المَكَارم

وكان سيف الدولة يحب هذه القصيدة ويستعيدها ، فلما وصل إلى قوله :

وقَفْتَ وما فى الموت شكٌّ لواقف كأنك فى جَفْنِ الرَّدَى وهو نائم

تمر بك الأبطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وضَّاحٌ وثغرك باسم

قال سيف الدولة : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، لأن الشطرين لا يلتئمان ، وكان خيراً أن تخالف بينهما فتقول :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك فى جفن الردى وهو نائم

وهو نقد دقيق ، وإن كان المتنبى قد رد عليه فقال : « إن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك »

وسأل سيف الدولة مرة مَن فى مجلسه : هل تعلمون اسما ممدوداً وجمعه مقصور ؟ فلم يحيروا جواباً إلا ابن خالويه فقال عذراء وعذارى ، وصحراء وصحارى . وهكذا كان مجلسه حافلا بالأدب والنقد .

وهو مع ذلك شاعر غير أنه مقل ، فقد رويت له فى كتب الأدب أشعار ، وإن كان كثير منها قد نسب لغيره فى بعض دواوين الشعراء . فلعله كان يتغنى بها فيظن بعض الناس أنها له ، ولكن بعضها يكاد يجمع الرواة على أنه

لسيف الدولة ، كقوله فى جارية رومية له كان يهواها ويخشى عليها من حظاياه ، فأودعها قلعة وقال :

راقبتنى العيون فيك فأشفقـ ... ـت ولم أخلُ قط من إشفاق
ورأيت العـذول يحسدنى فيـ ... ـك مُجِدًّا يا أنفس الأعلاق
فتمنيت أن تكونى بعيداً ... والذى بيننا من الود باق
رب هجرٍ يكونُ من خوف هجر ... وفراقٍ يكون خوف فراق

وقال :

تجنى علىّ الذنبَ والذنبُ ذنبُه ... وعاتبنى ظلماً وفى شقه العتب
وأعرض لمـا صار قلبى بكفه ... فهلا جفانى حين كان لىَ القلب
إذا برِمَ المولى بخدمة عبده ... تجنَّى له ذنباً وإن لم يكن ذنب

سيف الدولة هذا الفنان الناقد الشاعر الملك ، هو الذى اتصل به المتنبى .

كان المتنبى بعد خروجه من سجنه لدعواه النبوة ، أو لما قيل من دعواه النبوة بائساً فقيراً ناقماً على الزمان وأهله ، يشعر بعظمته وعلو نفسه ؛ ثم لا يجد لهذه العظمة منفذاً ؛ فهو يتردد على من يسميهم الناس عظماء ، فيمدحهم فلا يجد عندهم تقديراً لنفسه ولا لشاعريته ، حتى رووا أنه مدح على بن منصور الحاجب بقصيدته التى مطلعها :

بأبى الشُّموسُ الجانحاتُ غوَاربا ... اللابساتُ مِنَ الحريرِ جَلابِبَا

فأعطاه عليها ديناراً واحداً فسميت القصيدة الدينارية .

وقالوا إن أكثر ما نال على شعره قبل اتصاله بسيف الدولة كان مائة دينار ، منحها له الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طُغْج بالرملة .

فكان اتصاله بسيف الدولة صفحة جديدة فى أدبه ، وصفحة جديدة فى رخاء عيشه .

كان أبو الطيب يتنقل فى ربوع الشام مادحاً من يخاله كريماً محسناً ، حتى نزل على أبى العشائر ، عم سيف الدولة ، وعامل أنطاكيــة ، ومدحه بقصائد كثيرة ، يقول فيها :

شاعرُ المجدِ خِدْنُهُ شاعر اللفْـ ـظِ كلانا رَبُّ المَعانى الدّقاقِ
لم تزلْ تسمعُ المديحَ ولـكـ ـنَّ صهيلَ الجيادِ غيرُ النهاقِ

وسار مع أبى العشائر سيرة مصغرة للسيرة التى سارها بعد مع سيف الدولة .

ففى شهر جمادى الآخرة من سنة ٣٣٧ هـ زار سيف الدولة أنطاكية ، وكان بها أبو الطيب . وكان قد سمع سيف الدولة به وبشعره ، ورأى أن يزين به بلاطه ، فقدمه إليه أبو العشائر ، وعرض عليه أن يكون شاعره .

كان غير أبى الطيب من الشعراء لو عرض عليه مثل هـذا العرض يطير فرحاً ، ويرى أن ذلك أمنيــة الأمانى وسعادة الدهر . ولــكن أبا الطيب تردد طويلا ، وأداه تردده أن يشترط . لم يشترط مالاً يعطاه ، ولا جائزة ينالها ، وهو لهذا ضامن . ولـكنه اشترط ألا يعامَل معاملة سائر الشعراء ، لأنه ليس شاعراً فحسب ، بل شاعراً وعظيما . وقد سمع أن الشعراء يذلون لسيف الدولة ذلة لا يرضاها لنفسه ؛ سمع أنهم يقبّلون الأرض بين يديه ، وأنهم ينشدون شعرهم وهم وقوف أمامه ؛ فاشترط ألا يكون شىء من ذلك ، إنما يكون « ملك الشعراء يمدح ملك الناس » ؛ فإذا كان سيف الدولة راكباً مدحه المتنبى وهو راكب ، وإذا كان جالســاً مدحه وهو جالس ، ثم لا يظهر بمظهر الخضوع من تقبيل الأرض ونحوه .

وعرف سيف الدولة منزلته وشهرته ، وأنه سيكون صوتاً مدوياً فى العــالم العربى يشيد بذكره فقبل شروطه .

لبث المتنبى مع سيف الدولة نحو عشر سنين من سنة ٣٣٧ إلى ســنة ٣٤٦

أغلبها فى حلب ، وقال فيها نحو ثلث شعره كماً ، وأجود شعره كيفاً .

لم يَجُدْ شعر المتنبى فى زمنٍ جودتَه أيام سيف الدولة لأسباب : أهمها أن المتنبى لم يجد ما يغذى نفسه وعواطفه فى نواحيها المختلفة كما وجدها فى هذه الأيام ، فالمتنبى عربى يعتز كل الاعتزاز بعربيته ؛ فكان يحتقر كافوراً لأعجميته ، ويسب ابن خالويه لأعجميته ، ويقول فى أبياته :

تُهابُ سُيُوفُ الهند وهى حدائدٌ ... فكيف إذا كانت نِزَارية عُرْبا

وجرى ذكر ما بين العرب والأكراد من الفضل ، فسأل سيف الدولة المتنبى ما تقول ؟ فقال :

إن كنتَ عن خير الأنام سائلا ... فخيرُهُمْ أكثرُهُمْ فضائلا

من كنتَ منهم يا هُمَامُ وائلا ... الطاعنين فى الوغى أوائلا

والعاذلين فى الندى العواذلا ... قد فضُلوا بفضلك القبائلا

فكان — لهذا — إذا مدح كافوراً وغيره لم يُخْلص ولم يواته طبعه ، وإذا مدح سيف الدولة مدح عربيا لا يرى غضاضة فى مدحه ، وانثالت عليه المعانى العربية انثيالا .

وكان المتنبى وسيف الدولة لِدَيْن، شاء الله أن يولدا فى سنة واحدة سنة ٣٠٣ ، واصطحبا وسنهما أعز أيام الشباب ، فقضيا معا من سن ٣٤ إلى ٤٤ ، والعواطف تمازج وتتحاب ؛ إذا تقاربت فى السن واتفقت فى الشباب .

وسيف الدولة فارس والمتنبى فارس ، كلاهما يعشق الخيل والضرب والطعان ، فان خرج سيف الدولة فارساً خرج المتنبى فارساً ، وقد صحبه فى عدة غزوات إلى بلاد الروم ، ومنها غزوة قالوا إنه لم ينج منها إلا سيف الدولة وستة نفر من صحبه أحدهم المتنبى ، فاذا شعر المتنبى فى الغزوات والقتال والشجاعة والحرب فانما

يستمد ذلك من نفسه . ومن شعوره ، لا من ألفاظ حشاها فى رأسه ينظمها ولا تتصل بقلبه .

ثم ما أغدق عليه سيف الدولة من مال لم يحلُمْ به ولم تره عينه من قبل ؛ وكان المتنبي محبا للمال حبا لا يتناسب وطلبه للمجد وعلو همته ، وقد علله هو بأن ذلك يرجع إلى أيام صباه يوم كان لا يجد قوت يومه ، فعلَّمه ذلك قيمة المال والشهوة إليه والحرص عليه ، ويعبر عما فى نفسه من ذلك فيقول :

فلا يَنْحَللْ فى المجدِ مالُكَ كلُّهُ      فينحَلَّ مجدٌ كانَ بالمالِ عَقْدُهُ
ودبِّرْهُ تدبيرَ الذى المجدُ كَفُّهُ      إذا حاربَ الأعْداءَ والمالُ زَنْدُهُ
فلا مجدَ فى الدُّنْيا لمن قلَّ مالُهُ      وَلا مالَ فى الدُّنْيا لمن قلَّ مجْدُهُ

فغذاه سيف الدولة من هذه الناحيــة حتى أتخمه ، وكان فى سيف الدولة الأريحية العربية والكرم العربى فتقابلت هذه الصفة مع شَرَه المتنبى وطمعه ؛ فكان يعطيه فى كل سنة نحو ثلاثة آلاف دينار ، غير الهدايا من أفراس وجوار وسيوف ، وأقطعه مرة إقطاعا بناحية معرة النعمان كان يخرج إليها المتنبى أحيانا ، فزاد العطاء فى فصاحة المتنبى وحمله على العمق فى استخراج المعانى ، واللَّهى تفتح اللَّها .

وفوق هذا وذاك فقد كان كل الوسط الذى حول المتنبى أيام سيف الدولة يتطلب منه الإجادة . فلقد كان حوله شعراء عديدون نابهون كأبى فراس والنامى والببغاء وابن نُباتة وغيرهم ، ونقاد ونحاة ولغويون ، والملك على رأسهم يشعر وينقد ويقدر ، ويأتى من أعمال الفروسية والبطولة ما ينطق العيى .

فكيف بعد ذلك كله لا يكون عصر المتنبى مع سيف الدولة خير عصوره وأحسنها إنتاجا . وقد سئل هو نفسه فى ذلك : لِمَ تراجَع شعره بعد مفارقة آل حمدان فقال : قد تجوزت فى قولى وأعفيت طبعى ، واغتنمت الراحة ، منذ

فارقت آل حَمْدان . وفيهم من يقول : ( تسائلنى من أنت وهى عليمة ) يعنى أبا فراس ، وفيهم من يقول :

وقدْ عَلمتْ بما لاقتْهُ منَّا قبائلُ يعرُبٍ وبنى نزارِ
لقِينَـاهمُ بأرمَاحٍ طوَالٍ نُبشِّرهُم بأعْمَارٍ قِصَـار

يعنى أبا زهير بن مُهْلهِل الحمْدانى .

وفيهم من يقول :

أأخا الفوارس لو رأيتَ مواقفى والخيل من تحت الفوارس تنْحط
لقرأت منهـا ماتخط يدُ الوغى والبِيضُ تَشكُلُ والأسنّةُ تَنْقُطُ

يعنى أبا العشائر . اهـ .

وهكذا اجتمعت كل هذه الأسباب على إحسان المتنبى فى هـذه الفترة كل الإحسان . وإن كان ذلك الخوف من الناقدين ، والعمق فى إعمال الفـكر ، أخرجه أحياناً إلى ما يسميه النقاد بالخيال الواهم ، ويعنون به الإبعاد فى الخيال إلى حد الوهم .

— ٢ —

اتصل المتنبى بسيف الدولة وأصبح شاعر بلاطه الأول ، فأخـذ يسجل أحداثه الحربية والمدنية تسجيلا أدبيا . فإن سجل المؤرخون الحقائق صرفة فالمتنبى يسجلها ممزوجة بعواطفه ومشاعره .

قد كانت هذه الفترة فترة غزوات متوالية من سيف الدولة للروم وللخارجين عليه من أقاربه وغيرهم ، فأخذ المتنبى يقول قصيدة لـكل موقعة ، فقد ظفر بحصن برزوَيه سنة ٣٣٧ فقال المتنبى قصيدته :

وَفاؤُكُما كالرَّبْعِ أشْجاهُ طاسِمُهْ بأنْ تُسْعِدَا والدَّمْعُ أشْفَاهُ سَاجِمُه

وحارب سيف الدولة القرامطة هذا العام ، واستنقذ منهم عمه أبا وائل ، فقال المتنبي قصيدته :

إلَامَ طَمَاعِيَـــةُ الْعَاذِلِ   وَلَا رَأْيَ فِى الْحُبِّ لِلْعَاقِلِ

وخرج هـذا العام أيضاً لنصرة أخيه ناصر الدولة على معز الدولة الديلمي ، فاضطر معز الدولة إلى الصلح ، فقال المتنبي قصيدته :

أَعْلَى الْمَمَالِكِ ما يُبْنَى عَلَى الأَسَلِ   والطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ كالقُبَلِ

واستعد لغزو الروم سنة ٣٣٩ وأعد جيشه ، فقال المتنبي قصيدته :

لِهذا الْيَوْمِ بَعْدَ غَدٍ أَرِيجُ   ونَارٌ فى الْعَدُوِّ لَهَا أَجِيجُ

فلما انهزم سيف الدولة فى هذه الوقعة قال قصيدته :

غَيْرِى بأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ   إن قاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

وقال . إن سبب الهزيمة ما لحق بسيف الدولة من الضعفاء والجبناء ، وإن كل غزوة بعد هذه الغزوة فلسيف الدولة النصرة . لأن جنوده قد نُقِّيت من الأنذال ، ولم يبق فيهم إلا الأبطال .

وبنى سيف الدولة مَرْعَش سنة ٣٤١ ، فقال المتنبي قصيدته :

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وإنْ زِدْتَنَا كَرْبَا   فإنَّكَ كُنْتَ الشَّمْسَ لِلشَّرْقِ والغَرْبَا

وجاء رسول ملك الروم إلى سيف الدولة يلتمس الفداء سنة ٣٤١ ، فقال المتنبي :

لِقِيتَ العفاةَ بآمَالِهَا   وزُرْتَ العُدَاةَ بآجَالِهَا

وبنى سيف الدولة ثغر الحَدَث سـنة ٣٤٣ ، فقال فيه المتنبي القصيدة المشهورة :

على قدرِ أَهْلِ العزم تأتى العَزَائمُ   وتأتى على قَدْرِ الكِرَام المَكَارِمُ

وهكذا كان كل عمل حربى يأتيه سيف الدولة يسجله المتنبي ويفلسفه

ويؤدبه ، ويخرجه قصيدة رائعة .

وكذلك كان يسجل أحداث سيف الدولة المدنية ، فتموت أم سيف الدولة فيرثيها بقوله .

نُعِدُّ الْمَشْرَفِيَّةَ والْعَوالِي وتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بلَا قِتَالِ

ويموت ابن سيف الدولة فيرثيه بقصيدة :

بنا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَابكَ فى الرَّمْلِ وهَذَا الذِى يُضْنِى كَذَاكَ الذِى يُبْلِى

ويموت غلام سيف الدولة « يَمَاك » فيرثيه بقصيدته :

لا يُحْزِنِ اللهُ الاميرَ فانَّنى لآخُذُ مِنْ حَالاَتِهِ بِنَصِيبِ

وتموت أخت سيف الدولة فيرثيها بقصيدته :

إنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِى الرَّزِيئَةِ فضلاً تَكُنِ الأَفْضَلَ الأعَزَّ الأَجَلَّا

ويمرض سيف الدولة فيقول المتنبى :

إذا اعْتَلَّ سَيْفُ الدَّوْلَةِ اعْتَلَّتِ الأَرْضُ ومَنْ فَوْقَهَا والبأْسُ والكَرَمُ الْمَحْضُ

ويخرج لسيف الدولة دُمّل فيقول المتنبى :

أَيَدْرِى مَا أَرَابَكَ مَنْ يُرِيبُ وهل تَرْقَى إلى الْفَلَكِ الْخُطُوبُ

ويشفى سيف الدولة فيقول المتنبى :

الْمَجْدُ عُوفِىَ إذْ عُوفِيتَ والكَرَمُ وَزَالَ عَنْكَ إلى أَعْدَائِكَ الأَلَمُ

ويأتى عيد الفطر فيهنئه ، وعيد الأضحى فيهنئه .

وبذلك أصبح شعر المتنبى فى هذه الفترة سجلا لكل أعمال سيف الدولة وأحداثه كبيرها وصغيرها ، سلمها وحربها ، أحزانها وأفراحها ، جدها وهزلها .

والمتتبع للديوان يرى أن شعر المتنبى فى وصف حروب سيف الدولة ، وشعره فى الحزن ؛ أرق من شعره فى المديح وشعر السرور . وسبب ذلك — على مايظهر — أن نوع الشعر الذى يشتد اتصاله بنفس المتنبى ، يجود ويغزر . وقد كان المتنبى

فارساً تعجبه الفروسية والبطولة ، فاذا قال فى ذلك يستخرجه من أعماق قلبه — وكانت نفسه حزينة لأنه لم ينل المجد الذى يصبو إليه ، فيحزن حزناً عميقاً على الميت ، وهو فى حقيقة الأمر يحزن على ليلاه . أما السرور وأما المديح فى غير البطولة فصياغته لا تلمس إلا السطح الظاهرى من قلبه .

وكما سجل المتنبى أحداث سيف الدولة ، سجل نفسه فى مشاعرها المختلفة ، وانقباضها وانبساطها ، وأمنها واضطرابها . وكان المتنبى حاد الذكاء ، حاد المزاج ، صريحاً ، لا يستطيع أن يخفى ما فى نفسه ، وقد توالت عليه أوقات شدة ورخاء ، وتتابعت عليه ساعات أمنٍ وساعات قلق . وكان مضطربا بين الرضا والغضب ، والبؤس والنعيم . ومما زاد الأمر صعوبة أن سيف الدولة من جنسه ، سريع الرضا ، سريع الغضب ، سمح إلى آخر حدود السماحة ، منتقم إلى آخر حدود الانتقام ، ينفعل أحياناً لقصيدة واحدة للمتنبى انفعالات متماكسة ، فيعجبه البيت فى مدحه فيطرب له أشد الطرب ، ويفخر المتنبى عليه بنفسه فيهيج أشد الهياج — وطبعان على نمط واحد بهذا الشكل لا يمكن أن يسودهما الصفاء التام ولا الجفاء التام ، فاذا ساد الصفاء فسرعان مايعتكر ، وإذا اعتكر فسرعان مايصفو . وهكذا كان حالهما دائماً ، فنرى سيف الدولة يعطى المتنبى الألوف فى لحظة ، ويرضى عن قتله فى لحظة ، ونرى المتنبى له عينان ، عين فى المجد وعين فى المال ، يأخذ المال فيرضى ، وينظر للمجد فيثور ، والمجد فى نظره أن يسود هو ، ولا يكون مَسُوداً لأحد ، حتى ولو كان سيف الدولة .

وبجانب ذلك كان بلاط سيف الدولة مسرحاً تمثل فيه دسائس كثيرة للمتنبى ؛ فقد كان فيه شعراء كثيرون ، كانوا شعراء سيف الدولة قبل المتنبى وأيامه ، وكانوا ذوى حُظوة كبرى عند سيف الدولة ، فكسفهم المتنبى ، وعلاهم بنفسه و بشعره ؛ فكان من الطبيعى أن يحقدوا عليه ويدسوا له ، وغير الشعراء

من الأدباء والعلماء كذلك ، يرون المتنبي يأخذ أكثر مما يأخذون ، وينال القرب من سيف الدولة أكثر مما ينالون ، فكيف لا يغضبون ؟

وربما كان من أشد هؤلاء عداوة له أبو العباس النامى الشاعر وأبو فراس وابن خالوَيْه النحوى اللغوى .

كان سيف الدولة يميل إلى النامى قبل المتنبي ، فلما جاء المتنبي مال عنه ، فغاظ ذلك النامى ، وخلا يوماً بسيف الدولة وعاتبه وقال له : لم تُفَضِّل عَلَيَّ ابن عَبْدَان السقا ؟ ( يعنى المتنبي ) فأمسك سيف الدولة عن الجواب . فلما ألح قال سيف الدولة : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعودُ من كل فَتْحٍ غيرَ مفتخر وقـد أَغَذَّ إليْه غيْرَ مُحْتَفِلِ

فنهض مغضباً ، واعتزم ألا يمدحه أبداً !

وأبو فراس يقول لسيف الدولة : «إن هذا المتشدق كثير الإدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتى دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره » .

ويأخذ دائماً المسالك على المتنبي ، فاذا قال بيتاً جميلاً قال أبو فراس إنك سرقته من قول بشار ، أو من قول دعبل .

ويتجادل المتنبي وابن خالويه فى مسألة لغوية ، فيغضب ابن خالويه ( وهو أستاذ سيف الدولة ) فيخرج من كمه مفتاحا حديداً ليلـكم به المتنبي .

وهكذا كان بلاط سيف الدولة حربا علنية وخفية على المتنبي . ولم يخلص للمتنبي من حول سيف الدولة من الشعراء إلا أبو الفرج الببغاء . فقـد كان المتنبي يأنس به ويبثه شكواه من سيف الدولة وممن حوله ، ويأتمنه على سره ؛ وقد ساعدت طباع أبى الطيب على نجاح هذه الدسائس ، فهو يتعاظم فيغضب الشعراء ، بل ويتعاظم فيغضب الأمير ، وهو دائم الإعلان عن نفسه والفخر

بها ؛ ويجفو سيفُ الدولة فيجفو المتنبى ، ويتكلم سيف الدولة فيجيبه التنبى ، وتأتى المناسبات ليقول الشعراء وينتظر سيف الدولة من المتنبى أن يقول فلا يقول ، والمتنبى حائر النفس بين المجد والمال ، يجفو مجدا ، فلا يمعن فى الجفاء مالا ، ويصد لأنفته ، ويخضع لطمعه ، وهى حال تُرْبِكُ النفس وتعقد الحياة .

هذا كله قد سجله المتنبى أيضاً فى شعره فى سيف الدولة ، فمن السنة الثانية لاتصاله بسيف الدولة يذكر الحسد ويذم الناس ويقول :

فأبلغْ حاسدِىَّ عليكَ أنّى كَبَا بَرْقٌ يُحاوِلُ بى لَحَاقا
وهل تُغنِى الرّسَائِلُ فى عَدُوٍّ إذا ما لم يكنَّ ظُبًى رِقاقا
إذا ما الناسُ جَرَّبَهمْ لبيبٌ فإنّى قد أكلْتُهمُ وذَاقا
فلم أرَ وُدَّهمْ إلا خداعاً ولم أرَ دِينَهمُ إلّا نفاقا

ويتمنى لو تعطِى الملوكُ على أقدار الناس ، فلم يكن ينال الخسيسُ شيئاً ،

ليتَ المُلُوكَ على الأقْدارِ مُعْطِيَةٌ فَلَمْ يَكُنْ لِدَنِىءٍ عِنْدَها طَمَعُ

ولعل أوضح ما يدل على هذه الحال قصيدته التى مطلعها :

واحرَّ قلباه ممن قلبه شَبِمُ ومن بجسمى وحالى عنده سَقَمُ

فهى تصور هياج نفسه أشد هياج ، فهو لا يعبأ بسيف الدولة إلا مداراة ، ولا يعبأ بمن حوله من الناس ومن الشعراء ، ويمدح سيف الدولة ليمدح نفسه ، ويعرض بأبى فراس وغيره من الشعراء :

يا أعدلَ الناس إلّا فى مُعامَلَتى فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحَكَمُ
أُعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً أن تَحْسبَ الشَّحمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمُ
وما انتفاعُ أخى الدُّنْيا بناظِرِهِ إذا استوتْ عنده الأنوارُ والظلَمُ

سَيَعْلمُ الجمعُ ممن ضم مجلسُنا ... بأنّنى خيْرُ مَنْ تَسْعى به قَدَمُ
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعتْ كلماتى مَنْ به صَمَمُ

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ما كان أخلقنا منكمْ بتكْرمةٍ ... لو أنَّ أمْرَكُمُ من أمرنا أَمَمُ

كم تطلبون لنا عَيْباً فيُعْجِزُ كُمْ ... ويَكْرَهُ اللهُ ما تأتُونَ والكرمُ
ما أبعدَ العيبَ والنقصان من شرفى ... أنا الثريا وذانِ الشَّيْبُ والهرَمُ

ثم يهدد بالرحيل :

إذا ترحّلْتَ عن قوْمٍ وقد قدَرُوا ... ألاَّ تُفارِقَهُمْ فالراحلون همُ
شر البلاد مكانٌ لا صديق به ... وشر ما يَكسبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

ثم يطعن الشعراء حوله فيقول :

بأى لفظ تقول الشعر زِعْنِفَةٌ ... تَجوزُ عندكَ لا عُرْبٌ ولا عجَمُ
هــذا عتَابُكَ إلّا أنه مِقَةٌ ... قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلا أنهُ كَلِمُ

قصيدة — من غير شك — من أقوى شعر المتنبى ، سكب فيها نفسه ، ولم يعبأ بمقام أحد ، وكانت كافية لأن يطرده سيف الدولة شر طردة ، ولكن — كما قد قلت قبل — إن سيف الدولة من جنس المتنبى ، فلئن كانت القصيدة أغضبته أشد الغضب فقد جاء فيها :

إن كان سرَّكمُ ما قال حاسدُنا ... فما لِجُرْحٍ إذا أرضاكمُ ألَمُ

وهذا أطرب سيف الدولة أيما طرب .

وانتهت المعركة بأن أعطى سيف الدولة المتنبى ألفاً وألفاً ، فقال المتنبى :

جاءت دنانيرك مختومة عاجلة ألفاً على ألف
أشبهها فعلك فى فيلق قلبته صفاً على صف

ولكن إن انتهت هذه الحادثة فلا بد أن يعقبها حوادث مثلها ما دام سيف الدولة والمتنبى على ما هما والبلاط على ما هو .

وظل المتنبى يتعاظم فى شعره ، ويعرّض بغيره من الشعراء ، ويقول لسيف الدولة :

إن هذا الشعْرَ فى الشعْرِ مَلَكْ سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدل الرحمن فيه بيننا فقضى باللفظ لى والحمد لك
فإذا صار بأذني حاسد صار ممن كان حيا فهلك

وشاء القدر أن يكون آخر شعر فى سيف الدولة من هذا القبيل وعلى هذه النغمة وهو :

لا تطلبنَّ كريماً بعد رؤيته إن الكرَامَ بأسْخاهم يَداً خُتِمُوا
ولا تبال بشعْر بعد شاعِرِه قد أُفسد القول حتى أُحمِدَ الصَّمَمُ

وظلت السعايات تعمل ، فابن خالويه وغيره يلح فى الإيقاع بالمتنبى ، والمتنبى يمعن فى تعاليه حتى فاض الإناء ، فملّ سيف الدوله كثرة القول فى المتنبى ، ومل المتنبى كثرة الغضب والعتاب ، فتلاقت رغبة المتنبى فى الخروج من حلب برغبة سيف الدولة فى الراحة مما ينظر ويسمع ، فرحل المتنبى إلى مصر ، وأُسدل الستار عن فصل من رواية المتنبى ، وإن كانت الرواية لم تتم فصولا .

وفى الحق أن الزمان أخطأ فوضع المتنبى فى غير موضعه ؛ أعطاه نفس ملك ولسان شاعر ، ووقفه بدف على أبواب الأمراء يمدحهم ، وهو إذ يمدحهم يرى

منزلته — حقا أو باطلا — فوق منزلتهم ؛ فكان شأنه شأن كثير من الناس لا تتلاءم نفسيتهم ومنصبهم ، نفس رئيس ومنصب مرءوس ، أو نفس حرب ونضال ومنصب ذلة وهوان ؛ وهذان العنصران إذا اجتمعا سببا شقاء صاحبهما ؛ لذلك كانت نفس المتنبي ثائرة دائما . ومن يدرى ؟ لعل ما مِنِحْنا من شعر جزل جميل كان نتيجة هذا العناء ، ولو تلاءم منصبه ونفسه لأخلد إلى الراحة ؛ فكم كان الشقاء والبؤس والفقر والاضطهاد والعذاب نعمة على الإنسانية بما أخرجت من شعور نبيل وفن جميل .

وبعدُ ، فمع هذا كله لم يجد المتنبي عوضا عن سيف الدولة فى علو شأنه وكرمه وعربيته وذوقه وفروسيته ؛ وخرج يَنْشُد الملك فى مصر وغير مصر فلم ينل ملكا ولم يجد ممدوحا ينطقه بالمعانى كما أنطقه سيف الدولة ، وعرّض فى أول أمره بمصر بسيف الدولة ، ولكنه أدرك الحقيقة المرة بعدُ ، فتاب وأناب وندم على ما كان ، وحن إلى سيف الدولة وحن سيف الدولة إليه ، فيقول من قصيدة فى غير ديوانه :

عثرتُ بسيرى نحو مصرٍ فلا لعاً ... بها ولعاً بالسَّيْرِ عنها ولا عَثْرَا
وفارقتُ خير الناس قاصد شرهم ... وأكرَمَهُمْ طُرًّا لألأمهم طرا
فعاقبنى المخصىّ بالغدر جازياً ... لأن رحيلى كان عن حلب غدرا
وما كنت إلا فائلَ الرأى لم أُعَنْ ... بحزم ولا استصحبتُ فى وجهتى حِجْرا

لقد كان المتنبي حين فارق سيف الدولة يعتقد أنه غدر به فيقول :

حَبَبْتُكَ قلبى قبلَ حُبِّكَ مَنْ نأى ... وقد كانَ غدَّارًا فكُنْ أنتَ وافيا

ولكن مرور الزمان ، وتكشف الحوادث وخيبة الأمل فى غيره جعلته يرى غير رأيه الأول ، وأن المتنبي لا سيف الدولة كان هو الغادر ، إذ يقول : « لأن رحيلى كان عن حلب غدرا » .

وحن سيف الدولة إلى المتنبي ، فبعث إليه ابنه من حلب إلى الكوفة ، بعد أن خرج من مصر ، وبعث إليه مع ابنه هدية ، فكتب إليه المتنبي قصيدته التي يقول فيها :

لَيس إلَّاكَ يَا عَلِيُّ هُمَامٌ    سَيفُهُ دُونَ عِرْضِه مَسْلُولُ

أَنْتَ طولَ الحيَاة للرُّوم غازٍ    فمتى الوَعْدُ أن يَكُونَ القُفُولُ

ما الذى عنده تدار المنايا    كالذى عنده تُدار الشَّمُولُ

مِنْ عَبِيدِى إنْ عِشْتَ لى أَلْفُ كافو    رٍ وَلِي مِنْ نَدَاكَ رِيفٌ ونِيلُ

ما أبالى إذا اتقتْكَ الليالى    مَنْ دَهَتْهُ حُبُولُها والْخُبُولُ

ثم بعث إليه سيف الدولة كتاباً بخطه يسأله المسير إليه فاعتذر بالوشايات ،

وما عاقنى غيرُ خَوف الوُشاة    وإنَّ الوشايات طُرْقُ الكَذب

كان ذلك فى سنة ٣٥٣ ، ولم تطل مدة المتنبي بعدُ ، فقد قتل فى السنة التى تليها ، وهى سنة ٣٥٤ ، كلاهما يحمل نفساً حبيبا إلى صاحبه .

# فلسفة القوة فى شعر المتنبى

يخطىء من يظن أن أبا الطيب عمد إلى ما أثر من الحِكَم عن أفلاطون وأرسطو وأبيقور وأمثالهم من فلاسفة اليونان فأخذها ونظمها ، ولم يكن له فى ذلك إلا أن حوّل النثر شعراً ، كما رأى ذلك من تتبعوا سرقات المتنبى وأفرطوا فى اتهامه ، فأخذوا يبحثون فى كل حكمة نطق بها ويردونها إلى قائلها من هؤلاء الفلاسفة . فلسنا نرى هذا الرأى ، فإن كان قد وصل إلى أبى الطيب قليل من حكم اليونان فإن أكثر حكمه منبعها نفسه وتجاربه وإلهامه ، لا الفلسفة اليونانية وحِكَمها ، ذلك لأن الحِكَم ليست وقفاً على الفلاسفة ولا على من تبحروا فى العلوم والمعارف ، إنما هى قدر مشاع بين الناس يستطيعها العامة كما يستطيعها الخاصة ، ونحن نرى فيما بيننا أن بعض العامة ومن لم يأخذوا بحظ من علم قد يستطيعون من ضرب الأمثال والنطق بالحكم الصائبة ما لا يستطيعه الفيلسوف والعالم المتبحر ، وهذا الذى بين أيدينا من أمثال إنما هو من نتاج عامة الشعب أكثر مما هو من نتاج الفلاسفة . وكلنا رأى بعض عجائز النساء ممن لم تقرأ فى كتاب أو تخط بيمينها حرفاً تنطق بالحكمة تلو الحكمة ، فيقف أمامها الفيلسوف حائراً دهشاً يعجز عن مثلها ويحار فى تفسيرها . ومرجع ذلك إلى ينبوعين وهما التجربة والإلهام ، فإذا اجتمعا فى امرئ تفجرت منه الحكمة ولو لم يتعلم ويتفلسف ، فكيف إذا اجتمعا لامرئ كأبى الطيب ملئ قلبه شعوراً وملئت حياته تجارب وكان أمير البيان وملك الفصاحة ؟ فنحن إذا التمسنا له مثالا فى حِكَمه فلسنا نجده فى أفلاطون وأرسطو وأبيقور ، وإنما نجده فى زهير بن أبى سُلْمى وقد نطق فى الجاهلية بالحكم الرائعة مما دلته عليه تجاربه وأوحى إليها إلهامه ، كما نجده فى شعر

أبى العتاهية وقد ملأ عالمه حكما وأمثالا خالدة على الدهر . وكل ما بين أبى الطيب وهؤلاء الحكماء من فروق يرجع إلى أشياء : المحيط الذى يحيط بكل شاعر ، وقدرة نفس الشاعر على تشرب محيطه ، والقدرة البيانية على أداء مشاعره . لقد ألم زهير من الحرب ورأى ويلاتها فشعر فيها ونطق بالحكم الرائعة يصف شرورها ومصائبها ، وفشل أبو العتاهية فى الحياة فزهد وملك الزهد عليه نفسه فملأ به ديوانه ، وكان لأبى الطيب موقف غير هذين فاختلفت حِكَمه عنهما وإن نبعت من منبعهما .

ودليلنا على ذلك أن أبا الطيب — فيما نعلم — لم يثقف ثقافة فلسفية إنما تثقف ثقافة عربية خالصة ، قرأ بعض دواوين الشعراء ولقى كثيراً من علماء الأدب واللغة كالزجّاج وابن السرّاج والأخفش وابن دريد ، وكل هؤلاء لا شأن لهم بالفلسفة ومناحيها .

وما لنا ولهذا كله ، فإننا لو رجعنا إلى حِكَمه لوجدناها منطبقة تمام الانطباق على محيطه ونفسه ليس فيها أثر من تقليد ولا شية من تصنع ، فهو ينظم ما يجول فى نفسه وما دلته عليه تجاربه لا ما نقل إليه من حِكَم غيره إلا فى القليل النادر .

ونحن إذا أردنا أن نجمل نفسه ومحيطه قلنا : إنه بدأ حياته حياة فتوة وفروسية ، تعرفه الخيل والليل والبيداء ، ويحب الحرب والنزال ، ويشتهى الطعن والقتال . قيل له وهو فى المكتب ما أحسن وفرتك ؟ فقال :

لا تحسُنُ الوَفْرَةُ حتى تُرَى ... منشورةَ الضَّفْرَيْن يوم القتال

على فتًى معتقِلٍ صَعْدَةً ... يَعُلُّها من كلِّ وافى السِّبال (١)

---

(١) الوفرة الشعر المجتمع على الرأس ، وكان من عادة العرب نشر ضفائرهم يوم الحرب تهويلا لها ، والصعدة الرمح القصير ، واعتقل الرمح حمله ، ويعلها يسقيها مرة بعد مرة ، والسبال الشوارب أو ما استرسل من مقدم اللحية .

كما نشأ طموحًا إلى أقصى حد فى الطموح ، يعتد بنفسه كل الاعتداد ، ولا يرى له فى الوجود ندًا ولا مثيلا . قال فى صباه :

أمِطْ عنك تَشْبيهى بما وكَأَنّه … فما أحدٌ فوقى ولا أحدٌ مثلى

يقول إن قومه من خير العرب بيتاً ومع هذا يجب أن يعتز قومه به لا أن يعتز هو بقومه و بيته :

لا بقومى شُرفتُ بل شُرفُوا بى … و بنفسى فَخَرْتُ لا بجدودى
وبهم فَخرُ كلِّ من نطق الضا … د وعَوْذُ الجانى وغَوْثُ الطريد

إلى جانب هذا الاعتزاز بالنفس استصغار للناس ونفوسهم وشؤونهم :

ودهرٌ ناسه ناس صِغار … وإن كانت لهم جثثٌ ضِخامُ
وما أنا منهمُ بالعيش فيهمْ … ولكنْ معدِنُ الذهب الرَّغامُ

امتلأت نفسه بهذه العقيدة حتى فى صباه ، فوضع لنفسه هذا المنطق الساذج البسيط : « إذا كنت خير الناس فلم لا أكون نبيهم أو على الأقل ملكهم » فبدأ ينفذ برنامجه فى سهولة ويسر ظانا — وهو فتى غرير — أن الدنيا تُحْكَمُ بمثل هذا المنطق البسيط . ولم يعلم بعد أن منطق الدنيا أعقد من منطقه . نعم إنه سيلاقى فى هذا شداداً وصعاباً ولكن لا بأس فهو مسلح بكل ما يحتاج إليه ذلك من سلاح :

أىَّ محلٍّ أرتقى ؟ … أىَّ عظيم أتقى ؟
وكلُّ ما خلق الله … وما لم يَخْلُقِ
محتقَرٌ فى همتى … كشَعْرةٍ فى مَفْرِقى

ولكن حوادث الدهر علمته شيئاً فشيئاً أن الزمان أكبر من همته ، وأنه لا يكفى أن يكون خير الناس فى زعمه ليكون نبى الناس أو ملك الناس . ومن أجل هذا تدرجت مطامحه وأخذت فى النقصان ؛ فقد بدأ يطلب النبوة ، فلما

فشل فيها بدأ يطلب الملك ، فلما فشل فيه بدأ يطلب ولاية أو إقليما فى مصر ففشل فى ذلك أيضا ، فأخذ يعتب على الزمان ويذمه ويلعنه .

بدأ النبوة فقال :

ما مُقامى بأرض نَخْلَةَ إلا كمُقام «المسيح» بين اليهود
أنا تِرْبُ الندَى ورب القوافى وسِمامُ العِدَى وغيظُ الحسود
أنا فى أمة تدارَكَها اللـه غريب «كصالح» فى ثمود

ثم صدمه الزمان بالأسر والحبس فعدل عن النبوة إلى طلب الملك ، فأخذ فى شعره يحقر ملوك زمانه ويقيسهم بنفسه فلا يرى لهم فضلا عليه ، وله عليهم كل الفضل . ويضع خطةً أن العرب يجب أن يحكمها العرب لا العجم فيقول :

وإنما الناس بالملوك وما تُفلح عُرْبٌ ملوكها عجم

ويقول :

سادات كل أناس من نفوسهمُ وسادة المسلمين الأعبدُ القزُمُ

إذن يجب أن يكون الملوك من العرب ، وإذن فليكن هو ملكا ، وقد طوّف بالبلاد يتلمس السبيل لتحقيق مأربه ونيل مطلبه ، ويقول فى ذلك تلميحاً لا تصريحاً :

يقولون لى ما أنتَ فى كل بلدة وما تبتغى ؟ ما أبتغى جَلّ أن يُسْمَى
إذا قلّ عزمى عن مدًى خوفُ بُعْدِه فأبعدُ شىء ممكنٌ لم يَجِدْ عزما
وإنى لمن قوم كأنَّ نفوسَهم بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللحم والعظما

وقد حَلَمَ أن سيكون له جيش كبير يقوده بنفسه فيجوب البلاد ويفتح الأمصار ويخلع الملوك ويستولى على عروشهم فيقول :

سيصحَبُ النَّصلُ منى مثلَ مَضرِبِهِ ... وينجلى خبرى من صِمَّة الصِّمَمِ (١)
لقد تصبرتُ حتى لات مصطبرٍ ... فالآن أقْحَمُ حتى لات مقتحَمِ
لأتركنَّ وجوهَ الخيل ساهمةً ... والحربُ أقومُ من ساق على قدم
والطعن يُحْرِقُها والزجر يُقْلِقُها ... حتى كأن بها ضرباً من اللَّمَمِ (٢)

---

رِدِى حياضَ الردى يا نَفْسِ واتركى ... حياضَ خوفِ الردى للشاء والنَّعَمِ
إن لم أذَرْكِ على الأرماح سائلةً ... فلا دُعِيتُ ابن أمِّ المجد والكرم
أيملك الملكَ — والأسياف ظامئة ... والطير جائعة — لحم على وَضَم ؟
من لو رآنىَ ماء مات من ظمأ ... ولو عُرِضْتُ له فى النوم لم ينم
ميعاد كلِّ رقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ غداً ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم (٣)
فإن أجابوا فما قَصْدِى بها لهُمُ ... وإن تولَّوْا فما أرضى لها بِهِمِ (٤)

ثم رأى أن الزمان لا يسعفه إلى ما طلب ولا يعينه على ما أمل ، فرحل إلى مصر وطلب من كافور أن ينيله ولاية فأغدق عليه ذهباً فقال :

وما رغبتى فى عَسْجَدٍ أستفيدُه ... ولكنَّها فى مَفْخَرٍ أستجِدُّه

وقال :

فارم بى ما أردتَ منى فإنى ... أسدُ القلب آدمىُّ الرُّواء
وفؤادِى من الملوك وإن كا ... نَ لسانى يُرَى من الشعراء

---

(١) صمة الصمم : أشجع الشجعان .
(٢) اللمم : الجنون .
(٣) رقيق الشفرتين : السيف حادّ الجانبين .
(٤) أى إن أجابوا دعوتى ونزلوا على حكمى فلست أقصدهم بسيوف ، وإنما أقصد من عصانى ، وإن أعرضوا عن طاعتى فلست أقنع بقتلهم وحدهم بل أقتل كل من رأى رأيهم .

ثم صرح بعد الكناية فقال :

إذا لم تَنُطْ بى ضيعةً أو ولايَةً  فجودُك يَكسونى وشُغلُكَ يَسْلُبُ

حتى ولا هذه استطاع أن ينالها ، وصدمته الحقيقة فاعترف بأنه « يود من الأيام ما لا توده » ، وقد كان فى صباه يقول :

ولو بَرَزَ الزمانُ إلىَّ شخصاً  لخضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِه حسامى
وما بَلَغَتْ مشيئتَها الليالى  ولا سارَتْ وفى يدِها زمامى
إذا امتلأتْ عيونُ الخيل منى  فويلٌ فى التيقظ والمنام

عذبته الدنيا فجعلت نفسه نفس ملك ، وهمته همة ملك ، وشعره ملك الشعر أو على الأقل فيما يعتقد هو ، ثم جعلته فقيراً لا يملك من الدنيا شيئاً ، ولا يرث من آبائه مالاً ولا ملكا ولا جاهاً ، وكان يأمل فى صباه أن تتحقق نبوته ، فالنبوة لا تحتاج إلى مال ، فلما يئس طلب الملك ، والملك يحتاج إلى مال ، فطلبه بشعره ولكن لم تذل نفسه كما ذلت الشعراء ، فكان يرى أنه يعطى لممدوحيه أكثر مما يأخذ منهم ، فهو يمنحهم شعرا خالداً وهم يمنحونه عرضاً زائلا . وكان يتجلى ذلك فى عتابه أو هجائه يوم يعتب على ممدوحه أو يهجوه .

فتبا لهذا الزمان الذى وضعه هذا الوضع ، منحه طموح الملوك ولم يجعله ملكا ، وحرمه المال ولم يحرمه النفس ، فلم يوائم بين نفسه وحاله — يرى أن الناس لو عقلوا لثاروا ولم يرضوا على ما هم فيه من بؤس وشقاء ولملكوا عليهم خيارهم — ولعله يعنى نفسه — ولكنهم خاضعون مستسلمون يقيمون على الذل ولا يأنفون من عار .

أمَا فى هذه الدنيا كريمٌ  تزول به عن القلب الهمومُ
أما فى هذه الدنيا مكانٌ  يُسَرُّ بأهله الجارُ المقيمُ

تشابَهت البهائمُ والعِبِدَّى    علينا ، والموالِي والصميمُ
وما أدرى أذا داءٌ حديث    أصاب الناسَ ، أم داءٌ قديم ؟

اعتداد بالنفس لا حدّ له ، وطموح ليس بعده طوح ، ونقمة على الزمان لأنه لم يسعفه ، ونقمة على الناس لأنهم لم يحققوا أمله — هذا كله روح فلسفة المتنبي — وكل ما قاله من حِكَم وكل ما شرحه من حالة نفسية فهو صدى لهذا الوضع ، وترجمة لهذه الأحداث ، وتعبير عن شعوره بها .

أوضح ما تنتجه هذه الحال فى نفس كنفس المتنبي « فلسفة القوة » وكذلك كان ، فالمتنبي قوى فى الحملة على الناس وعلى الزمان . تتجلى القوة فى كل أقواله وفى جميع حالاته ، وهذه القوة أكثر ما تكون فى سنيه الأولى أيام كان يتنقل فى البلاد ويدبر خطته ليحقق أمله . وقد ظل على هـذه الحال إلى أن بلغ الرابعة والثلاثين ؛ ثم ضعفت بعض الشيء يوم اتصل بسيف الدولة يتبعه حيثما كان ويمدحه فى الحل والترحال . وأثر فى نفسه فشله عنده فرحل إلى مصر و بها كافور ، وشتان بين سيف الدولة فى عربيته وفروسيته وكافور فى عجمته وعبوديته . ولـكنه الزمان الغادر رماه بأقسى ما لديه حتى جعله مادحاً كافوراً ، فهو فى مدحه يغالب نفسه و يلعب فى كثير من المواقف بالألفاظ ليصوغ مدحًا يشبه الذم ، فإذا تحرر من ذلك وأخذ فى هجائه عادت إليه قوته وكأنه استرد حريته . فهو قوى فى نفسه لا يهاب الدهر ولا يكترث لأحداثه :

إن ترمنى نكبات الدهر عن كَثَبٍ    ترم امرءاً غير رِعْدِيدٍ ولَا نكِسِ

وهو قوى فى احتقاره اللذات الوضيعة وطموحه إلى أعلى غايات المجد :

وإذا كانت النفوس كباراً    تعبت فى مرادها الأجسام

يأبى أن يضعف نفسه بالغزل والخمر فإنهما يحولان دون المجد :

تَمَرَّسْتُ بالآفات حتى تركتُها    تقول : أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعر ؟

ذَرِ النفسَ تأخذْ وُسْعَها قبل بَيْنِها ... فمفترقٌ جارَانِ دارُهما العُمْرُ
ولَا تحسَبَنَّ المجـــدَ زِقًّا وقَيْنَةً ... فما المجدُ إلا السيفُ والفَتْكَةُ البِكْرُ
وتَرْكُكَ في الدنيا دَوِيًّا كأنَّما ... تَداوَلَ سَمْعَ المرءِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ

وهو قوى فى هجائه ، فهو إذا رمى أصمى ، وإذا مس أدمى ، يطوّق من يناله الذم . ويقلده الخزى ويُلزمه عاراً لا تمحوه الأيام .

وهو قوى فى دعوته للناس أن يثوروا ويؤسسوا ممالكهم على حد السيف :

أعلى الممالكِ ما يُبْنَى على الأَسَلِ ... والطعنُ عند مُحبِّيهن كالقبلِ
وما تَقَرُّ سيوفٌ فى ممالكها ... حتى تَقَلْقَلَ دهراً قبلُ فى القُلَلِ (١)

وهو قوى فى احتقار الناس إذ لم تعل همتهم كهمته ، ولم يرتفعوا عن السفاسف رفعته :

إذا ما الناسُ جربهمْ لبيب ... فإنِّى قد أكلتُهُمُ وذاقَا
فلم أرَ ودهمْ إلا خـــداعًا ... ولم أر دينهـمْ إلا نفاقا

كل شىء فى سبيل المجد لذيذ محبب إليه ؛ فالقتل والموت والعذاب وقطع الفيافى عذب المذاق :

فموتى فى الوَغَى عيشٌ لأنى ... رأيتُ العيش فى أَرَبِ النفوس

---

سبحَانَ خالقِ نفسى كيف لذتهـا ... فيما النفوس تراه غاية الألم

---

وهَانَ فمـــا أبالى بالرزايا ... لأنى ما انتفعت بأن أبالى

وأخيراً ترى القوة تشيع فى جوانب أساليبه وقوافيه ، فإذا اشترك المتنبى وغيره من الشعراء فى معنى من المعانى رأيت أبيات المتنبى غالباً أرصن أسلوباً وأجزل

---

(١) تتقلقل : تتحرك ، والقلل : الرءوس مأخوذ من قلة الجبل رأسه .

لفظاً وأقوى قافية وأمتن تركيباً ، لأنه يسبغ عليها من قوته و يزيد فى شدتها من شدته وحدّته — حتى لقد يقول المألوفَ والفكر الشائع الذى توارد عليه الشعراء فى كل العصور فيخلع عليه بعض نفسه ، ولونا من حسه ، فكأنما هو جديد وكأنه لم يسبق إليه .

لعل موضع الضعف عنده أنه أنفق حياته فى مدح الولاة والأمراء والملوك يصوغ الثناء لهم ، وينظم عقود المدح فيهم ، و يجهد عقله وخياله فى اختراع معانى الكرم والبأس ونسبتها إليهم ، ويرحل من بلد إلى بلد طلباً لعطاياهم ، ويقف على أبوابهم انتظاراً لمنحهم ، ويتربص الفرص للقول فيهم ، فإذا أقبل العيد هنأهم ، وإذا مرضوا عوّذهم ، وإذا انتصروا فى حرب شاد بفعالهم ، وإذا انهزموا لطف من هزيمتهم ، وإذا مات لهم ميت عزاهم ، وإذا ولد لهم مولود بادر بتهنئتهم . وذلك ما لا يتفق كثيراً ونفسه الكبيرة وهمته العالية التى يتحدث عنها — لو أنه ترفع عن هذا كله وقنع بأن يتغنى بشعره فى وصف شعوره لوائم بين نفسه وشعره ، ولكنه — على ما يظهر — لم يشأ عيشة الزهد وإنما شاء عيشة الرفعة والشهرة بالملك أو بالولاية فرأى أن يتصل بالملوك للاستفادة منهم والاستعانة على تحقيق غرضه بهم وبمِنَحهم وبإيجاد الصلة بينه وبينهم ، ولكنه من حين لآخر يشعر بلذعة فى أعماق نفسه من هذا الموقف فيفلسف التهنئة ويقول :

إنما التهنئاتُ للأكفاء ولمن يَدَّنِي من البُعَدَاء
وأنا مِنْكَ ، لا يُهَنِّئُ عُضْوٌ بالمسرَّاتِ سَائِرَ الأَعْضَاء

ثم هو لا يتنزل إلى مدح غير العظماء ، وإذا أنشد شعره أنشده فى علو وكبرياء ، فإذا لم يتحقق غرضه أو أحس بتيهِ ممدوحه عليه ثار ثورة مَن جرحت عزته ونيل من كبريائه ، وكأنما تجلت له الحقيقة وهى صعوبة الجمع بين نفس تمتلئ عزة وشاعر يقف شعره على المديح — وهكذا كلما جذبته شؤون الحياة إلى الضعة

والضعف أبت عليه نفسه ، وحولته من ضعف إلى قوة ومن ضعة إلى رفعة :

ما كنت أحْسَبُنِي أحْيَا إلى زمن ... يسيء بي فيه عبدٌ وهو محمود

* * *

ويْلمِّها خطـــةً ويْلمٍّ قابلها ... لمثلها خُلِقَ المَهْرِيَّةُ القُودُ

وعندها لذ طعمَ الموت شاربُه ... إن المنيةَ عند الذلِّ قِنْدِيدُ (١)

وبذلك فلسف الحياة كلها فلسفة قوة كما فلسف أبو العتاهية الحياة فلسفة زهد — فويل للضعيف ، وويل للجبان ، وويل لمن يخاف الحوادث ، وويل لمن يهاب الموت :

ولا قضى حاجته طالب ... فؤاده يخفق من رعبه

---

(١) القنديد : عسل قصب السكر والخمر .

# تحية العيد

إلى صديق . . . .

وأحَبُّ إليَّ أن أناديك بصديقى من أن أناديك « بأخى » أو « حبيبى » ، أو أى لفظ آخر فى هذا الباب ؛ فالأخ لا وزن له ما لم يكن أخاً صديقاً ، والنفس بالصديق آنس منها بالعشيق ، وقد أنصف العرب إذ اشتقوه من الصِّدق ، فأى شىء أجمل من الصِّدق فى « الصداقة » ؟

كنتُ أستكثر ما يُروى من أن عبد الحميد الكاتب طُلب ليُقتل — فى الثورة العباسية — وكان صديقاً لابن المقفع ، ففاجأهما الطلب وهما فى بيت واحد ، فسأل : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : « أنا » خوفاً من أن ينال صديقه مكروه ؛ وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى « ابن المقفع » ، فقال : إن لى علامات أُعرَفُ بها و يعرفها مَن بعثكم فى طلبى ؛ وما زال يقيم الحجج ليدفع الأذى عن صديقه حتى أُخِذ وقُتل . وكنت أستبعد ما يُروى أن هذيلا أصابت دماً فى بعض العرب ، فأسر أصحاب الدم رجلين من هذيل متصادقين ، فقالوا لهما : أيكما أشرف فنقتله بصاحبنا ؟ فقال كل واحد منهما : أنا ابن فلان الحسيب النسيب ، فاقتلونى دون صاحبى ؛ فكل بذل نفسه للقتل دون صاحبه ، فلما عيُوا بأمرهما صفحوا عنهما ، وقالوا : « هذا التصافى لا تصافى المِحْلب »[1] .

فلما صادقتك صدّقت القصتين ، وآمنت أن فقد النفس أهون من فقد الصديق .

---

(١) صار هذا مثلا معناه هذه هى الصداقة لا صداقة المنادمة على الشراب .

إن الحياة فراغ لولا أن تملأها صداقتك ، وهى ظلمة حالكة لولا أن تنيرها مودّتك .

لسنا صديقين لمنفعة أرجوها منك أو ترجوها منى ، وإنما أصادقك لأنك أنتَ أنتَ ، ومادمتَ أنتَ فأنا صديقك .

إن الصداقة ميّزتك عن غيرك من كل ما فى العالم ، فكلما كنتَ نفسك كنتُ أقرب إليك وكنتَ أقرب إلى قلبى .

لقد بحثتْ نفسى فى النفوس حولها ، فلما وجدتْكَ عرفتْكَ وعرفتْ أنك مرآة لها ، صورتك صورتها ، ومزاجك مزاجها ، وطبيعتك طبيعتها ؛ فكأنى وإيّاك روح فى جسمين ، أو حقيقة فى شكلين .

صادقتك فاستصغرتُ متاعبى ، وهزئتُ بهمومى ، وظهر خير ما فى نفسى ، ودبّتْ القوة فى إرادتى ، وشعرتُ بالحرارة فى همتى ؛ فماذا كنتُ أكون لو لم تكن ؟

إن حزَب أمر فذِكرك يَحُله ، أو ضعف العزم فصورتك تقوّيه ، أو أظلم الجو فصداقتك تنيره ، أو خيّم البؤس فاستحضارك يكشفه .

قد ساء ظنى بالناس ، وأنكرتُ المروءة والإخلاص والوفاء ، وظننتُ أنها ألفاظ وضعتْ لأوهام ، واللغة لم تتحرر من أن تضع أسماء للموجود والمعدوم ، والجائز والمستحيل ، والشىء واللاشىء ؛ فلما عرفتك آمنتُ بك وبالناس وبالألفاظ ودلالتها على معانيها .

ثم كنتُ غريباً بين أهلى وولدى ، فإذا أنا بك حاضرٌ فى غربتى ، مؤنس فى وحشتى ؛ لأنك فى قلبى ، وقلبى معى ، ما أظن أنه يفارقنى ولا بالموت .

لم أصادقك إلا بعد أن عرفتك كما عرفتُ نفسى ؛ فمن عابك سقط من عينى ، ومن انتقصك فإنما ينتقص نفسه ؛ فأذنى صماء إلا عن مديحك ، وقلبى

لايتفتح إلا عند الثناء عليك ، وصداقتنا كآنية الذهب ليس يمكن كسرها .

تصادق الناس للمنفعة ، فلما زالت المنفعة زالت الصداقة ، وتصادق الناس لعواطفهم ، فكانت الصداقة تشبُّ وتخمد ، وتتعرض للهجر والعتاب ، والقطيعة والوصال ؛ ولكنا تصادقنا بعد أن رفعنا المنفعة فيما بيننا ، وتصادقنا بقلبنا وعقلنا ، فسمَوْنا عن التقلب وعن العتاب ، ولم أشعر بحاجتى فى صداقتك إلى تكلف أو رياء أو تقاليد ومواضعات ، فكلها إقرار بالضعف ، ومحاذرة من الانفصام ، وطعن فى الوحدة .

قد كنت أنزل قبلك فى مسبعة ضَرِيَتْ وحوشها واحتدّت أنيابها ، يتظاهر أهلها بالود ويضمرون العِداء ، ويبكون مع الراعى ويعيثون مع الذئاب ؛ فاليوم نزلتُ بك فى جنة نعيم ، آمنتنى صداقتك من خوف ، وطمأنتنى من رَوْع ، وفتحت لى أبواباً من اللذة والسعادة يعجز عنها اللفظ ، ولا يَحُدّها وصف — حسبى أن أذكُرك فأشعر بشفاء للصدر ، وبرد من حرقة ، وطرد للهم ، وأنس من وحشة ، ومبعث للرجاء ، وتفتح للأمل .

لقد كرهتُ الرق فى كل شىء ، كرهتُ رقّ الحيوان وحبسه ، وكرهتُ رقّ الإنسان للإنسان ، والرجل المرأة ، والمرأة للرجل ؛ وكرهتُ رقّ الأمم للأمم ، وكرهتُ استرقاق أصحاب رؤوس الأموال للعمال ، والملاك المزارعين ، واستعباد المال للإنسان ، واستعباد الشهوات للناس ؛ فلما وصلتُ إلى صداقتك رضيت برقّى لك عن رضا واختيار ، لأن فى رقّى لك رقَّك لى ؛ وما أجزله من مغنم .

كم شهدتُ قبلك صداقات ، وفى كل صداقة كنتُ أشعر بلذة ممزوجة بألم ، وأمن مشوب بخوف ؛ كنتُ أخاف تحوّلى أو تحوّل الصديق ، وأخاف أن تتدخل المادة فى الصداقة فتفسدها ، وأخاف من الصديق يرى منفعته فى العداوة فيفتح صدره لها ، أو تحمله الغيرة على بيع الصداقة فيبيعها ؛ ويزداد

شعورى بالخوف والألم كلما رأيت صداقات ما كان يمكن أن تنهار فتنهار ، و إخاء كنتُ أظنه يدوم فلا يدوم ؛ ثم صادقتك فلم أشعر بهذا الألم وهذا الخوف ، بل شعرت بلذة خالصة وأمن صافٍ ، لأنى وجدت فيك نفسى ، فإن لم أشكّ فى نفسى لم أشكّ فيك ، و إن وثقت بقلبى وعقلى وثقت بقلبك وعقلك ، ويوم يعرِض لصداقتنا عارض بسيط أقضى عليه فى لمحة بقلبى أو عقلى ، أو تقضى عليه سريعاً بقلبك أو عقلك ؛ ثم كيف يعرض العارض ولم نتصادق لمنفعة ، ولم نتحاب لشهوة ؟ و إنما كنا روحين تعارفا فتآلفا فتوحّدا . وصدق أرسطو إذ سُئل عن الصديق فقال : « هو أنتَ إلا أنه بالشخص غيرُك » .

لم أُصادقك للأخذ والعطاء ، فذاك الكرم لا الصداقة ، ولم أُصادقك لجلب خير أو دفع ضر ، فتلك النجدة لا الألفة ، إنما صادقتك لتسكن نفسى إلى نفسك وتأنس نفسى بنفسك ؛ فتلك هى الصداقة لا أى شىء آخر . بل لم أُصادقك لتسكن إليك نفسى ، و إنما سكنتْ نفسى لصداقتك ، وما دامتْ نفسُك نفسَك ونفسى نفسى فقد تمّتْ كل عناصر الصداقة بينى و بينك ، مهما اختلفت الأعراض والأغراض . لقد أعجبنى ما قرأتُ مرة من أن رجلا سُئل : من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يُطعمنى إذا جُعت ، ويكسونى إذا عَريت ، ويحملنى إذا كللت ، ويغفر لى إذا زللت . فقيل له : يرحمك الله ؛ إنما تمنّيتَ وكيلاً لا صديقاً ! أذكرك فتحل روحك فى روحى ، وتدب الحياة فى نفسى ، فأروَى من ظمأ ، وأهتدى من ضلال ، وأجد بك ما لا أجد فى الغِنى بعد الفقر ، والعافية بعد المرض ، والأمل بعد اليأس .

لقد أعجبنى منك أنك لا تُشيد بذكر الصداقة ، فاسمح لى أن أُشيد بذكرها ، وأعجبنى منك أن من رآنا لا يشعر بما بيننا ؛ وأعجبنى منك أنك على عكس الناس يُقبلون مع النعمة ويُدبرون مع النقمة ؛ وأعجبنى منك أنك لم تجعل الصداقة فى ميزان تزنها كل يوم بما يزيدها أو ينقصها ، ولكنك وزنتها مرة واحدة بميزان

الذهب ، فلما اطمأننتَ لميزانك وثقت كل الثقة ، فلم تعرِضها للوزن مرة أخرى ؛ وأعجبنى منك أن عينك لا لسانك دليل ما فى قلبك ؛ وأعجبنى منك أنك ترى الواجب عليك ولا ترى الحق لك ، وأنك تعتقد أنك غابن دائماً ولا تعتقد أنك مغبون يوماً . وأعجب ما أرى فيك أنك تنطق بما أتمنَّى أن أنطق به ، وتريد ما اعتزمتُ أن أريده ، ويجول فى نفسك ما يجول فى نفسى ، حتى ليخيَّل إلىّ أنك تحلُم بما أحلُم .

ومن أطرف ما فيك كرهك الدعاية لنفسك ولغيرك ، فلم يعرف فضلك فى خلقك وعلمك إلا خاصتك ، تعمل كثيراً ولا تتكلم عما تعمل أبداً ، وتقدر الدعاية تقديراً عكسيا ، فكلما دُعِىَ لشخص أو دعا لنفسه حسبتَ ذلك فى ميزانه « بالناقص » ؛ وكثيراً ما سمعتك تتمثل بقول الله تعالى : « فأما الزَّبد فيذهب جفاء ، وأمّا ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » . وقلتَ لى مرة : « إن أرفع المتجادلين صوتاً أضعفهم حجة ، وأشد الناس تبجحاً بالشجاعة أشدهم خوفاً ، وأكثر المدرسين تهديداً لطلبته أقلهم كفاية ، وأقل الناس شعوراً بكفايته ونزاهته أكثرهم دعاية ؛ كل أولئك ليكملوا « مركَّب النقْص » فى نفوسهم ، ويستروا ضعف باطنهم بقوّة ظاهرهم .

أخى بل صديقى :

من أجل هـذا ترددت كثيراً فى أن أبعث إليك كتابى هذا ، لأن أكْرَه ما تكرَهُ المديح ، ولـكنى أصْدُقكَ أنى كتبته لنفسى لا لك ، فقد كانت كتابته فرحة العيد عندى ، وشعرتُ بعد كتابته بفرح الحريص لعقد شراء ضَيعة كبيرة لم يكن سُجّل ؛ فإن آلمك مديحى فلتسعدك غبطتى .

حفظك الله لى ، فأنت غذاء روحى ، وسراج حياتى ، وأعاد عليك العيد باليُمن والسعادة .

(حاشية) هل تسمح لى أن أنشر هذا الـكتاب بعد حفظ اسمك ؟

# ردّ الصديق

أرسل إلىّ صديق . . . ردًّا على « تحية العيد » فقال :

صديقى :

سرّنى خطابك ، وكان فرحةَ العيد عندى كما كان فرحة العيد عندك — لم أُسرّ لمدحى ، فأنا أعلمُ من عيوب نفسى ما لم تعلم ؛ ولكنها الصداقة ترى كل شىء من الصديق حسناً . إنما سرّنى أن كتابك يشعّ منه الحب ، وأنتَ تعلم أنى لا أقدر شيئاً فى الوجود تقديرى للحب .

اشد ما يخطىء الناس فيقصرون الحبّ على حب الجنس ، ويفوتهم أن وراء هذا أنواعاً من الحب يخطئها العدّ .

هناك حب العامل عملَه وفناؤه فيه ، وهو سر نجاحه ، وفقدانه سر فشله .

وهناك حب العالِم علمه ، وقد رأيتُ ورأيتَ علماء لا يلذّهم شىء فى الحياة إلاّ بحثهم وكتبهم ، يفضّلون ذلك على كل متعة من متع الحياة من ملك ومال وجاه ، ويوم يظفر بنتيجة لبحثه فذلك يعدل عنده الدنيا وما فيها ؛ وقد قرأتَ وقرأتُ أمثلة لذلك عديدة من علماء الشرق والغرب .

وهناك حب الفضيلة وكره الرذيلة ؛ وكلما ازداد هذا عند إنسان كان أقربَ إلى الخير وأبعدَ عن الشر .

وهناك حب المواطن لوطنه وأُمته ، فيبذل فى ذلك ماله وحياته .

وهناك حب الصوفية لله فيفنَون فيه ، ويشعّ حبهم له على كل شىء من خلقه حتى يرَوا الله فى الخَلْق والخَلْقَ فى الله .

كل شيء فى الحياة بارد ما لم يحرّه الحب ، وكل شيء مظلم ما لم يُضئه الحب ، وكل شيء تافه لا لذة فيه ما لم يشعّ فيه الحب ؛ وصدق من قال : « الحياة الحب ، والحب الحياة » .

ومقياس حياة الإنسان مقدار حبّه ، فيومَ ينتهى حبه تنتهى حياته .

وما الفرق بين الإنسان والآلة إلا الحب .

كل الناس يُحِب ، ولكن هناك حب أرستقراطى وحب شعبى ؛ الأرستقراطية تسمو بالحب ، فلا تحب إلا الرفيع من المعانى والسامى من المُثُل ؛ إنها بطبعها تستصفى ما حولها وما يحدث لها وما تَلِدُ من أفكارها وما تعتنق من مبادئها فتتعشَّقه ، ثم تحب مَن يشا كلها فى حبها — وليست أرستقراطية الحب مَولداً ولا مالا ولا جاها ؛ ولكنها نزعة يهبها الله لمن يشاء من خلقه ، تفىء فتتلقى الوحى من الطبيعة فتحبها ، وتخاطبها الطهارةُ فتجيبها ، وتنظر إلى كل شيء ولو كان وضيعاً ، فتولّد منه معانى سامية نبيلة تأنس بها ، وتقرأ الحقيقة فى كل شيء فتُجِلُّها .

إن أردت السمو بأحد فخذ بيده ليصل إلى الحب الأرستقراطى ، وإن أردت الرقىّ بأمة فبثّ هذا الحب فيما بينها وأكثرْ منه ما استطعت ، وهيِّئ له من الأسباب ما قدرت ، حتى يشمه السائح فى جوها ، كما يرى خصائص الأمة فى مناظرها .

أخشى أن أكون قد قاربتُ الصوفية فى نزعتها وشَطْحها فمعذرة ، وكل ما أريد أن أقول إنى أحببت كتابَك لحبك فى كتابك .

* * *

أرانى هذه الأيام محبا للعزلة ، بعد أن كنتُ — كما تعلم — محبًّا للاجتماع ، ولا أدرى السبب ، فأنا غارق — فى ريفى — فى زرقة السماء وخضرة النبات ،

شاعر بسعادتى فى مغازلة الطبيعة وإلهها ، وعدانى بستانى فشعرت أن نفسى زهرة من زهرات الله ، إنما تتفتح وتتفتح إذا أطلقت لها الحرية التامة لتنال حظها من الشمس والهواء ؛ وعدانى الأفق اللامحدود فأحببتُ حبا غير محدود . رأيتنى أكره الحزب وأحب الأمة ، وأكره الوطنية وأحب الإنسانية ، وأحب خلق الله لله ؛ وعجبتُ لنفسى وهى فى حدود الحضر كيف كانت تجسّم الظل ثم تشقى به ، وتخلق الهمّ من العدم وتألم له ، فإن شئت السلامة فتحرر من الحدود والقيود ؛ ورأيتُ سبب همى فى الحضر التهاب الشعور وطغيان الحياة الشعورية ، فأطيلُ التفكير فى نفسى وفيما حولى ؛ أمّا هنا — فى الريف — فأنا أسعد حالاً ، لتبخر كمية كبيرة من شعورى وحلول الحياة اللاشعورية محلّها ، ولعل ذلك من عدوى ما حولى من بذور ونبات وحيوان وطبيعة ، فكأن طفلا يسكن فى نفسى فى مرحه وأمله وانسجامه مع جوّه ، وغروره بقدرته ولا شعوره . ولهذا لا صبر لى على قراءة إلا قراءة الطبيعة ، ولا كلام فى السياسة إلا سياسة الكون فى سيره ، فإن كان ولا بد فشعر يمازج شعورى ، أو آية من القرآن تغذّى قلبى ؛ ولست أقرأ كما يقرأ الناس ، ولكن أكتفى ببيتين أو ثلاثة ، وآية أو آيتين فيمتلئ جوى بها ، وتتفتح نفسى لها ، فلا أزال أردّدها الفينة بعد الفينة طول اليوم ، وفى كل مرة أشعر لها بطعم جديد ومعنى جديد . وبالأمس كانت آية : « الله نور السموات والأرض » ملء نفسى وقلبى وترداد لسانى ؛ واليوم كانت آية : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار » محياى وغذائى ، وأحياناً — ولا أدرى — تدمع عينى من قراءة الآية أو الشعر فأذكر قول ذى الرمّة :

لعل انحدار الدمع يُعقب راحة　　من الوجد أو يَشفى شجيّ البلابل

وأخشى أن تعدّ هذا منى مظهر ضعف أو آية ألم ، ولكنّى أصدقك أنى

أقوَى بها ما لم أقو بغيرها ، وأن الدمعة تغسل عينى فأنظر بها ما لم ينظر الناس ، وأشعر أنى حىّ بين مَوْتَى ، وصاحٍ بين سكارى .

لقد أحسست بعدها أن المدينة بحدودها وقيودها وضغطها كوّنت عقلى تكوينا فاسداً ، وشغلتنى بحساب درهم يأتى ودرهم يُصرف ، ونظرية تقرر ونظرية تهدم ، وحكومة تتولّى وحكومة تولِّى ، ونظام يوضع ونظام يلغى ؛ حتى لقد هَزُلت نفسى من هذه السفاسف ، ومات قلبى من هذه القيود ؛ فالآن أريد أن أميت نفسى المقيَّدة وأخلق نفسى الحرة ، وأحطم أبواب سجنى وأطير إلى السماء ، وأكنس أفكارى القديمة وأتحرر من موضوعاتها ، وأضع أسساً جديدة للتفكير فيما يحقق نفسى ، وأكسر أصنام الناس لأعبد ما ليس بصنم ولا وثن .

لقد كنتُ بغير جناح إذا لم يكن جو ، فلما كان الجو كان الجناح .

ولا تحسبنى بذلك أريد أن أحيا حياة شعرية لا عملَ وراءها ، أو أن أعيش فى حُلم خيالىٍّ لذيذ ؛ بل أرانى على العكس من ذلك ، أريد أن أعمل وَفق حبّى — لقد أحببت الفكرة لا الشخص ، وأحببت المعنى لا المبنى ، فشعرت أن كل أرضٍ بلدى ، وكل إنسان أخى ، وكل باطل عدوِّى ، وكل حق صديقى ؛ وآمنت أن نفسى ليست لى ، إنما هى قوة فى العالم لها رسالة ، ورسالتها إزهاق الباطل ، ونصرة الحق ، ومحاربة البؤس ، والأخذ بيد المظلوم ، وكسر الحدود التى تمنع أن يصل ذو الحق إلى حقه ؛ فحبى الشائع دفعنى إلى العمل الشائع ، تجرّدى من الشخصية حملنى على أن أؤيّد المعنى أو أن أحارب المعنى ؛ وشعرت بالكل فوهبت حياتى للكل — وإذ ذاك أحسست أن قلبى كمجرى الماء الغزير لا يقوى أمامه العود ولا يعوقه القذى ، وأحسست أنى لا أقوّم الأشخاص بعلمهم أو مالهم ، ولكنى أقوّمهم بروحهم ، فالمثل الأعلى عندى ليس أرسطو ولا قارون ولكنه النبىّ ؛ وأحسست أنى أرى فى المعانى كالعدل والرحمة والصدق جمالاً

يجذبنى أكثر من جمال الصورة والزهرة ، وللظلم والقسوة والرياء قبحاً ينفرنى أكثر من القردة والمرأة الشوهاء .

قد كنت — وأنا فى المدينة — مَغيظاً من مفاسد الأمة ، مُحنقاً من جنون العالم ؛ واليوم — وأنا فى الريف — قد تحوّل غيظى رحمة ، وحنقى شفقة ، فأشفق على الأمة لمصائبها ، وعلى الإنسانية لرزاياها ؛ وأكثر ما يحملنى على الرحمة لها أنها فى شقاء وتظنها فى سعادة ، وفى محنة وتحسبها فى نعمة ، ورحمتى لم تسلبنى رغبتى فى العمل كما لم يسلبنى الغيظ ، ولكن عملى مع الرحمة إنقاذ ، ومع الغيظ تأديب .

ما أظلم علماء التربية ، يهتمون بتربية العقل والجسم والخلق ، ولا يُعيرون التفاتاً للروح ، كأن الإنسان آلة صماء ، والخلُق الذى يهتمون به هو الخلق التجارى من صدق ونظام واقتصاد ، وتربية الروح وراء ذلك ؛ فالروح هى الوزن فى الشعر ، والتناغم فى الغناء ، والانسجام بين آلات الموسيقى ، والعلاقة بين أصابع الفنان وأزرار البيان ؛ وشقاء الإنسان فى شخصه وفى أمته وفى عالمه من ضعف روحه ، واختلال التوازن بين روحه ومادته ، وعدمِ الانسجام بين أجزاء العالم ، وعدمِ وحدتها ، وليس يوحّدها إلا توحّد روحها .

إن ضعف الروح جعل من يحب نفسه يكره غيره ، ومن يحب أمتَه يحارب غيرها ، ومن يحب جنسه يحتقر غير جنسه ، ولو قَوِيت الروح لعممت حبها ولأحبت المبدأ والمثل ، فكان ثمّ وفاق لا خلاف ، وسلم لا حرب .

***

بعد غدٍ عيد ميلادى الحادى والخمسون ، وهو أول عيد أقضيه فى الريف ، ولكنى أريد أن أعده عيدى الأول ، فقد تشابهت نفسى فى الأعوام الماضية ، فليست متكررة إلا فى حساب العدد ، أما نفسى الجديدة فلم تتكرر بعد . شتان

بين نفس مقيدة ونفس طليق ، بين نفس مستعبدة ونفس مستقلة ، بين نفس مقلدة ونفس مجتهدة . ليخيلُ إلىّ بعد الرياضة النفسية التى أرتضيها أن لا صلة بين نفسى القديمة ونفسى الجديدة ؛ ولذلك سأصر على أن أعُدّ عيدى الآنى هو العيد الأول .

قد كنت فى الأعياد الماضية أستقبل الناس ، وفى هذا العيد سأستقبل نفسى ؛ وقد كنت أضاحك إخوانى وأسامر صحبى وأتقبل هداياهم وتهانيهم ، وفى هذا العيد سأتناغم مع الأزهار ، وسأفتح نفسى ليمتزجَ بدمى ضوء الشمس ، وأحتفل بافتتاح عقلى لتلقّى الحقيقة مجردة من خيالات الناس وأوهامهم ، وسأشرب نخب الطبيعة وجمالها والحرية ومتعتها ، وسأغنّى للشمس وطلوعها ، والشمس وغروبها ، والنجوم ولمعانها ، والمياه وصفائها ، والفَراشة وطيرانها ، والزهرة وتفتحها ، والثمرة ونضجها ، حتى أملأ الجو مَرَحاً وغناء ؛ وسأدعو آخر الأمر للإنسانية أن يفكَّ الله أغلالها ، ويجنِّبها شقاءها ، ويبعث الحب فى قلوبها فيكون هذا أول عيدٍ لى من نوعه .

أخى بل صديق :

لعلك تعجب أنى لم أردّ على كلامك فى الصداقة برأيى فى الصداقة ؛ ولكنى أعتذر لك ، فرأيى غيرُ رأيك .

رأيى أن الكلام المباشر فى الصداقة لايقوّيها ، إنما يقوّيها العمل على مناهجها الحقة من غير حديث فيها .

ورأيى أن خير لذة يستمتع بها الإنسان من شىء أن يتناسى لذته منه ويفنى فيه ؛ ألا ترى الشطرنج لو ذكرت دائما أنك تلعبه ، وأنك تَلَذُّ لَعِبه لضاعت لذته ، وإنما تصل من لذته إلى الغاية إذا أنت نسيت الشطرنج ، ونسيت نفسك ونسيت لعبك ، وفَنِيت فيه ! وكذلك الأمر فى الكِتاب تقرؤه ، والموضوع

تبحثه ، والسينما تشهده ، والتمثيل تراه .

وعلى هذا القياس أنا أفنَى فى صداقتى ولا أذكرها ، وأرتشفها ولا أتحدث عنها . ولهذا كتبت لك حول الصداقة ، لا فى الصداقة .

ومع هذا أشكرك على خطابك ، فربما دعا إليه داع لم أتبيّنه ، وهو — فى رأيى — خطأ خير من صواب والسلام .

(حاشية) أحلك من نشر كتابك ونشر كتابى إن شئت ، مع حفظ اسمى كما وعدت .

# فارس كِنانة

## — ١ —

كنانة هذه قبيلة قحطانية كثيرة العدد ، كانت تسكن عند مجيء الإسلام أرضاً فسيحة حول مكة ، تمتد من تهامة فى الجنوب الغربى من مكة ، حيث يجاورون قبيلة هُذَيل ، إلى الشمال الشرقى منها حيث يجاورون قبيلة أسد .

وقد دخلوا فى الإسلام كما دخل غيرهم ، ونبغ منهم نوابغ كثيرون فى الحروب وفى الشعر وفى العلم وسائر مناحى الحياة ، فمنهم الشُّداخ بن عوف الذى كان على مُجَنِّبَة أبى عبيدة بن الجراح يوم « اليَرْمُوك » ، ومنهم نصر بن سَيّار أمير خراسان فى آخر العهد الأموى ، ثم رافع بن الليث بن نصر بن سيار الخارج على الرشيد والقائد الكبير للمأمون ، ومنهم أبو الأسود الدؤلى الذى ينسب إليه وضع النحو ، ومنهم أبو ذر الغِفارى الاشتراكى الصادق الثائر على معاوية وعلى الأغنياء ، ومنهم ربيعة بن مُكَدَّم الملقب فارس العرب ، ومنهم قيس بن ذَرِيح أحد عشاق العرب المشهورين وصاحبته لُبْنَى ، ومنهم عزة صاحبة كُثَيِّر التى قال فيها غزله الرائع المشهور ، ومنهم ابن دَاب الراوية المؤرخ ، ومنهم كثير من المحدّثين يضيق المقام عن ذكرهم .

وعلى الجملة فقد خلفوا لأعقابهم مفاخر يتداولونها ، ومناقب يروونها ، من بطولة وفروسية وإمارة وعلم وأدب .

تفرقت كنانة فى البلدان بعد الإسلام كما فعلت كل القبائل ، فجاء قوم مصر فى أواخر العهد الفاطمى ، ونزل بعضهم أخميم وما حولها ، ونزل بعضهم

دمياط وما حولها . ورحل قوم إلى فلسطين ، ونزل قوم الشام .

***

فى شمالى « حماة » وعلى بعد خمسة عشر ميلا منها حصن يقال له حصن « شَيْزَر » دخله التحريف على توالى الأيام فصار يسمى الآن « سيجر » ، يقع على نهر العاصى . وهو حصن كبير بُنى على أكمة مرتفعة تتحكم فيما حولها ، حفروا حوله الخنادق ليزيدوا فى مناعته وحمايته ، وأنشأوا مدينة على النهر تتبع الحصن ، وسمى كل ذلك « شيزرا »[1] .

كان هذا الحصن مشهوراً بمناعته و بخطورة موقعه ، كما كان من قديم مركزاً لأعمال البطولة فى الدفاع عنه والاستيلاء عليه ، فالذين يسكنونه لا يعرفون الراحة إلا فترات قصيرة من الزمان ، ينتبهون من نومهم على غارة أو صليل سيوف أو رمى بالمنجنيق ، ألفوا ذلك كما يألفه الساكنون بجوار بركان ثائر ، أو فى منطقة زلزال متتابع .

***

فى سنة ٤٧٤ هـ كان قوم من كنانة يسكنون بجوار حصن « شيزر » ، وكان الحصن بيد الروم (البيزنطية) ، استولوا عليه فيما استولوا من بلاد المسلمين ، وتحكموا به فى المواقع التى حوله ، وكان رأس هؤلاء القوم من كنانة رجلا شجاعا مقداما قوى النفس كريماً ، أحبه قومه وأمَّروه عليهم إمارة مَلِك محبوب مطاع ، هو أبو الحسن على بن مقلّد بن نصير بن منقِذ الكنانى ، فأعد عدته فى هدوء ، وسلّح قومه ، وأحكم خططه ، وانتهز الفرصة ، حتى إذا أمكنته أخذ الروم على غرة ، وطوّق القلعة ؛ ورأى الروم أن لا طاقة لهم به و بقومه ، فطلبوا الأمان

---

(١) انظر كتاب « الاعتبار » ومقدمته القيمة التى وضعها الأستاذ « فيليب حتى » المطبوع فى « برنستون » بالولايات المتحدة .

وسلموه الحصن . وسكنه هو وقومه ، وزادوا فى تحصينه حتى صار أمنع من عقاب الجو أيام أن لم تكن طائرات .

تلقب أبو الحسن « بسديد الملك » ، وعاش عيشة أشبه ما تكون بعيشة « سيف الدولة الحمْدانى » ، شجاع يلذه القتال ، وحوله قومه يربّون تربية حربية ، وفى كل حين قتال ، وبين الوقعة والوقعة عيشة بدوية مترفة وحب للشعر وتلذذ لسماعه ، يقصده الشعراء أمثال ابن الخياط وابن سِنَان الخفاجى فيغمرهم بما فى يده من مال ؛ وتحدث له الحوادث الخفيفة فيقول فيها الأشعار الطريفة على نحو ما كان يفعل سيف الدولة . كان يحب مملوكا له فغضب عليه مرة وضربه ثم قال :

أسطو عليه وقلبى لو تمكن من ... كفَّىَّ غلهما غيظاً إلى عنق
وأستعير إذا عاقبتُه حنَقًا ... وأين ذل الهوى من عزة الحَنق

***

كانت قلعة « شيزر » مطمح المحاربين وما أكثرهم ؛ فالعرب من بنى كلاب فى حلب يريدون الاستيلاء عليها ، والإسماعيلية يودون أن يتخذوها مركزاً لهم ولدعايتهم ، والروم يطمعون فى استردادها ، والصليبيون يرون أنها باب الشام يريدون أن يمروا منها إليه ، كل ذلك والقلعة بحصونها وخنادقها وفيها بنو منقذ بقلوبهم وشجاعتهم وفنونهم الحربية ، استطاعت أن تصد كل مهاجم وتخيب كل أمل .

***

كان لا بد للقلعة وحولها كل هؤلاء الأعداء أن يكون برنامج أهلها كله حربيا ، وسكانها كلهم جنوداً ، فالطفل جندى صغير ، والشيخ جندى كبير ، والبيت مدرسة حربية ، والأم إحدى المعلمات ، والزوجة محرضة الزوج ، والفتاة خاطبة

الشجاع ، ومواقع السيوف فى جسوم الرجال شارة المجد ، وويل للجسم السليم ، لا تقبله فتاة ولا تعتز به زوجة ، والحياة رخيصة ، يخرج الرجل من بيته وأغلب الظن ألا يعود ، ويسير السائر فى الطريق وفى أكثر الأحيان يخرج عليه صليبى يقاتله ، أو إسماعيلى ينازله ، أو كلابى يباغته . وفى ضواحى الحصن كانت أجمات مليئة بالأسود ما أشد ما تفترس ، وما أكثر ما تنهش ، وفى كل لحظة خبر بقتيل ، ونبأ بغزو ، وإنذار بغارة ، وغارة بلا إنذار ، وحديث القوم فى سمرهم رواية أعمال الأبطال ، كيف قتل رجل من الحصن عشرة ، وكيف تغلب رجل على أسدين ، وكيف استطاع فلان الصبى أن ينازل صليبيين ويغلبهما ويقتلهما ويأخذ سلبهما ، وكيف أن فلانا الشيخ الهرم تقدمت به السن فنصحوه أن يلزم مسجده وينقطع لعبادته ، فلبث فى ذلك يومين ثم أنفت نفسه هـذه الحياة الوادعة فأخذ سيفه وقوسه ، ثم خرج يكمن للصليبيين ، حتى إذا وقع فى يده ثلة منهم خرج عليهم يقاتلهم فيقتل ويأسر ، ويعود مباهيا بعمله ، معتزا بقوته على كبر سنه ، عاتباً على من نصحه بالتزام مسجده — وهذه فلانة كانت تخرج للقتال وتضرب بالسيف ، وفلانة الأخرى لما هاجم العدو الحصن ألبست فتاتها لباس العرس ، وأجلستها على حافة الهضبة من تحتها الوادى العميق ، وقالت إن انتصر الأعداء رميت بابنتى فدق عنقها ولا تقع سبية فى أيدى الأعداء . و « سَبيكَة » ألم تسمعوا عنه ؟ كان مخنثاً بشيزر يحضر الأعراس ويغنى ويرقص ، ولـكن كان إذا وقع القتال يلبس درعا ويأخذ سيفه وترسه ويقول : « بطلَ التخنث » ويخرج يضرب بسـيفه كما يضرب الناس .

هذا برنامج الحصن وهذا سمره وهذه أحداثه ، فلم يكن حصناً ، بل مدرسة تمرين على الحروب ، وتكوين نفوس على القتال الشديد ، وحقلا لإنتاج جيل لا يخشى الموت ويعشق الشهادة ، يألف الشجاعة بالممارسة ، ويتعـلم القتال

بالأسوة ، ويحذق فنون الحرب فى ميادين القتال .

أستغفر الله ، فقد نسيت فى برنامج هذا الحصن مادة هامة وهى درس الأدب ، ولكن كانوا يدرسونه على نمط غريب أيضاً ، كانوا يقولون لأبنائهم إن جدكم ربيعة بن مكدّم كان بطلا كبيراً ، وكان شاعراً كبيراً ، ثم يروون أحداثه وشعره ، ويلزمونهم حفظه ، ثم يذكرون لهم من اشتهر بالفتك فى الجاهلية كثابت بن جابر ، والبَرّاض وتأبط شرا ، ثم من اشتهر فى الإسلام كمالك بن الريب ، وعبد الله بن سَبُرة ، وعبد الله بن حازم ، ويروون لهم فعالهم ويحفّظونهم أقوالهم ، ويعمدون إلى أقوى الشعر وأبعثه على القتال فيلزمونهم حفظه كقول عامر بن الطفيل :

إنى وإن كنتُ ابنَ سيد عامرٍ　　　وفارسَها المشهورَ فى كل موكب
لمَا سودتنى عامرٌ عن كَلَالة　　　أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمِى حماها وأتقى　　　أذاها وأرمى من رماها بمنكبى

وقول خالد بن الوليد : « ما ليلة أقرّ لعينى من ليلة تزف إلىّ فيها عرس إلا ليلة أغدو فيها لقتال عدو » .

إلى كثير من أمثال هذا الأدب الحماسى القوى الذى ينسجم وحياتهم ، ويخدم أغراضهم .

* * *

فى هذا الحصن العجيب ، وهذا الوسط الجنّىّ الغريب ، ولد بطلنا « فارس كنانة » أسامة بن منقذ حفيد فاتح الحصن سديد المُلْك أبو الحسن .

رباه أبوه وأمه من صغره تربية الفروسية ، يحبانه ولكن يحبانه شجاعا ، ويرعيانه ولكن يشفقان عليه من الإشفاق ، يدفعانه المخاطر دفعاً ، ويحرضانه على مواجهة الصعاب واجتهاده فى تذليلها ، مهما تكن العاقبة .

أسمعه — أيها القارئ — يقص علينا قصة صباه فيقول : ما رأيت والدى — رحمه الله — نهانى عن قتال ولا ركوب خطر مع حبه لى . ولقد حضرت يوماً وكان أبى وعمى قد خرجا لقتال الأعداء فلحقتهما ، فلما رآنى أبى قال : اتبعهم بمن معك وارموا أنفسكم عليهم . فخرجت ورميت نفسى واستخلصت ما استخلصت من عدوى .

ومرة كنت معه وهو واقف فى قاعة داره وإذا بحية عظيمة قد أخرجت رأسها من الرواق فوقف يبصرها ، فحملت سلما كان فى جانب الدار وصعدت إليها وهو يرانى فلا ينهانى ، وأخرجت سكيناً صغيراً من وسطى ووضعتها على رقبة الحية وهى نائمة ، وجعلت أحزها ، فخرجت الحية والتفت على يدى ( فما جزع ولا فزع ولا تكلم ) إلى أن قطعت رأسها وألقيتها فى الدار » .

ولم تكن أمه أقل من أبيه فى تربيته وتدريبه ، فلديها السلاح تعطيه للمقاتلة ، ولا تبخل على ابنها باستعماله .

— ٢ —

هذا أسامة صبيا ، قد وضع لتربيته منهجان : منهج للفروسية ، ومنهج للعلم والدين .

فأما منهج الفروسية فيتلخص فى تعليمه صيد الوحوش ليتعلم منه صيد الأعداء ، وكان الصيد ماهى الأسر الأرستقراطية فى ذلك العصر ، فى مصر والشام والعراق ، وكان لأسرة أسامة احتفال عظيم له ، وعناية كبرى به ، وإنفاق للأموال الكثيرة فى سبيله ، وكان أبوه « مرشد بن على » وعمه « سلطان » من أشد الناس ولعاً بالصيد ، وغراماً به ، وتفننا فيه .

وكان فى ضواحى شيزر متصيَّدان : أحدهما فى الجبل جنوبى الحصن

يصيدون فيه الحَجَل والأرانب ، والثانى أجمة فى الغرب على النهر يصيدون فيها طير الماء والدراج والأرانب والغزلان . ودعاهم ذلك إلى اقتناء حيوانات الصيد وجوارحه من كلاب وبزاة وصقور وفهود ، رتبت لها أماكنها وخدمُها الذين يعنون بها ، ويقومون بتغذيتها وتدريبها وإصلاحها ، فكان أبوه يبعث — حتى إلى القسطنطينية — من يشترى له منها بزاة ، وإذا سمع شهرة عن جارحة من الجوارح ، جدّ فى الحصول عليها أو على نسلها .

كان يخرج صباحا إلى الصيد من حين إلى حين مع أولاده الأربعة ، ومنهم « أسامة » ، ومعهم مماليكهم وسلاحهم ، ومعهم أربعون فارسا من أخبر الناس بالصيد ، فإذا وصلوا إلى المتصيد أمرهم والد أسامة بالتفرق كل مع جوارحه وحيوانه وغلمانه ، ثم يرسلون الطيور أو الكلاب ، ولا يزالون يومهم فى جرى وقفز وصيد يرتبون أمورهم كترتيب الحرب ، ثم يعودون فى المساء بصيدهم . وكان لذلك الصيد أثر حميد فى أسامة ، فقد عرّفه طبائع الحيوان والطيور وأكسبه علماً واسعاً بحيلها وقتالها وشجاعتها وجبنها وطرق معايشها .

حتى إذا مرن « أسامة » نازل الأسود والضباع ، وكان بالشام إذ ذاك أجمات كثيرة ترتع فيها الأسود ، فكان هو وصحبه إذا سمعوا بأجمة منها طاروا إليها ، ويقول فى حديثه : إن رجلا جاءه يخبره عن أجمة فى تل فيها ثلاثة سباع ، فخرج إليها هو وأخوه بهاء الدولة وقوم من صحبه ، فوجدوا لبؤة خلفها أسدان ، فخرجت اللبؤة ، فحمل عليها أخوه فطعنها طعنة قتلها ، وتكسر رمحه فيها ، ثم خرج أحد الأسدين ، فتكاثروا عليه بالرماح حتى قتل ، ثم خرج الثانى ، وكان أشد وأقسى ، وأعظم خلقة ، فحملوا عليه ، وكلما أصابته طعنة هدر ولوّح بذنبه حتى مات .

لقد عرف طبائع الأسود من كثرة منازلتها قال : « فوجدت منها الجبان

ومنها الشجاع ، وعرفت أنه إذا خرج من موضع فلا بد له من الرجوع إليه ، ولقد رأيت رأس الأسد يحمل إلى بعض دورنا ، فنرى السنانير تهرب من تلك الدار ، وترمى نفسها من السطح ، وكنا نسلخ الأسد ونرميه من الحصن فلا يقر به الكلاب ولا شىء من الطير . وما أشبه هيبة الأسد على الحيوان بهيبة العُقاب على الطير ! فإن العُقاب يبصره الفرّوج الذى ما رأى العقاب قط فيصيح وينهزم . هيبة ألقاها الله فى قلوب الحيوان لهذين الحيوانين » ثم يقول : « وقد قاتلت السباع فى عدة مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منها ما شاركنى فى قتلها أحد سوى ما شاركنى فيه غيرى ، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيرى ؛ فمن ذلك أن الأسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه وفيه غفلة وَبلَه ، ما لم يُجْرَح فحينئذ هو الأسد وإذ ذاك يُخاف منه » .

ثم خرج من هذا الصيد وقد جرح مراراً وكسرت أضلاعه مراراً ، ولكنه خرج أيضا فارساً عظيما ، وشجاعا نبيلا .

وكما تعلّم أسامة القتال فى الصيد تعلمه فى الانسان ، كانت غلطةً منه ولكن داعيها شريف نبيل . هذا أسامة الصبى واقفاً على باب داره ، فرأى غلاما لوالده يلطم صبيا من خدم الدار ، فجرى الصبى وتعلق بثياب أسامة يحتمى به ، وكان يكفى ذلك أن يكف الغلام احتراما للجوار على عادة العرب ، ولكن الغلام الكبير ما أبه لهذه التقاليد ، ولا احترم قوانين النجدة ، فضرب الصبى وهو محتم بثياب أسامة ، فأخرج أسامة من وسطه سكينا ضربه بها ضربة كانت القاضية .

***

وأما المنهج العلمى فوالده يحفظه القرآن ، ويأمره بتلاوته حتى فى الطريق وهم خارجون للصيد ، وعلماء كبار يعلمونه الحديث والنحو والأدب . فأبو الحسن السَّنْبَسى يعلمه الحديث ، وابن المنيّرة يعلمه الأدب ، وأبو عبد الله الطُّلَيْطِلى يعلمه

النحو ؛ فحفظ القرآن وسمع الحديث ، وتعلم النحو ، وحفظ آلاف الأبيات من الشعر الجاهلى ، وأخذ هو يكمّل نفسه بما يقرأ من كتب وبما يسمع من العلماء والشعراء رواد مجلس أسرته .

فكان فارساً أديباً وجنديا عالماً ، واستطاع أن ينتفع بخير المنهجين . كان منهج الفروسية قاسيا رققه العلم والأدب والشعر والدين ، وكان بعض شيوخه العلماء فيهم جبن وخوف ، فأخذ علمهم وترك جبنهم ، هـذا أستاذه ابن المنيِّرة يُطلب منه أن يتقلد رمحاً وترساً ويقف فى موضع من طريق الأفرنج حتى يروه فلا يجتازوه ، فيأبى ويقول : والله لو وقفتُ لاجتازوه كلهم . فيقال له : إنهم يهابونك لأنهم لا يعرفونك . فيقول : أنا أعرف نفسى . ثم يقرر مبـدأ خطيراً إذ يقول : « ما يقاتل عاقل » . فيغضب أسامة من سماعه هـذا المبدإ الجبان ويقول : « إنه كان بالعلم أخبر منه بالحرب ، فان العقل هو الذى يحمل على الإقدام على السيوف والرماح أنفة من موقف الجبان » .

ولابن المنيرة فصول أخرى من الجبن قصها أسامة وسخر منها ، فكان ينتفع بعلمه ويهزأ بجبنه .

ولعل برنامج العلماء من هذا التاريخ كان ينقصه أن يطعَّم بشىء من الفروسية .

***

اليوم يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ٥١٣ هـ . كان أسامة فى الخامسة والعشرين من عمره ، واليوم كان أول قتال قاتله ، خرج فيه مع عمه ورجال من قومه ، فخرج عليهم جماعة كبيرة من الصليبيين ، وكان قتال تشيب منه الأطفال . وأخذ الموت يحصد رجال أسامة ، وقد هان عليه الموت ، فهو يقاتل وتحته فرس مثل الطير ، ، يطعن هـذا فيأتى عليه ، ويدور على آخر فيطعنه من ورائه طعنة تنفذ من قدامه ، ويحمى ما استطاع من أصحابه ، فاذا أعيت فرسه ركب أخرى

أعدها مملوكه ، حتى انتهت الموقعة ورجع أسامة إلى شيزر مع من بقى سالما .

وفى سكون الليل بعث عم أسامة إليـه يطلبه ، فاذا عنده فارس من الصليبيين ، فقال له عمه : « هذا فارس أعجبه اليوم قتالك فجاء يهنئك بموقفك ، ويبدى إعجابه من طعناتك وشجاعتك » ؛ وهذه عادة الفرسان ، يعجب البطل بفعال البطولة ولو صدرت من خصومه ؛ وكان هذا هو الوسام الأول لحياته الحربية الطويلة ، ومن ذلك اليوم شعر بثقته بنفسه واعتماده على ربه وأنشأ يقول :

سَلْ بى كُماةَ الوغى فى كل مُعْتَرَكٍ يضيق بالنفس فيه صدْرُ ذى الباس
ينبئوك بأنى فى مضـايقها ثَبْتٌ إذا الخوف شَقَّ الشاهقَ الراسى
أَخوضُها كشِهاب القذف يَصحبنى عَضْبٌ كضوء سَرَى أو ضوء مِقباس
إذا ضَرَبْتُ به قِرْنا أنازله أَوْجاهُ[1] عن عائدٍ يغشاه أو آس

وهكذا كانت حياته بعدُ ، كل يوم غارة منه يغيرها ، وغارة على قومه يردُّها ، ويخرج يوما يقاتل العرب ويوما ينازل الفرنج ، ويوما يقاتل فيقتـل ، ويوما ينهزم ويجرح . هذا يوم يخرج هو وصديقه « جمعة النُّميرى » يهزمان ثمانية من فرسان الصليبيين ، وهذا يوم يخرجان أيضا فيهزمهما — على حد تعبيره — رُوَيجل صغير الجسم معه قوسه ونُشَّابة ، فيعجبان كيف هزما ثمانية وهزمهما رويجل ! حياة كلها مغامرات وكلها فروسية ، ثم يترجم ما يجيش فى صدره ويدور بخاطره إلى شعر قوى جميل :

سأنفق مالى فى اكتساب مكارمٍ أعيش بها بعد الممات مُخَلَّدا
وأسمى إلى الهيجاء ، لا أرهب الردى ولا أتخشَّى عامـلا ومُهنَّدا
فإن نلت ما أرجو فللمجد ثم لى وإن مت خلَّفت الثناء المؤبَّدا

---

(١) أوجاه : دفعه ونحاه .

تُجَهِّل فى الإقدام رأيى مَعاشِرٌ ... أَرَاهُمْ إذا فروا من الموت أَجْهلا
أيرجو الفتى عند انقضاء حياته ... — وإن فرّ — عن وِرْدِ المنية مَزْحَلا
إذا أنا هِبْت الموت فى حومة الوغى ... فلا وجدَت نفسى من الموت مَوْئِلا
وإنى إذا نازلت كَبْشَ كتيبةٍ ... فلست أبالى أيُّنا مات أوَّلا

---

لأرمينّ بنفسى كل مَهْلكةٍ ... مَخُوفَةٍ يتحاماها ذوو البـــاس
حتى أصادف حتفى فهو أجمَلُ بى ... من الخمول — وأستغنى عن الناس

هـذا أسامة عمره ثلاثون . . . أربعون . . . أربع وأربعون ، ومعيشته فى حصن « شيزر » على نمط واحد : غزو وقتال وصيد ، وتحمل أعباء يتخللها لمحات من الراحة .

لقد أجاد فى حياته حرب الخصوم ، وشهد فى شبابه أيضاً حرب العواطف ، فأحب وتيّمه الحب ، ونعم بالوصال ، وألم للفراق ، وغنى بشعره لحبـه ، كما غنى به لحربه :

شكا ألمَ الفِراقِ النـاسُ قبلى ... ورُوِّع بالنّوَى حىٌّ ومَيْت
وأما مِثْلُ ما ضمّت ضلوعى ... فإنى ما سمعت ولا رأيت

---

أحبابَنـا ! كيف اللقاء ودونكم ... خوضُ المهامه والفيافِى الفِيحُ
أبـكيتمُ عينى دماً لفراقِـكم ... فـكأنما إنسانُهـا مجروح
وكأن قلبى حين يخطر ذكركم ... لهب الضرامِ تعاورته الريح

فلما بلغ الأربعين وعلا رأسه المشيب صبا عن الحب وفرغ للمجد وقال :

قالوا نهته الأربعون عن الصِّبا ... وأخو المشيب يحور ثُمّت يهتدى

كم حار فى ليل الشباب فدلّه صُبْحُ المشيب على الطريقِ الأقصد
وإذا عددت سِنِيَّ ثم نقصتها زمنَ الهموم فتلك ساعة مولدى

— ٣ —

اشتهر الأمير أسامة ودوّى اسمه فى الشام ومصر والعراق ، عرفه أهل الحصن بالنجدة والشجاعة والكرم ، وعرفه الصليبيون فارساً نبيلا يسير على أدق تقاليد الفروسية ، وعرفه العالم الإسلامى بطلاً يدافع عن الإسلام و يفتك بالصليبيين . ولكن . . . .

كان أمير الحصن عمه « سلطان » أيضاً بطلاً فارساً ، حنا على أسامة وعلّمه البطولة والفروسية ، وكانت تعجبه مخايله ، وكلما أتى عملاً جليلاً أو فعلاً نبيلاً اهتز له فرحاً ، وفى نفسه أن أسامة ولىّ عهده ، وحامى الحصن من بعده ، وكل قومه يرشحونه لذلك — كان هذا كله يوم كان عمه عقيماً لم يولد له ، فأما وقد رزق ابنه محمد ، وشب ولقب بناصر الدين ، فقد تحوّل هذا الحب إلى غَيْرة ، وأصبح كالمرأة تغار من ضرتها ، فأعمال أسامة النبيلة تزعجه ، وفعاله تقض مضجعه . و يأتى أسامة يوماً برأس أسد قتله ، و يظن أن هذا يبهج عمه ، و يقول فى سذاجة : « إنى أخاطر بنفسى لأتقرب إلى قلب عمى » . فتقول له جدته الخبيرة المجربة : « لا والله ، ما يقرّبك هذا منه ، ولكنه يزيده منك بعداً ووحشة » .

ويتقرب قرناء السوء فيُعلون من شأن محمد ، و يصغرون من شأن أسامة ، ويختلقون ما لم يكن ، ويشعلون نيران العداوة ، فيوسوسون لأسامة بما يزيد غيظه ، و يوسوسون « لسلطان » بما يحرج صدره ، وتفسر الأقوال والأفعال تفسيراً مزعجاً يزيد النار اشتعالا ، و يتحزب قوم « لسلطان » جهراً ، ويتحزب آخرون لأسامة سرا ، وتصبح معيشة أسامة فى الحصن لا تطاق ، فيفكر فى الرحيل ، و يقول :

نافقتُ دهرى فوجهى ضاحك جَذِل ... طَلْق وقلبى منه مُكْمَدٌ باكِ
وراحةُ القلبِ فى الشكوى ، ولَذَّتُها ... لوأمكنتْ -- لاتساوى ذِلَّة الشاكى

---

لئن غضّ دهرى من جماحِىَ أو ثَنَى ... عِنانِى أو زَلَّت بأخمصِىَ النعْل
تظاهر قوم بالشماتِ جهالة ... وكم إحْنَةٍ فى الصدر أبرزها الجهل
وهل أنا إلاّ السيفُ فَلَّ حدَّه ... قِراعُ الأعادى ثم أرهفه الصقلُ

---

وما أشكو تلوُّن أهلِ وُدِّى ... ولو أجْدَت شِكايَتُهم شكَوْتُ
مللتُ مقالهم ويئست منهم ... فما أرجوهُمُ فيمن رجوتُ
إذا أدْمَتْ قوارِضُهُمْ فؤادى ... كَظَمْتُ على أذاهم وانطويت
ورحت عليهمُ طَلْقَ المحيا ... كأنى ما سمعت ولا رأيت
تجنّوا لى ذنوباً ماجَنَتْها ... يداى ولا أمرت ولا نهيت
ولا والله ما أضمرتُ غدراً ... كما قد أظهروه ولا نويت
ويومُ الحشر موعدنا وتبدو ... صحيفةُ ما جنوه ، وما جنيتُ

إلى أين ؟

إلى دمشق ، فأميرها يطلبه ويلح عليه فى المجىء .

* * *

كانت الشام والجزيرة فى ذلك العهد مبعثرة ، لا تؤلف وحدة ، فكل بلد كبير عليه أمير مستقل يجبى أمواله ، ويدافع عنه برجاله ؛ ففى دمشق أمير ، وفى حلب أمير ، وفى حمص وحماة أمير ، وهكذا . وكانت العلاقة بين هؤلاء الأمراء علاقة عداء غالباً ، يتخاصمون ويتقاتلون . والصليبيون يجمعون أمرهم ، وينسون الإحن بينهم . وتقوم الكنيسة بفض النزاع وتدعو إلى الوئام ، وتطلب من أمم

الغرب من فرنسيين وألمان و إنجليز أن يتحدوا و يتعاونوا لإنقاذ بيت المقدس من يد المسلمين ، وتبذل الجهد للتوفيق بين روما والقسطنطينية ، على شدة ما كان بينهما من نزاع وخصام ؛ فتنجح الدعوة و يتصادق الخصمان ، وتتجمع الجموع هاجمة على الشرق تنتزع من المسلمين بلدة بعد بلدة ، والمسلمون يقاتلون بلداناً متفرقة لا كتلة واحدة ؛ وقد يثور النزاع بين أمير مسلم وأمير مسلم ، فيستنجد هذا بالصليبيين ، ويستنجد هذا بهم أيضاً ، فينصرون هذا وذاك ، لأن فى إضعاف كلٍّ على أى حال تحقيقاً لغرضهم ، ونيلا لمقصدهم ؛ فكانت البلاد الإسلامية تنتظر زعيماً غيوراً قويا يضم الإمارات تحت سلطانه ، ويؤلف منها وحدة متماسكة ، وقد وجدته أولا فى عماد الدين زنكى ، ثم فى ابنه نور الدين محمود بن زنكى ، ثم فى تلميذ نور الدين صلاح الدين الأيوبى .

***

كان أمير دمشق وقت أن دخلها أسامة شهاب الدين محمود بن بورى بن طُغْدَكين ووزيره معين الدين أنَر ، وكلاهما يحب أسامة — وخاصة الوزير — ويفرح باقامته بينهم لفروسيته ونجدته وغَنائه فى الحروب ؛ فكان بطلَ دمشق كما كان بطل شيزر ، يخرج للصيد مع الأمير ، ويقاتل أعداءه ؛ ويرى الناس فيه أنه خير محارب فى جند دمشق ، وألمع درة فى تاج الأمير ؛ وتتوثق الصلة بينه وبين الوزير معين الدين ، ويعيش على هذه الحال سبع سنوات ؛ ثم ينقلب الناس على معين الدين ، وتسوء حاله ، ويذهب عزه ، ويتأثر مركز أسامة بمركز صديقه ، فتنهب داره ويسرق سلاحه ، ويقر الوزير بالعجز عن مساعدته ، وينصحه بمغادرة دمشق .

فإذاً — إلى مصر ، فهى تعرفه كما تعرفه دمشق .

***

هذه مصر فى أواخر العهد الفاطمى ، وقد تعفّنت فيها أداة الحكم ؛ فالخليفة مسلوب الأمر ، له الاسم ولوزيره الحكم ، والأمراء يتقاتلون على الوزارة ، فمن غلب نالها وألبسه الخليفة خلعتها ، فإذا غُلب عُزل وخلع الخليفة خلعته على الغالب ؛ والجنود سودانيون منقسمون أحزاباً ، وعرب متفرقون شيعاً ، وأتراك ومغاربة تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى . والخلفاء — وقد سُلبوا الحكم — فرغوا للذات وتدبير المؤامرات ، فإذا كرهوا وزيراً دبروا المؤامرات لقتله أو خلعه . والأمراء إذا طمعوا فى الوزارة وأعيتهم جنودهم انتصروا بغيرهم ؟ فهذا يكاتب الفرنج يستنصرهم ، وهذا يكاتب أمراء الشام يستصرخهم ، والخليفة يقتل ابنه لأنه استُوزر فاستبد بأبيه ، وابن الوزير يحرّض على قتل أبيه ويمنّى بالوزارة من بعده — والأمر فوضى والناس فى كرب .

ما لأسامة وهذه الفتن وهذه الدسائس وهذا الجو السام ، وقد خلق لا يستنشق إلّا الهواء النقى على ظهر فرسه فى صيد أو غزو ، وقد تخلق بأخلاق الفروسية من شهامة ونبل ؟ ولكنها الأقدار تحكم على الوردة أن تُرمى فى مستودع الأقذار — على أنه لم يكن بعيداً عن الدسائس كل البعد ؛ فقد شاهدها فى بلاط عمه « سلطان » ، . وشاهدها فى بلاط أمير دمشق ووزيره ، ولكنها كانها صورة مصغرة لما سيلقاه فى مصر ، فى البلاط الفاطمى .

* * *

دخل « أسامة » مصر سنة ٥٤٩ هـ وقد نيّف على الخمسين ، فى خلافة الحافظ لدين الله الفاطمى ، ولم يكن أسامة بالمغمور ولا بالمجهول ، فاستقبله الخليفة وأنزله منزلا كريماً ، وأغدق عليه من نعمه المتواصلة ، وقد بهرت أسامة نخفخة القصور وزينتها ، وذهبها وفنها وصورها وتماثيلها ، وحراسها ورسومها ، مما لم ير مثيله فى دنياه ، ولا حلَم به فى منامه ؛ ولكن تبين له بعدُ أنها صورة جميلة

ولا روح ، ومظهر أنيق ولا حياة ، ومتحف آثار يدل على مجد قديم ورثه نسل ذليل . ونضح على أسامة شيء من ذلك الزخرف ، فعاش فى دار من دور الأفضل ابن أمير الجيوش ، وهى دار — كما يقول — فى غاية الحسن ، وفيها بسطها وفرشها وآلاتها من النحاس ، ورفل فى الحرير ، وتبحبح فى النعيم .

لقد أراد « الحافظ » أن يتخذ منه فارسًا بطلاً ، يستعين به فى أزماته ، ويستخدمه فى مهماته ، ويغدق عليه من خيراته ، ويشركه فى لذاته ، ولكن هل أخلدت نفس أسامة إلى النعيم ، ووجدت راحتها فى الراحة ؟ لا ، لا . ولقد مثل نفس الدور الذى مثلته من قبل ميسون بنت بَحْدَل الكلبية البدوية لما تزوجها معاوية ونقلها من بادية كلب إلى قصور دمشق ، وقد أفزعها النعيم فصرخت :

لبيتٌ تخفق الأرواحُ فيه  أحبُّ إلىَّ من قصر مُنيف
ولُبْسُ عباءةٍ وَتقرّ عينى  أحبُّ إلىَّ من لُبْس الشُّفوف

---

وأصوات الرياح بكل فج  أحب إلىّ من نقر الدفوف

---

خشونة عيشتى فى البدو أشهى  إلى نفسى من العيش الطريف

كذلك صرخ أسامة فقال :

انظر إلى صَرْف دهرى كيف عوّدنى  بعد المشيب سوى عاداتىَ الأُوَل
قد كنت مِسْعَرَحَرْبٍ كلما خَمَدَتْ  أذْ كَيْتُهَا باقتداح البيض فى القُلَلِ
همّى مُنازلة الأقران أحسبهم  فَرائسى ، فهمُ منى على وَجَل
أمْضَى على الهول من ليل ، وأهجَمُ من  سَيْل ، وأقدَمُ فى الهيجاء من أَجَل
فصرتُ كالغادة المِكسال مَضْجَعُها  على الحَشَايا ، وراء السجف والكِلَلِ
قد كدت أعْفَن من طول الثَّواء كما  يَصْدَى المهنَّدَ طولُ اللبث فى الخلل

أروح بعد دُروع الحرب فى حُلَلٍ     من الدَّبِيقِى ، فبؤسا لى وللحُلَلِ
وما الرفاهة من رَامى ولا أَرَبى     ولا التنعم من شانى ولا شُغلى
ولست أرضى بلوغ المجد فى رَفَه     ولا العُلَى دون حَطْمِ البيض والأسَلِ

ولكنه أقام على مضض ، يشقى فى النعيم ، إذ كان من طبعه أن ينعم فى الجحيم .

فهاهو مقرب إلى الخليفة الحافظ ، تفتح له أبواب القصر إذا حضر ، ويُتفقد إذا غاب ، ويركب الفرس بسرج من ذهب ، وما كان لأحد أن يركب أيام الحافظ بسرج من ذهب غيره .

ومع هذا فلا ينسى فروسيته ، فقد كان للحافظ جوارح كثيرة من البُزاة والصقور والشواهين البحرية ، وكان عليها رجال يخرجون بها للصيد فى كل أسبوع مرتين ، فكان أسامة يخرج معهم ، فيصيدون طيور الماء وطيور البر ونوعاً من البقر وحشيا كان يسمى بقر بنى إسرائيل — أصغر من البقر وأشد منه عَدْواً — وفرس البحر ، وكان فى النيل كثيراً (ويحدثنا أنها مثل البقرة الصغيرة ، وعيناها صغيرتان ، لها أنياب طوال فى فكها الأسفل ، صياحها مثل صياح الخنازير) .

مات الحافظ وخلفه ابنه الظافر وعمره سبع عشرة سنة ، فزاد الأمر سوءاً ، وتنازع الأمراء على الوزارة ، وكثرت الدسائس ، واضطر أسامة أن يدخل فى المعترك ويغمس يده فى المفاسد .

— ٤ —

هذا الخليفة الفاطمى « الحافظ » يموت وله ابنان كبيران ، يعدل عنهما ، ويعهد بالخلافة لأصغر أولاده سنا ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، ويوصى

بالوزارة لأمير مغربى اسمه ابن مَصّال ، ويلقب الخليفة الجديد الصغير بالظافر .

وهذا الظافر فتى ربى تربية ناعمة . لايعرف غير اللهو واللعب ، والسكنى إلى الجوارى وسماع الأغانى ، فأما تدبير الأمور فللوزير ابن مَصّال .

والخليفة يحب ابن مصال ، ويحب بقاءه ، وولاة الأقاليم كلهم طامع فى الوزارة ، فيأبى ابن السَّلّار الكردى الأصل ووالى الإسكندرية والبحيرة ، فيجمع جنده وسلاحه ، ويهجم على القاهرة ، ويقتل ابن مَصّال ، ويتربع فى دست الوزارة ، والخليفة مضطر إلى إقراره وهو له كاره .

وفى جند ابن السَّلّار ابن زوجته عباس ، رجل مغربى عربى الأصل من تميم ، وله ولد جميل اسمه نصر ، من خلان الخليفة الظافر وندمائه ، فيوعز الخليفة إلى نصر وعباس بقتل ابن السلار ليكون عباس فى الوزارة مكانه ، ويتم ذلك ويقتل ابن السلار ويستوزر عباس ، ثم بعد مدة يسأم الخليفة وزيره الجديد عباساً ، فيوعز إلى ابنه نصر أن يقتل أباه ليحل محله ، ويتردد نصر ثم يُطلع أباه على ذلك ، فيتآمران على قتل الخليفة فيقتله نصر ، ويدخل عباس القصر ، فيتّهم أخوى الخليفة بقتله ، ويقتلهما ويولى طفلا صغيراً هو ابن الظافر ويلقبه بالفائز ، وسنه خمس سنين . وتهيج مصر على عباس وابنه ، ويكاتب نساء القصر طلائع ابن رُزّيك الأرمنى الأصل ووالى المنية ، ليحضر فينتقم من قاتلى الخليفة ، فيحضر وينتصر ، ويهرب عباس وابنه إلى الشام ، فيقتل عباس فى الطريق ، ويقبض على ابنه نصر ، فيرسل إلى القصر ، فيمثل به ويعلق على باب زويلة .

***

هذه صورة سينمائية للأحداث التى حدثت فى مصر أثناء إقامة « أسامة » بها . ما موقفه ؟ كيف يتصرف ؟ كيف يستخدم فروسيته والفروسية لا تعرف العمل فى الخفاء ؟ الحق أنه موقف مربك للرجل الصريح .

لقد أصبح « أسامة » وله جنود ومماليك وأعوان ، يجلس فى مجلس الأمراء للتشاور فيما يعمل ، ويقربه الولاة إليهم ، ويتمناه كل فى صفه لنجدته وغنائه .

لقد كان من أنصار القصر يوم كان الحافظ يتولى الخلافة ، لأنه رب نعمته ، ولأنه رجل ؛ ولـكنه انحرف عن القصر لما رأى من لهو الظافر ولعبه وتهتكه ، وناصرَ ابن السَّلار ، يحارب فى صفه ويقاتل بجانبه ، فكرهه القصر لأنه يناصر عدوه — وكان ابن السلار رجلا مقداما شجاعا يحب رجال العلم ، ولـكنه قاس لايرحم ، يعاقب أكبر عقوبة على أصغر جريمة ، فأحبه أسامة لشجاعته ، وأغضى عن قسوته ، وأمن ابن السلار إليه وأنس به ، وبعثه بمهمة حربية إلى نور الدين محمود بن زنكى ليتفق معه على تكوين جيش لمحاربة الصليبيين فى الشام ليخفف ضغطهم على مصر ، وقام أسامة بمهمته وحارب الصليبيين فى عسقلان وبيت جبريل ، وظل يقاتل حتى أحس ابن السلار بحرج مركزه فى مصر ، فاستدعاه ليكون بجانبه ففعل .

فلما قتل ابن السلار واستوزر عباس وجدنا أسامة بجانبه وبجانب ابنه نصر يستشيرانه فى أدق الأمور حتى فيما أوعز به الخليفة إلى نصر أن يقتل أباه ، فينهاه عن ذلك ، ويحذره غضب الله ووخز الضمير ؛ ولابد أن يكونا قد أطلعاه على قتل الخليفة ، مقابلةً للمؤامرة بمؤامرة ، ومن هنا اتهمه كثير من المؤرخين باشتراكه فى المؤامرة ، وليس ذلك ببعيد عليه ؛ وعذره أن الخليفة الغِرّ هو البادئ بتحريض الابن على أبيه ، فالجزاء من جنس العمل ، ولـكن عباسا أسرف فقتل الأبرياء من إخوة الظافر ، وهو عمل لايبرره شىء ، فكان على أسامة أن ينفض يده منه ويقطع صداقته ، ولـكنه لم يفعل .

لقد دخل طلائع بن رزيك مصر وكان لأسامة صديقا أيضاً ، وكان أسامة يحبه ، وعرض عليه طلائع أن يكون بجانبه وله المشاركة فى عزه وجاهه ، والدنيا

مقبلة عليه ؛ ولكن عباسا فى أشد أوقاته حرجا يلجأ إليه ويطلب منه أن يصحبه فى الخروج من مصر حتى لا يغتاله مغتال ؛ ويحار أسامة بين صديق تقبل عليه الدنيا وصديق تدبر عنه ، والذى تقبل عليه لم يلوث يده بالقتل ، وإنما ينصر المظلوم ، والذى تدبر عنه قد سفك الدماء البريئة ، ولكنه فى شدة وقد استنجد به ليحفظ حياته ؛ وأخيراً بعد تردد طويل وشقاء ضمير اعتذر لطلائع الفائز وخرج من مصر مع عباس البائس .

***

عشر سنين فى مصر هى أسوأ حياته . لقد خلق لقتال الصليبيين ، فقضاها فى مصر فى قتال بعض المصريين لبعض المصريين ، وخلق للعيشة القاسية ، فعاش فى مصر عيشة ناعمة ، وخلق للصراحة فعاش فى المؤامرات ؛ وخلق لا يأبه المال فأتاه المال فى مصر من حيث لا يحتسب ؛ ولكن الله عاقبه على أنه لم يعش كما خلق ، .فكان خروجه سلسلة كوارث ؛ يصحب عباسا فى الطريق ، ويترك أسرته فى حماية طلائع بن رزيك ، فيكاتب القصرُ وبعض أهل مصر الفرنج والعربان أن يكمنوا لعباس ومن معه فى الطريق ، فيخرجون عليهم ، ويقتل عباس ويؤسر نصر ويُرَد إلى مصر مخفوراً ، وينجو أسامة بأعجوبة بعد أن يصاب فى رأسه بضربتين بالسيف يفقد بهما وعيه ، وأخيراً جدا يصل إلى دمشق فى أسوإ حال .

ثم يصاب فى أسرته وماله .

لقد استراح قليلا واسترد قوته وقد نيّف على الستين ، ولا يزال جنديا محاربا له قوة الشباب ، فالتحق بجيش نور الدين محمود بن زنكى ، وبذلك عاد إلى موقفه الطبيعى ؛ وكاتبه طلائع يطلب منه أن يعود إلى مصر ، وإذ كان جنديا يحب القتال فى الثغور فقد عرض عليه طلائع أن يوليه أسوان ، ويفتح بجنده الحبشة ، وبذلك لا يناله سوء من استيحاش القصر منه ، فاستشار فى ذلك نور الدين ،

فقال له : « أما كفاك ما لقيت من مصر وفتنها ؟ » .

فاعتذر لطلائع وسأله أن يرسل إليـه أسرته بحراً ، ولـكن طريق البحر أيضاً في يد الصليبيين ، فحل نور الدين الإشكال ، بأن يكتب إلى « بلدوين الثالث » ملك أورشليم ليمنحه أماناً لأسرة أسامة ، فمنحه الأمان كتابة .

***

هذه أسرة أسامة في خمسين نسمة بين رجال ونساء ، ومعهم أموالهم وحليهم وجواهرهم وذهبهم وفضتهم ، وسيوف أسامة وسلاحه ، وقيمتها كلها ثلاثون ألف دينار ، ومعهم أيضاً مكتبة أسامة التي اقتناها من خير مخطوطات مصر ، وفيها أربعة آلاف مجلد ، كل ذلك ينزل في مركب في دمياط ومعهم أمان بلدوين ، حتى إذا وصلوا إلى عكا أرسل « بلدوين » رجاله بالفؤوس يكسرون المركب ويأخذون ما فيها ، ويحتج بعض رجال أسامة بالأمان ، فلا يلتفت إليهم ، ويأخذ كل ما معهم ، ويترك لهم خمسمائة دينار توصلهم إلى بلدهم ؛ ويحمد أسامة الله كثيراً على سلامة أهله وولده ، ويحز في نفسه قليلا ضياع المال وكثيراً ضياع الكتب ؛ وبذلك يُختم فصل من الرواية عنوانه « أسامة في مصر » .

***

ها هو في الرابعة والستين وقد عاد فارسا من فرسان المسلمين ، يقاتل في جيش نور الدين ؛ والأزمان التي عركته في مصر عركت أهله في حصن شيزر ، فقد مات عمه سلطان ، وولى الحصن ابن عمه الذي كان ينافس أسامة .

والسنة سنة ٥٥٢ هجرية ، وقد ازّين الحصن لحفل ختان ابن الأمير ، واجتمع في الدور الفسيحة آل ابن منقذ كلهم ، والراقص يرقص والزامر يزمر والطبال يطبل ، والقوم في هرْج ومرْج ، والسرور بالغ بهم غايته ، وإذا بالأرض تزلزل زلزالا عنيفا ، فيتسابقون إلى باب الدار ، فترمح فرسُ الأمير أولهم فيقع ،

وينسد الباب وتقع الدار على من فيها ويهلك كل أهل أسامة ، ويأتيه الخبر فتهدّ قواه ثم يستردها بإيمانه ويقول :

لم يترك الدهر لى من بَعْدِ فقدهمُ قلباً أُجشِّمه صبراً وسلوانا
فلو رأونى لقالوا مات أسعدنا وعاش لاهمّ والأحزان أشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبّرنى عنهم فيُوضِح ما قالوه تبيانا
بادوا جميعاً وماشادوا ، فواعجبا للخطب أهلك عُمّاراً وعمرانا
هـذى قصورهمُ أمست قبورَهمُ كذاك كانوا لها من قبلُ سُكّانا

وكذلك خربت أكثر بلاد الشام ، فحماة والمعرة وحمص وكفر طاب ؛ وأخطر ما فى الأمر أن الزلزال هدم أسوار البلاد والقلاع ، وانكشفت البلاد للصليبيين ، فقام نور الدين يعيد الأسوار ويقيم القلاع ، ووضع يده على حصن شيزر وعمر أسوارها ودورها وأعادها جديدة .

***

سبعون — خمس وسبعون . . . ثمانون . . . هو فى حصن كَيْفا ، وقد دب إليه الضعف ، وارتعشت منه اليد :

مع الثمانين عاث الدهر فى جَلَدى وساءنى ضعفُ رجْلى واضطراب يدى
إذا كتبت فخطى جِدُّ مضطرب كخط مرتعش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يدى عن حملها قلماً من بَعدِ حَطْم القنا فى لَبة الأسد
وإن مشيتُ وفى كفى العصا ثقُلت رجْلى كأنى أخوض الوحل فى الجَلَد
فقل لمن يتمنّى طول مدته هـذى عواقب طول العمر والمُدَد

***

ألومُ الردى ، كم خضتُه متعرضاً له وهو عنى مُعْرِض متجنّبُ

وكم أخذت منى السيوفُ مآخذ الـ  حِمام ، ولـكنّ القضاء مُغَيَّبُ
إلى أن تجاوزتُ الثمانين وانقضَتْ  بُلهْنية العيش الذى فيـه يُرغَبُ
فمكروه ماتخشى النفوس من الردى  ألذّ وأحـلى من حياتى وأطيب

هذا صلاح الدين بطل المسلمين يأتى بالأعاجيب من فعال البطولة ، ويستنزل من الأفرنج الحصن بعد الحصن . . . آه . . . لو كنت شابا .

— ٥ —

علمت الأحداث « أسامة » أن يؤمن الإيمان كله بالقدَر ، وأى شىء يدعو إلى الإيمان بالقدر كالحرب والصيد ؟ هذا حىّ تدل كل المظاهر على أنه سيحيا فيموت ، وهـذا حى تدل كل الدلائل على أنه يموت فيحيا ؛ وهو نفسه يقف مواقف يرى فيها الموت محققاً ثم ينجو ، ويستهين بمواقف لا يرى فيها شيئاً من الخطورة فيصاب .

وكان له حس دقيق بهذه الأمور ، فهو يراها ويلتفت لها ويَعجب منها ، ويحمله ذلك كله على الإيمان بالقدر خيره وشره .

رمى مرة — وهو صبى — عصفوراً بسهم فلم يصب المرمَى ، ثم ارتد السهم فأصاب عصفوراً آخر كان يطل برأسه من عشه — ولم يكن أسامة رآه — فقتله .

وهو وصاحبه مرة يهزمان ثمانية فرسان ، ثم يهزمهما « رُوَيجل » .

ورجل يقتل أسداً ، ثم تقتله عقرب .

و « نَدَى القُشَيرى » الفارس يطعنه فارس صليبى فيقطع شرياناً فى صدره ، ويخرج الرمح من جانبـه الآخر — وكل الظن ألا يصل إلى بيته حيًّا ، فيسلم ويصح ، وتلتئم جراحه ، ويبقى سنة إذا نام على ظهره لايقدر على الجلوس إلا إذا أسنده اثنان ، ثم يزول ما يشكو منه ، ويعود مقاتلاً كما كان .

و « عتّاب » البطل المغوار ، الضخم الجسم ، الفخم الصوت ، الذى يفعل

الأفاعيل بالأعداء ويدور اسمه على كل لسان لشجاعته وفروسيته ، يدخل بيته فيجلس على أريكة عليها غطاء ، ويعتمد فى جلوسه على يده ، فتدخل فيها إبرة ، فوالله لقد كان يئن أنيناً يسمعه من بالحصن لعظم خلقته وجهارة صوته ، ثم يموت ، و « ندى » لا يموت .

ومعلم مكتب فى قرية يعرض له أمر يحمله على الخروج من المكتب ، وبعد مفارقته بقليل تزلزل الأرض ويقع البناء على الأطفال ، فيموتون كلهم وينجو المعلم .

وكان « أسامة » يقاتل الإسماعيلية مرة ، حتى إذا انتهى القتال سمع رجلاً يصيح : « الرجال ، الرجال » ، فبادر هو وصحبه وسألوه عن صياحه ، فأشار إلى إصطبل قديم مظلم ، وقال : أسمع هنا صوت رجال ، فدخلوا فوجدوا رجلين من الإسماعيلية فقتلوهما ، ووجدوا إسماعيليا ورجلا آخر من رجالهم يتقاتلان ، فقتلوا ، الإسماعيلى وحملوا صاحبهم إلى المسجد وبه جراحات عظيمة وهو لا يتحرك ولا يتنفس ويظن كل من رآه أن قد مات ، ثم أخذ نفسه يتردد ، فخاطوا جراحه فى رقبته وجسمه ، ثم عاد إلى صحته كما كان .

وأصبح « أسامة » يوماً وهو واقف قرب الحصن ، فرأى ثلاثة شخوص مقبلة ، أما اثنان فكالناس ، وأما الثالث بينهما فلم يتبينه ، حتى إذا قرب رأى رجلاً قد ضربه إفرنجى بسيفه فى وسط أنفه ، فقطع وجهه إلى أذنيه وقد استرخى نصف وجهه حتى تدلى إلى صدره . وبين النصفين من وجهه قريب من شبر ، فدخل البلد وخاط الجرّاح وجهه وداواه ، والتحم الجرح وشفى ، وسموه ابن غازى « المشطور » من أجل ذلك .

وهو بنفسه عبرة العبر فى ذلك ، فكم قاتل أسوداً ثم كادت تقتله ضبع ، وكم أخطأ التقدير فخرج عليه الكمين وهو يظنه فى مأمن ، وهو يقاتل على فرس

يظهر بعد أنه من أردإ الأفراس ، ولا يظن نفسه تنجو ثم ينجو ، ويخرج عليه العرب والفرنج فى وادى موسى فيقتلون عباساً ومن معه و يسلم هو ، إلى كثير من أمثال ذلك .

كل هذه المناظر وأمثالها أسلمته إلى الإيمان بالقدر إيماناً كإيمان العجائز . والإيمان بالقدر سلاح ذو حدين ، فأحياناً يدعو إلى التواكل والخمول وترك الأمور تجرى كما تشاء ، وعدم الإيمان بالربط بين الأسباب والمسببات ، وهذا أقبح وجهيه ، وأثلم حديه ، وهو الذى تلجأ إليه النفوس إذا ضعفت والقلوب إذا ماتت ، وأحيانا يدعو إلى الشجاعة وركوب الأخطار فى غير خوف ، والإقدام فى غير فزع ، فالأعمار مقدرة ، والإقدام لا يقصرها ، والإحجام لا يمدها ؛ وهذا التفسير الأخير هو الذى كان يعتنقه المسلمون فى الصدر الأول من حياتهم ، والذى كان يعتنقه أبطال المسلمين فى كل عصر .

اسمع « أسامة » يقول : « إن ركوب أخطار الحروب لا ينقص مدة الأجل المكتوب » . « ولا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففى بقائى أوضح معتبر . فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وضُربت بالسيوف ، وطُعنت بالرماح ، وجُرحت بالسهام ؛ وأنا من الأجل فى حصن حصين » .

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا قسراً إلى الإقرار بالأقدار
ما أوقد ابن طليبَ قط بداره ناراً ، وكان خرابها بالنار[1]

* * *

إن كان « أسامة » فى الثمانين لا يصلح لحمل السيف ، فيده تستطيع أن

(١) ابن طليب مصرى عرف بالبخل حتى رمى بأنه لا يوقد ناراً فى بيته بخلا منه ثم احترقت داره بالنار .

تحمل القلم ، وإن كان درس الصيد فى صباه علمه الفروسية ، فدرس الأدب فى صباه وفى فترات راحته طول عمره علمه التأليف فى الأدب ، فهو يعكف من قبيل الثمانين إلى ما بعد التسعين على المطالعة والدرس والتأليف .

يؤلف فى الأدب « لُباب الآداب » يقسمه إلى أبواب ، ويذكر فى كل باب ما ورد فيه من القرآن ، ثم الحديث ثم الآثار نثراً ونظما ، منها ما ورد فى كتب الأدب الأخرى ومنها ما لم يرد ، ومنها أحداث حدثت له ، وأمور حدثت فى زمنه [(١)] ، ويؤلف فى نقد الشعر ، وفى الشيب والشباب ، وفى تاريخ القلاع والحصون ، وفى أخبار النساء ، وفيمن شهد بدراً من الفريقين الخ .

ويؤلف كتاباً هاما أشبه بالمذكرات يكتبها العظماء فى أحداثهم ، وإن لم تكن مرتبة ولا مبوبة ويسميه « الاعتبار » [(٢)] .

وهو — فيما وصلنا من تأليفه — واسع الاطلاع ، حسن الالتفات ، صحيح التقدير ، ظريف الروح ، ظريف الاستخدام لما يحيط به من ظروف .

* * *

قد صوّر لنا فى كتابه الاعتبار ، وقليل فى لباب الآداب صورة دقيقة لنظرة المسلمين إلى الصليبيين فى عصره ، وأوضح لنا كثيراً من قوانين الفروسية عند المسلمين والأفرنج ، وهو لا يستحل ذكرهم من غير أن يعقب عليه بخذلهم الله أو لعنهم الله ، ومع هذا لا بأس من أن يتخذ من بعضهم أصدقاء ، فهو يكره منهم فكرة الصليبية ، ويصادق بعضهم لصفاتهم الشخصية .

يعجب لشجاعتهم ويقول : ليس لهم من فضائل الناس سوى الشجاعة ،

---

(١) نشرت هذا الكتاب مكتبة سركيس بمصر ، وعنى بنشره وتحقيقه عناية فائقة الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد محمد شاكر ، وقد استفدت منه كثيراً .

(٢) نشر هذا الكتاب الأستاذ « درنبورغ » بليدن سنة ١٨٨٤ ثم نشره الأستاذ فيليب حتى بمطبعة جامعة « برنستون » بأمريكا نشرة أصح وأدق وأوفى .

كما يُعجَب بنظرهم إلى الفروسية وتقدير أهلها «فليس عندهم منزلة عالية إلا الفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان ، فهم أصحاب الرأى وهم أصحاب القضاء والحكم » . حَكَى أنه مرة تعـدى قوم منهم على قطعان غنم للمسلمين ، وكان بينهم وبينهم صلح ، فشكا « أسامة » من ذلك لملـكهم فُلك الخامس Fulk V ملك أورشليم « فاختار الملك سـتة من فرسانهم ليحكموا فى هذه القضية ، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شىء واحد ، وعادوا إلى مجلس الملك فقالوا : قد حكمنا بغرامة ما أتلف من غنمهم . وهذا الحـكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر أحد — ولو كان من مقدمى الفرنج — أن يغيره ولا ينقضه ، فالفارس أمر عظيم عندهم » .

وينقد تنكرد Tancred نقداً مرا لإخلاله بأمان تعهد به ، وبلدوين الثالث لمهاجمته أسرته وسلبها أموالها بعد أن أعطى أمانا كتابيا بألا يتعرض لهم .

ويقص قصصاً كثيرة من أعمال فرسان من الفرنج وفرسان من المسلمين ، كانوا يأتون بالعجائب فى حروبهم وبطولتهم وفروسيتهم ؛ ويُحكى أن فارسا من الفرنج هزم أربعة من فرسـان المسلمين فوبخهم أهل الحصن وعابوهم وفضحوهم وازدروهم ، « فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوبا غير قلوبهم وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها ، فانتخوا وقاتلوا واشتهروا فى الحرب ، وصاروا من الفرسان المعدودين بعد تلك الهزيمة » ، إلى كثير من قصص المغامرات التى تستخرج الإعجاب بالفرسان من الجانبين .

وينظر إلى الصليبيين نظرة بدوية عربية ، فينتقدهم فى عدم الغيرة على نسائهم ، فيقول : « وليس عندهم شىء من الغيرة ، يكون الرجل يمشى هو وامرأته فيلقاه رجل آخر ، فيأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر

فراغهما من الحديث ، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث وتركها ومضى » .
ويروى نوادر أخرى من هذا القبيل .

ويذكر أنهم شديدو العصبية لجنسهم ودينهم ، فقد أُسرت فتاة جميلة .
وأدخلت إلى دار والد أسامة ، فأهداها إلى الأمير شهاب الدين صاحب قلعة « جعبر » ، فأعجبته ، وولدت له ولداً سماه « بدران » وجعله أبوه ولى عهده ، ومات الوالد ، وتولى بدران البلد ، فغافلت أمه الناس وخرجت إلى « سروج » وهى فى يد الفرنج ، وتزوجت بأسكاف من بنى جنسها ؛ فكانت هى زوجة الأسكاف وابنها أمير قلعة « جعبر » .

ومنهم من يظهر الإسلام ويصلى ويصوم ، ويتزوج مسلمة ، ثم إذا أمكنته الفرصة فرّ هو وأولاده وتنصروا بعد الإسلام والعبادة .

ويصف فرحهم بأعيادهم ، ومرحهم فى سباقهم .

ويقارن بين الطب عندهم والطب عند المسلمين ، فيقول : إن طب الفرنج منه ما هو سخيف ، فقد رأى فارساً من فرسانهم طلع له دمل فى رجله ، فأحضر له طبيب مسلم وطبيب منهم ، فأما الطبيب المسلم فوصف له ما كاد يشفيه ، وأما طبيبهم فقال له : أيهما أحب إليك ، أن تعيش برجل واحدة ، أو تموت برجلين ؟ فقال : بل أحيا برجل . فأحضر فارساً وفأسا ، وأمره أن يضرب رجله بالفأس ضربة واحدة يقطعها ، فضربه فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . ومنه ما هو خرافى ، كامرأة أصابها الصداع فى رأسها فقال طبيبهم : « إنها امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها » ، فأخذ موسى وحلق شعرها ، وشق رأسها صليبياً ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت فى وقتها . ومع هذا فلهم أطباء مهرة حاذقون ؛ فقد شاهد ملكا من ملوكهم رمحه حصان فى ساقه فتلفت رجله ، وفتحت فى أربعة عشر موضعا وكلما ختم موضع فتح موضع ، ولا تنفع فيه المراهم ،

فجاء طبيب إفرنجى فأزال تلك المراهم ، وجعل يغسلها بالخل الحاذق حتى برئت ؛ كما شاهد طبيباً آخر يعالج « عقد الخنازير » فى مهارة ، ولكن أطباء العرب كانوا أمهر ؛ ومن أجل هذا كان كثيراً ما يبعث الفرنج فى طلب أطباء من العرب .

وعلى الجملة فلم يعجبه الفرنج من الناحية الأخلاقية والاجتماعية إلا من ناحية شجاعتهم ؛ وقد أجمل ملاحظاته فى قوله : « وكل من هو قريب العهد بالبلاد الأفرنجية أجفى أخلاقا من الذين تبلدوا (يعنى توطنوا) وعاشروا المسلمين » .

فيا لله للمسلمين ! أين كانوا من الفرنج وأين أصبحوا منهم ؟ فشد ما يخطئ من يعد الأمر أمر طبيعة ودم وجنس ! إنما الأمر أمر « تربية » .

وناحية أخرى يستطيعها « أسامة » فى مثل سنه ، وهى أن يعين المسلمين برأيه ويفيدهم بتجاربه ، وهذا لا يقل شأنا عن شجاعته وكفاحه .

فالرأى قبل شجاعة الشجعان    هو أولٌ وهى المحل الثانى

ومع هذا فله ابن هو عضد الدولة أبو الفوارس يشترك فى الحرب مع صلاح الدين ويحيى أسامة حياته الحربية فيه ، فهو قطعة منه وقبس من ناره ، وليمد هو بالرأى صلاح الدين . فيحدثنا بعض المؤرخين أن صلاح الدين استدعى أسامة من حصن كيفا « وأنزله أرحب منزل ، وأورده أعذب منهل ، وملكه ضيعة من أعمال المعرة — وذاكره فى الأدب ودارسه ، وكان ذا رأى وتجربة ، وحنكة مهذبة ، فهو يستشيره فى نوائبه ، ويستنير برأيه فى غياهبه ، وإذا غاب عنه فى غزواته ، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته ، واستخرج رأيه فى كشف مهماته وحل مشكلاته » .

* * *

خمس وثمانون . . . تسعون

« لما توقلتُ ذروة التسعين ، وأبلانى مر الأيام والسنين ، صرت كجواد

العلّاف ، لا الجواد المتلاف ، واصقت من الضعف بالأرض ، ودخل من الكبر بعضى فى بعض ، حتى أنكرت نفسى ، وتحسرت على أمسى ، وقلت فى وصف حالى :

لما بلغت من الحياة إلى مَدَى ... قد كنت أهواه تمنيت الردى
لم يُبق طول العمر منى مُنّـــةً ... ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدى
ضعفت قواى، وخاننى الثقتان، من ... بصرى وسمعى ، حين شارفت المدى
فإذا نهضت حسبت أنى حامل ... جبلا وأمشى إن مشيت مقيدا
وأدبّ فى كفى العصا وعهدتها ... فى الحرب تحمل أسمرا ومهندا
وأبيت فى لين المهـــاد مُسهّدا ... قَلِقاً كأننى افترشت الجلْمَدا
والمرء يُنْـكَسُ فى الحياة وبينما ... بلغ الكمال وتم عاد كما بدا

***

فى الحادية والتسعين يؤلف لباب الآداب ، ويؤلف ويؤلف ، ويقول : « ما للعلم غاية يدركها الراغب ، ولا نهاية يقف عندها الطالب ، هو أكثر ، من أن يحصر ، وأوسع ، من أن يجمع ، ولولا أن النفس إذا غولبت غَلَبت ، وإذا زُجرت لَجّت وأبت ، لكان اشتغال من بلغ من السنين ، إحدى وتسعين ، بأعمال البر والثواب ، أجدى عليه من الاشتغال بتأليف كتاب ، بعد ما بالغ الزمان فى وعظه ، بتأثيره فى قواه وسمعه وبصره — لا بلفظه ، وأنذره تغير حاله ، بدنو ارتحاله ، فهو مقيم على وِفاز ، ميت فى الحقيقة حىّ بالمجاز » .

... ... خمس وتسعون — ست وتسعون .

عجز عن حمل القلم ، كما عجز قبل عن حمل السيف .

***

وفى ليلة من ليالى رمضان سنة ٥٨٤ ﻫ فى دمشق ، والجو خريف والسكون رهيب ، أسلم « أسامة » روحه لخالقه ، وهو يدعو لصلاح الدين بتمام النصر ، ويسأل الله لنفسه الغفران .

# ألعصا أم القضا ؟

رأيت وأنا أدرسُ حياة « أسامة بن منقذ » ، أن الأستاذ « فيليب حِتّى » لما نشر كتاب « الاعتبار » عدّد كتبه وقال إن منها كتاباً اسمه « العصا » ، وأن الأستاذ أحمد شاكر عند نشره كتاب « لباب الآداب » عدّد أيضاً كتب أسامة ، وقال إن منها كتاب « القضا » ، وقال إن الأستاذ فيليب حِتّى سماه كتاب « العصا » خطأ ، وصوابه « القضا » .

وحرتُ إذ ذاك بين الرأيين ، هل اسم الكتاب « العصا » أو « القضا » ؟ ورجحت أن يكون « العصا » لأنها أنسب لحياة الفارس ، وهو بعيد عن حياة القضاء ، فبعيد أن يؤلف فيه ؟ وقلتُ : لعل الأستاذ شاكراً إذ كان قاضياً وله اتصال وثيق بالقضاء ، وتعوّد نظره قراءة كلمة القضاء أكثر من تعوّده العصا رجّح الرأى الأخير ، وخطّأ الأول ، أو لعل له حجة لم يُدْل بها .

ومرّتْ الأيام ، ومررتُ على وَرّاق فى الأسبوع الماضى أبحث فيما عنده من الكتب ، وشريتُ منه ما شريت . وكان عنده كمية من الورق ( الدّشت ) ، — ولا أدرى ماذا يسمى ذلك فى اللغة الفصحى ، — فطلبتها ، فأعطانيها .

واليوم أخذتُ أقلّبُ فيها فوجدتُ أوراقاً شتى من كتب لم أدر ما هى ، ورسائل صغيرة بعضها قيّم جدا ، لعلى أحدّث القراء حديثاً آخر عنها . ورأيت كراسة صغيرة كُتبَ عليها « كتاب العصا لأسامة بن منقذ » ؛ ومع الأسف استطعمها الفيران فأكلت أطراف بعض ورقها ؛ وهى تقع فى ثلاثين صفحة ، لعل من الطريف أن أصفها للقراء .

لقد وضع الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » باباً طويلا سماه « كتاب

العصا » ، وهو يدور على الشعوبية الذين عابوا على العرب اعتمادهم فى خطاباتهم على القناة والعصا ، وقالوا : « ليس بين الكلام والعصا سبب ، ولا بينه وبين القوس نسب ، وهما إلى أن يشغلا العقل ويصرفا الخواطر ويعترضا الذهن أشبه ... وحملُ العصا بأخلاق الأكرَة والرعاة أشبه ، وهو بجُفاة الأعراب وعُنْجُهِيّة أهل البدو أشكل » الخ . فرد عليهم الجاحظ فى كلام كثير واستطراد طويل قولهم ، مبيّناً مزايا العصا ومحاسنها ، مستشهداً بعصا موسى ، وعصا سليمان ، موضّحاً مزاياها ، وفيم تستخدم ، ومم تؤخذ خيارها ؛ وأن العصا للخطيب تأهب للخطبة ، وتهيؤ للإطناب ، فكأنهم قد وصلوا بأيديهم أيدياً أخرى ، وهى أوقع فى نفوس السامعين ، وعون للخطيب على الإفاضة ، كالرايات فى الحروب والأعلام ، والقلانس للقضاة ، والقناع للرؤساء والعظماء ، وآلات الموسيقى للمغنّى ، وكأشارات المتكلم برأسه ويده ، وتقطيعه ضروب الحركات على ضروب الألفاظ وضروب المعانى ، إلى مثل هذا .

أما رسالة « العصا » لصاحبنا أسامة ، فقد بدأها بسبب تسميتها عصا ، قال : إنما سُمِّيت العصا عصا لصلابتها ، مأخوذ من قولهم : عَصَّ الشىء صَلُبَ ، وعَصِى الشىء وعَسِىَ إذا صلب — والعصا : الجماعة ، يقال شقّ فلان عصا المسلمين ، أى جماعتهم ؛ وفى الحديث : « إياك وقتل العصا » ، يريد المفارق للجماعة فيُقْتَل . الخ .

وأول من خطب على العصا وعلى الراحلة قس بن ساعدة الأيادى .

والعرب تقول : فلان ممن قُرِعَت له العصا ، إذا كان يرجع إلى الصواب ، وينقاد إلى الحق ، ويستقيم عن زيغه إذا نُبِّه .

وتقول : فلان صلب العصا ، إذا كان ذا نجدة وحزامة .

وتقول إذا تفرقت الخلطاء ، واختلفت آراء العشيرة ومَرِج الأمر : انشقّت العصا .

وتقول للمسافر إذا آب واستقرّت به داره : ألق عصا التّسيار .

ثم أخذ يروى مختارات من الشعر والنثر ، مما جاء فيها العصا ؛ فالحجاج قال : والله لأعصبنّكم عصب السَّلَمة ، ولألحونّكم لحو العصا ، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل .

والمتلمّس يقول :

لِذِى الْحِلمِ قبل اليومِ ما تُقْرَعُ العصَا وما عُلِّمَ الإنسان إلا ليعلَمَا

وقيس بن ذَرِيح يقول :

إلى الله أشكو نِيّةً شقّتَ العصا هى اليوم شتّى وهى أمس جميعُ
مضى زمنٌ والناس يَستشفِعُونَ بى فهل لى إلى لُبْنَى الغداةَ شفيع

والعرب تقول : فلان شقّ العصا إذا كان لا يدخل تحت حكم ولا طاعة .

ومهيار يقول :

يا ، قَصُرَتْ يدُ الزمانِ شدَّ ما تَطولُ فى ثَلْمِى وفى نقضِ المِرَرْ
عَصاً شظايَا ومَشِيبٌ عَنِتٌ ومنزلٌ نابٍ وأصحابٌ غُدُرْ
وصاحبٌ كالداء إن أبديته عَوَّرَ وهو قاتلٌ إذا أُسِرّ

ثم يذكر فصلا فى أحداث حدثت تدور حول العصا ، كالذى روى أن قتيبة ابن مُسْلِم (الفاتح العظيم) لما تسنّم منبر خراسان سقط القضيب من يده ، فتطيّر الصديق ، وتفاءل العدو ، فقال قتيبة : ليس الأمر كما سرّ العدوّ وساء الصديق ، بل كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقرّ بها النوَى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وقصّ قصصاً نجته فيها العصا من الموت ، وهو فى قلعة شَيْزَر ، إلى نحو ذلك ، ولعل أظرف فصل فى الرسالة هو الفصل الأخير ، وهو أطولها وموضوعه « عصا

الـكِبَرَ » وقد ظهرت على المؤلف عاطفة الحزن والأسف على ما اعتراه فى كِبَرِ سِنّه من ضعف بعد قوة ، وحمل العصا بعد حمل السيف . وقد ألف هذه الرسالة وهو كبير السن ، فأكثر من إيراد الشعر فى هذا المعنى إنشاء وإنشاداً ؛ فمن ذلك ما رواه قال : أنشدنى العميد أبو الحسن بالموصل سنة ٥٢٦ :

ما زلت أرْكَبُ شا كلاتِ الرَّبْرَبِ — حتى مَشَيتُ على العصى كالأحدبِ
أأزيد ثالثـــة وأنقصُ عن مدَى — مشىِ اثنتين ؟ لقد أتيتُ بمعجبِ
فالليثُ لو بلغَتْ ســنُوه مدّتى — أو قاربَت ، أمسَى فريسةَ ثعلب

وأنشدنى القاضى الرشيد أحمد بن الزبير بمصر سنة ٥٣٩ :

تقوّسَ — بعد طول العمر — ظهرى — وداستنى الــــليالى أىَّ دَوْسِ
فأمشى والعصـــا تمشى أمامى — كأنّ قوامَها وترٌ لقوسى

ويقول هو نفسه :

حنانِىَ الدهر وأفْـ — ـنَتْنى الليالى والغِيَرْ
فصرتُ كالقوس ومِنْ — عَصاى للقوسِ وَتَرْ
أَهْدِجُ فى مَشْيِى ، وفى — خَطْوِى فتورٌ وقِصَرْ
كأننى مقيَّـــــدٌ — وإنما القيدُ الـكِبَرْ
والعمر مثل الماء فى — آخِرِه يأتى الـكَدَرْ

وقال :

أصبح كفِّى مالـكا للعصا — من بعد حَمْلِ الأسْمَرِ الذابلِ
أمشِى بضعف وانحناء علَى — عصاى مشْىَ الصائدِ الخاتِلِ
كأننى لم أمش يوم الوغى — إلى نِزالِ البطل الباسل
ولم أشقّ الجيشَ لا أختشى — من الرَّدَى كالقَدَرِ النازل

فانظر إلى ما فعل العمر بى    مِن طوله لم أحْظَ بالطائل
يا حسرتا إنى غداً ميِّت    على فِراشى مِيتة الخامل
هلّا أتانى الموت يوم الوغى    بين القنا والأسَلِ الناهل

وقال :

حَمَلَتْ ثِقْلِيَ فى السَّهْلِ العصا    ونبت فى حِين حاوَلْتُ الحُزُونا
وإذا رِجْـلِيَ خانتنى فلا    لَوْمَ عندى للعصا فى أن تخونا

قال : وأنشدنى الأمير السيد شهاب الدين العلوى الحسينى بالموصل سنة ٥١٥ لبعض المغاربة :

ولى عصاً فى طريقِ السَّيْرِ أحمدُها    بها أُقَدِّم فى تأخيرها قَدَمى
كأنها وهْىَ فى كفِّى أهُشُّ بها    على ثمانينَ عاماً لا على غنمى
كأننِى قوسُ رَامٍ وهى لى وَتَرٌ    أرْمِى عليها رِماءَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ

ولعل فى هذا القدر كفاية فى إثبات أن الكتاب فى « العصا » ، لا فى « القضا » ؛ ولعله يدعو إلى التفكير فى إصلاح الكتابة التى تخاط بين العصا والقضا .

# العلم والدين (١)

مما نلاحظه فى تاريخ الإنسان أنه تسوده موجات متعاقبة فى عصوره المختلفة وأممه المتعددة ؛ فأحياناً تسوده موجة الشعر كالذى كان عند العرب فى عصر الجاهلية ، واليونان فى عصر هوميروس ، وأحياناً تسوده موجة الفلسفة كالذى كان عند اليونان فى عصر سقراط وأرسطو وأفلاطون ؛ وأحياناً موجة الدين كالذى كان فى العالم الإسلامى والعالم الأوروبى فى القرون الوسطى .

وكان من خصائص القرن التاسع عشر سيادة موجة العلم حتى طغت على كل ما عداها .

وقد كانت هذه الموجات فى العصور الماضية موجات محلية لا موجات عالمية ، فكنت ترى أمة يسودها الشعر ، وأخرى تسودها الفلسفة ؛ أما وقد ارتبط العالم الآن برباط محكم ، وانكسرت الحدود ، وكادت تنعدم المسافات فقد أصبحت الموجات عالمية ، لذلك لما علت موجة العلم فى القرن الماضى فى أوروبا وضعفت فيها موجة الدين تأثر العالم كله بهذه الظاهرة ، وطغت موجة العلم على الشرق والغرب ، وضعف الدين فى الشرق والغرب ؛ وربما كان ضعفه فى الغرب اجتهاداً وضعفه فى الشرق تقليداً ، لأن المغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب كما يقول ابن خلدون .

وقد ساد العلم وضعف الدين فى أوروبا إثر حركات عنيفة قام بها العلماء من القرن السابع عشر ، فوضعوا لأنفسهم منهجاً علمياً أساسه ملاحظة الظواهر

---

(١) كتبت هذه المقالات الأربع الآتية فى رمضان سنة ١٣٦١ فى كل أسبوع حديثاً وكنت عنونتها « حديث رمضان » .

وتحليلها تحليلاً عقليًا ، وربط هذه الظواهر بعضها ببعض ، ووضع الفروض فى حلها وامتحانها وتجربتها ، وإبعاد ما تدل التجربة على خطئه ، وإثبات ما تدل التجربة على صحته ، حتى إذا تم الاقتناع به أضيف إلى دائرة المعلومات واتخذ أساساً لبناء غيره عليه وهكذا ؛ وتحرروا فى منهجهم هـذا من كل شىء إلا الملاحظة والتجربة والبرهان ، فلم يعبئوا بأقوال القـدماء كجالينوس وأرسطو ، ولا بما ورد فى الـكتب الدينية ، ولا بما قررته الـكنيسة ، ولم يسلموا بشىء إلا ما جرب فى « المعمل » ، فأداهم هذا المنهج إلى استـكشاف آلاف من المسائل استخدموها فى الحياة اليومية وبناء الحضارة الأوروبية ، وعرفوا ما لا يحصى من قوانين الطبيعة . ولما كان كل مظاهر الحياة اليومية متأثراً بهذه المستكشفات العلمية زاد الناسُ احتراما للعلم وتقديراً له وإعجاباً به ، وكان من أثر ذلك شغف الناس بالأرض دون السماء ، وبالعالم المادى لا الروحىّ ، وبهذه الحياة لا بما بعدها .

وكان أن هاجم العلماء فى بحثهم العلمى مسائل تتصل بالدين من قريب أو من بعيد ؛ فآمن الناس بأقوالهم فيها كما آمنوا بأبحاثهم العلميـة الأخرى ، فـكان لذلك أثره فى ضعف موجة الدين فى أوروبا . ولنقصّ عليك طرفاً منها .

فمن أهم ما زلزل النـاس تعاليم كوبرنيكس فى النظام الشمسى ، فقد قلب قيمة الأشياء رأساً على عقب ، كان الناس يعتقدون أن الأرض مركز العالم ، وأن الشمس والـكواكب تدور حولها ، وأن النجوم خلقت للأرض ، والأرض خلقت للإنسان ، فـكل العالم وسيلة ومتعة للإنسان ، فجاءت تعاليم كوبرنيكس فبرهنت على أن الأرض وما عليها ليست إلا هَنَة حقـيرة فى العالم ، وأنها تدور حول الشمس لا أن الشمس تدور حولها ؛ فحطم ذلك من أنانية الإنسان وحطّم

من عظمته ، وقام رجال الدين ينكرون عليه تعاليمه لمعارضتها للنصوص الدينية .

وتلاه « دارون » ، فأكمل القضاء على شعور الإنسان بعظمته ، فدعا إلى تسلسل المخلوقات بعضها من بعض ، وأن ليس الإنسان نوعاً مخلوقا بذاته ، وأن العالم من جماد ونبات وحيوان وإنسان وحدة مرتبط بعضها ببعض ، ومترقية بعضها من بعض ؛ فتغيرت بذلك النظرة إلى العالم ، والنظرة إلى الإنسان ، وخُلعت على العالم نظرة ميكانيكية يرقى بها الحقير إلى ما فوقه بحكم البيئة وتنازع البقاء وبقاء الأصلح ، حتى كأن العالم يصنع نفسه ، وكان لهذه التعاليم أثرها فى اصطدامها بظواهر آيات الكتب المقدسة .

وجاء علماء الجيولوجيا بعد علماء الفلك ، وبعد نظرية دارون ، فأخذوا يبحثون فى بناء الأرض على قاعدة انفصالها من الشمس ، وعلى قاعدة تسلسل الأنواع وما يستلزم ذلك من ملايين السنين فى تكوينها وصلاحيتها للحياة ، وتدرج الأنواع . وجاء بعدهم علماء الحياة ، فجدوا فى البحث عن الحياة وتطورها . وهكذا ، فكان لهذا كله أثر فى الدين ، وعلى الأقل فى ظواهر آياته .

***

وكما تقدم البحث فى العلوم الطبيعية على هذا النحو تقدم البحث فى التاريخ ، فاستكشفت الآثار القديمة ، وعرفت أهم لغاتها ، وقرئت نصوصها ، ووضع للتاريخ منهج على نمط منهج العلم ؛ وتوجه بعد ذلك علماء التاريخ ينقدون الوثائق القديمة ، فوصلوا مثلا الى أن شعر هوميروس ليس شعراً لرجل واحد ولا لعصر واحد ، وإنما هى أشعار لعصور متعاقبة لشعراء متعاقبة ، وبحثوا تاريخ اليونان والرومان والأمم القديمة ، فوصلوا إلى أن بعض ما دوّن عنها أساطير لم تصح ، وبعضها حقائق تصح .

وبنفس هذه الوسائل ، وبنفس هذا المنهج توجهوا إلى «الكتاب المقدس» من توراة وإنجيل يبحثونه وينقدونه ، فبحثوا سفر التكوين وبقية الأسفار ، كيف كُتِبتْ ؟ ومتى كُتِبتْ ؟ ونشروا على الناس نتائج أبحاثهم ، ينكرون بعضاً ويؤمنون ببعض ، وينقدون الأسلوب والأحداث ، ويستنتجون عصورها إلى آخر ما قاموا به ؛ فكان لذلك رجة عنيفة أيضاً فى نفوس الناس ، وخاصة المثقفين .

وزاد الأمر إشكالا والناس انحيازاً إلى العلم موقف رجال الكنيسة ، فقد تمسكوا بنصوص الكتب والشروح والآثار فى باطنها وظاهرها ، وجملتها وتفصيلها ، وأنكروا على العلماء نظرياتهم ، واضطهدوهم أيام كانت السلطة فى أيديهم ، وحَكَّم الناس العقل فى موقف رجال العلم ورجال الكنيسة ، فرجحوا جانب العلم ، فطغت موجة العلم على موجة الدين ، ووقف الكثيرون من الدين موقف الإنكار أو عدم الاكتراث أو أداء بعضِ شعائره كما تؤدى المواضعات الاجتماعية من غير روح ومن غير اعتقاد ، فكان هذا طابع القرن التاسع عشر فى أوروبا ، ومنها سارت الموجة إلى الشرق وأنحاء العالم ، ظنا منهم أن أوروبا تقدمت فى الحضارة بتقديس العلم مكان تقديس الدين ، فجاروهم فى ذلك .

***

ولكن : كان لرجال العلم خطؤهم كما كان لرجال الدين خطؤهم .

فهم قد أفرطوا فى الإيمان بقوانين العلم مع أن هذه القوانين فى تغير مستمر وإن كان بطيئاً ؛ إن القوانين العلمية مبنية على جملة من القضايا تعد حقائق ، ولكن بعض هذه القضايا عرضة لظهور خطئها ، فيخطئ بخطئها القانون المبنى عليها ، فاستكشاف قضايا جديدة أو حقائق جديدة قد يلغى قانوناً كان مسلماً به

أو يعدّله أو يرقيه ، فالعلم فى حركة مستمرة وتغير مستمر . ويجب أن يكون العالِم واسع النظر ، واسع الصدر لكل ما يستكشف من جديد ، مستعدا لقبول ما تثبت صحته ، مستعدا لتغيير وجهة نظره وتعديل إيمانه بالحقائق ، وأحياناً يستكشف ماهو أساسى فى العلم ، فيكون ثورة على كثير من النظريات والقضايا ، وأحياناً تستكشف حقائق جزئية يترتب عليها تغييرات جزئية — هذا هو تاريخ العلم ، فالإفراط فى الإيمان بقضاياه على أنها حقائق أبدية ، غلطة كغلطة رجال الدين فى تحجير النصوص .

وأمعنُ من ذلك فى الخطأ أن كثيراً من العلماء اعتقدوا أن المنهج العلمى من ملاحظة وتجربة و برهان هو المنهج الوحيد لكل شىء ، ولا شىء غيره ، وأن كل شىء فى العالم يُحَل بالعلم و بمنهج العلم ، وفاتهم أنهم بمنهجهم العلمى قد اتجهوا اتجاهاً صحيحاً نحو عجلة العالم ، يفحصونها ويجربونها ويمتحنونها ، ولكنهم لم يتجهوا نحو محرّك العجلة ، وقد لا يستطيع العلم بمنهجه أن يبحث المحرّك ؛ والدقيق النظر الواسع الفكر لا يقف فى بحثه عند العجلة ودورانها ، بل يبحث ما وراءها ، لا يقف عند المادة ، ولكن يبحث ما وراء المادة .

إن العلم منهج صحيح للمادة ، ولكن ليس المنهج الصحيح لغير المادة ، هو منهج صحيح من جملة مناهج ، ولكنه ليس المنهج الوحيد الصحيح ، إن جمع المشاهدات وإجراء التجارب عليها والاستقراء والحكم به أحد طرق العقل للوصول إلى الحقيقة ، ولكن وراءه طرق أخرى للوصول إلى الحقيقة أيضاً .

إن شئت فانظر إلى الفنانين من شعراء وموسيقيين ومصورين ، كيف يدركون من العالم ما لا يدرك العقليون ، ثم ينقلون إلينا ذلك الشعور بشعرهم وموسيقاهم وتصويرهم فتهتز عقولنا هزة عميقة لا يبلغها قول علمى ، ولا بحث

فلسفى ، بل أدرك هؤلاء الفنانون من حقائق العالم ما لم يدركه الفلاسفة والعلماء إلا بعد ذلك بأزمان ، وقديما قالوا : إن « الفن إرهاص للفلسفة » .

هذه حقائق واقعة فى العالم لا يمكن إنكارها ، وليس منهجها هو المنهج العلمى المعروف ، فمن الخطأ الإيمان بالمنهج العلمى وحده ، إن منهج هذه الفنون الاعتماد على الإلهام وصفاء النفس وتفتح القلب ، وهو منهج صحيح أيضاً كالمنهج العلمى ، له دائرته وله سبحاته التى لا تنكر ، والاقتصار على المنهج العلمى فى فهم العالم كذى رجلين يتعارج .

على هذا المنهج أيضاً جرى الذين ملأ قلوبهم الشعور الدينى من أنبياء ومتصوفة صادقين ؛ فهؤلاء قد أدركوا — بما لهم من إلهام — من حقائق العالم وخالقه ومحركه ما لا يقل شأناً عما أدركه العلماء بمنهجهم ، وأثروا فى تاريخ الإنسان ما لا يقل عما أثره العلم . وإن هذا الإلهام وسيلة صحيحة من وسائل الوصول إلى الحق كما أن التجربة والملاحظة وسيلتان كذلك ، ولكلٍّ دائرته ولكل اختصاصه . نعم قد يكون الإلهام فى بعض النفوس خداعا وكذبا ، وقد تصعب التفرقة بين ما هو إلهام وما هو مجرد خيال ؛ ولكن كل وسيلة من الوسائل حتى الوسائل الحسية قد تفسد فلا توصل إلى الغرض ، وهذا لم يقدح فى الوسائل السليمة ، فكما أن هناك شاعراً مزيفاً ، وموسيقيا ملهما وموسيقيا مصطنعاً ، كذلك هناك نبى ومتنبئ ، ومتصوف ومجنون .

إنا إذا أردنا أن نصل إلى حقائق العالم ، إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من حقائق العالم ، وجب أن نستخدم كل ما نستطيع من ملكاتنا . وليست ملكات الإنسان مقصورة على القوة العقلية ، فلديه الشعور ولديه الإرادة ، فلِمَ يستخدم القوة العقلية وحدها وهى آلة العلم ولا يستخدم الشعور أيضاً وهو وسيلة أخرى

من وسائل المعرفة ؟ وقد أنصف المتصوفة فسموا نتيجة استخدام المنطق « علما » وسموا نتيجة استخدام الشعور والذوق والكشف « معرفة » ، وسموا الأول عالما والثانى عارفا ، وقد دلت التجارب على أن الإنسان فى هذه الحياة — مهما قوى عقله ، ومهما آمن بعلمه — لا يسيّره عقله أو علمه فقط ، وإنما يسيره كذلك شعوره ، وهو يحكم على كل مظاهر الحياة وعلى الأعمال ، ويرسم خطته فى الحياة ويحكم على غيره فى تصرفاتهم بمقتضى عقله وشعوره لا بعقله وحده ، وهو فى ذلك ليس مخطئاً ، وإنما هو مسيَّر فى ذلك بحكم طبيعته وفطرته ، ومعنى هذا أن الإنسان يدرك حقائق العالم بعقله وشعوره معاً ، ويستعمل لهذا منهجه وذلك منهجه ولا محيد له عن ذلك . وأدرك هذا المعنى قوم من صفوة العلماء فسمحوا لعقلهم أن يجول فى دائرة العلم إلى أقصى حد ممكن ، وسمحوا لمشاعرهم ودينهم كذلك أن تجول فى دائرتهما ، واستفادوا من قوة عقلهم وعلمهم ، فكبحوا من مشاعرهم الجامحة ، ولم يسمحوا لدينهم أن يقيد مجال علمهم ، كما استفادوا من قوة مشاعرهم فوسعوا ضيق نظر العلم ، وكسروا من حدة غروره .

ومهما قال علماء النفس فى وحدة القوة النفسية فى الشخص ، فهناك من شؤون الحياة مايتطلب إعمال الإرادة ، ومنها ما يتطلب الشعور ، ومنها مايتطلب العقل ، ثم هذه الملكات موزعة على الناس توزيعاً عجيباً ، فمنهم قوى الإرادة ضعيف العقل ، ومنهم قوى العقل ضعيف الشعور ، ومنهم ضعيف العقل قوى الشعور ؛ وقديما رمزوا للعقل بالرأس وللشعور بالقلب ، فمن قوى رأسه كان أقرب فى الحياة للمنهج العلمى ، ومن قوى قلبه كان أقرب للمنهج الشعورى والدينى والفنى — وإذ كان فى العالم ما يواجه كل ملكة من هذه الملكات الثلاث فليس من العقل أن نتطلب حقائق العالم بقوة العقل وحده ونشلّ سائر الملكات ،

وإنما العقل أن نستعمل كل ملكاتنا فى إدراك حقائقه ، كل فى اختصاصه ، كما ندرك مظاهره بحواسنا ، كل حاسة فى اختصاصها .

فرجال العلم لهم أن يستكشفوا ما شاءوا من مجلة العالم ، ويلاحظوا ويجربوا ويبرهنوا ما شاءوا ؛ ولهم تمام الحرية فيما يبحثون ، والفنانون لهم أن يستكشفوا من جمال العالم ، ويستلهموه ما شاءوا ، وينقلوا من صفاته وجماله وإلهامه ما لا يقل شأناً عن مستكشفات العلماء ، والأنبياء والمرسلون والمتصوفة ، يبلغون من إدراك محرك العالم وقيم معنوياته ما يفوق مستكشفات العلم وإلهامات الفن .

* * *

ولست أرى سبباً جوهرياً يحمل على هذا العراك العنيف بين العلم والدين إلاَّ تعصب رجال العلم فى دعواهم أن علمهم يختص بكل شيء ، يقدر على حل كل عقدة ، وأن ليس وراء العلم مطلب ، ولا غير دائرته دائرة ، وإلا تعصب رجال الدين فى عدم إيمان بعضهم بالعلم فى دائرته ، وعدم تفرقة بعضهم بين ما هو أساس فى الدين وما هو على هامشه ، وجمود بعضهم على أقوال الأقدمين كأنها وحى منزل .

فإن زال كل هذا من الطريق لم يكن صراع ، وإنما كان تعاون ، فالعلم يكمل الدين والدين يكمل العلم ، وكلاهما يكشف عن قسم من حقائق هذا العالم ، وكلاهما غذاء صالح لملكات الإنسان المختلفة المتنوعة ، حتى تتعادل ملكاته كلها وتتوازن وتسير إلى غايتها ؛ فالعلم الحق والدين الحق كلاهما غايته حب الحقيقة ، وإن اختلف منهجاهما ووسائلهما ، وكلاهما يصل بالإنسان إلى كماله ، وإلى فهم ما يحيط به ، هذا فى ماديته ، وهذا فى روحانيته .

# الإيمان بالله

يحكى أن رجلاً ما زال يمعن فى الشك حتى وصل به إلى الإلحاد ، فحدّث يوماً صديقه بما ساوره من شكوك وما كان من نتيجتها من إلحاد .

فقال له صديقه : ما أظنك ملحداً ، لأنى أرى فيك ملامح إيمان :

فأكد له الرجل إلحاده .

وما زال الصديق ينكر ، والرجل يؤكد حتى استفز الملحدَ الغضب ، فصرخ قائلاً : « والله العظيم إنى ملحد » :

هذه القصة تمثل ما ركز فى طبيعة الإنسان من إيمان بالله ، مهما انحرف العقل وطغى المنطق ، ولهذا نرى كثيراً من العلماء قد كفرتْ عقولهم وآمنتْ قلوبهم — قد تختلف صور الإله باختلاف عقلية الأمم واختلافها فى البداوة والحضارة ، والعلم والجهل ؛ ولكنها كلها تشترك فى النزوع الفطرى إلى إله له القوة والسلطان ، وبيده الأمر .

لقد جاءت الثورة الفرنسية فرأت ما فعله رجال الكنيسة من اضطهاد العقل ، وغلول الفكر ، والتدخل فيما ليس من شأنهم ، وإظلام الحياة حولهم ، فثار رجال الثورة عليهم وعلى دينهم ، وأعلنوا أنهم يريدون إلغاء الله . ولكن ماذا كان ؟ هدأت الثورة ، وخمدت النار ، ورجع الناس إلى ربهم ، ولم يُلْغَ الله ؛ ولكن أُلغيت تعاليم الثورة فى هذا الشأن ، لأنها ضد طبيعة الإنسان .

وحاول بعض رجال الثورة فى تركيا إلغاء الدين وإلغاء عبادة الله ، ثم ذهبت دعوتهم مع الريح ، وذهبوا هم وبقى الدين ، وبقى الناس مع الدين .

وجاءت الثورة الروسية أول أمرها داعية إلى إلغاء الله ، وإلغاء الحرية ،

و إلغاء فكرة الخلود ؛ ثم ما لبث الدين أن عاد ، تغير شكله و بقى جوهره ، وذهب تركبه و بقيت بساطته . وعلى كل حال فهو الدين ، وهو الله .

***

ولكن ما الذى لفت الإنسان إلى الله ؟

لفته أولاً شعوره ، والشعور جزء هام من تكوينه ، ومصدر صحيح من مصادر معارفه ، وعليه يعتمد فى كثير من شؤون حياته ، فما الصداقة ، وما الأبوة والأمومة ، وما الحب والكره ، وما الإحسان والإنسانية لولا الشعور ، ولو انعدم الشعور لكانت حياتنا جافة لا طعم لها ، بل لم تكن حياة أصلا ؛ فالشعور بالله جزء مكون لحياتنا كسائر ما ندرك بالشعور .

ثم اهتدى إليه العقل بعد ما اهتدى إليه الشعور .

لقد كان من أهم ما استكشفه الإنسان إدراكه أن العالم وحدة ، وأنه يتبع نظاماً فى منتهى الدقة يدركه الإنسان لأول وهلة فى تعاقب الليل والنهار ، والصيف والشتاء ، وحركات الشمس والقمر ، ثم كلما زاد تعمقه فى دراسة الطبيعة ازداد إيماناً بهذا النظام ودقته ؛ فإذا تبين فى شىء ما فوضى أدرك فيما بعد أن ذلك يعود إلى جهله بقوانينه لا حاجته إلى النظام — وأكثر الناس إيماناً بالنظام فى فرع من فروع العلم علماء ذلك الفرع ، فالفلكيون أشد الناس إيماناً بنظام الكواكب ، وعلماء الحيوان فى الحيوان ، وعلماء النبات فى النبات ، وعلماء وظائف الأعضاء فى وظائف الأعضاء ، وأطباء العيون فى العيون ، وهكذا ، كل يدرك أتم نظام وأدقه فى فرعه ؛ والفيلسوف يدرك ذلك فى العالم كوحدة ، بل يدرك أنه لولا نظام ناحية من نواحى العالم ما كان لها علم . فالعلم معناه جملة من القوانين المنظمة تتعلق بجانب من جوانب الحياة ، كالنبات والحيوان والفلك ، حتى الجسم فى مقاومته المرض يفعل الأعاجيب فى نظامه ، ولولا ذلك

ما كان طب — ثم كل جزء من أجزاء العالم مرتبط بأجزائه الأخرى ، يخضع هو وهى لنظام عام كعلاقة الخلية فى الجسم بالجسم كله ؛ فالعالم حروف هجاء ترتبط ألفه ببائه ارتباطا قريباً ، وألفه بيائه ارتباطا بعيداً ، وكلها تكوّن نظاماً واحداً ، وتخضع لقوانين واحدة ، حتى إن العالِم الدقيق النظر لو تعمق فى دراسة جزء من أجزاء العالم أعانه ذلك على فهم سائر أجزائه لشبه القوانين ووحدة النظام ، و بلغ من دقة نظامه أنه لولا نظامه ما وجد .

و بعد فإذا رأينا آلة تسير جزمنا أن وراءها محرِّكاً حركها ، وعقلا دبرها ؛ وإذا رأينا إنساناً يعمل و يتحرك و يتصرف جزمنا أن فيه عقلا يدبره و يصرفه ، فإذا فارقه العقل فارقه العمل والتحرك والتصرف ، فكيف يسير هذا العالم وفق هذا النظام الذى رأينا ولا يكون له عقل يصرفه وروح ينظمه .

إن الله عقل العالم وروحه ، وهو للعالم كعقلنا فينا ، وقد صدق الأثر : « إن الله خلق آدم على صورته » .

* * *

أعجب ما فى العالم عقل الإنسان ، ولعل أعجب ما فيه أنه استطاع أن يدرك عجائب العالم ، واستطاع أن يتجاوب مع عقل العالم الذى هو وليده وظله .

نحن بين اثنتين : إما أن نكون — كجزء من العالم — خلواً من العقل والروح والغرض ، والعالم كذلك مادة جامدة لا روح لها ولا مدبر لها ، ولا غرض لها ، أو أن تكون لنا روح وعقل وغرض ، وللعالم روح وعقل وغرض ، تتجاوب روحنا مع روحه ، وتتحدد أغراضنا بأغراضه ، والأول الكفر ، والثانى الإيمان ؛ فإن حكمت بعقلك فقد آمنت بعقلك ، وآمنت تبعاً لذلك بعقل العالم ؛ وهو الإيمان .

* * *

وكما أحكم « عقلُ العالم » تدبير العالم ونظامه ، كذلك أشع عليه من جماله ، فالعالم مغمور بالجمال فى صغيره وكبيره ودقيقه وجليله ، فى السماء والأرض ، فى النجوم بضيائها ولمعانها ، فى السحاب المسخر بين السماء والأرض ، فى عظمة البحار ، فى جلال الجبال ، فى شروق الشمس وغروبها ، فى الطير يطير فى السماء ، فى السمك يغوص فى الماء ، فى الحركة والسكون ، فى الأشكال والألوان .

الطبيعة جميلة فى كل جزء من أجزائها ، وأجمل من أجزائها جمال كلها ، فليس الكل يساوى الأجزاء ، فجمال أجزاء الطائرة مفرقة ليس كجمال الطائرة كلها طائرة ، ولا جمال أجزاء الإنسان كجمال الإنسان كُلًّا ، إن الطبيعة فى جمالها ككل تسحر العين ، وتأخذ باللب ، وتملأ القلب روعة ، حتى ليشعر فى وقت صفائه أن هذا فوق أن يوصف ، والألفاظ أعجز من أن تعبر عنه .

وكما كان أكبر قيمة للانسان عقله الذى استطاع به أن يدرك عقل العالم وتدبيره ونظامه ، كذلك من أكبر قيمته شعوره الجميل الذى استطاع به أن يدرك جمال العالم ، ويتجاوب معه ، ويأنس به ؛ قد يكون فى بعض أجزاء العالم قبح ، ولكنه قبح لطيف لولاه ما استطعنا أن ندرك جمال الجميل .

إن كان تدبير العالم وإحكام نظامه لا بد أن يصدر عن عقل للعالم منظم ، فجماله الذى يشع فيه فى دقة لا بد كذلك أن يصدر عن خالق منسق .

لقد زعم بعض أصحاب مذهب النشوء والارتقاء أن الجمال نشأ عن قانون الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح ، وأن الجمال فى الجنس مِنْحة الطبيعة لإغراء الجنس ، كالأنثى تتبرج للرجل حفظاً للنوع ، فإن كان هذا صحيحاً فما تفسير جمال الجماد وجمال المناظر الطبيعية ؟

* * *

هذا هو الجانب الإيجابى فى الاعتراف بالله ، وهناك الجانب السلبى ، وهو لا يقل عنه قوة و إقناعاً .

لقد تقدم العلم وتقدم ، واعتز بنفسه وملأه الغرور ، ومع هذا كله لم يستطع أن يفسر إلا السطح و إلا المظاهر ، ما العلة الأولى للخلق ؟ من الذى بعث الحياة فى الخلية الأولى للعالم ؟ كيف تفسر ملايين الحقائق فى عجائب الطبيعة وفى عجائب أنفسنا ؟

إن أقصى ما يصبو إليه العلم أن يعرف نصف الحقائق ، وهو الظاهر والإجابة عن « كيف » ، أما النصف الآخر — وهو أقوم النصفين — وهو باطن الحقائق ، والإجابة عن « ما هى » لا كيف هى ، فعاجز كل العجز عنه لا يستطيع أن ينبس فيه بحرف .

إن من يؤمن بالعلم وحده وينكر ما وراءه ، ومن يؤمن بالقوانين العلمية وينكر ما عداها لا يؤبه بقوله حتى يقول : إنى أستطيع أن أفسر العالم من ألفه إلى يائه ، فأما أن يفسر الآلة ولا يفسر محركها ، ويفسر تطور الحياة وتدرجها ولا يفسر كيف وجدت لأول عهدها بالوجود فضرب من السخف ، أو هو على أحسن تفسير كقول الطفل لا أعلم لأنه يريد أن يتعلم .

إنـكار العلة الأولى للعالم وعقل العالم الذى يدبره يلقى على عاتقنا عبئاً لا نستطيع حمله .

إن العلم فى حقيقة أمره يزيد عجائبنا ولا يحلها ، هذا الفلـكى بعلمه ودقته وحسابه ورصده وآلاته ماذا صنع ؟ أبان بأن ملايين النجوم فى السماء بالقوة المركزية بقيت فى أماكنها أو أتمت دورتها ، كما أن قوة الجاذبية فى العالم حفظت توازنها ومنعت تصادمها ؛ ثم استطاعوا أن يزنوا الشمس والنجوم و يبينوا حجمها وسرعتها و بعدها عن الأرض ، فزادوا عجباً . ولـكن ما الجاذبية وكيف وجدت

وما القوة المركزية وكيف نشأت ؟ وهذا النظام الدقيق العجيب كيف وجد ؟ أسئلة تخلى عنها الفلكى لما عجز عن حلها — وأبان الجيولوجى لنا من قراءة الصخور كم من ملايين السنين قضتها الأرض حتى بردت ، وكم آلاف من السنين مرت عليها فى عصرها الجليدى ، وكيف غمرت بالماء ، وكيف ظهر السطح ، وأسباب البراكين والزلازل ، وكذلك فعل علماء الحياة فى حياة الحيوان ، وعلماء النفس فى نفس الإنسان ؛ ولكن هل شرحوا إلا الظاهر ، وهل زادونا إلا عجباً ؟ سلهم كلهم بعدُ السؤال العميق الذى يتطلبه العقل دائماً وهو : مَن مؤلف هذا الكتاب المملوء بالعجائب التى شرحتم بعضها وعجزتم عن أكثرها ؟ أتأليف ولا مؤلف ، ونظام ولا منظم ، وإبداع ولا مبدع ؟ من أنشأ فى هذا العالم الحياة وجعلها تدب فيه ؟ مَن عقله الذى يدبره .

إن النشوء والارتقاء لا يصلح تفسيراً المبدع ، وإنما يصلح تفسيراً لوحدة العالم ووحدة المصدر ، وكلما تكشفت أسرار العالم وتكشفت وحدته ووحدة تدرجه ووحدة نظامه وتدبيره كان الإنسان أشد عجباً ، وأشد إمعاناً فى السؤال ، وليس يقنعه بعد كشف العلم عن أسرار العالم ، وعجزه عن شرحها وتعليلها ، إلا أن يهتف من أعماق نفسه : « إنه الله رب العالمين » .

# الحياة الأخرى

فى الناس قديماً وحديثاً ، فيما قبل التاريخ وما بعد التاريخ ، فى البدو والحضر ، فى الأصقاع المختلفة حيث لم تكن هناك صلة بين الناس ، ولا تبادل فى الأفكار والمشاعر ، فى الإنسان الساذج الجاهل ، وفى الإنسان المعقد العالم — فى كل أولئك شعور خفى يشبه الإلهام بأن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى تتحقق فيها العدالة وقد فقدت فى الدنيا ، وينال فيها الإنسان جزاء أعماله ونياته ، من غير أن تفسد الحكم رشوة قاض ، أو بلاغة محام ، أو تحيز لطبقات ، أو لشتى الاعتبارات ؛ هو نوع من الإلهام يشبه إلهام النبات فى امتصاصه ما ينفعه وتجنب ما يضره ، وإلهام الطير فى رحلاته فى الوقت المناسب ، وعودته إلى وطنه فى الزمن الملائم ، وإلهام الطفل حين خروجه إلى هذا العالم أن يلتقم ثدى أمه ، وأن يبكى إذا عراه ألم ، وأن يبتسم بعدُ إذا سر ، وأن ينفعل بالرضا والغضب ، ونحو ذلك من شتى العواطف والغرائز .

حتى أكثر الذين ينكرونه بألسنتهم وبمنطقهم يشعرون أن الإلهام باليوم الآخر متغلغل فى أعماق نفوسهم ، كامن فى خفايا غرائزهم ، لا يلبث أن يظهر إذا اشتدت الشدائد وتحرجت الأمور ووقعت الكوارث ، فتراهم ينكرون عقولهم ويؤمنون بغرائزهم ، ويحسنون أعمالهم ، ويكفرون عن كفرهم ، ويألمون لإنكارهم غرائزهم .

بهذه العقيدة فى الحياة الآخرة أصبح عمر الإنسان طويلا لا حدَّ لطوله ، وبهذه العقيدة أضاف إلى حياته المادية المحدودة حياة روحانية غير محدودة ، وبهذه العقيدة شعر أنه أرقى من كل الكائنات المادية ، ومن كل النباتات

والحيوانات القصيرة المدى ، وبهذه العقيدة شعر أن نفسه الخالدة أرقى من جسمه الفانى ، وبهذه العقيدة تشكل سلوك الإنسان وعليها أسس حضاراته ؛ فحضارة قدماء المصريين والأشوريين والبابليين ما كانت تكون لولا العقيدة فى الآخرة ، وعلى هذه الحضارات بنيت الحضارات المتتابعة على اختلاف أشكالها وألوانها .

أفمع هذا كله يمكن أن يكون هذا الإلهام كاذبا أو خادعا ؟

لقد جاهر بهذا قوم من كل صنف وكل ملة ، فقديماً قال الشاعر :

حياة ثم موت ثم نشر  حديث خرافة يا أم عمرو

وحكى الله فى القرآن عن قوم قالوا : « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر » .

وجاء بعض العلماء فى العصر الحديث فشايعوهم فى أفكارهم ، ونادوا بأن لا شىء إلا المادة ، ولا حياة إلا هذه الحياة ، وأن الفكر والشعور والعواطف نتيجة المادة وحدها وإفرازها ، كما تفرز الكبدُ الصفراء ، وكما تفرز الكُلْية البول ؛ والأفكار والإرادة والعواطف من إفراز المخ ، ويتوقف مقدارها ونوعها على مقدار المخ وعمله وتركيبه ؛ وكل شىء فى الحياة مادة أو مظهر من مظاهرها ، ولا شىء يسمى النفس ، فلا معنى لخلودها ، وإنما هو من نسج الخيال . وجاراهم فى ذلك بعض علماء النفس ، فأخذوا يحللون الشعور بالحياة الأخرى ، ويرجعونه إلى عناصره الأولية ؛ ورأوا — على طريقتهم — أن هذا يرجع فى الإنسان إلى « مركَّب النقص » ، فلما رأى ضعفه بالنسبة لقوة الطبيعة حوله اخترع ما يكمل نقصه ، فادَّعى بأنه الخالد وهى فانية ، الحىّ أبداً وهى مائتة ؛ وأوحى إليه بهذا الخيال — على رأى بعضهم — ما رأى من طير يطير بأجنحته إلى السماء ويغيب عن الأنظار ثم يعود إلى عشه كما بدا . قالوا : وان

هذا العالم مملوء بالشرور والكوارث والظلم ، ناقص من كل وجه ، والإنسان طموح بطبعه ، حاول أن يصلح العالم حسب آماله وطموحه ، فأدرك القليل وعجز عن الكثير ؛ فلما أعياه إصلاح الواقع لجأ إلى الخيال ، فتخيل الفلاسفة مدنا مثالية كالمدينة الفاضلة وما سموه « يوتوبيا » ، وتخيل الجمهور عالماً آخر مثاليا هو الجنة ، وهكذا استمروا فى قولهم وتعليلهم .

***

أما أن العالم مادة فقط فقول لا يستسيغه العقل ؛ فكيف تكون الأفكار والإرادة والعواطف نتيجة للمادة الكثيفة الجامدة ! وكيف يكون الفكر الذى يشعر بشخصيته نتيجة لمادة لا تشعر بشخصيتها ؟ وكيف تكون المادة التى ينصب عليها الفكر والشعور هى بعينها المفكرة الشاعرة ؟ وكيف تكون المادة والعقل والفكر شيئاً واحداً وصفاتها مختلفة تمام الاختلاف ؟ بل كيف تكون المادة المادية علة للفكر والعقل غير الماديين ؟ إن القول بأن المادة كل شىء يعجز عجزاً تاما عن تفسير ظواهر العالم ، فكيف تنشأ الحركة عن المادة ؟ وكيف ينشأ الحس عن الحركة ؟ وإن وجود علاقة بين شىء وشىء كالعلاقة بين المخ والتفكير لا يستلزم العلية ، وإن المخ هو مكان الفكر لا علته .

إن كان ذلك كذلك فلا بد أن يكون هناك شىء وراء المادة ، ووراء الجسم ، وهو الروح .

***

ثم إن العلم الحديث أثبت أن المادة لا تنعدم ، فكل ذرة فى هذا العالم لا تفنى ، ولكن تتحول من حبة الرمل وقطرة الماء إلى أعظم مخلوق ؛ فالشمعة تحترق وتبدد الظلام وتتبدد هى أيضاً ، ولكن الكيمياوى يستطيع أن يثبت

أن عناصرها لم تفن وإنما تفرقت فى الجو ، وهى موجودة فى الهواء ، ولكن فى وضع آخر ، تغير شكلها ولكن لم يتغير جوهرها ، وليست مادة الشمع وحدها لا تفنى ، بل طاقتها وقدرتها على الاحتراق والإضاءة لم تفن كذلك ، بل تغير وضعها وشكلها .

هكذا قرر العلم الحديث ، وهكذا أثبتت التجارب ؛ وعلى ذلك فموت الأجسام ليس إلا تغيراً لحالات الجسم ، وسيبقى الجسم فى هذا العالم فى أشكال أخرى ؛ فقد تكون ذرات جسم قيصر — كما قال شكسبير — طينا تسد به ثلمة ، أو كما قال عمر الخيام وعاء تعتّق فيه الخمر أو نحو ذلك ، ولكن لا فناء .

***

إن كان العالم ليس مادة فقط ، وإن كان العالم مادة وروحا ، وإن كان العلماء يقررون أن المادة لا تفنى ، وأن الطاقة لا تفنى ، فكيف تفنى الروح وهى أصلح من المادة للبقاء ، وتكوينها وصفاتها أنسب للدوام ، وهى أرق ما تمخض عنه العالم ؟

إن الروح هى التى تمس المادة فتدب فيها الحياة . إنها تحل فى الجسم فيعقل ويفكر ويتذكر ويشعر وتلعب عواطفه ، وتفارقه فيكون مادة جامدة كسائر المواد ؛ فإذا جاء الموت تحلل الجسم وذهب يلعب فى العالم دوره ، فيكون بعضه غذاء لشجرة ، وسماداً لزرع ، وهواء يستنشق ، وطينا تسد به ثلمة ، وجرة لخمر ، وركنا فى بناء ، وترابا يوطأ بالأقدام ، ومزهراً يعجب الناظرين ، وزهرة يتغزل فيها الأديب ، وطعاماً لدود أو حوت ، وفسفوراً تشعل به اللفافة ، وما شئت من صنوف الخلق مما يجمل ويقبح ، ويبعث الإعجاب والاشمئزاز ، والحب والكره ، ويدور مع العالم دورته ويكون جزءا فى ساقية « جحا » التى تملأ من البحر

وتصب فى البحر ؛ وتبقى الروح حية خالدة ، تبقى فيما قدمت من عمل ، وتحيى فيما خلفت من أثر ، وتلقى ربها حامدة لخيرها ، نادمة على شرها .

ما أتفه الحياة إن لم يكن خلود ! وما أضيق الأمل إن لم يكن غير هـذه الحياة ! وما أضيع العدالة إن فقدت فى الدنيا ولم تكن آخرة .

لا . لا . ليس إلهام الإنسان بالحياة الأخرى أكذوبة ، ولا شعوره بها خدعة . إنما هو وحى صادق من طبيعته ، وشعور حق يتغلغل فى غريزته .

# مستقبل الدين

ما أثر هذه الحرب العالمية فى الدين ؟ ما نوع الموجة التى ستسود العالم بعد الحرب ؟ أموجة دين أم موجة إلحاد ؟ وهذه المصائب العظمى — التى لم يمر على عالمنا مثلها — ما أثرها فى الشعور الإنسانى ، أتقرّبه من الله أم تبعده عنه ؟

هذه الأسئلة وأمثالها شغلت بعض كبار العقول فى أوروبا ، من رجال دين ورجال اجتماع وعلماء نفس ، وأجابوا عنها إجابات مختلفة ، وتنبأوا بالمستقبل تنبؤات متناقضة . فذهب فريق إلى أن العالم ستُديِّنه أهوال الحرب ، لأن أوروبا — قائدة العالم — عبدت العلم فأضلها ، وقدسته فكانت الويلات نهايتها ، قد لا تكون هذه الكوارث آفة العلم ، لأن العلم آلة ذات حدّين تستعمل فى الخير والشر على السواء ، ولكن كان ينفع العلم لو أن الانسان نمّى شعوره كما نمّى علمه ؛ وأحيا قلبه كما أحيا رأسه ، أما أن يُعنى الإنسان بعلمه ويترك قلبه ، ويستكشف مجاهل العلم ولا يستكشف مجاهل القلب ، ويبنى حياته اليومية ويؤسس سياسته العامة على العلم وحده دون القلب ، ويتقدم فى العلم خطوات واسعة حتى ليكون الفرق بين علم اليوم وعلم الأمس شاسعاً ، ثم لا يتقدم فى قلبه قِيد شعرة بل قد يتأخر ، فاختلال فى التوازن نشأت عنه هذه الكوارث ؛ كمن يمرن إحدى عينيه ويهمل الأخرى فتعمى ، فقد خلق الإنسان ولا ينتظم حاله إلا بالتوازن ، فإذا اختل توازنه شقى :

قالوا : سيدرك الانسان هذه النتائج كلها وأكثر منها بمحنته فى هذه الحروب ، وستتكشف له عللها وأسبابها ، وسيرى أن الدواء فى التوازن ، فينمّى قلبه وشعوره كما نمّى رأسه وعلمه ، وإذ ذاك يلجأ إلى الدين ، فهو غذاء

القلب ، وسيرى أن عبادة العلم والمادة تكشف عن مآس مرعبة ، وأن عبادة اللذة أفقدت اللذة ، فلا ملجأ إلا إلى الدين ، إلى الله ، إلى رحمته ، إلى عفوه ، إلى أن يسكب الدمع ليغفر له غفلته ، ثم يفتح صفحة جديدة لحياة جديدة .

قال بعضهم : ولكن سوف لا تعود أوروبا إلى الدين القديم بكل جملته وتفصيله ، فستُدخل الحرب التعديل على تفاصيل الدين ، كما ستدخله على كل النظم الاجتماعية ، مسترشدة بأخطاء الماضى — سيكون الدين منبعاً لعواطف الوطنية ، سينزع الغرائز الوحشية الظامئة إلى الدم من قلب الإنسان ليُحل محلها السلام العام ، والأخوة العامة : سوف ينكر الدين الجديد الشهوة فى ملك الجار الضعيف ، واغتصاب الأمم غير المسلحة والشعوب الراغبة فى السلام — إن الدين فى شكله الحاضر قد فشل لأنه قوّى روح الشر ، وأعان الظالمين على ظلمهم ، وعلى أقل تقدير أفقد رجال الدين قدرتهم على قمع أتباعهم ، حتى أصبحت أوروبا كلها مجزرة بشرية ، ثم سرت منها العدوى إلى العالم كله ببواعث الكره والبغض وحب الدم وحب الانتقام ؛ ثم تقام الصلوات من كل جانب لنصرة جانبه لا لنصرة الإنسانية وفكاكها من أسر الوحشية — إن العالم كله أصبح الآن بركاناً هائجاً ، والإنسان يُحصد حصداً بالملايين ، وكل يشعل النار ، وكل يحوّل ما وصلت إليه رماداً ، وكل يقلب الجمال قبحاً ، وتعاليم الدين الحاضرة عاجزة عن أن تقف عبثهم ، وتصد كيدهم .

إن مستقبل الدين لا لهذه التعاليم ، ولكن لتعاليم أخرى تتفق وروح الدين الأساسية ، تعاليم مؤسسة على الحق ، على أخوة الإنسان للإنسان ، وإن اختلف فى الجنس والدم واللغة والوطن والدين ، على انسجام الناس بعضهم وبعض ، وتبادل المنافع ودفع المضار ، على عدم التحزب لأى جانب مادى ؛ على عدم

إضاعة الزمن فى بذر الحقود بين الشعوب لما بينهم من خلاف فى الأقاليم ، أو فى العقيدة ، أو فى اللغة .

هذا هو الدين الذى سيسود الناس ، وهو الدين الذى ينسجم مع إرادة الله وفعله ، فهو خالق الناس جميعاً ، وهو واهبهم نعمه على اختلاف جنسهم وملامحهم وألسنتهم وألوانهم ، مُجرى الهواء يستنشق منه الناس جميعاً ، ومُخرج النبات فى كل أرض يأكل منه الناس جميعاً ، ومُحرك الشمس والقمر والنجوم تبعث ضياءها وحرارتها على الناس جميعاً ، وواهب العقول والشعور والإرادة للناس جميعاً ، فما بال دين الله لا يتبع سنة الله ، فينشر بين الناس جميعاً الأخوة والمحبة والعدل والتعاون والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ؟

* * *

وتوقع متنبئون آخرون من الكتّاب عكس ذلك تماماً .

قالوا : إن هذا التخريب فى العالم الذى لا حد له ، والضحايا بالملايين ، والويلات تصب على المحاربين وغير المحاربين ، والأيتام الذين فرّق الموت بينهم وبين آبائهم ، والمصائب التى لا يحصيها عد ، ولا تقف عند شكل دون شكل ، كل هذه ستثير الشكوك فى نفوس الناس فيصرخون من أعماق نفوسهم : « أين رحمة الله ؟ » وأين حبه لخلقه ؟ وأين الحكم العادل الذى يحكم به عباده ؟

ستهز هذه الأمثلة وأمثالها نفوس الناس فينكرون عقلاً مدبراً ، وتقدماً مستمرا ، وحا كما يوجّه العالم لغاية ، وستبعث فى النفوس الشك الذى يُسلم إلى الإلحاد ، وسيزيدون إمعانا فى المادية ، وسينصرف الجيل الجديد من الشبان — وقد رأوا هذه المناظر وسمعوا هذه الأقوال — عن أن يلتفتوا إلى بيوت العبادة أو إلى شعائر الدين ، وسيكون شعارهم : « دعنا نأكل ونشرب ، ونلهو

ونلعب ، فغداً يطوينا الموت ، ويلفنا الفناء » وفى مثل ذلك يقول طَرَفة :

ألا أيهذا الزاجرِى أحضرَ الوغى وأن أشهد اللذاتِ ، هل أنت مُخْلِدى ؟
فإن كنتَ لا تسطيعُ دفع منيّتِى فدعنى أبادرْها بما ملكَتْ يدى

سيقولون : إن كان الله يحب خلقه فأين الحب والوالدان الشيخان العاجزان يفقدان أولادهم فى هذه الحرب ؛ والفتاة الناضرة التى تستقبل الحياة تفقد زوجها ، والأم تفقد عائلها وحولها طفلها الرضيع وأولادها البائسون ، والأسرات لم تشترك فى القتال تنزل عليها المدمرات فتأتى عليها ، فأين الرحمة ؟

وإن كان الله قادراً فلم لم يحبس الأرواح الشريرة فى قماقم ؟ ولم لا يحصد أرواح باذرى الشر والفساد ، ومثيرى الفتن والحروب ؛ ويترك من عداهم فتستريح الدنيا ويسعد الناس ؟

من أجل هذا يتنبأون بكفر صارخ ، وإلحاد شامل .

***

ولكن ما أظن هذه النبوءة صحيحة ، فالإنسان من قديم يرى هذه الكوارث ، وتثور فيه هذه الشكوك ، وهو بعد لم يفقد إيمانه .

كل ما فى الأمر أن الإنسان مع ما ناله من رقى فى العقل والتفكير والشعور ، سيعدّل نظره إلى الله ، وبدل أن يفقد إيمانه لهذه الاعتراضات يصحح تصوّره لله ، ويتجلى له خطؤه فى تصوره القديم .

إن منشأ الغلط فى تصور الله على هذا النحو هو تشخيصه ، وإسباغ صفات عليه تشبه صفاتنا ، ونسبة عواطف إليه تشبه عواطفنا : من حب وكره وفرح وحزن ورحمة وانتقام . نعم قد وردت هذه الألفاظ فى كتب الأديان ، ولكن ألجأها إلى ذلك قصور لغة الإنسان وعجزها عجزاً تاما عن أن تصف ما لا يشبه

الإنسان ومن ليس كمثله شيء ، فالله ليس مشخصاً ولا هو إنسان ، ولا له عواطف الإنسان ، ولا يحب ويكره بالمعانى التى يشعر بها الإنسان ، فاذا قلنا إنه يسمع ويرى فلسنا نعنى أن له حواس كحواسنا ؛ وإذا قلنا يحب ويكره ، ويرحم وينقم ، فلسنا نريد أنه يعتريه انفعال كانفعالنا ، ولكن هى اللغة العاجزة ، واللغة المحدودة بحدود الإنسان .

إن الله يحكم العالم ويدبره بقوانين عامة واسعة ، لا بأحكام جزئية ضيقة ؛ خلق الخلق وسيّره على قوانين عامة ، فمن اعترضها اكتسحته ؛ وضع هذه القوانين وهو عالم بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، وعالم بدنيانا ودنيا غيرنا ، وعالم بكوكبنا والكواكب الأخرى حولنا ، فمن ضيق النظر أن نطالب الله أن ينظر إلى جزئيتنا فى بيتنا ، وإن تعارضت مع القانون الكلى . إن البستانى يقلم أشجاره ويقص حشائشه لأنه ينظر إلى البستان كُلاً ، ولا اعتراض عليه إذ يضحى بالجزئى للكلى ؛ والأرض مرتبطة بالشمس ، ونمو الشاة متوقف على نمو النبات ، وحياة الإنسان مرتبطة بحياة النبات والحيوان ، وكل هذه مرتبطة بقوانين عامة ، وهذا ما أدركناه اليوم ، وما لم ندرك أكثر مما أدركنا ؛ أفليس يعدّ من السخف أن نعترض على حادثة جزئية إذ كانت خاضعة لقانون عام يقرر المصلحة العامة ؟ أفليس من السخف أن نعترض على امتداد حديدة معينة بالحرارة ، وهذا قانون عام يقضى بتمدد الأجسام كلها بالحرارة ، وهذا القانون العام مرتبط بقوانين أخرى عامة مثله أو أعم منه ؟ فمن ينظر إلى موت ابنه وحده أو قتل أسرة بعينها أو موت ملايين من الناس فى حرب من الحروب كمن يعترض على تمدد حديدة بالحرارة ، نظرٌ جزئى ضيق يعترض على نظر كلى شامل . فما جيل بالنسبة لملايين الناس ؟ وما الأرض كلها لسائر العوالم ؟ إن الناظر من سطح الأرض غير الناظر من قمة جبل ، غير الناظر من طيارة . إن

النبتة تشكو الدودة وهى تمتصها ، والدودة تشكو العصفور وهو يلتقمها ، والعصفور يشكو الصقر وهو يبتلعه ، والصقر يشكو الإنسان وهو يصيده ، والإنسان يشكو الموت يصيبه ، والله من ورائهم محيط ، لأنه أعلم بقوانينه الواسعة الشاملة .

إن الله ليس من صفاته الرحمة فقط ، بل هو أيضاً عادل حكيم منتقم ، له كل هذه الصفات وأكثر منها ، ولكل صفة مظاهرها وتصرفاتها ، فمن الخطأ أن تقاس كل المظاهر بالحب وحده ، أو الرحمة وحدها .

إن للعالم غاية دبرها عقله : فلا بأس بالضحايا مهما كثرت للوصول إلى غايته نزولا على القوانين العامة التى تحكم العالم .

ولعل من قوانينه العامة منح الإنسان حريته فى الإرادة ، والجزاء الطبيعى الذى تنتجه أعماله ، ومسئولية الإنسان عن أخيه الإنسان ، كما تسأل خلية الجسم عن سائر الخلايا — إذن فلا حق من الشكوى ما دام هذا هو القانون العام الذى يتعادل مع قوانين العالم العامة .

***

وبعد ، فلماذا لا تكون النبوءة أن هذه الحرب بويلاتها تعمم فى الإنسان هذه الآراء ، فيعدّل من نفسه حسب القوانين العامة التى بثها الله فى العالم حتى يلائم بينه وبينها ، وينسجم معها ، ويشعر بالعقوبة الطبيعية فيتجنب إحداث الجرائم ، ويغير ما بنفسه من غرور بالقوة ، واعتماد على المادة بعد أن تبين الفشل فى الاعتماد عليها ، ويصحح تصوره لله حسبما أشرنا ، فيرى أن الموت إن كان يبعث الحياة فهو خير ، وأن العقوبة إذا أصلحت الجانى فهى رحمة وهى حب .

نحن إلى هذا أميل ، والله بالمستقبل عليم .

***

وإلى هنا تنتهى أحاديثنا فى رمضان ، وكل عام والقراء بخير .

# ابن الشبل البغدادى

## وأبو العلاء المعرى

الشهرة حظ كحظ المال ، غنى جاهل ، وفقير عاقل ، ومال ينهال انهيالا على من لا يستحق ، وقد لا نعرف السبب ، ومحروم بائس ولديه كل أسباب الغنى ؛ كذلك الشهرة ، مشهور لا نعرف لشهرته علة ، ومغمور يستحق كل شهرة .

وهذا ينطبق على ابن الشبل البغدادى : أديب كبير ، وفيلسوف حكيم ، ضن عليه المترجمون فلم يرووا لنا أخباره ، وضاع بين الأدب والفلسفة ، فلم يشتهر شهرة الأدباء ولا شهرة الفلاسفة . لم أعثر له على ترجمة تشرح حياته إلا نحو خمسة أسطر فى « معجم الأدباء » لياقوت الحموى ، ومثلها فى « طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعـة ؛ فهما يقصان علينا أنه كان حكيماً فيلسوفاً ، وأديباً بارعاً ، وشاعراً مجيداً ، وأنه ولد ونشأ ببغداد ، وتوفى بها سنة ٤٧٤ ، ثم رويا شيئا من شعره . وهذا كل ما قالاه وكل ما عثرت عليه بعـد البحث ، حتى لم يكف الناس أن يظلموه بتعفية آثاره فعمدوا إلى خير قصائده وأشهرها ، التى مطلعها « بربك أيها الفلك المدار » فسلبوها منه ونسبوها إلى ابن سينا ؛ وكذلك الدنيا « إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت سلبته محاسن نفسه » .

كل ما عثرت عليه من شعره نحو مائة وخمسين بيتاً ؛ ولـكن ليس الشعر بالعدد ، ولا التقويم بالـكمية . فقـد يروى لشاعر بيت واحد يساوى دواوين ، ولو أنصف الناس لعدوه شاعراً كبيراً ، وقد يكون لشاعر ديوان فى أجزاء وهى كلها لا تساوى بيتاً ، ولو أنصف الناس لأهملوه وأهملوا ديوانه .

ابن الشبل البغدادى — كما تدل عليه هذه الأبيات — شاعر ممتاز من جنس الشعراء القليلين الذين جمعوا بين الشعر والفلسفة ، أمثال دانتى وملتن فى الشعر الغربى ، وأبى العلاء وعمر الخيام فى الشعر العربى ؛ ولكن الأخيرين رزقا الحظوة فى شعرهما فسار ذكرهما فى الناس ، وعرفهما الشرق والغرب ، وخمل ابن الشبل فجهل فى الشرق والغرب .

كان ابن الشبل شاعراً حائراً حيرة أبى العلاء ، كلاهما يبحث عن الحق بعقله فتضطرب الدلائل وتختلف الأعلام ، فيصرخ بالشعر من حيرته ، وكانا متعاصرين تقريباً ، تأخرت وفاة ابن الشبل عن وفاة أبى العلاء بخمسة وعشرين عاماً ؛ فهذا شاعر حائر فى بغداد ، وهذا شاعر حائر فى معرة النعمان : هل العالم خير أو شر ؟ إن فى العالم لذائذ ومسرات ، فهل نستمتع بها أو نرفضها ؛ ما الدين وما تعاليمه ؟ ما القدر وكيف يتفق والثواب والعقاب ، هذه الأسئلة ونحوها أثارها كل منهما ، لا إثارة فيلسوف فحسب ولا شاعر فحسب ، بل إثارة شاعر فيلسوف معاً ، ينظر كلاهما النظرة الفلسفية العميقة ، ثم لا يخضع لنظم الفلسفة وعباراتها وترتيب مقدماتها ونتائجها وفصولها وأبوابها ، ويوقع كلاهما أفكاره على النغمة الموسيقية الشعرية ، مازجاً عاطفته بفكرته وخياله بمنطقه . بل عندى أن ابن الشبل أصح شاعرية وأرق موسيقية . وأجزل أسلوباً من صاحبه أبى العلاء فى اللزوميات . لقد أتعب أبو العلاء نفسه بالتزام مالا يلزم ، وبتظاهره بمعرفته الواسعة بمادة اللغة . أما ابن الشبل فسهل جار مع الطبع ، لا يتكلف ولا يلتزم مالا يلزم ولا يحب الغريب .

* * *

حار كلاهما فى السماء ونجومها ، والأفلاك ودورانها ، هل تعقل أو لا تعقل ؟

وهل هى مخيرة أم مسيرة ؟ وهل تسير لغاية أو تخبط خبط عشواء ؟ فأما ابن الشبل فقال :

بربك أيها الفلك المُدار أقصدٌ ذا المسيرُ أم اضطرار ؟
مدارُك قل لنا فى أى شىء ففى أفهامنا منك انبهارُ ؟
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تُدارُ ؟
وعندك تُرْفَع الأرواح أم هل مع الأجساد يُدركها البوار ؟

وأما أبو العلاء فقال .

اسْتحْيِ من شمس النهار ومنْ قمرِ الدُّجى ونجومِه الزُّهْر
يجرين فى الفلك المُدار بإذ نِ الله لا يخشْيَنَ من بُهْرُ (١)
ولهُنَّ بالتعظيم فى خلَدِى أولى وأجدر من بنى فِهْر
سبحان خالقهن لست أقو ل الشهبُ كابية مع الدهر
لا بل أفكر هل رُزِقْنَ حِجًى نَجِسًا يَمِزْنَ به من الطهر

وقال :

العالم العالى برأى مَعاشر كالعالم الهاوى يحس ويعلم
زعمتْ رجال أن سياراته تسق العقولَ وأنها تتكلم
فهل الكواكب مثلُنا فى دينها لا يتّفِقْنَ فهائد أو مسلم ؟

وكلاهما ناقم على العالم لم وجد ؟ وما الغرض منه وما فائدته وقد امتلأ بالشرور وأفعم بالرزايا ؟ فأما ابن الشبل فيقول :

ودهرٌ ينثر الأعمار نثرا كما للغُصنِ بالوردِ انتثارُ
ودنيا كلّما وضعَتْ جنيناً غذاه من نوائبها ظُؤَار (٢)

---

(١) البهر : تتابع النفس وانقطاعه من الجرى . (٢) جمع ظؤر وهى المرضعة .

هى العشواء ما خبطت هشيم ... هى العجماء ما جرحت جُبَار (١)

ويقول :

إنما نحن بين ظفرٍ وناب ... من خطوبٍ أُسُودُهن ضِرَاء (٢)

نتمنى وفى المُنى قصر العُمْـ ... ـر فنغدو بما نَسَرُّ نُساء

صحـــة المرء للسقام طريقٌ ... وطريق الفناء هـذا البقاء

بالذى نغتذى نموت ونحيا ... أقتل الداء للنفوس الدواء

ما لقينا من غدر دنيا ؟ فلا كا ... نت ولا كان أخذها والعطاء

راجعٌ جودُها عليها فمهما ... يَهَب الصبح يستردَّ المساء

ليت شعرى حلماً تمر بنا الأيـ ... ـام أم ليس تعقل الأشياء

ويقول أبو العلاء :

وكأنما دنيـــاك رؤيا نائم ... بالعكس فى عقبى الزمان تُعَبَّر

سُرَّ الفتى من جهله بزمانه ... وهو الأسير ليوم قتل يصبر

ويقول :

أصاحِ هى الدنيا تُشابه ميتَــة ... ونحن حوالَيها الـكلابُ النوابح

فمن ظلَّ منها آكلاً فهو خاسرٌ ... ومن عادَ منها ساغبًا فهو رابح

ومن لم تُبيِّته الخطوبُ فإنه ... سيصحَبُه من حادث الدهر صابح

وكلاهما يعتب على آدم فعلته ، ويحمله تبعة شقائنا فى هذا الـكون . فأما ابن الشبل فيقول :

فإن يك آدمٌ أشقى بنيــه ... بذنب ما له منه اعتذار

ولم ينفعه بالأسمـاء علمٌ ... وما نفع السجودُ ولا الجوار

(١) جبار أى هدر لا مؤاخذة عليه . (٢) الضراء الضارية المفترسة .

لقد بلغ العدو بنا مناه ... وحل بآدم وبنا الصَّغار
فيالكِ أكلةً ما زال منها ... علينا نقمةٌ وعليه عار

ويقول أبو العلاء :

خيرٌ لآدمَ والخلق الذى خرجُوا ... من ظهره أن يكونوا قبلُ ما خُلقوا
فهل أحسَّ وبالى جِسمِهِ رِمَمٌ ... بما رآه بنوه من أذَى ولَقُوا ؟

وكلاهما يحار فى علة الوجود وفى التكليف مع الجبر ، فيقول ابن الشبل :

فماذا الامتنان على وجود ... لغير الموجَدين به الخيارُ
وكانت أنعُمًا لو أن كوْنًا ... نُخَيّرُ قبلَه أو نستشار

ويقول :

قبح الله لذةً لأذانا ... نالها الأمهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألم الفقـ ... ـد فإيجادنا علينا بلاء

ويقول أبو العلاء :

جئنا على كُرْهٍ ونرحل رُغمًا ... ولعلنا ما بين ذلك نُجْبَرُ

ويقول :

ما باختيارىَ ميلادى ولا هَرَمى ... ولا حياتى فهل لى بعدُ تخييرُ

وكلاهما يحار فى « البعث والنشور » فيقول ابن الشبل :

وقليلا ما تصحب المهجة الجسـ ... ـم ففيم الأسى وفيم العناء ؟
ولقد أيد الإله عقولا ... حجةُ العَوْد عندها الإبداء
غيرَ دعوى قوم على الميت شيئًا ... أنكرته الجلود والأعضاء
وإذا كان فى العِيانِ خلاف ... كيف بالغيب يستبين الخفاء ؟

ويقول أبو العلاء :

أرواحنا معنا وليس لنـــا بها　　علم فكيف إذا حوتها الأقبر ؟

ويقول :

دفنّاهمُ فى الأرض دون تيقُّن　　ولا عِلْم بالأرواح غيرُ ظنون

ويقول :

وقد زعموا هذى النفوسُ بواقياً　　تَشَـكَّلُ فى أجسامها وتهذبُ
وتُنْقَل منها فالســعيد مكرّم　　بما هو لاق والشقىّ مشذّب
ولو كان يبقى الحسُّ فى شخص ميت　　لآليتُ أن الموتَ فى الفمِ أعذبُ

هذا إلى كثير من وجوه الشبه بينهما فى الحيرة والنظرة الفلسفية للحياة ، وتصوير ذلك كله تصـويراً شعريا ؛ ولـكن شيئاً واحداً جوهريا يخالف بينهما تمام المخالفة ، ويجعل نظرتهما للحياة متغايرة ؛ فأبو العلاء بطبيعة مزاجه وعاهته وفشله قال إن الحياة باطلة فلأزهد فيها ، وابن الشبل بحكم ظروفه التى لم ترو لنا قال إن الحياة باطلة فلأنعم ما استطعت بها . مقدمتان متساويتان لنتيجتـين متضادتين ، كالـكهرباء الواحدة تستعمل فى التبريد وفى التدفئة ، تارة تكون مروحة وثلاجة ، وتارة تكون مدفأة وناراً .

فأما أبو العلاء فغنى على أوتار حزينة . يلعن الدنيا ويلعن الناس ويلعن نفسه ، ويفر من الدنيا فراره من الجرب ، ويزهد فى كل ملذاتها من نساء وخمر وأكل شهى ، ويفرض على نفسه فروضاً قاسية من عزلة ورهبانية وصيام حتى عن الطيبات من الرزق ، فلا يأكل السمك لأنه أخرج من البحر ظلماً ، ولا اللحم لأنه عذب حيوانه ذبحاً ، ولا يفجع الطير فى نفسها وأولادها ، ولا عسل النحل الذى جمعه بجده من الأزهار فيقول :

فلا تأخذنْ ما أخرج الماء ظالما　　ولا تبغ قوتا من عَريض الذبائح
ولا تَفْجَعَنَّ الطـــير وهى غوافل　　بما وَضَعَتْ فالظـــلم شر القبائح

ودع ضَرَبَ النحل الذى بكَرَتْ له كواسب من أزهار نبتٍ فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها ولا جمعته للندى والمنائح
مسحت يدى من كل هذا فليتنى أبِهْتُ لشأنى قبل شيب المسائح

ويقول :

وأرحت أولادى فهم فى نعمة الـ ـعدم التى فَضَلَتْ نعيمَ العاجلِ
ولو أنهم ظهروا لعانَوا شدة ترميهمُ فى متلفات هواجلِ (١)

ويقول :

وزهَّدَنى فى هَضْبة المجد خبرتى بأن قرارات الرجال وُهود
كأن كهولَ القوم أطفال أشهر تناغَتْ وأكوارَ القِلاص مهود
إذا حُدِّثوا لم يفهموا ، وإذا دُعُوا أجابوا وفيهم رقدة وسهود

ويقول :

أأخرج من تحت هذا السماء فكيف الإباق وأين المفرّ
وما جُعِلت لأسود العرين أظافير إلا ابتغاء الظفر
لحا الله قوماً إذا جئتُهم بصدق الأحاديث قالوا كفر

وأما ابن الشبل ، فيرى بطلان الحياة فيضحك منها ولها ، ويتغزل غزلا ظريفاً ، ويدعو إلى انتهاب اللذات قبل فوات الأوان ، فيقول فى غزله :

إن تكن تجزعُ من دمـ ـعى إذا فاض فصُنْهُ
أو تكن أبصرت يوماً سيداً يعفو فكُنْهُ
أنا لا أصبر عمن لا يحل الصبر عنه
كل ذنب فى الهوى يُغـ ـفرُ لى ما لم أخنه

(١) الهواجل جمع هوجل وهى المنارة لاأعلام بها .

ويقول :

قالوا وقد مات محبوبٌ فُجعت به ... وبالصِّبَا وأرادوا عنه سلوانى
ثانيه فى الحسن موجود ، فقلت له ... من أين لى فى الهوا الثانى صِباً ثانى ؟

وله اللفتاتُ النفسية اللطيفة كقوله :

لا تُظْهِرَنَّ لعاذل أو عاذر ... حالَيْك فى السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين مرارةٌ ... فى القلب مثل شماتة الأعداء

والتشبيهات المبتكرة كقوله :

يُفْنِى البخيلُ بجمع المال مدَّته ... وللحوادث والوُرَّاث ما يَدَع
كدودة القزّ ما تبنيه يخنقها ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

ويقول فى انتهاب اللذات :

ما أمكَنَت دولة الأفراح مقبلةً ... فانعَم ولذَّ فإن العيش تارات
قبل ارتجاع الليالى وهى عارية ... وإنما لذة الدنيا إعارات
لعله إن دعا داعى الحمام بنا ... نَقْضِى وأنفسُنا منا رَوِيّات

***

قد وقَّع الدهر سطراً فى صحيفته ... «لا فارقت شارب الخمر المسرات»
خذ ما تعجل واترك ما وُعدت به ... فعل اللبيب، فللتأخير آفات
وللسعادة أوقات ميسَّرة ... تُعطِى السرور وللأحزان أوقات

وهكذا كانا لطيفين فى موافقاتهما ، لطيفين فى مفارقاتهما — رحمهما الله .

# نزعة صوفيـــــة

## ومزاج رمزى

### — ١ —

كان لى صديق — رحمة الله عليه — له نزعة صوفية ومزاج رمزى ، كان لا يرى الأشياء كما نرى ، بل يرى كل شىء رمزاً لمعنى . وكان لا يسمع كما نسمع ، بل كانت كل كلمة يسمعها توحى إليه بمعان تنسجم مع نزعته ومزاجه .

كنت أسايره مرة فى شارع من شوارع الإسكندرية ، فطلع علينا فجأة بائع جرائد يقول : « البصير ، البصير » . فقال صاحبى : « سبحانه وتعالى » .

وأسمعته يوماً أبياتاً لأبى تمام ، حتى إذا وصلت إلى قوله :

وأنجدتُمُ من بعدِ إتهام داركُمْ      فيادمع أنجدْنى على ساكنى نجد

استعادنى البيت ، ثم رأيته يكرره حتى دمعت عيناه ، وقص علىَّ فى اليوم التالى أن البيت ظل عالقاً بذهنه حتى شطره وخمَّسه وسبَّعه ، ولم يذكر لى أى المعانى رمز إليها هذا البيت حتى بعثته على ذلك كله .

وله فى ذلك طرف كثيرة لا أطيل بذكرها .

وسميت ذلك مزاجا لأن هذا النموذج من الناس أقرب إلى أن يكون خلقة من أن يكون اكتسابا ، و إلى أن يكون استعداداً نطريا من أن يكون تعليما ومراناً . هذا المزاج لا بد من قدر منه للشاعر والموسيقى والفنان والصوفى ، و إن اختلف حظهم منه واختلفت نواحى تلقيهم وأدائهم .

هؤلاء كلهم يرون أن الدنيا كلها جمال مقنع ، فلا بد أن نكشف القناع لنرى الجمال ، وأن حقائق العالم مستورة ، وأن مظاهره ليست إلا أعلاما يستدل بها على خفاياه ، وأن قيمة العالم فى باطنه ، وليس ظاهره إلا رمزاً له ، وأن الجمال المكشوف ليس جمالا ، والحقيقة العارية لا تلذ النفوس الكبيرة ، وأن البحث عن الحقيقة ألذ من الحقيقة نفسها ، وأن جمال الجميل فى بعده ، تنظر إليه وكأنك لا تنظر ، وتقرب منه وكأنك لا تقرب ، ومعالجته ينبغى أن تكون من جنس طبيعته ، تدل عليه وكأنك لا تدل ، بالرمز وبالإيماء ، وباللمحة تجعلك تسبح فى خيالك ، وبالإشارة تستدل بها على الطريق بجهدك ؛ ومن أجل هذا كان الفرق بين تعبير العلم وتعبير الشعر والموسيقى والتصوف ؛ فتعبير العلم واضح محدود ، يفهمه الناس بوضوح ، ويفهمونه على السواء متى تحقق شرط الذكاء . أما الشعر والموسيقى والتصوف فتعبير فى غير استقصاء ، ورمز فى غير جلاء ، كل يرمز بما يهوى ، وكل يفهم كما يشاء ، حسب مزاجه وظروفه ونفسيته . ومن أجل هذا أيضاً كانت اللغة أداة طيعة للعلم وأداة مسكينة للفن والتصوف .

يقول فى ذلك ابن الفارض فى تائيته الكبرى :

وثَمّ أمور تم لى كشفُ سِرِّها ‏ ‏ بصَحْوِ مُفيق عن سواى تَغطَّتِ

وعَنّى بالتلويح يفهم ذائقٌ ‏ ‏ غَنِىٌّ عن التصريح للمتَعنِّتِ

بها لم يَبُح من لم يُبِح دَمَه وفى الا ‏ ‏ إشارة معنى ما العبارةُ حَدَّتِ

وهو معنى جميل فى أسلوب غير جميل .

لقد مالت بعض الأديان القديمة إلى هذه النزعة الرمزية ، كما ترى فى ديانة قدماء المصريين بصورهم ورموزهم ، وفى ديانة قدماء اليونان بأساطيرهم ، وعند قدماء الهنود فى قصصهم وعباداتهم .

ولكن يظهر أن الإسلام لم يمل إلى هذه النزعة ، وخاصة فى أيامه الأولى ، كما لم يمل إليها دعاة الإصلاح الدينى فى النهضة الأوروبية ؛ ومع هذا لم يخل أهل دين من الأديان منها حسب مزاج معتنقيه ؛ فكان فى النصرانية رمزيون ومتصوفون ؛ وكان فى الإسلام هذا النزاع الحاد بين الفقهاء والصوفية ، وبين أهل الشريعة وأهل الحقيقة ، وأهل الظاهر وأهل الباطن ، وأهل العقل وأهل الذوق ؛ وكلها ألفاظ تعبر عن شىء واحد ، وهو أن مزاجا يميل إلى العقل والاقتصار على التصريح ، وأن لا شىء وراء ظاهر القرآن وظاهر الدين ، وأن هناك مزاجا رمزيا لا يرى الاقتصار على الظاهر ، وأن وراء كل ظاهر باطناً . وأهم من العقل الذوق ، ووراء المشهورات خفيات ، ووراء التفسير التأويل .

هؤلاء الرمزيون يعتمدون على قلوبهم أكثر مما يعتمدون على عقولهم ، وعلى أذواقهم أكثر من منطقهم ، وعلى خيالهم وإلهامهم أكثر من تفكيرهم ، وعلى عواطفهم أكثر من مقدماتهم ونتائجهم ؛ وعلى حبهم أكثر من بحوثهم .

قلت لصاحبى هذا يوماً : إن الحب يفسد الحكم ويعمى ويصم .

قال : إنك لا تدرك الحق إلا بالحب . ألا ترى أن الأم أعرف الناس بأبنائها ، لأنها تعرفهم بعاطفتها وذوقها وحبها ، على حين أن غيرها يعرفهم بعقله وإن شئت فقل يجهلهم بعقله ؟ أو لا ترى أن الشاعر يتخير بذوقه بحوره وكلماته وقافيته وصُوره ، فاذا حُكِّم فيها العقل وحده ، يدرك جمالها ولم يتذوق حسنها ؟ إن ذوقنا الذى نعتمد عليه فى إدراك موسيقى الشعر ونغماته وجماله هو الذى يجب أن نعتمد عليه فى إدراك موسيقى العالم ونبضاته وجماله — ألا ترى الأحلام اللذيذة كيف تنبعث فى ظلام الليل الحالك فتلعب ألعابا سارة وتتقدم بصور جميلة ترمز بها إلى حقيقة تاريخ الإنسان وما جرى له من أحداث وما تعلق به قلبه من أمانى ومخاوف ؟ كذلك الإنسان الصاحى إذا وهب المقدرة على فهم الرمز يرى

الحياة صوراً رمزية جميلة متعاقبة متلونة ترمز إلى حقيقة العالم ومراميه .

قلت له : إن الفهم عن طريق الرمز مسألة شخصية ذوقية لا يمكن ضبطها ولا الاشتراك فيها ؛ فكل يفهم من الشيء رمزاً لمعنى قد لا يوافقه فيه الآخر ، فقد يفهم أحدهم البحر رمزاً للعظمة والسلطان ، وقد يفهمه آخر على أنه رمز للغيظ وثوران الغضب ، وقد يفهمه ثالث على أنه رمز للخطر المحدق ، ذلك أن للشيء صفات متعددة ، وكل صفة ترمز لمعنى ، فأى المعانى يراد ؟ ثم هذا أمر وليد الخيال والخيال لا حد له ، فقد يمعن حتى يأتى بالأوهام ويكون شأنه شأن المتشائم الموسوس ، كالذى يحكى عن ابن الرومى أنه خرج من داره فرأى حانوت خياط قد صنعت درفتاها كهيئة لام ألف ورأى تحتها نوى تمر ، فقال إن هذا يرمز إلى أن « لا تمر » ، وكان بعض العابثين به يقرع عليه الباب فيقول مَنْ ؟ فيقول : « مرة بن حنظلة » فيتشاءم من ذلك يومه ولا يخرج من بيته ؛ وكالخيالات التى تبعثها الخمر أو الحشيش أو الأفيون ، فيخلقون دنيا غير دنيا الناس ، ويتخيلون فيها مايضحك ومايبكى ، ويعتمدون فى كل ذلك على خيالهم الخادع ووهمهم الكاذب ؛ فلو أقررنا هذه الرمزية أفسدنا التفاهم . ألا ترى أن من يعتمدون على اللغة وعلى منطق العقل يسهل تفاهمهم ، لأن لألفاظ اللغة معانى محدودة لا يتسرب إليها الخطأ إلا من طريق الجهل ؛ والعقل له منطق محدود وشروط معينة يعرف بها وجه الخطأ والصواب — أما طريقتكم الرمزية والذوقية فلا ضابط لها ، ومن أجل هذا صعب فهم كلام الصوفية ، لأن صاحبه يعبر عن ذوقه هو ومواجيده هو ، فلا يفهمه إلا من منح ذوقا كذوقه ومواجيد كمواجيده ، ولا يشاركه فى فهم رموزه إلا من كان فى حالة مزاجية تشبه حالته . فالمعقول — إذا أنتم أردتم التفاهم — أن تستعملوا القدر المشترك بين الناس من اللغة والمنطق ، وإلا فلا تستعملوا اللغة . إنكم باستعمالكم اللغة أفسدتموها برموزكم ، فأخذتم كلمات الخمر والحب والغزل

المعروفة المتفاهمة ، ووضعتموها لأشياء صوفية رمزية لا ضابط لها فكانت غامضة الدلالة ، ومن تصدى لشرحها وقع فى نفس الغموض الذى وقع فيه أصلها . ذلك لأنكم استعملتم اللغة فى غير ما وضعت له ، وأطلقتم لخيالكم العنان فحملتم الألفاظ والأساليب مالا تطيق ، فلا أنتم عبرتم عن أنفسكم تعبيراً صحيحاً ، ولا أنتم تركتم اللغة من غير إفساد .

تبسم ضاحكا من هذا القول وصمت قليلا ثم قال : إن كلا من الذوق والعاطفة والخيال له حالة يكون فيها صحيحا سليما ، وحالة يكون فيها مريضا ؛ فالعقل قد يمرض فيكون جنونا ، والذوق قد يمرض فيجد الحلو مرا ، والعاطفة قد تمرض فتغلى أو تبرد ، والخيال قد يمرض فيكون وهما . فاعتمادنا على الذوق كاعتمادكم على العقل ، كلانا يعتمد على صاحبه فى حال صحته ، والذوق إذا صح أرشد إلى خير مما يرشد إليه العقل . وأين التفاهم والاتفاق فى عقولكم ؟ ها أنتم تخضعون للعقل فانظروا مصيركم ، هل يتفاهم عقلاؤكم ؟ وهل تتفقون فى مجالسكم وأحاديثكم وتصرفاتكم ؟ إن لكل إنسان عقله كما أن لكل إنسان ذوقه ، وهل تظن أن العقل أداة صالحة لفهم الحقيقة ؟ وما هذا العقل الذى تمجده ؟ إنه خادم الغرائز والشهوات ، إنه ليس منظما لحياتنا اليومية ، إنه ليس قائداً لسلوكنا ، إنما هو تابع لأغراضنا ، إنه يخدم الحق والباطل ؛ والمحاميان فى قضية واحدة يجدان منطقاً يخدم مطالبهما المتناقضة . لولا الذوق والعاطفة يلطفان من حدة العقل فى هذه الحياة ما صلحت . ما الوطنية وما القومية وما حب الآباء لأبنائهم ؟ إنها سخافات فى نظر العقل المجرد ، ولكنها تحكم الدنيا وتسيّر العالم . الفرق بيننا — نحن الصوفية — وبينكم أنتم العلماء أننا نعتمد على نفوسنا وتعتمدون على حواسكم ، نطهر أنفسنا ونصفيها فيلمع فيها نور الحق ، وتدورون أنتم حول العالم الخارجي تودون معرفة الحق عن طريق حواسكم ، وهيهات أن تصل الحواس وما يتبعها

من عقل ومنطق إلا إلى الظواهر الخارجية . إذا أردت أن تعرف شيئاً فإما أن تلف حواليه وإما أن تتغلغل فى باطنه ، فالأولى هى طريقتكم والمعرفة بها معتمدة على حواسكم ، وتقويمها راجع إلى مشتهياتكم ، ومحدود بزمانكم ومكانكم وظروفكم . أما طريقتنا نحن فتجلية مرآة نفوسنا حتى تنطبع فيها الحقيقة مجردة عن الزمان والمكان والظروف والتشهى ، إنا نعتمد على البصيرة وتعتمدون على البصر ، إنكم بحواسكم عدّدتم الأشياء حسب مظاهرها ، ونحن وحّدنا الأشياء حسب حقيقتها ، فالخلاف بيننا فى العرض لا فى الجوهر ، فالحقيقة واحدة والأشكال متعددة ، وربما صدكم التعدد عن رؤية الواحد ؛ وليست الشرور والرذائل إلا مظاهر عارضة للحقيقة الواحدة ، وليس هناك فى الحقيقة تقسيم لخير وشر ...

وإلى هنا اندفع فى قوله ، وشطح فى تفكيره ، فكاد يغيب عن وعيه ، ولم أفهم ما يقول ، وأبعد فى رمزه فلم أتابعه فى سيره ، وانتهزت أول فرصة أرده فيها عما لم أفهم إلى ما أفهم .

## — ٢ —

أهم ما امتاز به هذا الصديق — رحمة الله عليه — شيوع الحب فى نفسه ، والسعة العظيمة فى قلبه ، كان يحب الصديق ويفهم العدو فيحبه ، ويحب المؤمن ويرحم الكافر فيحبه ، ويحب الحيوان والأطفال ، ويحب الأمة غير أمته والعبادة غير عبادته ، وكثيراً ما ينشد قول ابن العربى :

لقد صار قلبى قابلا كل صورةٍ   فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان
وبيت لأوثان وكعبةُ طائف   وألواحُ توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنَّى توجهتْ   ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وقول ابن المعتز .

قلبيَ وثابٌ إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيــأباه

يهيم بالحســن كما ينبغى ويرحم القبحَ فيهـــواه

واسع الصدر لـكل رأى ، واسع النفس لكل عاطفة ، راحم حتى لمن أساء إليه ، كان يرى الناس إذا غاض حبهم وضاق قلبهم عاشوا فى كوخ مظلم ، وهو بسعة نفسه وسعة قلبه يعيش فى قصر منير ، إنهم يلتصقون بالأرض وهو يحلق فى السماء ، إنهم يشقون بالـكراهة وهو يسعد بالحب ، إنهم يضجرون لضيق الأفق وهو يرتاح للانهاية .

* * *

يرى كل شىء من الله ، فهو يحب الله ويحب ما صــدر عنه ، ويرى كل كراهية منشؤها الجهل ، فمن عرف عفا ، ومن عرف أحب :

له عين ترى محاسن الأشياء ولا ترى عيوبها ، كالمسيح مر هو وأصحابه على جيفة ، فقالوا : ما أنتن رائحتها ! فقال : ما أجمل بياض أسنانها !

* * *

انعدمت فى نظره الفروق ، فاجتمعت المتفرقات ، وأتلفت المتبـاينات ، فالدنيا كلها صفات الله تختلف بالاسم وتتحد فى المسمى . وكان يقول : « إذا رأيته لم تر غيره ، وإذا رأيت غيره لم تره » .

* * *

كان يحب أن يكون من عامة الناس لا من خاصتهم ، فهو لا يحب أن يتميز أمام الناس بعلم أو بجهل ، ولا بغنى ولا فقر ، ولا بفصاحة ولا عى ، ولا اجتماع ولا عزلة . لذلك كان يختار من اللباس ما لا يمتاز بشىء ، ولا يحب أن ينتمى إلى هيئة ولا جمعية ، ولو كانت جمعية صوفية ، ولا أن يظهر منه

ما يدل على تصوفه . يعرفه الناس تاجراً كسائر التجار ، لا يمتاز عنهم إلا بتحرى الصدق فى القول والسماحة فى المعاملة ، أما جانبه الصوفى فلا يعرفه إلا اثنان أو ثلاثة من خاصة أصدقائه .

كان يرى الطبيعة كتاب الله المفتوح ، فأشجاره صفحة ، وإنسانه صفحة ، وبحاره صفحة ، وكل شىء فيه صفحة ؛ ولكن إذا كانت الكتب لا تفهم إلا بواسطة اللغة ، فكتاب الطبيعة المفتوح لا يفهم إلا بالقلب المفتوح ، فإذا انبهم القلب انبهمت الطبيعة ؛ فكان إذا رأى القمر يشع من خلال أوراق الشجر قال : هنا موضع سجدة ، وإذا جلس على شاطئ البحر فرأى تلاعب الرياح بالأمواج فزع إلى الصلاة . وكان يقول إن قلبه يخفُق فى الريف أكثر مما يخفق فى المدن ، وينبض عند الطبيعة العارية أكثر مما ينبض فى المدن الكاسية ؛ وكان يعجبه من الكتب المقدسة أنها كتب تدل على كتاب الطبيعة .

* * *

كنت ألاحظ دائماً أن تقويمه للناس والأشياء يخالف تقويمنا ، وميزانه يخالف موازيننا ، أرى الناس يقوّمون الناس بقوتهم وبجاههم وبمالهم وبمقدار النفع الذى يتلقونه من أيديهم ، والضرر الذى يتقونه منهم ؛ ثم أراه شاذا فى ذلك شذوذاً غريباً ، فيصطفى من لا يُصطفى ، ولا يحتفل بكثير ممن يحتفل به . وله فى ذلك فراسة نادرة ، فهو يستفتى قلبه ولا يستفتى عقله ، ويحكّم روحانيته ولا يحكم ماديته . حدثته فى ذلك فقال إنى لم أصل إلى ذلك إلا برياضة نفسية شاقة علمتنى اليقين بأن النفع والضر بيد الله وحده ، والإيمان بأن خير الناس أنفعهم للناس ، وألا أُدخل فى موازينى المظاهر من حسب أو نسب ، وغنى أو جاه ، وقوة بالمنصب وعظمة بما يفنى . اقرأ إن شئت : « أما من استغنى فأنت له تصدّى ، وما عليك ألا يزّكّى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه

تلهّى ! » . وهو مع اختلافه عن الناس فى التقدير ، لا يمعن فى التحقير ، فهو يعجب بالأعلى ويرحم الأدنى ، ويكبر العظيم ويحنو على الوضيع ، فالله يتجلى على كل شىء بما ينسجم وطبيعته ، فهو الرافع الخافض ، وهو المعز المذل .

* * *

أحب حتى غمره الحب ، ولم يتركز حبه فى إنسان ولا فى أسرة ولا فى مال ، بل شع على كل شىء ، وشع من كل شىء على قلبه ؛ فكنت تقرأ الحب فى عينيه وفى بسمته وفى نظرته للبائس والمجرم ، وفى دمعته تنحدر للكارثة تحدث لمن يعرف ومن لا يعرف ، وفى المال يخرج من جيبه للسائل والمحروم .

وكان يحب السماع حبا عجبا حتى كأنه غذاؤه الذى يعيش عليه ، وأكثر ما يعجبه من النغمات الحزين الباكى ، وهو يحب السماع على اختلاف أنواعه من قرآن يتلى بصوت جميل ، أو غناء لمذكر أو مؤنث أو موسيقى أو نشيد ذِكر وله فى ذلك طُرف ، فقد سمع مرة بائعاً جوالا ينادى على سلعة بصوت أعجبه ، فتبعه ، إذا وقف وقف وإذا سار سار ، حتى نسى غرضه وفوت مقصده ، وكان السماع يوحى إليه بالمعانى الغزيرة ، فتراه وهو يسمع وقد كاد يغيب عن وعيه لكثرة ما يفكر فيما أوحى إليه سماعه .

أعجب ما كان يعجبنى منه موقفه أمام الكوارث والمصائب ، فقد يصاب فى ماله وقد يصاب فى ولده فإذا هو مطمئن ثابت كأنه فيلسوف يرى فقدان الولد كما يرى القانون الطبيعى فى ذبول الوردة وسقوط أوراق الشجر ، قد يحزن ولكن لا يلتاع ، وقد تدمع عينه ولكن لا يماع ، بل كان أكبر من الفيلسوف ، فقد رأى الدنيا على حقيقتها فلم تخدعه ، وتمثلت له كما تتمثل الرواية على الشاشة البيضاء ، ففهم ما سيكون ، واطمأن إلى ما يحدث ، فلم يفجأه الحادث فيفزع ،

ولا الموت فيجزع ، فهو مطمئن عند الأخذ والعطاء ، والصحة والمرض ، والموت والحياة .

***

كان يرى أن الدين روح ، وإذا كان روحا فهو خالد خلود الروح ، وأن خير أيام الأديان أيامها الأولى ، لأنها تكون حية حياة الروح ، ثم تفقد روحانيتها شيئاً فشيئاً ، وتتجسد بأشكالها ، فتكون تافهة تفاهة الجسد ، ميتة ميتة الجسد ، ومن حين إلى حين يبعث الله من يفهم روح الدين ويحيي بها ويدعو لها ، وقليل ما هم .

كان يسمع القرآن فيولد منه معاني بعيدة ، حسب مزاجه الرمزي ، لا يزعم أنها تفسير ، ولكن يقول إنها إلهام الآية كما تلهم المناظر الجميلة قلب الفنان والشاعر .

— ٣ —

لست أنسى رمضانا من الرمضانات منذ عشرين عاماً كنا نجتمع فيه في بيت صديق لنا تخرج من مدرسة الطب حديثاً ، وكان من بيت كبير أنعم الله على أبيه بالثراء وبنعمة الإيمان وبمحافظته على تقاليد البيوت القديمة ، فكان رمضان في بيته منظراً جميلا من مناظر المسلمين قبل أن تغزوهم المدنية الحديثة ، ترى على باب البيت عند الإفطار طائفة كبيرة من الفقراء يوزع عليهم الطعام قبيل الغروب ، وتسمع أذان المغرب والعشاء من داخل البيت ، ويفطر على المائدة كل يوم أشكال وألوان من أصدقاء رب البيت ومعارفه ، وتقام صلاة المغرب والعشاء والتراويح في حجرة هيئت على شكل مسجد ، ويتعاقب ثلاثة من أحسن القراء صوتا بتلاوة قراءة القرآن إلى السحور .

فكنا نجلس كل ليلة نثير الموضوعات المختلفة حيثما اتفق ، دينية أحيانا وسياسية أحيانا وأدبية أحيانا ؛ ويشترك فى الجدل كل الحاضرين على اختلاف نزعاتهم .

لست أنسى ليلة لا أدرى لماذا علقت أحاديثها بذهنى أكثر من غيرها كان سمارها هذا الطبيب وصديقنا الصوفى وشيخاً أزهريا ومدرسا فى دار العلوم وكاتب هذه السطور .

كان بدء الحديث أن سمعنا المقرئ يقرأ قصة آدم وخلقته من طين ثم أكله من الشجرة وخروجه من الجنة .

فقال الطبيب :

هذا ما يحيرنى — لقد علمونى فى المدارس أن الأرض التى نعيش عليها كانت كرة ملتهبة يلفها دخان كثيف ثم أخذت تبرد شيئاً فشيئاً على ملايين السنين واستقرت قشرتها طبقة صخرية ليس عليها حى ولا تصلح لحى ؛ ثم أخذ المطر الغزير يتساقط عليها من هذا الدخان الذى يلفها حتى أثر فى هذا الصخر الجرانيتى وفتت قشرته ، وجرفه الماء طميا للوديان المنخفضة ، وجرى الماء فكون هذه البحار .

ثم استطاعت الشمس أن تُنفذ أشعتها من هذا الضباب وهذا الدخان فطلعت على بر لم يجف وبحر يتدفق .

وبعد هذا كله حصلت معجزة لم يستطع العلم حلها وتفسيرها إلى الآن ، وهى وجود الخلية الأولى تدب فيها الحياة طافية على وجه الماء ، وتناسلت هذه الخلية وتكاثرت وحملها التيار إلى أمكنة مختلفة وفى بيئات مختلفة فتأقلم كل حسب بيئته ، وكان مما حمله التيار بعض خلايا دفعها إلى البر فتكونت حسب بيئتها فكانت نباتا ، وبعضها ظل فى البحر فتأقلم فكان زواحف ، ثم تنوع النبات

وتنوعت الزواحف ومرت ملايين السنين على هذه المخلوقات تجاهد فى الحياة وتعدل نفسها وفق محيطها ، ويعمل فيها قانون الانتخاب وبقاء الأصلح حتى ارتقت الخلية النباتية فكانت شجرة ، وتطورت بعض الحيوانات المائية إلى حيوانات برية بحرية ، ثم إلى حيوانات برية صرفة ، وتكونت أعضاء تنفسها وفقا لتطورها حتى وصلت فى رقيها إلى الحيوانات الثديية

وكان بعض هذه الحيوانات الثديية أرقى من غيره فاستطاع بمحاولات كثيرة ومران طويل على الصيد ونحوه أن يتركز على رجليه بعد أن كان يتركز على أربع ، وأن يحفظ توازنه ، وأن يخلص يديه للعمل فنجح أخيراً فى ذلك ووقف على قدميه وخلصت له اليدان وما زال يرقى حتى كان إنساناً بدائيا ثم إنساناً بدويا ثم إنساناً حضريا .

وما الإنسان الأول إلا آدم تدرج فى خلقته من سلم منظم الدرجات تبتدئ من الخلية الساذجة وتنتهى بالإنسان ، فكيف يتفق هذا الذى تعلمناه وأقاموا لنا البراهين على صحته مع ما أسمعه الآن من قصة آدم ، وأنه خلق من طين ، وأنه خرج من الجنة إلى الأرض الخ .

الحق أننا تهيبنا لهذا القول ومرت برهة من الزمن نتذوق كلامه ونفكر فى الرد عليه .

فانبرى له صديقنا الأزهرى وقال إن هذا القول يشبه ما سمعته عن مذهب « دارون » وقد قرأت كتابا قيما فى الرد عليه للسيد جمال الدين الأفغانى اسمه « الرد على الدهريين » وقد فند فيه هذا القول ، وبيّن فساد من زعم تسلسل الأنواع وتدرجها فى الخلقة تبعاً لظروفها وأقاليمها ، وأذكر من وجوه الرد عليه ما قاله من أن هناك فى غابات الهند أشجاراً مختلفة ، ونباتات متعددة ، كلها تنبت فى بيئة واحدة وتسقى بماء واحد . ومع ذلك تختلف اختلافا كبيرا فى أنواعها

وأشكالها وزهرها وطعمها ورائحتها ، فما الذى أوجب هـذا الاختلاف إن كان الأمر أمر البيئة . وأذكر أنه حكى عن دارون أن قوما كانوا يقطعون أذناب كلابهم ، فلما استمروا على عملهم قرونا ولدت كلابهم من غير أذناب ، فرد عليه السيد جمال الدين بعادة الختان عند اليهود والمسلمين قرونا طويلة ومع ذلك لا يولد الآن مولود مختتن إلا قليلا . وأيضا لو صح هذا المذهب لـكان بين أيدينا الآن صور لا تحصى من اختلاط الأنواع ، مع أنا نرى الأنواع مستقلة تماما غير مختلط بعضها ببعض ، وحتى لنرى أنه إذا ازدوج نوعان مختلفان أصيبا بالعقم — ومع هذا إذا كانت هذه الأقوال والآراء فروضا كلها وجب أن نرفضها إذا تعارضت مع النص الذى يذكر أن الإنسان خلق وهو جنس وحده ، وقد خلق من طين وسكن الجنة قبل ن ينزل إلى هذه الأرض .

وتحدث صاحبنا من « دار العلوم » فقال إنى لا أرى تضاربا بين ما حكاه الدكتور وبين آيات القرآن الـكريم ؛ فقـد سمعت الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يحكى أن ابن عباس وأناسا معه كانوا يرون أن الأرض كانت عامرة قبل آدم ، وأن الأرض كانت مسكونة بخلق قبله ، ثم خلفهم آدم وقال : إن الأرض كانت معمورة بأقوام ثم انقرضوا وخلفهم آدم ، كما تنقرض أمة وتخلفها أمة ، يهلك الله صنفا وينشىء آخر ، والنوع واحد ، ولا يزال الهالك يترك أثراً للباقى يحدث فيه فكرة ويثير فى نفسه عبرة ، ويكون ذلك سلما له إلى رقى مستمر .

وقد قال أبو العلاء المعرى :

وما آدمٌ فى مذهب العقل واحد ولـكنه عنـد القياس أوادمُ

فلا مانع أن تكون الأوادم التى قبل آدمنا هى سلسلة التطور التى حدثت حتى كان آخرها فى الرقى آدمنا زوج حواء .

أما الجنة فإن كان جمهور المفسرين على أنهـا فى السماء فقـد قرأتُ فى

تفسير النيسابورى أن أبا القاسم البلخى وأبا مسلم الأصفهانى ذكرا أنها كانت فى الأرض ، وفسرا الهبوط منها بالانتقال من بقعة إلى بقعة ، كما فى قوله تعالى « اهبطوا مصرا » لأن الجنة التى هى دار الثواب لا يدخلها إبليس ولا هى محل معصية ، وهى جنة الخلد ، لا يخرج منها من دخل فيها . وخلقته من الطين مفهومة لأن الطين مادة الحياة وعليه اعتماده فيما يأكل من نبات وحيوان — فهذا كله يتفق وما حكى لنا الدكتور ، ولا أرى تنافياً بين الدين والعلم .

قال صاحبنا — ذو النزعة الصوفية والمزاج الرمزى — أما أنا فكما تعهدون ، لا أرى فى هذه القصص إلا رمزاً ، إن خلق آدم وجعله فى الأرض خليفة وقول الملائكة إنه سيفسد فيها ويسفك الدماء ليس إلا رمزاً إلى أن عالم الحياة فى الأرض قد سار سيرته كما شاء له الله ، ثم حان الزمن لخلق نوع من المخلوقات جديد هو الإنسان الذى من طبيعته الإفساد والإصلاح وسفك الدماء وصياناتها وتقلبه فى شؤون الحياة حسب عواطفه وعقله وقلبه ، وإذ كان أرقى أنواع المخلوقات فى الأرض فهو المسيطر عليها وخليفة الله فيها « وعلمه الأسماء كلها » جعل من طبيعته الاستعداد لمعرفة الأشياء خيرها وشرها ، ومنافعها ومضارها .

وحواء رمز للنصف الثانى من الجنس البشرى وهو الأنوثة . كما أن آدم رمز الذكورة فى طبيعته الإنسانية ، وقد خلقت من ضلع من أضلاعه أى أنها جزء منه تحمل طبيعته .

والأكل من الشجرة وانقلاب عيشهما الرغد إلى عيش الشقاء ملازم لطبيعة الإنسان ، فقد كانت المخلوقات قبلهما لا تعرف خيراً ولا شرا ، وليس لها ضمير يحثها على الخير ويؤنبها على الشر ، فلما ارتقت حتى وصلت إلى الطبيعة البشرية أدركت خيراً وشرا ، وتحرك فيها الضمير يحاسب ويثيب ويعاقب ، واستلزم هذا الشقاء والخروج من جنة النعيم كما قال المتنبى — ما أسعد العيش لو أن الفتى حجر —

لم يكن قبل الإنسان ذنب ولا خطيئة ، ثم كانا لما كان العقل وكان الضمير وكان آدم وكان الإنسان ، فلما استعدا لارتكاب الذنوب وعرفا الخير والشر خرجا من جنة عدن — حيث السعادة الفطرية والحياة من غير تكليف ؛ إلى الأرض التى فيها الفساد وسفك الدماء وإعمال العقل وانتباه الشعور .

رحب صديقنا الدكتور بهذا التأويل لأنه يتفق وعلمه ودراسته ، ولكنا أمطرناه وابلا من الأسئلة عن إبليس والملائكة والجنة وشجرة التين وما إلى ذلك فكان يجيب عنها فى لباقة تدل على خصب الخيال ومهارة ملكة الرمز عنده وغرابة أطواره ونفسيته . إلى أن قال : إن هذا القَصص فى الكتب الدينية من توراة وإنجيل وقرآن مملوء بضروب من البيان ، من استعارة وكناية ومجاز لم يفهمها إلا الراسخون فى العلم ، أما من عداهم فوقفوا عند ظواهرها ولم يفطنوا إلى إشاراتها .

— ثم قال — لعلى أستطيع أن أقرّب إلى أذهانكم هذه الصور بحديث الإسراء والمعراج ، وما ورد فيه من براق وما إليه ، فإنى أفهمها على أنها سياحة روحانية ، والبراق ونحوه مما ورد فى القصة ليست إلا رموزاً لحالات نفسية وحركات روحية ، وأفاض فى ذلك بما لم أذكره الآن .

سألونى رأيى فحرت فى أمرى ، وتولانى الإعجاب بهم جميعا ، من منهج علمى عند الطبيب ، وإيمان صادق عند الأزهرى ، ونزعة لطيفة للتوفيق بين العلم والدين عند المدرس ، وخيال بديع عند الصوفى ، ووعدتهم أن أفكر فيما قالوا إلى الغد ثم أدلى برأيى .

وختم المقرئون قراءتهم وانصرفنا بعد حديث ممتع وسمر لذيذ وجدل هادئ .

# ست النساء [1]

كان على قُطر من أقطار الهند ملك عظيم الشأن ، له الجنود والبُنود ، والقوة والسلطان ، والعز والجاه .

وكان عادلا فى رعيته ، يُحسن سياستهم ، وتدبير أمورهم ؛ ويحب العدل ، ويمقت الظلم ، ويعرف مَداخل الأمور ومخارجها ، ولكنه مظلم الروح ، مادىّ النزعة ، فاسد العقيدة ، يعبد الأصنام ، ويقدم لها القربان ، ولا يؤمن بثواب ولا عقاب ، ولا بخلود روح ، ولا بمملكة نفس ، وإنما الدنيا الحاضر ، واللذة المال والجاه ، والنعيم صنوف الترف .

وكان له وزير روحىّ ، يهزأ بالأصنام ويحتقرها ، ويؤمن بالروح ومبادئها ، ويقر بالجزاء الأوفَى ، ويعتقد أن السعادة فى رضا الضمير ، والعمل الصالح ، وسمو النفس عن السفاسف ، وأن للروح مملكة فيها النعيم والشقاء ، وأن نعيمها خير أنواع النعيم ، وشقاءها شر أنواع الشقاء .

ولكنه لا يجرؤ على مكاشفة الملك بذلك لشدته وجبروته ، ولأن قلبه مُغلق لا ينفتح لمثل هذه المعانى ؛ وكان يرثى لحاله كلما رآه يسجد للصنم ، ويسرف فى الترف ، ويظن أن المجد فى النفوذ والجاه ، والتغلب على ما جاوره من أقطار ؛ ويتحين الفرصة لنصحه وتفتيح قلبه ، ودعوته إلى روحانيته ، ولكن هذه الفرصة لا تسنح ، والملك يتمادى فى تفاخره ، وخُيلائه وزهوه ، وعزته وأنفته ، ورياسته واستطالته ؛ ويُمعن فى الخطة التى رسمها له آباؤه ، ويخضع لعرف زمانه وإلفه .

---

(١) أصل هذه القصة فى كتاب « إخوان الصفاء » وليس لى فيها إ [illegible] تم بأسلوب العصر .

وأخيراً حدثت المعجزة : طلب الملك من الوزير فى ليلة أن يخرجا متنكرين لتفقد أمور الرعية ، كيف يعيشون ، ويشقون أو يسعدون ؛ فطافا ما طافا ، ورأيا ما سرّهما أحياناً وساءهما أحياناً ، حتى وصلا إلى ظاهر المدينة ، فرأيا — على بعدٍ — بصيصاً من نور ، فقصداه فرأيا عجباً .

لقد تخفّيا فلم يشعر بهما أحد ، وتخـيّرا مكاناً يريان منه كل شىء ، ولا يراهما أحد .

رأيا دِمنة قذرة مُنتنة الرائحة ، بجانبها مأوى كأنه مغارة ، فرشت فيه ثياب مهلهلة ، تنبعث منه أبخرة متعفّنة ، يضيئه سراج من خرقة بالية غمست فى زيت كأنه دُردى ، وفيه جرة لا يعرف لونها من قذرها ، وسـلة من خُوص فيها كِسَر جافة ، وعيدان من فُجل وكراث — وفى داخله رجل وامرأة ، أما الرجل فمشوّه الخِلقة ، يلبس ثوباً مرقعاً ويجلس على ثوب مثله ، وعلى رأسه شملة ممزقة ، وعلى فخذه قصبة شدّ عليها عود ، وهو ينقر عليها نقراً غير متزن ولا منسجم ، ويغنى بشىء يشبه الشعر وليس بشعر ، يتغزل فيه بصاحبته وجمالها ، وفتنتها وسحر عيونها ، وورد خدودها ، ولطف قوامها ، وأنها أجمل من رأت عينه ، وأنها فتنة الدنيا ونعيم الحياة .

وأما المرأة فشوهاء مقوّسة ، لا ترى عينها من قذاها ، ولا تعرف لون ثيابها من ألوان رقعها ، قد أمسكت بيدها غِربالا بالياً ، وشدّت عليه جلداً غير مدبوغ ، واتخذت من ذلك دُفًّا تتابع به نغمات صاحبها ، وتناغم عليه نقرات عُوده ، فاذا انتشيا قاما ورقصا ، فاذا أتما دورهما حيّاها بطاقة من فجل ، وردّت تحيته بطاقة من كراث ، وهى فى كل ذلك تدعوه بسيّد الرجال ، وهو يدعوها بست النساء :

هو — والله ما رأيت مثل جمالك .

هى — ولا والله ما رأيت مثل حُسنك .

هما — ما أجزلها نعمة ، أدامها الله علينا !

***

وقف الملك والوزير مبهوتين من هذا المنظر ، متعجبين مما فيه هذان الصعلوكان من فرح وسرور ، ولذة وحبور .

الملك — فى حياتى ما رأيت مثل هـذا ، وما أظننى فى عز سلطانى — ونعيم ملكى ، وأيام شبابى ، ومجالس لهوى مع وفرة أسبابى ، وتمكنى من الوصول إلى كل ما أشتهى — قد بلغ منى السرور مبلغ هذين الحقيرين ، وأظن أنهما على تلك الحال كل ليلة ، فما الذى يمنعهما ؟ هل يمنعهما ثائر فى أطراف المملكة ، أو شَغْب الجند وطلبهم الأرزاق وضيق الدخل ، أو النظر فى المظالم ، أو مشاكل الخاصة ومشاكل العامة ، أو النظر فى شكاوى الناس وتدبيرها ، أو ما يجدّ كل يوم من مسائل معقدة ، داخلية وخارجية ، أو بريد يَرِد أو بريد يصدرُ ؟ لا شىء من ذلك . فقد قطعا عنهما أسباب الهم ، فانقطع عنهما الهم .

لقد غاظنى — أيها الوزير — منهما غرورهما ، كيف يَعُدّان بؤسهما نعيما وشقاءهما سعادة ، ونقمتهما نعمة ، وقبحهما جمالاً . وغِربالهما دُفا ، وخشبتهما عُوداً ، وفجلهما وكراثهما زهراً ، ثم يسألان من الله أن يديم عليهما نعمته ! لأنتقمن منهما انتقاماً يسلبهما نعمتهما ، وينغص عليهما عيشهما .

الوزير — وماذا تنوى أن تعمل يامولاى العظيم ؟

الملك — أريد أن أشقيهما بالنعيم ، وأعاقبهما بالترف ، وأبعث فيهما السخط بالرضا ، أذيقهما ألم الفِقدان بلذة الوجدان ؛ إنهما لم يريا الجمال فسعِدا بالقبح ، ولم يسمعا الموسيقى فطربا من الغربال ، ولم يأكلا المُرَقّق فاستطعما الكِسْرة .

سأعذبهما عذاباً لم يعذبه أحد ، وسأستخرج منهما غرورهما بالخيال فأشهدهما الحقيقة ، وسأنزع منهما الأوهام فأريهما الواقع ، وسأقص جناحيهما الذى يطيران به إلى السماء ليلتصقا بالأرض .

سآخذ هذين المغرورين فأدخلهما قصرى ، وألبسهما من ثيابى ، وأطعمهما من أكلى ، وأشهدهما مجالسى ، وأبسط لهما من سطوتى ، وأسبغ عليهما جاهاً من جاهى ؛ وسأشعرهما بلذة حياة كحياتى ، وسأرى المرأة كيف يكون جمال الرجال ، وأرى الرجل كيف يكون جمال النساء ؛ وسأقيمهما فى ذلك كله أياما حتى يتعوداه ويألفاه ويتطبعاه ، ثم أردهما إلى حالهما ، فما يهنآن بعيش ، ولا يشعران بنعيم .

الوزير — أخشى — يا ملكى العظيم — أن نكون فى لذاتنا وسرورنا واغتباطنا بجاهنا ، واستمتاعنا بصنوف شهواتنا ، وفرحنا بما حولنا ، مغرورين غرور هذين المسكينين ! وأن يكون فيمن حولنا من رأوا لذتنا فاحتقروها ، وضحكوا من غرورنا كما ضحكنا من غرورهما ، واستصغروا الموائد الفخمة تُمَدّ والجوارى الجميلات تَخْطِر ، والملابس المترفة تعرض ، والموسيقى الراقية تصدح ، والجنود والبنود والأعلام تحمل شارتنا ، وتأتمر بأمرنا ، والذهب والجواهر تسيل سيلا ، والتحف والخيرات تنهال انهيالا ؛ وتنظر إلى ذلك كله نظرنا لمأوى الصعلوكين ونعيم المسكينين .

الملك — شامخاً غاضباً مستكبراً — وهل تعلم على وجه الأرض مملكة أعز من مملكتنا ، أو سلطانا أوسع من سلطاننا ، أو بلداً أكثر نِعماً من بلادنا ، أو نعيما وتَرَفاً أبهى من نعيمنا وترفنا ؟

الوزير — لا — يا ملكى العظيم — ولكن هناك قوم ليس لهم مملكة فى الأرض ، إنما لهم مملكة فى السماء ، ليسوا فى مكان واحد ، ولكنهم أفذاذ متفرقون فى العالم كله ؛ عشقوا الحق فاحتقروا الباطل ، واعتقدوا وراء هذا

العالم الظاهر كمالا مطلقاً تتشوق الروح إليه وتسمى للاتحاد به . ودلهم النظر على أن كل إنسان يطلب بطبعه سعادته ، ولكنهم رأوا اللذائذ الحسية عرضة للزوال ، وهى تفقد قيمتها بتكرارها ، وتحمل فى طياتها منغصاتها ، والإفراط فيها يضعفها ، وهى — مهما عظمت — تصعد وتهبط ، وتجىء وتذهب ؛ وهى تعتمد على الإحساس والإحساس قلب ، ومادامت تعتمد على الحس فهى تعتمد على الخارج ، والخارج مهما كان فى يدنا فليس ملكنا ، و إنما هو كالريش فى مهب الريح — من أجل هذا بحث هؤلاء الحكماء عن سعادتهم فى داخل أنفسهم ، ورأوا أن الجاه والعز والسلطان لا تساوى شيئاً فى جانب أن يجد الإنسان نفسه ؛ وأن الأكل الشهى ، والملبَس الأنيق ، وصنوف اللهو والترف ، تسقط قيمتها إذا وزنت برضا النفس ، وراحة الضمير ، وسمو الفكر ، ومعرفة الحق ؛ تلك فانية وهذه خالدة ، وتلك تجرى عليها أحكام السِلع من بيع وشراء ، وسرقة واغتصاب ؛ أما هذه فجلّت عن أن تمتهن فى مبادلة ، أو أن تنالها يد بسوء ، أو يعتريها الفناء ولا بالموت .

تعشّقوا الفضيلة وهاموا بها ، وكانت لذتهم الأولى ، اغتنوا أو افتقروا ، نُعّموا أو عذبوا ؛ فهم فى فقرهم يسعدون وفى عذابهم ينعمون !

أهم ما يشغلهم أن يعرفوا نفوسهم ، وقد تطلّبت منهم تلك المعرفة أن يعرفوا أبدانهم وعقولهم وروحهم ، وعلاقة نفسهم ببدنهم ، وعلاقة العالم بنفسهم . وفى ضوء هذا حددوا مطالبهم فى الحياة ، ووسائل طلبهم ، و ما يأتون وما يذَرون ، وَوَقَفَهم ذلك المنظر على عالم من المعارف لا تنتهى ، ولذائذ روحية لا تحد .

وكان نهاية بحثهم وتفكيرهم الإيمان بالله فوق المادة هو خالق هذا العالم ، وقد استدلّوا بوحدة العالم — مهما اختلفت مظاهره السطحية — على وحدة خالقه ، واتصلت نفوسهم به ، فاتخذهم أمناء وحيه ، وسفراء بينه و بين خلقه .

فلما وصلوا إلى ذلك احتقروا الأصنام ، ورأوا أن عبادتها — يا ملكى

العظيم — لا تليق إلا بالشُّذّج ومن لا عقل لهم ، فأعرضوا عنها ، وعبدوا إلههم الذى دلتهم عليه نفوسهم ، ووجدوا لذتهم الحقة فى تفكيرهم فى إلههم وفى أنفسهم ، وفى العمل وَفق ما اعتقدوا من حق ، وما آمنوا من مبادئ .

وهؤلاء القوم إزاء اللذات الحسية وأعراض الحياة الدنيا — من عز وجاه وسلطان — صنفان مختلفان تبعاً لاختلاف مِزاجهم ؛ فأما قوم فأعرضوا عن هذه اللذائذ جملة ، فلا الأكل يستغويهم ، ولا النساء تستهويهم ، ولا أى شىء من متع الحياة يغريهم ، ولا يهمهم إلا أن يعيشوا فى أنفسهم لأنفسهم ، وليس هؤلاء خير الطائفتين ؛ وأما الآخرون فرأوا أن لا بأس من لذائذ الحياة بقَدر ، ولا بأس من عز وجاه وسلطان يستخدم فى تحقيق العدل وحمل الناس على الخير ، وهؤلاء نظرهم أصح ، والخير على أيديهم أتم ، وهم أصلح للحياة ، وأصلح للقيادة ، وهم أسعد من الأولين إذ يستمتعون بجمال العالم ، وبالخير يجرى على يدهم ، وبشعورهم أنهم قوة فى توجيه العالم وإسعاده .

أولئك — يا ملكى العظيم — ينظرون إلى اقتصارنا على اللذائذ الحسية نظرنا إلى لذائذ هذين المسكينين ، ويَرثُون لحالنا رثاءنا لحالهما ، ويجدون الفرق بيننا وبينهم أبعد من الفرق بيننا وبينهما ، ولا يودّون يوماً أن ينزلوا إلى درجتنا ، وأن يكون حظهم حظنا ، ويحمدون الله على ما أُوتوا ، ويسألونه السمو إلى الدرجات العلا .

الملك — متى عرفتَ هذا المذهب واعتقدت هذا الرأى ؟

الوزير — من زمن طويل .

الملك — فما الذى منعك أن تذاكرنى به فى حينه مع طول صُحبتك ، ومظاهر إخلاصك ؟

الوزير — والله ما تركت الحديث عنه ضناً بك ، ولا سوء ظن بمقدرتك

وقوة ذهنك ؛ ولكني علمت أن الحديث فى هذا الشأن لا يتأتى إلا عند مواتاة الفرصة وانشراح الصدر ؛ وأيقنت أن الأمر خطير ، فالنفس مولعة بما ألفت ، حريصة على ما ورثت ، ولا تعدل عنه إلا بعزم قوى ، ونيّة خالصة ، وجهاد طويل ، وهمة عالية فى تعرف الحق واعتناقه ؛ فلما سنحت الفرصة ، ورأيت كل شىء حولنا صالحاً لمحادثتك ، ونفسك مستعدة لمذاكرتك ، أفضيت بالأمر إليك راجياً الله توفيقك .

الملك — ما أعجب كلامك ، ولست أذكر أن قد ورد على سمعى مثله — إنه ليفتح آفاقاً للفكر ، ومجالا للنظر . لقد آمنت بمبادئك فى جملتها ، وكفرت بعبادة الأصنام فلا صنم منذ اليوم ، ولكن تفاصيل ذلك تحتاج إلى منهج يُرسم وخُطط تعدّ ، ندرسها من غير أن نتأثر بالف ، ونبحثها من غير تقيد بتقليد ، حتى نصل إلى النهاية ، ونبلغ الغاية .

# الخـــــوف

الخوف من الأمراض التى تنغص الحياة وتذهب بالسعادة .

هو مرض خطير قلّ أن يسلم منه إنسان ، وهو أشكال وألوان ، يشكّل أعمال الإنسان ويوجهها طوع إشارته ، وحسب إيحائه ، وفى كثير من الأحيان يصده عن العمل ، ويسبب له اليأس ، ويفقده الأمل .

فمن أول أنواعه الخوف من الفقر ؛ وهو من أخطر أنواعه لأنه يشل قوة التفكير ، ويقتل الثقة بالنفس ، ويولد الشك ، ويضعف اليقين ، ويفقد الأمل والطموح .

وقد زاد هذا الخوف فى عصرنا عن كل العصور السابقة ، للتزاحم المالى الشديد والتقاتل عليه ، مما لم يعرف له من قبل مثيل ، فقد أعلت المدنية الحديثة شأن المال جدا ، وتسابق الناس فى مقاتلة بعضهم بعضاً لكسبه — نعم إنه داء قديم فى الإنسان ولكنه لم يبلغ الخطر الذى بلغه الآن ، فالفقير ليست له قيمة سياسية ولا اجتماعية ولا قانونية ، ومالك المال — مهما كانت الوسائل التى اتخذها فى جمعه — هو الذى يسيطر وهو الذى يُنتخَب فيشارك فى السياسة ، وهو الذى تخضع له الرقاب .

من أجل هذا كان تصور الفقر مرعباً وكان الخوف منه شديداً ، ومما زاده سوءاً أن حاجتنا فى الحياة أصبحت معقدة مركبة ، وما كان يكفى الرجل وأسرته قديماً لا تكفى أضعافه الآن ، وكان رب الأسرة يحتمل العيشة الخشنة والرضا بالكفاف ؛ ولكنه الآن يرى أن ضرورات العيش لا عداد لها ؛ فهو يخشى الفقر

لأنه هو وأسرته لا يستطيعون أن يصبروا على القليل ، وهو إن افتقر كان أتعس ممن قبله عندما افتقروا .

ومما يزيد الإنسان خوفا من الفقر شعوره الشديد أنه يوم يفقد ماله ، ويوم لا يستطيع أن يسد حاجاته وحاجات أسرته يفقد عزته ، ويشعر بالمذلة ويرى نفسه أحقر من إخوانه الذين يملكون المال ولو كان أشرف منهم نفساً وأحسن منهم خلقاً ، كل ذلك يملأ قلبه رعباً من تصور الفقر وتوقعه .

ونوع آخر من الخوف ، الخوف من النقد ومن كلام الناس ، وهذا الخوف يسيطر على أعمالنا لدرجة كبيرة .

وهو يتخذ أشكالاً لا عداد لها ، فالناس يلبسون « الطربوش » فى الصيف لا للحاجة إليه ولكن خوفاً من كلام الناس ، ويعملون كثيراً مما يعملون ويتجنبون كثيراً مما يتجنبون خوفاً من كلامهم .

واختراع « البِدْع » ( الموضة ) كل عام وإقبال الناس عليه مبنى على هذه النظرية ، فالمصانع تخرج كل سنة بدع الملابس فتلبسه طائفة ممن عرف بالأناقة ؛ فتهرع السيدات والآنسات للبسه خشية من كلام الناس — وهكذا مصانع السيارات ونحوها .

وكثير من العقلاء والمفكرين يجارون الناس فى آرائهم وأعمالهم وإن اعتقدوا سخافتها خوفاً من كلام الناس .

ولو لاحظ الإنسان كل تصرفاته اليومية من أيام صغره إلى أيام كبره لرأى أن أكثرها صادر عن الخوف من نقد الناس .

وما مرض الفخفخة وحب الظهور ، ولا مرض الخجل والمبالغة فى الحياء ، ولا مرض حب التقليد وعدم الابتكار إلا أعراض من أعراض الخوف من كلام الناس .

ثم الخوف من المرض : وهذا النوع من الخوف متصل بنوعين آخرين هما الخوف من الهَرَم والخوف من الموت . والإنسان يخاف من المرض لأنه يستحضر فى ذهنه احتمال الموت منه ، كما قد يستحضر صورة العجز عن كسب العيش .

وقد استغل هذا الخوف من المرض تجار الأدوية فصنعوا منها ما أغرق الأسواق ، وكثير منها ليس علاجاً حقيقياً ، وإنما هو علاج وهمى لأمراض وهمية ناشئة من مرض الخوف من المرض .

وهذا الخوف قد ينتهى عند بعض الناس إلى مرض حقيقى ، لأن الإيعاز المستمر بالمرض قد يسبب المرض ، وكثيراً ما تحدث صاحبك بسوء صحته أو تغير لونه ، فيشعر عقب ذلك مباشرة بالضعف والتخاذل والمرض .

ويكاد هذا المرض يكون عاما عند الناس ، وكثيراً ما يبعث عليه الفشل فى الحياة ، أو الفشل فى الحب ، أو اليأس من شىء مرجو ، أو التعب الجسمى ، فسرعان ما تظهر إذ ذاك أعراضه .

ومن أعراضه كثرة الكلام فى المرض ، واستفسار الأطباء عن المرض ، وقراءة الإعلان عن الأدوية ، وكثرة وزن الجسم فى الموازين العامة فى الطرق ، وتوهم المريض عند ما يسمع وصف مرض أنه مصاب به ، وكثرة استعمال المسكّنات ، وهكذا .

وهناك الخوف من فقد حب من يحب — وهو خوف يلازم الحب غالباً ، فيخاف المحب أن ينصرف عنه محبوبه إلى غيره ، وهذا — غالباً — هو علة الألم من الصد والهجران .

وهذا الخوف كان مظهره فى الزمن القديم الاستيلاء على المرأة بالقوة وحبسها ومراقبتها مراقبة شديدة ونحو ذلك ، ثم حوّلته المدنية إلى محاولة كسب قلبها

من طريق الإغراء بالتحبب إليها والتظاهر بمظاهر العظمة والجاه ونحو ذلك .

وهذا النوع من الخوف يحدث للمرأة كما يحدث للرجل ، بل هو عند المرأة أشد ، لأن المرأة أقل ثقة بالرجل من الرجل بالمرأة ، وخاصة عند ما تسمح شرائع البلاد بالطلاق أو تعدد الزوجات :

ومن أعراضه شدة الغيرة — غيرة الرجل على المرأة والمرأة على الرجل حتى يصل بالإنسان إلى درجة الهوس ، فيكون الاتهام من غير أن تكون له أسباب معقولة .

كما أن من أعراضه كثرة مؤاخذة المحب حبيبه حتى على الأمور التافهة والأمور الوهمية ، وكثرة العتاب ، وما إلى ذلك .

ثم الخوف من الهرم أو الشيخوخة ، ويرجع سبب هذا الخوف إلى عاملين : الأول الخوف من أن الشيخوخة قد تعجز المرء عن الكسب فيكون عالة على غيره ، وأكثر ما يكون هذا عند العمال والصناع ومن يعيشون على كسبهم اليومى فهم يعيشون على حساب صحتهم ؛ فإذا عجزوا عن العمل حرموا وسائل العيش — والسبب الثانى هو أن الشيخوخة نذير الموت ، والموت بغيض مخيف .

وقد يكون من أسبابه أيضاً شعور المرء أنه إذا شاخ وهرم فقد جانباً كبيراً من استمتاعه بنعيم الحياة ، إذ لا يعود يستطيع أن يجذب المرأة إليه ، ولا المرأة أن تؤثر فى الرجل ، وربما كان هذا السبب الأخير عند المرأة أقوى منه عند الرجل ، لأن جمال المرأة رأس مالها فى الحياة ، فهى تخشى الشيخوخة التى تُضيع لها رأس مالها .

وأعراض هذا المرض تختلف اختلافا متناقضاً ، فأحياناً يظهر فى شكل كثرة حديث المسنّين عن الشيخوخة ، وانتهاز كل مناسبة للتحدث عن شيخوختهم ، وأنهم انتهوا من دور الشباب ، واعتذارهم من حين لآخر عن

كسلهم أو يأسهم أو فشلهم بشيخوختهم ، وأحياناً يكون من أعراضه التظاهر بمظهر الشباب كصبغ الشعر ، والتأنق فى الملبس ، ومحاربة تجاعيد الوجه ، وتكلف اعتدال القامة ، والكذب فى السن الحقيقية .

وقلّ أن يعزيه عن شيخوخته كبر عقله ، ونضوج تفكيره ، وهو فى أغلب الأحيان يألم عند الاحتفال بعيد ميلاده أكثر مما يحمد الله على بلوغه هذه السن .

وأخيراً — ويجب أن يكون أخيراً — الخوف من الموت ، وهو عند أكثر الناس أشد أنواع الخوف ، وسببه — فى الأغلب — يرجع إلى أمرين : الخوف مما بعد الموت لأنهم يرون أنهم فى حياتهم لم يرضوا الله بكثير من أعمالهم ، والله حاكم عادل يثيب المحسن ، ويعاقب المسىء ، فهم يستحضرون فى أذهانهم إساءاتهم ، ويستحضرون ما للإساءة من عقوبة ، فهم لذلك يخشون الموت كما يخشى المجرم المحكمة ؛ والسبب الثانى ما يشعرون به من لذعة إذا تصوروا فراق الأهل والخلان .

وهذا النوع من الخوف عند الشيوخ أكثر منه عند الشباب ، وعند الفارغين من العمل أكثر منه عند العاملين ، وعند ضعاف الأعصاب أكثر منه عند أقوياء الأعصاب .

وقد يبالغ فيه بعض الناس ، فيظهر ذلك بمظاهر مختلفة ؛ فمنهم من يزهد فى الحياة وينقطع للعبادة ، ومنهم من ينغص عليه الحياة فيصبح مهوش الفكر مضطرب العقل ، لا يصلح لعمل دنيا ، ولا عمل آخرة ، إلى غير ذلك .

هذه الأنواع من الخوف تملأ الحياة ، وتلوّنها وتصبغها أصباغاً مختلفة ؛ حتى لو قلنا إن أكثر أعمال الإنسان هى نتيجة الخوف لم نُبعد ، بل هو كذلك

أهم سبب للاتجاهات التى يتجهها الانسان فى حياته من فعل وترك ، وفعل هذا دون فعل ذاك ، والسير فى هذه السبيل دون تلك .

والآن وقد فرغنا من وصف المرض وأعراضه ومضاعفاته يحق لنا أن نتساءل : إذا كان هذا هو المرض فما علاجه ؟

لقد أبنا أن الخوف حالة نفسية تستولى على الفكر فتشله ، فإذا نحن آمنا بأن للإنسان قوة على تفكيره كما أراد ، كان هذا مفتاح العلاج .

أحم نفسك من مؤثرات الخوف سواء فى ذلك ما تثيره نفسك ، وما يثيره من حولك ، وكن شديد الإيمان بأن لإرادتك قوة تستطيع بها أن تزيل هذه المخاوف ، وأن تبنى حاجزاً يحول بين نفسك و بين مؤثرات الخوف .

اقرأ ما يبعث فيك القوة والشجاعة ، ويملؤك أملا وطموحا ، ويقوى إرادتك على نفسك .

آمن بأن توقع الشر شر من الشر نفسه ، فلا معنى أن يجمع الإنسان على نفسه شر الشر وشر توقعه .

حلل نفسك وتبين سبب مخاوفها : هل أنت تكره عملك الذى تعمله ، ولماذا ؟ هل أنت خاضع لمؤثرات تستوجب خوفك ، فكيف الخلاص منها ؟ هل فقدت الثقة بنفسك ؛ ولماذا ؟ هل أنت فارغ من العمل فتستسلم من أجل ذلك للمخاوف ؛ إذن فكيف تملأ وقتك بالعمل ؟ هل أنت تضعف أعصابك بالمسكرات أو كثرة التدخين ، فتقع تحت تأثير الخوف من أجل ذلك ؛ إذن فكيف تتغلب على ذلك ؟ أى أنواع الخوف الستة أكثر تأثيراً فيك ؛ ولماذا ؟ هل لديك الوسائل الروحية والعقلية التى تستطيع أن تتغلب بها على الخوف ، فإذا لم تكن ؛ فكيف تحصل عليها ؟ هل أنت واقع تحت تأثير أصحاب يسببون لك الخوف ، فكيف تتخلص

منهم ؟ هل تصادق من هم أضعف منك عقلاً وقلباً وروحاً ؟ إذن فكيف تغيرهم بمن هم خير منهم !

ما أهم سبب لمتاعبك ؟ كيف تعالجه ؟ كيف تقسم زمنك ، كم منه للنوم ؟ وكم للعمل العقلى أو القراءة ؟ وكم لعملك المعتاد ؟ وكم للعبك وراحتك ؟

فهذه الأسئلة ونحوها إذا أنت أجبت عنها فى أمانة و إخلاص تعرفت نفسك وتعرفت مخاوفك ، وتعرفت كيف تسلط إرادتك على أسباب الخوف فتمحوها .

وأخيراً ردد على نفسك « لا تخف » وردد قوله تعالى « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

# الأدب الاجتماعى

أعنى به الأدب الذى يجب أن يتأدب به الفرد من حيث هو عضو فى مجتمع ، وعضو فى أمة ، فكل إنسان له شخصيتان : شخصية فردية ، وعليه إزاءها واجبات فردية ، وشخصية اجتماعية ، وعليه إزاءها واجبات اجتماعية .

والإنسان تتوزعه عاطفتان : عاطفة حب ذاته ، وعاطفة حب أمته ، والشخص البُدائى هو الذى ينظر إلى كل الأمور مراعياً شخصه فقط ، والشخص الراق هو الذى ينظر إلى ذاته وإلى أمته ، ويعطى هذه حقوقها وهذه حقوقها ؛ بل هو إذا ارتقى جدا رأى خيره فى خير أمته ، وخير أمته فى خيره ، وتوحد الأمران .

هذا الشعور بالواجبات الاجتماعية لايخلق مع الإنسان يوم أن يولد ، ولكن المجتمع الذى يعيش فيه هو الذى يكوّنه ويربى عنده شعوره بالأمة بجانب شعوره بذاته ، وذلك بواسطة التربية فى الأسرة وفى المدرسة وفى الحياة الخارجية فى المجتمعات ، هنالك روح للمجتمع هى التى تسيطر على الفرد فتعلمه أن يحدّ من أنانيته وألا يقيس الأمور كلها بشخصه ، وهى التى تعلمه النظام والترتيب ، وهى التى تمده بالقوة ليكبح جماح حبه الشديد لنفسه ، وهى التى تمده بالمعانى السامية ليشعر بأمته ويغار عليها ويعمل لخيرها .

فإذا كانت روح الأمة قوية استطاعت أن تطبع الأفراد بطابع قوى لخدمتها والتفكير فيها والعمل لخيرها ، وإذا كانت روح الأمة ضعيفة قويت روح الأنانية فى الأفراد ولم يفكروا إلا فى أشخاصهم .

والحق أننا ينقصنا كثير من قوة الروح الاجتماعيــة من حيث أننا أمة ،

وهذا من أهم الفروق بين أمم الشرق وأمم الغرب ، فلكل من الشرق والغرب مزاياه وعيوبه ، ومن أظهر عيوبنا ضعف الشعور الاجتماعى ، ضعف الشعور « بنحن » وقوة الشعور « بأنا » .

من مظاهر ذلك عدم نجاحنا فى الأعمال الاجتماعية — غالباً — كاللجان والنوادى والجمعيات والأحزاب والنقابات ونحو ذلك ؛ وسببه أن هذه مجتمعات لا يمكن أن تنجح إلا إذا توارى إلى حد كبير الشعور بأنا ، وظهر إلى حد كبير الشعور بنحن .

وأساس فشل هذه الجمعيات عدم تربيتنا تربية اجتماعية يتناسى فيها الفرد ذاته وأنانيته ، ولهذا إذا نجح عمل اجتماعى عندنا فلأنه تحوّل من عمل اجتماعى وعملِ مجتمع إلى عملِ فرد قوىّ الشخصية قوى الإرادة تجمعت فيه كل الشخصيات ، أو فردٍ نشيط كفء يعمل كل العمل والأفراد الآخرون يتشكون عليه ، وبذلك يخرج عن كونه عمل جمعية فى الحقيقة إلى عمل فرد مظهره مظهر جمعية .

فنحن إلى الآن لم نتعلم عمل الجمعيات ، حيث توزع الواجبات على أفراد الجمعية وتنظم الأعمال ، ويعرف كل عضو ما له وما عليه ويقوم به ، وتلتقى هذه الأعمال كلها فى شكل متضامن منظم .

لا علاج لهذا إلا التربية التى تشعر الفرد بمسئوليته نحو مجتمعه .

يدل على هذا المعنى قصة سمعتها عن المرحوم الشيخ محمد عبده ، فقد سافر مرة إلى أوروبا ، ومعه صديق له — صعد هذا الصديق مرة إلى ظهر السفينة فوجد الشيخ محمد عبده يبكى فعجب من ذلك وسأله عما يبكيه ؟ فأخفى عنه السبب أوّلا ، فلما ألح عليه قال : وجدت بنتاً صغيرة تجرى وتلعب ، ثم وقفت عند شجرة من الأشجار الصغيرة الموضوعة فى الأصص فقطفت منها زهرة ، فجاءت مربيتها الأفرنجية وأنّبتها على عملها ، وأبانت لها أن هذه الشجرة وزهرتها ليست

ملكها ، بل هى لإمتاع من فى السفينة جميعاً ، وأن كل إنسان فى السفينة له الحق فى المتعة بها ، وأنت بقطفك هذه الزهرة قد تعديت على حقوق كل من فى السفينة ومن يركبها بعدُ ، وحرمتِهم لذتهم ، ثم أخذت تلقى عليها درساً فى الملكية الخاصة والملكية العامة . قال الشيخ محمد عبده تذكرت إذ ذاك علماءنا ورجالنا ونساءنا فى مصر ، وعجزهم عن فهم هذه المعانى وتفهيمها لأبنائهم و بناتهم فدمعت عينى .

هذا ضرب من أهم ضروب الأدب الاجتماعى وهو الشعور بحق الغير ، ومنفعة الغير ، ومراعاة شعور الغير ، وهو معنى نحن فى أشد الحاجة إليه اليوم .

لو نما هذا الشعور لوجدت لدينا آلاف الجمعيات الناجحة للخدمة العامة ، هذه تمد البائس الفقير ، وهذه تربى الأطفال المشردين ، وهذه تساعد المرضى ، وهذه تثقف عقول الجاهلين ، وهذه تعين الطلبة العاجزين عن المصروفات الدراسية ، وهذه لإسعاف المنكوبين ، ولو نما هذا الشعور لرأيت كل فرد قادر يزكى عن قدرته العلمية أو المالية أو الخلقية بشىء من مقدرته لخدمة الهيئة الاجتماعية ، إجابة لشعوره بواجبه لأمته .

ومن مظاهر ضعف هذا الأدب الاجتماعى فوضى المجتمعات عندنا ، سواء كان الاجتماع لمحاضرة علمية أو أدبية ، أو حفلة غنائية أو موسيقية ، أو مشاهدة سينما أو رواية تمثيلية — يفهم كل فرد أن المحاضرة له وحده ، أو السينما أو التمثيل له وحده ، ولا يفهم مطلقاً أن هذه المحاضرة أو هذه الحفلة له وللناس ، فتراه يتكلم مع جاره بصوت عال ولو تأذى الجمهور ، ويضحك ويهوّش ولو تضايق من حوله ، ولو كان عنده شعور اجتماعى بأن له ما للآخرين وعليه ما عليهم ما أتى بشىء من هذا ، ولراعى شعورهم كما يحب أن يراعَى شعوره ، ولفهم أن الحرية التى يتشدق بها ليست أن يفعل ما يشاء بغير قيد ولا شرط ، بل الحرية

الممنوحة له مقيدة بقيود أولها ألا يؤذى غيره ، وأن يكون له منها مثل ما لغيره .

مظاهر هذه الفوضى نراها فى كل شىء : فى هذه المجتمعات التى ذكرناها ، وفى الشوارع ، فكل سائر يعتقد أن الشارع ملكه وحده ، يرمى فيه بالأوراق التى يستغنى عنها كما يشاء ، ويسير فى أى جانب كما شاء . وتراه عند شباك « التذاكر » ، فكل يعتقد أن له الحق وحده أن يأخذ أول تذكرة ولو جاء آخر رجل ، وأن الأمر أمر مزاحمة وقوة جسم ، ولباقة حركة ، ولا عبرة بالسبق ، ولا بأى اعتبار آخر .

إن الحرب الحاضرة كشفت لنا عن نقص شنيع فى هذا النوع من الأدب الاجتماعى ، فمشكلة الدقيق ، ومشكلة السكر ، ومشكلة الأرز ، وغيرها من مشاكل التموين ناتجة عن نقص الأدب الاجتماعى أكثر منها نتيجة لنقص المواد الغذائيـة ، فكم من الناس لا ينظرون إلا إلى أنفسهم فيخزنون ما قدروا عليه من غير مراعاة لغيرهم من المحتاجين ، وكم من التجار الجشعين الذين ينتهزون الفرصة ليربحوا ربحاً غير معقول ولو هلك الجمهور ؛ ولو كان فى الأمة أدب اجتماعى راق لخفف كل هذه المصائب . ولا يمكن لأية حكومة ولا أية سلطة أن تنجح فى حل هذه المشاكل نجاحاً تاما ما لم يسعفها الأدب الاجتماعى ، وما لم يشعر الفرد بنحن بجانب شعوره بأنا ، وما لم يفهم أن له حظا من الخير بجانب حظوظ الناس ، وأنه يجب أن يتحمل شيئاً من المتاعب كما يتحمل الناس .

حتى الأمور التافهة الصغيرة التى تتصل بالأدب الاجتماعى لا تؤدى كما ينبغى فهذا يرسل إليك خطاباً فلا ترد عليه ، وهـذا يُهدى إليك كتاباً فتتهاون فى شكره ، وهذا يسدى إليك معروفاً فلا ينال منك كلمة ثناء عليه وتقدير لعمله كأن كل الناس مسخرون لخدمتك وحدك ، كما يسخر العبيد للسيد من غير حاجة إلى كلمة شكر .

وقد مرت الأمم الأخرى بمثل حالتنا التى نحن عليها الآن ، ولـكن عالجتها بأمور كثيرة — فأولا — عالجتها بنظام الجندية ، فكل فرد لابد أن يمر بالجندية زمناً ما ، وفى هذا الزمن يتعود الرجولة والنظام ، ويتعلم درساً هاما فى الأدب الاجتماعى ، وهو أنه لا يعيش وحده ، وأنه جزء صغير من جيش كبير ، وأن عليه عبئاً يجب أن يحمله هو ولا يحمله سواه ، وأن شخصه جزء من فرقته ، خيرها خيره وشرها شره ، وأنه يتحرك بحركتها ويسكن بسكونها ، وأن عليه واجبات وله حقوقاً ؛ وهكذا يتعلم الروح الاجتماعية التى تلازمه إذا خرج من الجندية ، وقد شاهدت هذا المعنى فى طلبة من الجامعة جندوا فتغيرت روحهم وأصبحوا أطوع للنظام وأكثر تقديراً للحقوق والواجبات ، وأشد شعوراً بمسئوليتهم نحو أمتهم .

ثم إلى جانب الجندية وجهوا التربيـة فى الأسر وفى المدارس نحو تفهيم هذا الأدب الاجتماعى ، حتى أشعروا كل فرد أنه جزء من كل . ففى الأسرة علموا الأبناء أن يعيشوا فى البيت عيشة اجتماعية ، كل فرد يشعر أن خير الأسرة كلها خيره وشرها شره ، وأن ميزانية البيت ليست لأحد وإنما هى لـكل أحد ، لا يتمتع بها واحد أكثر من غيره ، وأن الفرد الناجح فى الأسرة يصيب نجاحه الأسرة كلها ، وفشل فرد منها يصيب الأسرة كلها ؛ وفى المدرسة رسموا الخطط المتعددة لتعويد الأطفال أن يعملوا فى شكل جمعيات ، هذه جمعية للعب ، وهذه للأشغال ، وهذه للـكشافة ، وهذه للفنون ، وهذه للعلوم ، وهكذا ، ونظموا هذه الجمعيات تنظيما دقيقاً ، وقووا الروح التى تسيطر على كل فرد حتى يندمج فى جمعية يشعر بشعورها ، ويعتز بعزتها ، ويهون بهوانها .

فلما خرجوا من البيت على هذا النظام ، ومن المدرسة على هذا النظام ، ومن الجندية على هذا النظام ، خرجوا إلى الحياة العـامة وهم متشبعون بهذا الروح ؛

فنجحت نقاباتهم ، وأنديتهم ، وأحزابهم ، وجمعياتهم ، لأنهم نُشِّئوا عليها من صغرهم ، وربوا تربية اجتماعية من طفولتهم ، وأصبحت « نحن » بجانب « أنا » تماما لا تفارقها ولا تتخلف عنها .

ثم إن معيشتهم فى وسط الآلات والمصانع علمتهم أن كل فرد كجزء من الآلة إذا تعطل ترس تعطلت الآلة كلها ، ولا يمكن لآلة أن تنجح إلا إذا أدى كل جزء ما عليه ، متعاونا مع باقى الأجزاء ، فأوحى هذا كله إلى نفوسهم العمل الإجماعى والأدب الاجتماعى .

أما بعد ، فإن أخلاقنا الفردية لها مزاياها وعيوبها ككل أمة أخرى ، إنما الآداب الاجتماعية هى أهم ما ينقصنا ، وهى وحدها — مع الأسف — عنوان الأمة ومظهرها أمام من يحكم لها أو عليها ؛ فهم لا يحكمون علينا بأخلاقنا الشخصية ، بمقدار ما يحكمون علينا بمظهرنا فى الشارع وفى المجتمعات ، إنهم يرون البائس الفقير جدا بجانب الغنى جدا ، فيعلمون أن الغنىّ قد فقد الخلق الاجتماعى ، وهم يرون نوادينا وجمعياتنا فيحكمون منها على مقدار رقينا ، إن الأمر فى نظرى لا يحتاج إلا إلى تكوين جيل واحد يبذل فيه الزعماء والقادرون كل قوتهم لتكوين هذا الأدب الاجتماعى والخلق الاجتماعى فى نفوس الناشئين ، وأخذهم بالحزم والقوة حتى يتعودوه ، وأنا ضامن أن الأجيال المقبلة تسير بعد على هذا النظام من نفسها .

# جمال الدين الأفغانى

يعجبنى أحيانا طريقة القدماء فى ترجمة العظماء ، فيختفى المترجِم ويظهر المترجَم ، ويكتفى بذكر الأحداث التى حدثت للعظيم وتصرّفه فيها ، والكلمات التى فاه بها ، ونحو ذلك ؛ ويترك القارئ يفهم منها ما شاء ، ويستنتج منها ما شاء ، ويقوّم ما شاء ؛ لا يملى شرحه وتفسيره ، ولا يفرض على القارئ فهمه ولا يتحكم هو فى رسم الصورة التى يراها ؛ وذلك ما فعل الأصفهانى فى الأغانى ، وياقوت فى معجم الأدباء ، وابن خلكان فى وفيات الأعيان ، وغيرهم من مؤرخى العرب .

وقد قرأتُ فى هذه الأيام ترجمة للسيد جمال الدين من هذا القبيل ، اكتفى فيها المترجم — غالباً — بنقل آراء الأستاذ وأقواله وأحداثه ؛ وجعل ذلك كله يصوّره كما يشاء القارئ[1] ؛ وقد استوقف نظرى بعض أحداث وأقوال أرويها كذلك من غير تعليق :

١ — قال له « المخزومى » يوما : إن بعض الأصدقاء يرغبون فى الحصول على ترجمة الأستاذ ، فقال له : « قل لهم : إن العيان لا يحتاج إلى ترجمان ، قل لهم ما قال فلان عنى ( وفلان هـذا عدو من أعدائه ) إنه متشرد أوأفاق ، وأى نفع لمن يذكر أننى وُلدتُ سنة ١٢٥٤ وعُمرتُ أكثر من نصف قرن ، واضطررت لترك بلادى ، وأكرهت على مبارحة الهند ، وأجبرت على الابتعاد عن مصر ؟ » .

---

(١) والكتاب هو ( خاطرات جمال الدين ) لمحمد باشا المخزومى الذى عاشر الشيخ ولازمه مدة إقامته فى إستنبول .

٢ — ولما جمع المخزومى هذه الوقائع استشار الأستاذ فى اسمها ، فقال : سمها « خاطرات » ؛ فقال المخزومى : إن بعض الأصدقاء نبهنى إلى أن هذه اللفظة غير صحيحة فى اللغة ، والأقرب للصواب أن نسميها « خطرات » أو « خواطر » . فقال : قل « خاطرات » ولا تبال بمن فسد لسانهم ولا يَصلحون إلا للأجوف والمهموز ، ولا يحسنون جملة تنقر حبة القلب أو تطرب السمع .

وكتبَ يوما كلمة بعنوان « سياسة بقَروتية فى مملـكة فرعونية » ، فاعتُرض عليه فى كلمة بقروتية ، فقال : كيف صح لهم أن يقولوا « ملـكوت » و « جبروت » ولا يصح لى أن أقول « بقروت » ؟ ونظير هذا قوله : لا يصح للسماعى والقياسى أن يمنع أحدهما الآخر . فإذا جاز بالسماعى « أن ينحرف » جاز بالقياسى « أن ينعوج » .

٣ — ولما جاء مصر أعجبه برنامج الماسونية من دعوة إلى « الحرية والإخاء والمساواة » ، فانضم إليها ، وعرض عليهم فى المحفل يوماً إعانة لأحد الإخوان ، فسأل « الأستاذ » : هل الأخ مريض ؟ قالوا : لا . قال : هل هو صحيح البنية ؟ قالوا : نعم . فقال : « صحة البدن وذل السؤال لا يصح أن يجتمعا لإنسان » .

وحضر مرة اجتماعا فيها ، فقال أحد الخطباء : « إن الماسونية لا دخل لها فى السياسة » ؛ فعجب جمال الدين كل العجب من أن الجمعية التى برنامجها « الحرية والإخاء والمساواة » لا ترفع صوتها لرد الحرية إلى مسلوبها ، وانفصل من الجمعية وكوّن محفلاً وحده .

٤ — ولما أُخرج من مصر ذهب بعض محبيه إلى السويس يحملون له مقداراً من المال ، عرضوه عليه وسألوه أن يقبله قرضاً . فقال لهم : « أنتم إلى هذا المال أحوج ، والليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب » .

٥ — ولما استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الآستانة سـنة ١٨٩٢ ووصل

إليها ، كان فى انتظاره الياور السلطانى ، فسأله : أين صناديقك يا حضرة السيد ؟ فقال : ليس معى غير صناديق الثياب وصناديق الكتب . قال الياور : حسناً ! دلنى عليها . فقال السيد : صناديق الكتب هنا ( وأشار إلى صدره ) ، وصناديق الثياب هنا ( وأشار إلى جبته ) .

وقد قال : « كنت أول عهدى أستصحب جبة ثانية وسراويل ، ولكن لما توالى النفى صرت أستثقل الجبة الثانية ، فأترك التى علىّ إلى أن تخلق فأستبدلها بغيرها » .

٦ — وكان يجالس السلطان عبد الحميد كثيراً ، فسئل عن رأيه فيه ، فقال : « إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم : ذكاء ودهاء وسياسة ، خصوصاً فى تسخير جليسه . . . ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب ، ويخرجُ المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيره وسيرته ، مقتنعاً بحجته ، سواء فى ذلك الملك والأمير والوزير والسفير ؛ ولكن يا للأسف عيب الكبير كبير ، والجبن من أكبر عيوبه » .

٧ — وعرض عليه السلطان عبد الحميد منصب مشيخة الإسلام ، فأبى إلا أن يُعمَل عملٌ أساسى يتغير به النظام الحاضر ، وقال : « إن وظيفة العالم ليست بمنصب ذى راتب ، بل بصحيح الإرشاد والتعليم ، ورُتبتُه ما يُحسن من العلوم مع حسن العمل بالعلم » .

٨ — وعاش جمال الدين عَزَباً لم يقترن فى حياته بامرأة ، وكان كلما شكا له أحد كثرة العيال وقلة ذات اليد يعينه على قدر استطاعته ، فعرض عليه السلطان يوما أن يزوجه جارية حسناء من قصر يلدز ، فامتنع السيد من ذلك ، فسئل : هل تؤيد رأى أبى العلاء :

هــــذا جناه أبى علـ ـىّ وما جنيت على أحـد

قال : كلا ، كيف يصح لعاقل أن يعتبر الزواج جناية وبه بقاء النوع واستكمال حكمة العمران ؟ أما أنا فمعرفتى بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معانى العدل ، وعجزى عن القيام بأمره دعنى أن أتقى عدم العدل ببقائى عزباً » .

فقال له طبيب يهودى كان من خاصته : فهل تفادياً من الخوف من عدم العدل يجوز أن يخالف الإنسان طبيعته ؟ فتبسم السيد وقال له : « إن الطبيعة أحكم منك ، فهى تدبر نفسها ، ومن ترك شيئاً عاش بدونه » .

قيل له : إنك تقبل من السلطان عطاءه من المال ، فلم لا تقبل عطاءه من الجوارى الحسان ؟

قال : أما المال الذى يعطينيه فإنى أجد له — على قدر اجتهادى — أكفاء يقومون بأداء الواجب نحوه ، وأما الزواج بالجارية الحسناء فما أنا بالكفء لها ، ولستُ بوليها لأتحرى لها كفؤها .

٩ — وكان السيد جمال الدين كثير الإعجاب بذكاء الشيخ محمد عبده وفضله ، وكان كلما ذكره يقول : « صديقى الشيخ » ، وكان السيد عبد الله نديم فى آخر أيامه يكثر من التردد على منزل جمال الدين ، فقال له يوماً قد أكثرت من الثناء على الشيخ محمد عبده كأنه لم يكن لك صديق غيره ، وتنعت غيره بقولك صاحبنا ، أو « فلان من معارفنا » . فتبسم السيد جمال الدين وقال : « وأنت يا عبد الله صديق ؛ ولكن الفرق بينك وبين الشيخ أنه كان صديقى على الضراء ، وأنت صديقى على السراء » ، فسكت النديم .

١٠ — وكان جمال الدين يهزأ بمبدإ « دارون » الذى يعنون « بتنازع البقاء » ، ويقول : إن المبدأ هو « تنازع الفناء » ، ويقول : إن البقاء الذى

ينبغى أن يطلب ولا يعتريه فناء ليس فيــه تنازع ولا نزاع ، والتنازع القائم الآن إنما هو على أشياء تفنى ، والمنتزِع والمنازع والمنزوع منــه سواء فى المصير إلى الفناء ، فكان الأولى أن يقال : « تنازع الفناء » .

قيل له : وهل يُجمع العالم المتمدن كله على مثل هذا الخطأ ؟

فقال : وما العالم المتمدن ؟ هل رأينا غير مدن كبيرة وأبنية شامخة وقصور مزخرفة ينسج فيها القطن والحرير بأصباغ كيمياوية مختلفة ألوانها ، ومعادن ومناجم ، واحتكار تجارات أتت لهم بثروات ، ثم هل غيرُ التفنن فى اختراع المدافع المريعة والمدمرات والقذائف وباقى المخربات القاتلات للإنسان ، تتبارى فيها تلك الأمم الراقية المتمدنة اليوم ؟

لو جمعنا كل تلك المكتسبات العلمية ، وما فى مدنيات تلك الأمم من خير ، وضاعفناه أضعافاً مضاعفة ووضعناه فى كفة ميزان ، ووضعنا فى الأخرى الحروب وويلاتها ، لكانت كفة العلوم والمدنية والتمدن هى التى تنحط وتغور ، فالرقى والعلم والتمدن على ذلك النحو إن هو إلاَّ جهل محض ، وهمجية صرفة ، وغاية التوحش . فالإنسان فى ذلك أحط من الحيوان .

هل سمعت أن ثلثمائة ألف أفعى وقفت تجاهها مثلها وتقلبت بينها الأنياب وقاتل بعضها بعضاً ؟ أو هل وقفت الأُسود صفوفاً وتناهشت لحوم بعضها وسالت دماؤها ؟ فليس ثمة مدنية ولا علم ، ولكن جهل وتوحش .

* * *

ثم روى للسيد جمال الدين كلمات حكيمة كان يقولها فى مناسباتها .

كان إذا أقسم قال : « وعزة الحق وسر العدل » — الحقائق لا تزول بالأوهام — من سفه الرأى أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والمشيب

فقط — الفخر بالقول المجرد يبطله المجد بالفعل — لا يؤمن بربوبية القوة إلا شبح الضعف — الأكفاء فى العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء — تطويل المقدمات دليل على سقم النتائج — من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك — صاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته أولى بالخرس — ألف قول لا يساوى فى الميزان عملاً واحداً — إسراف الإنسان بصحته أضر من إسرافه بثروته — بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة — القبة الجوفاء لا ترجّع إلا الصدى — شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ويسكت العاقل — الأديب فى الشرق يموت حيا ويحيا ميتاً — قَيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام — القوىّ من الشجر لا يعجل بالثمر — (اللغة) العربية وسّعها البدو فى البرارى والقفار ، وضيّقَها الحضر فى المدن والأمصار — العلم قد يكون فى الأحداث ولكن التجارب لا تكون إلا فى الشيوخ .

# حب الهجرة

من أخلاق الأمم القوية « حب الهجرة » فالأمة التى تعتز بقوتها وتشعر بعظمتها ، يحب أفرادها أن يسيحوا فى الأرض ، إما لنشر دينهم وعقيدتهم ، وإما لإعلاء شأن وطنهم ، وإما لطلب الرزق إذا ضاق فى بلدهم ، وإما ليزدادوا علما بأحوال البلاد الأخرى ، فيفيدوا العالم ببحوثهم واستكشافهم ، وإما ليستزيدوا من مناظر الطبيعة وجمالها فيغذوا بذلك ملكاتهم الفنية من شعر وقصص وتصوير وما إلى ذلك من أغراض .

أما الأمم الضعيفة المغلوبة على أمرها فتألف مكانها ، ولا تحب أن تفارق عشها مهما برّح بها الفقر ، ومهما ساءت معيشتها ، فأهلها يفضلون أن يموتوا فى بلادهم أذلة فقراء ، على أن يموتوا خارجها أعزة أغنياء .

أمامى الآن صفحة رائعة من صفحات المسلمين أيام نهضتهم كيف رحلوا وكيف تنقلوا فى البلاد المختلفة ينشرون ديناً أو يطلبون علما أو يكافحون فى التجارة ، ويلقون فى ذلك الصعاب من غير ملل ولا ضجر .

وكانت الحكومات الإسلامية تتعاون على تنظيم هذه الرحلات فتنشئ الرِّبَاطَات فى كثير من المراحل ، وفى مختلف الطرق ، وفيها يجد المسافر ما يحتاج إليه ، والرباط فى أصل وضعه نقطة « عسكرية » كبيرة لحفظ الحدود أن يتسرب إليها جند الأعداء أو جواسيسهم ، فأضافوا له غرضاً آخر ، وهو معونة المسافرين والراحلين ، وتزويدهم بما يحتاجون إليه ، ولما اشتدت الرغبة فى الرحيل قام قوم من علماء الرحالين يؤلفون كتب الدليل ، وفيها كل ما يحتاج إليه

المسافر من تبيين المسافات بين البلاد وأخلاق أهلها وعاداتهم واعتقاداتهم وخير ما عندهم من أنواع السلع ، والمتاجر والمصنوعات ، والحاصلات الزراعية ، والمكاييل والمقاييس والأوزان ، ومافيها من ثغور بحرية ونهرية ، وأسماء المشهورين من الناس فى كل قطر ، و بين أيدينا الآن كتب كثيرة من هذا القبيل ككتاب «أحسن التقاسيم فى معرفة أحوال الأقاليم» للبَشّارى الشهير بالمقدسى ؛ ويقول إنه سافر كثيراً فى البحار فقطع ألفى فرسخ ، وإنه سافر إلى الصين وسَرَنْديب وركب بحر الأندلس ، غير ما جابَهُ من البُلدان الإسلامية برا ، وكذلك «كتاب المسالك والممالك» للإِصْطَخْرى ، و «المسالك والممالك» للبَكْرِى ، و «المسالك والممالك» لابن خُرْدَاذْبه ، و «كتاب البلدان» لابن الفقيه ، وغيرها وغيرها ، وكلها أدلة للمسافرين .

وقد أسس المسلمون فى أيام عزهم مراكز تجارية هامة يحضر إليها التجار بسلعهم وأموالهم من مختلف الأقطار ، وبها المخازن والفنادق والسماسرة والوكلاء يبيعون ويشترون ويُصْدرون إلى مختلف الأقطار ، وكان هناك صيارفة المال ولهم وكلاء يصرفون الصكوك ويحررون الحوالات لوكلائهم فى الأقطار الأخرى ، وكان من أهم تلك المراكز «جاوه» وكانت مركزاً هاما للبضائع الصينية ، و «عدن» و «كازرون» و «العريش» .

وقد ذهبوا إلى بلاد روسيا فبلغوا «كوتابه» ، وذهبوا إلى أقصى السودان فوصلوا «كوكوا» ، وذهبوا إلى التتر لجلب جلود السمور ، ووصلوا إلى «خانقوا» وهى التى تسمى الآن «كانتون» .

وفى كل هذه البلاد كانوا حيثما نزلوا يتعلمون لغة أهلها وعاداتهم وينشرون فيها لغتهم ودينهم ، ويتزوجون بأهلها بالمزاوجة ، فلا يمر جيل أو جيلان إلا ويندمجون فى الشعوب التى يرحلون إليها .

وقد حكى لنا المسعودى فى تاريخه قصصاً كثيرة عن هؤلاء الرحالة كابن وهبان الذى كان غنيا كبيراً وتاجراً عظيما ، وكان من أهل البصرة ، فرحل إلى سيراف ، ثم رحل منها إلى الهند بتجارته ، إلى أن انتهى إلى بلاد الصين ، ورحل إلى بلد الملك وأعمل الحيلة حتى قابله ، وأعظمه ملك الصين ، وأمر أن تعدّ له دار من دياره ينزل فيها ، وأن تقضى له حوائجه ، ثم عاد بعدُ إلى البصرة بعد أن نجح فى تجارته وحدّث أهلها بما رأى وما عرف ، وحث قومه على الرحلات وتنظيم التجارات .

وكانت رحلاتهم البحرية لا تقل روعة عن رحلاتهم البرية ، فأنشأوا المراكب الكبيرة للملاحة فى البحر الأبيض والأحمر والمحيط الهندى ، حتى وصف بعضهم سفينة كانت تحمل بضعة آلاف راكب وفيها حوانيت للبيع ، مع أنها كانت مراكب شراعية ، وكانوا أحياناً يستحضرون خشب السفن من البندقية وفيها غواصون لسد الثقوب إن حدثت ، و بعض السفن كان يحمل حمام الزاجل تُرسَل معه الأخبار إلى البلاد ، وكانت مراكب المسلمين تقطع البحر الأبيض عرضاً فى ستة وثلاثين يوماً .

وقال المسعودى : « وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن ، وأصابنى فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة ، فلم أجد أهول من بحر الزنج » ، وكانت أقصى ما تصل إليه المراكب فى هذا البحر موزنبيق .

أقام المسلمون بهذه الرحلات والمراكبُ شراعية تعتمد على الريح ، وليس لهم آلات دقيقة لتحديد الجهات ، وكانوا يقطعون المسافة من البصرة إلى الصين فى شهور طويلة مع احتمال العطب ، ومع ذلك لا ينقطعون عن السفر ، ولا تعوقهم الشدائد طلباً للرزق أو المجد .

وهناك أمثلة أخرى للهجرة للعلم كالذى ذكره الإدريسى « أنه فى القرن الرابع الهجرى خرج جماعة من مدينة لشبونة كلهم أبناء عم ، وأنشأوا مركباً وتزودوا فيه ، ثم ركبوا بحر الظلمات واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب ، وليعرفوا إلى أين انتهاؤه ، وهم يسمون المغرّرين » .

ومثل العالم الكبير أبى الريحان البيرونى ، أصله من خوارزم ، ولكن أهل بلده كانوا يسمونه الغريب لطول غربته وكثرة أسفاره ، كان ذا عقل علمى جبار فى الرياضيات والفلك ، رحل إلى الهند بعد أن مهر فيما خلفه اليونان من رياضة وهندسة وهيئة ، فأكب على ما عند الهند من ذلك ووعاه ونقده ، وقارن بين ما للهند وما لليونان ، وأبان عيوب هؤلاء وهؤلاء ، كما درس حالة الهند الاجتماعية وألف فى ذلك الكتب الكثيرة ، فألف فى الجواهر كتاباً اسمه « الجماهر فى الجواهر » ، وألف كتاب « تاريخ الهند » ، وكتاب « ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » ، وألف فى الفلك كتاب « التفهيم فى صناعة التنجيم » .

وهؤلاء المحدّثون ، طافوا الممالك الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها يتقصون ما ورد من الأحاديث ، ويجمعون ما تفرق فى البلاد ، ويأخذون عن شيوخ الأقاليم ، ويتفهمون معانى الأحاديث وفقهها ، ويفخر المفتخر منهم بأنه رحل من مصر إلى الشام إلى الحجاز إلى العراق إلى خراسان فى طلب العلم .

هذه أمثلة قليلة جداً من رحلات المسلمين فى أيامهم الأولى ، أيام عزهم ومجدهم وقوتهم ، سافروا للدين ، وسافروا للدنيا ، وسافروا للعلم .

وفى عصورنا الحديثة من الأمثلة الرائعة حقاً ما فعله السوريون إذ هاجروا إلى الولايات المتحدة فنجحوا فى الأعمال الاقتصادية ؛ بل وكونوا لهم أدبا عربياً ممتازاً .

أفبعد هذا يصح أن نرى هذه الظاهرة العجيبة فى كثير من الأمم الشرقية ، ظاهرة الخمول والالتصاق بالأرض ، وعدم الرغبة فى الرحلات والأسفار بعد أن سهلت وسائلها ، ومهدت طرقها ، و بعد أن ضاق العيش على كثير من أممها فى أرضها ؟ أليس من العجيب حقاً أن يكون كل « موظف » خارج القاهرة يملأ الجو بكاء وعويلا لينقل إلى القاهرة ، ويحتال بكل الوسائل ، ويسعى كل السعى ، ويستعمل كل أنواع الرجاء ليسكن فى القاهرة ، كأن الأقاليم الأخرى ليس لها حظ من الموظفين ، وليس لها حق فى أن تدار شؤونها ؟ وهؤلاء الفلاحون مكدسون فى بقعة من الأرض راضون بإقامتهم مع البؤس والفقر ، فإذا عرضت عليهم أن يرحلوا إلى غيرها — حيث الأرض واسعة ، وميدان العمل متسع ، والأمل منفتح — وجدت إعراضاً وتفضيلا للإقامة مع الفقر على الرحيل مع احتمال الغنى ، وترى الشاب المتعلم يتخرج اليوم من مدرسة أو جامعة ، وهو يتطلب وظيفة ويتطلب معها أن يكون فى القاهرة و إلا رفض الوظيفة — وتجد الأم تبكى ، والأب يبكى ، إذا أرسل ابنه إلى بعثة أو عُيِّن فى وظيفة بعيداً عنهما بساعات ، وتسوء حالة الآباء والأبناء من لوعة الفراق ، وتعرض وظيفة فى الشام أو العراق بضعف المرتب فيرفضها الكثيرون و يرضاها الأقلون ؟ إن الأمم التى تطلب عزها ، وتسعى لرفعة شأنها لابد أن يتحمل أفرادها الجلَد والصبر والشجاعة وركوب الأخطار فى الأسفار ، ولا أخطار اليوم ولا صعاب كأمس يوم كان آباؤنا ينتقلون على الحمير والبغال والجمال ، ويقطعون المسافة القصيرة فى الأزمنة الطويلة والطرق غير مأمونة والسبل غير ممهدة .

# بساطة العيش

تعجبنى الحياة البسيطة لا تعقيد فيها ولا تركيب ، وأكره ما أكره التكلف والتصنع وتعقيد الحياة وتركيبها .

ويظهر أن المدنية والحضارة تميل دائماً إلى تعقيد الحياة وتركيبها . وكلما قرأت فى الحضارات المختلفة — رومانية أو إسلامية أو أوروبية حديثة — وجدتها جميعاً تتشابه فى الميل إلى التعقيد والتركيب ، والإسراف فى البذخ والترف والرفاهية ، ففى الحضارة الإسلامية — مثلا — قرأت أن الوزير ابن الفُرات تناهى فى الترف حتى ما كان يأكل إلا بملاعق البلور ، وما كان يأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة ، فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة ، وذكروا عن المأمون أن مائدته كانت تبلغ فى بعض الأحيان ثلثمائة لون ، وكان راتب أبى طاهر وزير عز الدولة من الثلج فى كل يوم ألف رطل ، ومن الشمع فى كل شهر ألف مَنّ ، وغضب المأمون على جارية له ، فأرسلت إليه تفاحة من العنبر مكتوبا عليها بالذهب « ياسيدى تبت » ، وكانت أم الخليفة المقتدر تعمل نعالها من ثياب تسمى الثياب الديبقيـة ، تقطع على قدر النعال ، وتطلى بالمسك والعنبر المذاب ، و يجعل بين كل طبقتين من الثياب مسك وعنبر مجمدان ، وكان لا يمكث النعل فى رجلها إلا أياما ثم ترميه للخدم ، وكان النساء المترفات يشترين جلود الثعالب تحضره التجار من سيبريا ، يبطنّ به ثيابهن فى الشتاء ، وقد ذكر المسعودى أن ابراهيم بن المهدى استزار الرشيد يوما ، فقدم له على المائدة — فيما قدمه له — طبقا فيه قطع من سمك ، فقال له الرشيد ، لم صغر طباخك قطع السمك ، قال له يا أمير المؤمنين هذه ألسنة سمك ، فاستحلفه الرشيد

أن يخبره عن ثمن هذه الألسنة ، فقال له أكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يده ، وأبى أن يأكل منها .

ويشبه هـذا ما قرأته مرة أن أحد اللوردات من كبار الأغنياء عمل وليمة لبعض الـكبراء ، فقدم فيها طبقاً فيه ألسنة بعض الطيور النادرة .

وقرأت مرة أن أمريكا فى سنة ١٨٩٩ ، كانت اعتزمت أن تقيم فى معرض باريس عموداً من الذهب يساوى ما فيه مائتى ألف جنيه إشارة إلى أنها مملـكة الذهب .

ومثل ذلك ما جاء فى تاريخ الوزراء للصابى أن المعتضد اجتمع فى خزائنه تسعة ملايين من الدنانير فأمل أن يتمها عشرة ، ويسبكها سبيكة واحـدة ، ويضعها فى مكان بمرأى من الناس ليسير فى الآفاق أن للمعتضد عشرة ملايين ديناراً ذهباً هو فى غنى عنها ، فاخترمته المنية قبل أن يحقق غرضه .

وأمثلة ذلك فى الحضارات القديمة والحديثة ، وهى فى الحديثة آنق وأترف وأعقد ، وقد شمل التعقيد والتصنع والتكلف كل مناحى الحياة ، وشمل كثيراً من الأوساط بعـد أن كان فى الحضارات القديمة مقصوراً على بعض الملوك والأمراء .

هذا حفل عرس يقام فى بيت الأغنياء حتى والأوساط ، فتقوم دنياهم وتقعد وترتبك حياتهم وترتبك ، ويمر الشهر والشهران والأسرة لا تعرف الراحة ، من خطوبة وجهاز ، وإعداد حفلة وتنظيمها ونحو ذلك من مشاكل لا عداد لها ، ولا ينتهى الزواج حتى تكون الأسرة كلها قد تهدمت أعصابها وماليتها من كثرة ما لاقت من العناء ، وما تحملت من أعباء ، وما سبب ذلك إلا ما اندفع فيه الناس من تعقيد وتكلف وتصنع .

وهذه مظاهر الحياة كلها معقدة ، فالمرأة تقضى نصف عمرها أمام المرآة متصنعة

متجملة ، وهذه مائدة الأكل يقضى الوقت الطويل فى إعدادها وتصفيفها ، وهذا الأكل يقضى فيه كل مرة ساعة أو أكثر فى وضع صنف ، ورفع صنف ، وما إلى ذلك .

وهذه الملذات ووسائلها كلها تعقدت وتركبت ، فالذهاب إلى التمثيل يكلف كثيراً من العناء ، فى المظهر والملبس والمركب ، ويحب كل ذاهب إليه أن يكون هو فى نفسه رواية ينظر إليه الناظرون ، فى ملبسه ، ومشيته ، ونظراته وما إلى ذلك ، وكل ملذة من ملذات الحياة — مشروعة أو غير مشروعة — لا تنال على بساطتها وسذاجتها ، وإنما تنال على ضروب من التعقيد والتكلف لا نهاية لها .

ومن الغريب أن المتلذذ بهذه الضروب من التكلف لا يلبث أن يعتادها ويألفها على أنها بسيطة ساذجة ، فيبحث عن وسائل أخرى لزيادة تعقيدها .

ولو كان تعقيد الملذات يزيد السرور بها لهان الأمر ، ولكن الواقع أن تعقيدها يضيع بهجتها ، ويقلل الاستمتاع بها ، فالعامل البسيط يتلذذ من منظر رواية بسيطة أكثر مما يتلذذ الغنى المترف من رواية معقدة ، والمرأة الفقيرة تفرح بجلبابها الجديد البسيط أكثر مما تفرح امرأة غنية بفستانها الأنيق الموشى .

هذا فضلاً عما يستوجبه هذا التكلف والتعقد من أسباب التعاسة ، فكم بيت شقى بسبب امرأة فى البيت تتكلف أكثر مما تحتمل ميزانيتها فى الملابس وأدوات الزينة ، وكم أسرة شقيت لأن رجلا يحتفل بسكره أو قماره أكثر مما يحتفل بضرورات بيته ، وكثير من البيوت بائسة لأن حاجة المعيشة تعقدت وتركبت فأصبحت ميزانياتها لا تكفى لضروراتها ، وكثيراً ما تضطر تكاليف الحياة وتعقدها أن يسلك الناس سبلا غير شريفة فى الحصول على المال الذى تتطلبه تعقدات الحياة ، ومن استطاع أن يحتفظ بشرفه عاش فى قلق وهمّ من المطالب الكثيرة التى تحيط به ، والتى يستطيع أن يحتملها فى نفسه ولكنه

لا يحتملها فى أهله وولده .

وضروب المعاملة والسلوك يسودها التصنع والتكلف ومظاهر الرياء ، فى الوظيفة ، وفى المصالح الحكومية ، وفى المحال التجارية ، وفى الحفلات والولائم والأفراح والمآتم ، لا شيء من البساطة ولا شيء من الرجوع للفطرة .

وحتى الآداب والفنون دخلتها الحضارة فعقدتها ، وملأتها زينة وصناعة ومحسنات لفظية ومحسنات معنوية ، واستعارة ومجازاً ، وتكلفا فى التعبير لا يجرى مع الطبيعة ، والروائى لا يكون روائياً حقاً حتى يغرب ، والممثل لا يكون ممثلا حقاً حتى يتصنع ويتكلف البكاء والضحك ، والصياح وإلواء اللسان والتشدق فى الأداء .

والناس فى مخاطبتهم لا يسلكون أقرب طريق للفهم والأفهام ولا أصدق عبارة وأبسطها للتعبير عما فى النفس ، حتى ليصعب علينا فى كثير من الأحيان معرفة الحق فى الموضوع ، لما تمتزج به الحقيقة من شكوك وغموض وإبهام وتصنع وتزويق ، مع أن البساطة فى التعبير هى خير وسيلة للإقناع والإفهام ، ورب كلمة صريحة صادقة بسيطة فعلت ما لا تفعل الخطب المزوقة ، والأحاديث المنمقة ، وخير الأدب ما مال إلى البساطة ، وخير التمثيل ما جرى على الطبع ، وخير الفن ما عبر عن النفس فى بساطة ويسر .

من كل هذا نرى أن الحضارة صحبها فى كل نواحيها تعقيد وتكلف ورياء وتصنع وبعد عن البساطة ؛ وأن هذا التكلف والتصنع قد جر من الشرور على العالم ما لا يحصى ، ولكن هل هذا عرض ملازم للحضارة لا يمكن أن تنفك عنه ، أو هو — كما يقول المناطقة — عرض مفارق يمكن أن يكون ، ويمكن ألا يكون .

إن الحضارة درجة فى الرقى طبيعية فلا يمكن ولا من الخير أن يتبدى الناس بعد أن تحضروا ، ولكن ألا يمكن أن نتحضر وأن نتبسط معاً ؟

لست أرى أن الحضارة من لوازمها التعقيد ، بل إنى أتصور حضارة سامية تعنى ببساطة العيش مع انتفاعها بما وصل إليه العلم .

وقد قرأنا أخباراً عن قوم نبلاء عاشوا عيشة البساطة وسط الحضارة كما فعل تولستوى فى حياته الأخيرة ، وقد قرأت قصة لطيفة فى كتاب « أدب النديم » إذ حكى أن عبد الله بن طاهر دعاه غنى إلى وليمة ، ثم أخّر الأكل لإعداده إعداداً يتناسب ومقام ابن طاهر ، فطال غيابه ثم أحضر من الألوان والتصنع والتكلف ما لا حد له ، فلما هم ابن طاهر بالانصراف سأله الداعى : أيأمر الأمير بشىء ؟ قال : أن تذهب إلى فلان وتتعلم منه الفتوة ؛ فذهب إليه وكان الوقت وقت غداء ، فأمر الخادمَ أن يحضر ما عنده من غير أن يزيد شيئاً ، فحضر طعام نظيف بسيط لساعته ، ثم قال له : هذه هى الفتوة التى أراد ابن طاهر أن أعلمكها .

على أنا نجد اليوم نزعة ظاهرة فى المدنية الحديثة ، وهى كراهية التكلف والسآمة من التعقيد فى المعيشة ، والإمعانِ فى الملذات ، والتصنعِ فى الفن والأدب والتشدق فى الكلام ، وهى نزعة ظهرت فى نواح كثيرة نرجو أن تتم وتتسع .

أريد من البساطة الصراحة فى القول ، والطهارة فى التفكير ، وعدم الإمعان فى المظهر ، والتصرف فى بساطة ويسر ، ونظافة الفكر من كراهية الناس ، والتعالى عليهم ، والسير فى الحياة كما هى من غير كلفة ولا رياء ولا تظاهر ولا تعقيد ، فقد تكون مائدة نظيفة بسيطة أشهى عند العاقل من مائدة معقدة مركبة ، وقد يكون جمال الفتاة فى بساطة حليها و بساطة ملبسها خيراً من حلىّ مكدسة وثياب مزركشة .

فى بساطة العيش راحة النفس ، وحفظ الصحة ، وحسن التفاهم ، والتخفف من الأعباء المالية ، وشعور بأن الحياة المادية ليست كل شىء فى الحياة حتى يضيع كل الزمن فى تعقيداتها وتركيباتها ، فهناك حياة روحية سامية جميلة تستحق أن يوفر لها جزء من الزمان ، ويخصص لها وقت من التفكير .

# فى المدرسة

كل شىء فى العالم يتقدم ويتغير حسب تطور الأمم ونظمها الاجتماعية وحاجاتها وأغراضها فى الحياة ، فكما تغيرت مصانع النسيج من مغازل يدوية إلى مصانع ميكانيكية تبعاً لتقدم الأمة فى الصناعة ، كذلك يجب أن تتغير مصانع الأجسام والعقول والأخلاق تبعاً لتقدم الزمن وحاجات الأمم ، وكذلك كان ، فالمدرسة القديمة تطورت تطورات مختلفة ، وخدمت أغراضاً متنوعة حسب آمال الأمة وظروفها ، فالأمة يجب أن تحدد أغراضها التى ترمى إليها ، ثم تصوغ مدارسها على وفقها .

لقد كانت التربية فى عهد اليونان الأقدمين ترمى إلى خَلْق جسم قوى معد للحروب وللدفاع عن البلاد وللفتوح ، فكانت مدارسهم مصنعاً لتأدية هذا الغرض ، وتحول غرض التربية فى أثينا إلى إيجاد طبقة عقلية تعنى بالفلسفة وفهم الطبيعة وما وراء الطبيعة ، فأنشئت المدارس يعلم فيها أفلاطون وأرسطو على هذا النمط لتحقيق هذا الغرض ، وجاء عهد الرومان فكان أهم غرض رئيسى لهم التعليم الحربى فى فنونه ونظمه وترتيباته ، والتعليم البلاغى فى تحرير الخطب وفصاحة اللسان ، فكانت مدارسهم تُعِد لهذين الغرضين ، وفى العصور الوسطى غمرت الناس الموجة الدينية فصُبغت المدرسة هذه الصبغة ، وكان كل شىء يعلّم لغرض الدين ، حتى العلوم اللسانية والعلوم العقلية .

ومن نحو أربعة قرون غمر الناس — وخاصة أوروبا — موجة عقلية ، فانطلق العقل يبحث ويفكر ، واصطبغت المدرسة هذه الصبغة العقلية تبحث وتفكر وتجرب التجارب فى المعامل ، وتأبى أن تأخذ شيئاً من العلم قضية مسلمة حتى يقوم البرهان على صحتها .

وفى هذا القرن وأواخر القرن السابق أخذ علماء التربية يفكرون فى أن يضموا إلى تربية العقل تربية اليد ، فأخذت المدارس تعنى بهذه الناحية من رسم وتصوير وأشغال يدوية وما إلى ذلك ، وأخيراً جداً تنبهوا إلى وجوب إضافة تربية القلب إلى تربية العقل واليد ، بوضع برامج يكون الغرض منها تحسين العلاقة بين أفراد الأمة الواحدة و بين الأمة والأمم الأخرى ، لما رأوا من أن شرور العالم ومصائبه ناشئة من سوء هذه العلاقات ، إما بين أفراد الأمة الواحدة بعضهم وبعض ، وإما من سوء علاقات الأمم بعضها ببعض ، وأن الكوارث الطبيعية من فيضان وزلزال و بركان لا تساوى شيئاً بجانب ما يحدث من الإنسان للانسان من ظلم وإجرام و إفقار ، فلما شعروا بذلك بدءوا يدخلون فى المدرسة مبدأ تربية القلب ، ولكن — مع الأسف — عنوا بتربية حسن العلاقة بين أفراد الأمة الواحدة بما أدخلوا من دراسة التربية الوطنية ، ولما يعنوا العناية الكافية بتربية القلب من ناحية الإنسانية ، وربما كان من أكبر أسباب ما يصيب العالم الآن من ويلات عدم توازن عناصر التربية ، فقد تقدم جداً العنصر العقلى وما تبعه من مخترعات ، فالقوات المحركة والكهرباء والراديو والطائرات وآلاف المخترعات هى كلها نتيجة العلم ، أو بعبارة أخرى نتيجة عنصر العقل ، وكذلك هى كلها نتيجة لعنصر اليد ، ولكن تخلف جداً عنصر القلب ، إذ لم يدخل فى برامج التربية إلا حديثاً ، وما دخل منه دخل ضيقاً محدوداً بحدود الوطنية .

قصة قرأتها اليوم ، وهى أن عالما كان يفخر أمام فيلسوف هندى بما تقدمه العالم وما اخترعه من مخترعات ؛ فقال ذلك الحكيم : نعم أيها العالِم ، إنكم استطعتم أن تجولوا فى السماء كالطير ، وأن تسبحوا تحت الماء كالسمك ، ولكنكم لم تستطيعوا أن تسيروا على وجه الأرض فى أمن وطمأنينة كالحيوان .

فلو قلل من شوط العقل فى برامج المدرسة وأُخِذَ شىء من نشاطه الكثير فى تربية القلب لسكان العالم أسعد ، وهذا ما نشاهده كل يوم ، فمتعلم لا قلب له شر على الأمة ألف مرة من جاهل له قلب .

ما وظيفة المدرسة ؟ لقد كثرت الإجابات على هذا السؤال ، وخيرها فى نظرى هو إعداد الأطفال والشباب لينسجموا مع المدنية التى ولدوا فيها .

إن الطفل يولد عاجزاً كل العجز عن أداء أى واجب من واجبات الحياة ، ضعيف الجسم ، ضعيف العقل ، غير مسلح بأى سلاح ، مملوءا بالغرائز الضارة غير المهذبة ، ليس فيه من مزية إلا أنه يتكون من مادة خامة صالحة للتربية ، فتأتى التربية وتصوغ هذه المادة وتجعل منها — إن صلحت — إنساناً عاقلا نافعاً صحيحاً مهذباً منسجما مع مدنيته — لهذا كان لا بد لكل أمة من غرض محدود ومثل أعلى تنشده ، مشتقاً هذا الغرض وهذا المثل من ظروفها وأحوالها ومدنيتها ، ثم تصوغ الأطفال فى المدارس صياغة تحقق هذا الغرض ، وتجعل منهم أعضاء نافعين لجمعيتهم ، وتحيطهم بجو من العلم ومن النظام ومن الشعائر والتقاليد يساعد على بلوغ الغاية المنشودة ، لهذا يجب على المدرسة إعداد الناشئين من نواحيهم المختلفة وقواهم المتعددة .

ثم من وظائف المدرسة الأعداد للحياة ، فكل أمة لها مركزها الخاص ، ولها مرافق متعددة تختلف كثرة وقلة حسب موقفها الاجتماعى من مرافق صناعية وزراعية وتجارية وما إلى ذلك .

فكل أمة عليها أن تدرس حاجاتها ومرافقها المختلفة وتحدد ما يتطلبه كل مرفق من النسبة العددية ، وما يتطلبه كل مرفق من الثقافة والأعداد ، ثم تعد الناشئين فى مدارسها لمواجهة الحياة العملية فى مرافقها المختلفة .

يجب أن يكون التعليم فى المدارس نافعاً ، ومعنى نفعه إعداد الشاب للحياة

المستقبلة التى سيواجهها فى حياته العملية ، ويجب أن يوجه التعليم النظرى إلى هذا الغرض النفعى العملى .

قد كان تعليم المهنة قديماً فى المدرسة العملية ، فكان ابن النجار يتعلم النجارة من دكان أبيه ، وابن الحداد والفلاح والتاجر كذلك ، فكان التعليم متجهاً إلى غرض مرسوم ، ولكن ضاع هذا ، وما كان يمكن أن يستمر فى مدنيتنا ، وكان ينقصه الثقافة العقلية والخلقية من حيث أن المتعلم إنسان ، وحلت محل ذلك كله المدارس ، ولكنها تغالت فى الناحية النظرية ، وأهملت الشىء الأساسى ، وهو الإعداد للمهنة وللحياة العملية .

إن المدرسة الحقة والتربية الصحيحة هى التى تنظر إلى شيئين لابد منهما ، — أولهما — حاجات الأمة إلى أنواع المهن والحرف ونسبها العددية وما تحتاجه كل مهنة وحرفة من ثقافة خاصة — وثانيهما — نوع استعداد الناشئين ، هذا نبوغه فى يده ، وهذا نبوغه فى إدارته ، وهذا نبوغه فى الأعمال المالية ، وهذا نبوغه فى عقله ؛ ثم يتجه التعليم على هذين الأساسين : أساس الغرض وأساس الاستعداد ، ويتجه التوزيع كذلك ، ويُوَجه الناشئون كذلك ، فإذا كلٌّ يعمل حسب ما خلق له ، وإذا كلٌّ يعمل حسب حاجات الأمة ، وإذا الناشئ يتضح له مستقبله ويعلم إلى أى طريق هو مسوق .

وهى مهمة عسيرة جداً شعر بصعوبتها أكثر رجال التربية ، وبذلوا الجهد فى حلها ، وأدركت الأمم الحية هذه الغاية السامية فبدأت توجه المدرسة وجهتها الصحيحة .

إن كان هذا النظر صحيحاً فما أغرب ما نسير عليه الآن وقبل الآن . إننا نعلم التعليم الأولى ورياض الأطفال ليسلم كل ذلك إلى التعليم الابتدائى ، والتعليم الابتدائى كله بألوفه المؤلفة يسلم للتعليم الثانوى إلا القليل النادر ، والتعليم

الثانوى بألوفه المؤلفة كذلك يسلم إلى التعليم الجامعى ، إلا فى القليل النادر . كأن التعليم كله يقصد به الجامعة ، فأين الزراعة العملية ، والصناعة العملية ، والتجارة العملية ، ومرافق الحياة كلها العملية ؟

إن التعليم الجامعى فى الأمم ليس إلا للخلاصة من الأمة ، للقادة ، للباحثين ، للنظريين ، فكيف يتجه التعليم كله إليه ويحضّر له ، ويصبغ الناشئون كلهم أو أغلبهم بصبغته ؟

هذا قلب للوضع وخطأ فى التفكير . إن الذين يتعلمون فى الجامعة لا يصلون إلا إلى نحو ١٠٪ من مجموع المتعلمين ، فكيف نضحى تسعين لأجل عشرة ؟

لا بد — إذن — أن يقصر الإعداد للتعليم الجامعى على عدد خاص يقاس بحاجة الأمة ، ويقاس باستعداد الناشئ ، وفيما عدا ذلك يجب أن ينظر إلى كل نوع من أنواع التعليم على أنه غرض لا وسيلة ، ومُعِدّ للحياة لا معد للجامعة ، ونتيجة هذا تنويع التعليم وتنويع البرامج وتنويع الغرض وتنويع الإعداد حسب مطالب الحياة المصرية .

لقد وضعتنا الظروف وضعاً شاذاً فكان التعليم كله للوظائف الحكومية ، ثم تحوّل تحوّلاً آخر بعض الشىء فأصبح التعليم للجامعة ، وكلاهما خطأ ، فيجب أن يكون لا للوظيفة الحكومية ولا للجامعة ، ولكن لمرافق الحياة ومطالب الأمة واستعداد الناشئ .

كل ناشئ يجب أن يسلح لنوع مما تحتاجه الأمة على اختلاف حاجاتها لا أن يكون غرض الجميع « شهادة » ، يجب أن يكون غرض كثير من الطوائف أن يكونوا صناعاً مهرة أو تجاراً مهرة أو زراعاً مهرة ، أو ما شئت من مختلف المهن والحرف ، ثم يجب أن تتعدد المدارس وتتنوع حسب هذه الأغراض .

من توابع هذا الخطأ تقاليدنا فى توزيع الشرف ، وشعورنا أن أكبر شرف

يمنحه الجمهور لموظف الحكومة أو لخريج الجامعة ، فيجب أن تهدم هذه القيم ويوزع الشرف توزيعاً جديداً ، ويوجد شعور عام بأن شرف المهنة الحرة كشرف الوظيفة الحكومية أو أكبر منه .

يجب أن نفعل فى التعليم ما نفعل فى المستشفى ، كل مريض له علاجه الخاص ودواؤه الخاص ، وليس هناك مجنون يعالج المرضى المختلفين علاجاً واحداً ، فما بالنا نصب الناشئين فى قالب واحد مع التباين فى استعدادهم وملكاتهم ومع حاجات الأمة المختلفة ومطالبها المتعددة ؟

إن التعليم فى المدارس يجب أن يكون تفتيحاً للحياة وإعداداً للعمل ، لا تضحية للناشئين لشرف موهوم وغرض مجهول ، ويجب أن توزع الجداول فى المزرعة حسب حاجة الأرض إلى الماء لا حسبما اتفق .

# في الهواء الطلق

— ٣ —

كانت رحلتنا هذه المرة رحلة شتاء ، في الصحراء ، وللصحراء جمالها الساحر ، سكون عميق يهدّئ الأعصاب ، وصفاء جو ينعش النفس ، وأنس بالطبيعة كما خُلقت ، فليس يقع النظر فيها على عمل من أعمال الإنسان ، فلا زرع ولا بناء ، ولا جند ولا حكومة ، كل شيء فيها من عمل الله وحده من غير تدخل أحد ؛ جو فسيح طليق تتجاوب فيه الرياح ، فلا يحبسها بناء ، وشمس تسطع فلا يقيّدها قيد ، وللهواء والشمس طعم ولون ورائحة غير ما لهما في الحضر . يشعر الإنسان فيها بقربه من الطبيعة وقربه من ربه ، ويشعر بلذعة من عيشته الحضرية في جو مصطنع كل ما فيه وليد التكلف والرياء والنفاق .

وأمعنّا في طريق السويس حتى وصلنا إلى منتصف الطريق ، فعرجنا يَسرة ، وبعُدنا عن مسير الناس في غدوهم ورواحهم ، ثم تخيرنا مكاناً نستطيع فيه أن نستدفئ بالشمس إذا شئنا ، وننعَم بالظل إن أردنا .

وكنتُ في رفقة من العقليين المتفلسفين ، يحلو لهم التفلسف في كل شيء ، فهم قادرون على أن يخلقوا من الحبّة قبّة ، ويؤلفوا من الْهَنَة كتاباً ؛ وهم بطبيعتهم وثقافتهم يفلسفون كل ما يقع تحت سمعهم وبصرهم ، ويستخرجون منه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت . ولذلك أعددت نفسي لرؤية منظر « جامعة في الصحراء » ، أو إعادة ذكرى مذهب المشّائين ؛ ولكني ما استطعت أن أحزِر وجهة الحديث ولا موضوعه ، وإن كنت توقعت أن يكون بطلا الحديث رجلين ، أحدهما تفلسف في مصر ، ثم أتم فلسفته في فرنسا ، وقرأ كثيراً حتى كاد يلتهم الكتب ، ولا يأتي حديث عن كتاب إلا وصفه لك

فى إفاضة ، وشرح نوع فلسفته وقول نَقَدَته ، وهو — كما يقول العرب فيه — علمه أكبر من عقله ، ولنسمّه على عادة النحويين بزيد ؛ والآخر متفلسف فى مصر فقط ، لم يقرأ كما قرأ الأول ، ولكنه فكّر طويلا فى قراءته القليلة ، فكان عقله أكبر من علمه ، ولنسمه بعمرو . وهما فى حديثهما دائماً كالضرّتين ، لا يقول أحدهما رأياً إلا نقضه الآخر ، ولا يذهب أحدهما ناحية إلا يذهب الآخر الأخرى ؛ يُدل زيد بعلمه الواسع ، ويدل عمرو بنقده اللاذع ، ويفخر الأول بغذائه الشامل ، ويفخر الآخر بهضمه الكامل . ولكن رجوت أن صحو الجو والقصد إلى الراحة يجعلان من خلافهما وفاقاً ، ومن فلسفتهما شعراً ، ولكن خاب ظنى ، فما بالطبع لا يتخلّف ، ويموت الزامر وإصبعه تلعب .

* * *

بدأتُ الحديث بالتغزل فى الصحراء وجمالها ، والجو وصفائه ، ونسيت فعممت ، فقارنت بين جمال الريف وجمال الصحراء ، وجمال الزرع وجمال الرمل وجمال البساطة وجمال التركب ، وجمال الخِلقة وجمال الصنعة ، ففتحت من حيث لا أدرى باباً من الجدل لا ينتهى ، وكان هذا كل نصيبى من الحديث ، ثم استطار الشر بينهما .

زيد ، أتظن — يا أستاذ — أن هناك فى الخارج شيئاً اسمه جمال ؟ إننا نحن بأنفسنا نخلق الجمال ، إن الأمر فى الجمال ليس كالأمر فى « الترمومتر » الحائطى يريك درجة حرارة الحجرة من غير أن يكون لنا دخل فيها ، بل هو « كالترمومتر » نقيس به حرارتنا ، فهو لا يبين شيئاً ما لم نضعه تحت لساننا ؟ إنه ليس كحاصل الجمع وحاصل الضرب ، هما كذلك فى الخارج أخطأنا أم أصبنا ، بل هو كالشىء تذوقه فتستحليه ، ويذوقه الآخر فيستمره ، والأكل تستطعمه أنت ويستقبحه غيرك ، وكلا الحكمين صحيح . إن الصورة

الفنية المعروضة لا قيمة لها فى ذاتها ، و إنما ذوقنا هو الذى ينشئ جمالها ، ولذلك إذا لم يكن ذوق يستجملها لم تكن جميلة . والجمال مقصور على من له ذوق يذوق جمال الصورة ، و إن شعر امرئ القيس وأبى نواس والمتنبى وشوقى ليس له قيمة ذاتية ، إنما جماله لمن مرن ذوقه على نحو خاص حتى صار يتذوّق جماله ، فإذا لم يكن الذوق لم يكن الجمال ؛ فليس جمال الشىء صفة خارجية كوزنه مثلا ، و إنما هو ذوق فينا ، ولذلك لا يختلف الناس فى زنة الشىء ، ولكنهم يختلفون جد الاختلاف فى جماله .

إن العلم الآن لا يؤمن إلا بالمنظور والمسموع ، لا كما كان العهد فى القرون الوسطى يؤمن بالمتخيَّل والموهوم . وعلم النفس الحديث أبان أن الحكم على الأشياء — ومنها الحكم بالجمال والقبح — ناتج من عوامل كثيرة لا شعورية ؛ فالذوق قد يستهجن قطعة موسيقية ويكره — دائماً — أن يسمعها ، فإذا حللت ذلك تحليلا دقيقاً رأيت أنها لا ترجع إلى القطعة نفسها ، ولكنها سُمعت لأول مرة فى ظروف سيئة للشخص أوحت إلى عقله الباطن كراهيتها ، فظل يكرهها دائماً ، والقطعة الموسيقية نفسها لا دخل لها فى ذلك . وكذلك ترى من الناس من يكره اللون الأصفر أو الأزرق لأسباب خاصة حدثت له ، وقد ينساها ويبقى أثرها فى نفسه ؛ أما اللون نفسه فلا شأن له بالكراهية أو الاستحسان .

كل هذا وأكثر منه كشفه العلم ، فأصبح من يقول بالقيمة الذاتية للجمال طرازاً قديماً .

***

هنا احمرّ وجه صاحبنا « عمرو » من لفحة الهواء والشمس — أولا — ومن كلام زيد ثانياً ؛ وقال : هذا قول هراء يحملكم عليه إيمانكم دائماً بما

فى الـكتب ، وهيامكم دائماً بالجديد وإن لم يُبْن على أساس صحيح .

لو صح قولـكم لم يكن لصورة فضل على صورة ، ولا لشعر فضل على شعر ، ولا لجمال امرأة فضل على أخرى ، وكان كل ذلك يرجع إلى الذوق الشخصى فقط ، ولـكان شعر أبى نواس والمتنبى وشوقى كشعر أحقر شاعر ، كل ما هنالك من فرق أن هذا يستحسنه ذوق ، وذاك يستحسنه آخر ؛ ولمَا كان هناك معنى لقولنا شعر عظيم وشعر حقير ، وصورة رائعة وصورة قبيحة ، إلا أن يكون تعبيراً فقط عن شعور القائل ؛ ولو كان هذا كافياً لحـكمنا على الصورة الجميلة أو الشعر الجميل بعدد الأصوات ، بقطع النظر عن ذوق راق وذوق غير راق ، وذوق الفنيين وغير الفنيين ، وهذا ما لا يسلم به عاقل . أما على رأيى فالأمر واضح ، وهو أن هناك ذوقاً راقياً وذوقاً غير راق ، ومعنى الذوق الراقى أن صاحبه يدرك فى الشىء المرئى أو المسموع صفات ذاتية فيه لا يدركها الذوق غير الراقى . على أننا لم نقل إن جمال الشىء وقبحه — كوزن الشىء — محل وفاق ، ولـكنه محل خلاف ، وسبب الخلاف بين الناس الاختلاف فى الذوق ، ومعنى الاختلاف فى الذوق أن بعض الأذواق قادر على إدراك صفات الجمال والقبح فى الشىء وبعضها غير قادر . وإنى أومن بأن الذوق يختلف باختلاف زمان الشخص ومكانه ، وبمقدار المدنية التى يعيش فيها وبمقدار ثقافته ، وبمقدار مزاجه وسنه ، وبنوع وراثته ، ولـكن ليس معنى هذا أن حكمى بالجمال والقبح يقتصر على حالتى النفسية والعقلية ، وأن ليس هناك صفات خارجية فى الشىء المحـكوم عليه .

ما الذى دعاك — يا أخى — إلى أن تخرج معنا إلى الصحراء تتحسس جمالها إن لم يكن هناك إلا الذوق ؟ لقد كان يكفيك ذوقك فى بيتك ، وفى أى منظر يقع عليه حسك — ولماذا قصر ذوقنا على إدراك الجمال فى أشياء خاصة كالموسيقى والشعر والتصوير والطبيعة ، ولم يتعدها إلى غيرها ؟ أليس ذلك لأن

فيها صفات خاصة إذا توفرت فى الشىء كان جميلا ، وإن لم تتوفر كان قبيحاً ؟

***

ومُدّت مائدة الصحراء ففرشت صحف الجرائد ، وأثقلت بالصحاف ، من دجاج ولحم وبطاطس ، ثم موز وبرتقال .

وأخذ صاحبنا « عمرو » يلذع صاحبنا « زيداً » بنوادره ، فيقول : « ما أشهى اللحم » ، ولـكنه يا أخى ليس شهياً فى ذاته ، فإذا حوّرت ذوقك وجدت الفول النابت أشهى ، والجبن بالفجل ألذ ، وليس فى حمرة البرتقالة واستدارتها جمال ، إنما هو ذوقك ، ولو أن ذوقك استجمل حجراً مدوّراً وفضله على البرتقالة فى جمالها لم يكن ثمة محل للجدل ؛ ويُتبع كل لذعة منه بضحكة تستخرج ضحكنا .

وانتهينا من الأكل ، ورجوت أن ينتهى الحديث ، وحاولت ذلك فعلا ، ولـكنى فشلت ؛ فصاحبنا عمرو عنيد ، يلجّ فى الخصومة حتى يريد أن يُدخل مُناظره فى جُحْر ، فأثار مسألة أعقد وأدق ، إذ سأل : هل رأيك فى الأخلاق والحق كرأيك فى الجمال ، شىء نسبى ليس إلا ، أولهما وجود ذاتى خارجى ؟ وهل العلم الذى لا يؤمن إلا بالمنظور والمسموع يؤمن بشىء خارجى اسمه العدل والظلم ، أو الحق والباطل ؟ وما رأيك فى أقوال القرون الوسطى فى ذلك ؟

زيد — اهزأ بى ما شئت ، وهرّج ما أردت ، فليس يزيدنى ذلك إلا تمسكاً برأيى ، والشأن فى الفضيلة والرذيلة والحق والباطل عندى كالشأن فى الجمال والقبح . إن الإنسان أول ما واجه الأعمال الصادرة من أمثاله ، رأى أن بعض الأعمال — التى تصدر عن الناس — تسرّه وتدخل عليه اللذة فرضيها وسمّاها فضـيلة أو ما يرادف ذلك ، ورأى بعض الأعمال تؤلمه فسماها رذيلة أو ما يرادفها ، ثم أتت الأجيال بعد ذلك فنظرت إليها كأنها أشياء

خارجية لها قيم ذاتية ، فقدستها أو احتقرتها .

فكل فضيلة أو رذيلة ترجع إلى إحساسنا باللذة والألم ، فالصدق والكذب والعدل والظلم ، والشجاعة والجبن ، كل هذه رضيناها لأنها سببت لنا لذة أو ألما ، ثم نظرنا إليها كأنها أشياء مجردة تُطلَب لذاتها ، أو تتجنب لذاتها ، كشأن البخيل طلب المال أولا لأنه وجده محققاً لأغراضه ، موفياً للذاته ، ثم بمرور الزمن والاعتياد والإلف طلب المال لذاته . ولما ارتقى الإنسان واتسع أفقه أصبح يقيس اللذة والألم بمقياس الأمة والمجموع ، لا بمقياس شخصه . إنما هى على كل حال ترجع إلى شعورنا وشعور الناس باللذة والألم ، وهذا الشعور فينا وليس خارجا عنا ، وعواطفنا ومنافعنا هى التى تملى علينا الحكم بالخير والشر ، فالسعادة هى الغاية الأخيرة لا الفضيلة ، وانما الفضيلة وسيلة للسعادة . وحكمنا على الناس كذلك ، فنحن نحكم على الإنسان أنه طيب لأنه يسعدنا ويسعد مجتمعنا ، والعكس . وهذا أيضاً هو ماتتجه اليه النظريات الحديثة فى الأخلاق وعلم النفس والاجتماع ، وهذا هو العلة فى تغيّر تقويم الأخلاق باختلاف العصور والأوضاع وتغير ترتيبها فى الأهمية ، وذلك باختلاف الناس لا باختلاف الأشياء ؛ والعمل الواحد قد يكون خيراً فى موقف ، وهو نفسه قد يكون شراً فى موقف آخر ، تبعًا لأثره فى نفوس الناس ومشاعرهم باللذة والألم ، ولو كان هناك شىء خارجى اسمه الحق أو الفضيلة لم يتغير الحكم عليه !

عمرو — كلامى معك فى الحق والخلق ككلامى معك فى الجمال ، وردّى عليك ردى عليك . ان الحق والباطل والخير والشر معان مجردة لها وجود ذاتى ، بقطع النظر عن نتائجها ، ويجب أن يطلب الحق لذاته بقطع النظر عما ينتج من لذة ، ويتجنب الباطل لذاته لا لألمه ؛ شأن الخير شأن الحق ، شأن الصدق ، شأن حكاية الواقع . فاذا قلت ان قنبلة سقطت فى مكان كذا ولم تنفجر ، فهذه

حقيقة حدثت فى الوجود بقطع النظر عن نتائجها ، علم الناس بها أو لم يعلموا ، شعروا بها أو لم يشعروا ؛ وشعورنا وعدم شعورنا لا دخل له فى الموضوع ، وهذا إن وافق الواقع فهو صدق ، وإذا أخبرت به ففضيلة كائناً ما كان أثر الخبر فى نفوسنا . قد يؤلم بعضَ الناس الصدقُ وقد يلذّ بعض الناس ، ولكن هذه أعراض لا شأن لها بالموضوع فى حد ذاته ؛ ومَثَلك إذا تلذذت أو تألمت كمثل «الترمومتر» الحائطىّ الذى ذكرته ، قد يدل على درجة حرارة عشرين ، ولكن قد تكون قد شربت معرّقاً أو جريت شوطاً فتشعر أن درجة الحرارة فى الحجرة لا تقل عن أربعين ، وقد تأخذك رِعدة فترى أن درجة الحرارة يجب أن تكون صفراً ، وشعورك هذا أو ذاك لا يغير الواقع وهو أن درجة الحرارة عشرون .

ولو كان الأمر يرجع إلى الشعور بأثر العمل فقط ، ولم يكن هناك حق فى ذاته ما احتقر الباطل ولا فُضّل الفاضل ، ولكان الأمر فى الحق والخير أمر الذى يذوق الشىء فيستطعمه أو يستهجنه ، وفى ذلك خراب العالم ، وضياع الإنسانية ، بل على رأيك لم يكن فرق بين محق ومبطل ، وفاضل وسافل ، فكل يحكم على الشىء حسب شعوره ومقياسه ، وهل هذا هو ما يقوله علم نفسكم ؟

الحق — يا أخى — أن هذا ضرب من السفسطة فى أسلوب حديث ، ويجب أن يحارب هذا الاتجاه كما حارب سقراط وأفلاطون وأرسطو السوفسطائية القديمة .

إن نظركم هذا جعل الحق والفضيلة سلعة تجارية يحسب ثمنها باللذة والألم فتشترى أو تباع حسب السوق ، ولعل هذا أكبر نقطة سوداء فى مدنيتكم الحديثة ، ولإصلاحها يجب أن تكون هناك مُثُل عليا من حقائق وفضائل لها قِيَم ذاتية .

إن مثل رأيى ورأيك كمثل العالم فى معمله ، والتاجر فى تجارته ، إن العالم الحق يبحث عن الحقيقة فى ذاتها كائنة ما كانت ، وسواء عنده الشىء الصغير والشىء الكبير ، وسواء عنده فى بحثه الذهب والرصاص ، فيأتى التاجر بعد فيستغل نتيجة بحث العالِم لاستعمال الآلات والسلع وفق ما وصل إليه العلم ، ويقلبه إلى تجارة فيها كل الأخلاق التجارية .

فكذلك نحن وأنتم . نحن نبحث عن الحق حيث كان ، وفى أى حال كان ، ثم تفسدون علينا حقنا باتخاذه متجراً بالبهلوانات السياسية ، والشعوذة الأخلاقية ، وحساب الخُلُق باللذة والألم كما يحسب التاجر بضاعته بالدينار والدرهم . إن الحق لا يتعدد ولا يتغير بالاعتبارات الشخصية كالمادة أمام العالِم ، إنما تتغير السلع فى الأسواق فى نظر التاجر .

فى نظرى أن الصحراء هذه لها قيمة ذاتية ، وجمالها له قيمة ذاتية ، سواء كان مزاجك مما يلذه هذا الجمال أو لا يلذه ، ويقوّمه أو لا يقومه ، فإن قوّمه فمزاجك صحيح وجمال الصحراء حق ، وإن لم يقوّمه فمزاجك غير صحيح وجمال الصحراء حق ، أليس هذا هو الحق يا أيها السيد « زيد » ؟!

* * *

وآذنت الشمس بالغروب ، وبدأ الجو يبرد ، وحرارة الشمس تضعف ، وأخذنا نستعد للعودة ، ورأسى يكاد يتصدع ، وأضاع علىّ الصديقان لذة الصحراء وجمالها ، فآليت من يومئذ ألا أخرج إلى الصحراء ، مع فلاسفة بل شعراء .

وإلى اللقاء .

# أدب الابتهال

هذا نوع من الأدب راق جدا فى الأدب العربى ، ولكن لم يلتفت إليه مؤرخو الأدب ، أحببت عرض نماذج منه لنتبين قوته وروحانيته و بلاغته .

والابتهال فى اللغة التضرع ، والاجتهاد فى الدعاء ، والإخلاص لله فيـه ؛ ومن ثم استمد روحانيته وقوته من موقف المبتهل حيث يتجرر من شؤون الحياة الدنيا وأعراضها ومشاكلها ومشاغلها ، ويتفرغ إلى ربه ، ويناجيه ، ويسمو عن المادة وحقارتها ؛ فكان بذلك أدب روح لا أدب مادة .

وقد صدر هذا الأدب فى العصور المختلفة من عصر النبى (ص) إلى اليوم ، كلما شعر الأنسان بعجزه لجأ إلى ربه ؛ وهو موضع دراسات طريفة فى تطوره ونواحيه .

فمن ابتهالات النبى (ص) اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

ومنها :

اللهم اهدنى لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق ، لايَهدى لأحسنها إلا أنت ، وَقِنى سيئ الأعمال وسيئ الأخلاق ، لا يقى سيئها إلا أنت .

ومنها :

اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتَجْمَعُ بها أمرى ،

وتَلُمّ بها شَعَثِى[١] وتزكّى بها عملى ، وتُلهمنى بها رُشْدِى ، وترد بها ألفتى ، وتعصمنى بها من كل سوء .

ومنها :

اللهم اقْسِمْ لنا من خشيتك ما تحُول به بيننا و بين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلّغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا .

ومنها :

اللهم إنى أعوذ بك من قلبٍ لا يخشع ، ومن دعاء لا يُسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع .

ومن ابتهالات علىّ بن طالب .

اللهم إنك آنَسُ الآنِسِين لأوليائك ، وأحْضَرُهُمْ بالكفاية للمتوكلين عليك[٢] . تُشاهدهم فى سرائرهم ، وتطّلع عليهم فى ضمائرهم ، وتعلم مبلغ بصائرهم ، فأسرارهم لك مكشوفة ، وقلوبهم إليك ملهوفة ، إن أوحشتهم الغُربةُ آنَسَهُم ذِكرُك ، وإن صبّت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك ، علماً بأن أزِمَّةَ الأمور بيدك ، ومصادرَها عن قضائك . اللهم إن فَهِهْتُ عن مسألتى أو عَمِهتُ عن طِلْبتى فدلنى على مصالحى وخذ بقلبى إلى مراشدى ، فليس ذلك بنُكْرٍ من هداياتك ، ولا بدعٍ من كفاياتك ، اللهم احملنى على عفوك ، ولا تحملنى على عدلك .

ووقفت لأبى حيان التوحيدى على جملة ابتهالات فى الغاية من الجودة والحسن والقوة أنتطف منها ما يمثّلها .

---

(١) تلم بها شعثى : تجمع بها متفرق أمرى .
(٢) أى أشد النصراء حضورا بما يكفى المعتمدين عليه .

فمنها :

اللهم إنى أبرأ من الثقة إلا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم إلا لك ، ومن التفويض إلا إليك ، ومن التوكل إلا عليك ، ومن الطلب إلا منك ، ومن الرضا إلا عنك ، ومن الذل إلا فى طاعتك ، ومن الصبر إلا على بلائك ، وأسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتى ، والشكر على نعمتك شعارى ودثارى ، والنظرَ إلى ماسكوتك دَأْبى ودَيْدَنى ؛ والانقياد لك شأنى وشُغْلى ، والخوفَ منك أمْنى وإيمانى ، واللياذ بذكرك بهجتى وسرورى »

ومنها :

«اللهم إليك أرفع عُجَرِى وبُجَرِى[1] ، وبك أستعين فى عُسْرى ويسرى ، وإياك أدعو رَغَبا ورهَبا ، فإنك العالم بتسويل النفس ، وفتنة الشيطان ، وزينة الهوى ؛ وصرف الدهر ، وتلوّن الصديق ، وبائقة الثقة ، وقُنُوط القلب ، وضعف المنّة ، وسوءِ الجزع ، فقنى اللهم ذلك كلّه ، واجمع من أمرى شمله ، وانظِم من شأنى شتيته ، واحرُسْنى عند الغِنى من البطر ، وعند الفقر من الضجر ، وعند الكفاية من الغفلة ، وعند الحاجة من الحسرة ، وعند الراحة من الفُسُولة[2] ، وعند الطلب من الخيبة ، وعند المنازلة من الطغيان . وأسألك أن تجعل صدرى خِزانة توحيدك ، ولسانى مفتاح تمجيدك ، وجوارحى خدم طاعتك ، فإنه لا عز إلا فى الذل لك ، ولا غَنَى إلا فى الفقر إليك ، ولا راحة إلا فى الرضا بقَسْمك ، ولا عيش إلا فى جوار المقربين عندك » .

ومنها :

اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا ، وغِلَّ صدورنا ، وفتنة أنفسنا ، وطموح

---

(١) العجر والبجر : العيوب والأحزان وما أبدى وما أخفى .
(٢) الفسولة : ضعف المروءة .

أبصارنا ، ورَفَثِ ألسنتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا ، وفحش لجاجنا ، وقبح دَعْوانا ، وتلزُّق ظاهرنا ، وتمزُّق باطننا — اللهم فارحمنا وارأف بنا ، واقبل الميسور منا ، فإننا أهل عقوبة وأنت أهل مغفرة ، وأنت بما وصفت به نفسك أحقُّ منا بما وسمنا به أنفسنا — ومن قبلِ ذلك وبعدَه ؛ فأطِبْ عيشنا بنعمتك ، وأرح أرواحنا من كدّ الآمل فى خلْقك ، وخذ بأزمّتنا إلى بابك ، وأذقنا حلاوة قربك ، واكشف عن سرائرنا سواتر حُجُبك ، ووكِّل بنا الحفَظَة ، وارزقنا اليقظة ، حتى لا نقترف سيئة ، ولا نفارق حسنة ، إنك قائم على كل نفس بما كسبت ، وأنت بما نُخْفى وما نعلن خبير بصير .

ومنها :

اللهم أنت الظاهر الذى لا يَجْحدك جاحد إلا زايلَتْه الطُّمأنينة ، وأسلمه اليأس ، وأوحشه القنوط ، وتردَّد بين رجاء قد نأى عنه التوفيق ، وأمل قد حُفّت به الخيبة ، وسرٍّ قد أطافَ به الشقاء ، وعلانيةٍ قد أناف عليها البلاء ؛ عقله عقلٌ طائر ، ولبه لبٌ حائر ، وحكمه حكمٌ جائر ، لا يروم قَراراً إلا أُزعج عنه ، ولا يستفتح باباً إلا أُرْتِجَ دونه ، ولا يقتبس ضَرَماً إلا أُجِّج عليه ؛ عثرته موصولة بالعثْرة ، وحسرته مقرونة إلى حسرة ؛ إن سمع زَيَّف ، وإن قال حَرَّف ، وإن قضى جَزَّف ، وإن احتجّ زخرف ، ولو فاء إلى الحق لوجده ظلاً ظليلا ، وأصاب تحته مثوًى ومقيلا ... وأنت الذى فعلك يَدل عليك الأسماعَ والأبصار ، وحكمتك تُعجِّبُ منك الألباب والأسرار ، لك السلطان والمملكة ، وبيدك النجاة والهلكة ، فإليك المفرّ وممك المقر ، ومنك صنوف الإحسان والبر — أسألك بأصح سرّ ، وأكرم لفظ ، وأفصح لغة ، وأتمّ إخلاص ، وأشرف همة ، وأفضل نيّة ، وأطهر عقيدة ، وأثبت يقين ، أن تَصُدَّ عنى كل ما يَصُدُّ عنك ، وتصلَنى بكل مايصل بك ، وتحبب ألىّ كل مايحبب إليك ، فإنك الأول والثانى ، والمشار إليه فى جميع المعانى ، لا إله إلا أنت .

ومنها :

اللهم إنى أسألك جدًّا مقرونًا بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملاً عريًّا من الرياء ، وقولاً موشّحًا بالصواب ، وحالاً دائرة مع الحق ، وفطنة عقل مضروبة فى سلامة صدر ، وراحة جسم راجعة إلى رَوح بال ، وسكونَ نفس موصولاً بثبات يقين ، وصحة حجة بعيدةً من مرض شُبهة ؛ حتى تكون غايتى فى هذه الدنيا موصولةً بالأمثل فالأمثل ، وعاقبتى عندك محمودةً بالأفضل فالأفضل . حياة طيبة أنت الواعد بها ، ونعيم دائم أنت المبَلِّغ إليه . اللهم لا تخيِّبْ رجاءً هو منوط بك ، ولا تُصْفِرْ كفاً هى ممدودة إليك ، ولا تعذِّب عينا فتحتُها بنعمتك ، ولا تذل نفسا هى عزيزة بمعرفتك ، ولا تسلب عقلا هو مستضىء بنور هدايتك ، ولا تُخرسْ لسانًا عوّدته الثناء عليك ؛ فكما كنت أوّلا بالتفضل فكن آخراً بالإحسان ، الناصية بيدك ، والوجه عانٍ لك ، والخير متوقع منك ، والمصير على كل حال إليك ؛ ألبِسْنِى فى هذه الحياة البائدة ثوب العصمة وحَلِّنى فى تلك الدار الباقية بزينة الأمن ، إنك على ذلك قدير .

ومنها :

اللهم أعذْنا من جشع الفقر ، وريبة المنافق ، وتجليح[1] المعاند ، وطيشة التحول ، وفترة الكسلان ، وحيلة المستبد ، وفتور العقل ، وحيْرة المَخْرَج ، وحَسْرَة المَحْوج ، وفَلْتة الذهول ، وحُرْقة الثَّكول ، ورِقْبة الخائف وطُمَأْنينة المغرور ، وغفلة الغرور ، واكفنا مؤنة أخٍ يَرْصُد مسكونًا إليه ، ويمكرُ موثوقا به ويَخِيس[2] مُعتمداً عليه — وغلِّبْ إيماننا بالغيب على يقيننا بالعِيان ، واحرسنا من أنفسنا فإنها ينابيع الشهوة ومفاتيح البلوى ، وأرنا من قدرتك ما يحفظ

---

(١) التجليح : المكابرة .

(٢) يخيس : يكذب .

علينا هيبتك ، وأوضِح لنا من حكمتك ما يقلبنا فى ملكوتك ، وأشعّ فى صدورنا من نورك ما يتجلى به حقائق توحيدك — وألِّفْ بيننا وبين الحق ، وقرّبنا من معادن الصدق ، واعصمنا من بوائق الخلْق — اللهم إنك بدأت الصنع وأنت أهله ، فعد بالتوفيق فإنك أهله .

ومنها :

اللهم إياك أسأل لساناً سمحاً بالصدق ، وصدراً قد ملىء من الحق ، اللهم أشكو إليك تلهفى على ما يفوتنى من الدنيا وأننى فى طاعة الهوى جاهلا بحقك ، ساهيا عن واجبك ، اللهم إليك المفر من دار منهومُها لا يشبع ، وحائمها لا ينقع [1] وطالبها لا يَرْبَع [2] ، وواجدها لا يقنع — اللهم انقلنا عن مواطن العجز ، مرتقياً بنا إلى شُرُفات العزّ ، فقد استحوذ الشيطان ، وخَبُثت النفس وساءت العادة ، وكثر الصادفون عنك ، وقلّ الداعون إليك ، وكلّ المراعون لأمرك ، وفُقد الواقفون عند حدودك ، وخلَتْ ديار الحق من سكانها ، وبيع دينك بيع الخَلَق [3] واستُهْزِئ بناشر مجدك ، وأُقصى المتوسل بك ؛ اللهم فأعد نضارة دينك ، وأفض بين خلقك بركات إحسانك ، واقمع ذوى الاعتراض عليك ، واهتك أستار الهاتكين لستر دينك — اللهم إنى أسألك أن تخصنى بإلهام أقتبس الحق منه ، وتوفيق يصحبنى وأصحبه ، ولطف لا يغيب عنى ولا أغيب عنه ، حتى أقول لوجهك ، وأسكت — إذا سكتُّ — بأذنك ، وأُبين إذا أبنت بحجتك ، وأعبُد إذا عبدت مخلصاً لك ، وإذا مت أموت منتقلا إليك . اللهم فلا تكلنى إلى غيرك ، ولا تؤيسنى من فضلك .

---

(١) حائمها لا ينقع : شاربها لا يروى .
(٢) لا يقف ولا ينتظر .
(٣) الثوب البالى .

ومنها :

اللهم قيض لنا فرجا من عنــدك ، وأتح لنا مخلصاً إليك ، فإنا قد تعبنا بخلقك ، وعجزنا عن تقويمهم لك ، ونحن إلى مقاربتهم فى مخالفتك أقرب منا إلى منابذتهم فى موافقتك ، لأنه لا طاقة لنا بدهمائهم ، ولا حيلة لنا فى شفائهم .

اللهم تولنا فيما وليتنا حتى لا نتولى عنك ، وآمِنّا مما خوفتنا حتى نقر معك ، وأوسعنا رحمتك حتى نطمئن إلى ما وعدتنا ، وفرّق بيننا وبين الغِل حتى لا نعامل به خلقك ، وأغثنا بك حتى لا نفتقر إلى عبادك ، فإنك إذا يسرت أمراً تيسر ، ومهما بلوتنا فلا تبتلُنـا بهجرك ، ولا تجرّعنا مرارة سخطك ، قد اعترفنا بربوبيتك عبودية لك فعرّفنا حقيقتها بالعفو عنا ؛ والإقبـال علينا ، والرفق بنا يا رحيم .

* * *

هذا قليل من كثير مما فى الأدب العربى من هذا الباب ، وهى كما ترى تتدفق قوة وتفيض روحانية وتسمو معنى ، إلى رصانة بلاغية ، وموسيقى دينية . فلو عنى بها مؤرخو الأدب كما عنوا بالأدب المادى من الغزل ، والمديح ، والفخر ، والهجاء ، لظهر الأدب العربى بصورته الكاملة من مادة وعقل ، وشهوة وروح ! ولعلى أعود بعدُ إلى هذا الموضوع .

# محمد ربّ بيت

فكرة باطلة سادت أفكار بعض الناس فى معنى « الرسالة » ، نخلع بعضهم عليها أحيانا بعض أوصاف الألوهية ، وأحياناً بعض أوصاف الرهبانية ، من مبدأ البعثة إلى اليوم ، وكان النبي (ص) يحارب هذه الفكرة كما يحارب الألحاد ويعلن ويكرر فى كل مناسبة أنه « بشرٌ رسول » لا « ملَكٌ رسول » .

من مبدأ البعثة اجتمعت صناديد قريش بمكة فقالوا لمحمد « لقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً ولا أقل مالا ولا أشد عيشاً منا ، فسل ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسيّر عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسطْ لنا بلادنا ، وليفجرْ فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ، فإن لم تفعل فسل ربك أن يبعث مَلَكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، ولتسأله فيجعل لك جنانا وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ، ويغنيك عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا ، فإن لم تفعل فاتخذ إلى السماء سُلّما ترقى فيه وتأتى معك بنسخة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول » .

فقال محمد : سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا .

لقد أخطئوا إذ نسوا أنه بشر لا يقدر على الإتيان بهذه الأشياء ولا يستطيع اقتراحها لما فيها من التعنت والتحكم ، وليس للرسول أن يتحكم على الله فيطالب منه خرق قوانينه التى أدار عليها ملكه .

وخطأ آخر مثله وقع فيه بعض المسلمين إذ خلعوا عليه بعض أوصاف الرهبانية ، فقد روى فى الحديث أن بعضهم كان يسأل عائشة ماذا كان يفعل رسول الله فى بيته ظانين تبتله ، فكانت تجيبهم أنه يفعل فى بيته ما يفعله الرجل الكريم بأهله «وسألها رجل ما كان رسول الله يصنع فى أهله ، قالت كان فى مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة» .

وجاء ثلاثة نفر إلى بيوت أزواج النبي فقال أحدهم إنى أصلى الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال ثالث : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فقال عليه الصلاة والسلام : «أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى» .

لقد كان محمد إنسانا يأكل ويشرب ويمشى فى الأسواق ويتاجر ويتزوج ، وكان رسولا عرف الله ودعا إليه ، اختارته العناية الإلهية ليكون سفيراً بين الله وخلقه ، فله جانبه الإنسانى فهو يضرب فى الأرض يسعى ويكد ، وتتوارد عليه العواطف الإنسانية ، وله جانب روحانى يتصل فيه بربه ، ويتلقى رسالته ويبلغها خلقه ، يحيى كما يحيى الناس ويجرى عليه حكم الموت كما يجرى على الناس ، ويتصل بالله كما يتصل الرسل ، ويؤدى رسالته كما يؤدى الرسل ، فمن زعم أنه فوق قوانين البشر فقد أخطأ ، ومن جحد رسالته فقد أخطأ .

وهو فى أداء رسالته أمين معصوم ، وهو فى انسانيته يفعل ما يفعل الرجل الكامل ، يتطلب معالى الأمور ويترفع عن سفسافها ، وينشد المثل الأعلى ، ويتجمل بالمروءة ، ويشعر بعظم التبعة ، وتطهرُ نفسه فلا يتصنع ، ويفعل فى السر ما يفعله فى العلانية ، ويملؤه الشعور بأن الله خالقه وأن الله يراه ، وأن الله يأمره وينهاه ، فيأتى ما يأتى من الخير ، ويدر ما يذر من الشر لا رغبة ولا رهبة ، ولكن حباً فى الله ، ومن أحب أطاع — فكان المثلَ الأعلى للناس فى جانبه

الإنسانى ، وجانبه الروحانى ، فى معاملته وفى بيته وفى دعوته ، وفى عبادته ، وفى تضحيته ، وفى إخلاصه .

* * *

لقد كان لمحمد (ص) بيت فى مكة قبل الهجرة ، و بيت فى المدينة بعد الهجرة ، والبيتان مختلفان فى مظاهرهما .

ففى مكة ظل من غير زواج إلى الخامسة والعشرين ، وهى سن متأخرة بالنسبة لحالة العرب الاجتماعية إذ ذاك ، ولـكن دعا إلى هذا التأخير فقره ، وما الفقر بعيب ، فلما أتيح له الزواج تزوج ، وكان الزواج مؤسساً على أساس صحيح ، من معرفة الزوج للزوجة فى خُلُقها وخلقها ونسبها ، وكانت الزوجة تعرف زوجها كذلك ، فأحر أن يكون هـذا الزواج موفقاً ، لقد عرفت خديجة محمداً فى تجارتها ، وكانت تبعث بالرجال يتاجرون لها بالمال فى الشام كما يفعل أغنياء قريش ، فبعثت محمداً فى ذلك فعرفها وعرفته بعد أن سمعت به وسمع بها ، وخبر كلٌّ حال الآخر عن قرب ، ثم كان أن عرضت عليه أن يتزوجها بعد أن خطبها كثير من رجال قريش فأبت عليهم ، ولعلها قرأت فيهم الطمع فى مالها ورأت فيه التعفف عن مالها ، كما كانت من أولئك النساء القلائل اللائى يقرأن المعانى فى الرجل أكثر مما يقرأن المادة والمظاهر ، « فأرسلت إليه نفيسة بنت أمية » دسيساً إليه ، فقالت له ما يمنعك أن تتزوج ؟ قال ما فى يدى شىء . قالت : فإن كُفِيتَ ودعيت إلى المال والجمال والـكفاءة ؟ قال فمن ؟ قالت : خديجة ، فأجاب .

كانت خديجة امرأة مكتملة ، فى الأربعين من عمرها من قريش أماً وأباً ، تزوجت فى شبابها رجلا من خيار بنى تميم اسمه أبو هالة فولدت منـه ابنين هما هند وهالة ، ثم مات عنها فتزوجها قرشى اسمه عتيق بن عابد فولدت له بنتاً اسمها هند ثم مات عنها كذلك ، وقد عاش الثلاثة ، ولعل مالها جاءها من قِبَل زوجيها

فكانت ذات مال وذات تجارة فى حياة أبيها .

ثم تزوجت محمداً فى الخامسة والعشرين من عمره .

***

فى بيت ، فى حى التجار بمكة ، كانت تسكن هذه الأسرة خديجة وأولادها الثلاثة ومحمد ، وصبى صغير كانت اشتدت الأزمة بأبيه ، فرجاه أهله أن يأخذوا عنه بعض أولاده يعينونه فى تربيتهم فأخذ محمد أحدهم ، وكان هذا الصبى علىّ ابن أبى طالب ، كما كان يسكنه مولى لهم هو زيد بن حارثة ، فتعادل البيت بصبيانها وصبيه ، وتعادل الكسب بمالها وعمله ، وظل هذا البيت سعيداً خمسة وعشرين عاماً ، يتبادل فيه الزوجان الحب والألفة والتعاون ، فلم نسمع مرة بخلاف ولا مشادة ولا غضب ، رزقت منه بأولاد لم يعش منهم إلا بنات أربع ، ربين فى هذا الوسط الوادع السعيد . وقد اعتاد العرب فى هذا الزمن أن يعددوا زوجاتهم ، وخاصة فى سنى شبابهم ، ولم يعدوه عيباً ، ولا تعده النساء كذلك ، ولكن محمداً لم يفعل هذا حباً فى خديجة وحرصاً على رضاها ، ولأنه يشعر أنه مهيأ لأمر عظيم يتطلب التقلل من مشاغل الدنيا .

كان يشغله التفكير فى أمر قومه ، وضلالهم فى عبادتهم ، وفساد نظامهم ، وكان مقتنعاً كل الاقتناع بأن ما عليه قومه ضلال لا شك فيه ، وما يعبدونه باطل لا محالة ، ولكن ما هو الحق ؟

وكانت تبدو عليه نزعة دينية حائرة تتلمس الحق وتصبو إليه ، وكان يبث خديجة كل ذلك فتفهمه وتشجعه وتعينه ، ولقد شوهدا ومعهما علىّ فى الكعبة يعبدون الله على نحو خاص غير ما تفعله قريش ، كان هذا يملك عليه نفسه ، فكانت خديجة له أكبر عون ، فلما حببت إليه العزلة ، ورأى أن يُمضى فى عزلته الليالى فى غار حِراء كانت هى التى تُعد له زاده ، وتفهم نفسه وتعينه على غرضه ،

ولما جاءه الوحى لأول مرة ورجع إلى خديجة يرجف فؤاده ، كانت هى التى دثرته وأذهبت روعه وأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان رجلا متنصراً عالماً بالأديان فطمأنه أنه الوحى ، فكانت أول إنسان آمن برسالته وصدّقه فى قوله لأنها رأت منه مالم يره أحد ، رأته فى بيته على فطرته وسجيته فلم تقع منه على كذبة ، ولم تقف منه على رياء ، ولا يعرف أحد أحدا كما يعرفه أهل بيته ، فهناك المظهر الحقيقى والإنسان على سجيته ، ورأت مقدمات الوحى خطوة خطوة فسهل إيمانها بالنتيجة — ولا تسل عن عظمة هذا الموقف يوم يتجلى للعظيم الحق فيجد فى الوجود إنسانا بجانبه يؤيده ويثبته .

ثم لما أعلن الدعوة لقومه ولقى منهم شر أنواع العنت كانت هى التى تخفف بحديثها وأسلوبها كربه وتؤنس وحشته ، قال ابن اسحق كان (ص) لا يسمع شيئا يكرهه مِنْ رَدٍّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بخديجة ، إذا رجع تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهوّن عليه أمر الناس » ، وكان من فضل الله أن كانت بجانبه العشر السنين الأولى من الدعوة وهى أشق السنوات عناء وجهادا وكفاحا .

لذلك لم يكنّ محمد (ص) من الحب والوفاء والتقدير والإعظام لأحد ما أكنه لزوجته خديجة ، فلما قالت له عائشة قد رزقك الله خيرا منها ، قال لا والله ما رزقنى الله خيرا منها ، آمنت بى حين كفر بى الناس ، وصدقتنى حين كذبنى الناس ، وأعطتنى مالها حين حرمنى الناس » .

ولما توفيت فى الخامسة والستين من عمرها فى العام الذى توفى فيه عمه أبو طالب سمى العام «عام الحزن» وكان شديد الحنين إليها والذكرى لها فكان من حين إلى حين يبعث بعض الهدايا إلى صديقاتها ، إحياء لذكرها ، ودخلت عليه مرة — وهو بالمدينة — أختها هالة ، وكان رسول الله نائما فلما سمع صوتها انتبه

من نومه لفوره وقال : هالة هالة هالة ! ترحيبا بها ، وهياما بذكر أختها ، وإعظاما لأحب الناس إليه .

***

أما فى المدينة فقد كان لبيت محمد (ص) شأن آخر ، لقد دعاه موقفه فى الدعوة ، وتأييدها بالمصاهرة والنسب ، وطبيعة الحالة الاجتماعية فى عصره ، وظروف كثيرة — ليس هذا موضع ذكرها — إلى أن يعدد زوجاته ، هذه عائشة بنت صاحبه أبى بكر ، وهذه حفصة بنت صاحبه عمر ، وهذه أم حبيبة بنت أبى سفيان زعيم قريش ، وهذه صفية بنت حُيى بن أخطب سيدة قومها من يهود بنى النَّضِير ، وهذه زينب بنت جحش مطلقة مولاه ومتبناه زيد بن حارثة ؛ وعلى الجملة فكن خمس قرشيات وأربع عربيات من غير قريش ، بين هلالية وخزامية وأسدية وواحدة من بنى إسرائيل ، فكان سبب الزواج أحيانا تأليف قوم ، أو توثيق رابطة ، أو تشريعا جديدا يخالف ما كان عليه العرب ، أو عطفا على أيّم مات عنها زوجها فى جهاد فى الإسلام .

وكان النساء فى المدينة غير النساء فى مكة ، فهن فى مكة مضغوط عليهن ، مستسلمات لأزواجهن ، من العار أن يرددن لهم قولا ، بحكم بأس رجال قريش وشدتهم وسطوتهم ، وعلى العكس من ذلك نساء المدينة ، فلهن قسط وافر من الحرية ، يراجعن أزواجهن ، ولهن رأى يسمع ، ومطالب تجاب ، واستتبع هذا شيئا آخر وهو غلبة الجد الدائم على رجال قريش ونسائهم ، وحب الفرح والمرح فى نساء المدينة ورجالها ، فى الحديث أن عمر بن الخطاب قال « كنا معشر قريش قوما نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم » وفيه : أن عائشة زَفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال النبى : أما كان معكم لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو . وتعليل ذلك من الوجهة الاجتماعية يطول .

أفرد رسول الله لكل زوجة بيتا ، ومع هـذا فالعواطف الطبيعية للنساء لا يمكن محوها ، ولا من الخير زوالها ، والإنسان إنسان مهما كان ، كل منهن كان يحرص أن يكون له من رسول الله أكبر نصيب فى حبه ، وكل تغار إن شعرت بعطف أكبر على ضراتها ، وكل يحاسب على النظرة والابتسامة ، ولكلٍّ نوع من المزايا تُدل بها ، وأخيرا انقسمن إلى حزبين : حزب فيه عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وصفية وسودة ، وحزب فيه أم سلمة وزينب وميمونة وأم حبيبة بنت أبى سفيان وجويرية .

ثم مشكلة أخرى طبيعية ، فعائشـة أحب زوجة إلى رسول الله لمزاياها ، وفاطمة بنته من خديجة ، وطبيعى ما يكون بين البنت ماتت أمها وتزوج أبوها غيرها و بين زوجة أبيها ، ويزيد ذلك فى نفس الزوجة الجديدة أنها لم تلد ، والبنت تزوجت وولدت ، والرسول يحب زوجه ويحب بنته ويحب أولاد بنته .

هذه كلها مشاكل مستعصية ، ما كان يمكن التغلب عليها والمعيشة الهانئة معها لولا حكمة من الرسول فوق كل حكمة ، وكان من نعم الله حدوث هذه المشاكل وظهورها ، فقد استوجبت من التشريع الإسلامى قدرا كبيرا وكان هؤلاء الزوجات — وخاصة عائشة — مدارس يتلقى فيها الصحابة والتابعون علمهم عنهن «واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحـكمة» فيروون الأحاديث فى مختلف الموضوعات من علمهن ، ويحكين لهم ما شاهدن وما سمعن ، وما تصرف فيه الرسول من مشاكل وأحداث أمام أعينهن ، وأدبه فيما بينهن ، حتى قيل أن ربع الأحكام الشرعية مأخوذ عن عائشة ، ورُوى لها فى كتب الصحاح ألفان ومائتا حديث ، قال لها عروة يوما : يا أمَّاه ! لا أعجب من فقهك أقول زوجة رسول الله ، ولا أعجب من علمك بالشـعر وأيام الناس أقول ابنة أبى بكر ، وكان من أعلم الناس بذلك ، ولـكن أعجب من علمك بالطب كيف هو وأين هو ؟ قالت : أىْ عُرَيّة ! إن

رسول الله كثرت أسقامه عند آخر عمره ، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات فكنت أعالجها ، فمن ثمّ .

عدَل بينهن فى المعاملة على أدق وجه ، واعتذر من عدم العدل بينهن فى الحب فإنه لا يملكه وقال : « اللهم هذا قَسْمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » وكان إذا صلى العصر زار نساءه جميعا وتحدث لكل منهن ثم بات فى بيت من لها الليلة وأحيانا يجتمعن فى بيتها ، وإذا خرج إلى سفر أقرع بينهن فأيتهن خرج سهمها خرج بها .

إلى أسلوب فى المعاملة ظريف وعط فى المعاشرة لطيف ، يلعب الأحابيش فتحب عائشة أن ترى لعبهم فتستند على منكب النبى فلا يسأم حتى تسأم ، ويسابقها فتسبقه حتى إذا سمنت سابقها فسبقها فقال هذه بتلك ، ويقول : « إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلقا وألطفهم بأهله » وكان اليوم يوم عيد فدخل أبو بكر على عائشة فوجد عندها جاريتين تضربان بالدف ، فانتهرهما أبو بكر فقال رسول الله دعهن يا أبا بكر فإنها أيام عيد .

ويحب الأطفال ويقبلهم ويلاعبهم ويجلسهم فى حجره ويأتى أعرابى بدوى فيقول يا رسول الله أتقبّل الصبيان ؟ والله ما نقبلهم ، فيقول رسول الله ما أملك أن الله نزع من قلبك الرحمة .

***

أزمة كانت تستيقظ من حين لآخر فوضع لها حدا حاسما . كان رسولا وكان مثلا للناس ، وفهم رسالته حق الفهم ، أتى ليبلغ عن الله رسالته ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويدعو إلى الخير ويحذر من الشر ، وليست رسالته أن يجمع ثورة أو يؤسس لنفسه ملكا ، ولا يتأتى أن يؤدى رسالته على أكمل وجه حتى يزهد فى المال وعرض الحياة . ولو التفت إلى المال لم يُطَع هذه الطاعة ، ولا أجيب

هذه الإجابة ، ولالتفت الأتباع إلى المال ، ولم يأبهوا للدعوة ، ولفات على الناس درس التضحية ، ولذلت نفوس الفقراء واضطغنوها فى أنفسهم ، وما أكثرهم ، ولعز الأغنياء فى الدين بغناهم لا بتقواهم ، إذن فليتخل عن كل مظاهر الدنيا والترف فى العيش ، وليعش عيشة أبسط رجل ؛ وكذلك كان ، فلم يمتلئ جوفه شبعا ، ويبيت بعض الليالى طاويا ، ويمر الشهر ما يستوقد أهله نارا ، يعيشون على التمر والماء ، ولا يرون الرغيف المرقق ولا الشاة السميط ، ويموت ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعا من شعير ، ويأتيه مال مرة من الغزو فيقسمه ألف بعير على أربعة أنفس ، ويسوق مائة بدنة فينحرها ويطعمها المساكين ولم يدخر لأهله شيئا ، فكان فقره إيثارا لا عوزا .

لو كان الشأن شأن نفسه فقط لهان الأمر ، عظيم يضحى لربه ولدعوته فيجد من سعادة التضحية أضعاف ما يجد الشحيح بماله وترفه ، ولكن ما شأن زوجاته ولم يبلغن فى السمو سموه ، ولا يفهمن المثل فهمه ، ولا يشعرن بالتبعة شعوره — هاهن أولاء يطلبن شيئا من السعة فى العيش ، وشيئا من النعيم الذى ينعم به حتى صغار المسلمين ، وهو يردهن ردا جميلا ، فلما كثر الطلب واشتد الالحاح كان الموقف الحاسم « يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن (١) وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » ، فبدأ يخير النساء بين الطلاق والعيشة التى تتفق ودعوته ، وبدأ بعائشة فاختارت ربها ورسوله وكذلك فعل سائر نسائه ، وحسم الأمر ووطن أنفسهن على الصبر ، وكان لهن فى رسول الله أسوة .

وتوفى رسول الله وظل نساؤه أمهات المؤمنين يرجعون إليهم فى المشاكل ، ويستفتونهن فيما دق من مسائل ، يأخذ عنهن مؤرخو السيرة تاريخهم ، والمحدثون

(١) أمتعكن أعطكن متعة الطلاق .

حديثهم ، والفقهاء فقههم ، هذه عائشة يروى عنها عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وأبو هريرة وأبو موسى وابن عباس ، ومن التابعين سعيد بن المسيب ، وعلقمة بن قيس ، وآخرون كثيرون ، وقد عمرت حتى بلغت السادسة والستين ، وتوفيت فى عهد معاوية بعد أن كانت مرجع الناس فى الفتيا ، وخاصة فى أدق المسائل الزوجية بما استفادت من رسول الله ، وكذلك كانت حفصة بنت عمر رويت عنها الأحاديث الكثيرة وإن لم تبلغ مبلغ عائشة ، وكان يروى عنها أهل بيتها كأخيها عبد الله وابنه حمزة وزوجته صفية ، وعمرت إلى أن بلغت الستين ، وماتت كذلك فى خلافة معاوية ، وعمرت أم سلمة إلى أن بلغت الرابعة والثمانين ، وكانت آخر أمهات المؤمنين موتا ، وهكذا ، فكان حول كل منهن تلاميذ من أهلها وأقاربها وغيرهم يروون عنهن ، ويأخذون عنهن آراءهن فيما حدث من الفتن العظام بعد مقتل عثمان ، ولم ينسين أبداً درس الزهد وبساطة العيش وبذل المال كما علمهن رسول الله ، فقد فُرض لهن الفرض العظيم بعد الفتوح فكن يتصدقن به ولا يدخرن منه ، هذه عائشة أتاها مائة ألف درهم ففرقتها فى يومها وكانت صائمة ولم تتذكر أن تشترى لحما بدراهم تفطر عليه ، وهذه زينب بنت جحش كانت مع ما يأتيها من عطائها صَنَاع اليدين تصنع بيدها وتخيط ، وتتصدق بكل ذلك فى سبيل الله ، ووصفتها عائشة ضرتها فقالت : « لم تكن امرأة خيراً منها فى الدين ، وأتقى لله ، وأصدق حديثاً ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى تتصدق به ويقربها إلى الله » .

صلوات الله عليه وعليهن أجمعين .

ثلاث رسائل للمؤلف

١ – عكاظ والمربد

٢ – ثقافة الجاحظ

٣ – الفتوة في الإسلام

# عُكَاظ والمِرْبَد

من أبعد الأماكن أثراً فى الحياة العربية عكاظ والمربد ، وقد كان أثرهما كبيراً من نواح متعددة : من الناحية الاقتصادية ومن الناحية الاجتماعية ومن الناحية الأدبية ، ودراستهما تضىء لنا أشياء كثيرة فى تاريخ العرب .

ولكن يظهر لى أنه لم يعن بهما العناية اللائقة ، فلا نرى فيما بين أيدينا إلا كلمات قليلة منثورة فى الكتب يصعب على الباحث أن يصور منها صورة تامة أو شبهها ، ومع هذا فسنبدأ فى هذه الكلمة بشىء من المحاولة فى توضيح أثرهما وخاصة من الناحية الأدبية .

## عكاظ

فى الجنوب الشرقى من مكة ، وعلى بعد نحو عشرة أميال من الطائف ، ونحو ثلاثين ميلا من مكة ؛ مكان منبسط فى واد فسيح به نخل وبه ماء وبه صخور ، يسمى هذا المكان « عكاظ » ، وكانت تقام به سوق سنوية تسمى « سوق عكاظ » وقد اختلف اللغويون فى اشتقاق الكلمة ، فقال بعضهم : اشتقت من « تعكَّظ القوم » إذا تحبسوا لينظروا فى أمورهم ، وقال غيرهم : سميت عكاظاً لأن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً بالمفاخرة ، أى يعركه ويقهره ، كما اختلفت القبائل فى صرفها وعدم صرفها ؛ فالحجازيون يصرفونها وتميم لا تصرفها ، وعلى اللغتين ورد الشعر :

قال دريد بن الصِّمَّة : « تغيبْتُ عن يومَىْ عكاظَ كليهما »

وقال أبو ذؤيب :

إذا بُنِى القِبابُ على عكاظٍ وقام البيعُ واجتمع الألوف

***

وكان للعرب أسواق كثيرة محلية كسوق صنعاء ، وسوق حضرموت ، وسوق صُحَار ، وسوق الشِّحْر ، لايجتمع فيها – غالباً – إلا أهلها وأقرب الناس إليها . وبجانب هذه الأسواق الخاصة أسواق عامة لقبائل العرب جميعاً ، أهمها : سوق عكاظ ، وسبب عمومها وأهميتها على ما يظهر :

( ١ ) أن موعد انعقادها كان قبيل الحج ، وهى قريبة من مكة وبها الكعبة ، فمن أراد الحج من جميع قبائل العرب سهل عليه أن يجمع بين الغرض التجارى والاجتماعى بغشيانه عكاظ قبل الحج ، وبين الغرض الدينى بالحج .

( ٢ ) ان موسم السوق كان فى شهر من الأشهر الحرم — على قول اكثر المؤرخين[١] « والعرب كانت ( فى الشهر الحرام ) لا تقرع الأسنة ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يهيجه تعظيما له ، وتسمى مضر الشهر الحرام الأصم لسكون أصوات السلاح وقعقعته فيه[٢] » وفى انعقاد السوق فى الشهر الحرام مزية واضحة ، وهى أن يأمن التجار فيه على أرواحهم ، وإن كانوا أحياناً قد انتهكوا حرمة الشهر الحرام فاقتتلوا ، كالذى روى فى الأخبار عن حروب الفِجَار كما سيجىء ، ولكن — على العموم — كان القتل فى هذا الشهر مستهجناً ، قال ابن هشام : « أتى آت قريشاً فقال إن البَرَّاض قد قتل عروة وهم فى الشهر الحرام بعكاظ ، الخ[٣] وقد قال ذلك استعظاما لقتله .

---

( ١ ) الأشهر الحرم هى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم .

( ٢ ) تفسير الطبرى ٢ : ٢٠١ ولشدة تعظيمها له قيل له رجب مضر ولم يكن يستحله إلا حيَّان خثعم وطىء — الأزمنة والأمكنة ١ : ٩٠ .

( ٣ ) سيرة ابن هشام طبع أوربا ١١٨ .

« فكان يأتى عكاظ قريش وهَوازِن وغَطَفان والأحابيش وطوائف من أفناء العرب »[١] وكانت كل قبيلة تنزل فى مكان خاص من السوق ، ففى الخبر أن رسول الله ذهب مع عمه العباس إلى عكاظ ليريه العباس منازل الأحياء فيها[٢] ويروى كذلك أن رسول الله جاء كندة فى منازلهم بعكاظ[٣] .

---

بل كان يشترك فى سوق عكاظ اليمنيون والحِيريون ، يقول المرزوقى « كان فى عكاظ أشياء ليست فى أسواق العرب ؛ كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والحُلّة الحسنة والمركوب الفاره فيقف بها وينادى عليه ليأخذه أعز العرب ، يراد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته[٤] » . ويروى ابن الأثير عن أبى عبيدة « أن النعمان ابن المنذر لما ملكه كسرى أبرويز على الحِيرة كان النعمان يجهز كل عام لطيمة — وهى التجارة — لتباع بعكاظ » .

فترى من هذا أن بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها كانت تشترك فى سوق عكاظ .

واختلفت الأقوال فى موعد انعقادها ، وأكثرها على أنه فى ذى القعدة من أوله إلى عشرين منه ، أو من نصفه إلى آخره ، قال الأزرقى فى تاريخ مكة : « فإذا كان الحج . . . خرج الناس إلى مواسمهم فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذى القعدة ، فيقيمون به عشرين ليلة ، تقوم فيها أسواقهم بعكاظ والناس على مداعيهم وراياتهم ، منحازين فى المنازل ، تضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها ، ويدخل بعضهم فى بعض للبيع والشراء ، ويجتمعون فى بطن السوق فإذا مضت العشرون

---

(١) الأزمنة والأمكنة طبع الهند للمرزوقى ٢ : ١٦٥ .
(٢) دلائل النبوة لأبى نعيم طبع الهند ص ١٠٥ .
(٣) دلائل النبوة ١٠١ ، ١٠٢ (٤) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦٥ .

انصرفوا إلى مَجَنّة فأقاموا بها عشراً ، أسواقهم قائمة ، فإذا رأوا هلال ذى الحجة انصرفوا إلى ذى المجاز ، ثم إلى عرفة وكانت قريش وغيرها من العرب تقول : «لاتحضروا سوق عكاظ والمَجَنّة وذى المجاز إلا محرمين بالحج» ، وكانوا يُعْظمون أن يأتوا شيئاً من المحارم أو يعدوا بعضهم على بعض فى الأشهر الحرم وفى الحرم(١) .

***

**وظيفته** : كان سوق عكاظ يقوم بوظائف شتى فهو — أول كل شىء — متجر تعرض فيه السلع على اختلاف أنواعها ، يعرض فيه الادَم والحرير والوكاء والحذاء والبرود من العَصْب والوشى والمُسَيَّر والعَدَنى(٢) ويباع به الرقيق(٣) ويعرض فيه كل سلعة عزيزة وغير عزيزة ، فما يهديه الملوك يباع بسوق عكاظ(٤) ويتقاتل ابن الخِمْس مع الحارث بن ظالم فيقتله ابن الخمس ويأخذ سيف الحارث يعرضه للبيع فى عكاظ(٥) وعَبْلة بنت عبيد بن خالد يبعثها زوجها بأنحاء سمن تبيعها له بعكاظ(٦) .

ونسبوا إلى عكاظ فقالوا أديم عكاظى أى مما يباع فى عكاظ(٧) .

ولم تكن العروض التى تعرض فى سوق عكاظ قاصرة على منتجات جزيرة العرب ، فالنعمان يبعث إلى سوق عكاظ بمتجر من حاصلات الحِيرة وفارس لتباع به ويشترى بثمنها حاصلات أخرى(٨) ، بل كان يباع فى عكاظ سِلَع من مصر والشام والعراق ، فيروى المرزوقى أنه قبل المبعث بخمس سنين حضر السوق من

(١) أخبار مكة للازرقى ص ١٣٢ .
(٢) الأغانى ١٩ : ٧٣ — ٨٢ (٣) تاريخ الطبرى جزء ٣ ص ٢٢٩٨
(٤) الأغانى ١٠ : ٩ (٥) الأغانى ١٠ ص ٢٩
(٦) الأغانى ١ : ٨٤
(٧) ما يعول عليه فى المضاف والمضاف إليه نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٧٨ أدب .
(٨) الأغانى ١٦ ص ٧٣ — ٨٣

نزار واليمن ما لم يروا أنه حضر مثله فى سائر السنين ، فباع الناس ما كان معهم من إبل و بقر ونقد وابتاعوا أمتعة مصر والشام والعراق (١) .

وكان السوق يقوم بأعمال مختلفة اجتماعية إلى جانب أعماله التجارية ، فمن كانت له خصومة عظيمة انتظر موسم عكاظ « كانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ ، فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر فيقول : ألا إن فلان ابن فلان غدر ، فاعرفوا وجهه ولا تصاهروه ولا تجالسوه ولا تسمعوا منه قولا ، فإن أعتب وإلا جعل له مثل مثاله فى رمح فنصب بعكاظ فلعن ورجم ، وهو قول الشَّمَّاخ .

ذَعَرْتُ به القطَا ونَفَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذِّئْبِ كالرَّجُلِ اللَّعِينِ

ومن كان له دَين على آخر أنظره إلى عكاظ (٢) .

ومن كان له حاجة استصرخ القبائل بعكاظ كالذى حكى الأصفهانى أن رجلا من هَوَازن أسر فاستغاث أخوه بقوم فلم يغيثوه فركب إلى موسم عكاظ وأتى منازل مَذْحِج يستصرخهم (٣) .

وكثيراً ما يتخذ السوق وسيلة للخِطْبة والزواج ، فيروى الأغانى أنه اجتمع يزيد بن عبد المَدَان وعامر بن الطفَيل بموسم عكاظ ، وقدم أمية بن الأسكر الكنانى وتبعته ابنة له من أجمل أهل زمانها ، فخطبها يزيد وعامر ، فتردد أبوها بينهما ، ففخر كل منهما بقومه ، وعدَّد فعالهم فى قصائد ذكرها (٤) . فزوجها أبوها ليزيد .

ومن كان صعلوكا فاجراً خلعته قبيلته — إن شاءت — بسوق عكاظ

---

(١) الأزمنه والأمكنة ٢ : ١٦٨

(٢) الكامل لابن الأثير ١ : ٢٤٦ (٣) الأغانى ١٠ / ١٤٨ وما بعدها

(٤) انظر الحكاية بطولها فى الأغانى ١٠ / ١٤٥

وتبرأت منه ومن فعاله ، كالذى فعلت خُزَاعة ، خلعت قيس بن مُنْقِذ بسوق عكاظ ، وأشهدت على نفسها بخلعها إياه ، وأنها لا تحتمل له جريرة ، ولا تطالِب بجريرة يجرها أحد عليه (١) .

وقد يتفاخر الرجلان من قبيلتين فيفخر كل بقبيلته ومكارمها ، فيتحاكمان إلى حَكَم عكاظ ، كما فعل رجل من قضاعة نافر رجلا من اليمن فتحاكما إلى حكم عكاظ (٢) .

ومن كان داعياً إلى إصلاح اجتماعى أو دينى كان يرى أن خير فرصة له سوق عكاظ ، والقبائل من أنحاء الجزيرة مجتمعة ، فمن قَبِل الدعوة كان من السهل أن يكون داعياً فى قومه إذا عاد إليهم . فترى قُسّ بن ساعدة يقف بسوق عكاظ يدعو دعوته ، ويخطب فيها خطبته المشهورة على جمل له أورق فيرغّب ويرهّب ، ويحذر وينذر .

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اتجه إلى دعوة الناس بعكاظ لأنها مجمع القبائل ، روى الواقدى أن رسول الله أقام ثلاث سنين من نبوته مستخفياً ، ثم أعلن فى الرابعة ، فدعا عشر سنين ، يوافى الموسم ، يتبع الحاج فى منازلهم بعكاظ والمَجَنَّة وذى المجاز ، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ، حتى إنه يسأل عن القبائل ومنازلهم قبيلة قبيلة ، حتى انتهى إلى بنى عامر بن صعصعة فلم يلق من أحد من الأذى ما لقى منهم (٣) وفى خبر آخر أنه أتى كِنْدة فى منازلهم بعكاظ فلم يأت حياً من العرب كان ألين منهم (٤) وعن على بن أبى طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج من الموسم فيدعو القبائل فما أحد من الناس يستجيب له ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتى القبائل بمَجَنَّة

---

(١) الأغانى ١٣ ص ٢ وما بعدها (٢) أمثال الضبى ص ١٨
(٣) دلائل النبوة ١٠١ ، ١٠٢ (٤) ص ١٠٣

وعكاظ ومنى حتى يستقبل القبائل ، يعود إليهم سنة بعد سنة ، حتى إن القبائل منهم من قال « ما آن لك أن تيأس منا » ، من طول ما يعرض نفسه عليهم ، حتى استجاب هذا الحى من الأنصار(١) .

وروى اليعقوبى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء فقال : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا وتنجحوا ، ويتبعه رجل يكذبه وهو أبو لهب بن عبد المطلب(٢) .

كذلك كان لعكاظ أثر كبير لغوى وأدبى فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها ، وملك الحيرة يبعث تجارته إليها ويأتى التجار من مصر والشام والعراق(٣) فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم القبائل وتقارب اللهجات واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى أنه أليق بها وأنسب لها ، كما أن التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على شىء مما رأوا من أحوال تلك الأمم الاجتماعية . وفوق هذا كانت عكاظ معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب وينقد ذلك كله ويهذب ، قال أبو المنذر : « كانت بعكاظ منابر فى الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مآثره وأيام قومه ، من عام إلى عام ، فيما أخذت العرب أيامها ونخرها ، وكانت المنابر قديمة ، يقول فيها حسان :

أولاء بنو ماء السماء توارثوا دمشق بملك كابرا بعد كابر
يؤمون ملك الشام حتى تمكنوا ملوكا بأرض الشام فوق المنابر(٤)

---

(١) دلائل النبوة ص ١٠٥ (٢) اليعقوبى ١ س ٢٣ و ٢٤ .
(٣) يروون أن عبد الله بن جدعان أتى مصر فباع ما معه وعاد إلى سوق عكاظ : انظر الأكليل للهمدانى جزء ٨ ص ١٨٤ وما بعدها .
(٤) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٧٠

يقف أشراف العرب يفخرون بمناقبهم ومناقب قومهم . . . فبدر بن معشر الغفارى . . . كان رجلا منيعاً مستطيلا بمَنَعته على من ورد عكاظ ، فاتخذ مجلساً بسوق عكاظ وقعد فيه وجعل يبرح على الناس ويقول :

نحن بَنُو مُدْرِكَةَ بنِ خِنْدِفِ　　مَنْ يطعنوا فى عينِهِ لا يَطْرِفِ
ومن يكونوا قومه يُغطْرِفِ　　كأنهم لجــةُ بحرٍ مُسْدِفِ

فيقوم رجل من هوزان فيقول :

أنا ابن هَمْدَانَ ذو التَّغطْرُفِ　　بحرُ بُحُورٍ زاخِرٍ لم يُنْزَفِ
نحن ضربْنا رُكبةَ الْمُخَنْدِفِ　　إذ مَدَّها فى أشهرِ المُعَرَّفِ[1]

وعمرو بن كلثوم يقوم خطيباً بسوق عكاظ وينشد قصيدته المشهورة :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا[2]

والأعشى يوافى سوق عــكاظ كل سنة ، ويأتى مرة فاذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها فينشدهم الأعشى فى مدح المحلق[3] ، والنابغة الذبيانى تُضرب له قبة أَدَم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء فيدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى والخنساء فينشدونه جميعاً ويفاضل بينهم وينقد قول حسان :

لنا الجَفَنَاتُ الغرُّ يلمعْنَ فى الضُّحَى

فيقول لحســان قلات العدد ولو قلت الجفان لــكان أكثر . وقلت يلمعن بالضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لــكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا[4] :

ودريد بن الصِّمَّة يمدح عبد الله بن جُدْعان بعد أن لاحاه فيقول :

---

(١) الأغانى ١٩ ص ٧٤　　(٢) الأغانى ٩ ص ١٨٢
(٣) الأغانى ٨ ص ٧٩ ، ٨٠　　(٤) أغانى ٨ ص ١٩٤ ، ١٩٥

إليكَ ابنَ جُدْعان أعملتُهَا مُخَفَّفَةً للسُّرَى والنَّصَبْ[١] الخ

وقُس بن ساعدة يخطب الناس فيذكرهم بالله والموت — خطبته المشهورة — ورسول الله يسمع له[٢]، والخنساء تسوِّم هودجها براية، وتشهد الموسم بعكاظ وتُعاظِم العربَ بمصيبتها فى أبيها عمرو بن الشَّرِيد وأخويها صخر ومعاوية، وتنشد فى ذلك القصائد، فلما وقعت وقعة بدر وقتل فيها عُتْبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة أقبلت هند بنت عتبة إلى عكاظ، وفعلت كما فعلت الخنساء، وقالت اقرنوا جملى بجمل الخنساء ففعلوا، فعاظمت هند الخنساء فى مصيبتها وتناشدتا الأشعار، تقول إحداهما قصيدة فى عظم مصيبتها وترد الأخرى عليها[٣]. وعلى الجملة فكانوا فى عكاظ يتبايعون ويتعاكظون ويتفاخرون ويتحاجون وتنشد الشعراء ما تجدد لهم وفى ذلك يقول حسان :

سأنشر — ماحييت — لهم كلاما يُنَشَّر فى المجامع من عكاظ

فمن هذا كله نرى كيف كانت عكاظ مركزاً لحركة أدبية ولغوية واسعة النطاق كما كانت مركزاً لحركة اجتماعية واقتصادية .

## نظام سوق عكاظ :

كانت القبائل — كما أسلفنا — تنزل كل قبيلة منها فى مكان خاص بها، ثم تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو فى الحلقات المختلفة . كالذى حكينا أن الأعشى رأى الناس يجتمعون على سرحة ، أو حول الخطيب يخطب على منبر ، أو فى قباب من أدم تقام هنا وهناك ، ويختلط الرجال بالنساء فى المجامع ، وقد يكون ذلك سببا فى خِطبة أو زواج أو تنادر[٤] وكانت تحضر

---

(١) الأغانى ٩ ص ١٠ (٢) أغانى ١٤ ص ٤١ و٤٢ .
(٣) صفة جزيرة العرب ص ٢٦٣ .
(٤) انظر الأغانى ج ١٠ ص ١٤٥ وما بعدها وج ١٣ ص ١٤٠ وما بعدها .

الأسواق — وخاصة سوق عكاظ — أشراف القبائل « وكان أشراف القبائل يتوافَوْن بتلك الأسواق مع التجار ، من أجل أن الملوك كانت ترضخ للأشراف ، لكل شريف بسهم من الأرباح ، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظ فإنهم كانوا يتوافون بها من كل أوب »(١)

والظاهر أن المراد بالملوك هم الأمراء ورؤساء القبائل الذين يرسلون بضائعهم لبيعها فى أسواق العرب ، كملك الحِيرَة والغساسنة وأمراء اليمن ونحوهم — وكانت القبائل تؤتى لرؤسائها إتاوة فى نظير إقامتهم بالسوق ، فقد ذكر اليعقوبى فى تاريخه أخبار أسواق كثيرة كان يُعشّرها أشرافها — أى يأخذون العشر(٢) ، وفى عكاظ كانت القبائل تدفع لأشرافها هذه الأتاوة « فهوازن كانت تؤتى زهير ابن جذيمة الأتاوة كل سنة بعكاظ . وهو يسومها الخسف وفى أنفسها منه غيظ وحقد »(٣) وكانت الأتاوة سمنا وأقطا وغنما(٤) ، « وكان عبد الله بن جعدة سيداً مطاعا وكانت له إتاوة بعكاظ يؤتى بها ، ويأتى بها هذا الحى من الأزد وغيرهم ، ومن هذه الأتاوة ثياب »(٥) .

وكانت الأشراف تمشى فى هذه الأسواق ملثمة » ولا يوافيها (عكاظ) شريف إلا وعلى وجهه برقع ، مخافة أن يؤسر يوماً فيكبر فداؤه ، فكان أول من كشف طريف العنبرى ، لما رآهم يطلعون فى وجهه ويتفرسون فى شمائله ، قال قبح من وطن نفسه إلا على شرفه ، وحسر عن وجهه وقال :

أَوَ كلما وَرَدَتْ عُكاظَ قبيلةٌ بعثوا إلىَّ عَرِيفَهم يتوسَّمُ
فتوسموني ، إننى أنا ذلكم شاكى السلاح وفى الحوادث مُعْلَمُ(٦)

---

(١) الأزمنة والأمكنة ٢ س ١٦٦ .
(٢) اليعقوبى جزء ٢ ص ٣١٣ وما بعدها
(٣) الكامل لابن الأثير ١ ص ٢٢٩
(٤) أغانى ١٠ ص ١٢
(٥) أغانى ٤ ص ١٣٦ وما بعدها .
(٦) الأزمنة والأمكنة ٢ ص ١٦٦

وكان على سوق عكاظ كلها رئيس ، إليه أمر الموسم وإليه القضاء بين المتخاصمين ، قال أبو المنذر : « وتزعم مضر أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كان فى بنى تميم . . . » وكان من اجتمع له ذلك منهم بعد عامر بن الظَّرِب العَدْوانى سعد ابن زيد مناة من تميم ، وقد فخر المخبَّلُ بذلك فى شعره :

لياليَ سعدٍ فى عكاظَ يَسُوقُها له كلُّ شرقٍ من عكاظَ ومغربِ

حتى جاء الإسلام فكان يقضى بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع[1]

## تاريخ عكاظ :

من العسير جدا أن نحدد بدء عكاظ ، فلم نجد فى ذلك خبراً يصح التعويل عليه ، يقول الألوسى فى بلوغ الأرب « إنها اتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة » ولكن إذا بحثنا فى الأحداث التى رويت فى عكاظ وجدنا ذلك غير صحيح ، فهم يروون — كما قدمنا — أن عمرو بن كلثوم أنشد قصيدته فى عكاظ وعمرو بن كلثوم كان على وجه التقريب حول سنة ٥٠٠ م

كذلك إذا عدنا إلى ما رواه المرزوقى فى الأزمنة والأمكنة عن رؤساء عكاظ وجدنا أنه عدهم قبل الإسلام عشرة أولهم عامر بن الظرب العدوانى . وهذا — من غير شك — يجعل تاريخ عكاظ أبعد مما يحكى الألوسى بزمان طويل ، كذلك يروى الأغانى أن عبلة زوجة عبد شمس بن عبد مناف باعت أنحاء سمن بعكاظ[2]

وظل سوق عكاظ يقوم كل سنة : وكانت فيه قبيل الإسلام حروب الفِجَار ، وهى حروب أربع ، وكان سبب الأولى على مايروى ؛ المفاخرة فى سوق عكاظ . وسبب الثانية تعرُّضَ فتية من قريش لامرأة من بنى عامر بن صعصعة بسوق

(١) انظر تعداد من ولى عكاظ فى الأزمنة والأمكنة ٢ ص ١٦٧ .

(٢) أغانى ١ ص ٨٤ .

عكاظ . وسبب الثالثة مقاضاة دائن لمدينه مع إذلاله فى سوق عكاظ ، وسبب الأخيرة أن عروة الرَّحَّال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ آمنة فقتله البرَّاض فى الطريق(١) .

فكلها تدور حول سوق عكاظ ؛ وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة ، وشهدها النبى وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقال : كنت يوم الفجار أنبل على عمومتى(٢) .

واستمرت هذه الحروب نحو أربع سنوات . وقد كانت هناك نزعتان عند أشراف العرب ، نزعة قوم يقصدون إلى السلب والنهب وسفك الدماء لا يصدهم صاد ، ولا يرعَوْن حتى ولا الأشهر الحرم ، ويتحرشون بالناس ، فيمد أحدهم رجله فى سوق عكاظ ويتحدى الأشراف مثله أن يضربوها فتثور من ذلك الثائرة(٣) .

وفريق يميل إلى السلم ودرء أسباب الحروب ونجاح التجارة والأسواق ، بتأمين السالكين وعدم التعرض لهم بأذى ، جاء فى تاريخ اليعقوبى « أنه كان فى العرب قوم يستحلون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق فسُمُّوا « المُحِلِّين » وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر فيسمون الذادة « المُحَرِّمين » فأما المحلون فكانوا قبائل من أسد وطيئ وبنى بكر بن عبد مناة وقوم من بنى عامر بن صعصعة — وأما الذادة المحرمون فكانوا من بنى عمرو بن تميم وبنى حنظلة بن زيد مناة وقوم من هذيل وقوم من بنى شيبان . . . فكان هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس(٤) .

وكان من أشهر الداعين للسلم عبد الله بن جُدْعان ، فقد كان إذا اجتمعت

---

(١) انظر العقد الفريد ٣ ص ١٠٨ والأغانى . (٢) النهاية لابن الأثير مادة فجر .
(٣) الأغانى ٤ ص ١٣٦ . (٤) اليعقوبى ٢ : ٣١٣ وما بعدها .

العرب فى سوق عكاظ دفعت أسلحتها إلى ابن جدعان ، ثم يردها عليهم إذا ظعنوا وكان سيداً حكيما مثريا[1]

ويظهر أن أصحاب هذه النزعة الثانية وهم الذادة هم الذين سموا هذه الحروب حرب الفجار ؛ لما ارتكب فيها من الفجور وسفك الدماء ، وهم الذين تغلبوا فيما بعد ونجحوا فى وقف هذه الحروب « ودعوا الناس أن يَعُدُّوا القتلى فيَدُوا من فضل ، وأن يتعاقدوا على الصلح فلا يعرض بعضهم لبعض » وربما كان من أثر ذلك حِلف الفضول ، وقد عقد فى بيت عبد الله بن جدعان هذا .

واستمرت عكاظ فى الإسلام ، وكان يعيَّن فيها من يقضى بين الناس ، فعين محمد بن سفيان بن مجاشع قاضيا لعكاظ ، وكان أبوه يقضى بينهم فى الجاهلية وصار ذلك ميراثا لهم[2] .

ولكن يظهر أن هذه الأسواق ضعف شأنها بعد الفتوح ، فأصبحت البلاد المفتوحة أسواقاً للعرب خيرا من سوق عكاظ ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة لقضاء أغراضهم فضعفت أسواق العرب ومنها عكاظ . ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قبيل سقوط الدولة الأموية قال الكلبى « وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومَجَنة وذى المجاز قائمة فى الإسلام حتى كان حديثا من الدهر ، فأما عكاظ فإنما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبى حمزة المختار بن عوف الأزدى الأباضى فى سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس أن ينهبوا وخافوا الفتنة فتركت حتى الآن ، ثم تركت مجنة وذو المجاز بعد ذلك واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة . . . وآخر سوق خربت سوق حُبَاشة خربت سنة ١٩٧ هـ أشار فقهاء أهل مكة على داود بن عيسى بتخريبها فخربها وتركت إلى اليوم[3] .

---

(١) انظر الأغانى ١٩ ص ٧٣ وما بعدها .

(٢) الأزمنة والأمكنة ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها .

(٣) اخبار مكة للأزرقى ص ١٣١ و١٣٢ .

فعكاظ عاصرت العصر الجاهلى الذى كان فيه ما وصل إلينا من شعر وأدب ، وجرت فيها أحداث تتصل بحياة النبى صلى الله عليه وسلم قبيل مبعثه ، ومهدت السبيل قبيل الإسلام لتوحيد اللغة والأدب ، وعملت على إزالة الفوارق بين عقليات القبائل ، وقصدها النبى صلى الله عليه وسلم يبث فيها دعوته ، وعاصرت الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموى ، ولكن كانت حياتها فى الإسلام أضعف من حياتها قبله ، وبدأ ضعفها من وقت الهجرة لما كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة أو بين المؤمنين والمشركين ، فلما فتحت الفتوح رأى العرب فى أسواق المدن المتحضرة فى فارس والشام والعراق ومصر عوضاً عنها ، ثم كانت ثورة أبى حمزة الخارجى بمكة ، فلم يأمن الناس على أموالهم فخربت السوق ، وختمت صحيفة لحياة حافلة ذات أثر سياسى واجتماعى وأدبى كبير .

## المِرْبَد

أما المربد فضاحية من ضواحى البصرة ، فى الجهة الغربية منها مما يلى البادية ، بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال . كان سوقا للابل قال الأصمعى : « المربد كل شىء حبست به الابل والغنم . . وبه سميت مربد البصرة ، وإنما كان موضع سوق الإبل [1] » وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة إليها . ويظهر أنه نشأ سوقا للابل ، أنشأه العرب على طرف البادية ، يقضون فيه شئونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه .

وقد كان العرب فى بادية العراق قبل الفتح الإسلامى ، ونزلت فيه قبائل من بكر وربيعة ، وكونوا فيه إمارة المناذرة فى الحيرة ، فكان هذا الأقليم معروفا

(١) لسان العرب فى ر ب د ومعجم ياقوت فى مربد

لهم قبل الإسلام ، وكانت الرحلات من البادية إلى العراق ومن العراق إلى البادية في حركة مستمرة — ومعلوم أن البصرة إنما خططت في الإسلام في عهد عمر ابن الخطاب ونزل بها العرب على منازلهم من يمنية ومضرية — ولكن يظهر أن المربد كان قبل أن تخطط البصرة ، وكان قبل الإسلام ، وربما فهم ذلك من قول الطبرى « بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان فقال له انطلق أنت ومن معك حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم فأقيموا . فأقبلوا حتى إذا كان بالمربد وجدوا هذا الكَذَّان[1] قالوا ما هذه البصرة »[2] .

وقال في اللسان — في مادة ب ص ر — وقال ابن شميل البصرة أرض كأنها جبل من جص وهى التى بنيت بالمربد وإنما سميت البصرة بصرة بها » .

ولكن أخباره في الجاهلية منقطعة أو معدومة مما يدل على قلة أهميته إذ ذاك ، إنما كانت له الأهمية بعد أن فتح العرب العراق وسكنوه وخططوا البصرة ، فقد أنشئت فيه المساكن بعد أن كان مربداً للإبل فقط ، واتصلت العمارة بينه وبين البصرة[3] حتى قالوا فيه « العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة ، ودارين عين المربد[4] » .

وقد كان المربد في الإسلام صورة معدلة لعكاظ ، كان سوقا للتجارة ، وكان سوقا للدعوات السياسية ، وكان سوقا للأدب — جاء في كتاب « ما يعول عليه » المربد كل موضع حبست فيه الإبل . . . ومنه سمى مربد البصرة لاجتماع الناس وحبسهم النعم فيه — كان مجتمعَ العرب من الأقطار ، يتناشدون فيه الأشعار ، ويبيعون ويشترون وهو « كسوق عكاظ » وقال العينى « مربد البصرة . . . محلة عظيمة فيها (في البصرة) عن جهة البرية كان يجتمع فيها العرب من الأقطار ،

(١) الكذان حجارة رخوة .
(٢) تاريخ الطبرى ١ : ١١٦٦
(٣) معجم ياقوت في مادة مربد
(٤) عيون الأخبار ٢ : ٢٢٢

ويتناشدون الأشعار ، ويبيعون ويشترون »(١) .

وليس يهمنا هنا أثره التجارى ، وإنما يهمنا شؤونه السياسية والأدبية وهما مرتبطان بعضهما ببعض أشد الإرتباط ، فلا داعى للتفريق بينهما ، فقد كانت الأحزاب السياسية تنتج أدبا من خطب وشعر ، وكانت الخطب والشعر تقوى الأحزاب السياسية وتساعد فى تكوينها والحروب بينها .

## المربد فى عصر الخلفاء الراشدين :

كانت أهم أخبار المربد فى ذلك العصر ما كان بعد قتل عثمان بن عفان من سير عائشة أم المؤمنين إلى البصرة ، فانها نزلت بفناء البصرة ورأت أن تبقى خارجها حتى ترسل إلى أهلها تدعوهم بدعوتها ، وهى المطالبة بدم عثمان ، وبعبارة أخرى الخروج على علىّ ، وكان معها طلحة والزبير ثم سارت إلى المربد معهما وخرج إليها مَنْ قَبِل دعوتها ، وخرج إلى المربد كذلك عامل علىّ على البصرة ، وهو عثمان بن حُنَيف ومن يؤيده ، وأصبح المربد وهو يموج بمن أتى من الحجاز ومن خرج من البصرة حتى ضاق المربد بمن فيه ، ورأينا المربد مجالا للخطباء ممن يؤيد عائشة ومن معها ، ومن يؤيد عليا وعامله . أصحاب عائشة فى ميمنة المربد وأصحاب على فى ميسرته ، ويخطب فى المربد طلحة ويمدح عثمان بن عفان ، ويعظم الجناية عليه ويدعو إلى الطلب بدمه ، ويخطب الزبير كذلك ، وتخطب عائشة أم المؤمنين بصوتها الجَهْوَرى ويؤيدهم من فى ميمنة المربد ، ويقولون صدقوا وبروا وقالوا الحق وأمروا بالحق ، ويؤثر قول عائشة فى أهل الميسرة فينحاز بعضهم إليها ويبقى الآخرون على رأيهم وعلى رأسهم عثمان بن حنيف ، ويخطبون كذلك يبينون خطأ هذه الدعوة وأن طلحة والزبير بايعا عليا فلا حق لهما فى الخروج عليه

---

(١) عقد الجمان مخطوط بدار الكتب جزء ٤ / ٩٣

ويؤيدهم أبو الأسود الدؤلي وأمثاله(١) .

وهكذا ينتقل المربد الى مجمع حافل فيه الدعوات السياسية مؤيدة بالحجج والبراهين وفيه معرض البلاغة من خطب طويلة وجمل قصيرة متينة ، وفيه الجدل والمناظرة وبحث أهم الأحداث فى ذلك العصر ، وهو مقتل عثمان بن عفان ، وتحديد المسئولية فى قتله — ولم تفد هذه الحرب اللسانية فانتقلت إلى حرب بالسلاح وأصبح المربد ساحة للقتال .

## المربد فى عهد بنى أمية :

كان العصر الأموى أزهى عصور المربد ، ذلك لأن العرب كانوا قد هدءوا من الفتح واستقرت الممالك فى أيديهم ، وأصبح العراق مقصد العرب يؤمه من أراد الغنى وخاصة البصرة جاء فى الطبرى « أن عمر بن الخطاب سأل أنس بن حجية وكان رسولا إلى عمر من العراق فقال له عمر كيف رأيت المسلمين ؟ فقال انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة ، فرغب الناس فى البصرة فأتوها » وكان المربد باب البصرة يمر به من أرادها من البادية ، ويمر به من خرج من البصرة إلى البادية ، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ، ويقصده سكان البصرة يستنشقون منه هواء البادية ، فكان ملتقى العرب ، وكانوا يحيون فيه حياة تشبه حياة الجاهلية من مفاخرة بالأنساب وتعاظم بالكرم والشجاعة ، وذكر لما كان بين القبائل من إحن ، فالفرزدق يقف فى المربدُ ينْهب أمواله فعل كرماء الجاهلية « حكى فى النقائض أن زياد بن أبى سفيان كان ينهى أن ينهب أحد مال نفسه ، وأن الفرزدق أنهب أمواله بالمربد ، وذلك أن أباه بعث معه إبلا ليبيعها فباعها وأخذ ثمنها فعقد عليه مطرف خز كان عليه ، فقال قائل لشد ما عقدت

---

(١) انظر القصة بطولها فى الطبرى جزء ١ ص ٣١٠٢ طبع أوروبا وفيه بعض ما قيل من الخطب فى المربد فى ذلك اليوم .

على دراهمك هذه ، أما والله لو كان غالب ما فعل هذا الفعل ، فخلاها ثم أنهبها وقال من أخذ شيئاً فهو له و بلغ ذلك زياداً فبالغ فى طلبه فهرب . . . فلم يزل فى هربه يطوف فى القبائل والبلاد حتى مات زياد[١] .

وكان الأمويون على وجه العموم — يعيشون عيشة عربية ويحتفظون بعربيتهم ، إن أخذوا شيئاً من الحضارة صبغوه بصبغتهم وحولوه إلى ذوقهم وكذلك فعل عرب البصرة؛ أرادوا أن يكون لهم من مربد البصرة ما كان لهم من سوق عكاظ فى الحجاز فبلغوا غايتهم ، وأحيوا العصبية الجاهلية ، وساعد الخلفاء الأمويون أنفسهم على إحيائها لما كانوا يستفيدون منها سياسيا ، فرأينا ظل ذلك فى الأدب والشعر ، ورأينا المربد فى العصر الأموى يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون ، ويعلى كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسى ، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية .

ومن أجل هذا خلَّف لنا المربد أجل شعر أموى من هذا النوع — فكثير من نقائض جرير والفرزدق والأخطل كانت أثراً من آثار المربد قيلت فيه وصدرت عما كان بينهم من منافرة وخصومة ، يروى الأغانى أن جريراً والفرزدق اجتمعا فى المربد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما العجّاج والأخطل وكعب بن جُعَيل فى خبر طويل[٢] .

كان كل من جرير والفرزدق يلبس لباساً خاصا ويخرج إلى المربد ويقول قصائده فى الفخر والهجاء ، والرواة يحملون إلى كليهما ما قاله الآخر فيرد عليه ، قال أبو عبيدة « وقف جرير بالمربد وقد لبس درعا وسلاحا تاما وركب فرساً اعاره إياه أبو جهضم عباد بن حصين ، فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشى

(١) النقائض ٦٩٧ ، ٦٠٨ .     (٢) الأغانى ١٣٢/٤ .

وسوارا وقام فى مقبرة بنى حِصْن ينشد بجرير ، والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما فلما بلغ الفرزدقَ لباسُ جرير السلاح والدرع قال :

عجِبْتُ لراعِى الضأنِ فى حُطَمِيَّةٍ    وفى الدرعِ عبدٌ قد أصيبَتْ مقاتِلُهْ

ولما بلغ جريرا أن الفرزدق فى ثياب وشى قال :

لبستُ سلاحِى والفرزدقُ لُعْبَةٌ    عليه وِشَاحَا كُرَّجٍ وجَلَاجِلُهْ (١)

وما زالا كذلك يتهاجيان ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة حتى ضج والى البصرة فهدم منازلهما بالمربد فقال جرير :

فما فى كتابِ اللهِ تهديمُ دَارِنَا    بتهديمِ ماخورٍ خبيثٍ مَدَاخِلُهْ (٢)

وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس يسمعون منه ، جاء فى الأغانى « وكان لراعى الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة (٣) »

وكان الناس يخرجون كل يوم إلى المربد ، يعرف كل فريق مكانه فيجلس فيه فينتظر شاعره ، فقد روى الأغانى أيضاً أن جريراً بات يشرب باطِيَةً من نبيذ ويهمهم بالشعر فى هجاء الفرزدق والراعى ، فما زال كذلك حتى كان السحر وقد قالها ثمانين بيتاً فى بنى نُمَير فلما ختمها بقوله :

فغضَّ الطرفَ إنكَ من نُمَيْرٍ    فلا كعبًا بلغتَ ولا كِلَابَا

كَبَّر ، ثم أصبح حتى إذا عرف أن الناس قد جلسوا فى مجالسهم بالمربد — وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق دعا فادّهن ولف رأسه ، ودعا غلامه فأسرج له حصانا وقصد مجالسهم وأنشدها ، فنكس الفرزدق وراعى الإبل (٤)

ونرى بجانب هؤلاء الفحول أعنى جريراً والفرزدق والأخطل طائفة أخرى

---

(١) النقائض ٦٢٤ .    (٢) النقائض ٦٨٣ .    (٣) أغانى ٧/٤٩ .
(٤) أغانى ٧/٥٠ .

من كبار الرُّجّاز يقصدون المربد وينشدون رجزهم ، فالعَجّاج الراجز يخرج إلى المربد عليه جبة خز وعمامة خز على ناقة له قد أجاد رحلها ، ويقف بالمربد على الناس مجتمعين ، ويقول رجزه المشهور :

« قد جَبَرَ الدينَ الإلٰهُ فجَبَرْ »

ويهجو ربيعة فيأتى رجل من بكر بن وائل إلى أبى النجم ويستحثه على الرد عليه فيخرج أبو النجم إلى المربد ويقول رجزه .

« تذكَّرَ القلبُ وجَهْلاً ما ذَكَرْ »

ورؤبة الرجاز ينشد رجزه :

« وقاتِمِ الأَعْماقِ خَاوِى المُخْتَرَقْ »

ويجتمع حوله فتيان من تميم فيرد عليه أبو النجم فى رجزه .

« إذا اصطبَحْتَ أربعاً عرَفْتَنِى »(١)

كذلك نرى ذا الرمة يقف بالمربد وعليه جماعة مجتمعة وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار ، وينشد ودموعه تجرى على لحيته :

« ما بالُ عَيْنِكَ منها الماء يَنْسَكِبُ »(٢)

وينشد كذلك بعض قصائده فيقف خياط فينقد شعره نقداً شديداً ويسخّف بعض تشبيهاته ، فيمتنع ذو الرمة عن الذهاب إلى المربد حتى يموت الخياط(٣) .

والأمراء والولاة قد يتدخلون فيسكتون بعض الشعراء ، وقد يهيجون بعضهم على بعض خدمة لأغراض حزبية أو سياسية ، فعبد الملك بن مروان يأمر أبا النجم بالمفاخرة مع الفرزدق . وعباد بن حُصَين — وكان على أحداث البصرة — يعين جريراً على الفرزدق ويعير جريراً الدرع والفرس والسلاح(٤)

---

(١) انظر الأغانى ٩ص ٧٨ وما بعدها ، (٢) أغانى ١٦/١٢٣ .
(٣) أغانى ١٦/١١٣ . (٤) انظر الكامل للمبرد .

وهكذا كان المربد فى العهد الأموى معهداً كبيراً أنتج أدباً غزيراً من جنس خاص ، وكاد هذا الشعر يكون امتداداً للشعر الجاهلى ، لاتحاد الأسباب والبواعث ، فأما الشعر الغزلى كشعر عمر بن أبى ربيعة وأمثاله فليس له كبير أثر فى المربد ، لأنه فوق النزال والمهاجاة والمفاخرة ، فليس مجاله حياة المربد التى وصفناها .

**المربد فى العصر العباسى :**

بقى المربد فى العصر العباسى ، ولكنه كان يؤدى غرضاً آخر غير الذى كان يؤديه فى العهد الأموى ، ذلك أن العصبية القبلية ضعفت فى العصر العباسى بمهاجمة الفرس للعرب ، وأحس العرب ما هم فيه جميعاً من خطر من حيث هم أمة لا فرق بين عدنانيهم وقحطانيهم ، فقوى نفوذ الفرس وغلبوا العرب على أمرهم ، وبدأ الناس فى المدن كالبصرة يحيون حياة اجتماعية هى أقرب إلى حياة الفرس من حياة العرب ، وانصرف الخلفاء والأمراء عن مثل النزاع الذى كان يتنازعه جرير والفرزدق والأخطل ، وظهرت العلوم تزاحم الأدب والشعر ، وفشا اللحن بين الموالى الذين دخلوا فى الإسلام ، وأفسدوا حتى على العرب الخالصة لغتهم ، فتحول المربد يؤدى غرضاً يتفق وهذه الحياة الجديدة .

أصبح المربد غرضاً يقصده الشعراء لا ليتهاجوا ، ولكن ليأخذوا عن أعراب المربد الملكة الشعرية ، يحتذونهم ويسيرون على منوالهم ، فيخرج إلى المربد بشار وأبو نواس وأمثالهما ، ويخرج إلى المربد اللغويون يأخذون اللغة عن أهله ويدوّنون ما يسمعون ، روى القالى فى الأمالى عن الأصمعى قال : « جئت إلى أبى عمرو بن العلاء فقال لى : من أين أقبلت يا أصمعى ؟ قال جئت من المربد ، قال هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت فى ألواحى ، فمرت به ستة أحرف

لم يعرفها ، فخرج يعدو فى الدرجة وقال « شمرت فى الغريب » أى غلبتنى[١] » .

والنحويون يخرجون إلى المربد يسمعون من أهله مايصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم ، فقد اشتد الخلاف بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة فى النحو وتعصب كل لمذهبه ، وكان أهم مدد لمدرسة البصرة هو المربد ، وفى تراجم النحاة نجد كثيراً منهم من كان يذهب إلى المربد يأخذ عن أهله . ويخرج الأدباء إلى المربد يأخذون الأدب ، من جمل بليغة وشعر بليغ وأمثال وحكم ، مما خلفه عرب البادية وتوارثوه عن آبائهم ، كما فعل الجاحظ ، يقول ياقوت : إن الجاحظ أخذ النحو عن الأخفش وأخذ الكلام عن النَّظَّام وتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد[٢] .

وبذلك كان المربد مدرسة من نوع آخر تغير برنامجها فى العصر العباسى عن برنامجها فى العهد الأموى ، وأدت رسالة فى هذا العصر تخالف رسالتها فى العصر السابق .

**آخر الأخبار عن المربد :**

فى ثورة الزنج التى ظهرت فى فرات البصرة والتى بدأت سنة ٢٥٥ هـ حدث قتال بالمربد بين الزنج وجيش الخليفة ، فاحترق المربد ، روى الطبرى قال : يقول ابن سمعان : فإنى يومئذ لفى المسجد الجامع إذ ارتفعت نيران ثلاث من ثلاثة أوجه : زَهْران والمربد وبنى حِمَّان فى وقت واحد ، كأن موقديها كانوا على ميعاد ، وجل الخطب وأيقن أهل البصرة بالهلاك[٣] .

وتوالت فيه الحرائق وعوتب شاعر البصرة أبو الحصَيْن بن المُثَنَّى على أنه لم

---

(١) الأمالى ٣ س ١٨٢ . (٢) معجم الأدباء ٦ س ٥٦ .
(٣) الطبرى ٣ س ٢٥٧ وما بعدها طبعة أوربا .

يقل شيئاً فى حريق المربد ، مع أن المربد من أجل شوارعها ، وسوقه من أجل أسواقها ، فقال ارتجالا فى آخر حريق لها :

أتتكم شهودُ الهوَى تشهدُ فما تستطيعون أن تجحدوا
فيا مِرْبَدِيون ناشدتُكُمْ على أننى منكمُ مُجْهَدُ
جَرَى نَفَسِى صاعداً نحوكم فمن أجله احترق المربد
وهاجت رِيَاحُ حَنِينِى لكمْ وظلت به نارُكُمْ تُوقَدُ
ولولا دموعِى جرت لم يكن حريقُكُمُ أبداً يَخْمُدُ (١)

ويذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٩٩ أن سيف الدولة صدقة بن مزيد تقاتل مع اسماعيل ، فنهبت البصرة وغنم من معه من عرب البر . . . . ولم يسلم منهم إلا المحلة المجاورة لقبر طلحة والمربد ، فإن العباسيين دخلوا المدرسة النظامية وامتنعوا بها وحموا المربد وعمت المصيبة بأهل البلد سوى من ذكرنا (٢) .

ويقول ياقوت « إن المربد كان سوقا للابل ، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وهو الآن (عاش ياقوت حتى سنة ٦٢٦ هـ) — بائن عن البصرة ، بينهما نحو ثلاثة أميال ، وكان ما بين ذلك كله عامرا ، وهو الآن خراب ، فصار المربد كالبلدة المفردة فى وسط البرية » .

ثم عفا أثر المربد ، ولم نعد نجد له ذكرا ذا قيمة ، وأخنى عليه الذى أخنى على عكاظ ، ومات بموته معهدان أدبيان اتصلت حياة الثانى منهما بحياة الأول فقاما نحو سبعة قرون ، يخرجان شعراً وأدباً ونقداً كان من خير تراث العرب .

---

(١) معجم البلدان .
(٢) الكامل لابن الأثير جزء ١٠/ س ١٥١ طبع بولاق .

# ثقافة الجاحظ

لست أعلم أحداً فى عصر الجاحظ بلغ مبلغه فى سعة ثقافتــه وعمقها ، فلقد شملت كلّ معارف زمانه تقريباً على اختلاف ألوانها وتعدد منابعها ؛ حتى ليخيل إلىّ أننا لو جمعنا كل كتبه ورسائله ، ووزعنا ما فيهـا ، ورتبناها على الحروف الأبجدية ، لخرج لنـا من ذلك دائرة معارف تمثل أصدق التمثيل معارف العصر العباسى الأول .

دائرة معارف تشمل الرجال ، والأدب ، والبلاغة ، وعلوم الدين ، والتاريخ ، والطبيعة ، والـكيميا ، والفلسـفة ، واللاهوت ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والصناعة ، والتجارة ، والحيوان ، والنبات ، والفن ، والفكاهة ، ولعله لا ينقصها إلا الرياضة : « الحساب ، والجبر ، والهندسة » ؛ فيظهر لى أنه قصر فيها تقصير المعلم الأول ( أرسطو ) .

وظل يحصّل هـذه المعلومات المتنوعة المختلفة وينشرها قرنا كاملا تقريبا . وقد منحه الله ذكاء نافذاً وصبراً غريباً ، وذهناً لاقطا ، وحافظة أمينة ، وزمناً مباركا ، فتيسر له من ذلك كله ما لم يتيسر لأحد غيره فى عصره .

ولـكن كيف حصّل هذه المعارف وما هى الوسائل التى انتهجها فى تحصيلها ؟

لقد بدأ بأخذ العلم عن شيوخ عصره :

١ — فكان فى فجر عهده بالتعليم ثلاثة نجوم لامعة فى اللغة والأدب : الأصمعى ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد الأنصارى . وكان لـكل منهم ظاهرة .

فأما الأصمعى فكان عالما واسع العلم باللغة ، وواسع العـلم بالشعر العربى ، يحفظ الـكثير من قصائده وأراجيزه ، له نغمة لطيفة فى إنشاده ، وكان فوق ذلك

يعرف مُلَح العرب ونوادرهم وفكاهاتهم ، ينادم الخلفاء والأمراء بها فيضحكهم وينال من عطائهم .

وكان أبو عبيدة لا يصل إلى درجة الأصمعى فى اللغة والشعر والنوادر ، ولا كان خفيف الروح خفته ، ولكن كان واسع العلم بأنساب العرب ، يعرف القبائل وتسلسلها ومثالبها ومفاخرها ؛ وكان واسع العلم بأيام العرب ، وما كان بين قبائلها من حروب ، ومن انتصر ومن انهزم ؛ وكان يعرف أخبار الأمم وأحداثها التاريخية ؛ وكان فوق ذلك رجلا داهية ماكراً أميل إلى النزعة الشعوبية .

وأما أبو زيد الأنصارى فكان رجلا طيب القلب أولع بغريب اللغة ، وكان ثقة صادقا ، يتحرى فى روايته وعلمه أكثر مما يتحرى الأصمعى وأبو عبيدة . ويسميه سيبويه الثقة . فإذا قال حدثنى الثقة فإياه يعنى . ويصفه الجاحظ فى كتاب الحيوان بما يفهم منه أنه ثقة وليس بناقد ، فما يحكيه فهو صادق فى حكايته ، ولكنه حاطب ليل ، يروى ما يسمع ولا يعرضه للامتحان .

* * *

هؤلاء الثلاثة هم مثقِّفو الجاحظ فى ناحية من ثقافته ، أعنى ثقافته اللغوية والإخبارية ، والأدبية ، وقد تشرب منهم جميعاً ، وأخذ ما عندهم وتأثر بأرواحهم ، فلعل روح الأصمعى الفكهة المضحكة المسامرة شقّت على تلميذه الجاحظ فكاهة ودعابة ، وقد توسع فيها بما تمده طبيعته وطبيعة عصره . وأخذ من أبى عبيدة مكره ودهاءه مع سعة علمه ؛ فكان واسع الحيلة واسع العلم يستطيع أن يكتسب رضاء الوزيرين المتعاديين على التعاقب ، ابن الزيات وابن أبى دؤاد . ثم يظهر أنه لم يأخذ من أبى زيد إلا علمه بغريب اللغة ، وقد أهمل غفلته فلم يتأثر بها ولم توائم نفسه .

* * *

٢ — وأخذ الجاحظ النحو على أبى الحسن الأخفش ، وكان الجاحظ تلميذه وصديقه . والأخفش — هذا — كان المرجع الأوحد فى كتاب سيبويه ، فعنه رُوى ومنه أخذ ، وكل الطرق التى روى فيها كتاب سيبويه ترجع آخراً إلى الأخفش . وكان الأخفش من أعلم الناس بطرق الكلام والجدل . يناظر الكسائى فيفحمه ، فيتقيه الكسائى بالمال يبذله له ، فأفاد الجاحظ منه نحوه وطرقا من جدله وأساليبه فى الإفحام .

***

٣ — وأتم الجاحظ ثقافته اللغوية والأدبيــة فى « المِرْبد » ، وهو — كما رأينا — مجمع الشعراء ومصدر اللغة والأدب .

فكان الجاحظ يرحل إليه و « يتلقف منه الفصاحة » كما يقول « ياقوت » ، فتم له بذلك اللغة والأدب بالمشافهة و بالأخذ عن العلماء .

***

٤ — وله ناحية أخرى دينية ، من ذلك أنه تثقف فى الحديث فأخذ عن بعض رجاله ، وقد حكى فى كتاب الحيوان أنه كان يخرج سَحَراً فى طلب الحديث ، وحَكَى أنه وقعت له موقعة مع عدة كلاب ضخام نبحته فى السَّحَر .

وكان من أهم شيوخ الجاحظ فى الحديث « حجاج بن محمد المصيصى » وهو محدث كبير من أكبر تلاميذ ابن جريج ومن أكبر شيوخ أحمد بن حنبل . وكان حجاج شيخا ثقة صدوقا ، مات سنة ٢٠٦ هـ ثم اختلط عقله فى آخر عمره فكان يقول : حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن عيسى بن مريم عن خيثمة . فنهى المحدّثون عن الأخذ عنه . وقد روى الجاحظ عنه بعض الأحاديث . وقصد الجاحظَ بعضُ المحدثين لأخذ الحديث عنه مثل ما روى : « حدثنا عبد الله بن سليمان بن الأشعث قال : دخلت على عمرو بن بحر الجاحظ ، فقلت له حدثنى بحديث فقال :

« حدثنا حجاج بن محمد حدثنا حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » . كما كان من شيوخ الجاحظ أبو يوسف صاحب أبي حنيفة وقاضي الرشيد . فقد روى عنه الجاحظ بعض الحديث .

* * *

٥ — ثم تثقف ثقافة الاعتزال ، وكان أهم أستاذ له في ذلك « النَّظَّام » . وثقافة الاعتزال أوسع الثقافات برنامجا ، فقد كان الاعتزال يتطلب من رجاله مطالب عسيرة . يتطلب :

ا — علماً واسعاً بالديانات الأخرى من يهودية ونصرانية ومجوسية ومانوية وغيرها ، لأن المعتزلة نصبوا أنفسهم للدعوة إلى الإسلام ، ورأوا أنه لا يتيسر لهم ذلك على الوجه الأكمل إلا بمعرفة دقيقة بدينهم وبدين غيرهم ، والاستعداد التام للدخول في الجدل والمناظرة دفاعا وهجوما ، فعرفوا الأديان الشائعة في عصرهم وعرفوا مواضع المهاجمة فيها ، وتسلحوا بأسلحة خصومهم .

ب — واضطرهم ذلك إلى معرفة الفلسفة اليونانية ، لأن خصومهم من اليهود والنصارى كانوا قد اتخذوها أداة للدعوة إلى دينهم ، والنصرة على خصومهم فتسلحوا بالمنطق والميتافيزيقا الأرسططاليسية .

وكانت فلسفة أرسطو فيها دراسة للحيوان فدرسوه ، وفيها طبيعة فدرسوها ، وفيها سياسة فنظروا فيها ؛ ولكنهم صبغوا ذلك كله بروحهم الديني . فإذا بحث أرسطو في الحيوان بحثاً مجرداً بحثها المعتزلة للدلالة على قدرة الله وعلى إبداعه ، واتخذوا منها دليلا على بطلان الإلحاد وفساد الشرك ، فقائلهم بشر بن المعتمر يقول القصائد الطوال في الحيوان وعجائبه ويختم ذلك بقوله :

سبحان رب الخلق والأمرِ ومُنشر الميت من القبر

فاصبر على التفكير فيما ترى ما أقرب الأجر من الوزر

وأرسطو نظر فى الطبيعة نظراً علميا بحتا ، ونظر فيها المعتزلة نظراً علميا ودينيا معاً :

لو فكر العاقل فى نفسه مدة هذا الخلق فى العمر
لم ير إلا عجباً شاملا أو حجة تُنقَش فى الصخر

ح — بل نظروا إلى الفرق الإسلامية الأخرى كما نظروا إلى غير المذاهب الإسلامية فجادلوهم وخاصموهم واحتجوا عليهم بالقرآن كما احتجوا على أرباب الأديان بالعقل .

كل هذا دعاهم إلى أن يتثقفوا ثقافة فى منتهى السعة ، ثقافة فى الإسلام نفسه ، وثقافة فى الأديان الأخرى ، وثقافة فلسفية فى المنطق واللاهوت والطبيعة والكيميا والحيوان والنبات وغير ذلك .

قالوا بسلطة العقل وقال قائلهم :

لله در العقل من رائد وصاحب فى العسر واليسر
وحاكم يقضى على غائب قضية الشاهد للامر

فنازلهم رجال النقل فاستعدوا لهم :

وقالوا بالإيمان والتوحيد فنازلهم رجال الإلحاد والشرك فاستعدوا لهم . وهكذا كثرت خصومهم فكثر استعدادهم وكثرت أسلحتهم ، فاتسعت ثقافتهم إلى أقصى حد .

وكان الجاحظ من رجالات المعتزلة البارزين ، فكان رأساً فى المعتزلة فكان لا بد أن يكون رأساً فى الثقافة .

***

٦ — هذا كله نمط واحد من نمط ثقافة الجاحظ ، وهو الأخذ عن المشايخ

كل فى فنه . فاللغة على رجالها ، والحديث على رجاله ، والاعتزال على أئمته .
وكان له منبع آخر من الثقافة وهو اعتماده على الكتب يقرؤها بنفسه لنفسه ، وكان العلماء إذ ذاك يكرهون من يأخذ العلم عن الكتب ولا يثقون به ويسمونه الصحفى ، أى أنه يأخذ العلم عن الصحيفة لا عن الأستاذ . ولكنه لا عيب فى ذلك بعد النضوج وأخذ الأصول عن المشايخ .

وقد عكف الجاحظ على قراءة الكتب وصبر عليها واستفاد منها فوائد لا تحصى . قال أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت مَن أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ؛ حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين و يبيت فيها للنظر »

غرام بالعلم غريب يحمله على أن يستأجر المكتبة من صاحبها ثم يسهر عليها لياليه ليستوعب ما فيها .

* * *

٧ — ومنبع ثالث من منابع ثقافته يستخدمه الجاحظ أحسن استخدام وأدقه وأوسعه ، ولا أعلم له فى ذلك نظيراً ممن قبله أو عاصره ؛ ذلك أنه انغمس فى الحياة الواقعية واستفاد منها ما أمكنه ، وجعل منها موضوعات لأدبه ؛ فإن كان سقراط قد استنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، فالجاحظ قد استنزل الأدب من السماء إلى الأرض .

كل شيء يقع تحت حسه موضع لدرسه وموضع لأدبه ؛ فالحيوانات والنباتات ، والصناع والصنائع والمجتمعات والفكاهات ، والرحلات ، والكرماء والبخلاء والأغبياء والأذكياء ؛ وعلى الجملة كل شيء وقعت عليه ملاحظته ، فكأنه منح من الحواس ، ما لم يمنحه الناس .

دقت ملاحظته فى طبائع الأشياء وفى نفوس الناس وفى طبيعة المجتمعات

فاستخرج من كل ذلك أدبا ، على حين أننا نقرأ أدباء عصره كابن قتيبة وغيره فلا نكاد نجدهم يمسون حياتهم الواقعية فى شيء .

يجرب بنفسه فى كل حقير وجليل ، ويمعن فى التجربة ، ويصوغ ذلك كله أدبا جميلا .

***

ففى الأمور الطبيعية — مثلا — يراقب الديك هل إذا كان وحده فى قرية يصيح أو لا يصيح ، ليعلم هل يصيح الديك بالتجاوب أو بطبيعته . ويراقب الدجاج هل تكثر أفراخها إذا كثر عددها أو تقل أفراخها . ويبحث فى الخِيرِىّ (وهو النبات المعروف عندنا بالمنثور) لماذا ينضم ورقه بالليل وينتشر بالنهار .

ويلاحظ قتالا بين قط وفار كان عنده فى بيت الحطب ، وانجلت المعركة عن هرب الفار بعدما فقأ عين القط .

ويراقب بَرْنِيَّة زجاج فيها عشرون عقربا وعشرون فأرا ، وما نتيجة لسع العقرب للفار وكيف ورم . ويريد أن يغرس الأراك فى بيته على النمط الذى حكوه له فى زراعته ليجرب قوله بنفسه .

ويذهب إلى أهل الحرف المختلفة يسألهم عن معلوماتهم فى اختصاصاتهم فيقول : « سألت بعض العطارين من أصحاب المعتزلة عن فأرة المسك فقال : ليس بالفأرة وهو بالخِشْف أشبه ، ثم قص علىّ شأن المسك وكيف يصنع » ويذهب إلى الحَوّائين ويسألهم عن معلوماتهم فى الحيات : ويقرأ فى كتاب الحيوان لأرسطو أن ريح السَّذاب يشتد على الحيات فيذهب الجاحظ ويحضر أفعى ويلقى عليها السذاب ثم يقول : « فما كان السذاب عندها إلا كسائر البقل » . إلى كثير من أمثال ذلك .

ومن الناحية النفسية — مثلا — يبحث فى مناغاة الطفل للنار ويقول :

« إن الطفل لا يناغى شيئاً كما يناغى المصباح . وتلك المناغاة نافعة له فى تحريك النفس فتهيج الهمة وتبعث على الخواطر فى فتق اللهاة وتشديد اللسان والسرور الذى له فى النفس أكرم أثر » . ويصف شعوره الدقيق بالجمال فيقول : « إنه إذا رأى الديك والدجاجة أو الذئب أو الكلب تشرب الماء وكان عطشان يذهب عطشه من قبح شرب هـذه الحيوانات . وإذا رأى شُرب الحمام وكان ريان يشتهى أن يكون فى ذلك الماء معه لجمال حسنه » إلى كثير من أمثال ذلك أيضا .

ويبحث فى الغَيرة عند الرجل هل هى طبيعية فيه أو هى شىء تصطنعه المدنية ، وما الفرق بينها وبين الأنفة والحميّة .

وأما الناحية الاجتماعية فقد أبدع فيها كل إبداع ؛ يصف نوادى القمار ، والخاطبات بين النساء والرجال ، وحياة الفتيان ، وطمع التجار ، وطائفة المعلمين والمغنين ، والشرب والشراب ، إلى ما لا يمكن أن يستقصى .

وقد منحه الله عمراً طويلا ولساناً كذلك طويلا . فما أكثر ما جرب ، وما أجود وصفه لتجاربه .

***

٨ — وقد ساعده على هذه التجارب تنقله فى أوساط اجتماعية مختلفة ؛ فهو ناشىء فقير يبيع الخبز والسمك فى الأسواق ليكسب قوته ، ويكسب بجانب ذلك دراسته العملية للأسواق . وهو فى حلقة الدروس بين رجال علم وأدب ورجال دين ؛ ثم هو كاتب فى ديوان الرسائل مختلط بأهل الديوان . يعرف أخبارهم ومناحيهم فى الحياة . ثم هو نديم للوزير ابن الزيات يسامره ويؤاكله ويقع تحت نظره كل صنوف الحياة الارستقراطية . ويتصل بالفتح بن خاقان أقرب المقربين إلى المتوكل : ويشهد العداء الحارّ بين الوزيرين ابن الزيات وابن أبى دؤاد ويكتوى بنار الخصومة بينهما ، ويُقبض عليه ويوضع فى القيد ، ثم يطلق سراحه

بدهائه . كل هذا أطلعه على جوانب الحياة من ألفها إلى يائها .

ثم يرحل من البصرة إلى بغداد ، ومن بغداد إلى دمشق وحمص ، ويدرس البلد الذى يرحل إليه فى عمق ، حتى براغيث حمص والفرق بينها و بين براغيث العراق ، وحتى لا يجد فى حمص عقارب فيتساءل عن سبب ذلك ، فيقولون له إن بها طلسما يمنع من وجود العقارب بها ، فلا يرضيه هذا التعليل ، و يعلله باحتمال وجود حيوانات بها تهرب منها العقارب ، أو عدم صلاحية الجو لها أو نحو ذلك .

كل هذا إذا كان أمام عقل جبار كعقل الجاحظ ، وقلم متدفق كقلم الجاحظ أخرج لنا ثروة ضخمة هائلة كثروة الجاحظ .

* * *

٩ — تثقف الثقافة العربية أدبية ودينية فشرب منها حتى الثمالة ، وتثقف الثقافة الفارسية الأدبية منها والدينية ؛ وعرف لغتها فنقل منها الكلمات والجمل بنصها فى كتبه ، وأخذ يفسر معانيها . وتثقف الثقافة اليونانية ونقل منها فيما كتب فى حيوان وفلسفة وطب وفراسة ، حتى حكى عنهم حكاية الممرورين منهم ، ومزج ذلك كله مزجا غريبا لا كمزج الماء بالزيت ولكن كذوب السكر فى الماء . وأخرج من ذلك شرابا حلوا سائغا للشاربين .

يعرض للموضوع فيحكى فيه قول العربى الجاهلى ، و يتبعه بقول ارسطو الفيلسوف اليونانى ، ثم قد يتبعه بقول المجوس الفارسى ، وقد يقف بعد ذلك يقص تجاربه الشخصية ، ويحكّم الواقع والتجارب فى كل ما قالوا . و ينتهى من ذلك كله إلى نتيجة يحسن السكوت عليها .

فى العلماء من استطاع أن يختزن و يملأ مخازنه بالسلع ثم لم يستطيع بعد ذلك أن يعرض سلعه على جمهور الناس ، فهو وخالى المخازن سواء ، كلاهما لا يستفيد منه الجمهور شيئاً . أما الجاحظ فقد وفق فى الحالين جميعا . وفق فى التحصيل حتى

امتلأت مخازنه ، ووفق فى العَرض حتى اجتذب الجماهير . فكان كالتاجر الماهر فى الإعلان عن سلعه ، الماهر فى كيفية عرضها على الأنظار . ووفق فى القانون الذى وضعه هو إذ قال : « وينبغى للكاتب أن يكون رقيق حواشى اللسان عذب ينابيع البيان ، إذا حاور سدد سهم الصواب إلى غرض المعنى ، لا يكلم العامة بكلام الخاصة ، ولا الخاصة بكلام العامة » ؛ ولذلك رزق الحظوة عند القراء وبلغت شهرته الآفاق . قال رجل لأبى هفان : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك ؟ فقال : أمثلى يُخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة .

فثقافته التى ثقفها قد هضمها وأخرجها للناس خيراً مما أخذها . أخذها متفرقة وأخرجها مجتمعة ، أخذها من منابع مختلفة وعرضها فى جدول واحد ، أخذها مادة لا حياة فيها ، وأخرجها مادة حية بنفسه ، حية بآرائه وفكاهته ، حية باختياره الموضوعات المناسبة للقول ؛ فيثير عواطف السامعين ويزيد انتباههم .

* * *

لقد اتجهت تآليفه اتجاهات متعددة ، ووسعت مواضيع شتى سعة من جنس سعة ثقافته .

فقد عدّ له ياقوت فى معجم الأدباء نحواً من ١٢٧ كتاباً لا أُمل القارئ بتعداد أسمائها ، ولكن أعرض فى سرعة بعض موضوعاتها :

فهو يؤلف فى التاريخ ككتابه فى الإمامة ، وكتاب تصويب علىّ فى تحكيم الحَكَمين . . . الخ ؛ بل يؤلف فى فلسفة التاريخ ، فله كتاب اسمه « كتاب الأخبار وكيف تجمع » .

ويؤلف فى الرد على المخالفين وفى الفِرَق ، ككتابه فى الرد على النصارى والرد

على اليهود ، وكتابه فى الزيدية والرافضة .

ويؤلف فى الأخلاق ، كرسالته فى الحاسد والمحسود ، ورسالته فى كتمان السر ، ورسالته فى الكرم .

ويؤلف فى الحيوان ، ككتابه المشهور ، وفى النبات ككتابه المسمى كتاب الزرع والنخل .

ويؤلف فى نظرية المعرفة ككتابه المسمى « كتاب المعرفة » ، وكتابه فى الرد على أصحاب الإلهام .

ويؤلف فى البلاغة والأدب ، كالبيان والتبيين ، وكتاب صناعة الكلام .

ويؤلف فى الاجتماع بأوسع معانيه ، ككتابه فى المعلمين ، وفى الفتيان ، وفى اللصوص ، وفى الجوارى ، والمحامين (الوكلاء والموكلين) ، والصناعات ، وغش الصناعات ، وذوى العاهات ، والنساء ، والسود والبيض ، والصرحاء ، والهجناء ، والعرجان والبرصان .

ويؤلف فى الاقتصاد ، مثل كتابه تحصيل الأموال ؛ وكتابه فى الخراج .

ويؤلف فى الجغرافيا كتاب البلدان ؛ ولا يفوته الطب ، فيؤلف كتابه فى نقض الطب .

***

هذه بعض نواحيه ، وهى فى منتهى السعة والتعدد .

نعم إنه غلب عليه فى معالجة هذه الموضوعات الناحية الأدبية لا الناحية الفنية أو العلمية الصرفة ، فهو يؤدب كل شىء تكلم فيه حتى الزرع والنخل ، والأسد والثعلب . ولكن شأنه فى ذلك شأن علماء العصر الحاضر أرادوا أن يقطّروا العلم للجمهور فأدبوه وجعلوه فى شكل قصة ، وفى أسلوب أدبى مشوّق .

فقد فعل الجاحظ قبل أحد عشر قرناً ما نحاول عمله اليوم من مزج العلم بالأدب . وقد كان الأدب قبله فى كثير من أنواعه ليس إلا شقشقة لفظية .

ثم نقل حدود الأدب إلى أبعد مدى ، فبعد أن كان الأدب مقصوراً على الأقوال اللبقة الجميلة جعله شاملا لكل موضوعات الحياة .

رحم الله الجاحظ ، فقد تثقف فأجاد فى ثقافته ، وعرض معارف الناس لوقته فأجاد فى عرضه .

# الفُتُوَّة في الإسلام

لكل كلمة تاريخ يشبه تاريخ الرجال وتاريخ النظم السياسية ، وتاريخُ الكلمات قد يكون معقداً ملتوياً غامضاً ، كما يحدث فى غيره من أنواع التاريخ ، فيجتهد الباحث فى استعراض النصوص الكثيرة فى العصور المختلفة ، ليستخلص منها تقلبات الكلمة فى أوضاعها المختلفة ؛ وهذا ما أحاوله فى كلمة الفتى والفتوّة .

الفُتُوَّة ، معناها فى الأصل الشباب ، قالوا : فَتِىَ يَفْتَى أى صار شابا ، وقالوا : هو فَتِىُّ السن بَيِّن الفتاء ، وقد ولد له فى فتاء سِنّه أولاد أى فى شبابه . وأصل كلمة فتى مصدر فَتِىَ فتى كمرح مرحا ، ثم جعلت وصفاً فقيل هو فتى أى شاب . وجمعوا الفتى على فتيان وفُتُوّ وفِتْية ، والاسم من ذلك كله الفُتُوَّة[1] . ووصفوا بالفتوة الحيوان والإنسان فقالوا : إن الأفتاء من الدواب خلاف المَسَانّ ، وقالوا للشاب فتى ، وللشابة فتاة .

ثم نراهم نقلوا الكلمة نقلة أخرى ، فاستعملوها لا للدلالة على القوة ، فقد يكون الشاب ضعيفاً فاتر القوى ويسمى بالوضع الأصلى شابا وفتى ، فاستعملوها للدلالة على القوة ، لأن الشباب عنوان القوة ، قال ابن قتيبة : ليس الفتى بمعنى الشباب والحدث ، إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال ، يدل على ذلك قول الشاعر :

إن الفتى حَمَّالُ كلِّ مُلِمَّةٍ  ليس الفتى بمُنَعَّمِ الشُّبَّان

ويقول آخر :

---

(١) انظر فى ذلك لسان العرب مادة ف ت ى .

يا عزُّ هل لكِ فى شيخ فتى أبدا وقد يكون شباب غير فتيان

فالفتوة — على هذا — معناها القوة ، لأن الشباب مصدرها عادة . ومن هذا المعنى — على ما يظهر — تسميتهم الليل والنهار باسم الفتَيان ، ومَنْ أقوى من الليل والنهار فى إذلال كل عزيز و إضعاف كل قوىّ ؟ ومنه قول الشاعر :

ما لَبِثَ الفتيَانِ أنْ عَصَفَا بهم ولِكل قُفْلٍ يسَّرا مِفْتَاحا

ثم مَنْ أحق منهما بأن يسمَّيا فتيين ، وقد سُمِّيا قبل بالجديدين ؟ ففتوة الناس مرحلة قصيرة المدى ، وفتوة الليل والنهار متجددة أبداً .

ثم رأيناهم نقلوا معنى الفتى نقلة ثالثة ، من ذلك ما قال الجوهرى : الفتى السخى الكريم . وقال الزمخشرى فى الأساس : الفتوة هى الحرية والكرم . قال عبد الرحمن بن حسان :

إن الفتى لَفَتَى المكارم والعلا ليس الفَتَى بمُفَلَّجِ الصبيان

فكأنهم فى هذا لاحظوا المعنى أكثر مما لاحظوا المادة ، لاحظوا المعانى التى تكسب صاحبها القوة المعنوية من حرية وكرم أكثر مما لاحظوا القوة الجسمية ، وهذا — عادة — هو ما يحدث فى الأوصاف ، كالشجاعة ، كانت لا تطلق إلا على القوة البدنية . ثم لما أمعن الناس فى الحضارة اخترعوا ما سموه الشجاعة الأدبية ، يعنون بها الجهر بالحق مع التعرض للأخطار .

وفى هذه النقلة يظهر أن الكلمة أصبحت خاضعة للبيئات المختلفة ، تُلبسها كلُّ بيئة ما تنشده المثل الأعلى للفتى . فطرفة يرسم لنا صورة للفتى كما يتصورها هو و بيئته فيقول :

إذا القومُ قالوا مَنْ «فَتى» خِلْتُ أننى عُنِيتُ فلمْ أكْسَلْ ولم أتبلَّدِ
أحلتُ عليها بالقَطِيعِ فأجْذَمَتْ وقد خبَّ آلُ الأمْعَزِ المُتوقِّدِ
فذَالَتْ كما ذَالَتْ وَلِيدَةُ مَجْلِسٍ تُرِى رَبَّها أذيالَ سَحْلٍ مُمَدَّدِ

وَلَسْتُ بِحَلَّالِ التِّلاعِ مَخافَةً ... ولَكِنْ متى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ
فإن تَبْغِنِي في حَلْقَةِ القوم تَلْقَنِي ... وإن تَلْتَمِسْنِي في الحَوَانيتِ تَصْطَدِ
وإن يلتقِ الحيُّ الجميعُ تُلاقِنِي ... إلى ذِرْوَةِ البَيْتِ الشريفِ المُصَمَّدِ

فهو يقول : إذا ما سأل القوم عن « فتى » ينجدهم فى الملمات لم يجدوا الفتوة متوافرة فى أحد توافرها فىّ ، ثم علّل استيفاءه للفتوة بأنه سرعان ما يهوى إلى ناقته يضربها بالسياط ، لتسرع فى السير للإنجاد ، فتتبختر فى مشيتها كما تتبختر سيدة ترقص بين يدى سيدها . هذه أولى الصفات .

وثانية ، وهى أنه لا يلجأ إلى التلاع مخافة حلول الأضياف ، فهو واسع الرحب فى قِرى الضيوف ؛ كما هو سريع النجدة فى قتال الأعداء ، وهو — إلى ذلك — فى حياته جادّ هازل يدلى برأيه بين عظماء القوم عند ما يجدّ الجد ، لأنه شريف النسب عالى الحسب ، فإذا فرغ الجد ودعا داعى اللهو فهو فى الحانات يشرب ، وندماؤه أحرار كرام تتلألأ ألوانهم وتشرق وجوههم وتغنيهم مغنية لابسة برداً أو ثوباً صبغ بالزعفران . فالفتوة فى نظره ونظر أمثاله شجاعة وكرم وإتلاف المال فى الجد والهزل وعدم الاعتداد بالحياة فى سلم أو حرب ، وقد شرح هذه الخصال بعد فى قوله :

ولولا ثلاثٌ هنَّ من عِيشَةِ الفَتَى ... وجدِّكَ لم أَحفِلْ متى قام عوَّدى
الخ ...

أما زهير الحكيم الرزين الوقور فيرى رأياً غير رأى طرفة الشاب الغر اللاهى ، فهو يرى أن الفتى إنما هو من استكمل الفصاحة فى لسانه ، والقوة فى جنانه ، وأن الشيخ لا أمل فيه للإصلاح ، وأن الفتى هو موضع الأمل فى الصلاح :

لسان الفتى نِصْفٌ وَنصفٌ فؤادُه    فلم يبقَ إلا صورة اللحم والدم
وأن سَفَاهَ الشَّيْخِ لا حِلْمَ بعدَهُ    وأنّ الفتى بعدَ السَّفاهَةِ يَحْلُمُ

وعلى كل حال فطرفة وزهير يتفقان فى أن من صفات الفتى الشجاعة وقوة القلب ، وأن الفتوة وصف من أوصاف الشباب ، ويختلفان فى أن طرفة يرى من الفتوة اللهو والاستمتاع بالحياة ، وزهيراً يرى الفتوة فى الجد والعقل والفصاحة . ومصدر الخلاف أن طرفة كان فتى تتملكه العاطفة ، وزهيراً كان شيخاً رزينا حكيما مجربا ، وربما ظلّ النظران فى الإسلام كما كانا أيام طرفة وزهير كما سنرى .

وعلى كل حال فقد استعملت كلمة الفتى فى الجاهلية مطلقة ومضافة ، فإذا أضيفت تعين مدلولها مدحا وذما ، فقد يقولون فتى صدق ، وفتى سوء . قال مسكين الدارمى :

وفتيانُ صِدْقٍ لستُ مُطْلِعَ بعضهم    على سِرِّ بعضٍ غير أنّى جِمَاعُها

وقال المَرَّار بن مُنْقِذ :

وكائِنْ من فَتَى سَوْءٍ تَرَاهُ    يُعَلِّكُ هَجْمَةً حُمْرًا وَجُونَا (١)

وإذا أطلق استعمل فى المدح ، وأكثر ما يدل على الشباب والشجاعة والكرم .

ولم يكن للفتوة نظام كالذى عُرف بعد فى الإسلام . وكل ما نراه أنهم يستعملون — مثلا — « فتيان القبيلة » يعنون بها شبانهم الأبطال ، فيقولون فتيان قريش ، وفتيان تميم . قال المرار بن منقذ :

وأنا المذكورُ من فِتْيَانِها    بفعالِ الخيرِ إن فِعْلٌ ذُكِرْ
أعرِف الحقَّ فلا أُنكِرُه    وكلابى أُنُسٌ غيرُ عُقُرْ

---

(١) التعليك أن يشد يديه على ماله من بخله ، فلا يقرى منه ضيفا ولا يعطى منه سائلا . والهجمة مائة من الإبل .

لا تَرَى كلبيَ إلّا آنسا     إن أتى خابطُ لَيلٍ لم يَهِرّْ

وقال المُزَرِّد :

وقد علِمَتْ فتيان ذبيانَ أنني     أنا الفارس الحامى الذِّمَارِ المقاتل

كذلك لا نعلم لباساً خاصاً للفتيان ، ولكن روى لنا أن أبطال العرب فى الحروب كانوا يتخذون لهم شعاراً . قال الحصين بن الحمام :

بآيَةِ أنِّى قد فُجِعْتُ بفَارِسٍ     إذا مَرّدَ الأقوامُ أقْدَمَ مُعْلَمَا

وفسروا « المُعْلَم » بأنه الذى يجعل لنفسه علَماً فى الحرب يُعرف به ، يفعل ذلك ليُعْرَف فيثبت ولا ينهزم مع من انهزم ، لخوف العار إذا انهزم بعد أن عُلِم . وقد رووا أن حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه يوم بدر أعْلَمَ نفسه بريش نعامة ، فقال بعض المشركين : من المُعْلَمُ بريش نعامة ، فقيل حمزة ، فقال : « ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل » .

واستعمل القرآن « فتى » وصفاً لإبراهيم (ص) : « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » . واستعمله وصفاً لأهل الكهف : « إنهم فتية آمنوا بربهم » ، « إذ أوى الفتية إلى الكهف » ؛ وقد فُسّر فى الموضعين بالشباب . وقد جاء الإسلام باستعمال خاص لكلمة فتى ، ذلك أنه لم يرض أن يسمى الرقيق المملوك عبد فلان وأمَة فلان ، وكره العبودية تضاف لغير الله ، فاختار لهما اسما محبوباً وهو الفتى والفتاة . جاء فى الحديث : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، ولكن ليقل فتاى وفتاتى » . وعلى هذا المعنى ورد قوله تعالى : « وإذ قال موسى لفتاه » ، وقوله : « ولا تُكْرِهُوا فتياتكم على البغاء » ، « وقال لفتيانه » .

وأطلقت الكلمة على الرقيق حتى سئل أبو يوسف عمن قال : « أنا فتى فلان » ، فقال : هو إقرار منه بالرق . وكأنه اختير خير الألفاظ الدالة على

الحرية للدلالة على الرق طلباً لحسن معاملة الرقيق ، حتى نما يطلق عليهم من لفظ .

ولكن ظلت كلمة الفتى تستعمل فى المعنى الأول ، وهو الشجاعة والفروسية فى الشباب ، فقالوا : « لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علىّ » ، وكان علىّ كما جاء فى الإصابة « قد اشتهر بالفروسية والشجاعة والإقدام » .

ولما مات مَخْلَد بن يزيد بن المهلب ، وهو ابن سبع وعشرين سنة ، وكان شهماً نبيلا ، صلى عليه عمر بن عبد العزيز ، ثم قال : اليوم مات فتى العرب .

وقال يزيد بن مفرّغ :

فالهول يركبه الفتى حذر المخازى والسآمه
والعبد يُقرَع بالعصا والحر تكفيه الملامه

ونجد فى العهد الأموى أمراً يستوقف النظر ، فقد ذكر الأغانى فى ترجمة حُنَيْن الحِيرى كلمات فى الفتوة تستحق الإمعان ، وكان حنين هذا مغنياً نصرانياً من الحِيرة ، وكان فى أيام هشام بن عبد الملك ، ومن شعره الذى كان يغنى به :

أنا حُنَيْنٌ ومَنْزِلى النَّجَفُ وما نَدِيمى إلا الْفَتى الْقَصِفُ
أَقرَعُ بالكَاسِ ثَغْرَ بَاطِيَةٍ مُتْرَعَةٍ تَارَةً وَأَغْتَرِفُ
مِنْ قَهْوَةٍ بَاكَرَ التِّجَارُ بها بَيْتَ يَهُودٍ قَرَارُها الخَزَفُ
والعَيْشُ غَضٌّ وَمَنزِلى خَصِبٌ لم تَغْذُنى شِقْوَةٌ وَلا عُنُفُ

فقال فيه صاحب الأغانى : « كان حنين غلاما يحمل الفاكهة بالحيرة ، وكان لطيفاً فى عمل التحيات [1] ، فكان إذا حمل الرياحين إلى بيوت « الفتيان » ومياسير أهل الكوفة وأصحاب القيان والمتطربين إلى الحيرة ،

(١) التحية ما يقدم عند التحية من طاقات الرياحين ونحوها .

ورأوا رشاقته وحسن قدّه وحلاوته وخفة روحه ، استحلوه وأقام عندهم ، وخفّ لهم ، فكان يسمع الغناء ويشتهيه ويصغى إليه ، ويستمعه ويطيل الإصغاء إليه » .

وقال فى موضع آخر عن حنين فيما حَكى عن نفسه : « خرجتُ إلى حمص ألتمس الكسب بها ، وأرتاد من أستفيد منه شيئاً ، فسألت عن « الفتيان » بها وأين يجتمعون ، فقيل لى عليك بالحمامات ، فجئت إلى أحدها فدخلته فاذا فيه جماعة منهم ، فأنست وانبسطت وأخبرتهم أنى غريب . ثم خرجوا وخرجت معهم ، فذهبوا بى إلى منزل أحدهم ؛ فلما قعدنا أُتينا بالطعام فأكلنا ، وأُتينا بالشراب فشربنا ، فقلتُ لهم : هل لكم فى مغن يغنيكم ؟ قالوا : ومن لنا بذلك ... » الخ .

هذان النصان يستفاد منهما :

١ — أن هناك فئة تسمى الفتيان كانوا فى الحيرة وكانوا فى حمص ، ولا بد أنهم كانوا فى غيرها ، ولكن لم تأت مناسبة تستدعى ذكر غيرها .

٢ — وأن هؤلاء الفتيان ليسوا كل شباب ، وإنما نوع خاص منهم يظهر من عبارته أنهم من المياسير ، وممن لهم حظ فى السماع والشراب وما إليهما .

٣ — وأنهم كان لهم مجتمعات خاصة يُعْرَفون فيها بالبلدة ، يسأل عنها الغرباء أمثال حنين الفتى المغنى فيقصدهم لقضاء أيام بينهم ؛ فهؤلاء الفتيان يضيفون حُنيناً وأمثاله ، ويقدمون إليهم ما يحتاجون له من مأكل ومشرب ومبيت ، ويقضون أوقاتهم فى حديث وسماع .

يضاف إلى ذلك أن أنواعاً من الفروسية عُنى بها الشباب فى العهد الأموى كعنايتهم بالصيد وتربية الحيوانات المعلّمة يطلقونها على الصيد . فقد روى الفخرى : « أن يزيد بن معاوية كان أشد الناس كلفاً بالصيد لا يزال لاهياً به وكان يُلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ، ويهب

لكل كلب عبداً يخدمه[1] » . كما أخذوا عن الفُرْس اللعب بالبندق ، وهو كرات صغيرة من طين أو حجر أو رصاص يُرمى بها عن قوس لصيد الطير أو نحوه ، وسموه أيضاً الاسم الفارسى وهو الجلاهق ، وليس ببعيد أن تتصل ألعاب الفروسية هذه بالفتوة ، ولكن على كل حال لا تزال النصوص التى بين أيدينا عن مدلول الفتوة فى هذا العصر قاصرة .

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى العصر العباسى وجدنا كلمة « الفتوة » استعملت فى أربعة معان :

فأولا : كانت تستعمل للدلالة على المروءة من نبل وكرم وما إليهما ، من ذلك ما جاء فى كتاب أدب النديم لكُشَاجِم : « أن رجلا من أصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر دعاه للطعام عنده ، دعوة احتفل لها ، فلما حضر محمد طالبه بالطعام فمطله ، ليتكامل ويتلاحق على ما أحبه من الكثرة والحفلة ، حتى تصرّم أكثر النهار ؛ ومسَّ محمداً الجوع ، فتنغّص عليه يومه . وأراد محمد السفر فشيّعه هذا الرجل حتى إذا دنا منه ليودعه قال له : « أيأمر الأمير بشىء ؟ » ؛ قال : « نعم ! تجعل طريقك فى عودتك على محمد بن الحارث ، فاسأله أن يعلمك الفتوة » فمضى حتى دخل إلى محمد فقال له : « بعثنى إليك الأمير لتعلمنى الفتوة » ؛ فضحك وقال : « يا غلام ! هات ما حضر » ، فأتى بطبق كبير عليه ثلاثة أرغفة من أنظف الخبز وأنقاه ، وسكرجات وخلّ وملح من أجود ما يتخذ من هذه الأصناف ، وابتدأ يأكل ، فجاءته فضيلة باردة من مطبخه وتداركها الطباخ بطباهجة وأحدث له بعض فنجان جام حلواً ، فانتظم له أكل خفيف ظريف فى زمان يسير وبغير احتشام وانتظار » .

فهو يستعمل الفتوة فى الكرم فى سماحة من غير تكلف ، ومن هذا القبيل

---

(١) ص ٤٩ ط . مصر

ما قاله أبو البلهاء فى يزيد بن مزيد الشيبانى يرثيه :

نعم الفتى فَجَعَت به إخوانَه          يوم البقيع حوادثُ الأيام
سهل الفِناء إذا حللت ببابه          طلق اليدين مؤدَّب الخدَّام
وإذا رأيت صديقه وشقيقه          لم تدرِ أيهما ذوو الأرحام

وثانياً — نرى الصوفيـة استحسنت كلمة « الفتوة » وما تدل عليه من معانى النبل والسماحة ، فأدخلته فى معجم كلماتها وعدَّته من فضائلها . وأول ما نجد ذلك فى الرسالة القشيرية ، فقـد عقد القُشَيرى باباً سماه « باب الفتوة » بجانب باب الحياء والصدق والحرية ، وقال فى تعريفها : « أصل الفتوة أن يكون العبد ساعياً أبداً فى أمر غيره » ؛ ونقل عن الفضيل أنه قال : « الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان » ؛ وقال بعضهم : « الفتوة ألَّا ترى لنفسك فضـلا على غيرك » : وجَرَوا على عادتهم فى الأدب الرمزى فقالوا : « إن إبراهيم سُمِّىَ فى القرآن فتى لأنه كسر الصنم ، وصنم كل إنسان نفسه ، فالفتى فى الحقيقة من خالف هواه ونفسه » . وهكذا أحيا الصوفية كلمة « الفتوة » ونقلوا عن كبارهم كلمات فيها . فالحارث المحاسبى يقول : « الفتوة أن تُنْصِف ولا تَنْتَصِف » . وقال غيره : « الفتوة إظهار النعمة وإسرار المحنة » . وسئل أحمد بن حنبل : ما الفتوة ؟ قال : « ترك ما تهوى لما تخشى ... الخ » . ولهم فى ذلك الحكايات الظريفة فى الفتوة كعادتهم ، من ذلك أن صوفياً تزوج امرأة ثم ظهر عليها الجدرى قبل الدخول بها ، فتعامى الصوفى حتى لا يجرح شعورها ، فلما ماتت فتح عينيه ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : « لم أعْمَ ، ولكن تعاميت حذراً من أن تحزن » ؛ فقيل له : « سبقت الفتيان » . ومن ذلك ما حكوه أن إنساناً يدَّعى « الفتوة » خرج من نيسابور إلى بلدة نَسَا بخراسان ، فاستضافه رجل ومعـه جماعة من الفتيان ، فلما فرغوا من أكل الطعام خرجت جارية تصب الماء على

أيديهم ، فأبى الفتى النيسابورى وقال : « ليس من الفتوة أن تصب النساء الماء على أيدى الرجال » .

وحكوا أن جماعة من الفتيان زاروا فتى ، فدعا غلامه ليقدم الأكل لهم ، فأبطأ الغلام ، فسأله الرجل : « لم أبطأت ؟ » فقال الغلام : « كان عليها نمل ، فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلى الفتيان مع النمل فيها ، ولم يكن من الفتوة طرد النمل عن السفرة ، فلبثْتُ حتى دبّ النمل » ؛ فقال له صاحب البيت : « قد دققت يا غلام فى الفتوة » .

ولبث الصوفية بعد ذلك يتجادلون جدالا ظريفاً فى تفسير كلمة الشيخ ، هل عاب على الغلام أو مدحه ؟ وهل هذا العمل من الفتوة أو لا ؟ وهل الخوف من إيذاء النمل بالطرد يجب أن يراعى ولا يراعى الخوف من إيذاء الضيوف بالانتظار ؟ إلى غير ذلك .

وعقد الشيخ محيى الدين بن العربى فصلا طويلا فى كتابه الفتوحات المكية عنوانه : « معرفة مقام الفتوة وأسراره » ، قدّمه كعادته بأبيات من الشعر فيها :

إن الفتــوة ما ينفك صاحبها ... مقدَّماً عند رب الناس والناس
إن الفتى مَنْ له الإيثار تحلية ... بحيث كان فمحمول على الراس
ما إن تزلزله الأهوا بقوّتها ... لكونه ثابتاً كالراسخ الراسى
لا حزن يحكمه لا خوف يشغله ... عن المكارم حال الحرب والباس
انظر إلى كسره الأصنام منفرداً ... بلا معين فذاك اللين القاسى

وقد بناه على قصة إبراهيم ، وأنه جاد بنفسه للنار إيثاراً للحق .

وعلى الجملة فقد أدخل الصوفية « الفتوة » فى مذهبهم وصبغوها بصبغتهم ، وجعلوها مقاماً من مقاماتهم ، وملئت بها كتبهم ، ونقلوها من المعنى الدنيوى إلى المعنى الدينى ، كالزهد والإيثار وضبط النفس وحملها على الحق ، مهما استتبع ذلك من المكاره .

ثم وجدناهم — ثالثاً — يستعملون الكلمة فى نوع من الناس هم الشبان الأشداء الذين يتباهون بقوتهم ثم يهددون الناس فى أموالهم وأنفسهم . ومن هذا القبيل ما جاء فى الرسالة القُشَيرية من أن شقيق بن إبراهيم البلخى كان «يتفتى ويعاشر الفتيان» . وكان على بن عيسى بن ماهان أمير بلخ ، وكان يحب كلاب الصيد ، ففقد كلباً من كلابه ، فسُعى برجل أنه عنده — وكان الرجل فى جوار « شقيق » — ؛ فطُلب الرجل فهرب ، فدخل دار شقيق مستجيراً ، فمضى شقيق إلى الأمير ، وقال : « خلوا سبيلى ! فإن الكلب عندى أرده إليكم إلى ثلاثة أيام » ؛ فخلوا سبيله ، وانصرف شقيق مهتما لما صنع . فلما كان اليوم الثالث كان رجل من أصدقائه غائباً من بلخ رجع إليها ، فوجد فى الطريق كلباً عليه قلادة ، وقال أهديه إلى شقيق فإنه يشتغل بالتفتى ؛ فحمله إليه ، فنظر شقيق فإذا هو كلب الأمير ، فسرّ به ، وحمله إلى الأمير وتخلص من الضمان ، فرزقه الله الانتباه وتاب مما كان فيه ، وسلك طريق الزهد[1] . ومن ذلك ما جاء من أن أحمد بن خضرويه قال لامرأته : « أريد أن أتخذ دعوة أدعو فيها عيّاراً شاطراً كان فى بلدهم رأس الفتيان » ؛ والعيارون الشطار هم فئة ينطبق عليهم ما ذكرنا من اعتزازهم بالقوة ، واستخدامها فى التهديد والسلب والنهب .

ثم هناك نوع رابع تستعمل فيه الكلمة ، هو نوع من الفروسية المنظمة ، فقد اشتهرت ألعاب الفروسية فى العصر العباسى ونظمت ، وكثر اللعب بالبندق والخروج به لرمى الصيد . فقد ذكر الأغانى فى سبب موت الشاعر « أبى العبر » أنه خرج إلى الكوفة ليرمى بالبندق مع الرماة من أهلها فى آجامهم ، فسمعه بعضهم يقول قولا سيئاً فى علىّ فقتله[2] . كما عنوا بلعب الكرة والصولجان وبالصيد

---

(١) الرسالة القشيرية ، ص ١٦ .

(٢) الرسالة القشيرية ٢٠ — ٩٣ .

والقنص . وقال الفخرى : « إن المعتصم كان ألهج الناس بالصيد ، بنى فى أرض دجيل حائطاً طوله فراسخ كثيرة ، وكان إذا ضرب حلقة يضايقونها ، ولا يزالون يحدون الصيد حتى يدخلونه وراء ذلك الحائط ، فيصير بين الحائط و بين دجلة ، فلا يكون للصيد مجال ، فإذا انحصر فى ذلك الموضع دخل هو وولده وأقار به وخواص حاشيته ، وتأنقوا فى القتل وتفرّجوا ، فقتلوا ما قتلوا وأطلقوا الباقى ، وكانوا يعدون هذه الأنواع من صيد ورمى ونحوهما من قبيل الفتوة » .

***

على كل حال فى العصر العباسى و بعده تمت الفتوة فى مناحيها المختلفة ، وأهمها نوعان : فتوة يصح أن نسميها فتوة مدنية أو دنيوية ، وفتوة دينية أو صوفية . ويظهر أن النوعين كانا متميزين بعضهما عن بعض فى نظمهما وتقاليدهما ، وهذا ما سنحاول أن نوضحه .

الفتوة المدنية : وهى — على ما يظهر — وليدة الفروسية والشجاعة ، ومن قديم عرف العرب بالشجاعة والفروسية ، وقالوا فى ذلك الأشعار الكثيرة من أمثال معلقة عمرو بن كلثوم وعنترة بن شداد ، وخلفوا لنا أدبا وافراً فى كل ما ينطق بالفروسية والشجاعة . وعنى المؤلفون بعد فى جمعها وتصنيفها ككتاب « حلبة الفرسان وشعار الشجعان » لابن هذيل الأندلسى ( وقد طبعه مارسيه سنة ١٩٢٢ بباريس ) وقد ذكر فيه الخيل وصفاتها والمسابقة بها ، والسيوف والرماح والقِسِىّ والنبل والدروع والترس وما إلى ذلك . وما قيل فيها من أشعار وآثار وغير هذا من الكتب كثير .

ولما جاءت الدولة العباسية تسلّط العنصر الفارسى أولا والتركى ثانياً ، وكان لهم نظم فى الفروسية غير النظم العربية البسيطة البدوية ، فتسربت منهم إلى المسلمين . ورأينا المؤرخين يذكرون أن « الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان

ورمى بالنشاب فى البرجاس » ؛ والـكرة والصولجان من ألعاب الفرس كما يدل عليهما اسمهما . ورأيناهم يقولون فى المعتصم : إنه « غلب عليه حب الفروسية والتشبه بملوك الأعاجم »[(١)] ، وأنه « قسم أصحابه للعب الـكرة »[(٢)] . ومعلوم أن المعتصم أول من استعان بالأتراك فى أعماله وقربهم إليـه وجعلهم جنده ، واشتهر فى عصره بالتفنن فى الصيد والقنص ، وعدّوه مما يدرب على الفروسية ويمرن على احتمال الجوع والعطش ، ويقوّى على شدة التعب[(٣)] . واقتبسوا فى ذلك من الفرس والأتراك ، فعلّموا الجوارح من الطير والـكواسر من الفهود والـكلاب ، ووضعوا الـكتب فى جودتها وصفاتها وطرق تعليمها وأمراضها وما يصلح كل واحد منها . وسايرهم الشعراء والأدباء فى ذلك ، فأصبحنا نرى فى كثير من دواوين الشعراء باباً خاصاً يسمى « باب الطَّرَد » وهو الصيد ، وقالوا الأشعار الـكثيرة فى وصف الفهود والـكلاب والباز والصقر ونحوها ، ووضعت الـكتب فى ذلك وسمى الفن « فن البيـزرة » ، ورويت القصص الـكثيرة فى أحاديث الفروسية ، وقارنَ الـكتاب بين فروسية العرب والفرس والترك وغيرهم مما ليس هنا مجاله ، ووضعوا القواعد لتعليم الفروسية فقالوا — مثلا — إنه يجب أن يبتدئ الفارس بالخفة فى الوثوب والنزول ، ثم يتدرب على ركوب الفرس العربى العريان بلا عدة سوى الرَّسَن . قال المتنبى فى وصف أمثالهم:

فكأنها خُلِقتْ قياماً تحتهم     وكأنهم وُلِدُوا على صَهَواتها

ثم يتعود ركوبها على اختلاف أنواع سيرها ؛ ثم الصيد عليها وهكذا . وكذلك وضعوا التعاليم للقسى والنشاب والتروس وما إليها .

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، س ١٥٦ .
(٢) هامش تاريخ الخلفاء . س ١٥٠ .
(٣) آثار الأول ، هامش تاريخ الخلفاء ، س ١٥٤ .

وكانت الوقائع بين المسلمين والروم فى الثغور منشأ لظهور ضروب من الفروسية تستدعى الإعجاب ، كما كانت الحروب الصليبية مصدراً كبيراً كذلك . وفى كتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ الشيزرى ، و« الروضتين » لأبى شامة ، و « سيرة صلاح الدين » لابن شدّاد أمثلة كثيرة من هذا الضرب تأخذ بالالباب .

كما اشتهر فى هذه العصور قوم من الاسماعيلية بهذه الفروسية ، جاء فى كتاب « آثار الاوّل » ، بعد أن ذكر قصة من فروسية بهرام : « ومثل هذا فى المعنى رجال ببلاد الاسماعيلية ، ويسمّون برجال الدعوة معدون لمثل هذا ، فإن الرجل منهم أو الرجلين يغنى عن حركات الجيوش الكثيرة ؛ ويقال لهم فى بلاد الاسماعيلية وفى بلاد الفرنج «الحشيشية» ، وعند أهل الأقاليم «الفِداوية» . وهم قوم على دين الإسلام ، وقد كانت للملوك الإسلامية بهم عناية كبيرة ، وفى زماننا عنى بهم الملك الظاهر وسيَّرهم فى الأشغال الكبار فقضوها مع الفرنج والتتار ... ... وفى قلاع الإسماعيلية فى زماننا هذا ألف بهرام »(١) .

ويظهر أن هذه الفروسية بشعائرها كانت سبباً فى نشأة « الفتوة » بهذا المعنى ، وقد وضعت لها نظم وتقاليد ؛ يدل على ذلك عبارة قيّمة وردت فى تاريخ ابن الأثير فى خلافة الناصر لدين الله العباسى الذى تولى من سنة ٥٧٥ إلى سنة ٦٢٢ هـ ، وهى : « وجعل ( الناصر ) جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة ، فأبطل الفتوة فى البلاد جميعها إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه . ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة ، وكذلك أيضاً منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره ، ومنع الرمى بالبندق إلا من ينتمى إليه ، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك ، إلا إنساناً واحداً يقال له ابن

---

(١) آثار الأول ، ص ١٧٥ ، ١٧٦

السقت من بغداد ، فإنه هرب من العراق ولحق بالشام ، فأرسل إليه (الناصر) يرغبه فى المال الجزيل ليرمى عنه وينسب فى الرمى إليه فلم يفعل ، فبلغنى أن بعض أصدقائه أنكر عليه الامتناع من أخذ المال ؛ فقال : يكفينى فخراً أن ليس فى الدنيا أحد إلا يرمى للخليفة إلا أنا ، فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور »(١) .

ما سراويل الفتوة ؟ وما شكلها ؟ وما نظام الفتوة الذى وضعه ؟ لا أعرف تفصيل ذلك .

وقد ذكر المقريزى فى كتابه السلوك عبارة تشبه هذه فى خلافة الناصر ، وزاد عليها بأنه كان من ضمن هذه الشعائر شرب كأس الفتوة .

وقد ذكروا أن كأس الفتوة هذه ليست نبيذاً ولا خمراً ، وإنما هى ماء وملح

ومن هذا القبيل أعنى الفتوة المدنية ما يروى أن ابن حَيُّوس الشاعر المشهور المتوفى سنة ٤٧٣ هـ — وكان متصلا ببنى مرداس بحلب وكان أميراً — كان يلقب بأمير الفتيان وإن لم أعثر على سبب لتلقيبه بهذا اللقب(٢) .

***

أما الفتوة الصوفية فقد تمت كذلك على توالى العصور ، وخير المصادر التى بين أيدينا تشرح حالها ومظاهرها رحلة ابن بطوطة ، الذى ولد فى طنجة سنة ٧٠٣ هـ وساح فى مصر وفارس والشام وجزيرة العرب والصين والتتر والهند وأواسط أفريقيا وأسبانيا .

وقد أكثر ابن بطوطة من ذكر نظام الفتيان فى سياحته فى الأناضول ،

---

(١) تاريخ ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٨١ .

(٢) انظر يتيمة الدهر للثعالبي ، ففيها شعر فى وصف فتيان العصر ، وانظر كذلك العتبي رئيس الفتيان بسمرقند ، على هامش ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٩ .

وشرح هذا النظام فى أول كلامه عليه ، فقد جاء فى الرحلة عنوان « ذكر الاخِيّة الفتيان » فقال : « واحد الأخية أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه ، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ( الأناضول ) فى كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظلمة ، وقتل الشُّرَط ومن لحق بهم من أهل الشر . والأخى عندهم رجل يجتمع عليه أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأغراب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هى الفتوة أيضاً ، ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج إليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام ، إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية . فإن ورد فى ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف ، وإن لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا إلى صناعاتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان . ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم ، ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان ، إلا أن هؤلاء أحب فى الوارد والصادر ، وأعظم إكراماً له وشفقة عليه »[١] .

وقد ذكر ابن بطوطة أيضاً أن أحد شيوخ الفتيان الأخية — وهو من الخرازين — دعاه فاستضعفه ، ثم تبين أنه « أخى » وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات ، وقدموه على أنفسهم وبنوا زاوية للضيافة ، وقد ذهب معه ابن بطوطة هو وأصحابه ، وقال فى وصف ما شاهده : « فوجدنا الزاوية حسنة ، مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقى ...

(١) رحلة ابن بطوطة ، ١٧٢ .

وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم الأقبية وفى أرجلهم الخفاف وكل واحد متحزم على وسطه بسكين فى طول ذراعين ، وعلى رءوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى طول ذراع وعرض إصبعين ، فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخانى وسواه حسنة المنظر ، وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلوى ، ثم أخذوا فى الغناء والرقص ، فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم ؛ وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم » . وهكذا ظل ابن بطوطة يذكر فى سياحته فى الأناضول أنه كان يسأل حين ينزل كل بلد عن الأخية والفتيان ، وأن الفتيان كانوا يتنازعون على ضيافته ، وأنهم يحتكمون أحياناً إلى القرعة ، وأنهم إذا أضافهم جماعة من الفتيان أدخلوهم الحمام ، فإذا خرجوا منه أتوهم بطعام وحلوى وفاكهة ، وبعد الفراغ من الأكل يقرءون القرآن ، ثم يأخذون فى السماع والرقص . وقد ذكر ذلك عدة مرات فى رحلته[1] .

وذكر ابن بطوطة الأخية فى موضع آخر فقال : « لما دخلنا الزاوية وجدنا النار موقدة ، فنزعت ثيابى ولبست ثياباً سواها ، وأتى الأخى بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك . فلله درهم من طائفة ما أكرم نفوسهم وأشد إيثارهم ، وأعظم شفقتهم على الغريب ، وألطفهم بالوارد وأحبهم فيه ، وأجملهم احتفالا بأمره ؛ فليس قدوم الإنسان الغريب عليهم إلا كقدومه على أحب أهله إليه »[2] .

يؤخذ من هذا كله أنه فى بلاد الأناضول وما حولها كان فى كل بلد جماعة

---

(١) انظر رحلة ابن بطوطة ص ١٧٥ — ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٩١ .

من الفتيان ، يعيشون عيشة اشتراكية ، فكل ما جمعه أحدهم من عمله أو صناعته دفعه لرئيسهم وهو « الأخى » ، وهو ينفق عليهم ، وهم يعيشون فى زاوية عيشة دينية مرحة ، فيها ذكر وفيها تلاوة قرآن وفيها غناء وفيها رقص ، وأن هذا إنما يكون لمن ليس لهم أسرة ، فهم عزاب أو نحوهم ، وليسوا يعيشون فقط لأنفسهم ، وإنما يعيشون كذلك للضيوف وللبائس والفقير .

وكانوا يلبسون كذلك لبسة خاصة شأن الصوفية ، فشيوخهم يلبسون لبسة ينسبونها شيخاً عن شيخ حتى تصل إلى الإمام على بن أبى طالب[١] .

وكان من انتشارها أن كثر استعمالها وتحدث الناس بها ، وتجادل العلماء فى شأنها .

يدل على ذلك استفتاء رفع إلى « ابن تيمية » المتوفى سنة ٧٢٨ هـ — ويلقى هذا السؤال ضوءاً على الفتوة ونظامها — فقد سئل عن « جماعة يجتمعون فى مجالس ، ويُلبسون الشخص منهم ( لباس الفتوة ) ، ويديرون بينهم فى مجلسهم شربة فيها ملح وماء ، ويشربونها ويزعمون أنها من الدين ... ويقولون إن رسول الله ألبس على بن أبى طالب لباس الفتوة ، ثم أمره أن يُلبسه من شاء ، ويقولون إن هذا اللباس أنزل على النبى (ص) فى صندوق ويستدلون عليه بقوله تعالى : يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم . فهل هو كما زعموا ، أو هو كذب واختلاق ؟ ... ومنهم من ينسب ذلك إلى الخليفة الناصر لدين الله عن عبد الجبار ، ويزعم أن ذلك من الدين . فهل لذلك أصل أم لا ؟ وهل الأسماء التى يسمى بها بعضهم بعضاً من اسم الفتوة ورءوس الأحزاب والزعماء لها أصل أم لا ؟ ... ويقوم رئيس القوم إلى الشخص الذى يُلبسونه ، فينزع عنه اللباس الذى يلبسه ويُلبسه الذى يزعمون أنه لباس الفتوة . فهل هذا جائز أم لا ؟ ...

(١) المرجع نفسه ، ص ١٢٠ .

وهل للفتوة أصل فى الشريعة أم لا ؟ ... وهل أحل أحد من الصحابة أو من التابعين أو من بعدهم من أهل العلم هذه الفتوة المذكورة ؟ ... » .

وقد أجاب « ابن تيمية » عن هذه الأسئلة فقال : إن لباس الفتوة و إسقاء الملح والماء باطل لا أصل له ، ولم يفعل هذا رسول الله ولا أحد من أصحابه ، ولا على بن أبى طالب ولا غيره ولا من التابعين — والإسناد الذى يذكرونه من طريق الخليفة الناصر إلى عبد الجبار إلى ثمامة فهو إسناد لا تقوم به حجة وفيه من لا يُعْرَف ... وما ذكر من نزول هذا اللباس فى صندوق هو من أظهر الكذب باتفاق العارفين بسنته ، واللباس الذى يوارى السوءة هو كل ما ستر العورة من جميع أصناف اللباس المباح ، أنزل الله هذه الآية لما كان المشركون يطوفون بالبيت عراة و يقولون : ثياب عصينا الله فيها لا نطوف فيها ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأنزل قوله : خذوا زينتكم عند كل مسجد — والكذب فى هذا أظهر من الكذب فيما ذكر من لباس الخرقة ، وأن النبى (ص) تواجد حتى سقطت البردة عن ردائه ، وأنه فرق الخرق على أصحابه الخ ...

وأما الشروط التى يشترطها شيوخ الفتوة ، فما كان مما أمر الله به : كصدق الحديث وأداء الأمانة وأداء الفرائض واجتناب المحارم ونصر المظلوم وصلة الأرحام والوفاء بالعهد ؛ أو كانت مستحبة : كالعفو عن الظالم واحتمال الأذى وبذل المعروف ، وأن يجتمعوا على السنة ، و يفارق أحدهما الآخر إذا كان على بدعة ونحو ذلك ، فهذه يؤمن بها كل مسلم ، سواء شرطها شيوخ الفتوة أو لم يشترطوها — وما كان منها مما نهى الله عنه ورسوله : مثل التحالف الذى يكون من أهل الجاهلية أن يصادق كل صديق الآخر فى الحق والباطل ، ويعادى عدوه فى الحق والباطل ، وينصره على كل من يعاديه ، سواء كان الحق معه أو مع خصمه ، فهذه شروط تحل الحرام وتحرم الحلال ،

وهى شروط ليست فى كتاب الله ، فهو باطل .

ثم قال ابن تيمية : وأما لفظ « الفتى » فمعناه فى اللغة « الحدث » ، كقوله تعالى : « إنهم فتية آمنوا بربهم » ، وقوله تعالى : « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » . لكن لما كانت أخلاق الأحداث اللين ، صار كثير من الشيوخ يعبرون بلفظ الفتوة عن مكارم الأخلاق ، كقول بعضهم : « الفتوة أن تقرّب من يقصيك ، وتكرم من يؤذيك ، وتحسن إلى من يسىء إليك ، سماحة لا كظما ، ومودّة لا مسايرة » . وقول بعضهم : الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى ؛ وأمثال ذلك ، فهذه أمور حسنة مطلوبة محبوبة سميت فتوة أم لم تسمّ .

وأما لفظ الزعيم فإنه مثل لفظ الكفيل والقبيل والضمين ، قال تعالى : « ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » ؛ فمن تكفل بأمر طائفة فإنه يقال هو زعيمهم فإن كان قد تكفل بخير كان محموداً على ذلك ، وإن كان شراً كان مذموماً على ذلك . وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التى تتحزب أى تصير حزباً ، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان ، فهم مؤمنون ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وإن كانوا قد زادوا فى ذلك ونقصوا : مثل التعصب لمن دخل فى حزبهم بالحق والباطل ، والإعراض عمن لم يدخل فى حزبهم سواء أكان على الحق أو الباطل ، فهذا من التصرف الذى ذمّه الله تعالى ورسوله ؛ فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف ، ونهيا عن الفرقة والاختلاف ، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى ، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان .

هذه خلاصة الفتوى ، وهى تريناً صورة من جماعة الفتوة وتقاليدهم وتعاليمهم وحركة رجال الدين المعارضين لهم [1] .

* * *

---

(١) هذه هى فتوى ابن تيمية باختصار ، وقد وردت فى رسالة فى الفتوة ضمن رسائل ابن تيمية طبعة المنار .

وهذان النوعان من الفتوة — أعنى الفتوة الصوفية والفتوة المدنية — ظَلاَّ يعملان ويتطوران إلى عصرنا هذا : فالفتوة الصوفية تحولت فى تركيا إلى قوة دينية ، كالولاية النقشبندية تساير قوة السلاطين السياسية أحيانا وتناهضها أحيانا ، حتى أبطلتها تركيا فى ثورتها الحديثة . وتحولت فى الشرق إلى خانقاه وتكايا أصبحت فيما بعد مأوى للعجزة ومن يريد أن يعيش عيشة عزلة عن العالم ، ففقدت بذلك معناها الأول ، وتحولت من قوة إلى ضعف ومن نجدة إلى خمول .

والفتوة المدنية ، وأعنى بها الفروسية وما إليها ، ظلت فى العصور المختلفة — ولاسيما فى مصر — طوال هـذه العصور حتى عصر « الجبرتى » فيحدّثنا أن الأمراء والعساكر فى مصر كانوا ينقسمون بعد الفتح العثمانى إلى فريقين : قوم ينتسبون إلى ذى الفقار ويسمون الفقارية ، وآخرون إلى قاسم ويسمون القاسمية . وكان أكثر العثمانيين فقارية ، وأكثر الشجعان المصريين قاسمية ، كما انقسموا من قبل إلى سعد وحرام . واتخذوا لذلك شارات : فالفقارية اتخذت البياض شعاراً فى الثياب والركاب حتى أوانى المأكولات والمشروبات ، والقاسمية اتخذت شعارها الحمرة فى كل شىء من ذلك . وكان بين الفريقين من الفروسية والألعاب والقتال ما كثر ذكره فى الجبرتى وغيره . ويقول الجبرتى أيضاً إن القرن الثانى عشر استهل وأمراء مصر فقارية وقاسمية (١) ، وإن كنت لم أعثر على تسمية هذه الأعمال بالفتوة .

ولقد أدركنا لعهدنا فى صبانا فى كل خط وناحية من أخطاط القاهرة ونواحيها جماعة من الشباب يسمون « الفُتُوّات » ، وهم من أرباب الصنائع والمهن الحقيرة عادة ، وممن يلبسون الجلاليب الزرقاء ويتعممون على « الطاقية » ، قد عرفوا بالقوة الجسمية والشجاعة والفتوة ، وعلى رأسهم زعيمهم ، وبينهم

(١) انظر تاريخ الجبرتى ، ج ١ ، ص ٢٢ وما بعدها

وبين « فتوات » الخط الآخر نزاع غالباً . وقد يخرج « فتوات المنشية » لمحاربة « فتوات الحسينية » فى جبل المقطم بالطوب والحجارة والعصى ، وقد يقع بينهم جرحى وقتلى وبعد ذلك يوما له ما بعده ، ويكون بين فتوات الحيين « ثار » . وقد ينتج من ذلك أن « فتوات » الحسينية — مثلا — يعلمون « بزفة » لأحد فتوات المنشية ، فيتربصون لهم حتى إذا خرجت « الزفة » تعرض لها الأعداء ، وأعملوا فيها الضرب والتخريب .

وقد قضت الحكومات النظامية على هذه الأعمال .

وحبذا لو سُمّى نظام الكشافة باسم « نظام الفتوة » ، فكنا بذلك قد أعدنا ذكريات العهد القديم وأحيينا اسما تاريخياً حيي فى الإسلام قرونا طوالا .

# فيض الخاطر

وهو

مجموع مقالات أدبية واجتماعية

كتبه

أحمد أمين

## الجزء الخامس

الناشر : مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٤

# فهرس الكتاب

# الحياة الروحية (1)

## ١

أعجب ما فى الإنسان أنه يحيا حياة واحدة هى مزيج من جملة ألوان . فلا تزال فينا طبائع النبات ومظاهره ، نبحث عن غذائنا فى الأرض كما يبحث ، ونعيش تحت رحمة الرياح والفصول كما يعيش — وفينا أيضاً طبائع الحيوان من شهوات وغرائز ؛ وفينا العقل الذى يسيطر على هذه الطبائع الحيوانية ، ولكنه يعجز عن السيطرة عليها سيطرة تامة . وكما يكون نوراً إلهيًا يهدى الطبائع والغرائز ، قد يكون ناراً شيطانية تثيرها فتجعله أفرس من أسد وأمكر من ذئب . ورقى الإنسان إنما هو فى استطاعته أن يوازن الموازنة الدقيقة بين ما فى باطنه من عناصر نبات ، وعناصر حيوان ، وعناصر إنسان ، وما أشقه من عمل !

وهو — لما فى طبيعته من عناصر مختلفة نباتية وحيوانية وإنسانية — قد واجه مشاكل لا تحصى لا يزال طوال الزمان يحاول حلها وترقيتها . هو من ناحيته النباتية يواجه مشكلة البيئة التى تناسبه والتى لا تناسبه ؛ وغلة الأرض وحاجته منها بعد أن وُزِّعت فى البقاع والأصقاع حسب طبيعتها ، والأخطار التى يتعرض لها من حشرات وديدان ، وجو وعطش وغرق . وهو من ناحيته الحيوانية قد ورث دَيناً ثقيلا ، من غرائز جامحة ، وميل إلى افتراس بعضه بعضاً ، فكان لا بد له من تحصين للدفاع والهجوم ؛ ودعاه ذلك أحياناً إلى التعاون لصد العدوّ ، وأحياناً إلى التفرق لقتال بعضه بعضاً ، فألّف القبيلة ، ثم الأمة . وتحارب كما يتحارب جنس من الحيوان مع جنس آخر ، وتنازع على الطعام

---

(1) كتبت هذه المقالات الأربع فى رمضان سنة ١٣٦٢ .

وعلى الشراب وعلى الحب الجنسى كما يتنازع الحيوان ؛ وساعده ما منح من عقل على تنظيم هذا الاجتماع والافتراق ، والتعاون والتحارب ؛ وعلى العموم استخدم العقل لتنظيم الغرائز الحيوانية .

ثم كان من عنصره الإنسانى شوقه الشديد للعلم والمعرفة ، فأخذ من مبدئه يتعلم ويُعلِّم ، ويورِّث ما وصل إليه من يأتى بعده من الأجيال ، ويخترع اللغة لإيصال معلوماته . ثم أخذ ينشئ المعاهد يبث فيها ما وصل إليه العلم منذ الأجيال السابقة ، ويزيد فى توسيع دائرة المعلوم ، وتقليل دائرة المجهول ، ثم يستخدم العلم فى حياته النباتية والحيوانية ، وينشئ الصناعات — وهو كلما تقدم تعقدت مشاكله ، وتركبت نظمه ، فأوجد الوظائف المختلفة فى المجتمعات تنظم شؤونها ، ويقوم كل بقسطه فى ترقيتها . فالأسرة تربِّى الطفل ؛ ومعاهد التربية تكمل تربيته ؛ ومعاهد الصناعة تخرج ما يحتاجه العالم ؛ والدولة تشرف على هذه الأنواع المختلفة من النظم ، وتوحِّد بينها وتوجِّهها .

ثم فى الإنسان عنصر روحى بجانب عنصره النباتى والحيوانى والعقلى ، أحسه الإنسان منذ وجد . وكما أن عنصر العقل فيه مظهره العلم ، فعنصر الروح فيه مظهره الدين .

من طبيعة الإنسان الطموح إلى كل ما هو حق وخير وجميل ، وقد وجد مصداق ذلك كله فى الدين فاعتنقه . ومن طبيعته الشعور بقوة تسيطر على نفسه وعلى العالم ؛ ومن طبيعته الشعور بأن هناك روحا عُليا ليست روحُه إلا شرارة منها وقبساً من نورها ، وأنها تتجاوب معها ، فكان ذلك هو الدين على اختلاف مناحيه ومذاهبه وأنواعه وأسمائه وشعائره . لقد شعر — منذ نشأته فى بداوته إلى منتهى ما وصل إليه من حضارة — أن فى باطنه شيئاً ليس ماديا وليس من جنس الأرض . ولما تقدم العلم كل هذا التقدم لم يهتد إلى حلّ العلاقة

بين العقل والحياة ، وبين المادة ومظاهرها . ولما فرغ العلماء لعلمهم ، وبحثوا واكتشفوا القوانين ، وآمنوا بالعلم كل الإيمان ، ظلّ كثير منهم يشعرون بفراغ فى أنفسهم ، وهذا الفراغ لا يملؤه إلا إيمان بقوة فوق المادة ، وروح تسيطر عليها وتبعث فيها الحياة والروح ، وأنهم بهذا الإيمان يشعرون بقوة عظيمة ، لاتساع نفسهم واندماجها فى العالم أجمع ، وأنهم والعالَم مشمولون بروح عليا تسيِّرهم .

وكما يختلف الناس فى مقدار العناصر التى يتكوّنون منها ، فبعض الناس أكبرعناصره العنصر الحيوانى ، فهو أقرب شىء إلى أن يعيش بغرائزه كالحيوان ، لا همّ له إلا مأكله ومشربه وملبسه ؛ وبعضهم العنصر العقلى ، كما يتجلى ذلك فى العلماء المتخصصين للبحث والمعرفة ؛ كذلك بعض الناس يغلب عليهم العنصر الروحى ، وهؤلاء يشعرون بنقص فى أنفسهم ، ويشعرون أن روحا علياً تشرف عليهم ، فيجهدون أن يتحرروا من نقص نفوسهم ، ويوسعوا ترقيها بالاتصال بالروح العليا ، فتنشرح صدورهم ، ويشعرون أن قبساً من نور أضاء قلوبهم . ويحدث هذا عند نضوج الروح ، فيدركون العالم على نحوٍ غير الذى يدركه العالِم . هم يرون التشابه فى الموجودات والوحدة فيها رغم اختلاف الأسماء والأشكال ؛ وهم لا يقفون عند الظواهر ، فيرون الإنسانية فى المذكر والمؤنث ، ويرون وحدة الإنسان مع اختلاف الألوان والأجناس ؛ وهكذا تتسع روحهم حتى يروا الوحدة فى الوجود ، والله فى كل شىء ، فيتجاوب العالم معهم ويتجاوبون مع العالم ، وتتسع نفوسهم لا إلى حد ، ويرون فى ذلك سعادة دونها أى سعادة ؛ ويشعرون أن الظلام الذى كان يحيط بنفوسهم أخذ ينجاب شيئاً فشيئاً حتى صار نوراً ساطعاً ، كالذى ينظر إلى خريطة العالم فلا يدرك منها شيئاً حتى يقع نظره على بلدته فيتعرّفها ويتعرّف البلدان الأخرى بالنسبة إليها ، فإذا الخريطة كلها مفهومة وإذا هى ذات معنى . يرون أن المادة خيال ، والشهوات والرغبات أعراض زائلة ،

ولكن امتزاج روحهم بروح العالم هو الحق الذى لا يزول ولا يفنى . ويبلغ من شعورهم بوحدة الأشياء أن يشيع الحب فى نفوسهم لكل شىء ، فألم إنسان ألمهم ، وسعادة إنسان سعادتهم ، ونجاح الإنسان نجاحهم ، وفشله فشلهم ، حتى ليبلغ الأمر ببعضهم أن يأملوا أن تبلغ الإنسانية من الصحة والنضوج مدًى تمازج فيه أرواحها ، حتى يشعروا بالوحدة وبالسعادة ينالها بعضهم ، وبالألم يصيب بعضهم ، ويعملوا ليبلغوا السعادة جميعاً .

قد كان علماء النفس فى حداثة عهدهم يهزءون بهذه الحالات النفسية ويرونها ضربا من الخيال ، وسبحاً فى الوهم ، فلما نضجوا آمن بها بعضهم ، واعترفوا بها فى كتبهم ، وسجلوها فى تجاربهم .

لقد جنى على الحياة الروحية كثرة ما أحاط بها من تخريف وتمويه ، فكان بجانب الأنبياء المتنبئون الكاذبون ، وبجانب الصوفية الحقة الدجالون الخداعون ، وبجانب الملهمين الحشاشون . وكان ما أصيب به الجانب الروحى أكثر مما أصيب به الجانب العقلى ، لأن معيار العلم يمكّنه فى سهولة أن يعرف زيفه ، وليس بهذه السهولة الجانب الروحى .

والإنسان بتنميته جانبه الروحى يستطيع أن يدرك من الحق ما لا يدركه العلم ، وأن يقوّى نفسه بما لا يقويها العلم . ومن الخطأ الاستناد على العلم وحده دون الروح .

قد يكون مصلحو الشرق معذورين فى دعوتهم القوية إلى البحث العلمى ، ونشر المنهج العلمى ووجوب الاعتماد عليه ، لأننا فى الشرق نعيش على التقليد والتخريف ، حيث يجب أن نعيش على العلم فى الزراعة والصناعة والتجارة ووسائل التربية وما إلى ذلك ؛ ولكن مع التسليم بهذا كله يجب ألا نهمل الروح فى دائرتها . ولعل الشرق إذا اتجه إلى هذا الجانب الروحى بجانب اهتمامه بالجانب

العلمى فاق الغرب فى ذلك ، لأن له تاريخاً قديماً فى الروحانيات ، وهو مُلهِمها الغرب .

إن العلم له دائرته التى يجب أن نعترف له بها ، ونؤسس حياتنا عليه فى حدوده ، ولكن بجانب العلم الروح ، وبجانب العقل القلب ، وبجانب المنطق الإيمان ، ولكلٍّ وجهة هو موليها ، وما أحسنهما إذا اجتمعا ، وما أشقاهما إذا افترقا .

تعجبنى قصة طريفة للأديب الكبير « هـ . ج . وِلْز » سماها « مملكة العميان » ، خلاصتها — فيما أذكر — أن جماعة من العميان طوّح بهم القدر حتى أنزلهم وادياً بعيداً منعزلا ، تحيط به من كل الجوانب الجبال الشاهقة الوعرة ، فعاشوا فيه ، ونسلوا عمياناً مثلهم ؛ وقد عوّضتهم الطبيعة عن فقدان أعينهم قوة فى حِدّة آذانهم ، وبذلك استطاعوا أن يكوّنوا لأنفسهم مدنية توافق حالتهم وطبيعتهم ، ووثقوا كل الثقة بمعارفهم ومداركهم ، وآمنوا كل الإيمان أن العالم كله محدود بحدود أربعة هى سلسلة جبالهم — وشاء القدر أيضاً أن ينزل بواديهم رجل بصير ، فحدّثهم يوما عن السماء الزرقاء فوقهم وجمالها ، والنجوم الساطعة وضيائها ، والثلوج المعمّمة للجبال وبياضها ولمعانها ، فلم يشكّوا أنه مجنون ، وجزموا أن ما يحدّثهم به عن قوة عينيه ورؤيتها لهذه الأشياء ليست إلا ضربا من الخداع والوهم . وحاول بكل ما يستطيع من قوة وبيان أن يُفهمهم أنهم عميان فاقدو البصر ، وأنه بصير ، فلم يزدهم ذلك إلا عتوًّا وضلالا ، وإمعانا فى الضحك منه والسخرية به ؛ وقالوا لو كان فى رأس هذا الرجل عقل لتخلّى عن هذه الأحلام والأوهام ، ووجّه همته إلى الحياة الواقعية ، والأشياء العملية ، وقوّى سمعه حتى يبلغ مبلغنا ، واتبع الطريقة التى سلكنا ، وسار على المنهج الذى عليه أجمعنا . فلما أعياهم أمره قرروا أن سبب مصائبه وفساد عقله يرجع إلى هاتين

النافذتين فى وجهه التى يزعم الإبصار بهما، وأن لا شفاء له إلا بفقئهما؛ ولكن كان من حسن حظه أن يجد منفذاً للهرب من هذا الوادى .

لقد رمز « ويلز » بهذا إلى ضيق نظر القادة السياسيين والاقتصاديين والاجتماعيين وجمودهم على الآراء العتيقة البالية ، ووقوفهم على ما ورثوه من تقاليد مَن قبلهم ، وعدم إصغائهم إلى صوت كبار المصلحين الذين يدعون إلى بناء عالَم جديد أساسه التفكير الحر وسعة النظر . ولكن قصته كذلك تصلح مثلا لمن يريد أن يُخضع كل شىء فى هذا العالم المادة وقوانينها وعلومها ، وينكر الروح والله والدين والإيمان ، فهو لا يريد أن يعتقد فى شىء إلا ما يعتقده سكان هذا الوادى ، ولا يؤمن بما يرى هذا الضيف بعينيه — هو يسمع ويرى ، ولكن قلبه لا يرى ، وروحه لا ترى ، ثم هو يزعم أن ما يشعر به المؤمنون ليس إلا ضربا من الخيال والوهم .

إن الناس يتفاوتون فى المعرفة تفاوتا بيِّناً ، فمن الناس من إذا أراد أن يعلم حجرة وما فيها نظر من ثقب الباب فرأى بساطاً هنا وكرسياً هناك ثم زعم أنه عرفها ؛ ومنهم من علا درجة عن هذا ففتح الباب ووقف فى زاوية من زوايا الحجرة فى ضوء قليل وزعم أنه رآها ، وهذان موقفهما موقف العامة وأشباههما ؛ ومنهم من تعمد أن يدخلها فى وضح النهار ، ويقف فى جميع الزوايا ، ويفحص ويمتحن كل ما فيها ، وهذا هو العالِم ؛ ومنهم من يفعل ذلك ثم لا يكتفى به ، بل يحاول أن يعرف شأن الغرفة من المنزل ، وموضع المنزل من الشارع ، ومكان الشارع من المدينة ، ومنزلة المدينة من القطر ، ومكان القطر من العالم ، وذلك هو الفيلسوف من جانب ، والروحى الحق من جانب .

إن فى الإنسان ملكات عدة ليس العقل وطريقه العلمى إلا إحداها ؛ وخطأ العالم الغربى فى القرن الماضى كان تقوية الناحية العلمية على حساب الملكات

الأخرى . ويعجبنى تعبير طريف قرأته لأحد كتاب الغرب إذ يقول : « لقد أسرع العلم فى السير حتى جاوز القلب بمراحل ، فواجبنا أن نمنح العلم إجازة حتى يدركه القلب » — لقد نجح العلم نجاحاً عظيما حتى استطاع أن ينفذ إلى أدق أعماق المادة ، وحتى كاد يجعل العالم المادى شفافا واضحاً ، وحتى أخضع كثيراً من قوانينه لإرادته ، وهذا حسن وجميل . ولكن بجانب ذلك جعل حياة الإنسان مصطنعة سطحية ، إلهيها السرعة والعجلة والآلات والأدوات ، فكسب أذنه وخسر عينه ؛ وما ضره لو كسبهما جميعاً ، إذن لوجد روحه التى فقدها فى هذه الضوضاء والسرعة ، وأحس الراحة والهدوء فى نفسه ساعةً ينعم فيها بالطبيعة والعالم وربهما .

وكما أن كل إنسان له نوع من الاستعداد والملكات للفن والموسيقى والشعر والعلم ، كذلك عنده استعداد ما للإجابة الروحية ، وهى أرقى من سائر كل الملكات . وكما أن كل إنسان له قدر من الفن ولكن ليس كل إنسان فنانا ، وكل إنسان يغنّى ولكن ليس كل إنسان يجيد الغناء ، كذلك كل إنسان روحىّ إلى حد ما ، ولكن الروحيين حقاً قليل . ويعجبنى شاعر هندى فى قوله : « الجواهر أحجار ، ولكن لا توجد فى كل مكان ؛ والصندل أشجار ، ولكن لا توجد فى كل غابة — والفِيَلَة كثيرة ، ولكن فيلا واحداً هو فيل الملك ؛ كذلك ما أكثر الناس ولكن قلّ بينهم الإنسان الحق » . والنبوغ فى كل ملكة موضع إعجاب ، ولكن أعجب العجب هو النبوغ الروحى . وكما قال القائل : « إن المصلح وليد المدنية ، ولكن النبىّ أبوها » .

## ٢

عماد الأديان كلها أن وراء هذه المملكة الظاهرة فى الحياة مملكة أخرى باطنة ، وهاتان المملكتان يختلف بعضهما عن بعض تمام الاختلاف ؛ فالمملكة الظاهرة فيها المادة بجميع أشكالها وتطورها ، من حبة الرمل إلى خلية المخ ، وفيها كل مظاهر الحياة مما نرى من جماد ونبات وحيوان ، وفيها كل شؤون الإنسان الظاهرة ، من زرع وتجارة وصناعة ، وتنظيم للحياة الاجتماعية ، واستغلال وجمع وإنفاق ، وتدبير ميزانيات ، وإنشاء دواوين وحكومات تشرف على الأعمال ، وملوك أو برلمانات تشرف على الحكومات ، وهكذا — وكل ما نقرأ من أحداث التاريخ فإنما هو تاريخ هذه المملكة الظاهرة — أما المملكة الباطنة ففيها أنبياء وأولياء وقديسون وملائكة وشياطين ، ويوم آخر ، وبعث ونشور ، وحساب وثواب وعقاب ، وجنة ونار ، وروح ووحى ، وإلهام وإله .

وهذه المملكة الباطنة سميت أسماء مختلفة ، فبعضهم يسميها « دائرة المجهول » ، و « ما لا يمكن علمه » ، وسماها القرآن « الغيب » ، كما سمى المملكة الظاهرة « الشهادة » ، فقال : « الذين يؤمنون بالغيب » ، « عالِم الغيب والشهادة » ، « تلك من أنباء الغيب » . الخ . وترى الأديان أن هذين العالَمين إذا قوّما فالمملكة الظاهرة قليلة القيمة جداً إذا قيست بمملكة الباطن ، لأن الأولى ذاهبة فانية ، والأخرى باقية خالدة ؛ ولأن الأولى دخلها عنصر الزمان فأضعف قيمتها وأقصر مدتها ، وأما الأخرى فلم يدخلها عنصر الزمان فخلدت . وكما كان فى مملكة الظاهر خدّاعون وكذّابون يكذبون فى العلم والخُلق والتجارة والصناعة ، كان كذلك خداع وتمويه فى عالم الغيب ، كقصص العفاريت ، وأعمال السحرة ، والأساطير المتوارثة فى كل أمة ، والتنجيم والطلاسم ، وهكذا .

وليس الإيمان بعالم الغيب — كما يظن بعضهم — ضرباً من الأوهام ورثناه من آبائنا الأولين أيام كانوا ضعاف العقول ، أقوياء الخيال ، بل هو جزء من طبيعة النفس الإنسانية ملازم لها في جميع أدوار عقليتها ومدنيتها وثقافتها ، والذين أنكروه أنكروه بمنطقهم ، ولم يستطيعوا التجرد منه في نفوسهم ومشاعرهم .

يشعر الناس أن هناك دائرة للمعلوم تحيط بها أسوار ، وأن وراء هذه الأسوار دائرة المجهول أو عالم الغيب ، وأنهم يريدون أن ينفذوا من هذه الأسوار للوصول إليها ، فمنهم من يصل ومنهم من ينقطع .

ووسائل إدراك مملكة الظاهر غير وسائل إدراك مملكة الباطن ، فوسائل الأولى هو ما نسميه « العلم » ، وهذا العلم يعتمد — فقط — على الحواس الخمس ، وهي : السمع ، والبصر ، والشم ، واللمس ، والذوق ؛ فكل المناهج العلمية ، وكل الآلات والمخترعات ، وكل البحوث في الطبيعة والكيمياء ، والفلك ، والنبات والحيوان ، إنما عمادها هذه الحواس الخمس ، مرهفة أومكبرة ؛ حتى أدق العمليات الرياضية والهندسية ، إنما هي أعمال الحواس الخمس تستخدم فيها المقارنة ، ثم إعمال العقل في هذه المقارنات بالاستنتاج ؛ وكل النتائج العجيبة التي وصل إليها العلم ليست إلا وليدة الملاحظات الحسية مع الاستنتاج المنطقي ، وهذه هي خطة العلم دائماً .

أما وسائل عالم الغيب ، فليست الحواس ولا المنطق ، وإنما هي الرياضة النفسية ، واختطاط خطة غير الحواس الخمس ، ومحاولة تخطي هذه الأسوار بها ، والنفوذ من خلالها لإدراك عالم المجهول ؛ وهذا ما سلكه دائماً الروحانيون من الأنبياء والمتصلين بهم ، فمحمد ، وعيسى ، وموسى ، وغيرهم ، لم يسلكوا سبيل العلماء في بحثهم واعتمادهم على الحواس وتجريبهم ومقارنتهم بين المواد والاستنتاج منها ، إنما راضوا نفوسهم على نحوٍ ما لينفذوا إلى عالم المجهول . وغار حِراء بالنسبة

لمحمد (ص) فى جهده للوصول إلى المجهول من عالم الغيب ، كالعالم فى معمله وتجاربه فى عالم الشهادة ؛ هذا منهج وهذا منهج ، وشتان ما بينهما . بالمنهج العلمى من ملاحظة وتجربة واستنتاج ومنطق تكتشف قضايا العلم ، وبالمنهج الروحى الذى أشرنا إليه ، يحدث نوع من المعرفة أساسه ما نسميه بالوحى أو الإلهام .

وفى القرآن قصة ترمز إلى الفرق بين نوعى العلمين : العلم المبنى على المنطق ، والعلم المبنى على مكاشفة الروح ، وهى قصة موسى مع العبد الصالح الذى علّمه الله من لدنه علماً ؛ فموسى سلك سبيل المنطق ، وبناء المسببات على الأسباب الظاهرة ؛ وهذا العبد الصالح لم يسلك هذا المسلك ، فخرق سفينة ليس لخرقها من سبب ظاهر ، وقتل نفساً زكية بغير نفس ، وأقام جداراً لأهل قرية أبوا أن يضيّفوهما ، وكل هذا منتقد من جانب المنطق ، ولكن له ما يبرره من جانب الإلهام الروحى كما شُرح فى القصة[1] .

لقد ذهب كثير من علماء النفس إلى أن وسائل العلم والمعرفة تنحصر فى الوسائل المعروفة من ملاحظة وتجربة ، وعدُّوا ما يظهر غير ذلك نوعا من المرض النفسى ، أو شروداً فى الخيال ؛ ولكن ظهور حالات كثيرة من المعرفة ، وانكشاف أمور ليس انكشافاً أساسه المنطق ، عدّل أذهان كثير من علماء النفس ، فأقروا بأن هناك إدراكا أساسه المنطق من ملاحظة وتجربة واستنتاج ، وهذا هو العادة والأغلب ؛ ولكن بجانب ذلك أحوال نادرة ، يستطيع فيها الإنسان أن يدرك ويعلم ، ويعرف عن طريق غير المنطق ، وإن كانت نادرة ؛ وأقروا بأن طريقة علمنا ومعارفنا وبحثنا واستنتاجنا هى الطريقة المألوفة العادية ، ولكن ليست هى كل وسائل المعرفة ، فهناك من الوسائل ومن أنواع الإدراك ما لا يخضع المنطق . ومن ذلك الحين أخذ علماء النفس ينوّعون اتجاههم ،

(١) اقرأ القصة فى سورة الكهف : « وإذ قال موسى لفتاه » الآيات .

ويوسعون بحثهم ؛ فبحثوا فى التصوف ونفسيته ، وكيفية إدراكه ومعرفته ، ولا يزالون فى بدء هذا الاتجاه ، وهذا البدء كان بدءاً فقط من الناحية العلمية ، أما الحقائق نفسها فمقررة فى كل دين ، معترَف بها فى كل عصر .

على هذا الأساس تكون الإنسانية تسبح فى دائرتين : دائرة خارجية أو ظاهرية ، ودائرة داخلية أو باطنية ؛ مَثل الأولى كجسم الشجرة ، وجذعها وساقها ، ومَثل الأخرى كالحياة تدب فيها فتكوّن وظائفها المختلفة ، وتهيئها للإزهار والإثمار ، ومثلها جميعا كجسم الشمعة وقوتها على الإضاءة .

وكل ما نعنى به الآن من علوم على اختلاف ألوانها ، وما نعنى به من تاريخ أحداث وحروب واجتماع ، وما نعنى به من دعوة إلى الصدق والأمانة ، والجد والعدل ، كل ذلك متعلق بالحياة الخارجية ؛ أما الحياة الروحية فحياة داخل حياة ، وحكومة داخل حكومة ؛ وهذه غذاؤها الدين ، وهو غذاء فاسد إن فسد ، وصالح إن صَلح .

ونرى فى غضون التاريخ إشارات إلى هذه الحياة الروحية فى معابد اليونان، وهيا كل المصريين ورموزهم ؛ فالخاصة كانوا يفهمونها على حقيقتها ويرمزون إلى المعانى التى فى صدورهم برموز مجسّمة وقصص رمزية ، يفهمها الخاصة على أنها رموز ، ويفهمها العامة على أنها حقائق ، وهكذا الشأن فى تاريخ سائر الأمم والديانات .

وقد حاول كشف المجهول من الحياة الخارجية والباطنية أربعة أصول ؛ كلٌّ سلك طريقه الذى يناسب طبيعته ومزاجه : العلم ، والفلسفة ، والدين ، والفن ؛ وكثيراً ما تنازعت فى الطريق ، وقامت بينها المشاحنات والخصومات ، ومنازعاتها دليل على أنها لم تدرك وظائفها حق الإدراك ؛ وأن كلا حاول أن يوسع طريقه على حساب غيره ، وأن يتعدى فى اختصاصه على اختصاص غيره ، ولو نظرت كلها إلى طريقها من طيارة لأدركت أن الطريق المرسوم لكل منها طريق

مستقل بنفسه ، واضح بأعلامه ، وأنها كلها تصب فى دائرة وسطها ، هى دائرة الحقيقة . ولو سار كلٌ فى طريقه الخاص به ، ولم يتعدَّ على غيره لتوصل إلى الحقيقة من جانبه ، وهذه الحقيقة كفيلة بأن تنكشف فى نهاية كل طريق عما يخصه ، وفيها كلها كشف الحياتين الظاهرة والباطنة ، والعالَمين عالم الغيب والشهادة ؛ ولكن مع الأسف نرى علماً يُغير على دين ، وديناً يغير على علم ، وفلسفة تُغير عليهما ، جهلا بالطريق ، وعمى عن الحقيقة .

إن العلم — كما قلت — أساسه الملاحظة والتجربة ، ولا يكون ذلك إلا فيما يُلحظ ويجرّب ، فإن أراد أن يتخطى أسواره إلى عالم الغيب ، فقد أدواته ، وتكلم كلاماً سخيفاً ، وكذلك إذا أصابه الغرور ، فأنكر ما وراء السور .

والدين عماده الوحى والوصول عن طريق الروح إلى عالم الغيب بالرياضة وما إليها ، والاتصال بالشعور الأنبل إلى القوة العليا ، فإذا هو تخطى الدائرة الروحية إلى الدائرة العلمية ، فتعرض لقضايا العلم يشرحها ويدلل عليها ، أو ينكر على العلماء بحثهم ونتائجهم ، فقد تعدى طوره ؛ وكذلك إذا أخذ يدلل على الدين بقضايا المنطق كما فعل علماء اللاهوت وعلماء الكلام فى الإسلام ، فقد أتوا بفلسفة تافهة ليس فيها طعم الفلسفة ولا طعم الدين ؛ وكل هؤلاء وهؤلاء مثلهم مثل من أراد أن يشم بعينه ، ويرى بأذنه ، ويتذوق بأنفه .

والفن من أدب وموسيقى وتصوير أساسه الفهم العاطفى ، والشعور بما خفى وراء المظاهر ، والوصول إلى قلب الأشياء ومزجها بعواطف الفنان ومشاعره ومزاجه ، وإبرازها فى شكل متناغم ، والاستمداد من قوة الخالق ليخلق صوراً وألواناً يلهم بها العواطف النبل والسمو ؛ فإن هو لم يمس الباطن واكتفى بالسطح ، أو اقتصر على استخراج السخرية والهزؤ ، لم يؤد رسالته ، وعدّ من توافه الأشياء ؛ وإن هو اكتفى باستدرار المال من الأمراء والأغنياء ، أو كان وسيلة لإثارة

المشاعر الجنسية ، كان سلعة تجارية وضيعة لا سموًّا روحانياً رفيعاً .

والفلسفة أساسها التأمل والتفكير المنطقى ، وشرح ما نعلم وتمييزه عما لا نعلم ، والوصول إلى جذور شجرة العلم والفن والدين لإدراك أصولها ؛ فإن هى كانت لعباً بالألفاظ ، وعرضاً لآراء الفيلسوف ومشاعره ، وتضاربها مع آراء الفلاسفة الآخرين ومشاعرهم ، لم تؤد رسالتها ، وكانت فلسفة لفظية أو شكلية أو حوارية ، أو ضرباً من التعمية ، أو سخافة مغلفة بالألفاظ الغريبة الضخمة .

وما المدنية الحقة إلا هذه الأصول الأربعة راسمة لكل أصل حدوده وطرقه ، موازِنة بينها حتى لا يطغى منها أصل على أصل ، مهذِّبة كل أصل حتى لا يدخله الاستبداد والغرور ، منقحة كل واحد منها حتى لا يدخله زيف أو تحوير أو تضليل .

ونفس كل إنسان فيها هذه العناصر الأربعة ، مع تفاوت بين الناس فى المقدرة والكفاية والفاعلية والقابلية ؛ والنفس الكلية للعالم كذلك فيها هذه العناصر واضحة جلية ، وهى بجملتها وتفصيلها مظهر المدنية .

وفساد مدنيتنا التى نعيش فيها اليوم أتى من اختلال التوازن بين هذه العناصر ، وما دخل على كل عنصر من الفساد .

فالعلم تقدم وتقدم ، ولكن أين له القلب ؟ لقد ملأ الدنيا آلات وأدوات ، ونظريات فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، ولكن أصيب بعيبين : أولهما أن دائرته الطبيعية هى المادة ، فأداه غروره أن يبحث فيما وراء المادة بأدوات المادة ، فلما لم يجده أنكره ؛ وثانيهما أن الروح لم تتقدم تقدمه وتخلفت وتخلفت ، فاستُخدم التقدم العلمى لخدمة الغرائز الوحشية على شكل ممدَّن ، فإذا كان الوحشى يقتل بالحجر أو الهراوة ، فالعلم يقتل بالكهرباء والغواصات والطائرات والغازات الخانقات ؛ والوحشى يأسر خصمه ويستعبده لخدمته ، والمدنى يغزو ويفتح

ويستغل ويستعبد بأسلوب منظم ، وفى الأمة الواحـدة أنواع وأنواع من الاستعباد ؛ وكذلك الشأن فى بواعث اللهو والسرور ، فقد ترقت فى الرقص والموسيقى واللعب . فالغرائز بين المتوحش والمتمدن واحدة ، والبواعث واحدة ، والعلم نظَّم الشكل وهذَّب الأسلوب فقط ، وقامت عظمة المدنية على ما كان عند المتوحش من غريزة حماية الأسرة أو القبيلة بشكل أضخم ، من استعداد حربى عظيم ، وتقوية الروح العسكرى ونحو ذلك ؛ فالعلم — بتقدمه من غير أن يتقدم الباعث القلبى — أبقى القديم ورقّى الشكل ؛ فأصبحت المدنية على هذا الوضع وحشية مغلّفة ، أو همجية مفضضة .

والدين فى المدنية الحديثة مظهر لا مخبر ، وعمل بلا قلب ، وشعائر بلا شعور ، وحركات بلا روح ، ورجاله أتباع السلطة المدنية ، لا قادة الحياة الروحية ، ينظرون بأعينهم إلى الأرض ، ولا ينظرون بقلوبهم إلى السماء .

والفن تحريك للشهوة ، واستجلاب للثروة ، وجدّ فى بقاء الشعوب فى مستواها الهزلى .

فهل هذا الذى نرى — من تدمير بلغ أقصى مداه ، وقلق واضطراب وصل إلى نهايته ، وزلزلة وبلبلة قلبت العالَم رأسه على عقبه — إعلان للثورة على المدنية التى لا روح لها ، ليُبنَى على أنقاضها مدنية لها روح ؟

نرجو أن يكون !!

## ٣

قصتان هنديتان رمزيتان ، قرأتهما هذا الأسبوع ، فأعجبت بهما لطرافتهما ودقتهما ، وإيحائهما إيحاء واسعاً شاملاً .

فأما الأولى فخلاصتها أن الإنسان الأول لما شعر بضعفه ، وبدأ يتعرّف ربه ، سمع صرخة استغاثة ملأت الآفاق ، فحار فى تفسيرها ، ولما أعياه الأمر فى البحث عن سرها أظلمت نفسه ، وقلق باله ، حتى جن عليه الليل ، فرأى فى منامه أن الروح الأعلى تجلّت له وخاطبته : إن تقبلْ هديتى يزُل قلقك ، وينجلِ لك ما أبهم عليك ، ويضىء ما أظلم من نفسك . إنى خلقت لك ثلاث حمامات بيضاء ناصعاً لونها تسرُّ الناظرين ، تُسمّى إحداها الإيمان ، والثانية الرجاء ، والثالثة الحب ؛ فإن أنتَ أسكنتها معك فى أرضك ، واستألفتها إليك ، وحافظت على سكناها معك ، ضمنت لك قوّة فى قلبك ، ونوراً فى نفسك يكشف لك الحق ، ويهديك إلى الخير ، ويحقق لك السعادة .

وانتبه من نومه ، فرأى الحمامات الثلاث فى أرضه تساكنه ، وتتحبّب إلى الناس وتتألف لهم وتصادقهم ؛ ولكن ما لبثت أن رأت قليلا من الناس يألفها ويصادقها ، وكثيراً منهم يهزأ بها ، وكثيراً آخر لا يعبأ بها ، وكثيراً ثالثاً يطاردها ويرجمها بالحجارة ، حتى سئمت الحمامات من سوء ما لقيت ، وعادت إلى بارئها وقالت : « سبحانك ربنا ، لقد مللنا من خلقك فى الأرض ، فليس منهم إلا قليل أحسن استقبالنا ، وأكثرهم عبسوا فى وجوهنا ، أو هزئوا بنا ، أو طاردونا — لبئس المكان مكاننا فى الأرض ؛ إنا نضرع إليك أن تعفينا من سكننا هذا ، وتقرّبنا إليك ، وتسكننا فى مملكتك السماوية ، حتى لا نألم ولا نشقى »

قال خالقها للأولى التى اسمها الإيمان : « ذلك ما ليس فى الإمكان ، فليس

فى ملـكوت السماوات مكان لك ، إن أهله قد ذاب إيمانهم فى تمام معرفتهم ، وانـكشاف الحق لهم ، وتحوّل غيبهم إلى شهادة ، فعودى إلى الأرض حيث أهلها فى حاجة إليك ، وقد منحتك قدرة أن من تقبّلك قبولاً حسناً سـعدت نفسه ، ومن آذاك أو طاردك لم يعرفنى ، فأظلَم قلبه وشقى فى حياته » .

« وأما أنتِ أيها الرجاء ، فكذلك لا مكان لكِ عند أهل السماء ، فما محل الرجاء عند من بلغوا كل رجائهم ، ونالوا منتهى أملهم — ارجعى إلى الإنسان وقد منحتك قوّةً أن تـكونى بلسما لهمومه ، وعوناً له فى محنته ، وألا يخاف من الموت إذا كنت بجانبه » .

« وأما أنت يا حمامة الحب فلك موقف آخر ، حقاً إن لك مكاناً فى ملـكوت السماوات ، وأنتِ نعيم الجنة ؛ ولـكن ألا تعودين إلى الأرض مع حمامتَىْ الإيمان والرجاء ، فليس لهما حياة بدونك ! وإذا كانت الجنة لا تستغنى عنك فسأمنحك القدرة على أن تجولى فى لحظة بين السماء والأرض ، وأن تخطرى فى لمحة بين أهل الفناء وأهل البقاء ؛ وسأجعل جزاء من يتعشّقك ويتذوّقك فى الأرض أن يطمح إلى لقياك فى السماء » .

فأطاعت ما أمرت به ، ونزلت ثلاثتهن إلى الأرض يحتملن الأذى من أهلها، وظلت الثالثة تذهب وتجىء . وكان ما وعدها ربها حقاً من طمأنينةِ مَن تألّف الإيمان ، وشـقاء من طارده ، والتئام جراح من احتضن الرجاء ، وعذاب من أطاره ، وسعادة من عانق الحب ، وشقاء من أغلق دونه بابه .

***

وفى الحق ما الدين وراء هذه الثلاثة ؟ إيمان بما وراء المحسوس لشعورنا به ، فمهما غالَيْنا هذا الشـعور بتقويمنا المحسوس أكبر من قيمته ، ومهما غالينا فى تقويم العلم والمنطق ، فنوازعنا الباطنيـة الطبيعية تنادينا من أعماقنا بالله ،

ونحن شوقاً إلى رؤية الحمامة البيضاء ، حمامة الإيمان . ومن فقدوا الإيمان بالله لجئوا الى تسمية أخرى لِمَا أعجزهم فهمه ، من طبيعة ، أو حظ ، أو قدر ، أو مجهول ، أو مثل أعلى للعالم أو نحو ذلك ! فقد تعددت الأسماء والمسمّى واحد سبحانه وتعالى .

والرجاء — عنصر قوى فى الدين ، مبناه الاعتقاد فى سعة رحمة الله — لقد وُجِدَ فى كل دين لون من الرجاء ولونٌ من الخوف ، ووُجِدَ فى كل عصر من رجاله مَنْ قوّوْا جانب الرجاء ومَنْ قووا جانب الخوف ، وأنا أشدُّ حباً لمن كانوا فى جانب الرجاء ، فهو أبعث للعمل ، وأصلح للحياة ، وأدعى إلى الطمأنينة وأفتح للرغبة فى بذل الجهد لصالح الأعمال . ولستُ أحب طريقة الحسن البصرى وأمثاله ، ممن ملأوا القلوب رعباً وتخويفاً وتهديداً ، حتى شلوا القلوب ، وطيّروا الحب من النفوس ، وجعلوا الحياة بائسة حزينة بغيضة . والقرآن فى كل سورة يكرر : بسم الله الرحمن الرحيم ، والرحمة مبعث الرجاء والحب ، لا الخوف والرعب .

ما الحياة وما الدين بلا رجاء ؟ قرأتُ مرّةً أن أحد كبار العلماء الملحدين حضرته الوفاة وعنده بعض أصدقائه من أمثاله ، فقال له أحدهم يشجعه على البقاء على إلحاده : « لا تخف ، لقد قربتَ من النهاية ، فتماسك وتقوَّ واحتمل » . فقال المحتضر : « آه ! ولكن لا أجد ما أتقوّى به وأعتمد عليه ، ليس لدىّ رجاء ولا أملٌ فى حياة أخرى سعيدة ، كل ما حولى ظلام » .

وأما الحب فعماد الدين الحق ، إنه فى الدين يصحب الرجاء ولا يصحب الخوف ، قد يبعث الخوفُ اجتنابَ الشرور والإتيان بالشعائر ، ولكنه كالشرّير يجتنب الجريمة اتقاء السلطان ؛ بل الحب فى الدين قد يستغنى عن الرجاء والخوف .

وكانت حمامة الحب أجمل الحمامات شكلا ، وأرشقها حركة ، ففتن الناس

بجمالها أكثر مما فتنوا بحقيقتها ، فصنعوا لها تماثيل كثيرة وسموها الحب ولا روح لها . وكل يوم يسىء الناس استعمال اسمها ألوف المرات فى أتفه الأشياء ، أو فى لا شىء ، ويحدث ذلك حين تطير إلى السماء ، أو تكون فى مألف القليل ممن يفهم حقيقتها .

***

هذه قصة ؛ وأما القصة الثانية فهى أن جنيّة ظريفة ممن يسكنَّ الأماكن السحيقة ، أحبت المرح يوما ، فنزلت أرض الناس ونسلت فيها ؛ وشاء صغارها أن يلعبن ، فصنعن « عروساً » ، وَبنَيْنَ لها داراً على قدرها ، وأرادت الأم الكبيرة أن تدخل المنزل وترى « العروس » ، فصغر باب المنزل عن حجمها ؛ ففكرت فكرة شيطانية : أن تفرق أجزاءها وترسلها جزءاً جزءاً ، ففكت أصابعها وأدخلتها ، ثم رأسها ، ثم قلبها ، ثم سائر أجزائها ؛ فلما كانت جميع الأجزاء فى المنزل ضاق بها ، واحتك بعضها ببعض ، فتخاصمت الأعضاء وتحاربت ، وتنازعت على الأماكن ، كل يدّعى ملكية مكانه ، وأنه أولى به ، ولا يَقبل من أى عضو احتلال مكانه أو القرب منه أو التحكك به . ثم أراد بعض الأعضاء الخروج فوجد الآخر فى طريقه ، وأبى أن يفتح له الطريق خشية أن يحتك ببعض الأعضاء الأخرى ، واحتبس الأعضاء جميعاً فى بيت « العروس» الصغير المظلم ، وتدافعوا من غير جدوى ، واضطرب أمرهم ، وأدركتهم الحيرة ، وعَمِىَ على الأعضاء أمرهم وعلاقتهم بالجسم كله ؛ وحينئذ نبض القلب ، ووقف بين سائر الأعضاء خطيباً قائلا : « أيها الأعضاء ! إنكم كلكم منى ، وقد ساءت حالكم ، واضطرب أمركم ، وسأقدم لكم النصح لأزيل اضطرابكم ، وسأقدم لكم المعونة لتخرجوا من مأزقكم ، إنى شاعر بحرجكم وضيقكم ، وسأعمل لرفع الحرج عنكم » .

قال بعض الأعضاء : « إنا راضون عن مكاننا ، غير قلقين فى موقفنا » .

قال القلب : « لا بأس ، إنكم اعتدتم الظلام فحمدتموه ، وألفتم الضيق فاطمأننتم إليه ، وستحمدون منى الخروج إلى النور ، والسعة بعد الضيق » :

وما زال بهم حتى ألّف بينهم وقادهم عضواً عضواً إلى الخارج ، ثم جمع أشتاتهم على أحسن ما كانوا .

قال القلب هذا لأنه وحده الذى شعر أن كل عضو جزء منه ، وأن كل الأعضاء متفرقة منه متجمعة حوله ، وهكذا رجّعها كلها إليه ، وأعادها متماسكة جسما واحدا كما كانت .

ودعا القلب هذه الدعوة لأنه مسكن الحب ، لأنه وحده الذى يستضىء بنوره ، وينصهر بناره ؛ وهو وحده الذى لما مسّه الحب كان منه الصبر واحتمال المكاره والتسامح والتضحية ، والعمل لخير الجميع .

***

أليست دنيانا منزل « العروس » ؟! كنا جسما واحداً أبناء آدم وحواء ، فتفرقنا فى أنحائها ، وتخاصمنا فى ملكيتها ، واحتبسنا فيها ، وفقدنا الشعور بوحدتنا ، وسددنا الطرق على أنفسنا ، وظن كل عضو أنه مستقلٌ بنفسه ، مستغنٍ عن غيره .

إن العالم فى كل أزمة كهذه ينتظر الداعى الذى يجمعه بعد تفرّقه ، ويأسوه بعد جراحه ، ويدعوه إلى جمع شتاته ؛ وما هذا الدّاعى إلا نفوسه الكبيرة التى يجود بها الزمان من آن لآن ، على ندرة كندرة الجوهر فى الأحجار ، والصندل فى الأشجار . إن هذه النفوس تشعر شعور الناس ، وتحمل أعباء الناس ، وتحيا للناس ؛ انها بعملها تنسج المستقبل ، وتلد الأفكار للجيل الجديد ؛ إنها تسمع شكوى الشعوب من ثقل أغلالهم ، واستغاثتهم من سوء قيودهم ، فتقدّم أغلى

شىء لديها لفك قيودهم ، وتحرير عقولهم ؛ إنها تعثر فى أثناء جهادها على حجر الفلاسفة الذى تقلب به معادن الناس إلى ذهب خالص ؛ إنها بأقوالها وأفعالها تحرك العالم وتحوله من جزر إلى مد ؛ إنها ترى الغرض الأسمى على ضوء نار الحب فلا تهاب شيئاً ، وتسير إلى غرضها لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، محطمة فى طريقها الأصنام التى تعوق الناس عن سيرها ، منشدة أناشيد الإنسانية التى تملأ الناس حماسة وأملاً .

٤

سعة النفس :

تختلف النفوس سعة وضيقاً كما تختلف الحجر والمنازل والأماكن ؛ فمن الناس من تضيق نفسه حتى تكون كسم الخياط ، ومنهم من تتسع نفسه حتى تشمل العالم وما فيه .

تولد النفس ضيقة شديدة الضيق ، ثم كل تجربة من الحواس الخمس توسع دائرتها ، وكلما زادت تجاربها زاد اتساعها .

وفائدة التربية توسيع النفس ؛ فكل موضوع نتعلمه يزيد فى اتساع نفسنا كما يزيد فى اهتمامنا . فإذا قرأنا التاريخ — مثلا — قديمه ووسطه وحديثه زاد شعورنا بالأجيال المختلفة على تعاقبها ، واتصلت نفوسنا بالعالم على توالى العصور ، وارتبطت بعظماء الرجال على نحو ما ، فكان ذلك كله عنصراً هاما لسعة النفس ؛ وكذلك درس النبات ، يزيد اتصالنا بعالم النبات ويخلق فينا عيناً جديدة نقرأ بها فى النبات وأنواعه وتطوره وحياته ما لم نكن نقرأ ، فتتسع نفوسنا من هذه الناحية اتساعا يجعل علم النبات جزءاً منا ؛ وكذلك الشأن فى كل علم من جيولوجيا وفلك وطبيعة وكيمياء ، كل علم بشىء يبعث موجات لاسلكية من

الأشياء المعلومة ويجعل من نفسنا جهازاً مستقبِلا لها ، وعلى قدر علمنا بالعالم حولنا تكون سعة نفسنا ، وتكون مقدرة استقبالنا للموجات ، ويكون تجاوب نفسنا مع العالم .

وكما تتسع نفس الإنسان بعلمه بالشيء تتسع قدرته ونفوذه ؛ فالمهندس يرى فى الأبنية ما لم نر ، ويقرأ فيها من أحجارها وأخشابها وأوضاعها ما لم نقرأ ، ويستطيع أن يتخيل من الصور والأبنية والأشكال ما لم نتخيل ، ويُخرج إلى الوجود من المشروعات والتصميمات ما لم نستطع ؛ وشتان بين موسيقى يدرك أدق شيء فيما يسمع ، ويُصغى إلى نفسه فيستخرج من الألحان ما نُعْجَب به ، وبين من ليس له أذن موسيقية فلا يميز بين صوت وصوت ، فضلا عن خلق ألحان جديدة !

هناك وسائل كثيرة لتوسيع النفس ، أكثرها شيوعا مزاولة الأعمال المادية مهما اختلفت هذه المادة ؛ فالنجار فى نجارته ، والحداد فى حدادته ، والتاجر فى سلعه ، والزارع فى زرعه ، كلٌّ يوسع نفسه ونفوذه فى ناحيته ، فممارسته العمل تنمى خياله فى موضوعه ، فيحلم بأشياء فى ذهنه يستخرجها إلى حيِّز الوجود بعمله ، وكل التحسينات فى الصناعات ناشئة عن هذه السعة فى النفس التى تتبعها قوة الخيال وإصلاح الإنتاج .

وكل ما يباشره الإنسان ويتصل به يكوّن جزءاً من نفسه ؛ فبيتك الذى تسكنه ، وأثاث منزلك ومالك وثروتك ، كل هذا يتحد مع نفسك ويكون جزءاً منها ، من تعدّى عليه فقد تعدى على نفسك ، ومن عاب بيتك أو أثاثك أو صناعتك فقد عاب نفسك ، ومن مدحها فقد مدح نفسك ، وهكذا .

وهكذا الشأن فى المعنويات ، فمن ضروب توسيع النفس وسعادتها اتصالها بنفسٍ مثلها ، فقد تشعر النفس بضيق وظلام حتى تجد نفساً تألفها ، فتشعر بالسعة

بعد الضيق ، والنور بعد الظلمة ، وتشعر بلذة التجاوب بين النفسين ، والتناغم بين الروحين ، وهذا هو سر السعادة فى الصداقة ، والسعادة فى الحب ؛ فالنفس تشعر بسعتها ، وأن نفساً أخرى انضمت إلى نفسها وتكونت منهما وحدة ، تسعد كلٌ بسعادة الأخرى ، وتكمّل كلٌ نفس الأخرى ، وتستمد كل نفس قوة من النفس الأخرى ، وربما استطاعا بامتزاجهما أن ينتجا شيئاً لا تستطيع أن تنتجه كلتاهما ولا هما معاً غير ممتزجين ، كالعنصرين يمتزجان فيكوّنان عنصراً جديداً ليس أحدَهما وليس هما معاً متفرقين منفصلين . وعمل الأنبياء والمصلحين أن يوحّدوا الغرض بين النفوس ، ويعملوا بتعاليمهم على توحيدها ، فإذا الجمعية الأولى الملتفة حول النبى أو المصلح متحدة كأنها نفس واحدة ، واسعة لأن كل نفس تشربت سائر النفوس ، وإذا ما يصدر عنها مجتمعةً يستدعى العجب . ومما ينشده كبار المصلحين المتفائلين فى العالم تحقيق نظم اجتماعية وسياسية إنسانية تدرك هذه الحقيقة ، فتوَسّع النفوسَ بالتوحيد بين أغراضها ، والتأليف بين قواها ، والقضاء على عناصر التفريق من وطنية وعصبية ودينية وقومية وجنسية ولغوية ، حتى تتسع النفوس إلى أقصى حد ممكن ، وتتجه كلها لخير الإنسانية على السواء ، وإذ ذاك يقفز المجتمع الإنسانى والمدنية قفزة لم يرها التاريخ ، لأن التاريخ فى جميع عصوره كان معوّقاً بالعصبيات القبلية والقومية ، والحدود الجغرافية ، والنزعات الوطنية والجنسية ، والخلافات الدينية ، وكلها مظاهر لضيق النفس .

ومن مزايا الدين توسيع النفس ، وهو ما عبر عنه الإسلام بانشراح الصدر ؛ ولعلك صادفت فى حياتك أناساً ضاق صدرهم ، وتغلب عليهم الشعور بأن القدر يعاكسهم ، والحظ يعبس فى وجوههم ، وأنه كلما سلكوا طريقاً سد أمامهم . إن الدين كفيل بإزالة هذا الشعور ، وشرح الصدر وتوسيع النفس ؛ فالمؤمن يشعر

شعوراً عميقاً بأن قوة تؤيده وتكتسح الصعاب أمامه ، وهو يشعر بانهدام السدود والحدود فى طريقه ، وهو يشعر بانعدام الزمان والمكان بضمه عالَم الغيب إلى عالم الشهادة ، واتصال الحياة الأخرى بالحياة الأولى ، فهو واسع الرجاء ، لايعوق نظره عائق ، ينجذب إلى عالم علوى فيه السعادة وفيه الرضا وفيه الطمأنينة . الدين الحق يغيِّر النفسية فينقلها من عالَم ضيِّق محدود إلى عالم فسيح غير محدود ، كالذى حدث فى عُبَّاد الأصنام فى الجاهلية لما انتقلوا إلى الإسلام ؛ فشتان بين أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وأبى عبيدة وخالد بن الوليد الجاهليين ، وبينهم أنفسهم وهم إسلاميون ! ما أضيق نفسهم فى حياتهم الأولى وما أوسعها فى الثانية ! وكما أفادهم الدين سعة نفس أفادهم قوة نفس ؛ فمحال أن كان الجاهليون من العرب يفتحون ما فتحوا وينتصرون ما انتصروا إذا بقوا على دينهم الأول ، ولو تجمعوا حول قائد حربى كبير ؛ فإن انتصارهم يرجع إلى سببين كبيرين : التوفيق فى اختيار قوادهم ، وأهم من ذلك العقيدة بأنهم مؤيَّدون بقوة من عند ربهم . الدين هو الذى فتح أمامهم الأفق ، وملأهم روحا للعمل ؛ بل هو الذى غيَّر موقفهم نحو الحياة ، فجعل من الجبان شجاعا ، ومن البخيل سمحاً ، ومن الشاك مؤمناً ، ومن الجزوع مطمئنا — قد كانت النفوس قبله مكبلة ببعض أوهام من غضب الصنم ورضاه ، ومن عادات وتقاليد تشل العقل وتقيد الروح ، فلما آمنت بإله واحد فوق كل شىء يرضيه الخير ويغضبه الشر ، سمت سمواً كبيراً . وفساد الدين يأتى من التعاليم التى تضيق النفس ، وتحجبها عن عالمها العلوى الفسيح — فالنفس إذا اعتقدت فى الخرافات ضاق حيزها ، وإذا امتلأت رعباً وفزعا من النار وعذابها ارتبك حالها .

ومن أكبر ما أفسد الدين — فى نظرى — تزمُّت رجال الدين ومبالغتهم فى وصف الله — تعالى — وصفاً مخيفاً مرعباً ، بدل أن يصفوه — كما وصف

نفسه — رحمانا رحيما يعفو عن كثير . وقادهم هذا النظر إلى التخويف من كل نعيم الحياة ، حتى قالوا إن الضحكة يؤاخذ عليها ، والأكلة الطيبة موضع الحساب ، ونادوا أن لا غناء ولا فرح ، ولا سرور بالحياة — ما هـذا كله ؟ وكل ذلك يفسد النفس ويخلق منها مزاجا سيئاً لا يصلح للحياة ! إن الدين الحق يتفتح للحياة الدنيا كما يتفتح للحياة الأخرى ، ويكون أساسه حب الله الذى يحب الناس ، وأن فى الدنيا جنة وفى الأخرى جنة . إن التزمت فى الدين مغالاة فى الحكمة حتى تعود سخفاً ، وحتى تحطم الحياة . الدين الحق يُدخل السرور على القلب والنشاط على النفس ؛ أما الحزن والخوف فيضيق الصدر ، ويشل النفس ويبعث السأم . أصبحت الصورة التى يرسمها رجال الدين للمتدين — مع الأسف — صورة رجل منكس الرأس تواضعاً ، مملوء القلب رعباً ، زاهد فى النجاح فى الحياة الدنيا طمعاً فى الحياة الأخرى ، مغمور بالكرب خوفا من الموت وما بعد الموت ، راغب عن متع الحياة ، شديد المحاسبة لنفسه فى كل ما يأتى وما يذر ، عابس فى وجه الحياة خوف أن تضله ، منهمك فى العبادة غير عابئ بحقوق الناس ، يفر من الصوت الجميل ، ومن الملبس الجميل ، والنظافة الجميلة ، والفكاهة الحلوة ، إلى نحو ذلك .

وهذه الصورة التى رسمها بعض رجال الدين وزادوا فيها على اختلاف العصور تنتهى إلى رجل ضيق الأفق حرج الصدر لا يصلح للحياة ، يُستغَل ولا يَستغِل ويُحكَم ولا يَحكُم ، ويذِل ولا يعتز ، وفى ظنى أنه يشقى فى الدنيا ولا يسعد فى الآخرة ؛ فلو أراد الله منا العمل للآخرة وحدها ، لاستغنى عن وجود الدنيا واختصرها — إنما الصورة الصحيحة للرجل الصالح رجل أحب الله أكثر مما خافه ، وأحب الناس من حبه لله ، وتفتحت نفسه للدنيا كما تفتحت للآخرة ، ربط دينه بإسعاد الناس والتخفيف من متاعبهم ، يضحك ويواسى ، ويصلى

ويتقن عمله ، ويحسن علاقته بالله وبالناس ، ويبسم للحياة ولا بأس بالموت إذا الموت نزل ، ويرى الخير فى أن يكون فى الصدر فى الدنيا وفى أعلى عليين فى الآخرة ، ويرفع رأسه فى الدنيا لأن ذلك مقرون برفع الرأس فى الآخرة ، يوسع نفسه حتى تحتضن الإنسانية بأجمعها والكون وما فيه ، يعتقد أن الدين فى القلب لا فى المظهر ، والدين المعاملة لا العبادة وحدها ، وأن خير الناس عند الله أنفعهم للناس — وقد كان هذا هو الدين الأول قبل أن يفسده المخرّفون ، وكانت هذه هى صورة المتدين قبل أن يشوهها المتأخرون . لو كان الدين أتى أوله بمثل ما أتى به آخره ما تحرر أهله ، ولا انتصروا ولا عزوا ، وكانوا طعمة لجيرانهم ، أذلة فى أنفسهم . إن الصورة الأولى التعيسة تملأ النفس شعوراً بالضعة ، وكما يعبر علماء النفس الآن تزيده شعوراً « بمركب النقص » ؛ بينما الصورة الثانية تبعث على التسامى . ومركب النقص يفقد الثقة بالنفس وبالرب ، والتسامى يبعثها . إن للنفوس قوانين طبيعية لا تتخلف : احرم النفس طمأنينتها واملأها رعباً وجردها من متع الحياة تفقد احترامها وقوتها ، وأمدها بالمال الذى يلزمها وأصلح الظروف التى تحيط بها تنفتح وتحس القوة والعظمة . واعتماد النفس على إله مخيف ليس كاعتمادها على إله محب رحيم ، وشتان بين شعور ابن نحو أب يحب ويرحم ، ونحو أب يخيف ويرعب .

إن الدين الصحيح يغذى الشعور بالتسامى والتفوق ، ويعالج الشعور بالنقص ، والدين إذا فسد كان على العكس . الدين الصحيح ينقل النفس من « السوداء » والرعب إلى الطمأنينة والسعادة . إنه يوسع النفس حتى ترى بينها وبين الناس كلها ، وبينها وبين المخلوقات كلها نسباً كنسب الأسرة الواحدة ، ربها الله .

ويحدث فى النفوس العظيمة أن تتصل بعالم غير منظور فيتسع أفقها اتساعا

مضاعفا — وهى ظاهرة من الصعب إنكارها ، وإن عز على العلم شرحها . وما نسميهم بنوابغ العالم وعظمائه هم من هذا القبيل ؛ خلقت نفوسهم ولها الاستعداد والقدرة على هذا الاتصال ، حتى لنرى هذا النوع — من كبار الأدباء والفنانين — يتعرضون لكتابة كتاب أو تصوير فكرة فيرتج عليهم ويصابون بالعقم ، فما هو إلا أن يشعروا أن بابا كان مغلقا ثم انفتح فجأة ، فاتصلت نفوسهم بعالم غير عالمهم ، ورأوا ما لم يكونوا يرون ، وتدفقت عليهم الإلهامات والمعانى والأفكار ، حتى كأن الرواية أو الكتاب أو القصيدة أو الصورة الفنية أو القطعة الموسيقية تكتب نفسها ؛ وهؤلاء يعالجون التعرض لهذا الوحى بأشكال شتى ، ومعالجات نفسية ، يستطيعون معها أن يستقبلوه ، إما بنوع من العزلة والاستغراق ، وإما بالتفكير فى فكرة نبيلة ، أو بقراءة كاتب ملهم مثلهم وتركيز النفس فيما كتب أو نحو ذلك . وليس أحد منا إلا من قرأ أو جالس عظيما فعجب كيف اتسعت نفسه هذه السعة ، وكيف تتدفق منه الأفكار والآراء كأنها وحى مُنزل ، وتفيض منه القوة حتى يُغذِى بها من قرأه أو سمعه . وعظماء رجال الدين من هذا القبيل تتسع نفوسهم لاتصالها بعالم روحى لا يقاس به عالم المادة . ويكاد يكون عند كل إنسان نوع من الاستعداد لهذا الوحى ، ولكن الفرق بين النفوس كالفرق بين حبة ظلت حبة ، وحبة وجدت جوّها وغذاءها فأخرجت جذورا وجذعا وأغصانا وأزهارا وأثمارا . والتربية الصحيحة وتعاليم الدين الصحيحة هى التى تربى النفوس وتغذيها وتجعلها أقدر على أن تكمل نفسها وتوسع أفقها .

# عُرْوَة بن الوَرْد

فى عصر يوم زرتُ أستاذنا الجليل « أحمد لطفى السيد باشا » فى مصيفه فى « رأس البر » ، وأخذنا نتحدث فنوناً من الحديث ، حتى وصل بنا إلى الأدب ، فقال :

لفتَ نظرى وأنا أقرأ فى « الأغانى » اليومَ ما حكاه من أن معاوية قال : « لو كان لعروة ولدٌ لأحببتُ أن أتزوج إليهم » . وأن عبد الملك بن مروان قال : « ما يسرُّنى أن أحداً من العرب ممن لم يلدنى قد ولدنى إلاّ عروة بن الورد » .

كيف يكون هذا ومعاوية هو ما هو فى نفسه ، وفى ملكه ، وفى عظمته ، وفى قومه ، ثم يتمنى أن لو نال شرف الإصهار إلى عروة ؟ وعبد الملك بن مروان ، وهو ما هو فى كل ذلك ، يتمنى أن يستعيض عن نسبته إلى معاوية وأبى سفيان وبنى أميّة — هذه النسبة التى جلبت له الملك الضخم — بنسبته إلى عروة بن الورد ؟

ومَنْ هو عروة ؟ صعلوكٌ من صعاليك العرب . وكُتب اللغة تعرِّف الصعلوك بأنه الفقير الذى لا يملك شيئاً ، ولا اعتماد له إلا على الغارة والتلصص .

كيف يستقيم ذلك فى الأذهان ؟ أحد أمرين : إما أن تكون هذه الأقوال المنسوبة إلى معاوية وعبد الملك غير صحيحة ، وإما أن يكون فهمنا للصعاليك غير صحيح !

وجدتُ السؤال صعباً ، والاعتراض وجيهاً ، فلم أحِرْ جواباً .

واليوم عدتُ إلى مكتبى وذكرتُ السؤال ، فرجعتُ إلى ديوان عروة ألتمس الحل . وجدتُ أن عروة — كما يصفونه — كان عَبْسياً ، من قبيلة عنترة ، « وكان فارساً من فرسانها ، وصعلوكاً من صعاليكها المقدَّمين الأجواد ، وكان

يلقب بعروة الصعاليك ، لجمعه إياهم ، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا مَغزَى » .

ووجدتُ أن كلمة الصعلوك تطلق على معنيين متقابلين أتم التقابل ، أحدهما فى منتهى الخسة والضعة والذلة ، والآخر فى منتهى العزة والسمو والنبل ؛ كلا المعنيين أساسه الفقر ، ولذلك سُمِّىَ كلا الرجلين صعلوكا ، ولكن شتان ما بينهما ؛ فأما أولهما ففقير كسول خامل ، دنىء النفس ، ساقط الهمة ، يتلمس رزقه من السؤال ، ويدور على الموسرين يتحنَّنهم ، ويستدرّ قوته الحقير من أيديهم ، هذا صعلوك حقير .. وأما الآخر فشهم شجاع ، يتلألأ وجهه عند الشدائد ، ويطلب رزقه من سن رمحه ، فإن نال ما طلب طَعِم منه وأطعم ، وأكل وآكل ، وتزوَّد وزوَّد ، حتى يأتى على آخره فإذا هو فقير ، فهذا صعلوك نبيل .

ولم آت بشىء من عندى فى هذا التفريق بين الصعلوكين ، فقد عبَّر عروة عنه تعبيراً خيراً مما عبَّرتُ ، وجلاه خيراً مما جلوتُ ، فقال :

لَحَا اللهُ صُعْلوكاً إذا جَنَّ ليلُه ... مُصَافِى المُشَاشِ آلِفاً كلَّ مَجْزَرِ (١)

يَعدُّ الغِنَى من دهرِه كلَّ ليلةٍ ... أصابَ قِرَاها من صديقٍ مُيَسَّرِ (٢)

ينام عِشَاءً ثم يُصبِحُ طَاوِياً ... يَحُتُّ الحَصَى عن جَنبه المتعفِّرِ (٣)

قليلَ التماسِ الزادِ إلا لنفسه ... إذا هو أمسَى كالعَرِيشِ المجوَّرِ (٤)

(١) لحا : لعن ، وجن الليل : أظلم ، والمشاش : رأس العظم اللين الهش ، ومصافى المشاش أى مفضله وملازمه ، وعاقد عقد الألفة بينه وبينه ، والمعنى لعن الله صعلوكا حقير النفس ، إذا أظلم ليله تحسس سقط الطعام ولازم مكانه .

(٢) أى أن هذا الصعلوك إذا أصاب الضيافة من صديق غنى حسب ذلك من نفسه غنى ، أى أنه يرضى من عيشه بقرى ليلة من صديق .

(٣) يحت الحصى : يفركه عن جسمه ، وهذا علامة خموله ودناءة همته ، فهو كثير النوم لا يسعى لرزق .

(٤) أى إذا هو أمسى وشبع بطنه مما أعطاه الناس سقط على الأرض من التخمة ، كالكوخ الذى يتداعى ويسقط ، والمجوَّر : الساقط .

يُعِين نساء الحي ما يَستعِنَّه ... فيُضحي طليحاً كالبعير المحسَّرِ (١)
ولله صعلوكٌ صحيفةُ وجهه ... كضوء شهابِ القابس المتنوِّرِ (٢)
مُطِلاًّ على أعدائه يَزْجُرونه ... بساحتهم زجر المَنيح المشهَّرِ (٣)
وإن بَعُدوا لا يأمنون اقترابه ... تَشوُّفَ أهل الغائب المتنظَّرِ (٤)
فذلك إن يلق المنيــةَ يلقها ... حميداً وإن يَستغنِ يوماً فأجدِرِ (٥)

وفي هذا المعنى وتقسيم الصعلوك إلى هذين القسمين أيضاً قال حاتم الطائي :

لحا الله صعلوكاً مُناه وهَمُّه ... من العيش أن يَلْقَى لَبوساً ومَطْعَما
ينام الضحى حتى إذا الليل جَنَّه ... تنبَّه مثلوجَ الفؤاد مُوَرَّما (٦)
مقيماً مع المُثْرين ليس ببارحٍ ... إذا نال جَدْوَى من طعام ومَجْثِما (٧)
ولكنَّ صُعلوكاً يُساوِرُ هَمَّهُ ... ويمضي على الهيجاء ليثاً مُصَمِّما (٨)
إذا ما رأى يوماً مكارمَ أعرضَتْ ... تيمَّم كُبْراهُنَّ ثمَّتَ صَمَّما (٩)

---

(١) أي يقضي نهاره في خدمة النساء في الأعمال الوضيعة حتى يعيا فيكون كالبعير الـكايل .

(٢) القابس : طالب النار ، والمتنور : الذي يطلب النار من بعيد ، أي لله صعلوك فقير آخر متهلل الوجه ، منبسط النفس للجدّ والعمل لا يتخشع لفقره ، كأن ضوء وجهه ضوء ذي النار المستضيء بنورها .

(٣) مطلا : مشرفاً على أعدائه يغزوهم ، فيزجرونه ويصيحون به — كما يصيحون بقداح الميسر عند اللعب بها — ليبعدوه .

(٤) أي إن بعد أعداؤه عنه لم يُهْمِله بعده أن يغزوهم ، ولا يأمنون ذلك منه ، كما يفعل أهل الغائب الذي ترتقب عودته .

(٥) أي إن يمت يمت حميداً ، وإن بقي فاستغنى ، فما أجدره بهذا الغنى لأنه ينفقه في المحامد .

(٦) مثلوج الفؤاد : بارد القلب بليداً ، وموَرَّما : منتفخاً من النوم .

(٧) الجدوى : العطية ، والمجثم : المكان يقيم فيه .

(٨) يساور همه : يواثبه ويدافعه .

(٩) تيمم : قصد وتعمد .

فذلك إن يَلْقَ الكريهة يَلْقَها    حميداً وإن يستَغْنِ يوماً فربما[1]

***

كان عروة صعلوكا بالمعنى الثانى ، يلمع فى وجهه ضياء الأمل والنشاط ، ويترفع عن المعيشة الدنيئة ، ويهابه أعداؤه ، ويُغير عليهم فيستغنى منهم ، ويفرّق ماله على من حوله ، ويعيش فقيراً نبيلا .

وحول هذه المعانى كلها كان شعره كله ، فهو يسعى للمجد وحسن الذكر فإما مات فى سبيله وإما ناله :

ذَرِينى ونفسى أمَّ حسانَ إننى    بها قبل ألاَّ أملك البيع مُشْتَرِى

أحاديثَ تَبْقَى والفتى غيرِ خالدٍ    إذا هو أمسَى هامةً فوق صَيِّر[2]

ذرينى أُطَوِّفْ فى البلاد لعلنى    أُخلِّيكِ أو أُغنيكِ عن سوء مَحْضَر

فإن فاز سهمٌ للمنيـة لم أكن    جَزُوعاً وهل عن ذاك من متأخَّر ؟

وإن فاز سهمٌ كَفَّـكم عن مقاعدٍ    لكم خَلْفَ أدْبار البيوت ومنظَر

كان عروة اشتراكياً عملياً ، لا اشتراكياً نظرياً فحسب ، يذكرنا بتولستوى على بُعد ما بينهما فى البداوة والحضارة ، والأمية والثقافة ، والزمن بين القرن السادس والتاسع عشر ؛ ولكن الروح النبيلة فيهما واحـدة . فقد حمل « عروة » عبء الفقراء فى قبيلته ، وآلى ألا يستريح حياته أو يجدوا كفايتهم ، وألَّف منهم فرقة تعمل معه وتسعى سعيه ، وما نالوا فهو للجميع ، ونفسه لا تهدأ من الشعور بهذا العبء :

ومن يكُ مثلى ذا عيال ومُقْتِراً    من المال يَطْرَح نفسه كل مَطْرَح

---

(١) فربما أى فربما حمد أمره .

(٢) يريد أن الفتى يموت فتخرج منه هامة تعلو كل قبر كعقيدتهم فى الجاهلية . الصير : القبر .

ليبلغَ عذراً أو يُصيبَ رَغيبةً ومُبلِغُ نفسٍ عُذْرَها مثلُ مُنْجِحِ

وليس عياله هم أولاده كما نفهم نحن اليوم ، ولكن مَنْ يعولهم من أهله وفقراء قومه ، كما تدل عليه سيرته .

وقد جمع « عروة » فقراء قومه حوله ، وبنى لهم حظيرة يقيمون فيها ، وهو يغزو بأشدائهم أعداءه وأعداءهم ، فما جمع وجمعوا فرّقه عليهم ، وساوى بين نفسه وبينهم ، وسماهم اسماً إن كان قبيحاً اليوم فلم يكن قبيحاً فى عهده ، سماهم « أصحاب الكنيف » ، و « الكنيف » الحظيرة تقام من الشجر فتقى من فيها الريح والتراب والبرد .

وكان له فى الهجمات والغزوات رأى لطيف ، وهو تقصِّى حال من ينوى غزوهم ، فإن كانوا كرماء سمحاء تركهم ولم يُغِرْ عليهم ، وإن كانوا أشحّاء بخلاء أدنياء ، تعمد غزوهم ، وسلبهم مافى أيديهم ، وأعطاه لأصحاب الحظيرة .

يحدثنا الرواة عن حادثة طريفة حدثت له ، فقد كان « عروة » حياته فى جهد متواصل من الغزو والقتال ، وهذه هى أهم وسيلة من وسائل العيش فى ذلك العهد ، وكان إذا أصاب إبلاً أطعم أصحاب الحظيرة منها ، وقسمها عليهم قسمة عادلة ، وأخذ لنفسه نصيباً مثل نصيب أحدهم ؛ فأغار يوما ونال إبلا كثيرة ، وسبى امرأة ، فقسم الإبل بينهم ، وأراد أن يستخلص المرأة لنفسه ، فأبوا عليه حتى يطبق الاشتراكية تطبيقاً دقيقا ، وطلبوا إليه أن يقوّم المرأة بالإبل ويجعلها سهماً ، فمن شاء أخذها ومن شاء تركها ، أما أن يستصفيها لنفسه فلا . فغضب « عروة » أشد الغضب ، وفكَّر أن يهدم الحظيرة على من فيها ، وينتزع منهم ما أسدى إليهم ، ويقتل مَن أبى عليه منهم ، ولكن رجعت إليه نفسه الخيّرة فقال : « إن فعلتُ أفسدتُ ما صنعت » ؛ ثم نزل على حكمهم وترك المرأة لهم ، وشكا فى شعره الناس ونفسيتهم ، يقول فيه إنهم كسائر الناس ،

ضعاف إذا جاعوا ، لئام إذا شبعوا ؛ وإنى وإياهم كالأم الرءوم على ولدها الصغير ترضعه وتحمله ، وتغذّيه وتلببه ، وترهن له ماء عينيها ، حتى إذا تم شبابه ، وأدرك خيرُه تزوج ، فغلبت الزوجة الأمّ على ابنها ، وسلبته قلبه بما تتطيّب له وتتزين فحارت الأم فى أمرها ، إما أن تخسر ابنها إذا تنكرت له ، أو تصبر على الألم من أن تكون زوجته آثر عنده منها ، فدفعتها الشفقة أن تختار الثانية ، وهذا ما كان منه مع أصحاب الحظيرة ، فذلك قوله :

ألا إن أصحابَ الكنيف وجدتُهم ... كما الناس لما أخْصبُوا وتموّلوا
وإنى لمدفوع إلىّ ولاؤهم ... بماوان إذ نمشى وإذ نتملّل (١)

* * *

فإنى وإياكم كذى الأمّ أرْهَنتْ ... له ماء عينيها تفدّى وتحمِلُ
فلما ترجّتْ نفعه وشبابَهُ ... أتت دونها أخرى جديدٌ تكحّلُ
فباتت لحدّ المرفقَين كليهما ... تُوحْوحُ مما نابها وتوَلْوِلُ (٢)
تخيّرُ من أمرَيْن ليسا بغبطةٍ ... هو الثُّكلُ إلا أنها قد تجمّلُ (٣)

* * *

أكبر ميزة لعروة أنه كان رجلا ، وكان يشعر بالناس أكثر مما يشعر بنفسه ، واخترع لذلك المعنى التعبير الفنىّ الجميل « أقسّم جسمى فى جسوم كثيرة » ، أى أقسم ما يلزم لجسمى من طعام فى أجسام الناس ، ثم هو لا يعبأ بهزاله إذا سمن قومه ، ولا يعبأ بالأعباء يحملها لتخفيفها عن عشيرته ، وقد لخص هذه النظرات فى وصف نفسه بقوله :

---

(١) ماوان : واد فى شرق المدينة . يقول : أدركتهم وهم هزلى من شدة الجهد ، لايقدرون على المشى ، فأخرجتهم وقمت بأمرهم حتى إذا قووا وأخصبوا وجدتهم كسائر الناس يكفرون النعمة .

(٢) أى باتت الأم لحد المرفقين ، أى متكئة عليهما من الهم والتفكير .

(٣) يقول تفكر فى خسارته أو مجاملته ، وتتخير ما تريد أن تصنع ، ثم تقول هو ولدى ولا غنى لى عنه .

إنى امرؤ عافِى انائىَ شرْكَةٌ ... وأنت امرؤ عافى انائِك واحد(١)

أتهزأ منى أن سمنتَ وقد ترى ... بجسمى مَسَّ الحق والحق جاهدُ(٢)

أقسِّمُ جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قَراح الماء والماء بارد(٣)

لعل هذه المعانى النبيلة وأكثر منها هى التى جعلت معاوية يتمنى أن يصاهره ، وعبد الملك يتمنى عروةَ أن يكون أباه ؛ وهذا سمو فى تفكير معاوية وعبد الملك عظيم ، وتقدير لمعانى النبل كبير .

---

(١) عافى إنائى شركة : أى طالب المعروف منى خلق كثير .
(٢) والحق جاهد : أى يجهد الناس . والحق الذى يعنيه صلة الرحم ومساعدة الضعفاء .
(٣) يقول أقسم طعامى على الناس ، وأكتفى بالماء الخالص غير الممزوج باللبن فى الشتاء حيث الجسم أحوج إلى الغذاء .

# فى الطريق

سرت أمس فى الشارع فرأيت « عسكرىّ المرور » يرفع يده أو يصفر ، فيقف كل من فى جانب ، ويتحرك كل من فى جانب ، ولا من يجرؤ على مخالفته ، كأن فى يده عصا سحرية ترغم على الطاعة .

الحوذيون يطيعون ، وسائقو السيارات بما يحملون من بكوات وباشاوات وآنسات وسيدات يطيعون ، والمارة على أرجلهم يطيعون ، فما كل هذه العظمة ؟

ليت هذا السحر فى لسان المعلّم ، يأمر وينهى تلاميذه فيطيعون ، فإنى أرثى لحالهم يأمرون فيُعصَوْن ، وينهَوْن فيعصون ، وهم وتلاميذهم فى نزاع دائم ، وحرب مستمرة ، ويذهب المعلم آخر النهار كأنه ضُرب مائة سوط من كثرة المحاكة والمخاصمة .

وليت هذا السحر كان للمصلحين ، فقد بحّ صوتهم ولم يُسمع نداؤهم ، فطالما قالوا للأغنياء تبرعوا للفقراء فلم يتبرعوا ، وللكسالى جِدُّوا فلم يجدُّوا ، وللحكام اعدلوا فلم يعدلوا ، وذهبت أقوالهم فى الصحف والمجلات والكتب والخطب أدراج الرياح ، ولو منحت أقلامهم وألسنتهم قوة « عسكرىّ المرور » لصلحت الأمور فى لحظة ، وتقدمت الأمة ألف خطوة فى لمحة .

وليت هذا السحر كان للآباء والأمهات فى البيوت ، فإنا نجد الأسرة ناراً متقدة ، ونزاعاً حامياً ، يأمر الأب فيعصى الابن ، وتنهَى الأم فتخالف البنت ، فلو كانت لهم سلطة فى البيت كسلطة « عسكرىّ المرور » لشملت البيتَ السعادة ولفّته الطأنينة والهدوء .

وليت للحكومة هذا السحر تصدر أوامرها فلا يُتلاعب فيها ، وتصدر

التعليمات فى التموين وغير التموين فلا يُتحايل فى العبث بها ، كما لا يستطيع أن يتلاعب المارة بأوامر « عسكرىّ المرور » .

الحق أن هذا السحر حيّرنى فى تعليله !

ألشخصية « عسكرىّ المرور ؟ » كلا ! فمنهم ضعاف الشخصية ويسمع لقولهم كأقوياء الشخصية سواء بسواء ، حتى لو استعضت عن هذا العسكرى بقطعة زجاج ملونة حمراء وخضراء وراءها مصباح عادى لكان لها هذا السحر .

أم لأن وراء العسكرى قوة القانون ؟ وهذا أيضاً غير صحيح ، فقوة القانون وراء كل الأوامر التى تصدرها الحكومة ، ومع ذلك تخالَف سرا وجهراً ، ويُتحايل على الهرب من أوامرها ونواهيها حيلاً لا تحصى .

قلت ربما كان السبب أن تنفيذه تحت سمع الجمهور وبصره ، فمخالفته مخالفة صريحة وراءها العقوبة الحتمية السريعة وهى ازدراء الجمهور للمخالف ؛ ثم وجدت أيضاً أن هذا لا يكفى ، فالجمهور بحمد الله ليس له من القوة ما يخيف ، وليس له من الغَيرة على تنفيذ القوانين ما يُخجل من مخالفتها .

وقلت : لعل السبب تعرض المخالف للخطر ! ولكن رأيت هذا الأمر يطاع حتى فى ساعة قلة الازدحام وعدم احتمال الخطر .

وأخيراً حرت فى بيان السبب فتركته للقراء .

انتقل ذهنى بعد ذلك — بحكم تداعى المعانى — إلى مسألة متصلة بها ، وهى هل الأوامر والنواهى تختلف قوة وضعفاً ؟ ولماذا واللغة واحدة والفعل فعل أمر ، ولا لا الناهية ، والنحويون لم يفرقوا بين أمر وأمر ، ونهى ونهى ، ففعل الأمر مبنى دائما ، وفعل النهى مجزوم أبداً ؟ ومع هذا نرى دنيا الواقع تخالف دنيا النحو .

فهناك أمر عسكرىّ المرور ، وهو فى القمة من الحتم والجزم وقوة التنفيذ .

وهناك أمر الطبيب ونهيه للمريض بأن يأكل كذا ويمتنع عن كذا ، وهى أوامر ونواه قوية ، ولكنها لا تبلغ قوة الأول ، فكثيراً ما يهزأ بها المريض ولا يعيرها اهتماما ، ومع ذلك فلها قوتها على قدر رغبة المريض فى الصحة وإيمانه بالطبيب .

وهناك أوامر الواعظين فى المساجد والمجتمعات العامة ، وما أضيعها !

وهناك أوامر المعلمين لتلاميذهم بأن يلتفتوا إلى الدرس ، ويؤدوا الواجبات فى منازلهم فى حينها ، وهى أوامر حالها كحال أوامر الوعّاظ .

وهناك أوامر « العسكرىّ » حين يجاوز المرور إلى البائعين والبائعات ، وحينئذ يفقد سلطانه ، وتصبح أوامره أضيع من أوامر المعلمين .

وهناك أوامر التسعيرة فى تحديد أثمان السكر والورق ، وما إلى السكر والورق ، ولا أستطيع أن أقول فيها شيئاً .

وإذا كانت الأوامر تختلف هذا الاختلاف ، فواجب علم النحو الحديث أن يقسم فعل الأمر إلى أقسام متعددة ، ففعل أمر بوليسى ، وفعل أمر تعليمى وفعل أمر تموينى الخ ، لأن لكل عصر نحوَه وتصريفه .

* * *

وانتقلت بعد ذلك من فعل الأمر فى علم النحو إلى فعل الأمر فى علم النفس ، فمعلم يأمر فيطاع ، ومعلم يأمر فيُعصَى ، والأمران متشابهان ، والتلاميذ واحدة حتى قد يكونون فى فصل واحد ؛ وواعظ يأمر فيُبكى ، وآخر يأمر فيُستهزأ به ، وقد يكون كلامهما دائراً على معنى واحد ؛ وأب يأمر فيطاع ، وأب يأمر فيعصى .

وخرجت من ذلك إلى أن فعل الأمر وحده لا يكفى فى التنفيذ ، وإنما يحمل على التنفيذ أمران ممتزجان أتم الامتزاج ، فعل الأمر ونفسية الآمر ، فإذا كانت نفسية الآمر نفسية قوية وَجَدَتَ السامع تتخاذل نفسه أمام

الأمر ، وأحس أنه أمام قوة كهربائية هائلة ، فاضطر إلى تنفيذ فعل الأمر رغم أنفه ؛ وإذا كان فعل الأمر صادراً من نفسية ضعيفة ، أوعز هذا الضعف إلى السامع العصيان أو الاستخفاف — ذلك أن النفس الإنسانية مولعة بحب الأمر ، لأنه مظهر السلطة ؛ حتى الأطفال فى ألعابهم يسرهم أن يمثلوا فى بيوتهم مع الخدم أو نحوهم موقف المعلم أو الأب فى أمره ونهيه ؛ والنفس الإنسانية أيضاً مولعة بالعصيان ، لأنه إذا كان الأمر والنهى مظهر السلطة والشخصية ، فالطاعة والامتثال مظهر ضياع الشخصية ؛ لذلك كانت النفس أميل إلى العصيان ما لم تشعر بقوة الآمر وسلطان الناهى . وفعل الأمر والنهى فى ذاته لا قيمة له ، فهو لفظ سيّال ، ينتهى بمجرد النطق ، وإنما الأثر الحقيقى أثر النفس ، فهى التى تضيّق على المأمور الخناق حتى تلزمه التنفيذ .

وشىء آخر ، وهو أن المأمورين والمنهيّين عندهم حاسة عجيبة يدركون بها تمام الإدراك حال الآمر والناهى من صدق أو تهريج ، ومن حرارة قلب أو برودة نفس ، ومن إخلاص أو نفاق ، فإن شعروا بالصدق والحرارة والإخلاص خضعوا ، لأن ذلك كله قوة ملزمة ، وإن شعروا بالتهريج والنفاق تنمّروا ، لأن ذلك ضعف يتستر بالقوة ، فإذا نفذوا وراء الستار أدركوا حقيقة الضعف .

***

ثم انتبهت من تفكيرى ، فإذا أنا قد جاوزت عسكرىّ المرور بمراحل ، وضللت قصدى من غير وعى ، فقلت : كم يجنى فعل الأمر !

# خطرات فى اللغة

(١) لاحظت أن اللغة تؤدى معانيها فى دقة وإحكام فى مواد العلوم: كالرياضة، والطبيعة، والكيمياء، ومصطلحاتها مضبوطة قلّ أن يعتريها غموض أو إبهام. وقريب من ذلك التاريخ، فاللغة قادرة على أداء معانيه وحمل رسالته أداء حسناً، وإن لم تبلغ فى ذلك مبلغ العلم؛ فإذا نحن جاوزنا ذلك إلى الفلسفة والأدب رأينا اللغة مسكينة عاجزة عن أداء المعانى فى وضوح وضبط وإحكام، حتى المصطلحات، من الصعب تعريفها وضبطها، فما أصعب أن تعرّف «الوجود»، و«الحقيقة»، و«ما وراء الطبيعة»، وما إلى ذلك، وما أصعب ما تعرّف «الشعر» «والأدب» و«الخيال» ونحوها؛ وكذلك فى فروع الفلسفة والأدب، فمن الصعب تعريف «الجمال والجميل»، و«الفضيلة والرذيلة»، و«الزمان والمكان» و«العدل والحرية»؛ ومن العسير تعريف «القصة والرواية والمثَل»؛ وما أكثر ما يقع الناس فى الجدل والحِجاج، لأن كلاً يتكلم وفى ذهنه معنى للشىء غير ما عند الآخر، ولو اتفقوا على التحديد لاتفقوا على النتائج! ولا أنسى حادثة رويت لى، وهو أنه — منذ سنين — أرادت حكومة العراق التعاقد مع الحكومة المصرية بالمراسلة والخطابات، فكان الاتفاق مستحيلاً لأن كلتا الحكومتين كان لها معنى خاص فى مصطلحاتها لا تفهمه الأخرى، ولم يتم الاتفاق حتى تمت المشافهة والاتفاق على معانى المصطلحات. وسمعت محاضرة لفاضل عراقى فى التربية، فثار جدل حول الموضوع تبين أن سببه الاختلاف فى المصطلحات، فهم يطلقون اسم «المدارس الداخلية» على غير ما نطلق، ويسمون «الفصل» ما نسميه نحن بالسنة، ويسمون الترفيعات

ما نسميه نحن بالترقيات ، ويسمون « مدارس الحضانة » ما نسميه نحن برياض الأطفال ؛ وهكذا .

(٢) من أسباب وقوع الناس فى الخطأ اللغوى عدم دقتهم فى الاستنتاج ؛ فهناك عقول تستنتج من الجملة أكثر مما يلزم ، وهناك عقول تستنتج منها أقل مما يلزم ، وكلاهما خطأ — إذا قلتُ : إن « الغول مرعب » فاستنتجتَ منه أنى أقول : إن الغول موجود ، فقد أخطأت ، واستنتجت أكثر مما يلزم ؛ لأن الخيال قد يرعب ، والوهم قد يرعب ، ولو لم يكن الشىء موجوداً . وإذا حدثتك عن فرس بأنه أشهب ، فاستنتجت أنى أقول إنه موجود ، كان استنتاجك صحيحاً . ومن الناس من لا يفرق بين القضيتين — وليس الأمر مقصوراً على الجمل ، بل دلالة الألفاظ على المعانى تختلف جد الاختلاف بين الأشخاص بحسب مدنيتهم وثقافتهم وعقليتهم ، فإذا قلت : « كرسى » لم يكن معناه عند الفلاح القروى كمعناه عند المدنى المتحضِّر ، وكذلك الشأن فى كلمة « بيت » ، و « دولاب » ، و « سرير » ؛ وإذا قلت : « علم الحساب » فمفهومها عند الصانع المتعلم تعلما بسيطا ليس كالمعنى الذى يفهمه العالم بالرياضيات ، وهكذا ، وهذا ما يجعل الناس إذا اختلفت مدنياتهم وعقلياتهم وثقافتهم لا يتفاهمون تفاهماً صحيحاً . ومن أسباب ذلك عدم دلالة الألفاظ على معان واحدة فى الرءوس المختلفة ، ولا تصدقْ أن معاجم اللغة تستطيع أن تشرح دلالة الألفاظ شرحاً تاماً صحيحاً ، فلكل كلمة هالة غير معناها الأصلى يعجز المعجم عن شرحها ، فدنيا الأطفال التى تعين على شرح الألفاظ غير دنيا الرجال ، ودنيا الفلاح غير دنيا المتمدن ، ودنيا الجاهل غير دنيا العالم ، وكل يفسر الألفاظ حسب دنياه .

(٣) يتصل بهذا أن كل لفظ من ألفاظ اللغة يوحى بأشياء تختلف باختلاف الأشخاص حسب بيئتهم وتجاربهم فى الحياة وغير ذلك ، فكلمة أبيض توحى

إلى الفلاح باللبن ، وقد توحى إلى الطفل بالسكر ، وقد توحى إلى سكان البلاد الباردة بالثلج ؛ وكلمة « وزير » توحى إلى الشرقيين بمعان غير ما توحى بها عند الغربيين ؛ وكلمة «العيد» توحى إلى الأطفال بمعنى الثياب الجديدة والأراجيح ، وعند أطفال آخرين بالهدايا تهدى إليهم ، وعند الرجال بالزيارات والتهنئات الخ ؛ وكلمة « البرلمان » و « نظام الحكم » توحى بمعان مختلفة فى الأفراد المختلفة والأمم المختلفة . وهذا سبب آخر من أسباب الاختلاف بين الناس فى الإفهام والفهم ، فوحى الألفاظ عند الناس يختلف اختلافا كبيرا .

بل قد يكون اللفظ يوحى بمعنى عند الناس فى عصر لارتباطه بحادثة أو نادرة ، فإذا نسيت الحادثة انقطع وحى اللفظ ، فمنذ حين كانت كلمة « تعديل الأساس » ، و « ردم البرك » ، و « الحكم الصالح » تستثير منا الضحك لإيحائها بمعان خاصة فى ظروف خاصة ، فلما زال الإيحاء زال التأثير — أعتقد أنا فقدنا كثيراً من كتب الجاحظ وقطع الأدب الاجتماعى ، لأن بعض ألفاظها وجملها كانت توحى بمعان معروفة ، فلما تقادم الزمن جهلت فبطل سحرها — إن شئت فاقرأ رسالة التربيع والتدوير للجاحظ ، وهى تدور حول السخرية من «أحمد ابن عبد الوهاب» تشعر بغموض فى بعض الجمل والإشارات ، وسبب غموضها أنها كانت إشارات إلى أشياء مفهومة فى زمنها ، ثم انقطع وحيها فغمض معناها .

(٤) ما وظيفة اللغة ؟ يخطىء من يظن أن اللغة تؤدى غرضاً واحدا ، وهو نقل المعنى من ذهن ، فلها أغراض أخرى كثيرة قد يصعب حصرها ، وقد يبعد إدراكها ؛ فمن أعجب أغراضها أنها أحياناً تستعمل لتخدير الأعصاب ، كتعزيمات السحرة مثل ألفاظ « شمهورش » ، و « جلجلوت » ، ونحو ذلك ، فهى لا تؤدى معنى ، ولكن تخدر الأعصاب بغرابتها وتأليف حروفها ، ولذلك لا يصح أن نحاول كثيراً فهم سجع الكهان فهماً تاما ، فهى لم يقصد منها

الإفهام التام بقدر ما قصد منها التخدير ، والمعانى المحلولة ؛ وأحيانا يقصد بالألفاظ مجرد ما توحيه من نغمات موسيقية لها أثرها النفسى كأثر الموسيقى — ولذلك لم تكن تخلو الأدعية الدينية — إذا تليت فى المعابد بلغة أجنبية — من أثر قد يكون بالغاً ، لأن الألفاظ توحى بمعان سحرية موسيقية ، وإن لم تفهم معانيها الأصلية ، وهذه لغة الإنسان الأول كانت صيحات متشابهة اللفظ ، ولكنها أحياناً تدل على الخوف ، وأحياناً على الغضب ، وأحياناً على طلب النجدة ، وأحياناً على التحذير من خطر ، وإنما تختلف دلالتها باختلاف موسيقاها ، وكذلك كان الشعر فى أول أمره ، غامض المعنى ، دالا بالموسيقى — فليس نقل المعنى من ذهن إلى ذهن هو الغرض الوحيد ، إلا فى الكتب التعليمية فى العلوم ، والحوادث المحية فى الجرائد ، وجدول الضرب ، وقانون اللوغاريتم ، ونحو ذلك ، مما ليس فيه اتصال ما بين المؤلف وعواطف القارئ .

(٥) للغة أساليب مختلفة فى أداء المعنى الواحد ؛ فهناك دلالة تصريحيه ، وهناك دلالة تضمينية ، فإذا أراد أحد أن يقترض منك ، فقلت له : «لا أقرضك» فهذه دلالة تصريحية ، وإذا قلت له : « ليس عندى نقود » أو « إنى مدين » أو « قد كنت فكرت أن أطلب منك ما تطلب منى » ، فهذه كلها تدل على عدم الإقراض بطريق التضمين — واللغة ترتقى من طريق الدلالة التضمينية أكثر مما ترتقى من طريق الدلالة التصريحية ، وكلما ارتقى ذوق الفرد أو الأمة شعر أن ما يناسبه هو التلميح لا التصريح . والدلالة التضمينية لا الدلالة التصريحية — وهذا من أهم الفروق بين لغة العلم ولغة الأدب ، فلغة العلم أقرب ما تكون إلى الدلالة التصريحية ، ولغة الأدب تسودها الدلالة التضمينية — لغة المعادلات الجبرية وشرح النظريات الهندسية ، وقوانين الطبيعة والكيميا لغة تصريحية ، ولغة الشعر لغة تضمينية ؛ والمجازات

والاستعارات والتشبيهات والكنايات كلها دلالات تضمينية .

وقد دل البحث النفسى ، على أن استمالة النفس من طريق الدلالات التضمينية أقوى وأعمل من الدلالة التصريحية ، ولذلك كانت الدلالة التضمينية لغة الخطباء والأدباء والشعراء والوعاظ ورجال السياسة ورجال الدين ؛ فالقصص ذات المغزى ، والعبرة بأخبار الأولين ، والأساطير الرمزية كأساطير اليونان ، وتحريك الوطنية بالشواهد والأمثال ، وتحميس الأمة للمشروعات الاقتصادية والاجتماعية ، ونداء المصلحين ، كل هذه تعتمد على الدلالة التضمينية أكثر مما تعتمد على الدلالة التصريحية لهذا السبب النفسى ، وهو أن النفس أكثر استمالة من هذا الطريق . والسبب فى هذا على ما يظهر أن الأوامر والنواهى العريانة تُشعر المأمور والمنهى بالضعة ، ولذلك كان أقسى أنواع الزجر الأمر الصريح ، « كامش ، واخرج ، واذهب » ، مصحوبة بالنغمة التى تدل على تعالى الآمر ؛ أما فى الدلالة التضمينية فقد سمح المتكلم للمخاطب باستعمال عقله فى الاستنتاج وفهم الأمر من طريق خفى ، فإذا هو استنتج الأمر فكأنما هو الآمر لنفسه ، وهو إذا أمر نفسه لم تكن هناك غضاضة عليه ، وهذا يوضح لنا ما للعلاقة القوية بين اللغة والتفكير والخيال والإرادة .

ونكتفى اليوم بهذا القدر من الخطرات اللغوية ، وسنتبعها بمثلها إن شاء الله .

# في الهواء الطلق [1]

## ٤

كانت الرحلة هذه المرة إلى رجل كبير قد طوى مراحل الشباب ، وصحب الأيام الخالية ؛ تقوّس ظهره واعوجت قناته من طول ما حمل من أعباء العيش ؛ خبَرَ الحياةَ حلوها ومرها ، وعرف حياة الفلاح فى حقله ، والموظف فى مناصبه المختلفة ؛ ومكنته ظروفه أن يخالط الأعيان ويدرس أحوالهم ، والطبقة الأرستقراطية ويعرف تقاليدهم ، وقوانينهم وترفهم ، ورجال السياسة واتجاهاتهم وأساليب تفكيرهم وتهريجهم ، وشاهد معامع خلافاتهم ، وانغمس فى تيارهم ، ثم نفض يده من كل شؤونهم ؛ وفى طول حياته يجارى الحركة الفكرية والأدبية والفلسفية فى الشرق والغرب ، ويتذوّقها وينقدها ، ويدلى بآرائه فيها .

زرته فى ضاحية من ضواحى القاهرة ضحى ، والجو بارد ، والشمس جميلة تبعث بدفئها فتنعش النفس ، وترد الحياة .

تبادلنا التحية ، وتكلمنا فى الجو والبرد ، والسياسة والحرب ؛ ثم قال : هل لك فى مشية خفيفة فى هذه الشمس اللطيفة ؟ فقلت : أنعم بها وأكرم ، وسحب عصاه .

وبعد قليل كنا فى الهواء الطلق ، والجو النقى ، والسماء الصافية ، والشمس الساطعة ؛ وتنقلنا فى الحديث إلى أن وصلنا إلى العجب من اختلاف الناس فى آرائهم ، وتعدد اتجاهاتهم فى تفكيرهم ، وكيف يُلعب بالحق ويخفى وجه الصواب ؛ فحركتُ من الشيخ كامن شجنه ، وعميق فكره ، فقال :

---

(١) تجد سوابق هذه السلسلة فى أجزاء فيض الخاطر المتقدمة .

إن الخلاف فى الرأى يرجع — فى نظرى — إلى أسباب كثيرة ؛ وهو موضوع لطيف ، قرأت فيه بعض كتب إفرنجية ، وجربت فيه تجارب شخصية ، ولا يزال يعلق شىء منها بذهنى الذى أدركته الشيخوخة ، ولعلها قوّسته كما قوست ظهرى ، وشيّبته كما شيبت رأسى ، فأصبح يرى الأمور كما يراها الناظر خلال منظاره ، ومع ذلك فمن الذى يستطيع أن ينظر إلى العالم مجرداً من منظار ؟ إن كل إنسان ينظر إليه من خلال منظاره الأحمر أو الأصفر أو الأسود أو الأبيض ؛ وللشباب منظاره ، وللشيخ منظاره ؛ وكل إنسان ينظر إلى العالم من خلاله ، وتحول بينه و بين إدراك الحقيقة شهواته أحياناً ، وكلٌّ يسمّى مايراه الحق .

وقد استفدت من مطالعاتى فى المنطق أن أحدد موضوعى وأحصر كلامى فى نقطة حتى أستوفيها طاقتى ، سواء فى ذلك إذا أردت أن أفهم أو أردت أن أتحدث ، ورأيت ذلك أجدى وأنفع ؛ وأكره ما أكره تشتت الذهن فى الفهم ، وتشقق الحديث فى القول — ففى موضوع كهذا نرى أن أسباب الخلاف بين الناس كثيرة بعضها يرجع إلى اللغة ، و بعضها يرجع إلى درجة الثقافة ، و بعضها يرجع إلى اختلاف الأغراض والشهوات ، و بعضها يرجع إلى اختلاف الأمزجة ، ونحو ذلك . فأحب إذا تحدثت أن أتحدث فى نقطة حتى أستوفيها ، ثم أعطف على غيرها ، ولا أحب أن أتكلم كلمة من هنا وكلمة من هناك ؛ فاختر ما تحب أن نبدأ به .

قلت : فلنبدأ من آخرها ، فذلك أشهى إلىّ .

قال : — وهو أيضاً أحب إلىّ .

وكنت ألاحظ أنه يرقب السماء والشمس ، وأخيراً أدركت أنه يخشى أن تحول بينه و بين الشمس سحابة تذهب بدفئها وتعرّضه للبرد والزكام ، فإذا رأى سحابة قدّر البعد بينها و بين الشمس ، وحسب حساب الزمن الذى تقطعها فيه ،

فقلت فى نفسى : يا لله من الكِبَر ؛ وما أقسى الوقوف على ساحل الحياة !

ثم اطمأن إذ ودع آخر سحابة تسير من الغرب إلى الشرق ، واستمر فى حديثه فقال :

هب أن عقل الناس كلهم وتفكيرهم المنطق واحد ، فإنهم فى أمزجتهم مختلفون ، والفكر الإنسانى لا يتكوّن ولا يظهر فى الخارج — بالحديث أو الكتابة — إلا ممزوجا بالمزاج ، ويكاد كل إنسان يكون له مزاجه الخاص به . ويتبع ذلك أن يكون لكل إنسان تفكيره الذى يظهر فى قوله أو فعله أو كتابته ، ولكن — لأجل التقريب فقط — قسم الأستاذ « وليم چيمس » المزاج الإنسانى إلى قسمين هامين ، ويكاد كل إنسان يكون من أحد هذين القسمين : « غليظ العقل » و « رقيق العقل » ، كما نقول : غليظ القلب ، ورقيق القلب ؛ ولكل منهما مظاهر ، فغليظ العقل — عادة — واقعى يؤمن بما يعتمد على التجربة والاختبار والحواس فقط ، مادى ، متشائم ، ملحد ، متعصب شَرِه ، شكّاك .

وعلى العكس من ذلك أخوه « رقيق العقل » مثالىّ ، متفائل ، متدين ، حر الفكر ، قانع ، مطمئن إلى عقائده .

وقد يتلون الناس ألوانا مختلفة ، ولكن إذا حللت ألوانهم رأيتها ترجع فى النهاية إلى هذين اللونين .

ولهذا ترى أن الناس — فيما يختارون من المذاهب الدينية والفلسفية ، بل والسياسية ، وما ينظرون إليه فيما يعرض عليهم من المسائل اليومية ، ونظراتهم إلى الله وإلى الحياة ، وعواطفهم وميولهم وأخلاقهم — متأثرون بما فطروا عليه من أحد هذين المزاجين أكثر من تأثرهم بفكرهم المنطقى المجرد .

من أجل هذا كان الوجود كله معروضاً أمام الناس كلهم على السواء ، ولكن

كلٌّ يقرؤه بعينه الخاصة ، ويشعر به بشعوره الخاص ، وكل ينجذب إلى أشياء لا ينجذب إليها الآخر ، ولا سبب لهذا إلا عقله الغليظ أو الرقيق ، ومزاجه الطبيعى المفطور عليه .

هذا الشاعر الذى لا يرى فى الحقل إلا جماله ، لا يرى فيه المالك إلا غلته ؛ وهذه جماعة تنظر كلها إلى امرأة واحدة ، ينظر أحدهم إلى جمالها الظاهر من جسمها فيهيم بها ، وينظر الآخر إلى سوء حديثها وقبح معانيها فينفر منها ، ويقوّمها الثالث حسب ثروتها وما ينتظر أن تناله من ميراث أبويها فيحبها أو يكرهها ، حسب علمه بمالها ، ولا يقوّمها الرابع إلا بمقدار صلاحيتها لأن تكون ربة بيت ، ومربية نسل ، والمرأة المرأة ، وإنما اختلف النظر ، وإنما اختلف النظر باختلاف المزاج ؛ وقديماً قالوا : « كلٌّ يغنّى على ليلاه » .

أرأيت الأكل أصنافاً وألواناً ، يستورد كل يوم لحديقة الحيوان من حشائش وبقول ولحوم ، ثم يأكل كل صنف من الطيور والحيوان ما يتفق وطبيعته ؟ !

أو رأيت الأسواق العامة للمأكل والملبس والمشرب ؟ يأتى إليها الناس فيتخيرون ما يشترون ، كل حسب مزاجه ، ويعجب كل كيف اختار غيره غير ما اختاره ؛ كذلك الشأن فى الآراء السياسية والدينية والاجتماعية والأخلاقية ، إنما يقع عليها الشخص منجذباً بمزاجه لا بمنطقه ، ثم من غفلته يظن أنه حر الإرادة حر الاختيار .

وهنا تعب الشيخ ، فاقترح العودة ، ثم قال :

هذا سياسى من الصنف الغليظ العقل ، قد اتخذ السياسة مغنما ، يختار المذهب الذى يرى أنه يدر الربح عليه أكثر ، ويتخذ السياسة مصعداً يصعد عليه فى ماله وجاهه ونفوذه ، وليست السياسة عنده إلا كسب المال أو انتهاز

كسبه ؛ وهذا سياسى آخر من الصنف الرقيق العقل ، مثالى ، يرى السياسة مغرما ، وهى ليست إلا وسيلة إلى إصلاح قومه قدر جهده ، فهو يضحى لذلك من ماله وزمنه خدمة لمبدئه . وليس الفرق بين الاثنين إلا الفرق بين المزاجين .

وتجد هذين النوعين فى الأمم المختلفة راقيها ومنحطها قد يختلفون فى العَرَض ، ولكنهم يتحدون فى الجوهر .

وكذلك الشأن فى الدين .

وكنا قد وصلنا فى عودتنا إلى حديقة جميلة فى أطراف الضاحية ، فوجدنا مقعداً خشبياً فقعدنا ، فإذا نظرنا عن قرب فالحشائش الخضراء الجميلة ، والنخيل التى تبهر بقوامها اللطيف وغصونها المتهدلة ، فإذا مددنا الطرف فالصحراء وما لا نهاية — وبدأ الشيخ يشكو التعب وكِبَر السن فحركته ليتم حديثه ، فسأل : إلى أين وصلنا ؟ فقلت : الدين .

قال : نعم ، إن الدين كذلك تابع للمزاج ، فمهما حارب العلم الدين ، ومهما دعا الملاحدة إلى الإلحاد ، ومهما قاوموا العقيدة ، فالناس فى كل عصر قسمان : قسم لا يريد أن يؤمن إلا بالحواس وقواعد المنطق الجافة ؛ وقسم يدعوه قلبه إلى الإيمان . ولهؤلاء حجج ولهؤلاء حجج ، ولا تظن أن العقل هو الذى يعمل وحده فى تأليف الحجج ، بل إن المزاج هو الذى يوحى إلى العقل بها وتكوينها وتشكيلها . والتصوّف والزهد ليس إلا مزاجا ؛ ومهما حاولتَ أن تجعل من الملحد صوفياً فلن تستطيع ، لأن تغيير المزاج فى حكم المستحيل . فذو المزاج الذى سميناه « رقيقاً » ينظر إلى العالم فيرى فيه أشياء لا تفهم ولا تشرح ، فيهيم بها ، ولا يستطيع أن ينكرها ، فيوليها احترامه وتقديسه ، على حين أن الغليظ المزاج يتخذ من غموضها وعدم فهمها وسيلة لجحدها ، ويحترم كل الاحترام حواسه ومنطقه ، فينكر ما وراءها ، ويصيح : إن الله ، والخلود ، والحياة الأخرى ،

والوحى ، وما إلى ذلك لا أحسها ولا أهتدى إليها بالمنطق الصرف ، فأنا أنكرها احتراما لحواسى ومنطقى . ويجادله الأول : ما حواسك وما منطقك ؟ إنك كلما وثقت بها زدت عمى ، وهى ليست إلا وسائل لإدراك التافه من الأمور ، وخدمة الشهوات ، ومن الحمق والمنطق الرخيص أن تغمض العين عما لم تدركه حواسك وقواعد منطقك ، وتحل مشاكله بإنكارك السهل ، فيكون مَثَلك مثل من عجز عن حل مسألة حسابية أو تمارين هندسية ، فأنكر وجودها بدل أن يحاول حلها بأساليب جديدة غير التى جربها — وهكذا ، وهكذا ، يطول النزاع والجدل ، والمسألة فى الواقع مسألة مزاج .

وسعل الشيخ سعلة شديدة ، احمرّ منها وجهه ودمعت عينه ، فرثيت لحاله ؛ ولكن عز علىّ انقطاع حديثه ، فتكلمت كلاما خفيفاً فى غير الموضوع ، حتى عادت إليه نفسه ، واستراح نفسَه ، ثم حركته من جديد ، فقلت : ولكن إذا كانت مسألة الدين مسألة مزاج ، فكيف تفسر مَن كفر بعد إيمان ، أو آمن بعد كفر ؟ أتغير مزاجه ، وقد فهمت من قولك استحالة تغييره ؟

فسكت قليلا ثم قال :

إن أخذت بالظواهر فاعتراضك صحيح ، ولكن إن دققت النظر فغير صحيح . إنى أعتقد — مثلا — أن الذين لبوا دعوة النبى فى أول الأمر كانوا من ذوى المزاج الرقيق الذى ينزع إلى الدين ، وكانوا يتدينون فى جاهليتهم ، فلما جاء الإسلام سهل عليهم التحول من دين غير صحيح إلى دين صحيح ، والنزعة الدينية واحدة ؛ وهناك بعدُ قوم أسلموا رغبة فى مغنم ، أو خوفا من سيف ، أو نحو ذلك ؛ وأنا لا أنظر فى قولى إلى الأشكال ، وإنما أنظر إلى القلوب ، ويعجبنى الحديث : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام » ، والحديث : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » .

إن الذين يؤمنون إيماناً تجارياً خارجون من حسابى ، وكذلك الذين يكفرون كفراً تجارياً .

وقد قرأت عن بعض العلماء المحدثين أنهم شغلوا بالعلم وتعمقوا فيه واستسلموا له ، وغمرهم تياره فكفروا بالدين ، ولكن مع هذا كله ظل أمر الدين ساكناً فى أعماق قلوبهم ؛ ووصف بعضهم أحدهم — ولا أذكر اسمه الآن — فقال : «إنه كفر عقله وآمن قلبه» ، وذلك لأن مزاجه من النوع الرقيق الذى يؤمن رغم أنفه.

والآن أظنك توافقنى على أن كل إنسان يُخرج من عقله وقلبه وعواطفه ومزاجه خيوطا خاصة به ، يؤلف منها مقدماته ونتائجه ، ثم يعتقد أنها الحق ، وأنها وحدها الحق ، وأنها منطق صرف ، وأنها عقل بحت ؛ وكذلك يفعل الآخر حسب عقله ومزاجه ، فيكون الخلاف ؛ وكلما كانت هذه الخيوط أكثر اختلافاً فى النوع ، كان المتجادلان أشد خلافا فى الرأى .

وإن ما ترى — الآن — حتى من الاختلاف فى النزعات السياسية من نازية وشيوعية وديمقراطية يمكن إرجاعه إلى ما ذكرت من اختلاف فى المزاج ، وأعنى اختلاف القادة والمؤسسين لهذه المذاهب ، لا العامة والأتباع .

لقد هممت أن أمطره بوابل من الأسئلة : ما قيمة التربية الأخلاقية والدينية والسياسية — إذَنْ — على مذهبك ؟ كيف يؤسس الإصلاح إذا صحت نظريتك ؟ كيف تقرب التفاهم بين المفكرين إذا اختلفت خيوط نسيجهم ؟ ونحو ذلك من الأسئلة ، ولكنه بدأ يسعل ثانية ، فأشفقت عليه وسايرته إلى منزله ، وتحدثنا ولكن فى الصحة والمرض ، والأدوية ومنافعها ، لا فى العقل والمزاج .

وودعته بعد أن رجوت له الصحة وتواعدنا أن يتمم لى رأيه فى باقى أسباب الخلاف .

# في الهواء غير الطلق

دق جرس « التليفون » صباحا :

— آلو . . . . . .

— صباح الخير . . .

— أمدعوّ أنت لحفلة عرس فلان ؟

— نعم .

— وستذهب ؟

— نعم .

— إذن مرّ على فى الساعة الثامنة مساء لنذهب معا .

— مع السرور .

ووضعت السماعة ، وكان الذى يتكلم أستاذنا الفيلسوف الذى حدثتك عنه ، فأحسست شعوراً مزدوجا ، سروراً بألم ، ورضا بغضب .

لقد كنت أؤمل ليلة خفيفة فيها أكل شهى ، ومنظر بهى ، وغناء مطرب وتنادر فكِه ، وراحة من كتب ، وفرار من درس ؛ فإذا كل هذا الأمل يخيب من هذا الحديث القصير ، فقد توقعت درساً فى الفلسفة ، ومحاضرة فى الحكمة ، وإن كنت أجهل موضوع الدرس ومدار البحث . فصاحبنا مهما تحدث لا يتحدث إلا فلسفة ، وإذا تلقف موضوعا — مهما كان — فهو يعمق فيه إلى ما تحت الطبيعة ، أو يعلو فيه إلى ما فوق المادة ، وهو قادر على أن يفلسف كل شىء ، حتى أبعد المسائل عن الفلسفة ، ولكنه فى حديثه خفيف الروح ، حلو النفس ، جيد المحاضرة ، حسن التفنن ؛ وهذا ما خفف علىّ بلواى ، ثم له علىّ

حق الأستاذية ، والأبوة العقلية والروحية ، فوطنت نفسى أن أضحى بلذة عينى وسمعى للذة عقلى ، وقدّرت أنى سأنتقل من مكتبة إلى مكتبة ، وسأكون فى فصل من مدرسة ، وإن كان المظهر حفلة عرس ومجال أنس ، وذهبت معه وأمرى إلى الله .

* * *

حضارة أمم فى دار ، ليلها نهار ، معرضُ فنّان ، وجمال ألوان ، وغيد حسان ، وروائح الجِنان ، وموسيقى تصدح بأعذب الألحان ، ووجوه مرحة ، ونفوس مرحة ، وفى كل ركن وكل حجرة منظرٌ خلّاب ، من مرح الشباب .

وإذا أنا وشيخى فى هذا الحفل اللجب كأننا نشاز فى نَغَم ، أو تعويذة فى سلك درر .

قال شيخى : ما أنصفْنا إذ أتينا ، ولو علمت ما جئت ، فأنا إذا وجَدْتُ هذه المناظرَ فقدت نفسى ، ومع هـذا فهبنا فى رواية تمثل على مسرح نلهو بمنظرها ولا نشترك فى تمثيلها .

وانتحينا ناحية ، واسترحت واستراح الشيخ من المقابلات والتحيات والحفاوات ، وعادت إليه شهوته للكلام ورغبته فى التفلسف ، فقال :

— اُنظر : كل هذا بعض ما تفعله الغريزة الجنسية ، إليها يرجع الفضل فى إعجابنا بالألوان البراقة ، والأشكال الجذابة ، والأصوات الجميلة ، بل إليها يرجع فى نظرى كل فنّ جميل . فالحفر والتصوير والموسيقى والشعر والنثر الفنى وأوزان الشعر وأنواع البديع ما كانت تكون لولا الغريزة الجنسية ، وكل ما فى اللغة والأدب من وصف الجمال والقبح ، والغزل والنسيب ، والهجر والوصال ، ولذة الحب وألمه مردُّه إليها ، بل وإليها يرجع عالم البيت وعلاقاته وشؤونه من زوجية وأبوة وبنوة ، وكل ما يتصل بذلك من ملاذ وآلام ، وما تلعب فيه العواطف

من حب وبغض ، ورضا وغضب ، ورحمة وقسوة ، وما شئت من أشكال وألوان .

— راقب الألاعيب المختلفة أمامك من مرح وضحك ، وحركة وسكون ، وهزج ومزح ، وأناقة فى ملبس ، وتأنق فى حديث ، وموسيقى جميلة ، سارة وحزينة ، وحلل كل ذلك إلى عوامله الأولية ، تره الغريزة الجنسية

— بل اخرج من عالمنا هذا الضيق إلى العالم الفسيح ، ومن هوائنا غير الطلق إلى الهواء الطلق ، تر غناء الطير : من هديل الحمام ، إلى سجع القمرىّ ، إلى عندلة العندليب ، إلى قطقطة القطا ، إلى زقزقة العصفور ، إلى نقنقة الدجاجة ، إلى نحو ذلك ، إنما تبعث عليه الغريزة الجنسية ؛ وقل مثل هذا فى صهيل الفرس ، وحنين الناقة ، وخوار البقر .

بل خطا أستاذنا « دارون » ومدرسته أكثر من ذلك ، فزعموا أن جمال الطيور والحيوان إنما منشؤه الغريزة الجنسية والانتخاب الطبيعى ، فتحجيل الفرس وبياض غرته ، وزركشة الطاووس ، ونقش الفراشة ، والنكت البيض والصفر والسود والحمر فى الطائر والحيوان إنما هى تبرّج للغريزة الجنسية .

قلت : لم يبق إلا أن يقولوا كذلك فى الأزهار وألوانها ، وجمال الورد ، وزرقة البنفسج ، وبياض الياسمين ، وزركشة « البنسيه » !

قال : نعم ، كذلك قالوا ، حتى لو عدمت الغريزة الجنسية لم يبق من الجمال فى العالم شىء .

قلت : وجمال الطبيعة ؟

قال : لم نكن ندرك لها جمالا لو فقدنا هذه الغريزة — ولم يصنع الإنسان أكثر من أنه أخذ ما يفعل النبات والحيوان ، فرقّاه فى شعوره بالجمال ، وفى شعوره بالواجب ، وفى الحب الزوجى والأبوى ، وفى الغناء ، وفى الرقص ، وفى الزينة والتزيّن ؛ وقد فعل فى ترقية كل ذلك ما فعله فى المأكل والمشرب والملبس

من تعقيد وتجميل ، والأساس فى كل ذلك ما عنـده وعند كل حى من الغريزة الجنسية .

قلت فى نفسى : سبحان ربى ، أفى مثل هذا الجو تثار مثل هذه المشا كل ؟ وأُنحَّى من هذه الملاحة والوضاءة ، وأحرم من قراءة نسخة الحسن فى الوجوه ، لأقرأ نسخة من أرسطو ، وأنقَل من سمع الألحان إلى سمع السكِيان[1] .

ودُعينا إلى سماط فخم ، فيه كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

قلت لشيخى : ما هذا ؟

قال : كأنه كتاب أنيق ، حسن الديباجة ، محكم الوضع ، متناسق التبويب ، متنوّع الأساليب ، قد استوعب الأصول وأحاط بالفروع .

قلت : أرسطو ورب الكعبة .

وصمت الشيخ فلم يتابع حديثه ، وكأنه ضن بالفلسفة أن يَسمعها غير أهلها ، أو تُقال فى غير محلها ، فحمدت الله إذ استعضت عن الأكلة فى فكرة بأكلة فى نظرة . وحدّثْ ما شئت عن جمال وظرف ، وأناقة ولباقة ، وفكاهة حلوة على لقمة حلوة ، وهمسة خافتة تتبعها ضحكة عالية ، حتى انتهينا من أكلنا هنيئاً مريئاً ، وعدنا إلى مجلسنا فى ركننا ، وبالمتكلم رغبة فى أن يتكلم أكثر مما للسامع أن يسمع ، ثم قال . إلى أين وصلنا ؟

قلت : إلى أن كل فن فى الإنسان ، وكل غناء للطيور والحيوان ، وكل برقشة للنبات ، سببها الغريزة الجنسية .

قال : نعم ، وقد فكرت طويلا فى هذه الغريزة ، وما القصد منها ، فتبين لى أن الطبيعة منحتها بقصد « استمرار الحياة » ، وقد كانت الطبيعة سخية ، فمنحت منها أكثر من الحاجة إليها ، فرصدت « للاحتياطى » منها أكثر مما يلزم ، ومنحت الإنسان أكثر مما يقتضيه بقاء النوع واستمرار الحياة ، فصرف

(١) سمع السكيان : اسم كتاب فى الفلسفة اليونانية نقل الى العربية .

جانباً منه فى هذا الغرض الأساسى ، وفاض ما عنده فصرفه فى اللعب بالعواطف وممارسة الفن ، وأنفق جزءاً منه فى تربية البنين والبنات ليكمل غرضه فى « استمرار الحياة » ، ويجعله استمرار حياة تأخذ فى الرقى والتقدم ؛ ولما كان حبُّه أكثر من الحيوان كانت تربيته لنوعه أرقى وأنفع ، فاستطاع أن يرقى ملكاته ، ويربى مواهبه على مدى الزمان ، حتى لتشعر بالفرق الكبير بين الإنسان الحاضر والإنسان الماضى ، ولا تشعر بفرق كبير بين القط الحاضر والقط الماضى ، وبذلك امتاز الإنسان بأن ليس الغاية من غريزته الجنسية حفظ نوعه واستمرار حياته فقط ، بل غايته أيضاً ترقية النوع إلى أن يصل إلى درجة الإنسان الكامل — وكل القوانين التى شرعت للزواج والطلاق وحقوق الأسرة ، وعقوبة الزنا وما إليه ، إنما كان الغرض منها حماية هذه الغريزة حتى تؤدى غرضها على الوجه الأكمل ، واختلاف هذه الشرائع رقياً وانحطاطاً اختلاف فى التوفيق فى فهم الغرض الأساسى ووسائله ، أو عدم التوفيق — وقد وجد فى الطبيعة من فسدت منه هذه الغريزة الجنسية كما يوجد من فسدت غرائزه الأخرى ، فهناك المعتدل فى شهوة الأكل ، ولكن بجانبه النهم ومن لا يشتهى الطعام ، كذلك هذا ؛ فمن الناس أبو العلاء ، وأبو نواس ، وصريع الغوانى . والإغراء فى هذا الباب أقوى ، والحيل فيه أوسع ، لهذا التفت التجار إلى أن يستغلوا هذه الغريزة ويستهووها بشتى الوسائل حتى السينما والتمثيل والصحف والمجلات ، والتفت المشرّعون لصد هذا التيار ، ووقف الغريزة عند حدها المشروع ، فكان صراع أين منه الصراع على المأكل والمشرب والملبس .

وبينما هذه الناحية من الغريزة الجنسية تشغل رجال الدين والأخلاق والاجتماع ، إذا بناحية أخرى منها تشغل بعض علماء النفس ، فقد لفت نظرهم تعدد أنواع النساء والرجال ، ولعِب الغريزة الجنسية بهم ألعاباً مختلفة ، لماذا يحب

هذا الرجل هذه المرأة دون تلك ؟ إن فى مجال هـذه الألعاب مناظر نفسية مختلفة : هذه امرأة تثير فى الرجل خياله ومشاعره وأحلامه ، تجذبه وتضطره أن يتحمل فى سبيلها الآلام ، ويتخطى العقبات ، ولها سر مجهول يجعل حبه لا يفنى ولا ينقص مهما تغيرت الظروف .

وهناك امرأة أقل منها شأناً تثير هذا الحب والجاذبية ولكن فى إمكان الرجل أن يتغلب عليه بسلطان عقله ، لأن ما تثيره من حب هادئ غيرُ عنيف .

وهناك امرأة تثير فى الرجل إعجابه لا من طريق شخصيتها ، بل من طريق ملابساتها ، كذكائها وذوقها ، فالرجل ينظر إليها نظرته إلى الصديق الموائم ، والأخ المنسجم .

وهناك امرأة تلهب شعلة كشعلة القش ما تشتعل حتى تخمد ، وإذا خمدت فالكراهية والاستثقال والنفور ، إلى غير ذلك من أشكال وألوان .

وشأن الرجال فى نظر النساء شأن النساء فى نظر الرجال ؛ بل قد تكون امرأة فى نظر رجل من الصنف الأول ، وفى نظر آخر من الصنف الرابع وهكذا ، ولذلك يخرج من عشرة رجال وعشر نساء أشكال عدة وعلاقات مختلفة — هل درست التوافيق والتباديل فى الحساب ؟

قلت : نعم .

قال : هو هـذا . ولبعض علماء النفس فى ذلك بحوث تستخرج العجب ، سأقص عليك طرفا منها فى فرصة أخرى ، وأزيد الآن على ما قلتـه أن كثيراً من أسباب السعادة الزوجية أو الشقاء يرجع إلى هذا السر الخفى . وبدأ الناس فى الانصراف فانصرفنا ، وركبنا عربتنا ، وفى الطريق ظلّ يتدفق :

أرأيت كيف أن الطبيعة وضعت فينا هذه الغريزة ، وسخت فى منحها ، فلعبت بنا هذه الألاعيب فى الفن والغزل ، وفى الحياة ومتاعبها ؟! لقد أخفت عن الإنسان سرها ، وحجبت عنه فهمها ، وسخرته فى خدمتها ، وهو يظن أنه حر

طليق يلعب ألاعيبه باختياره وإرادته ، مع أنه هو عبد لغريزته ! لقد ضحكت منه الطبيعة وهو — من غفلته — يعتقد أنه هو الذى يضحك منها ! قلت : أما وقد كشفت لعبتها ، فهل ترى رأى أبى العلاء .

تواصَلَ حبلُ النسلِ ما بين آدمٍ     وبينى ولم يُوصَــل بلامِىَ باء
تثاءبَ عمرو إذ تثاءب خالد     بعــدوَى فما أعدتنىَ الثُّوباء

قال : لا ، فرأى أبى العلاء قلب للوضع ، وتحريف للجنس ، والإنسان الـكامل ليس من يحارب طبيعته ، بل من يرقّى طبيعته . وأرقى أنواع الحب — كحب الوجود ، وحب الله — لم ينشأ إلا مما أفاضته علينا الطبيعة من حب الجنس .

لقد كان أبو العلاء وأمثاله يرون أن الغريزة الجنسية عائق عن تحرر النفس ، وأنها مانع من موانع رقيها وسموها ، وأن كمال الإنسان فى التخلص منها و إماتتها بكبتها ، وأنها فى الإنسان ضرورة محزنة ، وعلى هـذا الأساس تأسست نزعة الرهبانية ، ونظم الأديرة ، وخلوات الصوفية ، ولـكنى أرى غير هذا الرأى . نعم إن الغريزة الجنسية كم حطّمت من أفراد ، بل كم حطّمت من أمم ، وجعلت حياتهم ليست إلا حياة بهيمية مزوّقة ، وجعلتهم يسخِّرون كل ملـكاتهم الأخرى — من ذكاء وعاطفة وقدرة — لخدمة هذه الغريزة ، ولـكنى أرى أن من الممكن أن يتسامى الإنسان من طريق وجودها لا من طريق إعدامها ، ومن الممكن تحويلها من مصدر شر للإنسان إلى مصدر خير ، وخيرٌ للإنسان أن يُمنح نعمة الحب فيعدلها ويلطفها ، ويستخدم ما ينبعث عنها من عواطف لخير نفسه وخير إنسانيته ، من أن يحرم الحب ، ولو عاش بعقله .

ومسألة أخرى عظيمة الأهمية فى هذا الموضوع وهى أن الإنسان ...

وهنا وقفت العربة أمام بيت الأستاذ ، فودعتـه وانصرفت ، ونظرت ، فإذا أنا قد عدت من حفلة العرس بخفى حنين ، ومن الفلسفة بملء اليدين ، فخاسر أنا أم رابح ؟

# لمـاذا نعيش؟

فى ركن من أركان « كازينو » رأس البر ، جلستُ وحدى ومعى كتابى ، لعلى أسأم فأقرأ . ورأس البر لم تزدحم بعد بالمصيفين ، فينعم فيهـا مثلى بعيش هادئ واستجمام مريح . جلست أحملق فى البحر بعد غيبة عنه طويلة ، فإنى لم أره منذ شهور ، مع حبى له وشوقى إليه . وكرهت أن أفتح الـكتاب فالبحر نفسه كتاب مفتوح ، وهو كتابٌ حى وما فى يدى كتابٌ ميت ؛ وهو يوحى بأفكار مبتكرة وكتابى يوحى بأفكار تقليدية .

هذا هو البحر الذى لا تفنى عجائبه ولا العجب منه ؛ لم تنل الأيام من جماله ولا جلاله ، كأنما خرج من حكم الزمان وعزَّ على أفاعيله ؛ وقفتْ على شواطئه الأجيال ، ثم طواهم الدهر جيلا بعـد جيل ولم يستطع أن يمسه هو بسوء ؛ فى شباب دائم ونشاط دائب ، لم يلحقه يوما عجز المشيب ولا وهن الـكبر ؛ راحة المـكدود ، ومتعة النفس ، وسلوة العاشق ، وحيرة العـالم ، وأنس الفيلسوف ، وبسمة الغوانى ، ودمعة المتصوف .

شيئان أشعر معهما — دائمًا — بضَعة الإنسان وحقارته ، ويملؤنى العجب من قلة عقله فى نزاعه وحيله ومراوغته ، وذله واستعلائه ، وشغله الدائم بما لا طائل تحته : مطالعة السماء ونجومها بالليل ، ومطالعة البحر وأمواجه وعظمته بالنهار .

ما الإنسان الوضيع أمام هذا البحر الجليل ، وما دنياه كلها بما يعتورها من همٍّ وقلق ، وغمٍّ ونكد ، ونزاع وخصام ، وما شئت من أشكال وألوان ، إلا كموجة واحدة من أمواج هذا البحر تجرى لمستقر لها ، فإذا وصلت إلى الشاطئ

تلاشت كأن لم تكن ، وظل البحر فى جماله وجلاله كأن لم ينقصه شىء .

***

قطع علىَّ غزَلى فى البحر صوت جدل يقرب منى شيئاً فشيئاً حتى يكون بجانبى .

رجلان كهلان مثقفان كما يظهر من حديثهما ، سلّما وإن لم أعرفهما ، لأن المصيفين إذا قلّوا عدوا أنفسهم جميعاً أسرة واحدة . وجلسا على مائدة بجوارى على البحر يتممان حِوارهما .

لم أفهم بادئ الأمر كلامهما ، لأنى لم أعرف « عالم الحديث » كما يعبر الإفرنج ، ثم بدأت أفهم ، فقد انتقلا إلى موضوع جديد ، إذ سأل أحدهما الآخر :

( ا ) — أتستطيع أن تخبرنى بحقٍّ لماذا أنت عائش ؟

سؤال بهرنى ، ولو سئلته ما عرفت له جوابا .

(ب) — أصدُقك أنى عائش لأسرتى ، فلهم أسعى وأكدّ ، ومن أجلهم أتحمل عناء الوظيفة وملق الرؤساء ومخالفة الضمير ، وأمل « الدرجة » ؛ أصيِّف تبعاً لهم ، وأشتّى تبعاً لهم ، وأحب ما يحبون وأكره ما يكرهون ؛ وأجتهد أن أرقيهم إلى أقصى ما أستطيع جسما وعقلا وخُلقا ، وبذلك كانت أسرتى محور أغراضى وأساس اتجاهاتى ، وشاغلة ذهنى ، ومالئة فكرى .

( ا ) — إنك بهذا لم تخرج عن أن تكون « أنانيا » من شكل آخر ، كالذى يعيش لنفسه ويجعل غرضه شخصه ، فأنت تجعل غرضك أسرتك لنفسك ، تُعْنَى بها لأنها ملك لك ، كما تعنى ببيتك الذى تملكه ومزرعتك التى تستغلها ؛ فأنت تربى أطفالك لأنك فى أعماق نفسك ترى أن تربيتك لهم دَين عليهم فى مستقبل حياتهم ، يوم يأخذ الكِبَر منك مأخذه ، فتحتاج إلى معونتهم ماديا أو معنويا ، ويحملون عبئك بعد ما حملت عبئهم .

(ب) — ما أظن هذا صحيحاً ، فليست هذه أنانية مطلقاً ، فأنا أرقّى الأمة عن طريق ترقيتي أسرتي ؛ أليست الأمة مجموعة من الأسر ، فإذا عُنى كل رب أسرة عنايتي كان لنا من ذلك أمة راقية في أبنائها وبناتها وحياتها الاجتماعية والاقتصادية ؟! وأملي في تربيتي أن أجعل أبنائي خيراً مني ، وبناتي خيراً من أمهن ، بل آمل أكثر من هذا أن أجعل من أبنائي قادة في بعض نواحي الحياة الاجتماعية ؛ وماذا تفعل الأمة الراقية أكثر مما أفعل ، فهي ترقّي أسرتها اترقَ أمتها ، فإن عددت هذا أنانية فهي أنانية راقية جداً تتحد بالغيرية

(ا) — إن كان كذلك فلِمَ تعنى بأولادك ولا تعنى بأولاد غيرك ، وقد يكون فيهم من هم أنجب من أولادك ، وأحسن استعداداً وأقوى خلقاً وأكثر قابلية لأن يكونوا قادة ؟ أليس هذا برهان الأنانية ؟ !

(ب) — غريب هذا أتريد أن تجردني من أنانيتي ، ولو جُردْتُ منها ما كنت « أنا » « أنا » ، وليس هناك مذهب من مذاهب الأخلاق يريد أن يمحو الأنانية بتاتا ، وكل مايدعو إليه أرقاها أن يؤلف بينها وبين الغيرية ؛ فلو عنيت بأبناء غيرى وأهملت أبنائي لما كانت هناك حرارة البواعث الغريزية التي تدعونا بطبعها للعناية بأبنائنا ، فلو ربّى غيرى أبنائي وربيت أبناء غيرى لفسد الجميع .

(ا) — ولكن هب كل هذا صحيحاً ، أيصح أن تكون عنايتك بأسرتك كل غرضك في الحياة ؟ إن تركيز مخك كله في أسرتك يحرمك من الاستمتاع بأفق أوسع ومثل أعلى ، إن هذا التركيز ضار بأسرتك نفسها ، فكثرة العناية بها والإفراط في الشعور بالمسئولية عنها يعوّد الأسرة كلها رمى حملها عليك : فلا الأم تشاركك في حمل العبء ، ولا الأبناء يتعوّدون الشعور بالمسئولية ، لأنهم يجدون كل شيء محمولا عليك ، فينشئون مدلّلين غير صالحين لأنفسهم

ولا للحياة — ألا تعرف فلانا وأسرته ؟ كان يوقظ أولاده فى الصباح ويشرف على إفطارهم ، ويرعاهم إذا لبسوا ، ويرسلهم مع الخدم إلى المدارس ، وإذا تأخر فى عمله تحدث فى «التليفون» عن عودتهم وصحتهم ، وإذا ارتفعت حرارة أحدهم ربع درجة دعا له أمهر الأطباء ، ودعته الشفقة أن يجيب لهم كل مطلب ، وإذا وجد أحدَ أبنائه ضعيفاً فى مادة أتى له بالمدرسين الخصوصيين ، وحمل كل عبء عن كل ولد . وحرم نفسه من كل لذة ليمتعهم بكل لذة ، فماذا كانت النتيجة ؟ خرجوا مائعين لا يصلحون للحياة ، ناعمين لا يتحملون خشونة الحياة ، ففقد بذلك نفسه ، وفقد أولاده ، وفقدتهم الأمة جميعاً — إن تركيز كل هم الإنسان فى الأسرة ضار بها كضرر التخلى عنها وعدم الشعور بمسئوليتها . إن الأسرة تصلح أن تكون غرضاً من أغراض الحياة لا كل غرض ، وليست — فيما أرى — تصلح لأن تكون إجابة عن سؤالى : لماذا أنت عائش ؟

(ب) — جاءنا مرة فى امتحان الشهادة الابتدائية فى اللغة العربية بيت ظريف وهو :

إنّ علىّ سائلنا أن نسألَهْ ... والعبء لا تعرفه أو تحملَهْ

فقل لى أنت — بدورك — لماذا أنت عائش ؟

(ا) — لقد شغل هذا السؤال تفكيرى طويلا ، وقلبت الأمر على وجوهه ، وأجبت كل إجابة وناقشتها ؛ فقلت أولا — أعيش لنفسى ، فوجدتنى إذ ذاك كأخس حيوان ، ووجدتنى أعيش فى أضيق أفق ؛ ثم قلت : أعيش لأسرتى ، فكان من الاعتراض عليه ما رأيت ، ثم بحثت أن أعيش لوطنى ولدينى ؛ وأخيراً وطنت نفسى أن أجعل أملى أن أكون مصدراً للخير العام حيث كان ، فأكون كالشمس تلقى أشعتها على كل كائن ، فقير أو غنى ، مؤمن أو كافر ، مواطن أو غير مواطن . رأيت الباعث على العمل إن كان شخصياً — فى أى شكل من

أشكاله — يبعث على التفرق والخصومة ، ورأيت الباعث إن كان عالمياً عاما التهم الخصومة وبعث على السلام — لقد حاولت أن أبعث هذا الباعث فى نفسى ، فنجحت أحياناً وفشلت أحياناً ، ولكنى دائماً أحلل أسباب الفشل وأحاول أن أتقيها ، وقد رأيتنى بذلك أتحرر شيئاً فشيئاً من الحقد والبغض ، والحسد والطمع ، ونحو ذلك ، مما يتعب الناس بلا فائدة ؛ بل رأيتنى عندما كنت أحيا للباعث الشخصى كنت أخاف الموت خوفا شديداً ، وأتألم أشد الألم للكوارث المالية أو النفسية ، فلما سموت بباعثى خف خوفى من الموت ومن الكوارث ، وأحسست التحرر من هذه الآلام إلى حد بعيد ، وشعرت بجمود العاطفة نحو المسائل الشخصية ، وحرارة العاطفة نحو المسائل العامة — لقد أصبح يهمنى أولاد جارى ، ويهمنى فلاحىّ فى مزرعتى ، لا لأنهم فى مزرعتى ، ولكن لأنهم هم الذين أستطيع نفعهم ؛ بل إنى لآلم من بؤس الفلاحين عامة ، وأود أن أستطيع نفعهم ، ولو كان بيدى ميزانية الدولة لجعلت ثلاثة أرباعها للفلاحين وربعها المدن ؛ ويسرنى نجاة مصر من كوارث الحرب بقدر ما يؤلمنى كوارث الحرب لأى صنف ؛ وأحب أن يكون لى مال لأنفع به الناس ، وجاه لأستغله فى خيرهم ، وشهرة لأستخدمها فى منافعهم ؛ فإذا لم يكن من ذلك شىء فعلت ما أستطيع على قدر ما فى يدى .

(ب) — ولكن ألا ترى معى أن سعة الباعث يضعف من قوته ؟ فمثلك — إذاً — مثل من رمى زنبيل سكر فى النيل ، فلا هو احتفظ بسكره ولا هو أحلى النيل ! إنك إذا ركزت همتك فى أسرتك ، وجارك فعل مثل فعلك ، كان لنا من ذلك أسر راقية ؛ ولكن لو كلف عشرة آباء العناية بعشر أسر من غير تخصيص ما وصلت هذه الأسر العشر من الرقى إلى الحالة التى يعنى فيها كل عائل بأسرته وحده .

(١) — مثلك صحيح ، ولكن علته غير صحيحة ، فحال الأسر هو كما ذكرت ، ولكن لا لسبب كمية الحب ، وضيق الباعث ؛ إن السبب فى صحة مثلك هو أن حياة الأسر أساسها الخصوصية ، ولهذا كان لابد أن تختص ببيت . وتعيش عيشة فيها معنى الستر ، ومعنى الملكية ، ومعنى الاستقلال ، فإذا انساحت عشر أسر تحت إشراف عشرة أرباب زالت كل هذه المعانى ، ولم تعد الأسرة أسرة . أما الحب وقدرة الإنسان عليه فليس كمية محدودة بحدود الأشياء المادية — هو ليس ككمية من السكر ، ولا كمية من المال ، لا تتسع إلا لشىء محدود — قارن بين أم لها ولدان وأم لها عشرة أولاد ، أتظن أن الأم ذات العشرة تحب ابنها خمس حب ذات الاثنين فقط ؟ هذا ليس بصحيح . إن قلب الإنسان مصدر العجائب ، فهو إذا رُبِّى على الحب الواسع وسع كل شىء ؛ إنه إذا رُوِّح عليه اشتعل وأضاء ضوءاً قوياً تزول معه كل ظلمة ، وينكسف له كل ضوء خافت . إنها التربية الضيقة هى التى تحدّ حبنا فى شخصنا أو أسرتنا أو بيئتنا ، فإذا هدمت هذه وحل محلها تربية واسعة الأفق أحببنا حباً لا حدود له . وإنك لتعجب إذ ترى الإنسان مع هذا الحب الواسع لم يفقد شيئاً من حبه الجزئى ، فهو يحب شخصه ، ويحب أسرته ، ويحب أمته ، ويحب دينه ؛ ولكن حبه الواسع يلوّن كل حب جزئى بلون خاص لطيف يتفق وسعة أفقه ، وامتداد نظره ، وفيضان حبه .

* * *

ونظر «ب» فى ساعته ، وشكا الجو ، ولم أدر أكان هذا فراراً من أن يُغلب الحوار ، أم صدقا فى الشعور بالبرودة .

وسلّما وودّعا ، وقد استمتعت منهما — على الجوار — بحديث طريف .

وودعت البحر حامداً له وحيه وضيفه .

# التعاون الثقافى العربى

أمام الأمم العربية الآن مشاكل ثقافية معقدة ، قد لا يواجه مثلها غيرهم من الأمم ، فالأمم الغربية تواجه مشاكل ولكن ليست من جنس مشاكلنا ، وإن كانت تتصل بها . لقد حددت مسلكها فى التعليم وأوضحت غايتها إلى حد ما ، ولكنها فى طريقها المرسوم تجد بعض المشاكل : كالرغبة فى تعميم التعليم غير الأولى ، ونشر الثقافة ، وتعديل المناهج وإصلاح بعض الخطط .

أما الأمم العربية فمشاكلها أعقد من ذلك ، لأنها إلى الآن لم ترسم خططها واضحة ، ولم تضع للتربية تعريفا يتفق وأغراضها وآمالها ، ولذلك مزقت أساليب التربية المختلفة وحدتها ، هذا تعليم دينى بحت ، وهذا تعليم مدنى بحت ، وهذا تعليم لخدمة فرنسا ، وهذا تعليم لخدمة انجلترا ، وهذا تعليم لخدمة أمريكا ، وهذا تعليم لخدمة التبشير ونحو ذلك . وكل هذا لا يقيد بقيود قومية مما ليس له نظير فى أية أمة حية ترعى مصالحها ولا تسمح بتمزيق وحدتها ، ونشأ عن ذلك اختلاف النزعات الأساسية بين الأمة العربية الواحدة ، فكيف بالأمم العربية مجتمعة ؛ ونشأ عن هذا أيضاً اختلاف المنطق واختلاف التفكير ، هذا فى منتهى الرجعية ، وهذا فى منتهى الحرية ، وهذا فى منتهى العصبية الدينية ، وهذا فى منتهى العصبية اللادينية ، وهذا فى منتهى العصبية لأمة أوربية ، وهذا فى منتهى العصبية ضد كل نزعة أوربية ، حتى لكأننا فى برج بابل .

قد تجد شيئاً من هذه النزعات المختلفة فى الأمم الأوربية ، ولكنك لا تجدها بهذه الحدة وبهذا التناقض كما تجدها فى الأمم العربية بل فى الأمة الواحدة العربية ؛ ويشبه الخلافُ بيننا وبينهم الخلافَ بيننا فى الملابس والخلاف بينهم ،

فكلهم يلبسون على نمط أساسى واحد ، وإن اختلفوا فى قيمة ما يلبسون لا فى شكل ما يلبسون ، أما نحن فنختلف فى الأساس وفى الأشكال اختلافا لا حد له .

إذن ، نحن فى أشد الحاجة إلى الإجابة عن هذين السؤالين :

(١) كيف نوحد أسس التعليم ولا نسمح بهذه النزعات المتباينة الضارة ولا نجيز الاختلاف إلا فى العرض لا فى الجوهر ؟

(٢) ما تعريف التربية الذى يجب أن ينشده العرب ، ما الجملة التى تركز فيها كل أغراض الأمم العربية فى التربية والتى يجعلها رجال التربية نصب أعينهم لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة ؟

هذه إحدى المشاكل التى تواجه العرب .

والمشكلة الثانية — أن العرب يختلفون عن الغرب فى شىء جوهرى ، وهو أن الأمم الأوربية والأمريكية حددت نوع مدنيتها وثقافتها : عمدت إلى الثقافة اليونانية والرومانية وغيرهما فغربلتها ، واتخذت خيرها ، وامتصت عصارتها ، و بنت عليها حضارتها وثقافتها ، وخلصت من ذلك كله ، ورسمت لمدنيتها منهجاً تسير عليه فى كل شأن من شؤون الحياة ومنها الثقافة .

أما العرب فلهم موقف آخر ، هم بين ثروة قديمة من الثقافة العربية ، فيها الخير والشر ، والغث والسمين ، وحبات الدر وحبات الحصا ، وثقافة غربية فيها الضار والنافع كذلك ولا غنى لنا عنها ، تحكمنا بطبيعتها وكيمياها وما تنتج من آلات وصناعات ، فإن كان على الأوربيين عبء واحد ، فعلى الأمم العربية عبئان .

ماذا نأخذ من تراثنا القديم وماذا ندع ؟ ماذا نأخذ من الغرب وماذا ندع ؟ إن لنا ديناً ولنا لغة ولنا أدباً لا بد أن نستمده من وحى آبائنا ؛ وإن للغرب علوما

وفنونا وصناعات لا بد أن نستمد منها لنجارى الزمن .

كيف نوفق بين المدنيتين ونمزج بين الحضارتين ، ونكوّن لنا شخصية ممتازة لا هى كل الشرق القديم ولا هى كل الغرب الحديث ؟ كيف ننقى قديمنا ونأخذ زبدته ونفرغ منه ، وكيف نحدد ما ينفعنا من الجديد ونرسم خريطته ، وننتهى من ذلك ولا يكون علينا إلا ملء الخانات الفارغة منه ؟

ثم مشكلة ثالثة :

قد خلقت لنا المدنية الحديثة علوما لا عهد لنا بها ، وفى هذه العلوم مصطلحات فرعية لا تحصى ، فى الطبيعة والكيمياء والفلك والاجتماع والنفس والعمارة والصيدلة ، وخلقت لنا ألوفاً وألوف الألوف من الأدوات والصناعات والعقاقير ومركباتها ونحو ذلك ، ولا غنى للعرب عن استعمالها ، فكيف نتفق على تعريبها وتوحيد مصطلحاتها والاتفاق على الألفاظ الصالحة لها ، فليس يليق أن تنفرد كل أمة عربية بوضع مصطلحاتها ما دامت اللغة العربية ملكا لجميع الأمم العربية وقدراً مشتركا للتفاهم بينهم ؟ ما وسائل التعريب ؟ ما قواعد التعريب ؟ كيف ينظم التعريب ؟ كيف يبذل الجهد للفراغ من كل المصطلحات الأوربية حتى نقف مع الأوربيين على قدم المساواة ، وننتهى من الماضى ، ولا نواجه فى الحاضر إلا ما اخترع حديثاً واكتشف حديثاً .

ثم مشكلة رابعة :

لكل أمة من الأمم الحية دائرة معارفها ، بل دوائر معارفها ، تكتب بلغتها وتساير العلم فى مراحله ، ويعاد طبعها بين حين وآخر ، ويزاد فى الطبعة الجديدة ما وصل إليه العلم الحديث بين الطبعتين ؛ وكل أمة تعنى فى دائرة معارفها بنوعين : القدر المشترك بين جميع الأمم ، والعناية الخاصة بموضوعاتها الخاصة من جغرافيتها وتاريخها وأعلامها ؛ هذا ما عملته انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها .

فماذا فعلت الأمم العربية فى هذا السبيل ؟ دائرة معارف للبستانى لم تكمل وأكل عليها الدهر وشرب ، وتقدم العلم عليها حتى أصبحت فى عداد التاريخ ، ثم لم تجد من يكملها ويقدمها مع الزمن ، ويطبعها طبعة جديدة تتفق والنهضة العربية يكون فيها خير التراث العربى وخير التراث الغربى ؟

ومشكلة خامسة :

إذا وحدت الأمم العربية تعريف تربيتها ورسمت خطتها فى التعليم ، فلا بد من الفصل بين مسألتين : قدر أساسى مشترك تتساوى فيه الأمم العربية من حيث المناهج والخطط والغرض ؛ وقدر خاص غير مشترك تحافظ فيه كل أمة عربية على شخصيتها ، فتتوسع فى جغرافية بلادها وتاريخ رجالها ، وتسير كل أمة فى المستوى الذى يناسب استعدادها ومقدرتها المالية .

فما هو هذا القدر المشترك ، وما هو هـذا القدر الخاص وكيف يحدَّد وكيف يرسم ؟

* * *

هذه فى نظرى أهم المشاكل التى تواجه العرب من الناحية الثقافية ، وهذه هى الأسئلة التى يجب أن تطرح ويجاب عنها ..

فكيف يكون ذلك ؟

لهذا جملة وسائل :

(١) أن يكون هناك مكتب للتعاون الثقافى تختار كل حكومة عربية من يمثلها فيه ، وهؤلاء يتبادلون الرأى فى هذه المشاكل وأمثالها ، ويضعون الأسس اللازمة للسير عليها ، وهذا هو ما بدئ به فعلا حسبما أعلم ، ولا ينقصه إلا التعميم واشتراك الأمم العربية كلها فيه ، والنشاط فى عمله .

ولكن هذا وحده — فى نظرى — لا يكفى ؛ فالممثلون الرسميون عادة

يضطرون إلى تقدير اعتبارات سياسية قد تحدُّ من نشاطهم وتلوِّن بحوثهم وتفكيرهم .

ومن أجل هذا ينبغى أن تكون بجانب هذه الهيئة الرسمية هيئة أخرى غير رسمية ، فيؤلفون جمعية تعاونية تبحث الموضوعات بحثاً حراً طليقاً مجرداً عن الاعتبارات السياسية ، وهذه — فضلا — عن خدمتها للفكرة تفيد فائدة كبرى الهيئة الرسمية ، وهذه الجمعية يختار أعضاؤها ممن عرفوا بالإخلاص والجد وعدم الاستهواء السياسى والغيرة على مصلحة الأمم العربية الثقافية ، وتتعاون هذه الجمعية فى غرضها ، وتعمل فى وضح النهار ، ولا يكون لها غرض إلا خدمة الثقافة ومعالجة المشاكل التى أسلفنا الإشارة إليها .

وهذه الجمعية تعقد مؤتمراً كل سنة على مثال المؤتمر الطبى ، كل سنة فى قطر من الأقطار العربية ، سنة فى القاهرة ، وسنة فى دمشق ، وسنة فى بغداد ، وسنة فى مكة وهكذا .

ويكون للجمعية سكرتيريتها تحدد أغراض الاجتماع وموضوعات البحث ، ويتعاون أولو الخير والبر على إمدادها بالمال اللازم لها ؛ ويكون لهذه الجمعية مجلة بل مجلات ؛ فمجلة لنشر أعمال المؤتمر وأخباره ، واختيار لجانه الفرعية ومبلغ نشاط الأعضاء واللجان فى نواحيها الثقافية المختلفة ؛ ومجلة تكون على نمط « المختار من ريدرز ديجست » تعنى بخلاصة خير المقالات التى تنشر فى الصحف والمجلات العربية بل والإسلامية من غير العربية ، فمثل هذه المجلة تقرب من أفكار الشرق ، وتؤلف بين ثقافته ، وترقى تفكيره ، وفى هذا خدمة للوحدة العربية الثقافية وهكذا .

ثم بجانب هذا وذاك ضروب أخرى من التعاون الثقافى لا بد منها ، مثال ذلك تبادل كبار الأساتذة والعلماء والأدباء فى الأقطار العربية المختلفة ، فأساتذة الشام فى مصر والعراق ، وأساتذة العراق فى مصر والشام ، وأساتذة مصر

فى الشام والعراق ، وهكذا فى الإجازات المدرسية ، وفى المسامحات الصيفية ، فهذا يخلق جوا علميا بديعيا وتعاونا ثقافيا جليلا .

ثم انتهاز الفرص العلمية والأدبية لذلك ، فمهرجان لذكرى أبى العلاء فى الشام تلقى فيه البحوث الأدبية من أساتذة الأقطار العربية ، ومهرجان للإمام الشافعى فى مصر تلقى فيه البحوث التشريعية والقانونية ، ومهرجان للخليل بن أحمد فى العراق تبحث فيه البحوث اللغوية ، ولعمر بن الخطاب فى المدينة ، ولأبى الطيب المتنبى فى حلب ، وللإمام الأوزاعى فى بيروت ، وهكذا لا ينفض مهرجان حتى يعد مهرجان آخر ، وفى هذه المهرجانات تتلاقى الأفكار وتتوالد الآراء ، وسيكون من نتيجة ذلك حتما التفكير فى الإصلاح من جميع نواحيه اللغوى والأدبى والنحوى والتشريعى ونحو ذلك .

إذا تم ذلك كله — وهو ما أرجو أن يكون بعد الحرب مباشرة — فنحن أمام نهضة عربية وثابة ، وإصلاح عربى شامل ، ووضع أسس لبناء العرب فى هيكل الثقافة ، وبذلك يساهمون فى بناء صرح الثقافة العالمية مع البانين ، ويشيدون مع المشيدين .

والله ولى التوفيق .

# الشيخ رفاعة الطهطاوى

## مؤسس النهضة العلمية الحديثة

### ١

حقا إن « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، هذه ألوف الطلبة فى المدارس ، وهذه ألوف المجاورين فى الأزهر ، من منهم سيكون النابغة العظيم ، والزعيم الكبير ، والمصلح الخطير ؟ لا ندرى ، كلهم يتعلمون وأكثرهم يجدّون ، ولكن الحكم بالنبوغ والقيادة والزعامة عسير على المتنبئين . تقيس بمقاييس الامتحان ثم يظهر خلل حكمك ، فقد يكون أول ناجح فى الامتحان أول خائب فى الحياة ؛ وتقيس بمقاييس الذكاء ، فتحكم بأن هذا أذكى من امتحنت ، ثم يخبو هذا الذكاء شيئاً فشيئاً ، حتى ينعدم أو يكاد ، أو يظل الذكاء حادًّا ومع ذلك فلا نبوغ ؛ وتحكم بالخمول على طالب ، ثم يتطور فيكون قائداً أو زعيما . إنما عملنا أن نؤرخ النابغ بعد أن ينبغ ، ونعلل نبوغه بأسرته أو أساتذته أو بيئته أو نحو ذلك من أسباب ، ولكن كم من أسرة خير من أسرته لم تنجب ؛ وكم من أساتذة خير من أساتذته لم يُخرجوا مثله ؛ وكم بيئة أصلح من بيئته لم تنجح فى إعداد شبيه له ، وكم كلها مجموعة لم تُعدّ للحياة نابغة . فى بيتى شجرتا مانجو ، أما إحداهما فقالوا احفر لها فحفرت ، وأت لها بتربة صالحة فأتيت ، وطعّمها فطعّمت ، واختر لها الجهة المناسبة فاخترت ؛ وأخرى رميت بذرتها رمياً ، وتركتها للمصادفة تركا ، ولم أعن بها أى عناية ، ثم خابت الأولى حيث نجحت الثانية — إنما تنجح القواعد العامة — فى التربية والاقتصاد والزراعة ونحو ذلك — فى جمهرة

الأشياء وعاديها ، أما النوابغ فشواذ خرجوا عن القواعد وندُّوا عن التعليل .

هذا « رفاعة » من أسرة مثلها كثير ، وهو مجاور فى الأزهر مثله كثير ، وتهيأت له من الظروف ما تهيأ لكثير ، ولكن لم يجر على يد أحد من الخير لأمته فى ناحيته ما جرى على يده ، ما السر فى ذلك ؟ علمه عند الله .

من أسرة فى « طهطا » تعتز بشرف نسبها للرسول ، ويعزُّها الناس لذلك ، عُرف كثير من أفرادها بالعلم وتولّى القضاء والإفتاء ، وديارهم منازل الحكام ومورد القصّاد ، والحكومة على نظام ذلك العهد تمدُّهم بالأراضى يستغلونها ولا يملكونها ، وبالأرادب الكثيرة من القمح كل عام فى نظير فتحهم بيوتهم للضيوف وذوى الحاجة ؛ ولكن هذا العطاء لم يكن — كما نقول اليوم — حقاً مكتسباً ، ولكن منحة عارضة ، تتبع رغبة الوالى وشهوته ، فهو إذا شاء أطلقها ، وإذا شاء منعها — وكان من سوء حظ «رفاعة» أو من حسن حظه ، لا أدرى — أن قبض الوالى يده عما كان يعطى أهله ، فوقعوا فى الفقر واضطر أبوه أن ينزح من البلد ، ومعه رفاعة صبى صغير . ولكن ما لبث والده أن مات فقيراً ، فعاد الصبى إلى طهطا ، ونزل فى أخواله ، وشاء الله أن يكون فى هؤلاء الأخوال من يعلّمه ويعدّه للأزهر ، فحفظ بعض المتون بعد أن حفظ القرآن ودرس شيئاً من الفقه والنحو ، ثم أرسل إلى الأزهر .

درس فى الأزهر كما يدرس كل مجاور ، وعاش فيه كما يعيش المجاور الفقير ، يقنع بالجراية ويأتدم أكثر الأوقات بالفول على اختلاف أنواعه ومشتقاته ، ولكنه مع هذا يعتز ببيته ونسبه .

شىء واحد ميزه عن كثير من المجاورين هو اتصاله اتصالا وثيقاً بالشيخ حسن العطار ، وكان هذا رجلا ممتازاً واسع النظر ، خبيراً بالدنيا على قلة الخبيرين بها من علماء الأزهر فى ذلك العصر ، ولم يعجبه طريقة الأزهريين فى الاقتصار

على كتب النحو والفقه والتفسير والحديث ، فضم إلى ذلك نظرته فى كتب التاريخ والأدب ، وعُنى عناية كبرى بالأدب الأندلسى يدرسه ويحاكيه ، ويأسف على انحطاط الأدب فى عصره ، ويصف شعراء زمنه بأنهم « اتخذوا الشعر حرفة محترف ، وسلكوا فيه طريق معتسف ، فصرفوا أكثر أشعارهم فى المدَح لاستجلاب المِنَح ، حتى مدحوا أرباب الحرف لجمع الدراهم فى الأسفاط ، وكان منهم من يصنع القطعة من الشعر فى مدح شخص ثم يغيرها فى آخر ، وهكذا ، حتى يمتدح بها كثيراً من الناس ، وهو لا يزيد على أن يغير الاسم والقافية ، وما أشبهه فى ذلك إلا بمن يفرق أوراق الكُدْية ، بين يدى صفوف المصلين يوم الجمعة فى المساجد ، وهكذا كان حال الشاعر ، فلا يكاد أحد يتخذ وليمة ، أو ختانا ، أو عرساً ، أو يبنى بناء أو يُرزأ بموتِ محب إلا وبادره بشىء من الشعر ، قانعاً بالشىء النزر » .

أما الشيخ العطار فجريا على رأيه لم يحتفظ بشعره فى المديح والهجاء مما قاله اضطراراً ، ورجا ألا يحفظ عنه إلا « ما لطف من النسيب ، وعذُب من التشبيب ، مما قد ولعت به أيام الشباب ، حيث غصن الشبيبة غض ، والزمن من الشوائب محض ، ولأعين الملاح سهام بالفؤاد راشقة ، وتثنى قدود تظل لها أعين الأحبة رامقة .

ذاك وقت قضيت فيه غرامى ... من شبابى فى ستره بالظلام
ثم لمــــا بدا الصباح لعينى ... من مشيبى ودعته بســلام »

وكان الشيخ حسن العطار قد أداه ظرفه ومعرفته بالدنيا أن اتصل بالفرنسين حين دخولهم مصر ، ودرّس لبعضهم اللغة العربية ، وأداه اختلاطه بهم أن يقف على كثير من معارفهم الواسعة فيبهره ذلك منهم ، ويتعجب مما « وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة »

ويقارن بين ذلك وحالة العلم فى الأزهر . ويرثى لحال مصر ويتوقع حصول ثورة علمية فيقول : «لا بد أن تتغير حال بلادنا و يتجدد لها من المعارف ماليس فيها» ويزيد « العطارَ » سعة فى عقله رحلتُه إلى الشام وإلى الآستانة ، وقد أقام بها مدة طويلة وسكن فى « اسكودره » وتزوج بها ثم عاد إلى مصر .

هذا هو الشيخ العطار الذى صار فيما بعد شيخ الأزهر ، وهذا هو أستاذ الشيخ رفاعة الذى أثر فيه أثراً غير شائع عند الأزهريين إذ ذاك ، من ميل إلى الأدب واطلاع على الكتب غير المتداولة ، وكان التلميذَ المحبوب عند شيخه العطار فى بيته وفى قراءاته الخاصة وفى دروسه العامة .

وفى الحق أن الأزهر كان فيه نبع صغير متسلسل يُعنى بالتاريخ والأدب ، بجانب ذلك النبع الكبير الذى يعنى بعلوم اللغة والدين فقط ، وكان من هذا النبع الصغير الشيخ الجبرتى المؤرخ الكبير ، وتلميذه العطار ، وتلميذه رفاعة .

ظل رفاعة يتلقى دروسه فى الأزهر حتى أتمها وتصدى للتدريس فيه ، ثم عين فى منصب صغير هو واعظ للعسكر ، ثم حدثت الحادثة الكبرى التى غيرت مجرى حياته ورسمت طريق نبوغه ، ومكنته من أن يتولى زعامة النهضة ، وهى بعثته إلى باريس .

تولى مصر محمد على باشا وأراد أن ينهض بمصر فى جيشها حتى يساوى جيش تركيا ويفوقه ، ونهوض الجيش يحتاج إلى تعلم الفنون الحربية وإلى الهندسة وإلى الطب وإلى الصناعة ؛ وأراد أن ينهض بالإدارة فى تنظيم مالية الدولة وإدارتها وضبط دخلها وخرجها ، ونهوض الإدارة يحتاج إلى رؤوس تضع النظام وأيد متعلمة تنفذه ؛ ونظر فرأى أن كل ناحية من نواحى الإصلاح تصطدم بالحاجة إلى العلم والعلماء والمتعلمين ، وأن ليس فى البلاد من ذلك إلا الأزهر وملحقاته ،

لم يكن إلا الكتاتيب فى القرى والبلدان تحفّظ القرآن وتعلّم القراءة والكتابة على نمط عتيق ، وهذه الكتاتيب تُسلم إلى الأزهر ، وقد يكون فى بعض المدن كالإسكندرية وطنطا معاهد هى صورة مصغرة من الأزهر ، والأزهر لا يعلّم إلا الدين واللغة العربية على نمط القرون الوسطى ، وليس فى البلاد كلها مدرسة تعلم الجغرافيا والتاريخ والرياضة والطب والهندسة والزراعة والطبيعة والكيميا . المهندس هو المعار الذى يتخرج من ممارسته للبناء ؛ والطبيب هو الذى قرأ شيئاً من تذكرة داود ، ومنهاج الدكان ، ومارس الصناعة مع المجربين ؛ والرياضى هو من حفظ « سورة الفدان » ، وتعلم على الصراف أو نحو ذلك ؛ وكلَ هذه أدوات لا تكفى لبناء نهضة ، فما الحل ؟

هناك حلول ثلاثة : (١) إصلاح الأزهر وهو مركز التعليم والتعلم فى البلاد ، وتوسيع اختصاصه ، فتجعل الدراسة الدينية شعبة ، وبجانبها شعبة للرياضيات والطبيعيات ، وشعبة للطب ، وشعبة للهندسة الخ ، وقد يبدو أن هذا الحل هو الحل الطبيعى ، وفيه بقاء على مركز التعليم وإصلاحه وتوسيعه ، ولكن دون ذلك أهوال ، فالرأى العام الأزهرى لا يرضى عن هذا التغيير ، ويعدُّه إفساداً للأزهر ، وإفساداً للدين ، والرأى العام الشعبى يتبعه ويؤيده ، فيحدث ذلك ثورة فى البلاد لا حاجة إليها ، ثم إن هذا الطريق طويل ، فإذا أعدت العدة لهذا التغيير ، وانتظرت النتيجة ، كان لا بد من مرور سنين ، والإصلاح يتطلب السرعة — آه — ما كان أنفع هذا الوجه لو اتسع صدر الأزهر ؛ وعقَل الناس !

(٢) والطريقة الثانية أن نترك الأزهر وشأنه ، وننشئ مدارس مدنية من كتاتيب نظامية ومدارس ابتدائية وتجهيزية وخصوصية كالطب والهندسة ، ونقلد فيها المدارس الأوربية ولا يكون لهذه المدارس أية صلة بالأزهر إلا بالمدرسين الذين يؤخذون منه لتعليم الدين واللغة العربية ، ونستعين بالأوربيين من فرنسيين

وإيطاليين وإنجليز نأتى بهم ونضع فى يدهم قيادة الحركة العلمية والصناعية ، ونجعلهم يمرنون المصريين حتى ينهضوا بالعبء . ولكن عيب هذه الطريقة أن كثيراً ممن نستوردهم من هؤلاء الأوربيين قد لا يخلصون فى عملهم ، وقد ينظرون إلى مصلحة أممهم لا مصلحة من يعلمونهم ، وقد يضيفون إلى تعليمهم قيامهم بوظيفة التجسس لأممهم ؛ ثم المصريون المتعلمون على يدهم محال أن يبلغوا مبلغهم ، فكلما طالت السلسلة بعدت عن الأصل .

(٣) وثالث الوجوه أن ننشئ المدارس التى ذكرنا ونأتى بأوربيين يعلمون ، ولكن نجعل هذا ضرورة نتخلص منها فى أقرب وقت ، فنبعث البعوث لأوربا فى مختلف العلوم والفنون ، فيتلقونها من مصادرها ؛ فإذا عادوا حلوا بالتدريج محل الأوربيين ، وبذلك نكسب السرعة ونكسب الإصلاح ونتقى خطر تغلغل الأجانب .

وعلى هذا الرأى الأخير استقر الرأى ، فأرسلت أول بعثة هامة سنة ١٨٢٦ إلى فرنسا ؛ وهم أربعون طالباً ، بعضهم لدراسة الإدارة المدنية ، وبعضهم لدراسة الإدارة الحربية ، ومنهم لدراسة العلوم السياسية ، ومنهم لقوة المياه ، والعلوم الميكانيكية ، والهندسة والمدفعية ، وصب المعادن ، وصنع الأسلحة والكيميا والطب ، والتاريخ الطبيعى ، والمعادن .

واختير معهم عضو محافظ ، يذكرهم دائماً بالتقاليد القديمة ويصدهم عن الاندفاع فى تيار المدنية ، فيكون إماماً لهم فى الصلاة ، ومظهراً من مظاهر التقاليد القديمة فكان ذلك هو « الشيخ رفاعة » رشحه لهذا أستاذه العطار .

وهل فكروا حين عينوه أن يكون عضواً أصيلا يُعَد لشىء ، أو مجرد إمام تابع للرحلة يسد خانة من خاناتها ؟ الظاهر أنهم أرادوه أولا إماماً للبعثة ، وهذا عمله الأساسى ، فإن تعلم وجاء بشىء فلا بأس وليكن الترجمة ،

ولكن أراد الله أن يكون الإمام فى الصلاة للبعثة إماماً للحركة العلمية فى مصر .

فى عصر يوم الجمعة ٨ من شعبان سنة ١٢٤١ — ١٨ من مارس سنة ١٨٢٦ ، كان شاب ملتحٍ معمم سنه خمس وعشرون ، ويقدره من رآه بأربعين ، لأن حياته وحياة أمثاله لم تعرف الشباب ، يظهر عليه الخشوع الدينى ، والتواضع وطيبة القلب وخفة الروح ، يسافر مع أعضاء البعثة من مصر إلى الإسكندرية ، ولا تظن أنهم اتخذوا قطار الاكسبريس ، فوصلوها بعد ثلاث ساعات ، ولكنهم أخذوا زوارق صغيرة كل جماعة منهم فى زورق ، وسارت بهم فى النيل أربعة أيام بلياليها حتى وصلوا إلى الإسكندرية ، إذ لم تكن مصر عرفت « الوابور » بعد .

## ٢

ركب (الشيخ) البحر من الإسكندرية ، وقد خاف من البحر خوفين : خوفا من ركوبه وقد سمع كثيراً عن البحر وأهواله ، وحفظ فى الأزهر :

لا أركب البحر أخشى　　علىّ منه المعاطب
طين أنا ، وهو ماء　　والطين فى الماء ذائب

وقرأ فى بعض الكتب قول الشاعر :

فيشتت الأفكارَ ما قاسى الورى　　من هولِ هذا البحر عند ركوبه

وسمع قول العامة فى البحر : « داخله مفقود وخارجه مولود » ، ولكنه استبشر خيراً بأن بدء الرحلة كان عصر يوم الجمعة ، وهو يوم مبارك ، وظل يقرأ « وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها » ، وقرأ بعد ذلك حزب البحر واعتمد على الله واطمأن ، وذكر قول الشاعر :

لمّا ركبنا ببحرٍ　　وكاد مَنْ خاف يَتْلفْ

على الكريم اعتمدنا حاشاه أن يتخلَّفْ

والخوف الثانى من دُوار البحر ، وقد سمع عنه كثيراً ، ولكن شيخه العطار — وقد ركب البحر مراراً — كان قد أوصاه بفائدة مجربة ، وهى أن يتجرع عند نزوله البحر جرعات كبيرة من مائه الملح ، ففعل .

***

أول ما لفت نظر « الشيخ » هذا المركب الفرنساوى ، وطار خياله ، فقارن بين السفينة التى ركبها من القاهرة إلى الإسكندرية ، وهذه السفينة الفرنساوية ؛ أما الأولى فسفينة قذرة ، ولكنه لم يدرك قذارتها إلا لما ركب الثانية ، كان يجلس فيها على الألواح ، وكان يأكل حيث يجلس ، وينام حيث يأكل ، ومن حين لآخر يشعل « النوتى » حطباً فيملأ الجو دخاناً ، ويوقد ناره يطبخ فيها عدسه ، فى ماعون قد اسودّ خارجه وداخله ، وإذا تم تحلّق هو وصحبه حوله وغاصوا بأيديهم فيه ، ثم لعقوا أصابعهم بألسنتهم وحمدوا الله ؛ وكانت موسيقى المركب لا تنقطع ، فصياح لجمع شراع ، وصياح لنشر شراع ، وصياح لتحويل الدفة ، وصياح المرور من « هويس » ، وأوامر ونواه لا تنتهى ، وشتائم وسباب كذلك لا ينتهى ؛ والمركب غنىٌّ غنى مفرطاً بالحشرات والزواحف من كل لون وشكل ، تعين العابد على إمعانه فى سهره ، وطول تهجده ، وكثرة استغاثته بالله .

هذا مركب النيل فى مصر ، وأما مركب البحر فى الإسكندرية فأمره عجب ، يقول « الشيخ » : « إن أهل المركب — من الفرنساوية — كانوا يحافظون على تنظيفها وإذهاب الوسخ ما أمكن ، حتى إنهم يغسلون مقعدها كل يوم من الأيام ، ويكنسونها فى صف النوم كل نحو يومين ، وينفضون الفراش وغيره ، ويشممونها رائحة الهواء ، ويزيلون أوخامها » . و « الشيخ » يعجب من هذا كل العجب ، ويثير مشكلة من أصعب المشاكل ، وهى « أن النظافة

من الإيمان » ، والفرنساوية نصارى ، « ليس عندهم من الإيمان مثقال ذرة » ، وإخوانهم النصارى من قبط مصر أهل وخم ووسخ ، فما بال هؤلاء الفرنساوية النصارى نظفاء ، وما بال المؤمنين المسلمين غير نظفاء ؟ هذه أولى المشاكل .

وقد ظل « الشيخ » متأثراً بهذه النظرة طول رحلته ، يعجب من نظافة الفرنساوية فى مراكبهم وفى بيوتهم وفى ملابسهم وفى شوارعهم ، ويزداد عجباً إذا بلغه أن أهل فرنسا — مع هذا — ليسوا أنظف أهل أوربا ، وأن « أهل الفلمنك (هولنده) أنظف من الفرنساوية إذ تجد غالب حاراتهم مبلطة بالحجر الأبيض المتعهّد بالتنظيف ، وبيوتهم مجمّلة من خارجها أيضاً ، وشبابيكهم القزاز تغسل دائماً ، بل وحيطانهم الخارجية » .

ويحز فى نفسه أن المصريين ليسوا بذاك فى النظافة ، ويزعم « أن أهل مصر فى قديم الزمان كانوا أعظم أهل الدنيا نظافة ، ولكن لم يقلدهم ذراريهم » .

وما أظن ذلك ، فالوساخة فى مصر داء قديم ، وهم — مع الأسف — من أقل الأمم عناية بالنظافة ، فى مآكلهم وملابسهم ومساكنهم وشوارعهم ، ولم تبذل الحكومات المتعاقبة أى مجهود جدّى فى حملهم على النظافة حتى تصبح عادة ، ومحل المقارنة لا يزال الآن كما كان منذ مائة عام فى عهد « الشيخ رفاعة » ولا يغرنا كم مائة بيت من الطبقة الأرستقراطية فى المدن يعيشون فى جو نظيف ، فالحكم إنما يجب أن ينظر فيه لسائر الشعب ؛ وحتى هؤلاء الأرستقراطيون لا يستطيعون أن يعيشوا نظفاء إذا كان مَن حولهم غير نظيف ، فهم مضطرون لمعاملة خدم يخدمونهم ، وباعة يبيعون لهم ، وركوب ترام أو قطارات يسافرون فيها وهكذا . وكما لا يستطيع بيت أن يعيش نظيفاً فى حارة قذرة ، كذلك لا تستطيع طبقة مهما احتاطت أن تعيش عيشة نظيفة نظافة تامة فى جو قذر . إن الفقر المنتشر والبؤس الشائع يدفعان الأمة إلى إهمال النظافة ، ولكن أهم من

ذلك عدم تدخل أولى الأمر فى نظافة الشعب ، وتعويده أن يقوّم النظافة قيمتها الحقة ؛ فمن نعم الله أن تكاليف النظافة رخيصة إذا وجدت نفوساً تأنف القذر

مما يُعجب حقا حساسية « الشيخ رفاعة » بالنظافة ، وتقويمه قيمتها الحقة ، والتفاته الشديد الدائم إلى هـذه الناحية — ولو خصصت الأمة نصف ميزانيتها أو أكثر لتأسيس الحياة الاجتماعية فى مصر على أساس النظافة لعقلت .

***

هذا « الشيخ رفاعة » فى السفينة الفرنسية « بعمته وجبته وقفطانه » ، يتوضأ ويصلى إماماً ببعض الطلبة المصريين ، ويستظرف الشبان الفرنسيون هذا المنظر ، فيجتمعون لمشاهدته ؛ ويرون « الشيخ رفاعة » قسيساً يصلى بالمسلمين ويؤمهم ، فيحترمونه احترام قسيسهم ، ويمنحونه قدراً من إجلالهم ، ويخصونه بمزيد عنايتهم .

ويزيدهم استظرافا له أنهم يرونه عاكفاً على دراسة اللغة الفرنسية ، بيده أجرومية فرنسية يقرؤها كما يقرأ كتاب الأجرومية فى النحو العربى ، ويحفظ ويمعن فى الحفظ ، وينطق ببعض كلمات تستخرج ضحك الفرنسيين من أعماق صدورهم ، وأصعب شىء على « الشيخ » حرف U الفرنسية فهى ثقيلة النطق على لسانه ، فلا هى بالواو التى يعرفها ، ولا هى بالياء التى يألفها ، ولكنها وسط عجيب بين الواو والياء ، يستصعبها فيتجمع لها قبل النطق بها ، وإذا وقع نظره عليها من بعيد وهو يقرأ أدرك علامة الخطر . ولقد أذكرنى ذلك حكاية ظريفة ، فقد كنت أتبادل مع سيدة إنجليزية جميلة تعلّم الإنجليزية والعربية ، وكان لها عينان تشعان الثقة والإخلاص والأمانة ، وكان يصعب عليها النطق بالعين ،

فكانت تقول : « إن عينكم هذه تقتلنى » ، فأقول فى نفسى : « وعينكم أيضاً تقتلنى » .

***

سارت السفينة بالشيخ أربعة أيام ، والبحر هادئ والجو جميل ، وطمع الشيخ أن تكون رحلته كلها من هذا القبيل ، ولكن ما هو إلا أن عصفت الرياح ، واضطربت السفينة ، وأخذتها أمواج كالجبال تعلو إلى أعلى القمة وتهبط فى لمحة إلى أسفل القاع ، ولعبت نفوس الراكبين لعب الأمواج ، فثارت ثورتها وهاجت هياجها . قال الشيخ : « فلازم أكثرنا الأرض ، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض » .

بعد مرور خمسة عشر يوما ، والبحر يهدأ ويهيج ، والسفينة تسير وتلعب ، والشيخ يصلى ويقرأ الأجرومية الفرنسية ، وقفت السفينة على جزيرة صقلية (سيسليا) ، ففرحوا بمنظر الأرض الباسم بعد منظر البحر العابس ، وتذكر الشيخ قول الشاعر :

أَنِلْ قدمَيّ ظهر الأرض إنى رأيت الأرض أثبتَ منك ظهرا

ولكن أهل صقلية لم ينيلوه ظهر الأرض ، ولم يمكنوه من النزول ، إذ كانوا لا يسمحون بدخول البلد إلا بعد الحجْر الصحى خوف الوباء ، وإنما كانوا يسمحون بالتعامل بالبيع والشراء ، على شرط أن النقودُ التى يأخذها البائعون تغمس فى إناء مملوء بالخل ، حتى لا تنتقل العدوى .

وظلت السفينة خمسة أيام تتزود حاجتها من ماء وفاكهة وخضر .

لقد كان « الشيخ رفاعة » ظريفاً حقا ، أتدرى ماذا أعجبه من كل ما حوله ؟ صوت النواقيس ورناتها الموسيقيـة ، وكانت الأيام أيام عيد ، والنواقيس تدق فيدق لها قلب الشيخ . لو غيره سمعها من رجال الدين المتزمّتين لاستعاذ بالله

من صوتها وحوقل ، وسمع منها صوتاً من أصوات الكفر يقبض صدره ويُعتم نفسه ، ولكن شيخنا رحب الصدر ، يتعشق الجمال حيث كان فى عفة ودين .

ففى إحدى هذه الليالى الخمس دعا صديقاً من أصدقائه من أعضاء البعثة ، ممن يعرف فيه الظرف والأدب ، واقترح عليه أن يشتركا فى إنشاء مقامة كمقامة البديع والحريرى ، ولكن ليس موضوعها التكدى ونصب الحيلة لاقتناص مال ، وإنما موضوعها ثلاثة أشياء ، الأول حوار حول أن « الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة مع العفاف » ، والثانى « سكر المحب من عينى محبوبه » ، والثالث « تأثر النفوس ، بضرب الناقوس » إذا كان من يضرب به ظريفاً . هكذا صبا الشيخ وظرُف ، وأخذ ينشئ الشعر فى مقامته فى هذه المعانى ، فقال فى المعنى الأول :

أصبو إلى كل ذى جمالٍ ... ولستُ من صبوتى أخافُ
وليس بى فى الهوى ارتياب ... وإنما شيمتى العفاف

وقال فى المعنى الثانى :

قد قلت لما بدا والكاس فى يده ... وجوهر الخمر فيها شبه خدَّيه
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه ... ونشوتى من معانى سحر عينيه

وفى المعنى الثالث يقول :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له : ... مَنْ علّم الظبى ضرباً بالنواقيس
وقلت للنفس أىّ الضرب يؤلمكى ... ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسى

ثلاثة وثلاثون يوماً قضاها « الشيخ رفاعة » فى البحر بين الإسكندرية ومرسيليا ، منها خمسة أيام وقوفا فى صقلية ، ويوم فى نابلى ، فكم نجح الإنسان أثناء قرن واحد فى السرعة ولما يقنع .

## ٣

رؤيتك أمةً جديدة فتحُ عين لك جديدة ، فالحكم على المسائل الاجتماعية يعتمد أكثر ما يعتمد على المقارنة ، ولا مقارنة إذا اقتصر الإنسان على النظر إلى أمته وشؤونها ، فنشأته فيها واعتياده من صغره رؤية مظاهرها يضعف قوة النقد عنده ، ويعوقه عن إدراك مزاياها وعيوبها ، فإذا هو رأى أمة أو أمماً غير أمته ازداد علماً ، وازداد قوة على النقد ، وكان أقرب إلى صحة الحكم .

ومن أنفع هذا الباب النظرات الأولى للراحل ، فهى تحصر وجوه الخلاف قبل أن يألفها ويعتادها ، وتكون مادة صالحة له إذا هو قيدها وتعمّق دراستها . فكم من الطريف أن نصغى إلى الأوروبىّ الذى يزور مصر لأول مرة ويحدثنا عن أثرها فى نفسه ، كذلك من الطريف أن نسمع مصريا قُحًّا رأى أوروبا للمرة الأولى وتحدّث عما لفت نظره وأثار عواطفه .

فإذا رأينا الشيخ رفاعة الذى نشأ فى صميم الصعيد وشب فى صميم القاهرة ، وتعلم فى صميم الأزهر يتحدث عن الباريسيين والباريسيات كان بلا شك حديثاً عجباً .

ما الذى أعجبه فى فرنسا وما الذى كرهه ، وما الذى ود أن ينقل من ذلك إلى مصر ، وما الذى حمد الله أن لم ينقل ، ما الذى أحسه عند المقارنة بين مصر وفرنسا ووجوه ضعف مصر وقوتها ؟ أصبح ذهنه مشغولا دائما بكلمات خمس : مصر ، العرب ، الإسلام ، فرنسا ، النصرانية ، يستخدمها فى كل نظراته وأحكامه .

أعجبه من الباريسيين ذكاؤهم ودقة فهمهم ، وسعة اطلاعهم وميلهم الشديد لمعرفة ما جهلوا ، وقلة الأميين بينهم ، ورغبتهم فى الابتكار « فكل صاحب

فن يحب أن يبتدع فى فنه شيئاً لم يُسبق إليه ، أو يكمل ما ابتدعه غيره » ثم حب الاستطلاع ، « فهم يحبون الرحلة يستطلعون فيها الناس والبلاد ، ويحبون الغرباء ليستمعوا منهم أحوال بلادهم وعوائد أهلهم » ؛ ثم حب التجديد ، « فهم يكرهون الاستمرار على حال واحد فى الملبس ، وفى الملاهى ، وفى التفكير ، وفى السياسة » . وأعجب ما أعجبه منهم حريتهم فى تفكيرهم والتصريح بآرائهم فى حكومتهم ، والجهر بما يعتقدون فى الدين والعلم والسياسة ، كما أعجبه جدا المنشآت العامة لنفع الفقراء والمرضى من مستشفيات وملاجئ .

وهذه صفات رآها فتمناها لبلاده ، ولكن أين له الحرية التى يتمتع بها أهل باريس لينقد قومه وحكومته ويقول فى صراحة ما يتمنى ؟ إنما هو يلوِّح ويلمِّح .

وعجِبَ جداً من خفتهم وطيشهم ، وشدة انفعالهم ، فسرعان ما ينتقلون من فرح إلى حزن ، ومن حزن إلى فرح ، وقد تربى هو تربية وقار وحشمة ، ورأى شيوخه فى الأزهر جادين دائماً ، يمشون متئدين وعليهم سيما الرزانة ، ويجلسون كأن على رءوسهم الطير ، ويتحركون بحساب ، ويخطون الخطوة بحساب ، فما هذه الخفة فى الحركة عند الباريسيين ، وكيف يجرى هذا الرجل صاحب المقام الرفيع والمركز الاجتماعى الخطير فى الشارع كالأطفال ، ليدرك موعداً أو يلحق عربة ؟ وكيف يفرطون — حتى رجالهم وعجائزهم — فى اللهو واللعب ، ويصرفون أموالهم فى حظوظ نفوسهم ، ويسرفون فى ذلك على أنفسهم غاية السرف ؟ إنهم لخلْق عجيب ، ولكنهم مع ذلك أهل جِدّ لا يملُّون العمل ، وسواء فى ذلك غنيهم وفقيرهم .

لم تعجب الشيخ ماديتهم ، فهم بخلاء يحبون المال حُبًّا جمًّا ، فأين هذا من كرم العرب ! وأين هذا من كرم « الصعايدة » ؟ ومن مادية الفرنسيين مواساتهم

بأقوالهم وأفعالهم لا بأموالهم ، وهم لا يهبون ولا يُعيرون إلا إذا وثقوا بالمكافأة ، ثم هم يحكّمون العقل حيث يحكّم الدين ، فهم أسوأ حالا من المعتزلة فى قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين ، وهم لايؤمنون بالمعجزات ولا خوارق العادات ، ويؤمنون بالسببية والمسببية إلى أقصى حد ؛ فالأمة ترقى بالعدل وتضعف بالظلم ، وللعمارة أسباب تنتجها لا محالة ، وللخراب أسباب تنتجه لا محالة ، ويعتقدون — والعياذ بالله — أن عقول حكمائهم أعظم من عقول أنبيائهم ، وأكثرهم لايؤمن بقضاء ولا قدر — لا . لا . هذا كله لايعجبنى .

وشىء آخر لم يعجبه أبداً ، وهو أحوال النساء الباريسيات . . . والرجال عندهم عبيد النساء ، فأين هـذا من الشرق الجميل حيث النساء عبيد الرجال (على أيامه) ، وهؤلاء النساء هفواتهن كثيرة ، وقلة عفافهن واضحةٌ ، وغَيرة الرجال عندهم ضعيفة ، وخاصة فى الطبقات العليا والسفلى ، « وقد جُرب فى بلاد فرنسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى الرتبة الوسطى من الناس ، دون نساء الأعيان والرعاع ، فنساء هاتين المرتبتين تقع عليهن الشبهة » الخ ، فأين هذا مما عندنا فى الصعيد ، حيث الغيرة عند الرجل تبلغ حد الجنون ، وويل لمن سُمع عنها قالة سوء أو حامت حولها شبهة .

ولكن — والحق يقال — فى الباريسيين فضيلة ، وهى عدم تغزلهم فى المذكر ، « فمن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس فى الجنس ، فلا يحسن فى اللغة الفرنسية قول الرجل عشقت غلاما ، فإن هذا يكون من الكلام المنبوذ ، ولذلك إذا ترجم أحدهم كتابا من كتبنا يقلب الكلام إلى وجه آخر ، فيقول فى ترجمة تلك الجملة عشقت غلامة أو ذاتا ليتخلص من ذلك ، فإنهم يرون هذا من فساد الأخلاق ، والحق معهم ، وذلك أن أحد الجنسين له فى غير جنسه خاصة من الخواص يميل بها إليه ، كخاصة المغناطيس فى جذب

الحديد — مثلا — وكخاصة الكهرباء فى جذب الأشياء ، ونحو ذلك ، فإذا اتحد الجنس انعدمت الخاصة ، وخرج عن الحالة الطبيعية » .

هذه بعض نظرات « الشيخ » إلى باريس أول ما نظر ، وظلت هذه النظرات ثابتة عنده ، لم تتغير إلا قليلا ، بل كانت الأيام تزيدها قوة ؛ ولقد أراد يوما أن يستوثق من آرائه هذه فيعرضها ويسمع نقدها ، فعرضها على اثنين من أصدقائه الفرنسيين ، فأما أحدهما فنقدها بأن الشيخ نظر إلى بعض المسائل متأثراً بأوهام المسلمين ، ولعله يشير إلى نقد الشيخ رفاعة لعقيدة الفرنسيين فى القضاء والقدر ، وإنكار المعجزات ، كما نقد نظرته إلى النساء الفرنسيات ، وتعميمه الحكم على نساء فرنسا كلها بما شاهده من بعض نساء باريس ، وأما الثانى فكان ظريفاً رقيقاً ، وقال : لا يهمنى ما حكمت ولكن يهمنى ما اعتقدت ، فما دمت تكتب ما تعتقد فلا ضرر ، وإنما الضرر أن تشايع غيرك ، ويحملك الحياء والخجل على أن تكتب أو تقول ما لا تعتقد .

***

فكرتان تعارضتا فى ذهن محمد على باشا ورجاله ، ولكل فكرة مزاياها وعيوبها ، أمن الخير أن يسكن هؤلاء الطلبة المبعوثون فى بيت واحد وعليهم مشرفون ، أو يفرقوا فى « البانسيونات » الفرنسية ؟ مزية الفكرة الأولى أنها أحفظ للطلبة من العبث ، وأنها أحرى أن تجعل الطلبة محافظين على عوائدهم المصرية ، فإذا رجعوا إلى بلادهم لم يكونوا قد بعدوا عنها كثيراً فيفيدونها بعلمهم ، ويندمجون فيها بسلوكهم ، وعيبها أن الطلبة المصريين متى اجتمعوا تكلموا بالعربية ، فلم يتقدموا فى الفرنسية ، وضعف علمهم بأحوال الفرنسيين وشؤونهم ، مما قد يكون فيه فائدة لأمتهم ؛ ومزية الفكرة الثانية طلاقة ألسنتهم وكثرة استفادتهم وتجاربهم ، وعيبها تعرضهم لخطر التهتك ، والانغماس فى

الشهوات ، وتطبُّعهم بطابع الفرنسيين ، وبعدهم بذلك عن أهلهم ، وتقليد الفرنسيين فى أحاديث السياسة والطعن فى الحكومات ، مما يسبب مشا كل لمصر فى المستقبل .

حار بين الفكرتين ، فاختار الأولى أولا ، فنزل المبعوثون أول الأمر بيتا سمى « بيت الأفندية » ، لايخرجون منه ليلا ولا نهاراً إلا يوم الأحد . وإذا خرجوا فبإذن من الضابط للبواب ، ويأتى المعلمون الفرنسيون إلى البيت ليعلموا الطلبة ، كل طائفة متماثلة تدرس معاً ، وتنفق عليهم الأموال عن سعة حتى كان يعدهم الفرنسيون من الأغنياء .

ثم لما تجلت عيوب هذه الطريقة وأحسوا عدم تقدم الطلبة فى اللغة والعلم لجئوا إلى الطريقة الثانية ، فوزع الطلبة على « البانسيونات » وفرقوا على المدارس كلٌّ ومايناسبه ، وأطلق لهم شىء من الحرية ولكن فى نظام دقيق ؛ فيخرجون يوم الأحد ، ويوم الخميس بعد الدروس ، وبعض الأيام بعد العشاء ، ولكن لا بد أن يعودوا إلى مساكنهم قبل الساعة التاسعة فى الصيف ، والثامنة فى الشتاء ؛ وفى كل شهر يمتحنون ويكتب تقرير عن كل طالب ، ومقدار ماحصّله ومدى تقدمه ، ويكافأ من ظهرت نجابته بهدية من الكتب أو بعض الأدوات المدرسية ؛ وهم ممنوعون منعاًباتا أن يدوروا فى الأزقة — وإذا عصى أحدٌ هذه الأوامر حبس وعذِّب ، وإذا أتى بأفعال غير لائقة أو شهد المعلمون أنه لا يرجى تقدمه أعيد — حالاً — إلى مصر ، والكل فى ذلك سواء لا يستثنى أحد .

ومحمد على باشا بنفسه يطلع على التقارير الواردة ، ويتصرف فيها بما يرى ، ويرسل دائما إلى الطلبة يشجع الجدّ وينذر الكسول ، ويراقب كل صغير وكبير . وفى آخر كل عام تأتى التقارير الوافية عن كل طالب ، ويُمرَّن كل

طالب أثناء تعلمه على التأليف أو الترجمة ، ويرسل ذلك لمصر للاطلاع عليه

***

وضعت برامج مختلفة لتعليم كل طالب حسب دراسته الأولى ، والغرض الذى من أجله أرسل . وكان البرنامج الذى وضع للشيخ رفاعة شاقا غريباً ، لأنه أعدّ للترجمة من الفرنسية إلى العربية ، وعليه أن يُعَدّ لترجمة الكتب فى العلوم المختلفة ، فى الجغرافيا والتاريخ والطب والهندسة والتعاليم العسكرية ، وهو لا يستطيع الترجمة فى علم من العلوم إلا إذا ثقف فيه ، فيجب أن يثقف هذه الثقافات المختلفة ليستطيع التعريب فيها ، لذلك كان برنامجه الذى ألزم به ما يأتى :

يجب أن يتعلم الفرنسية ، نحوها وصرفها وإملاءها قراءة وكتابة ، وقد استمر فى ذلك ثلاث سنين ، وفى أثناء تلك السنوات يقرأ كتباً معينة فى فلسفة اليونان والتاريخ العام .

وعيّن له كتاب فى الحساب يقرؤه ويعرف مصطلحاته وكذلك فى الهندسة .

واختير له كتاب واسع فى الجغرافيا التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية ، قرأه على أستاذ فرنسى .

ويتمرّن فى كل ذلك على الترجمة من الفرنسية إلى العربية .

ويقرأ كتاباً فى المنطق الفرنسى ، وكتاباً فى المعادن ، وكتباً مختلفة فى الأدب الفرنسى ، فيقرأ لفولتير ، وراسين ، وروسو .

ويقرأ فى السياسة ، والحقوق الطبيعية ، وروح الشرائع لمنتسكيو .

ويقرأ على الأستاذ كتاباً فى علم الطبيعة وكتاباً فى فن العسكرية .

ويقرأ المجلات العلمية والجرائد السياسية اليومية .

وهكذا كُلِّف كثيراً ، وقرأ هو لنفسه كثيراً ، وشغف بالكتب السياسية

والاجتماعية يقرأ منها كثيراً ، إذ رآها تفتح أمامه أبواباً واسعة .

وكان مسيو جومار مدير البعثة يحبه و يعطف عليه ، لما رأى من جده ونبوغه ، فأعانه وشجعه وسهل له مصاعبه .

ثم استفاد فائدة أخرى كان لها أثر كبير فى حياته ، ذلك أنه صادف فى باريس أيام وجوده بها عَلَمين من أعلام الاستشراق ، الأستاذ سلفستر ده ساسى والأستاذ كوزين ده برسيفال ؛ فأما الأول فمدير مدرسة اللغات الشرقيـة ، واسع الاطلاع فى اللغة العربية والفارسية ، نشر كتباً عربية كثيرة ، وألف شرح مقامات الحريرى المتداول بين أيدينا ، والمطبوع فى مصر مراراً ، وألف فى النحو العربى على طريقة جديدة ، وألف كتاب « الأنيس المفيد ، للطالب المستفيد » المطبوع فى مصر من غير ذكر لمؤلفه الخ ؛ وكذلك الأستاذ كوزين نشر كثيراً ، وترجم من العربية « صقلية تحت حكم المسلمين » الخ . وكلاهما كان بحاثة ، صادقهما الشيخ رفاعة واستفاد منهما منهج المستشرقين فى البحث ، واستفادا منه بعض معارفه فى اللغة العربية ، فلما عاد إلى مصر قلدهما فى بعض شؤونهما كما سيأتى .

كان عليه أن يتم هذا البرنامج كله فى خمس سنوات ، وما كان يستطيع ذلك لولا همته وصدق عزمه واتكاؤه على نفسه ، فقد أفرط فى المطالعة بالليل حتى ضعفت عينه اليسرى ، واحتاج إلى تطبيبها ، ونصحه الطبيب ألا يطالع فأبى ؛ وصرف أكثر مرتبه الخاص فى شراء الكتب التى أغرم بهـا ، وفى الاستعانة بمعلمين فرنسيين غير الذين رتّبتهم له الدولة .

فإذا ملّ القراءة والدرس ، استجم بنوع من الدراسة آخر لا يقل عن القراءة أهمية ، وهو دراسة الحالة الاجتماعية فى فرنسا ، ومدى تقدمها وأسباب نهضتها ، ما قوانينها ، ما عاداتها ، ما تجارتها ، ما وسائل اعتناء أهلها بصحتهم ، كيف

يعطفون على مرضاهم ؟ ما حالاتهم الاقتصادية ؟ ما علومهم وفنونهم ونظام التدريس عندهم ؟ ما هى المؤسسات العلميـة غير المدارس ، كالمكتبات والأكاديميات ؟ حتى الملاهى والتمثيل وصالات الرقص بجميع أنواعها — كل هذا درسه بأمعان ، وقيده بالكتابة ، واختزنه فى ذهنه ، وأجاله فى عقله على أساس ما يمكن أن يصنع من ذلك فى مصر .

وهو فى كل ذلك محتفظ بدينه ، محتفظ « بعمته وقفطانه » يهرول بهما فى شوارع باريس على كثرة ما لقى فى ذلك من عناء ، فكلما مشى لفت الأنظار إليه بغرابة شكله وطرافة زيّه ؛ ولا ينسى يوما حكاية ظريفة وقعت له فتصرف فيها تصرفا ظريفاً مثلها ، إذ كان يسير ليلة فى زقاق فى باريس ، فمرّ بحانة لعبت الخمر بمن فيها من رجال ونساء ، وصادف مرور الشيخ خروجهم وهم يصيحون « الشراب الشراب » ، ولاحت التفاتة من أحدهم فرأى الشيخ يسير فى « جبته وقفطانه » فصاح به : يا تركى يا تركى ، وقبض على ثيابه ، فجذبه الشيخ رفاعة بلطف وساقه إلى « بار » كان بالقرب منه ، ودخل به وقال لصاحب البار : « من فضلك أعطى بهذا كأساً » .

صاحب البار : ليس بيع الرجال فى بلادنا ، إنما ذلك فى بلادكم .

الشيخ رفاعة : وهل هذا رجل ؟ وهل من يفعل بنفسه ذلك آدمى ؟

وضحك الجميع وانصرف الشيخ .

***

فى آخر السنوات الخمس عقد للشيخ الامتحان النهائى ، حضره جمهرة من الأساتذة الفرنسيين ، ومعهم مسيو جومار ؛ وتقدم لهم الشيخ رفاعة ومعه اثنا عشر كتابا أو رسالة ترجمها من الفرنسية إلى العربية أثناء إقامته ، ففحصها

الممتحنون ؛ ثم قدمت له كتب عربية طلب منه أن يقرأ صفحاتها ويترجمها إلى الفرنسية شفاها وعلى البديهة ؛ وأحضرت كتب مترجمة من العربية إلى الفرنسية فأعطى الفرنسيون الكتب الفرنسية والشيخ رفاعة الكتاب العربي وطلب إليه أن يقرأها في نفسه وينطق بترجمتها بالفرنسية ، وقد أعجبوا بتفوقه ، ولكن أخذوا عليه أن نطقه الفرنسي لم يصقل الصقل الكافي ، وأنه في الترجمة أحيانا يعبر عن الجملة الواحدة الفرنسية بجمل كثيرة عربية ، وربما ترجم الكلمة بجملة فراراً من المصطلحات ، وربما غيّر مجازاً فرنسياً بمجاز آخر عربي ، وأنه يراعي روح المعنى أكثر مما يراعي حرفية اللفظ ، ونصحوه أن يراعي ذلك في المستقبل ، وأعلنوا نجاحه في اغتباط وفرح ، وكتبوا تقريراً مفصلا لمحمد علي باشا يثنون عليه ، ويبيِّنون مدى نجاحه في كل ما عهد إليه ، إلا الرسم ، فقد تصلبت أصابعه ولم يرزق الخفة في يده ، ويتنبأون له بمستقبل باهر في خدمة أمته بما يؤلِّف ويترجم .

إلى هنا كان الشيخ قد أتم مرحلة الاستعداد ، وفارق باريس إلى مصر ليحمل عبئه ويؤدي رسالته ، وفي صدره هوى حبيبتيه مصر وباريس فيقول :

لئن طلقت باريساً ثلاثا فما هـذا لغير وصال مصر
فكل منهما عندي عروس ولكن مصر ليست بنت كفر

٤

شتان بين الشيخ راحلا إلى باريس والشيخ عائداً من باريس ، كان معصوب العينين ، فعاد مفتوح العينين ؛ كان يرى أن مصر أم الدنيا . فإذا هو يراها ذيل الدنيا ، ولكن يجب العمل لتكون رأسها ، كانت دنياه هي الأزهر وحيَّ الأزهر ، فإذا دنياه الدنيا كلها في حاضرها وغابرها ومستقبلها ، بما شاهد وبما قرأ من جغرافيا وتاريخ وسياسة واجتماع ؛ كانت غايته أن يكون عالما ، ومعنى العالم في نظره أن يتقن النحو والبلاغة والأصول ، فإن تظرّف نَحفَظُ شيء من الشعر ؛ وكان مثله الأعلى الشيخ الفضالي والشيخ القويسني ، وأن يجلس على مقعد بجوار عمود من أعمدة الأزهر وحوله الطلبة الكثيرون يشرح لهم أغمض الجمل وأعقد التراكيب ، فإذا انتهى أقبل عليه الطلبة يتخاطفون يده لتقبيلها ، فإذا هو يرى في فرنسا أن كلمة «العالِم» المطلق لا مدلول لها ، إنما هناك عالم جغرافيا وعالِم تاريخ وهكذا ، وأن شيوخ الأزهر لم يعودوا مثله الأعلى ، فإن علم الأزهر نقطة من بحر العلم ، وطريقة تعليمهم نقطة سوداء في مناهج التعليم ، وليس مثله الأعلى أن يجلس بجوار عمود ، ولكن مثله الأعلى ورسالته الكبرى أن يغزو الجهل والأمية في مصر كلها ، وأن يخلق فيها حركة تعليم تقلب أوضاعها وتنير أذهانها ، وتبصّرها بالدنيا وتفهمها أين هم لأنفسهم وأين هم من الأمم الأخرى — وكان يرى الشيوخ يتملقون الولاة والأمراء تملقاً رخيصاً ليستدروا منهم كيس نقود أو خلعة سنية ، فصار يرى أنه لا يستطيع أن يكف عن المدح ، وإلا فسد برنامجه ، فليمدح لمشروع جليل ، ولإنشاء مدرسة ، ولعمل خيري ، ولرسم الطريق للأمراء ليتوجهوا بأعمالهم نحو الخير العام .

وأخيراً كان يحس من نفسه الضعة إذا جالس والياً أو أميراً أو عظيما ، وكان

يحس النقص إذا جلس فى مجلس يُتكلم فيه عن شؤون الدنيا ، فارتفعت نفسه ، فمن فخر بلغة فهو يملك ناصية الفرنسية ، ومن فخر بعلم دنيوى فليس يمكن أن يباريه ، ومن فخر بمعرفة الدنيا وشؤونها فأين هو منه وقد قرأ جغرافية العالم وسياسته ، وجالس أذكى الناس عقلا وأرقاهم مدنية ، وعاش فى أوساط قد لا يبلغها كبير . وهكذا سمت نفسه وشعر بقوّته فى غير كبر ولا غرور ، يرتفع عن بنى قومه ولكن يأخذ بيدهم ، ويحس قوّته فيصرفها فى نفع أمته ، ويحذق فهم التيارات السياسية فى مصر ، وعقلية الشعب وعقلية الولاة ، فيعرف كيف يتجه بسفينته .

خمس سنوات فى فرنسا جعلت منه إنسانا آخر ، ولكن كم من مئات ومن ألوف قضوا أعواما وأعواما فى انجلترا وفرنسا وألمانيا وعادوا نكبة على أوطانهم ، ولم يفيدوها حتى بكفّ شرورهم عنها ، وصدق الأثر : « الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام » . ولو كان لنا فى كل مجموعة من البعثة مبعوث مثل رفاعة لتغير وجه مصر .

***

كان من العادات الظريفة التى اندثرت أن يجتمع الجم الغفير من العلماء والأمراء والأغنياء والتجار فى ليلة من ليالى رمضان فى بيت السادات فى « بِرْكة الفِيل » ، ويجلس الشريف الحسيب النسيب شيخ السادات مجلسه الفخم الوقور يمنح الرتب والألقاب لمن شاء من الزوّار ، ولكن ليست رتبة « بك » ولا « باشا » ولا نحو ذلك ، إنما هى ألقاب وكُنَى يستمدها من الوحى الصوفى والإلهام اللدُنّى ، فهذا أبو الأنوار ، وهذا أبو الوفاء ، وهذا أبو البركات ، وهذا أبو الخير ؛ فنى ليلة من هذه الليالى الرمضانية كان من الزوار شيخنا الشيخ رفاعة ، فتفرس فيه شيخ السادات ، ونظر إليه بقلبه ، ثم قال له : « اذهب فأنت أبو العزم » ، وكذلك

كان ، وكانت كُنية موفقه ، فأبرز صفات « الشيخ رفاعة » عزمه .

***

عاد الشيخ رفاعة إلى مصر سنة ١٢٤٧ هـ ، وقد عرفه محمد على باشا بما كتبه عنه مدير البعثة من تقارير ، وعرفه إبراهيم باشا حين قابله فى الإسكندرية ، لأنه سمع به حين زيارته باريس ، ولأنه كان يعرف أسرته فى طهطا ، وقد عرف ما نكبت به من انتزاع ما فى يدها من أطيان ، وقطع ما يصرف لها من غلال ، فأراد أن يكفِّر عن ذلك ، فمنحه ٣٦ فداناً فى الخانكة (الخانقاه) ، فكان ذلك مبدأ ثروته ونعمته — أرض لطيفة قريبة من القاهرة يستطيع الشيخ أن يديرها ويرفِّه عن نفسه فيها .

عيّنه محمد على باشا مترجماً فى مدرسة الطب ، وكانت بأبى زعبل ، وكان ناظرها كلوت بك ، وكانت محاولة أولية لمدرسة الطب أنشئت بجانب المستشفى هناك ، وكان يؤخذ تلاميذها من المكاتب ومن الأزهر ، لا يعرفون لغة ، ولا يعرفون إلا القراءة والكتابة وقليلا من الحساب الأوّلى ، وكان المدرسون الذين يدرسون الطب إما فرنسيين أو إيطاليين ، فكيف يكون التفاهم بين الطلبة والمدرسين ؟ لا بد من مترجمين يعرفون العربية والفرنسية والإيطالية ، فيلقى الأساتذة الدروس بلغتهم والطلبة سكوت لا يفهمون شيئاً ، فيترجمه المترجمون إلى العربية ، ثم يشرح المترجمون للأساتذة ما ترجموا ليثق الأساتذة من صحة الترجمة ، ثم يمليه المترجمون على الطلبة بالعربية ، ثم يحفظه الطلبة ، ومن أظهر التقدم من الطلبة واستطاع أن يفهم من الأساتذة بعض الشىء جعل مشرفاً على الطلبة الضعاف مساعداً للأستاذ والمترجم .

وهؤلاء المترجمون أيضاً مشكلة أخرى ، فهم طائفة من السوريين أو الأرمن أو نحوهم مثل مسيو رفاييل ومسيو عنحورى ، قد يجيدون اللغة الأجنبية ،

ولا يجيدون العربية ؛ فاقتضى الأمر أن يؤتى ببعض علماء الأزهر لتصحيح ما يترجمه المترجمون ، وسبّب وجود علماء الأزهر مشكلة ثالثة ، وهى أن التشريح حرام ، وهو يُعمل فى السر ، ويخشى أن يطلع عليه علماء الأزهر فيفضحوا المدرسة ويؤلّبوا عليها الرأى العام ، وليس لهذه المشكلة من علاج إلا أن يختار من الأزهر الشيوخ المرِنون ، كالشيخ الدسوقى والشيخ الهراوى ، ويُرجَوْن ألا يفشوا السر .

هذا هو الوضع للمدرسة أيام عين بها « الشيخ رفاعة » مترجماً ، فكان أول مترجم مصرى يجيد العربية والفرنسية وله إلمام بالطب ، وقد عين مرءوساً للمسيو عنحورى ، فلما رأى منه (مسيو عنحورى) هذه المقدرة تخلّى له عن مكانه .

وعهد إلى الشيخ رفاعة إلى جانب الترجمة أن يعلّم بعض الطلبة الإعداديين اللغة الفرنسية والجغرافيا ، وصدر الأمر بأن يعطى مرتباً على ذلك ١٢٢٣ قرشاً فى الشهر ، مع إضافات ، كبدل انتقال ونحو ذلك . مرتب ضخم فى ذلك العصر ، فاثنا عشر جنيهاً كانت قدرتها الشرائية أكثر من ستين أو سبعين جنيهاً فى عصرنا ، حتى قبل أن يرخص ورق النقد .

ولهذا نرى الشيخ يتزوج بنت خاله الشيخ محمد الأنصارى ، ويتبحبح فى المعيشة ، فيكون له بيت فى « المهمشة » بالقرب من شبرا ، وفيه حديقة لطيفة فيها أثر الذوق الفرنسى ، وفى البيت جَوارٍ وعبيدٌ من ملك يمينه — فلم يكن أبطل الرق بعدُ — وفى ذلك أثر للذوق الشرقى .

عمل فى مدرسة الطب ما شاء الله أن يعمل ، وأحس الطلبة روحا جديداً فى المدرسة ، ورقياً فى لغتهم اقتربوا به من أساتذتهم ، وقرّب إليه بعض خيار الطلبة يشجعهم ويعزهم ويَعُدُّهم للبعثة ، وكان من هؤلاء محمد على باشا البقلى — جراح مصر الشهير — فكان يقبّل يد الشيخ كلما رآه ، ويعدُّ نفسه صنيعة من

صنائعه ، فلولاه ما نبغ ، ولولاه ما كان مبعوثا ؛ بل أخذ الشيخ فى هذه الفترة يضع الرسائل فى الطب يساعد بها الطلبة ويراجع الكتب العربية القديمة من قانون ابن سينا وتذكرة داود لوضع المصطلحات الطبية .

ولكن لم يلبث بهذه المدرسة إلا نحو سنتين ، ثم صدر الأمر بنقله من مدرسة الطب بأبى زعبل إلى مدرسة « الطوبجية » بطره ، وكان ناظرها رجلا أسبانيا اسمه « ساكورا » بك ، واسمه فى الأصل « الدون أنطونيو ده سيجويرا » عرّبه الشيخ رفاعة إلى « ساكورا » ، وكان فى الأصل ضابطاً برتبة كولونيل فى المدفعية ، عهد إليه تأسيس هذه المدرسة وتنظيمها لتخريج ضباط للجيش وللبحرية ، يؤخذ طلبتها من المكاتب ، ويتعلمون بها الفنون العسكرية والحساب والجبر والهندسة ولغة أجنبية .

فعين الشيخ رفاعة ليترجم الكتب العسكرية والرياضية ، بعد أن كان يترجم الكتب الطبية ، وطلب إليه أن يترجم فن إحداث الجراح ، بدل ما كان يترجم فن تضميد الجراح — فليكن — ها هو الشيخ يعكف على ترجمة كتاب فى الهندسة يدرس فى مدرسة « سانسير » بفرنسا ، وها هو يقلّب أيضاً الكتب القديمة فى الهندسة يستخرج مصطلحاتها ، وهاهى مطبعة بولاق تطبعها وتوزعها على طلبة مدرسة الطوبجية .

ولكن الشيخ لم يعجبه مسيو ساكورا بك ، ولم تحسن العلاقة بينهما . وتأتى سنة ١٢٥٠ ﻫ ، فيحدث فى مصر طاعون شنيع ، ويكثر الموتى وتضطرب الأحوال فى القاهرة ، ويغلو السعر حتى تكون كيلة القمح بتسعة قروش ، فيسافر الشيخ بلا إذن إلى بلده طهطا .

مكث فى بلده ستين يوما ، هل استراح فيها وسكن إلى أهله وأهل بلده بعد غيبة طويلة ؟ هل فكّر فى الطاعون وكثرة الموتى ؟ هل صدّه عن العمل تضايقه

من مسيو سا كورا ؟ لا شيء من ذلك ، ها هو كتاب فى الجغرافيا أعجب بقراءته لما كان فى باريس ، وأعيدت منه طبعة جديدة أدخلت عليه تعديلات جديدة ، وهو كتاب ضخم واسع مؤلفه « ملطبرون » Malte-Brun دنماركى الأصل ، نفى من بلاده فأقام فى باريس ، فعكف على دراسة الجغرافيا طول حياته ، واعتصر منها مؤلفاً فى ستة أجزاء ضخام ، أقام فى تأليفه تسعة عشر عاماً ، وفيه أرقى المعلومات وأوسعها عن العالم (فى عصره) لو ترجم إلى العربية لوسّع من آفاق أهل العربية وفتح عيونهم للعالم .

فى هذه الستين يوما دأب على ترجمة الجزء الأول منه ، وعاد به فى يده ، وقابل محمد على باشا وقدمه إليه وشرح له قيمته ، فشكره ومنحه منحة ، وأنعم عليه بلقب صاغ ، إذ كانت كل الرتب عسكرية ، فأصبح « الصاغ رفاعة » ؛ وشكا له من عمله فى مدرسة الطوبجية ومن مسيو سا كورا ، وقدم إليه مشروعا لمدرسة الألسن وصف فيه برنامجها وما يصح أن تؤديه لمصر من الخدمة إذا أسست على أساس صحيح ، وأنه هو أنفع لهذا العمل والإشراف عليه ، فكان ذلك ، ونقل من مدرسة الطوبجية إلى مدرسة الألسن ، يؤسسها وينظمها ويتولى الإشراف عليها . وهنا أعطى القوس باريها وتجلت عظمته ومواهبه فيها .

ما مدرسة الألسن التى خلقها الشيخ رفاعة ، وما الغرض منها ؟؟

لقد عرف الشيخ رفاعة فى باريس مدرسة اللغات الشرقية ، أسّست لدراسة لغات الاستشراق ، وكان يسميها فى كتابته مدرسة الألسن ، لِمَا ذاع فى العربية من اللسان العربى واللسان العجمى ، ولما جرى على ألسنة العامة : « يتكلم بالسبعة ألسن » . ولكن موقف مصر فى اللغات غير موقف فرنسا ، فوجب أن تؤسس فى مصر مدرسة للألسن تواجه مطالبها وتناسب موقعها .

لقد نجحت فكرة محمد على باشا فى البعثات ، وعاد أعضاؤها يتكلمون

الفرنسية ، ويجيدون ما تخصصوا له من المسائل الفنية ، ولكنهم لا يكفون للنهضة المصرية الواسعة النطاق ، إن مصر محتاجة لمن ينقل لها خير ما وصل إليه العلم الحديث فى كل فروعه ، فلابد من تكوين طائفة كبيرة من الشبان يحذقون العربية ولغة أخرى حية ، وخاصة الفرنسية ، وإلى ذلك يثقفون ثقافة فنية خاصة ، هذا فى الرياضة ، وهذا فى القانون ، وهذا فى الجغرافيا والتاريخ ؛ حتى إذا عهد إليهم ترجمة كتاب كانوا مثقفين بعلمه ولغته ، وهؤلاء المتخرجون على هذا النحو يستطيعون أن يقوموا بترجمة الكتب فى الفروع المختلفة ، ويصح أن يكونوا معلمين فى المدارس التجهيزية والخصوصية ، ويصح أن يكونوا موظفين فى مصالح الحكومة التى تحتاج إلى من يجيدون لغة إلى لغتهم الأصلية ، فيكونوا نواة لنهضة صحيحة — إننا بالبعثة ننقل المصريين إلى أوروبا ، وبهذه المدرسة ننقل علم أوروبا إلى مصر . الترجمة ، الترجمة ، هى أساس النهضة لمصر ، وهى مبعثها من مرقدها ، والفاتحة لعيونها ، لقد تقدم العلم الإسلامى ، بعد وضع أساس النهضة بالترجمة فى العصر العباسى ، فوجب أن تكون نهضتنا الحديثة مؤسسة على الترجمة الحديثة ، ولهذا لقبوا محمد على بالمأمون الثانى .

ثم فى هذا العمل — إذا نجح — فائدة أخرى ، وهى إيجاد عدد كبير ممن يحذق اللغات الأجنبية ، فنستطيع بهم أن نستغنى عن كثير من الفرنج الذين يحتلون هذه المناصب ، كما نستريح من مشاكلهم .

فلنأخذ الطلبة من النابهين فى المكاتب ، وندرس لهم خمس سنوات أو ستاً اللغات العربية والفرنسية والتركية ، ومبادئ الرياضيات ، والتاريخ والجغرافيا ، ولنختر لهذه الدراسة خير من عندنا من فرنسيين وترك وعلماء أزهر ، ولنخلص النية فى تعليم هؤلاء الطلبة ، فعليهم تتوقف النهضة ، وهم معقد الأمل .

هذا هو مشروع مدرسة الألسن كما تصوره الشيخ رفاعة ، وكما صادق

عليه محمد على باشا ، وصدر الأمر بإنشائها ، وأعدت عدتها ، وفتحت ، وتولى نظارتها « الشيخ رفاعة » .

٥

من يظن أن « خمارة شبت » كما يسميها العوام ، أو « فندق شبرد » كما يسميه المتعلمون اليوم هو الذى كان مدرسة الألسن ، حيث كان الشيخ رفاعة ومساعدوه وتلاميذه يخمّرون الخميرة الأولى للنهضة العلمية والأدبية ؟

ومن يظن وهو يمر الآن على هـذا النزْل أن له تاريخاً طويلاً ، وأن قد تقلبت عليه أوضاع شتى فتداول عليه الجـد والهزل ، واحتلته الأرستقراطية والديمقراطية ، وكان أحياناً حرماً آمنـاً لا يستطيع أن يقرب به أحد ، ثم كان كبرج بابل يرطن فيه بالفرنسية والإنجليزية والعربية والتركية ، وتدوّى فى أرجائه اللغات دوىّ النحل ، ثم أصبح مثابة لـكل أرستقراطى عابر . لقد كان بيتاً للأمير أحمد بك الدفتردار زوج الأميرة نازلى هانم كريمة محمد على باشا ، ثم مدرسة للألسن ، ثم جعله محمد على فندقاً للإنجليز ، ثم صار فندقاً لمن يشاء ، وهكذا الأماكن « تشقى كما تشقى الرجال وتسعد » ، فهذا البهو الفسيح كان يخطر فيه الشيخ رفاعة وحوله الطلبة يعرضون عليه مشاكلهم اللغوية ، وأحياناً يخطب فيهم فيجلجل صوته ، ثم كان يجلجل فيه صوت الجاز بند ، يرقص على نغماته مهفهفو الشبان ، مع الغيد الحسان .

***

سافر الشيخ إلى الأقاليم يفتش فى المـكاتب عن نجباء التلاميذ يختار منهم من يصلح ليكونوا تلاميذ لمدرسة الألسن ، وكانت قد انتشرت هذه المـكاتب فى الأرياف ، وأسست على نظام جديد ، فيه شىء من الثقافة المدنية كالحساب

وما إليه ، وسميت « مكاتب الأرياف الأميرية » وبلغ عدد طلبتها خمسة عشر ألفاً ، اختار « الشيخ » منهم خمسين ، ولكن لوحظ أن أكثر من اختارهم من الصعيد ، فهل كان هذا « محسوبية » من الشيخ وعصبية لأهل بلده وإقليمه ؟ قد يكون ذلك ، فالمحسوبية داء قديم ، وكما يصح أن يفسر هذا التفسير السيء يصح أن يفسر تفسيراً آخر نبيلا ، وهو أن إقبال الناس على تعليم أبنائهم كان ضعيفاً ، وكثير ممن تعلموا فى ذلك العصر تعلموا بالإكراه ، وكان من يؤخذ ليتعلم يودّع بالصياح والعويل ، كما يودع من قُبِل فى الجندية اليوم ، وقد يقبل الناس أن يتعلم أبناؤهم فى مكاتب بلادهم ، أما أن يسافروا إلى مصر بعيدين عن أنظارهم ولا يعرفون عاقبة أمرهم ، فهذا مالا يقبلون ؛ والشيخ رفاعة صعيدى له فى قومه جاه ، وله فى بلده وما حوله حسن سمعة ، فالناس يطمئنون أن يسلموا أولادهم له ، وليس له من هــذه الوجاهة فى الوجه البحرى ما له فى الوجه القبلى ، فلعل علة كثرة الصعايدة فى الدفعة الأولى من تلاميذ مدرسة الألسن ، حتى إذا اطمأن الناس إلى هــذه المدرسة رأينا التلاميذ من الأقاليم المختلفة لا فرق بين صعيديهم وبحريهم .

خمسون تلميذاً داخلية فى مدرسة الألسن يأكلون ويشربون ويلبسون وينامون ويتعلمون على حساب الدولة ، ومعهم ثلاثة مدرسين فرنسيين ، ومدرسون من علماء الأزهر لتدريس اللغة العربية ، ومدرسون للمواد الأخرى وعلى رأسهم الشيخ رفاعة .

ليس من السهل إنشاء مدرسة كهذه ، فهى تسبب مشاكل لا تنتهى : طلبة من الأرياف « بعَبَلهم » ، لم يروا إلا زرعهم وضرعهم وبيتهم المتواضع الذى تنام فيه الجاموس والبقر بجوارهم ، وفيهم المتزوج وله أولاد ، وفيهم من لم يبلغ الحلم ، يدخلون فجأة هــذا القصر المنيف ، ويراد منهم أن يعيشوا عيشة نظامية

نظيفة ويجلسون أمام مسيو « بتيير » يتعلمون منه الفرنسية ! يا لها من معجزة ! والشيخ على الفرغلى الأنصارى يخلع حذاءه ويشمر ويتوضأ ، ويخلع جبته ويفرشها على الأرض ويصلى الظهر فى حجرة واحدة مع مسيو « ديزون » .

وأحمد عبيد الطحطاوى الطالب فى المدرسة يبصق على أرض الحجرة المصنوعة من « الباركيه » — عقليات مختلفة فى الطلبة ، وعقلية متباينة فى الأساتذة ، ويُطلَب من كل هذه العناصر المتناقضة أن تكوّن وحدة .

لا بأس ، فالشيخ رفاعة قادر على كل ذلك ، وقد مر بهذه الأدوار كلها وعرف عقلياتها ، فهو مستطيع مواجهتها ومعالجتها ، هو ملتقى العقليات المختلفة والتقاليد الاجتماعية المتباينة .

غريب أمر الشيخ فى المدرسة — رزقه الله صحة جيدة لا تمل ، ورزقه قلة النوم ، ورزقه الطبع الفرح المرح الذى يستعذب النكتة ويضحك لها من أعماق قلبه ويشارك فى صنعها ، بكل ذلك يملأ جو المدرسة ، هو أب رحيم لكل الطلبة ، وأخ كريم لكل الأساتذة . هو حركة دائمة لا تتقيد بميعاد ولا جرس ؛ يحلو له أحياناً أن يعقد درساً بعد العشاء أو فى ثلث الليل الأخير فيفعل والطلبة فى إقبال على التحصيل ، والأساتذة فى إقبال على الدرس .

فإذا نال الطلبة قسطا لا بأس به من الفرنسية والعربية مرنهم على الترجمة ، ولكن لا يمرنهم بموضوعات تكتب فى كراساتهم ثم تطرح ، بل فى كتب نافعة يترجمون منها ما استطاعوا ، فإذا وقفوا فى فهم جملة أو لم يستطيعوا ترجمتها رجعوا إلى الشيخ فساعدهم ، ثم عرضوا ما ترجموا على أستاذ اللغة العربية يصحح لغتهم ، وخاصة الشيخ محمد قطة العدوى ، فقد كان ساعده الأيمن فى هذه المدرسة بفضل ما منح من قدرة على التدريس بلغة سهلة ، وعبارة فصيحة وقدرته الفائقة على تصحيح عبارات الطلبة فيما يترجمون . فإذا أتموا الكتاب

أو الكتب روجعت ثم قدمت إلى المطبعة لتطبع ، فتكون أثراً خالداً .

فأنت يا أبا السعود أفندى ترجمْ لنا هذا الكتاب وسَمِّهِ « نظم اللآلى فى السلوك ، فيمن حكم فرنسا من الملوك » ؛ وأنت يا خليفة أفندى محمود ترجم لنا « إتحاف ملوك الزمان فى تاريخ شارلكان » ، فإذا فرغت منه فترجم « المُشرق فى المنطق » ؛ وأنت يا محمد أفندى مصطفى البَيَّاع ترجم لنا « مطالع الشموس فى وقائع كرلوس » ملك السويد ؛ وأنت يا أحمد أفندى عبيد ترجم لنا « الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر » وهكذا .

واسمعوا ما يقوله هذا الأخير فى كتابه ، لأنه يدل على منهج العمل : « كنت تحت إرشاد مدير مدرسة الألسن ، المؤيد برعاية الملك المبدى ، السيد رفاعة أفندى ، فأجاد تربيتى كغيرى ، حتى حسن حالى وسيرى ، وتعلمت بإرشاده اللغتين الفرنساوية والعربية ... فبعد أن رأى فى التعليم حسن حالى ، واجتهادى فى نيل المعالى بين أمثالى ، اقتضى رأيه المؤيد ، وحزمه المعضد ، أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ ، فاختار ملكا من ملوك الإفرنج تعلو همته على المريخ ، وهو تاريخ بطرس الأكبر ، الذى فضله أشهر من أن يذكر ، لمؤلفه الشهير المسمى ڤولتير ، الذى يعد بين أكابرهم أعظم حجة ، وإن كان عن الأديان بعيد المحجة ، فجاء التعريب بحمد الله على أحسن حال ، وأتم منوال ، وقد شرعت فى نقله من الفرنساوية إلى العربية ، مع إعانته لى فى حل مشكلاته ، وما عسر علىّ من غوامضه ومعضلاته ... وقد صرفت فى ترجمته على صعوبته الهمة ، وسهرت فى مطالعته وفهمه الليالى المدلهمة ... مع ما يضاف إلى ذلك من كون هذا التاريخ معدوداً من التواريخ السياسية المشحونة بالوقائع والحوادث البوليتيقية ، ومؤلفه من كبار المتفلسفين من العيسوية ، ومن عظماء فصحاء الدولة الفرنساوية ، ولا أقول مع ذلك إنه خلى من الخلل ، أو عَرِىّ من الخطل ، فإن ذلك ليس

فى طاقة الإنسان ، الجامع فى اشتقاقه حروف النسيان » .

وبعد سنوات تخرجت هذه الدفعة الأولى ، فشهدت مصر منها نموذجاً لم تشهده من قبل ، شباب متعلم لغة عربية ولغة أجنبية ، ومثقف ثقافة أدبية — جغرافية وتاريخية . وكل ذلك تعلّمه فى مصر لا فى أوروبا ، ولذلك تلقفتهم المصالح المختلفة التى تحتاج إلى هذا النمط من الموظفين ، فكنت ترى — فيما بعدُ — هؤلاء المتخرجين فى الدفعة الأولى ، يشغلون مناصب هامة مختلفة ، هذا عبد الله افندى أبو السعود أكبر رجال الترجمة فى مصر ، ومدرس التاريخ العام بدار العلوم ، وهذا محمد افندى عبد الرازق كاتب سر الحضرة الخديوية ، وهذا شحاتة عيسى افندى قد تخصص بعدُ فى العلوم الرياضية والحربية ، وكان ناظر مدرسة أركان حرب ، وهذا أحمد عبيد افندى وكيل مجلس التجار بالمحروسة ، وهذا حسن فهمى افندى وكيل السكك الحديدية بالأقطار الصعيدية ، وهذا السيد عثمان الدويتى القاضى ، وهذا مصطفى رضوان مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة الطب ، الخ الخ ، ولو رأيتهم يوم دخلوا المدرسة بجلابيبهم وسذاجتهم ورأيتهم يوم تخرجوا بعد سنوات قلائل ، لأخذ منك العجب كل مأخذ ، وهتفت بحياة « الشيخ رفاعة » .

وقد استفاد هو نفسه من هذه التجربة الأولى ، فأخذ يصلح الأخطاء ويوسّع الاختصاص وينوّع العمل .

فألحقت بمدرسة الألسن مدرسة تجهيزية تعد الطلبة للدخول بها بدل أبناء المكاتب ، وأدخلت اللغة الإنجليزية ضمن اللغات التى تدرس فيها ، وتوسع فى قبول الطلبة حتى بلغ من فيها مائة وخمسين طالباً ، وأنشئت بالمدرسة فروع مختلفة ، مدرسة فقه وشريعة إسلامية يدرس بهـا القانون الفرنساوى والفقه الإسلامى ، ومدرسة محاسبة ومدرسة إدارة أفرنجية ، وكل هـذه المدارس

يسوسها ويديرها الشيخ رفاعة ، ويُحل فيها المصريين أساتذة محل الأوربيين .

سبع عشرة سنة يعمل فى هذه المدارس كالنحلة لا يَملّ ، فأمور إدارية ، وقيام بترجمة كتب ، وإشراف على ما يترجمه غيره ، وفى كل حين يُضم إليه عمل آخر جديد ، فيعهد إليه الإشراف على جريدة الوقائع المصرية ، والكتبخانة الإفرنجية ، ومخزن عموم المدارس ، ويفتش على المدارس ، ويشرف على الامتحانات العامة فى آخر السنة ، ويحبّر الخطب تخطب فيها ، حتى كوّن جيلا جديداً هو — من غير شك — أثر مجهوده ونتيجة إخلاصه ، وتغير وجه مصر من الناحية العلمية والأدبية ، فجملة ما ألفه وترجمه هو وتلاميذه بين مطبوع وغير مطبوع ، نحو ألفى كتاب ، هى خميرة نهضتنا ، وعماد ثقافتنا . يدين له رجال الأدب بما كوّن لهم من أمثال إبراهيم بك مرزوق الناظم الناثر المشهور ، ومحمد عثمان جلال ، صاحب العيون اليواقظ ومترجم قصص لافونتين ، وقبول وورد جنة الخ ، وصالح مجدى ؛ ويدين له رجال القانون بما أخرج لهم من أمثال قدرى باشا مقنن الشريعة الإسلامية بكتبه الأحوال الشخصية ، وقانون العدل والإنصاف ، ومرشد الحيران ؛ ويدين له الرياضيون بأمثال محمد بك الشيمى وتآليفه فى الحساب والهندسة ، إلى ما لا يحصى من رجال الفكر فى كل فرع من فروع العلم .

***

زهت له الدنيا ، فهو ناجح فى عمله ، والولاة مقبلون عليه مقدرون لجهده ، والمنح تتوالى عليه ، فكلما تقدم تلاميذه ومنحوا ألقاباً لم يرض أولو الأمر إلا أن يمنحوه ألقاباً أعلى منهم ، حتى تقدم مرة بجزء آخر من ترجمة كتاب ملطبرون إلى محمد على باشا فمنحه رتبة ميرالاى ورفع مرتبه إلى ١٣٠٠٠ قرش صاغ فى الشهر ، ومنحه ٢٥٠ فداناً فى بلده طهطا إحساناً بإحسان .

ولكن الدنيا لا تدوم على حال ، والعيش — أبداً — حلو ومر ، « والدهر

ذو غلظة حيناً وذو لين » ؛ فهذا عباس باشا الأول يأتى فيقف حركة التعليم ويبطل المصانع والمعامل ، رغبة — فيما زعم — في الاقتصاد ، ولم يُبق للتعليم إلا مدارس قليلة جداً ، وكان فيما ألغى مدرسة الألسن والشيخ رفاعة ، وإذ كان الشيخ أكبر منبع للتعليم ، كان أحق الناس بالمقت ، وإذ كان أحب شيء إلى الشيخ العلم والتعليم ، فأبغض الناس إليه من يلغى العلم والتعليم . وجاء رجال السوء الذين يزينون للرؤساء كل ما يهوون ، ويخترعون المنطق لكل ما يرغبون ، فإذا قالوا أسود ، أتوا إليهم بألف دليل على أنه أسود ، وإذا قالوا أبيض ، أتوا إليهم بألف دليل على أنه أبيض ، وإذا قالوا أسود أبيض لم يعدموا ألف دليل آخر على أنه أسود أبيض . كالذى يروى أن طاهياً سأل سيده يوماً :

ماذا نطبخ اليوم ؟

السيد — والله لا أدرى ، أنطبخ باذنجانا ؟

الطاهى — الله — نعم ما ذكرت ، إنه لذيذ الطعم ، مفيد للجسم .

السيد — ولكنه يتعب معدتى :

الطاهى — صدقت ، ما أثقله ، وما أعسر هضمه ، وما أقل فائدته .

السيد — يا رجل ! إنك من لحظة تمدحه وتقر بفائدته ؟

الطاهى — اسمع يا سيدى — أنا خادمك أو خادم الباذنجان ؟

كذلك شم هؤلاء رغبة الوالى فى إقفال المدارس ، فاستطاعوا أن يجدوا ألف دليل على ضرر العلم وضرر التعليم ، وطعنوا فى الشيخ رفاعة بأنه قليل الفائدة ، عقيم الطريقة .

فإذا الأمر يصدر بنفيه إلى الخرطوم تحت ستار إنشاء مدرسة ابتدائية هناك وتعيينه ناظرها ومعه طائفة من المغضوب عليهم ولا الضالين . ولم يكن الأمر أمر اختيار كما هو شأننا اليوم ، نقبل الوظيفة أو نرفضها ، إنما الأمر أمر جزم

يقبل الوظيفة ، أو ينفى إلى أسوأ من الخرطوم بلا وظيفة .

الشيخ فى الخرطوم بعد باريس ، ولم تكن الخرطوم كما نعهد اليوم ، نظافة شوارع ، وجمال مساكن ، ومدنية وأبهة ، إنما كانت مدينة صغيرة لا عناية فيها بالصحة ، ولا وسائل متوفرة للعيش ، وهو ناظر مدرسة ابتدائية فى السودان بعد أن كان ناظر التعليم كله فى مصر ، وكل يوم يتخطف الموت أحد معاونيه ، حتى لم يبق إلا نصفهم أو أقل ، والشيخ يستغيث ولا مغيث ، فيشفى غليله فى قصائد الاستغاثة ، يستغيث أولا بالأمراء ، فإذا فشل استغاث بالأولياء والأنبياء ، ها هو يستغيث — أولا — بحسن باشا كتخدا مصر بقصيدة فى ستة وثمانين بيتاً ، يصف فيها الوشاة فيقول :

مهازيلُ الفضائل خادَعونى ... وهل فى حربهم يكبو جوادى ؟
وزُخْرُفُ قولِهم إذ موَّهوه ... على تزييفه نادَى المنادى
قياس مدارسى — قالوا — عقيم ... بمصر ، فما النتيجة من بعادى ؟

ويعجب كيف يقوم لمصر بمثل هذه الأعمال ثم يجازى مثل هذا الجزاء .

على عدد التواتر مُعْرَباتى ... تفى بفنونِ سِلْمٍ أو جهاد
ومَلْطبرونُ يشهدُ وهو عدل ... ومنتسكو يقرُّ بلا تمادى
ومغتَرفو قَراح فراتِ درسى ... قد اقترحوا سقاية كل صادى
ولاح لسان باريسٍ كشمس ... بقاهرة المعز على عمادى

***

رحلت بصفقه المغبون عنها ... وفضلى فى سواها فى المزاد
وما السودان قط مقام مثلى ... ولا سَلْماى فيه ولا سعادى

ويحز فى نفسه فرقة أولاده :

وقد فارقتُ أطفالا صغاراً ... بطهطا دون عَوْدى واعتيادى

أفكر فيهمو سرًّا وجهراً   ولا سَمَرى يطيب ولا رقادى
أريد وصالهم والدهر يأبى   مواصلتى ويطمع فى عنادى

وكان الشيخ ماكراً حقا ، فقد وضع القصيدة على وزن وقافية :

لقد أسمعتُ لو ناديت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادى

فلما لم يُجْدِهِ ذلك أخذ يخمِّس قصيدة لسيدى عبد الرحيم البرعى فى مدح النبي مطلعها :

خلِّ الغرام لصبٍّ دمعُه دمه   حيران توجِدُه الذكرى وتُعدمه

يقول فيها :

« رفاعة » يشتكى من عصبةٍ سَخِرت
لما رأتْ أبحر العرفان قد زخَرت
فارفع ظُلامة نفس عدلَك ادخرت
وهاك جوهر أبياتٍ بك افتخرت
جاءت إليك بخط الذنب ترقمه

أربع سنوات فى السودان كانت عليه كسِنِى يوسف ، ومع هذا يترجم فيها قصة « تلماك » ، ويعلّم فى مدرسته بعض أبناء السودان وأبناء الموظفين من المصريين ، وكانت مدرسته نواة لما أنشئ بعد من مدارس ، ولم ينقذه من نكبته إلا موت عباس وتولى سعيد .

## ٦

يعود الشيخ رفاعة من السودان إلى مصر فى أول عهد سعيد باشا ، ولكن لا تعود مدرسة الألسن — فسعيد لم يُعِد نهضة التعليم كما كانت فى عهد محمد على وإبراهيم ، وإن توسَّع بعض الشىء عما كان عليه فى عهد عباس الأول — وإنما يعود ناظراً ثانياً أو بعبارة أخرى وكيلا لمدرسة حربية كانت بالحوض المرصود ، وكان ناظرها سيف باشا أو سليمان باشا الفرنساوى — مؤسس الجيش المصرى ومنظمه ، وقائد الجيوش فى حروب محمد على وإبراهيم ، وصاحب التمثال فى الميدان المسمى باسمه — وكان جباراً عنيداً ، وقف أمام نابليون وهو ضابط فقال له : هل أنت سيف الذى حدثونى عن غطرسته ؟ فأجاب : إذا كان هذا كل ما تريد أن تقوله لى عدت إلى فرقتى ، ثم أعطى ظهره له ورجع إلى مكانه ، فرقّاه نابليون لجرأته ؛ وهو الذى عمل الأعمال الحربية العظيمة فى مصر ، من تمرين المماليك ثم تمرين المصريين حتى حذقوا الحرب وتفوقوا على الجيش العثمانى ؛ هذا هو الناظر الأول الذى عين ناظره الثانى الشيخ رفاعة فاعْجَبْ لهذا الوضع الذى لا مبرر له إلا أن الشيخ رفاعة « ميرالاى » .

ومع هذا فقد وسّع « الشيخ » نفوذه العلمى . فقد وضع مشروع مدرسة بالقلعة تدرس فيها الفنون الحربيــة والمدنية وأقره عليها سعيد باشا ، فاختار لها المدرسين ، وراعى فى كل ذلك مايشوّق الأهلين للإقبال عليها وإدخال أبنائهم فيها ؛ ثم امتد نفوذه فأعيد قلم الترجمة ، وهو أشبه شىء بمدرسة الألسن ، وجعل مشرفاً عليه ؛ وأحيلت عليه نظارة مدرسة المحاسبة والهندسة الملكية والمعمارجية ؛ وأحبه سعيد باشا وقربه جدا إليه ، واستمد الشيخ منه نفوذه يوجهه فى التعليم ونشره .

وهنا ذكر الشيخ عهده بالمستشرق دهساسى ، والمستشرق كوزن ، ومايقوم به المستشرقون من أعمال قيمة فى خدمة اللغة العربية بنشرهم أمهات الكتب ، فوضع مشروعا للعناية بتصحيح الكتب القديمة القيمة ، وطبعها بمطبعة بولاق ، وعرضه على سعيد باشا فأجازه ؛ وجرد الشيخ محمد قطة العدوى ، والشيخ إبراهيم الدسوقى ، والشيخ نصر الهورينى وغيرهم ، واشترك معهم فى اختيار الكتب التى تطبع والقيام على تصحيحها وطبعها ؛ فطبع بإرشاده تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب ، ومقامات الحريرى ، وغير ذلك من الكتب الدينية والأدبية والتاريخية ، فكان هذا دعامة أخرى من دعائم النهضة : تأسيس الكتب بعد تأسيس الرجال ؛ وأعانه على ذلك معرفته الواسعة بالكتب العربية وغرامه باقتنائها ، وإنشاؤه لنفسه مكتبة واسعة غنية بالنوادر.

* * *

لم تكن كل الأمور ميسرة كما نراها اليوم ، بل كان الطريق لكل عمل وعراً محفوفاً بالمصاعب ، فإنشاء مدرسة أو إلغاؤها منوطان بالوالى نفسه ، فلا بد من قصائد مديح ودعوات صالحات وملق أنيق ، تُقدَّم للوالى فى لفائف من حرير لينشئ مدرسة ، ولا بد فى أول الكتاب وآخره من ثناء مستطاب ، ودعاء للأنجال ، وتزلف لمدير المطبعة ونجله ليتم طبع الكتاب ، ولا بد ولا بد فى كل شىء من كل شىء ؛ والشيخ ماهر فى كل ذلك ، يعرف من أين تؤكل الكتف ، ويأتى البيوت من أبوابها ، فيسهل عسيرها ويحل عقدتها .

ومسائل العلم نفسها عسيرة كمسائل الولاة والأمراء ، فالعلم الحديث قد تقدم ، والعلم العربى قد وقف منذ سبعة قرون ، وهو إذا أراد ترجمة كتاب حديث اصطدم بالمصطلحات : ماذا منها عرفه القدماء وماذا منها لم يعرفوه ؛ وماذا يضع

من الكلمات لما لم يُعرف ، هل يضع الكلمات الأجنبية كما هى بعد صقلها صقلا عربيا ، أو يبحث لها عن لفظ عربى ؟

لقد حيَّره ذلك منذ كان فى باريس وعند ما عُهد إليه ترجمة كتاب فى « الفولكلور » أو عادات الشعوب ، سماه « قلائد المفاخر ، فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » ، يتمرن فيه على الترجمة ، فاصطدم بأسماء البلاد الإفرنجية والرجال والأشياء ، وكان هو لم يعرفها فيرجع إلى المعاجم التى تشرحها ، فبم يترجمها ؟

لقد اهتدى إلى فكرة لطيفة ، هى أن يجعل للكتاب ملحقاً يضمّنه كل الأسماء الإفرنجية التى وردت فى الكتاب ويرتبها على حسب حروف المعجم ، ويضع لها اسماً مأخوذاً من اللفظ الإفرنجى ، ويصقله صقلا عربيا : فالبرازيل « إبرزيلة » بسكون الموحّدة وكسر الراء بعدها مثناة تحتية فزاى مكسورة فلام فتاء تأنيث ، ثم يأخذ فى شرحها وتاريخها ؛ وأوميروس أو هوميروس ، ويضبط الكلمة ويعرّف به ؛ وكذلك البارومتر ، والسبكتاكل ويقال له التياترو اسم للعبة ببلاد الفرنج يلعب فيها تقليد سائر ما يقع ، ويأخذ فى شرحها فى نحو صفحة ، وهكذا .

ويود أن كل مترجم كتاب يجرد هذه المصطلحات ويعربها كما فعل ، ويجمعها فى أول الكتاب أو آخره حتى يكون للغة العربية بعد ذلك معجم جامع لكل المصطلحات الإفرنجية ، وأسماء البلاد والأشخاص والأشياء ؛ وهذا نص كلامه العجيب : « وقد شرحنا الكلمات الغريبة التى توجد فى هذا الكتاب وعرّبناها بأسهل ما يمكن التلفظ به ، حتى يمكن أن تصير على مدى الأيام دخيلة فى لغتنا كغيرها من الألفاظ المعرّبة عن الفارسية واليونانية ؛ ولو صنع نظير ذلك فى كل كتاب ترجم فى دولة أفندينا ولى النعم الأكرم

لا انتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء ، ونظمها فى قاموس مشتمل على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التى ليس لها مرادف أو مقابل فى لغة العرب ، فإن هذا مما يفيد التسهيل على الطلاب ، وبه تحصل الإعانة على فهم كل علم أو كتاب » .

أمنية تمناها ، وخطة أملاها منذ ١١٦ سنة ، لو سرنا عليها لحللنا أكثر مشا كل التعريب التى نعانيها اليوم .

وظل يكافح فى هذا الباب كفاح الأبطال ، فقد عُهد إليه منذ عودته بأعمال مختلفة تتصل بعلوم مختلفة ، فأخذ فى كل منها يواجه مشكلة مصطلحاتها ، ويضع ما ندين له ببعضها اليوم — يترجم فى الهندسة ويضع بعض مصطلحاتها ، وكذلك فى الطب ، والجغرافيا ، والتاريخ ؛ ويترجم القانون المدنى الفرنساوى ويضع مصطلحاته ، وهكذا .

***

بلغ «الشيخ» أوجَه فى عهد إسماعيل لما عادت الحركة العلمية قوية نشيطة ؛ بلغ أوجه المالى ، فقد منحه إسماعيل ٢٥٠ فدانا أخرى ، فبلغ مجموع ما مُنحه ٧٣٦ فدانا ، واشترى هو ٩٠٠ فدان أخرى ، فكان ما يملكه ١٦٣٦ فدانا ، غير العقارات العديدة فى القاهرة وطهطا ؛ فقد كان فى عهد يكافأ فيه الرجل النافع بما يوسّع رزقه ، ويوفر جهده لعمله ؛ ومع ذلك فهذا الباب أتفه مقوّماته ، فقد ذهب الشيخ رفاعة وأصبحت أطيانه الموقوفة مصدراً لنزاع لا ينتهى ، ولم يخلّده إلا مجهوده العلمى وآثاره الباقية .

ويبلغ أوجه العلمى ، فهو عضو من أعضاء « قومسيون المدارس » ، يضع برامجها ، ويشرف على التعليم والامتحان فيها ، ويقول فيه على باشا مبارك : « كانت مجامع الامتحان لا تزهو إلا به » ، وهو ينشئ أول مجلة مصرية هى

« مجلة روضة المدارس » ، يلتف حوله فى تحريرها أدباء مصر وعلماؤها .

ويرى أن ليست هناك كتب المدارس تصلح لمواجهة النهضة الجديدة والعقلية الحديثة ؛ فالكتب الأزهرية لا تناسب الطلبة ، والكتب الأدبية القديمة مملوءة بالغث والسمين ، والدنيا كلها تؤسس تعليمها على النعرة الوطنية ، والتعريف بمزايا الوطن وتاريخه ، وتستنهض همم الناشئين لخدمته ، ولا شىء من ذلك فى الكتب العربية .

إذن فليقم هو بكل هذه المهمات .

يؤلف كتاباً فى النحو على نمط جديد ، محتذياً فيه حذو الفرنسويين فى تسهيل أجروميتهم ، ويسميه « التحفة المكتبية » فى القواعد والأحكام والأصول النحوية بطريقة مرضية ، ويضع بعض القواعد فى شكل جداول يسهل حفظها .

ويضع لمطالعة المدارس كتاب « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » ، وهو أول كتاب عربى ينزع إلى الناحية الوطنية ، فيذكر معنى الوطن ، ومصر ومزاياها ؛ وتشغل ذهنه المنافع العامة فيخصص لها أكثر الكتاب ، فيذكر كيف تؤدَّى فى البلاد المتمدنة ، ونبذاً مما قام به بعض رجال المسلمين فى سبيل المنفعة العامة ، وواجب الأغنياء ، وكيف يربى الأولاد ، وفصولا فى الاقتصاد المصرى : من منابع الثروة وتقسيم الأعمال إلى منتجة للأموال وغير منتجة ؛ ويعود إلى المنافع العامة ويقسمها ويبين تاريخها فى الأمم وتاريخ مصر إزاءها إلى عهد محمد على ، ويذكر الإصلاحات التى عملها ، ثم يذكر الآمال التى يأملها فى المنافع العامة فى المستقبل .

ثم خاتمة فيما يجب للوطن الشريف على أبنائه من الأمور المستحسنة .

وهو — فى كل ذلك — يجمع بين ثقافته الإسلامية وثقافته الفرنسية .

ويتزع إسماعيل إلى تعليم البنات ، وتنشأ أول مدرسة لهن فى مصر ، ولا يرضى عن ذلك الرأىُ العام المصرى المتديِّن ، فيقف الشيخ رفاعة فى كتبه يحبذ تعليم البنات ، ويردّ حُجج المعارضين ، فيقول : « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً ، ويجعلهن بالمعارف أهلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى ، فيعظُمن فى قلوبهم ... وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأعمال والأشغال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوّتها وطاقتها ... وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء ، وافتعال الأقاويل ؛ فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ؛ وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال ، فهى مذمة عظيمة فى حق النساء ، فإن المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها ، وفيما يأكلون ويشربون ، ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وعندها ، وهكذا . وأما القول بأنه لا ينبغى تعليم النساء الكتابة ، وأنها مكروهة فى حقهن ارتكاناً على بعض الآثار ، فينبغى ألا يكون ذلك على عمومه ؛ ولا نظر إلى من قال إن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة ، فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية ... فمثل هذه الأقوال لا تفيد أن جميع النساء على هذه الصفات المذمومة ، وكم من نهى وردت به الآثار كمقاربة السلاطين والتحذير من الغنى ، وقد حمل كل ذلك على ما يعقبه شر وضرر محقق ؛ وتعليم البنات لا يتحقق ضرره ، وكيف ذلك وقد كان من أزواجه صلى الله عليه وسلم من يكتب ويقرأ ، كحفصة وعائشة . الخ الخ .

ألست ترى معى أن هذه نظرة صادقة ، ودعوة جريئة كانت قبل « قاسم

أمين » بنيف وثلاثين عاما ؟! وقد ملأ « الشيخ » هذا الفراغ بتأليف كتاب للمطالعة يصح أن يوضع فى يد الفتى والفتاة سماه « المرشد الأمين للبنات والبنين » .

***

وقد يكون « الشيخ » فى شعره ضعيفاً أشبه ما يكون بشعر الفقهاء ، وقد لا يبلغ فى نثره مبلغاً عالياً ، فكثيراً ما يتعثر فى السجع المتصنع ، ويشد أنواع البديع شدا ؛ وينبو ذوقه أحياناً فى كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » فى تعرضه لموضوعات لا يصح أن توضع فى يد البنات ، كفصله فى « البكارة والثيوبة » ونحو ذلك ؛ ولكن من العدل إذا قسناه أن نقيسه بزمنه ، وبمن قبله لا بمن بعده — فقد نشأ فى زمن يُعَدُّ فيه « مَن ملك الخط » كاتباً ، وعالم الأزهر الذى يقرأ « المطوّل » و « الأطول » فى البلاغة لا يحسن أن يكتب خطاباً لأمّه أو أبيه .

على أن قيمة « الشيخ » الكبرى ليست فى أسلوبه ، أو شاعريته أو ناثريته ، إنما هى فى أنه نشر العلم فى أوساط فسيحة ، وأسس نهضة علمية متوثّبة ، وفتح للمتعلمين آفاقاً واسعة لم يكن لهم بها عهد ، وذوّقهم معنى العلم الصحيح ، وشوّقهم للاستزادة منه ، وبصّرهم بعيوبهم ، وأبان المناهج لتكميل نقصهم ؛ وليس ذلك بقليل على رجل .

***

أربعة وأربعون عاما تقريباً منذ عاد من باريس وهو فى هذا العمل الدائب والحركة التى لا تنقطع فى التعليم والتأليف والترجمة والنشر ، حتى أوفى على الخامسة والسبعين ، وقد دهمه الدهر الذى لا يرحم ، فلفع بالشيب رأسه ، وأحنى قوسه .

وفى ليلة فاجأه مرض « البروستاتا » أو التهاب المثانة فعولج حتى شفى ، ثم

عاوده واشتد عليه ؛ وفى أول ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ ، ٢٩ مايو سنة ١٨٧٣ حصر بوله ، تسمم دمه ، أسلم لخالقه روحه — سرى البرق بنعيه — اهتزت مصر لموته ، احتشد لتشييع جنازته الألوف المؤلفة من رجال المعارف والأمراء والنبلاء وتلاميذ المدارس . وازدحمت الشوارع بالناس يردون بعض جميله : يذكره الأزهريون على أنه ابنهم ، والمتعلمون المدنيون على أنه أبوهم ، والجالية الفرنسية على أنه أخوهم ، والمصريون كلهم على أنه مؤسس نهضتهم ؛ وكلهم يتوجع لفقده ، ويشيد بذكره . وسار المشهد من منزله بالمهمشا ، حتى إذا قارب المدينة كان ينتظره شيخ الأزهر وعلماؤه وطلبته ، فاشتركوا فى تشييع الجنازة ، ووضع النعش فى القبلة الجديدة ، ولا يكون ذلك إلا لعظيم ، وأخذ الأفاضل فى رثائه بالقصائد والخطب ، ثم حمل إلى « بستان العلماء » ، حيث طويت صحيفته ، وبقيت آثاره خالدة تعظم وتتزايد وتتوالد — رحمه الله ، فقد صنع لأمته كثيراً .

# تقدير الجمال

عجب بعض الناس إذ ذكرت أن الشيخ رفاعة الطهطاوى — الرجل الأزهرى الصالح — تغزّل فى صوت النواقيس حينما رست سفينته على «نابولى» ؛ وعجب صديقى الدكتور إسحاق موسى الحسينى إذ سمع منى لأول مرة إعجابى بجمال عيون سيدة كانت تعلمنى ، ونقدنى بعض إخوانى فى لجنة التأليف أن أذكر مثل هذا فى بيئة أكثر فيها الخلعاء من ذكر الجمال وصور الجمال ، حتى استهتر الشباب وانغمسوا فى اللهو ، وأفرطوا فى التهتّك . قالوا — فالواجب يقضى أن نصدّهم عن هذا التيار ، ولا نجاريهم فى هذا الميدان ، ولا يأتى ذكر الجمال على لساننا ، فإنهم إذا اتجهوا للجمال لم يقفوا عند حد ، وجرفهم التيار حتى يغرقهم . وأرى أن هذا سوء تقدير للجمال ، وظلم له ؛ وكأن الفضيلة أن يكون الإنسان حجراً لا يأنس بجمال ، ولا ينفر من قبح ، وكأن من يقدره يرتكب جريمة يجب عليه أن يتستر منها . وفى رأيى أن شرور العالم كلها تنشأ من سوء تقدير الجمال لا من حسن تقديره ، والذين يستهترون و يفرطون فى اللهو إنما أتاهم ذلك من قِصَر نظر إلى الجمال ، لا من سعة نظر فيه ، ومن انحطاط فى فهمه لا من سموّ فى إدراكه — ومن الخطأ أن نعد الجمال من كماليات الحياة ، فإنه من ضرورياتها ، وأن نعده متعة من متع ساعات الكسل والفراغ ، فإنه لا بد أن يملأ حياتنا ؛ ومن قصر النظر أن نقصره على أنواع من الزينة ، وعلى ضروب من الأشكال ، وعلى أنماط من المظاهر ، فمداه أوسع من أن يحده حد ، وهو أعمق من أن يكتفى فيه بالسطح ، وهو أقوم من أن يكون ملهى فى لحظات من الحياة .

ما الدنيا إذا فقدت الجمال ، وفقدنا شعورنا بالجمال ؟ ! إنها — إذن — لا تستحق الحياة فيها ساعة ، فما يقوّمها و يجعلها تستحق البقاء إلا أن كل شيء فيها مُزج قصدُ النفع منه بقصد التجميل : « ولكم بها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون » .

لولا الجمال والشعور به لبقيت الكهوف والمغارات هى مساكن الإنسان الآن كما كانت مساكن الإنسان الأول ، ففيها كل الغناء فى أنها تقى الحر والبرد ، وتسد الحاجة، وما طوّرها هذا التطور البديع إلا القصد إلى التجميل ، وعن هذا نشأ فن المعمار وهندسة البناء والمدن ، ولولا الجمال لكانت البيوت حجارة مرصوصة فى غير نظام ولا ترتيب ، ولا فرق بين أعظم المدن وأحقر بيوت الفلاحين إلا الجمال والشعور به والقصد إليه .

ولولا الجمال ما كانت الحدائق والبساتين ، ولا كان حب الأشجار والأزهار ، ولا كان هناك فرق بين رائحة البنزين ورائحة الياسمين ، فما فرق بينهما إلا الشعور بالجمال ؛ بل ولا كان فرق بين لون الجراد والقنفذ ، ولون الطاووس والفَراش، ولانعدمت تماماً مملكة الألوان عما فيها من زينة و إبداع .

ولولا الجمال لاختفى كل فن ، فلا أدب ولا تصوير ، ولا نقش ولا موسيقى ، ولاختفى كل أسماء الفنانين ، ولما كان أبو نواس والمتنبى ، والجاحظ والحريرى ، وشكسبير وموليير وجوته ، ولا إسحاق الموصلى و بيتهوفن ، ولا رفائيل ، إلا أسماء ميتة لمدلولات ميتة ، ولكانت أصوات سوق النحاسين كموسيقى أشهر الموسيقيين ، ولكانت أصوات البوم والغربان كأصوات البلبل والكروان ؛ ولا كانت كتب إلا كتباً فى التجارة والحياة العملية ؛ بل وما كان الإنسان

إلا آلة حقيرة ، يعمل وينتج ويستهلك كآلة النسيج أو آلة الطباعة ، على شرط ألا يكون فى نتاجها أثر من آثار الزينة والجمال .

ولولا الشعور بالجمال ما كان فى كل ما حولنا من مناظر طبيعية جمال : فشروق الشمس وغروبها ، وبريق النجوم ولمعانها ، والبحار وأمواجها ، والسماء وزرقتها ، لا قيمة لها فى نظر فاقد الشعور بالجمال ، كما لا قيمة لها فى نظر العميان .

دقق النظر فيما شئت من مأكلك ومشربك وملبسك ومسكنك ، تر أن الاحتفاء فيها بالجمال أضعاف الاحتفاء فيها بالمنفعة ، ولولا ذلك لقنع من مأكله ببرشامة ، ومن ملبسه بما يقيه الحر والبرد من أى صنف ولون ، وعلى أى وضع ، وهكذا .

فإن أنت انتقلت من الحسيات إلى المعنويات ، رأيت جمالاً سامياً ، وحسناً فائقاً ، فللعدل جماله ، وللحق جماله ، وللتضحية جمالها ، وللشجاعة جمالها ؛ ولو أنت قدرت كل ذلك بميزان المنفعة وحدها لضاع منها أكبر قيمتها ، وكنت كمن يقدر الوردة الجميلة بثمنها ، والشجرة الجميلة بغلتها .

إن تقدم الإنسانية فى المدنية والحضارة ، والدين والعلم ، والاختراع والخلق ، يدين للشعور بالجمال أكثر من أى شىء آخر ، فلولاه ما تحرر الإنسان من سيطرة الطبيعة عليه ، ذلك أنه لما استيقظ فى نفسه الشعور بالجمال نظر إلى العالم حوله نظرة عجب وإعجاب ، فكان هذا مفتاح بحثه ، ومفتاح علمه ، ومفتاح فك القيود التى قيدته بها الطبيعة ، بل ومفتاح تحرره من القيود الثقيلة التى قيده بها النظام الاجتماعى من استبداد وظلم واعتساف . لقد تنبه شعور الإنسان بالجمال رويداً رويداً ، فرأى وجه الظلم قبيحاً فنفر منه ، ووجه الرق ذميما فاشمأز منه ، بقدر ما استجمل العدل والحرية والإخاء والمساواة ، فهانت عليه التضحية

فى سبيل جمالها؛ ولولا شعوره بهذا الجمال لكان هو والحيوان سواء . فلئن كانت السلطات المختلفة — دائماً — تنسج حبال الأغلال ، فالشعور بالجمال يعمل — دائماً — على نقض ما أبرمت ، وفك ما غلّت .

والفرق بين أمة راقية وأمة منحطة هو الشعور بالجمال ، هو ينظفها ، وهو يمدّنها ، وهو ينظم مدنها ، وهو يرقّى عقلها ، وهو الذى يحقق العدل فيها ، وهو الذى يحسن العلاقة بين أفرادها ، وبين أفرادها وحكوماتها ؛ فامنحنى الشعور بالجمال تمنحنى كل شىء ، واحرمنيه أحرم كل شىء — ولو أنصف رجال التربية لملئوا برامج المدارس بما يربّى الشعور بالجمال ، كما ملئوه بما يربى العقل — فى زعمهم — ورحم الله مربّيتى الإنجليزية ، فقد كان أكبر همّها أن تزين حجرتها بالأزهار الجميلة والصور البديعة ، ومن حين لآخر تغير أوضاعها حتى تجدّد ذوقها ؛ فإذا دخلتُ الحجرة ولم ألحظ ذلك التغيير ، ولم أبدأ الحديث بتحبيذه أو نقده ، صرخت فىّ قائلة : « يجب أن يكون لك عين فنيّة ، وأذن موسيقية » .

قد يفسد الدين رجال الدين ، فيضطهدون العلماء ، ويعذبون الفلاسفة ، ويقيمون محاكم التفتيش ، ويشعلون نار الحروب الصليبية ، ويتعصبون تعصباً زريّا ، ولا ينقذ الإنسانية من هذا كله إلا الشعور بالجمال ، يستقبح العصبية ، ويستجمل التسامح ، ويسمو بالدين عن السفاسف .

لقد تأسست الأديان — فيما تأسست — على شعور الإنسان بالجمال ، فالكنائس الفخمة البديعة بما فيها من فن ونقش وتصوير وموسيقى ، والكتب السماوية — بما فيها من شعر — كانت عاملاً كبيراً من عوامل الاستجابة للدين . والإسلام — مع بعده عن التصاوير والتماثيل ومحاربته لها — استخدم الشعور بالجمال من واد آخر ، فقد لفت النظر إلى مناظر الطبيعة الجميلة على أنها آية من آيات قدرة الله وعظمته وجلاله وجماله : « ألم تر إلى الإبل كيف خُلقت ، وإلى السماء

كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت » .
« والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاّها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفسٍ وما سوّاها » . « إنَّ فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناسَ ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماءِ والأرض لآيات لقوم يعقلون » . الخ .

ومعجزة الإسلام الكبرى تتوقف على الشعور بجمال أسلوب القرآن ، وفنّه فى أداء أغراضه وحسن تصويره لمعانيه ، وقصده مع هذا جمال البساطة ؛ وكم للبساطة من جمال !

ولما تقدم المسلمون فى الحضارة غذَّوا شعورهم بالجمال من الناحية الدينية أيضاً ، فجمّلوا المساجد ، وأدخلوا الموسيقى فى الأذان وقراءة القرآن .

ثم الصوفية من كل دين جعلوا أسمى أغراضهم الفناء فى الحب ، وهل هناك حب إلاّ لجمال ؟ إذا رقى الشعور بالجمال فى أمة ثارت على كل قبيح فى مادة أو معنى ، ولم تقنع إلا أن يحيط بها الجمال فى نفسها وفى بيتها وفى قوانينها وفى نظام حكومتها ، وفى كل شىء حولها .

وإذا سما الشعور بالجمال فى إنسان أدرك أن الفضيلة فضيلة لجمالها ، لا لأى صفة أخرى . فالجمال انسجام ، والقبح نشاز ؛ جمال الأدب فى انسجام لفظه مع معناه ، وانسجام ذلك كله مع الكاتب والقارئ ؛ وجمال الموسيقى فى انسجام الأصوات ، وانسجام الأصوات مع النفس ، والشعور المرهف بالجمال يرى الفضيلة

إنما كانت فضيلة لجمالها ، وجمالها أتى من انسجامها مع المجتمع ، وسيرها معه في طريق الرقي .

قد تصدر الفضيلة عن عرف وعادة ، فتكون عرضة للخطأ والفساد ، ككل عرف وعادة ؛ وقد تصدر عن عقل فيحسب العقل ما في العمل من خير وشر ، ولذة وألم ، ومنفعة ومضرة ، فيكون شأنها شأن كل أحكام العقل فاترة جامدة ، عرضة لأن يلعب بها المنطق الذي يستطيع أن يبرهن على الشيء ونقيضه ؛ إنما القيمة الحقة للفضيلة في أنها تصدر عن عشق وهيام ، ولا عشق ولا هيام إلا عن شعور بالجمال — أمثال هؤلاء هم الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم لعقيدتهم وفضيلتهم وحريتهم ، ولولا العشق ما كانت التضحية ، ولولا الجمال ما كان العشق .

أفبعد هذا كله — يا أخي — تنكر على شعوري بالجمال ، وتنصحني بستره ؟!

# في الهواء الطلق

## ٥

كانت رحلتنا هذه المرة إلى «الأهرام» في ليلة اكتمل فيها البدر، يصبغ العالَم بلونه الزاهي الجميل، وامتلأ الوادي بفيضان النيل، فكان في ضوء القمر فضة مذابة، ورَقّ النسيم وراقَ الجو، فكان كل ذلك متعة النفس وجلاء القلب.

وكنا أربعة خامسنا عالمنا، قد تخصص في علم النفس، ودرسه في مصر وفي أوربا، وفي المدارس النظرية والمدارس العملية، وشغف به حتى شغله عن كل شيء؛ فهو قليل الكلام إلا إذا عرض شيء نفساني، فهو يتدفق ويتدفق؛ وإذا تحدثنا في شخصية من الشخصيات السياسية أو المالية أو العلمية، أخذ يحللها نفسياً، ويرجع مظاهرها إلى عناصرها الأولى، كما نحلل نحن عدداً حسابياً كبيراً إلى عوامله الأولية. وإذا روينا حادثة اجتماعية حدثت، أخذ يشرّحها وينظر في أعماقها ودقائقها، كأن هذا العلم وضع على عينيه «مكرسكوباً» دقيقاً.

قال له أحدنا: يا دكتور، هل لك في هذا الجو الهادئ الجميل أن تحلّلنا، وتشرّح لنا نفوسنا، وتسلّط علينا علمك ومكرسكوبك، وتقرأ لنا نفوسنا كما يقرأ عالِم الكف أكفنا، فهذا درس عملي لذيذ، وفرصة سانحة تكشف لنا كثيراً من نفوسنا، وقد تفيدنا في أخلاقنا.

الدكتور — لا شك أن هذا عمل لذيذ مفيد، وحقيقة إنها لفرصة سانحة، فقد كنتم أصدقائي منذ صباي، واطّلعت على نفوسكم وتصرفاتكم في المواقف المختلفة، واختزنت منها الشيء الكثير في ذاكرتي، مما يسهل لي الحكم عليكم؛ ولكني أخشى أن أغضبكم أو أُغضب بعضكم، فكشف النفس أمر لا يستحب

كـكـثـف الجسم ، وقد يحسن أن يكون ذلك حديثاً منفرداً مع كل منـكم ، حتى لايطلع عليه الآخرون فيألم لذلك ؛ والناس جميعا فى كل مكان يودون أن يظهروا بمظهر الـكمال ، وتعرية نفوسهم كشف لعوراتهم ، والناس فى مصر أشد حساسية فى ذلك ، فهم يكرهون النقد، ويكرهون الناقد أكثر من غيرهم ، ولذلك ضعف النقد ، ورَكن الناقد إلى الســلامة ، سواء فى ذلك النقد السياسى والأدبى والاجتماعى . ولما عدت إلى مصر من أوربا أدركت هذا المعنى فى وضوح ؛ فقد بدأت أنقد فى مصر كما كنت أنقد فى أوربا ، فصُدمت صدمة قوية عنيفة جعلتنى أتردد فى النقد . ولا أدرى سبب ما رأيت من تأخر النقد ، فقد كان النقّاد فى مصر أقدر وأجرأ منهم اليوم ، ولا يصح تعليل ذلك بالحرب و إعلان الأحكام العرفية ، فإن هذا إذا صدق فى السياسة لم يصدق فى الأدب والفن ، وحتى قُبيل الحرب لم نـكن فى هذا الباب خيراً منا الآن .

( ا ) — كيف لا تدرى السبب — يا دكتور — وأنت متخصص فى علم النفس الفردى والاجتماعى ، ولا شك أنك صادفت مثل هذه الأعراض وحللتها وشرحتها .

الدكتور — ليس الأمر أمام العالِم بهذه السهولة ، فعالَم النفوس من أعقد العوالم وأدقها ، وفى كثير من الأحيان كانت تُعرَض علينا حالات فردية كنا نحار فى تفسيرها — أنا ومن يعمل معى من أساتذتى وزملائى — ونذهب فيها كل مذهب ، وأخيراً نقرر عجزنا عن حلها . هذا فى حالة نفسية فردية ، فكيف فى حالة اجتماعية ! ولـكن — على العموم — يخيل إلىّ أن سبب ضعف النقد فى مصر وغضب المنقودين يرجع إلى أن رقى الثقافة العامة فى أوربا جعلتهم يدركون أن كل فرد له مزاياه وعيوبه ، فإذا كشفت عيوب شخص فلا بأس ، فهذا أمر طبيعى ؛ ثم فشو الروح الرياضى فى الأمم جعلتهم فى ألعابهم يتلقون الضربات

فى سماحة ، ويتلقون النقد فى سماحة مثلها ؛ ثم إن معدل « مركّب النقص » فى مصر أكبر منه فى أوربا ، ولذلك كان النقد يزيد فى المنقود هنا شعوراً بهذا النقص ، فيغضب ويتألم ، ألا ترى أن الرجل الواثق بنفسه لا يؤلمه النقد كما يؤلم من فقد الثقة بنفسه ، وهكذا ؟!

( ا ) — لكن هذا يا دكتور يصح أن يكون سبباً فى ضعف النقد فى مصر عنه فى أوربا ، ولكن لا يعلل ضعف النقد فى مصر عنه فى مصر أيضاً منذ سنوات .

الدكتور — هذا صحيح ، وفى ظنى أن هـذا يرجع إلى أسباب اجتماعية وتاريخية أكثر منه إلى أسباب نفسية ، وإن كانت هذه الأمور مرتبطة ببعضها ارتباطاً كبيراً ، فغلبة الرجعية ، وعدم استجابة جمهور الأمة لدعاة التجديد ، وغير ذلك من أسباب ليس هنا موضعها ، كانت سبباً فى ذلك .

( ا ) — قد خرجنا عن موضوعنا بعض الشىء ، فلنحلل نفوسنا ، ولك علينا عهد ألا نغضب ، وأنت من جانبك لا تتعمق فى مشرطك ، ولا تبالغ فى جرحك ، واستعمل الإيماء أحياناً ، والكناية أحياناً ، ففى ذلك كفاية .

(ح) — أما أنا فأنصحك أن تقول كل شىء عنى فى صراحة من غير تلميح ؛ فإن أنت مدحتنى وهُديت إلى محاسنى ومزاياى كان علمك صحيحاً وكلامك صحيحاً ، وإن ذممتنى ونقدتنى كان علمك سخيفاً وكلامك سخيفاً ؛ وأنا راض فى الحالين ، فالحكم عليك لا علىّ .

(ضحك الجميع) .

الدكتور — وليكن ، ولكن اسمحوا لى أن أتكلم كلاماً عاما بعض الأحيان ، وكل منكم يطبقه — إن شاء — على نفسه . ومن محاسن الصدف أنكم الأربعة تمثّلون أصناف الناس ونماذجهم الأصلية ؛ فأولا — « ا و ب » من النموذج الذى يسميه علماء النفس Introversion ، ولا أدرى كيف أسميه بالعربية ،

فمعناه الحرفى « تحويل الظاهر إلى الباطن » ، وهذا الصنف من الناس — عادة — من خصائصه أن يعيش فى نفسه أكثر مما يعيش فى خارجها ، يميل إلى الدرس والبحث ، وإذا غلب عليه هذا المزاج فهو أميل إلى الفلسفة والمكوف على أفلاطون وأرسطو وسبينوزا وأمثالهم ؛ ومن هذا الصنف أيضاً فريق المتصوفة الذين يغرقون فى أنفسهم ويحللونها ويشرحون مقاماتهم وأحوالهم ، هم — عادة — خجولون فى أوساطهم ، يكرهون المجتمعات والحفلات الصاخبة ، يشعرون شعوراً بالغاً بالألم التافه ، ولا يشعرون شعوراً عظيماً بالفرح العظيم ، يفضّلون أن يجلسوا فى حجراتهم يحلون مشكلة اجتماعية أو نظرية رياضية على شهود ألعاب رياضية أو حفلة موسيقية .

وأما « ح و ى » فمن الصنف الآخر الذى يسميه علماء النفس أيضاً «Extraversion» ومعناه الحرفى « تحويل الباطن إلى الظاهر » ، وهذا الصنف من الناس — عادة — لا يستطيعون الصبر على الخلو إلى أنفسهم مدة طويلة ، ولا يستطيعون أن يصبروا على البحث العميق الطويل ، يحبون الناس واجتماعاتهم ، وقد يشتركون فى عمل الحفلات والولائم والإعداد لها ، ويحبّون الاشتراك فى النوادى ، يلفتون الأنظار إليهم فى تصرفاتهم ، ويحبون الظهور ، وأن يُكتب اسمهم فى الجرائد دائماً — يكرهون الفلسفة واسمها ، ويكرهون العزلة ؛ ويحبون من الروايات الكوميديا ويكرهون التراجيديا ، ويعجبهم من الموسيقى النغمات المرحة ولا تعجبهم النغمات الحزينة ، وهكذا .

ومنشأ ذلك خلقة وطبيعة وظروف أكثر منها أى شىء آخر .

أتذكر يا فلان (١) أنك كنت ضعيفاً فى صغرك ، لا تشترك مع الأطفال فى لعبك ! أولا تذكر يوم كنا فى المدرسة الثانوية معاً ، وكان اخواننا فى الفصل يطلقون عليك لقب « مالك الحزين » ، وقد نما هذا الشعور عندك ، فطلقت

الجمعيات ، واحتضنت الكتب ، وشعرت بمركّب النقص عندك ، فمنحتك الطبيعة « التعويض » ، وكان هذا التعويض أن تخلق من نفسك عالماً غير العالم الخارجي تَسْبح فيه ، ثم نمت عقليتك على حساب الملكات الأخرى ، وعلى حساب الاشتراك مع الأصحاب فى الألعاب والحفلات ، فتفوّقت على زملائك فى العلم والعقل ، وضعفت عنهم فى المواهب الأخرى : فى الألعاب الرياضية ، فى الحفلات السارة ، فى الأعمال الاجتماعية ؛ ولتُرْضى نفسك بهذا التعويض قوّمت الحياة العقلية أكبر من قيمتها ، كما قومت الأنواع الأخرى من الحياة أقل من قيمتها ، ولم تكتف بذلك ، بل سبحتَ فى عالم من الخيال الفلسفى ، وجملت مَثَلك فى الحياة عزلة عن الحياة العملية إلى حياة فكرية مجردة تسخَر فيها بحياة الناس العملية — حتى إنّا لما دعوناك إلى هذه الرحلة معنا أتيت بضغط يشبه الإكراه . أليس كذلك ؟

وعلى العكس من ذلك أخونا (ح) ، فقد نشأ — كما أعرف وتعرفون — فى صحة جيدة ووسط مُوَاتٍ ، ولما كان معنا فى المدرسة الثانوية كان رئيس فرقة الكرة ، وكنا إذا فكرنا فى حفلة فهو منظّمها ، وهو المُهرّج فيها ، وكان لا يحتبس فى بيته للمذاكرة إلا عند الضرورة القصوى ؛ فلما أتم دراسته كان — كما ترون — رجلاً يعرف الدنيا ، ويلعب بالبيضة والحجر كما يقولون ، لا يعترف بالهزيمة إذا كانت ، يلعب بالحياة كما كان يلعب الكرة فى مدرسته ، إذا غُلِبت فرقته مرة ضحك ، واستعد أن يغلِب فى المرة القادمة ؛ وبينما أخونا « ا » يُحَضّر درساً فى حجرته فى نظرية « الأوساط » عند أرسطو ، إذا بأخينا « ح » يُطَبّق نظرية « الأوساط » فى حفلة رقص .

(ضحك من الجميع) .

( ا ) — إذن فما رأيك فى أخينا « ء » ، وأخينا « ب » ، فقد نسيتهما وصببت كل كلامك على « ا » و « حـ » .

الدكتور — الواقع أنى لم أنسهما ، ولكن بدأت بالكلام فى « ا » و « حـ » لأنهما نموذجان متقابلان يشرحان فكرتى فى وضوح ، وباقى إخواننا ليسوا إلا صورة مكبرة أو مصغرة منهما ، أو ملوّنة لوناً آخر غير لونهما ، ولكن الأساس واحد .

فأخونا « ء » عكس أخينا « ا » ، أخونا « ا » مصاب بمركّب النقص ، وأخونا « ء » مصاب « بمركب التسامى » ، وكلاهما عيب ، ومركب التسامى فى نظر علماء النفس ليس إلا دخاناً كثيفاً يلُفّ مركب النقص . فالمصاب بمركب التسامى تظهر عليه أعراض معينة ، فهو يشعر بنقصه ، ولكنه يمنع الناس أن يدركوها كما يدركها هو ، ووسيلة ذلك الظهور بالتسامى والظهور بمظهر العظمة ، ألا ترى أن الكلب الكبير حقاً ، العظيم حقاً ، لا ينبح إلا عند الضرورة ، وأما الكلب الصغير الحقير فينبح ويقفز لأتفه الأشياء يعلن بذلك عن نفسه ، ويغطى شعوره بنقصه ؟! كذلك الرجل العظيم حقاً لا يفخر بعظمته ، لأنه يشعر أن أعماله كافية فى التعبير عنه ؛ والمرأة الواثقة بجمالها لا تبالغ فى حليها وزينتها كما تبالغ من شعرت فى نفسها بشىء من العيب أو القبح ؛ والغنىّ الكبير العريق فى الغنى لا يتظاهر بما يتظاهر به « المُحدَث فى الغنى » ؛ وهكذا كل شاعر بنقص فى ناحية من النواحى يحتاج إلى عمل إشارات كثيرة تجعل الناس يؤمنون به ولا يطلعون على عيبه ، شأنهم فى ذلك شأن الطفل الصغير يشعر بالخوف فيأتى بإشارات وحركات يتظاهر فيها بشجاعته . ألا ترون أن صاحبنا يحاول أن يفرض رأيه علينا فرضاً ، ولا يسمح لأحد أن يقترح رأياً يجانبه ، ويريد أن يشعرنا دائماً بشخصه ، وهو الذى اقترح رحلتنا اليوم ونفذها . لا يحاسب نفسه

كثيراً على تصرفه ولا على من اجتاحهم أثناء سيره ، يضحينا دائماً لطموحه ، ويشك فى قيمة الناس فيكتسحهم !؟

(ى) — كلب فى عينك قليل الأدب ، لم يبق إلا أن تمثلنى بالكلب ، وما الكلب إلا أنت وعلمكَ الفارغ ، كلمات تحفظها وتطبقها على ما يصلح لها وما لا يصلح ، وشقشقة ألفاظ من مركب النقص ومركب التسامى لا حقيقة وراءها ؛ إن كنت متكلماً حقاً ، فحلل لنا نفسك وبيّن علاقتها بالكلب .

الدكتور — آسف كل الأسف ، وهذا ما كنت أخشاه من أول الأمر ، ولكن ما كنت أتوقع أن يبلغ الأمر هذا المبلغ ، فما ذنب طبيب إذا عُرِض عليه مريض فرأى عنده سرطانا ؟ أيكون منصفاً إذا قال إنه ورم بسيط ، ولكنى نسيت أمراً تعلمته ، وهو أن الإنسان لا يسمح لطبيب النفس أن يشرّحه ويعيّن مرضه كما يسمح لطبيب الجسم ، ولهذا سبب ليس محله الآن ، وكل ما أقوله إنى آسف ومعتذر .

(ا) غلطتك يا دكتور ليس فى التشخيص ، ولا فى الشرح ، ولكن فى أنك قد فاتك التعبير الرقيق والتشبيه الفنىّ ، فقد كان يمكنك التعبير عن هذا المعنى تعبيراً أرق ؛ وأنت يا « ى » ليس لك الحق فى الغضب ، فقد تعاقدنا أول الأمر على ألا نغضب ، والجو أمامنا فسيح ، وفيضان النيل أمامنا بالغ منتهاه ، فخذ من الدكتور ما يعجبك ، وارم ما لا يعجبك فى النيل أو فى الهواء الطلق .

(الجميع) — وهو كذلك . فأكمل لنا « ب » ، وبذلك ينتهى الحديث فى صفاء .

الدكتور — أما أخونا « ب » ، فهداه الغرق فى نفسه إلى النزعة الدينية ، نشأ مرهف الحس فى وسط كثير التديُّن ، ولستُ أنسى والده وصلاحه وكثرة صلاته وصيامه ، وامتلاءه عقيدة بحقارة الدنيا ونعيمها ، وكثرة ذكره للموت ، وتطلعه لحياة أخرى فيها الكمال المطلق ؛ وفى هذا الوسط نشأ أخونا « ب » فنما

شعوره القوى بالدين ، وضعف اعتماده على وسائل الدنيا فقوى اعتماده على الله ، يعتقد أنه بَيْدَقٌ فى يد القـدَر . يرى أن النفس دائماً أمارَة بالسوء ، فهو يتطلع إلى الاستمداد من قوى روحية أخرى تعينه على السلوك المستقيم ، فهو ينال ملاذ الحياة بحذر ، ويخاف من النعيم أن يجره إلى الإثم ، ومن الإثم أن يجره إلى النار ، فحي ضميره وشعوره من هذه الناحية حتى تسلط على كل أفعاله ! فمقياس العمل عنده دائماً الجنة والنار ، أضعف نفسَه الخوفُ فهرب من أداء الواجبات الدنيوية ، وركَّز نظره إلى الحياة الأخرى يضع فيها آماله . ولا أريد أن أطيل حتى لا يغضب أيضاً .

فلعلـكم ترون من هـذا هذه الفرصة السعيدة التى جمعتنا ؛ وكان اجتماعنا أشبه باجتماع النماذج البشرية كاملة ، فمنا اثنان محكومان بعقلهما ، أحدهما محكوم بعقل منطقى فلسفى ، والآخر بعقل عملى ، ومنا اثنان محكومان بعواطفهما أحدهما محكوم بعواطف دينية ، والآخر بعواطف دنيوية .

ولـكن أرجو أخيراً ألا يكون أخونا « ى » لايزال غاضباً .

( ى ) — لا ! هذه فورة وقتية وزالت .

الدكتور — لعلى أستطيع فى فرصة أخرى أن أحدِّثك وحدك عن سيكولوجية الغضب ، والأسباب التى تدعوك إليه .

( ى ) — كلا ، لاأريدسيكولوجيتك ولاتحليلك ، فأنا أعرف بنفسى منك .

( ا ) — ولـكن يا دكتور ، هل هذه العناصر الأربعة أساسية غير قابلة للتحول ، أو يمكن تحويل عنصر إلى عنصر ؟

الدكتور — أرى أنه لا يمكن ذلك ، فلا يمكن تحويل « ا » إلى « ى » ، ولا « ب » إلى « ح » ، ولو استحال النحاس إلى ذهب . وكل ما فى الأمر أن هذه العناصر الأربعة ضرورية فى الحياة ، نافعة للمجتمع ، ولـكلٍّ غرض ،

وكل يتخذ لإدراك غرضه أدوات وآلات ووسائل . وما يصبو إليه الأخلاق والمصلح الاجتماعى ليس أن يحوّل الإنسان من عنصر إلى عنصر ، ولـكن أن يُبقى على غرضه وعنصره ، ويحاول أن يجعله يتخذ من الوسائل ما يتفق وصالح المجتمع ؛ فقد يتخذ صاحب الغرض وسائل خسيسة ضارة بمجتمعه لتحقيق غرضه ، فيأتى المصلح ويهيئ الفرص للناس أن يتخذوا لغرضهم وسائل شريفة تفيد المجتمع . فغرض الشهرة — مثلا — والقصد إلى التسامى ليس شراً فى ذاته ، ولـكن يتفق فى هذا العنصر بعض العظماء جداً وبعض المجرمين جداً : الأول اتخذ وسائله فى الشهرة الإتيان بأعمال تنفع أمته ، والثانى اتخذ وسائله الإجرام ، وشتان ما بينهما وإن اتحد العنصر . والنبى الذى يُبعث ، والمصلح الذى ينبغ ، من أكبر الرجال الذين يعرفون نفسيات الأتباع ، فيعرفون كيف يرشدون كلاً إلى الناحية التى خُلق عليها من غير أن يغيّروا من تكوينهم الأساسى ، وعنصرهم الأولى .

(ا) — ولـكن يا دكتور كيف تسنّى لهذه العناصر المتباينة أن تتصادق؟ فنحن كما خلقتنا ماء ونار ، وحرارة وبرودة ، وعذوبة وملوحة ، ومع ذلك نحن أصدقاء متحابون لا يستغنى بعضنا عن بعض ، ونشعر كأننا عروة لا ننفصم ، ووحدة لا تتجزأ ؛ إذا غضب أحدنا لا يلبث أن يصفو ، وكان مقتضى الظاهر أن نتخاصم وأن نتعادى ، لا أن نتصافى .

الدكتور — لهذا أيضاً سبب سيكولوجى عميق يرجع إلى أصول أبانها علماء تحليل النفس ، فهل أنتم على استعداد للبقاء هنا إلى الصباح ؟

(ا) — لا ، ولـكن على أن تعدنى أن نتقابل غداً وحدنا إذا عاق الآخرون عائق فتحدثنى عن سر ذلك !

الدكتور — وهو كذلك .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا ، وقد تسلطن القمر فى عرشه ، فركبنا سيارتنا وعدنا من حيث أتينا .

ولما عدت إلى بيتى أبيت إلا أن أقيد أهم ما كان ، حتى لايطويه النسيان .

٦

تلاقينا كما تواعدنا ، وكنتُ والدكتور وحدنا ، فلم أشأ أن أشعّب الحديث ، واقتحمت الموضوع اقتحاما ، فقلت : حدّثنى — إذن — كيف تكون الصداقة مع اختلاف الطباع والأمزجة والثقافة ؛ وقديماً قالوا : شبيه الشيء منجذب إليه — وقالوا : حدّثنى مَنْ صديقك أحدّثكَ مَنْ أنتَ ! ولذلك حيّرنى أمر جمعيتنا بالأمس ؛ فقد رأينا فيها متديناً ومَنْ لا يأبه بدين ، ورجلاً نظرياً ورجلاً عمليًا ، ورجلاً يحكّم بالعقل ، ورجلا يحكم بالعاطفة ، وحليماً وغضوباً ، ومتفلسفاً ورجل مال ؛ فكيف اتفق لهؤلاء أن يتصادقوا ، وأن تنعقد بينهم الألفة على اختلاف منازعهم ومشاربهم ؟

الدكتور — لقد علّمتنا التجارب أن الصداقة تفرخ تحت حرارة الإعجاب ، فما لم يكن إعجاب لم تكن صداقة ؛ فأنت تعجب بصديقك من ناحية ما ، أو من جملة نواح ، وهو كذلك . وهذا الإعجاب من شأنه توسيع النفس والشعور باللذة فيما تُعجب به ، فأنت تتغذّى من صديقك بالنواحى التى أُعجبتَ بها ، وتتلذذ هذا الغذاء ، وتشعر أن نفسك اتسعت لتتشرّب نفسه ، وهو يشعر هذا الشعور نحوك ؛ وقد تضحّى ببعض فوائدك ومسرّاتك من أجله ، ولكن هذه التضحية فى الواقع ليست إلاّ تضحية لذة للذة أكبر منها ؛ فأنت تُضحى — مثلا — بشيء من راحتك أو مالك لصديقك لتنعم بلذة أكبر منها ، وهى ما تتلذذه من مواضع الإعجاب ، أو ما تتلذذه من تضحية صديقك لك .

ثم هذا الإعجاب من جانب قد يكون مناقضاً للإعجاب من الجانب الآخر ، فيكون أدعى إلى التصادق ؛ فإذا كنت حسن الحديث ، وكان صديقك حسن الاستماع ، وأعجبت به لحسن استماعه ، وأعجب بك لحسن حديثك ، كان ذلك سبباً من أسباب الصداقة ، إذ تلاقت فيكما الرغبتان ، قد شعرت أنت بمركّب النقص عندك فى الرغبة الكلامية ، وأحس هو بمركب النقص فى الرغبة السكوتية ، فأعجب كل منكما بصاحبه لأنه يكمل نقصه . فليس صحيحاً دائما أن شبيه الشيء منجذب إليه ، بل قد يكون التناقض سبب الانجذاب ، كالكهرباء السالبة والموجبة ؛ ومثل هذا فى الحياة الواقعية كثير ، فكثيراً ما يقع اختيار الزوج على زوجته لأنه غضوب وهى حليمة ، أو هو مسرف وهى مقتصدة ، أوهو رزن وهى مرحة ، أو نحو ذلك أو عكس ذلك ثم يكون الزواج موفقاً ، وسبب التوفيق هذا التناقضُ ؛ ولو كان الزوجان غضوبين أو مسرفين أو رزينين ، لكانت عيشتهما لا تطاق ، فخير أن ينضم إلى النار ماء ، من أن ينضم إلى النار نار ؛ ومن هذا ترى — يا أخى — أن عجبك من اختلاف الأصدقاء فى الطبع والمزاج يساوى عجبك من تصورك أن الصداقة تتطلب الاتحاد فى الميول دائما .

فأساس الصداقة — كما ذكرتُ — الإعجاب ، وليس الاتحادَ فى موضوع الإعجاب ؛ ومصداق ذلك أنك ترى بعض الناس تغلب عليهم عقيدة أن الناس كلهم أشرار خائنون لا شرف لهم ، وأن ما يصدر عنهم مما يظن فيه الخير والمنفعة العامة ليس إلّا خداعا يسترون به أنانيتهم وحبهم لأنفسهم ، أمثال هؤلاء لا يستطيعون أن يصادِقوا لأنهم فقدوا الإعجاب ، ففقدوا بفقده الصداقة .

وقد تتم الصداقة بين شخصين أو أكثر ، وتتأكد الصداقة بتأكد الإعجاب ، فإذا فتر الإعجاب فترت الصداقة .

وليس دائما أن تكون الصداقة مبنية على الإعجاب بالنبل والفضل والأخلاق

الجمالية ؛ فقد تكون الصداقة صداقة شريرة مبنية على الإجرام ، أو على شرب الخمر ، أو تعاطى كيف من الكيوف ، وقد تكون صداقة نبيلة أساسها البطولة أو النبوغ أو الفضيلة ، وسواء كان هذا أو ذاك فالأساس هو الإعجاب ؛ فالمتصادقان على احتساء الخمر سبب صداقتهما إعجاب كلٍّ بمقدرة الآخر على السكر ، وتلذذه من أن يرى صاحبه عوناً له على بلوغ غايته ، ونحو ذلك .

ومما يساعد على الصداقة ويقوّيها الإيثار والتضحية ، ومما يضعفها الأثَرَة والأنانية ؛ فمحب نفسه جدا لا يمكن أن يصادق ، وتعليل ذلك متصل بما سبق ، وهو أن الأنانى جدا قلّ أن يرى خيراً إلا فى شخصه ، بل هو يكره ويمقت مواضع العظمة من غيره لأنها تشعره بنقص نفسه . ولذلك تجد خير أنواع الصداقة عند من تعاونوا على نوع من أنواع الخدمة الاجتماعية ، لأن لهم غرضاً واسعاً خارجا عن أشخاصهم ، وهو تحقيق نوع من الخير لمجتمعهم ؛ فكلما رأوا أن صاحباً لهم مصدر لهذا النفع زاد الإعجاب فتأكدت الصداقة .

وسكت الدكتور قليلا ، فقلت : إذا كان أساس الصداقة الإعجاب فقط ، وجب أن يتحقق كلما وجد ، وهذا ليس بصحيح ، فكثيراً ما أعجب بإنسان ولا تكون صداقة ، فأنا أعجب بعدل عمر بن الخطاب ، وبطولة خالد بن الوليد ، وفصاحة علىٍّ ونحو ذلك ، ثم لا تكون هناك صداقة ؛ بل كثيراً ما يكون الإعجاب بين الأحياء ولا صداقة ، فقد أعجب بعقل كاتب إنجليزى أو فرنسى ، أو أسلوبه أو بطولته ، وقد أعجب بإجادة ممثل على المسرح ، أو بجمال غانية ، أو بصوت مغنٍّ أو مغنية ثم لا تكون هناك معرفة فضلا عن صداقة . كم من الناس يعجبون بصوت (عبد الوهاب) أو (أم كلثوم) ، أو بكوكب من كواكب السينما ولا معرفة ولا صداقة ؛ وكم من المفكرين يعجبون « ببرنارد شو » ، أو « ويلز » أو

« برتراندرسل » أو نحوهم من الأدباء والمفكرين ، وكل ما بينهم هو صلة روحية لا أستطيع أن أسميها صداقة !

بل أستطيع أن أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأرى أن الإعجاب قد يكون ومعه الكراهية والنفور لا الصداقة ، فقد أعجب بفصاحة خطيب أو بلاغة أديب ، ولكنى أكرهه لثقل روحه ؛ وأعجب بقدرةٍ عظيم لكفايته المالية وأكرهه لأنى أعلم أنه مُرْتش . والخلاصة أن الإعجاب وحده لا يكفى فى تكوين الصداقة .

الدكتور — إن الجزء الأول من اعتراضك ، وهو الإعجاب بالأموات ، والإعجاب بالعظماء الأحياء عن بُعدٍ سهلٌ الرد عليه ، وربما كان سبب اعتراضك عدم التفاتك إلى نقطة هامة فيما ذكرت ، وهو أن يكون الإعجاب متبادلا من الجانبين ، فإنك إذا أعجبت بعمر أو خالد أو علىّ ، أو أعجبت ببرنارد شو أو ويلز ، أو عبد الوهاب أو أم كلثوم ، فليس هناك إعجاب متبادل ، وإنما هو إعجاب من جانب واحد ؛ وبذلك لا تتم الصداقة .

وأما اعتراضك بأنه قد يكون الإعجاب مع الكراهية ، فهو صحيح ، ولكنه يؤيد رأيى ، لأن كراهة شخص من بعض النواحى مع الإعجاب به من نواح أخرى تضعف قوة الإعجاب ، فالكراهية والإعجاب متقابلان ، والإعجاب يدعو إلى التصادق ، ثم تلتهم الكراهية هذا الإعجاب فتقف حائلا دون التصادق .

وأريد أن أزيد شيئاً أكمل به وجهة نظرى ، وهو أن الصداقة إذا تأسست على الإعجاب فيجب أن تغذّى دائماً ، وإلّا هزلت ثم ماتت ؛ غذاؤها اتصال الأصدقاء ليتجدد الإعجاب ، فإذا لم يتيسر فمبادلة الكتب أو تبادل الأحاديث التليفونية أو نحو ذلك من أنواع الاتصال ، لأنه إذا لم يكن اتصال قدُم الإعجاب وهَزُل حتى يُنسى وتُنسى معه الصداقة — والحديث المأثور : « تهادَوا تحابُّوا » لا يزال

صحيح المعنى ، وليست قيمة الهدية بين الأصدقاء فى ثمنها ، وإنما فيما يحيط بها من معان ؛ فتقديم الهدية معناه أنى لا زلت أذكرك ، وأنى على استعداد للتضحية فى سبيلك ، وأنى أوثرك بما تحب ، إلى غير ذلك من معانٍ نبيلة تؤكد الصداقة وتنميها ، فالصداقة شجرة وَرْدٍ لا بد من ريّها ، وإلا جفت .

وقد قرأت فى هـذا المعنى حكاية لطيفة حدثت ، وهو أن سيدة أوربية متزوجة من غنى كبير اعتاد أن يهديها فى عيد ذكرى زواجها وردة صفراء جميلة ، رمزاً إلى الحب والإعجاب ، فجاء عاماً من أعوامها وأهداها فى ذلك العيد صكا بعشرين ألف جنيه ، فغضبت جداً ، وألمت جداً ، إذ لم يهدها الوردة الصفراء ، لأنها رأت أن الوردة الصفراء — لا العشرين ألفاً — هى التى تغذى روحها ؛ فالمال عند غنيٍّ قد يُمنح صدقة ، وقد يؤجر به على عمل ، وقد يقدم لمائدة ميسر ؛ ولـكن الوردة الصفراء — رمز الحب — لا تعوّض ولا تقدر بمال ، ولا تقدم إلا من محب لمن يُحِبُّ ؛ وكيف يوزن الحب بالمال ، وهو إذا وضع فى كفة ووضعت الدنيا كلها فى الأخرى ما تأثرت الـكفة الأولى ؟!

قلت : لا يزال فى نفسى شىء مما ذكرت ، فقد تتوافر الشروط التى قلتَها من إعجاب متبادل ، وكثرة اتصال ونحو ذلك ، ثم لا تكون صداقة .

الدكتور — أرجو أن تنتظرنى حتى أتم عرض رأيى ، فإذا سكتُّ فإنما أفكر فى جمع ما يكمل فكرتى ، وقد يكون جواب اعتراضك فيما سأذكر ، فنستغنى عن الأخذ والرد ، لا سيما والموضوع عريض ، وتحديده والإلمام بكل أطرافه ليس أمراً هيناً ؛ فأشكال الصداقة متعددة ، وطباع الناس وأمزجتهم مختلفة ، وحصرها كلها تحت قاعدة عامة فى منتهى الصعوبة .

وما أريد أن أقوله الآن هو أنه يجب أن يُضاف إلى ما ذكرتُ أن يكون هناك تناغم بين المتصادقين ، وأن يكون هناك غرض واحد مشتركٌ فى شأن من

الشؤون ، ولستُ أُريد بالتناغم اتحاد الطبع أو المزاج ، فقد سبق أن بيَّنت خطأ ذلك ، وإنما أريد بالتناغم الانسجام ، كالانسجام بين الدف والمزمار والناى فى الجوقة الموسيقية ؛ بل إن هذا التناغم هو الذى يفسح الجو للصداقة أكثر مما يفسح لها الاتحاد ؛ ثم الاشتراك فى الغرض معناه أن يكون المتصادقين نوع من الغاية المتحدة يسعون لتحقيقها ، وتدعوهم هذه الغاية إلى تعلّم خُلُق الأخذ والعطاء ، وهو خلق لا بد منه فى تكوين الصداقة ؛ ويتجلّى هذا المعنى — معنى الاشتراك فى الغرض وتبادل الأخذ والعطاء — فى المتصادقين من حزب سياسى واحد ، أو حزب اجتماعى ، أو لجنة من لجان الخدمة العامة .

ثم إذا استعرضنا الصداقات وجدناها أشكالا وألوانا ، فهى كدرجات فى سلّم طويل ، تبتدئ بالمعرفة ، وتنتهى بالعشق والهيام ، وبين هاتين درجات لا عدّ لها ؛ ثم هناك طباع تُصادِق من أول نظرة ، وطباع متحفظة لا تصادق إلاّ ببطء ، وذلك أدعى أن تحتفظ أيضاً بصداقتها ببطء .

وإلى جانب ذلك كله هناك صديق تعتبره كالغذاء الروحى لا تستغنى عنه أبداً ، وتشعر أنك فى أشد الحاجة إليـه دائماً ، ويصعب عليك أن يمر اليوم ولا تراه ؛ وصديق كالفاكهة تحبها فى موسمها ، وتشتاق إليها حيناً بعد حين ؛ فهناك صديق تتلمسه إذا دعا داعى المرح ، وصديق آخر تتلمسه إذا دعا داعى الجد .

قلت : هل انتهيت ؟

الدكتور — تقريباً ، فإن شئت فاسأل .

قلت : كيف تعلل ما نرى من ظاهرة غريبة ، وهو أن صديق الصديق قد يكون صديقاً ، وأحياناً نرى صديقاً واحداً لشخصين متعادبين ؟

الدكتور — هذا صحيح ، وتعليله ليس عسيراً بعد الذى ذكرت ؛ ذلك أن نواحى الأخلاق فى الإنسان متشعبة متنوعة ، فإذا كان صديق الصديق مشتركا

معك فى نواحى الإعجاب المتبادل ، والتناغم والاهتمام بغرضك ، كان صديقاً لك أيضاً — ولكن يحدث أن يكون شخصان متماديان لعدم الإعجاب وعدم التناغم وعدم اتحاد الغرض ، ومع ذلك هما يلتقيان معك فى نقطة فيها تبادل الإعجاب ، كثلاث دوائر ، لا أدرى اسمها فى الهندسة ولكن أستطيع أن أرسمها لك هكذا

 ، فمساوى المساوى مساو ، ولكن ليس شبيه الشبيه شبيهاً دائماً ؛ فقد يخالف رجل رجلا فى البياض والسواد ، والطول والقصر ، والعقلية الفلسفية والعملية ، ولكنهما يلتقيان معك فى شيئين عندك لكل منهما شىء ؛ يلتقى الأول معك فى حب الفن ، وهو ليس عند الآخر ؛ ويلتقى الآخر معك فى نوع من الخدمة العامة لا يقوم بها الأول .

أواضح ما أقول ؟

قلت : نعم ! ولكن — يادكتور — ألا ترانا قد بعدنا بعض الشىء عن موضوعنا الأصلى ، وهو سؤالنا الأول : كيف تصادق هؤلاء المتخالفون !

الدكتور — بعد هذه القواعد العامة التى ذكرتها ، لم يبق إلا التطبيق على « ا » و « ب » و « ى » و « ح » ، وهذا ليس بالعسير عليك ، فتولهُ أنتَ بنفسك ، فقد أحسستُ التعب من طول تفكيرى فى هذا الموضوع ، وعرض نظرياته ، فتعال بعد ذلك نتحدث فيما لا يتعب الفكر .

قلت : أنا أحوج إلى هذا منك ؛ فأنت تتكلم فى موضوعك بعد أن مرنت عليه .

وتحدثنا فيما لا يهم القارئ . ثم افترقنا وذهنى مأخوذ بهذا الحديث المثير للتفكير .

# السُّوبَرْمَان

## أو

## الانسان الكامل

من قديم أولع الإنسان أن يتصور إنساناً أعلى ، إنساناً كاملا ، إذ رأى الإنسان الذى يشاهده ويعامله إنسانا ناقصاً ، فصور صوراً مختلفة كمل بها نواحى النقص المختلفة ؛ فآلهة اليونان صور للإنسان الكامل فى بعض نواحيه ، والجن يعملون أعمالا يتشوق الإنسان أن يعملها ولكنه لا يستطيعها فيتصور الجن تعملها ، والسندباد البحرى يقوم برحلات تصعب على الإنسان العادى فيتخيلها سهلة ميسرة لمثل السندباد .

ويأتى الزمان ببطل فى ناحية من نواحى العظمة ، فيفيض عليه الإنسان من خياله ما يكمل نقصه ؛ فعنترة بطل شجاع ولكن البطولة الواقعية لا تشبع شهوة الإنسان ، ولا تحقق رغبته كلها فى إنسان كامل فى الشجاعة ، فيخلع عليه من خياله ما يكمل هذا النقص ، فهو يبيد قبيلة بأسرها ويقف أمام الأعداء مهما كثر عددهم وتعددت أسلحتهم ؛ وكذلك فعل مع الأبطال فى النواحى المختلفة ، فكمل نقص الفكاهة فى «جحا» ، والحكمة عند زرادشت وبوذا ، والكرم عند حاتم ، ولم يقنع بما فعله نابليون فى الواقع فنسب إليه أعمالا من نسج خياله ؛ وإذا قرأ أن بعض الناس عمروا مائة سنة أو مائة وعشرين لم يكفه ذلك وغذى شهوته فى التعمير بنسبة العمر غير المعقول إلى بعض الأشخاص ، فمنهم من عُمِّر ثلاثمائة عام أو أكثر ؛ ولم يرضه طول الإنسان العادى فنسب لآدم وحواء

وعوج بن عنق طولا يبلغ مئات الأقدام حتى كان عوج بن عنق يشوى اللحم في الشمس من إفراطه فى الطول وهكذا .

وكان شأنهم فى المستقبل شأنهم فى الماضى ، فلم يرضهم الحاضر كيفما كان، ولم يرضهم الحاكم كيفما كان ، فهو مهما عدل لا بد أن يعتريه النقص الإنسانى فيظلم ولو بعض الظلم ، فتصوروا مدناً يسود فيها العدل التام ، وتخيلوا لذلك ما يسمى باليوتوبيا أو المدينة الفاضلة ، وليس هذا موضوع كلامنا ، ولكنهم تخيلوا أيضاً إنساناً كاملا يأتى فيحكم الأرض بالعدل الكامل كما يؤملون ، وعلى هذا نشأت فكرة المهدى المنتظر عند بعض المسلمين ، يأتى فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، وكان لها نظائر فى الأمم الأخرى .

وهكذا وضع — فى كل العصور — صورة لإنسان كامل ، إما من جميع نواحى الإنسان ، وإما من ناحية من نواحيه كالبطولة والحكمة والعدل والعفة .

وقد وُصف السوبَرْمان أوصافاً مختلفة تبعاً لاختلاف الواصفين وتصورهم له .

وكان الشرق من أكثر الناس ذكراً وإيماناً بالسوبَرْمان فى إيمانه بالأنبياء الذين هم صورة للإنسان الكامل ، اختارهم الله من بين خلقه ليكونوا صلة بينه وبينهم تبلغهم أوامره ونواهيه ، وهؤلاء الأنبياء بحكم رقيهم وسموهم يستطيعون أن يتلقوا عن الله ما لا يستطيعه سائر الخلق .

وكان للصوفية مجال كبير فى السوبرمان ، فدار الإنسان الكامل على لسانهم ، وكان أول من استعمله « ابن العربى » ، وألف عبد الكريم الجيلانى كتاباً بهذا العنوان « الإنسان الكامل » نحا فيه منحى الصوفية ؛ وخلاصة نظرهم أن الإنسان الكامل هو من يرقى بنفسه حتى يتصل بالله الذى خلق الإنسان على صورته ، يفنى فيه ويسلك فى حياته الطريق الموصل إلى ذلك ، وهذا الطريق هو الذى سار فيه الأنبياء والأولياء والصالحون ، وهو إذا وصل

إلى هذه الغاية استطاع أن يدرك ما لا يدركه الناس، ويعرف ما لا يعرفون، ويتذوق ما لا يتذوقون، ويتحرر من الحجاب الذى أسبلته عليه الحواس والشهوات، ولهم فى ذلك كلام طويل.

وكان الأوربيون قد انغمسوا فى دراسة الحياة الواقعة ونسوا الإنسان الكامل، حتى جاء نيتشه فألف كتابا فى السوبرْمان كان له من القوة والأثر ما أحيا الفكرة فى أوربا من جديد، حتى ظنوا الفكرة جديدة.

وكانت قد ذاعت فى الأفكار الأوربية نظرية النشوء والارتقاء وما يتبعها من الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح، فتأثرت النظرة إلى السوبرْمان بذلك، وتأثر نيتشه بها فيما كتب عنه.

لقد استنزل نيتشه «السوبرْمان» من السماء إلى الأرض، وجعله إنساناً يُكوَّن ويُربَّى ويرقى إلى أن يصل إلى الغاية.

كان الإنسان الكامل فى نظر «نيتشه» على العكس منه فى نظر الصوفية، هو فى نظر الصوفية روحانى إلهى سماوى، وهو فى نظر «نيتشه» أرضى مادى ملحد.

قد اشتق «نيتشه» صورة الإنسان الكامل من القوة، فالقوة عنده كل شىء، والإنسان الكامل أكبر فضائله الرجولة والشجاعة والإقدام، لا التواضع ولا الرحمة ولا تأنيب الضمير، وأسمى ما فى الإنسان الكامل قوة إرادته وثبات عاطفته، فهو إذا أراد غامر وجاهد ولم يرحم، وإذا نفَّذ ما أراد لم يندم؛ إن الإنسانية الكاملة تتجلى فى النشاط والقدرة والقوة فى كل أشكالها، والإنسان الكامل لا يحتقر الجسم بل لا بد أن ينميه ويقويه، إذ لا روحا قوية فى جسم ضعيف، وفلسفة الإنسان فى الحياة نتيجة حالته الجسمية ونتيجة نوع مأكله ومشربه وقوة هضمه. قوة الجسم وقوة العقل وقوة العاطفة هى مقومات الإنسان الكامل، ويجب أن يكون بين هذه القوى توازن تام، فلا تطغى إحداها بل تتوازن وتنسجم،

ولا يكون ذلك حتى يكون هناك غرض يسعى إليه الإنسان الكامل ، فهذا الغرض هو الذى يشرح مقدار الاعتدال بين القوى الثلاث أو الطغيان .

لهذا وجب فى نظره أن يقضى على كل دعوة دينية أو فلسفية تدعو إلى الرأفة والرحمة والعطف على الفقراء والمجرمين ، فالعاجز والمريض والجانى والضعيف والذليل والمتواضع كل هؤلاء رقع فى ثوب الأمة يجب أن يعمل على إزالتها لينسجم الثوب .

ويجب أن تكون غاية الأمة العمل على إيجاد هذا الإنسان الكامل ، وأن تجعل نفسها جسراً يخطو عليه ، ولا تهتم بالأوساط والضعفاء بمقدار ما تهتم بالسادة ، فإذا رأينا من تظهر عليه مخايل القوة والإنسانية الكاملة تداخلنا فى زواجه ممن تظهر عليها أيضاً مخايل القوة ، حتى يكون النتاج قويا كما نفعل فى انتخاب الحيوان واستيلاده ، ثم يجب أن تربى هذه الصفوة من الأناسىّ الكاملين فى مدرسة قاسية عنيفة ، يتحملون فيها الأعباء الثقال ، ولا ينعمون فيها بالترف والرفاهية ويتعلمون فيها قوة الإرادة ، وكيف يطيعون إذا أمروا ، وكيف يطاعون إذا أمروا ويجب ألا يكون فى المدرسة تنسّك ولا زهد ولا احتقار للجسد .

ولا بأس أن يضحّى العدد من العامة إذا اقتضى الأمر إيجاد هذه الصفوة الممتازة ، فهم الذين سيخلقون الأمة بعد — ولهذا كانت دعوته دعوة أرستقراطية ، ودعوة سيادة طبقة لا دعوة مساواة فى الحقوق والواجبات ، فيجب أن تتعاون الأمة على إيجاد غايتها ، وغايتها هى الإنسان الكامل ، ولذلك مجّد الحرب لأنها وسيلة من وسائل وجود الإنسان الكامل ، وهى خير لأن الخير فى نظره ما يزيد الشعور بالقوة ، والذى يميز الإنسان الكامل حبه للمغامرة والجهاد ، ولا شىء تتجلى فيه هذه المظاهر كالحرب .

لقد كان « نيتشه » وهو يصف الإنسان الكامل يستملى صورته من الإسكندر

الأكبر ونابليون وأمثالهما ، ويستكمل ما فيهما من نواحى الضعف ، ولهذا أشاد بذكر نابليون فى كتابه « هكذا قال زرادشت » أكثر من مرة فيقول : « ما أروع منظر نابليون وقد وهب الملايين أنفسهم له كى يتخذ منهم وسائل لأغراضه ، فإذا ما سقط منهم جندى تغنى باسم نابليون قبل أن يسلم الروح » ، ويقول فى موضع آخر : « ولقد أنتجت الثورة الفرنسية « نابليون » على عبثها وفوضاها » .

ولكن هل هذه الصورة هى صورة الإنسان الكامل حقا ؟ لقد يظهر أن تعاليم نيتشه سادت فى ألمانيا ، واتخذتها إنجيلا ، وصبغت التربية بصبغتها ، فمجدت الحرب كما مجدها نيتشه ، واتخذت ملايين البشر قنطرة للإنسان الكامل ، وآمنت بالقوة وجعلتها غرضاً ، فكانت هذه كلها مقدمة نتج عنها وعن أمثال هذه النزعات فى الأمم الأخرى ما يعانيه العالم اليوم .

فهذا « السوبرمان » كما وصفه نيتشه ومن جرى على أثره لم يحقق أنشودة الإنسانية .

عيب هذه النظرة أنها اشتقت صورة الإنسان الكامل من الواقع ، من نظرية النشوء والارتقاء ، من البحث فى علوم الاجتماع ، وبنت حكمها على أن الإنسان قد تم بناؤه على هذا الشكل ، وليس قابلا للتشكل أشكالا أخرى جديدة غير هذه الأشكال المألوفة ، مع أن نظرة إلى ماضى الإنسان وحاضره ترينا الفرق الكبير فى تشكله ، وعلى هذا فسيختلف مستقبله اختلافا كبيرا عن حاضره .

وعيب هذه النظرة أيضاً أنها اقتصرت على الجانب المادى والاجتماعى والاقتصادى فى الإنسان ، وعالجته كما يعالج العلماء الحجر والنبات والحيوان ، وتجاهلت أن فيه عنصراً آخر روحيا ناميا غير هذه العناصر المادية ؛ وكلما ارتقى

الإنسان أحس أن له جانبين ، جانباً ماديا يشارك فيه الجماد والنبات والحيوان ، وجانباً آخر روحيا يحققه كلما رقى ، وسيتحقق فى مستقبله أكثر من ماضيه ، ولهذا سيكون « الإنسان الكامل » فى نظره غير الذى رسمه نيتشه .

٢

لم يوفق نيتشه فى هذا التصوير ، وإن وفق فى إثارة هذا الموضوع ، وفى ثورته على الأخلاق القديمة ، وتوجيه الأنظار إلى البحث فى صفات الإنسان الكامل ، فإنه لا بد أن يكون للناس مثل أعلى يَصْبُون إليه ، ويطمحون أن تكون نفوسهم قريباً منه ، والأديان كلها عُنيت بتصويره فى أشخاص أنبيائها .

وكل من صوّر السوبرمان انتزعه من مخيلته ، ومنحه من الصفات ما يحب ، وجرّده مما يكره ، وكانوا يختلفون فى تصويره بساطة وتركيباً ، ويختلفون كذلك فى تصويره حسب ثقافتهم ورقى عقولهم ، فالناس فى حالتهم الأولى تصوّروه مارداً عملاقاً طويل العمر ، وهى نظرة ظاهرة البطلان ، وآخرون ، وإن تقدموا بعض الشىء ، منحوه كل صفات المدح الإيجابية ونفوا عنه كل صفات الذم السلبية ، وهذا التصوير أيضاً لا يمكن أن يوافق الواقع ، فقد أثبت علم النفس أن ذلك غير ممكن ، وأن العبقرية إنما تنمو فى بعض الفضائل على حساب فضائل أخرى ، وليس يمكن أن تنمو الفضائل كلها إلى درجة العبقرية فى خطوط متوازية متساوية .

ثم إن صفات الإنسان الكامل يجب أن تنحصر فى صفات الإنسان من حيث هو إنسان ، فالصفات التى يشاركه فيها غيره لا تصح أن تكون من خصائص الإنسان الكامل ؛ فالطول لا يصح أن يكون ميزته ، فمهما بلغ الإنسان لم يبلغ طول الجبال ؛ ولا طول العمر يصلح ، فهو مهما طال لا يبلغ

طول عمر الأحجار و بعض الأشجار ؛ والقوة الجسمية لا تصلح ، فهى مهما بلغت لا تبلغ قوة الأسد .

فصفات السوبرمان إنما يجب أن يبحث عنها فى حياته النفسية الباطنة ، فى ضميره ، فى نحو ذلك مما لا يشاركه فيه غيره .

يرى الأستاذ « أوسبنسكى » أن من أول شروطه أن يكون روحياً لا مادياً ، أن يكون فيه شىء من غموض التصوف ، أن يكون متصلا بنفسه بما وراء المادة ، فذلك يجعله ينظر إلى العالم المادى نظرة غنية خصبة ، فلا يصح أن يكون « السوبرمان » مجرد رجل أعمال كبير ، ولا فاتح عظيم ، ولا سياسى قدير ، ولا عالم متبحر ؛ بل يجب أن تكون فيه نفحة من الأولياء والقديسين ، أن يكون ملهماً ، أن يكون متصلا بدائرة الخفى والغيب والمجهول ، أن يكون فيه ميزات غير مألوفة وغير عادية — أن يكون بعيداً عما يقرره أصحاب نظرية النشوء والارتقاء من نظرهم للإنسان على أنه قرد راق ، ولا على أنه تاريخ متطور .

ويرى أن هذه النظرة الروحية حقة وجميلة ، وشرط أساسى للسوبرمان ، ولكن صد عنها الناس وصدفت عنها المدنية الحديثة والعلم الحديث ، لما شوهت به من عفاريت وخرافات ؛ ولكن هذا ليس عيباً فى الفكرة ، فالشر — دائماً — هو تحويل الشىء العظيم إلى شىء صغير حقير ، وليس هناك شر عظيم ، وليس الشر ولا الرذيلة إلا شيئاً عظيماً أفسده الناس بتخيلهم الباطل ، فخيالهم الباطل وتصورهم الفاسد هو الذى أفسد الدين العظيم ، والمدنية العظيمة ، والعلم العظيم ، ونشأ من هذا الخيال الفاسد دين فاسد ، ومدنية فاسدة ، وعلم فاسد .

ويقول : إن هذا الفساد يأتى على وجهين : إما من وضع الفاسد موضع الحق ، كوضع الحجر موضع الرغيف ، والحية موضع السمك ؛ وإما من تزيين

الباطل وزخرفته ، حتى يرى الناس جماله المزيف ويفتنون به ، ويغريهم جماله به فيظنونه حقاً .

إن هذا الاتصال بالمجهول صعبٌ تصوُّره وصعبٌ التعبير عنه ، إنما قارب التعبير عنه الفن من شعر وموسيقى وتصوير ، كما قارب التعبير عنه الدين والتصوف . وإذا كان من مقومات السوبرمان هذه النزعة الإلهامية أو التصوفية أو ما شئت فسمها ، كان من الواضح ألا يكفى فى تكوينه قوة العقل وقوة المنطق ، بل يجب أن يضاف إلى عقله الواسع الكبير عواطفه الواسعة العظيمة الراقية ، على شكل يصعب تصويره والتعبير عنه — ومن أجل هذا نراه ينزع إلى نوع من الحياة غير العادية وغير المألوفة للإنسان العاديّ ، كما نقرأ فى سيرة محمد والمسيح ، وبوذا ، يشغل تفكيرهم وعواطفهم أشياء لا تشغل الناس ، ويقدرون ويسرون ويألمون مما لا يأبه الناس له فى العادة .

ومن أجل هذا يساء فهمه ويساء تقديره ، فيرمى تارة بالجنون ، لأن فيه هذه النزعة المجهولة ، وبأنه ساحر أو مسحور ، ولا يستطيع أن يفهمه ولا يؤمن به من قصر نظره على المادة ، ولو كان عالماً مادياً ، أو أخلاقياً مادياً ، أو عالم نفس مادياً ، أو رجل أعمال لا يفهم من الحياة إلا المال والربح والخسارة أو نحو ذلك ؛ ولا يؤمن به إيماناً حقاً إلا من آمن بهذه النزعة الروحية ، وكان لديه استعداد لفهمها أو لديه أثارة منها .

ومن ناحية أخرى ، هذا السوبرمان بهذه النزعة الروحية عرضة لأن يقلَّد تقليداً مزيفاً عن طريق الشعوذة ، كما نص علينا من سحرة فرعون ، وكما روى التاريخ من ادعاء مسيلمة ، ونحوهم فى التاريخ كثير فى كل الأمم وفى كل الأديان . والتفرقة بين الصحيح والمزيف فى هذا الباب من أعقد الأمور ، لأن

المزيفين يستغلون جهل الناس بالمجهول فيكثرون من ادعائهم ، ويتقنون دعاويهم وتقليدهم .

هذا العنصر من الروحانية ومن الاتصال بالمجهول ، أو كما يسميه المسلمون الاتصال بالغيب ، يجعل فهمنا للسوبرمان من أعقد الأمور وأصعبها ، كما أن ما لحق بالفكرة من التزييف جعلت الفلاسفة المحدثين من الغربيين يعتبرون هذه الأفكار ضربا من السخف والتخريف ، ولكن ظهرت بوادر فلسفة تؤمن بها وتدرسها ، وترى ما ورد فى الأديان من المعجزات رموزاً لمعان نفسية .

ثم يجب ألا ننظر إلى السوبرمان على أنه فرد ترقى حتى صار إنساناً كاملا ؛ إنما يجب أن ننظر إليه من حيث هو خلاصة للإنسانية ، ومظهر لوجوهها المختلفة ، هو كثمرة الشجرة ، نتيجة لكل شىء فيها ، من جذورها وساقها وأغصانها وزهورها .

هو بطبيعة تكوينه وبطبيعة نزعاته ينظر إلى الأشياء على غير ما ينظر الناس ، قد أضيئت له الدنيا حين أظلمت أمام الناس ، كأنما منح عيناً جديدة لها خاصية فى النظر جديدة ، أو كأنما عيناه قد منحتا من الخواص ما لم تمنحه عيون الناس .

قال بعض المفكرين : هب أن السوبرمان كما ذكرت ، وأنه خلاصة حياتنا ، فما قيمته لنا ، وما نفعنا به ، وما علاقتنا بوجوده ؟ إننا على هذا الأساس لسنا إلا أرضاً ينبت فيها زهره ، وطيناً يصاغ منه تمثاله ، وفقراء ننظر إلى قصره البديع ، وفى ظلام ننظر — عن بعد — إلى ضوئه المحيط به ، نصرف حياتنا فى جمع معلومات عن هذا العالم وشؤونه ، ونرقى العلم فى جميع نواحيه بعد الكد والعناء ، ثم يأتى السوبرمان ويقول : إن علمكم ليس إلا ضلالاً وتافهاً وقليل القيمة ،

وأنه ينظر إلى العالم فيرى حقيقته بعينه الجديدة وملكاته الخاصة ؛ ثم تأتون وتشايعونه على رأيه !

ولكن مع إقرارنا بصعوبة إدراكنا للسوبرمان وفهم حقيقته ، فليس يعيش منفصلا عنا ، وعلاقتنا به علاقتنا بالشمس تسطع علينا ، وبالنور يضيء ظلامنا بشرط أن يكون لنا عيون تنتفع بضوئه ، وإذا عميت العيون فليس الذنب ذنب الضوء ، وهو ليس يحتقر العلم وصنوف المعارف ، بل يؤمن بها ويشجعها ، ولكنه يرى أن الجانب العلمي وحده — مهما صح واتسع — ليس يكفي لتفسير هذا العالم ، وأن العقل العلمي المنطقي على أحسن حالاته إنما يكفي في وضع تصميم بيت وبنائه ، في تحصيل الغذاء ونحوه ، في معرفة أن اثنين واثنين أربعة ، ونحوها ومركباتها ، في الأرض وجيولوجيتها وجغرافيتها ونحو ذلك ، في المعلومات السطحية للظواهر الطبيعية والكيماوية ، في كل ذلك يكون العقل المنطقي محتماً ومفيداً ، ولكن إذا تخطى هذه الدائرة المحدودة وأراد أن يحل المسائل الكبيرة من مشكلات هذا العالم : هل يسير العالم ويخبط في سيره خبط عشواء ، أو هو سائر على نظام مرسوم ؟ هل هو وحدة مترابطة متناغمة ، أو هو مجموعة من الأشياء المختلفة غير المتناغمة وإن كانت متلاصقة ؟ ما الحياة ؟ هل هي عارض من عوارض المادة كإفراز المعدة ، أو هي شيء وراء المادة ؟ هل الإنسان حر الفكر مختار أو هو مجبور مقيد بإرادة فوقه ؟ ماحقيقة هذا الكون ، وهل للكون وجود أو هو من نسج حواسنا وعقلنا ؟ هذه الأسئلة ومئات أمثالها حيّرت الإنسان قديماً وحديثاً ، وحاول أن يحلها بشتى الحلول فعجز ، وبالعقل المنطقي وحده ففشل ؛ فكان ذلك دليلا على أن العقل المنطقي وحده لا يكفي في فهم هذا الكون ، وكان لا بد أن يكون « السوبرمان » مسلحاً أيضاً بأكثر من سلاح المنطق ، ومزوداً بقوى للإدراك غير القوى العادية

المألوفة ، إن الحجرة يمكن رؤيتها من أوضاع مختلفة وأشكال مختلفة يختلف معها مقدار فهمنا لها . فكذلك نظر الناس إلى الحياة ، بعضهم لا ينظر إليها إلا بحواسه ، وبعضهم يضيف إلى الحواس عقله المنطق ، و بعضهم يضيف إلى ذلك كله ما منحه من قوة مدركة غير الحواس وغير المنطق ، هى قوة الإلهام أو ما شئت فسمها ، وهذا من أهم العناصر فى «السوبرمان» .

وسأتحدث عن بعض مميزات أخرى «للسوبرمان» فى فرصة أخرى إن شاء الله .

# عبرة الموت

[ مهداة لروح المرحوم الأستاذ عبد العزيز البشرى عقب وفاته ]

من قديم والإنسان أمام الموت مرتاع فزِع ، ومع أن الموت هو النتيجة الحتمية الطبيعية للحياة لم يتقدم الإنسان أى خطوة فى سبيل تهوين أمره وتلطيف وقعه ؛ ومع أنا إذا نظرنا إليه من الناحية الاجتماعية لا من الناحية الفردية وجدناه أمراً لا بد منه لحياة الجيل الحاضر والجيل المستقبل ، إذ الأرض يستحيل البقاء عليها والعيش فيها ، إذا لم يكن الموت — مع كل ذلك — فهذا التفكير المعقول لم يخفف الشعور بهول الموت ، وعدّه المصيبة الكبرى .

أمامه تنهار كل القيم : فالمال والجاه والمنصب واللذائذ تتضاءل كلها أمامه ، فيستهونها واجدها ، ويستقل شأنها فاقدها .

وفى كل يوم عبر ، فهو لا يرحم شاباً لشبابه ، ولا عظيما لعظمته ، ولا أباً لحنوه ، ولا صحيحاً لصحته — سواء عنده كل شىء ؛ فلو نظرتْ إليه الأرستقراطية لانقلبت شيوعية .

وكلما كان الميت أعظم ، كانت العبرة به أعظم ؛ ومن أجل ذلك وقف الناس وقفة اتعاظ بموت الجبابرة أمثال : الإسكندر ، ودارا ، وتيمورلنك ، ونيرون ، ونابليون ؛ إذ رأوا أن جبروتهم انهار أمام الموت كما ينهار السائل الفقير ، والمسكين الحقير ، فإذا الدنيا كلها ، والجبروت كله ، والعظمة كلها فقاقيع مسها الهواء فزالت ، وكأن الحياة لعبة فى الهواء ، أو كتابة على ماء .

وفى الأدب العربى قصة طريفة ، بعثرت فجمعناها ، ورويت روايات مختلفة فاخترنا خيرها ؛ وهى أن الإسكندر لما مات احتمع حول جثته جمع من الفلاسفة

من تلاميذ أرسطو ، فقال عظيمهم : ليقل كل منكم قولا يكون للخاصة معزيًا ، وللعامة واعظا .

فقام أحدهم وضرب بيده على التابوت وقال .

أيها المنطيق ما أخرسك ، أيها العزيز ما أذلك ، أيها القانص كيف وقعتَ موقع الصيد فى الشرك ؟ مَن هذا الذى يقنصك ؟

وقام ثان فقال :

هذا القوى الذى أصبح اليوم ضعيفاً ، والعزيز الذى أصبح اليوم ذليلا .

وقال ثالث :

قد كانت سيوفك لا تجفّ ، ونقمتك لا تُؤمَن ، ومدائنك لا ترام ، وعطاياك لا تبرح ، وضياؤك لا يخبو ؛ فأصبح ضوؤك قد خمد ، ونقمتك لا تخشى ، وعطاياك لا تُرجى ، وسيوفكْ لا تُنْتَضَى ، ومدائنك لاتُمنع .

وقال رابع :

هذا الذى كان للملوك قاهراً ، أصبح اليوم للسوقة مقهوراً .

وقال خامس :

قد كان صوتك مرهوباً ، وكان مُلْكك غالباً ، فأصبح الصوت قد انقطع ، والملك قد اتضع .

وقال سادس :

كنتَ كحلم نائم انقضى ، أو كظل غمام انجلى .

وقال سابع :

لئن كنتَ أمس لا يأمنك أحد ، لقد أصبحتَ اليوم وما يخافك أحد .

وقال ثامن :

هذه الدنيا الطويلة العريضة طويت فى ذراعين .

وقال تاسع :

كفى للعامة أسوة بموت الملوك ، وكفى الملوك عظة بموت العامة .

وقال عاشر :

قد حركنا الإسكندر بسكونه ، وأنطقنا بصمته .

وهذه القصة إن شك فيها المؤرخ ، لا يشك فى قيمتها الأديب والمعتبر .

* * *

وفشت هذه القصة وهذه الأقوال فى أوساط الفلاسفة من المسلمين ، فلما مات عضد الدولة البُوَيْهى ، وكان ما كان ، ضخامة ملك وعزة جاه ، وهو الذى لقب بشاهنشاه ؛ ولى المملكة وقد استولى الخراب عليها فعمّرها ، وانبثّ فيها اللصوص والمفسدون فأمّنها ، ونظّم المخبرين ، فعنده أخبار العالم الإسلامى فى سرعة البرق ، ورتّب الجواسيس حتى خاف الرجل امرأته والسيد خادمه ، وهو شديد لا يلين ، وقاسٍ لا يرحم ، ما أكثر من قَتَل وشرّد لسبب يستوجب ولغير سبب ، حتى رووا عنه أنه أولع بجارية شغلته بجمالها وحسن حديثها عن بعض شؤون الملك ، فأغرقها حتى لا يعود لمثلها ، وزهت له الدنيا فاغتر بها ، ووصف نفسه فى شعره بأنه — مالك الأملاك غلاّب القَدَر — وقصده المتنبي فرأى ملكا كبيراً ، ونعيما عظيما ، وقدرة قادرة ، وسطوة قاهرة ، فصرخ :

وقد رأيتُ الملوك قاطبة ... وسِرْتُ حتى رأيتُ مولاها

ومَنْ مَنَاياهم براحته ... يأمُرُها فيهم وينهاها

أبا شجاع بفارسٍ عضد الدولـ ... ـة فَنَّا خُسْرُو شَهَنْشَاها

أساميًا لم تزده معرفةً ... وإنما لذةً ذكرناها

إلى أن يقول :

وإن له شرقها ومغربها ... ونفسُه تستقل دنياها

تجمّعت في فؤاده همم ملء فؤاد الزمان إحداها

وكان في ملكه كِرْمان وفارس وعمان والعراق والموصل وديار بكر وحرّان ومنبج ، خضعت له وخافت منه واستكانت له ، وفزع منه الصغير والكبير ؛ ثم ماذا ؟

أصابه المرض وهو في السابعة والأربعين ، فأذل نفسه وأحقر شأنه ، واستُدعى له مهرة الأطباء فعجزوا عجزه وذلوا ذله ، فأخذ يقول الشعر ينعى نفسه :

قتلتُ صناديد الرجال فلم أدع عدوًّا ولم أُمهلْ على ظِنّةٍ خَلْقا
وأخليت دُورَ الملك من كل نازلٍ فشرّدتهم غرباً وبدّدتهم شرقا
فلما بلغتُ النجم عزًّا ورفعة وصارت رقاب الخلق أجمعَ لي رقا
رماني الردى سهماً فأخمد جمرتي فها أنذا في حجرتي عاطلا مُلْقَى

ثم جعل يقول : ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ، إلى أن مات .

استرعى هذا المنظر عقول الناس : بناء شامخ سقط في لحظة ، وقوة هائلة تحطمت في لمحة ، واعتداد بالنفس ذهب مع الريح ، ووقف القدر ، يسخر ممن زعم أنه غلّاب القدر .

وإذ ذاك ذكر فلاسفة بغداد القصة التي رويت لهم عن موت الإسكندر ، وما قاله تلاميذ أرسطو في العظة به .

وكان أبو سليمان المنطقي رأس الفلاسفة فيها ، وبيته ندوة كل من تفلسف ، يسألونه فيما أبهم عليهم ، ويستفتونه في أعقد المسائل فيجيب إجابة تدل على علم واسع وعقل ناضج .

فاجتمع عنده طائفة منهم يوم مات عضد الدولة ، واقترح عليهم أن يقولوا فيه كما قال تلاميذ أرسطو في الإسكندر .

وبدأ أبو سليمان فقال :

لقد وَزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها ، وأعطاها فوق قيمتها ؛ وحسبك أنه طلب الربح فيها فخسر روحه .

وقال ثان :

من استيقظ للدنيا فهذا نومه ، ومن حلم بها فهذا انتباهه .

وقال ثالث :

ما رأيت غافلا فى غفلته ، ولا عاقلا فى عقله مثله ؛ لقد كان ينقض جانباً وهو يظن أنه مبرِم ، ويغرم وهو يرى أنه غانم .

وقال رابع :

أما إنه لو كان معتبِراً فى حياته لما كان عبرة فى مماته .

وقال خامس :

الصاعد فى درجاتها إلى سفال ، والنازل من درجاتها إلى معال .

وقال سادس :

من جد للدنيا هزلت به ، ومن هزل راغباً عنها جدت له . انظر إليه كيف انتهى أمره ، ووضع شأنه ، وإنى لأظن أن فلانا الفقير الزاهد الذى مات بالأمس أعز ظهيراً من هذا الذى ترك الدنيا شاغرة ، ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة .

وقال سابع :

إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم ، وإن ريحاً زعزعت هذا الركن لعصوف .

وقال ثامن :

كيف غفلْتَ عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك ، وهلا اتخذت دونه جُنة تقيك ؟ ماذا صنعت بأموالك والعبيد ، ورجالك والجنود ... من أين أُتيت وكنت قوياً صارماً ... إن فيك لعبرة للمعتبرين ، وآية للمستبصرين .

وعلَّق ظريف على الموقفين فقال : إن الفرق بين الكلامين كالفرق بين المِلِكين .

***

إن كان هذا ففيم غرور المغترّ ، وطمع الطامع ، وسطوة الظالم ، وطغيان المستبد ، وخيلاء المعجب ؟

ورحم الله الحسن البصرى إذ يقول : ما أكثر المعتبَر وأقل المعتبِر .

# الابتكار

أصل « ابتكر » فى اللغة معناها بادر إلى الشىء ، وابتكر الفاكهة أكل باكورتها ونحو ذلك — وهذا كل ما فى كتب اللغة قديمها وحديثها . ثم استعملها المحدَثون فى معنى الابتداع والخَلْق فقالوا : بحث « مبتكر » ، وفكرة « مبتكرة » يريدون أنها جديدة مبتدعة لم يسبق إليها .

أما المعاجم الإفرنجية فقديمها لم يذكر هـذا المعنى للكلمة الإفرنجية المقابلة لكلمة الابتكار . وأما المعاجم الحديثة التى تجارى الزمان وتساير الإنسان فقد أدخلتها وعرّفتها وقالت فى تعريفها : « هى القدرة على إدراك فكرة جديدة ، وإنتاج آراء أو مخترعات أو أعمال جديدة فى الفن أو الأدب » .

وقفت عند هذا التعريف طويلا بعد أن قلبت المعاجم العربية والإفرنجية ، وتنقل بى الخيال من فكرة إلى فكرة حتى كان من ذلك هذه المقالة .

قلت : إن الفرق بين الشرق والغرب فى كل شىء كالفرق بين معاجمنا فى كلمة « الابتكار » ومعاجمهم ، معاجمنا جامدة واقفة ، ومعاجمهم سائرة متحركة ، معاجمنا مقلِّدة يعرِّف الأخير منها الشىء والكلمة كما عرّفها الأول ، رغم تقدم العلم والإنسان واللغة ، ومعاجمهم تتقدم بتقدم العلم والإنسان واللغة .

شأننا فى العلوم كلها شأننا فى اللغة ، تقليد تام ولا ابتكار . قلِّب قواعد النحو وأمثلته تجدها هى هى عند سيبويه وابن مالك وابن عقيل ، واستعرض قواعد البلاغة وأمثلتها تجدها هى هى فى عبد القاهر والسكاكى وكتب المدارس ، زيد أسد وزيد كالأسد ، ورأيت أسداً فى الحمام ، وله لبد أظفاره لم تقلَّم ، وزيد كثير الرماد ، وجبان الكلب ، والدنيا قائمة قاعدة ، والمخترعات والحياة الجديدة

مستعدة لأن تمدنا بأمثلة جديدة واستعارات جديدة ، ونحن جامدون على القديم .

والفلسفة كانت عندنا تقليداً للفلسفة اليونانية ، وكان الفيلسوف من يفهمها بَله أن يبتكرها ، والتأليف العربى الواسع الضخم كان عبارة عن جمع متفرّق لا خلق مالم يكن .

وكنا نقلد القديم فلما غزتنا المدنية الغربيـة كان كل ما فعلنا أن حوّلنا وجهتنا من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الأوربية ، ومن الأدب العربى إلى الأدب الغربى ، وغاية فيلسوفنا أن يفهم ما كتبه الأوربيون ، وغاية أديبنا أن يقلد ما ابتدعه الأوربى من نوع القصـة وموضوعها وأسلوبها أو من موضوع الشعر ونمطه ؛ وشأننا فى المعانى والأفكار والآداب والفنون شأننا فى المخترعات وفى الصناعات والأدوات ، ننتظر « الأوتوموبيل » حتى يبتدع فنركبه ، و « الراديو » يخترع فنستخدمه ، والآلات الصناعية تبتكر عند غيرنا فنشحنها إلى بلادنا ونشحن معها من يعلمنا كيف نركّبها ونستخدمها ، وإذا فسدت بحثنا عن أوربى يصلحها — والفرق بين الراقى منا وغير الراقى ليس فرقا فى التقليد ، فكلاهما مقلد ، وإنما الفرق فيمن نقلده — فالفلاح غير الراقى يقلد قدماء المصريين فى أدوات حرثه وزرعه ، والمزارع المتعلم الراقى يقلد الأوروبى فى أدواته وفنّه ، وكلاهما مقلد . والأديب المحافظ يقلد بديع الزمان والحريرى ، والأديب المجدد يقلد شكسبير أو ڤولتير أو نيتشه أو جوته وكلاهما مقلد ، فأين المبتكر ؟

سألنى مستشرق مرة — وكان يزور مصر — هل أجد فى مصر فيلسوفا له فلسفة خاصة من أمثال برجسون و برتراند رسل يدعو إلى مذهب فى الفلسفة جديد ، نبع من جوّه المصرى وتفكيره المصرى ، فقلت له — مع الأسف — لا . وسألنى سائح أمريكى هل فى مصر مصلح دينى الآن يقوم بدعوة جديدة لها أسسها ونظمها ، فقلت له — مع الأسف — لا . ولو سألنى سائل عن فنّان

له طريقته المبتكرة التى لم يقلد فيها شرقياً قديماً ولا غربياً حديثاً لقلت له — مع الأسف — لا .

راعنى هذا التفكير ، وأفزعتنى هذه النتيجة ، وتساءلت بعدها هل هذا التقليد وقلة الابتكار من طبيعة عقلنا أو من سوء تربيتنا ؟

لقد وصلت إلى الإجابة سريعاً ، فآمنت أنه ليس من طبيعة عقلنا ، ولا من أصل خِلقتنا ، فنحن فى إدراك الأمور وفهمها والحكم عليها لسنا أقل من غيرنا إن لم نَفُقهم ، والطالب الشرقى يتعلم مع الطالب الغربى فى مدرسة واحدة وجامعة واحدة فنراه يفهم كما يفهم الآخر وينقد كما ينقد ، ويحكم على الأشياء كما يحكم ، ويساويه أو يفوقه فى كل مظاهره العقلية ، وفى هذا ما يكفى للإقناع بأن المسألة ليست مسألة طبيعة العقل ، وإنما المسألة مسألة تاريخ مملوء بالأوزار والأثقال ، وتربية لا تبعث روح الإبداع ، وجو مسمم يخنق القدرة على الابتكار .

فى تاريخنا القديم أحداث عظام خطيرة كان لها الأثر الكبير فى جمودنا حتى اليوم ، لا أستطيع الآن استقصاءها وإنما أذكر أمثلة منها ؛ فالناظر فى تاريخ المسلمين يعجب من الحركة العقلية المبتكرة فى القرون الثلاثة الأولى التى اخترعت فيها العلوم العربية والأفكار الحية ، من مثل الخليل بن أحمد ، ذى العقلية الجبارة فى اختراع النحو والعروض ووضع المعاجم ، ومن أمثال المعتزلة الذين بحثوا البحوث الجديدة وأثاروها ، وأبدوا رأيهم المستقل فيها ، كالنظّام والجاحظ ، فهذا العصر يُعَد الابتكار طابعه وخاصته . وأرى أن وقفة الخليفة المتوكل فى القضاء على المعتزلة ونصر المحدِّثين ، كان لها أسوأ الأثر فى مهاجمة الابتكار ونصرة التقليد ، ذلك أن منهج المعتزلة كان منهج التفكير الحر فى حدود أصول الدين ، وبحث المسائل كما يؤدى إليه العقل الطليق إلا من قيد الإيمان بالله ورسوله ، فاستطاعوا بذلك أن يبحثوا كل شىء فى العالم من إلهيات وطبيعيات ، ويختلفوا فى بحوثهم اختلافاً جريئاً

محبو باً يخالف التلميذ شيخه و يجادله وقد يُفحمه ، ومنهج المحدِّثين غير هذا المنهج تماما هو منهج نقل وأمانة فى النقل ، ووقوف عنده والمحافظة على الجملة ، بل على اللفظة ، بل على الحرف ، فإن انحرف فى كلمة خرج على القداسة ، وهو أسلوب طبيعى معقول مقبول فى حدود الحديث وحده ، ليس فى ذلك غلط ، وإنما الغلط جاء من تعميم هذا المنهج وتطبيقه بشدة وقسوة على سائر العلوم ، فاضطهد الاعتزال ووضعت فى يد المحدِّثين السلطة والقوة ، فأثَّروا بسلطانهم وقوتهم ومنهجهم على كل العلوم ، فانغمس أهلها فى الرواية ، وعُوِّدوا عادة النقل وتقديس الألفاظ والشيوخ والافتخار بكثرة ما يروى ، وطبعت العلوم كلها بطابع الحديث ، حتى التاريخ وحتى الأدب وحتى الفكاهة وحتى الفقه وحتى الشعر .

هذا المنهج كان معقولا فى الحديث ، وكان يجب أن يقصر على الحديث ، فتعميمه على كل العلوم كان سبباً فى أن العقلية العربيـة والإسلامية وقعت فى فخ التقليد ، وحرمت الابتكار إلا فى القليل النادر ، فنحن لا نعد كثيراً من أمثال ابن خلدون المبتكر ، ولـكن نعد كثيراً من أمثال السيوطى المقلِّد .

ونشأت الأجيال والأجيال على هذا المنهاج ، وأصبح التخلص منه عسيراً يحتاج إلى قوات كبيرة وسنين طويلة . ومن أجل ذلك لما دعا دعاتنا إلى الانتباه وعدم التقليد ، وقعنا فى تقليد آخر هو التقليد الأوربى ، لأن ملـكة التقليد لا تزال ساكنة فى النفوس .

وسبب آخر تاريخى أيضاً ، وهو توالى الاستبداد والظلم على العالم الإسلامى من القرن الرابع الهجرى إلا فى فترات قصيرة ، فالعسف ومصادرة الأموال ، وكسب المـال من طريق الملق والمدح ، وإشباع شهوة الحكام ، كل هذا هو ملخص تاريخ المسلمين ، وكل هذا يضعف الشخصية ، ويجعلها شخصية ذليلة مقلِّدة لا مبتكِرة . والقارئ فى التاريخ الأوربى يرى أن الأوربيين عند مرورهم

فى مثل هذا الطور من الحياة لم يبتدعوا ولم يبتكروا ، وجرى عليهم قانون التقليد كما جرى علينا ، وعظَّموا أرسطو أكثر مما عظمنا ، وقلدوا فى الفلسفة وفى الصناعة وفى الفن كما قلدنا ، إنما ظهر الابتكار يوم تحرروا ، فالحرية السياسية أنتجت الحرية الفكرية والاجتماعية والأدبية والصناعية — وكان ذلك قانوناً طبيعياً يسير عليه العالم دائماً .

هذه هى المسئولية التاريخية فى الموضوع . وبجانب ذلك مسئولية التربية ، فالتربية التى تقيس الطالب بمقدار ما حصله لا ما هضمه ، وبمقدار اطلاعه لا مقدار خَلْقه وابتداعه ، وبمقدار حفظه لا بمقدار نقده ، والتربية التى تقدس الكتاب ولا تقدس التجربة ، والمدرس الذى يحاسب الطالب على ما أملى ويؤاخذه على ما خَلَق ، والامتحان الذى يرتب الممتحنين حسب كثرة استذكارهم لا حسب كفايتهم ، كل هذه الضروب من التربية تنتج التقليد ، وتميت الابتكار ، تخلق قِرَدَة مهرة ، ولكن لا تخلق أناسىّ قادة ، تخرج نسخا مطبوعة من كتب ، ولكن لا تَخلق كتاباً خطياً مبتكراً ، هى آلة تصنع المتشابهات والأمثال لا صنع يد تخرج عديم المثال ؛ إن هذا النوع من التربية ينتج الطير ، ولكنه حبيس فى قفص ، ومهما أتقنَت فغايتها طير جميل فى قفص جميل .

إنما التربية الصحيحة هى التى تكوّن المبتكر ، وتكوّن القادة المبتدِعين ، وتكوّن الشخصية الواسعة ، الشخصية الناقدة ، الشخصية الخالقة ، هى التى تحوّل « مركّب النقص » فى الناشئ إلى « التسامى » .

كثيراً ما تساءلت ماذا كان يكون أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وعلىّ وخالد وأمثالهم من رجال الإسلام لو لم يكن محمد ؟ كانوا يكونون كنظرائهم فى الجاهلية ، إغارة وخمر وميسر وفخر بالنسب وبالكرم ، ثم لا شىء ، وإنما تربية

محدِ لهم هى التى خلقت شخصياتهم وجعلتهم رجالا خالدين ، يبتكرون و يبتدعون و يواجهون الأحداث العظيمة بقلوب عظيمة وعقول مفتحة ، و يحلون ما يعرض من المشاكل حلولا مبتكرة لا على مثال سابق ؛ وكذلك كان يكون شأننا لو وجدنا المربى الصالح الذى يستطيع خلق الشخصيات ، فالوالدات لا يزلن يلدن ، والطبيعة لا تزال تمنح كل أمة فى كل عصر عقولها الطبيعية الممتازة وفنانيها الممتازين والأيدى الممتازة ، ولكنها بذور صالحة لا تجد تربة ، ومادة خامة لا تجد من يصنعها بل تجد من يتلفها — إن العدة للجيش لا تكفى لنجاحه ونصره ، إنما ينتصر إذا امتلأ عقيدة بقوته ، وأن الله معه ، وأن الملائكة تؤيده ، وأن الواجب يدفعه ، وأن الجنة تنتظره .

وسبب ثالث قد يضاف إلى الأسباب التاريخية و إلى التربية ، وهو المجتمع ، فقد يكون جواً خانقا للابتكار ، وقد يكون جواً مشجعا على الابتكار — يكون جواً خانقا إذا سخر الناس فيه من الفكرة الجديدة وصاحبها ، و إذا صفقوا المتبع واستعاذوا بالله من المبتدع ، و إذا حاربوا كل من أتاهم بما لا تهوى أنفسهم فحكموا تقاليدهم ولم يحكموا عقولهم ، و إذا كان مقياس التقدير هو الملق والخداع والنفاق لا الكفاية الممتازة ، فالمال ينهال على النوع الأول انهيالا ، والحرمان والاضطهاد ينصب على الثانى انصبابا ؛ ويكون جواً مشجعاً إذا أعجب بمن يأتى بالفكرة الجديدة ، و إذا وجدت الفكرة عقولا واسعة تتقبلها وتمنحها وتكافئ عليها .

لقد أقمت فى أوربا أشهراً فأحسست — مع قصر المدة — بمعنيين واضحين ، الأول أن الناس فى الأمة يحب بعضهم بعضا أكثر مما نحب ، وقد دعانى هذا أن أكتب مرة مقالا « الشرق ينقصه الحب » ، والمعنى الثانى أن الناس يحاولون أن يبحثوا فى كل شخص فى مجتمعهم عن صفته الممتازة أو موهبته الفائقة ليظهروها

ويشجعوها ويصفقوا لها ، ونحن نبحث عنها ولكن لنكبتها ونخمدها بشتى الوسائل .

هذه — فى نظرى — هى الأسباب الهامة فى غلبة التقليد عندنا وقلة الابتكار .

وهذه الأسباب بنت حولنا سداً كسد ذى القرنين ، بعض أحجاره من مخلفات تاريخنا ، وبعضها من مخلفات تربيتنا ، وبعضها من مخلفات بيئتنا ، ومازالت تتراكم وتعلو حتى حصرت الفكر ، وحجبت عنا نور الشمس — وفى تشخيص الداء الدواء ، وقبل الرماء تملأ الكنائن .

# سياحة فى العالم

قرأت هذه الأيام كتاب الدكتور مشرفة « مطالعات علمية » ، ووقفت طويلا عند مقال له عنوانه « سياحة فى فضاء العالمين » ، وقد أعدّ لهذه السياحة مركباً من أشعة النور يسير بسرعة الضوء ، فيقطع فى الثانية ١٨٦٠٠٠ ميل ، وسيصرف نحو يوم فى سياحته حول المجموعة الشمسية ، فيصل إلى الشمس فى ثمان دقائق ، ويمر على المشترى والمريخ وزحل الخ ؛ فإذا جاوز المجموعة الشمسية إلى أقرب نجم من مجموعة أخرى قطع المسافة بينهما فى أربع سنين ، وسيرى فى هذا العالم مجموعات من السُّدُم ، كل سديم مؤلف من مئات آلاف الملايين من النجوم ، بينها مسافات تقدر بعشرات السنين الضوئية . وسيرى أن محيط الكون يقدر بنحو سبعة آلاف مليون سنة ضوئية ؛ أى أننا إذا أرسلنا شعاعا من الضوء فإن هذا الشعاع يعود إلينا بعد سبعة آلاف مليون سنة ، بعد أن يكون قد طاف حول الكون كما يطوف السائح حول الأرض ، ويعود إلى حيث ابتدأ .

قرأت هذا فرأيتنى أملك خيراً من هذه المطيّة ، وأسرع من هذا الضوء ، وهو خيالى وفكرى الذى يستطيع أن يرحل إلى هذه العوالم فى لحظة ، ويطوف حول الكون فى لمحة . ومن أين لى بآلاف الملايين من السنين والعمر قصير والمدى طويل ؟ !

لقد ركبت خيالى وطفت هذه العوالم فى رحلة عجيبة حقاً ، وعدت بنتائج بهرتنى : لقد رأيت فى هذه الرحلة أن أرضنا التى ملأتنا صراخا وصياحا لا تساوى فى هذه العوالم قطرة من البحار ، ولا ذرّة من الرمال : وأنى على مسافة قصيرة

من رحلتى لم أتبينها فى خريطة الكون لضعة شأنها وحقارة أمرها ، فهى بما عليها من جبال و بحار وأنهار ونبات وحيوان و إنسان لا تساوى شيئاً ، وصدق الأثر : إن دنيانا عند الله لا تزن جناح بعوضة .

كان من غرور الإنسان أن اعتقد أنه أرقى مخلوق فى العالم ، وأن العالم كله مخلوق له ، وكان ذلك لأنه لم ينظر إلا إلى أرضه ونفسه ، وكان ينظر إلى النجوم كأنها حبات درر لامعة ؛ فلما رحلتُ هذه الرحلة رأيت عوالم وعوالم لا يشعر أهلها بأن هناك شيئاً اسمه الأرض ، ولم يسمعوا بشىء اسمه الإنسان ، لأن الأرض أصغر من أن تذكر بجانب ضخامة عوالمهم ، والإنسان أحقر من أن تُعرف حياته لضخامة حياتهم ! — لو كان خُلق هـذا العالَمُ كله للإنسان لـكان أقل ما يقال فيه إنه تبذير حتى من الناحية الاقتصادية ، كإسراف من يبنى قصراً فخماً لنملة ، بل مدينة عظيمة لبعوضة — لقد ظن الإنسان بعقله القاصر أن العوالم الأخرى فارغة من الحياة ، ولا حياة إلا فى أرضه ، وعلل ذلك بأن بعض النجوم ملتهبة لا تصلح للحياة ، أو أنها لا تحوى العناصر الضرورية للحياة ، كأن الحياة قاصرة على نوع حياته ، ولا حياة إلا على نمطه — لقد رأيت فى رحلتى أن كل العوالم مائجة بالحياة ، وأن كل عالَم له حياة تناسبه ، ومحيط ينسجم معه ؛ ولـكن رأيتها كلها تخضع لسنّة النشوء والارتقاء ، فأنواع الحياة كلها تتدرج إلى العقل والحياة المفكرة ، وإن اختلف منطقها . وقد رأيتها قطعت مرحلة منطقنا وتفكيرنا منذ ملايين من السنين ، لأن الأرض من أحدث المخلوقات ، فتفكيرها من أكثر أنواع التفكير سذاجة ؛ ولذلك لما عرضتُ عليهم نوع تفكيرنا ونظمنا الاجتماعية ، أمعنوا فى الضحك بأكثر مما نضحك من تصرفات حشرة ، وكانوا أكثر إمعاناً فى الضحك حين حدثتهم بأخبار الحرب العالمية ، فقد ضحكوا أوّلا من تسميتها العالمية ، وقالوا ما أقبح جهلـكم حين تنسبون ذلك

إلى العالمَ ، وما أسخفكم حين تحاربون لمطمع دنىء ، وما أحمقكم حين لا تستطيعون أن تحلوا مشكلة صغيرة كهذه إلا بالقتل والتدمير والتخريب ، فتعالجون حل مشكلة بخلق مشاكل أعظم منها ! ! حقاً إنكم لبدائيون ، وحين تصلون إلى ما وصلنا إليه نكون نحن قد وصلنا إلى السمو الأعلى ، فالنسبة فى سيرنا لا تزال محفوظة . ومسافة الخلف بيننا ستظل بعيدة .

كانت هذه الرحلة كأنها عصا سحرية غيّرت معالم تفكيرى ، فأرضنا فى هذا العالم كأنها خلية صغيرة من خلايا جسمنا تتصل به وتحيا به ، وتنسجم معه وتتأثر به ، كما تتأثر كل خلية من خلايا جسمنا بباقى الخلايا ، ولو استطعنا يوما أن نتفاهم مع مخلوقات العوالم الأخرى لكان الاتصال أتم ، وسيرنا أسرع . ولكن هل من وسيلة لأن تتفاهم النملة مع الإنسان ، والبعوضة مع الفيلسوف ؟ إن أرضنا بناسها وحيوانها ونباتها وجبالها ليست إلا موجة صغيرة على شاطئ المحيط ، ونحن محصورون فى حدود ضيّقة من كلمات « أنا » و « نحن » وجميع ضمائر المتكلم ، كما أننا محبوسون فى حدود حواسنا التى لا تدرك من العالم إلا اللذة والألم ؛ وإنما يستطيع التجرد من ذلك كله أحياناً الفلاسفة والمتصوفة والشعراء ، فيخترقون حجب المظاهر ، ويحسون — فى لحظات — السمو عن هذه الجزئيات ، فيلفُّون محيط العالم فى لمحة ، ويغرقون فى بحر العالم من غير اختناق ، ويفقدون أنانيتهم ليندمجوا فى حياة العالَم من حيث هو كلّ ، ويدركون لذة ذلك بنوع من الإدراك لا يدانيه الإدراك بالعواطف ولا الإدراك بالعقل ، ولا أى نوع آخر من الإدراك ، ويشعرون أن العالم كله يتناغم مع نبضات قلوبهم ، وخلجات نفوسهم ، وإذ ذاك يدركون أن الله — فوق ما يستهين به جماهير الناس فى مطالبهم الحقيرة — هو قلب العوالم الذى ينبض بحياتها ، وهو إرادتها المحركة لها ، ويرون أن الموت ليس إلا ذوبانا فى وعاء الأبدية !

لم أصادف فى رحلتى إلا قليلا من أهل الأرض ، ليس منهم الذين قضوا حياتهم بين مزارعهم ومصانعهم لا عمل لهم إلا أن يحسبوا دخلهم وخَرجهم ، وليس منهم من اقتصروا على الحاجات الحسية والحياة المادية ؛ وإنما رأيت طائفة من الشعراء ليس منهم أبو نواس ومدرسته الذين غنَّوا للخمر واللذات الجسمية ، ولا أبو تمام والبحترى ومدرستهما ممن غنوا للملوك واستجدوا الأغنياء ، فهؤلاء جميعاً التصقوا بالأرض ولم يرفعوا أعينهم إلى السماء ؛ وإنما وجدت أبا العلاء حائراً يبحث عن سر النجوم وينشد :

أمَيِّتةٌ شُهب الدجى أم مُحِسَّةٌ ... ولا عقل أم فى آلها الحس والعقل

ويقول :

ياليت شعرى وهل ليتٌ بنافعة ... ماذا وراءكَ أو ما أنت يافلكُ

كم غاض فى إثرك الأقوام واختلفوا ... قِدْماً — فما أوضحوا حقاً ولا تركوا

شمس تغيب ويقفو إثرها قمرٌ ... ونور صبح يوافى بعده حَلَكُ

طحنْتَ طحن الرحى من قبلنا أمما ... شتى ولم يدر خلقٌ أيةً سلكوا

راموا سرائر للرحمن حجَّبها ... ما نالهن نبيٌّ لا ولا ملك

ورأيت ابن الشِّبْل البغدادى يطوف حول العالم ويقول :

بربِّك أيها الفلك المُدارُ ... أقصدٌ ذا المسير أم اضطرار

مدارك قل لنا فى أى شىء ... ففى أفهامنا منك انبهار ؟

ومعهم طائفة من شعراء العرب وغيرهم من الأمم ممن ترفعوا عن ضوضاء الأرض ونزعات التنازع ، وحلقوا فوق الخصومات ، ونظروا إلى الإنسانية كوحدة ، بل إلى العالم كوحدة ، وغنّوا للناس ليسموا سموَّهم ، وينشدوا مَثَلهم — وقد سبقهم إلى ذلك درجاتٍ شعراء الصوفية ، وعظماء رجالها الذين أدركوا وحدة الوجود ، وجمال الخلق والخالق ، وأحاطوا بالعوالم علماً ، ووصلوا إلى قلبها

ينبض وروحها تختلج ، ونفذوا من مظاهرها السطحية إلى تياراتها الخفية . وقابلت الأنبياء الذين قطعوا اللا أبدية إلى الأبدية فى خطوة ، وأدركوا الحق وعشقوه وهاموا به ، ورأوا أعراض الحياة لا قيمة لها والخير فى السمو الأبدى ، ويوم يجىء موت الأعراض تبقى الحياة متصلة بالرفيق الأعلى .

وفى طريقى للعودة عرجت على طائفة من الفلكيين والمنجمين كانت ميزتهم أنهم اكتشفوا حقارة الأرض وعظم السماء ، وشغلوا بالمسافات والأبعاد وتحليل الأشعة ورسم الخرائط الجوية ، ولكنهم وقفوا عند المظاهر ، ولم ينفذوا منها إلى قلبها النابض ، ولذلك لم أرهم إلا حين قاربت الأرض .

عدت بعد رحلة ممتعة كاد ينعدم فيها الزمان والمكان . ولما قاربت الأرض كدت أختنق من الهواء ، لأنى اعتدت أن أعيش فى غير هذا الهواء ؛ شعرت شعور من يسكن الكوخ بعد أن سكن القصر ، ومن يعيش فى أرضٍ قاحلة بعد أن أقام فى البساتين الناضرة ؛ وكلما قاربت مس الأرض أحسست ضوضاء وجلبة مختلطة غير منسجمة صدّعت رأسى ، وأصمت أذنى .

وأدركت أنى و إن خلق جسمى من تراب ، وسيعود إلى تراب ، فإن حبى الذى يلتهب فى قلبى ، وفكرى الذى يجول فى رأسى ، ونفسى التى تحل فى جسمى ، تتصل بالخلود ، وتنتقل من خلود إلى خلود ، تسطع عليها العوالم الأخرى ، كما تسطع النجوم على الأرض ، وتستمتع بالاتصال بالأرواح الأخرى ، وتسعد بالعمل على فك الأرواح المقيّدة من أغلالها ، وتبديد الظلام الذى يحيط بها ، والأخذ بيدها لخير الإنسانية حتى تسمو إلى العوالم العليا — ورأيتنى لم أخش الموت لأنى فهمت حقيقته .

***

وأعجب ما كان منى يوم عُدت من رحلتى ، أنى برمت بكل ما حولى ،

قرأت الجرائد فاستسخفت كل ما أقرأ : أخبار الحروب تافهة وحقيرة لأن الإنسان الذى يقوم بها حقير ، ومكان الحروب جزء من الأرض الحقيرة ؛ فلما قرأت أخبار الوفيات والحفلات ، والحركات والتنقلات ، والجرائم والسرقات والسياسات ، رأيتها أسخف وأسخف ، فعلى بُعد خطوات من رحلتى انقطعت هذه الضوضاء كلها ، وكانت كلها أهون من فقاقيع على سطح الماء . وجلست عصر هذا اليوم إلى الناس أسمع حديثهم فى الغنى والفقر ، وصنوف السعادة والشقاء ، والملذات والآلام ، والجمال والقبح ، فلم يقع ذلك كله من نفسى فى قليل ولا كثير ، لأنى كنت لا أزال مبهوراً بجمال ما رأيت ، وعظم ما شاهدت فى السياحة ، فكان كل هذا الحديث وموضوعاته أقلّ فى سمعى من طَنين ذبابة !

وسمعت قارئاً يقرأ « الحمد لله ربّ العالمين » ، فكأن هذه الآية لم تدخل سمعى قبل الآن ، فقد فهمت أن العالَمين ، هى هذه العوالم العظيمة التى ليست المجموعة الشمسية إلا عالماً صغيراً منها ، وما قد علمنا من العوالم أقل بكثير مما لم نعلم ، « ويخلق ما لا تعلمون » .

وقلت : ليت الذين يختالون تيهاً ، ويخطِرون عُجباً ، ويُءُون حواجبهم ، وينفخون أشداقهم ؛ وليت الذين يتجاوزون قدرهم ، ويعْدُون طَورهم ، ويفترون بمالهم وجاههم ، ويعتزون بعلمهم أو فنهم أو أدبهم ؛ وليت العتاة والطغاة والمستبدين ، ومن يردّدون أنا وحدى ، ومن يتحكّمون فى أممهم اغتراراً بسلطانهم أو قوة جيشهم ؛ ليت كل هؤلاء يرحلون معى هذه الرحلة العالمية ، فيرون منها قيمة الأرض التى يفخرون بزخرفها ووزنها الذّرّى الذى يطمحون إلى السيادة على بعضٍ منها ؛ إذن لتصاغرت إليهم نفوسهم ، وأقلعوا عن غرورهم ، وتضاءلت منهم أمانيهم ومطامحهم ، وطارت نُعرة رأسهم ، واعتدل صَعَر خدّهم .

ورأيت أنى إن بقيت على هذه الحال لم أصلح للحياة ، ولم تنسجم نفسى

مع ما حولى ومَن حولى ، وكلما وقع نظرى على شىء قارنته بالعوالم الأخرى فاستصغرتهُ ؛ ورأيتنى كالمجنون وسط عقلاء ، أو العاقل وسط مجانين ، يتصرفون فلا أفهم كيف يتصرفون ، وأتصرف فلا يفهمون ما أعمل ، وأتحمس لأشياء لا يأبهون بها ، ويتحمسون لأشياء لا آبه بها ، وكأن لى عيوناً غير عيونهم ، وآذاناً غير آذانهم ؛ ورأيت أن العيش على هذا المنوال محال ، فإما أن أرحل إلى العوالم الأخرى وأعيش فيها أبداً ، وكيف وقد علقت بالنفس ثاء الجسم الثقيل كما يقول ابن سينا ، وإما أن أنسى رحلتى ، وأعود إلى حياة الأرض سيرتى ، وأزور العوالم الأخرى لِماماً كلما شغلنى أمر ، أو ضغطنى همّ ، ففضَّلت الثانية مرغماً ، فلا رأى لمن لا يطاع ! !

# أخلاق الطفولة وأخلاق الرجولة

لاحِظ الطفل ، وأمعن النظر فى تصرفاته ، وراقب البواعث على حركاته وسكناته ، تخرج بنتيجة حتمية ، وهى أنه أنانىٌّ مفرط الأنانية ، يرى أن أهمّ ما فى الوجود شخصه ، وكل شىء حوله يجب أن يكون له ؛ ما يصدر عنه من أعمال فإنما هى لجسمه ، وللذة يلتذها جسمه ، ليس يهمه أى شىء يتصل بغير شخصه ، لا يعنيه من أمّه إلا أن ثدييها وعاء لابنه ؛ كل ماله من عمل ، وكل ماله من شعور ، وكل ماله من فكرٍ ، وكل ماله من رغبات ، فإنما هى موجهة نحو ذاته ؛ فإذا أحسَّ فراغاً من الزمن ليس فيه شىء مما يشتهى ويلتذُّ بكى ، لو كُلف أن يرسم خريطة العالَم كما يرى ، واستطاع ذلك ، لَرَسَمَ شخصه فقط ، وكان هو العالَم وحده وما عداه من شىء فلخدمته .

لاحِظه بعد ذلك وهو ينمو ، تجده يتحول من « أنا » قليلا قليلا إلى « نحن » شيئاً فشيئاً ، فهو يبدأ يشعر بأسرته بجانب شخصه ، ثم بتلاميذ مدرسته بجانب نفسه ، ويتعلّم دروس الأخذ والإعطاء بعد أن كان درسه الوحيد هو الأخذ ، ويضم إلى العمل لشخصه العمل لغيره ، ويعتاد ألا يعمل فقط ما يحب ، بل يعمل أيضاً ما يجب ، ويعمل ما تقتضيه التقاليد ، ويعمل خوف الاستهجان أو العقوبة أو نحو ذلك — يتعلّم ذلك كله فى أسرته وفى مدرسته ، وفى ملعبه وفى شارعه ؛ ويتولّد فيه شعور وتفكير ورغبات للعمل للغير ، كما تولّدتْ فيه من قبل هذه الأمور للعمل لشخصه .

ويَرقَى فيه الشعور بـ « نحن » إذا اتّسع أُفقه فى الحياة العامة ، وخرج من المدرسة وتولّى عملا ، وعاملَ الناس وتبادل معهم المنافع والمصالح ، فيشعر بأن

هناك أناساً غير أسرته وغير مدرسته وغير معارفه ، وأنه مرتبطٌ ببعضهم فى التعامل ، ويشعر بأن هناك مسئولية مُلقاة على عاتقه نحوَ مَنْ يَعمل معهم ، وأنه خاضعٌ لقوانين البلاد ، وله روابط بقومه وأهل دينه ونحو ذلك ، كما يشعر أنه يجب عليه العمل ، لا كما يجب كالطامل ، ولا طاعةً للتقاليد أو خوفاً من العقوبة كالفتى ، ولكن ليحصِّل رزقه يقوت به نفسه أو أهله أو مَنْ يحمل عبئهم ؛ وهكذا نراه يبعُد بعض الشىء من « أنا » ويقرُب من « نحنُ » ، ولكن فى حدود ضيِّقة معيَّنة .

فإذا نحنُ سَمَوْنا لدراسة « الرجال » وعظماء الناس ، رأينا استغراقاً وعمقاً فى « نحنُ » ، وضموراً فى « أنا » ؛ رأينا الرجل العظيم الناضج يصل إلى منزلة يرى معها أن لا قيمة لحياته إلا إذا ارتبطت بحياة الناس والعمل لإسعادهم ، لا يقتصر على علاقاته الطيبة بمن حوله فى الأعمال العادية ، ولكن يضع نصب عينه العمل لترقية الناس روحيًّا ونفسيًّا وماديًّا ؛ لا يرى أن مسئوليته هى نحو أسرته فقط ، ولا أصدقائه فقط ، ولا قريته أو مدينته فقط ، ولكن لأُمَّته خاصة ، وللإنسانية عامة إن وسعه الجهد والكفاية ؛ هو واسع النظر ، عميق الفهم ، رحب الصدر ، متسامح أمام ما يشل العقل من العصبية الوطنية و لدينية والخلافات الحزبية ؛ يختبر حاجات الناس وأسباب شقائهم فى الناحية التى هو مُعَدٌّ لها ، ثم يوجه إرادته لرفع الشقاء عنهم ، وجلب السعادة لهم ما أمكن ، ويحمل مسئولية ذلك فى لذة وسرور وتضحية ، ولا بأس إن كان فقيراً ، ولا بأس إن لم تُنبته أسرة أرستقراطية ، ولا بأس إن لم يتسلّح بقوّة ، فهو يشعر أن نبل غرضه قوة فوق قوة المال ، وفوق الأسرة النبيلة ، وفوق أسلحة الناس .

إذا كانت جماهير الناس يعملون للأجر ، ويقوّمون العمل بالمال ، فإن أُعطوا كثيراً عملوا كثيراً ، وإن أُعطوا قليلا عملوا قليلا ، ويفاضلون بين عمل

وعمل بقدر ما يدر من ربح ، فإن هؤلاء العظماء يعملون لأنهم يلذهم العمل ، ويقوّمون العمل بمقدار ما يحقق من خير لأمتهم وللإنسانية أجمع ؛ يدأبون فى العمل ، ويعرضون حياتهم للخطر فى سبيل مرض يكتشفونه وداء يعالجونه به ، أو فى سبيل تحرير العقول من أغلالها ، أو تحرير العقيدة مما أفسدها ، أو يحاربون الظلمة والطغاة لتحقيق العدل فى الأمة أو العالم ، يحتملون فى ذلك العذاب ألواناً ، لأن عشقهم للحق غلب حبهم للذات ، وهيامهم بـ « نحن » أضعف حبهم لـ « أنا » . فإذا قال الطفل « أنا » ، وقال الإنسان العادى « أسرتى » ، قال الرجل « أمتى » ، أو « عالمى » ؛ وإن تلذذ الناس بالعمل يربح ، تلذذ هو بالفكرة تنجح ؛ وإن تساءلوا عند العمل : ماذا نجنى من دخل ؟ تساءل هو : ماذا يستلزم العمل من جهد ؟

قد منحهم الله قوةً من قوته ، وقدرة على الخلق من قدرته : يخلقون النافع فيما حولهم ، ويبتدعون الجمال ينشرونه فى دائرتهم ، فهم — دائماً — مصدر نفع وجمال . حددوا غرضهم فى الحياة ، فعلموا أنهم لايصلون إليه إلا إذا فهموا حق الفهم دنياهم التى يعيشون فيها ، وطبائع نفوس الناس فى الاستجابة للإصلاح والنفور منه .

يلتذون تحمُّل التبعات كما يلتذ الجبناء الهرب منها ، يواجهون الصعوبات بابتسام ، ويتقبلون الهزيمة ريثما يستعدون للوثوب ؛ أقوياء فى خصومتهم . صابرون فى هزيمتهم ، كرماء سمحاء فى انتصارهم ؛ آلوا على أنفسهم أن يكونوا قوة محاربة للشر المحيط بهم حتى ينهزم ، وأن يكونوا ضوءاً يدافع الظلام حتى ينجاب ؛ يكرهون من أعماق نفوسهم المرض والجهل والفقر ، والسخافة والتخريف ، وكل عيوب البشرية ، ومع هذا يمزجون كراهيتهم لهذه الأشياء بالعطف على المنكوبين بها حتى ينقذوهم منها .

كافأتهم الطبيعة على حسن صنيعهم براحة ضميرهم وطمأنينة بالهم ، لأن الطبيعة فرضت أن يكون الإنسان اجتماعياً ، وفرضت أن يتبع سنّة الارتقاء ، فأثابت مَن جرى على سننها ، وعاقبت مَنْ خالف قوانينها ؛ فإذا رأيت سأماً وضجراً بالحياة ، وميلاً إلى الانتحار ، وجنوناً بعد عقل ، وشقاوة نفس بعد سعادة ، فثَمّ — ولا شك — قانون طبيعي خولف ، وطريق مستقيم عُدل عنه .

***

ثم الأمر فى النفس ليس كالأمر فى الجسم ، فقد ينضج الجسم ويكتمل ، والنفس لا تزال على حالها نفس طفل ؛ فالشاعر كان محقاً حين قال : « جسم البغال وأحلام العصافير » ، وفى الناس حولنا أشكال وألوان من هذا القبيل ، رجولة جسم وطفولة نفس ، ومقياس ذلك الذى لا يتخلف هو ضمير « أنا » و « نحنُ » ؛ فإن رأيت لا شىء إلا « أنا » رأيت طفلا مهما كان جسمه وسنه ، وإن رأيت « نحن » كثيراً و « أنا » قليلا رأيت رجلا ، والرجال قليل .

هناك من ليس أمامه فى الدنيا إلا جسمه ، يبحث حياته عن الأكل الطيِّب والملبس الطيب والنعيم الطيب ، وذلك كل تفكيره ، وكل سعيه ، وكل غرضه ؛ ركزوا فى صحة جسمهم ونعيمه كل شعورهم ، وكل عواطفهم ، وكل ملذاتهم ؛ فإن عملوا عملا خارج هذه الدائرة فلهذه الغاية ، تعرفه بالإفراط فى العناية بنوع ما يأكل ، ومقدار ما يأكل ، وبهندامه وبمرآه فى المرآة ، وبالحذلقة فى حركاته وسكناته ونحو ذلك ، ثم لا شىء ؛ فهذا طفل كبير .

وإن شئت فعُدّ من هذا القبيل ناسكا راهباً لا يفكر فى أحد من بنى آدم حوله ، ولا يهمه حال قومه سياسياً ولا اجتماعياً ، ولا يعنيه شقوا أم سعدوا ، ولا يحمل تبعة شىء ، ولا يُصادق أحداً ، ولا همّ له فى الحياة إلا نفسه وعبادته ؛ أليس هو الآخر طفلا كبيراً شغلته « أنا » عن « نحن » ؟

وهناك مَنْ يَحُدّ العالم بحدود نفسه ، إذا فكر فيها ، وإذا عمل عمل لها ، لايعنيه من العمل إلا مقدار ربحه منه ، خسر الناس أو كسبوا ، لايمنعه من الغش فى عمله إلا خوف العقوبة ، فإن أمنها عمل ما شاء ليربح مالاً ، أو يكسب شهرة ، أو يحقق غرضاً من أغراضه لنفسه ، تعلم درس الأخذ ولم يتعلم درس العطاء ، وليست الدنيا كلها وما فيها إلا قنطرة يعبر عليها للوصول إلى غايته ، فهذا كذلك طفل كبير .

وهناك مَن يهرب — كالطفل — من كل تبعة ، لايقتحم الحياة ولكن ينتظر القدر ، ولا يزاحم ولكن ينتظر الحظ ، إن عرض له شىء متعب تنحَّى عنه إلى شىء مريح .

وهناك أسوأ من هذا : من رفع نفسه فوق الناس ، فهم لم يخلقوا إلا له ، ولم تُخلق عيونهم إلا لتقع على مطالبه ، ولا آذانهم إلا لتصغى إلى كلمته ، ولا أيديهم إلا للعمل فى خدمته ، يسير فى الحياة على ما يهوى ، ويجب أن يسير الناس فقط على ما يهوى ، فهذا أيضاً طفل كبير ؛ وكم فى الناس من أطفال كبار ، وهم فى طفولتهم أشكال وألوان .

***

ارسم خطا مستقيما رأسياً ، وضع فى أسفله « أنا » وفى أعلاه « نحن » ، وامتحن نفسك : كيف أنت فى عملك ، هل لا تنظر إلا إلى شخصك ، أو تراعى فيه مصلحة قومك ؟ وكيف أنت فى علاقتك بالناس وعلاقة الناس بك ، وهل تؤدى زكاة مالك ، وزكاة علمك ، وزكاة فنك ، وزكاة كفايتك ، أو تشح بكل ذلك ، فلا تنفقه إلا لمال أكثر تحصله ، أو جاه تبتغيه ؟ وكيف أنت فى نيّاتك ومقاصدك ، هل يؤلمك بؤس الناس وشقاؤهم وفقرهم ، فتتعاطف معهم ، وتعمل جهدك لإسعادهم ، أو أنت وبيتك ، ثم على الدنيا العفاء ؟ وحدد بذلك

كله مركزك من الخط المستقيم ، فإذا قربت جداً من « أنا » فهذا دليل الطفولة ولا محالة ، وإن قربت جداً من « نحن » فأنت رجل .

هذا هو التقويم الصحيح للناس ، وهو — مع الأسف — غير ما تواضعوا عليه ، إنهم يقدرون الرجل بماله وبجاهه وبمنصبه ، وبكل شيء إلا قيمته الحقيقية ؛ ولو راعيت هذا المقياس الحق الذى ذكرنا لرفعت من شأن عامل بسيط على صاحب مصنع كبير ، وموظفاً فى الدرجة الثامنة على موظف فى الدرجة الأولى ، ومعلماً أولياً على سرىٍّ كبير ، وكناساً مخلصاً على طبيب غير مخلص ، وجندياً مجهولا على قائد مشهور . ولكن أنّى لنا المدنية الحقة التى تهدم نظام القيَم المتعفّن لتضع مكانه نظاما للقيم نظيفاً ؟

# نظرة فى إصلاح متن اللغة العربية

اللغة العربية لغتنا ، فيجب أن تخضع لحياتنا ، تنمو بنمونا ، وتسير مع زمننا وزمن من يأتى بعدنا ، تسايرنا فى تقدمنا وتكون أداة طيّعة لتطورنا ، لا أن تقسرنا على أن نرجع إلى الوراء ، ونعيش عيشة القرون الوسطى . ولغة كل أمة عنصر من عناصر تكوينها ، ورقيها أو انحطاطها ؛ لها الأثر الكبير فى تكوين النزعات والأخلاق فيها ؛ فإن اللغة متن الأدب ، والأدب غذاء العقول والأرواح ، وهو الطابع الذى يطبع الأمة بطابع السمو أو الضعة ، والعزة أو الذلة .

ونظرة واحدة إلى تاريخ اللغة العربية وموقفنا منها الآن ، يبين لنا مدى الخطر الذى يحيط بنا ؛ وهو يتلخص فى أن جماعة من العلماء فى صدر الدولة العباسية ساحوا بين قبائل العرب يجمعون منهم مفردات اللغة ، وكان برنامجهم ألا يأخذوا عن حضرى قط ، ولا عمن خالط الحضر من أهل التخوم ، وكلما أمعنت القبيلة فى البداوة كانت أولى بالنقل عنها ، كقيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، وأودعوا كل ذلك كتبهم التى صارت نواة لمعاجم اللغة ، وهم — من غير شك — يشكرون كل الشكر على ما بذلوا من جهد وكابدوا من عناء . ولكن موضع الخطأ فيهم أنهم ومشايعيهم رأوا أن اللغة العربية ليست إلا هذا الذى جمعوه ، لا يصح أن تزيد ولا تنقص ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذه النظرة أنهم يريدون ألا يستعمل الناس أيام الدولة العباسية البالغة مبلغاً عظيما من الحضارة إلا ما كان يستعمله هؤلاء البدو فى معيشتهم البدوية ، ومحال ذلك — لهذا رأينا اللغة غنية غنى مفرطاً فى أدوات البدو ووسائل معيشتهم ، فقيرة جدا فى حاجات المدنية ووسائلها ، ولهذا اضطر غيرهم

— بعد أن ضغطت عليهم المدنية — إلى التعريب بعد أن أعرضوا عنه ، نزولا على حكم الطبيعة وتطور العمران ، وخلطوا ما أخذوه عن القبائل بما عربوه من الأمم المدنة ، فأضاعوا بذلك القاعدة الأولى التي رسموها لأنفسهم ، وهى الأخذ عن العرب الخلص فقط ، ولو كانوا أدركوا هذه النتيجة لسمحوا لأنفسهم من أول الأمر بالأخذ عن القبائل التي اختلطت بالعجم أيضاً ، فهم على الأقل أولى من العجم الصرف الذين عربوا عنهم .

على كل حال أدرك الناس أن متن اللغة البدوى لا يكفى للحياة الحضرية إذ ذاك ، فأكملوه بالتعريب وبتوسيع الاشتقاق وبالقياس ، وسايرت حركة الاجتهاد فى اللغة حركة الاجتهاد فى التشريع ؛ ثم أصيب العرب بالضربة الشنيعة فى الأمرين معاً ، وهو إقفال باب الاجتهاد فى التشريع وباب الاجتهاد فى اللغة ، وهو حكم قاس لا يمكن تنفيذه فيهما إلا إذا ماتت الأمة ، وماتت اللغة (لا قدر الله) ، فلما لم تمت الأمة تحايل بعض العلماء على فتح باب الاجتهاد فى التشريع بوسائل ضعيفة وحيل سخيفة . فلما لم تنجح هذه الحيل كانت الضربة المخجلة ، وهى إهمال التشريع الإسلامى والاعتماد على التشريع الأوروبى إلا فى حدود ضيقة كالأحوال الشخصية . وأما فى اللغة فكذلك نمت اللغة العامية على حساب اللغة العربية ، واستعمل الناس فى حِرَفهم وصناعاتهم وحياتهم اليومية الكلمات التى يرون أنفسهم فى حاجة إليها ، ولو أخذا من اللغات الأجنبية محرفة ، ولم تبق اللغة العربية الفصيحة إلا فى تعليم التلاميذ ريثما يؤدون الامتحان ، أو على أقلام الخاصة الذين يشعرون بضيقها وكثيرا ما يفرون عند كتابتهم من وصف الحياة الواقعية من جزمة وطربوش وجاكتة إلى كلمات عامة : كحذاء وقلنسوة ولباس ونحو ذلك ، مما تكون فيه الحقيقة فى واد والكلام فى واد ، ولو استمررنا على ذلك لكانت نتيجة اللغة نتيجة التشريع .

ولا علاج لهذا الأمر إلا فتح باب الاجتهاد لأن إقفاله كان هو الداء .

وإذا ثبت لنا الاجتهاد بدأنا بذكر بعض مقترحات متواضعة نتبعها بغيرها إن شاء الله :

فأولا — نظرة واحدة إلى اللغة العربية تريناً أنها واسعة سعة عظيمة أكثر مما يلزم فى بعض المواضع ، ضيقة ضيقاً شديداً أكثر مما يلزم فى مواضع أخرى ، كالثوب يطول أحد كميه أمتاراً ، ويقصر كمه الآخر فلا يكون إلا شبراً .

والسبب فى ذلك هو ما ذكرت أن اللغة العربيـة كانت لغة قبائل مختلفة بدوية ، فما كان منها يتصل بحياة البدو من الإبل وحياتها وصفاتها ، والأرض وأنواعها ، والخيام وما إليها ، ففيه غنًى مفرطا يدل على ذكاء العرب ومقدرتهم ودقة ملاحظاتهم ، حتى لم يتركوا شيئاً من ملابسات حياتهم إلا لحظوه ووضعوا له اسماً ، وكانت كل قبيلة تفعل ذلك ؛ فلما جمع العلماء اللغة من قبائل مختلفة تنوعت الأسماء المتعددة للشىء الواحد ، وهذا علة ما نسميه بالمترادفات — وما كان منها يتصل بحياة الحضر كالملابس الحضرية والأطعمة الحضرية فقليل ، وأكثره جاء من التعريب فى العصر العباسى . فإذا أتينا إلى زمننا ورأينا الحضارة الغربية ومنتجاتها رأينـا من الطبيعى قصوراً واضحاً ، فإذا قارنا الناقة وأنواعها وأجزاءها بالطيارة وأنواعها وأجزائها ، والعقاقير البدوية بالعقاقير الحضرية ، والصناعة البدوية بالصناعة الحضرية الخ ، وجدنا الغنى المفرط فى الأولى والفقر المدقع فى الثانية ، وهكذا . وعلاج ذلك فى نظرى أمور :

( ا ) التخفف من كثير من مفردات اللغة التى فى المعاجم ، فلا بد من طرح بعض الألفاظ وإماتتها إلا أن تودع فى كتب مؤرخة للغة ، وهذا عمل ضرورى لنفسح مجالا للكلمات الجديدة فى المسميات التى نحن فى حاجة إليها ؛ وإلا فإذا نحن أبقينا القديم كما هو وأضفنا إليه الجديد لتضخم متن اللغـة تضخما يعجز عنه

أى متعلم . وأولى الكلمات بالإماتة هى :

(أ) الكلمات الحوشية التى يمجّها الذوق ويكرهها السمع ، والتى عبّر عنها أصدق تعبير الصفى الحلّى إذ يقول :

إنما الحيزبونُ والدردبيسُ والطخا والنقاخُ والعلطبيسُ
لغة تنفرُ المسامعُ منها حين تُروى وتشمئزّ النفوس
وقبيح أن يُذكرَ النافرُ الوحشىُّ منها ويُتركَ المأنوسُ
أين قولى هذا كثيبٌ قديم ومقالى عقنقلٌ قدموسُ
خل للأصمعىّ جوبَ الفيافى فى نشافٍ تخف منه الرؤوس
إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغناطيس

فلننزل على حكم الصفى الحلى ونستبعد هذه الألفاظ وأمثالها . وكما يكون عملنا فى المعاجم التفتيش عما يصلح ، يكون من عملنا أيضاً التفتيش عما لا يصلح ، وتقرير استبعاده وعدم إدخاله فى المعاجم الجديدة .

(ب) كذلك استبعاد كثير من المترادفات التى لا حاجة إليها ، فما حاجتنا إلى أن يكون للعسل ثمانون اسماً ، وللسيف نيف وخمسون ، وللحية نحو مائتين ، وللمصيبة نحو أربعمائة ، فى حين أن أهم من ذلك كله ليس له اسم واحد . لقد مضى الزمن الذى كنا نعد فيه كثرة المترادفات مفخرة للغة ، واضطرتنا كثرة مخلوقات المدنية أن نحمد الله إذا وجدنا لكل مادة فى الحياة اسما واحدا يصطلح الناس عليه ، ويتفاهمون به . نعم إن بعض المترادفات ليس مترادفا لدلالته على وصف أو نحو ذلك ، ولكن الكثير منها لا يدل على شىء غير الذى يدل عليه اللفظ الآخر فلا حاجة إليه — ونعم ، إن كثرة المترادفات ضرورى للشعر العربى الذى تلتزم فيه القصيدة وحدة القافية والروى ، ولكن هذا فى نظرى عيب آخر يضاف إلى عيوب المترادفات ، فوحدة القافية والروى فى القصيدة

الطويلة أضعفت من الشعر إلا على يد المهرة ، وجعلت الشعراء يشدون المعانى شدا ليعثروا على القافية لا أن يأتوا بالقافية التى تلائم المعنى ، وما علينا لو تعددت القوافى فى القصيدة الواحدة ، فذلك أروح للسمع ، وأفسح مجالا للشاعر .

(ح) كذلك حذف كلمات الأضداد والقضاء عليها بتاتاً مثل قولهم : « ولّى إذا أقبل وولّى إذا أدبر ؛ وشعبتُ الشىء إذا أصلحته ، وشعبته إذا شققته ؛ وأفدت المال إذا أعطيته غيرى ، وأفدته استفدته ؛ وقسط جار ، وقسط عدل ؛ والغريم المطالِب ، والغريم الطالَب ، ونحو ذلك من مئات الكلمات . فهذا أسخف شىء فى اللغات وهو مفسد للقصد منها ، فإن اللغة موضوعة للإبانة عن المعانى ، فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على الشىء وضده لضاعت قيمة اللغة ، وكان هذا تعمية لا إبانة ، وتغطية لا كشفاً ، واللغة لم توضع لتكون ألغازاً . وعلة وجود الأضداد فى اللغة العربية أن العلماء جمعوا الكلمات من القبائل المختلفة ، فقد تكون الكلمة دالة على معنى فى لغة ، وعلى ضده فى لغة أخرى ، فكانت كل قبيلة حكيمة فى نفسها ؛ فماذا يريدوننا أن نجمع بين المتناقضات ؟ وكما ولّد اختلاف القبائل هذا التضاد ، ولد أيضاً كثرةَ المشترك فى اللغة ، فكم معنى للعين وللخال وغير ذلك مما يجعل الذى يريد أن يفهم نصا من النصوص حائراً بين جملة معان كلها صالح ، ولكن لا يستطيع الجزم بأحدها . ولعل القارىء لشرح ابن الأنبارى للمفضليات يرى فى كل قصيدة الاختلاف فى فهم المعانى لكثرة هذا المشترك ، ولكن لا أريد حذفه بتاتاً كما أريد حذف المتضاد ، فالحاجة إليه شديدة ، ولكن أريد التخفف منه قدر الإمكان .

هذه أمثلة من أمثلة تضييق الواسع . وأما الناحية الأخرى ، وهى توسيع الضيق ، فأبوابها التعريب والاشتقاق والقياس ، وكلها اتبعت فى العصر العباسى ، ثم كان الخطأ فى التضييق على أنفسنا فى استعمالها مع شدة حاجتنا إليها .

أما التعريب ، فقد سار مجمعنا اللغوى وبعض العلماء عليه سيراً محموداً ، وقضوا جزءاً كبيراً من وقتهم فى تعريب المصطلحات العلمية والفنية ، وليس عليهم إلا أن يستمروا فى طريقتهم فى تعريب أدوات الصناعة وسائر أدوات الحضارة ، مع توسع فى المنهج الذى يسيرون عليه ، وقد أفرد لذلك بحثاً آخر .

وأما الاشتقاق والقياس فكلاهما يتدخل فى الآخر فى بعض صوره ، فلأجمع بينهما فى الكلام ، وأسق بعض الأمثلة لما أريد منهما .

(١) إنا نعرف صيغ الزوائد ، كأفعل وفعّل وفاعل وانفعل وافتعل واستفعل الخ ، ونعرف المراد منها فى الأعم الأغلب ؛ فيقولون إن فاعَلَ للمشاركة مثلا ، وافتعل لاتخاذ شىء كاختتم اتخذ خاتماً ، واستفعل للطلب كاستغفر الله ، وتفاعَلَ لحصول شىء تدريجاً كتزايد النيل ، وتواردت الإبل ، إلى آخر ما قالوا .

ولكن وجه العيب أنهم قصروا ذلك على ما سُمع ، ولم يبيحوا لعلماء اللغة أن يتوسعوا فى هذا الاستعمال متى احتيج إليه وكان جاريا على أساليب اللغة . ما الذى يمنع من أن أقول خابرته كما قالوا نابأته والمعنى فى الاثنين واحد ؟ ! وما المانع أن أقول استلفتُّ نظره وفيها معنى طلبت إليه أن يوجِّه نظره ؟ ! ونحو ذلك . إن أكثر المتزمتين فى اللغة لا همّ لهم إلا أن يخطّئوا كل ذلك لأنه لم يرد فى المعاجم ؛ والذى أريد : أن يكون كل هذا قياسيًا متى انطبق على القواعد الصرفية ودعت الحاجة إليه . وكذلك الشأن فى المصادر ، فقد نصوا على أن الفعل إذا دل على حرفة* فقياس مصدره فِعَالة كالخياطة والحياكة ، فلنعمم ذلك إذا شئنا كالبرادة والنقاشة ؛ وفَعَلان يدل على التقلب كالجولان والغليان فنقيسه فى مثله متى احتجنا إليه ، ولو لم ينصوا عليه ؛ وصيغة فعّال تطلق على صاحب الحيوان ومروِّضه ، فقالوا : فيل وفَيّال ، فلم لا نقول إذا احتجنا قِرْد وقرّاد ، وكلب وكلاّب ، وهكذا ؟ !

(٢) كذلك من أصعب الأبواب وأكثرها خلطاً فى اللغة العربية المذكر والمؤنث ، فيؤنَّث المذكر ، فيقال : هو راوية للشعر وعلامة ، ونسابة ، ويذكَّر المؤنث فيقال هى كاعب وناهد ؛ وهناك ألفاظ يطلق فيها اللفظ الواحد على الذكر والأنثى من غير تغيير كقولهم : شاب أملود ، وجارية أملود ، و بعير ظهير ، وناقة ظهير ، أى قوى ، وجمل ضامر وناقة ضامر . وهناك الحيرة فى أسماء هل هى مؤنثة أم مذكرة ؟ كالدرع والرمح والرحم ، فلا بد من الإمعان فى الكشف عليها ، وقد لا تجد نصا ؛ وهناك ما يذكر و يؤنث على السواء ، كالسلاح والصاع والسكين والدلو والسوق والعسل والروح — فيجب العمل على تسهيل هذه الصعاب المربكة والجرأة فى تنظيمها ، ووضع قواعد عامة لها ، ولو خالفنا فيها بعض النصوص ، من مثل :

(ا) جواز تأنيث كل مؤنث بإلحاق تاء التأنيث به ، فنقول : هى كاعبة وناهدة ، وشاب أملود وجارية أملودة ، وجمل ضامر وناقة ضامرة .

(ب) كل ما لم يرد فيه نص فالأنثى بالهاء والمذكر من غيرها ، من غير توقف على نص .

(حـ) كل ما ليس مؤنثاً حقيقياً كأسماء الجماد إذا لم تكن فيه علامة التأنيث كالدلو والبئر والأرض والسماء والنجم يجوز تذكيره وتأنيثه ، كما روى صاحب المصباح عن ابن السكيت وابن الأنبارى إذ قالا : « إن العرب تجترئ على تذكير المؤنث إذا لم تكن فيه علامة التأنيث » .

وعلى الجملة فالواجب تنظيم هذا الباب بالقواعد التى ذكرت ونحوها ، وإزالة الصعاب التى شوّهت اللغة وجعلت تعلمها عسيراً .

كذلك يجب ألا نفهم أن اللغة العربية التى نملكها هى عمل العرب فى البادية وحدهم ، بل إن اللغة العربية هى عمل هؤلاء مضموماً إليه عمل الأدباء والعلماء الذين عانوها وعالجوها إلى اليوم ؛ و بعبارة أخرى يجب أن نفهم

أن اللغة ليست ما جمعه الخليل وابن دريد والجوهرى ونحوهم من ألسنة العرب وحدهم ، بل اللغة أيضاً ما استعمله ذوو الذوق العربى من أمثال أبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى العلاء ومن أتى بعدهم على منوالهم ، فإذا استعمل هؤلاء لفظاً أو تعبيراً لم يرد فى المعاجم ، ووجدناه يسد حاجة من حاجاتنا استعملناه وعددناه عربيا ، فالألفاظ التى استعملها أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى — من مثل : ندر الرجل ، وتندر إذا جاء بالنادرة ، وندر بفلان وتنادر عليه إذا جعله موضع نادرته — عربية كالتى نطق بها الأعرابى ؛ وإذا استعمل المقرى « التذكرة » بمعنى الرقعة التى يكتب فيها ليتذكر فهى عربية ؛ والألفاظ الاصطلاحية التى استعملها ابن خلدون ليسد بها حاجته فى علم الاجتماع عربية ويجب أن تدخل فى المعاجم .

وهذا كله يسلمنا إلى القول بغربلة ما سموه الدخيل ، وإدخال ما يصلح منه فى معاجمنا كالأصيل تماماً بلا تفرقة إلا إذا وضعنا معجما تاريخيا ، وقد قام الأستاذ « دوزى » فى ذلك مقاماً حسناً بمعجمه الذى وضعه فى معانى الكلمات المستحدثة التى وردت فى كتب المتأخرين .

هذا رأيى فى التوسيع والتضييق ، وليس ما ذكرت إلا أمثلة قليلة يمكن التوسع فيها إذا قبل المبدأ .

ثانياً : من أشق الأمور على دارس اللغة العربية وزن الفعل الثلاثى ماضيه ومضارعه من أوزان الفعل الستة ، والمتخصص فى دراسة اللغة يشيب ولا يستطيع الجزم بصحة نطقه فى هذا الباب أهو من باب نصر أو ضرب أو ذهب الخ ، ولو ترك هذا الأمر على حاله ما أمكن النطق الصحيح الدائم مهما طال الزمن وكثر الدرس ، بل فى كثير من الأحيان نشك فنرجع إلى المعاجم فى بعض الصيغ فلا تنص أو تختلف أو تجيز ! ومما يزيد الأمر صعوبة أن الفعل الواحد يكون

له وزن أو وزنان إذا كان بمعنى خاص ، وله وزن آخر أو وزنان إذا كان بمعنى آخر ، ويضطرب الباحث بين هذه النصوص ، وإذا لم يضطرب فلا يستطيع إحصاءها واستيعابها والأمن من الزلل فيها .

وقد أدرك هذه الصعوبة بعض العلماء قبلنا فاجتهدوا فيها ، فقد روى القاموس فى مقدمته عن أبى زيد الأنصارى : « إذا جاوزت المشاهير من الأفعال التى يأتى ماضيها على فَعَل فأنت فى المستقبل ( أى فى الفعل المضارع ) بالخيار إن شئت قلت يفعُل (بضم العين) ، وإن شئت قلت يفعِل ( بكسرها) » فتقول : حشر يحشِر ويحشُر ، وعكف يعكِف ويعكُف الخ » .

وهو اجتهاد حسن لا بأس به ، ولكن يجب أن يكون لنا من الحق ما لأبى زيد ، فننظم الأفعال الثلاثية كلها ولا نقتصر على ما كان من باب « فعل » ، ولا نجيز أن يكون مضارع فعل من باب ينصر أو يضرب ، فإن هذه توسعة ضارة لا حاجة إليها ، بل نكتفى بوزن واحد وليكن وزن يضرب . فإذا جاز لأبى زيد أن ينظم بعض التنظيم ، فنحن أحوج ما نكون إلى التنظيم الكامل وأقدر منه .

وهناك أبواب أخرى فى اللغة العربية مسبّبة للخلط والاضطراب ، كباب التعدى واللزوم ، وباب العدد ، والمصادر وكثرتها وبعثرتها ، وجموع التكسير واضطرابها الخ ، وكلها تحتاج إلى ضبط ولو بتضحية .

وأخيراً لا بد من تقرير فتح باب الاجتهاد فى اللغة لتنظيمها وضبط الفوضى فيها ، وهذا لا يكون إلا بالاعتقاد أن اللغة ملكنا لا أنّا ملك لها ، نتصرف فيها كما يتصرف المُلاك فى أملاكهم ، بالهدم والبناء والتغيير والتبديل ؛ إنما يجب أن يكون التصرف تصرف العقلاء لا السفهاء ، فنربط جديدنا بقديمنا ، ولا نبنى إلا ما نحن فى حاجة إليه ، ونبنيه على خير وجه يحقق الغرض المطلوب ، ونختار فى بنائه خير البناة .

إن الوضع الذى وضعنا فيه أنفسنا إزاء اللغة وضع خطأ ، لقد وضعناها وضع الإلهة المالكة المقدسة ووضعنا أنفسنا منها وضع العبد الذليل الخاضع . والوضع الصحيح أننا نحن السادة وهى العبدة الطيعة ، وليس يصح أن ننتظر رأياً من أبى زيد ، ولا كلمة من الأصمعى ، ولا تخريجاً من الأشمونى ، لنلجأ إليه ونعتصم به فى الإصلاح ، فعقولنا أقدر على فهم حاجتنا ، ونظرنا وتفكيرنا أقدر على تنظيم بيتنا .

إنى لأعجب من أن كثيراً من المصلحين تنبهوا إلى خطر الجمود فى التشريع ونادوا بالاجتهاد فيه مع الاحتفاظ بالأصول الكلية فى الدين ، ولكن لم أجد داعياً إلى الاجتهاد فى اللغة ، مع أن للجمود فيها خطراً لا يقل عن خطر الجمود فى التشريع ! ومصداق ذلك انصراف أكثر المتعلمين عنها متى نالوا حظا من لغة أجنبية ، وقلة من يجيدها قراءة وكتابة كأنها لغة إضافية لا لغة أصلية .

ثم لا خطر من هذا الاجتهاد مطلقا متى أحكم طريقه ، ومتى حوفظ على مقومات اللغة . وليست مقومات اللغة فى أنماط تحذف وألفاظ تزاد ، ولا فى هذه الفوضى فى كثير من الأبواب ، إنما مقومات اللغة فى هيئتها وبناء كلماتها وطريقة الاشتقاق منها ونحو ذلك ، بل إن تنظيمها وتحديد الفوضى فيها يرفع من شأنها ويزيد فى حيويتها ، ويكثر من سواد من يجيدها .

وهنا سؤال يصح أن يوجّه ، وهو لمن يكون هذا الحق فى الاجتهاد ؟

والجواب : أن شأن اللغة شأن غيرها من الفقه وسائر العلوم والفنون ، كل متمكن من فرع دارس له متخصص فيه نضج فيه ذوقه ، له الحق أن يقترح وينادى بنظريته التى يراها حقا ، والمتخصصون فى هذه المادة ينظرون إلى رأيه ونظرياته ويقررونها أو يرفضونها أو يعدّلونها ، ثم بعد ذلك الهيئات الرسمية فى التشريع تأخذ ما تراه صحيحاً من أقوال هؤلاء العلماء ، وتتخذ منها قانوناً لها ،

والمجامع العلمية المعترف بها من الأمة تقرر صحة النظرية العلمية أو خطأها، وتدخل في عداد العلم ما ثبتت صحته وهكذا؛ فكذلك الشأن في اللغة لكل كاتب وشاعر أن يستعمل من الكلمات اللغوية ما يؤدي غرضه ويعرضه على الناس ليجاروه أو يرفضوه، والمجامع الرسمية كمجمعنا ومجمع دمشق تأخذ من هذا كله ومما يعرضه عليها أعضاؤه بجدهم وبحثهم ما تراه صالحا، وتعدّه وتذيعه على الناس ليكون دستوراً. ثم لا بد أن يكون هناك اتصال بين المجمع والحكومة اتصالا تشريعيا؛ فإذا قرر المجمع مثلا رسم الألف اللينة في الآخر ألفاً مطلقاً، فلا قيمة لهذا القرار إلا أن تصدر وزارة المعارف بذلك أمراً لاستعماله في مدارسها وكتبها وإلزام المعلمين باتباعه، وهكذا حتى يكون للإصلاح نتيجة فعلية؛ ولنتبع في ذلك ما اتبعته الأمم الحية في إصلاح لغتها وكتابتها وننتفع من تجاربها، ونتجنب أخطاءها، والله الموفق.

# زعماء الإصلاح الإسلامى

## فى العصر الحديث

# مقدمة

طلع القرن التاسع عشر والعالم الإسلامى فى ظلمة حالكة ، ومحنة شاملة : جهل مطبق ، وظلم فادح ، وفقر مدقع .

هذا سائح فرنسى زار مصر فى آخر القرن الثامن عشر وهو مسيو ڤولنى Volney ، وأقام بها وبالشام نحو أربع سنوات يقول : « إن الجهل فى هذه البلاد عام شامل ، وهى فى ذلك مثل سائر البلاد التركية ، يشمل الجهل كل طبقاتها ، ويتجلّى فى كل نواحيها الثقافية من أدب وعلم وفن ؛ والصناعات اليدوية فيها فى أبسط حالاتها ، يندر أن تجد فى القاهرة من يصلح ساعتك إذا فسدت ، فإن عثرت على أحد منهم فهو إفرنجى »[1].

وهذه الحكومة المصرية تخشى من الرأى العام فى تعليم الرياضة والطبيعة ، فتستفتى شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الإنبابى « هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء — المعبر عنها بالكيمياء — وغيرها من سائر المعارف ؟ » فيجيب الشيخ فى حذر : « إن ذلك يجوز مع بيان النفع من تعلمها » — كأن هذه العلوم لم يكن للمسلمين عهد بها ، ولم يكونوا من مخترعيها وذوى التفوق فيها .

كان العالم الإسلامى منعزلا ، لا يتصل بأوربا إلا فيما تعانيه تركيا من مشاكلها السياسية ، فليس هناك اتصال بين الشعوب الإسلامية والشعوب الأوربية ؛ لقد أغلقت على العالم الإسلامى الأبواب منذ الحروب الصليبية ، وأخذ يأكل بعضه بعضا — وقفوا فى علمهم فليس إلا ترديد بعض الكتب الدينية واللغوية ، وفى صناعاتهم فلا اختراع ، بل ولا إتقان للقديم ، وفى آلاتهم

وفنونهم العسكرية فهى على نمط الأقدمين ؛ وسكان المدن والريف قد أُبعِدوا عن الاشتراك فى الشؤون السياسية والحربية ، فلا تراهم فى جيش ولا فى قيادة جيش ، ولا تعرض عليهم المشاكل السياسية ، ولا رأى لهم فيها ، إنما هم مزرعة الحكام ومستغَلُّ الولاة والأمراء ، كلما تفتّحت شهواتهم فعلى الرعية أن يجدوا سبيلا لملئها بالمال يجمعونه من عَرق جبينهم وصُنع أيديهم . مركز الخلافة — وهو الآستانة — مفكك منحل ، والولايات من مصر والشام والعراق والحجاز متدهورة منحدرة ، قد أمات نفسها توالى الاستبداد عليها ، يقودها فى العلم رجال الدين وهم أجهل الناس بالدنيا وشؤونها واتجاهاتها ، كل همّهم كلمة تعرب ، أو جملة فى كتاب تفسّر ، أو حفظ متن ، أو وضع حاشية على شرح ، وهذا كل عالَمهم ؛ أما الدنيا وكيف تسير ، والشعوب وكيف تظلم ، والعدل وكيف يُطلب ، فموكولة إلى الله تعالى يفعل فيها ما يشاء ؛ يخدمون كل وال ، ويلينون مع كل ظالم ؛ حتى « نابليون » لما دخل مصر لم يجد فيها قنطرة يعبر عليها لحكم مصر إلا مجلس العلماء ، وقال : « إنه استعان بهم ليتقى أكبر العقبات لأن أكثرها دينية — ولأنهم لا يعرفون أن يركبوا حصانا ولا أن يقوموا بأى عمل حربى ، وقد استفدت منهم كثيراً ، واتخذتهم وسيلة للتفاهم مع الشعب ، وألّفت منهم ديوان القضاء » .

يأكل بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضا . هذا الشيخ الدواخلى — أحد أكابر العلماء ونقيب الأشراف — يزدحم الناس على بابه ، ويتزاحم العلماء على مائدته ، فإذا غضب محمد على باشا عليه لكلمة بلغته عنه ، وأمر بالقبض عليه ونفيه إلى دسوق ، هرع هؤلاء العلماء الفضلاء يكتبون العرائض يملؤونها ذما فى الدواخلى وتشنيعاً عليه ، يعدّدون عليه ذنوباً أكثرها فى الحقيقة محامد ، ويقيمون الأفراح شماتة به ، ويعملون الولائم ويتضاحكون عليه ، فيصرخ

« الجبرتى » الرزين ، ويعلق على هذا الحادث بقوله : « إنهم قد زالت هيبتهم من النفوس ، وانهمكوا فى الأمور الدنيوية ، والحظوظ النفسانية ، والوساوس الشيطانية ، ومشاركة الجهال فى المآثم ، والمسارعة إلى الولائم ، فى الأفراح والمآتم ، يتكالبون على الأسمطة كالبهائم ، فتراهم فى كل دعوة ذاهبين ، وعلى الخوانات راكعين . . . وعلى ما وجب عليهم من النصح تاركين .

أمورٌ يضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيبُ »

ويشمت « الجبرتى » بهذا الشيخ الدواخلى لأنه فعل مثل هذا الصنيع مع السيد عمر مكرم .

ويقودها فى السياسة وال تركى يسيطر عليها بطائفة من الجند ، ولا يطيل المكث إلا ريثما يغتنى هو وجنوده من الأمة بالسلب والنهب والرشا ، حتى صبح اسم الحكومة والوالى والجند مرعباً مفزعا ؛ مقروناً فى النفس بمعنى الظلم والعسف واغتصاب المال .

وأعجب من هذا كله إلف الشعوب الإسلامية هذه الحالة السيئة والاستنامة إليها ، وكراهيتهم لكل إصلاح ؛ فإذا أريد إصلاح الجندية ثارت الانكشارية ؛ وإذا أريد إصلاح القانون غضب العلماء ؛ وهى مع ذلك يسودها الغرور ، فهى تشعر أنها خير ما فى الدنيا ، وقوتها فوق كل قوة ، والله ناصرها على كل عدو ، ولا خوف عليها من أى شعب آخر أو ملة أخرى ، أليس الله قد رد أعداءها فى الحروب الصليبية ، ومحا كيد من يكيد لها ويعتدى عليها ؟ ! فالعلم ليس إلا ما فى كتبهم وعند علمائهم ، والقوة الحربية ليست إلا فيهم ، وما على السلطان إلا أن يرفع البيرق النبوى حتى تلتف حوله جنود الأرض وجنود السماء فيمحقون كل قوة ، ويذلون كل جبار . يقول بعض المماليك المصريين عند ما بلغه نزول الحملة الفرنسية : « دعوهم فإذا جاءت جميع الجيوش الإفرنجية فسندوسهم بخيولنا » .

وعلى الجملة فقد كان العالم الإسلامى — إذ ذاك — شيخاً هرماً حطمته

الحوادث ، وأنهكه ما أصابه من كوارث ، من حروب صليبية ، وما تبعها من فساد نظام ، واستبداد حكام ، واستئثارهم بالمغانم ، وفوضى أحكام ، وخمود عام ، واستسلامه للقضاء والقدر ، وترديد قول الشاعر :

دع المقادير تجرى فى أعنّتها ولا تبيتنّ إلا خالىَ البال

فقدَ الدين روحه ، وصار شعائرَ ظاهرية لا تمس القلب ولا تحيي الروح ، وسادت الخرافات وانتشرت الأوهام ، وأصبح التصوف ألعاباً بهلوانية ، ووسيلة النجاح فى الحياة ليس الجد فى العمل ولكن التمسّح بالقبور والتوسل بالأولياء ، فهم الذين يُنجحون فى العمل ، وهم الذين ينصرون فى الحروب ، والشوارع والحارات مملوءة بالدجالين والمشعوذين .

هذا ما كان عليه الحال فى الشرق . أما الغرب فقد حمل معه بذور الإصلاح أيام الحروب الصليبية ، وبدأ يغرسها فى أرضه حتى أنتجت هذه البذور أشجاراً باسقة عصفت بها الريح حيناً ، ودب إليها الفساد حيناً ، ولكنها تحمّلت الشدائد حتى استوى أمرها وكونت لها شخصيتها . رفعت ثوراتُها من شأن الشعوب وجعلتها فوق شأن الحكام ، فبينا كان الحكام فى الشرق كل شىء ولهم كل الثروة وكل العظمة ، وللشعوب كل الفقر وكل الجهل ، كان النداء يدوّى فى الغرب بأن الأمة كل شىء ، وأن الحاكم إنما له حق البقاء فى مركزه ما خدم شعبه . وسلبوا القيادة العلمية من رجال الدين وسلّموا زمامها لرجال الدنيا ، يطلقون لعقولهم العنان ، ويبحثون ما شاءوا ، وقصروا رجال الدين على قيادتهم فى الأمور الروحانية والمسائل اللاهوتية ، ولكن ليس لهم قيادة فى العلم ولا فى السياسة ؛ فاتجه العلماء إلى الطبيعة يبحثونها فى كل مناحيها ، ويحاولون الوقوف على أسرار الكون ، ويبنون حياتهم العملية على ما اكتشفوا منها فى صناعاتهم وتجاراتهم ، ويستخدمون الهندسة والفلك والكيمياء والرياضة والميكانيكا فى بناء السفن

والمدفعية والقوى الحربية ، وسببت عندهم المخترعات والصناعات والآلات ثروة كبيرة لكثير من الأفراد ساعدت على تأسيس شركات تقوم بأضخم الأعمال ؛ وهذا التقدم في الصناعات رفع من شأن أفراد الشعوب ، وجعل لهم الكلمة العليا في حكوماتهم ، وحررهم في الفكر والعمل ، فتضاعف التفكير ، وتضاعف الاستكشاف ، وتضاعف الإنتاج .

***

هذا هو الشرق ، مصره لا تعرف أن تصلح ساعة ، وجيوشه تعبأ على طريقة الحروب الصليبية ، وأسلحته هي ما كانت عليه منذ خمسة قرون ، ومشايخه يبحثون في الكتب ليستخرجوا فتوى بحِلّ تعلّم الحساب أو حرمته ، وشعوبه أكواخ حقيرة فقيرة قذرة لعامة الناس ، وقصور فخمة ضخمة ملئت بالجوارى الحسان وكل أسباب الترف والنعيم لعدد محدود من الولاة والأمراء ، وكل ما في البلاد من خير فلهؤلاء السادة ، وكل ما في البلاد من شقاء فعلى رءوس الشعب .

وهذا هو الغرب ، ثورة من شعوبه على الحكام ونظام الطبقات لتسترد حريتها ، وثورة على النظام الاقتصادى لتنظم الضرائب وتحرر التجارة وتحدّ من تدخل الحكومة في الأعمال الاقتصادية ، وتنشط الزراعة والصناعة بشتى الوسائل ، ثم ثورة صناعية نتج عنها توسع في استخراج الفحم والحديد وصناعة الآلات .

هذا هو الحال عند ما اصطدم الشرق بالغرب حول أوائل القرن التاسع عشر — لقد كان الغرب يتهيب الشرق لِمَا وقر في نفسه من عظمته أيام الحروب الصليبية ، ولكن ما لبث التجار والجواسيس والرحالة الغربيون يكشفون لأممهم حال الشرق حتى اقتنعوا بضعفه ؛ وكانت أكبر ناحية تفوّق فيها الغرب على الشرق — عدا ما ذكرنا — هي الناحية البحرية ؛ فإن كانت بعض دول

الشرق قوية فى جنودها ، باسلة فى قتالها ، فليس لها ما تعتمد عليه من أساطيل بحرية قوية كالتى للغرب .

لقد غزا الغرب الشرق مسلحاً بالعلم الواسع فى شتى نواحيه ، فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، و بنفسية الشعوب وجغرافية العالم وتاريخه ، ومسلحاً بالأدوات الحديثة فى الحروب براً و بحراً ، وبالأساليب الحربية على آخر طراز ، ومسلحاً برءوس الأموال تمده بها الحكومات والشركات ، ومسلحاً برجال العلم ينزلون مع الجيش يدرسون و ينقبون عن الزراعة والصناعة والحضارة القديمة والفن وما إلى ذلك .

وحيثما غزا الغرب قطراً فسرعان ما يبث فيه أسباب حضارته من سكك حديدية تمد ، و بريد ينظم ، وزراعة تصلح ، ومالية تضبط ، وهو المشرف على كل ذلك يسخرها كما يشاء حسبما يشاء ؛ ولا يكتفى بنشر حضارته المادية بل ينشر حضارته العلمية والأدبية ، فالمدارس الوطنية تدرس لغته وآدابه وفنونه وعلومه ، وهذه تزاحم الثقافة القديمة للبلاد شيئاً فشيئاً ، والعاداتُ الغربية تكتسح العادات القديمة ، وعلى الإجمال تنبث المدنية الغربية فى البلاد المفتوحة بخيرها وشرها .

كل هذا نبه الشرق مذعوراً من سباته العميق ، والتفت وراءه فرأى ماضياً قريباً يستدعى الخجل : من إهمال مصالح البلاد وفساد مرافقها ، وضعف ثغورها ؛ ورأى حاضراً خائراً لا يقف أمام قوة ، ولا يصدّ تياراً عنيفاً ، وليس يملك شيئاً إلا أن يلعن من أوصله إلى هذا الحال . وما غناء اللعن باللسان أمام قوة السنان ؟ .

وكانت هذه حال العالم الإسلامى أجمع حول أوائل القرن التاسع عشر ، سواء فى ذلك ما غزى من الأقطار وما ينتظر الغزو القريب ، لأن القوى الغربية تتسابق ، وسقوط الأقطار الشرقية يتلاحق .

وقد كانت أكبر مصيبة أصيب بها الشرق فى هذه الآونة قلة رجاله الخبيرين بالدنيا وشؤونها ، والسياسة وألاعيبها ، الماهرين فى معالجة المشاكل ، الحازمين فى تصريف الأمور ، وحتى كان إذا وجد أمثال هؤلاء لم يجدوا تأييداً من الرأى العام الجاهل ، فمن نادى بالمساواة فى العدل بين الرعية من غير نظر إلى جنس أو دين اتهم بمحاربته للمسلمين ، ومن نادى بتنظيم الجيش على الأساليب الحديثة اتهم بالتفرنج والخروج على التقاليد ، ومن نادى بتأسيس مجلس شورى اتهم بمحاربة السلطان ، والحض على الثورة ، والعبث بالنظام ؛ وهكذا .

وكانت هذه الخيبة التى مُنِىَ بها سبباً فى التفكير فى حالته والحزن على ما أصابه ، ونزعة بعض المفكرين وكبار الرجال فى الإصلاح ، فنبغ رجال قليلون فى سائر الأقطار يعالجون الإصلاح بوسائل مختلفة ، كل ينظر إليه من زاوية خاصة ؛ ولعل أشهر الزعماء فى العصر الحديث وأكبرهم أثراً كان محمد ابن عبد الوهاب فى الحجاز ، ومدحت باشا فى تركيا ، والسيد احمد خان فى الهند ، والسيد جمال الدين الأفغانى فى مصر ، والسنوسى فى طرابلس ، وخير الدين باشا فى تونس .

وسنذكر كلمة عن كل رجل من هؤلاء وغيرهم نبين فيها وجهة نظره فى الإصلاح ، وما قدِّر له من خيبة أو فلاح ، فربما جهل كثير من شباب الجيل الحاضر تاريخهم ، مع قرب العهد بهم ، وتأثرنا فى حاضرنا ومستقبلنا بأعمالهم .

# محمد بن عبد الوهاب

١١١٥ — ١٢٠٦ ﻫ

١٧٠٣ — ١٧٩١ م

هو زعيم الفرقة التى تسمّى الوهابية ، وتعتنق مذهبه الحكومة الحاضرة فى الحجاز .

نشأ فى بلدة تسمى « العيينة » فى نجد ، وتعلم دروسه الأولى بها على رجال الدين من الحنابلة ، وسافر إلى المدينة ليتم تعلمه ؛ ثم طوّف فى كثير من بلاد العالم الإسلامى ، فأقام نحو أربع سنين فى البصرة ، وخمس سنين فى بغداد ، وسنة فى كردستان ، وسنتين فى همذان ؛ ثم رحل إلى أصفهان ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوف ، ثم رحل إلى « قُم » ، ثم عاد إلى بلده واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر ، ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة .

وأهم مسألة شغلت ذهنه فى درسه ورحلاته مسألة التوحيد التى هى عماد الإسلام ، والتى تبلورت فى « لا إله إلّا الله » ، والتى تميّز الإسلام بها عما عداه ، والتى دعا إليها « محمد » (ص) أصدق دعوة وأحرّها ؛ فلا أصنام ولا أوثان ، ولا عبادة آباء وأجداد ، ولا أحبار ولا نحو ذلك . ومن أجل هذا سمّى هو وأتباعه أنفسَهم « بالموحدين » ؛ أما اسم الوهابية فهو اسم أطلقه عليه خصومهم ، واستعمله الأوروبيون ، ثم جرى على الألسن .

وقد رأى أثناء إقامته فى الحجاز ورحلاته إلى كثير من بلاد العالم الإسلامى أن هذا التوحيد الذى هو مزية الإسلام الكبرى قد ضاع ، ودخله كثير من الفساد .

فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هـذا العالم ، والمسيطر عليه ، وواضع قوانينه التى يسير عليه ، والمشرّع له ، وليس فى الخلق من يشاركه فى خلقـه ولا فى حكمه ، ولا من يعينه على تصريف أموره ؛ لأنه تعالى ليس فى حاجة إلى عون أحد مهما كان من المقربين إليه ؛ هو الذى بيده الحكم وحده ، وهو الذى بيده النفع والضر وحده ، لا شريك له ؛ فمعنى لا إله إلا الله : ليس فى الوجود ذو سلطة حقيقية تسيّر العالم وَفقاً لما وضع من قوانين إلا هو ، وليس فى الوجود من يستحق العبادة والتعظيم إلا هو ، وهذا هو محور القرآن : « قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سَـوَاء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخـذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون » .

إذن فما بال العالم الإسلامى اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة إلى الإشراك مع الله كثيراً من خلقه ؟ فهذه الأولياء يُحَجُّ إليها، وتقدّم لها النـذور ، ويعتقد فيها أنها قادرة على النفع والضر ؛ وهذه الأضرحة لا عداد لها تقام فى جميع أقطاره ، يشدُّ الناس إليها رِحالهم ، ويتمسحون بها ، ويتذلّلون لها ، ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم ؛ ففى كل بلدة ولىّ وأولياء ، وفى كل بلدة ضريح وأضرحة تُشْرَك مع الله تعالى فى تصريف الأمور ودفع الأذى وجلب الخير ، كأن الله سلطان من سلاطين الدنيا الغاشمين ، يُتقرّب إليه بذوى الجاه عنده وأهل الزلفى لديه ، ويُرْجَون فى إفساد القوانين وإبطال العدل ؛ أليس هذا كما كان يقول مشركو العرب : « ما نعبدهُم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى » وقولهم : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ؟ !

بل وا أسفاه ! لم يكتف المسلمون بذلك بل أشركوا مع الله حتى النبات والجماد ؛ فهؤلاء أهل بلدة « منفوحة » باليمامة يعتقدون فى نخلة هناك أن لها قدرة

عجيبة مَنْ قصدها من العوانس تزوّجت لعامها ؛ وهذا الغار فى الدرعية يحج إليه الناس للتبرك ، وفى كل بلدة من البلاد الإسلامية مثل هذا ؛ ففى مصر شجرة الحنفى ، ونعل الكُلْشَنِي ، وبوابة المتولّى [١] ؛ وفى كل قطر حجر وشجر ، فكيف يخلص التوحيد مع كل هذه العقائد ؟

إنها تصدّ الناس عن الله الواحد ، وتشرك معه غيره ، وتسىء إلى النفوس ، وتجعلها ذليلة وضيعة مخرفة ، وتجردها من فكرة التوحيد ، وتفقدها التسامى .

وأساس آخر يتصل بهذا التوحيد كان يفكر فيه « محمد بن عبد الوهاب » ، وهو أن الله وحده هو مشرّع العقائد ، وهو وحده هو الذى يحلّل ويحرم ، فليس كلام أحد حجة فى الدين إلا كلام الله وسيد المرسلين ، فالله يقول : « أم لهم شركاء شرَعُوا لهم من الدين مالم يأذَن به الله » ؛ فكلام المتكلمين فى العقائد ، وكلام الفقهاء فى التحليل والتحريم ليس حجة علينا ، إنما إمامنا الكتاب والسنة ، وكل مستوفٍ أدواتِ الاجتهاد له الحق أن يجتهد ، بل عليه أن يفعل ذلك ويستخرج من الأحكام — حسب فهمه لنصوص الكتاب وما صح من السنة — ما يؤديه إليه اجتهاده . وإقفال باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين ، إذ أضاع شخصيتهم وقوّتهم على الفهم والحكم ، وجعلهم جامدين مقلّدين يبحثون وراء جملة فى كتاب أو فتوى من مقلّد مثلهم ، حتى انحط شأنهم وتفرقوا أحزاباً يلعن بعضهم بعضاً ، ولا منجاة من هذا الشر إلا بإبطال هذا كله ، والرجوع إلى الدين فى أصوله ، والاستقاء من منبعه الأول .

وهكذا شغلت ذهنه فكرة التوحيد فى العقيدة مجردة من كل شريك ،

---

(١) شجرة الحنفى : شجرة كانت فى جامع الحنفى يتبرك بها . ونعل الكلشنى : نعل قديمة فى تكية الكلشنى يزعمون أن الماء إذا شرب منها ينفع للتداوى من العشق . وبوابة المتولى مملوءة بالمسامير تعلق بها الشعور والخيطان ليذكر بالخير من علقها . وهكذا .

والتوحيد فى التشريع فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة .

هذا هو أساس دعوة محمد بن عبد الوهاب ، وعلى هذا الأساس بُنِيَت الجزئيات .

اقتفى فى دعوته وتعاليمه عالِماً كبيراً ، ظهر فى القرن السابع الهجرى فى عهد السلطان الناصر هو « ابن تيمية » ، وهو — مع أنه حنبلى — كان يقول بالاجتهاد ولو خالف الحنابلة ، وكان حرّ التفكير فى حدود الكتاب وصحيح السنة ، ذلق اللسان ، قوى الحجة ، شجاع القلب لا يخشى أحداً إلا الله ، ولا يعبأ بسجن مظلم ، ولا تعذيب مرهق ، فهاجم الفقهاء والمتصوّفة ، ودعا إلى عدم زيارة القبور والأضرحة وهدمها ، وألّف فى ذلك الرسائل الكثيرة ، ولم يعبأ إلا بما ورد فى الكتاب والسنة ، وخالف إمامه أحمد بن حنبل إذا أداه اجتهاده إلى ذلك

فيظهر أن « محمد بن عبد الوهاب » عرف ابن تيمية عن طريق دراسته الحنبلية ، فأعجب به ، وعكف على كتبه ورسائله يكتبها ويدرسها . وفى المتحف البريطانى بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب ، فكان ابن تيمية إمامه ومرشده وباعث تفكيره ، والموحى إليه بالاجتهاد والدعوة إلى الإصلاح .

دعا مثله إلى رد البدع ، والتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده لا إلى المشايخ والأولياء والأضرحة ، ولا بوساطة توسّل ولا شفاعة ، وزيارة القبور إن كانت فللعظة والاعتبار ، لا للتوسل والاستشفاع ، فهم لا يملكون شيئاً بجانب الله وقوانينه الثابتة التى لا تتخلّف والتى نظّم الله بها كونه ؛ فالذبح للقبور والنذور لها والاستغاثة بها والسجود عندها شرك لا يرضاه الله ، وهو هدم للتوحيد — الذى جاء به الإسلام — من أساسه ، ومثل ذلك تجصيص القبور وبناية الأضرحة ، وتشييد الأبنية عليها وكسوتها بالحرير المذهّب وما إلى ذلك ، فكل هذه لا يعرفها الإسلام .

فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حربا على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد ، فلا اجتماع لقراءة مولد ، ولا احتفاء بزيارة قبور ، ولا خروج للنساء وراء الجنازة ، ولا إقامة أذكار يغنى فيها ويرقص ، ولا « محمل » يتبرك ويتمسح ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم ، وهو ليس إلا أعواداً خشبية لا تضر ولا تنفع .

كل هذا مخالف للإسلام الصحيح يجب أن يزال ، ويجب أن نعود إلى الإسلام فى صفاته الأولى ، وطهارته ونقائه ، ووحدانيته واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك ؛ فلا إله إلا الله معناها كل ذلك . والكتب المملوءة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد ، كدلائل الخيرات ، وما فى البردة من مثل قوله :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به     سواك عند حدوث الحادث العمم

وقوله :

إن لم تكن فى معادى آخذاً بيدى     فضلا وإلا فقل يازلة القدم

وقوله :

فإن من جودك الدنيا وضرتها     ومن علومك علم اللوح والقلم

ونحو ذلك ، أقوال فاسدة كاذبة ، فلا التجاء إلا إلى الله ، ولا اعتماد فى الدنيا والآخرة إلا عليه .

لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن نحا نحوه يرون أن ضعف المسلمين اليوم وسقوط نفسيتهم ليس له من سبب إلا العقيدة ، فقد كانت العقيدة الإسلامية فى أول عهدها صافية نقية من أى شرك ، وكانت لا إله إلا الله معناها السمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة العظماء وعدم خوف من الموت فى سبيل الحق ، ولا خوف من استنكار المنكر والأمر بالمعروف مهما تبع ذلك من عذاب ، ولا قيمة للحياة إلا إذا بذلت فى رفع لواء الحق ودفع الظلم ، وهذا هو الفرق الوحيد

بين العرب فى الجاهلية والعرب فى الإسلام ، وبهذه العقيدة وحدها غزوا وفتحوا وحكموا . ثم ماذا ؟

ثم لم يتغير شيء إلا العقيدة ، فتدنوا من سمو التوحيد إلى حضيض الشرك ، فتعددت آلهتهم من حجر وشجر وأعواد أخشاب وقبور أولياء ، وركنوا إلى ذلك فى حياتهم العامة ؛ فالزرع ينجح لرضا ولى ويخيب لغضبه ، والبقرة تحيا إذا نذرت للسيد البدوى أو مثله ، وتموت إذا لم تنذر ، وهكذا فى الأمراض والعلل والغنى والفقر ، كلها لا ترجع إلى قوانين الله الطبيعية و إنما ترجع إلى غضب الأرواح ورضاها . ومثل هذه النفوس الضعيفة التى تذل للحجر والشجر والأرواح لا تستطيع أن تقف أمام الولاة والحكام الظالمين تأمر بمعروف أو تنهاهم عن منكر ، فذلوا للحكام والأغنياء كما ذلوا للأخشاب والأحجار . وما زال كل قرن يمر تزداد معه الآلهة عددا وتزداد النفوس ذلة ، حتى وصلت الحال بالأمة الإسلامية إلى فقد سيادتها ، وانهيار عزتها . ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله ، فلا بد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى حيث التوحيد الصحيح والعزة الحقة ، ولا بد من هدم هذه البدع والخرافات باللين إن نجح ، وبالقوة إن لم ينجح ، والله المستعان .

لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ، ولم يتجه فى إصلاحه إلى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد على باشا ، وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها والروح وحدها ؟ فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب ، إن صلحا صلح كل شيء ، وإن فسدا فسد كل شيء ، وطبيعى أن يكون هذا هو الفرق بين رئيس الدين فى نجد ورئيس الحكم فى مصر .

***

أما بعد ، فإن التوحيد الصحيح المطلق المجرد عن شائبة كل تجسيم ، المنزّه عن كل تشخيص ، الذى يصل العبد بربه من غير وساطة ولا وسيلة ، مطلب عسير لا يستطيعه إلا الخاصة أو خاصة الخاصة ، أما من عداهم فيشعرون بالتوحيد لحظات ثم سرعان ما يتدهورون ويشوب عقيدتهم نوع من التشخيص ، وأسلوب من التجسيم على نحو ما ، ثم يتخذون من الصالحين وسائل وزلفى — كان ذلك فى الجاهلية وكان ذلك فى الإسلام بُعيد البعثة إلى الآن .

فالمؤرخون يروون أن أهل الطائف لما أسلموا كان لهم بَنِيّة على اللات ، فأمر النبى بهدمها فطلبوا منه أن يترك هدمها شهراً لئلا يروّعوا نساءهم وصبيانهم حتى يُدخلوهم الدين ، فأبى ذلك عليهم وأرسل معهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب وأمرهما بهدمها .

وفى الحديث أن العرب كانت لهم فى الجاهلية شجرة تسمى « ذات أنواط » كانوا يعلّقون بها سلاحهم ويعكفون حولها ويعظمونها ، فسأل بعض المسلمين رسول الله أن يجعل لهم كذلك « ذات أنواط » فنهاهم عن ذلك .

ولما جاء عمر شعر أن بعض الناس أخذ يحن إلى العادات الجاهلية القديمة ، فرآهم يأتون الشجرة التى بايع رسول الله (ص) تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأمر بها فقطعت .

ولما رأى عمر كعب الأحبار يخلع نعله ويلمس برجليه الصخرة عند فتح بيت المقدس ، قال له : « ضاهيت والله اليهودية يا كعب » .

وهكذا ما لبث بعض الناس حتى تراجع عن التوحيد المطلق الذى جاء به الإسلام ، لأن التجرد من المادة بكافة أشكالها ، والإفلات من قيود الحس ، والتسامى إلى الله فوق المادة وفوق الحس وفوق التشخيص يتطلب منزلة رفيعة من السمو العقلى تعجز عنه الجماهير .

وقال النبي (ص) « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » .

ثم سرعان ما اتخذ المسلمون قبور الصالحين وغير الصالحين مساجد ، ولم يكن الصحابة الأولون يشدُّون الرحال إلى المشاهد ، ثم كان ذلك ، وهكذا كلما مضى زمن كثرت فيه أصناف التعظيم للقبور والأضرحة وكثير من الأشجار والجماد .

وظهر الدعاة والمصلحون على توالى العصور يحاولون أن يردوا الناس عن هذا ويرجعوهم إلى التوحيد وحده ، وكلما دعا داع إلى ذلك عذب وأهين ورمى بالكفر والإلحاد كما فُعل بابن تيمية ، فقد ألف الرسائل فى هذا الموضوع وانتقد حال المسلمين فى استغاثتهم بالقبور ورحيلهم إليها ، وطوافهم بالصخرة فى بيت المقدس ، ورحيلهم إلى مشهد الخليل ومشاهد عسقلان ، وتعظيمهم حتى بعض آثار النصرانية ، فعذِّب وسجن ؛ وأتى بعده بقرون محمد بن عبد الوهاب هذا فدعا مثل هذه الدعوة فرمى بالكفر . وأخيراً جاء الشيخ محمد عبده فدعا إلى العدول عن التوسل والشفاعة والزيارة للقبور ، وملأ دروسه فى التفسير وتفسيره لجزء « عم » بمثل هذه الدعوة ، فلقى من أهل زمنه مالم يغب عن أذهاننا بعد .

هذا هو جوهر الدعوة التى دعا بها محمد بن عبد الوهاب فماذا كان شأنها ومصيرها ؟

## ٢

كانت جزيرة العرب عند ما دعا محمد بن عبد الوهاب دعوته — التى شرحناها فى العدد الماضى — أشبه شىء بحالتها فى الجاهلية ، كل قبيلة تسكن موضعاً يرأسها أمير منها : هذا أمير فى الأحساء ، وهذا أمير فى العسير ، وهؤلاء أمراء فى نجد الخ ، ولا علاقة بين الأمير والأمير إلا علاقة الخصومة غالباً . ثم تتوزّعها — أيضاً — الخصومة بين البدو والحضر ، فمن قدر من البدو على خطف شىء من الحضر فعل ، ومن قدر من الحضر على التنكيل ببدوٍ فعل ؛ والطرق غير مأمونة ، والسلب والنهب على أشدّهما ، وسلطة الخلافة فى الآستانة تكاد تكون سلطة اسمية ، ومظهرها تعيين الأشراف فى مكة و إمدادهم ببعض الجنود وكفى .

لقد بدأ « محمد بن عبد الوهاب » يدعو دعوته — التى ذكرناها — فى لين ورفق بين قومه . ثم أخذ يرسل الدعوة لأمراء الحجاز والعلماء فى الأقطار الأخرى ، حاثاً لهم على استنهاض الهمم فى مكافحة البِدَع والرجوع إلى الإسلام الصحيح .

كم من المصلحين دَعَوْا مثل هـذه الدعوة ، ولكنها مرّت بسلام ، و إن شابها شىء فسجن الداعى أو التشهير به ، ورميه بالكفر أو الزندقة ، ثم ينتهى الأمر ويعود الناس سيرتهم الأولى ؛ بل نرى من قام بمثل هذه الدعوة — فعلا — فى المغرب كالشيخ أبى العباس التيجانى ، فقد أمر بترك البدع ونهى عن زيارة القبور ، وكثرت أتباعه حتى بلغت مئات الألوف ، ولكن لم يلفت الناسَ والحكامَ أمرُه كما لفتهم محمد بن عبد الوهاب ؛ وكذلك الشيخ محمد عبده دعا مثل هذه الدعوة فأجابه بعضهم وأنكر عليه بعضهم ، ثم أسدل الستار . فما السبب فى نجاح الدعوة الوهابية دون الأخرى ؟

السبب فى هذا ما أحاط بالدعوة الوهابية من ظروف لم تتهيأ لغيرها .

فقد اضطهد فى بلده العيينة ، واضطر أن يخرج منها إلى الدرعية مقر آل سعود ؛ وهناك عرض دعوته على أميرها محمد بن سعود فقبلها ، وتعاهدا على الدفاع عن الدين الصحيح ومحاربة البدع ، ونشر الدعوة فى جميع جزيرة العرب باللسان عند من يقبلها ، وبالسيف عند من لم يقبلها ؛ وإذ ذاك دخلت الدعوة فى دور خطير ، وهو اجتماع السيف واللسان ، وزاد الأمر خطورة نجاح الدعوة شيئاً فشيئاً ، ودخول الناس أفواجا فيها ، وإخضاع بعض الأمراء بالقوة لحكمها ، وكلما دخلوا بلدة أزالوا البدع وأقاموا تعاليمهم ، حتى هددت الحركة كل جزيرة العرب . ولما مات الأمير ومات الشيخ تعاقد أبناء الأمير وأبناء الشيخ على أن يسيروا سيرة آبائهم فى نصرة الدعوة متكاتفين ، وظلوا يعملون حتى غلبوا على مكة والمدينة .

وشعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز من يدها ، وهو موطن الحرمين الشريفين اللذين يجعلان لها مركزاً إسلاميا ممتازاً ، تفقد الكثير منه إذا فقدتهما .

فأرسل السلطان محمود إلى محمد على باشا فى مصر بأن يسيّر جيوشه لمقاتلة الوهابيين ؛ وكما أرسلت الجيوش لمقاتلتهم أرسلت الدعاية من جميع الأقطار الإسلامية للنيل من هذه الدعوة وتكفير مبتدعيها ، وحمل علماء المسلمين عليها حملات منكرة ، وألفت الكتب الكثيرة فى التخويف منها والتشنيع عليها .

وهكذا حدثت الحرب بالسيف والحرب بالكلام ، كل هذا خدم الدعوة الوهابية بلفت الأنظار إليها ، ودورانها على كل لسان . وزاد فى شأنها أن الوهابيين انتصروا على حملة محمد على باشا الأولى بقيادة الأمير طوسون .

ثم أعد محمد على باشا العُدّة القوية الكبيرة ، وسار بنفسه وحاربهم بخير سلاحه ، فانتصر عليهم ، وأتمّ النصر ابنه إبراهيم باشا ، وانهزمت قوة الوهابيين ؛

ولكن بقيت الدعوة إلى أن هيئ لها في العهد الحاضر المملكة السعودية الحاضرة في تاريخ طويل لا يعنينا هنا، وإنما يهمنا الدعوة وما تم لها.

إن الدعاية التي أحكمت ضدها، وتعلق الناس بالدولة العثمانية، وميلهم الشديد أن تظل بلادها وحدة لا ينفصل عنها جزء، جعلت عامة المسلمين في أقطار العالم الإسلامي يفرحون بهزيمة الوهابية، ولو لم يفهموا جوهر دعوتها. وشيء آخر كان كبير الأثر في تنفير عامة المسلمين من هذه الحركة، وهو أنها حيث استولت على بلد نفذت تعاليمها بالقوة ولم تنتظر حتى يؤمن الناس بدعوتها؛ فلما دخلوا مكة هدموا كثيراً من القباب الأثرية كقبة السيدة خديجة؛ وقبة مولد النبي (ص)، ومولد أبي بكر وعلي؛ ولما دخلوا المدينة رفعوا بعض الحلي والزينة التي كانت على قبر الرسول؛ فهذه كلها أثارت غضب كثير من الناس وجرحت عواطفهم، فمنهم من حزن على ضياع معالم التاريخ، ومن حزن على الفن الإسلامي، ومنهم من حزن لأن مقبرة الرسول (ص) وفخامتها مظهر للعاطفة الإسلامية وقوة الدولة؛ وهكذا اختلفت الأسباب واشتركوا في الغضب، والوهابيون لم يعبئوا إلا بإزالة البدع والرجوع بالدين إلى أصله.

قد اهتموا بالناحية الدينية وتقوية العقيدة، وبالناحية الخلقية كما صورها الدين، ولذلك حيث سادوا قلت السرقة والفجور وشرب الخمور وأمن الطريق وما إلى ذلك؛ ولكنهم لم يمسوا الحياة العقلية ولم يعملوا على ترقيتها إلا في دائرة التعليم الديني، ولم ينظروا مشاكل المدنية الحاضرة ومطالبها. وكان كثير منهم يرون أن ما عدا قطرهم من الأقطار الإسلامية التي تنتشر فيها البدع ليست ممالك إسلامية، وأن دارهم دار جهاد؛ فلما تولت حكومة ابن سعود الحاضرة كان لا بد أن تواجه الظروف الحاضرة، وتقف أمام منطق الحوادث، ورأت نفسها أمام قوتين قويتين لا معدى لها عن مسايرتهما، قوة رجال الدين في نجد المتمسكين

أشد التمسك بتعاليم ابن عبد الوهاب والمتشددين أمام كل جديد فكانوا يرون أن التلغراف السلكي واللاسلكي والسيارات والعجلات من البدع التي لا يرضى عنها الدين ، وقوة التيار المدني الذي يتطلّب نظام الحكم فيه كثيراً من وسائل المدنية الحديثة كما يتطلب المصانعة والمداراة ، فاختطت لنفسها طريقاً وسطاً شاقا بين القوتين ، فقد عدلت نظرها إلى الأقطار الإسلامية الأخرى وعدّتهم مسلمين ، وبدأت تنشر التعليم المدني بجانب التعليم الديني ، وتنظم الإدارة الحكومية على شيء من النمط الحديث ، وتسمح للسيارات والطيارات واللاسلكي بدخول البلاد والاستعمال وما إلى ذلك ، وما أشقّه عملا : التوفيق بين علماء نجد ومقتضيات الزمن ، و بين طبائع البادية ومطالب الحضارة .

***

لم تقتصر الدعوة الوهابية على الحجاز والجزيرة العربية ، بل تعدّتها إلى غيرها من كثير من الأقطار الإسلامية . وكان موسم الحج ميداناً صالحاً وفرصة سانحة لعرض الدعوة على أكابر الحجاج واستمالتهم إلى قبولها ، فإذا عادوا إلى بلادهم دعوا إليها . فنرى في زنجبار طائفة كبيرة من المسلمين يعتنقون هذا المذهب ، ويدعون إلى ترك البدع ، وعدم التقرّب بالأولياء .

وقام في الهند زعيم وهابي اسمه السيد أحمد ، حجّ سنة ١٨٢٢ م ، وهناك آمن بالمذهب الوهابي وعاد إلى بلاده ، فنشر هذه الدعوة في بنجاب وأنشأ بها شبه دولة وهابية ، وأخذ سلطانه يمتد حتى هدد شمال الهند ، وأقام حرباً عواناً على البدع والخرافات ، وهاجم الوعاظ ورجال الدين هناك ، وأعلن الجهاد ضد من لم يعتنق مذهبه ويقبل دعوته ، وأن الهند دار حرب ؛ ولقيت الحكومة الإنجليزية متاعب كثيرة شاقة من أتباعه حتى استطاعت إخضاعهم .

وكذلك حضر الإمام السنوسي مكة حاجًا ، وسمع الدعوة الوهابية واعتنقها ،

وعاد إلى الجزائر يبشر بها ، ويؤسس طريقته الخاصة فى بلاد المغرب كما سيأتى بيانه .

وفى اليمن ظهر أعلم علمائه ، وإمام أئمته وهو الإمام الشوكانى المولود سنة ١١٧٢ هـ ، فسار على نفس هذا النهج ، وإن لم يتلقه عن ابن عبد الوهاب ، وألف كتابه القيم « نيـل الأوطار » شارحا فيه كتاب ابن تيمية « مُنتقى الأخبار » ، عارضاً الأحاديث النبوية ، مجتهداً فى فهمها ، وفى استنباط الأحكام الشرعية منها ولو خالف المذاهب الأربعة كلها ؛ وحارب التقليد ودعا إلى الاجتهاد وثارت من أجل ذلك حرب كلامية شعواء بينه وبين علماء زمنه ، كان أشدها فى صنعاء ، وألف فى ذلك رسالة سماها « القول المفيد فى حكم التقليد » ؛ ودعا فى قوة إلى عدم زيارة القبور والتوسـل بها ، فقال فى نيل الأوطار (١) :

« وكم سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكى لها الإسلام ، (منها) اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام ، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر ؛ فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج ، وملجأ لنجح المطالب ، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم ، وشدوا إليها الرحال ، وتمسحوا بها واستغاثوا ، وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

« ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع ، لا نجد من يغضب لله ، ويغار حميـة للدين الحنيف لا عالماً ولا متعلماً ، ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملـكا ، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من قبـل خصمه حلف بالله فاجرا ، فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك ومعتقدك الولى الفلانى تلعثم وتلكأ ، وأبى واعترف بالحق ؛ وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال

(١) جزء ٣ ص ١٣٤ من الطبعة الأميرية .

إنه تعالى ثانى اثنين وثالث ثلاثة .

« فيا علماء الدين ، ويا ملوك المسلمين ، أىّ رزء للإسلام أشدّ من الكفر ، وأىُّ بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ، وأىّ مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة ، وأى منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكاره هذا الشرك المبين ؟ » .

وقد مات الإمام الشوكانى سنة ١٢٥٠ بعد أن أبلى فى هذا بلاء عظيما ، وخلَّف تلاميذ كثيرين يدينون برأيه .

وفى مصر شبّ الشيخ محمد عبده فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب تملأ الجو ، فرجع إلى هذه التعاليم فى أصولها من عهد الرسول إلى عهد ابن تيمية ، إلى عهد ابن عبد الوهاب ؛ وكان أكبر أمله أن يقوم فى حياته للمسلمين بعمل صالح ، فأداه اجتهاده وبحثه إلى نفس الأساسين اللذين بنى عليهما محمد بن الوهاب تعاليمه وهما : (١) محاربة البدع وما دخل على العقيدة الإسلامية من فساد بالإشراك مع الله تعالى الأولياء والقبور والأضرحة ، و (٢) فتح باب الاجتهاد الذى أغلقه ضعاف العقول من المقلدين ؛ وجرّد نفسه لخدمة هذين الغرضين ، ولكنه امتاز بميزة كبرى عمن عداه ، وهى ثقافته الواسعة الدينية والدنيوية ، ومعرفته بشؤون الدنيا وأسسها وتياراتها ، وذلك بتربيته الدينية الأولى المستمرة ، وبانغماسه فى الأمور السياسية واطّلاعه على الثقافة الفرنسية ، ورحلاته إلى أوربا يخالط علماءها وفلاسفتها وساستها . فلما تعرّض لمثل ما تعرض له ابن عبد الوهاب فلسف الدعوة ، وركّزها على أسس نفسية واجتماعية ، كما شارك فى تركيزها على الأسس الدينية ؛ ففى دروسه فى التفسير التى كان يلقيها فى الرواق العباسى بالأزهر ، كان ينتهز كل إشارة لآية ولو من بعيد تندّد بالشرك فيفيض فى الحملة على عبادة الصالحين ، وزيارة القبور والشفاعة والتوسل وما إلى ذلك ، فيُطيل الوقوف — مثلا — عند قوله تعالى : « ومِنَ النّاسِ من يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدادًا

يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمنوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ وَلَوْ يَرَى الذين ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لِلهِ جميعًا ، وأن اللهَ شديد العذاب » ، فيقسم الشيخ الأنداد إلى قسمين : هؤلاء الشفعاء الذين اتخذهم الناس وسيلة للقرب من الله يستشفعونهم فى الحوائج ، وهؤلاء الذين يقلِّدون فى الدين ويُتخذ قولهم شرعا من غير حجة ولا برهان . وتظهر فلسفته المذهب فى بيان الأضرار النفسية من هذه العقائد ، فهى تورث الذل وتُخضع الناس للحكام الظالمين ، وتحط بالنفوس إلى الدرك الأسفل ، ثم هى تضر اجتماعيا باعتماد الناس على هؤلاء الأولياء بتركهم القوانين الطبيعية التى جعلها الله أسباباً لا بد منها لحصول المسبَّب . فالزراعة إنما تنجح بالحرث والتسميد والبَذْرة والسَّقْى ، لا بالاستغاثة بولى ؛ والحرب إنما تكسب باتخاذ سلاح مجهزّ على آخر طراز كسلاح العدو ، وإعداد العدة الكاملة كما يفعل العدو ، لا بالاستعانة بأهل القبور ؛ وفضيلة المسلم أن يستعين بعد ذلك كله بالله وحده يطلب منه أن يثبّت قلبه ، ويلهمه التوفيق . وهكذا كان يفيض فى هذين الأساسين ، مفنداً آراء من يقول بالتوسل والشفاعة والتقليد .

وينتهز فرصة وجود جماعة من العلماء عنده فى يوم مولد ، ودعوته للعشاء عند أحد المحتفلين ، فيبين لهم أن هذه الموالد كلها منكرات ، ويتمنّى لو صرف مايُصرف فى الموالد على تعليم الفقراء ، ويناظرهم فى ذلك مناظرة تنتهى بانصراف العلماء إلى العشاء فى المولد ، وامتناع الشيخ وحده .

ويضع الشيخ تفسيراً لجزء « عم » للناشئة فيلتمس كل وسيلة للحملة على كل مايشوب التوحيد من شرك بعبادة المشايخ والقبور والأضرحة والتخريف ، راجياً أن ينشأ الشباب نشأة دينية صحيحة خيراً مما عليه آباؤهم — وأعانه فى هذه السبيل تلميذه وصديقه السيد محمد رشيد رضا فى مجلة المنار ، فقد ملأها كذلك بمثل هذه الدعوة ، ومثل هذه الحجج يُسمِعها المسلمين فى جميع الأقطار الإسلامية .

وفى تركيا قامت الحكومة التركية الكمالية بمحاربة هذه البدع والخرافات فأغلقت التكايا وكانت عش التدجيل ، وطاردت المشايخ ، واضطهدت المهرّجين ؛ ولكن الفرق بين هذه الحركة وما قبلها أن كل الحركات السابقة كانت مؤسسة على الدين والإصلاح الدينى ، والرجوع إلى الأصول الدينية ، أما هذه الحركة فمؤسسة على العقل المطلق ، وفكرة الإصلاح الاجتماعى من غير أن يكون الوازع عليها الرغبة فى الإصلاح الدينى .

***

وأخيراً وقد مضى على هذه الدعوة الإصلاحية من عهد محمد بن عبد الوهاب إلى الآن عشرات السنين ، واشترك فى تنظيم الغزوة عشرات من الأبطال ، فماذا كانت النتيجة ؟

ظل عامة المسلمين فى جميع الأقطار الإسلامية — كما هم — من حيث الالتجاء فى قضاء الحوائج إلى المشايخ والقبور والأضرحة ، وظلّت على عادتها فى الاحتفال بها وإن قلّ بهاؤها ورونقها ، وإنما تأثر بهذه الدعوة الخاصةُ أو خاصة الخاصة ، كما تأثر بها ناشئة الشباب المثقفين بحكم ثقافتهم ونموّ عقليتهم ، فلم يلجئوا إلى المزارات والمشايخ كما كان يلجأ آباؤهم ؛ ولكن أخشى ألا يكون كثير منهم يلجأ إلى الله أيضاً كما كان يلجأ آباؤهم .

والآن ننتقل إلى نوع آخر من الإصلاح كان مظهره مدحت باشا فى تركيا .

# مدحت باشا

١٢٣٨ — ١٣٠١ هـ

١٨٢٢ — ١٨٨٣ م

وهذا مصلح آخر من جنس آخر ؛ محمد بن عبد الوهاب مصلح دينى ، وهذا مصلح اجتماعى ؛ ذاك فى نجد ، وهذا فى استنبول ؛ ذاك لا شأن له بالسياسة ولا بالمدنية الحديثة ، إنما همه إصلاح العقيدة ؛ وهذا منغمس فى السياسة لا مشكلة أمامه غيرها ؛ ذلك برنامج إصلاحه الرجوع إلى عهد الرسول (ص) وصحابته لنعتقد ما يعتقدون ، ونعمل ما يعملون ، ونترك ما يتركون ؛ وهذا يرى الإصلاح فى الرجوع إلى المدنية الحاضرة ومناهجها فى الأمم الحية لنختار منها ما يصلح لنا ويتفق ومواقفنا ، دارسين فى إمعان كيف شق الأوربيون طريقهم إلى الحياة الاجتماعية والسياسية ، وكيف تعثروا وكيف نهضوا ، فنتعلم من خطئهم وصوابهم ، ونقتبس خير ما أنتجته عقولهم .

***

لقد ولد فى عهد السلطان محمود ، ونضج شبابه فى عهد السلطان عبد المجيد ، وبدأت كهولته فى عصر عبد العزيز ، وانتهت فى عهد عبد الحميد .

جاء والدنيا مدبرة عن الدولة العثمانية ، وحركة الجَزْر تلى حركة المد ، والمملكة تنقص من أطرافها ، ويدب الفساد فى داخلها .

يقع الظلم على سكانها المسلمين والنصارى على السواء ، ولكن المسلمين ينادون بالإصلاح فى هدوء وإشفاق ، والنصارى من ورائهم أمم تحميهم ، وتتخذ ظلمهم وسيلة للتدخل فى شؤون الدولة بدعوى حمايتهم ، والعمل على تحريرهم ،

فأصبحت الدولة وكل يوم تقتطع منها ممالك ، وكل يوم تعقد معاهدات تنقص حقوقها تفرض عليها بالتهديد والوعيد .

حكام فى كل ولاية يحكمون البلاد بعقول ضيقة وشهوات واسعة ، نفخفخة فى المظهر ، وسخف فى المخبر ؛ لا يقيدهم قانون ، ولا يردعهم عدل ، ولا يرون للشعوب حقا إلا أن تؤمر فتطيع ، وتُنتهب فتصبر ؛ بل لا يكفيهم الصبر على المصيبة ، وإنما يتطلبون المدح والثناء عليهم فى ظلمهم وطريقة حكمهم ، فمن امتعض من ذلك فهو ثائر ، ومن شكا فهو كافر ، فأورث ذلك الهجرة عند من احتفظ بإبائه ، والذل والهوان عند من لصق بأرضه .

لا عناية بصحة ولا تعليم ؛ فالأمراض فاشية ، والجهل عميم ، والمسلمون فى ذلك أسوأ حالا من المسيحيين ، لأن الجمعيات المسيحية فى الأمم الغربية تعين مسيحيي الشرق بفتح المدارس لهم ، ونشر التعليم بينهم ، والمسلمون حائرون بين إقدام على التعلم فى هذه المدارس مع التعرض لما يمس دينهم ، وبين الاحتفاظ بدينهم ومعه الاحتفاظ بجهلهم .

والفقر ضارب أطنابه بين الشعوب لضعف وجوه الاستغلال ، فلا زراعة صالحة ، ولا صناعة ناجحة ، فهذه كلها تدار بيدٍ أضعفها الفقر ، وعقل أضره الجهل ، وعقيدة أفسدها التخريف ؛ ثم عدم اكتراث الناس لما تنتجه أيديهم وأرضهم إذ ليس يحميه عدل حكامهم .

الجنود فى الدولة لا تزال قوية شجاعة على رغم كل ذلك ، تحتقر الموت وتستعذبه ؛ وحالتها المعنوية عالية رفيعة ، ولكن لا نظام لها على النمط الحديث ، ولا نظام فى التموين بالآلات والعدد والغذاء ؛ فإن انتصروا فى بعض المواقع فبفضل قوة إيمانهم وسمو روحهم ، وعلى الرغم من سوء تغذيتهم ، وضعف عُدَّتهم ؛ وتلك حال لا تبشر بخير دائم . والأمم الحية حولهم كل يوم تعد جديداً من الآلات ،

وتستكمل نقصاً فى النظام ، وتتخذ الأساليب الخفية والظاهرة فى الظفر بالأعداء؛ فكيف ينفع بقاء القديم وسير الأمور فى مجراها العتيق ؟

وهذه الدول من حولها أحست ضعفها ، وشعرت بدنو أجلها ، فهى كل يوم تنصب الشباك حولها ، وتتقن صنعها فى دقة ومهارة ، ولكل دولة أساليبها فى الحبائل ، وطرقها فى الصيد ، وكل دولة تصطنع من الدولة رجالا هم عيونها وعدتها ووسائلها .

والمملكة خليط من عناصر مختلفة يختلف جنسها وتختلف لغتها ، ويختلف دينها ، ولكل عنصر هوى ، ولكل جنس أسباب متصلة بأمم أخرى تستهويها وتستنجدها .

فلا المالية صالحة ، ولا الإدارة صالحة ، ولا الجيش صالح ، ولا الأمة متحدة النوازع والآمال والآلام .

وزاد الأمر سوءاً أن السلطان عبد العزيز جاء ناقماً على الحالة التى وصلت إليها الأمة ، وانتقد أخاه عبد المجيد فى تصرفاته ، وفى إسرافه فى شهواته ، وفى تبذيره للمال ، وعدم نظره إلى شؤون الدولة كما ينظر إلى نفسه ، فأعلن أنه آت لإصلاح المفاسد ، والأخذ بيد الشعب ، والاقتصار على زوجة واحدة ، والاقتصاد فى نفقات الحريم ، ولكن سرعان ما تبددت هذه الوعود ، وخطا فى سبيل البذخ والترف والنعيم والإسراف أضعاف ما كان ينتقده من أخيه ! وارتكب فى عهده غلطتين كبيرتين : استفزازه عواطف رعاياه المسلمين فى أنهم أولى بالتفضيل فى مزايا الدولة فى المعاملة والمناصب ونحو ذلك ، وأن ليس يصح أن يساويهم رعاياه المسيحيون فى ذلك ، فأوقد بذلك شعور البغضاء والحقد وحب الانتقام بين عناصر الأمة الواحدة ، ومهد الطريق للدول الأوربية أن تتدخل فى حماية أهل دينها .

والغلطة الثانية : وقوعه فى الدَّين من المصارف الأجنبيـة لقلة دخل الدولة وكثرة إسرافه . نعم ، إن بعض هذا المال أنفق فى إصلاح الجند والبحرية ، ولكن كثيراً منه أنفق فى بناء قصوره العديدة الفخمة وما تحوى من أسباب الترف والنعيم — مع أنه لما أراد سعيد باشا والى مصر الاستدانة بعث إليه بكتاب طويل مملوء بكل الحجج التى يمكن أن تقال فى سوء عاقبة الاستقراض وضرره بالممالك — فكان هذا أيضاً وسيلة من وسائل التدخل الأجنبي ؛ هذا إلى اعتداده بنفسه ، واستبداده برأيه ، وتركيز أعمال الحكومة كلها فى شخصه ؛ فهو مرجع كل شيء ، لا يسمع نصيحة ناصح ، ولا رأى مجرب ، ويخشى الذكاء والعلم والثقافة الواسعة ومعرفة بواطن الأمور ، لأنها كلها تؤدى إلى مراقبة أعماله ومحاسبته على إسرافه .

وجاء السلطان عبد الحميد فزاد فى الطنبور نغمة بل نغمات ؛ لقد لعب خوفه على شخصه برأسه ، وقد سمع من التاريخ أن كثيراً من أجداده خلعوا أو قتلوا ، وهذا بالأمس القريب عبد العزيز خلع وقيل قُتل ، فليحذر أن يمثَّل به هذا الدور ؛ ثم ذكاء نادر ، ومال كثير وسلطان كبير ، كل هذا يوجَّه للمحافظة على شخصه أن يمس بسوء ، فلا تُذكر الملة والأمة فى الصحف والمجلات ، بل تذكر « الذات الشاهانية » متوَّجة بالألقاب الضخمة الفخمة ، فهو السلطان الأعظم والخاقان الأفخم ، وسلطان البرَّين والبحرين ، وإمام الحرمين الشريفين ، وهو ظل الله فى أرضه ، المحفوف بألطافه الصمدانية ، وعنايته الربانية .

ويصادر الكتاب إذا كان فيه « الأئمة من قريش » ، وتمنع « العقائد النسفية » من الطبع لأن فيها فصلا فى الإمامة وشروط الخلافة ؛ وكل كتاب يطبع فى الشام أو العراق أو الآستانة لا بد له من « رخصة جليلة » ؛ ويجمع كتاب كان يدرس فى «مكتب الحقوق» ويحرق لأنه وردت فيه جملة مضمونها

أنه إذا اختلت دولة من الدول يكون للدولة المجاورة الحق فى طلب إصلاحها .

وخطيب الجمعة يتحرى الحديث الذى يذكره فى الخطبة ، فلا يكون مما ينهى عن ظلم ، ولا مما يشير إلى حق رعية على راع ، ولا نحو ذلك ؛ ولذلك يغلب أن يكون الحديث : « إن الله جميل يحب الجمال » .

والجواسيس لا عداد لها ، والجاسوسية سبيل الارتقاء ، وعشرة آلاف جندى يقفون للمحافظة على حياة السلطان وإظهار أبهتـه وجلاله إذا خرج للصلاة يوم الجمعة . والقصر مملوء بالمشعوذين والدجالين من المشايخ ، يختلقون رؤيا يزعمون أنهم رأوها ، أو يفسرون حلماً ، أو يوقعون بمن يقف فى سبيل دجلهم ، والأمور تدار والمشاكل السياسية تحل ، بمثل هذه الرؤى ، وآراء هؤلاء الطغام .

***

فى هذه الأجواء عاش مدحت باشا وكافح وجاهد حتى مات .

ما أشق الإصلاح على من يعمل فيها ! فأنفاسه معدودة عليه ، وحركاته وسكناته تسجلها الجواسيس ، وهم لا يكتفون بما يعمل ، بل يزيدون عليه مالم يعمل ، ويؤولون ما يصدر عنه تأويلاً يزيد فى ربحهم وقربهم . يخلص فى عمله ، فيقال إنه يرمى إلى أخطر غاية ، ويعزل من عمله فيقال إنه يدبر المكايد ، ويبعد لعمل خارج العاصمة فيقال إنه يسعى للاستقلال بولايتـه ، ويعمل للدستور فيقال إنه يريدها جمهورية ؛ وهكذا وهكذا ، فى كل خطوة عقبة ، وفى كل فكرة وساوس ، وفى كل حركة دسائس ، وليس يحتمل مثل هذا إلا أولو العزم الذين يدأبون مهما عذّبوا ، ويعملون مهما اضطهدوا ، عقيـدة تتملكهم أنهم ليسوا ملكا لأنفسهم ولا لأسرتهم ، إنما هم ملك لفـكرة استحوذت عليهم ،

ومبدأ غمر مشاعرهم ؛ أما غيرهم فسرعان ما يعودون من منتصف الطريق ، سائلين الله السلامة ، مكتفين بأول عذاب نالهم ليستريح ضميرهم ، ويلقوا التبعة على غيرهم . وكان مدحت من هؤلاء الذين فى خُلُقهم حميَّة ، وفى طبعهم تحدٍّ للشر ، وثبات على الجهاد ، وجلَد على تحمل الألم حتى يلفظ آخر أنفاسه وعار عليه أن يتأوَّه .

***

ولد مدحت فى استانبول ؛ وكان أبوه « الحاج حافظ محمد أشرف » عالما دينيا تولى بعض أيامه القضاء الشرعى فى بعض الولايات ، فأنشأه أبوه تنشئة دينية ، فحفّظه القرآن وهو فى العاشرة ، ولقب بالحافظ ، وهو لقب لكل من يحفظ القرآن من الأتراك ، فكان اسمه الحافظ أحمد شفيق ؛ أما مدحت الذى غلب عليه فهو اسم ديوانى . والتحق بالديوان الهمايونى يتعلم الخط الديوانى ، وتنقل مع والده فى الولايات التى تولى فيها القضاء يتعلم فى مكاتبها ؛ حتى إذا عاد والده إلى الآستانة ألحقه بأحد أقلام الحكومة يساعد الكتبة ويتعلم منهم بعض الوقت ، والبعض الآخر يقضيه فى جامع الفاتح ، وكانت فيه حلقات الدروس تشبه حلقات الأزهر ، لكل شيخ حلقته وتلاميذه . فكان يتعلم هناك اللغة العربية والفارسية والدروس الدينيـة والنحو والمنطق والفقه والبلاغة والفلسفة التى كانت تسمى الحكمة ؛ وظل على هذه الحال إلى أن ناهز العشرين ، تلميذاً فى دواوين الحكومة وتلميذاً فى جامع الفاتح .

وهى ثقافة — كما ترى — ضعيفة ، فلا تاريخ ولا جغرافيا ولا رياضة ولا لغة أجنبية ، ولكن قد يعلّم الزمن العقل المستعد أكثر مما تعلّمه المدارس النظامية والبرامج الثقافية ، ولذلك نراه يشعر بنقصه الثقافى إذا كبر فيطالع بنفسه الكتب . ولما جاوز الخامسة والثلاثين رأى الحاجة الثقافية والسياسية

ماسة إلى تعلم لغة أجنبية ، فتعلم اللغة الفرنسية ، فكان يدرسها وهو يشتغل في (وظيفته) .

وشيء آخر أفاده فائدة كبرى في ثقافته العملية ، وهو سياحته في أوربا لدرس النظم السياسية والاجتماعية التي أصلحت من شأنها ، وعالجت بها أمثال المفاسد التي تعانيها تركيا ؛ فحصل على رخصة للسفر سنة ١٢٧٤ وسنه إذ ذاك نحو ست وثلاثين ، فأنفق في سياحته هذه نحو ستة أشهر ، زار فيها باريس ، ولندن ، وڤينا ، وبلچيكا ؛ وكانت زيارته زيارة درس واستطلاع ، كيف تنظم الدول ماليتها ، وكيف تسوس أمورها ، وما نظام الحكم وما علاقة شعوبها بملوكها ، وما أهم وسائل العمران عندهم ، إلى غير ذلك من الأسئلة التي ملأت ذهنه ، وأراد أن يتطلب الإجابة عنها من كل مملكة زارها — وفي الوقت عينه أراد من سياحته أن يتقن اللغة الفرنسية التي تعلمها على كبر ، فتم له ما أراد لعقله المتفتح وهمته العالية ، واستقامته التي أخذها عن دينه .

ولذلك كان مزيجاً غريباً ، محافظة على الصلاة وسبحة ، ومعرفة بشؤون الدنيا ، واطلاع واسع على تيارات العالم وأسس المدنية الحديثة ، ودروشة ويقظة .

أول ما لفت الأنظار إليه في تركيا أنه شب صريحاً لا يتقن فن المجاملة ، حادًّا لا يكظم غيظه ، حارًّا في تنفيذ ما رأى في وسط بارد بطيء ، مخلص لفكرته ، على حين أن كثيراً ممن حوله إنما يخلص لشخصه ؛ تربى في مدرسة كبرلي باشا ورشيد باشا وعالي باشا ، وتعلم منهم القوة والتصميم ، والقدرة على التنفيذ ؛ فلما خلفهم من لا يملأ كراسيهم اصطدم بهم . تولى محمد باشا القبرصلي « صدرا أعظم » ، وكان بينه وبين مدحت إحن وأحقاد ، واندلع لهيب الثورة إذ ذاك في البلقان ، واحتاجت إلى رجل شديد ، فرماها القبرصلي باشا بمدحت ، لعله يفشل أو يقتل فيستريح منه ، وإن نجح فلا بأس ، فأقل ما فيها أنه أبعده

عن وجهه . فسافر مدحت ومعه قوة عسكرية ، وقضى ستة أشهر فى قمم الجبال ومغاورها يقبض على أشقيائها ، وأثبت إدانة أربعة منهم وأعدمهم ، وحبس ثمانين أرسلهم إلى الآستانة ، وهدأت الفتنة ووضع مشروع الإصلاح ، فكان ذلك مما لفت الأنظار إلى قوته وحزمه .

كما لفت الأنظار إلى حسن إدارته عند ما عين والياً فى الصرب وبلغاريا ، وقضى فيها أربع سنوات كان فيها مجدداً حقا ، يختلف عن سائر الولاة العثمانيين : بث المدارس فى أنحاء الولاية ، وأنشأ المستشفيات ، وأصلح من الطرق نحو ألفى ميل ، وبنى نحو ١٤٠٠ جسر ، فإذا أعوزه المال الرسمى حض الأهالى على التبرع فأجابوه ، بعد ما لمسوا قيمة الإصلاح فى تحسين حالهم ؛ وأهم ما تمتاز به إدارته — مما كان جديداً فى نظر العثمانيين — عدم تفرقته فى سياسته وإدارته وعدله بين مسلم ومسيحى ، ثم شدته المتناهية على العصاة ومثيرى الدسائس ، ومعاقبته لهم بما يؤمِّن البرىء ، ويردع المسىء ؛ فأصبحت بفضله هذه المقاطعة على فقرها وكثرة فتنها مضرب المثل فى الغنى والأمن أيام حكمه من غير أن يكلِّف الدولة مالا .

كل هذا كان إرهاصاً بما سيكون إذا أسندت إليه شؤون الدولة .

## ٢

إن ضعف الدولة العثمانية الذى ذكرنا ، وعدم كفاية السلاطين المتأخرين ، صحبه مشاكل فى منتهى التعقيد ، فعناصر الدولة متعددة ، ويكفى البلقان وحده — بما يشمل من البوسنه والهرسك وسربيا وألبانيا واليونان وبلغاريا ورومانيا — وما يقطن فيه من أمم عديدة أن يقض مضجع أية دولة مهما بلغت من القوة ، وخاصة بعد ما جاءت عدوى القومية فأثارت نوازع كل عنصر من هذه العناصر نحو الاستقلال ، فكيف بالدولة العثمانية ، وكيف ذلك مع ألاعيب الدول المختلفة وإثارتها لهذه العناصر ؟ هذا إلى تعدد المذاهب الدينية النصرانية وما بين كنائسها من خلافات لا تنتهى . ونشأ عن هذا كله ما سمى « المسألة الشرقية » ويعنون بها « النزاع بين عناصر الأمم التركية من جهة ، ودخول الدول العظمى فى هذا النزاع لتحقيق آمالها المتناقضة من جهة أخرى » .

وسوء الحالة الداخلية والحالة الخارجية يتمخض — عادة — عن عدد من المفكرين فى هذه المشاكل ، ويقترحون ما يرون من ضروب الإصلاح ؛ ومن هذا نشأت أنواع من الإصلاح متسلسلة تسمى فى عرف الأتراك « التنظيمات الخيرية » ، ويريدون بها الإصلاحات التى يراد بها إنقاذ الدولة العثمانية من ضعفها ، وعلاج مشاكلها فى الداخل والخارج ، من عهد السلطان محمود . وكان من أشهر هذه الإصلاحات أو التنظيمات "القانون" المعروف بخط « كلخانه » الذى صدر سنة ١٨٣٩ فى عهد السلطان عبد المجيد ، والذى سعى إليه محمد أمين عالى باشا ، وكان أهم ما يتضمن هذا « الخط » حماية النفس والملكية ، من غير تفرقة بين جنس أو دين ، وإلغاء نظام الالتزام ، ومساواة الرعايا مهما اختلف دينهم أمام القانون ، وأن جميع المجرمين يجب أن يحاكموا محاكمة علنية ، والمساواة فى الفرص أمام

الجميع لتولى الأعمال الحكومية ، وتجنيد غير المسلمين ، و إصلاح الإدارة والبوليس والضرائب والطرق ، و إنشاء البنوك الخ .

ولكن هذه الإصلاحات كان يعترض تنفيذها صعوبات جمة أهمها السلطان — وأكثر السلاطين كان يرى أن هذه الإصلاحات تحدُّ من إرادته — ورجال الدين لغضبهم على التشريع المدنى ، و بعض الرعايا الأجانب لأن هذه المساواة تحرمهم من امتيازاتهم القديمة ، و بعض الدول الأجنبية لأنها لا يسرها أن تصلُح الدولة . فكانت كل «التنظيمات» التى توضع لا تلبث أن تصبح حبراً على ورق .

وفى هذا الوسط الشائك جدا حاول مدحت باشا أن يضع إصلاحه ، فرأى أن الإصلاح الذى يجب أن يسود المملكة العثمانية هو الحكم الديمقراطى على نمط ما رأى فى إنجلترا وفرنسا ، ومظهر هذا الحكم هو الدستور ، و إنشاء المجالس النيابية ، وتمثيل كل عنصر من عناصر الدولة وكل قطر من أقطارها فى هذه المجالس ؛ و بعبارة أخرى أن تحكم الأمة نفسها بنفسها لا أن يحكمها السلطان بإرادته ونوازعه والمقربين إليه الذين يخدمون أغراضه .

كان يرى أن كل الأمم الأوروبية مرت بهذا الدور الذى تمر به الدولة العثمانية ، ولم ينقذها إلا الحرية ، فهى التى تربى الأمم ، وتحيى النفوس ، وترد المرء حقوقه وتشعره بشخصيته ، وتضمن له العدل ؛ والحرية هى التى تولّد الدستور الذى يبث الطمأنينة بين أفراد الأمة ، و يسوى بين الأفراد على اختلاف دينها وعناصرها ، فيؤلّف بين قلوبها ، وهو الذى يفسح الفرص لكل كفء قادر ، ويسد الطريق أمام كل دساس ماكر .

لقد عانت إنجلترا وفرنسا ما نعانى ، ووقع على أفرادها الظلم كما يقع علينا ، ولكنها نجت من ذلك كله بتحرير شعوبها ، ووضع دساتيرها ، والحزم فى السير عليها ؛ ذلك حال إنجلترا قبل دستورها و بعده ، وحال فرنسا قبل ثورتها

وبعدها ، هدموا الاستبداد ، وأحلوا محله حياة الحرية الصحيحة ، فلو فعلنا ذلك وأعلن السلطان الدستور ، وسرنا عليه فى حزم لانتظمت إدارتنا وماليتنا ، وشعرت عناصر الدولة المختلفة بالتساوى بينها ومشاركتها فى الحكم وتحقيق العدل فاطمأنت ، ولو فعلنا ذلك لم تجد الدول المختلفة وسيلة للتدخل فى شؤوننا فكفت يدها ، وإذا تدخلت ظهر تعنتها فلم تجد رأياً عاما يسندها — بهذا الدستور يصبح الحكام فى كل ولاية مسئولين أمام البرلمان ، وبعبارة أخرى أمام الأمة ، فيفتح الحاكم عينه ويحد من شهوته ، ويتحرى العدل وإلا طار من منصبه .

الدستور عِلْم ينشر بين الشعب ، وغنى يسبب طمأنينة الشعب ، وعدل بين أفراد الشعب ، ويقظة للرأى العام ، وتفتح للملكات ، ونشاط للقدَر التى كبتها الاستبداد .

فلا حياة للدولة العثمانية إلا بدراسة النظم الديمقراطية فى الأمم الأوروبية ، واختيار أنسبها مما يتفق وحالة الدولة وظروفها ومركزها ، ثم سن تشريع لها ، ثم إحاطته بسياج من القوة حتى لا تتلاعب به أيدى العابثين المفسدين .

إلى هذا انتهى مدحت بعد طول درسه وتفكيره وتقليبه وجوه الإصلاح المختلفة .

لم يكن مدحت باشا وحده هو الذى يفكر هذا التفكير ، بل كان حوله شباب أحس إحساسه وشعر شعوره ، وأنكر الاستبداد ، وحاول الخلاص منه ، وعكف على قراءة التاريخ والسياسة ، والنظم الأوربية ، ووجدت جمعية فى باريس على رأسها مصطفى باشا فاضل تنقد الدولة العثمانية ، ونظام الحكم فيها ، وتجاهد بطلب الإصلاح . ومصطفى فاضل هو صاحب الخطاب المفتوح المشهور الذى ترجمه فتحى زغلول باشا « من أمير إلى سلطان » والأمير هو مصطفى فاضل هذا ، والسلطان هو السلطان عبد العزيز ، والخطاب هو أول خطاب من نوعه

يوجهه أمير عثمانى إلى السلطان فى مثل هذه الصراحة والقوة .

كان رأس هذه الحركة وعقلها المفكر وحكيمها الرزين هو مدحت باشا .

وجاء دور التنفيذ ، يريد مدحت باشا ورجاله وشبابه الحكم الديمقراطى والدستور والحرية ويصطدمون بالسلطان عبد العزيز وحاشيته وأعوانه ، فهم لا يريدون ذلك — يرى مدحت أن لا أمل للحياة إلا بالشورى ، ويرى عبد العزيز أن الشورى تسلبه سلطانه ؛ يرى مدحت أن الدستور لا بد منه ، فهو يعيد إلى الأمة حقها فى الإشراف على الحكم ، ويضمن العدل والمساواة ، ويبعث الإخاء ، ويحمى الأمة من شهوات الأمراء والسلاطين ، ويوحد بين عناصر الأمة المختلفة ؛ ويرى عبد العزيز وحاشيته وكثير من رجال الدين وبعض رجال السياسة أن الحكم النيابى لا يصلح للدولة العثمانية لاختلاف العناصر وعدم التجانس ، وميل كثير من الطوائف المسيحية إلى ترويج مصالح الأمم التى ترتبط بها ، وعدم بلوغ الأمة حدا من العلم يهيئها لهذا الحكم وتفضيل مصلحة الوطن على المصلحة الشخصية الخ .

إذ ذاك ظهر الصراع بأجلى مظاهره ، وانجلى الغبار عن معسكرين متميزين بأعلامهما وجنودهما : هذا معسكر مدحت باشا على رأس حزب كبير من الكبراء والوزراء والأمراء ، وطائفة كبيرة من الشباب ، وهذا معسكر على رأسه السلطان عبد العزيز ، وحوله الحاشية ومحمود باشا نديم رئيس الوزارة ، وهو يمد السلطان بكل ما يحتاج إليه من أموال الدولة ، ينفق منه أقله فى المصلحة العامة ، وأكثره فى شهواته ، ثم يؤيده كثير من المعممين من رجال الدين قد اشتريت ذممهم بما أغدق عليهم من أموال الأمة ، فهم يسمون كل حركة تدعو إلى الإصلاح فتنة ، ويقولون : سلطان غشوم خير من فتنة تدوم .

وكان لكل معسكر أيضاً أدباؤه وكتّابه وشعراؤه ، فمع مدحت باشا كتّاب

من الطبقة الأولى يحررون فى الصحف الفرنسية والتركية والعربية . وأبدع نامق كال أدباً تركياً يتغنى بالحرية فى أسلوب جديد ، جميل فى بساطة ، واضح فى قوة ؛ وأدب آخر رجعي يشيد بذكر السلطان ويهجو دعاة الحرية والإصلاح ، ومنهم كتاب جريدة « الجوائب » .

والدول الأوروبية نفسها تدخل فى هذا المعترك ؛ فإنجلترا تعطف على مدحت لأنها بحكم نظامها تميل إلى الديمقراطية وإلى الدستور ، ولأن فى صلاح تركيا وهدوئها ما يعوق مطامع روسيا ؛ وروسيا تؤيد السلطان ومحمود نديم ، وسفيرها فى تركيا « ايغناتيف » يثير الفتن والثورات حتى يحقق مطامع روسيا إذ ذاك .

ويركز مدحت برنامجه فى كلمات فيقول : « إن التبذير فى الدولة قد بلغ درجة لا تطاق ، فالمالية ترسل الأموال إلى المابين ، فيصرفها السلطان فى ملذاته ، والنظار يبيعون الوظائف بيع السلع ؛ فالوالى يشترى وظيفة من الصدر الأعظم ويذهب إلى الولاية فيستغل أهلها بأنواع الظلم حتى خربت الولايات ، ووقعت الدولة فى أزمة شديدة ، ولا سبيل إلى الخلاص منها إلا بتبديل الإدارة الحالية ، وتبديلها يكون بإنشاء مجلس نيابى ، وجعل النظار مسئولين أمامه ، وأن يكون هذا المجلس قومياً ، فلا يفرق فى انتخابه بين المذاهب والعناصر — وأن يوضع الولاة فى الولايات تحت المراقبة الشديدة فلا يعبثون بمصالح الرعية » .

كل هذه المعانى تركزت فى كلمة واحدة اسمها « الدستور » .

ها هى الدعوة تنتشر والنفوس تغلى ، وأخطاء السلطان عبد العزيز المتتابعة تزيدها غليانا .

تحت ضغط الحوادث أُبعد الصدر الأعظم محمود باشا نديم حبيب السلطان عبد العزيز لأنه يمده بما شاء من أموال الدولة ، وحبيب الحاشية كذلك ، وحبيب سفير روسيا فى الآستانة ، وحبيب ذوى المناصب من رجال الدين ،

وعُين مدحت باشا صدراً أعظم ، وهو المكروه من كل هؤلاء ، والمحبوب من الطائفة التى تغلى لطلب الإصلاح .

فما استقر على كرسيه حتى أعاد المنفيين الذين نفوا لاتهامهم بمشايعة حركة الإصلاح ، وأعاد تأسيس ميزانية الدولة على أساس ثابت لا أساس صورى كما فعل محمود نديم ، وضيق على السلطان عبد العزيز وحاشيته فلم يمدهم بالمال الذى يشتهون ، وبت فى المشاكل الخارجية بما أصلحها ، وتوجه إلى الإصلاحات الداخلية فاهتم بربط البلاد البعيدة بالدولة ، فوضع مشروع خط حديدى يربط العراق بالدولة بإنشاء خط بين بغداد وطرابلس الشام . واختار مهندساً فرنسيا لذلك كلفه وضع المشروع ورسمه وتخطيطه واكتشاف أقرب طريق إلى ذلك ، ووضع الخرائط له فى نظير مائتى ألف ليرة ، ودبر المال لذلك المشروع بالاتفاق مع انجلترا على دفع ثلاثة ملايين من الليرات فى نظير نقل بريد الهند على هذا الخط ، كما وضع مشروع إنشاء الخطوط التلغرافية فى بلاد الحجاز ، وإنشاء طريق حديدى بين دمشق وبغداد ، وامتداد الأسلاك التلغرافية بين دمشق والحجاز واليمن ، وفعلا أحضرت الأخشاب والأدوات لإنشاء خط بين القدس وجدة ؛ ورأى أن ذلك لا يكلف الدولة كثيرا ، فتلغرافات الحجاج تعوض النفقات فى سنين قلائل .

ووضع المكاييل والموازين على أساس عشرى ، ووحدها بين أجزاء الدولة ، وعارض أشد المعارضة فى منح الخديوى إسماعيل باشا فرمانا يبيح له عقد قروض من الدول الأجنبية وقال : « إنه إذا أبيح له ذلك تدخل الأجانب فى شؤون القطر المصرى ، وضاع استقلاله الإدارى والسياسى معاً ، وتدخَّل الأجانب يوماً ما فى شؤون تلك البلاد بحجة حفظ أموالهم » ، فعل هـذا مع أن السلطان كان قد وعد إسماعيل باشا بإصدار هذا الفرمان .

• نمط جديدة فى الوزارة لم يألفه عبد العزيز ، فقد ألِفَ أن طاعته غُنم وإشارته

حكم . ولذلك لم يلبث مدحت فى الوزارة إلا خمسة وسبعين يوما اعتزل العمل بعدها وضاعت كل مشروعاته ، وخسرت الحكومة مائتى ألف ليرة للمهندس الفرنسى واضع مشروع خط بغداد من غير أن تستفيد شيئا .

ثم رأيناه وزيراً للعدل فى وزارة أسعد باشا ، ثم فى وزارة شروانى زاده محمد رشدى باشا ، فمكنته هذه الوزارة الأخيرة أن يعكف على وضع النظم واللوائح لإصلاح الدولة .

وكتب مدحت إلى عبد العزيز كتاباً ليناً فى مظهره شديداً فى جوهره ، قال فيه : « لقد صرحتم جلالتكم فى خطاب العرش بأنكم تلتزمون خطة الإصلاح المنشود ، ومع هذا فقد ساء الحال ، وأنتجت كثرة تغيير موظفى الدولة القلقلة والاضطراب ، وضل أكثرهم الطريق ، ولم يسيروا وفق مقصدكم ، بل خرجوا عن جادة الاستقامة وأفسدوا ما أحدثه الإصلاح ، واختلت مالية البلاد ، وحدا ذلك بالناس إلى نشر الأراجيف فى داخل البلاد وخارجها ، وخاف الناس أن ينتج هذا انقراض الدولة ...

« وقد اضطرتنا وطنيتنا إلى عدم السكوت والوقوع فيما لا تحمد عقباه ، فلجأنا إلى أعتابكم الشاهانية ... ولا يخفى على حكمة جلالتكم أن الدواء الشافى لهذه العلة هو اجتثاث أسبابها التى نعرفها حق المعرفة ، فإذا أزيلت الأسباب زال المرض ... فإذا أصدرتم خطا همايونيا جديداً حتمتم به اتباع القوانين والنظم والمساواة بين الغنى والفقير والكبير والصغير فى نظر القانون ، وأرجعتم المنشآت الخيرية إلى أصلها ( وكان السلطان استولى عليها ) ، وصرفتم الأموال فى سبيل ما خصصها له الواقفون ، وأعدتم مرجع أمور الدولة إلى الباب العالى ( الوزراء ) فيقر قراراته ويعرضها على جلالتكم ، ولم تستأثروا جلالتكم بشىء من حقوق الدولة المالية والملكية ولم تصرف المالية قرشاً واحداً إلا برأى الباب العالى ؟

وحددت وظائف كبار الموظفين وأصاغرهم ، وجعل الوزراء مسئولين عن نتائج أعمالهم ، وحتمتم ذلك على خواصكم ورجال حاشيتكم — إذا تم ذلك كله حصلت النتيجة المطلوبة بعون الله تعالى ، ووصلت الدولة إلى الطريق الذى ترجوه جلالتكم .

هذه الأقوال هى نتيجة أفكارنا ، وربما أخطأنا . . . ونحن نطلب من جلالتكم تخليص الأمة — التى قد أصبحت مصالحها بين يديكم — من أزمتها الحاضرة وعلى كل حال فالرأى لكم » .

فى هذا الكتاب مجمل أفكار مدحت باشا ونظرته إلى الإصلاح .

أعد مدحت باشا هذا التقرير ، وهو وزير العدل . وعرضه على الوزارة فاتفقت كلمتهم عليه ، واتفقوا على أن يرفعه الرئيس إلى السلطان عبد العزيز ، فقابله ولم يستطع أن يفاجئه ، فحدَّث السلطانَ أحاديث مختلفة ثم تدرج إلى ذكر هذا الكتاب ، فلما سمع كلمة الإصلاح والشورى والدستور هاج هائجه وأصدر أمره فى الحال بعزل مدحت باشا من الوزارة ، وإبعاده بتعيينه والياً لسلانيك ؛ وبعد أيام عزل شروانى وعينه والياً لحلب ، وبذلك أبعَدَ الاثنين اللذين يذكران الإصلاح . ولم يمكث مدحت طويلا فى سلانيك فعزل بعد ثلاثة أشهر ، وأخذ يصلح فى مزرعته ، ويفكر فى أمته .

## ٣

هذا مدحت باشا — فى مزرعته — يفكر ، كل محاولاته فى الإصلاح ضاعت سدى ، لصلابة السلطان عبد العزيز الذى يأبى أن يسمع كلمات « الشورى ، والدستور ، والعدل ، والحرية ، والأمة » ؛ وكل من نطق بهذه الكلمات كان عرضة للنفى والتشريد والقتل والعزل كما حدث له .

« إن السبب الوحيد لتذمر المسيحيين فى الدولة هو فقدانهم الحرية ، فمتى مُنحوها عطفوا على الدولة وشعروا أنهم جزء منها .

وسَبَب ضعف المسلمين هو فقدان الحرية ، فمتى شعروا بحريتهم أقدموا على عملهم ونشطوا ، وكسبوا ، وتعلموا ، واستخدموا ذكاءهم ومواهبهم لإسعاد أنفسهم وأسرتهم وهيئتهم الاجتماعية .

وفقدان الجميع الحرية يملؤهم خوفا ، ويفقدهم رجولتهم ويخلقهم بأخلاق العبيد : من ذلة وضعة ، وعدم الالتفات إلا إلى المأكل والملبس ينالونه من أخس الطرق . وليس الذى وقعنا فيه من طبيعة الإسلام فى شىء ، فالإسلام يسوِّى بين الغنى والفقير فى الحقوق والواجبات ، وبين الوزير وراعى الغنم ، ويجعل أمرهم بينهم شورى ؛ وهذا السلطان يكره كلمة الشورى كما يكره الموت . والإسلام جعل من أهم قواعده الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وهذا السلطان لا يسمح لأحد أن يأمر بمعروف ولا أن ينهى عن منكر .

إن الشورى الإسلامية نظمت فى العصر الحديث بما يسميه الأوروبيون البرلمان ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تشكل فى المدنية الحديثة بحرية الصحف فى النقد ، وحرية الأفراد والجماعات فى التأليف وإبداء الآراء فى صراحة ، يستحسنون ما يرون ، ويستنكرون ما يرون ، ويخطبون كما يشاءون . فلا أحد

معصوم ، ولا الحكومة معصومة ، ولا الولى معصوم ؛ وإنما الذى يقوّمهم ويخيفهم ويلزمهم الجادة يقظة الرأى العام وحريته فى النقد ، وهذا هو ما سمى فى القرآن : بالتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر . كل هذا واضح وجلى ولا بد منه ، ولكن إرادة السلطان عبد العزيز هى الصخرة التى تتكسر عندها كل هذه الآراء .

أرض الدولة العثمانية أخصب أرض فى العالم ، وهى مع ذلك أفقر أرض ، لهجرة كثير من أهلها بالظلم ، وإثقال كاهل من بقى بالضرائب . ولا شركات ، ولا مصانع ؛ فالقطن كثير فى البلاد ومع هذا فالأقمشة القطنية تجلب من أوروبا ، حتى الطرابيش التى نضعها على رءوسنا ، وعلب الكبريت التى نشعل بها نيراننا نجلبها من الخارج ؛ وكل المواد الأساسية متوفرة عندنا ، ولكن لا عدل ، ولا أمن على المال ، فلا شركات ولا صناعات . ولا يتأتى العدل إلا بالقوانين العادلة ، والمحاكم العادلة ، وهذه لا تكون إلا بالحرية ، أى الدستور . كل من جاهر بالإصلاح أبعد ؛ ففؤاد باشا مات محتقراً مهيناً ، وعالى باشا دُسّت له الدسائس حتى عزل من منصبه ، وهما ما هما فى الكفاية والاستقامة ؛ وإنما يقرّب أمثال محمود نديم الشره الجاهل الذى يقدّم مال الدولة للسلطان ، ثم ينتهب لنفسه ما نالته يده .

رحم الله فؤاد باشا وعالى باشا ، فقد رأيا أن السلطان لا يسمع لقولهما فى الإصلاح ، ففكرا فى حيلة لطيفة : أن يشوّقا السلطان عبد العزيز لزيارة أوروبا ، وينتهزا فرصة زيارته للعواصم الأوروبية فيبيّنا له ما وصلت إليه من النظام والتقدم ، ويشعراه من طرف خفى بأن سبب هذا كله حسن الإدارة وصلاحية الحكم ، لعله إذا عاد تحفزت نفسه لحسن التقليد ، فأصغى إلى المصلحين وشجعهم على الإصلاح ، وسار فى أموره غير سيرته ، والتفت إلى رعيته ؛ ولكن خاب فألهما

فقد عاد أشد إسرافا ، وأكثر تبذيراً فى ملذاته . عاد ووعد ثم أخلف ما وعد ؛ وكل ما فعل أن حقد عليهما لأنهما أشارا عليه بانتخاب مجلس فى كل ولاية يجدَّد كل سنة لمشاركة الوالى فى أعماله ، وبذل النصح له ، فرأى أنها فكرة شيطانية يراد منها التدرج إلى البرلمان أو الدستور ، ذلك الشبح المخيف . وكل ما جنته البلاد من هذه الرحلة إنشاؤه مصانع ومتاجر باسم خزانته الخاصة لا باسم الشعب . ثم هذا السلطان يستدين ويستدين ؛ فقد كانت ديون الدولة فى آخر أيام السلطان عبدالمجيد ٢٥ مليون ليرة ، فبلغت بعد ١٢ سنة — بفضل عبد العزيز — ٢٥٠ مليون ليرة ، فما مصير الدولة إذا استمر الحال على هذا المنوال ؟ ! يظهر أن لا أمل فى الإصلاح مع وجود «عبد العزيز» ، بل لا أمل حتى ولو أصدر لوائح الإصلاح ، وأوامر إنشاء القوانين للمحاكم والنظم للمدارس ، فقد جربناه فرأيناه يطأطئ للعاصفة حتى تمر ، فإذا مرت عاد سيرته الأولى ، وحل ما عقد ، ونقض ما أبرم .

لم يبق إلا أمر واحد ، وهو تهيئة النفوس لعزله ، ووضع الخطط المحكمة لإنزاله عن عرشه ؛ ومع الأسف لا يمكن أن يتم ذلك إلا بالجيش ، وفى هذا خطورته ، ولكن قد تعلمتُ فى جامع الفاتح أن الضرورات تبيح المحظورات . فإذا تمت الأمور وعزل عبد العزيز ، وأقيم مكانه سلطان جديد أقامته الأمة بقوتها ، وأعلن — يوم توليته — الدستور ، شعر بأن الأمر بيد الأمة فأطاعها ، وأنه مدين لعرشه بالدستور فاحترمه ، وسارت الأمور سيراً حسناً : دستور نافذ ، وسلطان مطيع ؛ وبدأنا حياة جديدة كلها خير على الأمة ، وسرنا فى الطريق الذى سارت فيه الأمم الحية ، نأخذ محاسنهم ، ونتجنب أخطاءهم ، فإذا الحياة سعيدة ، والعدل شامل ، والدستور حام ، فلنسر على بركة الله .

هكذا فكر مدحت ، وهو يشرف على الإصلاح فى مزرعته ، والفؤوس

تضرب فى الأرض ، والنواعير تبكى بدموع غزار .

سارت الأمور أول الأمر كما فكر تماماً ، فهاهو يدبر الحركة ويتصل بالشبان والشيوخ الذين سئموا هذه الحال ، ويتفق معه فى الرأى حسين عونى باشا ( سر عسكر الدولة ) ، وهما يتصلان بناظر البحرية وشيخ الإسلام ، ويتفق الجميع على خلع عبدالعزيز فى يوم معين . حتى إذا جاء اليوم أتى الأسطول فرسا أمام سراى طولمه بغجه ، واجتمعت العساكر فأحاطت بالقصر ، ودخل على السلطان من أبلغه خبرالعزل ، فاستخف بهذا الخبر ، فأشهدوه العساكر والأساطيل والجموع المحتشدة فاستسلم ، وأنزلوه من السراى ، ووضعوه فى قصر نخم ومعه والدته وثلثمائة أنثى ، بين زوجات وجوار مملوكات ووصيفات وخادمات ؛ واختصروا حاشيته فاستغنوا عن ١٢٠٠ سائس و١٠٠٠ طبلكار (حامل طبليّات الطعام ) و ٦٠٠ قوار بى وأمثالهم من الخدم ، وقطعت مرتباتهم للضائقة المالية التى حلت بالدولة . وبعد بضعة أيام وُجد السلطان مقتولا ، فقيل إنه قتل ، ويرى الأكثرون ، ويقرر الأطباء العديدون ، ويؤكد ذلك مدحت ، أن السلطان أخذته العزة فقطع شرياناً من ذراعه بمقراض فمات من ذلك .

ومهما كان فقد بويع السلطان مراد ، فلم تمض عليه أيام حتى ظهر جنونه واختلط عقله ؛ فوُلّىَ السلطان عبد الحميد بعد ثلاثه أشهر ، وحمل « مدحت » عبء هذه الأحداث الفظيعة والربكة الشنيعة ؛ وهو فى أثناء مرض السلطان مراد يجتمع بأعوانه ويدرس قوانين أوروبا ونظمها ويختار أنسبها .

وكان فى ذلك يضع إحدى عينيه على النظم الأوروبية والأخرى على حالة الدولة ، فما كل ما يصلح لأوروبا يصلح لها ؛ وفى ذلك يقول : « إن أخذ القانون من أوروبا ووضعه لنا لأنه أفادهم يشبه أخذ آلة من الآلات عندهم للنسيج وجلبها إلى بلادنا وليس عندنا فرد يقدر على إدارتها والاستفادة من سرعتها .

« وفضلا عن ذلك فكثير من القوانين لا يوافق كل الولايات فى دولتنا ؛ فالقانون الذى يوافق ولايات حلب وسوريا و بغداد لا يوافق ولايات بروسه وأزمير وأدرنه ؛ وقد يكون القانون فى بعض الولايات عدلا ، وفى بعضها ظلماً ، فيجب النظر إلى هذه المسألة عند تغيير القوانين .

« وإن مسألة استقلال المحاكم ، وأصول جباية الأموال ، وقوانين الإدارة وغيرها من القوانين والنظامات ، قد استعملها الإفرنج فأفادتهم بسبب رقى الأهالى ومدنيتهم ؛ فقانون الأراضى مثلا يقضى علينا بتعيين المهندسين ، ومعرفة مقادير أراضى بلادنا وأصحابها ووضع الضرائب اللازمة ، وهذا لا يتم بواسطة كاتب واحد يتقاضى ١٥٠ قرشا فى الشهر ، فالإفرنج يعينون لكل قرية لجانا ومهندسين يمسحون الأراضى ويقدرون الضرائب ، ونحن لا نعرف لليوم عدد سكان بلادنا ولا مقدار أراضينا .

« فيجب تدريب الرجال وإلقاء أزمّة الأمور إليهم بالتدريج ... كما يجب تخصيص الأعمال لكل طائفة ؛ ففى أوروبا للمالية اختصاصها ، وللحربية اختصاصها ، وكذلك للداخلية والعدل أما عندنا فالأمور كلها منوطة بالوالى » .

وهكذا عكف هو وأعوانه على هذا الإصلاح الذى يتلخص فى اختيار خير النظم الأوروبية واختيار أوفقها لحالة الدولة الاجتماعية ، والأخذ بيدها تدريجا ، كلما أَلِفَتْ خطوة انتقل بها إلى ما بعدها .

ويعد القانون الأساسى للدولة ويرتب نظام مجلس المبعوثان ، فما وُلّى السلطان عبدالحميد حتى كان ذلك كله معدًّا ، وتولى مدحت باشا الصدارة . وبعد أربعة أيام من صدارته بادر السلطان إلى إقرار القوانين ، وأعلن الدستور المؤسس على الشورى ، والمؤسس على اشتراك جميع الرعايا فى شؤون تحسين الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين ؛ ونُظِّم للدولة مجلسان : مجلس ينتخب من الأهالى ويسمى بمجلس المبعوثان ، ومجلس

تعين الدولة أعضاءه ويسمى مجلس الأعيان . وتُلى هذا الدستور المشتمل على ١١٩ مادة بالآستانة فى محفل عام ( ١٤ من ذى الحجة سنة ١٢٩٣ ﻫ ) ، وأمر بأن يكون العمل بمقتضاه فى جميع أنحاء المملكة العثمانية ، وأطلقت المدافع من القلاع البرية والبحرية ، واستبشر الناس خيرا ، وأقيمت الأفراح والليالى الملاح . وكان يتضمن هذا الدستور حقوق الدولة وواجبات الوزراء ورجال الإدارة ، واختصاص كل مجلس من المجلسين ، وتنظيم المحاكم والديوان العالى والمالية الخ ، وكل الدلائل تبشر بالخير . هذا مدحت أبو الدستور رئيس الوزارة ، وهذا السلطان عبد الحميد أتى بإرادة الأمة وهو مدين لها بجلوسه على العرش ، مدحت يؤيده ، وهو يؤيد مدحت ، والكل يخضع للنظام والحكم الديمقراطى ، فماذا ينتظر بعد ذلك إلا الخير!!

هكذا قال الناس ، وهكذا قال مدحت .

لعله أخطأ إذ بالغ فى التفاؤل أكثر مما يلزم ، وكذلك أكثر عظماء الرجال تسحرهم الفكرة ، ويلعب بلبهم المبدأ فلا يرون منه إلا النواحى البراقة ، كالفنان يرى فى شجرة الوردة أزهارها ولا يرى أشواكها . استخف بقوة الرجعيين ، ولم يعرف لطهارته أساليب دسائسهم ، واقتنع بالبسمة على وجوههم ، ولم ينفذ منها إلى الغِل فى أعماق صدورهم ، ولم يقدر قوة العدد العديد الذى كان يغتنى من الظلم وسيفتقر بالعدل ؛ والذى كان يثرى من كلمة ملق أو تسويد سطر بوشاية ، فأصبح خائفا من العدل أن يجرده من ثرائه وينزله من جاهه ؛ والذين يبشرون أنفسهم بالحظ لأنهم فقدوا أن ينالوا شيئا ببذل الجهد .

وشىء آخر هام فاته ، وهو أن من عاش طويلا فى ظل العبودية لا يتعلم سريعا مزايا الحرية ، وأن الأمم السابقة إلى النظم الديمقراطيـة لاقت الأهوال قبل أن تعتدل ، وتأرجحت كثيراً قبل أن تتوسط ، والذى نفعها أنها لم يكن يطمع فيها طامع ، فقضت مدة التجربة وهى آمنة مطمئنة ؛ أما هذه الدولة فلا

ينتظر مدة تجربتها أحد ، فإذا بدأت تجرب قالوا لا تصلح ، وإذا أخطأت لم يقولوا إنه عَرَض مفارق بل قالوا طبع ملازم .

فهذا مجلس المبعوثان يجتمع فيشتط بعض أعضائه فى القول من غير حساب حتى يثير بأقواله مشاكل ومخاوف ما كان أغناهم عنها ، وكل ولاية تظن أن مبعوثيها نائبون عنها لا غير وليسوا نائبين عن الأمة ، وأن عليهم أن ينفذوا جميع رغائبها ولو كانت غير عادلة ، ولو كانت لا تتفق ومصلحة الدولة من حيث هى كل ؛ ويحمل البريد إلى كل مبعوث ما ينوء بفتحه بله قراءته : هذا يطلب عزل خصمه وتوليته بدله ، وهذا يلتمس رتبة ونيشانا ، وهذا راغب فى وظيفة ، وهذا راغب فى ترقية ، حتى بلغ الحال أن مكاريا سرقت دابته فبعث إلى مبعوث ولايته أن يأمر بإعادتها إليه .

وربما كان هذا طبيعيا والنظام جديد ، والجهل عتيد ، ولا بد من فترة تمر يفهم فيها أن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة ، وأن مبعوث الولاية نائب الأمة أولا وولايته ثانيا ، وأنه كلما خفف ناخبوه مطالبهم زادوه مقدرة على نفع أمتهم ؛ ولكن أنى لهم بمن يصبر على سخافتهم ، ويفسح الصدر لمرانهم ، والأعداء كثيرون فى الداخل والخارج وهم لهم بالمرصاد ؟!

وزاد الأمر سوءا أن الروسيا إذ ذاك لم يرضها هذا الحال ، فاحتجت على ذلك وتأخرت فى الاعتراف بالنظام الجديد ، ولعبت بالبلقان فحركته ، وثارت الثورات فى أنحائه ، فثورة فى الصرب ، وثورة فى الجبل الأسود والبوسنة والهرسك ، والحروب قائمة ، وانتصارات الدولة لا تفيدها عند الدول ، وانتصارات عدوها يفيده ؛ والدولة فقيرة فى المال بما أسرف عبد العزيز ، وفقيرة فى رؤساء القواد ، فقد قتل حسين عونى باشا وغيره معه بيد أثيمة ، وروسيا تريد فصل البلغار عن الدولة ، ولكل دولة مطامع ؛ ومدحت يتحمل كل هذه الأعباء الداخلية والخارجية فى صبر

عجيب ، فنهاره فى تنظيم الشؤون الداخلية ، وليله فى المشاكل الخارجية ، وفى ذلك يقول : «تحملت من المتاعب من يوم جلوس السلطان مراد ما يفوق القدرة البشرية ، وكنت أقول ليست هـذه الحياة لى بل للأمة ، وقد وقع الوطن فى مصائب داخلية وخارجية ، فواجب أن أسعى فى تخليصه من مخالبها » .

وفيما هو كذلك سلّم إليه أحد رجال المابين خطابا فتحه وقرأه ، فإذا فيه عزله وإبعاده إلى خارج الدولة فورا من غير أن يعرّج على أهله ، وذلك بعد شهرين من صدارته . فألح مدحت على رجل المابين أن يراجع السلطان فى بيان السبب ؛ فعاد وقال : إن السلطان يقول إن المادة ١١٣ من الدستور تخول السلطان حق إبعاد الذين ترى نظارة الضابطة سوء حالهم ، وقد قدم ناظر الضابطة إلى جلالة السلطان تقريرين وقّع عليهما وهما هذان . ففتح مدحت أحدهما فإذا فيه : « أن جاسوساً سمع ضابطا يقول لصاحبه فى إحدى المقاهى إن مدحت سيكون رئيس جمهورية » فاكتفى مدحت بهذا ولم يفتح الثانى ، وقال : « إن بلادى التعيسة كمريض حضره نُطُسُ الأطباء ، وعالجوه حتى كاد يبلُّ من مرضه ، فاندس عدوّ له فسقاه سما قضى على حياته » . وصدع بالأمر وركب الباخرة «عز الدين» لتوّه من غير أن يرى أهله .

وخاف السلطان من الرأى العام ، فطلعت الجرائد ومن ضمنها «الجوائب» ترمى مدحت بأفظع التهم ، هذه تقول إنه ضبطت أوراق تدل على خيانته ، وهذه تقول إنه أراد أن يجعلها جمهورية ، وهذه تقول إنه قد أوقع الدولة فى مشاكل خطيرة ؛ وأدى الشعر رسالته ، وأنشئت فيه قصائد هجاء بليغة ، وأظهر كثير من المعمّمين ابتهاجهم ، وقالوا إنه يريد فصل السلطة الدنيوية عن السلطة الدينية — والذى يقارن بين الجرائد منذ أربعة أيام وبينها اليوم يعجب لهذا الانقلاب الغريب من مديح رنان إلى هجاء رنان . وسكت الناس بين الدهشة والعجب ، والشك واليقين ؛ وشُرِّد

رجال مدحت ممن أخلصوا له ولمبادئه . ووسط هذه البلبلة الفكرية صدر الأمر الشاهانى بتعطيل الدستور تعطيلا مؤقتاً ، ولكن ألا تعرف — أيها القارى الكريم — مدة هذا التعطيل المؤقت ؟ ثلاثون سنة !!

لم يكن الرأى العام حذِراً فخُدِّر ، ولا عاقلا فخُدع ، ولا قوياً فامتهن .

## ٤

هذه الباخرة « عز الدين » تمخر البحر لتقذف به فى ثغر من ثغور أوروبا ، وقد ضاعت كل آماله ؛ فكل ما حزر من تقدير الثورة ونتائجها ، والدستور وثباته ، والسلطان عبد الحميد وخضوعه لإرادة الأمة ، قُضى عليه فى لحظة ، وزال من الوجود فى لمحة ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه قبل جهاده المتواصل ، وكدحه المتتابع ، وكل ما فى يده الآن غضب السلطان عليه وعلى أتباعه ، وبعده عن أهله وتجرُّده من ماله .

لو أن أى إنسان عادى آخر مكانه للعن الإصلاح والمصلحين ، وترك الدولة تجنى جزاء ظلم سلاطينها ، وانتظر حتى يتشفى بمنظر الفساد يهدُّ أركانها ، ويفتخر بأنه نصح فلم ينتصحوا ، وأنذر فلم يصغوا ، فارتاحت نفسه بصدق ما تنبأ ، وحدوث ما أنذر .

ولكن لم يكن مدحت فى شىء من هذا ، فما مرت هذه الخواطر بنفسه حتى طاردها ، وأخذ يفكر من جديد فى وسائل إصلاح ما كان ، وعجب من نفسه فوصفها بقوله : « إن حب الإصلاح قد اختلط بدمى فكان كالمرض المزمن لا يُبرأ منه » .

فكر سريعاً ، ووصل إلى النتيجة سريعاً ، فرأى أن روسيا تحارب بلاده وتجمع لها جيوشها الجرَّارة ، ويذهب القيصر بنفسه إلى ميدان القتال لتحميس

الجند ، والدول كلها تتنبأ بنصرتها ، فواجبه — إذن — أن يؤلب الدول على روسيا ما استطاع ، ويبين لكل منها الأضرار التى تنالها من هزيمة الدولة العثمانية ، وتعديل خريطتها . فهو فى أسبانيا يتصل بساسة إنجلترا وفرنسا ، ويحاول إقناعهم بآرائه ، ثم يذهب إلى إنجلترا لهذا الغرض ، ويُبرق إلى المابين يقول : « قد سعيت مدة إقامتى فى عاصمة بلاد الإنجليز بما يعود على دولتنا بالنفع ويرفع شأن حكومتنا ، وحاولت إقناعهم بعقد صلح يحفظ الدولة وعظمتها ، وأفتخر أنى وفِّقت إلى ذلك بعض التوفيق » ؛ ثم يذهب إلى ڤيينا لهذا الغرض ويبرق فيقول : « أنا اليوم فى (ڤيينا) أبذل الجهد لترويج نفس المساعى . . . وآمل إخبارى بما يوافق مصلحة الأمة لأستعين به على أمنيتى الوحيـدة ، وقد وقفت حياتى لتخليص الدولة من ورطتها ، وأنا قادر على القيام بأعباء ما يطلب منى ، ومصلحة الوطن تضطرنى إلى ذلك » .

وكانت تعترضه صعوبة أن بعض الدول تردُّ عليه بأنه ليس مفوَّضا ، ولا له صفة رسميـة يتكلم بها ، وأنه ليس إلا رجلا منفيا ، فطلب من الدولة تصحيح موقفه لإتمام مساعيه فلم يجد سميعاً !

وأغرب ما فى الأمر بعد ذلك أن يزفَّ إليه « ناظر التشريفات » بشرى أن السلطان ذكره بحضره ، وسأل عنه كيف يعيش ؟ فقـال « ناظر التشريفات » : إنه فى حالة بؤس ينتقـل من بلد إلى بلد ، ويعيش بالقرض ، فظهرت رقة قلب السلطان وبكى ، وقال أرسلوا له ألف ليرة ؛ ثم يختم الخطاب بأنه يطلب منه شكر السلطان ، وتضرعه إليه بالعفو عنه .

ظن المسكين « ناظر التشريفات » أن كل النفوس ذليلة كذلته ، مَلِقَة كملقه ؛ ولـكن هذا الخطاب وقع من نفس مدحت الأبيَّة موقع السهم المسموم فى الفؤاد الجريح ، فهاج وثار ، ورد عليه فقال :

« لقد عبرتم للسلطان عن حالى بأنها حال بؤس ينتقل من بلد إلى بلد ، تستدرون بذلك شفقته ، وهذا وصف لا يوصف به إلا فاقد الشعور أفّاق ، لا رجل مثلى عمل ما عمل ، وتولى الصدارة بجدارة .

وأنا كما وصفتم من أسباب عيشى وفقرى ، فقد اقترضت عشرة آلاف فرنك من خرستاكى فى نابولى فنفدت ، وأنا اليوم أسعى فى قرض جديد أسد به رمقى ورمق أسرتى فى الآستانة ، ولكنى فخور بذلك ، فقد ولدت عارى الجسد ، وسأموت عارى الجسد ، وأنا ابن الحاج أشرف أفندى ونعم النسب ، ومع هذا فلا أنتسب إلا إلى الله ، وذخيرتى أنى عاهدته ألا أقول إلا الحق ، ولو أوصلنى إلى مثل ما ألاقيه الآن من الشدائد .

وما الذى فعلت من إجرام حتى أطلب العفو ؟! لقد سعيت فى تولية السلطان مراد بعد عبد العزيز ، فلما مرض سعيت أن يجلس مكانه السلطان عبد الحميد ، وكان جلوسه مقروناً بإعلان الدستور ووضع خطط الإصلاح .

ومنذ خروجى من الآستانة وأنا أفكر فى الدولة وسبيل إنقاذها من المهالك ، ولا أفكر فى نفسى ، فماذا فى هذا مما يعتذر منه ؟ .

لقد بلغت السادسة والخمسين ، ولا أمل لى فى الحياة ! فلم يتجاوز أسلاف الستين ، فأيامى معدودة ، وكل رجائى أن أعيش منفرداً ، وأدعو لولىّ النعم الأعظم » .

هذه خلاصة كتاب أقل ما يوصف به أنه يعبر أصدق تعبير عن قوة مدحت وعظمته ورجولته وسمو نفسه .

لقد وصف « ناظر التشريفات » هذا الخطاب لما قرأه بأنه كالعروس عطلت من حليها ، وعَرِيَتْ من ثيابها ، ولكن أين يكون الجمال إذا لم يكن هذا جميلا ؟ وفى الحق أن هناك عيوناً لا ترى الجمال الحق فى الإباء والشمم ، وإنما ترى الجمال المتصنع فى النفاق والملق .

كان يوما يصطاف فى الريف عند صديق له من دوقات الإنجليز، وإذا بسفير الدولة العثمانية فى إنجلترا يقابله ، ويبلغه أن السلطان سمح له أن يقيم مع أسرته فى جزيرة « كريد » . فذهب إليها وعاش فيها مع أسرته نحو شهرين . ثم عين والياً لسوريا ، ثم لأزمير ، ثم كانت مأساته التى ختمت بها حياته كما سنبينه بعد .

***

هذا هو العمود الفِقْرى فى حياة مدحت ، وله بجانب هذا أعمال فرعية فى الولايات التى تولاها ، وهى أعمال خالدة لا تزال تذكر من أهل البلاد التى عمل فيها بالحمد والثناء .

لقد وَلِىَ العراق ، وولى سلانيك ، وولى الشام ، وولى أزمير ، وكان له فى كل أولئك خطة واحدة ، يعمد — أولا — إلى الأشقياء الذين يعبثون بالأمن فيضربهم ضربة تنخلع منها قلوبهم وقلوب أمثالهم ، فإذا الأمن شامل والهدوء عام . ثم ينشر العدل بين الناس فيطمئنون على أنفسهم وأموالهم ؛ ويعمل بالشورى فيحيط نفسه بمجلس من خيرة الولاية يستشيرهم فى أمورها ، ويجرئهم على قول الحق فى صراحة ، ويعلمهم كيف يعالجون المشاكل ؛ ثم يصلح الطرق ويربط الولاية بشبكة محكمة ، لأن ذلك يعين على الإسراع فى ضبط أمورها ؛ ثم يضع الخطط لاستغلال منابع الثروة فى البلاد على خير وجه ، كل ولاية بما يناسبها ، حتى يزيد نتاجها على نفقاتها ، ويأخذ من المال الناتج لإنشاء المدارس ونشر التعليم ، وهو بعمله هذا يضع نواة العلم فى بلاد فشا فيها الجهل وكادت تعم الأمية .

تولى العراق سنة ١٢٨٥هـ — سنة ١٨٧٠ م فى عهد السلطان عبد العزيز فأخضع رؤساء العشائر بعد عنادها ، ودوّخ العصاة وطاردهم فى أوكارهم ، ثم أصلح

أداة الحكومة ، فأقبل الزراع على زراعتهم ، والعمال والصناع على عملهم وصناعتهم ، وأنشأ أول مطبعة فى بغداد ، وشجّع على إنشاء جريدة سماها « الزوراء » ؛ وحث الشركات على العمل : فشركة تسيِّر البواخر بين بغداد والبصرة ، وشركة تسير الترام بين بغداد والكاظمية ؛ وقرّب المسافة بين بغداد والبصرة بتحويل مجرى دجلة ، وبث المهندسين الزراعيين يدرسون حالة البلاد الزراعية ، وأنشأ منتزهاً عاما فى بغداد سماه « بستان الأمة » « مِلّتْ باغجه سى » .

ومن طريف آرائه أنه عرف أن « بالنجف » كنوزاً مدفونة ، فيها كثير من الأحجار الكريمة ، كانت تزين بها الأضرحة والمشاهد ، قد أخفيت أيام هجوم الوهابيين وهدمهم للقبور ، فأخرجها مدحت ، وقوّمها الخبراء بما يزيد على ثلثمائة ألف ليرة ؛ فاقترح مدحت بيعها وإنشاء خط حديدى بثمنها بين النجف وإيران (لأنه كان قد اشترك فى التبرع بها كثير من الفرس) ، فلم يوافقه العلماء على ذلك فبطل المشروع . كذلك من طرائفه أنه ألّف مجلساً للشورى فى بغداد يرجع إليه فى أمور الولاية ، ولم تكن الناس تألف الجهر بالرأى والشجاعة فى القول ، ولا تعدُّ لهم بجانب الوالى شخصية ، فجمعهم يوما وقال لهم : إنى أرى الحاجة ماسة إلى استئذان الباب العالى فى زيادة الضرائب لتنفيذ ما نرى من وجوه الإصلاح فماذا ترون ؟ قالوا جميعاً موافقون ، هذا هو الرأى ، وهى الحكمة ؛ فكتب بذلك محضراً وختمه جميعهم ؛ ثم جمعهم فى اليوم الثانى وقال : لقد فكرت فى أمر زيادة الضرائب فتراءى لى أنها ظلم فادح لا يستطيعه الناس ، ولكن محضر أمس أرسل ، فإذا رأيتم هذ الرأى صواباً كتبنا آخر ألحقناه به ، وبيّنا الأسباب الموجبة لنقضه ، فقالوا نِعْمَ الرأى ما رأيت ؛ ووقّعوا على الثانى كما وقعوا على الأول . فأمسك بالمحضرين هذا بيد وهذا بيد ، وقال : والله ما أرسلته ولكن أردت أن أختبركم ، فما قيمة المجلس إذا رجعتم دائما إلى رأيى

وحده ؟! ثم ألقى عليهم درساً قاسياً فى الحرية وفوائدها ، والشخصية وتكوينها ، والاستقلال فى الرأى ومزاياه .

وكانت ولايته للشام أصعب ، فقد تولاها فى العهد الحميدى بعد حوادثه مع عبد العزيز واتهامه بالجمهورية ، وعداء السلطان والمابين والوزراء له ، كلهم يتربص به الدوائر . ثم مشاكل الشام أعقد من مشاكل العراق ، فهذه مشاكلها بدو وعشائر ، وعلاقته بإيران ونحو ذلك ؛ أما مشاكل الشام فأخطر : أمور لبنان تتصل بفرنسا ، وأمور الدروز تتصل بإنجلترا ؛ ولكل دولة مصالح ومدارس وكنائس ، وغير ذلك . فكان أول ما لفت نظره ما ذكر من « أن مسلميها قد فشا بينهم الجهل ... ومدارس الإفرنج تتقدم كل يوم تقدما ملموسا ، وليس للحكومة سوى بعض مدارس ابتدائية يقرأ فيها الأحداث القرآن ، فكنت أفكر فى أمر تعليم أبناء المسلمين وإصلاح مدارسنا » .

فشكل الجمعيات ، وجمع الإعانات ، وفتح المدارس ، وأصلح المساجد وجعلها مدارس ، ووضع عقوبة لولىّ أمر الطفل إذا بلغ ابنه السادسة ولم يرسله إلى المدرسة ، واستعان بأموال الأوقاف فى أمور التعليم ، وتأسست فى عهده « جمعية المقاصد الخيرية » وانتشرت شعبها فى البلاد .

ولما حاول الإصلاح الاقتصادى والإدارى اصطدم بالدول ، فكانت فرنسا صاحبة امتياز لبنان ، وكانت الحكومة العثمانية خصصت لها خمسة وعشرين ألف ليرة من إيراد جمارك الشام ، فكتب إلى رئيس الوزارة بقطع هذا المبلغ فغضبت فرنسا ؛ وهكذا وهكذا من مشاكل ، والدسائس تحاك حوله ، وتشاع الإشاعات بأنه يريد الاستقلال بسوريا ، ويستدل على ذلك بأن هاتفاً هتف « فليحى مدحت باشا » ، وأن كاتباً كتب « الخديوى مدحت » . ولذلك لم يتمكن من الإصلاح فى الشام كما تمكن منه فى العراق ، مما لاقى من العناء فى

الداخل والخارج . فيالله للمصلحين .

وأخيراً نقل إلى أزمير ، فلم يطل بها مقامه حتى كانت المأساة .

فبعد خمس سنين من وفاة السلطان عبد العزيز تحركت مسألة وفاته من جديد ، وأشيعت الإشاعات أنه لم ينتحر وإنما قتل بإيعاز مدحت وأصحابه . وبلغ مدحت وهو فى أزمير أنه يراد القبض عليه والتحقيق معه ، وكتب إليه صديق له « فاخرج إنى لك من الناصحين » . وعرض عليه بعض أصدقائه من الأوروبيين ركوب باخرة معدة وسفره إلى الخارج فرفض وقال : « كيف أرتكب الفرار لجريمة لا نصيب لها من الصحة » .

وبينا هو نائم فى داره إذا بالجنود تحيط به ، ويقبض عليه ويرسل إلى الآستانة لمحاكمته بتهمة الاشتراك فى قتل عبد العزيز .

من عهد أن تولى السلطان عبد الحميد ، وهو لا يأمن جانب مدحت ، ومن لف لفَّه ، ويخشى جد الخشية أن يعيدوا معه تمثيل دور عبد العزيز ؛ وبلغت به الخشية حد الهوس ، فكل قوى المملكة من مال ورجال وسمع وبصر مسخرة للمحافظة على شخصه ، ومراقبة مدحت وأمثاله ، لأن من قدر على البدء كان أقدر على الإعادة — وأخيراً اهتدى هو وأعوانه — للقضاء على مدحت وأصحابه ، إلى هذه التهمة ، فدبِّرت محاكمتهم ، ورتبت شهودهم ، ورسمت خطة الإيقاع بهم . وبعد محاكمة صورية حكم عليهم بالإعدام ، فتوسط الإنجليز وبعض سفراء الدول فاستبدل بالإعدام النفى ، ووضعوا فى باخرة سارت بهم إلى جدة ومنها إلى الطائف[1] . وأهينوا من يوم خروجهم من الآستانة بالتضييق عليهم فى مأكلهم وملبسهم ومنامهم ؛ وسجنوا فى قلعة الطائف ثلاث سنين ، وأجرى عليهم العذاب ألواناً ؛ وكلما مر عليهم زمن وهم أحياء زادوهم تضييقاً حتى يموتوا ؛ ومن اشتد من الضباط عليهم رقى ، ومن أخذته الشفقة عليهم أبعد . ومدحت يرسل الكتب

(١) انظر مذكرات مدحت ومحاكمته ليوسف كمال حتاته بك .

إلى أهله يطلب منهم مالاً يقتات به ، ويبذل كثيراً من الحيل فى إيصالها إليهم ، فإذا أرسلوه لم يصل إليه . وثمانية من سادة القوم منهم مدحت يعيشون على صحن من « شوربة » مصنوعة من الماء وورق الفجل فى الصباح ومثله فى المساء ، يريدون بذلك أن يميتوهم جوعا فلا يموتون . وأخيراً ضاق ولاة الأمور بهم ذرعا فقرروا أن يَسُمُّوهم ، ولكن مدحت وصحبه يكتشفون المؤامرة .

فلما أعيتهم الحيل أوعزوا بخنقه فخنق . وكان آخر ما كَتَب إلى أهله كتاباً جاء فيه : « سيكون هذا المكتوب آخر ما أكتب فيما أظن .

فقد أخذوا منا الأقلام والمداد والورق ، وضيّقوا علينا الخناق ، وقصدوا تسميمنا واحداً بعد واحد ، ولكن ظهرت نيتهم .

ولا بد أن يصلوا يوماً ما إلى غرضهم . فإذا جاءكم خبر وفاتى قبل كتابى فلا تحزنوا . وأنا أرجو من الله المغفرة فقد مت فداء الوطن ، وأستودعكم الخالق الباقى »

***

قضى مدحت حياته كلها فى الإصلاح الاجتماعى ، يختار من المدنية الحديثة أحسن ما وصلت إليه من تنظيم الحكم على أساس الشورى التى تتفق وتعاليم الإسلام ، ويأخذ خير أساليبها فى نشر العلم وتنظيم الحياة الاقتصادية للبلاد ، ويراعى فى ذلك كله مستوى الأمة ومقدرتها على الامتصاص ، فيعجل ما أمكن ، ويؤجل ما لم يمكن إلى أن يمكن ، ويحوّر ما يأخذه حتى يتفق وعقلية شعبه ، ويلتذ من العذاب يصيبه فى هذه السبيل لأنه ربطه بعقيدته الدينية ؛ فالدين فى نظره ليس صلاة وصوما فقط ، ولكنه مع ذلك عمل الخير لشعبه ، ولا خير أرقى من الأخذ بيد الأمة لتفهم حقوقها وواجباتها وتثور على من يقف عقبة فى سبيل تقدمها — ومن أجل هذا كان هادئاً مطمئنا مستبشراً ، وهو فى منفاه يرتقب الموت من ساعة إلى ساعة ، يقول لأهله فى بعض كتبه : إنى أقرأ القرآن

وأستعيد حفظه ، وأستعذب تكرار آية «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه » وأعدُّها أكبر عزاء لى ، وأهزأ بما أسمع من هجاء وافتراء ، فقد سلّمت كل أمورى لربى . إن الحياة محدودة وهى كألعوبة ، ومحنتنا يكافئنا عليها ربنا ، ولنا أسوة فى الأنبياء والأولياء الذين قتلوا أو سجنوا فصبروا على ما أصابهم .

فإذا فرغ من عباداته ، دوّن بعض مذكراته .

***

وقد خدمَتْ أفكارَه شناعةُ وفاته أكثر مما خدمها جهاده فى حياته ، فقد ألمت النفوس الخيرة مما أصابه ألمًا ممضًا ، وتأججت النار فى أفئدتهم وأفئدة من يتصل بهم ، وكانت أحداث الظلم المتوالية تغذيها بالوقود ، فلما التهبت النيران التهمت عبد الحميد كما التهمت من قبلُ عبد العزيز ؛ بل لعلها أيضًا هى التى التهمت فكرة الخلافة من أساسها فيما بعد .

***

والآن ننتقل بأجهزتنا إلى مصلح آخر من صنف آخر ، هو السيد جمال الدين الأفغانى .

# السيد جمال الدين الأفغانى

١٢٥٤ — ١٣١٤ هـ

١٨٣٩ — ١٨٩٧ م

لئن كان محمد بن عبد الوهاب يرمى إلى إصلاح العقيدة ، ومدحت باشا يرمى إلى إصلاح الحكومة والإدارة ، فالسيد جمال الدين يرمى إلى إصلاح العقول والنفوس — أولا — ثم إصلاح الحكومة ، وربط ذلك بالدين . « مدحت » يرى إصلاح الشعب عن طريق إصلاح الحكومة ؛ وجمال الدين يرى إصلاح الحكومة عن طريق إصلاح الشعب . مدحت يقول : إن الحكومة راع وإذا صلح الراعى صلحت الرعية ، والغاية « الدستور » فإذا وضع ونفذ فالخير كل الخير للأمة ؛ ويقول جمال الدين : « إن القوة النيابية لأى أمة لا يكون لها قيمة حقيقية إلا إذا نبعث من نفس الأمة ، وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو مير ، أو قوة أجنبية محركة له ، فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه » ، فالعقول والنفوس — أولا — والحكومة ثانيا والغاية هما معا .

ماذا تنفع الحكومة الصالحة إذا كان الشعب غير صالح ؟ لقد علمنا التاريخ ، أن الحكومة لا تستقيم إلا إذا كان فى الأمة رأى عام يخيفها ، ويلزمها أداء واجباتها ، والوقوف عند حدها ، فإذا لم يكن ذلك فالطبيعة البشرية تملى على الحكام أن يستأثروا بالمنافع ، وغاية ما يتوقع من الحكومة الصالحة غير المؤسسة على قوة الأمة ويقظتها أن تكون موقوته بوقتها ، فإذا زالت حل محلها من لا يصلح ؛ إذ لا شأن للأمة فى اختيارها ، ولا رقابة لها على أعمالها .

يقول حول سنة ١٢٩٦ هـ : « هبوا أن مجلسا نيابيا أنشئ فستجدون أن

حزب الشمال لا أثر له ، وسيفر الأعضاء كلهم إلى حزب اليمين ، وسيكونون كلهم آلة صماء ... وسيرى كل عضو أن الدفاع عن الوطن ومناقشة الحاكم الحساب قلة أدب ، وسوء تدبير ، وقلة حنكة ، وتهور » . لا ! لا ! العقول والنفوس هى المقدمة ، والحكومة الصالحة النتيجة .

***

أفغانى الأصل ، شريف النسب ، ينتمى إلى الحسن بن على (ولشرف النسب فى هذه البلاد حرمة و إجلال تفوق ما فى غيرها من الأقطار) . جمع إلى شرف النسب عزة السيادة ؛ فقد كان أهل بيته سادة على عمالة من أعمال أفغان . ولكن ما لنا ولهذا كله ، فقد تنبت النبتة الطيبة فى الأرض السبخة ، والنبتة الفاسدة فى الأرض الصالحة ، فإذا نبتت النبتة الصالحة فى الأرض الصالحة اكتفينا بالتسجيل . فأسرة جمال الدين لم تنبت إلا جمال الدين ، وأسرة محمد عبده لم تنبت إلا محمد عبده ، وما أكثر الأسر التى تشبه أسرتيهما أو تفوقهما ومع هذا لم تنبت شيئاً . فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

تعلم — كما يتعلم شباب زمانه فى بلاده — الفارسية والعربية على طريقة تشبه الطريقة الأزهرية ، ولا تمتاز عنها إلا بدراسته الواسعة فى الفلسفة الإسلامية والتصوف كما هى عادة الفرس إلى اليوم ، فكان ذلك نواة ثقافته ؛ ودرس فى الهند الرياضة على الطريقة العصرية ، وساح سياحة طويلة فى الأقطار الإسلامية إلى مكة ، فأكسبه ذلك تجارب عملية واسعة ، وخبرة بحياة الشرق . ووقعت بلاده فى منازعات سياسية على من يتولى الملك ، فانغمس فيها وتشيع لجانب منها وقام منه مقام الوزير وانتصر وانهزم ، ولمس تدخل الدول ، فعلمه ذلك كله السياسة وخصومتها ودهاءها وألاعيبها .

وتعلم الفرنسية وهو كبير ؛ أتى بمن يعلمه الحروف الهجائية ثم انفرد بتعليم

نفسه نحو ثلاثة أشهر يحفظ من مفرداتها حتى استطاع أن يقرأ من كتبها ويترجم منها ، ثم توسع فى ذلك أثناء إقامته بباريس ومع هذا فلم يحذقها كل الحذق .

كم من الناس علموا أكثر مما علم ، وقرأوا أكثر مما قرأ ، ورطنوا أكثر مما رطن ، ولكن لم يكن لأحد منهم شخصية كشخصيته . ذكاء متوقد ، وبصيرة نافذة ، وتوليد للأفكار والمعانى من كل ما يقع تحت سمعه وبصره ، واستقصاء للفكرة حتى لا يدع فيها قولا لقائل . «له سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها ، كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتى على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه . وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ؛ ثم له باب فى الشعريّات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع ، وله لسن فى الجدل ، وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ...

أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته ، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه ، فينقلب الحلم إلى غضب ، تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أوّاب ، إذا هو أسد وثاب ، وهو كريم يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله ، لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر .

أما خَلْقه فهو يمثل لناظره عربيا محضا من أهالى الحرمين ، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سكنة الحجاز . ربعة فى طوله ، وسط فى بنيته ، قمحى فى لونه ، عصبى دموى فى مزاجه ، عظيم الرأس فى اعتدال ، عريض الجبهة فى تناسب ، واسع العينين عظيم الأحداق ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ،

جليل فى النظر ، هش بش عند اللقاء ، قد وفاه الله من كمال خلقه ما ينطبق على كمال خُلُقه[١] » .

فهم رسالته وما تتطلب من جهاد ، وما تقتضيه من أعباء ، فلم يرتبط بأسرة ولم يستعبده مال ، وعاش لأفكاره ومبادئه ، تكفية أكلة واحدة فى اليوم كله ، وإن أفرط فى الشاى والتدخين . أعد نفسه للنفى فى كل لحظة ؛ فمنافيه لا يتعبه إلا شخصه . ملابسه على جسمه ، وكتبه فى صدره ، وما يشغله فى رأسه ، وآلامه فى قلبه .

ولقد طوف فى فارس والهند والحجاز والآستانة ، وأقام فيها ، ولكن لعل أخصب زمنه ، وأنفع أيامه ، وأصلح غرسه ، ما كان فى مصر مدة إقامته بها من أول محرم سنة ١٢٨٨ إلى سنة ١٢٩٦ ﻫ ( مارس سنة ١٨٧١ — أغسطس سنة ١٨٧٩ ) . ثمان سنين كانت من خير السنين بركة على مصر ، وعلى العالم الشرقى ، لا بجمال مظهرها وحسن رونقها ، وسعادة أهلها ، ولكن لأنه فيها كان يدفن فى الأرض بذوراً تتهيأ فى الخفاء للنماء ، وتستعد للظهور ثم الإزهار ، فما أتى بعدها من تعشق للحرية وجهاد فى سبيلها فهذا أصلها ، وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت فى نموها .

لقد جرّب « السيد » أن يبذر بذورا فى فارس والآستانة فلم تنبت ، ثم جربها فى مصر فأنبتت .

كان من حسنات رياض باشا أن أعجب « بالسيد » ورأى فيه عالما لا من جنس العلماء ، يعرف الدين ويعرف الدنيا ويجيد الفهم ويجيد القول ؛ فمكّن له من البقاء فى مصر وسعى عند الحكومة فقررت له عشرة جنيهات شهريا .

---

(١) من وصف الشيخ محمد عبده له .

كانت هذه السنون الثمان من أشق السنين على مصر ، إذ كان حالها حال أسرة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، ولكن ربها أسرف فيما ينفق ، ولم يكتف بدخله الكثير فأنفق أضعاف ما كسب مما كان يستدين ، حتى إذا بلغ الغاية فى الدين أخذ الدائنون يحجرون عليه ، ويتدخلون فى شؤونه ، ويشرفون على مصادره وموارده ، ولا يتركون له شيئاً من حرية التصرف ؛ فإذا الأسرة بائسة بعد نعيم ، وشقية بعد سعادة ، وإذا هى مغلولة الأيدى والأرجل والأعناق تحاول الخلاص فلا تجده ، وتتلمس طريق الحرية فلا تهتدى إليه .

فقد توالت القروض التى عقدها إسماعيل باشا ، ففى المدة الواقعة بين سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٧٥ بلغت الديون نحو خمسة وتسعين مليوناً من الجنيهات ، فجاءت بعثة كيف Cave سنة ١٨٧٥ لفحص مالية مصر ، واقترحت لضرورة إصلاحها إنشاء مصلحة للرقابة على ماليتها ، وأن يخضع الخديوى لمشورتها ، ولا يعقد قرضاً إلا بموافقتها .

وأنشئ صندوق الدين سنة ١٨٧٦ يتسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية ، فكانت حكومة أجنبية داخل الحكومة المصرية . وأنشئ نظام الرقابة الثنائية فى هذه السنة أيضاً ، وكان من مقتضاه أن يتولى الرقابة على المالية المصرية مراقبان : أحدهما إنجليزى لمراقبة الإيرادات العامة للحكومة ، والآخر فرنسى لمراقبة المصروفات ؛ وأنشئت لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية وميناء الإسكندرية . وجاءت لجنة تحقيق عليا أوروبية سنة ١٨٧٨ لمراعاة مصالح الدائنين الأجانب ، وتدبير المال اللازم لوفاء الأقساط المطلوبة لهم .

وتطورت الرقابة الثنائية إلى تأليف وزارة مختلطة برئاسة نوبار باشا يدخلها وزيران أوروبيان أحدهما إنجليزى لوزارة المالية ، والآخر فرنسى لوزارة الأشغال [1]

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتاب عصر إسماعيل لعبد الرحمن بك الرافعى جزء ٢ .

ولا شك أن المال عصب الحياة ، فالمشرف عليه مشرف على كل شيء . فتوفير المال لسداد الديون يتطلب الإشراف على جميع الإدارات التي تغل المال ، وهذه الإدارات تحصّل المال من الفلاح ، فلا بد أن يكون آمناً على ماله ، مهيأة له وسائل إصلاح زراعته ، يُعَامَلُ بالعدل في تحصيل الضرائب منه ، فلا بد من الإشراف على هذه الشؤون كلها من أجل المال . وهكذا من أشرف على المال أشرف على كل شيء .

كل هذا حدث مدة إقامة « جمال الدين » فى مصر ، وكان من طبعه الانغماس فى السياسة ، ونمّى هذا الطبع نشأته فى بيت حكم ، وانغماسه فيها أيام تنازع الأسرة المالكة فى الأفغان ، فكانت هذه الأحداث المصرية حافزة له على أن يعيد ما بدأ به من الاشتغال بالسياسة ، وحافزة للناس فى مصر على أن يجاوبوا حركته .

***

كان نشاطه التعليمى ذا شعبتين : دروس علمية منظمة يلقيها فى بيته فى « خان الخليلى » ، ودروس عملية يلقيها بين زوّاره فى بيته وفى بيوت العظماء حين يردُّ زيارتهم ، وفى « قهوة البوستة » بالقرب من « العتبة الخضراء » ، وحيثما تيسر له فى المجتمعات .

فأما دروسه فى بيته ، فكان يلقيها على طائفة من مجاورى الأزهر وبعض علمائه ، أمثال الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلْمان ، والشيخ إبراهيم اللَّقانى ، والشيخ سعد زغلول ، والشيخ إبراهيم الهلباوى .

كان أكثر الكتب التى قرأها على هؤلاء وأمثالهم كتب منطق وفلسفة وتصوف وهيئة ، مثل كتاب الزوراء للدوانى فى التصوف ، وشرح القطب على الشمسية فى المنطق ، والهداية ، والإشارات ، وحكمة العين ، وحكمة الإشراق فى

الفلسفة ، وتذكرة الطوسى فى علم الهيئة القديمة ، وكتابا آخر فى علم الهيئة الجديدة .

هى كلها كتب فلسفة على نحو ما يتصور الفلاسفة القدماء وفى العصور الوسطى ؛ فكانوا يعدون المنطق مقدمة الفلسفة أو مدخلها ، ومن فروعها الألهيات والطبيعة والفلك والطب وما إلى ذلك .

ويظهر لى أن هذه الكتب لم تكن لها قيمة فى ذاتها ؛ فقد كان الشيخ حسن الطويل مثلا يقرأ بعض هذه الكتب فى الأزهر ، وإنما كانت قيمتها فى أن كل فصل من فصولها ، أو جملة من جملها ، كان تكأة يستند عليها الشيخ فى شرح أفكاره وآرائه ، والتبسط فى مناحى الفكر ، والتطبيق على الحياة الواقعة ، ونظرته إلى العالم كوحدة ، مازجا التصوف بالفلسفة بالهيئة بغير ذلك .

وهذا هو ما أقنع الشيخ محمد عبده من الشيخ وطمأن نفسه إذ قال : إنه « بعد حضوره فى الأزهر سنين مل الدروس المعتادة ، وصارت نفسه تطلب شيئاً جديداً ، وتميل إلى العلوم العقلية ، وكان الشيخ حسن الطويل ممتازاً فى الأزهر بعلم المنطق لحضره عليه ولكن لم يكن يشفى ما فى نفسه ، بل كانت تتشوف دائما إلى علم غير موجود ... وقرأ الشيخ حسن الطويل شيئاً من الفلسفة ، ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا ، بل كان درسه احتمالات ، حتى جاء السيد جمال الدين فوجد عنده طلبته وأقصى أمنيته » .

فهذه الكتب التى قرأها إنما قيمتها فى نفس جمال الدين ، والدنيا تتلون بلون منظار الرائى ، والطبيعة كلها مفتوحة أمام أعين الناس كلهم ، ولكن لا يفهم منها إلى القليل .

ما هذا الشىء الجديد الذى وجده « محمد عبده » عند « جمال الدين » فاطمأن إليه واهتدت نفسه ؟ هو ما عند جمال الدين من أصول كلية هى عماد الفلسفة ، يرجع إليها كل ما يقرأ من صفحات الكتب ، وهى الحَكَمُ فى صحة

ما يصح ، و بطلان ما يبطل ، ثم شخصية قوية تجزم فى الحكم ولا تتردد تردد الشيخ حسن الطويل ، ثم ربط جزئيات الحياة العلمية والعملية كلها برباط واحد ، يفتح النوافذ كلها بعضها على بعض حتى تتألف منها وحدة ، فالتصوف، والفلسفة، والدنيا العامة ، ودنيا الشخص ، هذه كلها لا يصح أن يكون كل منها حجرة مغلقة على نفسها ، بل لا بد أن تتقابل وتتناغم ، وتؤلف دورا موسيقيا واحدا ، فإذا تم هذا صح نظر الإنسان وزال عنه كثير من الشك المؤلم والحيرة المضنية ، وبت فيما ينفع وما يضر ، وما يعمل وما يدع ، ووضحت أمامه الأعلام ، واستنارت السبل ، أما جملة تصح وجملة لا تصح ، ومؤلف أخطأ ومؤلف أصاب ، ومنطق فى الكتاب ولا منطق فى العمل ، ونظرية فى التصوف ينقضها نظرية فى الحكمة ، وأقوال فى الزهد يسلم بها فى حينها ، وأقوال فى الحث على الانغماس فى الحياة يسلم بها فى حينها أيضاً ، فهذه كلها نظرة البدائيين الذين لا يستطيعون أن ينظروا إلا إلى السطح دون الأعماق ، والأعراض دون الجوهر ، والأشكال دون الحقيقة .

وفوق هذا كله كان يأخذ بيد تلاميذه فيرفعهم إلى مستوى يسيطرون فيه على الكتاب ولا يستعبدهم الكتاب ، ويسمُون عن قيود الألفاظ والجمل إلى معرفة الحقيقة فى ذاتها ولو خالفت الألفاظ والجمل .

وكانت طريقته فى التدريس عكس طريقة الشيخ محمد عبده . كان جمال الدين يحدد موضوع الدرس فقط من الكتاب ، ثم يفيض فى شرح الموضوع من عنده حتى يحيط به من جميع أطرافه ، و بعد ذلك يقرأ نص الكتاب فإذا هو واضح ظاهر ، بيّن فيه موضع الخطأ والصواب . أما الشيخ محمد عبده فكان يقرأ النص أولا ويتفهمه ويفهّمه ، ثم يفيض فى التعليق عليه وفى بسط الموضوع من عنده .

هذه هى مدرسته النظامية فى بيته .

## ٢

أما مدرسته الثانيـة غير النظامية فكانت أكبر أثراً وأعم نفعاً ، وهى التى كان يتلقى عليه فيها زواره فى بيته ، وعظماء الرجال عند زيارته لهم فى بيوتهم ، وخاصة المفـكرين والمثقفين عند تحلُّقهم حوله فى « قهوة البوسـطة » ، وجمهور الناس عند اجتماعهم به فى المناسبات .

فى هذه المدرسة تلقى دروسَه أمثالُ : محمود سامى البارودى ، وعبد السلام المويلحى ، وأخيه إبراهيم المويلحى ، ومن الشباب أمثال : محمد عبده وإبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب إسحاق ؛ وغيرهم .

وفى هذه المدرسة حوَّل مجرى الأدب ونقلَه من حال إلى حال . كان الأدب عبد الأرستقراطية ، لا همّ له إلا مدح الملوك والأمراء ، والتغنى بأفعالهم وصفاتهم مهما كانوا ظلمـة فجارا ؛ فـكل حاكم سيد الوجود فى زمانه ، آتٍ بالمعجزات فى أعماله ، معصوم من الخطأ فيما يأتى به ، يبتز مال الناس غصباً فلا يلام على ما غصب ولـكن يُمدح على ما أنفق ، ويقتـل من شاء فلا يُسأل عن قتل ولـكن يشاد بفضله إذا عفا . الفن والأدب والشعر والنثر موسيقى لطربه ، وبهلوان لتسليته ، وعبيد مسخرة لنهش أعدائه ، ومدح أوليائه . الأديب الصغير مداح للغنى الصـغير ، والأديب الـكبير مداح للأمير الـكبير — فأتى جمال الدين فسخر الأدب فى خدمة الشعب ؛ يطالب بحقوقه ويدافع عن ظلمه ، ويهاجم من اعتدى عليه كائناً من كان ، يبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم ، ويبصّرهم بمن كان سبب فقرهم ، ويحرضهم أن يخرجوا من الظلمات إلى النور ، وألا يخشوا بأس الحاكم ، فليست قوته إلا بهم ، ولا غناه إلا منهم ، وأن يلحوا

فى طلب حقوقهم المغصوبة ، وسعادتهم المسلوبة . تخرج على الناس بأدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر إلى الحاكم ، وينشد الحرية ، ويخلع العبودية ، ويفيض فى حقوق الناس وواجبات الحاكم ، ويجعل من الأديب مشرفاً على الأمراء ، لا سائلا يمديده للأغنياء ، وهذه نغمة جديدة لم يعرفها المسلمون منذ عهد الاستبداد.

قال الشيخ محمد عبده فى وصف حال مصر قبل مجىء « جمال الدين » :

« إن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ ﻫ كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، و يعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله ، أوخيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحا لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم و بين الحكومة سوى أنهم مصرّفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضر به عليهم . وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوروبية — ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد على باشا الكبير إلى ذلك التاريخ ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ماجاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد على باشا الكبير و إبراهيم باشا ، لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف . ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأناً فى مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده فى النظام وفى العمل ، ولو حدّث إنساناً فكرُه السليم بأن هناك وجهة خير غير التى يوجهها إليها الحاكم لما أمكنه ذلك ؛ فإن مجانب كل لفظ نفياً عن الوطن ، أو إزهاقاً للروح ، أو تجريداً من المال » .

كان الأدب ظلا لهذا الموقف ، وصـورة صادقة لهذا المنظر ، فأدباء مصر أمثال السيد على أبوالنصر ، والشيخ على الليثى ، وعبد الله باشا فـكرى تتصفح آثارهم فماذا ترى ؟ غزلا فى حبيب ، أو رسالة إلى صـديق ، أو مدحا لأمير ، أو استعطافاً له ، أو اعتذاراً إليه ، أو وصف سفينة ، أو شكراً على هدية . أما مصر وحالة شعبه ، و بؤس قومه ، وظلم حكامه ، وحقوق النـاس ، وواجبات حكومته ، فلا تعثر منها على شىء .

فلما جاء جمال الدين قلب هذا الوضع وفتح للناس منافذ للقول ، وسلك فى ذلك مسالك مختلفة :

١ — كوّن جماعة من الـكهول والشبان حبب إليهم الـكتابة ورسم لهم خطتها ، وأوحى إليهم بالمعانى الجديدة التى يكتبونها ، وشجعهم على إنشاء الجرائد ، يكتب فيها و يستكتب لهم من توسم فيه المقدرة . مثال ذلك أنه شجع « أديب إسحاق » — بعد أن اتصل به اتصالا وثيقاً وتتلمذ له طو يلا — على أن ينشىء جريدة اسمها « مصر » ، وكان جمال الدين يرسم له خطه السير فيها ويكتب بنفسه بعض مقالاتها باسم مستعار هو « مظهر بن وضاح » ، ثم أوعز إليه بالانتقال إلى الإسكندرية ، وأنشأ بها صحيفة يومية اسمها « التجارة » ، وكان جمال الدين يستكتب لهاتين الصحيفتين الشيخ محمد عبده ، و إبراهيم اللقانى ، وأمثالهما ، هذا إلى ما يكتبه جمال الدين بنفسه . وكان مما كتبه مقالان أحدهما فى الحكومات الشرقية وأنواعها ، والثانى سماه « روح البيان فى الإنجليز والأفغان » كان لهما صدى بعيد . ولقيت الصحيفتان رواجا كبيراً ، ولفتت إليهما الأنظار بروحهما الجديد ، ثم أغلقهما « رياض باشا » .

وكذلك فعل فى توجيه الـكتاب إلى الـكتابة فى الوقائع المصرية وأمثالها ،

فربى بذلك طائفة من الكتاب تحسن — الكتابة — وتحسن اختيار الموضوعات التى تمس حياة الأمة فى صميمها ؛ فيكتب « أديب إسحاق » — مثلا — تحت عنوان « أوروبا والشرق » : « قُضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع ، ويكون هدفا لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدى الأجانب من كل جانب ... » الخ .

ويقول الشيخ محمد عبده : « إن الحاكم — وإن وجبت طاعته — هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ؛ ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته ، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل » .

ويتصل به الكاتب الإسرائيلى الفكه « يعقوب مصنوع » فينشئ مجلة هزلية اسمها « أبو نضارة » ينتقد فيها سياسة إسماعيل باشا .

كل هذا كان النواة الأولى فى الشرق للصحافة الشرقية والكتّاب الذين يعالجون شؤون الوطن وحالة الشعوب .

وفى الحق أن الظروف التى أحاطت بجمال الدين كانت مساعدة على ذلك : فالحال فى مصر هى كما وصفنا من قبل ، والنفوس جازعة من المراقبة الثنائية ونحوها ، وإسماعيل نفسه يشجع نقد التدخل الأجنبى وإن لم يشجع نقد شخصيته ، فكان يسره مقالات أمثال « الوقائع المصرية » و « مصر » و « التجارة » ، ولا يسره أمثال « أبو نضارة » ، فكان الأمر أن البلاد أصبحت مستودع « بنزين » ، وجمال الدين « عود ثقابها » ، فلما أشعله اشتعلت ، ولولا هذه الظروف لخابت دعوته فى مصر كما خابت فى فارس والآستانة .

٢ — ومسلك آخر سلكه جمال الدين فى مدرسته الشعبية ، وهو أحاديثه التى كان ينثرها هنا وهناك فى المقهى ، وفى المحافل ، وفى بيوت الزيارة . وكان رحمه الله قليل الاحتفال بالأكل ، قليل النوم ، كثير السهر ، قوى الشهوة للكلام ،

نواحيه المعانى وبطاوعة اللسان ، فكان يجد مادة للكلام فى كل شىء : فى السجارة يشعلها ، وفى أى منظر يراه ، وفى الطفل يسأله فيجيب أو لا يجيب ، وفى حادثة زواج أو حادثة طلاق . وهكذا يستطيع أن يخلق أمتع الحديث من الشىء العظيم والشىء التافه ومن لا شىء . وكانت مصر — بحمد الله — مليئة بالأحداث فى هذا الزمان ، فكانت تغنيه أحداثها العظام عن خلق الأحاديث المرتجلة ، وكان له القدرة على أن يلهب مستمعه ، فلا يزال يروّح على الفحم حتى يلهبه ، فإذا جليسه يرى بعد الجلسة راحته فى السير لا فى الركوب . وفى العمل لا فى السكون ، كأنه يريد أن يجاوب جسمُه قلبه ، ويناغم عمله نفسه .

وكان له مذهب فى الكلام يتفق مع شهوته ؛ وهو أن يحدث من يفهم ومن لا يفهم ، ومن يستعد ومن لا يستعد ، كالسحاب ينزل الغيث فتنتفع به الأرض الصالحة وتسوء به الأرض الفاسدة ، ولا عيب على السحاب . يقول الشيخ محمد عبده فى هذا : « كان السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها ، ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريد ، وإن لم يكن من أهله ، وكنت أحسده على ذلك ، لأننى تؤثر فىّ حالة المجلس والوقت ، فلا تتوجه نفسى للكلام إلا إذا رأيت له محلا قابلا واستعداداً ظاهراً » .

وهذا هو السر فى وجود مدرسة فى مصر عجيبة تحسن السمر والحديث ، وتشقيق الكلام وحسن الاستطراد ، وتأخذ على السامع لبه ، من أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول ، والهلباوى ، ولطفى السيد ، وكلهم من تلاميذه فى هذا الباب .

قال سليم بك العنحورى : « كان من ديدن « جمال الدين » أن يقطع بياض نهاره فى داره ، حتى إذا جن الظلام خرج متوكئاً على عصاه إلى مقهى قرب الأزبكية ، وجلس فى صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ، ينتظم فى سمطها اللغوى والشاعر والمنطقى والطبيب والكيماوى والتاريخى والجغرافى

والمهندس والطبيبى ، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه ، و بسط أعوص الأحاجي لديه ، فيحل عُقَد إشكالها فردا فردا ، ويفتح إغلاق طلاسمها ورموزها واحداً واحدا ، بلسان عربى مبين لا يتلعثم ولا يتردد ، بل يتدفق كالسيل من قريحة لاتعرف الكلال ، فيدهش السامعين ، ويفحم السائلين ، ويبكم المعترضين ، ولا يبرح هذا شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيباً . . . فيقفل إلى داره بعد أن ينقد صاحب المقهى كل مايترتب له فى ذمة الداخلين فى عداد ذلك الجمع الأنيق » .

ويقول فى موضع آخر : إنه فى خلال سنة ١٨٧٨ . زاد مركزه خطراً لأنه تدخل فى السياسة ، وأخذ يقرب منه العوام ، ويقول لهم فى أثناء كلامه ما معناه : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم — التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم صامتون . فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة ... تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والمماليك الخ ؛ وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهيا كل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمَنَعة آبائكم وعزة أجدادكم .

هُبّوا من غفلتكم ! اصحوا من سكرتكم .. ! عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء .

ومنذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية » .

بهذا انقلب « الشيخ » من معلم فى حجرة إلى معلم أمة : يخاطب العامة والخاصة ، ورجل الشارع والمتربع فى دست الوزارة .

ومن تمام برنامجه فى هذا الباب أن انضم إلى المحفل الماسونى الاسكتلندى لأنه يضم كثيراً من علية القوم ، لعله بذلك يتمكن من إيصال أفكاره إليهم ، ويضم طائفة من المصريين والأجانب ، فلعل حرية القول فيه تكون أتم ، ولكن ما دخلَ « السيد » فيه حتى ثارت ثائرته ، وأخذ يهاجمه فى تصرفه ، وينقده بخطبه المتوالية ، غاظه من المحفل أنه وجد أعضاءه لا يحبون أن يتكلموا فى السياسة فقال : « أول ما شوقنى للعمل فى « بناية الأحرار » عنوان كبير خطير : — حرية — مساواة — إخاء ، وأن غرضها « منفعة الإنسان — سعى وراء دك صروح الظلم — تشييد معالم العدل المطلق » ، ولكن كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين اسطوانتى المحافل الماسونية !

إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون — وفيها كل بنّاء حر ، وإذا كانت آلات البناء التى بيدها لا تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ، وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة ، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة » .

وهكذا نقدها فى عدم تدخلها فى السياسة ، وتنازع أعضائها على الرياسة ، ورغبتهم فى إغماض عينهم على ما يقع على الأمة من ظلم .

وأخيراً استقال من هذا المحفل ، وأنشأ محفلا آخر تابعاً للشرق الفرنسى ؛ وسرعان ما بلغ أعضاؤه أكثر من ثلثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين المصريين ؛ وكان فى هذا المحفل مطلق الحرية ، نظَّم شُعَبه للأعمال المختلفة : فشعبة للحقانية ، وأخرى للمالية ، وثالثة للأشغال ، ورابعة للجهادية وهكذا

لكل وزارة ومصلحة شُعبة ، تدرس كل شعبة شؤون وزارتها أو مصلحتها ، وتعرف ما يقع من الظلم ووجوه الإصلاح فيها ، ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختص وتبلغه رغباتها في أسلوب حازم صريح ، فكان لذلك هزة في الأندية والمجتمعات[1] .

وهكذا اتسعت دائرة نفوذه وأعماله ، فقد بدأ يدرّس في حجرة ، ثم أخذ يسيطر على عقول مستمعيه في «قهوة» ، ثم هاهو يريد أن يسيطر على الوزارات ومصالح الحكومة بمحفله . وكان يدرّس في بيته كتب الفلسفة والحكمة ، فإذا به في مجتمعاته ومنتدياته يشرح حالة الأمة الاجتماعية ، ويبين حقوقها وواجباتها ، ثم إذا به آخر الأمر يضع يده في صميم الحياة السياسية .

خلقة فيه ظهرت منذ كان شابا يلعب دوره في نصرة أمير على أمير في ولاية الأفغان ، لا يقنع حتى يتزعم ، ولا يهدأ حتى يضع يده على الأزرار التي تصرّف الأمور ، ولكنها أزرار مشحونة بالكهرباء مثيرة للاضطراب ، هو لا يعبأ بها ولكنها على رغمه تنال منه .

ماذا كان يريد السيد جمال الدين في مصر ؟

يريد في درسه النظامي توسيع عقول الطلبة ، وتفتيح آفاق جديدة في فهم العالم ، وتعليم الحرية في البحث ، وإيجاد شخصيات من الطلبة تبحث وتنقد وتحكم ؛ خالفت النص أو وافقته ، خالفت المعروف المألوف أو وافقته .

ويريد في درسه العام أن يتحرر الشعب من العبودية للحكام ، ويفهموا موقفهم من الحاكم ، وموقف الحاكم منهم : كل يعرف حدوده ويؤدي واجبه ، فإذا تعدى الحاكم هذه الحدود قال له الشعب : «لا» بملء فيه — يريد تكوين رأي عام واسع الثقافة قوي حازم ، يفهم الأمور الداخلية والخارجية ، ويكوّن لكل ما يعرض من الحوادث العظام رأيا يقنعه ثم يفرضه على أولي الأمر حتى

(١) خاطرات جمال الدين لمحمد باشا المخزومي .

لا يتلاعبون به ، يفهم أن من حقه أن يعيش عيشة صالحة ينعم بدخله وله غلة جهده ، فإذا أخذت الحكومة منه الضرائب فعلى قدر ما تستدعيه المصالح العامة لا الشهوات الشخصية ، ولذلك كان من حقه الإشراف على وجوه الدخل والخرج .

و يريد فى السياسة أن يقتنع الشعب بحقه فى الحكم ؛ فإذا فهم ذلك — وهذا ما عمله جمال الدين وصحبه — طالب بالمجلس النيابى ، فيعطاه بناء على فهمه وطلبه وقدرته لا على أنه منحة تمنح له ، فإذا أعطيه بجهده كان أجدر بالمحافظة عليه ، وحرص عليه حرصه على دمه ، فاستقر وثبت ، ولم تستطع سلطة ما أن تلغيه أوتهمله :

استدعاه الخديوى توفيق باشا إلى سراى عابدين وقال له : « إنى أحب كل خير المصريين ، و يسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ؛ ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل ، لا يصلح أن يلقَى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة » .

فأجاب جمال الدين : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية و إخلاص : إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم ، و إن قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم فى إشراك الأمّة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون بأجراء انتخابات نواب عن الأمّة تسن القوانين وتنفذها باسمكم و إرادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم »[١] ثم خرج من عنده يخطب فى هذا الموضوع و يستحث تلاميذه وأعوانه على الكتابة فيه فى حماسة وقوة .

لقد رأيناه أول عهده فى مصر يرى أن مجلس النواب لا قيمة له ما دام المصريون على ما هم عليه من قلة التنبه ، وضعف اليقظة ، وقلة الشجاعة . ثم

---

(١) خاطرات جمال الدين .

رأيناه آخر عهده يلح فى طلب الحكم النيابى ويحرّض عليه . فلعله رأى من الأحداث واستبداد الحكام ، ونضج الأمة فى السنين الثمان ما غير رأيه وعدّل خطته .

لقد كان الأمير توفيق فى آخر أيام إسماعيل باشا يقدره ويدين بمبادئه . وكان السيد يلتقى به فى المحفل الماسونى ، ويتوسم فيه الخير إذ ولى بعد إسماعيل ، ولكن الخديوى توفيق لما تولى الحكم سعى إليه الساعون ، وأوعز إليه الموعزون ، فاجتمع مجلس الوزراء وقرر نفى السيد جمال الدين « لأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » ، فمُثلت لنا من جديد رواية سقراط ، وقبض عليه وعلى خادمه الأمين الفيلسوف الأمى أبى تراب فى ٦ رمضان سنة ١٢٩٦ ، ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧١ ، وأودعا فى باخرة سارت بهما إلى بمباى . وكان هذا آخر العهد بالأستاذ فى مصر ، وإن لم يكن آخر عهدها بآرائه ومبادئه .

## ٣

أقام السيد فى حيدر أباد فى الهند منفيا لا يسمح له بمفارقتها ، ولا يستطيع أن يشترك فى عمل إلا حديثاً مع زائر ، أو قراءة فى كتاب ، أو رداً على سؤال .

وفى هذه المدة ألف كتابه المشهور فى « الرد على الدهريين » وعنوانه « رسالة فى إبطال مذهب الدهريين ، وبيان مفاسدهم ، وإثبات أن الدين أساس المدنية ، والكفر فساد العمران » . وقد كتبها بالفارسية ثم ترجمت إلى الأردية ، ثم ترجمها الشيخ محمد عبده بمعاونة عارف بالفارسية وهو تابع السيد جمال الدين ، عارف أبو تراب .

ردّ فى هذه الرسالة على « داروين » ومذهبه فى النشوء والارتقاء ، وعلى أمثاله ممن ذهبوا مذهبه .

وقد يعجب القارئ من تعرضه لمثل هذا البحث وهو يتطلب كما — فعل «داروين» — تخصصاً فى العلوم الطبيعية من چيولوچيا ، وفسيولوچيا ، وبيولوچيا ، وأمبريولوچيا (علم تكوين الأجنة) وغير ذلك .

ولكن عذر السيد أن مذهب «داروين» قد أثار موجة من الإلحاد قوية — وإن لم يكن داروين نفسه ملحداً — وطغا فى عصره مذهب المادية القائل بأن العالم له أساس واحد هو المادة ، ولا شىء وراءها ، وكل شىء فى الحياة مظهر من مظاهرها حتى الفكر والعاطفة ؛ والمادة لا تحد ولا تفنى ، وقوانينها أبدية لا تتغير ، وهى قديمة أزلية أبدية ، وليس فى هذا العالم شىء يعتريه الفناء ، وإنما تتغير الأشكال ؛ وبناء على ذلك فلا نفس ولا روح ، ولا دين ، ولا إله .

وهذا المذهب قديم تراه فى البوذية ، وعند قدماء المصريين ، وعند بعض فلاسفة اليونان ، وظهر فى العصور الحديثة فى الثورة الفرنسية ؛ ودعا إليه كثير من الفلاسفة فى إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ؛ وعرفه العرب قديماً وسموا أصحابه «الدهريين» وحكى مذهبهم الجاحظ والشهرستانى وغيرهما من مؤرخى المذاهب .

وبانتقال الآراء الغربية إلى الشرق انتقل فيما انتقل مذهب النشوء والارتقاء ، ومذهب الماديين ؛ فترجم فى مصر «شبلى شميل» مذهب بخنر سنة ١٨٨٤ ، وأثار حركة كبيرة حوله . وفى الهند ظهرت طائفة تعتنق هذا المذهب وتسمى طائفة «النيتشرية» نسبة إلى نيتشر nature (وهى كلمة إنجليزية معناها الطبيعة) وترددت هذه الكلمة وقرعت أسماع الكثيرين ، كما قرعت سمع جمال الدين أيام إقامته فى حيدر أباد ، وسأله الأستاذ محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بحيدر آباد فى خطاب يقول فيه : «يقرع سمعنا فى هذه الأيام صوت «نيشر» ، «نيشر» ، ويصل إلينا من جميع الأقطار الهندية ، ولا تخلو بلدة من جماعة يلقبون بهذا اللقب «نيشرى» فما حقيقة النيشرية وما مذهبهم ،

وفى أى وقت ظهروا ؟ » . فكان من ذلك تأليف هذه الرسالة .

ولكن ليس أقوم ما فيها الرد على داروين ، وإنما أقوم ما فيها إثبات قيمة الدين ، وضرورته للإنسان ، وأثره فى رقيه ، وأثر الإلحاد فى انحطاطه . وهذا هو ما يبلغ فيه جمال الدين الذروة .

وخلاصة رأيه فى هذا الموضوع أن الدين — على العموم — أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاث خصال ، كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية .

العقيدة الأولى التصديق بأن الإنسان ملك أرضى ، وأنه أشرف المخلوقات ؛ والعقيدة الثانية يقين كل ذي دين أن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فعلى ضلال و باطل ؛ والثالثة جزمه بأن الإنسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى ، والانتقال من دار ضيقة الساحات ، كثيرة المكروهات ، جديرة بأن تسمى « بيت الأحزان » إلى دار فسيحة الساحات ، خالية من المؤلمات ، لا تنقضى سعادتها ، ولا تنتهى مدتها .

أما الخصال الثلاث فهى : الحياء ، والأمانة ، والصدق .

ويشرح أن هذه الأسس التى أتت بها الأديان هى علة العمران ، وعليها تتوقف سعادة الإنسان ، وأن الماديين أو الدهريين أو النيشريين تؤدى تعاليمهم إلى إنكار هذه الأسس فتنزل الإنسان منزلة الحيوان ، وتفقده الوازع على الخير ، وتُعده لحياة جامدة ضيقة جافة لا قلب لها ، ولا سمو فيها ، وفى هذا انتكاس لخلقه ، وهدم لكيانه ، وحرمان مما أعده الله له .

وفى الإسلام مزايا على سائر الأديان « أولها صقل العقول بصقال التوحيد ، وتطهرها من لوث الأوهام . فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان متوحد فى خلق الأفعال ، وأن من الواجب طرح كل ظن فى إنسان

أو جماد — علويا كان أو سفليا — يكون له فى الكون أثر من نفع أو ضر، أو إعطاء أو منع، أو إعزاز أو إذلال، . . . ؛ أو نحو ذلك من خرافات كل واحدة منها كافية فى إعماء العقول وطمس أنوارها .

وثانيها : أن الإسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها، وأثبت لكل نفس صريح الحق فى السمو . . . ومحق امتياز الأجناس، وتفاضل الأصناف، وقوّم الناس بالكمال العقلى والنفسى؛ فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة لا بأى شىء آخر. وقد لا نجد من الأديان الأخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة .

وثالثها : أن الإسلام يكاد يكون منفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون ... فهو كما خاطب العقل، وكما احتكم احتكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة . وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل، وانطفاء نور البصيرة .

ورابعها : أن الإسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم، وفرض نَصْب المعلم ليؤدى عمل التعليم، وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر فقال : « ولتكن منكم أمّة يدعون الخير ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر » ، وقال : « فلولا نَفَرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

وعلى هذه الأركان الأربعة بُنِىَ الإسلام، وكل ركن منها له الأثر البالغ فى تقويم المدنية وتشييد بناء النظام، وتدعيم السعادة الإنسانية، وقد دارت حالة المسلمين رقياً وانحطاطا حسب تمسكهم بهذه العناصر وتخليهم عنها .

هذا ما عمله « جمال الدين » فى حيدر أباد .

فلما حدثت فى مصر « الثورة العرابية » نقلته حكومة الهند من حيدر أباد إلى كلكتا، وألزمته الإقامة فيها مخفورا مراقبا حتى انتهت الثورة بدخول

انجلترا مصر ، فأبيح له الذهاب حيث شاء ( فى غير الشرق ) ، فيذكر مستر « بلنت » Blunt أنه ذهب إلى أمريكا ليتجنس بالجنسية الأمريكية ، وأقام بها أشهرا ولم ينفذ ما اعتزمه — ولم يذكر ذلك غير بلنت من مترجميه ولا الشيخ محمد عبده (١) .

ثم رأيناه فى لندن سنة ١٨٨٣ ولم يطل الإقامة بها ، ثم سافر منها إلى باريس ، وكان قد كتب إلى تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده ، ليوافيه بها من منفاه فى بيروت ففعل .

ما برنامجه ؟ ماذا ينوى من العمل بعد ما جرب ، و بعد ما نال من الأحداث ونالت منه ؟

ها هو والشيخ محمد عبده يتشاوران فيما يصنعانه من الإصلاح .

فأما الشيخ محمد عبده فكاد يدب إليه اليأس من الجيل الحاضر ، بعد أن خبر الناس فى حوادث عرابى وغدرهم ، وقلة وفائهم ، وتكالبهم على مصالحهم الشخصية ، فأشار على السيد جمال الدين أن يذهبا إلى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة تعرقل سيرهما ، ثم ينشئان فيه مدرسة للزعماء يختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية ، ومن يتوسمان فيهم الخير ، ثم يربيانهم على منهج قويم يختارانه ، ويعدانهم للزعامة والإصلاح ، قال : « فلا تمضى عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميـذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم ، والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار » .

(١) وأنا أستبعد رواية مستر « بلنت » لأن السيد لما خرج من الهند سافر بحرا عن طريق البحر الأحمر فلما كان فى بورسعيد كتب إلى الشيخ محمد عبده كتابا لا تزال محفوظة صورته الفوتوغرافية يقول فيه : « أنا الآن فى « برط السعيد » أذهب إلى لندرة . . . إن أخبار العالم كانت قد انقطعت عنى مدة سبعة أشهر ولذا لا أدرى مستقر العارف ( وهو تابعه ) أخبره بسفرى .

لم يعجب « السيد » هذا الرأى ، ورأى فيه خورا فى العزيمة ، وجنوحا إلى السلامة ، ومبالغة فى التشاؤم من الحاضر ، وقال للشيخ محمد عبده : « إنما أنت مثبط »[1] ووضع «السيد» خطته ، وهى إنشاء جريدة عربية فى باريس ، تُنشر منها فى العالم الإسلامى ، تفهمه حقوقه وواجباته وتشعل وطنيته ؛ فكان ذلك . وكان من هذا جريدة « العروة الوثقى » يكون «للسيد» فيها الأفكار والمعانى ، وللشيخ محمد عبده التحرير والصياغة ، وميرزا محمد باقر يعرب لها عن الصحف الأجنبية كل ما يهم العالم الشرقى ، وكان وراء هذه المجلة جمعية سرية منبثة فى جميع الأقطار الإسلاميـة ، اختير أعضاؤها من بين المسلمين المثقفين المتحمسين لدينهم . ووضع لها يمين يقسمه من يدخل فيها ويتعهد فيه « بأن يبذل ما فى وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية ، وإنزالها منزلة البنوة والأبوة الصحيحتين ، وألا يقدّم إلا ما قدمه الدين ، وألا يؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا يسعى قدما واحدة يتوهم فيها ضررا يعود على الدين جزئيا كان أو كليا ، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلا وقدرة ، وأن يوسّع معرفته بالعالم الإسلامى من كل نواحيه بقدر ما يستطيع » الخ . وأنشئت للجمعية فروع فى البـلدان المختلفة ، وكل فرع يجتمع للمذاكرة ، وفى آخر كل اجتماع يتبرع الأعضاء بشىء من المال فى صندوق صغير له ثقب ضيق يضع فيه كلٌّ ما تيسر خفية ، حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر — ولعل هـذا الباب هو ما كان ينفق منه على الجريدة والقائمين بها ، فقد كانت ترسل أكثر أعدادها مجاناً .

أصدرا من الجريدة ثمانية عشر عدداً فى ثمانية أشهر ، ظهر العدد الأول فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ = ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ ، وظهر العدد الأخير

(١) ولعل هذه الفكرة هى التى أوحت للسيد محمد رشيد فيما بعد بإنشاء مدرسة الدعوة والإرشاد فى مصر .

فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ = ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

ماذا كان الغرض من هذه الجريدة ؟

لخصت الجريدة أهم أغراضها فى أول عدد من أعدادها فيما يأتى :

(١) بيان الواجبات على الشرقيين التى كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات .

ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل التى أفسدت حالهم ، وعمت عليهم طريقهم . وإزاحة الغطاء عن الأوهام التى حلت بهم .

(٢) إشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح ، وإزالة ما حل بها من اليأس .

(٣) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التى كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، وهى ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

(٤) الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصاً من التهم ، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون فى المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

(٥) إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .

(٦) تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأمين المنافع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

أراد السيد أن يدعو إلى إصلاح المسلمين دينيا واجتماعيا وسياسيا . وإذ كان الإسلام تمتزج فيه العقائد بالنظم الاجتماعية بالنظم السياسية كانت دعوته شاملة لهذه المناحى الثلاثة .

كان المثل الأعلى له حالة المسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين ، من حيث العقيدة والصفات الخلقية والنظام السياسى .

فيرى أنهم كانوا موحدين حقا، معتزين بدينهم، لا تفرقهم المذاهب والنحل، مترابطين برباط الأخوة، فيهم خلق الإباء والشمم، يبذلون أعز شيء في سبيل عقيدتهم وعزتهم، ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في غير هوادة.

ثم دخل الفساد على توالى الزمن من خمسة أبواب: من عقيدة الجبر؛ والخطأ فى فهم القضاء والقدر حتى صرفت النفوس عن الجد فى الأعمال؛ ومما أدخله الزنادقة على تعاليم الإسلام فى القرنين الثالث والرابع، فجعلوا المسلمين شيعاً وأحزاباً، وأضعفوا قوة الدين بما أدخلوا من تعاليم فاسدة؛ ومما أحدثه السوفسطائية من أفكار، وعدهم الحقائق خيالات تبدو للنظر؛ ومما عمله كذبة المحدثين من وضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله وفيها السم القاتل لروح العمل والإباء، وفيها ما يستوجب ضعفاً فى الهمم، وفتوراً فى العزائم؛ ومن ضعف التربية والتقصير فى إرشاد الجمهور إلى أصول دينهم، ونشر العلم بينهم. وزاد فى بعض المقالات أسبابا أخرى أهمها تفكك الروابط بين أجزاء الأمة، فلا ترابط بين العلماء بعضهم و بعض، ولا بين العلماء والأمراء، ومنها أن الدين الإسلامى جعل أمته أمة مجاهدة قوية محاربة، يأمرها الله بقوله: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»؛ فلما استهانت بهذا الأمر؛ ولم تعد لكل موقف عدته ذلت بعد عزة وضعفت بعد قوة.

وكان يختار بعض هذه الأسباب و يوسعها تفصيلا، أو يفردها فى مقال. كما فعل فى مقال القضاء والقدر. وكان من عادته أن يلهب النفوس بأسواط التقريع، ثم يدخل الأمل عليها بأن هذه عوارض يمكن أن تزول ما سلم الأصل، مذكرا دائما بحالة المسلمين فى العهد الأول، وعزتهم الأولى.

وكان مثله الأعلى كذلك حكومة إسلامية واحدة تأتم بالإسلام وتعاليمه،

ولما رأى أن ليس فى الإمكان خضوعها لأمير واحد اكتفى بالدعوة إلى أن ترتبط أجزاؤها بروابط محكمة ، ويكون لها مقصد واحد ، وتحكم الأقطار كلها بحكومات إمامها القرآن ، وأساسها العدل والشورى ، واختيار خير الناس لتولى الأمور . يقول فى ذلك بعد أن دعا إلى اتفاق الأمم الإسلامية : « لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما يكون عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخرين ما استطاع ، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه » .

وكثيرا ما كان يضرب المثل بالإمارات الجرمانية فى توحدها بعد تشتتها ، ويدعو إلى حلف بين الدول الإسلامية يتزعمه أكبرها وأقواها[١] .

وخشى أن هذا النظام الذى يدعو إليه يثير الشقاق بين المسلمين وغيرهم من أهل الديانات الأخرى فى الأقطار الإسلامية ، فقال : « لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتنا عن حقوقهم نقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ، ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ، ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة ، فليس هذ من شأننا ، ولا مما ندعو إليه ، ولا مما يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا الخ » .

وقاده هذا التفكير فى نوع الحكومة التى يأملها ، والأخلاق التى يرجوها من العزة والشمم والقوة ، أن يناهض — فى الجريدة — الاحتلال الأجنبى فى الأقطار الإسلامية — وخاصة فى مصر — بكل قوته ، ويؤلّب عليه فى غير هوادة . وقد شغل هذا أكبر جزء من الجريدة من كتابة مقالات ورواية أخبار وتعليق عليها ، واستعمل لهذا الغرض أشد أنواع التعبير ، وأعنف أساليب التهييج ،

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ الشيخ محمد عبده للسيد رشيد ففيه كثير من تفاصيل ذلك .

واستغل حوادث المهدى فى السودان لإثارة الشعور وإهاجة النفوس .

واستعمل إلى جانب الجريدة رسلا متخفين يذهبون إلى الأقطار المختلفة مزودين بالتعاليم التى لا يستطيع نشرها فى الجريدة ، فرسول إلى موسكو ، ورسول إلى الحجاز ، حتى أرسل الشيخ محمد عبده مرة — وهو محكوم عليه بالنفى — إلى مصر وتونس :

كان من نتيجة ذلك أن أحس من بيده السلطة على الحكومات الهندية والمصرية الخطر من الجريدة ، فأمر بمنعها من الدخول ، وأصدرت وزارة نوبار قراراً بالتشدد فى منعها .

فلما أحست الجريدة شدة المراقبة ، واستحالة وصول الأعداد إلى أصحابها إلا فى القليل النادر ، وفى كثير من التحايل احتجبت .

احتجبت والأسى يحز فى نفس القائمين عليها ؛ فلا من دعوهم لبوا الدعوة فثاروا يطلبون أن يكون أمرهم بيدهم ، ولا الجريدة استطاعت أن تستمر فى دعوتها حتى تؤدى رسالتها .

وبهذا انتهت مرحلة أخرى من حياة « السيد » مدتها ثلاث سنين قضاها فى باريس كلها عناء ، وكلها جهاد ، انتهت بما أحزنه وخيب أمله ، وإن كانت المعانى لا تنعدم كما أن المادة لا تنعدم .

٤

حادثان هامان حدثا فى السنين الثلاث التى كان فيها «السيد» فى باريس، أحدهما اتصاله بالفيلسوف الشهير «رينان» وإعجاب كل منهما بالآخر ودخولهما معاً فى معركة — وإن لم تكن حامية — حول الإسلام والعرب؛ وقد فتحت صدرها لهذه المعركة جريدة «الديبا» الفرنسية الشهيرة.

فقد ألقى الأستاذ «رينان» فى السربون محاضرة دارت حول نقط ثلاث:

(١) خطأ المؤرخين فى قولهم علوم العرب، وفنون العرب، وتمدن العرب، وفلسفة العرب، مع أن هذه الأشياء نتاج الأمم غير العربية أكثر منه نتاجاً للأمة العربية، فالتمدن أكثره من نتاج الفرس، والفلسفة أكثرها من نتاج النصارى النسطوريين والوثنيين الحرّانيين. والفلاسفة الذين ظهروا فى دولة الإسلام كالكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد لم يكن منهم من العرب إلا الكندى، فنسبة الحضارة والمدنية والعلم والفلسفة إلى العرب خطأ، وعدم دقة فى التعبير. (٢) أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر، بل هو عائق لها، بما فيه من اعتقاد فى الغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر. ومن اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه أو كان فى حماية خليفة أو أمير مؤمن فى الظاهر غير متدين فى الباطن، ومع ذلك فما وصل إليه هؤلاء فى الفلسفة ليس له قيمة كبيرة، فهو ليس إلا فلسفة اليونان مشوهة، والفلسفة التى أخذناها عن المسلمين فى أسبانيا كانت فلسفة رديئة الترجمة، مشوهة الأصل، لم نستفد منها الفائدة الحقة إلا بعد ترجمتها ترجمة جديدة من منابعها الأصلية. ومع هذا يقول «رينان»: «إن فى دين الإسلام تعاليم ومبادئ عالية القيمة رفيعة المقام، وما دخلت فى حياتى مسجداً من مساجد المسلمين إلا شعرت بجاذبية نحو الإسلام، بل وتأسفت ألا أكون مسلماً...»

ولكنه حجب العقل عن التأمل فى حقائق الأشياء . . . وعقول أهل البلاد الإسلامية قاصرة ، وما يتميز به المسلم هو بغضه للعلوم واعتقاده أن البحث كفر ، وقلة عمل لا فائدة فيه . (٣) أن العنصر العربى بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها ؛ فالزمن الذى كان يسود فيه العنصر العربى — وهو عهد الخلفاء الراشدين — لم تكن فيه فلسفة ، ولم يظهر البحث العلمى ولا الفلسفة إلا حين انتصرت الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين وسلموهم زمام الملك ، ونقلوا الخلافة إلى العراق ، مهد التمدن الفارسى القديم .

وختم محاضرته بالإشادة بقيمة العلم ودعوة الأمم كلها شرقية وغربية إلى الهجوم عليه ، « فالعلم روح كل هيئة اجتماعية ، وبه تتقدم الأمم ، وبه يتحقق العدل ، وبه يستخدم العقل القوة . . . وهو لا يساعد إلا على التقدم المؤسس على حرمة الإنسان وحريته » .

نشرت هذه المحاضرة فى جريدة « الديبا » فأثارت خواطر المسلمين والمستشرقين والباحثين فى شؤون المسلمين .

فكان ممن رد عليه الأستاذ « مسمر » رئيس البعثة المصرية بفرنسا إذ ذاك ، وفى رده كاد يسلم بالمسألة الأولى ، وهى أن المدنية العربية ليست مدنية العرب وحدهم بل مدنية الأمم المختلفة التى دخلت فى الإسلام ، وفى المسألة الثانية قال إنه ليس فى دين الإسلام وتعاليمه ما يمنع المسلمين من التقدم العلمى ، وقد تقدم المسلمون فى عصور مختلفة ولم يمنعهم دينهم من أن يتفوقوا على المسيحيين فى بعض تاريخهم ، وكل سائح الآن يسيح فى البلاد الإسلامية يشعر بنهضة الشرق وأخذه بأساليب التقدم والإصلاح ، من غير أن يصدهم دينهم عن ذلك . ثم قال : « ومن الغريب أنه قبل أن يلقى المسيو رينان خطبته بيومين ألقى بعض العلماء العظام أمام المحفل نفسه محاضرة اشتملت على مكتشفات العرب فى علم الحياة — وقد نشرت هذه

المحاضرة فى المجلة العلمية — ... وهى محاضرة ترشدنا إلى حقيقة التمدن الإسلامى فى القرون المتوسطة ، فلو اطلع المسيو رينان عليها وعلى ما كتبه «سديو» و « دوزى » فى مؤلفاتهما عن العلوم والآداب والفنون والصنائع المنسوبة إلى العرب ، وعرف ماعملته هذه الأمة فى العلم ، مما لا يحصى عدده ، بينما كانت أوروبا منغمسة فى التوحش والجهالة مانسب إلى العرب ما نسب ، وهذا العلم تقدم بمعونة الدين لا رغما عن الدين . فإذا كان الإسلام سمح للنساطرة والمجوس واليهود فى دولته بهذا التقدم العلمى الذى ذكره مسيو رينان فلماذا لا يكون سبباً فى حمل ملايين المسلمين الآن على الأخذ بأسباب العلم — وأما المسألة الثالثة فلم يعرها مسيو مسمر كبير اهتمام فى الرد .

وقد تحمس الشباب المسلم فى باريز لمقال رينان ورد مسمر فاجتمعوا وكلفوا أحدهم حسن عاصم « حسن باشا عاصم فيما بعد » تعريب المحاضرة والرد عليها فعربهما ، وقال فى أول ذلك : « لما كان الذب عن الدين فرضاً على الإنسان ، وحب الوطن من الأيمان ، اجتمع جم غفير من طلبة العلم المصريين المقيمين بفرنسا وكلفوا أخاهم العبد الفقير « حسن عاصم » بتعريب الخطبة التى ألقاها رينان... طعناً فى دين الإسلام والأمة العربية ، وبتعريب ما كتبه الفيلسوف الكبير صاحب الفكر الصائب المسيو مسمر . . . والغرض أن نقف على الطعن والرد كلٌ من كان على دين الإسلام أو من الأمة العربية ، ويمكنهم تفنيد كلام المسيو رينان فيفعلون إظهاراً للحق » ؛ كما عرب محمد مختار أحد طلبة العلوم الطبية بباريس المحاضرة التى أشار إليها مسيو مسمر .

بعد بضعة أسابيع من نشر محاضرة رينان رد الأستاذ جمال الدين عليه فى « الديبا » أيضاً ، ولكن كان رده هادئاً فى بعض نقطه ، فلعله لذلك لم يعجب حسن عاصم ولا إخوانه ، ولذلك لم يهتموا بترجمته إلى العربية أو نشره ، فقد

مدح رينان على بحثه وإنصافه وقال إنه استفاد من محاضرته استفادة كبيرة ، ثم قال : « إن المحاضرة تشتمل على نقطتين أساسيتين : (١) أن الديانة الإسلامية كانت — بما لها من نشأة خاصة — تناهض العلم ؛ (٢) أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لا لعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة .

« فأما عن النقطة الأولى ، فإن المرء ليتساءل ، بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها ، أصدَر هـذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الإسلامية فى العالم ، أم أن أخلاق الشعوب التى اعتنقت الاسلام أو حُملت على اعتناقه بالقوة ، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هى جميعاً مصدر ذلك ؟ لا ريب أن قِصَر الوقت المخصص للمسيو رينان قد حال دون إجلائه هذه النقطة .

ثم أخذ يبين أن ما وقع للمسلمين وقع مثله فى الأديان الأخرى ، « فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجلون لم يلقوا أسلحتهم بعد كما أعلم ، وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال (يعنى العلم والفلسفة) »(١) .

قال : « وأما النقطة الثانية فالكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال الهمجية التى كان عليها وأخذ يسير فى طريق التقدم الذهنى والعلمى ، ويغذ السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن فى خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية . . . فتقدمت العلوم تقدماً مدهشاً بين العرب ، وفى كل البلدان التى خضعت لسيادتهم ، وقد كانت روما وبيزنطه المدينتين الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة ، بل مبعث أنوار المعارف الإنسانية كلها . . . ثم جاء الوقت الذى وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث ، وتهدمت فيه نُصُبهم التى أقاموها للعلم ، ودرجت كتبهم القيمة فى طى النسيان ،

(١) وقد وقع فى رده على هذه النقطة بعض جمل جريئة سنعرض لها بعد .

وقد كان العرب فى ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتمدنة ، فأحيوا تلك العلوم المندثرة ورقوها وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل ، أوليس هذا دلالة بل برهاناً على حبهم الطبيعى للعلوم ؟

صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به . بيد أن هذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ونقحوها ، ونسقوها تنسيقاً منطقياً ، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وتنطوى على التثبت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لا يبعدون عن رومة وبيزنطه بُعْد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا ، حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، فأحسن الأوروبيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو فى ثوبه اليونانى على مقربة منهم . أوليس هذا برهاناً آخر ناصعاً على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعى للعلوم ؟

« وبينا يسلم مسيو رينان بأن البلدان الإسلامية فى غضون خمسة قرون من سنة ٧٧٥ م إلى أواسط القرن الثالث عشر كانت تحتوى علماء ومفكرين عظاما ، وأن العالم الإسلامى إذذاك كان يفوق العالم المسيحى فى الثقافة الذهنية ، إذ يقول إن أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كنابهى السياسيين من أصل حرّانى ، أو أندلسى ، أو فارسى ، أو من نصارى الشام . ولست أريد أن أغمط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ، ولا أن أغض الطرف عن الدور الجليل الذى لعبوه فى العالم الإسلامى ، ولكن أرجو أن يسمح لى أن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عربا ، وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عربا ، وأن اللغة العربية كانت إلى ماقبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين

وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهى « الصابئة » ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عربا غسانيين اهتدوا بهدى النصرانية . أما ابن باجة ، وابن رشد ، وابن طفيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندى بدعوى أنهم لم يولدوا فى جزيرة العرب ، وخصوصا إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .

« ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذى ينتمى إليه العظيم ولم نأبه للنفوذ الذى سيطر عليه ، والتشجيع الذى لقيه من الأمة التى عاش فيها ؟ لو فعلنا ذلك لقلنا إن نابليون لا ينتمى إلى فرنسا ، ولما صح لألمانيا أو إنجلترا أن تدعى كلتاهما الحق فى العلماء الذين استوطنوها بعد أن رحل أصولهم إليها من بلدان أخرى » .

ثم تعرض لأسباب انطفاء هذه الشعلة ، وختم رده بقوله : « إن العقل لا يوافق الجماهير ، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين ، والعلم على ما به من جمال لا يرضى الإنسانية كل الإرضاء ، وهى التى تتعطش إلى مثل أعلى ، وتحب التحليق فى الآفاق المظلمة السحيقة التى لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها أو ارتيادها » .

رد عليه الأستاذ رينان وبادله مدحا بمدح ، وإعجابا بإعجاب ، وقال : « تعرفت بالشيخ جمال الدين من نحو شهرين فوقع فى نفسى منه ما لم يقع لى إلا من القليلين ، وأثر فى تأثيرا قويا ؛ وقد جرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هى موضوع محاضرتى فى السربون ... والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التى طالما أعلناها ، وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس ، وقد خيل إلىّ من حرية فكره ، ونبالة شيمه ، وصراحته — وأنا أتحدث إليه —

أنى أرى أحد معارفى من القدماء وجهاً لوجه ، وأنى أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أولئك الملحدين العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار .

ثم قال : « ولست أرى فى البحث النفيس الذى عالجه الشيخ إلا نقطة يصح أن نختلف فيها حقيقة . . فلسنا بالتأكيد ننكر ما لرومة على تاريخ الإنسانية من نفوذ ، ولا ما كان للعرب من نفوذ ، ولكن هذه التيارات الإنسانية العظيمة فى حاجة إلى تحليل ؛ إذ ليس كل ما كتب باللاتينية يزين تاج شهرة روما ، ولا كل ما كتب باليونانية من عمل اليونانيين ، ولا كل ما كتب بالعربية نتاج عربى ، ولا كل ما نشأ فى بلد مسيحى من تأثير المسيحية ، ولا كل ما ظهر فى البلدان الإسلامية من ثمار الإسلام ...

« لقد خالنى الشيخ غير منصف فى أنى لم أوف الكلام حقه ، ولم أقل فى المسيحية ما قلته فى الإسلام ، وأن الاضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما كان بين المسلمين ، وهذا قول حق ؛ فجاليليو لم يلق من الكاثوليك خيراً مما لقيه ابن رشد من المسلمين . . . وإذا كنت لم أطل القول فى هذه الحقيقة فلأن آرائى فى هذا الشأن معروفة لا حاجة بى إلى تكريرها على مسمع محفل علم بكل أعمالى وآرائى ... ولست أريد من المسيحى ترك عقيدته المسيحية ولا من المسلم ترك الاسلام ؛ ولكن أريد من المسيحيين والمسلمين المتنورين أن يهتموا بالعلم اهتماماً لا تعوقه العقيدة ، وقد تم هذا فى نصف البلدان المسيحية ونرجو أن يتم مثله فى الاسلام . وإن يوماً يتم ذلك فيه لما أرحب به أنا والشيخ ونطرب له جميعاً » .

واستمر فى تأييد رأيه الذى قاله فى المحاضرة ثم ختم مقاله بقوله : « ويلوح لى أن الشيخ جمال الدين قد زودنى بطائفة من الآراء الهامة تعيننى على نظريتى الأساسية وهى أن الإسلام فى النصف الأول من وجوده لم يحل دون استقرار

الحركة العلمية فى الأراضى الإسلامية ، ولكنه فى النصف الثانى خنق الحركة العلمية وهى فى حظيرته فكان هذا من سوء حظه »[1] .

وهذه النتيجة الأخيرة — من غير شك — فيها كثير من التعديل لآراء رينان السابقة ، وهى تؤدى حتما إلى أن ذلك ليس من طبيعة الاسلام ، ولوكان من طبيعته ما شجع الحركة العلمية فى أوله ولا آخره .

وإلى هنا أسدل الستار عن هذه الرواية التى سيعاد تمثيلها — على وجه أشد — بين مسيو هانوتو والشيخ محمد عبده . وما أقوى الردود ! ولكن أقوى منها رد المسلمين عليها بتبوئهم مكانة عليا فى العلم والفلسفة .

* * *

وأما الحادثة الثانية فسياسية ، ذلك أن بعض ساسة الإنجليز — وقد أحسوا حملة جريدة العروة الوثقى وتهييجها الرأى العام على إنجلترا — رأوا أن يتفاهموا مع القائمين عليها فبعثوا إلى السيد جمال الدين فى ذلك ، فأرسل مندوبه الشيخ محمد عبده وقال : « رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده ( المحرر الأول لهذه الجريدة ) إلى لندرة إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا ، ومن يؤمل فيهم حسن النية ( إشارة إلى مستر بلنت ) . . .

قابل محرر الجريدة كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية وحادثهم محادثات طويلة فى المسألة المصرية ، ومن هذه المحادثات ما نشر إذ ذاك فى الجرائد الإنجليزية ، واكتفى السيد جمال الدين فى العدد الرابع عشر من العروة الوثقى بذكر محادثات كانت بين الشيخ محمد عبده ووزير الحربية الإنجليزية لورد « هرتنكتن » خلاصتها أن وزير الحربية سأل الشيخ محمد عبده : ألا يرضى المصريون أن يكونوا فى أمن وراحة تحت سلطة الإنجليز ، وهى خير من سلطة

---

(١) لخصنا هذه المقتبسات — من ترجمة حسن افندى عاصم وترجمة السيد جمال الدين ورد رينان — من مجموعة أعارنا إياها صديقنا الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا مشكوراً .

الأتراك ومن جاء على أثرهم ، خصوصاً وأن الجهالة عامة فى أقطار مصر ، وأن كافتهم لا يفرق بين حاكم أجنبى وحاكم مصرى ؟!

وردّ الشيخ محمد عبده بما خلاصته أن فى المصريين من يحبون أوطانهم حب الشعب الإنجليزى لبلاده ، وأرض مصر من زمن محمد على انتشرت فيها العلوم والمعارف ، وأخذ كل منها نصيباً على قدره ، ولا تخلو قرية مصرية من قارئين وكاتبين يقرءون الجرائد العربية ويوصلون ما فيها إلى من لم يقرأ ، والنفرة من ولاية الأجنبى من طبيعة البشر ، فضلا عما لتعاليم الإسلام فى هذا الشأن[1] .

وقد أخذت الجريدة هذا الحديث وسيلة للتهييج وإثارة الشعور . وعلى كل حال فلم تأت هذه الأحاديث بنتيجة من التفاهم ، واستمرت الجريدة فى خطتها حتى حجبت كما أسلفنا .

## ٥

ماتت جريدة العروة الوثقى ، ولكن لم يمت أثرها ، فقد أحيت روح كثير من المتنورين فى العالم الشرقى ، وأيقظتهم من سباتهم ، وبصّرتهم بسوء حالهم مع الاحتلال ، وعلّمتهم كيف يكتبون ويخطبون ويدعون إلى الشعور بالقومية الذى سمى بعدُ بالاستقلال ؛ فإن قلنا إنها كانت أول شرارة فى الشرق لإلهاب الشعور بالكراهية للحكم الأجنبى لم نُبعد ، فقد كتبت فى الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والمسألة المصرية والسودانية والهندية ، وعالجتها كلها فى حماسة وتهييج بالغين ، ونظرت إلى كل ذلك فى ضوء السياسة الدولية العامة ، والتفتت إلى الشعوب تحركها وتثير شعورها ، والحكومات المختلفة تبين لها أضرارها من احتلال الشرق ؛ وهكذا وهكذا .

---

(١) تجد بسط ذلك فى الجزء الأول من تاريخ الإمام .

لم تتأثر بالدعوة وقتئذاك الشعوب ولا الحكومات الأجنبية ولا المحلية ، وإنما تأثرت بها طبقة قليلة من المستنيرين فى الأقطار الشرقية المختلفة تأثراً كان نواة للحركات الوطنية بعد . ولست أزعم أنها كانت النواة الوحيدة ، ولكن كانت النواة الأولى .

على كل حال عطلت الجريدة وانفرط عقد القائمين بأمرها . فالشيخ محمد عبده وميرزا باقر يعودان إلى بيروت ، والسيد جمال الدين إلى فارس بناء على دعوة من الشاه ناصر الدين . تلقاه الشاه والعلماء والأمراء فى حفاوة ، ولكن سرعان ما دبت الغيرة إلى نفس الشاه وأحس خطره فتنكر له ، فاستأذن السيد فى الرحيل ورحل إلى سان بطرسبرج عاصمة روسيا ، وأقام نحو ثلاث سنين من سنة ١٨٨٦ — سنة ١٨٨٩ .

لماذا اتجه إلى روسيا وماذا عمل فى هذه المدة ؟

إن معلوماتنا عنه فى هذه الفترة قليلة ، وأكبر الظن أنه شغل فيها بشيئين : (١) حال المسلمين الروسيين وعددهم نحو ثلاثين مليوناً وكانوا يعاملون فى عهد القياصرة معاملة ظالمة جائرة ، فلعله حاول باتصاله برجال الحكم إذ ذاك أن يلطف من ظلمهم ويخفف من جورهم . وقد عرف عنه أنه سعى عند القيصر فى طبع المصحف وبعض الكتب الدينية لمسلمى الروس فأذن له فى ذلك . (٢) ما كان لروسيا من أثر كبير فى سياسة الشرق ومناهضتها للسياسة الإنجليزية فى آسيا ، وضغطها الشديد على الدولة العثمانية ، والعمل على إتعابها ، وتقطيع أوصالها ؛ ومع هذا التنافس والمخاصمة على الشرق بين إنجلترا وروسيا فإن كثيراً من السياسيين يرون أن هذه المنافسة أفادت إنجلترا وفرنسا وإيطاليا أكثر مما أفادت روسيا . فلولا ضغط الروس على الدولة العثمانية ما سهل على فرنسا الاستيلاء على الجزائر وتونس ، ولا على إيطاليا الاستيلاء على طرابلس ، ولا على انجلترا الاستيلاء على مصر .

على كل حال انغمس « السيد » أثناء إقامته فى روسيا فى السياسة الدولية وحرض روسيا على سياسة إنجلترا . ونشر فى الجرائد الروسية مقالات فى السياسة الأفغانية ، والفارسية ، والعثمانية ، والروسية ، ونقد السياسة الإنجليزية ، وقابل القيصر فسأله عن آرائه فى الشرق ، ثم سأله عن سبب خلافه مع الشاه ، فقال إنه الحكومة الشورية ، أدعو إليها ولا يراها . قال القيصر : الحق مع الشاه ؛ فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته . قال السيد : أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداءه يترقبون له الفرص . فلم يعجب القيصر هذا الحديث ، وقام : علامة الإذن له بالانصراف .

ثم سافر إلى أوروبا على نية أن يزور معرض باريس سنة ١٨٨٩ ، وفى أثناء سفره من روسيا إلى باريس نزل بمونيخ فى ألمانيا ، وتقابل مع شاه الفرس ناصر الدين ، فعرض عليه العودة معه إلى فارس ، واعتذر إليه عما كن ، ووعده أن يمهد له طريق الإصلاح الذى يقترحه ، فرفض السيد أولا وقبل أخيراً .

ها هو السيد فى طهران ، يلتف حوله جمهور من العلماء والعظماء ، ويتبلور فيه ما فى نفوس الخيرين من ميل إلى الإصلاح ، فيسعى هو ومن التف حوله إلى وضع المشروعات فى إصلاح الإدارة ، وإقامة العدل ، وتقنين القوانين ؛ وفوق ذلك تنظيم الحكم النيابى للبلاد . والحركة تشتد وتمتد ، والشاه يظهر الاستعداد لقبول هذه المطالب ، والنفوس العاملة تفرح لقرب النصر ، والأمل فى الخير ، ولكن سرعان ما اكفهر الجو وأنذر بالصواعق ؛ فقد وسوس الصدر الأعظم للشاه أن الحكم النيابى يسلبه سلطانه ، والنظام الإدارى والقانونى المقترح أعلى من مستوى الناس ، ونحو ذلك من مقالات السوء التى سمعنا مثلها فى مصر أيام إقامة « السيد » فيها ، وفى تركيا أيام مدحت ، وفى كل مكان

وزمان يدور فيهما النزاع بين دعاة الإصلاح ودعاة الرجعية .

فتجهم الشاه له وأحسّ «السيد» الخطر منه ، فخرج إلى مقام «عبد العظيم» أحد أحفاد الأئمة — على بعد نحو عشرين كيلو من طهران — والفرس يعدون مقامه حرما من دخله كان آمناً . اتخذه السيد مركزاً لدعايته وخطبه وتهييج الرأى العام لطلب الإصلاح ، وبعض العلماء والوزراء والضباط يحجون إليه ليسمعوا خطبه ، ويصغوا إلى آرائه ، ويعودون وقد شحنوا قوة كهربائية بقدر تحملهم للشحنة ، وكلهم ثائر هائج يريد الإصلاح . وأقام على ذلك أشهراً والبلاد يزداد غليانها ، ومركز الشاه والحاشية يزداد خطراً ، والمنشورات تذاع ، والكتب الغفل من الإمضاء تصل إلى الشاه بالعدل أو العزل ، وبالحكم النيابى أو تولية غيره .

فما راع «السيد» إلا خمسمائة جندى مسلحون يهجمون عليه غير حافلين بحرم الشيخ عبد العظيم ولا بمرض السيد مرضاً شديداً . وكما يصف هو : «سحبونى على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها فى الشناعة . . . ثم حملنى زبانية الشاه — وأنا مريض — على برذون ، مسلسلا ، فى فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ؛ وساقتنى جحفلة من الفرسان إلى خانقين» ، (ومنها سافر إلى البصرة) يعانى ألم المرض الذى اشتد عليه من هذا الحادث وكاد يودى به لولا لطف الله .

فلو رأيته ثم لرأيت رجلا أكلت منه حُمّى الحمّية حمّى المرض ، وقد تجمع دمه فى رأسه يحتقن ، وفى وجهه يلتهب ، وفى عينيه تقذف بالشرر ، كيف يهان هذا الهوان وهو الرفيع النسب ، العزيز الحسب ؛ العظيم الجاه ، العالى المنزلة فى دينه وشرفه وعقله ، ورغبته فى الخير ، كيف يرجوه الشاه أن يأتى بلده ويعده أن ينفذ إصلاحه ، ويعلى كلمته ، ثم يعامله معاملة العبد يطرد ، والذليل يصفع . والحقير يهان .

لقد آلى أن ينتقم منه شر انتقام ، وألا تهدأ نفسه حتى ينزله عن عرشه ، وقد برّ فيما أقسم . فأخذ يكتب إلى علماء الدين المسموعى الكلمة يهيجهم على الشاه ، ولا يتورع أن يصفه بأقبح الصفات ، و يبين ضرره على الأمة ، ويثير عاطفتهم الدينية ، ليشغبوا عليه حتى يخلع . وكان الشاه قد تعاقد مع شركة إنجليزية على احتكارها « التنباك » فانتهز الفرصة وأبان الضرر على الأمة من هذا الاحتكار ، وأهاب برجال الدين أن يذودوا عن وطنهم ، فاستمعوا إليه ، وهاجوا على الشاه ، وهيّجوا عليه ، حتى اضطر إلى فسخ العقد ، ودفع نصف مليون ليرة تعويضاً للشركة ، فكانت هذه أول خطوات الانتقام .

ثم لما عادت إليه عافيته سافر إلى لوندرة ، وحاضر نبلاء الإنجليز وكبراءهم فى مصائب الشاه على فارس ، وساهم فى إخراج مجلة شهرية اسمها «ضياء الخافقين» تصدر بالعربية والإنجليزية ، كان يكتب فيها مقالات بإمضاء « السيد الحسينى » يفضح فيها حكومة الشاه ، وسوء الإدارة ، وانتشار الرشوة ، وتعذيب الأهالى ، ويحرض فيها العلماء على عمل صغير ، وهو أن يصدروا فتوى بعدم التعاون مع الشاه ، فإذا هو طريد ، ويختار من الألفاظ والجمل فى مدح العلماء وقوتهم أضخمها وأقواها ، وفى ذم الحكومة والشاه أهجاها وأقساها .

وهذه زلة كبيرة من السيد جمال الدين دعاه إليها حدته وحبه للانتقام ؛ إذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية إسلامية فى بلاد أجنبية تتخذ من أقواله حجة للتدخل الذى طالما حاربه فى « العروة الوثقى » ، وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب ، ويغسل هذه الأثواب القذرة على مشهد من كل الناس .

لقد كان مدحت باشا فى موقف كهذا أنبل من السيد وأكرم ، إذ نفاه « عبد الحميد » ، وأخذه رجاله من دست الوزارة إلى السفينة ، لا مال ولا ثياب

ولا أهل . ومع هذا فما وضع رجله فى أوروبا حتى أخذ يسعى فى دفع الشر عن أمته ، ويتكلم الكلام الكثير فى فضل الأتراك على أوروبا ، ولا ينطق بكلمة فى ذم عبد الحميد الذى عامله معاملة الشاه لجمال الدين . الحق أنها غلطة من غلطات « السيد » دعا إليها حدة مزاجه .

لقد رجاه سفير فارس أن يكف عن الطعن فى الشاه وعرض عليه المال الكثير ، فقال : لا ، حتى يلقى الشاه منيته .

تجمع عند السلطان عبد الحميد من الأسباب ما حمله على أن يدعو « السيد » إلى الآستانة ، فهو يخشى أن ينضم إلى حزب تركيا الفتاة ، فيكون قوة كبرى إلى قوتهم ، خصوصاً وقد كان السيد اجتمع فى باريس ببعض رجال هذه الجمعية ، وأطلعوه على خطتهم فى إصلاح الدولة العثمانية فراقه مذهبهم ، وشجعهم على عملهم ، وسمى جمعيتهم « الجمعية الصالحة » وبلغ السلطان ذلك عنه . ثم إن الشاه وسّط السلطان فى كف أذى جمال الدين عنه ، لهذا وذاك رجاه السلطان عبد الحميد أن يزور الآستانة فأبى ، ثم سلط عليه حيله ومكايده ، ووعده ومنّاه ، وأطمعه وأمله حتى قبل ، وما إن وضع رجله فى الآستانة حتى كان فى قفص من ذهب أحكم بابه ، لقد وعده السلطان أن له حرية الخروج من الآستانة إذا شاء ، ولكن كان كل ذلك خدعة .

أمر السلطان عبد الحميد باستقباله استقبالا حسناً ، وأجرى عليه ٧٥ ليرة شهريا ، وأنزله بيتاً ظريفاً فى نيشان طاش ، بالقرب من يلدز ، وجعل تحت أمره عربة وخدما وحشما ، بعضهم للخدمة والتجسس ، وأحاطه بكل أنواع الرعاية المادية .

لقد خيل إليه أنه بمعونة السلطان يستطيع أن يوسع دائرة إصلاحه ؛ فيضع خطته لجامعة إسلامية ، يؤلف بها بين فارس والأفغان وتركيا وولاياتها بنوع من

الاتحاد أو الحلف ، ثم يرسم منهج إصلاح الإدارة فى الدولة العثمانية وإصلاح التعليم ، وفاته أن جو الآستانة فى عهد عبد الحميد لا يصلح أن تنمو فيه بذرة صالحة ، وكان له فى مدحت وأشباهه العظة البالغة . ولقد زار الآستانة الشيخ محمد عبده بعد وفاة السيد وفى عهد عبد الحميد ، فقال فيها : « إنه لم ير بيئة فى العالم — ولم يكن يعقل وجود بيئة — كالآستانة فى سوء تأثيرها فى العقل والفكر والقلب ، وإن ذهنه فيها كان ممسوحا كأنه لم يكن فيه شىء من العلوم والآراء ، ولهذا كان أحرار الترك معذورين فى شرودهم منها ، وتوطين أنفسهم على كل ما يمكن أن يلقاه الإنسان من ضروب البلاء والمحن » .

قابله السلطان فى يلدز ، فرأى منه شخصية غريبة جريئة فى القول والحركة جرأة لم يشهدها من أحد قبل . يطلب منه السلطان أن يترك مهاجمة الشاه فيقول السيد» : إنى لأجلك قد عفوت عنه ، فيرتاع السلطان لمثل هذا القول — والسيد فى حضرته يلعب بحبات السبحة ، فإذا لفت نظره رئيس المابين إلى ذلك بعد خروجه قال له : « إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة ، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء » ؟ ! فيفزع رئيس المابين ويهرب من سماعه هذه الكلمة خشية أن يكون قد سمعها أحد .

لقد تحدث إلى السلطان كذلك فى الحكم الشورى للدولة العثمانية ، فخدعه السلطان بتظاهره بحسن الاستعداد له ، وفرح السيد بهذا التظاهر ، واتفق معه على العمل لتكوين الجامعة الإسلامية ، وعرض عليه السلطان منصب شيخ الإسلام فأبى إلا إذا عُدّل النظام من أساسه أولا . وكرر مقابلته للسلطان والحديث إليه ، وكوّن أخيراً فكرة عن السلطان عبد الحميد بأنه ذكى واسع الاطلاع على السياسة الأوربية وألاعيبها ، واسع الحيلة فى العمل على ضرب بعض الدول ببعض ، ولكنه جبان يفسد عليه جبنه ذكاءه ومعرفته .

كانت المدة الأولى من إقامته فى الآستانة محفوفة بعطف السلطان عليه ولو ظاهراً — يزوره السيد ويشير عليه بالإصلاح ، قال له مرة : « خُذ بحزم جدك السلطان « محمود » وأقص الخائنين من خاصتك الذين يكتمون عنك حقائق ما يجرى فى الولايات ، وخفف الحجاب عنك ، واظهر الملأ ظهوراً يقطع من الخائنين الظهور ، واعتقد أن نعم الحارس الأجل « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

ولكن ذهب كل ذلك مع الريح ، ووُجد له فى الآستانة خصم لدود ، هو أبو الهدى الصيادى الذى أتقن من الحيل والدهاء والدسائس والمؤامرات والغلبة على عقل السلطان ما لا ينفع معه إخلاص جمال الدين وصراحته ونصحه ، ففسدت حياة السيد ، وفسد ما بينه وبين السلطان ، وضاع كل أمل له فى التعاون معه على الإصلاح ، وأصبح يقول فى مجالس خاصته : « إن هذا السلطان سل فى رئة الدولة » . واقتصرت قيمة السيد مدة إقامته فى الآستانة — وهى أربع سنين وأشهر — على ما كان يلقيه على زواره وسماره من أحاديث وآراء ، إلى دسيسة بين حين وآخر تحاك حوله ، ويصرف الزمن فى نقضها .

وكل تراثنا منه فى هذه الفترة بعض من أحاديثه اللطيفة وآرائه الطريفة[1] وتحريكه عقول سامعيه إلى التفكير الحر فى الإصلاح وفى الشؤون الاجتماعية .

فى هذه الفترة كانت تظهر من أحاديثه آثار الأسف والحزن ، إذ يستعرض ماضيه فيرى ما كان منه من جهاد طويل فى تحريك الشعوب الإسلامية ثم لم ينبض لها عرق ، وفى رجال عقد عليهم الأمل ثم غدروا ، وفى شاه خان ، وفى جريدة عطلت ، وفى سلطان لا أمل فيه ، وفى بيئة خانقة . ماذا فى يده بعد حياة طويلة قضاها فى الكفاح وفى النفى ، وفى الحبس ، وفى الطرد ، وفى التفكير

(١) روى كثيرا منها المخزومى فى خاطراته وشكيب أرسلان فى ترجمته .

والتحرير ، وفى إيقاظ العقول النائمة والنفوس الخائرة ؟ لا شيء إلا أنه أسد فى حديقة الحيوانات ، ينشد حرية نفسه فلا يجدها ، بعد أن كان ينشد حرية الأمم الإسلامية كلها ويأمل أن يجدها .

يزوره شكيب أرسلان ، ويدور الحديث حول ما رُوى من أن العرب عبروا المحيط الاطلانطيق قديما ، وكشفوا أمريكا ؛ فيقول السيد : « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان كونوا بنى آدم أجابوه إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة . إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم ! قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم » ، « إن المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم هى شهواتهم » ؛ « هذا محمود سامى البارودى عاهدنى ثم نكث معى وهو أفضل من عرفت من المسلمين » .

ولكن أحيانا تنقشع عنه سحابة اليأس ، ويعود إلى أمله فى الشرق والمسلمين ، ويعود إلى ذكر الداء والدواء ، والأمل فى العلاج ، ككل النفوس البشرية ، تتردد بين الحزن والسرور ، واليأس والأمل ، وكالطبيعة تتردد بين الصحو والغيم ، والإرعاد والإبراق ثم الإشراق .

فها هو فى رفقه من صحبه يحللون أدواء الشرق ويستوصفونه العلاج ، فيقول إن الدواء هو ما يسير عليه الغربيون من العزة والجرى على قول الشاعر العربى : « عش عزيزا أو مت وأنت كريم » ، فإذا كان هذا بعيد المنال ، فلا بد من تربية جيل جديد تربية دينية صحيحة ، يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم عهدا ألا يقرعوا بابا لسلطان ، ولا يضعضعهم الحدثان ، ولا يثنى عزمهم الوعيد ،

ولا يغرهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب ، بل يرون فى المتاعب وتحمل المكاره لنجاة الوطن من الاستعباد غاية المغنم وفى عكسه المغرم .

قيل له : وهل هذا فى الإمكان ؟

قال : « إن الأزمة تلد الهمة ، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك — وعلى ما أرى قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق ، فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج ، سنة الله فى خلقه » .

ثم استطرد فى هذا المجلس إلى بيان الخطر مما تستعمله بعض الأمم الأجنبية فى الشرق من إضعاف اللغة القومية وقتل التعليم القومى ، والتنفير من آداب الأمم الشرقية لتُحل محلها لغتها وآدابها ، "مع أنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لهم إذا لم يقم منهم من يحيى آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم وتنسج على منوالهم » . وكانت محاضراته فى مجالسه تدور حول موضوعات هامة تخلقها المناسبة ، كلها ترمى إلى الإصلاح فى العقيدة وفى الاجتماع وفى اللغة . وبين حين وآخر تثار حفيظة السلطان عليه بما يدبره أبو الهدى الصيادى وصحبه ، فيزور الآستانة — مثلا — الخديوى عباس ويريد مقابلة جمال الدين ، ولا يكون هذا إلا بإذن ، فيرفض السلطان ويأمر جمال الدين ألا يقابله ، فيقول لرسول الخديوى : « إنى كضيف للسلطان أسيرٌ لمضيفى فى منزله ، ولكنى أذهب كل يوم إلى « السكاغدخانه » للتنزه فإن شاء أن يحضر الخديوى إلى هناك فليفعل . فذهب الخديوى وقابله على انفراد ، فأطرى الخديوى السيد وأبدى له إعجابه به وحياه تحية لطيفة ، وهذا كل ما كان . فأطار الجواسيس إشاعات فى الجو ، وملأوا التقارير بأن جمال الدين قد تعاقد مع الخديوى عباس على تأسيس دولة « عباسية » ، ووضعوا بيتين نسبوها إلى جمال الدين هما :

شاد الخلافة فى بنى العباس    عباس لكن نعته السفاح
ولأنت خير مملك شدتشيدها    بالبشر ياعباس يا صفاح

وقامت الدنيا وقعدت ، واستدعى السلطان جمال الدين وسأله ، فقال إن الأمر يسيط ، فقد كتبت التقارير أنا كنا وحدنا وليس معنا ثالث ، فمن سمع هذا القول؟ وهل إذا كان هذا الخبر صحيحاً أقوله أنا أو يقوله عباس ؟ ثم أقسم أن شيئا من ذلك لم يحدث ، وأنه فى حياته لم ينظم شعراً ، وانتهى الأمر ، ولو — فى الظاهر — بعد جلبة طويلة وضجة مفتعلة .

وحدث أن الشاه ناصر الدين — الذى كان بينه وبين السيد الخصومة التى عرفنا — قد قتل ، وكان القاتل أحد تلاميذ جمال الدين ، وممن كانوا يزورونه فى الآستانة ، ورُوى أنه عند ما طعن طعنته قال: « خذها من يد جمال الدين » ، وروى عن جمال الدين أنه لما بلغه ذلك قال كلمات تدل على الإعجاب بالقاتل ، فذلك كله أرعب السلطان عبد الحميد وخاف منه على حياته ، فضيق عليه فى مقابلاته ومنع زيارته إلا بإذن ، فغضب جمال الدين وعزم على الرحيل من الآستانة ووُعد بإعطائه التصريح بذلك من المفوضية الإنجليزية ، ولكن السلطان كان يخاف منه فى الخارج أكثر مما يخافه فى الداخل ، وهو تحت سمعه و بصره أهون ، فاسترضاه ورجاه فى البقاء واستعان بإثارة إبائه العار من الالتجاء إلى دولة أجنبية فعدل . ثم حلت المشكلة نفسها بمرضه بالسرطان فى فمه ثم وفاته ، وشاعت الإشاعات المختلفة حول موته من إهمال مقصود فى معالجته والاتفاق مع طبيب السلطان للتخلص منه .

وأيا ما كان فقد مات وشيعت جنازته كأقل الناس — لم يسر فيها إلا أفراد معدودون غلبتهم الجرأة والوفاء ، ودفن كما يدفن عامة الناس ، ومنعت الجرائد فى الولاية العثمانية من تأبينه .

## ٦

ما تعاليم السيد فى كلمة ؟ وما أغراضه فى جملة ؟

يقول لوثروب ستودارت الأمريكى Lothrop Stoddard : « إن خلاصة تعاليم جمال الدين تنحصر فى أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبيـــة لم تبرح كامنة فى الصـــدور كما كانت فى قلب بطرس الناسك ، ولم يزل التعصب كامناً فى عناصرها ، وهى تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للإصلاح والنهضة .

ومن أجل هذا يجب على العالم الإسلامى أن يتحد لدفع الهجوم عليه ليستطيع الذود عن كيانه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا باكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على عوامل تفوّقه ومقدرته » .

ويقول « جولد زيهر » : إن جمال الدين كان — كما يرى براون — فيلسوفا ، كاتباً ، خطيباً ، صحفيا ؛ وفوق ذلك كان سياسيا ، يرى فيه محبوه وطنيا كبيراً ، وخصومه مهيجاً خطيراً ؛ وكان له أثر بالغ فى النزعات الشـــورية التى حدثت فى عشرات السنين الأخيرة فى الحـــكومات الإسلامية ، وكان يرمى إلى تحرير الممالك الإسلامية من السيطرة الأوروبية ، وإنقاذها من الاستغلال الأجنبى ، وإلى ترقية شؤونها الداخلية بالإدارات الحرة المنظمة ؛ كما كان يرمى إلى جامعة تنتظم الحـــكومات الإسلامية ، ومنها إيران الشيعية ، لتتمكن بهذا الاتحاد من منع التدخل الأوروبى فى شؤونها » .

ويقول السيد جمال الدين عن نفسه : « لقد جمعت ما تفرق من الفـــكر ، ولمت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتنى الأفغان وهى أول أرض مس جســمى ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلى ، فإيران بحكم الجوار

والروابط ، لجزيرة العرب : من حجاز هو مهبط الوحى ، ومن يمن وتبابعتها ، ونجد ، والعراق ، وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمرائها ؛ وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام وما آل إليه أمرهم ، فالشرق الشرق ؛ نخصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف (فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم).

ويقول الشيخ محمد عبده : « أما مقصده السياسى الذى قد وجه إليه كل أفكاره وأخذ على نفسه السعى إليه مدة حياته — وكل ما أصابه من البلاء أصابه فى سبيله — فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيفى مجده ، ويدخل فى هذا تقليص ظل بريطانيا فى الأقطار الشرقية ».

فيكادون كلهم يجمعون على أن له غرضين واضحين : (١) بث الروح فى الشرق حتى ينهض بثقافته وعلمه وتربيته وصفاء دينه ، وتنقية عقيدته من الخرافات ، وأخلاقه مما تراكم عليها ، واستعادة عزته ومكانته . (٢) مناهضته الاحتلال الأجنبى حتى تعود الأقطار الشرقية إلى استقلالها مرتبطة بروابط على نحو ما ؛ لتتقى الأخطار المحدقة بها .

كان فى حياته يحمل فى يديه العَلَمين معاً ، فلما مات تفرق العَلَمان وتداول المصلحون بعدُ على حمل واحد منهما — هذا أو ذاك — لا على حملهما معاً .
فالشيخ محمد عبده — مثلا — أكبر تلاميذه وأقدرهم — خلفه فى حمل العَلَم الثانى لا السياسى . لقد تبين بعدُ أن اشتغاله بالسياسة فى العروة الوثقى ونحوها إنما كان مدفوعا إليه بقلب جمال الدين لا بقلبه هو ، ولذلك اقترح عليه بدل إنشاء الجريدة إنشاء مدرسة للزعماء كما تقدم . فلما استقل بنفسه كان عمله فى

بيروت عملا تعليميا صرفا ؛ ولما عاد إلى مصر كان برنامجه التعليم والتثقيف بأوسع ما يستطيع وأتمه ؛ ولذلك اقترح على أولى الأمر بعد عودته أن يعيّن ناظراً لدار العلوم أو أستاذا فيها ، فخشوا من اتصاله بالتلاميذ لتاريخه الماضى ، وعينوه قاضيا أهليا ليكونوا بمأمن من جانبه ، بل رأيناه يلعن فى كتاباته السياسة وحروفها ومشتقاتها كراهية لها ، بل رأيناه يصرح بأن الواجب الأول على المصلح تثقيف الشعب وتهذيبه ، ثم الاستقلال يكون الخاتمة ؛ بل رأيناه يضع خطة إصلاحه بأن يتعاون مع الإنجليز ويصادقهم ، ويتفاهم معهم لينال منهم — بأقصى ما يستطيع — إعانته فيما ينشد من إصلاح داخلى تثقيفى . وهذا سبب ما كان بينه وبين « مصطفى كامل » والحزب الوطنى من خصومة ؛ بل ربما كان هذا سببا أيضا فيما نلاحظه من بعض الفتور فى العلاقة بينه وبين أستاذه السيد جمال الدين ، فقد كتب من مصر للسيد — وهو فى الآستانة — خطابا غُفْلا من الإمضاء وتلميحا لبعض الأشخاص من غير ذكر أسمائهم ؛ فهاج السيد وكتب إلى الشيخ محمد عبده جوابا من نار على هـذا التصرف ، يؤنبه فيه على الجبن والخوف ، ويقول : « تكتب ولا تمضى وتعقد الألغاز ؟ . . . أمامك الموت ولا ينجيك الخوف ... فـكن فيلسوفا يرى العالم ألعوبة ولا تكن صبيا هلوعا » ؛ ولعل هذا آخر ما كان بينهما من تواصل .

وما كان بالشيخ محمد عبده من جبن ، ولـكن الجسم الملتهب يشعر بالجسم المعتدل بارداً ، وقد كتب السيد جوابه هذا وقد ملـكته الحدة ، وكم ملـكته .

على كل حال اختط الشيخ محمد عبده لنفسه خطة اقتنع بها كل الاقتناع ، وهى رفع أحد العلَمين دون الثانى ، فأخلص لمبدئه وبذل فى ذلك جهده وصحته وعقله وماله ، واتجه إلى كل نواحى الثقافة يغذيها وينميها ويصلحها بقدر ما يستطيع إنسان أن يعمل ، مع ما يوضع فى سبيله من عقبات من الخديوى ومن الجامدين

من رجال الدين ، ومن دسائس الدساسين ؛ فكانت حياته موزعة بين الإشراف على التعليم فى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، وإصلاح الأزهر ودرسه التفسير فيه ، وتأليف جزء « عم » لناشئة المدارس ، وجدّه فى إصلاح الأوقاف والمساجد ، وتحريره المقالات فى مجلة المنار لتثقيف العقل وهدايته إلى فهم الدين ، ورد على مهاجمى الإسلام ، كما فعل فى رده على هانوتو ، رداً حاراً قوياً بأحر وأقوى من رد السيد جمال الدين على رينان ، وسفره إلى تونس والجزائر يحاضر فى إصلاح العقيدة الدينية وإصلاح الطرق التعليمية وهكذا . كل ذلك فى حدود خطته التى رسمها والتى رآها أوفق لنفسه ، وكلٌّ ميسّر لما خلق له .

أما الذين رفعوا العَلَمَ الآخر — علم مناهضة الحكم الأجنبي — فهم عبد الله نديم ، ثم مصطفى كامل وفريد ، ثم سعد زغلول ، فساروا على مثل دعوة السيد جمال الدين ، مستخدمين ما استجد من أساليب ، وما استعمله الغرب من وسائل .

هذا فى مصر ومثله فى سائر أقطار الشرق ، من زعماء حملوا لواء الإصلاح الثقافى ، وزعماء حملوا اللواء السياسى مما يطول ذكره ؛ وقد نعرض — فيما نكتب بعدُ — لبعضه . ولو انتبه «السيد» اليوم من رقدته لحمد من الشرق سيرته ، وإن كان أكبر الظن أنه يحتد عليه لبطئه ؛ فقد كان — رحمه الله — حارا حاد المزاج لا يرضيه من الإصلاح السير على الأقدام ولا ركوب القطارات ، بل لا يرضيه بعض الرضا إلا ركوب الطائرات وحرب الدبابات . يقول الشيخ محمد عبده فى وصفه : « إنه طموح إلى مقصده السياسى ، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه ؛ وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان . . . وهو شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد المزاج ؛ وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة » .

ثم كان أشبه الناس فى سياسته بعلى لا بمعاوية ، كانت سياسة معاوية عنوانها : « إنا لا نصل إلى الحق إلا بالخوض فى كثير من الباطل » . أما « على » فلا يريد الخوض فى الباطل ليصل إلى الحق ، بل لا يريد إلا الحق من طريق الحق ، وإلا فلا كان . وهكذا كان جمال الدين . قال الشيخ محمد عبده : « ماذا كان يضر السيد لو مهد لإصلاحه — وهو فى الآستانة — بالسعى عند السلطان فى إعطاء أبى الهدى الصيادى خمسمائة جنيه ونيشان لا بنه أو لأخيه ، فإذا رأى أبو الهدى أن « السيد » يخدمه فإما أن يواتيه ، وإما ألا يناويه » ولكن أبى للسيد أن يطلب هذا الباطل وهو يعتقد أن أبا الهدى سافل دنىء إذا طلب له شيئا فالشنق .

ولما كان السيد يحكى لخاصته إقناعه للسلطان بأن حادثة الخديو عباس دسيسة ، وأن السلطان اقتنع بذلك ، وأخبره أن هذا من دسائس أبى الهدى ، قال له عبدالله نديم : ليتك عند ما صرح السلطان بذلك ذكرت له دسائسه وضرره . فغضب عند ذلك جمال الدين ، وقال : « أعوذ بالله أن أكون من المنافقين ، أو أن أفعل ما أنكره على الغير ، أو أن أكون هماز مشاء بنميم » .

وهكذا يريد الحق غاية ، ويريد الحق وسيلة ، والدنيا علمتنا أن سياسة معاوية هى التى نجحت ، وأن سياسة الدنيا تقوم على المصالحة وأخذ شىء بترك شىء . فمن أراد الحق كاملا وإلا لا ، فلينشد ذلك فى المثل الأعلى للخلق لا فى السياسة ، أو فلينتظر حتى تخضع السياسة للخلق .

***

بقيت مسألة هامة فى تاريخ السيد ، وهو اتهامه بالإلحاد — وقد أشرنا إليها فى مقال سابق . ولرمى السيد بالإلحاد تاريخ طويل ، فقد رمى به فى الآستانة عند زيارته لها أول مرة ، فقد خطب فى دار الفنون خطبة ذكر فيها أن المعيشة

الإنسانية أشبه شيء ببدن الحى ، وأن كل صناعة بمنزلة العضو ، فالملك كالمخ ، والحدادة كالعضد ، والزراعة كالكبد ... الخ ، ولا حياة للجسم إلا بالروح ، وروح المعيشة الإنسانية النبوة والحكمة .

فاتهموه بالإلحاد لهذا ، وشنعوا عليه بأنه يقول إن النبوة صناعة ، وشغبوا عليه حتى نُصح بالخروج من الآستانة .

فلما جاء إلى مصر اتهمه بعض العلماء كالشيخ عليش و بعض العامة بالإلحاد ، والإلحاد فى نظر هؤلاء ومثالهم شيء هيّن ، يكفى ألا يسير سيرتهم ، ولا يلبس لباسهم ، وأن يدخن السيجار ، و يجلس فى المقهى ، و يلتف حوله بعض اليهود والنصارى ، ليحكموا عليه بالإلحاد . وكما أن عقيدة كل إنسان لها لون خاص ، فكذلك تصوره للإلحاد يتكيف بذهنه .

ثم لما ترجم سليم بك عنحورى للسيد جمال الدين فى كتابه «سحر هاروت» رمى السيد أيضا بالإلحاد فقال : « إنه برّز فى علم الأديان حتى أفضى به إلى الإلحاد والقول بقدم العالم ، زاعما أن الجراثيم الحية المنتشرة فى الفضاء ترق وتتحوّر إلى ما نراه من أجرام ، وأن القول بوجود محرك أول حكيم وَهْمٌ نشأ عن ترق الإنسان فى تعظيم المعبود على حسب ترقيه فى المعقولات ... الخ » .

وقد قابله الشيخ محمد عبده ، وعاتبه على نشره مثل هذا القول من غير تحر وتدقيق ، فكتب سليم بك فى الجرائد يصحح فيه قوله ، ويقول : إنى قابلت الشيخ محمد عبده ، فأوضح لى بدلائل ناهضة و براهين داحضة ، أن ما تتناقله الألسن من هذا القبيل ما كان إلا من آثار الحسد ، وأن السيد كان أثناء مناظراته الجدلية يشرح النِّحَل والبِدَع وأقوال المعطلين شرحا وافياً ، ثم يقيم الحجج على بطلانها ؛ فلعل سامعا سمع منه هذا القول فى مثل هذا الموقف فنسبه إليه ، وقال إنه لم يسمع من السيد هذا الكلام و إنما تلقاه عن بعض

المصريين والسوريين . ونقل كلاما للسيد اطلع عليه فى وجوب الدين ، وضرورة الاعتقاد بالألوهية ، ومزايا الإسلام ، وختم مقاله بقوله : « إننا سارعنا لإذاعة هذا ، شأن المؤرخ العادل ، وقياما بحق الأدب ، وضنًا بفضل هذا الرجل الخطير من أن تناله ألسنة من لا يعرفونه خطأ وافتراء والله يتولى الصادقين » .

ثم رأينا ما اتهمه به « رينان » بعد ما جالسه فى باريس فكتب كلمته التى نشرناها من قبل ، وهذا أدق موقف ؛ فرينان فيلسوف واسع الذهن دقيق التعبير ، لا يلقى الكلام على عواهنه ، خصوصا وقد ورد فى رد السيد جمال الدين عليه ما يفيد أنه سلم للمسيو رينان بأن الإسلام كان عقبة فى سبيل العلم .

ولكن فى رأيى أن السيد عبر تعبيرا غير دقيق فى تفرقته بين طبيعة الدين الإسلامى وسيرة المسلمين ، خصوصاً وأنه أخذ على رينان تقصيره فى أنه لم يبحث إذا كان هذا الشر نشأ عن الديانة الإسلامية نفسها ، أم عن الصورة التى تصور بها الإسلام ، أم عن أخلاق بعض الشعوب التى اعتنقت الإسلام ؛ وقراءتنا لرده تشعرنا بأنه وقع فى هذا اللبس ، وأنه كان يدور حول فكرة أن للدين دائرة ، وللعلم دائرة ، ويجب أن يسبح كل فى دائرته من غير طغيان ، وأن الدين يجب ألا يعارض العلم فيما ثبتت صحته علميا — وهذه الآراء الواضحة فى ذهننا الآن ، والواضحة فى تعبيرنا ، لم ترد واضحة فى رده ، فكان ردا مهوشا ، كما كانت محاضرة رينان نفسها كذلك .

وليس من شك فى أن السيد كان حر التفكير قويا على الجدل ، متشعب طرائق الحجج ، فمن الممكن جداً أن يكون فى مجالسه مع رينان تبجبج فى بعض الأقوال التى من هذا القبيل ، والتى تحدث لكثير من كبار المفكرين فى بعض اللحظات ، فحكم رينان عليه هذا الحكم الشامل خطأ .

ثم كان « السيد » ، كما يحكى عنه الشيخ محمد عبده و بعض خاصته ، متصوفا يدين بعقيدة المتصوفه ، وهى مبهمة غامضة تنتهى بوحدة الوجود ، والتعبير عنها قد يلتبس — إلا على الخاصة — بالإلحاد ، ومن أجل هذا رمى محيي الدين ابن العربى وأمثاله بالكفر لعدم الدقة فى الوزن .

إن حياة « السيد » مملوءة بالدعوة الحارة إلى الدين ، وإلى التوحيد . فى كتاباته فى « الرد على الدهريين » وفى العروة الوثقى ، وفى مجالسه الخاصة .

يذكر بعض خاصته أنه سمع رجلا كبيراً تكلم كلمة فى حق النبى فأمر « السيد » من معه من الأفغانيين بضربه فضربوه حتى خرج يزحف .

وحكى المخزومى مجلساً شهده ، إذ زار رجل جمال الدين فى بيته فى الآستانة وجرى الحديث فقال هذا الرجل : « إنى قرأت كتب الفلاسفة فثبت لى أن الله غير موجود ولا يعتقد به إلا حيوان » . فضاق صدر السيد ولم يجبه ، ودعا الحاضرين إلى حديقة البيت وكان فيها أنواع من الطيور والدجاج ، فتصايحت الديكة وغردت الطيور ، فقال السيد : « كيف لا يفضل أضعف حيوان أعجم يذكر الله إنساناً ناطقاً ينكر وجود الله »؟! كيف يجرؤ على إنكار واجب الوجود من يأكله الدود ؟! إذا لم يتعظ الإنسان بما فوقه من أجرام فليتعظ بما تحته من رفات الأجسام ! فخرج الرجل الملحد خجلا من غير أن يودع .

لا يمكن أن تصدر هذه الكتابات وهذه الأقوال وهذه الغيرة من ملحد ، إلا أن يكون قد بلغ الغاية فى التصنّع والنفاق . ولم يكن عيب جمال الدين نفاقه ، إنما كان عيبه إفراطه فى صراحته ، وعدم استطاعته كتمان ما يعتقد ، ويقول : « لا يكون الكمال النسبى فى البشر إلا متى كثر إعلانهم وقلّ كتمانهم » . وأكثر متاعبه فى الحياة كان سببه جهره بما يصح أن يكتم وإعلانه ما يجب أن يُسر ، فأخلاقٌ مثل هذه تؤكد أنه لو كان السيد ملحداً يرى الحق والخير

فى الإلحاد لدعا إليه فى صراحة وجرأة وشجاعة من غير ما موار بة ولا إيماء .

لقد كان يؤمن بالأصول ، ويترك لعقله الحرية التامة فى الفروع ، ويصل فى ذلك إلى نتائج غريبة عن أذهان الجامدين المتزمتين فيُرْمى بالإلحاد ؛ فكان ينفر من التقليد ويدعو إلى الاجتهاد ، ويُذْكر فى مجلسه قول للقاضى عياض ويتمسك به راووه فيقول « السيد » : سبحان الله ! إن القاضى عياضاً قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصوب من قول القاضى عياض وغيره من الأئمة ! إذا كان القاضى عياض وأمثاله سمحوا لأنفسهم أن يخالفوا أقوال من تقدمهم فاستنبطوا وقالوا ما يتفق و زمانهم فلم لا نستنبط ونقول ما يوافق زماننا ؟!

« ما معنى باب الاجتهاد مسدود ، وبأى نص سُدّ ، أو أى إمام قال لا يصح لمن بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين ، ويهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه !

« إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا ، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة من بحر ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » .

ويرى أن التفرقة بين أهل السنة والشيعة أحدثتها مطامع الملوك لجهل الأمة ، وجميعهم يؤمنون بالقرآن ورسالة محمد ، ففيم الخلاف ولم القتال ؟

ويقول إن الأديان الثلاثة كلها أساسها واحد وإنما يوسع شقة الخلاف بينها اتجار رؤساء الأديان بها .

ويفيض فى اشتراكية الإسلام ويقارن بينها وبين اشتراكية الغرب ، فيرى

أن اشتراكية الغرب بعث عليها جور الحكام وعوامل الحسد فى العمال من أرباب الثراء ، أما الاشتراكية التى كانت فى الإسلام فملتحمة مع الدين ملتصقة مع الخُلق ، باعث عليها حب الخير كما فى أعمال عمر وأبى ذر .

ويعرض فى مجالسه للحديث عن الرجل والمرأة والسفور والحجاب فيطيل القول فى ذلك . وخلاصة رأيه أن المرأة فى تكوينها العقلى تساوى الرجل ، فليس للرجل رأس وللمرأة نصف رأس ، والتفاوت الذى بينهما لم يأت إلا من التربية وإطلاق السراح للرجل وتقييد المرأة للبيت ولتربية الجيل ، ومهمتها فى هذا أهم وأسمى مما يقوم به الرجل من كثير من الصناعات ؛ ويخطئ من يطالب مساواة الرجل بالمرأة فى كل شىء ، فلكل وظيفته ، وعلى تعاونهما — كل فى عمله — يقوم المجتمع ، ولا مانع أن تعمل المرأة فى الخارج إذا فقدت عائلها واضطرتها ظروفها إلى ذلك ، ولكن بنية صالحة وذيل طاهر . ثم قال : « وعندى أن لا مانع من السفور ، إذا لم يتخذ مطية للفجور » .

ويقول : « إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية ، فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله . وقد عم الجهل وتفشى الجمود فى كثير من المتردين برداء العلماء حتى اتهم القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة — والقرآن برىء مما يقولون — والقرآن يجب أن يجل عن مخالفة العلم الحقيقى خصوصاً فى الكليات » .

وهو واسع الصدر ينقد « شبلى شميل » فى آرائه الملحدة التى جاوز فيها مذهب دارون ، ومع ذلك يقدره لصبره على البحث وجرأته فى الجهر بما يعتقد ولو خالف الناس . وهكذا مما يراه المتزمتون خروجاً عن المألوف ، فما أقرب ما يقذفون بكلمة الإلحاد .

سنة مألوفة فى الكون ، لا يأتى مصلح سابق لزمنه إلا رمى بالزندقة

أو الكفر أو الجنون ، ثم أوذى ممن يسعى فى الخير لهم ، وممن يضحى بسعادته لسعادتهم ، ولا يقدَّر حق قدره إلا بعد أن يهدأ الحسد بموته ، وتتجلى صحة دعوته بعد زمنه .

***

لقد قصدت الآستانة سنة ١٩٢٨ بعد وفاته بإحدى وثلاثين سنة ، فرأيت واجباً أن أزور قبر هذا الرجل العظيم ، وأستعيد عنده ذكرى عظمته وسلسلة أعماله ، فسألت عنه الكثير فلم يعرفه ، ورأيت رجلا أفغانيا يعمل خازناً لمكتبة الشهيد على ، فوصف مكانه لى ، فذهبت مع صديقى «العبادى» عصر يوم الأحد ٨ يوليه إلى «ماچقة» أو «متشكه» ، فوجدت فى ربوة على مدخل البوسفور مقبرة قد انتثرت فيها المدافن ، ودلنا شيخ المقبرة على مدفن السيد ، فعلمنا أن قبره كان قد تشعث ولم يعن به أحد ، وكادت تضيع معالمه ولم يفكر فيه أحد من أهل الشرق الذين أفنى فيهم حياته ، إنما ذكره مستشرق أمريكى حضر إلى الآستانة سنة ١٩٢٦ ونقب عن قبره حتى وجده ، فبنى عليه تركيبة جميلة من الرخام ، وأحاطها بسور من حديد ، وكتب على أحد وجوه التركيبة اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته ، وفى وجه آخر كتابة تركية ترجمت لنا كما يأتى : «أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين فى أنحاء العالم الخيِّر الأمريكانى المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦» .

وقفنا على قبره وقلنا : هنا رقد محيى النفوس ومحرر العقول ، ومحرك القلوب ، وباعث الشعوب ، ومزلزل العروش ، ومن كانت السلاطين تغار من عظمته ، وتخشى من لسانه وسطوته ، والدول ذات الجنود والبنود تخاف من حركته ، والممالك الواسعة الحرية تضيق نفساً بحريته .

هنا خمد من كان يشعل النار حيث كان ، فى الأفغان ، فى مصر ، فى فارس ، فى باريس ، فى لندرة ، فى الآستانة .

هنا باذر بذور الثورة العرابية ، ومؤجج النفوس للثورة الفارسية ، ومحرك العالم الإسلامى كله لمناهضة الحكومات الأجنبية ، والمطالبة بالإصلاحات الاجتماعية . هنا من حارب إسماعيل وتوفيقاً فى مصر ، وناصر الدين فى فارس ، وإنجلترا فى باريس ، وحارب الجهل والأمية والذلة فى الشرق ، والجاسوسية والنفاق فى الآستانة . ولم ينتصر عليه شىء إلا الموت .

لقد أجللناه وأعظمناه ، والتهبت نفوسنا لذكراه ، فكيف كان محضره ومرآه ، رحمه الله .

# السيد أحمد خان

## ١٨١٧ — ١٨٩٨

هو فى الهند أشبه شىء بالشيخ محمد عبده فى مصر بعد مفارقته للسيد جمال الدين وعودته من نفيه، الإصلاح عندهما إصلاح العقلية بالتثقيف والتهذيب، والنظر إلى الدين نظرة سماحة ويسر، والاستقلال يأتى بعد ذلك تبعاً؛ فلا استقلال لجاهل ولا مخرّف، إنما عماد الاستقلال العلم، العلم بالدنيا وبالدين، العلم بكل شىء أتت به المدنية الحديثة من طبيعة وكيميا، ورياضة وفلك، ونفس واجتماع ونظام الحكم والإدارة؛ ذلك كله إلى دين يحيي القلب ولا يقيد العقل، ويغذى النفس ولا يشل التفكير. والإسلام إذا فهم على أصوله كفيل بذلك؛ فليس فيه ما يمنع الإنسان أن يصل فى العلوم ونظم الدنيا إلى غايتها، بل فيه ما يبعث على ذلك ويشجعه، وفيه ما يحيي القلب، ويوجّه الإنسان فى حياته وفى علمه وفى تفكيره إلى الخير. ثم كلاهما كان يرى أن السلطان فى مصر وفى الهند فى يد الإنجليز، ولهم من القوة المادية من الأسلحة والذخائر فى البر والبحر، ومن القوة العلمية والسياسية ما لا تستطيع الهند ومصر مقاومته. قد يستطيعون المقاومة إذا اتحدوا، ولكن كيف يكون اتحادهم مع جهلهم وضعف خلقهم، بل كيف يكون ذلك مع فساد أمرائهم — إذ ذاك — وبحثهم عن منافعهم الشخصية ولو على حساب الأمة، — قالا — إذن فالأولى مسالمة الإنجليز والتفاهم معهم، وأخذ ما نستطيع لخير الشعب منهم؛ لنُفهِم الإنجليز أن عليهم واجب النهضة بالشعوب التى يحكمونها عقلياً كما ينهضون بها ماديا، وأنهم مسئولون على جهل الأمم التى يحكمونها، كما هم مسئولون عن فقرها، وأن

العلم والثقافة وإنارة الأذهان فى مصلحة المستعمِر والمستعمَر ، ولنأخذ منهم ما نستطيع أن نأخذه من طريق الإقناع والمسالمة والمصالحة ، وما نأخذه نستغله فى خير الشعوب وثقافتها خير استغلال ، والزمن — بعد — كفيل بإظهار النتائج .

ثم كلاهما عانى من المتاعب ما عانى الآخر من جهتين : فمسالمة المستعمرين لا ترضى — عادة — دعاة الوطنية والاستقلال ، ويرون فيها خيانة . وقد يرى بعضهم أن لا مفاوضة ولا مطالبة ولا مسالمة إلا بعد الجلاء ، وكل من يطلب شيئاً دون هذا بائع لوطنه يستحق أن يهاجم وينقد ويؤنب — ومن جهة أخرى هناك الطبقة الجامدة من العلماء التى ترى العلوم الحديثة التى أتت بها المدنية الأجنبية مفسدة ، والقول بأن قوانين الدنيا فى الزراعة والاجتماع والصحة والمرض وكل شىء مبنى على السبب والمسبب كفر بالقضاء والقدر ، وإنكار سلطة المشايخ والأولياء والأضرحة زندقة . فهؤلاء وهؤلاء يشنون الغارة على مثل الشيخ محمد عبده والسيد أحمد خان ، فيختطون هم دعوتهم وسط هذه الأشواك الحادة . وقد يمد الأمراء دعاة الرجعية بوسائلهم للنيل إلى أقصى حد من المصلحين من هذا القبيل لأنهم نقموا عليهم الالتجاء إلى معونة الأجنبى دونهم ، ولو التجئوا إليهم — مع الأسف — ما نفعوهم . كل ذلك كان فى مصر وفى الهند ، لأن طبيعة الأشياء واحدة ، وقوانين الطبيعة لا تتخلف .

كانا على غير رأى السيد جمال الدين فى الإنجليز والاحتلال ؛ كان السيد يكره الإنجليز ويشنع عليهم ما استطاع ، بحكم مالقى منهم فى الأفغان والهند ومصر وباريس ، حتى لقد عاتبه بعض أصحابه يوماً وقال له : إننا نراك عادلا فى حكمك على الأشخاص والأمم ، تذكر بالخير حسناتهم ، وبالشر سيئاتهم ، ولا نراك تفعل ذلك فى الإنجليز . قال السيد : « ليس من ينكر أن الإنجليز — كأمة — من أرقى الأمم ، تعرف معانى العدل ، وتعمل بها ، ولكن فى بلادها ، ومع

الإنجليز أنفسهم » ، ثم ذكر له ما فعلته فى الهند ومصر . ولخص رأيه مرة أخرى وقال : « إن الشرقيين تصرفوا فى أملاكهم وأراضيهم و بلادهم تصرف السفيه المبذِّر ، ثم قُضى عليهم أن يكون الحاكم لهم هو الغرب ، والغرب — فى الحقيقة — ليس من مصلحته إصلاح سيرة الشرق ولا منعه من السفه ، بل من أمانيه أن يتمادى الشرق فى غيه وإسرافه ، ليطول عهد الحجر عليه » . فلما كانت عقيدة جمال الدين هذا كانت سيرته فى حياته ما ذكرنا .

أما السيد أحمد خان والشيخ محمد عبده فيريان أن الإنجليز خصوم شرفاء معقولون ، يمكن التفاهم معهم ، وأخذ أشياء من أيديهم تدريجاً لمصلحة الأمة ، حتى إذا نضجت الأمة أمكنها الحصول على حقوقها كاملة ، حيث لا تستطيع أن تنال شيئاً منها مع الجهل والغفلة .

* * *

هو السيد أحمد خان ابن السيد محمد متقى خان من أسرة أرستقراطية نبيلة ، رحل أجداده من بلاد العرب إلى هراة ومن هراة إلى دلهى فى عهد « أكبر شاه » ، وقد ولد صاحبنا فى ١٧ أكتوبر سنة ١٨١٧ وتوفى والده وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، بعد أن ثقفه ثقافة دينية على عادة أهل زمنه وبلده . وقد جرَت أسرته على عادة التحرج من الاتصال بالإنجليز وخدمتهم ، ولكنه خالف أهل بيته والتحق بخدمة الحكومة أميناً للسجلات فى القلم الجنائى فى دلهى ، ثم عين منصفاً (قاضياً مدنياً) فى « فاتح بور » من إقليم « أكرا » ثم منصفاً فى « بجنور » Bignaur ، وإذ هو فى هذا العمل فى هذه المدينة اندلعت نار الثورة الهندية سنة ١٨٥٧ ، وقام الهنود بحركة عنيفة ، يخربون السكك الحديدية ويذبحون الإنجليز حيثما وجدوهم ، ويدمرون ما وصلت إليه أيديهم ، فكانت ثورة جامحة عنيفة أشد العنف ، وهاج الرأى العام

على الانجليز هياجا شديداً . ولكن كان رأى السيد أحمد هادئاً متزناً ، مخالفاً للرأى العام ، فرأى أن هذه الثورة لا تأتى بنتيجة ، وأن آخرة أمرها عودة الإنجليز إلى السيطرة ثانية من غير فائدة إلا ضحايا الطرفين ، وأن قتل الإنجليز — وخاصة المدنيين — عمل غير إنسانى . لذلك وضع خطة بذل فيها الجهد مع بعض أصدقائه لحماية الإنجليز من القتل ، وإنجاء من تصل إليه أيديهم منهم ، فنجا على يده ويد أصدقائه كثير ، وضحى فى ذلك بالكثير من ماله وباضطهاد أقاربه حتى لقد طعن بعضهم بالخنجر بيد الثائرين ، وماتت أمه لهول الصدمة من وقع هذه الحوادث الأليمة . فلما هدأت الثورة عرف له الإنجليز فضله ، وحفظوا له جميله ، وكافئوه ماديا وأدبياً . ومن ذلك الحين تأكدت الصلة بينه وبينهم ، فاستخدمها فيما وضع من خطة إصلاح .

ومع هذا فقد وضع رسالة فى أسباب هذه الثورة باللغة الأردية وترجمت إلى الإنجليزية كان فيها قاضيا منصفا ، لم يتحيز فيها للهند ولا للإنجليز ، ولم يَرْعَ فيها عداوة عدو ولا صداقة صديق ، فرد على بعض الجرائد الإنجليزية فيما ذهبت إليه من أن الثورة سببها تهييج الأفغان أو الروس للهنود ، وتدبير المؤامرات والدسائس منهما ، وعدّ ذلك سخافة من القول لا قيمة لها ، وأن حركة الثورة حركة شعبية صادرة من صميم الشعب ، سببها أن كثيرا من المآسى يشعر بها الشعب من سنين ، ثم لا تصل إلى السلطات العليا ، ولا تعلم بها حتى تعالجها ؛ فبينما الحكومة من جانبها تتبع خطتها المألوفة من جهل سعيد بما يدور فى أذهان الشعب وما يشعر به من آلام ، إذا بالشعب من جانبه يتهم الحكومة بعلمها بمآسيه وسوء القصد فى تصرفها ، كما أن الشعب يعتقد أن الحكومة تتدخل فى عقائده وشعائره الدينية ، وتؤيد — ولو فى الخفاء — حركات التبشير فى البلاد ... إلى

آخر ما ذكر من أسباب كان فيها صريحاً مخلصاً يقول ما يعتقد .

***

على كل حال إنما يهمنا منه دعوته إلى الإصلاح وعمله فى سبيله .

لقد نظر فرأى أن بالهند نحو سبعين مليوناً من المسلمين فشا فيهم الفقر والجهل والبؤس والقلق ، من تعلم منهم فتعلمٌ دينى عقيم لا يفتح نظراً ولا يبعث حياة . وهم خاضعون لرجال دين لا يفهمون من الدين إلا رسمه ؛ يريدون أن يخضعوا المدنية الواسعة لعقليتهم الضيقة ، ولا يعترفون بتغير زمان وتلون حياة ، وتقدُّم علم ؛ يعيشون فى ركود والعالم حولهم مائج ، يرون أن المدنية الحديثة بعلمها ونظمها ووسائلها ومقاصدها مدنية كفر لا يصح للمسلم أن يستمد منها ولا أن يتعاون مع أهلها ، وأنهم إذا فتحوا صدورهم لها طاحت عقائدهم وأخرجتهم من دينهم . فى كل بلد أو إقليم « مُلاّ » ، وهذا الملا أو العالم الدينى يتسلط على عقول أهله ، فإذا فتح المبشرون مدارس حرم هؤلاء العلماء على المسلمين أن يرسلوا أبناءهم إليها ثم لا يفتحون هم مدارس مثلها ، بل إذا فتحت الحكومة مدارس فكذلك حرموها على أبناء المسلمين ؛ والهندوس يرسلون أبناءهم إلى هذه وتلك فيتثقفون ويصلحون للحياة ويشغلون المناصب الحكومية ، والمسلمون بمعزل عن الوظائف لأنهم فى مدارسهم الدينية البدائية بمعزل عن الحياة . فالمدارس مملوءة بالنصارى والوثنيين ، وفيها القليل النادر من المسلمين ؛ وكانت نتيجة هذا أن أعمال الحكومة المتنوعة — وخصوصاً المناصب الكبرى منها — أصبحت وليس فى يد المسلمين منها إلا ما ندر .

وحركات الإصلاح الدينى التى قام بها بعض رجال الدين كانت دعوات سلبية أو قليلة القيمة العملية . ففى سنة ١٨٠٤ قام الحاج شريعة الله يؤلف حزباً إصلاحياً قوامه أن صلاة الجمعة لا تصح فى الهند لأنها ليست دار إسلام ، ولذلك

سمى حزبه « جماعة اللاجمعة » ، وما أكثر ما أخذت هذه المسألة من تفكيرهم ووقتهم ، وخلافهم وجدلهم ، ودخل فيها الملايين من مسلمى بنجاب .

وجاء مصلح آخر اسمه كذلك : « السيد أحمد » ( ١٧٨٢ — ١٨٣١ ) فحج واعتنق مذهب ابن عبد الوهاب ، وجاء إلى الهند داعيا بدعوته من تحريم زيارة الأضرحة والشفاعة بالأولياء ونحو ذلك مما ذكرنا قبل ، وزاد على ذلك دعوته أن الهند دار حرب لا دار إسلام ، وأن الجهاد فيها واجب على المسلمين ، فاصطدم هو وأتباعه بالحكومة الإنجليزية ، وكانت خصومة ، وكانت ضحايا ، ولم تكن هناك نتيجة ذات قيمة .

لم يعجب السيد أحمد خان هذا كله وتساءل فى حزم ما علة هذا الجهل وضيق العقل والفقر وسوء الحال ؟ وأجاب فى حماسة : إنه التربية . ومن ذلك الحين ابتدأ يضع منهج التربية التى يريدها . وصادف ذلك أن ثورة سنة ١٨٥٧ كشفت لعقلاء المسلمين فى الهند حالهم ووجوب تغيير موقفهم وشعورهم بتخلفهم عن الطوائف الأخرى ، فتناغم تفكير « السيد أحمد » واستعداد الرأى العام المتنور فأنتج هذا التناغم حركة إصلاح تعد نقطة تحوّل فى تاريخ المسلمين فى الهند .

قال لقومه يوما : « انظروا إلى انجلترا ، لقد كانت ثروتها تتمشى يوما فيوما مع تربيتها ، كلما زادت تربيتها زادت ثروتها ، وقد كانت منذ قرن وأمامها من العقبات والصعاب التى تعوق التربية أكثر مما عندنا ، ولم يكن لها إذ ذاك سكك حديدية ولا آلات ميكانيكية للطباعة ولا نحو هذا ، إنما كان لها سعة نظر وقوة إرادة .

« لو أن الهند سنة ١٨٥٦ كانت تعرف العالم وتعرف قوّتها وقوة خصمها من الإنجليز ، وتزن الأمور بميزان صحيح وتدرك نتائج الأمور ، ما حدثت الحوادث الأليمة التى حدثت سنة ١٨٥٧ — ألا إن الجهل سبب لكل شر » .

وأول ما بدأ به خطته فى التربية إنشاؤه جمعية أدبية علمية فى عليكره — حيث كان قاضيا بها سنة ١٨٦١ — كان الغرض منها نشر الآراء الحديثة فى التاريخ والاقتصاد والعلوم وترجمة أهم الكتب الإنجليزية فى هذه الموضوعات إلى اللغة الأردية ، وقد كان يرى أن تعلّم هذه العلوم باللغة الإنجليزية لا يكفى إلا فى تثقيف عدد قليل لا يجزى ، إنما الذى يفيد فائدة كبرى نقل هذه العلوم إلى لغة البلاد حتى يشترك فى تفهمها والاستفادة منها أكبر عدد ممكن ، ولذلك كانت خطته التى بدأ بها وسار عليها ، نقل هذه الكتب الهامة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الأردية ، ولم يمنعه إعجابه بالانجليز ولغتهم وثقافتهم من أن يكون صلبا حازما شديدا فى طلبه نقل الكتب الانجليزية للشعب لا نقل الشعب للغة الإنجليزية .

ولكن سرعان ما هاج عليه الرجعيون والمتزمتون من رجال الدين يتهمونه بإفساد العقول وإفساد الدين وإفساد الوطنية ، واشتبك فى حرب عوان معهم انتهت بانتصاره بوضعه الحجر الأساسى لكلية فيكتوريا بغازى بور .

وحدث حادث كان له أكبر الأثر فى إصلاحه ، ذلك أنه فى سنة ١٨٦٩ ، وهو فى نحو الثانية والخمسين من عمره ، تقرر إرسال ابنه « محمود » إلى إنجلترا — عضو بعثة — ، فانتهزها « السيد أحمد » فرصة وسافر معه ؛ وحدثت له على السفينة طرائف رويت عنه من أحاديث فى الدين تحدّث بها مع أصدقائه من الإنجليز تدل على غيرته على الإسلام مع سعة عقل ، وابتهج حين مروره على شاطئ جزيرة العرب لأنها مبعث النبى .

نزل إنجلترا وقابل كثيراً من عظمائها ، منهم توماس كارليل ، وقد حدّثه « السيد » طويلا فى محمد ، ولعله كان لذلك أثر محمود فى كتابة « كارليل » الفصل البديع عن محمد البطل فى كتابه « الأبطال » . وأخذ « السيد » يدرس

نظم التربية فى إنجلترا ، ولفت نظره تربية الشعب الإنجليزى وثقافته أكثر مما لفت نظره تربية الخاصة . لقد دوّن إعجابه بخادمة المنزل تقرأ وتكتب ، وبربة المنزل لها رأى فى السياسة العامة . وبالحوذى يقرأ الجريدة ويحتفظ بها ليتم قراءتها عند انتظار راكب ، ونادى إذ ذاك بفكرته المتغلبة على ذهنه قائلا : « إن الذين يريدون إصلاح الهند الحقيقى يجب أن يجعلوا نصب أعينهم نقل العلوم والفنون والآداب الأوروبية إلى لغة البلاد الأصلية ، وأحب أن يكتب هذا الرأى بأحرف كبيرة جداً على جبال الهملايا لتذكره الأجيال القادمة . إن تقدم الغربيين إنما جاء من أنهم عالجوا الآداب والعلوم بلغتهم ، ولو كانت العلوم والفنون تعلّم فى إنجلترا باللغة اللاتينية أو اليونانية أو العربية أو الفارسية لظلوا جاهلين جهل الهند ، فما لم نهضم العلوم والفنون ونتمثّلها بلغتنا فستظل فى حالتنا السيئة » .

ولعل قارئ هذا يطفر ذهنه — إذا قرأ هذا النداء — إلى حالة البلاد العربية ، ويقول كما قال « السيد أحمد » ما لم تتوحّد اللغة العربية والعامية فى الأمم العربية وتنتقل العلوم والفنون إلى لغة الناس التى يتكلمون بها فى بيوتهم وشوارعهم ومعاملاتهم وسمرهم ، فلا أمل فى إصلاح حقيقى . ورحم الله أستاذى « على بك فوزى » فقد زرته فى الآستانة وجلست معه جلسات طويلة ، أستفسر فيها عن ثورة تركيا ونتائجها ومحاسنها ومساويها ، فقال لى مرة : « حبذا لو تعلمتم التركية لا لأن أدبها رفيع المقام ، ولكن لتروا كيف استخدم الأتراك لغتهم وآدابهم لإصلاح عقولهم وشؤونهم » . وعقّب على ذلك فقال : « لا أمل فى إصلاح مصر ما دام هناك لغة للعلم ، ولغة للكلام ، فإما أن ترقى لغة الكلام ، وإما أن تنحط لغة العلم حتى يتحدا ، وحينئذ فقط يكون التفكير الصحيح والرقى الشعبى » .

وكنت مرة أقدم أديباً مصريا كبيراً لشرقى كبير ، فسألنى سؤالا غريباً : « هل هو يكتب للخاصة أو للعامة ؟ فقلت : للخاصة ، قال : ومَنْ من الأدباء

يكتب للشعب ؟ قلت : لا أحد ، قال : وا أسفاه !

واهتم « السيد أحمد » بدراسة نظام التربية فى المدارس الشعبية وفى الجامعات الإنجليزية ، وكان مما قاله : « إن الطفل فى مدارس إنجلترا يتربى ويتثقف ، وأما فى مدارس الهند فيتعلم ، وشتان بين التربية والتعليم ، وإن الشاب فى الجامعات الهندية يفقد أخلاقه بسكناه فى أوساط المدن مع المغريات المتعددة ، كما أنه ليس فى هذه الجامعات عناية بالأخلاق والآداب والدين ، وأساتذتها ومدرسوها يعتقدون أن واجباتهم تنتهى بانتهاء دروسهم ، وآمال الشبان ومطامحهم محصورة فى وظائف حكومية ، من غير تفكير فى واجب لأنفسهم ولا لأمتهم » .

يجب تغيير كل ذلك ، ووضع منهج لمسلمى الهند غير المنهج الذى يسيرون عليه .

## ٢

عاد السيد أحمد من إنجلترا وهو عاقد العزم على إصلاح حال المسلمين فى الهند عقلا ودينا ولغة وخلقاً واجتماعا ، سواء فى ذلك خاصتهم وعامتهم ، مصمم على أن يغزو الجهل والجمود بكل ما يستطيع من قوة ، وأن يحمل المسلمين بكل الوسائل على أن يتقبلوا المدنية الحديثة فى علومها وفنونها قبولا حسناً ، ويستخدموها فى ترقية حياتهم ، وأن يبذل الجهد فى التوفيق بين الإسلام والمدنية ؛ فالإسلام فى جوهره وأصله معقول واسع الصدر لأحكام العقل غير مناهض لما يثبته العلم ، فإذا نُقِّيَ مما لحقه وليس منه أمكن أن يُقبل المسلمون على العلم الحديث من غير حرج .

وضع من أول خططه بعد عودته أن ينشئ فى الهند جامعة تكون للمسلمين

كأكسفورد وكمبردج فى إنجلترا ، تربى الخاصة ، ثم هم يربُّون العامة ، وما زال يكد ويسعى ويجمع المال ويكافح العقبات توضع فى سبيله ، وأخيراً فاز بإنشاء كلية عليكره المشهورة وحدَّد لها أغراضاً ثلاثة .

١ — أن تعلم المسلمين الثقافة الغربية والشرقية فى غير تعصب ولا جمود .

٢ — أن يعنى فيها بحياة الطلبة الاجتماعية فيجدوا فيها سكناً يقيهم شرور المدن ومفاسدها ، فيطمئن الآباء — حين يرسلون أبناءهم إليها — على أنهم فى بيئة صالحة لخلقهم مرقِّية لآدابهم .

٣ — أن يعنى فى نظام الكلية بترقية العقل وتربية البدن وتهذيب الخلق معاً ، وبعبارة أخرى أن يكون الغرض منها « التربية » لا التعليم فقط .

وتم بناؤها واستقبلت طلبتها تعلِّمهم على المنهج الذى اختطه ، ونجحت فى خلق جيل من المسلمين جديد مثقف ثقافة واسعة مع سعة فى العقل وسماحة فى الدين ؛ وانتشر خريجوها فى أقطار الهند يحملون رسالة جامعتهم ويضيئون ما حولهم ، وأصبحت كلمة « عليكره » لا تدل فقط على كلية أو جامعة ، وإنما تدل أيضاً على نوع من العقلية الراقية ، والصبغة الخلقية والاجتماعية الخاصة .

لقد أخذ الوطنيون المسلمون على خريجى هذه الجامعة وطلبتها أنهم لا يشتركون فى الحياة السياسية مع فضلهم وسعة عقلهم وغزارة علمهم ، حتى أنهم لا يُضربون يوم تضرب الجامعات الإسلامية لغرض سياسى ، ولكن هذه الصبغة هى التى صبغ بها السيد أحمد طلبته ، إقبال على العلم وبُعدٌ عن السياسة .

فلما فرغ من هذه الجامعة أخذ يعمل فى اتجاه آخر ، فأنشأ مجلة دورية سماها « تهذيب الأخلاق » عالج فيها المشاكل الاجتماعية والدينية فى جرأة وصراحة ، وأخذ يفسر القرآن ، ويدعو إلى أن القرآن — إذا فهم فهماً صحيحاً — اتفق مع العقل ، وأن النظر الصحيح فيه يوجب الاعتماد على روحه أكثر من

الاعتماد على حرفيتـه ، وأنه يجب أن يفسَّر على ضوء العقل والضمير .

وتطرف أكثر من ذلك ، فـكان يقول بأن الوحى كان بالمعنى دون اللفظ ، ذاهباً فى ذلك مذهب بعض علماء المسلمين المتقدمين الذين حكى قولهم السيوطى فى الإتقان إذ قال : « وذكر بعضهم » أن جبريل إنما نزل بالمعانى خاصة ، وأنه صلى الله عليه وسلم عَلِم تلك المعانى وعبّر عنها بلغة العرب ، وتمسـك قائل هذا بظاهر قوله تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك »(١) .

إذ ذاك هاج عليه كثير من رجال الدين ، وهيجوا عليه العامة وتعرضت حياته للخطر ، وأراد أحدهم أن يطعنه مرة بخنجر فنجا منه بأعجوبة ، ومع هذا ظل ثابتاً جريئاً فى دعوته كما هو لم يتزحزح ، ولم يداج ولم يمار ، بل ربما كان بعد ذلك أقوى وأصرح فيما يقول وما ينشر ، لا يعبأ بنقـد ولا تهديد بقتل ، ولا بأى ضرب من ضروب التخويف .

وكما كانت ناحيته الدينية جريئة خطيرة كذلك كانت ناحيته السياسية ، فـكان يرى أن الغرض الذى يجب أن يرمى إليه السياسى الهندى هو أن تكون الهند كلها أمة واحدة ، وأن الإسلام والهندوكية والنصرانية يجب أن تكون عقائد دينية فى نفوس معتنقيها فقط ، ولـكن هـذه العقائد كلها يجب ألا تؤثر فى الوطنية ، فيجب أن يكون عند كل طائفة عقيدتها الخاصة بها ووطنيتها العامة عند كل الطوائف ، أما النزاع الطائفى الدينى ، والنزعة إلى تقسيم الهند حسب الأديان ونحو ذلك ، فكلها أفكار باطلة ، وليس يؤدى إلى الاستقلال الحق إلا حصر الدين فى العقيدة ، وتعميم الشعور بالوطنية بين كل الأفراد وفى كل الملل . وقال : « فى قطر كالهند تتقسمه الطبقات ، وتتوزعه النزعات الدينية الحادة ، ولم

---

(١) وردت هذه العبارة فى الإتقان ص ٥٤ جزء أول بالمطبعة الـكستلية .

تنتشر فيه التربية الصحيحة التى تعد الناس كلهم سواء فى الحقوق والواجبات ، أرى بل أعتقد أن الانتخاب والتمثيل فى شتى المجالس ضرره أكبر من نفعه » ، ولهذا رفض أن يشترك فى المؤتمرات السياسية والأحزاب على اختلاف ألوانها ، فأغضب رجال السياسة كما أغضب رجال الدين ، ولم يعبأ بهؤلاء ولا هؤلاء . ووجّه كل همه فى أحب الأعمال إليه من اشتراك فى المجلس الأعلى للتعليم ، والمجلس الأعلى للخدمة الاجتماعية ، والإشراف على سير كلية عليكره .

ثم كانت له فكرة عظيمة نافعة ، وهى أن يجمع مؤتمراً كل عام يجتمع فيه قادة المسلمين فى الأقاليم الهندية المختلفة ، كل عام فى مدينة ، يلقون فيه الخطب والمحاضرات عن الشؤون الإسلامية وأمراض المسلمين وعلاجها ، ويصدرون القرارات التى يرونها نافعة فى ذلك . وكان الغرض الذى يرمى إليه « السيد » منه بث روح الائتلاف بين المسلمين فى البلاد الهندية ، وتبادل الآراء فى خير الوسائل لترقيتهم ، والتعاون على الأعمال المفيدة من إنشاء المدارس أو النهوض بها أو نحو ذلك ، وقد نفذ الفكرة ونجح المشروع ورأس السيد المؤتمر خمس سنوات قبل أن يتوفاه الله ، ثم استمر يجتمع بعد حياته برياسة بعض أصحابه وأتباعه .

لقد سيطرت روحه على المؤتمر فى حياته و بعد مماته ، وهى روح تدعو إلى الهجوم على المدنية الغربيـة ، وأخذ كل شىء حسن فيها ، وخصوصاً العلوم والآداب « إن النور اليوم يأتى من الغرب بعد أن كان يشرق من الشرق ، فيجب أن نأخذ من أوروبا علومها ومدنيتها ، ونسير مع الزمان فى مضمار الحياة العصرية ، وذلك لا يفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم ، إنما يفقدهم ذلك الجهل لا العلم » « إن التعليم كان فى الزمن الماضى دينيا محضاً لا يعبأ بالدنيا وما فيها ، وقد تطرف فى الأولى وأخل بالثانية ، فحبذا الجمع بين الدين والدنيا » .

« إن العلم اتخذ شكلا جديدا ، فلم تعد طبيعيات أرسطو ، ولا نظريات ابن

سينا ولا جبر الخيام ولا كيمياء جابر بكافية ، وهى لا تصلح للدراسة إلا من الناحية التاريخية » . واهتم المؤتمر بالتربية وشؤونها ، ينتقد التعليم ومناهجه ويقترح الإصلاح ويضع نصب عينه كلية عليكره « حتى تصل إلى درجة تساعد على ترقية النشء وتهذيبه ، وحتى تصل إلى درجة تكون فيها منبع العلوم ومحط الرحال للطلبة من جميع الأقطار الإسلامية ؛ وليس من البعيد عند ذلك أن ينبغ فيها أمثال ابن سينا وابن رشد وغيرهما من العلماء السابقين ينشأون فى مهد العلوم الحديثة ويبحثون فيها وينهضون بها ، فأن هؤلاء الناشئين بمساعدة المباحث والتجارب الكيمياوية والطبيعية والفنون العصرية والقواعد الطبية يعيدون لنا سالف مجدنا القديم ، فيكون فيهم ابن موسى جديد يخترع آلات جديدة ، وطوسى آخر يكتشف كواكب ويحدد دوائرها ويضع كتبا فى علم الهيئة الحديثة وهكذا » .

« والذى نريده أن ينشأ أولادنا فى عالم من الحرية بعيدين عن المضار والأوهام الفاسدة والعادات السخيفة التى تحيط بهم من كل جانب » .

عليكم بالعلم ، فإذا شئتم أن تتعلموا وتستفيدوا فانسلخوا من كثير من عاداتكم القديمة وأخلاقكم الوخيمة ، واهتدوا بنور العلم فى طريق حياتكم التى تسيرون فيها :

« يجب علينا أن نشارك الأمم الغربية فى معارفهم وأن نزاحمهم فى مساعيهم بالمناكب والأقدام فى كل خطوة يخطونها لكسب علم أو اختراع عمل ، ولا منقذ لنا من براثن الفقر ومخالب الجهل إلا اقتطاف علومهم وإدخال مدنيتهم ليكون هناك شىء من التكافؤ بيننا وبينهم ، حيث لا حافظ لنا من الهلاك فى هذا المزدحم الشديد إلا التكافؤ » .

هذه أقوال من أقوال أصحابه وأتباعه الذين حملوا الراية بعده فى المؤتمر الهندى الإسلامى وكلها من روحه ومستمدة من تعاليمه (١) .

(١) انظر طائفة كبيرة من خطب المؤتمر نشرت فى جريدة المؤيد سنة ١٩٠١ وسنة ١٩٠٢

لقد ظل حياته يكافح فى سبيل المسلمين فى الهند كفاحا شديدا وهو صابر على رميه بأشنع التهم من كفر و إلحاد وفقدان وطنية ، وأنه آلة إنجليزية ، شجاع فى مقابلة كل مايقف فى سبيله يجتاحه اجتياحا ، يرى أن المسلمين مرضى لايشعرون بمرضهم إلا إذا ذاقوا طعم العافية ؛ فقراء لايشعرون بفقرهم وسوء مسكنهم وغذائهم إلا إذا أكلوا الطعام الهنى وناموا على الفراش الوثير فى المسكن الفسيح ، فعمل على أن يذوقوا العافية والغنى ليدركوا ما كانوا عليه من مرض وفقر ، وكذلك كان .

فقد رأى مسلمو الهند ناشئة جديدة عاقلة مفكرة مهذبة تصلح للحياة ، ورأوا كلية عليكره تنتج فى البلاد حركة فكرية بديعة ، وتؤلف الكتب القيمة فى أسلوب جديد قويم ؛ وأخذت الحياة تدب بين المسلمين بعد خمودها ، فآمنوا إذ ذاك بأن « السيد أحمد » مصدر نعمة و بركة ، لا كارثة ونقمة . وإن اختلفوا معه فى بعض آرائه .

ثم كانت له جولة إصلاح عظيمة فى اللغة الأردية ؛ لقد كانت هذه اللغة قبله كاللغة العربية فى عهد الظلام : عشق وغرام ومديح ، وأسلوب مزركش الظاهر فارغ الباطن ، فنقلها إلى آفاق واسعة ، وأصبح من موضوعاتها السياسية والاجتماع والأخلاق والدين والتاريخ والأدب فى أسلوب متين فيه القوة والسلاسة والصفا ، والسعة ، غزير بالمعنى ، خال من التصنع .

لقد بدأ « السيد » حياته فى اللغة الأردية شاعرا ، فكان شاعرا عاديا لم يلفت النظر إليه ، فلما اتجه إلى النثر ملك ناصيته وفتح فيه فتحا مبينا ، وبدأ ذلك فى جريدته التى أنشأها واسمها « سيد الأخبار » ؛ فلما أنشأ بعدُ جريدة « تهذيب الأخلاق » بلغ فى ذلك الغاية . وائتم به كثير من الكتاب وأصحاب الجرائد فعالجوا بهذه اللغة موضوعات لم تكن تعالج فيها من قبل ، و بذلك أخذ الأدب الأردى يشق طريقه إلى التقدم ؛ يقول هو فى ذلك :

« لم آل جهدا فى ترقية العلم والأدب باللغة الأردية على صفحات جرائدى المتواضعة ، واتخذت فى ذلك أسلوبا يجمع بين السهولة والجزالة لا تعقيد فيه ولا تكلف ، تجنبت فيه الألفاظ الرنانة ، والاستعارات والكنايات الوهمية التى تنحصر فى الشكل ولا تتصل بالقلب ، وجهدت فى تشويق القارئ إلى ما أكتب فيه ، ونقل مشاعرى وعواطفى إلى مشاعره وعواطفه » .

وتعددت موضوعات كتاباته فطرق كل موضوع ، وعالجه معالجة من يلقى عليه ضوءا كاملا لا يتركه حتى يكون واضحاً جليا فى جميع جوانبه .

ثم وجّه الناس إلى العناية بهذه اللغة وأدبها ، ونقل كثيرا من خير الآداب الأجنبية إليها . وكان له رأى فى الترجمة إلى اللغة الأردية بديع ، وهو عدم التقيد بالحرفية فى الترجمة ، و يرى أن هذا أسلوب واه ضعيف ؛ و إنما الواجب أخذ الأفكار وعرضها عرضا جديدا بطريقة تتفق وذوق الهنود وتلائم أفكارهم . ولم تكن اللغة الأردية تشتمل على مصطلحات علمية ، فجد فى صياغة اللغة صياغة تتناسب مع العلم ، ووضع ما استطاع من المصطلحات ؛ وسار على هذا النهج طلبته .

قال الأستاذ شبلى النعمانى — عالم الهند العظيم — : « طالما كان النزاع بينى و بين السيد أحمد شديداً فى آرائه الدينية ، وطالما فندت آراءه ، ومع هذا لا أنكر فضل أسلوبه العالى الذى استخدمه فى شرح أفكاره ، فكان أسلوبا رائعاً منقطع النظير ، مملوءاً بالفكاهة الحلوة ، والتنادر الظريف .

حدث مرة أن مولوى على بخش نقده نقداً مرا ، ثم ذهب إلى مكة بقصد الحج وأخذ فتوى من علماء مكة بتكفيره ، فكتب السيد أحمد فى « تهذيب الأخلاق » :

« ما أعجب الحادى ، قد جعل منى كافراً وجعل منه حاجا مؤمناً — إنى لفى شوق شديد لأن أرى فتواه ، إنه كما قال الأول : إذا خرب بيتى بيتُ الأوثان ،

قام على أنقاضه بيت الإيمان . إن الحادى كالأمطار ، تُخرِج أحسن الورود فى البستان ، وأخس الكلأ فى الوديان .

ولما صدر الأمر بإغلاق جريدة « تهذيب الأخلاق » كتب فى آخر عدد منها : طالما طرقت باب النيام ليستيقظوا ، فإن فعلوا فذلك ما أبغى ، وإن تخبطوا عند انتباههم وترنحوا يمنة ويسرة فمرحلة لا تستوجب الرضا ، ولكنها مع ذلك تستوجب الأمل فى يقظة المستقبل ، وليتها تكون .

وعند ما ترى الأم طفلها مريضاً تلح عليه أن يشرب الدواء المر ، وهو يلح دعينى يا أماه قليلا فسأشربه بنفسى .

وأنا كذلك سوف أطرق باب النيام دائما ليستيقظوا ، وسأصيح بالأطفال المراض اشربوا اشربوا حتى يتجرّعوا .

لا أكلّ ولا أملّ .

وظل كذلك يدق الباب ، ويلح فى شرب الدواء حتى أدرك الناس أخيراً جدا أنه قام بعمل جليـل فى لغة قومه وعقليتهم وتعليمهم وتربيتهم ، مهما عابوه فى بعض تعاليمه الدينية ، وبُعده عن التدخل فى السياسة القومية .

فلما زار البنجاب فى آخر حياته استقبل استقبال الملوك الظافرين ، والغزاة الفاتحين ، بل المصلحين الناجحين ، وأنساه نعيم الآخرة شقاء الأولى .

ولما بلغ الحادية والثمانين من العمر أسلم روحه لخالقه ، فبكاه الأوروبيون والهندوس والمسلمون على اختلاف عقائدهم وطبقاتهم ومذاهبهم السياسية والاجتماعية ، وأشد ما بكوه من أجله ، شجاعته التى لا تحد فى تنفيذ خطته ، وصراحته البالغة فى الجهر برأيه ، وعدم اعتداده بنقد الناقدين على اختلاف ألوانهم ، وإصراره على ألا يسمع إلا لصوت ضميره ؛ ينقد الإنجليز فى ترفعهم ، والمواطنين فى تخلفهم ، ورجال الدين فى جمودهم ، ورجال السياسة فى تخيلهم ،

على حد سواء، ويبكونه أكثر من ذلك لأنه مصلح عملى، لا يكتفى بالنظريات والمبادئ يثيرها، ثم يهدأ ضميره لأنه قد أدى واجبه، بل لا يزال يسعى ويكدح وراء مبادئه حتى يخرجها فى بناء وفى طلبة وفى معمل وفى مؤتمر وفى مجلة وفى درس، وهى ميزة ندر أن تكون فى المصلحين، ولذلك كانت نتيجته فى إصلاحه عملية كبيرة؛ فلو رأيت مسلمى الهند أيام سلفهم، ورأيتهم أيام تسلمهم لوجدتهم قد ارتفعوا درجات فى العلم، وفى الفكر، وفى الخلق، وفى اللغة، وفى الصلاحية للحياة؛ حتى لو قلنا إن تاريخ المسلمين فى الهند قد تحور واتخذ اتجاها جديداً فى حياته وبحياته لم نَعْدُ الصواب.

ثم نرى فى بعض المصلحين عيباً كبيراً؛ وهو أنهم لا يرتون من يحمل علمهم، ويكمل خطتهم، وكثيراً ما يكون سبب ذلك اعتدادهم بأنفسهم مع شخصيتهم القوية التى لا تسمح لشخصية عظيمة أخرى أن تظهر بجانبهم، فتلتف حولهم الشخصيات الضعيفة التى تتقن الملق والنفاق، وتغذى بأقوالها وأعمالها عظمتهم واعتدادهم بأنفسهم، وتنفر منهم الشخصيات القوية لأنها ترى فى نفسها نداً أو شبه ند، لأن كرامتها تأبى أن تنزل عن رأيها لرأيهم، أو تتصنع النفاق للقرب منهم، فإذا مات مثل هؤلاء مات إصلاحهم إلا من الرؤوس أو ثنايا كتب التاريخ — ولم يكن «السيد أحمد» من هذا الطراز، فهو قوى جبار فى اعتناقه آراءه ومبادئه والجهر بها والعمل عليها، ولكنه سمح النفس مع الناقد الشريف، باذر الحب للنفوس حوله حتى تنمو وتقوى، مشجع لأتباعه وتلاميذه أن يروا رأيهم، ويستعملوا حقهم فى صراحتهم، كما يستعمل حقه فى صراحته.

ولذلك كان حوله وبعده من يكمل خطته، ويسلك منهجه، ويحمل رايته، ويصلح ما أُخذ عليه من مثل سراج على، والسيد أمير على.

## ٣

# مدرسته

### سراج على :

كان من أهم مدرسة « السيد أحمد خان » وأصحابه المشاركين له فى العقلية ونوع الإصلاح وإن خالفوه فى بعض التفاصيل مولوى سراج على ، والسيد أمير على .

فأما « سراج على » فمن أهم مواقفه الدفاع عن الإسلام من ناحية خاصة غير الناحية التى عرض لها رينان والسيد جمال الدين ، وغير ما عرض له هانوتو والشيخ محمد عبده .

ذلك أن بعض الإنجليز فى الهند أثاروا مسألة هامة ومنهم مستر مَالْكُولْمْ مَكُّل Malcolm MacColl نشر فى مجلة Contemporary Review فى عدد أغسطس سنة ١٨٨١ مقالا بعنوان « هل الإصلاح ممكن تحت نظام الحكم الإسلامى ؟ » ذكر فيه أن الإسلام صلب جامد غير قابل للتغير ، ومبادئه القانونية والدينية والسياسية والاجتماعية مؤسسة على آراء ثابتة قاطعة محدودة لا تقبل زيادة ولا نقصا ، ولذلك ليس فيها من المرونة ما يجعلها صالحة لمواجهة الأحوال الطارئة ، ولا لتغير الظروف والبيئة المتجددة ، فالتشريع عندهم راكد ، ونظام الحكومة ثيوقراطى يديرها الخليفة أو السلطان نيابة عن الله ، إلى آخر ما قال شرحا لهذه النظرية ، التى تنتهى بأن الإصلاح فى ظل النظام الإسلامى غير ممكن ، وقد وافقه على هذا الرأى بعض من إنجليز الهند وكتبوا مؤيدين رأيه .

فانبرى « سراج على » لتفنيد هذا الرأى فى جرأة وصراحة قد لا يوافق

على بعض ما يقوله بعض المسلمين إذ فيه نزعة « السيد احمد » الجريئة ، فقال :

« إن الإسلام كما شرحه محمد رسول الله (ص) له من المرونة ما يمكّنه أن يعدِّل نفسه وفق التقدم السياسى والاجتماعى للعالم ، والتشريع الإسلامى كما جاء فى القرآن لا يمكن أن يقال فيه إنه غير قابل للتقدم .

« وكما كان اتساع الدولة الإسلامية بعد الرسول داعياً إلى وجود المجتهدين كأبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وغيرهم ، ليواجهوا مطالب الحياة الاجتماعية ، ويشرعوا لها تطبيقاً على الأصول الإسلامية ، فكذلك نحن الآن . فتغير الإقليم والأخلاق والمعاملات والتاريخ والحضارة فى الأقطار الإسلامية يجب أن يواجَه باجتهاد من جنس الاجتهاد السابق ، يراعى فيه ما حدث للمسلمين من تغير سياسى واجتماعى ، فليس التشريع منطقاً صرفا ، ولا نظريات محضة ، وإنما هو علم تجارب واستنتاج من الواقع ، فيجب أن تقابل ظروفنا ببحث واجتهاد فى حياتنا كما قابل أبو حنيفة والشافعى وغيرهما الحالة فى أزمانهم ، وليس ذلك مخالفاً لروح الدين فى شىء ؛ والمذاهب التى واجهت الماضى وكانت صالحة له لا يمكن أن تطبق بحذافيرها على العصر الحاضر من غير أن يدخلها التعديل الذى يقتضيه الحال .

وليس أحد من المجتهدين السابقين حتَّم طريقته فى الاستنتاج والاستنباط ، ولا قال إن كلمته هى الأخيرة ، بل إنهم — رحمهم الله — لم يوجبوا ذلك على معاصريهم ، فكيف يوجبونه على المستقبل مع تغير الظروف والأحوال والأوضاع ؟ ! إنما الذى قال ذلك بعدُ المقلدون الذين لم يكن لهم من صدق النظر وعمق التفكير والمعرفة بأحوال الزمان ما للمجتهدين ، وسلبوا أنفسهم حق الفكر ، ونادوا بعدم الاجتهاد . وجاء بعد ذلك بعض المستشرقين أمثال مستر سِلْ Sell فأخذوا أقوالهم بدعوى أن هذا هو الإسلام وهم فى ذلك مخطئون ، ولو رجعوا إلى المجتهدين أنفسهم ومصادر الدين الأولى ما وقعوا فى هذا الخطأ ؛ فهؤلاء الحنابلة أنفسهم قرروا وأكدوا أنه يجب أن يكون فى كل زمان

مجتهد لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله » ، ولأن الاجتهاد فرض كفاية فى كل عصر ، لأن الحوادث غير متناهية ، وهـذا أحد المتأخرين من علماء الهنود مولوى عبد العلى شارح كتاب « مُسَلَّم الثبوت » يقول : « إن من الناس من حكم بوجوب خلو ( العالم من مجتهد ) بعد العلامة النسفى ، وقالوا إن الاجتهاد المقيد ختم به ، والاجتهاد المطلق ختم بالأئمة الأربعة ، حتى أوجبوا تقليد واحد من هؤلاء الأئمة ، وهذا كله هوس من هوساتهم لم يأتوا فيه بدليل ، ولا يعبأ بكلامهم ، وإنما هم من الذين حكم الحديث بأنهم حكموا بغير علم فضلُّوا وأضلوا » .

واستمر سراج على فقال : إن أصول الأحكام فى الإسلام القرآن والسـنة والإجماع والقياس، أما القرآن فلم يقل إنه أتى ليعلِّم القوانين الاجتماعية والسياسية ولا القوانين المدنية فى شرح وتفصيل ، وما تعرض له منها كان لبيان فساد بعض العـادات العربية ، كـكثرة تعدد الزوجات ، وسهولة الطلاق والرق ، ومهاجمة الأخلاق الفاسدة التى تضر المجتمع ؛ وأكثر الأحكام التفصيلية التى استنتجها الفقهاء فى القانون المدنى والجنائى والسياسى إنما استنتجوها من ألفاظ مفردة ، وآيات وردت فى السياق ، ومع الأسف كان اعتمادهم على التمعن فى الألفاظ والجمل أكثر من اعتمادهم على روح الآيات — لقد ذكروا أن آيات الأحكام فى القرآن نحو من مائتى آية من ستة آلاف آية فى القرآن ، وأنا أعتقد أن نحو ثلاثة أرباع هاتين المائتين ، ترجع إلى تعسف فى الاستنتاج ، من اعتماد على لفظ أو إمعان زائد فى شرح . وعلى الجملة فالقرآن لم يتدخل — فى نظرى — فى الأمور السياسية ، ولا فى تفاصيل القوانين المدنية والجنائية ، إذ إنما يهمه التعاليم الدينية والقواعد العامة الأخلاقية ، ومن أجل هذا بدأ المتنورون من علمـاء المسلمين فى العالم الإسلامى — وخاصة فى تركيا والهند فى القرن التاسع عشر —

يعتقدون بحريتهم فى وضع النظم السياسية والاجتماعية والقانونية من غير أن يكونوا مخالفين للدين .

وأما الحديث فبحر واسع تعرض لموضوعات مختلفة اجتماعية وسياسية وقانونية جمعت كلها فى كتب الحديث .

ولكن فى الحق أن كثيرا من الصحابة لم يكونوا يرون جمع الحديث وتدوينه ، وإن كان بعضهم الآخر — وخصوصا فى الجيل التالى — قد حرص على جمعه . ونما الحديث نموا كبيرا وكثر الوضع فيه حتى أصبح بحرا لا ساحل له ، واشتمل على حق وباطل ، وحقائق وأساطير ، وأصبح كل مذهب فى العقائد وكل نظام سياسى واجتماعى يؤيَّد بالأحاديث الموضوعة ، كما توضع لخدمة غرض خليفة أو أمير ، واستخدم اسم الرسول (ص) فى تغطية السخافات واختراع الأباطيل وخدمة الاستبداد .

وجمع الحديث فى الكتب الستة جاء متأخرا فى القرن الثالث الهجرى ، ونقده وتمحيصه لم يكن مؤسسا على معقولية الحديث ، ولا على أحداث التاريخ ولا على امتحان صوابه ، إنما اقتصر على الرواة والسند وتلقِّى بعضهم من بعض ونحو ذلك من الأوضاع الشكلية .

فليس — إذن — من الحق أن نقرر أن الأحكام المستمدة من الحديث غير قابلة للتغيير والتعديل ، خصوصا إذا علمنا أن رسول الله (ص) نفسه لم يطلب من أصحابه تدوين حديثه الشفوى ، وأنه لم يتدخل فى النظم السياسية والقانونية ما لم تصطدم بروح الإسلام وتتعارض مع مبادئ الأخلاق .

وأما الإجماع — وهو اتفاق علماء الأمة فى العالم الإسلامى على أمر لم يرد فيه كتاب ولا سنة — فقد أنكره داود الظاهرى ومحيى الدين بن العربى وابن حبان وابن حزم ، وقيل أن أحمد بن حنبل أنكره إلا أن يكون إجماعاً للصحابة ، وأنكر مالك الإجماع إلا إجماع أهل المدينة ، كما أنكره النظَّام من المعتزلة الخ الخ

وقد اهتز هذا الأصل وتزعزع بكثرة من هاجمه من العلماء و بقولهم بعدم وقوعه وعدم إمكانه .

بقى القياس وهو فى الحقيقة ليس منبعا مستقلا لاعتماده على الكتاب والسنة والإجماع ، وقد أبنا رأينا فيما يعتمد عليه القياس ، فكيف يقال إن أحكامه غير قابلة للتغير ؟ !

ومع هذا فما وصل إليه علماء الفقه الإسلامى وواجهوا به تقدم الزمان يستدعى الإعجاب ، و بعضه صالح إلى الآن ، و بعضه يحتاج إلى إعادة النظر فيه وتعديله كبعض مسائل الزواج والطلاق ، كما تحتاج المسائل الاجتماعية والسياسية والقانونية إلى نظرة جديدة تتفق وتطور الزمن وتغير الظروف ، ويقوم بها المتأهلون للاجتهاد بجودة ثقافتهم وصحة نظرهم ومعرفتهم بزمانهم .

وليس فى تعاليم القرآن ومبادئ الرسول (ص) ما يمنع من الرقى الروحى ، وحرية التفكير فى وجوه الإصلاح والإبداع فى كل مرافق الحياة ، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو عقلية أو خلقية ، بل كل هذه النواحى من الإصلاح قد شجع عليها القرآن ، مثل قوله تعالى :

فبشرْ عباد الذين يستمعون القولَ فيتّبعون أحسنَهُ أولئك الذين هداهُمُ اللهُ وأولئك هُمْ أولو الألباب .

فاستبقوا الخيرات .

يُؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ و يأمرونَ بالمعروفِ و ينهَوْنَ عن المنكرِ و يسارعون فى الخيراتِ وأولئك من الصالحين .

ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير .

فهذه الآيات تحث العقل على التفكير فى الرقى فى مناحى الحياة المختلفة والإسراع إليه ، وقد شجع رسول الله على الاجتهاد و إعمال العقل عند ما قال معاذ

إن لم أجد كتابا ولا سنة أجتهد رأيى ؛ ولم يقف فى سبيل أى تغيير صالح ، ولم يشأ أن تكون الأحكام جامدة راكدة .

ثم عرض لما قاله المستر ملكولم من قوله إن الحكومة الإسلامية حكومة ثيوقراطية تخضع لقانون إلهى لا يتغير ، غاضة النظر عما حدث فى العالم من تغير فى القرون المتوالية ، واقفة فى وجه كل إصلاح يقتضيه الزمان .

فرد عليه بأن الحكومة الإسلامية ليست ثيوقراطية ، وقد كانت فى عهد الخلفاء الراشدين حكومة ديمقراطية مؤسسة على اختيار الخليفة ، ولم يكن فى أيامهم قانون دستورى مكتوب يحتم طريق السير على نظام خاص إلا ما توحيه أصول القرآن . ثم استعرض الأدوار التى مرت عليها الحكومات الإسلامية ونظم الحكم فيها ، وأبان خطأ الباحثين من مثل ملكولم من عدم تفرقتهم بين تعاليم القرآن وأقوال الفقهاء ، قائلا إن المسلمين يقدسون القرآن ، ولكن لا يقدسون أقوال الفقهاء ؛ وإذا رجعنا إلى القرآن لم نجد نصا واحدا يفرض نوعا من الحكومة خاصا ، بل إن رسول الله نفسه لم يشأ أن ينص على من يخلفه ، وترك ذلك المسلمين يرون ما فيه المصلحة لهم ، وليس فى تعاليم القرآن ما يمنع أن ينظر المسلمون فى نوع حكومتهم ونظامها حسب مقتضيات الزمان وتغير الظروف ، وكل ما يطالبهم به هو اتباع مبادئه الروحية والأخلاقية .

وختم هذا البحث بقوله إن الإسلام — متى فهمناه على أنه تعاليم القرآن ومبادئه الأساسية — دين قابل لكل تقدم ، فيه من المرونة ما يواجه بها التغيرات الاجتماعية والسياسية ، وفيه كل الحيوية التى تخدم التقدم السريع والمعقولية ، أما تعاليم الفقهاء فليست بالمعصومة ، وإذا كان فيها ما يدعو إلى الركود فلا علينا إذا نبذناها ، واسترشدنا بالقرآن نفسه .

وهكذا خصص « سراج على » جزءاً كبيراً من حياته فى الرد على ما ينشر فى المجلات والكتب بالإنجليزية فى المطاعن على الإسلام من هذا القبيل .

فكتب فى نظر الإسلام فى العلاقة بين المسلمين وأهل الأديان الأخرى ، وفى دار الإسلام ودار الحرب ، ومن رأيه أن هذا التقسيم ليس جامعاً ، وأن الهند ليست دار إسلام ولا دار حرب . وكتب فى الرق فى الإسلام وفى نظام الحرب ، ودافع عن تركيا المسلمة وضرر الامتيازات الأجنبية ومعاملة المسلمين للمسيحين والمسيحيين للمسلمين الخ ، مما يطول لو لخصنا رأيه فى كل ذلك[1] .

ولعل القارئ يدرك من هذا التلخيص تطرف «سراج على» فى بعض آرائه ، وخاصة ما يتعلق منها بطريقة استنباط التشريع من القرآن ومهاجمته للحديث ، ثم إن هذا الرأى فى جملته ينتهى إلى نتيجة خطيرة ، وهى حصر الدين فى القيادة الروحية ، والهداية الأخلاقية ، وإقامة الشعائر الدينية ، ثم بعد ذلك يكون عقل المشرعين حرا فى درس حياة الأمم وما وصل إليه التقدم القانونى والسياسى والاجتماعى ، والاستفادة والاقتباس منه حسب حاجات الزمان ومقتضيات الظروف ؛ وهذه صبغة تتجلى فى هذه المدرسة ، مدرسة السيد أحمد خان وسراج على والسيد أمير على ، ولهذا لم يوافقهم عليها كثير من المسلمين ، وإن وافقوهم وحمدوهم فى نواحى الإصلاح الأخرى ، كما حمدوا لهم غيرتهم الدينية ، ودفاعهم المجيد عن الإسلام ، وردهم هجمات كثير من كتاب الأوروبيين مما كان له أثر حميد عند المنصفين منهم ورجوعهم عن موقفهم .

***

## السيد أمير على :

أما « السيد أمير على » فمصلح عملى من جنس « السيد احمد » ، بل ربما كان أكثر منه تقديراً للحياة الواقعية ومواجهتها .

(١) نشر ذلك كله بالإنجليزية وليس لنا إلا أننا لخصناه وعربناه .

لقد قابل « السـيد أحمد » فى إنجلترا ، ثم قابله فى الهند ، وطالما تجادلا لاختلاف وجهة نظرهما فى إصلاح مسلمى الهند ، فالسيد أحمد يرى أن الإصلاح وسيلته التربية والتعليم فقط من غير انغماس فى أية ناحية من النواحى السياسية ؛ والسيد أمير على يرى أن التربية وسيلة صحيحة ، ولـكن لا بد بجانبها من علاج الشؤون السياسية للمسلمين فى الهند ، ووضع خطة لهـا إزاء خطة الهندوكيين ، وإلا ضاع المسلمون بجانب الهندوكيين ؛ لا بد من وضع غرض سياسى وتنظيم خطة وتحديد مطالب ورسم طرق السير ، والسيد أحمد يأبى ذلك ويقول لا شىء إلا التربية . ولهذا سار كل منهما على مبدئه ، فالسيد أمير على يؤسس سنة ١٨٧٨ « الجمعية الوطنية الإسلامية » للدفاع عن حقوق المسلمين وتحديد الوضع السياسى لهم ، ويدعو « السيد أحمد » للعمل معه فيأبى .

وأخيراً جدا ، وفى آخر حياة « السيد أحمد » يؤمن بصحة نظرية السيد أمير على ، بفضل حوادث الهندوكيين ، فيؤسس « جمعية الدفاع الإسلامية » .

يمتاز « السيد أمير على » بثقافته الغربية والشرقية الواسعة ، فقد تعلم العربية والفارسية ، ثم اتصل فى شبابه بأدباء الإنجليز فى الهند ، فدرس الآداب الإنجليزية دراسـة عميقة . لقد قرأ بإمعان أكثر روايات شكسبير ، والفردوس المفقودة لملتن ، وحفظ « شيلى » ، وقرأ لـكيتس ، وبيرون ، ومور ، وكل روايات ولتر سكوت ، وكتاب جيبون فى أسباب سقوط الدولة الرومانية إلى غير ذلك .

هذا إلى دراسته القانونية ، وحصوله على درجة جامعية فيها من الهند قبـل سفره إلى إنجلترا ، ثم ذهابه إلى إنجلترا عضو بعثة ، وثقافته الواسعة فيها ، ودراسته الأدبية والتاريخية لتغذية نفسه ؛ ثم كان له من بروز شخصيته ، ونبالة نفسه ، واعتداده بأنه شريف النسب تنتمى أسرته إلى النبى العربى ، ما جعله يظهر فى

الأوساط الإنجليزية ، ويؤكد صلات الصداقة بينه و بينهم ويتعرف الحياة الاجتماعية الإنجليزية أدق معرفة .

كل هذا مكَّن له فى شق طريقه إلى الإصلاح .

وكان حسن استعداده الأدبى ، ودراسته الآداب الإنجليزية فى سعة وعمق ، مما مكن له فى السيطرة على أسلوب إنجليزى أدبى ممتاز ، استخدمه فى نشر كتبه الإسلامية المملوءة حماسة وغيرة على الإسلام .

ففى أواخر سنى دراسته فى إنجلترا أصدر كتاباً عن « محمد وتعاليمه » كان له صدى بعيد فى الأوساط الأوربية والهندية . وقد قال عنه المستشرق أسبورن Osborn : « إن هذا الكتاب يستحق الإعجاب حقا ؛ وقد كتب بأسلوب يدل على ملك كاتبه لناصية اللغة الإنجليزية ، أسلوب قل من يستطيع أن يجاريه من الإنجليز المثقفين ، أسلوب خلا من العيوب التى وقع فيها مثقفو الهنود . . . ويجب أن يهنأ مسلمو الهند على أن يكون منهم من بلغ هذه الدرجة ، ومن المستحيل على من قرأ فاتحة أعماله هذا الكتاب ألا يكون له فى مستقبله أثر فعال عميق فى قومه ، أما موضوع الكتاب فإننا نخالفه فى كثير من مسائله . وسنعرض وجهة نظرنا ووجه خلافنا فيما بعد » .

واستعمل قلمه البليغ هذا فى كتابيه الكبيرين « مختصر تاريخ العرب » و « روح الإسلام » ، ففى الأول لخص تاريخ المسلمين ، وعنى بوصف حالتهم الاجتماعية فى أسلوب سهل جذاب ؛ وفى الثانى عُنى بوصف الدين الإسلامى ، وأبان أن تعاليمه تدعو إلى التطور والرقى المستمر ، ومقدمته من أبدع ما كتب عن الإسلام ، وقد أفرغ فيها — كما قال المؤلف — قلبه .

ثم كتبه المختصرة فى الدعوة إلى الإسلام .

ونشر هذه الكتب بالإنجليزية البليغة كان له أثر كبير لم يسبق إليه ، وهو

تعريف الأوروبيين بالإسلام ومحاسنه من مسلم متحمس ، إذ لم يكونوا يسمعون عن الإسلام إلا من مستشرقين .

ولما عاد إلى الهند خدم القضاء بمنصبه وتأليفه فى القانون الإسلامى، وخاصة فى الأحوال الشخصية ، مستعملا فيها مرونته العقلية ، متأثرا بمدرسته من أن له ولأمثاله الحق فى الاجتهاد فى الأحكام .

ثم قاد الحركة السياسية الإسلامية فى الهند ، ودافع عنها ولقى فى ذلك عناء شديدا ، وكان فى كثير من الأحيان يضطهد من المحافظين الإنجليز ، و إن كان يشجَّع من أحرارهم ، ويكره من الهندوكيين لا صطدامه معهم فى إصلاح المسلمين ، ويخاصَم من كثير من المسلمين أنفسهم لأنه متزوج إنجليزية ، ويتبع النمط الإنجليزى فى معيشته الخاصة .

ومع هذا سار فى طريقه فى الإصلاح والعمل ، يؤلف الجمعيات المختلفة لذلك ، و يقول فى بعضها : « إن غرضه ترقية الشعور الطيب بين الهنود على اختلاف طبقاتهم وعقائدهم ، وفى الوقت عينه حماية مصالح المسلمين ، وتبصيرهم السياسى بشؤونهم » .

هذه هى الدعوة التى كان يدعو إليها دائما ، يسالم الهندوكيين والإنجليز ما سالموه وما حفظوا حقوق المسلمين ، فإذا تعدَّى أحد عليهم دافع فى شدة و إخلاص ، فهو يقول فى إحدى خطبه : « إن المسلمين فى الهند لهم حقوق سياسية واضحة أمام الحكومة وأمام الهندوكيين ، فما لم تُجَبْ هذه المطالب أخشى أن تنقلب مطالبهم إلى عصبية حادة ، إن مطالبهم حقة ، وهم لا يطالبون غير ما فيه العدالة ، إنهم يطالبون بتمثيلهم السياسى تمثيلا يتفق وعددهم وأهميتهم وتاريخهم ، تمثيلا عادلا مؤديا لتمثيل الأكفاء . إن المسلمين يأبون أن يمتاز

عليهم الهندوكيون فى أى حق من الحقوق السياسية ، فإذا سوى بين الجميع فالمسلمون يرحبون بالإصلاح » .

واستعمل نفوذه وقلمه ولسانه فى إنهاض المسلمين لإدراكهم حقوقهم والمطالبة بها ، سواء منهم من كان فى الهند ، ومن كان فى إنجلترا — هذا من جهة — ومن جهة أخرى منازلته من أراد انتقاص حق المسلمين ؛ وكتاباته الكثيرة القوية لساسة الإنجليز فى الهند ، وكبار ساستهم فى إنجلترا ، ورده على الجرائد الإنجليزية كالتيمس وجازيت وغيرها . واستمر فى ذلك فى صراحة وجرأة حتى أبلغ يوما على لسان صديق له « أن حكومة الهند فقدت ثقتها به » .

ونشطت سياسته أيضاً فى مناصرة الدولة العثمانية بعد خروجها من الحرب الماضية مهزومة ، فطالب بالإبقاء على كيانها ، وحرك الرأى العام المسلم فى الهند لعطفهم عليها وتأييدهم لها ، وكتب فى ذلك وخطب ؛ وله موقف لاذع فى جمعية من الجمعيات ، إذ اقترح خطيب أن تكون الآستانة مدينة حرة ، وتكون مركزاً لعصبة الأمم ، فرد عليه فى بديهة حاضرة بقوله : إن فلسطين أولى بذلك ، لأنها « مدينة السلام فى الأرض » والدعوة إلى الخير العام للناس منذ نحو ألفى عام .

وإلى جانب حياته العلمية والسياسية النشيطة كان نشاطه فى إصلاح الحياة الاجتماعية لمسلمى الهند ، وأهم ما التفت إليه من الإصلاح دعوته لإصلاح الأوقاف فى الهند من مطالبته بالاستيلاء عليها من الحكومة ، وإصلاح وجوه الصرف فيها وتنظيمها ، وقد لاقى فى ذلك عناء شديداً ؛ ثم دعوته إلى إصلاح المرأة وتعليمها ؛ وقد رأس المؤتمر الإسلامى الذى أسسه السيد أحمد خان فى بعض

السنين بعد وفاة السيد أحمد ، وكان مما دعا إليه فيه هاتين الدعوتين ، قال فى مؤتمر سنة ١٩٠٠ : «إن بالأوقاف وخيراتها انتشرت العلوم ، وتقدمت المعارف ، وأدت وظيفة نافعة فى جميع الأقطار الإسلامية ، وكان لها نفع عظيم فى البلاد الهندية ، ولكن تغيرت الأحوال وخرجت أوقاف كثيرة من يد المسلمين إلى أيدى الغير ، وتلاعبت بها الأيدى . . . . ولهذا أدعو المسلمين إلى السعى فى هذا الموضوع ، طالباً من الحكومة أن تعنى بمسألة الأوقاف وإحاطتها بما يحفظها ، فهى نخر المسلمين وحصنهم الحصين تجاه الفقر والأيام العسيرة الخ .

وقال عن المرأة : « لقد أتى على المسلمين زمن كان النساء فيه يلقَّبن بأمهات الرجال » ، فهل يمكننا الآن أن ننعتهن بهذه الصفة ؟ كلا إنهن آلة فى أيدى الرجال يوجهونهن كيف شاءوا — وإذا كنا نريد أن نرتفع فى سلم المدنية والارتقاء ، وأردنا أن يحترمنا الناس ، فلا بد لنا من تربية بناتنا حتى يصلن إلى أن يكن « أمهات رجال » — إنى أعتقد أن تربية البنات يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع تربية البنين ، لأننا إذا أهملنا النصف المكون لحياتنا الاجتماعية ساءت النتيجة ؛ إذ ينفر الجزء المتعلم من الجزء الجاهل ، ويبعد عن مصاحبته ومعاشرته ما استطاع ، ويحاول أن يسير فى تيار لا يرضى الشرف ، أو ينحط بفكره ليعاشر ذلك الشريك المنحط فى حياته .

ولذلك أرى من اللازم الضرورى أن يسعى مسلمو الهند فى تعليم بناتهم من هذا الوقت ، وأن يضعوا أمام أعينهم النموذج الذى يسيرون عليه إلى الأمام » . الخ الخ .

ومن أنبل أعماله الأخيرة ما كان منه فى الحرب بين إيطاليا وتركيا والعرب فى طرابلس ، فقد علم أن جمعية الصليب الأحمر تعنى أكثر ما تعنى بالمجروحين من النصارى ، وليس من يقوم بجرحى المسلمين ، فسعى لتأليف جمعية تجمع المال من

الخيرين وتنظم وحدات علاجية لجرحى العرب والترك ، واستمر يكافح فى هذا العمل سنين ، وعندما سأله المشرف على فرق العلاج هل وظيفته فقط أن يعنى بجرحى المسلمين ؟ قال له : « إن وظيفتك الأولى أن تعنى بجرحى العرب والترك ، ولكن هذا لا يمنعك أن تمد يد المعونة لجرحى النصارى واليهود فى ساعات الضيق والحرج » .

وهكذا كان عمله وعمل جمعيته فى مساعدة الجرحى والبائسين فى حرب البلقان وفى الحرب العظمى الماضية .

***

لقد كان أهم ما يمتاز به السيد أمير على « الإخلاص للعقيدة » ، عقيدته فى دينه ، وعقيدته فى قومه ، وعقيدته فى وطنه ، ورأى أن مواهبه فى لسانه وفى قلمه فصقلهما صقلا بلغ بهما الغاية ، فهو فى لسانه خطيب بارع ، وفى قلمه بليغ ساحر ، فلما أن بلغ بهما هذا المبلغ وضعهما فى خدمة عقيدته ، يكتب عن الإسلام وعن محمد فتصل كتابته إلى كثير من الأوروبيين الذين لم يسمعوا عن الإسلام ومحمد إلا التافه من القول ، وتصل إلى مواطنيه فيرون معلومات مألوفة قد عرضت عرضاً جديداً حتى كأنها جديدة ، ويوم يصل إليهم كتابه عن « محمد » يسامحون من المدارس يوما احتفالا بهذا الكتاب واعترافا بحسن أثره .

ثم يستعمل لسانه وقلمه فى خدمة قومه من المسلمين فيحركهم ويجمع شملهم ويدفعهم لمطالبتهم بحقوقهم ، فيفقد بذلك كثيرا من المال كان يصح أن ينهال عليه ، ومن ألقاب الشرف كان يمكن أن ينالها بمركزه ومواهبه وجاهه ، ولكنه كان راضيا بما فى يده مع راحة الضمير ، وكارها طعم الغنى والألقاب مع عصيان الضمير ، وهو من تأليفه ودفاعه وإصلاحه وثمرة عمله فى غنى وشرف لا يساويهما أى غنى أو شرف .

لقد تقدم إلى قبره يوم مات كثير من أصدقائه من الأوروبيين والمواطنين يحملون أكاليل الزهر ، من بينها إكليل من جمعية كان يرعاها شبكت به بطاقة كان مكتوبا فيها :

« بجهد هذا الراقد كم طعم جائع ، وكسى عار ، وصح مريض ، وبفعاله كم اطمأن شارد ، وضمت أم طفلها إلى صدرها لولاه لهلك ، ووجد الفلاح اليائس الذى خربت الحرب أرضه ما أعاد إليه أمله ، وأسعفه بالمال يمهد أرضه ويبذر بذره ويستعيد بذلك رزقه » .

ولو استطعنا إكمال البطاقة لقلنا : « وبقلمه ولسانه كم حييت نفوس ، وتنبهت عقول ، واهتدى ضال ، وأصلح فاسد ، واستقام معوج ، واستردت للمسلمين حقوق ، وتعلمت بنات سعد بهن أزواج ، وسعدت بأبنائهن الأمة » .